الدكتور رءوف عبيد
المحـــامى بالنقض
سابقا وكيل كلية الحقوق بجامعة عين شمس
ورئيس قسم القانون الجنائى بها

الجديد فى

التكوين الروحى وأسرار السلوك

(بعد التحول من السيكولوجى إلى الباراسيكولوجى)

الجزء الثانى

« تمر العلوم الانسانية الآن بتحولات جذرية : ومنها علوم النفس ، والروح ، والنفس الجنائى ، والاجرام ، وفلسفة التشريع .... وموضوع هذا الكتاب هو شرح هذه التحولات وتأصيلها لأننا فى أشد الحاجة اليهـا لتطـوير علومنـا ، ولتخفيف آلامنا ، وكيما نعيش فى عصرنا مثلما يعيش غـيرنا » ....

١٩٨٢

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

الدكتور رءوف عبيد
المحامى بالنقض
سابقا وكيل كلية الحقوق بجامعة عين شمس
ورئيس قسم القانون الجنائى بها

الجديد فى

التكوين الروحى وأسرار السلوك

(بعد التحول من السيكولوجى إلى الباراسيكولوجى)

الجزء الثانى

« تمر العلوم الانسانية الآن بتحولات جذرية : ومنها علوم **النفس** ، والروح ، والنفس الجنائى ، والاجرام ، وفلسفة التشريع .... وموضوع هذا الكتاب هو شرح هذه التحولات وتأصيلها لأننا فى أشد الحاجة اليها لتطوير علومنا ، ولتخفيف آلامنا ، وكيما نعيش فى عصرنا مثلما يعيش غيرنا » ....

١٩٨٢

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

الجديد في

التكوين الروحي وأسرار السلوك

(بعد التحول من السيكولوجي إلى الباراسيكولوجي) ✡

* * *

مقدمة الجزء الثاني

تناولت في الجزء الأول من هذا الكتاب موضوعات خمسة كالآتي : —

الباب الأول : في موقف السيكولوجي من تفسير السلوك الانساني •

الباب الثاني : في ظهور الباراسيكولوجي وتطوره •

الباب الثالث في الباراسيكولوجي في طوره الراهن •

الباب الرابع : في التكوين الروحي بين السيكولوجي والباراسيكولوجي •

الباب الخامس : في العقل والفطرة والأحلام بين السيكولوجي والباراسيكولوجي •

* * *

أما هذا الجزء الثاني فان موضوعه هو تناول الأبواب الخمسة المتبقية التي سبق أن عينتها في مقدمة ذلك الجزء الأول وهي :

الباب السادس: في الارادة الانسانية بين السيكولوجي والباراسيكولوجي •

الباب السابع : في سلوك الشواذ بين السيكولوجي والباراسيكولوجي •

الباب الثامن : الباراسيكولوجي يقتحم مشكلة « العودة للتجسد » •

البـاب التـاسع بعض مشـكلات التطـور واللاشـعور فى ضـوء « العودة للتجسد » .

البـاب العـاشر : تساؤلات هامة أخرى تثيرها « العودة للتجسد » .

* * *

وسوف يدرك القارىء تماما أن الموضـوعات المطروحة للبحث فى أى من الجزئين — **الأول أو الثانى — مفرطة فى أهميتها ، وفى لزومهـا** لالقاء أضواء باهرة على شتى العلوم الطبيعية والانسانية ، خصوصا منها ما اتصل « **بالتكوين الروحى للانسان وأسرار سلوكه** » .

فمن المحال أن يخطو علم النفس خطوة واحدة صحيحة الى الأمام ما لم يضـع قدميه على طريق التطور الصحيح ، ويضـع أمامه حقائق هـذا التكوين الروحى المؤسسة على الاختبارات المعملية لا على تلك الفروض النظرية التى بليت تماما ، وثبت بهتانها لكل منقب جاد فى أسرار **السلوك الانسانى** .

واذا كانت رسالة علم النفس هى فى المقـام الأول محاولة تخفيف آلام بنى البشر ، ودرء متاعبهم وأمراضهم النفسية ، فان تحقيق هـذه الرسالة الجليلة يكون محالا مالم يصل العلم وصولا صحيحا الى تعيين المصادر الحقيقية لهـذه المتاعب والأمراض . فالتشخيص الخاطىء للداء النفسى أو العضوى نتيجته المحتومة علاج خاطىء ، وبالتالى مضاعفة آلام المريض ومتاعبه ومصادر بلواه ، بدلا من التغلب عليهـا تماما فى أحسن الفروض أو التخفيف منها فى أضعفها .

والنتيجة الطبيعية لذلك هى أن كل من يقاوم تقدم الباراسيكولوجى — وهم للأسف كثيرون خصوصا فى مجتمعات الاغلاق والتزمت — انما يجنى جناية بالغة على سـعادة الانسانية ، وعلى تلك الجهود النافعة التى تبذل الآن فى كل مكان لمحاولة تخفيف آلامهـا ومتاعبهـا الضخمة عن طريق تعـويض التخلف الذى عاق علم النفس بمفهومه التقليـدى على مدى

قرنين من الزمان بالأقل ، حين أخذت العلوم الطبيعية تقفز قفزا سريعا نحو الأمام .

ومن يقاوم تقدم الباراسيكولوجى لا يجنى فقط على تقدم علم النفس ، ولا يستزيد من آلام البشرية النفسية والعضوية فحسب ، بل انه أيضا يقوم بخدمة عظمى للالحاد ، ولاستشراء الفلسفة المادية للوجود التى تريد أن تسحق فى طريقها جميع القيم الرفيعة التى لا غنى عنها لازدهار الحياة ، وسموها ، واشراقها ....

ومن هذه القيم الحب ، والعبادة ، والاخاء الانسانى العام ، والايمان بدوام الحياة بعد الموت ، وبوجود نواميس أخلاقية طبيعية تحكم تسلسل الأحداث مثل التواضع ، والقناعة ، والوداعة ، والرحمة ، والعفة وضبط النفس ، والترفع عن الدنايا ، والتسامح ....

* * *

وكل أبواب هذا الكتاب — بجزئيه — تمس مسا مباشرا وقائع الروح ، كما تمس بنفس المقدار فلسفة الروح . وللروح دائما سحرها وجلالها وعمق مفرط فى أغوارها ، ولذا فلم أعتمد فى دراستى هذه على مراجع مشكوك فى قيمتها .

بل لقد كان همى الأول هو الاطلاع الكافى على مراجع الصف الأول التى أوفت هذه الموضوعات الجليلة حقها من العناية ، وارتفعت الى المستوى الذى قد لا يدانيه أى مستوى آخر ، حتى فى نطاق سائر العلوم الأخرى .

ولا ريب أن القارىء قد لمس بنفسه هذه الحقيقة فى صفحات الجزء الأول ، وسوف يلمسها أيضا بنفس المقدار فى صفحات هذا الجزء الثانى . وسوف يدرك تماما أنه لا توجد هنا أبدا نظريات مرتجلة ، ولا افتراضات مبتسرة لم تكبد أصحابها شيئا .

بل على العكس من ذلك توجد نتائج بالغة الخطورة ، مؤسسة على أبحاث معملية دامت لمدى العشرات من السنين ، مع اتباع أشد المناهج

العلمية صرامة ، وأكثرها رغبة فى الوصول الى حقائق الأمور ، فى حياد ، وفى تحفظ ، وفى مثابرة ، وفى تفان ....

وفى ذلك كله من الضمان ما فيه لاطمئنان العقل والوجدان الى صحة هذه النتائج . وهى لم تعد الآن أمورا خلافية ، بل أصبحت محض قضايا كلية ، وبغير حاجة للدخول فى التفصيلات والجزئيات التى قد تتراوح فيها الآراء تراوحا طبيعيا .

ولذا فليس من الصواب أن يتصور أى قارىء أننى أكتب دفاعا عن وجهات نظر شخصية لبعض العلماء أو المفكرين مهما علت مكانتهم . أو أننى نصبّت من نفسى مدافعا عن بعض آراء سطحية أو مبتسرة . بل على العكس من ذلك تماما لقد توخيت ـ بالاضافة الى الحرص فى اختيار المراجع ـ التدقيق الشديد فى اختيار الموضوعات والأسانيد وامتحان مدى ترابط المقدمات والنتائج ، ناهيك بترابط النتائج فيما بينها .

وهذه النتائج يجب أن تترابط ترابطا حتميا كوسيلة للتحقق من صحتها ، حتى ولو كانت تنتمى الى فرعين ـ أو أكثر ـ من فروع للمعرفة قد تبدو متباعدة ، لكن لا تباعد بينها فى التكوين الروحى للانسان بوصفه وحدة متكاملة . كما هى الحال مثلا فى نتائج السيكولوجيا ، والبيولوجيا ، والفسيولوجيا....فهى تنتمى الى فروع شتى من المعرفة ، لكنها بشأن هذا التكوين الروحى تنتمى الى أصل واحد اسمه «الانسان» فى أعمق جوانبه النفسية والعضوية .

وبعد ، هذه هى بعض المعانى التى رأيت أن أسجلها هنا قبل أن أبدأ فى تناول موضوعات هذا الجزء الثانى تباعا . وأرجو ألا يكون التوفيق قد خاننى فيها ، كما أرجو للقارىء أن يغفر لى كل ما قد يلاحظه من نواحٍ شتى للنقص أو للقصور ، أرجو أن يتداركها الآخرون ان عاجلا أو آجلا . وعلى الله قصد السبيل ...

رؤوف عبيد

الباب السادس

فى الإرادة الإنسانية
بين السيكولوجى والباراسيكولوجى

تمهيد

لا يوجد موضوع متشعب النطاق مثل موضوع الارادة الانسانية ، فهو متغلغل فى جميع نواحى البحث التى تفسر أو تحاول أن تفسر السلوك الانسانى تفسيرا صحيحا ، ولا يمكن تناول أية مشكلة من مشكلات هذا السلوك بدون تجاهل مشكلة الارادة التى تقع فى الأساس من دوافع هذا السلوك .

ولذا فقد عالجت موضوع الارادة الانسانية علاجا صريحا أو ضمنيا بين ثنايا الأبواب السابقة ، لأن هذه المعالجة كانت تفرض نفسها فرضا على موضوعاتها :

ـ فمثلا تعرضت لموضوع الارادة لماما عند الكلام فى الباب الأول عن « موقف السيكولوجى من أسرار السلوك الانسانى » وكان ذلك بوجه خاص عند تناول مشكلات الشعور واللاشعور خصوصا من زاوية مدرسة فرويد ، وتعليلها للغرائز ، ولوظيفة الأنا ، وموقفها من عوامل الاستجابات العصابية ....

ـ وعدت للتعرض من جديد الى موضوع الارادة عند الكلام فى الباب الرابع عن « التكوين الروحى بين السيكولوجى والباراسيكولوجى » خصوصا من زاوية الذات بوصفها مخزنا حافلا بالأسرار ، ومن زاوية الحقل البيولوجى فى الانسان ومراكز الطاقة فيه ، والجسد الهيولى أو الأثيرى وخواصه ... وكلها وثيقة صلة بالعقل وبالارادة .

ـــ وتنـــاولت فى الباب الخامس الذى عنوانه « العـــقل والفطرة والأحـــلام بين السيكولوجى والباراسيكولوجى » عـــدة موضـــوعات لا يمكن فصمها عن دراسة الارادة الانســـانية ، ومنها بوجـــه خاص موضوع العقل والتكوين الفطرى ، وما يستلزمه من الكلام فى الفطرة والتطور ، وتعليل التطور ، وصـــلته بالوراثة والاكتســـاب ، والفطرة والاحساس بالمجهول ، والعقل والأحلام ، والالهام ، وصلة هـــذا كله بالتكوين الروحى ـــ العقلى الذى يعمل عن طريق الارادة ، كما تعمل الارادة عن طريقه •

ولكن هذه المواضع السابقة التى اقتضت تناول الارادة الانسانية من بعض زواياها لا تغنى الآن عن تنـــــاول « الارادة الانســـانية بين السيكولوجى والباراسيكولوجى » بوصفها مشكلة قائمة بذاتها تقتضى الحملة عليها من عدة جوانب أخرى جديدة •

وهى تتميز عن الجوانب السابقة بأنها تتجه لمواجهة مشكلة الارادة مواجهة مباشرة بوصفها قضية قائمة بذاتها ينبغى أن تعالج علاجا خاصا بها ، من الناحية الأكاديمية الصرف ، حتى ولو كانت متداخلة من الناحية الواقعية فى كل جوانب السلوك الانسانى ، ســـواء ما سبق منهـــا فى الأبواب المـــاضية ، أم ما سيرد منها فى الأبواب اللاحقة كلهـــا ، وهى مخصصة للكلام فى أسرار سلوك الشـــواذ ، ولتناول مشكلات العودة للتجسد فى بعض جوانبها الأساسية •

والارادة الانسانية ـــ بوصفها قضـــية متميزة عن غيرها نظريا ـــ هى موضوع الباب الحالى الذى خصصته لمعالجة عدة مشكلات تنبع عن قضية أصلية واحدة وهى قضية الارادة • وهـــذه المشكلات خمس رأيت أن أفرد لكل واحدة منها فصلا خاصا على النحو الآتى : ـــ

الفصل الأول : فى مشكلة الارادة الانســـانية بين الفلســـفة النظرية والمنهج الوضعى •

الفصل الأول

مشكلة الارادة الانسانية
بين الفلسفة النظرية والمنهج الوضعى

عن أساليب معالجة مشكلة الارادة

هناك عدة أساليب للكلام فى الارادة الانسانية أو بالأدق عدة طرق فلسفية منها « الطريقة الدينية أو التيولوجية » ، ومنها « طريقة الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة » ومنها « الطريقة الوضعية » . وهذه الطرق الثلاث ينشأ عنها بحسب رأى أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨ – ١٨٥٧) العالم الرياضى ، والفيلسوف ، وامام المذهب الوضعى ثلاثة اتجاهات فلسفية أو مذاهب عامة ، ينفى كل اتجاه منها الآخر . والطريقة الأولى فى تقديره هى نقطة البدء اللازمة للعقل الانسانى . والثالثة هى حالة العقل الثابتة والنهائية . أما الطريقة الثانية فليست سوى توفيق وخطوة لابد منها للانتقال من الأسلوب الدينى أو اللاهوتى الى الأسلوب الوضعى الذى يعتبره أسمى الأساليب كلها فى البحث(١) .

ولا أريد أن أطيل الحديث فى هذا الشأن ، ولكن يكفى أن أقرر أن أوجست كونت رغم ولائه التام للمذهب الوضعى يعتقد أن الفلسفة التيولوجية هى وحدها التى استطاعت فى مبدأ الأمر أن تبعث فى ضعف الانسان الجاهل الاقدام والثقة بالنفس مما أيقظه من غفلته الأولى ، كما يعتقد أن تقدم الانسانية سيسوقها مستقبلا الى حال دينية قبل كل شىء آخر ، وخاضعة بالتالى لجوانب الاعتقاد الدينى عندما تشيد هذه

---

(١) دروس الفلسفة الوضعية لأوجست كونت جـ ١ ص ٣ .
Cours De Philosophie Positive.
ويعد هذا المؤلف من أحسن ما وجه التفكير العلمى فى أوروبا فى القرن التاسع عشر .

الجوانب على حقائق وضعية ، لا على نظريات لاهوتية ، أو على تصورات ميتافيزيقية .

ولم يكن أوجست كونت بالتالى عدوا للطريقة التيولوجية بقدر ما كان عدوا للطريقة الميتافيزيقية . فهو يعتقد أن الطريقة التيولوجية — ومثلها الوضعية — تسمح للعقل بتشييد فلسفة متناسقة منطقية ، حتى وان كانت الطريقة التيولوجية خيالية فى أسلوبها ، مطلقة فى تصوراتها ، تحكمية فى تطبيقاتها . أما الطريقة الوضعية فيحل فيها أسلوب الملاحظة التجريبية محل التصور وتحل الآراء النسبية محل الآراء المطلقة ، وهى لا تزعم أبدا أى سلطان لها — مهما كانت وسائله محدودة — على ظواهر الطبيعة ؛ بل ان سلطانها مستمد من سلطان ما تصل اليه من معلومات صحيحة(١) .

وهذا البيان الموجز عن أساليب البحث العلمى — وعن تطورها الطبيعى بحسب أوجست كونت — سقته هنا لكى أقرر أن هذا الأسلوب الوضعى فى البحث ينبغى اتباعه دائما بوصفه الأسلوب الوحيد الذى بمقدوره أن يصل الى حقائق يقينية ليس فى العلوم المادية فحسب ، بل أيضا فى تحديد علاقة الانسان بالكون تحديدا أقرب من غيره الى الصواب ، حتى وان كانت المعلومات الراهنة عن هذا الكون ضئيلة الى درجة مذهلة وذلك بالنسبة للكون المشهود الملموس الذى نعيش فيه ، فما بالك بالنسبة للكون غير المشهود ولا الملموس الذى تكشفت عنه تجارب وضعية دقيقة استمرت حوالى قرن وربع من الزمان ؟ وجاءت مؤيدة للاعتقادات التيولوجية الراسخة منذ القدم عن وجود ذلك العالم الآخر ، بوصفه امتدادا طبيعيا لهذا العالم المادى وأصلا له ؟ ! .

وقصارى ذلك كله هو أنه سيكون لحديثى فى هذا الموضوع الفلسفى — وهو موضوع الارادة الانسانية — طابع وضعى يكاد أن

(١) عن المرجع السابق جـ ٥ ص ٥٧٣ وما بعدها .

يكتسح أى طابع آخر ، حتى لا يتشعب بى نطاق البحث كثيرا ويذهب الى متاهات دينية وميتافيزيقية لا آخر لها • ولهذا الأسلوب الوضعى تبعاته الصارمة التى أولها أننى لا ينبغى أن أعتمد على التصور ، أو على الارتباط بآراء تيولوجية معينة بقدر ما أعتمد على أمور الحياة الأوليـة التى ليست أو تلك التى لا يصح أن تكون محل نقاش جدى من الحقائق الوضـعية •

* * *

وهنا لابد من وقفة عند اعتراض لابد أن يثار ، وهو كيف تزعم أنك تستند الى حقائق وضعية ، مع أن الأسلوب الوضـعى ينبغى أن يقصر بحثه على عالم التجربة والاختبار الواقعى ، بصرف النظر عن كل بحث بعيد عن هذا الواقع ، ومن باب أولى عن كل كلام فى عالم غـير مشهود ، وبوجه عام عن كلام فى الميتافيزياء ؟ !

لا ريب أن هذا الفهم للأسلوب الوضعى كان سائدا فى وقت ما ، ولا ريب أن أغلب أتبـاع أوجست كونت ومن بعـده هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ — ١٩٠٣) من فلاسفة المذهب الوضعى كانوا لا يسـلمون بوجود تداخل بين عالمين : عالم مادى وعالم روحى مزعوم • بل كانوا من دعاة القول بأن الروح مظهر للمادة أو من نتائجها ، وكان محور دراساتهم هو العالم المـادى بأسلوب علمى واقعى لا يتقبل تداخلا من أسلوب آخر كأسلوب « التيولوجيا » أو « الميتافيزياء » •

لكن هذا الفهم لا يمكن أن ينصرف الى الحقـائق التى تكشفت عنها الدراسات التى جرت ، والتى تجرى الآن ، تحت وصف « العـالم الروحى » • فهذه الدراسات وضعية صرف أقيمت على حقائق علمية . وذات طابع وضعى أقنع العلماء والباحثين فى كل مكان ، فلا تعتمد على شىء من أسلوب الافتراض النظرى أو التصـور الخيالى الذى يمقته أتباع كونت وسبنسر •

ففارق هائل مثلا بين بحوث هذا العلم — الحديث نسبيا — وبين المذاهب التى تهرب من قيود التفكير الواقعى الى متاهات فلسفية نظرية قد لا تربطها أية رابطة فيما بينها ، وقد تحمل أوصافا تيولوجية أو ميتافيزيقية شتى ، وكثيرا ما تحمل أوصافا روحية أيضا ، كتلك الحركة الرومانتيكية التى سادت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر كمقابل معارض لحركة التنوير العلمى التى قامت على أكتاف الأسلوب الوضعى التجريبى •

فالروحية العلمية الحديثة « حركة وضعية للتنوير الروحى » تعتمد — أول ما تعتمد — على نفس أساليب أوجست كونت وهربرت سبنسر فى البحث العلمى ، ولا تعتمد على أية أساليب رومانتيكية فى الافتراض أو التصور ، بصرف النظر عن النتائج التى قد تسفر عنها فى النهاية •

وليست اذا كل بحوث مادية أو وضعية هى بالضرورة بحوثا للانكار ، ولا كل فلسفة تبدأ بالشك تنتهى حتما الى الانكار • فثمة فلسفات كثيرة مادية ووضعية هى فى جوهرها فلسفات محايدة تريد أن تصل عن طريق النقاش المتحرر تماما من أغلال الايمان — بمعنى التسليم المطلق — الى اكتشاف حقائق الحياة اكتشافا موضوعيا متروى فيه ، وقد تصل عن طريق النقاش المتحرر الى ايمان أعمق من ايمان التسليم المطلق وربما أجدى منه كثيرا ، وأقرب الى حقائق الأمور •

وفعلا لقد نجح بعض أساليب التفكير المادى والوضعى المتحرر الى اكتشاف قدرة الله تعالى فى مواطن من الكشف لم تكن معروفة من قبل ، والى القاء أضواء هامة على حقائق كثيرة كان أسلوب التسليم المطلق كفيلا بالقضاء عليها • فهيهات للعقل اذا أن يدعى مفكرا الا اذا عرف سبيله أولا الى الشك والى الانكار • والا اذا سلم ابتداء بأن أسرار الوجود لا تقف عند حد فى عددها ولا فى خطورتها • وتستوى فى ذلك أسرار المادة مع أسرار النفس والعقل ، ولذا قال شوبنهور

Schopenhauer بحق انه « بقــدر ما يكون الانسان منحطا فى ذكائه بقدر ما تبدو له أسرار الوجود قليلة ، ويبدو له كل شيء حاملا بذاته تفسيره الخاص » • ومثل هذا الانسان لا يعرف بداهة شكا حقيقيا ، ولا انكارا أصيلا ، ولا أقرب اليه من التسليم المطلق بصحة كل ما يقرأ أو يسمع ، سواء فى نطاق العلم أم فى نطاق الاعتقاد •

عن دقة المشكلة ومشقة بحثها

وهذا الموضوع ــ موضوع الارادة الانسانية ــ يستحق دائمـا كل مشقة تبذل فيه ، من أية زاوية نظرت اليه ، ولا يصــح اذا فى أى زمن أو من أية ناحية أن يقال أنه قد استنفد امكانيات الحديث فيــه ، رغم كل ما كتب فيه حتى الآن • وفى هذا الشأن يقول وليــام جيمس « يشيع الآن بين الناس أن البحث حول مسائل الجبر والاختيار قــد أخرج كل ما فيه من عصارة من زمن بعيد ، ولم يبقَ للباحث الجــديد الا أن يوجد شيئا من الحرارة فى تلك المناقشات المــاضية التى لابد أن يكون قد سمعها كل انسان • ذلك خطأ بيِّن ، فلست أعرف موضوعا لم يبل البحث جدته مثل هذا الموضوع ، ولا موضوعا مثله تجــد فيه ملكة الاختراع أرضا خصبة لم تطرق بعد ، ولست أعنى بذلك طبعــا الوصول الى نتائج جديدة ، ولكننى أعنى أنه لايزال هناك فيه مكان خصب للتعمق فى معرفة حقيقــة الصراع بين المتخــاصمين ، وفى معرفة ما تتضمنه فكرة الجبر والاختيار •

ولقد رأينا فى السنوات الأخيرة ثورة فى الصحف تبرز فكرة الاختيار فى ثوب جديد كل الجــدة ، ونرى فى مؤلفــات رينوفييه ، وفــولى ، ودلبوف[1] ، كيف أن طريقة الجدل قــد تغيرت وأخذت شكلا جــديدا لم يعرف من قبل • دع عنك اتباع هيجل من الانجليز مثل جرين وبرادلى ، ودع عنك هنتون ، وهود جسون ، وهازارد هنا • ولســت أزعم أننى

(١) وأقوال آلان تشــارلس بيرس A. Ch Pierce اقرأ Monist ٩٣ — ١٨٩٢ •

سوف آتى بجديد أجارى به من ذكرت من الأساتذة ، ولكن تنحصر آمالى فى نقطة واحـدة . فاذا قدرت على أن أجعل لازمين من لوازم مذهب الجبر أكثر وضوحا من قبل فانى أكون قد هيأت لكم الفرصـة لتحكموا عليه حكما ناشئا عن فهم ما تريدون الحكم عليه . واذا فضلتم أن تظلوا فى شك فستكونون أيضا على بينة بموضوع شكوكم وترددكم .

لذلك أتنصل أول الأمـر من ادعاء البرهنة على أن مذهب الاختيار حق ، وكل ما أبغى هو استمالة بعضكم ليقلدنى فى افتراض أنه حق . وفى التصرف على افتراض أنه حق . واذا كان حقا فلابد أن تكون حقيته نتيجة لمنطق الحالة ، ولا يصـح أن تكون لزاما علينا أردنا أم لم نرد . وما دمنا لا نرى أنها لازمة فلا بد أن يكون الاختيـار بحيث يستحسنه هؤلاء الذين يمكنهم أن يهملوه ويرفضوه . وبعبارة أخرى أن أول مظهر للحرية اذا أننا أحرارا هو أن نكون أحرارا فى اعتقـادنا وفى تصرفاتنا ، وذلك يباعد بين مسـائل حرية الارادة ، وبين كل أمل فى برهان مفحم ملزم ، وسوف لا ألجأ الى ذلك النوع من البرهنة ... » .

ثم يقول جيمس « اذا كان هناك رأيان ، وكان أحدهما فى جملتـه أقرب الى العقل من الآخر ، فان لنـا أن نفترض أن القريب الى العقل منهما هو الأحق . وانى أرجو أن تكونوا جميعا راغبين فى افتراض هذين الفرضين معى . فاذا كان بينكم من لا يشاركنى فى هذا الافتراض فانه سوف لا يجنى ثمرة مما سأقوله بعد .

ولا يمكننى أن أقف لأبرهن على هذه النقطة ، لكننى أعتقد أن النتائج العظمى للعلوم الطبيعية ، وللرياضيات ، ولنظرياتنا حول التطور وحول الاطراد فى نواميس الطبيعة وما شـاكلها ، تنشـأ كلها عن رغبتنا التى لا تغالب فى أن تضع العـالم فى قالب أكثر ترتيبـا ومنطقا من القـالب الذى تصوره فيه تجاربنا الحسية . ولقد أظهر العـالم نفســه مطاوعا لنا فى هذا الى حد كبير ، ولكن ما مقدار ما يمكن أن نظهره من المطـاوعة بعد هذا ؟ لا يقدر أحد أن يجيب ، وليس لنـا من طريق للاكتشـاف

الا أن نحاول ... » (١) .

موقف بعض الفلاسفة

وكان الاعتقاد السائد عند عدد كبير من المفكرين خصوصا فى العصور الغابرة أن هناك تناقضا صريحا بين القول بالارادة الحرة والقول بالجبرية أو بالقدرية . وهو اعتقاد لا يتسع المقام الحالى لشرحه لأنه مخصص فحسب للحديث فى بعض الأضواء الباهرة التى ألقتها الأبحاث الحديثة فى الباراسيكولوجى ، وفى الطبيعيات على مشكلة الارادة الحرة أو المقيدة . ولكن تكفى الاشارة هنا الى أن هناك عددا من الفلاسفة منذ العصر الوسيط لاحظوا انتفاء التناقض بين القول بالتسيير بمقتضى نواميس الطبيعة والقول بتوافر قدر من الارادة الحرة .

والتسيير بمقتضى نواميس الطبيعة ، وهى لا تخرق أبدا ، والتخيير بمقتضى الارادة العاملة الحرة التى قد تعارض هذه النواميس ، قد يمثلان صورة من التناقض الظاهرى الذى لاحظه هيجل ، كما لاحظه من قبل بعض الفلاسفة الآخرين مثل كنط ، وفشته ، وشلنج فى نواميس الحياة. هذا التناقض الذى ينحل فى أمر جديد ، فهو تناقض حسى ولفظى فقط كالقول بأن المكان موجود وغير موجود ، المادة شيء وليست شيئا .

فهما موجودان فى مستوى معين للوجود غير موجودين فى مستوى آخر له ، لأنهما فى واقع الأمر متداخلان تماما فى حقائق الطبيعة حسبما وصلت اليه الفلسفة عن طريق الالهام من قدم ، ثم أثبتته الرياضة الحديثة ، وبخاصة نظرية النسبية فى اهتدائها للبعد الرابع الذى يندمج فيه الزمان مع المكان فى حقيقة كونية واحدة تمثل أسلوب الحياة الحقيقى (٢) .

---

(١) عن كتاب « العقل والدين » وهو السفر الثانى من « ارادة الاعتقاد » من تأليف وليام جيمس وترجمة محمود حب الله ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) للمزيد راجع ما ورد فى مؤلفنا فى «مفصل الانسان روح لا جسد» طبعة رابعة ١٩٧٦ . الجزء الثانى ص ٣٤٥ — ٣٥٤ .

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن احساسنا المنعزل بالمادة عن الفراغ ، مع أن المادة أصبحت تمثل الآن فراغا أثيريا ، والفراغ الأثيرى أصبح يمثل مادة حقيقية • ومثله يمكن أن يقال عن احساسنا المنعزل بالحركة عن السكون مع أنهما متداخلان معا ، وما يبدو لنا صلبا ساكنا كالمادة الصلبة متحرك فى حقيقته فى صورة أمواج أو اهتزازات •

* * *

فاجتماع الزمان بالمكان ، واجتماع المادة بالفراغ ، واجتماع السكون بالحركة ، كل ذلك لازم لنجاح الحياة تماما كاجتماع التسيير بالتخيير ، ولا محل للفصل بينهما فى نواميس الحياة ، ولا لأن تتصور أن بينهما تضاربا محتوما • فلا ينفى أيهما الآخر اذا بل يكمله ويتداخل فيه ، حتى وان ظهر لحواسنا القاصرة أن ثمة تضاربا بينهما فانقسم الفلاسفة بوجه عام الى مؤمن بالتخيير وآخر مؤمن بالتسيير ، وظهر لعدد منهم أنه لا محل لامكان التوفيق بينهما •

أما القول بالقدرية المطلقة أو بالجبرية ، فانه فضلا عن تعارضه مع وضوح دور الارادة فى الكثير من تصرفات الانسان وضوحا لا يحتاج الى كبير عناء فى استظهاره وفى اثباته ، مهما تفاوت الرأى فى مداه ، فهو يبدو مذهبا غير عادل ولا خلقى ، متعارضا تماما مع ما نلمسه من قيام الكون على نواميس عادلة خلقية (١) •

وينفيه أيضا بطريقة عملية — معملية — ما ثبت من أن العقل يمكنه أن يؤثر فى المادة تأثيرا مباشرا ، فمقتضى ذلك بالضرورة أن العقل أسمى من المادة ، فهو القوة الكامنة وراء المادة ، وهو مصدر الحركة والحرية • فهو اذن نشيط متطور ، بل هو العنصر الايجابى للحياة ، حين لا تمثل المادة الموات سوى عنصرها السلبى ، ولذا كان بمقدوره — عن طريق الارادة — أن يوجه أحداث المادة وما وراء المادة • وذلك يتفق

---

(١) للمزيد راجع المرجع السابق الجزء الثالث ض ٢٦٣ — ٣٠٨ •

تماما مع ما ثبت أيضا من أن المخ نتـاج للعقـل ، وليس العقل نتـاجا للمخ (١) .

فتيـارات عقولنـا كلهـا توجه اذا توجيهـا مباشرا عواطفنـا وانفعالاتنا ، كيما ترسـم لنـا خطوط أحداثنا فى حياة المـادة وما وراء المـادة ، ومشاعر العقل الكونى العام هى اذا بمثابة نواميس أزلية ترسم خطوط الحياة . أما مشاعرنا فهى قوى دافعة لأحداث حياتنا السـعيدة بقدر اتساقها مع هـذه النواميس الأزلية ، ولأحداث حياتنا الشقية بقدر انتفاء هذا الاتساق .

ومن ثم كانت المشاعر والأفكار هى أثمن ما تعرفه الطبيعة من حقائق الوجود ، ما دامت هى القوى المحركة لأحداث الحياة خيرها وشرها معا . وكان نقاء المشاعر والأفكار هو أثمن ما ينبغى أن يتطلع اليه أى تعليم خلقى يستحق هذا الاسم ، وأسمى ما ينبغى أن تصبو اليه الذات الانسانية فى كل زمان ومكان . فشعور السـلام يولد سـلاما فى النفس وخارجها ، وشعور البغضاء يولد حربا وشقاء النفس وخارجها ، أية كانت البواعث والأسباب . وفى كل ذلك ما ينفى مذهب التسيير المطلق ، ويعزز حرية الاختيار فى نطاق التقيد بالاتساق مع نواميس الحياة الأزلية ، التى تركت لنا حرية الزرع وعليه يتوقف — أيضا — نوع الحصاد .

* * *

وعندما أتحدث عن الطبيعة الروحية الحقة للانسان — وللحياة بوجه عام — كحقيقة وضعية فاننى أقدر جيدا كم يساوى هذا الوصف الخطير . وهو قد يمثل عند بعض القائلين مجرد قول لم يكبدهم عناء على الاطلاق ، أما عندى فهو يمثل خلاصة بحوث واصلها علماء وفلاسفة وضعيون كبار استمرت لمدة تتجاوز قرنا وربعا من الزمان تحت أشـد الأساليب الناقدة التى لا ترحم ، والمتحررة من كل قيد الا رغبة الارتباط بالحق وبالواقع

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول ص ٤٢٣ — ٤٣٩ .

فى أخطر ما يتصل بدراسة الذات الانسانية من أمور البقاء أو الفناء ، والتى انتهت الى التسليم بأزلية الوجود كحقيقة وضعية مقررة ، لا ينازع فيها الآن الا الجهال وأشباه العلماء •

على أنه مع الاقتناع بأزلية الوجود ، وببقاء الشخصية بعد الموت لا تبدو الحياة الحاضرة أكثر من حلقة واحدة فى سلسلة من وجود لا ينقطع • وبذلك تتسع دائرة حرية الاختيار الى مدى يكاد يبدو بلا حدود ، وتتراجع — ولو بعد حين — كثير من القيود الراهنة المتصلة بالبيئة ، والميراث ، وفى الجملة بظروف الزمان والمكان ، التى قد يتعذر تعليلها — عند التسليم بقانون ارتباط الأسباب بمسبباتها — الا عن طريق التسليم بهذه السلسلة المتصلة الحلقات من الوجود والتى قال فيها طاغور: « أليست الشمس عينها تطلع غدا لتغرب ، ثم يتجدد شروقها وغروبها على غير انقطاع وتبديل ؟ كذلك نحن نطلع ونغيب ولكننا أبدا باقون فى اللانهائية الشاملة كل الوجود » •

عن الارادة والتطور

ومن المتصور بسهولة أن يكون مبدأ التطور محايدا من الناحية الخلقية amoral • وهذا هو الناموس الذى يحكم الحياة قبل وصولها الى مستوى معين ، والذى يحكم مثلا تطور الحيوان والنبات • لكن ينبغى للتطور متى وصل الوعى الى مستوى معين من النماء والارتقاء أن يتخذ موقفا ما قد يكون خلقيا وقد يكون غير خلقى • أو بالأدق موقفا قد يغلب فيه فى الجملة أحد الاتجاهين على الآخر ، وهذه هى مرحلة الانسان وما قد يعلو الانسان من كائنات واعية •

والخيار بين أحد هذين الموقفين يمثل مدى حرية الاختيار التى تميز

الوعى الانسانى عن وعى الحيوان الأعجم (١) • وهنا لا تبرز حرية اختيار مطلقة ، فلو افترضنا أنه أمكن لأى كائن واع أن يختار لنفسه اتجاها مخالفا على طول الخط للأخلاق فان هذا الكائن لا يمكن أن يسير الى ما لا نهاية فى هذا الاتجاه • بل سيأتى وقت تنهار فيه حتما ارادة مقاومة النواميس الخلقية للحياة ، لكى يبدأ الكائن فى تغيير دفة أفكاره ومشاعره ، ولو ببطء شديد وبمشقة بالغة ، الى الاتجاه الآخر •

والموقف غير الخلقى ، مهما قصر مداه أو طال لا يرتب الشقاء الفورى المحتوم لصاحبه ، والا لما كان هناك أى قدر من حرية الاختيار عنده • بل يمكننا أن نتصور وعيا شرسا شريرا ، بل موغلا فى الشراسة والشر لكنه سعيد كل السعادة بحالته ، متصور فيها الانتصار الكامل لارادته الخاصة التى لا يمكن الا أن تبدو له راقية وخلقية ، ومبررة تماما فى جميع نوازعها وخلجاتها •

لكن هذه السعادة هى من النوع الزائف الذى لا يلبث أن يسقط عنه القناع لكى يتكشف عن كل صور الخيبة المرة التى تحمل صاحب الوعى على تقصى أسبابها الدفينة فى خلجات سلوكه الخاص • وهنا يبدأ الوعى يبحث عن سبيله الوعر الطويل الى السعادة الحقيقية — بعد الوهمية — عن طريق محاولة الاتساق مع بعض النواميس الخلقية للحياة التى تقع وراء كل تطور فى الطريق السوى •

ولايكون ذلك الا اذا بدأ الوعى يعرف كيف يحاول السيطرة على قوة الغريزة ، وهذا غير متصور الا اذا بلغ الوعى طور الانسان العاقل اليقظ الضمير الذى هو أسمى الكائنات الحية على مستوى المادة ، ولعله أدناها

---

(١) وهذا القول لايعنى بالضرورة نفى كل حاسة خلقية عند الحيوانات بوجه عام ، لأن لبعض الحيوانات ظلالا باهتة من هذه الحاسة ، كما أن لبعضها الهامات فطرية فى شئون الطعام والجنس ، وفى مواجهة الأخطار قد لا تخلو من احساس خلقى محكوم بسلطان الغريزة أكثر منه بسلطان العقل ، أو التقاليد الاجتماعية التى قد تلعب دورا ملحوظا فى توجيه الحاسة الخلقية عند الانسان .

على مستوى الروح • وهكذا تتراجع تدريجيا وفى بطء شـديد القيود التى ترد على حرية الاختيار من ناحية النواميس الخلقية للحياة •

ولكن تراجع بعض القيود التى تحـد من حرية الاختيـار تراجعا تدريجيا بمقدار نمو هـذه الارادة ليس معناه احتمال زوال هذه القيود بالكلية فى المستقبل • فهى قد تتسع دائرتها ، وقد تتخذ لهـا أوضـاعا متجددة تناسب الحياة فى أطوارها المتجددة • فالحياة تتطور مثلا بتطور الانسان من الطفولة الى الشباب ، ثم الى الرجولة ، فالشيخوخة وفى كل طور منها نجد أن حرية الاختيار عرضـة لأن تتسع فى جملتها ، أو لأن تضيق ، أو لأن تتسع من جانب وتضيق من آخر ، بحسب طبيعة القيود التى قد ترد عليها ، وبحسب مدى قوتها •

وهذه القيود مستمدة من سلطان نواميس الطبيعة التى قـد تغـير أوضاعها أو أشكالها ، أما زوالها كليـة فهو أمر غير متصور ، لأنه من غير المتصور أن توجد طبيعة بغير نواميس طبيعية ، كما أنه من غير المتصور أن توجد ارادة انسانية بغير وجود دائرة معينة لنشاطها ، أو أن توجد حواس بغير وجود مدركات تدركها هذه الحواس ، وسواء أكانت هـذه المدركات عقلية أم مادية •

فالطبيعة قد تغير شكلها لكنها لا يمكن أن تغير موضـوعها • ولهذا كانت النواميس المعروفة فى علم الفيزياء أو الكيمياء أو الفلك ••• ثابتة لا تتغير ، أما نواميسها غير المعروفة فمن المحال سبر كنهها لكن ليس من المحال القول بأنها موجودة ، وأنها لاتخالف النواميس المعروفة ، وأنها تعمل فى خدمة نفس الهـدف السـامى الذى تعمل فى خدمته النواميس المعروفة ، وأن لهـا بالتالى دورها كما أن للارادة الانسـانية دورها فى اطار هذه النواميس التى تحكم التطور خلقيا وبيولوجيا (١) •

---

(١) للمزيد راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٤٦٣ — ٤٧٦ •

ويستعرض جوستاف جيلى مدير « المعهد الدولى لما وراء الروح » بباريس نظريات التطــور مبينا كيف أن الأفكار التقليدية عاجــزة عن الوصول الى حقيقة أصل الأنواع ، أو عن تفسير أصل الغرائز .

فغرائز الحيوانات ــ كما نعلم ــ متعددة ورائعة ، ولها هذه الصفة المشتركة التى تسمح للحيوان بأن يتصرف تلقــائيا بلا تفكير منطقى ، بلا تردد ولا تخاذل ، الى أن يحقق هذفه المقصــود بيقين لا يمكن أن يدعيه لنفسه لا المنطق ، ولا التعليم ، ولا التدريب .

فبفضــل الغريزة يتصرف كل حيوان من فصــيلة معينة دائما طبقا لمواهب هذه الفصــيلة ، وأحيانا بطريقــة معقدة جدا بهدف الهجوم ، أو الدفاع ، أو الطعام ، أو التكاثر .

والغرائز الأساســية متماثلة عنــد جميع أفراد النوع الواحــد ، ولا تتغاير الا بمقدار تغاير هذا النوع ، وبصعوبة فهى تكوّن لهــذا النوع من الناحية الروحية احدى الخصائص الحاسمة بمثل تغير الخصائص الفيزيقية .

وبالتالى فكما أن تكون الأنواع لا يفسره الانتخاب الطبيعى أو تأثير البيئة ، فان أصل الغرائز لا يمكن تفسيره بهما .

وعند الحشرات بالذات يمكن للانسان أن يراقب عمل الغرائز فى كل نقائها . وقــد وضّح ذلك فابر Fabre ويلزم الرجوع الى أعماله لكى نتعرف على ما فى النشاط الغريزى من تركيب ومن تيقن ، بما يستحيل معه تفسيره بالأفكار التقليدية ...

والنظرية التقليدية فى التطور تفسر أصــل الغرائز قائلة ان الغرائز عبارة عن محض عادات اكتسبتها الكائنات تدريجيا ، ثم انتقلت اليها عن طريق الوراثة ....

لكن قد يصلح الاختيار الطبيعى (وهو افتراض داروين) كما قد يصلح الاستخدام المتكرر للغرائز (وهو افتراض لامارك) لتفسير تقوية هذه الغرائز ، وتدعيمها لكنه لا يصلح — بحسب فابر — لتفسير أصل هذه الغرائز نفسه •

ان أبحاث مارشال Marchal وبيخام Peckham وبيريز Perez وغالبية العلماء الطبيعيين تبـدو ميالة الى القول بأن الغرائز الأولى قابلة للتكامل وللتنوع بالأقل فى تفصيلاتها • لكن المشكلة الأساسية هى فى الوصول الى أصل الغرائز الأولى ، فهى مشكلة لا تزال باقية بلا حـل لأنه اذا صح أن نرجع الى العوامل التقليـدية ظهور الغرائز الثانوية ، أو بعض تغيرات فى الغرائز الأولى ، فان مصـدر هذه الغرائز الأولى من الصعب تعيينه بمقدار صعوبة تعيين أصل الأنواع •

فالعضو والغريزة ليس بمقدورهما أن يلعبا دورا نافعا بوصـفيهما عاملين للتكيف أو للاختيار الا بعد وصولهما الى درجة كافية من التطور والارتقاء • اذا فبالنسبة للغرائز وللأنواع — على حد سواء — لا يصلح التكيف مع البيئة ولا الاختيار الطبيعى مصدرا يفسر الخلق •

ومذهب لامارك فى التطور ، ومثله مذهب داروين ، يعتمـد على فكرة حـدوث تغيرات بطيئـة وصغيرة ، ولا تحصى لحدوث التكوين التدريجى للأنواع • وهذه الفكرة أصبحت عقيدة تعلو على مستوى كل نقاش • ولذا فعندما أعلن دى فرى de Vries مشاهدته لـما أطلق عليه وصف « تحولات » mutations ، أى ذلك الظهور المبـاغت لأنواع نباتية جديدة لا يبدو أنها مرت بفصائل سلالية خاصة بها كان ذلك عنـد الأشخاص المعنيين بالفلسفة الطبيعية مصدرا للاختلاط وللارتباك •

وفى كتاب لوداتتك Ledantec عن « أزمة التحولية » (١) نجده

---

(١) La Crise du Transformisme.

يقول « ان ثمة نظرية جـديدة مؤسسة على تجارب تحت المراقبة ظهرت منذ بضع سنوات ، ولها أنصار عديدون فى عالم العلوم الطبيعية • وهذه هى نظـرية التحولات ، أو التغيرات المبـاغتة ، التى تعتبر نفيا لمذهب لامارك ، بل تعتبر تقريبا حسبما أراه نفيا لمذهب التحولية نفسه » •

ثم يضيف لوداتتك قائلا « ان مذهب التحولية يمثل النظـام الذى يفسر الظهور التدريجى التلقائى للأعضاء الحية الرائعة المتناسقة ، التى تتمثل فى الانسان وفى الحيوانات العليا » •

وكل هذا يرفضه جيلى الذى يرى ــ على العكس من ذلك ــ أن الظهور التلقائى للكائنات الحية يمثل استحالة فلسفية • أما عن الظهور التدريجى لهذه الكائنات ، فلا تنكره أبدا نظرية التحولات • انما الآلية الافتراضية ، وانما القول بالتكوين المفترض للتحولات التدريجية ، هو الأمر الذى يتعارض تماما مع هذه الوقائع الجديدة •

وعندما يعمد لوداتتك ، والطبيعيون من مدرسـته ، الى تحـديد المذهب التحولى بعوامله التقليدية ، مع محاولة تضييق دائرة التحولات الى أضيق نطاق ممكن ، فهم الى حـد ما منطقيون مع أنفسهم • لكن ليس المذهب التطورى الصرف (أى ليس لمبدأ التطور فى ذاته) أن يخشى شـيئا من الكشـوف الجديدة ، بل على العكس من ذلك أنهـا تؤيده •••

ولذا يبدو جليا أن التحولات المبـاغتة هى القـاعدة فى التطور • وبالتالى فانه ليس الانتخـاب الطبيعى ، ولا تأثير البيئة فى الأعضـاء ، بمقدوره أن يفسر هذا الظهور المباغت لسلالات جديدة (من الكائنات أو من النباتات) • وبهذا سلّم لوداتتك عنـدما كتب قائلا ان التحول الذى يحدث أمام عينىّ عبارة عن قفل لا أملك له مفتاحا » (أى لا أملك له تعليلا) (١) •

* * *

(١) عن : Custave Geley : De L'inconscient au Conscient : P. 3 — 27.

واذا كانت نواميس التطور العضوى لاتزال سرا مغلقا ، فان تلك التى تحكم التطور الروحى مغلقة من باب أولى • وكثيرا ما يخرقها الانسان عندما يستخدم ارادته على نحو دون آخر فى نواحى سلوكه المختلفة • بل كثيرا ما تسود تقاليد ، وعادات ، وقيم اجتماعية تقع على النقيض منها تماما ، وتعتبر فى أصحابها معصومة أزلية • بل قد ترتبط فى تقديرهم بالاحساس بالمجهول ، وبالتعصب الوطنى ، وبما وراء الطبيعة أيضا •••

فكيف نعلل هذا التفاوت الضخم بين القيم المطلقة الأزلية ، أى بين الناموس الأخلاقى الطبيعى وبين قواعد السلوك التى قد تنتهجها آية جماعة كما تسلك مثلها كل جماعة فى أى زمان وأى مكان ؟ ! ••• وما يملكه روح الفرد من حريات وملكات يملك مثلها روح الجماعة ، لأن الفرد يحيا فى الجماعة ، والجماعة أيضا تحيا فى الفرد •

وكل منهما يخطىء على الدوام أخطاء جسيمة ويسيرة بسبب هذه الحرية ذاتها • ولا يشعر أيهما بأنه قد ارتكب خطأ ، بل لا يكاد يشعر حتى أنه كان حرا فى ارتكاب هذا الخطأ ، وأنه لم يكن محكوما تماما بنواميس مطلقة خارجة عن ارادته •

عن التطور الذى لحق مفهوم الارادة

وأسلوب المنهج الوضعى — بالأقل بالنسبة لمشكلة الارادة الانسانية — مشترك بين مدرسة فرويد ، وبين جميع مدارس الباراسيكولوجى ، لأن كل أسلوب منها يعتمد بحسب الأصل على حصيلة الوقائع العلمية التى تعرض عليه للفحص وللتحليل • وكل الفارق هو أن أسلوب الباراسيكولوجى أخذ يتصدى لفحص وقائع عديدة جديدة ولتحليلها ، كانت مجهولة تماما من أسلوب علم النفس التقليدى ، وبالتالى أخذ الباراسيكولوجى يرتاد مجاهل هامة كانت مهملة فى علم النفس التقليدى •

فعند رغبة المقارنة بين تلك النتائج التى انتهى اليها فرويد بالنسبة للارادة الانسانية ، وتلك التى انتهى اليها الباراسيكولوجى يمكن أن

يقال بوجه عام أن فرويد ، وان كان يسلم فى الجملة بمبدأ الارادة ، ولو بصيغة ما من صيغه العديدة ، الا أنه يضيّق من نطاق نشاط الارادة الى أبعد مدى بسبب نظرة فلسفته بوجه عام الى الانسان بوصفه محض آلة محكومة بقوة الغرائز ، وأولها غريزته الجنسية ، وملكاته الفطرية • وبالتالى بسبب اختزاله الانسان فى جانبه العقلى والروحى الى آلياته الكيميائية مثلما اختزله الأطباء العضويون الى آلياته العضوية •

أما فى الباراسيكولوجى فان التركيز على دور الارادة الانسانية فى انسلوك الانسانى يبدو أوضح وأقوى مما هو فى السيكولوجى • ويرجع ذلك الى عدة عوامل مجتمعة :

ـ منها ما وضح من دور التكوين الروحى ـ العقلى فى سلوك الانسان ، وقدرته على تحقيق انجازات عديدة بشأن صحته النفسية والعضوية • وهى انجازات لم يواجهها علم النفس التقليدى بالعناية التى تستحقها •

ـ ومنها ما وضح من قدرة العقل على التأثير المباشر فى المادة الصلبة Psycho - Kinesis ، وهذه القدرة الفريدة ثبت وجودها بتحقيقات عديدة سنشير الى بعضها فيما بعد • ووجودها من شأنه أن يدعم اتجاه القول بوجود قدر ايجابى من الارادة فى التكوين الروحى العقلى للانسان ، ويصح أن يعتبر وظيفة من وظائفه التى تهيمن على جانب هام من السلوك الواعى وغير الواعى لصاحبه •

ـ ومنها ما تبين من استقلال العقل ـ ومعه بعض صور النشاط الواعى الارادى ـ عن المخ • فلم يعد العقل من افرازات المخ كما سبق أن بينت ، وبالتالى لم تعد الارادة من نتاج المخ ، بل محض وظيفة من وظائف التكوين العقلى ـ الروحى للانسان • وهذا الاعتبار من شأنه أن يسبغ على مفهوم الارادة وعلى قدراتها أبعادا جديدة أوسع مما قيل فى الماضى •

ــ ومنها ما تبين من أن فطرة الانســان قابلة للتكيف عن طريق التطور ، والاكتساب • أى عن طريق بذل مجهود ارادى مؤلم من شأنه أن يؤدى الى توسيع نطاق هذه الارادة ، ولو بمشقة بالغة وعلى الأمد البعيد •

ــ ومنها أيضا توسيع دائرة اللاشعور ، وارجاعه الى تجســدات سابقة للوعى ، فان من شأن توسيع هذه الدائرة توسيع نطاق الارادة بنفس المقدار ، طالمــا كانت الارادة تتفاعل دائما مع مستوى النضج الشعورى واللاشعورى « للأنا » أو « للذات » •

لهذه الاعتبارات مجتمعة يبــدو أن مفهوم النشــاط الارادى فى الباراسيكولوجى ينبغى أن ينظر اليه على أنه أوسع مما هو عند فرويد، بغير أن نبــالغ فى التوسع ، أو نغــالى فى ضرورة مساءلة الانسان عن سلوكه بوجه عام • ذلك لأنه اذا كانت المعــارف العلمية الحديثــة قــد حسمت ــ فيما يبدو ــ مبدأ توافر الارادة ــ ولو الى حــد ما وعلى نحو ما ــ الا أنها قد كشفت عن العديد من العوامل الجديدة التى تبين أنها قد تنال من قدرات هذه الارادة نفسها منالا تاما أو جزئيا :ــ

ــ ومن هذه العوامل مثلا تلك الأمراض العقلية والعصــبية التى لا ينازع فيها الآن أى علم • وتعليل بعضها قــد سلطت عليه أضــواء جديدة فى اطار الباراسيكولوجى على ما سيرد فى الباب السابع عندما نعالج موضوع « المس الروحى » •

ــ ومنها أيضا دور تلك العوامل الوراثية والفطرية التى تنتمى الى قوانين لا شأن لارادة الانسان بها ، منهــا بوجه خاص قوانين الوراثة التى تلعب دورا لا شبهة فيه فى التكوين الفطرى للانسان ، بالأقل فى جانبه الجثمانى الذى يتفاعل دواما مع جانبه الروحى •

ــ ومنها أيضا دور العوامل الاجتماعية التى قد تحاصر الانســان

بالعديد من تلك الظروف التعيسة ، أو بالعديد من تلك القيم الفاسدة ، أو الضغوط البيئية ، التى تنال منالا محسوسا من قدراته الارادية ، وطاقاته الفطرية سواء أكانت موروثة أم مكتسبة •

ــ ومنها أيضا دور اللاشعور الذى يعمل عن غير طريق المخ ، وهو دوره أقوى وأوضح فى توجيه سلوك الانسان ، والتحكم فى سلوكه الارادى واللاارادى • وهذا اللاشعور سلم به فرويد وأعطاه قيمته المطلوبة فى توجيه ارادة الانسان ، لكنه لم ينجح فى تعليل مصدر اللاشعور ، وسبب انفصاله عن الشعور ، حين نجحت فى ذلك ــ ولو الى حد ما وعلى نحو ما ــ تحقيقات الباراسيكولوجى ، وألقت عليه أضواء جديدة تماما على العلم ، على ما سيتضح بأسانيده فى الأبواب الثلاثة الأخيرة التى تتناول مشكلة « العودة للتجسد » والتى أصبحت تمثل الآن أنجح السبل لمحاولة ارتياد بعض الأصقاع المجهولة من التكوين الروحى ــ العقلى للانسان ، وأسرار سلوكه •

وهذه الاعتبارات تشير ــ مجتمعة ــ الى صحة ماذكرته آنفا من أن مشكلة الارادة الانسانية تكاد تغطى بذاتها كل مشكلات السلوك الانسانى ، وأسراره الدفينة ، وتتطلب بذاتها تناول هذه المشكلات كلها ، على أن يكون التناول بالأساليب المتطورة للعلم الحديث ، وأعنى به « علم النفس الروحى » أو أن شئت « علم الروح النفسى » • أى علم الروح من زاوية اتصاله بالكشف عن بعض أغوار النفس الانسانية بأساليبه المتطورة ، التى لا ينازع فيها الآن أى مطلع على نتائجها الحديثة الوفيرة •

ويكفى هذا القدر الآن عن « مشكلة الارادة الانسانية بين الفلسفة النظرية والمنهج الوضعى » للانتقال الى الفصل التالى المخصص لتناول « صلة الارادة الانسانية بموضوع العقل » •

الفصل الثاني

في صلة الارادة الانسانية بموضوع العقل

تناولت في الباب الخامس تحت عنوان « العقل والفطرة والأحلام بين السيكولوجي والباراسيكولوجي » موضـــوع الصلة بين العقل والمخ ، والصلة بين العقل والفطرة ، والصلة بين العقل والأحــلام . وفي هـــذا الباب الحالي الذي خصصته للكلام في موضوع « الارادة الانســانية بين السيكولوجي والباراسيكولوجي » . يجمــل أن أتنــاول ـــ ولو بايجاز ـــ موضوع الصلة بين العقل والارادة الانسانية .

ولا ريب أن كل ما يتصل بكيان الانسان يمثل لغزا ضخما يستعصى على الرواد . فنشوئه لغز ، وميلاده لغز ، ونموه لغز ... لكن أعظـــم ألغازه كلها تكوينه العقلي وملكاته الروحية ... أليست الذاكرة لغـــزا في حد ذاتها ؟! هذه الذاكرة التي تختزن البلايين العديدة من الانطباعات المختلفة خلال الحياة الواحدة ، ومع ذلك بمقدورها أن تستعيد فورا أي انطباع منها عند الحاجة اليه ، بطريقة شعورية أحيا ولا شعورية أحــيانا أخــرى .

وحواس الانسان أيضا تمثل بدورها ألغازا لا تحصى : فالعــين تلتقط البلايين من اهتزازات اللون ، والضوء ، والشـــكل ، فتنقلها الى المخ فورا ، فيقوم بترجمتها ترجمة صحيحة ، وتصبح أنت صاحب رؤية صحيحة لمــا يجرى من حولك !! والأذن تقوم بدور مماثل ، والبشــرة تقوم بدور آخر ، واللسان يقوم بدور آخر .... ووراء كل هذا النشاط الهائل الذي يجرى بداخلك يوجد العقل ، ربيب الروح ونديمها الأزلي.

واذا كان عقل الانسان حصيلة تطور موغل في القدم ، فان حواسه الحالية مدينة بوجودها لهذا التطور نفســه ، بما في ذلك أنبل حواس

الانسان واسماها كلها وهى الحاسة الخلقية أى يقظة الضمير ونموه الاحساس بالمسئولية . هذا وقد بينت فى عدة مناسبات كيف آن أحدا لا يتازع الآن فى صحة ناموس التطور والارتقاء بوصفه مبدأ أساسيا من مبادىء الكون ، حتى وان تشعبت نظريات التطور الى أكثر من اتجاه عند محاولة تعليل التطور ، أو تعيين اتجاهاته وأهدافه .

وكذلك الحال عندما تناولت فى فصل من فصول الباب الرابع موضوع « التكوين الروحى للانسان بوجه عام » ، فان هذا التكوين الآن حقيقة موضوعية يعنى بها الباراسيكولوجى كل العناية ، وهو يتضمن بذاته توافر قدر ما من حرية الارادة فى سلوك الانسان يتجاوز بداهة القدر الذى يميز سلوك سائر الكائنات الحية الأخرى ، خصوصا من زاوية قدرة العقل الانسانى عندما يستخدم الارادة وهى احدى وظائفه للتأثير المباشر فى المادة .

فى الصلة بين العقل والمادة الصلبة

وتأثير العقل المباشر فى المادة الصلبة عقيدة قديمة قال بها بعض فلاسفة الاغريق كأمر ملازم للاعتقاد بوجود الروح ، وبخلودها فى عالم تخضع فيه المادة خضوعا مباشرا للعقل . وبعض المعجزات الواردة فى الكتب السماوية لا يمكن تفسيره الا بأنه يتضمن تطبيقات صريحة ومحددة لتأثير مباشر من عقل النبى أو الرسول فى المادة . بل أن هذا التأثير هو الذى يوضح كيف يمكن أن يكون خلق هذا الكون كله والمحافظة عليه بتأثير مباشر من العقل الأعظم ، هو الذى خلق المادة بمجرد الارادة ، وخلق معها ما هو أعظم منها بكثير وهو الحياة ذاتها ، وهو الذى يهيمن عليهما بالعقل وبالارادة .

وهذا التأثير الذى كان فيما مضى عبارة عن محض عقيدة فلسفية ودينية أصبح الآن حقيقة علمية بفضل دراسات تمت فى نطاق علم الروح الحديث ، وخارج نطاقه أى فى نطاق المادة الصرف . اذ تبين أن طبيعة

المـادة الصلبة فى النهاية ليست سوى أثير فى رتبة اهتزاز معينة ، وهذا الاهتزاز بحاجة الى مصدر دائم له هو العقل ، لذا قال الشاعر فيرجيـل منذ القدم أن العقل هو باعث المـادة ، فالعقل فى النهاية ينبغى أن يعد مصدرا للمـادة ، ولا تعد المـادة مصدرا للعقل .

وهذا الموضوع الدقيق ــ موضوع تأثير العقل فى المـادة الصلبة تأثيرا مباشرا (١) ــ له وثيق صلة بموضوع الظواهر الوساطية الفيزيقية ، التى تصبح غير مفهومة ولا مقبولة بغير محاولة تفهم هذا التأثير ابتداء ، وفى نفس الوقت قد ألقت دراسة هذه الظواهر منذ منتصف القرن الماضى حتى الآن بعض أضواء جديدة على صحة هذا التأثير ، وعلى بعض أبعاده، فلم يعد هذا التأثير مجرد عقيدة فلسفية ، أو حتى مجرد نظرية رياضية بقدر ما أصبح حقيقة معملية يمكن أن تخضع للحواس العادية ، وللتحقيق التجريبى المتصل ببحث أخطر الحقائق الكونية .

وقد عالج موضوع تأثير العقل فى المـادة الصلبة تأثيرا مباشر عدد كبير من الفلاسفة والعلماء ، ومن أفضلهم الفليسوف الارلندى فيما وراء الطبيعة الأسقف جورج بيركلى Berkeley عندما قرر « أن العالم المادى ليس سوى عالم مظهرى وليس لمـادته صفة الدوام ، كمـا أنه ليس له طاقة خاصة به ، وأنه ليس من شىء حقيقى سـوى الروح ، وأنه ليس للكائن الجسدى من مزية سوى أنه خاضـع للحواس » . كما قرر أن أن كل ما يلحق بنا من تغييرات محسوسة لا يأتى منـا ، بل ينبعث من

---

(١) يطلق أحيانا على هذا التأثير بالانكليزية تعبير Telekinesis وهو ينصرف أيضا ــ عند ارادة التخصيص ــ الى ظاهرة تحريك الأجسام الصلبة بدون ملامسة مادية . كما يطلق وصف آخر وهو Psycho - Kinesis بوصفه مرادفا للوصف الأول ولو أن هذا الوصف الأخير أدنى الى أن يشـير الى تأثير الروح ــ لا العقل ــ فى المـادة . ولكن بمـا أنه لا يمكن فصـل الروح عن العقل ، فان غالبية البحوث تستخدم أيا من التعبيرين محل الآخر ، خصوصا وأنه من الجائز اطلاق الأمر العام على الخـاص أو العكس . وتعبير Psycho — Kinesis أوسـع على أية حال ــ من تعبير Telekinesis .

الروح الأعظم ، وأن ظواهر الطبيعة ليست سوى أسلوب يخاطبنا به الاله ويهيمن به على ارادتنا • فالنتائج هى اذا موضوع العلوم الطبيعية ، أما الأسباب فهى موضوع الثيوصوفية • وأن العالم المادى لن يكون له وجود بعيدا عن عقل يسجل وجوده » •

كما يقول هذا الفيلسوف فى نفس هذا الاتجاه أيضا « ان السماء والأرض وما بينهما وما تنطويان عليه ، وفى كلمة واحدة ، ان جميع هذه الأجسام التى تكون هيكل العالم المادى لا وجود لها دون عقل ، وأن وجودها قائم فى ادراكها أو معرفتها » • وأنه « لا وجود للعلل بالمعنى الصحيح الا للعلل الروحية ، اذ ليس ثمة فاعلية حقة الا للروح » •

وفى كلمة كان بيركلى يعتقد أن « المادة لا وجود لها خارج العقل ، وأن وجودها قائم فى ادراكها ، وأنها تتكشف لنا بكل ما فيها أثناء عملية الادراك » • ومع ذلك يقرر أن هذه الأشياء موضوع الادراك لا يمكن أن تكون متوهمة أبدا ، ذلك لأنها قائمة فى العقل الالهى بشكل دائم ، وهى تستمد حقيقتها الدائمة من هذا الوجود المستمر فى العقل اللامتناهى » •

وبالتالى فان من رأيه أن ظواهر الطبيعة ليست الا مجموعة من الرموز والعلامات التى يوحى ظهورها بوجود ظواهر أخرى ، وهذا الايحاء لا يتم الا عن طريق الله تعالى ، فالله يتحدث الينا فى كل لحظة عن طريق الطبيعة ، ويعلن عن وجوده كلما بدرت منا التفاتة الى أية ظاهرة من ظواهر الكون ، ولكن لكثرة ما يتحدث الله الينا نعتقد أنه غير موجود ••

فالله عند بيركلى هو « العلة الحقيقية فى الادراك ، وهو الذى يتولى عرض الصور على العقل البشرى ، وهو الذى يحفظ للأشياء وجودها الواقعى • وهو فوق هذا كله دائم الحديث الى العقل الانسانى عن طريق الرموز التى يعرضها عليه من خلال الصور الحسية ، وعلى العقل البشرى أن يرهف السمع الى حديث الله ، وعليه أن يوالى قراءة

فكر الله فى الطبيعة ليطلع على آياته ... »(١) .

بل لقد تناول بيركلى الأثير وكأنه من علماء الفيزياء ، وراح قبل أن ينتصف القرن الثامن عشر يقرر « أن الهواء ينقسم الى قسمين : أحدهما أكثر ثقلا وغلظا من الآخر ، وهو الذى ينبعث من جميع الأجسام الواقعة على الكتلة الأرضية ، أما الآخر فهو روح لطيف رقيق ، وعن طريقه يرتفع الجزء الأول ويتحرك ويطير ويصبح لينا مرنا . وهذا الجزء من الهواء الخفيف وتلك الروح الرقيقة الطيارة المرنة هى الأثير . وراح يمجد من شأن هذا الأثير ، ويعلى من هذه الحرارة الأثيرية الشائعة فى أرجاء الكون حتى أضاف اليها شيئا من الفاعلية وأطلق عليها اسم العلة الأداتية The instrumental Cause »(٢) .

* * *

ومراجع العلم الحديث متجهة الآن الى أن الكون مكون كله من مادة واحدة ، هى الأثير فى درجات اهتزاز مختلفة تعطى خصائص جميع المواد الصلبة والسائلة والغازية والمشعة ، أى جميع العناصر المعروفة ، وقد أربى عددها على المائة ، فضلا عن العناصر غير المعروفة . وذلك يتفق تماما مع ما تذهب اليه الفيزياء الحديثة أيضا من نظريات — تلتقى كلها عند هذا المعنى وهو أن صلابة المادة قد تحطمت منذ اكتشاف نواة الذرة — ثم منذ تحطيم الذرة — وأصبحت عبارة عن أثير له درجات اهتزاز مختلفة تهتز بتأثير من قدرة عاقلة تعلو عن مستوى ادراكنا . وكان ذلك بفضل بحوث علماء كبار مثل أينشتين ، وهوايتهيد ، وادنجتون ، وجينز ، وكومبتون .

وهذا هو أيضا نفس ما ذهب اليه سير أوليفرلودج ، وكذلك بيير كورى ، وجوليو كورى — وقد كان الأخير مديرا للمركز الوطنى للبحوث العلمية فى فرنسا — من أن المادة واحدة تستعملها الروح .

(١) عن كتاب « باركلى » للدكتور يحيى هويدى . راجع بوجه خاص ص ٤٥ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٤ .
(٢) عن المرجع السابق ص ٧٣ .

ولذا فلا غرابة أن نجد أن أفضل علماء المـادة فى العصر الحـالى هم أقواهم اقتناعا بوجود عقل أعظم وراء المـادة وظواهر الحياة بوجه عام . كما نجدهم لا يترددون فى اعلان ايمانهم الثابت بوجود عالم غير منظور محكوم بنفس هذا العقل الأعظم تسكن فيه الأرواح ، كما تسكن الأجساد المـادية فى مستواها المـادى .

من ذلك نجد مثلا سير آرثر ستانلى ادنجتون A. S. Eddington (١٨٨٣ — ١٩٤٤) يؤكد فى مؤلفه عن « السبل الجديدة فى العلم »(١) وجود عالم الروح ، وبأن الكون كله « محكوم بقوة روحية » . « وأن العالم الفيزيقى يصبح محض افتراض مالم يتصل به وعى ، وأن العقل لن ينظر اليه بعد الآن باعتباره مجرد نتاج جانبى تطور عن طريق المادة» . كما قرر فى محاضرة له عن « العلم والعالم غير المنظور » أنه « لابد أن تعود روح الانسان الى العالم غير المنظور لأنها تخصه » وصور ادنجتون الكون كله فى صور فكرة منبعثة عن العقل الأعظم .

كما قرر سير جيمس جينز James Jeans (١٨٨٧ — ١٩٤٦) ، فى مؤلفه عن « الفيزياء والفلسفة »(٢) ، بأن « وراء الكون عقلا مدبرا حكيما هو العقل الأعظم . وأن هذا العالم المـادى بالنسبة لحواسنا هو عالم بالفكر المطلق » . وفى مؤلفه عن « الكون الخفى »(٣) يقرر أيضا « أن كل هذه الأجسام التى تكون الاطار الرهيب للكون ليس لها أى كيان بغير عقل » . كما يقول الفيلسوف الرياضى برتراند آرثر رسل B. A. W. Russell (سـنة ١٨٧١ — ١٩٧٠) ان « المـادة ما هى الا صيغة رياضية معقدة لحوادث تجرى فى الفضاء المطلق » .

ولقـد كانت كشوف الفيزياء الحـديثة هى التى دفعت عالمـا فى الروح مثـل جيمس آرثر فندلاى James Arthur Findlay مـدير

(١) New Pathways in Science.
(٢) Physics and Philosophy.
(٣) The Mysterious Universe.

« المعهد الدولى للبحث الروحى » بلندن الى أن يربط فى مؤلفاته الروحية بينها وبين معلومات الأرواح عن عالم الروح ، والى أن يقول فى أحدها : « وعلى ذلك يكون منطقيا قولك انه لا مادة حيث لا عقل ، وان الكون يمكن أن يختزل الى شىء واحد هو الذى نسميه العقل . ولكن هل نستطيع أن نتصور العقل بدون شىء يؤثر فيه هذا العقل ؟

انما نحن نقدر وجود العقل وهو يؤثر فى المادة ، فالعقل والمادة لابد وأن يكونا متلازمين على الرغم من تباينهما — اذ أن أحدهما ايجابى والآخر سلبى . وعلى ذلك فالاسم الذى أطلقناه على الشىء الذى يتكون منه الكون كله وهو المادة ، لابد وأن يتضمن هاتين الحالتين الايجابية والسلبية ويجب أن يكون مزدوجا فى طبيعته ، اذ أن الواحد لا يمكن تصوره بدون الآخر »(١) .

من تحقيقات جامعة ديوك بأمريكا

ولذا كان من ضمن وجوه البحث الرئيسية التى تقوم بها الهيئات العلمية بحث مدى تأثير الارادة تأثيرا مباشرا فى المادة . وقد ثبت هذا التأثير بطرق شتى وتحت صور مختلفة موضحة بأعمال هذه الهيئات ، والتى يضيق عن تفصيلاتها موضوع الفصل الحالى .

وتكفى الاشارة هنا الى أن جوزيف ب. راين J. B. Rhine عالم النفس المعاصر أثبت هو أيضا فى بحوثه بجامعة ديوك بالولايات المتحدة الأمريكية هذا التأثير وأجمل نتائجها فى مؤلفه عن « الوصول الى العقل » The Reach Of The Mind (أو امتداد أثره) . وقد ورد فيه ما معناه أن القوى العقلية يمكنها أن تؤثر فى المادة تأثيرا عمليا . وأن هذا التأثير العقلى فى المادة لا ينشأ عن قوة فيزيقية .

كما بين راين كيف أن ظاهرة تأثير العقل فى المادة متصلة وثيق الصلة بظاهرة الادراك عن غير طريق الحواس وأن الظاهرتين تتحدان

---

(١) « على حافة العالم الأثيرى » عن الترجمة العربية ، للأستاذ أحمد فهمى أبى الخير طبعة ٣ ص ٤٨ .

حسيا ومنطقيا : فعندما يجيء تفاعل للعقل مع المادة عن طريق الحس العادى يوصف بأنه ادراك عن غير طريق الحواس . أما عندما ينتج هذا التفاعل تغييرا حركيا فيما حوله من مادة بغير واسطة فيزيقية ، فانه يوصف بأنه حركة عقلية Psycho-Kinesis .

ومما قاله العلامة راين عن نتائج بحوثه فى جامعة ديوك فى هذا الشأن « واذن فللعقل قوة تستطيع التأثير فى المادة ، ومهما كانت الطاقة المحركة وأيا كان نشاطها فانها تعمل للمادة شيئا يمكن قياسه احصائيا وهى تحدث نتائج فى البيئة المادية لا يمكن تعليلها بأى عامل أو نوع من الطاقة معروف لعلم الطبيعة . وعلى أية حالا فلابد أن نفترض وجود الطاقة ... وان سجلات الطاقة المحركة تظهر أن زهر النرد « الطاولة » وهو ينحدر كانت تعمل فيه قوة فوق تلك القوى التى كانت تقذف به . واذن فلابد من وجود طاقة يمكن تحويلها الى نشاط مادى ، وهذه الطاقة هى الطاقة العقلية ، وهذه هى المرحلة الخامسة الكبرى فى طريقنا الى الهدف ، وهو حل مشكلة العلاقة بين الانسان والعالم المادى (اذا كانت أعمال قسم الباراسيكولوجى فى الجامعة مقسمة الى عدة مراحل شاقة قبل الوصول الى هذه النتيجة الخطيرة) .

ثم يقول عن تسلسل هذه المراحل : « كانت الأولى فى الخطوات هى النتيجة التى وصلنا اليها من أن العقول يمكن أن تتفاعل مع بعضها بدون تدخل أو وساطة مادية ، وكانت الثانية هى الادراك خارج الحواس للأشياء . ومنها ظهر أن العقل يمكن أن يدخل فى علاقة ادراكية عاملة بدون تدخل ما يعرف بالوسائل الحسية الحركية المعروفة . وكانت ثالثة الخطى هو ما وجد من أن هذه القدرة تستطيع أن تتخطى حواجز المكان ، وكذلك حواجز الزمان ، وهذه هى الخطوة الرابعة . وفى هذه الخطوة الخامسة يقوم الجهاز العقلى الخارج عن نطاق المادة بالرجوع الى الأشياء المادية محدثا فيها أثرا صغيرا ، لكنه شاذ وله مغزى فى الزهر المتدحرج بقوة كافية لأن تغير من وجهته بدرجة لا يمكن اكتشافها

الا بالطريقة الاحصائية الدقيقة ، ولكن يمكن الوثوق فيها لأنها تسمح بتجمع الأدلة القاطعة عن طريق باحثين مستقلين ... »(١) .

ثم يقرر بعدئذ « ولم يعد هناك شك فى أن الطاقة المحركة P. K. ليست مادية ، فليست هناك تجربة واحدة تعزز الرأى المادى ، بل هناك أدلة كثيرة تدحضه . والأدلة التى تثبت أن الطاقة المحركة لا تخضع للقوانين الآلية متنوعة الشكل مختلفة التناسق ، وأن خروج هذه الطاقة على هذه القوانين المادية الآلية ليس هو خروجا سطحيا بل هو يمس الصميم لأن العلاقات المادية التى امتحنت فى هذه التجارب هى الأسس لعلم الميكانيكا ، فاكتشاف الحقيقة وهى أنه لا الكتلة ولا العدد ولا الشكل لها فاعلية فى اختبارات هذه الطاقة يجعلها تأخذ مكانها بجانب اكتشاف أنه لا الزمان ولا المكان لهما فاعلية على الادراك خارج الحواس »(٢) .

ثم يقول « ونستطيع القول بأن اكتشاف الطاقة المحركة كشىء غير مادى يمثل الخطوة السادسة فى طريقنا الى فهم طبيعة الانسان الحقيقية فى الوجود ، وهذا الاكتشاف يتواءم بشكل لطيف مع الخطوات السابقة ، فان هذه الطاقة تكمل الادراك بالجلاء البصرى ... » (٣) .

ويقول أيضا « وليست الطاقة الروحية التى لابد من استنتاج وجودها لتفسير نتائج أبحاث الادراك خارج الحواس والطاقة المحركة هى اختصاص غريب شاذ منعزل ، بل يجب الاعتراف بأنها جزء حقيقى

---

(١) عن الترجمة العربية تحت عنوان « العقل وسطوته » للدكتور محمد الحلوجى ص ١٢٠ ، ١٢١ . وقد عبر المترجم عن تأثير العقل فى المادة الذى يرمز اليه المؤلف بحرفى P. K. وهما اختزال **Psycho-Kinesis** بتعبير الطاقة النفسية المحركة ، وادق منه تعبير الطاقة الروحية المحركة لأن Psycho تشير فى هذا الميدان الى الروح لا الى النفس .

(٢) المرجع السابق ص ١٣١ — ١٣٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٥ .

واقعى من الكيان الانسانى المتكامل ••• » (١) •

ثم يقول عن تأثير هذا الموضوع فى مشكلة بقاء الانسان بعد موت الجسد « وهناك صلة أخرى هامة بين الادراك خارج الحواس والطاقة المحركة والحياة بعد الموت • فان لم تكن هذه القدرات فى بنى البشر لكان من الصعب تصور امكان البقاء بعد الموت ، وبالتأكيد كان يستحيل اكتشافه ، فهو على علاته ظهور لنشاط غير مادى للعقل • والادراك الوحيد الممكن فى حالة فناء الجسد هو الخارج عن الحواس ، كما أن الطاقة المحركة ستكون هى الطريقة الوحيدة للتأثير فى أى جزء من العالم المادى • وحتى لكى يتصل عقل الانسان بعقل حى فلابد من احتمال تدخل هذه الطاقة المحركة • والتلباثى أو انتقال الأفكار تبدو أنها الطريقة الوحيدة للاتصال بين الأموات والأحياء أو بين بعضهم بعضا •• » (٢) •

ثم يقول عن البحث الروحى الصرف لتحقيق مشكلة اثبات البقاء بعد موت الجسد المادى « ان فى امكاننا أن نعمل الكثير لتبسيط وضبط الدراسات التجريبية للوساطة الروحية ، وهذه الدراسة المبدئية للطرق يمكن أن تبدأ دون ابطاء فى التخطيط القادم لرقعة الادراك خارج الحواس ، والطاقة المحركة • وأحسن خطة لمشكلة البقاء تتطلب الحملة عليها من عدة نواح • والمستكشفون لهذا الميدان يجب أن تكون لديهم الحرية فى العثور على أية ظاهرة تتصل بالبحث فى أى مكان كانت ••• وعلينا بالطبع أن نجمع التقارير من كل نوع عن هذه التجارب ، وأن نكون متيقظين لكل فذ عديم النظير منها خصوصا تلك التى توحى بصفة خاصة الى أعمال شخصيات فنيت أجسادها ••• » (٣) •

---

(١) عن المرجع السابق ص ١٧٥ •
(٢) عن المرجع السابق ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ •
(٣) عن المرجع السابق ص ٢٥٠ •

وهـــذا الكلام كتبه راين حوالى سنة ١٩٤٠ ، ويلاحظ فيه مدى التحفظ والاحتياط ، وهو مما يضاعف قيمة شهادته فيما بعد فى ســنة ١٩٥٠ لثبوت الحياة بعــد فناء الأجساد المــادية وللاتصال بأرواح من نسميهم خطأ بالموتى (١) .

طائفة من تحقيقات أخرى

وقد أجرى علماء كثيرون بحوثا عميقة لتحقيق هذه الظاهرة الهامة ، وهى ظاهرة مدى التأثير المباشر للارادة فى المــادة ، ومنها بوجه خاص البحوث التى جرت فى عدة بلاد على الوسيطة أسابيا بلادينو ، وقد تحدثت عنها فى « مفصل الانسان روح لاجسد » (٢) وعن غيرها من الوسطاء مثل جاك وبر (٣) ، ودانيل دانجلاس هوم (٤) . ومنها أيضا بحوث الدكتــور شرنك فون نوتزنج على الوسيطة ستانيسلافا Stanislawa التى شرحهــا فى مؤلفه عن « الظواهر الفيزيقية للوساطة » (٥) .

وقد خضعت نفس الوســيطة لبحوث « المعهــد الدولى لمــا وراء الروح » بباريس أيضا ، وقد سجلت الصور القاطعه لكل شك ارتفاع عدة أجسام صلبة فى حضورها بدون أية ملامسة لهــا ، ومنها ارتفــاع مقص ، وارتفاع مغناطيس ثقيل ، وعلبة ثقاب ..

* * *

ومن أحدث التحقيقات فى هذا الشــأن تلك التى أجراها أندريجا بوهاريتش Andrija Puharich وهو عالم أمريكى فى الباراسيكولوجى وفى الأعصاب على وسيط يدعى يورى جيللر Uri Geller .

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١٩٧ — ١٩٩ .
(٢) راجع ما ورد فى ص ٢٤٤ — ٢٥١ من « المفصل » جـ ١ .
(٣) راجع ما ورد فى ص ٢٦٠ — ٢٦٢ من المرجع السابق .
(٤) راجع ما سبق فى ص ٤٨٦ — ٤٩٠ من المرجع السابق .
(٥) Les Phenomènes De La Médiumnité.

ويورى بمقدوره أن يثنى الأجسام الصلبة ، مثل المسامير الضخمة وأدوات المائدة المختلفة بمجرد الارادة ، وبلا حاجة للمسها أحيانا ، أو بعد لمسها ، ثم يتركها مستقيمة كما كانت ، لكنها لا تلبث بعد عدة ثوان أن تنثنى تلقائيا بعد ابعادها عن متناول يده . كما أمكنه فى حالات عديدة أن يوقف الساعات أو يحركها بدون ملامسة ، وكذلك بعض الأجهزة والمؤشرات (١) .

وقد جرى تحقيق لهذه الملكة الغريبة عند يورى جيللر فى البلاد التى زارها : ومنها فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية حيث أخضعوه هناك لتحقيقات دقيقة فى سنة ١٩٧٣ بداخل « معهد ستانفورد للبحث » (٢) بمعرفة عالمين هما فرنهر فون براون Wernher Von Braun وجيرالد فينبرج Gerald Feinberg ، وفى حضور رائد الفضاء ادجار ميتشل Edgar Mitchell (٣) .

وفى هذاالمعهد الأخير ظل يورى خاضعا للتحقيق لمدة خمسة أسابيع، وتم تصوير فيلم سينمائى لكل ظواهره واختباراته ، وكذلك فيلم فيديو .

---

(١) راجع عن يورى جيللر ما سبق فى صفحة ١٠٢ — ١٠٣ والكتابين الآتيين : —

Andrija Puharich : Uri, the Man who Baffles the Scientists. London 1974.
Uri Geller : My Story. London 1975.

ولبوهاريتش كتابان آخران هما :

The Sacred Mushroom, Beyond Telepathy.

وللمزيد عن يورى جيللر ، وعن تأثير العقل فى المادة راجع كتاب « الاتصال بين عالمين » الطبعة العربية . القاهرة ١٩٨١ ص ٤٢ — ٤٤ ، ٣٤٤ — ٣٥٢ ، ٣٩٨ — ٣٩٩ .

(٢) Stanford Research Institute.

(٣) وسبب حضور ميتشل — رائد الفضاء — أنه وسيط للتخاطر ويورى جيللر بدوره وسيط قوى للتخاطر . وجرت بعض اختبارات متنوعة للتخاطر بينهما عندما كان ميتشل حاضرا فى تحقيقات هذا المعهد الأخير مع يورى .

وظهر منها أنه نجح فى ثنى ملاعق عديدة للمائدة ، وأيضـا فى ثنى أساور من النحاس القوى أعدت له خصيصا ، وكانت الأسورة منها تحتاج الى طاقة مقدارها مائة وخمسون رطلا لثنيها ، لكنها كانت تنثنى بمجرد وضعها حول معصمه •

كما نجح فى انقاص أو زيادة أوزان بعض السـلع الموضوعة على ميزان كهربائى بدون لمسها • وفى تحريك مؤشر متحرك على جهاز للقياس المغناطيسى (يشبه البوصلة) بمجرد الارادة وبدون ملامسة •

وهذه الطاقة الفريدة بحسب وصف يورى جيللر لا تسبب له أية سعادة • بل لا تسبب له أى شعور بالرضا أو بالسـخط ، ولا يعرف ما اذا كانت طيبة أم سيئة ، لأنها بمثابة « عقل الكترونى » لا يعرف هو شيئا عن ماهيته ، أو عن أسلوب عمله •

* * *

وممن بحث موضوع هذه الطاقة الغامضة جورج أوين George Ouen أسـتاذ علم الأجنة بجامعة كامبريدج وعضـو « جمعية البحث الروحى » بلندن ومدير « مؤسسة البحث فى الآفاق الجديدة » (١) بمدينة تورنتو بكندا •

ويتحدث أوين عن الصلة بين هـذه الظاهرة وظاهرة روحية أخرى تسمى ظاهرة الشغب المجهول المصدر Poltergeist ملاحظا أنه فى الغالبية العظمى من حالات الشغب المجهول المصدر تندلع الظواهر دفعة واحدة ، ثم تتراجع بعد بضعة أيام أو أسابيع • ونادرا ما تبدو من الشخص الذى تندلع عن طريقه طاقات روحية سواء أكانت من الطائفة العقليـة أم من نوع تأثير العقل فى المادة psychokinetic type وبالتالى فان ظواهر الشغب المجهول المصدر لا يتكرر حدوثها أبدا ـ فيما يظهر ـ فى نفس الأسرة •

---

(١) The New Horizons Research Foundation.

وكمثال لذلك فان السيدة ميخايلوفا Mikhailova ، وهى امرأة روسية شابة ، كانت مركزا لظواهر من الشغب العنيف المجهول المصدر ، التى منها تساقط الأدوات المنزلية من على أرفف مطبخها . وعنى ببحث حالتها البروفسور فاسيليف Vasiliev وهو عالم سوفيتى معروف فى الفسيولوجيا ، فاقترح عليها أن تحاول أن تدرب نفسها فتستخدم بطريقة شعورية طاقة تأثير العقل فى المادة P. K. Power .

ونجحت ميخايلوفا الى حد ما ، وأمكنها عن طريق التركيز العقلى أن تحرك بدون ملامسة بعض السلع الصغيرة المنتقاة . ومن ثم يبدو لى أن نسبة ضئيلة من الأشخاص الذين تحدث فى وجودهم ظواهر الشغب تملك بصفة دائمة امكانيات خاملة من هذه الطاقة . ويبدو لى بالتالى أن أولئك الأشخاص لديهم قابلية أكثر من غيرهم للانفعال ، خصوصا فى أوقات الضيق . وهى تجر لسبب غامض منا الى حدوث الظواهر المرتبطة بوجود طاقة لديهم من امكان تأثير العقل فى المادة .

وذلك رغم أنهم أشخاص عاديون فى شأن سائر ظواهر سلوكهم ، بل قد يظهر أنهم فى مجموعهم أفضل — على نحو ما — من الأشخاص العاديين ، وذلك فى متوسط ذكائهم وفى سلوكهم الذى يبدو بالأولى سلوكا طيبا . وهذه الطاقة الخاملة المستديمة لديهم تجعل منهم أشخاصا جديرين بالاهتمام ، لأن هذه الطاقة الخاصة بالتأثير المباشر للعقل فى المادة طاقة مذهلة حقا .

وقد فحص أوين هذه الظاهرة الغامضة المذهلة عند يورى جيللر ، كما فحصها عند غيره من الوسطاء . ومنهم ماثيوماننج Matthew Manning وهو شاب بريطانى كانت تحدث فى حضوره ظواهر من الشغب المجهول المصدر ، متنوعة ، وعديدة وعنيفة الى الحد الذى سبّب له ولأسرته طائفة من المتاعب الشديدة فى منزله وفى مدرسته ، والى المدى الذى اقتضى تداخل بعض العلماء منهم أوين لمحاولة ايجاد وسيلة ما لحمايته منها،

فضلا عن حماية أفراد أسرته وزملائه بالمدرسة الداخلية التى كان بها ماثيو ، والتى تقع بالقرب من جامعة كامبريدج .

وقد سرد ماثيو هـذه الظواهر الهامة فى مؤلف عنوانه « الاتصال بين عالمين » كما سرد العـديد من ظواهره الفريدة الثـابتة عن الكتابة التلقائية والرسم التلقائى . والتى تلقى عن طريقها عدة رسائل غريبة من عالم الغيب بلغات أجنبية لا يعرف منها حرفا ، كما تلقى لوحات رائعة من عدد من كبار الرسـامين المنتقلـين مع أنه لم يكن لديه أى ميل أو أية قدرة فنية خاصة فى الرسم (١) .

ويقول أوين بشأن ظاهرة تأثير العقل فى المـادة بالذات « اننى فى لقاء حديث مع السيد يورى جيللر روى لى أنه ميال لأن يقصر نفسه على محاولة احداث بعض نماذج فحسب من الظواهر مثل نظراته الى الساعات (بايقاف عقاربها أو تحريكها) ، ومثل قدرته على ثنى المعادن وتجزئتها (بمحض الارادة) . وأنه يعتقد أن ذلك بسبب أن هذه هى الظواهر التى كان يملكها فى شبابه . فكان لديه الايمان بامكان حدوثها ، ولذا كانت هذه الظواهر هى التى سعى الى تحقيقها .

وكان مما سبَّب ذهولى أيضـا أن ماثيـو مانـج Matthew Manning عنـدما ألهبه المثـال الذى رآه فى يورى ـــ نجح بدوره فى احداث نفس ظواهره عن ثنى المعادن بالارادة . ويلزمنى أن أقول بهذه المناسبة ان زوجتى قد تلقت حديثا جدا ما يعد بالنسـبة الينا دليلا مطلقا على صحة ظواهر ثنى المعادن كما تحدث فى حضور يورى .

---

(١) منهـم كيبل مارتن ، وتوماس بيويك ، وبول كلى ، والبرخت ديورر ، وهنرى ماتيس ، وايزاك أوليفر ، وبابلو بيكاسو ... وغيرهم . راجع نماذج عديدة من هذه اللوحات فى كتاب « الاتصـال بين عالمين » صـفحة ٢٣٩ ـــ ٢٦٣ ونموذجا من رسائله المذهلة فيمـا سبق فى ص ١٨٩ ـــ ١٩٥ .

فقد كان يوجد فى « كيس » نقودها مفتح لم يمسك به يورى ، بل حتى لم يره أبدا ، وفحصته لجنة من الشهود قبل وضعه فى « الكيس » • ومع ذلك اثنى المفتاح الى ٣٠ درجة عندما كان لا يزال فى « الكيس » • وكان يورى موجودا على مسافة خمسة وعشرين قدما بالأقل بعيدا عنا ••••

واذا تمكن ماثيو من مواصلة الجمع بين ممارسة ملكاته ، وبين اتباع نفس روح الاستقصاء التى أظهرها فعلا حتى الآن ، فان من الجائز أن نشاطه يقود الى تتائج عميقة وعلمية جديدة فى شأن هذه الأمور » (١) •

وتوجد — بالاضافة الى ما سبق — تتائج ايجابية أخرى عن تأثير العقل فى المادة فى أبحاث هاكون فوروالد Hacoon Forwald بجامعة ديوك ، وروبرت ثوليس Robert Thouless بجامعة كامبريدج ، و ر• ا• مكونل R. A. McConell بجامعة بتسبورج •

* * *

وهذه النتائج الايجابية الحاسمة لا تبهج العلماء بالمرة ، بل ان وجود هذه الطاقة الغامضة يثير عندهم أشد دواعى القلق ، اذ قد يؤدى الى حدوث كوارث قد تتجاوز فى أبعادها كل ما يمكن أن نتصوره منها فى وقتنا الراهن •

ومن ذلك مثلا أن بمقدور هذه الطاقة أن تخرب بعض الأجهزة والمعدات أو تفسد عملها ، خصوصا منها تلك الأجهزة الالكترونية الدقيقة، التى قد تتحكم فى سير غواصة أو باخرة ، أو طيران طائرة ، أو ادارة مصنع للقنابل النيوترونية أو النووية ، أو مفاعل ذرى ••• فلا حدود لما يمكن أن يتصوره العقل من أخطارها المحتملة خصوصا فى عصر الأجهزة الالكترونية والمفاعلات الذرية ، والاستخدامات الجديدة للتكنولوجيا المعاصرة •

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٣ — ٣٨٤ ، ٣٩٨ — ٣٩٩ •

ومن حسن الحظ أنها نادرة جـدا ، لكن ندرتها لا تنفى مخاطرها المحتملة عندما توجد ، وعندما يساء استخدامها • خصوصا وأن الوسيط صاحب هذه الطاقة لا قبل له بالتحكم فيها • وأنها فى حالات عديدة قـد تنشط على غير ارادته وعلى غير وعى منه • وقد تحدث آثارها بغير أن يتمكن من التحكم فيها ، لاهو ولا أى واحد من العلماء الدارسين •

ولكن درء أخطارها لا يكون بتجاهل وجودها عنـدما توجـد ، بل بدراستها عن قرب لعل وعسى أن يصل العلم يوما الى أسلوب فعال للحد من أخطارها المحتملة •

وثبوت وجود هذه الطاقة من شأنه أن يثير أيضا التساؤل عن صلتها بالاعتقاد الشائع فى بيئات عديدة عن تأثير الحسـد أو « نظرة العين » •• فهل يوجد هذا الحسـد حقا ؟ أم أنه وهم من أوهام الجماهير ؟ أم أن الجماهير تبالغ جدا فى تقدير دوره وتعطيه تطبيقات عديدة لا تنتمى اليه البتة بسبب تفشى روح الحقد والغيرة أحيانا بين أفرادها ؟ ناهيك بتفشى الأنانية أحيانا ، مع سوء الظن بالآخرين ؟ ! ان كل هـذه التسـاؤلات لا تزال مطروحة على بساط البحث لم يحسمها العـلم بعد ، ولا تتوقع أن يحسمها فى وقت قريب ، لأن للموضوع أوجها متعـددة ، وحسم القضايا العلميـة لا يجىء الا بمشـقة بالغة ، وبعد مضى وقت طويل ، واجراء اختبارات لا نهاية لها •

* * *

فمثلا لا ريب أن ظاهرة التأثير المباشر للعقل فى المـادة تثير تساؤلات عديدة مفرطة فى أهميتها عن دور الارادة الانسانية فى هذا التـأثير على التحكم فى نشاط ذرات المـادة ، على نحو أو آخر ، وكيف يحدث هذا التـأثير ، وما هى الظروف المؤاتية لحدوثه والظروف غير المؤاتية ، من ناحية نوع المـادة التى قد يحدث فيها هذا التأثير ، والمسافة التى قـد يحدث فيها • وما اذا كانت توجد مواد عازلة ضد هذا التأثير أم لاتوجد، وماهيتها ان وجدت ؟! ••••

ولكل هذا وثيق صـلة بموضـوع العلاج الروحى الذى تنـاولته فيمـا مضى (١) ، من زاوية قدرة التـأثير المباشر حتى فى وظائف بعض الأعضاء ، أو نشاط بعض الغدد ، أو تكاثر بعض الخلايا ، أو ابطاء موت الخلايا وهى خارج الجسم (٢) ...

ولذا لقى هذا الموضوع اهتماما خاصا فى « المؤتمر الدولى الخامس» الذى عقدته « جمعية البحث الروحى » (٣) بمناسـبة مرور مائة عام على انشائها . وقد عقد هذا المؤتمر بجامعة برستول Bristol فى الفترة من ١٠ ــ ١٢ أبريل سنة ١٩٨١ ونوقشت فيه عدة تقارير عن تأثير العقل فى المـادة فى أول اجتماع له (٤) .

تفاوت دور الارادة والعقـل

وهنا تساؤل لا بد أن يثار ، وهو أنه عند التسليم بتوافر أى قدر من الارادة الانسانية كمبدأ وضعى ، وفى نفس الوقت بسـائر الظروف المـادية والشخصية بوصفها عوامل محركة للسلوك الانسانى ــ وبالتالى مؤثرة فى صلة الانسـان بشتى ظواهر الوجود المحيطة به ــ هل يمكن توزيع المسئولية بين هذه وتلك بنسب عادلة محددة ؟ وهل ينبغى بالتالى أن تكون الغلبة لدور الارادة على هذه الظروف الخارجية عنها ، أم لهذه الأخيرة على دور الارادة ؟ .

ينبغى أن يلاحظ ابتـداء أن دور الارادة يتفاوت فى ذاته تفـاوتا

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٣١٥ ــ ٣٧٥ .

(٢) فمثلا تمكن الوسيط ماثيو مانتج بتأثير مبـاشر منه من ابطاء موت بعض الخلايا ــ وهى فى أنابيب اختبار ــ من خمس دقائق ــ وهى المدة العـادية ــ الى عشرين دقيقة . وجرت هـذه الاختبارات بجـامعة كاليفورنيا فى غضون سنة ١٩٧٥ .

(٣) Fifth International Society for Psychical Research Conference.

(٤) وقد قدمها كل من الأساتذة :

W. Byers Brown, J. B. Hasted, J. D. Isaacs, D. C. Scutt, F. Bersani.

ضخما بحسب قوة هـذه الارادة أو ضعفها ، والارادة تعمل بوحى من الادراك المكتسب والموروث ، وهذا يتفاوت بدوره تفاوتا كبيرا بين انسان وآخر • والادراك يعمل بوحى من الغرائز ، هذه تتفاوت بدورها بحسب مدى تطورها واتجاه هذا التطور ، وبحسب مدى تهذيبها واتجاه هـذا التهذيب • وقد تتحكم فى الغرائز الى مدى أو الى آخر القيم الخلقيـة والروحية ــ الخاطئة والصحيحة ــ التى قـد ترتبط بهـا الذات بحسب ارتباطها ، وتاريخها ، وميراثها بحسب ظروف الزمان والمكان •

واذا كان دور الارادة يتفاوت من انسـان الى آخر بسبب تدخل عوامل عديدة لا يمكن أن يحيـط بهـا الحصر ، فان دور الظـروف الاجتماعية المحركة لهذه الارادة ــ وهى تتفـاعل معهـا أبدا ــ يتفاوت كثيرا بين فرد وآخر مشتركين فى نفس الواقعة ، وبين واقعة وأخرى قد تصدران من نفس الفرد ، ومن باب أولى اذا تعددت الوقائع وأصحابها •

وهذا التفاوت يرجع الى التفاوت الضخم فى تطور الحاسة الخلقية بين انسان وآخر • ولعل هذه الحاسة هى المسئولة عن تطور الانسان ، ونموها ثمرة لسـير التطور فى الاتجاه الروحى الصـحيح من الناحيتين البيولوجية والخلقية •

وعن طريق هذه الحاسـة يمكن أن تحاول نوازع الارادة ــ رغم تباينها الشديد ــ الاتساق مع نواميس الحياة الروحية الخلقية على قدر طاقتها ، وعلى قدر ما يسمح به تفاعلها الدائب مع ظروف الزمان والمكان الداخلية والخارجية مجتمعة معـا • ولذا قلت فيما سـبق ان الارادة الانسانية ــ مهما كانت مقيدة بقيود ضخمة ــ الا أنها حقيقـة واقعـة لا تنفى تعدد العوامل المحركة للسلوك عن طريقها •

ومتى سـلمنا بوجود قدر ما من حرية الارادة فى التكوين الروحى العقلى للانسان تعين التسليم بوجود قدر مقابل له من حرية الاختيار ، وهذه الحقيقة لا تمثل ــ فيما نرى ــ مشكلة حقيقية ، انما المشـكلة

الحقيقية هى فى تعيين مدى حرية الاختيار ، أى فى تحديد حقيقة أبعادها ازاء نواميس الحياة الطبيعية التى تحدد للوعى الانسانى دائرة نشاطه الحر ، وبخاصة نواميس الروح ، والأخلاق ، والبيولوجيا •

وثمة حقيقة أولية لا يصح أن تكون محل نزاع ، وهى أن مدى حرية الارادة ليس واحدا عند جميع البشر ، بل يتفاوت تفاوتا ضخما من انسان الى آخر ، على عكس ما قيل فى بعض المدارس من أن هذه الحرية ليست مطلقة فحسب ، بل انها متساوية عند بنى البشر جميعا ! ! ومصدر تفاوتها هو تفاوت نمو الوعى الانسانى • فبقدر ما ينمو الوعى الانسانى — ومعه الوجدان — بقدر ما تتسع قدرة النشاط الارادى على العمل عن طريق القدرة على التنسيق بين شتى صور هذا النشاط وبين نواميس الحياة التى ترتبط به ، والتى ترسم له دائرة نفوذه • ومن ثم فان حرية الارادة تنتهى الى أن تكون نسبية ، وفى نفس الوقت متراوحة تراوحا كبيرا بين انسان وآخر ، شأن التراوح بينهما فى جميع الصفات والملكات، هذا التراوح الذى لا ينفى توافر هذه الصفات والملكات ، كما لا ينفى توافر الارادة الحرة •

والحديث فى هذا الشأن هو عن الارادة الحرة التى تتوافر لدى الانسان العاقل العادى ، أما الانسان الذى يفقد قواه العاقلة كليا أو جزئيا فهو يفقد — بنفس المقدار — قدرته على تنسيق بعض صور نشاطه الارادى مع نواميس الحياة العاقلة ، وهو ما يحدث فى بعض صور الجنون والعاهات العقلية •

وهذا القول يصدق على صور متنوعة من الجنون التى يفقد الفرد فيها قدرته على مقاومة بعض دوافع السلوك ، فلا يعود يتمتع بالنسبة لها بالارادة العادية التى يتمتع بها العقلاء • وهى الحالات التى يقال فيها انه لا يوجد فيها نقص فى العقل بل نقص فى الارادة ، وهى أصعب الحالات تشخيصا • وهذه الحالات المرضية الشاذة لا تنفى توافر حرية الارادة

لدى الانسان المدرك العادى ، بل انها أدعى لاثباتهـا عملا بقـاعدة أن الاستثناء يثبت القاعدة ولا ينفيها •

ولا ينفى حرية الارادة أيضا أن تكون قدرة الانسان المدرك العادى على الخطأ أقوى من قدرته على الصـواب ، بل لعل حرية الارادة ازاء نواميس الكون هى التى تسمح للانسـان المدرك العادى أن يخطىء الى أبعد حدود الخطأ ، وهو معتقد أنه على صواب الىأبعد حدود الصواب• وقدرة الخطأ قد تكون أدل من قدرة الصواب على توافر حرية الاختيار، عندما تتحدى هذه القدرة ناموسا صحيحا من نواميس الكون فى الجسد أو فى العقل ، التى تخاطبنا دواما عن غير وعى منا ، وتخاطبنا لمـاما عن طريق هذا الوعى •

تلازم دور الارادة والعقل

وعلى أية حال فوراء هذه الارادة الانسانية يكمن بطبيعـة الحال العقل ، أو الذات الواعية المفكرة ، وهذه الذات تمثل محور الدراسات الانسانية منذ القدم ، وعليها تدور الفلسفات تحاول عبثا تحديد ماهية هذه الذات ، ومدى ادراكها للوجود ، ولنفسها ، وتحديد مدى قدراتها الحقيقية فى الوعى وفى الاحساس ، ومدى قابليتها للفناء ، وطبيعة صلتها بالمخ وبالأعضاء المـادية •

ولم تتقدم الدراسات الوضعية عن العقل تقدما يذكر الا فى ضوء الدراسات الرياضية الحديثة عن الادراك عن غير طريق الحواس Extra Sensory Perception التى أثبتت عدم الارتباط المحتوم بين العقـل والمخ ، وبالتالى بين الاحساس وأدوات الحس المـادية • ومن ثم انتهت الى امكان استقلالها عنها — ولو الى حد ما — فى الزمان والمكان ، هذا ولو أن العقل لا يزال هو السر الأكبر فى هذا الوجود •

ولا أريد هنا أن أناقش أية نظرية تنازع فى وجود العقل الانسانى

ـ أو فى جدواه ـ مثلما فعل نيتشه مثلا (١) فان وجود هذا العقل ـ وجدواه ـ حقيقة وضعية لا تثير جدالا • ولعلها أكثر الحقائق الحيوية ثبوتا • فمحاولة الاثبات هنا جهد ضائع كمحاولة اثبات وجود الشمس أو القمر ، والغيم أو المطر • وفى نفس الوقت لا أجد حاجة لنوقوف عند الدراسات الفلسفية الكثيرة العميقة عن العقل من ناحية صلته بظواهر الحياة لخروج ذلك كله عن نطاق المؤلف الحالى •

وانما يكفى التسليم هنا بأن للانسان عقلا مدركا شاعرا، وعقلا ناميا متطورا ، لا حد لامكانيات نموه وتطوره مما دعا وليام جيمس الى انقول بأنه «ليخيل لنا أن الغرض من خلقنا ليس الا اثراء قوانا الادراكية بأنواع الشعور الخلقى ، بواسطة ذلك التقابل الحاد بين الصفات الانسانية والاختلاف العظيم فيها ، وذلك يضطر بعضا منا لأن يكون آلة تعبث بها شهوة الغضب ، ويستدعى من آخرين أن يكونوا مظهرا من مظاهر الشرف » (٢) •

وكلمة العقل هنا تنصرف الى العقل الانسانى بشطريه الواعى وغير الواعى ، وهذا الأخير يمكن أن ينقسم الى عنصرين آخرين : أسفل وأسمى فالعقل الانسانى يمثل فى النهاية وحدة لا تتجزأ فى التعبير عن الذات أو الشخصية الانسانية • ومصير الانسان اذا متوقف على موقف هذه الذات من النواميس الكونية للحياة ، وعلى مقدار قدرتها على تنسيق سلوكها مع هذه النواميس •

ومن المتعذر تماما أن نقول فى هذا الصدد ان الغلبة ينبغى أن تكون للعقل الباطن على الواعى ، أو للعقل الأسمى على الأسفل فى تقرير مصير الانسان ، وفى تفسير فرص السعادة أو الشقاء التى قد يمر بها •

---

(١) راجع مؤلفنا فى « التسيير والتخيير بين الفلسفة العامة وفلسفة القانون » طبعة ثانية ١٩٧٦ . ص ٧١ — ٧٨ .

(٢) عن « العقل والدين » تأليف وليام جيمس . ترجمة محمود حب الله طبعة ١٩٤٩ ص ١٣٢ .

فان أوصاف العقل الواعى والباطن ، والأسمى والأسفل ، تمثل أوصافا متداخلة لزوايا متعددة من حقيقة مترابطة واحدة ، وهى العقل الانسانى بكافة عناصره وأوصافه . واذا كان علم النفس يعطى قيمة خاصة للعقل الباطن فى شتى نوازعه واتجاهاته فليس مقتضى ذلك مطلقا استبعاد دور العقل الواعى ، بل مقتضاه فحسب هو استبعاد دور الصدفة العمياء ، التى لا منطق فيها ولا ضابط لها .

* * *

ولا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا أبدا أن الشعور أو الانفعال وظيفة من وظائف الوعى متميزة عن التفكير أو الاستدلال المنطقى .

والوظيفتان لازمتان معا ونافعتان للانسان ، لكن كل وظيفة منهما متميزة تماما عن الأخرى فى طبيعتها ، رغم أنه فى كثير من الأحيان تختلط احداهما بالأخرى ، لأنه ليس من الممكن أن تعمل احداهما منفصلة عن الأخرى عملا واضحا أو صحيحا . ولذا فان أحكامنا العقلية عن كافة الأمور كثيرا ما تكون مشوهة بسبب تداخل أحكامنا الشعورية أو العاطفية فيها ، بدور يشل دور العقل المتزن والمنطق الموضوعى .

فعلى الانسان الذى يرغب فى السيطرة على نفسه ، ويوجّه تطوره الخاص بطريقة مدروسة وحكيمة ، أن يزن ويقدّر الفارق الحيوى الكائن بين الشعور وبين التفكير ، مستخدما كل وظيفة منهما فى نطاقها الخاص بها فقط .

ووظيفة الشعور أو الانفعال مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأحاسيس ، أى بما تخبرنا به حواسنا من أمور ، ومؤسسة على ما تسببه لنا من لذة أو من ألم ، أو من شعور بالرضى أو بالامتعاض . أما الاستدلال أو المنطق الصحيح فينبغى أن يقام مستقلا عن الشعور بالرضى أو بالامتعاض ، أى أن يقام على الاستدلال الموضوعى وحده . وذلك رغم ما قد يكون هناك من تنافر بين حكم الانفعال وحكم العقل .

واجتماعهما معا أمر غير مرغوب فيه لأنه يؤدى الى تضليل الانســان فى حكمه على الأمور •

واذا فصلنا أحدهما عن الآخر فان حكمنا على الأمور يكون أصح وأصدق ، وتكون المشاعر والانفعالات بعيدة عن السيطرة على تصرفاتنا ، وتصــبح أدوات خادمة لنــا بدلا من أن نكون نحن عبيدا ، وخــداما خاضعين لها •

الارادة والسيطرة على الذات

وفى الشرق الأقصى ــ خصوصا فى الهند ــ أعطوا لهذا الموضوع قيمته الواجبة • واعتبروا أن أول واجب يقع على عاتق الانسان المتطلع الى الرقى هو أن يسيطر على ذاته أى على مشاعره وانفعالاته ، وذلك بتدريبات ارادية شاقة •••

فهذه السيطرة على المشاعر والانفعالات ــ توصلا الى حكم المنطق الموضوعى على الأمور ــ أمر هام وحيوى خصوصا للسيطرة على كراهية الآخرين ونفى آثارها الضارة فى الحكم لهم أو عليهم ، وفى كافة أحكامنا فى الحيــاة •

وفى الواقع ان انكار الذات يجب أن يقع فى الأساس من تصرفات بنى البشر ، بمــا يتطلبه الانكار من سيطرة الذات سيطرة كافيــة على مشــاعرها وانفعالاتهــا • وبذلك تتراجع أقوى مصــادر الصراعات ، والمنافسات ، والغيرة ، والاضطهاد ، والاستغلال التى وصلت الى حد استعباد الانسان لأخيه الانسان •

وهذه كلها مواقف غير علمية ، أى مناقضة للحقيقة الطبيعية التى تقوم على استخدام العقل الاستدلالى • فاذا كان بمقدورنا أن نطور أنفسنا فى اتجاه هذه الحقيقة الطبيعية ، وتتطابق معها ، أى مع الطبيعة كما خططها مبدعها ، فاننا مع الوقت سوف ننقذ أنفسنا من اتخاذ مواقف غير منطقية ، وهى فى نفس الوقت زائفة وحمقاء •

وبالتالى فان هذه الحقيقة يجب أن تصبح هدفا أساسيا من أهداف تطورنا ، وقائدا يرشدنا فى حياتنا ، وفى علاقاتنا بالآخرين . واذا ما عزمنا على ذلك فسوف تتمكن من الوصول الى هذا الهدف السامى .

ولنتخذ لنا شعارا دائما اسمه « اليقظة لخدمة الآخرين » Alert to Serve (A.T.S.) ، وهو شعار يفسر نفسه بنفسه . ومقتضاه أن تطلع دائما لانتهاز الفرصة لخدمة الآخرين سواء أكنا نعرفهم أم نجهلهم .

وهذه « اليقظة لخدمة الآخرين » سوف تدفعك لأن تنسى اليقظة لخدمة نفسك ، وتنسى التفكير فى نفسك لكى تفكر فى الآخرين . واذا نجا شخص ما بسبب يقظتك فى خدمته فستنجو أنت بنفس المقدار من كثرة التفكير فى نفسك .

والنموذج الذى تقدمه الى الآخرين سوف يوقظ عندهم أيضا شعور اليقظة للخدمة . وسوف يتحول عالمنا من عالم أنانى فظ ، يحيا كل واحد فيه لنفسه ، الى عالم أنبل مما كان وأفضل ... وكما قالت السيدة هيلين بلافاتسكى H. P. Blavatsky (مؤسسة الجمعية الثيوصوفية) « الامتناع عن أداء عمل من أعمال الرحمة هو نشاط فى أداء عمل من أعمال القسوة القاتلة » .

والحب لا يكفى وحده ، واذا كنا نريد الخدمة — فعالة وحكيمة — فيلزم أن تكون الخدمة مقرونة بالمعرفة ، فلا نكون كالدب الذى أراد أن يخدم صاحبه فقذفه بالحجر . وحتى مداواة جرح فى اصبع انسان يجب أن تكون مقرونة بالمعرفة ، والا أدت المداواة الجاهلة الى تلويث الجرح . واذا كان الحب أعمى كما يقال فان الحب مع المعرفة لا يكون أعمى ، بل يصبح مصدرا لمساعدة ولاغاثة حية وصحيحة(١) .

---

(١) عن كتاب : Arthur E. Powell : The Nature of Man. P. P. 192 —212.

وقبل أن نسأل القدر عن سر قسوته علينا فى مواقف كثيرة يتعين أن نسـأل أنفسنا أولا عن سر قسوتنا على الآخرين فى مواقف أكثر . وذلك بسبب استسلامنا لانفعـالات عابرة هوجاء ، أو لتصرفات ظالمـة حمقاء صدرت منا نحوهم . ويتعين علينا ألا ننسى أبدا أننـا فى الواقع نجنى ثمار أفعالنا التى صدرت منا ونحن بكامل وعينا وارادتنا ، عندما سمحنا بتعطيل الوعى وتشويه الارادة ، بسبب استسلامنا لتلك المشاعر النابعة قبل أى اعتبار آخر عن أنانيتنا وغرورنا وتفاهاتنا وطموحنا .

ولا تنظر الى الموت بعـد الآن بوصفه عقـابا ، أو بابا يقود الى العذاب ، بل هو فى الواقع خطوة نحو الأمام . وشهادةوفاتك هى شهادة نجاحك التى تؤهلك للدخول الى جامعة الحياة . أى الى تلك الحيـاة الجامعة للعديد من عناصر الوفرة ، والرخاء ، والأمان التى نبحث عنهـا هنا عبثا ، والتى لن نحصل عليها مهما بذلنـا من كد وعنـاء . لأن من طبيعة عالمنا الأرضى أن يكون عالمـا لا أمان فيه لأى انسان ، ولا اطمئنان فيه لأى وجدان .

وكما قد يأسف خريج الجامعة على الحياة التى ألفهـا ، وأسلوب العمل الذى تعود عليه ، فان « خريج الأرض » قد يشـعر فى البـداية ببعض الضيق لتغيير ظروف معيشته كما ألفها ، لكنه لا يلبث أن يعتاد على ظروفه الجديدة .

ولا يلبث أن ينسى أسفه على ماضيه عندما يندمج فى غمرة المشاعر والانفعالات البهيجة التى يثيرها فى نفسه العيش فى ظروف أكثر وفرة ، ورخاء ، وأمانا ممـا كان فى عالم اختبر بنفسـه أنه كان عالمـا للزور والبهتان ، وللظلم والطغيان .

وكل المطلوب هو أن يكون الانسان ــ قد عرف كيف يعد نفسه اعدادا صحيحا عن طريق اكتساب قدر متزايد من الأخلاق ، والعرفان ،

ونقاء الايمان والوجدان . ولأجل تحقيق هـذا الهدف السـامى فليعمل العاملون على تخفيف آلام بنى بشر هنا ، وهناك ، وفى كل مكان ، عن طريق غرس هذه الحقيقة الأزلية فى النفوس وهى أن « ما يزرعه الانسان اياه يحصد أيضا » .

وأخشى أن نتعود بسبب فساد أحكامنا ـ سوء الغراس ، ويا ويلنا من سوء الحصاد من قبل ومن بعد .... سواء أطال بنا المقام أم قصر فى هـذه الديار ، وسـواء أرضينا أم لم نرض عن حالنـا اذا ما شـط بنا المزار ....

وفى هذا الشأن يقول مؤلف ووسيط معالج يدعى م. هـ. تستر M. H. Tester « انك لا تستعد للموت عن طريق الصدقة المستعجلة ، أو عن طريق المغـالاة فى العبـادة ، أو عن طريق التصرف المبـالغ كما لو كنت قديسا .

فأنت لا تستعد للموت عن طريق الاتيان بأى عمل ينبىء عن خوفك من عواقب الموت . واذا كنت تأتى بأى عمل طيب بوصـفه ضمانا لك ضـد التعذيب الأبدى فأنت أحمق ، لأنه ليس بمقدورك أن تدخل فى مساومة أو فى « فصال » مع الله . وليس بمقدورك أن تحرر بوليصـة تأمين ضد الأبدية ، بل يوجد اعداد وحيد للموت وهو الحياة ....

ويوجد خيط ذهبى يربط بين جميع الأديان العظمى ، وبين أقوال جميع الفلاسفة والملهمين . واذا كنت تعمل دراسـة مقارنة بين الأديان فانك لا تلبث أن تذهل لا من الفروق القائمة فيما بينهـا ؛ بل من أوجه الشبه العديدة الرائعة بينها . فنقّب بالقراءة ، والبحث ، والضـمير ، والالهام ، عن الطريق المستقيم للحياة واتبعه .

ولا تنظر الى أى انسان صاحب ملايين وهو ملحد ، أو وهو متصور أن اللذة هى كل شىء فى الوجود ، لأن القوة مفسدة للانسان ، والقوة المطلقة فساد مطلق • وصاحب الملايين الذى تنظر اليه حسدا يمكن أن يكون فقير النفس ، ويمكن أن يسقط بغتة صريع المرض ، ويمكن أن يتطلع لأن يحوز طفلا بلا جدوى ، أو لأن يجرى وراء السعادة عبثا •

انظر بالأكثر الى انسان آخر يحيا حياة طيبة موفورة ، مع زوجة تحبه ، ومع أطفال سعداء من حوله ، وأصـدقاء أوفياء • وهو يشق دائمـا طريقه لمساعدة الآخرين ، ولفعل الخير ولتخفيف آلام المتألمين ، وحاجات المحتاجين ، لأنه انسـان حائز دفئـا داخليا ، ويقظة روحية • والموت مغامرة مثيرة ، ومثل هذا الانسان صالح لأن يقوم بالمغـامرة ، فهل أنت مثله » ؟! (١)

دور الارادة بين الجبر والاختيار

وبحسب الفهم الذى أسلفته عن دور الارادة والعقل يكون الانسان مسيرا مخيرا فى كل أمر ، وفى أية لحظة • فهو مخيَّر بقدر ما يملكه من ارادة عاقلة حرة ، وهو مسيَّر بقدر ما هو محكوم بهـذا النـاموس الطبيعى الذى لا يمكن أن يفلت منه ، وهو ناموس الأسباب والمسببات أو ارتباط النتائج ارتباطا طبيعيا بمقدماتها ، وبالتالى ارتباط ماضيه — وربما ماضيه البعيد جدا — بحـاضره ، وحاضره بمستقبله — وربمـا بمستقبله البعيد جدا — ارتباطا ينطوى فى نهـاية التحليل على مجموع النواميس المـادية والشعورية اللازمة للحياة فى كل صورها ومستوياتها •

ويمكن القول بأن الانسان حكم مختار يملك قـدرا أو آخر من حرية الارادة لكنه مجبر بحكم نواميس الطبيعة على استخدام هذا القدر فى اتجاه أو فى آخر ، وفى النهاية عليه أن يجنى ثمرة هذا الاستخدام ان

(١) M. H. Tester : The Bewildered Man. 1976 P. P. 23—24.

خيرا فخيرا وان شرا فشرا . فالانسان مجبر ــ منذ الأزل ــ على الحرية وليس مسلوب الحرية . وعندما أقول لشخص معين « عليك أن تختــار بين أمرين أو أكثر » ليس معنى هذا أننى قد سلبته حرية الاختيار ، بل معناه اننى أؤكد له هذه الحرية وأطالبه بأن يستخدمها فى الاتجاه الذى يروق له بين أمرين أو عدة أمور .

ونحن نختار فى الواقع بين سلوكين وربما أكثر من سلوكين فى كل خلجة من خلجات تفكيرنا وشعورنا ، وعلى نطاق أوسع مما قد يتراءى لنا لأول وهلة ، الى حد أننا كثيرا ما نسائل أنفسنا فى الهدوء والسكينة وفى كل لحظة من حياتنا : هل أقــدم أم أحجم ؟ هل أنفعل أم أضــبط أعصابى ؟ هل أحقد أم أغفر ؟ هل أقنع أم أطالب بالمزيد ؟ .. وهــذا التساؤل المستمر ليس وهما ولا خرافة ، بل هو صدى لشعور حقيقى فى الوجدان يتوقف على الاجابة الصحيحة عليه مدى نجــاحنا أو فشلنا فى هذا الجهاد الأكبر الذى هو جهاد النفس فى نزواتها ، وشــهواتها ، واندفاعاتها ، والذى يحدد لها قدرها ومصــيرها طبقا لقانون السبب والنتيجة .

وهذه الحرية التى تجبرنا نواميس الحياة على استخدامها مقتضاها أنه ليس من حقنا أن نقف موقفا سلبيا فى الصراع بين الخير والشر الذى يجرى تحت أبصارنا فى كل ساعة بل فى كل لحظة(١) ، بل علينا أن نقوم بدور ايجابى فى كل صراع من هــذا القبيل وبجميع الوسائل المشروعة الحكيمة التى قد نملكها ، لأن من واجبنا دائما استخدام هذه الحرية ، واستخدامها فى الطريق السوى حتى تزدهر هذه الحرية فى مبدأ توافرها ، وفى ضرورة استخدامها على نحو لبق وحكيم .

---

(١) ولعل هذه الحقيقة الفلسفية تتضمن تبريرا كافيا للعقــاب على الجرائم الايجابية التى قد تقع بطريق الترك أو الامتناع ، ولكن لا ينبغى أبدا الخلط بين الواجب الخلقى والواجب القانونى ، وان كان يحسن فى بعض الأحيان الربط بينهما .

وهذا الفهم يلقى على وجداننا عبء البحث فى ماهيــة النواميس الخلقية الطبيعية ، كما يلقى عليه أيضــا عبئا أخطر من ذلك بكثير وهو عبء محاولة التقيد بهذه النواميس ولو رغم ارتباطات الذات ببيئة معينة فى عصر معين • وقد تكون هذه البيئة غارقة الى أذنيها فى القيم الخاطئة خلقيا وروحيا • وهذه القيم مهما كان خطؤها فان القــدر الحكيم كثيرا ما يعرف كيف يستفيد منها كما يستفيد كل عقل من أخطاء الشر والحماقة فيتخذ منها وسيلة طيعة لتحقيق أهدافه العادلة ، ولو بعد آماد بعيدة •

ولا يتأتى كل ذلك الا اذا كنا نتمتع بحرية حقيقية لا وهم فيهــا : وذلك مهما كانت هــذه الحرية تبدو مقيدة بأغلال كثيرة مستمــدة من النواميس الطبيعية التى تحكمها ، كما تحكم سائر ظروف الزمان والمكان المحيطة بها ، ومهما كانت تبدو مفروضة علينا فرضا مع أننا قد انتزعناها فى واقع الأمر انتزاعا بطيئا من بين مخالب الطبيعة التى تطالبنا بهــذا الانتزاع وتطالبنا دائما بالمزيد منه ، حتى تزدهر فينا وبنا أسباب الحياة الناجحة خلقيا المتطورة للأمام ، التى تصلح بذاتها هدفا صالحا لنا ، كما ينبغى أن نصبح نحن هدفا صالحا لها مهما تعثرنا فى خطواتنا ، وتعثرت بنا صروف الأيام •

* * *

وما أعجبها من مفارقة هذه التى تدعو هــذا الكائن الذى لايزال يحيا فى عبودية غرائزه وشهواته وانفعالاته الى أن يتطلب من أحــداث الحياة أن تكون مطابقة لخلجات عقله ووجــدانه بدلا من أن يحاول أن يتفهم — بعقله الهزيل — ما وراء هذه الأحداث من حكمة بالغة كيمــا يجعل خلجات عقله ووجدانه تتجاوب فى نغم متسق معها • وهكذا يتصور هذا الكائن دائما أنه دائن غير مدين ، وصــاحب حق لا يقابله واجب ، وسجين قضبان ظالمة أحق بها غيره من سائر الكائنات والموجودات التى تعمه فى غيها وضلالها من دونه •

ولا شىء بمقدوره أن ينتزع من وجدان هذا الكائن العجيب شعوره

هذا حتى ولو كان هو الايمان بالقدرة غير المحدودة التى من شأنهـا أن تهيمن على سير الأحداث فى هذا الكون الفسيح • أو حتى لو كان هو الايمان بالنواميس الطبيعية التى تعمل فى ملاءمة تامة مع هذه القـدرة • أو حتى لو كان هو الألم المرير ينزل به لمـاما أو دواما • أو حتى لو كان هو الاخفاق الكامل فى أبسط أمور حياته •

ولكنها فحسب محاولة الاتساق الصحيح مع هذه النواميس العاقلة هى التى تتيح للنفس أن تتحرر تدريجيا من أغلال الاعتداد بالذات ، وهى مدمرة لكل اتعاظ من أحداث المـاضى ، ولكل سعادة بالحاضر ، ولكل رجاء فى المستقبل القريب أو البعيد • وهذه المحاولة لا تجىء جزافا لأنها ثمرة تطور الذات فى الطريق الصحيح الذى يضفى على صاحبهـا كل ما يتطلبه الاتساق من شفافية لحقائق الحياة وما تقتضيه من صـدق ، ومن حق ، ومن اعتدال •

وهذه المحاولة نحو الاتساق تمثل أنقى صور الايمان الايجابى ، وأرقى مشاعر غريزة الاحساس بالمجهول عندما تسمو بالوجدان ، فيسمو الوجدان بصاحبه فى طريق تناسق الشخصية مهما اصطرعت لديهـا شتى المخاوف والرغبات ، ومهما تناهبتها عوامل اليـأس والرجاء ، والقـلق والاطمئنان ، والثورة والاستسلام فى كل خلجة من خلجـاتها الظـاهرة والدفينة •

وعن طريق محاولة هذا الاتساق يمكن للوجدان أن يثرى الحياة من حوله بشىء جديد ، فيعطيها أكثر مما يأخذ منها • فيثريها بفكرة جديدة ، أو باصلاح هام ، أو بعمل مثمر ، أو بنغم معبر ، أو برأى صائب ، أو ببطولة صحيحة • والا فيثريها بومضة من شعور نبيل ••• هذا الشعور الذى هو مصدر لكل عمل رفيع وراق فى هذا الوجود كله ••• والذى لا يدانيه أمر آخر عندما يكون نابعا حقيقة من أعماق المحبة والايثار •

وكل ذات تسعى حقيقة الى هذا الاتساق تستحق أسمى تقدير لأنها تسعى عن طريقه الى تحقيق حريتها وحرية الآخرين من عبودية الاعتداد بالذات التي هي آسوأ صور العبودية التي عرفهـا تاريخ هـذا الكائن الحافل بعوامل الضياع والهوان •

فالأحداث كلها ، مهما كان مداها من الضـخامة أو من التفاهة ، محكومة بناموس السببية أو العلية الطبيعية • فوراء كل حادثة سلسلة لا تنتهى من الأسباب الطبيعية التى تمتد للوراء الى مبدأ نشوء الكون •

ولمـا كانت كل لحظة فى الكون عبارة عن بحر هادر متحرك فان الأحداث كلها هادرة متحركة • واذا كانت أحداث الحاضر فى حالة تفاعل مستمر وحركة دائبة لا تتوقف فان المستقبل أيضا يكون فى حالة تفاعل مستمر بقدر تفاعل الحاضر ، ويكون عبارة عن بحر هادر متحرك متضامن مع بحر الحاضر •

واذا ألغينا من سفر الوجود عنصر الزمن ، لأن الزمن وهم من صنع حواسا ، لأن الطبيعة تحيا دائما فى حاضرها الأزلى ، بحسب المفهـوم المجرد لمعنى الزمان والمكان ، لأصبح مفهوما تماما قول بعض كبار العلماء من أمثال أوليفر لودج وألبرت أينشتين أن الأحـداث — حتى المستقبلة منهـا — مسطورة رياضيا على لوحة الوجود — منـذ الأزل — بسبب الحركة الدائرية لمسيرة الأحداث •

واذا كنا نملك أى قـدر من الاختيـار ، فاننا اذا نجحنا فى اتجاه معين ، فقد نجحنا فى تحريك أحداث « المستقبل » فى نفس الاتجاه ، مادامت العلة تتفاعل مع المعلول وجودا وعـدما • وبالتالى فان ارادتنا ينبغى أن تعتبر عنصرا فعالا فى تسلسل الأحـداث ، ولا ينفى وجودها القول بأن الأحداث « المستقبلة » تسطرً رياضيا على لوحة الوجود منذ الآن •

نفى الصـــدفة

واذا كانت المصادفة العمياء لا تصلح لتفسير أية حادثة تافهـــة من حوادثنـــا اليومية حتى تلك التى تبدو بغير منطق ولا ضابط ولا هدف خلقى فما بالك بتفسير نشوء الحياة والمحافظة عليها ؟ خصوصا بعد أن ظهر كتاب الطبيعة أكثر عمقا واحكاما بما لا يمكن تقديره من أى كتاب خطته يد أعلم العلماء وأعظم الرياضيين • ويستوى فى ذلك كتاب الفلك مع الفضاء ، وكتاب الكائنات الحية مع كتاب الحياة النباتية ، بل حتى مع كتاب المادة الصلبة فى أتفه ظواهرها ، والتى تبين أنها تمثل فى تكوين الكتروناتها وبروتوناتها احكاما فلكيا ورياضيا يذهل الألباب ، حتى أن الذرة الواحدة أصبحت على ضآلتها المتناهية ، تمثـــل مجموعة شمسية كاملة ، فيها كل الاعجاز الذى تمثله أية مجموعة شمسية ، مهما تفاوتت النسب والأبعاد بين المجموعتين •

فنشوء الحياة من انفجار قد حدث بمحض الصدفة فى مكان ما من الكون أصبح أبعد احتمالا الآن من نشوء كتاب بالغ الروعة والاحكام — بمحض الصدفة — من انفجار قـــد يحدث فى مطبعة ما على ما عبر بعض المعبّرين • ودور الصدفة فى نشـــوء أبسط ظواهر الحياة وهى الخلية الحية قد انتهى فلسفيا ورياضيا ، ومن باب أولى دور الصدفة فى خلق الحياة بكل ظواهرها ونواميسها التى لا تحصى والتى تحكم مملكة الحيوان والنبات والجماد •

واذا كان الأمر كذلك بالنسبة لنشوء الحياة وتطورها ، فهو كذلك أيضا بالنسبة لتسلسل أحداثها ، وتستوى فى ذلك أخطرها مع أتفهها ، وأقربها الينا مع أبعدها عنا •• فمن المحال أن ينسب أى حدث منها الى دور الصـــدفة العمياء بمعنى انتفـــاء الارتباط بأى ناموس طبيعى وبأى تسلسل مع أحداث سابقة مترابطة • واذا كنا نستخدم أحيانا فى لغتنـــا الدارجة تعبير « الصـــدفة » للاشارة الى الأمر غير المتوقع منا ، أو ذلك الذى لا يدخل فى تقديرنا السابق ، فليس معنى ذلك البتة أن نفس هذا

الأمر غير متوقع من نواميس الحياة ، أو أنه لا يدخل فى تقديرها السابق ، أو أن صروف الدهر يمكن أن تقوم على الصدف العمياء والمفاجآت غير المتوقعة ، أو على أساس آخر غير الارتباط المحتوم بين المقدمات ونتائجها ، أى على أساس من التسلسل الطبيعى للأحداث بين أكثرها قدما ، وبين تلك التى لا تزال مدخرة فى بطن الغيب القريب أو البعيد .

وفى النهاية فليس للصدفة من دور بهذا المعنى الأخير ، بل هى من ضروب خداع الحواس . ونفى دور الصدفة كحقيقة وضعية معناه بنفس المقدار اثبات دور الارادة العاقلة التى تعمل عن طريق النواميس الطبيعية ، من داخلها ومن خارجها ، وذلك كحقيقة علمية من بين الحقائق الوضعية المكملة لنفس البنيان الفلسفى والمنطقى الذى اعتنقته الفلسفة والمنطق منذ أعرق العصور صلة للانسان بهما (١) .

وليس النقاش النظرى هو ذلك الذى بمقدوره أن يقنع القارىء تماما بنفى دور الصدفة فى تعاقب شتى الأحداث المادية والمعنوية . بل لعل الحديث فى موضوع « صلة الارادة الانسانية بموضوع الاحساس بالزمن » هو الذى يتكفل بهذا الاقناع ، خصوصا من زاوية الأحداث المستقبلة ومدى امكان توقعها توقعا صحيحا سواء أكان العقل الانسانى يحيا معتقلا فى جسده المادى ، أم يحيا متحررا منه ، وهذا هو موضوع الفصل الآتى :

---

(١) للمزيد فى هذا الشأن راجع « مفصل الانسان روح لا جسد » الجزء الثالث ص ١٢١ — ١٣٣ .

الفصل الثالث

فى صلة الارادة الانسانية
بموضوع الاحساس بالزمن

دور الباراسيكولوجى هنا

لا ريب أن من أهم الأضواء التى سلطتها أبحاث الباراسيكولوجى على موضوع الارادة الانسانية تلك المتصلة بصلة مبدأ الارادة مع مفهوم فكرة الزمن • ولا ريب أن هذا الباب من أبواب البحث جديد برمته على المعارف الانسانية ، وهو لا يمكن فصمه فى نفس الوقت عن مفهوم فكرة الزمن فى الطبيعيات الحديثة ، وما يرتبط بذلك كله من أبحاث تجرى الآن على نطاق واسع عن موضوع استشعار المستقبل أو التنبؤ بالأحداث المستقبلة فى اليقظة أو فى النوم •

ومنذ القدم كان يوجد « عرافون » أصحاب رؤى ومكاشفات صادقة ، وأشخاص أصحاب أحلام تنبؤية صحيحة • وكانت الآراء تذهب فى تأويلها كل مذهب ، بل كان موقف الفلسفة النظرية منها متأرجحا بين التصديق والانكار ، الى أن رأت الباراسيكولوجى — فى مفهومها المعاصر — أن تجعل التنقيب فى هذا الميدان مجالا من أهم مجالات نشاطها البت فيه نهائيا برأى حاسم •

ذلك خصوصا بعد ظهور معادلات الرياضة الحديثة فيما يمكن نسبته الى الصدفة وما لا يمكن نسبته اليها من التنبؤات الصادقة • وأيضا بعد ظهور معادلات نظرية النسبية ، وبعضها ذو وثيق اتصال بهذا الموضوع ، وقد ساعد عند الاستخدام العلمى المنظم على القاء بعض أضواء على هذا الموضوع الخطير ، الذى لا يمكن فصمه عن مشكلة الارادة الانسانية ومدى قدرتها على التأثير فى مجرى الأحداث الطبيعية ، وبالتالى على

الاسهام فى الاجابة الصحيحة عن أخطر تساؤل أثاره عقل الانســان منذ القدم وهو جبر أم اختيار ؟ !

* * *

وتوجد أكثر من صورة لاستشعار الأمور المستقبلة Pre — cast ·

فاذا كان ثمة « احساس بنذير سوء » أى بقرب وقوع حادث مؤلم قبل وقوعه بالفعـــل يطلق عليه Premonition • ومن صوره أن يشـعر شخص ما بانقباض شـــديد ، أى بضيق لمدة يوم أو عدة أيام بلا سبب ظاهر ، ثم يقع له حادث مقبض • ويدخل فيه الاحساس بالتشاؤم من مكان معين ، أو زمان معين •

وقد يكون الاستشعار عن طريق « العلم المحدد بأحداث مستقبلة » واضحة قد يراها الانسان ما فى الحلم أو فى اليقظة ، وقد تكون ســارة أو أليمة ، وعندئذ يطلق عليه « الادراك المسبّق » precognition .

وقد يكون توقع الحادثة المستقبلة عن طريق شخص آخر يقوم بانباء صاحب الحادثة مقدما عن حادثة يتكهن بها ، ثم تتحقق بالفعل ، وعندئذ يطلق عليه « الانباء المسبّق » fortelling ومن صوره « قراءة البخت أوالطالع » بمعرفة بعض العرافين وعندئذ يطلق عليه fortune - telling (١)•

وفى جميع الحالات يطلق على ادراك أى أمر قبل وقوعه ، وأية كانت الوسيلة وصف عام وهو « النظرة المسبّقة » pre - cast ، وليس الهدف من الأبحاث العميقة المتواصلة التى تقوم بها الدوائر المعنية بالباراسيكولوجى

---

(١) ويدخل فيها قراءة الكف ، والفنجان ، وورق اللعب ، والبللورة الزجاجية . والعنصر المشترك فيها هو حاجة « قارىء الطالع » الى درجة عالية من تركيز الذهن ، واخلائه من مشــاغله لعله يتلقى بعض الايحاءات الصحيحة من عالم الدالة أو البعد الرابع ، ان كان بمقدوره حقا أن يتلقى شيئا منها . والفرض المتصـــور الآخر هو الرجـــم الكاذب بالغيب بحثا عن تحقيق الكسب المـــادى فى غالبيـــة الحـــالات . ولا يعتمـــد بحـــاث الباراسيكولوجى أبدا على أى وسيط يتقاضى أجرا ، أو على أقوال قارىء محترف للطالع أو للمستقبل •

هو تخطيط شئون حياتنا اليومية فى ضوء ما قد يصدر عن آحد المنجمين أو العرافين من تنبؤات ، كما كان يحدث فيما مضى حتى فى دوائر الملوك والساسة والقواد قبل اتخاذ قراراتهم السياسية أو الحربية الهامة •

بل ان الهدف هنا هدف علمى صرف ذو جوانب متعددة : منها محاولة تحديد مفهوم الزمن تحديدا صحيحا من جانب ، وتحديد نوع علاقة احساس الانسان بهذا الزمن من جانب ثان ، مع محاولة القاء بعض أضواء جديدة على مشكلة الجبر والاختيار من جانب ثالث • وبالتالى فلا يدخل أبدا فى اعتبار علماء الباراسيكولوجى تحقيق استخدامات يومية للعرافة أو للتنجيم •

عن دور النشاط الروحى بوجه عام

ويلزم دائما التمييز بين الادراك أو الاحساس المسبق Premonition وبين التأثير المسبق للعقل فى المادة ، بل فى شتى الظواهر الخارجية المحيطة به premonstration • وهذا التعبير الأخير يشير الى قانون من قوانين ما وراء الطبيعة يقع وراء كل صور النشاط الانسانى بوجه عام •

والاستفادة من هذا القانون الأخير تعتبر فنا راقيا ، أو سرا عظيما من أسرار الطبيعة التى كانت وراء كشوف كل العباقرة الذين غيّروا مسيرة الركب الانسانى من أمثال جاليليو، وليونارد دافنشى ، وكولمبس، وأديسون ، وباستير ، وأينشتين ••• وغيرهم فى كل مجالات الفنون ، والعلوم ، والرياضة ••••

فان هؤلاء الرواد ــ وكثيرون غيرهم ــ قد سبقوا زمانهم عن طريق « التنبؤ اللاشعورى » بانجازات ضخمة أمكنهم أن يحققوها فعلا • وكانت انجازاتهم الضخمة بمثابة ارهاصات لمسيرة الحياة على مستوى المادة ، عندما يحسن العقل الانصات الى صوت الروح •

وصوت الروح يجىء من خارجنا ومن داخلنا أيضا • وقد يكون موضوعا لرقابة ولتوجيه من داخل أنفسنا • فنحن غارقون ــ بغير أن

نشعر — فى بحر واسع من الذكاء الأثيرى ، وصلتنا به كصلة السمكة بالماء • وكالسمكة نحن لا نشعر أبدا بحقيقة المادة التى فيها تتحرك ، ومنها نستمد مقومات وجودنا ، وهى الأثير •

وفى هذا الأثير تكمن دفعة الحياة élan vital وانجازاتها بحسب وصف برجسون ، التى تنبض ، وتتدافع ، وتتزاحم كالأمواج فتهب الحياة لكل الأحياء بأسلوب اعجازى • وهذا الأسلوب اذا كشفنا عن جانب ولو ضئيل من أغواره يكون كفيلا بأن يدفعنا الى استخدام ارادتنا فى اعادة تشكيل طباعنا ، وأخلاقنا ، ومصائرنا بالتالى •

وقد يدفعنا أيضا الى تذليل العديد من عقبات التطور والارتقاء الكامنة فى نفوسنا من الداخل ، لأنها نابعة من غرورنا وأحقادنا ، ومن الانفعال الفطرى بغرائزنا الحيوانية ، والانفصال الوثيق عن مطالبنا وتطلعاتنا الانسانية كما ينبغى أن تكون •

فتطلعاتنا الانسانية ينبغى أن تكون موجهة لا الى اشباع غرائزنا الحيوانية ، بل الى الوصول الى مكنونات عقلنا الأسمى الذى يعمل فى كل موضع من مواضع الطبيعة • فهو الطاقة التى تهبنا الحياة ، والتى تمكننا من أن تتنفس الهواء ، بل الأثير ، والتى تجعل بمقدور الدم الحار أن يتدفق فى العروق والشرايين ، فيحيى الخلايا التى تعيد بناء الجسد ، وتصلح ما تفسده الأيام • بل تصنع الجنين فى رحم الأم على مدى تسعة شهور فى ظلام تام •

وهذه الطاقة — التى يمكن وصفها بأنها طاقة الروح التى بداخلنا — غير منظورة لكنها حقيقية • وهى حية وقوية أكثر من حيوية العالم المادى وقوته • وعلى صله أوثق منه بالعقل الأعظم الذى يعمل فى ذلك الكون ذى الأبعاد الأربعة ، والذى لا يعرف مكانا محدودا ، ولا زمانا معدودا • ولذا قيل بحق ان الايمان يصنع المعجزات ، عندما يكون ايمانا نقيا

علويا ، خاليا من شـوائب الغرور ، والأنانية ، والضـغينة ، والتفاهة ، والجهالة ...

وخلال قوة الايمان بالخالق ، وبالمستقبل ، وبالعدالة يمكننا أن نصل الى العثور على قوة الخالق ، وحضور المستقبل ، وتحقيق العدالة . وهذه هي احدى قدرات الانسان التي نعبّر عنها بقـدرة تحقيق المعجزات عن طريق هذا العقل الأسمى الكائن من داخلنا ومن خارجنا .

وهذه القدرة من المحال أن تنشـط فينا ما لم نضع في اعتبارنا أن نحاول دائما أن نتفهم الموت . فما لم نتفهم الهدف من الموت فلن يكون بمقدورنا أن ندرك المغزى من الحياة .

ومن المحال أيضا أن تنشط فينا هذه القدرة ما لم نضع نصب أعيننا أننـا هنا على أرض عبور ولسـنا في دار قرار ، مهما تعـاقب الليـل والنهار ، ودارت النجوم في ذاك المدار .

وأننا موجودون هنا لاختبار كل صنوف الألم ، والشك والحيرة ، والفشـل ، والفقر ، والمرض .... ولسـنا هنا للنـوم أو للخمول ، أو للمتعة ، أو حتى للفرار من حكم الأقدار ....

* * *

فصلة الباراسيكولوجي بمشكلة الارادة أوثق مما قد نتصور لأول وهلة لأنها ليست قاصرة على استكشاف مدى قدرة الارادة الانسانية على التأثير في المـادة ، أو ظاهرة تأثير العقل فيها Psycho Kinesis ، بل أيضا من زاوية محاولة اعطاء تحديد أكثر وضوحا مما سبق عن المشكلات المتصلة بمفهوم الزمان — لأن الارادة الانسانية تعمل خلال الزمان كما تعمل أيضا خلال المكان . وبالتالي فان الارادة على هذا الوضع تظهر بوصفها مشكلة رياضية طبيعية قبل أن تكون مشكلة نفسية سلوكية .

وفى هذا الشأن نجد ألكسيس كاريل العالم المعروف والفسيولوجى الحاصل على جائزة نوبل سنة ١٩١٢ يقول « لقد وجد الزمن متحدا مع الفراغ فى الطبيعة .. أنه جانب ضرورى للكائنات المادية ، اذ ليس هناك شىء صلب له ثلاثة أبعاد اتساعية فقط .. ومع أننا قادرون على آن ننشىء فى عقولنا كائنات تامة الوصف بداخل الأبعاد الثلاثة (الطول والعرض والارتفاع) الا أن لجميع الأشياء الصلبة أربعة أبعاد..والانسان يمتد فى الزمن والفراغ معا . أما التفكير فلا يدخل فى الزمن والفراغ . ولا يأوى النشاط الأدبى والشعور بالجمال فى الدوام المادى بنوع خاص.

وعلاوة على ذلك ، فاننا نعلم أن البصر المغناطيسى قد يكتشف أشياء مخبأة على مسافات بعيدة ، فبعض الأشخاص يرى حوادث وقعت فعلا فى الماضى ، أو ستقع فى المستقبل . ويجب ألا نلاحظ أنهم يدركون المستقبل بالطريقة التى يدركون بها الماضى ، ولكنهم يعجزون أحيانا عن تمييز المستقبل من الماضى ، مثال ذلك أنهم قد يتحدثون فى رؤيتين مختلفتين عن حقيقة واحدة من غير أن يرتابوا فى أن الرؤية الأولى تتعلق بالمستقبل والأخرى بالماضى ، اذ يبدو أن وجوها معينة من نشاط الشعور تسافر فوق الفراغ والزمن .

وتختلف طبيعة الزمن تبعا للأشياء التى يفكر فيها عقلنا . فالوقت الذى نلاحظه فى الطبيعة ليس له كيان منفصل ، انه فقط طريقة ايجاد الأشياء الصلبة . فنحن أنفسنا نبتدع الزمن الحسابى ، انه تكوين عقلى.. خلاصة لازمة لانشاء العلم . ونحن نقارنه بسهولة بخط مستقيم تمثل كل لحظة متعاقبة فيه بنقطة . ولقد استبدلت بهذا المستخلص منذ أيام جاليليو معلومات قاطعة جاءت نتيجة لملاحظة الأشياء ملاحظة مباشرة .

لقد كان فلاسفة القرون الوسطى يعتبرون الزمن عاملا يكسب الجوهر صلابة ، وهذا الرأى يماثل الى حد بعيد رأى منكوفسكى أكثر مما يماثل رأى جاليليو ، اذ كانوا مثل منكوفسكى وأينشتين وعلماء

الطبيعة العصريين يعتبرون أن الزمن غير قابل للفصل عن الفراغ »(١) .

ثم يقول كاريل « يوجد فى أفراد معينين عنصر روحى قادر على السفر فى الزمن .. فقد ذكرنا فيما قبل أن البصر المغناطيسى يرى الأشياء ليس فى الحوادث السحيقة الاتساع فقط ، ولكن أيضا أحداث الماضى والمستقبل فيبدو كأنهم يجولون بسهولة فى الزمن والاتساع ، أو يهربون من العالم المادى ليتأملوا الماضى والمستقبل كما تستطيع ذبابة أن تتأمل صورة اذا لم تسر على سطحها ، وانما عندما تطير على بعد قليل فوقها .

ويقودنا الحديث عن حقائق التكهن الى عتبة عالم مجهول .. ويبدو أنها تشير الى وجود مبدأ روحى قادر على الانتشار خارج حدود أجسامنا . ويترجم اخصائيو علم الأرواح ظواهر معينة بأنها دليل على حياة الشعور بعد الموت .. فالوسيط يعتقد أنه مسكون بروح الميت ، وقد يكشف للقائمين بالتجارب عن بعض تفصيلات لا يعرفها الا الميت فقط ولا تلبث دقتها أن تثبت فيما بعد . ويقول بروض (فيلسوف بريطانى وأستاذ بجامعة كمبريدج) ان فى الامكان ترجمة هذه الحقائق على أنها دليل على بقاء عامل روحى ، لا العقل ، قادر على تزريع نفسه مؤقتا فى جسم الوسيط .. ثم يقول كاريل ان النتائج التى حصلنا عليها من تجارب علم « الاتصال بالأرواح » على جانب عظيم من الأهمية ، ولكن معناها ليس دقيقا » (كتب هذا الكلام قبل سنة ١٩٣٥) (٢) .

ولذا يلاحظ برجسون أن الحياة أقرب الى عنصر الزمان منها الى عنصر المكان ، لأنها عبارة عن حركة دائبة لا تعرف الاستقرار ، ولأن أقوى ملكات الحياة وهى ذاكرة الانسان عبارة عن زمن مخزون ،

---

(١) عن « الانسان ذلك المجهول » الترجمة العربية للأستاذ عادل شفيق ص ١٢٨ — ١٣٢ .

(٢) عن المرجع السابق ص ٢٠٤ .

وكذلك الغرائز الحيوانية فى بعض صورها وأحوالها . كما يلاحظ أيضا أن عقل الانســان أدرى بحقائق المكان لكنه لا ينفذ الى صميم الحركة الزمانية انما يصل اليها بالحدس Intuition أو بالبداهة وحدها .

عن مفهــوم الزمن

فليس للزمن اذا من كيان خاص به بعــد أن أصبح من خصائص المــادة لأنه البعد الرابع فيها ، فهــو حالة ذهنية قبل أن يكون حقيقة قائمة بذاتها . والمستقبل قد يتصل بالحاضر وقد يلحق بالمــاضى ، ولذا فاننا فى كل لحظة نقتطع جزءا من المستقبل ونضمه الى المــاضى فلا ينقص هذا ولا يزيد ذاك ، لأن كلا منهما لا نهائى . ولكن الحقيقة الكونية — فى النهاية — هى أن الزمان عبارة عن حالات متنوعة فى المكان ، وخيوط داخلة فى تكوين المــادة الصلبة كما هى داخلة فى تكوين مشاعرنا التى تشعر بها أرواحنا . فهو من داخلنا ، أو هو — بالأدق — حالتنا النفسية وحدها ... ولذا كانت الأبدية فى كل مكان ، فهى من حولنا ، بل هى فينا هنا ومنذ الآن ، تنبع من نفوسنا وتنبع منها نفوسنا نبعا صحيحا قويا ، وليست مجرد سراب يظهر من وراء الفضاء .

ولذا تقوى النفس وتنمو مع مرور الزمن ، أما الجســد — وهو ذو أبعاد ثلاثة فحسب — فهو يضعف ويضمحل بعد بلوغ النضج الكامل بتأثير الزمن وحده . وبالتالى فان الدوام صــفة تمثل للجسد المــادى معنى مغايرا تماما لمعناها بالنسبة للروح .فدوام الجسد ضعف واضمحلال ، أما دوام الروح فنضج فى العقل وفى الفضــيلة ونمــو فى الوعى وفى الملكات . ومصدر هذا كله أن طبيعة الزمن تغذى الجسد الأثيرى الذى يحمل الروح ويستمد منها الشعور بهذا الزمن ، وبالتالى الشعور بالحياة أزلية متجددة غير قابلة للضعف ولا للفناء ، بل حرة صاعدة على نقيض المــادة الهابطة المقيدة على ما لاحظه برجسون فى « التطور الخالق » .

وهذا هو نفس ما تنتهى اليه نظرية النسبية فى خصوص صلة الزمن بعمر الانســان حيث يمكننا « أن نستنتج أن الشخص المتحرك حركة

بطيئة يشيخ قبل الشخص المتحرك حركة سريعة ، بل ان الشخص الذى يتحرك بسرعة النور يعيش خارج الزمن ، أى لا يشيخ أبدا »(١) .

ومعنى هذا أننا « يجب أن ننسخ من أذهاننا فكرة الزمان والمكان كعنصرين منفصلين ، وألا نعترف الا بنسيج من العنصرين متداخلين معا تداخلا لا انفصام فيه وهو المتصل الزمكانى الذى ينساب عليه وجودنا . قال منكوفسكى : فمنذ هذه اللحظة يجب أن يتوارى فى الظل الزمان والمكان كأقنومين متميزين ، ولا يبقى فى أعقابهمـا غير نحو من النسيج المركب منهما معا ، له وحده أن يتصف بالحقيقة » .

ومن عجب أن هـذا الذى وصـل اليه أينشتين ومنكوفسكى عن طريق الرياضة ، ووصل اليه برجسـون عن طريق الفلسـفة فى القرن العشرين ، وصـل اليه سويدنبرج عن طريق الالهام منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وكتب فيه فى مؤلفه « الجنة والنـار » (١٧٥٨) . وفيه يقرر ما ملخصه أنه « فى السماء لا توجد سنون ولا أيام بل تغيرات فى الحالة ، وحيث توجد سنون وأيام يوجد زمن ، وحيث توجد تغيرات فى الحالة توجد حالات » . كمـا يقول فى مكان آخر « انه توجـد فى السماء مسافات كما توجد على الأرض ، لكنهم لا يقدرونهـا بوسائل القياس التى نعرفهـا ، بل كل شىء يقدرونه بحسب الحـالات الداخلية لأصحابهـا »(٢) .

ولا توجد وسيلة علمية بمقدورها أن توضح حقيقة صـلة الوجود الانسانى بمفهوم الزمن ، وبالتالى بمدى قدرته على الاحساس بالزمن ،

---

(١) راجع « أينشتين والنظرية النسبية » للدكتور عبـد الرحمن مرحبا . بيروت ١٩٦٩ ص ٨٠ .

(٢) عن « الجنة والنار » Le Ciel Et L'Enfer. ترجمة فرنسية بمعرفة L. J. Français فقرة ١٦٣ ص ١٢١ وفقرة ١٩٨ ص ١٣٨ .

أقوى من وسيلة اخضاع موضوع التنبؤات الصحيحة بأحداث المستقبل لمنهج التحليل العلمى والرياضى•خصوصا منها تلك التنبؤات أو التوقعات الصحيحة التى قد تسند الى عالم الغيب ، وهو ما يمثل حاليـا بابا من أهم أبواب الباراسيكولوجى ، على ما سوف يتضح للقارىء من هـذه الوقفة القصيرة فى الصفحات الآتية •

من اختبارات درايتون توماس فى التنبؤات

من البحاث المعروفين فى حقل البحث الروحى أسقف بريطانى رائد فى التوفيق بين أصول العلم والاعتقاد وهو درايتون توماس Drayton Thomas راح يجرى اختبارات عديدة فى البحث الروحى الى أن وصل الى اقتناع متكامل عن صحة وصول المنهج العلمى الى ثبوت دوام حياة الانسان بعد الموت • ووضع فى هذا الشأن مؤلفات عديدة تتسم بالمنهج العلمى الصحيح ، كما تتســم بالابتكار المستمر فى أساليب البحث وفى تخير موضوعاته•وهى مؤلفات زاخرة بالأدلة ، مفعمة بتجاربه الشخصية ، متحفظة فى مقدماتها واستنتاجاتها •

ومن هذه المؤلفات « الحياة بعد الموت بالبيّنة » (١) ، و « بعض بيّنات جديدة لحياة الانسان بعد الموت » (١٩٢٢) (٢) • وفى هذا الكتاب الثانى يجد القارىء اختبارات مذهلة له بشـأن مدى قدرة الأرواح على قراءة بعض فقرات من الكتب المغلقة المتروكة فى أى مكان من مكتبته الخاصـة ، والتى كان لا يعرف هو نفســه ما بداخلها ، وهى اختبارات يطلق عليهـا فى اطار البحث الروحى وصـف « اختبـارات الكتب »

---

(١) Life Beyond Death With Evidence.

(٢) Some New Evidence for Human Survival.

وهى قد جرت أيضا بمعرفة باحثين آخرين (١) •

كما توجـد اختبارات أخطر منهـا عن بعض تنبؤات الأرواح عن الأسماء أو الوقائع التى قد ترد فى صحف الغد أو ما بعد الغد ، وقد جرى بعضها بمعرفته ، وبمعرفة غيره من العلماء والباحثين • وسجل درايتون توماس النتائج التى حصـل عليها عن طريق هـذه الاختبارات وتلك ، مستخلصا ببراعة نتائجها المنطقية • وهى يطلق عليها وصف « اختبارات الصحف » Newspaper Tests (٢) •

* * *

وفى اختبـارات مدى امكان التنبؤ بأحداث المسـتقبل ، بمعرفة الأرواح ، لا يزال الأسقف درايتون توماس معتبرا من الرواد المرموقين فى هذا النطاق ، وقدم نتائج أبحاثه فى كتاب له عنوانه « التنبؤ ودوام حياة الانسان بعد الموت » (٣) وهو يعتمد على بعض تجاربه الخاصة مع الوسطاء بالاضافة الى بعض تجارب الآخرين •

وينتهى الأسقف توماس الى نتائج بالغة الأهمية منها :

أولا : أن بعض أهدافنـا الدنيوية يمكن أن تكون محل مراقبة من أصـدقائنا الموجودين فى العالم الآخر ، وتجعل بمقدورهم أن يؤسسوا عليها توقعات قد تصح غالبا • لكننا اذا ما غيّرنا نحن خططنا أو أرجأنا تنفيذها ، فان تنبؤاتهم تصبر غير صحيحة بقدر تغيير خططنا •

(١ ، ٢) راجع « موسـوعة العـلم الروحى » Encyclopaedia of Psychic Science عن اختبارات الكتب ص ٣٤ — ٣٥ • وعن اختبارات الصحف ص ٢٦٣ — ٢٦٤ •

ومن مؤلفات درايتون توماس ايضا : —

In the Dawn Beyond Death.
Beyond Life's Sunset.
The Mental Phenomena of Spiritualism.
An Amazing Experiment.
From Life to Life.
Precognition and Human Survival. (٣)

ومنها ثانيا : أن هناك نموذجا من التنبؤات يعتمـد فيما يبدو على قدرة الأرواح على أن تستخدم ، وربما على أن تعدّل ، من خططنا البشرية ، حتى تجعلها متوائمة مع خططها هى •

ومنها ثالثا : أن التعاون يكون أحيانا مطلوبا فى الجلسات الروحية التى تقدم الفرصة الملائمة لطلب التعاون (بين الأحياء والمنتقلين) على ما شاهدنا حصوله أحيانا • •

ومنها رابعا : حالات تنبؤ تنتمى الى خطط ترسم فى العالم الآخر ، وضعت بدون معاونة من أى انسان متجسد •

ومن هذه النماذج المختلفة للتنبؤات يقول الأسقف ان بمقدورنا أن نستنتج بثقة أن النشاط العاقل لا يجرى فقط على الأرض ، بل أن هناك عقولا فى العالم الآخر ، مما يثبت بذاته دوام الحياة بعد الموت •

ومنها خامسا : فئة من التنبؤات هى عبارة فيما يبدو لنا عن اختبارات يقوم بها غير المتجسدين لتحقيق أهداف خاصة بهم •

ومنها سادسا وأخيرا : حالات مذهلة لتنبؤات سابقة تتجاوز قدرة البشر على الفهم « وهى تلك التى وصفتها بأنها عبارة عن تنبؤ خالص ، وكل محاولاتى لتعليلها كانت تثير اهتمامى لكنها لم تنجح » •

* * *

وينتقل الأسقف توماس بعد ذلك الى الكلام فى مشكلة الزمن فيقول اما أن الزمن يكون محض خداع ، واما أن يكون هناك نظام آخر للزمن فى ظروف العالم الآخر ، الى حد أن الأحداث التى سوف تحدث هنا يكون قد تم حدوثها هناك ، ولا ريب أن هذا القول يشد اهتمام الدارسين لنظرية النسبية • بل قد يشد اهتمام رجل الشارع عندما يعلم مثلا أن ما يرى حدوثه عندما ينظر الى أحد الكواكب هو نفسه ما حدث هناك منذ ثمانية أعوام مضت • وأن ما يجرى هناك الآن لا يمكن مشاهدته من الأرض الا بعد مضى ثمانية أعوام أخرى !

و « مع ذلك فانى لا أشعر بارتياح عندما أشدهد حادثة سيارة حدثت ذات يوم من أيام هذا الأسبوع أمام منزلى وأتصور أنها حدثت من قبل فى احدى ممالك الأثير ! !

لذا اقترحت تفسيرا لا يتعارض مع هذه الحياة كما نعرفها ، وفى نفس الوقت يلتئم مع ما أخبرونا عنه من ناحية وجود أوجه متعددة للنشاط فى الحياة الأخرى . وهذا التفسير بايجاز هو أن ثمة عقولا أسمى من عقولنا بمقدورها أن تتدخل ، بناء على ما تراقبه من أحداثنا مجتمعة مع ما يخططون هم لأن يفعلوه ، وما يتوقعون حدوثه بحسب الحاضر .

ويمكن مقارنة ذلك بما يقوم به رجال السياسة من تخطيط ، مثلا فى مجلس الوزراء ، أو فى اجتماعات القواد فى وقت الحرب . فان ما يفعله هؤلاء فى الحياة الأرضية ، هو — فيما أتصور — نفس ما يفعله من سبقوهم الى العالم الآخر » .

* * *

وعن نجاح بعض الأرواح أحيانا فى التنبؤ الصحيح بما سوف ينشر فى الصحف ، وهى تلك الاختبارات التى يطلق عليها وصف « اختبارات الصحف » Newspaper's Tests ، فان الأسقف توماس يقول بشأنها انه أجرى اثنى عشر اختبارا فشل اثنان منها فشلا تاما ، أما العشرة الباقية فقد تفاوتت فيها درجات التنبؤ الصحيح بما سوف ينشر فى احدى الصحف ، وهى جريدة التيمس Times .

وتبين له أنه فى بعض الأحيان كان التنبؤ الصحيح سببه أن الوقائع التى كانت تتنبأ الروح بنشرها كانت فعلا معدة للطبع وقت انعقاد الجلسة الروحية . وفى حالات أخرى لم تكن معدة للطبع فيما يبدو . وعلى أية حال فان موضعها على صفحة معينة من الجريدة — وهو ما نجح الروح المراسل فى تحديده أحيانا — لم يكن قد تحدد بعد ، وما كان بالمقدور

معرفته الا بعد ساعة متأخرة من المساء (١) .

وعندما استفسر الأسقف من روح والده عن تفسير تلك الظاهرة أجابه قائلا « هذه الاختبارات جرت باقتراح من أرواح أخرى تقطن فى أجواء أعلى مما أقطن أنا ، وقد التقطت أفكارهم . ولا أزال غير متنبه تماما الى كيفية حصول شخص ما على هذه المعلومات . وما آزال أتساءل عما اذا كان بمقدور المرشدين الراقين أن يمارسوا نوعا من التأثير بحيث يتلقوا تنبيها يستبينوا صحته فى التاريخ المحدد ؟ !

وبمقدورى أن أشعر بما يبدو لى أنه عبارة عن قصاصات وقطع ورق عليها بعض أسماء ، وبعض عناوين موضوعات items . وألاحظ عليها تأشيرات مناسبة ، وبعدئذ أشاهد صورة للصفحة ، وتلك العناوين تتساقط عليها فى مواضعها . وكنت فى البداية عاجزا عن أن أفعل ذلك . وتبدو لى هذه بوصفها قدرة تلقى بعض الضوء على التنبؤ الصحيح بما سوف يحدث ، أى على تصور ما سوف يحدث لكنه تصور مؤسس على ما هو جار بالفعل فى وقت التنبؤ .

وأحيانا أخرى أشاهد تفصيلا أبعد من ذلك عن تصور المستقبل عن غير طريق الرسائل التى أتلقاها منهم . وأعتقد أن هناك ظلا أثيريا يستبين حدوث الأشياء التى على وشك الحدوث . ومن المحتمل أن يكون التنبؤ بالأحداث البعيدة جدا أمرا محالا . وليس كذلك الشأن بالنسبة للأحداث التى سوف تقع بعد ساعات محدودة ليس بمقدورى أن أعيّن مقدارها .

وأعتقد أيضا بمشقة أنه من الممكن النجاح فى مثل هذه الاختبارات بالتنبؤ بما سوف ينشر فى صحيفة معينة بعد يومين ، وربما — اذا أمكن تفادى الخلط بين الأيام والتواريخ — بعد بضعة أيام . وأعتقد أن

---

(١) كان الأسقف على صلة تليفونية بجريدة التيمس ، و « بجمعية البحث الروحى » بلندن طيلة هذا التحقيق الفريد فى نوعه .

اختبارات الصحف هذه من الجائز أن تقتنع الجماهير أكثر من اختبارات الكتب (أى نجاح الروح المراســل فى أن يقــرأ فقرة أو أكثر من كتاب متروك على الرف لا يعلم أحد من الحاضرين عنه شيئا) •

ذلك لأنه يكون من الواضـــح عندئذ أن التلبــاثى (أى التخاطر) يعجز عن التفسير ، عندما تجد فى الصحيفة التى تحددها عنوانا أو نبــأ موضوعا بشكل لم تتوقعه ، ولم يكن بمقدورك أن تعلم عنه شيئا بطبيعة الحال • ويوجد هنا طرازان من الذاكرة يتعــاونان معا لتحقيق ذلك : ذاكرتى عن المــاضى البعيد ، وذاكرتى عما وجدته فى صباح اليوم بشأن تجهيز الصحيفة للطبع » (١) •

عن نتــائج اختباراته

ويقول هذا البحاثة الكبير أنه صادف مع ذلك بعض تنبؤات دقيقة وصحيحة بشكل مذهل، وكان من المحال توقعها بحسب مقاييسنا الأرضية، لانتفاء وجود مقدمات ظاهرة لها تحمل على توقعها توقعا صحيحا • وأنه سئل عن تعليلها أحد الأرواح المراسلة فأجاب أنه : « بالنظر الى ما يبدو من معرفة بعض الأرواح للأحداث كما سوف تحدث فى الزمن المستقبل ، فان هذا يبدو تعليله — حسبما حدثتك من قبل — بما نطلق عليه هنــا وصف « الحاضر الأزلى » The Eternal Now

ولقد تصورت أنا نفسى مرارا أن أسبوعك المقبل هو أحيانا يومنا الراهن • وقارنت ملحوظاتى فى هذا الشأن بملحوظات الآخرين ، ووجدت أننا على اتفاق فى ذلك • وكنت أحيانا كثيرة غير متيقن مما اذا كان شيئا منها قد حدث لك بالأمس أم أنه سوف يحدث غدا •

وفى الحالة التى ذكرتها من الجائز أن تكون الحادثة التى حدثت قد شوهدت مسبقا بوصفها صورة لما سوف يحدث • ومشاهدة بعض رؤى

---

(١) عن « موسوعة العلم الروحى » صفحة ٢٦٣ — ٢٦٤ •

عن المستقبل أمر جرى بلا ريب ، وأعطيت عنه أوصاف بدقة غير مألوفة • فهناك شيء يشبه انعكاس الرؤية على شاشــة ، أو دعنا نقول انه بمثابة اشارة تائهة Stray Beam تخترق نافذة الزمن ، أو جداره • وليس من المناسب لهذه الاشارة أن تعمل دائما ، لكن مسموح لها من آن لآخر أن تبين أن بمقدورها أن تفعل ذلك » •

واذا كان مراسلونا الروحيون قد قالوا لنــا انهم حصلوا على التنبؤ بالأحداث المستقبلة من أشخاص يقطنون فى مستويات أعلى من مستوياتهم، فان مفاد ذلك هو مجرد تحريك موضع المشكلة الى خطوة أبعد مما كان ، لكن مع بقائها معلقة بغير حل •

وما يقولونه لنــا من أنهم بمقدورهم أن يصبحو أحيانا متنبهين لحدث المستقبل ، بغير أن يعرفوا كيف جاءهم ذلك التنبيه ، يتلاءم مع اختباراتنا الخاصة • فنحن أحيانا قد تتنبه لاقتراب حدث ما ، بغير أن نعرف كيف استيقظ التنبه فى الوعى •

ولا أشير بذلك الى تلك الحالات النادرة والمثيرة التى يطلق عليهـ « فوق المــألوفة » supernormal بل أتحــدث عن آلاف من تلك الحالات التى تحدث كل يوم عندما نشــاهد ، أو نسمع ، أو نتحسس بأيدينا ، أو نتذوق ، أو ونشم ما قد يحدث فيما بعد • وتثور دهشتنا لذلك رغم أننا نكون قد تعودنا عليها منذ الطفولة ، ونفشــل فى أن نعثر على تفسير لهذه الأحداث التى قــد تتكرر ، وتحدث بانتظام ••• و لانعرف كيف يحدث ذلك • بل يوجــد بين المخ والوعى الشخصى تسلسل غامض لا تتمكن جهود الانسان من فهمه • فنحن ، شأننا فى ذلك شأن مراسلينا الروحيين ، نعلم بدون أن نعرف كيف نعلم بعض الأحداث المستقبلة •

وذات مرة بعــد أن حدثتنى الروح المراســلة الزى Elsie عن التنبؤ بأمرين ثبتت صحتهمــا فيما بعــد قالت « أنا لا أعرف كيف

ولا لمـــاذا ، لكننى أعلم فقط أن هذا سوف يحدث • فهناك حالة تبـــدو كما لو كانت عبارة عن وضع أصبع الانســان على قلب الحقيقة ، لكن بدون أن يعرف هذا الانسان كيف وصل اليها • ان يرقية الحقيقة موجودة أمامى ، وهى تنبىء بالصدق • وأحيانا أعرف أن شيئا ما صحيح ، لكن لا أعرف كيف ولا لمـــاذا » •

ثم قالت الزى « ان ما يحدث هو الحاضر ، لكن اذا كان ثمة شىء قد يحدث مستقبلا ، فهو عندئذ لا يساعد على التنبؤ ••• وهناك أشياء كثيرة قد تحدث وقد لاتحدث ، بحسب سهام الصدفة ، فهى غير موجودة بعد • وهذه السهام هى غالبا عبارة عن استخدام سىء لحرية الاختيار• فهى تتوقف علينا لا على القدر • وما يحدث على التحقق هو الحاضر ، ومن هنـــا تجىء غرابه التنبؤات الصـحيحة التى تجرى عنـــدما يكون موضوعها شيئا يقع خارج النطاق المحدود لمـــا نملكه من رؤية ، ومن أفق » •

ويلاحظ المراسلون الروحيون أحيانا أنهم « يشعرون بقوة » أن حدثا ما سوف يحدث •••• وهـــذا النموذج من التنبؤ الصحيح يعبّر عن الحقيقة الأساسية من التنبه awarness • وهو يذهلنا بوصفه أمرا غريبا لأنه أقل شيوعا من صور التنبؤ الأخرى التى تحدث معنا فى وعينا اليومى • فحين يصبح المراسلون الروحيون أحيانا متنبهين الى قرب حدوث الأحداث التى قد تجرى فى المستقبل القريب ، فاننا نكون متنبهين على وجه الدوام للأشياء التى تجرى بالقرب منا ، وهذا التنبه هو لغز فى حد ذاته اذا ما حاولنـــا أن نتفهمه عن طريق حواسنا •

وأولئك الذين يدركون أن الحياة بعد الموت تقدّم أفقا بلا حـــدود للتطور التدريجى يكون من المنطقى أن يفكّروا فى أن بعضا بالأقل من

أولئك الذين توفوا منذ آلاف من السنين الماضية يكونون قد حصلوا على مستوى من الادراك ومن طاقات العقل يتجاوز بكثير مدى امكانيات تصورنا .

وحتى على الأرض هناك جماعات متخلفة من البشر تقطن الغابات ، لم تتحدث مع أجانب عنها ولا مع سياح ، ويستحيل عليها تماما أن تدرك شيئا عن تنفيذ بعض الأمور اليومية المألوفة عند المتطورين ، ويستحيل تماما افهامها كيف أننا نسافر بالقطار ، أو نتحدث بالتليفون ، أو نستمع الى الاذاعة ....

وخلال سنوات عديدة لى من الحوار مع أصدقائى فى العالم الآخر ، أصبح لدى وضوح متدفق عن أنهم لم يظلوا متوقفين على حالهم بشأن طاقة العقل ، بل لقد تزايد عندهم نشاط العقل واحراز المعرفة .

وعندما يضع أى انسان فى الاعتبار مدى نمو القـدرة على المعرفة خلال سنوات قليلة على الأرض تمضى بين المراهقة والبلوغ ، يمكنه أن يتصور بسهولة مدى التطور الذى يمكن أن ينعم به أولئك الذين أمضوا قرونا عديدة هناك ، بدون أن تعوق أوجه نشاطهم فترة من النوم تستغرق ثلث وقتهم (كما نفعل نحن) ....

وما لم نتخلص من أوهام مخادعة معينة فليس بمقدورنا أن نحصل على بعض حقائق الوجود العسيرة الفهم التى منها طبيعة الوقت .

* * *

ثم ان طاقاتنا العقلية تطورت وهى تصـارع احتياجاتنا المـادية ، وتبدو عاجزة حتى الآن عن أن تفهم فهما صحيحا بعض الحقائق مثل ماهية المكان ، ومثل دوام الزمان بلا بداية ولا نهاية ، ومثل كيفية عمل الذاكرة والادراك . وقد يكون تفهم التوقع الصرف لأحداث المستقبل أقل صعوبة من هذه الأمور ، ومع ذلك فهو عسير ــ بما يكفى ــ على طاقاتنا العقلية الراهنة .

وبمقدور بصر الانسان أن يرى الى مسافة محدودة من حوله • لكن بمقدور التلسكوب أن يكشف لبصره عن أبعاد واسعة فى الفضاء ، بل الى أبعاد فشلوا فى الوصول الى حدود لها ، لأن ما وراءها يتجاوز بكثير حدود الابصار •

كذلك الشأن أيضا عندما يحاول العقل أن يستكنه ما يتجاوز حدود حياته المادية والاجتماعية من حوله ، فانه سيجد نفسه فى حيرة لكى يعرف كيف رست الأرض تحت قدميه ، أو ماذا يجرى من أحداث فى قلب الأرض ؟ وخيال الانسان هو وسيلته فى هذا الموضوع وفى غيره ••• ولذا فان الغالبية العظمى من البشر تفضل أن تتقبل الحياة على علاتها ، وبحسب قيمتها الظاهرة تاركة للعلماء وللفلاسفة أن يبحثوا وأن ينقبوا فى تلك الأمور التى لا يبدو أنها متصلة مباشرة بمطالبنا أو بمباهجنا •

ومن المدهش أن الناس يتقبلون الاحساس بالوقت بنفس الأسلوب، ولا يتنبهون لما فيه من لغز ، ولما يتصل بهذا اللغز من احتمال التنبؤ الصحيح ببعض أحداث المستقبل • وهم يظلون مقتنعين بسبب الاختبار الروحى بأنهم كلما خطوا الى الأمام خطوة ثابتة فى طريق أداء الواجب ، فانه ستتضح لهم أبعاد أطول لهذا الطريق خطوة فخطوة ، بفضل عناية الله التى عبّدت لهم مقدما هذا الطريق • ولمثل أولئك الأشخاص يبدو الارشاد الروحى فى حياتهم حقيقة واقعة •

وليسوا قلائل من بيننا أولئك الذين بمقدورهم أن يشهدوا بثقة أن يد الارشاد تقود حياتنا • فاذا ما نظرنا الى الوراء عبر السنين ، يمكننا أن نشاهد بوضوح كيف، أن أبوابا معينة كانت مغلقة فى وجوهنا مع أننا كنا نتمنى أن ندخل منها ، بينما أن أبوابا أخرى فتحت أمامنا على غير توقع منا ، فقادتنا الى طرق لم نكن نعلم عنها من قبل شيئا •

ولكى نجعل هذه الحقيقة حية فى عقل الانسان المتشكك يكفى أن تسرد قصة انسان ما • فاذا كان هناك انسان يميل الى أن ينسب « الحياة

الخاضعة للارشاد » guided life الى محض تسلسل عدد من الصدف السعيدة ، فانه يكون أدنى منطقا بقليل من انســان آخر يزعم ان تلك السيارة التى تسير فى ازدحام شديد تنجو من التصــادم ، وتلتزم الخط الصحيح للسير ، بسبب سلسلة من الحركات السعيدة وليدة الصدفة ، التى ليس من ورائها يد مسئولة تمسك بعجلة القيادة ....

وعنــدما يثار أى نقاش بشأن التوقع الصحيح أو التنبؤ بأحــداث المستقبل فان مشلكة الجبر والاختيار تثار عادة . وكثيرون شعروا ازاءها بالحيرة وبالصعوبة .... وأنا مقتنع بأن كل واحد منا يملك حرية اختيار داخل حدود متسعة ، ولذا فهو مسئول عن الاختيار الذى يقوم به .

فنحن على هذه الأرض نصنع أخلاقنا بسبب اختيار ما هو أسوأ ، أو ما هو أحسن ، أو الأحسن . والاختيار يشكل طبع الذات التى هى أنفسنا . وبقدر ما نحسن التشكيل هنا ، بقدر ما يكون الطبع حسنا عند وصولنا الى ذلك العالم الآخر . فسوف نجد أنفسنا مؤهلين تأهيلا قويا أو ضعيفا لكى ننعم مباشرة بتلك الفرص الأوسع لتلك الحياة ، أوبالعكس سنجد هذه الفرص محدودة بمقدار حدود عجزنا ، وقصور طبعنا (١) .

* * *

ثم يضيف الأسقف توماس قائلا : اننا هنا بلا ريب فى وسط مكان وزمان بلا حدود ، فهل حدث ذلك بمحض صدفة عمياء ، أم هو نتيجة تخطيط نافع بعيد المدى ؟ ان هدفى من الكتابة هو أن أحمل القراء الى نفس اليقين المشرق الذى نعمت به طويلا ، وهو يقين يسبغ على هــذه الحياة الدنيا مغزى موفور الثراء ، بالاضافة الى رؤية واسعة الأفق نحو السـمـاء .

وكما قال هوايتير Whittier فى نشيده :

---

(١) تلخيص عن درايتون توماس . المرجع السابق صفحة ١٠١ — ١١١ .

لمــاذا وكيف ؟ ان الله يعلم كل شيء •
فقط أنا أعلم أنه رحيم •
وأن كل ما قد يجرى الى الأبد •
هنا أو هناك لابد وأن يكون أفضل ما فى الامكان •

والخاتمة التى خرجت بهـا من البيّنات التى تخيّرتها — وهى من ثمار حصاد ثلاثين عاما من البحث — من شأنها أن تعزز تعاليم الدين عن أسلوب الحياة الذى يتعين على الانسان أن ينتجهه • فاذا اتبعناه ، فاننـا نسير الى طريق الحياة التى وصفها السيد المسيح بالحياة الأبدية ، أى تلك الحياة الأكثر وفرة•وهذا هو الأسلوب الذى يتسق مع الحياة فى تلك الممالك السماوية المخصصة للصالحين •

وأولئك الذين يتعلمون كيف يحيون على هذا الأسلوب سوف يجدون أنفسهم معدين للحياة السعيدة • أما اذا فشل الانسان فى آن يعـد نفسه للحياة السعيدة التى تلى الموت فسوف يجد نفسه مجبرا على العيش فى مناطق غير سعيدة ، حتى يستعيد تلك الدروس التى أهملها ، ويصبح قادرا على الارتقاء •

وأعظم هدف لمراسليّ الروحيين كان هو تعليمنا ذلك • وعنـدما وصفوا لنا حياتهم ، وشتى صور نشاطهم فى العالم الآخر ، فذلك على أمل أن يتأكد بنو البشر أن هناك فعلا ما يستحق تحمل العنـاء لأجله ، وما يستحق التطلع نحوه الى الأمام ، والاستعداد للوصول اليه عن طريق الصلاة ، والجهد الشاق •

وأسأل الله يبارك كتابى هذا ، ويجعل منه مصدرا لكى يلهم قراءه ايمانا بالله أكثر حيوية مما كان ، وأملا أقوى مما كان نحو المستقبل،وحبا أكثر التهابا نحوه ، ونحو كل بنى البشر (١) •

---

(١) عن المرجع السابق ص ١١٤ — ١١٥ .

وقائع أخرى عن تنبؤات صحيحة

واذا كان العلماء قد حيرتهم ظواهر التنبؤات الصحيحة وكلما تقدموا في الدراسة عنها وجدوا ظواهر أخرى أكثر اثارة ، مما يتطلب بحثها أن يبدأوا من حيث انتهوا • ولعل من أغرب ما وقع وأعجب ما حدث ، ما نشر في معظم صحف ومجلات العالم في شهر أبريل عام ١٩٧٧ وكانت عناوين ما نشر في صحفنا المصرية (طالب أمريكي يتنبأ بأكبر كارثة طيران ، أغرب من الخيال • طالب أمريكي تنبأ بكارثة طيران وتصادم طائرتي الجامبو) •

أما هذا الحدث الغريب الذي وقع فقد نشر عنه « توجه عدد من علماء النفس في جامعتي هارفارد وكاليفورنيا الى مدينة درهام Durham في كارولينا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية لاجراء دراسات نفسية على الطالب لي فريد Lee Fred الذي طلب من عميد جامعة ديوك في درهام الاحتفاظ بمظروف كتب فيه رسالة خاصة في حضور عدد كبير من أساتذة الجامعة وأغلقه على أن يفتح المغلف في تاريخ ٢٩ مارس أي بعد ثمانية أيام من تحرير الرسالة • وفي نفس التاريخ فتح عميد الجامعة بحضور الأساتذة المظروف المغلق وسرعان ما أصيب الجميع بالذهول اذ كانت به الرسالة التالية :

سيدي العميد :

في كل مرة تشكون في امكاناتي التي لا أعرف مصدرها وتقولون أن التنبؤ خرافة • هذه المرة لن يتمكن أحد من الشك في امكاناتي •• انني أتوقع أن أقرأ يوم الاثنين القادم ٢٩ مارس على الصفحة الأولى من صحيفة نيوز اند أوبزرفر وصحف العالم برمته ما يلي :

«مصرع ٥٨٣ شخصا في حادث تصادم طائرتي بوينج ٧٤٧ في أكبر كارثة في تاريخ الطيران » •

وذهل أساتذة الجامعة وطلبوا من بعض الاخصائيين فى جامعتى هارفارد وكاليفورنيا الحضور بسرعة لاجراء فحوصات على الطالب لمعرفة أسباب هذه الظاهرة الروحية بعد أن تحقق ما توقع تحديدا •

فكيف أمكن لهذا الطالب أن يرى حادث تصادم طائرتين من نوع البوينج سيقع بعد ثمانية أيام ويحدد عدد القتلى تحديدا قاطعا بل ويقرأ عناوين الصحف التى ستصدر يومها •• هل يمكن للعلم أن يفسر ذلك الا بأنها ومضة روحية فيها تحررت الروح من سلطان الجسد — نترى المستقبل فى جزئية منه — حاضرا ••

وهذا الذى تنبأ بحريق نيويورك الذى وقع أخيرا •• قبل أن يقع بيومين وقرأ عناوين الصحف التى ستصدر بعدها — فقد نشرت مجلة أكتوبر فى عددها الصادر آخر يوليو عام ١٩٧٧ وتحت عنوان (الرجل الذى تنبأ بحريق نيويورك) ما يلى « أحد الأمريكيين الذين يعملون بالسحر أرسل خطابا الى رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمس وطلب اليه أن يفتح هذا الخطاب • وبعد يومين عندما فتحوا الخطاب وجدوا الساحر يقول : سوف تكون عناوين الصفحة الأولى فى جريدتكم اليوم هكذا « اظلام تام فى المدينة •• القبض على مئات من اللصوص » وهو بالضبط ماجاء فى الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمس » •

ان أمثال هذه الحوادث كثيرة ومنتشرة ولا تعليل لها — الا عن طريق الدراسات الروحية — التى تضعها تحت ظاهرة ومضات روحية لرؤية أحداث قادمة •

لقد استقر الرأى أخيرا بعد الدراسات العديدة ، وبعد المناقشات والجدل بين المؤيدين والمعارضين على أن هذه الطاقات الروحية حقيقية موجودة وملموسة ومتاحة ولا تحتاج الى برهان لاثباتها •• ولا الى دليل لتأكيدها •• لذلك نجد أن معظم ما يكتبه العلماء من غير المتخصصين فى الروح •• يعترفون فيه بهذه القدرات الروحية بل ان كبار الأطباء وعلماء

التشريح وأساتذة الجراحة قد تضمنت كتاباتهم النصوص الصريحة على وجود هذه الطاقات .. فيقول حجة الطب الدكتور الكسيس كاريل (١) فى كتابه (الانسان ذلك المجهول) ما نصه :

« ان وجود الاستشفاف والتواصل عن بعد هو من المعطيات المباشرة للملاحظة ، يدرك ذوو الجلاء البصرى بدون وساطة أعضاء الحس أفكار شخص آخر وهم يعرفون كذلك أحداثا بعيدة ان قليلا أو كثيرا فى المكان والزمان ، هذه المقدرة خارقة وفريدة فى بابها ، انها لا تنمو الا عند عدد قليل جدا من الأشخاص ولكنها موجودة فى حالة بدائية عنـد كثير من الأفراد وهى تمارس دون جهد وبطريقة خاطفة ، وهى تبدو بسـيطة جدا لمن يمتلكونها ..

وهى تتيح لهم معرفة بعض الأشياء معرفة أكثر يقينا من تلك التى يحصلون عليها بأعضاء الحس ، فهم يرون أفكار أى شخص بالسـهولة عينها التى يحللون بها تعبيرات وجهه ، ولكن كلمـة يرى وكلمة يحس لا تعبران تماما عما يحدث فى شعورهم .. وهم لا يرون ولا يحسون ، وانما يعرفون .. ويبدو أن قراءة الأفكار والأحاسيس تمت فى آن واحد بصلة للوحى العلمى ، والجمالى ، والدينى . وأيضا ظواهر التواصـل عن بعد ، اذ يحدث فى كثير من الحالات تواصـل عند الموت أو الخطر الشديد بين شخص وآخر . فيظهر الشخص المحتضر أو ضحية الحادث حتى ولو لم يعقب الموت هذا الحادث لحظة فى صورته المـألوفة لأحـد أصدقائه وكثيرا ما يظل الطيف صـامتا .. وأحيانا يتكلم ويخبر عن موته ..

وأندر من هذا أن يرى صاحب الاستشفاف على مسافة كبيرة منظرا أو شخصا أو مسرحا لبعض الحوادث يصفها وصفا صحيحا دقيقا .. وقد

---

(١) مدير معهـد باسـتير بنيـويورك وحائز على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا . راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٧٢ — ٧٣ .

وقع لأشخاص عديدين ليسوا موهوبين عادة بالاستشفاف مرة أو مرتين خلال حياتهم أن خبروا التواصــل عن بعد ••• ومن المؤكد أن الفكر يمكنه الانتقال مباشرة من كائن بشرى الى كائن بشرى آخر حتى واو بعدت الشقة بينهما •

وهذه الحوادث — وهى من اختصاص العلم الروحى الحديث — يجب قبولها كما هى أنهــا جزء من الحقيقة •• وهى تعبر عن جانب من جوانب الكائن الانسان غير معروف على وجهه الصحيح وربما فسرت لنا الاستشفاف البالغ الذى يتمتع به بعض الناس » (١) •

من اختبارات أوستى وريشيه

وفى هذا الشأن يقرر أوجين أوستى Osty مدير المعهد الدولى لمـا وراء الروح بباريس •• فى مؤلفه عن « المعرفة فوق العــادية » (٢) « ان اثنى عشر عاما من التجارب الشخصية فى التنبؤات عن المستقبل على عدد ضخم من الأشخاص أعطتنى يقينا مطلقا أن ثمة كائنات انسانية يمكنها أن تتوقع أحداثا فى حياة غيرها • وفى هذا الشأن لدىّ نفس درجة اليقين التى لدىّ عن وجود ما نسميه الأرض ، والشمس ، والكواكب ، والمعادن ، والنباتات والحيوانات » •

كما يقول أيضا شارل ريشيه (جائزة نوبل فى الفسيولوجيا) بعــد بحوثه الشاقة الدقيقة فى موضوع استشعار الأمور المستقبلة(٣) « ان ثمة نتيجة ينبغى أن تستخلص من جميع هذه الوقائع الخطيرة أحيانا والتافهة

---

(١) عن عبد الرزاق نوفل فى مؤلفه « من أسرار الروح » القــاهرة ١٩٧٧ ص ١٠٨ — ١١٢ • وتوجد وقائع أخرى صارخة عديدة لتنبؤات صادقة عن المستقبل فى الكتاب الآتى :ـ

Mabel Telford : Strings for a Broken Lute London 1971.

(٢) Conaissance Supra Normale.

وله ترجمة انكليزية بعنوان :

Supernormal Faculties in Man

(٣) راجع ما سبق عنه فى ص ١٢٨ — ١٣١ •

أحيانا أخرى ، وهى نتيجة لا يمكن أن تنال منها انتقادات التفاصيل ، وهى أن استشعار الأمور المستقبلة حقيقة قد ثبتت • وهى حقيقة غريبة : بل مفارقة ذات مظهر خارق للعقل ، ولكن الانسان مضطر فى النهاية أن يتقبلها •

ولذا فان بعض الأشخاص يمكنه فى ظروف خاصة — لم يمكن معرفتها بعد — الانباء عن وقائع مستقبلة ، وأن يعطى هذا البعض تفاصيل دقيقة . ودقيقة الى حد أنه لا يمكن تفسيرها عن طريق بعد النظر ، أو التعاصر الزمنى coincidence ، أو الصدفة •

وهؤلاء الأشخاص هم فى الغالب ، ولكن ليس دائما أشخاص يمكن تنويمهم مغناطيسيا ، أو وسطاء •

وبالتالى ينبغى كنتيجة حتمية أن نفترض أن ملكة المعرفة الخاصة ، الغامضة ، المجهولة فى طبيعتها وفى ملابساتها التى سبق أن أطلقت عليها ملكة الادراك خارج الحواس La Cryptesthésie لا تظهر فحسب بالنسبة للأمور الماضية أو الحاضرة ، ولكن بالنسبة للأمور المستقبلة أيضا •

ومعرفة الحاضر الوراء الروحية شاذة الى حد أن معرفة المستقبل لا تبدو أكثر منها شذوذا بكثير فمثلا (أ) يعلم أن (ب) قد غرق فى نفس هذه اللحظة وهو على بعد ألف كيلو متر منه ••• فكيف يتأتى له أن يعرف ذلك ؟ هذا ما نجهله تماما • ومثلا (ا) ينذر أن (ب) سيغرق غدا ، ان هذا لغز أضخم قليلا من سابقه ، وهذا كل ما نعلمه • وفى نطاق الاستشفاف الوراء الروحى ، يكون العجب عميقا ، والغموض كثيفا الى حد أن قدرا قليلا من الفحوص ومن العجب لا ينبغى أن يروعنا ، سواء أكان بالزيادة أم بالنقصان •

وهل ينبغى أن نخلص من ذلك الى أن الوقت ينبغى أن يعد مجرد صورة مشوهة من تكويننا العقلى ؟ وأن كل مستقبل محدد منذ الآن بطريقة نهائية ؟ وأن حرية الاختيار ليست الا مجرد خداع ، وبالتالى فلا ينبغى أن توجد مسئولية خلقية ؟ يمكن أن تؤسس على ذلك مناقشات مستفيضة ، ولكننى لا أريد بالمرة أن أدخل هنا فى اعتبارات قد تنتمى الى « ما وراء الطبيعة » أكثر مما تنتمى الى « ما وراء الروح » • .

ولن أدع نفسى أنزلق الى افتراضات جوفاء ، بل على أن ألتزم بالنطاق الضيق للوقائع ما دامت توجد وقائع ظاهرة ولا نزاع فيها عن استشعار الأمور المستقبلة • أما التفسير فقد يجىء أو لا يجىء فيما بعد ، وهو لا يمكن أن ينال من الوقائع الثابتة غير المشبوهة عن هذا الاستشعار •

وهذه الوقائع هل تعزى الى مجرد قدرة العقل الانسانى أم الى قدرات أخرى عاقلة تؤثر فى عقولنا نفسها ؟ ان من المحال فى الوقت الحاضر البت برأى ، وانما اكتفينا ابتداء بأن نورد هذه الوقائع على وجه الدقة •

وان من الجسارة التى لا تغتفر أن أقول كما قلت باصرار أن ثمة استشعارا للأمور المستقبلة اذا لم تقم الأدلة على ذلك قاطعة ووفيرة وهو ما صنعته فيما أعتقد » (١) •

* * *

ومن التجارب الدقيقة تلك التى تمت مع الوسيطة السيدة بيروتيه Peyroutet داخل « المعهد الدولى لما وراء الروح » • وقد اشترك فيها أوجين أوستى وشارل ريشيه ووردت تفاصيلها فى مجلة المعهد ، وفى كتاب للعلامة ريشيه عنوانه « المستقبل والتنبؤ » (٢) •

(١) عن « كتاب ما وراء الروح » Traité de Métapsychique. طبعة ١٩٢٣ ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .

(٢) L’Avenir et la Prémonition.

والمستفاد من خلاصة هذه التجارب أن التنبؤ لا يمكن أن يتم — فيما عدا حالات نادرة — بصورة كاملة ونهائية • وأنه يزداد وضوحا بقدر اقتراب الحادثة موضوع التنبؤ من التحقق • فقد ظلت السيدة بيرونيه خاضعة لمدة عامين متتابعين لبحوث أوستى وريشيه • وكانت دائمة الاصرار على قرب وقوع حادثة معينة طبقا للتفصيلات الآتية :

— ١٨ مارس ١٩٢٢ : « انكم تواظبون على الحضور بانتظام الى عشاء مقصور على الرجال • أحدهم سيقوم بمغادرة حيث ستحدث حادثة وفاة » •

— ٢٤ ابريل ١٩٢٢ : « سقوط أحد أصدقائك ووفاته • انه رجل علمى » •

— ٢٣ مايو ١٩٢٢ : « موت صديق بسبب حادثة قريبة • وهى حادثة سيترتب عليها تقديم عرض اليك ، ويمكن أن تغير عملك » •

— ٢٠ يناير ١٩٢٣ : « موت مباغت لرجل علم بسبب حادثة • موت اثنين فى رحلة بعيدة » •

— ١٧ فبراير ١٩٢٣ : « حادثة ووفاة لرجل علم تعرفونه • حادثة وسقوط فى مغادرة » •

— ١٧ مارس ١٩٢٣ : « موت بعد صدمة فى الرأس بسبب حادثة • وهذا الموت سيلقى عليك عبئا ، أو عملا » •

— ٢١ أبريل ١٩٢٣ : « موت رجل علم قريب منكم • ألا ترغب فى ركوب الجو يا دكتور ؟ » •

— أول ديسمبر ٩٢٣ : « أى موت هذا هو الذى ستعلم عنه قريبا ؟ ! » •

— ٢٢ مارس ١٩٢٤ : « ستعلم عن وفاة رجل علم تعرفه جيدا • ان طبيبا سيسقط به جهاز متحرك تلقائيا ، بعيدا وهو فى رحلة » •

— ٤ ابريل ١٩٢٤ : « موت قريب منك نتيجة حادثة فى الخارج ، مثل غرق سفينة » .

— ٣١ مايو ١٩٢٤ : « موت فى حادثة لرجل تعرفه . موت فى مغادرة بالخارج » .

— ٩ يوليه ١٩٢٤ : « ان موتا سيسبب لك ذهولا شديدا . حادثة . سفر فى رحلة . موت رجل علم . انقلاب فى حياتك » .

وبعد خمسة أيام من هذه الجلسة الأخيرة ، أى بتاريخ ١٤ يولية ١٩٢٤ ، كان الدكتور جوستاف جيلى Gustave Geley (١) مدير هذا المعهد فى زيارة الى بولندا لحضور بعض التجارب مع أحد الوسطاء ، وسقطت به طائرة خاصة كان قد استقلها لتوه عائدا من وارسو ، وقتل فى الحادث كما قتل الطيار ، ولم يكن فى الطائرة غيرهما .

ويعلق ريشيه على هذه التنبؤات قائلا « كم كان صحيحا كل ما قيل ! ! طبيب . صديق لأوستى . كان يتعشى معه كثيرا . رجل علم . موت لاثنين (اذ قتل الطيار كما قتل جيلى فى الحادث) . فى الخارج فى مغادرة (لأن الحادث حدث بمجرد مغادرة مطار وارسو حيث سقطت الطائرة) . انقلاب فى حياة أوستى لأنه هو الذى حل محل جيلى فى ادارة « المعهد الدولى لما وراء الروح » . ونضيف الى ذلك هذه الاشارة الفريدة بجلسة ٢١ أبريل ١٩٢٣ وهى : « ألا ترغب فى ركوب الجو يا دكتور ؟ » .

ثم يضيف ريشيه أنه « مما هو جدير بالذكر هذا التكرار الذى لا يتوقف لنفس النبوءة : « حادثة . سقوط . موت شخصين . رجل علم . فى الخارج . عند مغادرة » ...

---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء اول ص ١٤٠ — ١٤٢ .

صلة ذلك بالجبر والاختيار

وكانت هذه الحادثة بين العوامل التى دفعت ريشـيه الى اعتناق فلسفة الحتمية déterminisme • لكن أوستى كان يميل الى القول — على العكس من ذلك — بأن المسـتقبل غير محـدد ، وحيوى ، ومتذبذب ، وفى حالة بناء لا يتوقف ، ويبدو أن هذا هو الرأى السائد الآن فى الفقه الروحى والذى يلتئم تماما مع مبدأ المسئولية الأخلاقيـة للانسان عن أفعاله •

ويبـدو أن الفيلسـوف كامى فلاماريون Camille Flammarion كان على حق عندما لاحظ : « أن الانسان يرى ما سيحدث ، على نفس نحو رؤية ما حدث • فاذا كانت الارادة ، والهوى ، والظروف ، قـد أدت الى نتيجة أخرى ، فان هـده النتيجة الأخرى هى التى كان سيراها الرائى • ومن ثم فان رؤية المستقبل لا تنـال من حرية الارادة • كمـا لا تنال منها رؤية المـاضى » •

كما يضـيف فلاماريون قائلا : « ان الوقائع التى كانت تبـدو متعارضة بحسب ظاهرها يمكن تفسيرها الآن عن طريق معرفة الأشياء ، وارتفاع بالون أمر طبيعى كسقوط حجر • فليكف اذا الأخلاقيون عن الاعتراض بوجود بعض نتائج ضرورية محددة مقدما كيما يرفضون قبول امكان حدوث تنبؤات صحيحة عن المستقبل مسلّم بها وخضعت للرقابة • فان التعارض محض أمر صورى،وان الضرورة أو الحتمية déterminisme ليست هى القدرية fatalisme » •

وفى نفس هـذا الموضـوع يقول أوليفر لودج Oliver Lodge « هناك فكرة تضىء لنا هذا الطريق ، وهى أن الزمن مجرد أسلوب نسبى للنظر الى الأشياء • فنحن نتحرك فى وسط ظواهر بسرعة معينة ، ونفس هذا السير الشخصى للأمام يجرى بأسلوب موضوعى ، كما لو كانت الأحداث تسير حتما بنفس هذا الأسلوب الشخصى ، وبنفس السرعة بالضبط ، ومع ذلك فان هذا مجرد أسلوب للنظر الى الأمور •

وفى معنى من المعانى يمكن للأحـداث أن توجد دائمـا بالنسبة للماضى ، وبالنسـبة للمسـتقبل أيضا ، وربمـا نحن الذين نفـد الى الأحداث ، وليست الأحداث هى التى تفد الينا • ويمكن أن يكون مفيدا لنا مثال شخص يركب قطارا • فان هذا الشخص اذا لم يمكنه أن يغادر القطار ، ولا أن يغير سرعته ، فان من المحتمل جدا أن يتصور المناظر كما لو كانت تتتابع أمامه فى الحدوث ، ويصبح عاجزا عن أن يتصور أنهـا كلها موجودة معا من قبل » •

* * *

وهذه الوقائع وتلك عن التنبؤات الصحيحة الدقيقة وفيرة الآن ، ولا تنفى طبعا وجود تنبؤات كاذبة أوفر منها عددا • لكن المشكلة هى فى تعليل التنبؤات صحيحة عندما تتجاوز فى صحتها معدلات الرياضـة للصدفة ، وهو ما حدث فى حالات عديدة كما سبق أن بينت آنفا •

وقـد عرضت فيما سبق لارتبـاط هـذه المشكلة بمشكلة الجبر والاختيار فى أذهان بعض العلماء • وقد أثار أيضا هذه المشكلة واحد من أعلام الرياضيين فى القرن الحالى وهو جون و• ديون John Dunne (١٨٧٥ — ١٩٤٩) فى أكثر من كتاب له منها كتاب بعنوان « تجربة مع الزمن »[1] (١٩٢٧) وقد استعرض فيه نظريته عن المستقبل بوصـفه محددا وثابتا ولا يتغير •

واستند ديون فى ذلك على وجود حالات عديدة لتنبؤات صادقة تتجاوز معدلات الصدفة • ويقول اننا اذا ما احتفظنا بسجل لأحلامنـا التى تحدث فى بضعة شهور لتبين لنـا أن نسبة كبيرة منها قد حققتهـا الأيام •

---

(1) An Experiment with Time.

ولديون عدة مؤلفات هامة لها صلة غير مباشرة بنفس هذا الموضوع منهـا : « الكون المتعـاقب » (١٩٣٤) The Serial Universe
و « الخلود الجـديد » (١٩٣٨) The New Immortality
و « لا شيء يموت » Nothing Dies

والى جانب الأحلام توجد أيضا مواهب للكتابة التلقائية والمباشرة ، والغيبوبة الوساطية ، وقد تكشّف استخدام بعضها عن عدد من التنبؤات الصادقة التى أثبتت الأيام صحتها فيما بعد ، بالاضافة الى التنبؤات التى تبين عدم صحتها . وكأن الأمر يتوقف على اعتبارات كثيرة : منها مستوى الكائن المهيمن ، ونوع الهيمنة ، ومداها ، ومدى اقتراب الحادث المستقبل ، ونوع الموهبة الوساطية .

ومع التسليم بامكان حدوث بعض تنبؤات صحيحة عن أحداث مستقبلة فاننا نميل الى الاقتناع بالرأى الذى أسلفناه على لسان مارسيل أوستى من أن « المستقبل غير محدد ، وحيوى ، ومتذبذب ، وفى حالة بناء لا يتوقف » . وهو ما عبر عنه فلاماريون بأن « الانسان يرى ما سيحدث على نفس نحو رؤية ما حدث ... ومن ثم فان رؤية المستقبل لا تنال من حرية الارادة ، كما لا تنال منها رؤية الماضى »(١) .

وهذا القول يبدو مفهوما عندما نضع فى الاعتبار أن المستقبل والماضى لفظان لا معنى لهما ولا قيمة عند الغاء فكرة الزمن ، والنظر الى الكون بوصفه عالما مستقلا عن الزمان والمكان بالمفهوم الذى ترتبط به نفوسنا المادية التى تخدعنا عن كل كبيرة وصغيرة بشأن الاحساس بالزمان وبالمكان .

* * *

ولاوضح اقتناعى الخاص فى هذا الشأن أقول انه اذا كانت الأحداث المستقبلة تلقى ظلها على نحو أو آخر قبل وقوعها(٢) ، ويكون الظل

---

(١) وراجع ما سبق عن العقل والأحلام فى ص ٥١٢ — ٥٥٠ .
(٢) مع مراعاة أن تعبير « الظل » هنا تعبير مجازى صرف ، واذا أردنا التعبير الحرفى يكون الظل هو محض الذبذبات التى يحدثها تسلسل الأحداث فى الأثير ، والذى يتعذر الوصول الى جانب يسير منها الا عن طريق الادراك خارج الحواس E. S. P. فى النوم ، أو فى الغيبوبة الوساطية ، أو فى شبه الغيبوبة ، أو فى اليقظة فى حالات نادرة جدا .

واضحا الى حد التأثير فى وعى أحد الأشخاص فى النوم أو فى اليقظة ، والى مدى قد يتفاوت بطبيعة الحال فى قوته وفى أبعـاده ، فان مقتضى ذلك — وهذا فيما يبدو ما يسلم به الباراسيكولوجى المعـاصر — هو أن أحـداث المستقبل تكون مرتبطة — على نحو أو آخر — بمسـيرة أحداث الحاضر ، وتكون المسئولية عن هذه وتلك لاتزال قضية محايدة، ويكون فى احتمال التنبؤ الصحيح بحدث ما من أحـداث المسـتقبل ما قد يدعم قانون العلية بغير بغير أن ينفى قانون الحرية •

وتكون هذه القدرة على استشعار بعض الأمور المستقبلة ليس من شأنها أن تنفى وجود قدر ما من حرية الارادة ولو كان محدودا بالأقل بالنسبة لأحداث الحاضر • وكل ما تكشف عنه قدرة التنبؤ الصـحيح ببعض أحداث المستقبل مهما كان التنبؤ محددا واضحا هى الغاء بعض أضواء على قانون العلية الطبيعية ، أى « أن نفس الأسباب تنتج نفس النتائج » •

وهذا القانون كما يربط بين تسلسل أحداث المـاضى والحاضر ، يربط أيضا بين تسلسل أحداث الحاضر والمسـتقبل ، وهو ما عبّر عنه الفيلسوف كامى فلاماريون عندما قال « ان رؤية المسـتقبل لا تنال من حرية الارادة ، كما لا تنال منها رؤية المـاضى » •

وهذا القول يتسـق مع تلك الحقيقـة الكونية التى يسـلم بهـا الباراسيكولوجى أيضا ، وهى أن مفاهيم المـاضى ، والحاضر ، والمستقبل، نسبية ، لأن الطبيعة تحيا متحررة من قيود المكان والزمان • وأنها بشأن الزمان بالذات تحيا فيما يصح أن يوصف بأنه « الحاضر الأزلى » وهـو تعبير متداول فى الكتب التى عالجت موضوع صلة حواس الانسـان بالزمان والمكان •

ومفهوم « الحاضر الأزلى » لعـالم الأثير لا يخرج عن كونه مجرد رتبة من رتب اهتزاز الأثير • فهو يحيط بنا من كل جانب ويتخلل عالمنـا

المـادى فى كل ذرة من ذراته ، ولذا فهو يوصف بأنه عالم الدالة Psi أو عالم البعد الرابع فى هذا الكون الذى لا تعرف له حدود .

أو هو بالأدق من داخل عالمنا لكنه على مستوى اهتزازى مغاير ، وله طول موجة مغايرة . وكل ما يلزم للاتصال به هو وجود جهاز استقبال له قدرة خاصة على ضـبط الموجة الصحيحة على « برامجه » . وهـذه القدرة المحدودة قد تحوزها فئة ضئيلة — بل نادرة — من بنى البشر . وهذه هى فئة وسطاء الادراك عن غير طريق الحواس E. S. P. أى أولئك الذين يحوزون قدرة خاصة على استشفاف بعض الظواهر عن طريق ملكات الاحساس الكامنة فى الجسد الأثيرى ، بلا حاجة لتوسيط أدوات الحس المـادية .

واذا ما رسـخت هذه المفاهيم فى أذهاننا — وكلها يسـلم بهـا الباراسيكولوجى فى طوره الراهن — فانه يصبح بمقدورنا أن نعرف كيف يمكن لآحاد من أولئك الأشخاص أن يلتقطوا بعض « اذاعات » أو ذبذبات الأثير التى قد تكون بمثابة معالم على طريق أحداث المسـتقبل . بدون أن تلغى هذه التنبؤات دور الارادة البشرية بوجه عام فى توجيه أحداث الحاضر ، وبالتالى فى الاعداد لأحداث المستقبل عن طريق رابطة العلية الطبيعية (١) .

ويضاف الى هـذا كله اعتبار له قيمته القصوى وهو أن الكائنات كلها تسير فى موكب طويل من درجات التطور المتفـاوتة من مرحلة الى

---

(١) وقد يكون أيضا عن طريق التعاصر أو التلازم الضرورى خارج رابطة العلية Synchronicity بحسب وجهة نظر العلامة كارل يونج Karl Jung (راجع ما سبق فى ص ٨٠ ، ٤٨٤ — ٤٨٦) .

وراجع للمزيد بوجه خاص المجلد الثامن من مجموعة أعماله وعنوانه « تكوين وديناميكية الروح » The Structure and Dynamics of the Psyche لندن ١٩٦٩ ص ٤١٧ — ٥٣١ .

وبهـذه الصفحات تجـد دراسـة علمية بالغة العمق والاحكام عن موضـوع التنبؤات الصـحيحة بالمستقبل وأساليب تحليلهـا رياضيـا وتعليلهـا علميـا .

مرحلة أخرى . وأنهــا كلهــا لاتزال بحــاجة الى المزيد من العــلم ، ومن الثقافة،ومن الخبرة ... ولتحقيق هــذا كله كانت حياة بنى البشر فى الأرض ، وفى الأثير أيضا .

عن الصلة بين التخاطر والتنبؤ والسيكومترى

والتنبؤ الصحيح ببعض أحداث المستقبل على النحو الذى أوردت بعض نماذج منه فى الصفحات المــاضية لا يجب أن يختلط ببعض الظواهر الأخرى الخاصة بالادراك عن غير طريق الحواس E. S. P. التى هى أحد الأبواب الرئيسية فى الباراسيكولوجى .

ومن تلك الظواهر المتعلقة بالادراك عن غير طريق الحواس ظاهــرة التخاطر Telepathy أى تلك القدرة على معرفة ما قد يجول بداخل وعى انسان ما من أفكار أو من مشاعر . وهذه القدرة الغريبة قد سلم بهــا تماما العــلم المعاصر وفيها يقول كارل يونج « ان أى انســان له أدنى معرفة بمادة الباراسيكولوجى كما هى قائمة الآن بالفعل ، وكما تم تحقيقها بعناية ، سوف يعلم أن ظواهر التخاطر telepathic phenomena تعبر عن وقائع لا يمكن انكارها . وأ نالدراسة الموضوعية الناقدة لعمليات المسح التى تمت بشأنها كفيلة بأن تثبت أن عمليات الادراك تحدث كما لو كانت مستقلة فى جانب منها عن المكان ، وفى جانب آخر منها عن الزمان » (١) .

ومن أهم اختبارات التخاطر فى تاريخ الباراسيكولوجى تلك التى جرت بين رائد الفضاء ادجار ميتشل Edgar Mitchell عنــدما كان فى سفينة الفضاء أبوللو ١٤ وبين « مؤسسة البحث فى طبيعة الانسان »(٢) التابعة لجامعة ديوك عندما كان يديرها العلامة جوزيف بانكس راين .

---

(١) عن مجموعات مؤلفــات يونج . الجزء الثــامن بعنوان « تكوين وديناميكية الروح » .

The Structure and Dynamics Of The Psyche London 1969 P. 413. Publisher : Routledge & Kegan Paul.

(٢) Foundation for Research on Nature of Man.

وقام علماء المؤسسة بتحليل النتائج فكانت ايجابية ووفيرة(١) • وهناك اختبارات متنوعة للتخاطر جرت فى جامعات هارفارد Harvard وكامبريدج، وأوتريخت ، وفى معهد للهندسة العسكرية فى زيوريخ بسويسرا (٢) •

وهذه الاختبارات عن التخاطر لا تجرى الآن لوجه العلم فقط ، بل لقد تبين أن لها استخدامات حربية هامة يمكن أن يستنتجها القارىء بسهولة • ولذا تنفق عليها بسخاء الآن ادارة البحرية الأمريكية • ويوجد حاليا تنافس شديد فى هذه التجارب بين أمريكا والاتحاد السوفيتى خصوصا منها تجارب التخاطر من مسافات بعيدة والتى تجرى بالفعل الآن بين بعض القطع الحربية وبين بعض الغواصات التابعة للدول المعنية•

وذلك رغم أن غلاة الماركسيين كانوا ينظرون فيما مضى بحذر شديد ــ بل بمقاومة أحيانا ــ لكل ما يجرى بشأن اختبار الملكات الروحية الدفينة فى الانسان • بل انه الى حين وفاة ستالين كان من الخطر على أى عالم سوفيتى أن يعلن اقتناعه بوجود شىء من هذه الملكات • أما الآن فان الاتحاد السوفيتى أصبح يحاول ــ بكل السبل ــ اللحاق بالغرب فى شتى مجالات الباراسيكولوجى ، واختبارات الملكات الروحية بوجه خاص •

ومن الملكات الروحية أيضا « تتبع الأثر الروحى » Psychometry أو قياسه فى الزمان أو فى المكان • ومفاده أن يعطى وسيط السيكومترى سلعة مملوكة لشخص ما مثل صورة أو ساعة أو قلم أو منديل ••• فيتمكن الوسيط من الانباء الصحيح عن بعض معلومات خاصة بصاحب هذه السلعة سواء أكان حاضرا أم غائبا ، وسواء أكان صاحبها حيا أم ميتا (٣)•

---

(١) René Bertrand : La Télépathie. Paris 1977 P.P. 23—38.

(٢) وأقامت بعض الشركات الكبرى بعض معامل لدراسة التخاطر : منها فى أمريكا شركتا « جنرال الكتريك » و « تليفونات بل » Bell Telephone وغيرهما ••••

(٣) واتضح أن بعض الأرواح يملك أيضا هذه القدرة النادرة على تتبع الأثر الروحى السيكومترى . وأحيانا تكون قد بلغت درجة عالية =

ويشترط دائمـا أن تكون المعلومات التى يقدمها وسيط السيكومترى تتجاوز معدلات الصدفة بحسب قوانين الرياضة الحديثة .

وهناك اختبارات عديدة الآن فى هـذه الظاهرة وقد جاءت بنتائج ايجابية تتجاوز بكثير احتمالات الصدفة calculation of probabilities وقد اختبرت هذه الظاهرة بنفسى فى عدة مناسبات على وسيطات أجنبيات فى مصر والخـارج ، فكانت الاجابات فى كثـير من الأحيان صـحيحة بل مذهلة .

ولعل من أحسن النتائج فى اختبارات السيكومترى تلك التى وصل اليها العالم الألمـانى و.هـ.ك تنهايف W. H. C. Tenhaeff الأستاذ بجامعة أوترخت Utrecht بهولندا ، وقد أسس فيها منذ سنة ١٩٥٢ معهدا باسم « معهد الباراسيكولوجى بجامعة الدولة بأوترخت » (١) . وهو يواصل فيه اختباراته منذ هذا التاريخ حتى الآن . وحاز تنهايف سمعة عالمية ، وأصبحت أعماله بمثابة وثائق حاسمة فى أمور عديدة .

ومن أهم اختبارات تنهايف فى السيكومترى تلك التى أجراها على وسيط ألمـانى أثار الدهشة البالغة فى كل مكان يدعى جيرالد كروازيه Gerald Croiset . ووجه الدهشة فى نشاط هذا الوسيط أنه لا يتنبىء فقط عن بعض أحداث صحيحة وقعت فى المـاضى ، بل نجح ــ بنسب عالية ــ فى الانباء عن بعض أحداث المستقبل التى قد تتعلق بسـلعة ما من السلع .

= من التطور . للمزيد راجع كتاب « أصوات من الفضاء » Voices from the Void للسيدة هستر ترافرز سميث . ترجمة رمسيس جبراوى المحامى . القاهرة ١٩٧١ ص ١٢٥ ــ ١٤٠ . (الناشر مكتبة الانجلو المصرية) .

(١) Institut de Parapsychologie de l'Université d'Etat

وهو يصـدر نشرة بأعمـاله Bulletin باللغة الانكليزية عنـوانها « خطاب مبحثى Research Letter لقسم الباراسيكولوجى . المعمـل الروحى التابع لجامعة أوترخت » .

وهذه الاختبارات تعتبر لهذا الغرض مزيجا مركبا من السيكومترى، ومن الانباء الصحيح عن أحداث المستقبل fortelling وقد أيدت بصورة حاسمة ما سبق أن سجله بعض العلماء الفرنسيين من قدرة بعض الوسطاء على استشفاف بعض أحداث المستقبل استشفافا صحيحا . ومنهم العلماء مارسيل أوستى M. Osty وجوستاف جيلى G. Geley وباسكال فورتينى Pascal Fortuny

ماذا عن « اختبارات المقاعد » ؟

فقد ابتكر فورتينى اختبارا يوصف بأنه « اختبار المقاعد » اذ كان يختار مقعدا عاديا لا يختلف فى شيء عن سائر المقاعد التى سوف توضع فى أى اجتماع لاحق ، وكان الوسيط ينجح أحيانا فى اعطاء معلومات صحيحة مسبقة عن الشخص الذى سوف يجلس على هذا المقعد فى الاجتماع المقبل بعد يومين . وكانت هذه المعلومات أحيانا مذهلة من ناحية صحتها ودقتها ، ولا تترك غموضا ما حول خصائص الشخص الذى سوف يجلس على هذا المقعد .

وكان نجاح بعض الوسطاء قويا الى حد دفع جانبا من القراء الى الشك فى صحة النتائج . لكن تولى تنهايف استعادة نفس هذه الاختبارات مع جيرالد كروازيه[1] بأسلوب متطور مستعينا ببعض زملائه من أساتذة جامعة أوترخت فى تحقيق النتائج .

ومنها أنه بتاريخ ٧ يناير ١٩٥٧ كان يوجد فى قاعة من قاعات « معهد الباراسيكولوجى بجامعة أوترخت » سبعة وثلاثون مقعدا ، فاختار كروازيه واحدا منها مماثلا تماما للباقين ، وأعطاه رقم « ٩ » ثم سجل انطباعاته الخاصة عن الشخص الذى سوف يجلس على هذا المقعد .

---

(١) وذلك بعد أن نجح كروازيه فى الارشاد الصحيح عن أمكنة بعض المسروقات ، أو بعض الجناة ، أو بعض الأشخاص المفقودين وظروف انقطاع أخبارهم .

ولم يعط كروازيه أوصافا شائعة أو غامضة لهذا الشخص المجهول، بل أعطى أوصافا محددة دقيقة يبلغ عددها اثنى عشر وصفا له تتضمن شكله الجثمانى ، بالاضافة الى العديد من الأحداث الماضية التى مرت به أو ببعض ذويه •

ودون كروازيه بعض هذه الأوصاف مقدما كالآتى : « فى يوم الجمعة أول فبراير من سنة ١٩٥٧ سوف تجلس على المقعد رقم (٩) سيدة شابة ذات حيوية ووسامة فى منتصف عمرها ، معنية بالشئون الاجتماعية ، ومهتمة كثيرا بالعناية التى يتعين بذلها للأطفال » •

ولكى يدرأ كروازيه أى احتمال للقول بالصدفة كتب أيضا عنها ما يلى « انها معنية بالرسم وتستخدم صندوقا قديما به ألوان • وجرحت فى أحد أصابع يدها اليمنى ، وشاهدت أوبرا فولستاف Falstaff بانفعال شديد • وكانت هذه هى أول رواية أوبرا تشاهدها » •

ثم كتب ما يلى « تلقى والدها هدية من ذهب بسبب خدمات أداها • وهو جنتلمان متقدم فى السن ••• » • كما ذكر واقعة متاعب حدثت لطفلة قريبة لها عند ذهابها لطبيب أسنان ••••

وفى اليوم التالى أعطى كروازيه مزيدا من البيانات الاضافية • وفى الأيام اللاحقة طبعوا له كل تنبؤاته عن الشاغلة المرتقبة لهذا المقعد رقم (٩) • ووضعوها فى مظاريف مغلقة وعلى كل مظروف منها رقم خاص به •

وفى يوم أول فبراير ١٩٥٧ الساعة السابعة مساء سافر تنهايف خصيصا الى مدينة لاهاى ومعه مساعدوه • ثم توجهوا جميعا الى سيدة صاحبة عمارة لا يعرفونها من قبل فسمحت لهم باجراء اختبارات فى عمارتها • وعندئذ اختاروا قاعة واسعة من الدور الأول ووضعوا فيها ستة صفوف من المقاعد المتماثلة تماما يحتوى كل صف منها على خمسة مقاعد طبقا لخطة مدروسة •

وكان تنهايف ومساعدوه قد وجهوا عدة دعوات الى بعض معارفهم من أولئك المقيمين فى لاهاى للحضور والاسهام فى التجربة بغير أن يعرفوا ماهيتها • ولما حضروا تسلم كل واحد منهم مظروفا من تلك المظاريف المغلقة التى كانت موضوعة على عدة مناضد بالقاعة • وكان كل مظروف منها يحمل رقما خاصا •

وأخذ الوافدون يشغلون المقاعد الموجودة تباعا ، وظل المقعد رقم (٩) وحده شاغرا بدون أى سبب مفهوم • ولم يكن هناك أى رقم ظاهر عليه ، أو على غيره من المقاعد الموجودة بالقاعة •

وبعد ذلك طلب الى الحاضرين أن يفتحوا المظاريف ويتعرفوا على التنبؤات الاثنى عشر المتعلقة بالشخص الذى سوف يجلس على المقعد الوحيد الذى كان لايزال شاغرا • وكان كروازيه هو آخر الداخلين الى القاعة حتى لا يتصل بأى شخص من الحاضرين •

وكان ذهول الحاضرين يفوق كل وصف عندما تبين أن السيدة التى جاءت ثم جلست على هذا المقعد رقم (٩) الشاغر تنطبق عليها جميع الأوصاف التى حددها كروازيه من قبل بكل تفصيلاتها الدقيقة المذهلة • حيث اتضح أنها سيدة وسيمة ، فى الخامسة والأربعين من عمرها •

وقد أبدت السيدة نفسها ما ذكره كروازيه عنها من أنها سبق أن تلوثت أصابعها بسبب استخدام علبة ألوان قديمة للرسم • وأنها أصيبت بجرح فى اصبعها البنصر عند فتح علبة طعام محفوظة • وأكدت أن أول رواية أوبرا شاهدتها هى أوبرا فولستاف ، وأنها انفعلت جدا من طبقة الغناء « التنور » • وأن والدها تلقى فعلا هدية ذهبية هى عبارة عن مبسم ذهبى للتدخين ، وكان ذلك بمناسبة تقاعده عن العمل ، وأنها تعرف طفلة قريبة لها انزعجت عند ذهابها الى طبيب أسنان ، فرفضت أن تفتح فمها لعلاج أسنانها الا بعد عناء شديد •

وكان المبنى الذى جرى فيه الاختبـار غريبا على المختبرين وعلى الوسيط.فلم يكن تنهايف يعرف ولا كروازيه شيئا من قبل عن صاحبته. وكان توزيع المظاريف المغلقة قد جرى بدوره بدون أى ترتيب معين ، فكان كل قادم الى القاعة يتسلم مظروفا واحدا منهـا كما لو كان الأمر خاصا بأوراق « اليانصيب » . وتخطيط كل أوضاع الاختبار جرى بهدوء وبفن . وكان الهدف منه هو نفى كل احتمالات الصدفة ، أو التدليس أو التواطؤ ... فجاءت التجربة حاسمة وتحمل توقيعات كل المختبرين من أساتذة جامعة أوترخت الذين أسهموا فيها ، وخططوا لها ، ولمسوا مدى نجاحها بأنفسهم .

عن تحليل هذه الاختبارات

ويعلق الباحث الفرنسى رينيه برتراند René Bertrand على هذه الاختبارات ، بعـد فحص دقيق لمضابطها التى تسلمهـا من البروفسور تنهايف قائلا اننـا نعلم أن الباحثين فى أوروبا وفرنسـا فى هذه الأمور ليسوا بدون مزايا ، لكن جامعة أوترخت هى التى عنيت بأن تضمن الصفة الرسمية لهذه الاختبارات . ونحن فى شأنها ــ كما فى شأن غيرها ــ ازاء ظاهرة تقليدية عن السيكومترى جرت عن طريق الملامسة ، لكن مع قيام فارق ضخم يميزها عن غيرها .

ذلك أن فى اختبارات «المقعد التاسع» لم يكن الأمر متعلقا باستعادة تاريخ سابق ، بل لقد كان متعلقا باستطلاع تاريخه المستقبل ، أى مستقبله القريب . وهذا ما أدى الى تبسيط التقسيم الذى قامت به الجامعة بشأن الجلاء البصرى الى جلاء بصرى رجعى retrognitive متعلق بحادثة مضت ، لكن يمكن أن يتحول الى جلاء بصرى مستقبلى précognitive لحادثة سوف تقع .

ثم يقول برتراند ان مفـاد هذا النوع من الاختبارات ــ ومفـاد غيرها ــ هو أن أمور المـاضى والحاضر والمستقبل مختلطة فيما بينهـا

ومتشابكة . وهذا معناه أن الزمن لا يتداخل أبدا ، أو بالأدق ـ كما قال ادجار ميتشل Edgar Mitchell ـ « ان الزمن لم يعد له مفهوم خاص »(١) .

فالتخاطر ظاهرة تجرى بدون أى زمن intemporelle . وكذلك الجلاء البصرى (اذ قد يصـدق أيضا على بعض أحـداث المـاضى أو الحاضر أو المستقبل بدون وجود أية ضوابط حتى الآن) .

ثم يقول برتراند ، لقد كان لدينا الى الآن اختبارات فى التخـاطر وفى الجلاء البصرى معـدة من قبل وبالتالى خضعت لرقابة صارمة من الهيئات العلمية فى الاتحاد السوفيتى ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وهولندا . لكن اختبارات تنهايف لها هذه المزية : وهى أنها تكون تحولا من حالات التحقيق المعدة من قبل provoqués الى تلك الحالات التى تحدث تلقائيا spontanés . وقـد لاحظ تنهايف ذلك ، ولذا عنى عناية خاصة بدراسة هذه الطائفة الأخيرة منها . وهى نفس الطائفة التى ينبغى أن تعتبر أوفر ثراء بالنتائج من غيرها ، وأقوى منها تأثيرا . وذلك حسبما وصل اليه راين Rhine (أمريكى)(٢) ، وفاسيليف Vasiliev (سوفيتى) وتنهايف Tenhaeff (ألمـانى)(٣) .

* * *

وفى موضع آخر من مؤلفه هذا يقول برتراند ان الأبحاث تجرى فى قسم الباراسيكولوجى بجامعة أوترخت متبعة أساليب متطورة جدا من الرسوم البيانية ، والمعـادلات الرياضية ، وصـور الرقابة الفنية التى تستعين أحيانا بدائرة مغلقة لأجهزة التليفزيون ، وباستخدام الأساليب

---

(١) هو رائد الفضاء الأمريكى ، وذلك عندما تحدث عن انطباعاته بعد هبوط سفينة الفضاء أبو للو ١٤ على القمر . وهو نفسـه يملك موهبـة التخاطر كما سبق القول .

(٢) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول صفحة ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٣) تلخيص عن : ـ

La Télepathie et les Royaumes Invisibles Paris 1977 P. 62-72.

المتبعة فى فيزياء الذرة • ولايزال العلماء هناك يجدون فى البحث عن أساليب فنية فعالة أخرى أكثر منها تطورا •

وهو لا يريد أن يشتت ذهن القارىء بسرد التفصيلات والمقدمات العديدة لكنه يكتفى بسرد النتائج القائمة على أسس علمية محققة عن صحة ظواهر التخاطر التلقائية • وتأسيسا عليها فان الجامعة تضع التعريفات والتفريعات الآتية : —

أولا : أن التخاطر هو الادراك عن غير طريق الحواس لصور النشاط الذهنية لشخص آخر •

ثانيا : أن الجلاء البصرى هو الادراك عن غير طريق الحواس للأحداث الموضوعية •

ثالثا : أن التنبؤ precognition هو التعرف على أحداث مستقبلة لا يمكن التعرف عليها عن طريق استخدام استدلالات منطقية •

وهذا التفريع سهل ، لكن لا يكون الأمر بمثل هذه السهولة عند وضع التعريفات • وهذه الأخيرة مؤسسة على اختبارات معمل الباراسيكولوجى بالجامعة ، أو على الحساب الاحصائى بالأسلوب الذى نادى به العلماء الأمريكيون ، والذى أثبت العالمان راين وسول صحة أسسه •

وهذه التعريفات دفعت برتراند الى أن يقترح تقسيما ثانيا • فالتخاطر يجب أن يقسم الى أنواع ثلاثة :

أولا : حالات تخاطر متعاصرة Simultanés •

ثانيا : حالات تخاطر تنبؤية de Précognition •

ثالثا : حالات تخاطر عن الماضى retrospectives •

والجلاء البصرى بدوره يجب أن يخضع لنفس التقسيم أى لجلاء بصرى متعـــاصر ، وثان تنبؤى ، وثالث عن المــاضى •••• والوقائع المتعلقة بهذه الأمور كلها تكشف عن خـــداع الزمن لحواسنا ، والذى يبدو أنه لا يعرف جيدا المــاضى أو المستقبل • أو أن نستنتج أن الزمن لا دخل له فى الأحـــداث ، وهو ما يبـــدو استنتاجا أقوى التئــاما مع المنطق •••• وعلى مستوى القيم الروحية ، لا يبدو الزمن فارضا قوانينه على مجرى الأحداث •

ففى الحالات التلقائية حدثت تنبؤات صحيحة ، كما حدثت معرفة صحيحة لأحداث الماضى اذ ما أدخلنا فيها الظواهر المسماة بالسيكومترى • وفيها يلمس الوسيط مظروف خطاب مثلا ، ثم يروى الظروف التى جرى فيها تحرير هذا الخطاب ، وأيضا يعطى أوصافا محددة عن راسله • وقد جرت اختبارات من هذا القبيل بجامعة أوترخت(١) •

* * *

هذا عن اختبارات السيكومترى التنبؤية عن المســتقبل ، أما عن الاختبارات للانباء عن أحداث المــاضى فمن أمثلتها أنه بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٥٣ أبلغت احدى السيدات تنهايف أن ابنها البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما خرج منذ يومين سابقين ولم يعد ، وأنهـــا أبلغت الشرطة على غير جدوى •

فاستعان تنهايف بوسيط من وســطاء السيكومترى أخفى اســمه لحمايته من الازعاج المتواصل • وبعد بضع ساعات أخبره هذا الأخير أن الغلام سقط من على دراجته القديمة • وبعد بضعة أيام عثروا عليه بناحية دينان Dinant ببلجيكا ، على دراجته التى كانت قـــد تحطمت تماما ، فحال تحطمها دون عودته فى الميعاد •

واستعـــانوا بنفس الوسيط للارشاد عن سبب اختفاء غلام آخر

---

(١) تلخيص عن رينيه برتراند . المرجع السابق صفحة ٥٧ — ٦٠ .

يدعى ديرك زوين Dirk Zwenne غادر منزل والديه فى فلزين Velsen فى الساعة الثانية مساء للعب مع رفاقه ، ولم يعد ، وظل متغيبا بلا سبب من يوم ٢٩ أغسطس ١٩٥٣ الى يوم ٣١ منـــه ولم يعثروا له على أى أثر .

وعندئذ استعانت جهة الشرطة بهذا الوسيط بنـاء على طلب عم الغلام الغائب . وتلقى الوسيط انطباعات مفادها أن الغلام مات غرقا ، اذ رأى الوسيط فى انطباعاته مركبا شراعيا و « كلكات » خشبية صغيرة مشدودة . وقرر أن الغلام أصيب فى الجانب الأيسر من رأسه عنـدما اصطدم أثناء سقوطه .

وبتاريخ ٣ سبتمبر عثروا على جثة الغلام فى ميناء صغير مجـاور دفعه التيار المـائى اليه ، وكانت الرأس مصابة ــ فى الجانب الأيسر ــ وكان المركب الشراعى ، و « الكلكات » الخشـبية لاتزال فى مكانهـا القديم .

ونجح نفس هذا الوسيط أيضا فى الارشاد عن مكان اخفاء أشياء مسروقة ، ومنها بوجه خاص سوار ثمين من المـاس اختفى بتاريخ ٢٥ يونية سنة ١٩٥٥ من أحد محلات المجوهرات ، وعجزت التحريات العادية عن الوصول الى مكانه . ثم أعيد السـوار الى مكانه فى فترينة محل المجوهرات بصورة مريبة .

وفى ٥ يولية ١٩٥٥ أمسك الوسيط بهذا السوار ثم أعطى عن هذه الواقعة البيانات الآتية : الذى أخـذ السوار ثم أعاده ليس موظفا من موظفى المحل الذين اتجهت اليهم الشبهة ، بل هو شاب يبلغ من العمر حوالى اثنين وعشرين عاما ضـخم الجثة ، أحـدب نوعا ، يرتدى رداء رماديا أو قاتما . وهو ينتمى الى أسرة طيبة ، وصاحب سـمعة نقية ، لكنه سبق اتهـامه فى سرقة وأفلت منها لعدم كفاية الأدلة . وقد أمكن معرفة هذا الشخص ، واعترف بواقعة أخذ السوار ثم ارجاعه فيما بعد .

وبنفس الطريقة أرشد نفس هذا الوسيط عن متهم فى جناية شروع فى قتل بضربة مطرقة على رأس المجنى عليها وقعت فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ الساعة ٦ مساء ، ثم فر الجانى • وعندما تسلم الوسيط هذه المطرقة تلقى انطباعات مختلطة كثيرة لتداول المطرقة بين أيدى عديدة •

لكنه أكد أن الجانى يبلغ من العمر ثلاثين عاما تقريبا ، وهو طويل القامة ، ذو ملامح عدوانية ، وذو تشويه بأذنه اليسرى ، ويتردد كثيرا على كوخ يقيم فيه شخص يبلغ الخامسة والخمسين ، وهو صاحب المطرقة المضبوطة واشتراها من تاجر مصاب بالتهاب رئوى • وكل هذا ثبتت صحته فيما بعد ، ووصلت التحريات بتاريخ ٢ يونية سنة ١٩٤٧ الى معرفة قاطن الكوخ ، وحكم بادانة المتهم وتلقى الوسيط خطابا رسميا من العمدة يشكره فيه على خدماته للسلطات التى أدت الى التوصل الى الفاعل (١) •

ترابط الاحساس بالزمان وبالمكان

وهكذا تظهر الأبدية حقيقة واقعة ، الا أن هذا المستوى الذى نعيش فيه حاليا ذا الأبعاد الثلاثة لا يصلح بتاتا للاحساس بها • فهو وان كان كائنا فى صميم الأبدية لأنه جزء منها ، الا أنه فى نفس الوقت معزول عنها بعزلة حواسنا « المادية » عن طاقاتها الحقيقية فى الاحساس بهذه الأبدية ككل شامل يطوى المكان والزمان معا فى احساس واحد لا يتجزأ ، هو القدرة على الاحساس بهذا الخلود فى « المكان والزمان » غير المحدود •

وهذا الاحساس لا يكون عن طريق الحواس المادية ، أى عن طريقها عندما تكون محكومة بأغلال الأعضاء المادية ، بل عن طريق الحواس الروحية التى تتجمع فى النهاية فى حاسة روحية واحدة تجمع بين القدرة على النظر والسمع والشم واللمس والذوق ، وهذه هى قدرة الروح ، هذا القبس الالهى المختفى فى الجسد ، الكامن وراء وظائف

(١) تلخيص عن المرجع السابق • صفحة ٦٤ — ٦٦ •

أعضائه كلها ، فى حكمها على الأمور سواء عندما يكون صادقا صحيحا أم عندما يكون مشوها مبتورا .

وهيهات للحكم على أى أمر من الأمور أن يكون صادقا صحيحا الا عندما يمكنه أن يدمج الاحساس بالزمان مع الاحساس بالمكان فى شعور واحد لا يتجزأ . فانه عندئذ يمكنه أن يدرك الأشياء أقرب الى حقيقتها من ادراكه السابق لها ، وأن ينعم بصحة هذا الادراك ما شاءت للعقل قدرته على الادراك ، وللحواس قدرتها على الاحساس .

ولذا كان حكم العقل على الأمور يمكن أن يتقدم كثيرا بمغادرة المستوى المادى للاندماج فى مستوى جديد من الاحساس بمعنى الزمان والمكان متداخلين معا ، وكان طريق الارتقاء عن هذا السبيل لا يكاد يحده حد من زمان ولا من مكان بعد زوال هذين العائقين الضخمين فى المستوى المادى ، وانتهاء دورهما فى اعاقة العقل عن الادراك الصائب، والحواس عن الاحساس الطليق بالحياة فى أرحب صورها وأعمق مشاعرها . فليس لنا اذا أن نخشى الموت من هذه الناحية ، بل الأولى أن نتمناه ، وأن نتطلع اليه شغوفين متى عرفنا قيمته ومغزاه ...

* * *

ويخلص مما تقدم أن فهم معنى المكان والزمان ـ وهما مرتبطان معا ارتباطا لا يقبل انفصاما كما قلت ـ يحتاج الى قدرة خاصة على تصور الأمور التى تغاير تماما أمور حياتنا الراهنة ، وتغاير تماما ما ألفته حواسنا فى حالتها الحاضرة . واذا كان قياس الزمان أو المكان هنا لا يثير صعوبة تذكر ، خصوصا بعد استخدام وسائل القياس المادية للوقت وللمسافة ، فان الأمر هناك جد مختلف لانعدام الاحساس بالزمان والمكان منفصلين ، وظهور الاحساس بالحالة بدلا منهما . فاذا طلبت من أى روح أن تحدد لك مثلا موقع مدينة أو منزل هناك فقد طلبت منها أمرا محالا ، وكذلك اذا طلبت منها أن تحدد لك زمن واقعة معينة من وقائع عالم الروح أو المادة ، وذلك مالم ترتبط هذه الواقعة «المادية» بأقيسة المكان أو الزمان المعروفة عندنا .

فهى تجد فى قياس الزمان والمكان معا صعوبة كبرى ، لأنه ليست لديها مثل وسائل القياس المادية التى لدينا • وهى فى غير حاجة الى قياسهما باستمرار كما تفعل نحن فى عالمنا المادى ذى الأبعاد الثلاثة • وقد تلجأ الى محاولة قياس الزمن فى الماضى أو المستقبل بحسب أقيستنا اذا طلب منها ذلك أحد من سكان الأرض لتحقيق موضوع معين، أو لتعرف تاريخ واقعة معينة بحسب تقاويمنا الأرضية • وهى قد تصيب فى ذلك وغالبا تخطىء ، وقد يكون خطؤها جسيما أو يسيرا •

وهذه الحقيقة تعلل الكثير من أخطاء الأرواح وتنفى عنها قدرة معرفة المستقبل على وجه مطلق ودقيق ، كما قد يتصور البعض خطأ • فالمستقبل بالنسبة لها مجهول تماما ، والتنبؤ بأحداثه ليس أكثر من توقع أمر له مقدماته الحاضرة التى ينبغى أن تؤدى الى نتائجه المحتملة والتى قد تتحقق أو لا تتحقق بحسب الأحوال ، كما نفعل نحن بالضبط•

غاية ماهنالك أن بعضها قد يملك من عناصر التوقع الصحيح لأحداث المستقبل أكثر مما قد نملك منها فى المألوف من الأمور ، ولاطلاعه أحيانا على حقائق عن الحاضر قد نجهلها ، بسبب اعتبارات المكان والزمان التى قد تتوافر هنا ولا تتوافر هناك • أو بالأقل قد لا تتوافر هناك على نفس الصورة التى نعرفها هنا ، بالنظر الى قدرة الأرواح على الانتقال بسرعة الفكر ، وبالنظر الى قدرتها أحيانا على قراءة الأفكار قبل أن تخرج الى حيز التعبير أو التدبير • بل الى قدرة بعضها على الحكم الصحيح على أخلاق الناس ومستواهم من تطور العقل أو الأخلاق عن طريق الفحص الدقيق لهالاتهم ولأجسادهم الأثيرية بوجه عام •

وكل هذه أمور قد تساعد بعض الأرواح أحيانا على أن يكون تنبؤها بأحداث المستقبل أقرب الى الواقع من تقديرات الأرضيين ، وذلك كله بالاضافة الى تخلص الأرواح الراقية من قيود أخرى كثيرة قد تعوق صحة تقديراتنا ، خصوصا عندما تكون الروح على درجة كافية من الحكمة ونضج العقل • وكثيرا ما تفضل الروح الناضجة العقل عدم

القيام بأية محاولة للتنبؤ أو لتوقع أحداث معينة مستقبلة رعاية لاعتبارات معينة تفهمها هى تماما ، حتى ان عجزنا عن فهمها ، وترى أن فى ذلك مصلحتنا الحقيقية .

وذلك لا ينفى فى نفس الوقت قدرة بعض الأرواح الراقية على التنبؤ أحيانا بنبوءات صحيحة عن المستقبل ، قد تبدو لها أحيانا كما لو كانت أحداثا ماضية أو حاضرة ، لأن الزمن كما قلنا غير موجود هناك بحسب المعنى الأرضى . كما لا ينفى ذلك أن هناك أرواحا قد تعمد أحيانا الى اخبارنا عن هذه الأحداث قبل وقوعها — بغير استبعاد احتمال الخطأ . وقد عرف التاريخ نبوءات معينة عن أحداث مستقبلة سجلها ثقات ، صدق بعضها ولم يصدق البعض الآخر .

من اختبارات الاحساس بالزمن فى الطرح الروحى

ومما هو جدير بالذكر هنا أن أحد العلماء المعروفين فى البحوث الروحية الحديثة ، وهو الدكتور راينور جونسون Raynor C. Johnson مدير « كلية الملكة » بجامعة ملبورن قد تناول فى مؤلفاته بعض مفاهيم الزمن ، وحرية الارادة ، والضرورة فى بعض مؤلفاته التى منها « الروعة الحبيسة » (١) و « غراس الخلود » (٢) ، و « مراقب على التلال » (٣) ، و « نظرة دينية للانسان العصرى » (٤) ، و « الطريق الروحى » (٥) .

وكان جونسون صديقا لمفكر وأديب بريطانى معروف وهو أمبروز برات Ambrose Pratt . وكان هذا المفكر الأديب صاحب موهبة من المواهب الروحية النادرة وهى القدرة على الطرح الروحى ، فى عالم المادة وفى عالم الأثير (٦) . فرأى جونسون أن يجرى معه حوارا حول

---

(١) The Imprisoned Splendour.
(٢) Nurslings of Immortality.
(٣) Watcher on the Hills.
(٤) A Religous Outlook for Modern Man.
(٥) The Spiritual Path.
(٦) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول ص ٣٧٦ — ٤٠٧ .

أصول نفس الموضوعات التى كانت تشغل أمبروز برات الى جانب موهبته الوساطية . والتى ساعدته على القاء بعض أضواء على تلك الموضوعات التى كانت عند ذاك تشد انتباه جونسون بدوره . وظل جونسون وبرات صديقين حميمين الى حين وفاة الأخير قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وهو فى السبعين من عمره .

وفيما يلى تلخيص لجانب من النقاش الطريف الذى جرى بين جونسون وبرات بشأن أحاسيس هذا الأخير - عن الزمن والفكر والارادة - عندما يروح فى غيبوبة الطرح الروحى .

س : (من جونسون) ماذا يحدث بحسب فهمك عندما تدخل فى حالة غيبوبة مغادرا جسمك ؟

ج : (من برات) الوعى الروحى الفيزيقى ينسحب من ردائه الفيزيقى المألوف ، وينطلق بوعى نقى . وهذا الوعى النقى له مخزن خاص للمعرفة حصل عليه عن طريق آخر . ولديه طاقات واسعة للاتصال به ، ولمعرفة أعضاء العالم الروحى الذى يشغل مستوى للوجود مشابها للشخص المختبر . وهذا المستوى طالما حلمت به ، وتمنيت أن أحضره معى عند عودتى منه ، وأن أتذكر بوضوح ما تعلمته ، ومن قابلت أثناء سياحاتى خارج الجسد . وكنت أجد أن ما يقابل مركبتى الفيزيقية كان يقف محاولا استعادة صورة كاملة مما حدث على مستوى وعيى الروحى - الفيزيقى .

س : ما هى المشاعر السائدة عندما تكون خارج الجسد .

ج : تبدو الروح بوضوح فى عالم ذى أبعاد أكثر من أبعاد العالم المادى . كما يوجد انطباع لدى الروح بالوحدة وبالبساطة ، ويبدو لها اختبارها الأرضى ممزقا ومعقدا . وتندمج كل ملكات الروح التى تقابل حواسها الفيزيقية من بصر ، وسمع ، ولمس ... الخ فى حاسة واحدة عظمى للادراك .

وأحد الأحاسيس السائدة هو الاحساس بالأمن ، فكل شيء على الأرض غير مستقر وغير آمن ، أما هناك فالأمن يغمر الروح • ويوجد أيضا هناك احساس دافق بالحرية ، وبالتخلص من قيود الجسد • ويوجد احساس متزايد هناك بالمعرفة وبالقوة ، وقدرة أوسع على غرس تلك الأمور التى تشعر الروح بضرورة غرسها •

وبالتالى فان كل انسان يعد نفسه هنا كيما يمارس الأمور التى يعتقد أنها تستحق الممارسة هناك ، فننفذ الخبرة التى أعددنا أنفسنا لاستقبالها • وفوق كل شيء يوجد هناك جو سائد تماما من الصداقة ، ومن النوايا الطيبة •

س : هل للوقت أى معنى فى ذلك العالم ؟

جـ : بمقدورى أن أقول اننى شعرت بأن انعدام الوقت يمثل أحد الخصائص الرئيسية هناك •

س : ولكن ما تصفه بتعاقب الاختبار الروحى ، ألا يتضمن بذاته معنى تعاقب الوقت ؟

جـ : قد لا تكون الحال كذلك بالضرورة ، لأن تفسيرك هذا للتعاقب مؤسس ـ فيما يبدو ـ على اختبارك الجسدى •

س : هل يوجد هناك أى احساس بروح عظمى ، أو أى تنبه متزايد لوجود الله ؟

جـ : يوجد بيقين تنبه موسع نحو الألوهية الى حد أنه يمكن القول بأن التحقق منها يحدث هناك لأول مرة •••••

س : ما هو الفكر ؟

جـ : التفكير هو أحد وظائف الروح ، ولكن الفكر وهو نتاج هذه الوظيفة ، له وجود موضوعى مستقل عن مصدره وهو غير قابل

للتلاشي ، وكل ما ينتمي الى الفكر يؤثر فى جميع الأرواح الأخرى مارا من خلال الكون • وبمقدور الأرواح الأخرى أن تتقبل أو ترفض الأفكار التى تحيط بها • ومن هنا تجىء الأهمية القصوى للتفكير السديد •

وربما يمكن مقارنة الفكر بالضوء الذى اذا انطلق من مصباح فانه يأخذ فى السريان الى الأبد ، وليس هـذا محض افتراض منى ، بل انه ما أعلم أنه يمثل الحقيقة (١) •

س : اننا نسلم معا بوجهة النظر التى تقول بأن رؤية المستقبل قـد تكون ممكنة أحيانا ، فهل معنى هذا ان المستقبل مقدَّر مقدما ؟ وهـل بمقدورك التوفيق بين ذلك وبين مبدأ الارادة الحرة الذى تتقبله أيضا ؟

جـ : ليس بمقدورى التوفيق بينهما،لكننى أتقبلهما معا ، وأعتقد أن أحدهما وهو مبدأ الجبر أو الضرورة ينتمى الى النظام الدنيوى ، أما المبدأ الثانى وهو حرية الاختيار فينتمى الى نظام أسمى منه • وأليس من الجائز أن الأحـداث التى قد تكون غير محتومة فى عالم ذى أبعاد أربعة قـد تكون محتومة فى عالم ذى أبعاد ثلاثة (هو العالم الأرضى) ؟

ان للروح المجـردة ــ بداخل حـدود متسـعة ــ قدرة تامة على الاختيار • لكنها عندما تكون مغلولة الوثاق بجسـد مخصص للاختبار الأرضى فان نطاق حريتها يتوقف على :

(ا) نوعية الروح •

(ب) نوعية الآلة الفيزيقية التى تعمل عن طريقهـا فى العالم (أى الجسم المـادى) •

---

(١) من الحقائق العلمية الآن أن الضـوء غير قابل للفناء متى انطلق من أى مصدر ولو كان عبارة عن شمعة صغيرة ، حتى بعد اطفاء الشمعة . فهو يختفى عن حواسنا لكنه لا يختفى عن حواس الكون . والضوء أسرع شىء فى الكون ، لكن ابتدأ بعض علماء الرياضيات يقول بأن الفكر ، ومعه الجسد الأثيرى أسرع من الضوء بكثير . فهو أسرع ما يسرى فى الكون من اهتزازات Vibrations ، ولا عجب فى ذلك اذا ما وضعنا فى الاعتبار أن الأكوان كلها ــ مجتمعة معا ــ تمثل اهتزازات العقل الأعظم .

(جـ) نوعية الروابط بين الاثنين واتساعها ٠

وكلنا نعلم أن الروح الرقيقة يمكنها أحيانا أن تنتصر على القيود التى تعترض طريقها ، من فقر ، أو من ضعف ، أو من تشويه جثمانى ٠ فعلى الجانب الفيزيقى تناضل الروح أثناء نمو خلاياها وجسدها لكى يساعدها النضال على المزيد من التعبير عن نفسها فى هذا الجانب ٠

س : هل بمقدورك أن تلقى أى ضوء على العودة للتجسد ، أى عودة الأرواح للميلاد فى حياة بعد حياة على هذه الأرض ؟

جـ : أنا أعلم أن هذا يجرى فعلا ، وان كنت لست فى موقع يسمح لى بأن أقرر ما اذا كانت العودة للتجسد تمثل قانونا عاما (١) ٠٠٠٠

ونكتفى بهذا القدر من الحوار الآن ٠ ولنا عودة فى الصفحات المقبلة عن مفهوم الارادة فى العلوم الطبيعية ، وهى الآن تميل الى امكان التوفيق بين قدرة التنبؤ الصحيح أحيانا — فى النوم أو فى اليقظة — بأحداث المستقبل وبين مفهوم حرية الارادة كما ينادى به جميع الباحثين الروحيين ، وكما نادى به من قبل دعاة الحرية الانسانية فى جميع العصور ، وعلى رأسهم الرواقيون ٠

أما عن موضوع العودة للتجسد ، فهو أخطر ما يشغل الآن نشاط الهيئات العديدة المعنية بالباراسيكولوجى ، وقد وصلت فيه الى نتائج متشعبة دقيقة جديرة بالمتابعة ، وبالتحليل ، ولذا خصصنا له الأبواب الثلاثة الأخيرة من هذا الكتاب ٠

---

(١) The Light And the Gate. 1964. P. 115—117.
وفى هذا الكتاب يروى جونسون أنباء اتصالاته بأرواح عدد من علماء النفس والفلاسفة المنتقلين : منهم فردريك مايرز ، وادموند جيرنى ، وهنرى سدجويك وغيرهم ، بأسلوب الكتابة التلقائية عن طريق ثلاث وسيطات معروفات وهن : جيرالدين كامينز ، وأورسولا روبرتس ، وجريس كوك (ص ١٢١ — ١٦٩) ٠ كما اتصل أيضا بروح أمبروز برات على فترات متقطعة فى الفترة بين سنة ١٩٥٣ وسنة ١٩٦٠ ٠

يمكن أن يقـال فى هذا الشأن ان مفهوم الارادة كان مرتبطا فى المـاضى ببعض الجوانب الميتافيزيقية واللاهوتية ، ثم تطور هذا المفهوم فى العصر الحاضر نحو رغبة الارتباط بالحقائق البيولوجية والفسيونوجية أو بالأدق بحقائق المنهج الوضعى بوجه عام . ولعل هـذا الاتجاه يعلل بما لاحظه أولوف كينبرج Olof Kinberg العالم السويدى فى الاجرام من « أنه لم ينجح أى انسان فى اظهار أن أى شيء محض روحى Psychique يمكن أن يحدث ظاهرة فيزيقية ، وهذا أمر طبيعى لأننا لا نعرف شيئا عن الروحى خارج اطار الروابط الطبيعية .

وعلى أية حـال فاننـا نرى أنه فى التسـلسلات الفيزيولوجيـة processus physiologiques للمخ يكون المكوّن الروحى موجودا أحيانا وغائبا أحيانا أخرى . ولمعرفة ماذا يجرى فى المخ عندما تولد اختباراتنا وتموت ينبغى النظر الى المخ كمـا لو كان ينتمى الى العالم الفيزيقى ، كما تنتمى باقى أعضاء جسدنا ، وكما تدرس باستخدام نفس الأساليب التى نستخدمها فى دراسـة الأشـياء الأخرى التى تنتمى الى العـالم الفيزيقى » (١) .

ولكن يوجد فارق ضخم ينبغى أن يراعى فى دراسة المخ — بالمقارنة مع باقى الأعضـاء الجثمانية — وهو ضرورة التمييز بين المخ والعقـل وتحديد الصلة بينهما . ولا ريب أن التحديد الصحيح — وهو من أعقد الأمور — ينبغى أن يوضع فى المقام الأول عند دراسـة الذات الانسانية حتى من نواحيهـا البيولوجية والفسيولوجية ، وبالأخص عنـد تحديد مسئوليتها عن نشـاطها الاجتماعى وغير الاجتماعى ، وهذا هو العبء الذى تقوم به الدراسات الحديثة فى الباراسيكولوجى والسيكوترونات وأيضا فى العلوم الطبيعية بوجه عام .

---

(١) Olof Kinberg : Les Problémes Fondamentaux de la Criminologie. Trad. Fr. 1960 pp. 39—44.

وفى هذا الشأن ينبغى أن يلاحظ أنه « اذا كانت الحتمية قد فرضت كمسلمة مطلقة لا تقبل المناقشة لفترة طويلة فى حياة الانسان العلمية حيث صدقت كافتراض من واقع اختبارها واستخدامها المتكرر المضطرد ، فان هذا الأمر لم يدم طويلا — كما هو الحال دائما فى شأن مفترضات علمية أو مسلمات يثبت التطور العلمى نفسه عدم صدقها .

وقد جاء سقوط مسلّمة الحتمية نتيجة للكشوف الذرية اذ أثبت الفلاسفة الذريون أن الذرة بتكوينها الفرضى ، الذى لا يحس به الا من اشعاعاتها التى تخرج من حركات جزيئاتها عن مفترض الحتمية المذكورة ، حيث تحل لا حتمية ذرية فى حركات تلك الجزئيات الذرية محل الحتمية التى كانت الى الأمس القريب مسلّمة المسلمات وفرض الفروض ...

ومن الغريب أن العلماء الطبيعيين الذين نادوا بالمادية هم أنفسهم الذين نادوا بسقوطها بعد الكشوف الذرية . وما حدث بالنسبة لمسلّمة الوجود المادى وسقوط هذه المسلّمة نتيجة للكشوف الذرية حدث أيضا بالنسبة لمسلمة الحتمية المذكورة ، وان كان سقوط المسلمة الأخيرة جاء أقوى فى وضوحه وتأكده من سقوط مسلّمة الوجود المادى ، وكان سقوط المسلمات المذكورة بالقدر الذى هو عليه يعتبر كافيا لاستبعاد كل منهما من ميدان الحقائق العلمية الصادقة فى العلم المعاصر ...

وتأتى أهمية الكشوف العلمية فى هدم المفترض المطلق للحتمية فى حدوده . فالعلماء وان كانوا لم يرتبوا على هذه الكشوف القول بعدم وجود علية — اذ توجد لبعض الظواهر عللا ، الا أن القول بوجود الحتمية أو العلية وراء الظواهر الطبيعية ، وكذلك الظواهر الأخرى أصبح قولا غير صحيح على الاطلاق كمفترض له عمومته وصياغته فى صورة قانون ...

فالقول الآن بأن الحتمية قد تكون قائمة بالنسبة لبعض الظواهر بينما لا تكون كذلك بالنسبة للبعض الآخر — حتى فى نطاق ميدان واحد

هــو الطبيعيات مثــلا ــ معناه أن هذه الحتمية غير موجوده كقانون أو مفترض علمى ، لأنهــا لو كانت كذلك لوجدت مطردة ومتتابعة فى حوادث الطبيعة وهو ما ثبت عدم صحته تماما . فاحتمال وجود العلل والأسباب فى حتمية افتراضية يتساوى مع احتمال وجود الحرية كما هو فى الفرض الذرى مما يجعل الحتمية كمفترض غير صادقة علميا .

وقد أدى تصدع الحتمية كمفترض علمى ومطلق وعام فى كل ميادين الظواهر الى أن سخر منها بعض العلماء الفيزيائيين . فهــذا هو أحدهم يقول « الواقع أن اثبــات حتمية قوية لظواهر الفيزياء المجهرية له قيمة شبيهة باثبات عدم وجود الحركة ، أو بالاثبات القائل بأن الأرض مسطحة .

ويتكلم العلماء الآن عن الامكان والاحتمال كمفاهيم جديدة بدلا من الحتمية . واذا تصورنا الاحتمال لكان معناه أن النتائج تكون محتملة ، فلا يتعــارض مع هــذا المفهوم أن تحدث أو لا تحدث ، لأن كلا الأمرين محتمل . كذلك الأمر بالنســبة لمفهوم الامكان اذ أن معناه أن النتائج تكون ممكنة ، وهذا لا يتعارض مع حدوثها ، لأن فى ذلك تحقيق لمعنى الامكان ، كذلك لا يتعارض مع عدم حدوثها لأن ذلك لا يتعارض أيضــا مع مفهوم الامكان ... فالامكان والاحتمال هما عودة الى مفهوم الحرية وذلك بالضرورة . اذ أن الاحتمال والامكان هما الحرية تماما ، اذ تتساوى فكرة قبول التحقق وعدمه فى القيمة بالنسبة لتحقيق مضمون تلك المفاهيم العلمية الجديدة التى حلت محل الحتمية » (١) .

* * *

ولعله مما يتفق مع هذه الحقائق ــ ولا يتعارض معها كما قد يتصور البعض خطأ ــ قانون عدم التحدد لهيزنبرج Heisenberg ، فان هــذا القانون الرياضى يذهب ــ على مستوى الجسيمات الذرية وموجاتها ــ الى تعذر وصول عقل الانسان الى ادراك حقيقة الأمور بدقة مطلقــة ،

---

(١) راجع عبد المنعم عبد الرحيم العوضى « مقدمة فى اصول الدراسة المنهجية للاجرام » القاهرة ١٩٧٨ صفحة ٢٥٠ ــ ٢٥٤ .

لأنه يحول دون ذلك وجود ظواهر مختلفة لابد أن تعترض طريق الوصول الى الحقيقة • وهذه الظواهر يتعذر البت فيها الا أن يكون البت عن طريق الترجيح أو الاحتمال فحسب ، ذلك الترجيح الذى لا يملك الانسان غيره حتى ولو كان باحثا عن الحقيقة بدقة مطلقة ، ومهما بذل من جهد رياضى •

وهذا القانون ينفى النظرة الآلية للكون التى تعتمد على محض قانون السببية الخالصة كما فهمها نيوتن • وكان من آثاره أن بدأ يزعزع الاعتقاد فى مدارس الفيزياء المعاصرة فى صحة مبدأ « الحتمية الطبيعية » •

واذا كانت حتمية الظواهر الطبيعية المادية قد اهتزت الآن — رياضيا — فكيف يتأتى التسليم بحتمية السلوك الانسانى ، ونفى النشاط الارادى المحكوم بعوامل متنوعة ، فى اطار الظواهر العادية أو الشاذة لهذا السلوك ؟ !

ومما قد يلتئم أيضا مع نفس هذا الاتجاه ما نادى به العالم الطبيعى المعروف ادريان دوبس A. Dobbs من وجود بعدين زمانيين بدلا من بعد واحد • وسبق أن تحدث آرثر ادنجتون A. Eddington وآخرون عن الكون ذى الأبعاد الخمسة : ثلاثة أبعاد مكانية وبعدين زمانيين • ولكن نظرية دوبس تتضمن تشذيبا وتدقيقا بحيث تضع فى الاعتبار امكان التنبؤ وعدم التحدد بالنسبة للمستقبل فى فيزياء الكوانط (الكم) •

وحسب هذا الرأى يتحرك سهم الزمان الذى يتقدم على طول البعد الزمانى الثانى عبر عالم احتمال بدلا من عالم جبرى • وهو فى حركته أقرب الى الموجة منه الى السهم • ولكن أهم ما فى فرض دوبس هو محاولته تقديم تفسير فيزيائى للتخاطر والتنبؤ ، وهى محاولة أكثر اتقانا من أية محاولة أخرى سابقة •

وجوهر رأيه بالنسبة لموضوع التنبؤ هو أن استباق أحداث المستقبل يتبع البعد الزمانى الثانى ، فى حين أن الاحتمالات الموضوعية تؤدى الدور نفسه كعلاقات سببية فى الفيزياء التقليدية • ويقترح دوبس — بنص حديثه — بعدا زمانيا ثانيا يتضمن الاحتمالات الموضوعية لنتائج المستقبل وبحوثها كعوامل تنظيمية متواجدة معها ، تنزع الى المستقبل أو تدبر مقدما المستقبل بحيث يقع على نحو متميز • وميزة هذا الفرض تجاوز المعضلة المنطقية القديمة التى تقول أن المعرفة المسبقة عن حدث مستقبل تتضمن امكان التدخل فى ذلك الحدث وهو ما يبطل المعرفة المسبقة •

ويستخدم دوبس مصطلح « انتظرة المسبقة » Pre-Cast بدلا من المعرفة المسبقة اعتقادا منه أن ذلك المصطلح لا يشير الى نبوءة بل الى ادراك للعوامل الاحتمالية فى نسق تسير به نحو وضع مستقبلى معين• بيد أن هذه النظرات المسبقة لا تستند الى التخمين ولا ترتكز الى استدلالات عقلية ، نظرا لأن العوامل التنظيمية للنسق لا يمكن ملاحظتها أو استنتاجها •

وانما تنتقل المعلومات الخاصة بها الى الذات عن طريق رسل افتراضيين يسميهم دوبس بوزيترونات Positrons وتنشط فى بعده الزمانى الثانى • أنها جزيئات ذات صفات مروعة ، ولكنها ليست مروعة أكثر من النيوترين (١) Nutrin الذى حدثنا عنه بولى ، أو الالكترونات غير ذات الكتلة التى قال بها ديراك ، أو الكترونات فاينمان التى تتحرك الى الخلف فى الزمان ، وهؤلاء هم العلماء الذين حصلوا جميعا على جائزة نوبل(٢) •

(١) الكترون ذو شحنة ايجابية أو ضد الكترون •

(٢) عن مجلة « العلم والمجتمع » التى تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو عدد ١٩ (يونية — اغسطس ١٩٧٥) بعنوان « العلم والظواهر الخارقة » ص ١٣ • ويقرر نفس المرجع أن العقل المحايد يذهب الى الاعتقاد بأن النيوترينات ذات نسب بالأشباح — وهو العقل الذى لا يرفض وجودها • وليس هذا القول مجرد استعارة لفظية ، ذلك لأن افتقار النيوترين للخصائص الفيزيائية العيانية فضلا عن طبيعتها شبه الأثيرية ، كل هذا شجع التفكير النظرى بشأن امكان وجود جزيئات أخرى تكشف لنا عن الحلقة المفقودة بين المادة وبين العقل (المرجع السابق ص ٩ — ١٠) •

الفصل الرابع

فى موقف العلوم الجنائية
من مشكلة الارادة

تمهيـــد

حاسة الاختيار الغريزية أو حرية الارادة مشكلة خطيرة يعنى بهـا كل علم يريد أن يرتاد بعض مجاهل النفس الانســانية وما أوعرها من مجاهل ! .. وهى مشكلة تعطيها الدراسات البيولوجية قيمة خاصــة فى توجيه حياة الانسان ورسم خطوطها ... فهل الارادة الانسانية حقيقة ثابتة أم هى محض وهم وسراب ؟ وهل بالمقــدور اسناد هــذه الحرية الى مصدر ثابت ؟ وهل هذا المصدر هو ميراث الذات من الآباء ، أم هو ميراث الذات من نفسها ومن ماضيها العريق ؟ !

ثم ما مدى دور هذه الارادة فى توجيه دقة الأحداث ؟ وما موضعها بين نواميس الحياة ؟ وما موقفها من نواميس الزمان والمكان المحيطة بها ، أو بالأدق من ملابسات بيئتها الاجتماعية ؟ هذه هى المشكلات الحقيقية المحيطة بحرية الارادة ، أما التقرير بوجودها فلا ينبغى أن يعد على نفس المستوى من الدقة والصعوبة .

وعندما نصــل الى دراســة أثر اجتماعى واحــد ــ أو بالأدق لا اجتماعى ــ من آثار هذه الارادة ــ وهو الجريمة ــ نجد أن كل هذه المشكلات تبرز بكل ضراوتها التى حجبت عن بعض العلماء والباحثين ــ على غير أساس من الصواب ــ دور العامل المحرك الدفين لهــذا الأثر اللااجتماعى وهو الارادة نفسها ، وذلك بصرف النظر عن قيمــة هــذا الدور وهو متغير ، متطور ، ومتراوح تراوحا كبيرا من حال لأخرى ، ومن واقعة لأخرى ، بحسب ملابسات الزمان والمكان .

وبهذا الشكل لا يمكن أبدا القول بأن واجب الاتساق مع نواميس الحياة يلغى بذاته حرية الاختيار ، ويؤكد بذاته عبودية الانسان لهذه النواميس بصفة مطلقة على النحو الذى ذهب اليه أنصار الجبرية . وهذا القول يكون صحيحا بلا ريب اذا لم نسلم بأن حرية الانسان فى الاختيار تعد بذاتها ناموسا أساسيا من نواميس هذه الحياة التى لا تتوقف أبدا ولا تعرف أبدا فواصل الزمان والمكان . بل ناموسا يعمل وراء الكثير من أحداث الحياة التى تبدو لنا غامضة غير مفهومة ، ويعمل بنشاط أكثر بكثير مما قد يبدو لعقولنا الواهنة . ويكفى فى تقدير هذه الحرية أن نراعى أنها ليست هبة الطبيعة لنا كما يقال أحيانا ، بل لقد انتزعناها انتزاعا من مخالب الطبيعة عن طريق الكفاح والألم المرير خلال دهور ودهور .

أو بعبارة أخرى أننا حصلنا على الحرية عن طريق الحرية ، وعن طريقها أيضا تنمو فينا هذه الحرية وننمو فيها ، وننكر وجودها ، وندافع بحرارة وايمان عن هذا الوجود ، فننجح ونخفق كما ننجح ونخفق فى كل مسالك هذه الحرية ، ودروبها ويا لها من مسالك لا تنتهى ودروب .

وسواء أنجحنا أم أخفقنا فى ارتياد مسالك هذه الحرية ودروبها الوعرة ، فلا النجاح ولا الاخفاق يصلح دليلا بذاته لاثبات الحرية أو لنفيها، الا اذا تجاهلنا تماما وجود النواميس الطبيعية الواعية التى تعمل من وراء هذه الحرية وعن طريقها ، كما تعمل الحرية من ورائها وعن طريقها. فهذه النواميس الواعية لا يمكن أن تكون أداة طيعة فى يد هذه الحرية ، الا اذا أصبحت هذه الحرية بدورها أداة طيعة فى يد هذه النواميس الطيعة الواعية .

والعجز عن قياس دور الحرية فى أى سلوك انسانى لا ينفى هذا الدور كمبدأ كونى فعال ، ولا ينفيه أيضا العجز عن قياس القيود التى ترد حتما على هذا الدور . فالارادة قد لا تخضع للقياس المادى ، شأنها فى ذلك شأن الفضيلة ، وشأن العديد من ملكات الانسان التى نتعرف عليها بآثارها ، ويتعذر قياسها ماديا ، لكن لا يتعذر وصفها بأنها حقائق وضعية .

ومن ثم فانه حتى من الناحية الوضعية ينبغى التسليم بتوافر قدر من الارادة مهما كانت جسامة القيود التي ترد عليها • وبالتسليم بأن الارتداع أو الوازع حقيقة وجدانية ، أيا كان مصدر هذا الوازع : الخوف من عدالة الأرض أم عدالة السماء • وحتى من يرفض الايمان بعدالة السماء نجده مضطرا لأن يقبل الايمان بأن من مصلحته الخاصة أن يسيطر - ولو بعض سيطرة - على شهواته وغرائزه لتحقيق سعادته واحترامه أمام نفسه وأمام المجتمع •

وهو حتى ان فشل فى تحقيق هذه السيطرة الى الحد المطلوب - كما هو الشأن غالبا - فالاحساس موجود على أية حال ، وما كان ليوجد لولا أن ثمة ارادة ما يمكنها - ولو فى نطاق مقيد بقيود كثيرة - أن تقبل التوجيه الصالح أو الطالح ، ومن الداخل أو الخارج ، وأن ترتبط بوازع اجتماعى أو دينى أو وجدانى أو عقلى • وهو وازع لا يتوقف - من ناحية مبدئه - على زمان أو على مكان ، وغير مرتبط بظروف دون غيرها ، وهذه هى بعينها شهادة الوجدان التى يعتبرها لفيف من الفلاسفة أقوى دليل على توافر هذه الارادة •

ولذا نجد أن عددا ملحوظا من أعلام العلوم الجنائية الحديثين مثل جرسبينى وديتوليو وبندى وكينبرج يحاول التحرر من فلسفة القدرية المطلقة ، والاقتراب - ولو الى حد ما - من فلسفة الارادة المقيدة • وهو فى تحرره متحفظ أو بالأقل قد تقيد فعلا بألا ينكر توافر الارادة المقيدة ولو على وجه ما • وهو ما يصح أن يعد منه انحيازا الى فلسفة معينة لمحاولة التوفيق بين الحرية والجبرية ، هذا التوفيق الذى لا يسع المنصف الا تأييده ، لما فيه من تحقيق الترابط المنشود بين الفلسفة العامة وفلسفة القانون من جانب ، فضلا عن الترابط بين الحلول الوضعية وبين هذه الفلسفة بشقيها من جانب آخر •

* * *

ويقول هانز آيزنك Hans Eysenck أستاذ علم النفس بجامعة لندن عن حرية الارادة : « ان قضية حرية الارادة هى قضية فلسفية لا يجب أن تعنينا كثيرا • ومن المشكوك فيه أن تكون لعبارة « حرية الارادة » أى معنى ، فالسلوك بالنسبة للبيولوجى هو نتيجة للوراثة والبيئة ، اذ يتحد الاثنان لانتاج حالة معينة من الدافعية وتشكيلة معينة من العادات • والسلوك الناتج هو حصيلة هذا الاتحاد •

وباعتباره كذلك يجب أن يكون محتوما تماما ، ومن الصعب أن يرى فى هذا السياق ماذا يمكن أن تعنى « حرية الارادة » فهل تعنى أن السلوك لا تحتمه اطلاقا الدوافع أو العادات أو الخبرة السابقة أو أى شىء آخر ؟ ••• وهل هى تساوى القول بأن الصدفة العمياء قد تتدخل فى السلوك الانسانى بصرف النظر عن الوراثة أو ضغط البيئة ؟ ليس من المستحيل بالطبع أن يكون مثل هذا الزعم صحيحا • فقانون عدم التحدد لهيزنبرج Heisenberg ينطبق على سلوك ما دون الذرة من أدنى الجزيئات ، ويمنعنا من القيام بتنبؤات دقيقة حول سلوك هذه الجزيئات (١) •

وبالنظر الى أن أجسادنا مكونة من عدد كبير من الذرات والجزيئات المكونة بدورها من جزيئات دون الذرة فليس من غير المعقول تصور أن الصدفة تتدخل بالتأكيد فى تحديد السلوك • وهى الى هذا الحد تقلل من الحتمية المتضمنة فى تأكيدنا على الوراثة والبيئة كعلل كافية للسلوك • الا أن هذا بعيد كل البعد عن فكرة «حرية الارادة » التى اذا كانت تعنى شيئا على الاطلاق ، فهى تعنى بالتأكيد شيئا مختلفا تماما عن تدخل أحداث الصدفة العمياء على المستوى دون الذرى فى التعبير عن الدوافع والرغبات والمخاوف •

ومهما كان الموقف الفلسفى لحرية الارادة فان العالم والسيكولوجى

---

(١) راجع ما سبق فى صفحة ٦٦٢ — ٦٦٣ •

والبيولوجى شأنهم على العموم شأن عالم الفيزياء ، الذى يجب أن ينطلق فى دراساته من افتراض أن ما يدرسه محتوم وخاضع للقانون العلمى ، وأن افتراضاته الأساسية تهزم بقدر ما يفشل فى اقامة هـذه القوانين . ولا زال الوقت مبكرا فى تاريخ علم النفس لنسأل الى أى مدى تقصر حقائقه دون هـذا الافتراض الأساسى ، ولا شـك أنه خلال ألف عام سيكون لدينا من الحقائق ما يكفى لنؤسس عليه آراءنا ... »(١) .

بعض العوامل المحركة للارادة

ويضيق المقام بطبيعة الحال عن تناول جميع العوامل المحركة لارادة الانسان فى سلوكه العام ، ولكن لا ينبغى أن يضيق عن القول بأن البحث فى هذه العوامل أدى الى ظهور أنواع شتى منها يمكن تأصيلها فى ثلاثة أنواع رئيسية :

(أ) فأمامنا ابتداء العوامل الاجتماعية التى تحيط بالانسان مثـل البيئة التى ولد فيهـا والتى يعيش فيها . وهذه العوامل وثيقة الصـلة بالأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصـادية السائدة . وفيها تتفـاوت بطبيعة الحال الظروف الملائمـة لصناعة الجريمة والمجرم ولتوجيههما فى اتجاهات معينة دون أخرى .

(ب) ثم هنـاك العوامل الطبيعيـة وبوجه خاص جغرافية الاقليم والطقس ، ولهـا هى الأخرى دورها المحسـوس الذى يؤيده كثير من الاحصائيات فى توجيه الجريمة وتهيئة أسبابها وتحديد أنواعها .

(جـ) ثم هناك العوامل الشخصية مثل جنس الانسان وسنه ووراثته وتركيب أعضـائه . وبعض هـذه العوامل موروث ، وبعضها الآخـر مكتسب ، وبعضها الثالث عارض .

---

(١) عن كتاب « الحقيقة والوهم فى علم النفس » ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .
هـذا وقد شرحنا موقفنـا من موضوع الارادة تفصـيلا فى مؤلف عنوانه : « فى التسيير والتخيير : بين الفلسـفة العامة وفلسـفة القانون » طبعـة ثانية ١٩٧٦ .

وقد اتجهت العلوم الجنائية الحديثة وجهات شتى فى تغليب دور بعض هـذه العوامل على بعضها الآخر • ويمكن بالأقل العثور على ثلاث مدارس هامة فى هذا الشأن :

(أ) فهناك المدرسـة الاجتماعية Ecole Sociologique وهى ترجح دور العوامل الاجتماعية وتنظر الى الجريمـة بوصفهـا ظاهرة اجتماعية تحتمها ظروف الوسط الذى يحيط بها وبالجانى (١) •

(ب) وهناك المدرسة الطبيعية Ecole Anthropologique وهى تميل الى تغليب دور العوامل الوراثية كالميول النفسية للجانى وطبائعه الموروثة بالاضافة الى بعض الصفات الجثمانية الموروثة التى قد ترتبط فى أذهان بعض الجنائيين بسلوكه الاجرامى (٢) •

(جـ) ومنها المدرسـة التاريخية Ecole Historique وهى ترى أن الموازنة بين بعض هذه العوامل وبعضـها الآخر هى مشكلة تطور زمنى وحضـارى • فكلما بلغ مسـتوى الاجراء فى أى مجتمع تطوره الأخير من النواحى الثقافية والاقتصادية كلما وضح تفوق دور العوامل الاجتماعية على ما عـداها من عوامل أخـرى تابعـة من الجنس أو المنـاخ أو التكوين الجثمانى أو غيرها • وهذه المدرسة الأخيرة لا تميزها حـدود فاصلة عن المدرستين الأخريين ، بل هى تجمع بينهما معا فى محاولة تأصيل تاريخى للعوامل الاجرامية المتنوعة •

وتعدد هذه العوامل المحركة للاجرام ، تعددا يكاد يبدو بلا نهاية ، يؤدى بداهة الى تعـذر وضع قاعدة ثابتـة فى تغليب دور الارادة على ما عداها من العوامل المحركة للجريمة أو تغليب دور بعض هذه العوامل أو كلهـا على دور الارادة الانسانية اذا سـلمنا بأنها تمثل حقيقة وضعية وفلسفية •

---

(١) من أنصـارها بونجـر ، واليانور ، وشـلدون جـلوك ، ودوركايم ، ولاكاسانى ، وتارد .

(٢) من أنصـارها ديتوليو وبندى ، وكينبرج ، وفيرفك ، واكسنر ولانج ....

حرية الارادة بين البيئة والوراثة

ويزداد الأمر تعقيدا اذا لاحظنا أن هذا البحث متصل أيضا بدراسات علم النفس الحديث وهى لها دورها أيضا فى الاجابة على هذا السؤال الهام • وبحوث علم الاجرام كبحوث علم النفس لا تزال كلها فى مبدأ الطريق بحيث يصح القول بأن العلم المعاصر لا يملك فى حالته الراهنة أية اجابة تروى الغليل •

وفى هذا الشأن يتحدث هانز ج ايزنك Hans j. Eusenck أستاذ علم النفس — الذى أشرت اليه آنفا — قائلا : « عند بداية هذا القرن كانت وجهة نظر الوراثة هى السائدة خصوصا بعد جهود المؤلف الايطالى س• لومبروزو ، الذى افترض أن كل المجرمين لديهم ميل فطرى الى السلوك اللاجتماعى وأنهم يتميزون كذلك بسمات فيزنقية معينة •

وعندما فشل الباحثون الانجليز والأمريكان فى اكتشاف هذه السمات لدى غالبية المجرمين الذين درسوهم ذهب منهج لومبروزو كله هباء •• ولنتذكر هنا أننا وجدنا أدلة لها وزنها فى موضع سابق على التحديد الوراثى لكل من الانطواء والانبساط من ناحية والعصابية من ناحية أخرى • فاذا كان المجرمون كما بينا أيضا قبل ذلك ، يميلون الى الحصول على درجات عالية فى الانبساط وفى العصابية فانه يبدو من المحتمل عقلا أن هناك عاملا تكوينيا له وزنه هو المسئول عن وضعهم الخاص فى اطارنا الوصفى للشخصية • فهل هناك أى دليل مباشر على ذلك ؟

ان الطريقة الواضحة لمعالجة هذه المشكلة ، هى بالطبع طريقة التوائم • وكان أول من استخدمها الباحث الألمانى الشهير • ج • لانج J. Lang الذى نشر كتابه المعروف « الجريمة كقدر » فى عام ١٩٢٨ فقد أحصى نزلاء سجون بافاريا فى محاولة للبحث عن مساجين لهم أشقاء توائم فوجد ثلاثين ، ثلاثة عشر لهم توائم متطابقة وسبعة عشر لهم توائم

أخوية ، ونحن نتوقع الآن وفقا لنماذج بحوث التوائم أنه اذا كان للوراثة أثر قوى فى أحداث السلوك الاجرامى فان الجانب الأكبر من التوائم المتطابقة سيتجاوب — أى سيكون قد ارتكب جرائم أكثر من التوائم الأخوية • وقد وجد لانج أن التوأم الثانى فى حالة التوائم الثلاثة عشر المتطابقة قد دخل السجن أيضا فيما عدا ثلاث حالات •

أما فى حالة التوائم الأخوية السبعة عشر فقد وجد أن اثنين فقط دخلا السجن بينما ظل الباقون بعيدين عن طائلة القانون • ويؤدى بنا هذا الى النتيجة التالية وهى •• أنه فيما يتعلق بالجريمة فان التوائم الناشئة عن بويضة واحدة تسلك عموما بطريقة مشابهة لا جدال فيها بينما تسلك التوائم الناشئة عن بويضتين سلوكا مختلفا عن بعضها البعض •

ومضى لانج ليقارن بين اجرام الاخوة والأخوات العاديين وبين اجرام التوائم الأخوية فيقول : « اذا وجدنا أن التوائم الأخوية قد عوقبت بأكثر مما يحدث فى المتوسط للاخوة والأخوات العاديين ، فاننا يجب أن نعزو ذلك الى أثر البيئة بدرجة أو بأخرى وفقا لدرجة الاختلاف بين ما نتوقعه وبين ما يكشف عنه الواقع • بعبارة أخرى أن الاخوة والأخوات العاديين يجب أن يسلكوا سلوكا اجراميا بنفس القدر الذى يحدث بين التوائم الأخوية لأن أثر الوراثة واحد تقريبا فى الاثنين •

فاذا وجد أن نسبة ارتكاب الجرائم بين التوائم الأخوية أكبر فان ذلك قد يرجع الى أنهم لما كانوا أكثر شبها ومولودين فى نفس الوقت وهكذا ، فان التوأمين يعاملون معاملة متشابهة من قبل البيئة وبالتالى تزداد فرصتهما فى أن يصبحا مجرمين أو يتجنبا الجريمة معا • وفى تلك الحالة يمكن أن نعزو للبيئة تدخلا معينا ، الا أن مقارنة لانج قد بينت أن الحال ليس كذلك • ولذلك فقد وصل الى نتيجة أنه « فى حالة الجريمة لدى التوائم الأخوية لا تلعب البيئة الواحدة الا دورا فى غاية الضآلة » •

وقد تتساءل لم لم تكن كافة التوائم المتطابقة ذات سلوك اجرامي واحد . فاذا كانت الجريمة قدرا مكتوبا كما يقول لانج فلماذا توجد استثناءات فردية ؟ وتوجد بالطبع عدة اجابات على هذا السؤال . أولا ، يجوز أن يكون التوأم الآخر مجرما أيضا ولكن لم يكتشف أمره . فكما بينا من قبل فان كفاءة البحث عن المجرمين ليست متقنة ١٠٠٪ . ولا نتوقع بالتالي ونحن نرى الصدفة تلعب مثل هذا الدور الكبير أن يكون الاتفاق بين التوائم كاملا .

وهناك اجابة أخرى يقدمها لانج فقد وجد أنه في حالتي التوائم المتطابقة اللتين ثبتتا لديه حيث كان أحد التوأمين فقط مجرما أن الأخ المجرم في كل حالة كان قد تعرض لاصابة شديدة في الرأس . وفي حالة مشابهة أخرى لزوجين متطابقين من التوائم كان أحد التوأمين يعاني من الغدة الدرقية في كل حالة ، وهو مرض يغير الشخصية ولا شك . وقد وجد غالبا أن الاصابة في المخ لها تأثير على الشخص السوي اذ تؤدي أساسا الى تحويل شخصيته في اتجاه أكثر انبساطا . وكذلك فان اضطراب الغدة الدرقية وما يرتبط به من اضطرابات هورمونية في الجهاز العصبي قد تؤدي الى نفس الاتجاه .

لذلك فنحن نرى أنه في حالات عدم الاتفاق قد حدث تدخل ولاشك فيه في الجهاز العصبي السليم للتوأم ، وربما هو الذي أدى الى الجريمة ، لذلك فقد تكون هذه الاستثناءات ظاهرية وليست حقيقية . كذلك فان هناك في حالة الاتفاق لدى التوائم الأخوية بعض السمات الملفتة التي يجب ذكرها . ففي احدى الحالات مثلا شك لانج في وجود مرض تناسلي وراثي لدى التوأمين ويقول « فاذا كان ذلك حقيقة فاننا نتعرض في تلك الحالة لا للميول الفطرية الى الجريمة وانما لنتائج تلف خطير في المخ غالبا ما يؤدي كما نعرف الى الاتجاه الى السلوك اللاجتماعي » .

وعلى وجه العموم فقد كانت نتائج لانج ذات أثر كبير . ويمكن

لمن قرأ تفاصيل تواريخ الحالات التى أوردها والتى لا تبين الاتفاق بين التوائم المتطابقة فى الاجـرام وحسب ، بل فى نوع الجريمة المحـددة والطريقة المعينة التى ارتكبت بها فى كثير من الحالات . لا يمكن لمن قرأ ذلك أن يشك فى أن الوراثة تلعب دررا هاما فى السلوك اللاجتماعى ...

هذا ولو أننا لا نستطيع المضى معه الى اعتبار أن لذلك العامل من الأهمية البالغة ما افترضه عندما قال بأن الجريمـة قدر . الا أنه حقيقة قد بالغ قليلا فى ذلك الموقف وهذا لا يبرر لغيره من الكتاب أن يتجاهلوا الحقائق تماما ، ويعـالجوا الجريمة باعتبارها ظاهرة اجتماعية خالصـة تعتمـد على تأثيرات البيئة . يجب أن نعترف بالتأكيد ان لتأثيرات البيئة أهميتها . ولكن البناء والطبيعة المحـددة للكائن الذى تقع عليه هذه التأثيرات هام كذلك ، فاهمال الطبيعة البيولوجية للكائن والالحاح فقط على الطبيعة الاجتماعية للبيئة هو خطأ آخر نلام عليه . فالسلوك كله كما لاحظنا من قبل ، هو نتيجة للتفاعل بين الوراثة والبيئة ، والمبـالغة فى تأثير أحدهما والتقليل من شأن الآخر ليس من سمات العلماء » ...

ثم يضيف أيزنك قائلا « والآن ماذا كان مصير نتائج لانج على أيدى خلفائه ؟ كان من المحتم أن تخضع نتائج هامة كنتائجه للاختبار على أيدى الكثيرين . والحقيقة أنه جرت فى ألمـانيا وفى الولايات المتحـدة بحوث عديدة مشابهة .

وعلى العموم فقـد وجد بعض الباحثين أدلة أبعـد أثرا على تأثير الوراثة . ووجد البعض الآخر - وهم الغالبية - أن ما وصلوا اليه يؤيد النتائج العامة التى سبق التوصل اليها ، ولكن على مستوى أقل أثرا .

ويبين الجدول الآتى نتائج كافة الدراسات (بما فيها نتائج لانج) التى نشرت منذ أن قام لانج بدراسته وللقـارىء أن يستخلص منهـا ما يراه .

	عدد أزواج التوائم	المتطابقة	الأخــوية	النسبة المئــوية للاتفــاق	
				المتطابقة	الأخــوية
جرائم البالغين	٢٢٥	١٠٧	١١٨	٧١	٣٤
جناح الأحــداث	٦٧	٤٢	٢٥	٨٥	٧٥
السلوك الطفلى	١٠٧	٤٧	٦٠	٨٧	٤٣
الجنســية المثليــة	٦٣	٣٧	٢٦	١٠٠	١٢
ادمان الكحول	٨٢	٢٦	٥٦	٦٥	٣٠

ففيما يتعــلق بجرائم البالغين نجد أن معدلات الاتفــاق تزيد على الضعف بالنسبة للتوائم المتطابقة بالمقــارنة بالقوائم الأخوية وكذلك فى حالة اضطرابات السلوك الطفلى بالنسبة لكلا النوعين من التوائم •

ولكن الفرق أقل بكثير فى حالة الأحداث المنحرفين ، الا أن عــدد الحالات صغير — كما هو واضح • ويحوى هذا الجدول أرقاما عن جرائم ادمان الكحول والجنسية المثلية ، الا أن هذه الأرقام قد لا تكون لها نفس أهمية الأرقام السابقة • فالجنسية المثلية لا تعتبر جريمة الا فى بريطانيــا ولكنها ليست كذلك فى القارة الأوروبية • كما أن ادمان الكحول يؤدى بسهولة الى الجريمة وغالبا ما يرتبط بها ، وبالتالى فان هذه الأرقام قد تكون لها أهمية فى حد ذاتها •

* * *

وفى هــذا الشأن يلاحظ د• رمسيس بهنام بحق أنه « لا يمكن التغالى فى عامل الوراثة والقول مع بعض العلماء الألمــان مثل لانج أن الجريمة قدر مقسوم لا سبيل الى الخلاص منه ••• فالميل الموروث الى الجريمة قــد لا يفضى مع ذلك الى الجريمة كالجســم الضعيف الذى لا يقوى على مقاومة المرض ومع ذلك تحصنه التقوية ضد المرض • وذلك لأن الصبى الذى ولد من أصــل مجرم اذا أصاب تربية صالحة وبيئة

(١) عن كتاب « الحقيقة والوهم فى علم النفس » المرجع الســابق ص ٢٧٤ — ٢٧٧ •

حسنة كان هذان العاملان بمثابة تقوية له فى مقاومة الجريمة ، فلا يقع فيها وان لم يمح من نفسه كل الميل اليها . ليست وراثة الميل الاجرامى اذن وراثة حتمية للجريمة وانما هى وراثة تربة صالحة لها ...

وقد يقال ان المجرم كثيرا ما ينشأ عن علاقة شرعية لأم صالحة بأب صالح ، ويكون له أخوة صالحون جميعهم ، وأن اجرامه يرجع الى كونه لم يحظ بذات التربة الطيبة التى ظفر بها اخوته ، والى كونه ترعرع فى بيئة فاسدة لم يكن من نصيبهم الخوض فيها . ولكن هذا القول مردود عليه بأنه حتى فى هـذه الحالة كثيرا ما يرجع الاجرام كذلك الى عامل وراثى خفى ظهر فى بعض أفراد النسل دون البعض الآخر . وهذا يفسر ظهور من يسمون « بالأبناء الشواذ » فى الأسر الطيبة العريقة فى التقاليد السامية ... » .

ثم يضيف المؤلف « اتضح من الأبحاث والاحصاءات التى قام بها العلماء فى مختلف البلاد لاسيما استامبفل Stumfl واكسنر Exner ولنز Lenz فى ألمانيا ، ولومبروزو Lombruso ودى سانكتى de Sanctis وفيرجيليو Virgilio ودى توليو Di Tullio فى ايطاليا أن المجرمين يغلب أن يكونوا من أسر شاع الاجرام بين أفرادها فى الحاضر أو فى الماضى ، أو تشوب أعضاءها حالات مرضية أو عادات سيئة من شأنها أن تفضى الى الجريمة . ومما يساعد كذلك على وراثة الميل الاجرامى أن المجرم كثيرا ما يقترن بين النساء بامرأة تتفق معه فى ذات الميول ويغلب أن تكون من أسرته لا غريبة عنه . وللعلة نفسها يكون تزاوج أفراد الأسرة بعضهم ببعض سببا لوراثة الحالات المرضية وتفاقمها ...

ولا مناص لنا من توجيه الأذهان الى ملاحظة هامة ، هى أن العامل الخارجى لا يلعب دورا سببيا فى الجريمة بطريق تهيئتها والمساعدة عليها الا اذا تحول أولا الى عامل نفسى أى الى باعث أو دافع نفسى الى السلوك ، بأن تردد صداه فى النفس وصادف هوى وقبولا لديها .

فلا صلة للخارج بالداخل الا حيث يكون للخارج تأثير فى الداخل • وهذا التــأثير يتوقف على قابلية الفرد ، أى على نوع الاستعداد الطبيعى للفرد وما لديه من ميل موروث يحسن به لقاء بعض الأمور دون البعض الآخر • بينّا هذا حين دللنا على أثر الوراثة بقولنا أن الصبى يبدو عليه منذ الحداثة ميل يحكمه فى اختيار محيطه الاجتماعى نفســه ويدنيه الى نوع من الأقران دون الآخر بحاسة اختيار غريزية لا تفسرها الا الوراثة• وسيبين ذلك أيضا على نحو أكثر جلاء حين نتكلم عن أثر المحيط الطبيعى والاجتماعى فى تهيئة الجريمة والمساعدة عليها ••• »(١) •

عن التفاوت فى قوة الارادة

وحاسة الاختيار الغريزية التى يتحدث المؤلف عنها والتى تولد مع الطفل وتنمو بنموه هى بعينها حرية الارادة التى يعنى بها كل علم يريد أن يرتاد بعض مجاهل النفس الانسانية وما أوعرها من مجاهل ! •• وهى التى تعطيها الدراسات الانسانية قيمة خاصة فى توجيه حياة الانســان ورسم مقدراته • والتسليم بوجود هذه الحرية ليس مشكلة حقيقية لأنها أقرب الى البديهيات التى تكفى فيها الملاحظة العادية وشهادة الوجدان • ولكن كل المشكلة هى فى اسناد هذه الحرية الى مصدر ثابت ، فهل هذا المصدر هو ميراث الذات من الآباء ، أم هو ميراث الذات من نفسها ومن ماضيها العريق ؟ ! • ولعل البعض أنكر حرية الاختيار من مبدئها بسبب صعوبة هذا الاسناد ذاته •••

ثم ما مدى قوة دور هذه الارادة فى توجيه دفة الأحــداث ؟ وما موضعها بين نواميس الحياة ؟ وما موقفها من نواميس الزمان والمكان المحيطة بها ، أو بالأدق من ملابسات بيئتها الاجتماعية ؟ ••• هذه هى المشكلات الحقيقية المحيطة بحرية الارادة ، أما التقرير بوجودها فلاينبغى أن يعــد على نفس المستوى من الدقة والصعوبة • وعندما نصــل الى

(١) عن د. رمسيس بهنام فى مؤلفه « محــاضرات فى علم الاجرام » ١٩٦٠ — ١٩٦١ الجزء الأول ص ٦٢ ، ٦٥ — ٦٦ ، ٨٦ — ٨٧ .

دراسة أثر اجتماعي واحـد — أو بالأدق لا اجتماعي — من آثار هـذه الارادة — وهو الجريمة — نجـد أن كل هـذه المشكلات تبرز بكل ضراوتها التى حجبت عن بعض العلماء والباحثين — على غير أساس من الصواب — دور العامل المحرك الدفين لهذا الأثر الاجتماعى وهو الارادة نفسها ، وذلك بصرف النظر عن قيمة هذا الدور .

وفى النهاية فانه لا يسعنا الا أن نقر المؤلف على النتيجة الأخيرة التى وصل اليها فى علاجه لكافة العوامل المهيئة للجريمة وهى خطأ من يقولون ان سبب الجريمة اجتماعى بحت ، وأن مردها الى العوامل الخـارجية وحدها « فهذا الرأى الذى ذهب اليه كثيرون منهم العـالم لومباردى Lombardi لا يستقيم لدى النظر ا‌لتسليم الثاقب . فتقول لومبـاردى ان الجريمة من صنع المجتمع نفسه حين يكون ضئيلا فيه عـدد الرجال المفكرين الفاضلين الذين يؤثرون الغير على أنفسهم ، ويحبون الجمـال لأنه جميل . ويكون غالبـا ساحقا فيه عـدد الرجال المتوسطين الذين لا يعملون الا فى سبيل بطونهم ، ولذتهم الشـخصية ، وصنوف المتع المـادية ولو كانت وضيعة ، خاضـعين لخرافات من المعتقدات الدينية أو السياسية أو الخلقية السائدة على طبقتهم . فقد خفى على لومباردى أنه حتى هؤلاء المتوسطون الذين يكونون السواد الغـالب لا يقع فى الجريمة الا قليلون .

فلماذا يجرم بعضهم دون البعض الآخر ؟ أليس ذلك راجعا الى أن الجريـمة لا يلبى نداءها الا من يكون على تكوين خاص يجعـل لديه استعدادا للوقوع فيها ؟ لابد اذن من التسليم بأن هـذا التكوين هو السبب الأساسى الجوهرى للاجرام ، وهو سبب داخلى لا يدخل فى عدد العوامل الخارجية . فهذه العوامل لا أثر لها الا حيث يكون الفرد قابلا للتأثر بها لميل داخلى فيه . ومن ثم فالجريمة فعل سببه داخلى خارجى فى الوقت ذاته ، اجتماعى فردى معا : لأنها تصدر من جسم ونفس لا سبيل

لتأثير الخارج فيهما الا اذا قبلا هذا التأثير »[١] .

وهـذا التكوين الخاص الذى يصنع الاستعداد للوقوع فى حمأة الجريمة ، أو هذه القابلية الداخلية للتأثر بالعوامل الخارجية ، والتى تمثل « السبب الأساسى الجوهرى للاجرام » لأن العوامل الخارجية لا تعمل الا عن طريقها هى الأمر الهام الذى يتجاهل دوره منكرو الارادة الانسانية من أنصار المدرسة الوضعية الايطالية وغيرهم على غير أساس من الصواب . ولكن هذا الدور تسلم به تماما تلك المدرسة النيوكلاسية كما تسلم بدور العوامل الخارجية فى تحريك هذه الارادة ــ ومن ورائها نزعة الأثرة ــ نحو العدوان على الآخرين . وهكذا يرتبط هذا الاتجاه بحقائق الحياة التى لا تنازع فيها الفلسفة العامة ــ والدراسات الانسانية التى تسندها ــ فى اتجاهاتها التى تبدو أقرب الى الصـواب كثيرا من غيرها .

* * *

وعلى أية حال ومع التسليم بعجز العلم الوضعى فى حالته الراهنة عن تغليب دور العوامل الوراثية على الاجتماعية أو بالعكس بصـورة حاسمة ــ فانه من باب أولى يتعذر تغليب دور هـذه أو تلك على دور الارادة الانسانية التى تتوافر للجانى بصـورة أو باخرى فى نظر تلك الفلسفة النيوكلاسية التى تعتبر أن مبدأ هذه الارادة حقيقة واقعة لا يمكن نفيها تماما لحساب عوامل الاجتماع أو الوراثة أو غيرها ، ومهما كانت قوتها مجتمعة أو منفردة ، وفى هـذا ما يميزها تماما عن وجهـات نظر المدارس الأخرى منكلاسية ووضعية وغيرها .

ولعل التسليم بمبدأ الارادة الحرة ــ مع التسليم فى نفس الوقت بأنها مقيدة بعوامل الاجتماع والوراثة ــ هو الأمر الذى أعطى لحلول هذه المدرسة مرونة وواقعية مما جعل هذه الحلول تتسرب الى الشرائع المعاصرة التى لا يمكن لأى تشريع منها أن ينفى عن الانسان مبدأ حرية

(١) عن المرجع السابق ص ٨٧ ، ٨٨ .

الارادة التى يشعر بها الانسان العادى والعالم والفيلسوف مهما تفاوتت أساليب التفكير والاقتناع بينهم .

فلا يمكن لأى تشريع وضعى أن يتبنى وجهة نظر تقوم على أساس افتراض صحة الجبرية المطلقة وعلى أساس الغاء دور الارادة الحرة مثلما يفعل غالبية علماء المدرسة الوضعية الايطالية ، بل مثلما يفعل أيضا بعض علماء الاجتماع الذين قد يحلو لبعضهم أحيانا أن ينال كثيرا من دور هذه الارادة للوصول الى نتائج معينة فى سبيل تقوية كافة الروابط الاجتماعية وتعزيزها .

ومن هذا النوع نسوق مثلا قول عالم الاجتماع المعروف ديل كارنيجى Dale Carnegie عندما يقول : « خذ آل كابونى المجرم العاتى مثلا ... وهب أنك ورثت الصفات الجثمانية والذهنية التى كانت له ، وهب أيضا أنه كانت لك بيئته وتجاربه ، أفلا تنشأ حتما على غراره ؟ .

ولعل السبب الوحيد فى أنك لم تخلق حية رقطاء هو أن أبويك ليسا من الحيات الرقطاوات ... ولعل السبب الوحيد الذى لأجله لا تعبد البقرة ، ولا تقدس الحياة ، هو أنك لم تولد لأبوين هندوكيين يعيشان على ضفاف نهر « براهما بوترا » . فأنت ليس لك فضل فى الحال التى أنت عليها الا قليلا . فاذكر ذلك جيدا .. واذكر أن الرجل الذى يأتيك محنقا مغضبا صاخبا ساخرا لا يستحق منك اللوم بقدر ما يستحق الأسف والرثاء ، لأنه بدوره ليس له فضل فى الحال التى هو عليها ، فأعذره وأشمله بعطفك ، وأظهر نحوه حسن ادراك وكرم خلق . أن ثلاثة أرباع من ستقابلهم من الناس ظمأى الى عطفك وتقديرك فأرو ظمأهم يهبوك قلوبهم جزاء وفاقا » (١) ...

---

(١) فى مؤلفه : « كيف تكسب الأصدقاء وتعامل الناس » طبعة ١٩٦٨ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

فهذا القول ان كان يصح فى نطاق علم الاجتماع لخدمة وجهة نظر معينة وهى التزام سعة الصدر مع الآخرين ومحاولة تفهم مواقفهم من مشكلاتهم الخاصة لا يمثل فى نطاق الحقائق الوضعيه الا قدرا باهتا من الحقيقة • ففى الواقع أن الصفات الذهنية والعضوية ليست كلها ميراثا من الأبوين ولا من الأجداد ولا من صنع البيئة الاجتماعية وحدها • بل ينبغى أيضا أن نحسب حساب دور ارادة صاحبها فى توجيهه الى الطريق الصحيح للتطور الذى قد يؤدى الى كسب أرفع الصفات الذهنية والعضوية ، أو الى الطريق الخاطىء فيه الذى قد يؤدى الى ضياعها تدريجيا لاكتساب أردئها ولو مع الوقت الطويل •

صلة الارادة بالتكوين الفطرى

ودراسة التكوين الفطرى للانسان عموما تعتبر — على أية حال — من أهم مباحث مدرسة التفسير الطبيعى لظاهرة الجريمة ، وهى المدرسة التى قامت على أكتافها دعائم علم الاجرام الحديث • وتعبير التفسير الطبيعى لظاهرة الجريمة تعبير واسع النطاق يشير الى اسنادها الى مجموعة عوامل طبيعية مرتبطة بالتكوين الفطرى للجانى من جميع جوانبه العضوية ، والحيوية ، والنفسية •• وكلها تتفاعل معا فى توجيه سلوكه الاجرامى ، بالاضافة الى الظروف الخارجة عن التكوين الفطرى للانسان التى منها طبيعة الاقليم ، والطقس ، والمحيط الحضارى ، والحالة الاقتصادية ، وغيرها •

وتوافر هذه العوامل الفطرية أدى الى عمل تصنيفات متعددة للجناة تنتمى الى مدارس مختلفة تسلم — على نحو ما — بوجود عوامل تنتمى الى الشكل الخارجى للانسان ويطلق عليها مورفولوجية ، وأخرى تنتمى الى قوانين الحياة التى توجه تصرفاته ويطلق عليها بيولوجية ، وأخرى تنتمى الى تكوينه الروحى أو ان شئت النفسى ويطلق عليها نفسية Psychologiques أو روحية Psychiques • وقد يدخل فيها على نحو أو آخر والى مدى أو آخر — توافر قدر ما من حرية الارادة •

وتوافر هذه الدوافع الموجهة للسلوك كلها أمر يجعل من العلماء من يعتقد أنه يوجد أكثر من ارتباط حقيقي بين التكوين الفطرى للانسان وبين تصرفه المضاد للمجتمع . وبالتالى أنه ينبغى أن نبدأ من الجريمة وتتابعها الى منبعها فى شخص فاعلهـا حتى تتعرف على شخصيته ؛ وعلى نمط هذه الشخصية ، وهذا التعرف له قيمته القصوى وخصوصا فى مرحلة تنفيذ العقوبات وتدابير الوقاية حيث ينبغى فى هـذه وتلك التفريد الى المدى الذى يجعلها خاضعة لنتائج أحدث الدراسات الانسانية .

وتأسيسا على ذلك نشـأت علوم حديثة وثيقة الصـلة بالسـلوك الاجرامى منها « علم النماذج الحيوية » la Biotypologie الذى ينظر الى الكائن الانسانى بوصفه نموذجا حيويا biotype . وهو يدرس هـذا النموذج من عدة زوايا ، فاذا كانت هذه الزاوية هى زاوية الشكل يطلق عليه «علم الأشكال الخارجية للكائنات» أو المورفولوجيا Morphologie واذا كانت هذه الزاوية هى زاوية الطبع يطلق عليه « علم دراسة الطباع » Caractérologie وهما علمان يهدفان معا الى دراسة الصلة بين التكوين الروحى والتكوين الجسـدى ، وتربطهما صـلة وثيقة بعلم « السلالات أو الأجناس البشرية » .

* * *

وقد اختلفت الآراء حول تحديد المعنى المقصود من تعبير « طبع » ، فعرفه ريبو Ribot بأنه يعبر عن « أسلوب الاحساس ورد الفعل » بحيث لا يدخـل فى هـذا التعريف الذكاء حين عرفه فوييه Fouilée تعريفـا واسعا يتضمن جميع الخلجات العقليـة والعاطفية . كما اختلفت الآراء حول تحديد طبيعة الطبع ، فأدخل فيه بعض العلماء الميول الفطرية والمكتسبة أيضا ، حين قصره البعض الآخر على الميول الفطرية ، دون المكتسبة . ولذا اختلفت الآراء حول ادخال الوسط أو عدم ادخاله كعامل له دوره فى تكوين الطبع .

وفى هـذا الشـأن يلاحظ الدكتور بوفان Boven من لوزان أن « الطبع نتائج الشخص والوسط ، فهو طابع مزدوج ومشترك للشخصية على الحياة وللحيـاة على الشخصـية » ، وهـو ما عبر عنه كرتشـمر E. Kretschmer بأن « الطبع يتكون من نتيجة التعامل المستمر الذى يجرى بين الذات العاقلة والتجارب التى مرت بها » .

ويلاحظ الدكتوران لانيل لافاستين Laignel Lavastine و ف . ف . ستانسيو V. V. Stanciu فى هذا الشأن أن الطبع لا يمكن أبدا أن يكون محض فطرة ولا محض اكتساب . لأن الشخصية الانسـانية أو الفردية بحسب تعريفها قابلة للتحول ، وللسيولة ، وللتطور بتأثير الوسط والزمن والظروف .

فالطبع caractère فى النطاق النفسى يمثل ما تمثله البنية أو السجية tempérament فى نطاق وظائف الأعضاء . ورغم التسليم ببقاء الميول الفطرية فان ردود الفعل الخارجية تظل متغيرة . فالانسان بنفس طبعـه الشبابى يحوز عادات مكتسـبة تحت تأثير العوامل الخارجية قابلة لأن تدعم ميوله الفطرية أو لأن تنال منها .

والتسليم بأن الطبع محض اكتساب ، وبالتالى متكيف مع الوسط معناه تحديد عدد الطباع بعدد الأوساط ، والخلط بين الطبع الانسـانى وسيكولوجية الحيوانات العديمة الفقرات (مثل الفراشـات ، والذباب والنمل ، وبعض الزواحف مثل الثعابين) . فانه فحسب بفضـل الفارق الموجود بين الطبع والشخصية personnalité يمكن الوصول الى قبول حقيقتين تبدوان متعارضتين فى الظاهر : هما تحقيق شخصية الانسـان بذاتها ، والتغير المستمر للروح الانسانية ، هذا التغير الذى عبر عنه تعبيرا شعريا نواى Noailles بقوله « لن تكون لنـا أبدا الروح التى لنـا فى هذه الليلة (١) » .

---

(١) Laignel Lavastine et v. Stanciu : Précis de Criminologie op. cit., pp. 61—63.

ولنا عند هذه النقطة وقفة كافية فى الباب الثامن (المبحث الثانى من الفصـل الأول .

الفطرة والتكيف الاجتماعى

فتكيف الانسان ــ بل الحيوان والنبات أيضا ــ مع البيئة أمر مسلم بصحته فى جميع المدارس ، وقد ارتبطت به نظريات التطور فى كل صورها وأشكالها • لكن قابلية الانسان للتكيف أوضح وأظهر من قابلية كل الكائنات الأخرى •

« ويسير التكيف لدى الانسان على خمسة مستويات أساسية هى: المستوى البيولوجى ، والمستوى الفسيولوجى ، والمستوى النفسى ، والمستوى التعبيرى الأدائى ، والمستوى الاجتماعى المتعلق بالعلاقات الاجتماعية • وواضح أن المستوى البيولوجى من التكيف متوافر للنباتات والحيوانات • ذلك أن النبات أو الحيوان عندما يجد أن ثمة تغيرات أساسية قد طرأت على بيئته بسبب نقله الى بيئة جديدة أو بسبب دخول عناصر جديدة فى بيئته الأصلية ، يكون أمامه طريق من طريقين : اما أن يقاوم العناصر الجديدة ويتغلب عليها ، واما أن يتنازل عن بعض مقوماته الأصلية أو يضيف وظائف جديدة أو يفرز عناصر جديدة أو يؤكد وجود عناصر كانت ضعيفة لديه بحيث يستطيع أن يحقق تجانسا بين كيانه وبين ما طرأ على بيئته من تغيرات واضافات •••

وبالنسبة للمستوى النفسى فان الانسان يكيف عواطفه بالتربية منذ الطفولة بحيث يصير بمستطاعه أن يجعل التعبير عن انفعالاته بطريقة متمشية مع ما يرضى عنه المجتمع • ولا شك أن كثيرا من الحيوانات تشارك الانسان أيضا فى هذا المستوى التكيفى •••

والواجب أن ننظر الى التكيف لا باعتباره حالة ثابتة بل باعتباره عملية أو عمليات مستمرة • ذلك أن الحياة لا يمكن أن ترسو عند مرسى معين تقف عنده، بل هى فى تدفق مستمر وحالات متلاحقة • فكما أن الجسم يقوم بعملية توافق داخلى وتوافق خارجى بحيث يتسنى له عدم الاندثار والتعرض للموت كذلك يتم التوافق مع الظروف الاجتماعية فى السيطرة على بيئته •

فأنت اذا اقتصرت فى تناولك للموقف على بعض العناصر البيئية ، وحددت موقف الشخص المتكيف لها ، فلقد تحكم بأنه رضخ لها وانصاع لوطأتها وتخاذل أمامها • ولكنك اذا تناولت الموقف ككل فانك ستحكم عندئذ بأن الشخص المتكيف للموقف لم يرضخ ، بل استطاع بتكيفه أن يسيطر على الموقف • فالواقع أن التكيف ليس رضوخا لكل مقومات الموقف ، بل هو تفاعل مع تلك المقومات لاحداث حالة جديدة ••••

والواقع أن الانسان منذ ميلاده حتى وفاته يظل خاضعا لعمليات تكيفية متعاقبة • فمن ينجح فى اجتياز تلك العمليات يتقدم فى ركب الحياة ومن يثبت فشله فيها فانه يذوى ويضمحل أو حتى يتوارى عن الوجود ••

وهناك كثير جدا من القيم الاجتماعية التى تقع تحت وطأة المتغيرات الحضارية ••• ومما لا شك فيه أن المعركة محتومة بين المتحمسين للتراث من جهة وبين المتحمسين للواقع الآتى من جهة ثانية ، وقد يتهم الآخرون الأولين بأنهم رجعيون ، بينما يتهم الأولون الآخرين بأنهم متطرفون هدامون •

وبالنسبة لموضوع التكيف ، فان التراثيين يقولون ان التكيف الحقيق بالاتباع هو تكيف للتراث وللقيم التراثية • أما الواقعيون الآنيون (أى أولئك الذين يعيشون فى حاضرهم) فانهم يرون أن التكيف المنشود هو تكيف للحاضر لا للماضى ، وأن الاستعداد لتخطى حدود الحاضر الى المستقبل أفضل من النكوص من الحاضر الى الماضى»(١)•

* * *

ولا ريب أن هذا النكوص من الحاضر الى الماضى بذريعة الحفاظ على التراث والقيم التراثية خصلة فاشية فى شرقنا الأدنى ، وهو لا يمثل نزعة رفيعة أو نافعة ، ولم يقل أحد أنه من مزايا العقل أو الأخلاق •

---

(١) عن يوسف ميخائيل أسعد فى مؤلفه فى « قوة الارادة » ١٩٧٦ صفحة ٧٤ — ٧٩ •

يل انها خصلة مسئولة — الى أكبر مدى — عن تخلف هـذه البقعة من العالم ، لأنها تقف دون امكان تكيف هذه المنطقة مع ناموس تطور العقول والأخلاق ، ومسيرة المعارف والقيم الى الأمام لا الى الوراء •

وهذا التطور للأمام يمثل أقوى نواميس الطبيعـة ، وهو القـوة الكامنة وراء الثراء المستتر فى عقل الانسان ووجدانه • وكل نواميس الطبيعة لا يمكن مقاومتهـا ، الا اذا كان بمقـدورنا أن نقاوم ارادة الله تعالى، لأنه صاحب هـذه النواميس وواضعها • وكل نواميس الكون أزليـة ، وهى لا تخضـع لارادة بشرية • وهى — كما يلاحظ علمـاء الطبيعيات — وجدت قبل ظهور الحياة على الأرض وستبقى بعد زوالها ، لأنها تحكم الكون بطريقة مجردة موضوعية مطلقة •

وأنا لا أريد هنا أن أتصور — كمـا يقول البعض — ان التشبث بالقديم خصلة فاشية فى هذا الكون من العالم لأنه يمثل عنصرا من عناصر الطبع الفطرى فى قاطنيه ، أو أنه أصبح عنصرا من عناصره بحكم طول الممارسة ورسوخ الاحساس بضرورة التطلع الدائب الى الوراء فيـه • وذلك لأن الطبع الفطرى للانسان — المتوسط السوى — أنه بميله الدفين متطلع الى الأمام لا الى الوراء ، فهو متكيف بحسب الأصل مع ظروف البيئة الاجتماعية فى الزمان والمكان ، وهى متطورة على الدوام بحسـب الأصـل •

ورقاد بضـعة أجيال فى هـذا الشرق يمكن أن يسـند أيضا الى ظروف الغزو والاستعمار الأجنبى أيا كان مصدره ، والى بعض ظروف القهر والحرمان من الخارج والداخل أيضـا ، قبل أن ينسب الى الطبع الفطرى لقاطنيه وحده • وهذا الاعتقاد سبب واحد من أسـباب عديدة تدعونى الى التفاؤل بمستقبل هـذا الشرق وقدرته على تحقيق تطوره فى المستقبل لتعويض بعض ما فاته من تطور فى ماضيه ، مهمـا علت بعض الصيحات من آن الى آخر فى غير هذا الاتجاه وعلى غير أساس سـديد

من علم أو من اعتقاد (١) •

عن اهمية التكيف الاجتماعى

وقضية التكيف الاجتماعى هى فى جوهرها قضية مدى قدرة الارادة الانسانية على أن تتكيف مع العصر ومع المعرفة الصحيحة ، وما تكشف عنه نضال عشرات القرون من حقائق لا تحصى ، وكلها جديدة على الفكر الانسانى ، ولازمة لتنظيم الروابط الاجتماعية فى صورة قوانين ناجحة سواء أكانت جنائية أم مدنية • بل انها أيضا قضية اتساع فى الأفق يلزم تحقيقه ، ونظرة انسانية شاملة يلزم القيام بها لتذليل صعوباتنا ومشاكلنا التى لا تنتهى ، والتى لا يمكن أن تواجه الا بالتكيف مع أسلوب العصر ، ومنطقه ومكتشفاته •

وهذه النظرة تصدق على شرقنا الأدنى كما قد تصدق على نحو أو آخر على غيرنا أيضا • وقال فيها بحق الفيلسوف الرياضى برتراند راسل « لقد عاش الانسان بحسب الأزمنة الجيولوجية فترة قصيرة جدا: مليون سنة على أكثر تقدير ! ! وكان ما حققه خصوصا فى الآلاف الستة الأخيرة منها شيئا جديدا كل الجدة فى تاريخ الكون ، على الأقل فيما نعلم ، فقد عبرت أجيال لا عداد لها ، والشمس تشرق وتغرب والقمر يكتمل ويختفى ، والنجوم تسطع فى الظلام ، ولكن قدوم الانسان وحده هو الذى يسَّر لهذه الأشياء أن تفهم •

ففى عالم الفلك الكبير ، وفى عالم الذرة الصغير كشف الانسان عن أسرار كان المظنون أنها لا قبل له باكتشافها • وفى الفن وفى الأدب والعقيدة ارتفع بعض البشر بمشاعرهم ارتفاعا جليلا يجعل الجنس البشرى خليقا بالبقاء • أينتهى كل هذا الى الفزع التافه لأن أولئك الذين

---

(١) وقد ناقشنا هذه القضية الكبرى بمزيد من التفصيل فى مقدمة كتاب « المشكلات العلمية الهامة فى الاجراءات الجنائية » طبعة ثالثة الجزء الثانى سنة ١٩٨٠ ص ٣ — ٥٢ .

يستطيعون أن يفكروا فى الانسان بدلا من التفكير فى هذه الجماعة من الناس أو تلك قليلون ؟

هل أصبح جنسنا مطموس البصيرة عاجزا عن الحب الخالص الذى لا تعصب فيه .. ولقد يسرنى أن ينسى الناس مشاحناتهم ليتفكروا فى أنهم لو سمحوا لأنفسهم بالبقاء فان باب الأمل مفتوح على مصراعيه على مستقبل من الانتصارات يفوق كل ما سجله الماضى من انتصارات الى مدى لا يقاس . ولو شئنا فالطريق أمامنا ممهد للتقدم المطرد فى السعادة والمعرفة والحكمة ...

انى ــ وأنا انسان ــ لأهيب بالناس : أن تذكروا انسانيتكم وانسوا ما عــــداها ، فان تأتى لكم ذلك فالطريق أمامكم مفتوح الى فردوس النعيم ، واذا لم تستطيعوا فلا شىء أمامكم الا الفناء الشامل المحيق»(١).

نعم فلنذكر انسانيتنا ولننس ما عداها فان تأتى لنا ذلك فان باب التطور والارتقاء ، والتكيف مع نواميس الطبيعة وأهدافها السامية ، سيكون مفتوحا على مصراعيه أمام الجميع . ومعه أيضــا باب الحب والتضامن مع البشرية جمعاء فى سيرها الصحيح الى الأمام لا الى الوراء .

ومن يدرى فلعل التطور فى الطريق الصحيح ينتهى بالبشرية جمعاء الى أن يكون الحب المتبادل فيما بين شعوبهــا وأفرادها عنصرا أصيلا لا دخيلا فى الطبع الفطرى للانسان . وعندئذ لا تضيع الحقائق كثيرا بين جان ومجنى عليه ، ويضيع جهد العلماء والمفكرين عبثا فى دراسة دوافع السلوك الشرير عند الأشرار ، بل عنــد الشعوب والحكومات بنفس المقــدار .

---

(١) عن برتراند راسل « العقــل والمــادة » ترجمــة أحمد ابراهيم الشريف . ١٩٧٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

بين الفطرة والعناصر البيولوجية

هــذا عن الطبع الفطرى للانسان ، أما عن العنــاصر البيولوجية المرتبطة به فهى تشير الى معنى نسبى يتحدد وفقا للظاهرة المطلوب اخضاعها للدراسة ، لأنها عبارة عن علاقة بين الذات وبين عدة عوامل حيوية ليست غريبة عنها مرتبطة بها من كل جانب • وتتوقف هذه العلاقة على طبيعة هذه العوامل وما يتولد عن تفاعل هــذه وتلك من ظواهر شتى • وقد تشعبت الآراء فى شأن تحديد هذه العلاقة ، فمثلا يعطى بعض الجنائيين قيمة خاصة لهذه العوامل البيولوجية ـ خصوصا النموالطبيعى أو الشاذ، ويدخل فيها بهذا المفهوم العوامل المتصلة بوظائف الأعضاء ـ فى تفسير الظاهرة الاجراميــة ، حين يعتبرها البعض الآخر مجرد وســيلة لابراز الصفات الفطرية التى تلقاها الفرد عن طريق الوراثة •

وقد أدى النقاش الطويل فى هذا الصدد الى ظهور « علم البيولوجيا الجنائية » Biologie Criminelle بعــد « علم النمــاذج الحيوية » Biotypologie ، هذه البيولوجيا التى تعنى بها « مدرسة البيولوجيــا التكوينية » Bio-Constitutionnelle التى ارتبطت بالمدرسة النمسوية لعلم الاجرام فى جامعة جراتز Graz .

وعن طريق تقدم هذه البيولوجيا الجنائية ابتدأ تفسير الجريمة يأخذ طابعا موضوعيا مؤسسا على التفاعل النفسى ـ الفسيولوجى ، مما أدى الى رفض كل تفسير محض شخصى للجريمة ، قائم على المواقف النفسية الصرف للجناة ، لأن هذا التفسير البيولوجى الحديث يكاد يحصر انتباهه فى تسلسل الأحداث من النواحى الفيزيقية ـ الكيميائية بمقدار ارتباطها بالمخ • وبالتالى يكاد ينفى كل سيطرة للانسان على تصرفاته ، لأنه تفسير يبرز فيه كل حدث بوصفه حلقة فى سلسلة مترابطة من العمليات البيولوجية الآلية الصادرة عن المخ بوصفه صاحب الهيمنة وحده على الجهاز العصبى ووظائف الأعضاء •

وهذا التفاعل النفسى ــ الفسيولوجى جاء ليعارضه فيما بعد التفسير البيولوجى الصرف للوعى ، حيث يظهر فيه هذا الأخير معبرا عن تتابع أو عن تسلسل عصبى بمقدوره أن يحقق للانسان امكانية السيطرة على تصرفاته ، وبالتالى امكانية ارادة محدودة فى نطاق صلاته بما يحيط به من ظواهر الحياة(١) •

الفطرة فى « المدرسة الطبيعية الحديثة »

وفى الواقع ان تفسير الظاهرة الاجرامية لايزال يمثل العمود الفقرى فى دارسات علم الاجرام ، ولقد حاول عدد من الرواد الأوائل لهذا العلم الحديث اعطاء تفسيرات متعددة فى اسناد هــذه الظاهرة الى أصولهــا الاجتماعية والطبيعية والشخصية • وحاول عدد آخر اعطاء تفسير فلسفى واحد ، أو تغليب تفسير معين على ما عداه •

وقد لوحظ فى هــذا الشأن أن علماء الاجتمــاع أميل الى تغليب العوامل الاجتماعية • أما علماء التشريح ، والعلماء الطبيعيون بوجه عام ، فقد مالوا الى تغليب العوامل البيولوجية أو الأنتروبولوجية التى تعتبر وثيقة صلة « بعلم الانسان » منظورا اليه من زاوية السلوك الاجرامى • ذلك حين لوحظ أن عددا من علماء النفس اتجه الى تغليب العوامل النفسية المتصلة بنوع شخصية الجانى ، وهل هى انبساطية أم انطوائية ، ونوع العقــد أو المركبات النفسية التى تنطوى عليهــا هذه الشخصية ، والتى يكشف عنها « علم الأمراض النفسية والعصبية » •

ولذا تعــددت النظريات فى تفسير ظاهرة الجريمــة وتشعبت الى مسالك متنوعة • ولكن من الجائز القول ابتداء بأن الجريمة ظاهرة مركبة شديدة التعقيد ينبغى أن ترجع الى عوامل كثيرة فطرية ومكتسبة تتفاعل معا ، فهى لا تقبل بطبيعتها تفسيرا واحدا بوصفه يمثل حقيقة مطلقة كفيلة بأن تستبعد ما عداها ، شأنها فى ذلك شأن جميع ظواهر السلوك الانسانى

---

(١) راجع ما سبق فى هــذا الشأن فى الفصــل الثالث ص ٦٠٧ ــ ٦٦٥ •

حتى تلك التى لا تتعارض مع أحكام التشريع العقابى ، أو مع كافة القيم الاجتماعية أو الخلقية السائدة ، فيطلق عليها وصف ظواهر اجتماعية أو متوافقة مع متطلبات الحياة الاجتماعية .

وانما على الاقتناع برجحان دور بعض هذه العوامل على بعضها الآخر نشأت المدارس الحديثة فى علم الاجرام كلها ، بغير أن تحاول أية واحدة منها استبعاد دور باقيها تماما ، بل تحاول التوفيق بينها والوصول الى حل أقرب من غيره الى الصواب عن كيفية تفاعل بعض هذه العوامل مع بعضها الآخر فى انتاج ظاهرة المجرم الحقيقى ، قبل ظاهرة الجريمة بوصفها مخالفة شكلية لأحكام قانون العقوبات .

وهذا التكييف للتفاعل بين جميع العوامل المنتجة المجرم ، وسلوكه المضاد للمجتمع ، هو مشكلة المشكلات فى بحوث علم الاجرام الحديث، ولا غرابة فى ذلك لأن معلومات الانسان عن نفسه لاتزال ساذجة بدائية ، الى حد أنه حتى الآن تقف موقف الحيرة والتردد حتى فيما ينبغى أن ينسب من هذه العوامل الى الفطرة وما ينبغى أن ينسب الى الاكتساب كما رأينا ، وبالتالى فى تعريف ما هى الفطرة وما هو الاكتساب ، وذلك لعدم وجود حدود فاصلة بينهما .

ففطرة الانسان هى التى توجه صلاته بما يحيط به من ظواهر الوجود المادى والعقلى ، كما أن ما قد يكتسبه بنفسه عن طريق هذه الصلات نفسها من مزايا أو من عيوب خلقية أو روحية قد يلعب فى تشكيل هذه الفطرة دورا ما ، بشرط أن تفهم الفطرة على أنها مرنة قابلة للتكيف ، وعلى أنها لا تنفى دور الارادة الانسانية بوصفها ناموسا روحيا طبيعيا ، ودور العقل الذى يتفاعل معها وينفعل عن طريقها .

ومع مراعاة أن العقل — كما سبق أن بينت — هو المهيمن فى نهاية المطاف على المخ بوصفه ليس أكثر ولا أقل من جهاز عضوى يستخدمه العقل أو ان شئت الروح ، هذه الشعلة المقدسة التى تهب الحياة لكل

كائن حى ، والتى لا انفصال بينها وبين العقل ولو فى أدنى صوره ، وهو العقل الغريزى الذى يتمثل فى الهامات النملة والنحلة .

* * *

وكل ذلك من شأنه أن يدفع العلماء الى مضاعفة جهودهم على رجاء تحقيق هذا الأمل الضخم الذى ينشده « علم الانسان » من قديم ، وهو **محاولة تحديد الدور الحقيقى للارادة الانسانية بين عناصر الفطرة وعناصر** الاكتساب ، تحديدا يطابق الصواب أو يقترب منه تدريجيا ولو الى حد ما ، لكن بطريقة يقينية يرتاح اليها أسلوب العلم الوضعى .

ولا يتأتى ذلك فى تقدير علماء « المدرسة الطبيعية الحديثة » لعلم الاجرام ، وهى أبرز المدارس المعاصرة ، الا عن طريق دراسة الفرد بقصد الوصول الى تفسير سببى للجريمة بوصفها رد فعل شخصى بيولوجى ازاء موقف اجتماعى معين ، وذلك بعد الافراط فى الماضى بالعناية بدراسة البيئة والظروف الاجتماعية المحيطة بالجانى . والا بالعناية بالجانب الاكلينيكى ، أى اخضاع شخص الجانى لجميع صور الفحوص المعملية كما لو كان فى عيادة طبيب مدقق يستعين قبل تشخيص الداء ووصف الدواء بكل سبل التحرى والتحاليل والصور ، ودراسة تاريخ المرض منذ ظهور أعراضه .

ولذا فان من مميزات هذه الدراسة أنها تقف فى موقف وسط بين جميع المدارس السابقة عليها ، فلا تنحاز لأية واحدة منها . فهى تعطى للجريمة تفسيرا مركبا طبيعيا ، حتى وان تغلبت — عند هذا العالم أو ذاك — رغبة تغليب عامل معين على آخر ولو الى حد ما ، لكن مع عدم انكار دور العوامل الأخرى . ومع محاولة تجنب وضع قواعد عامة مطلقة بالنسبة لحالات متفاوتة تفاوتا كبيرا ، خصوصا بحسب هذه النظرة الطبيعية الى الجريمة بوصفها ظاهرة فطرية مرتبطة بكل ما يتفاعل معها من عوامل بيولوجية وفسيولوجية ونفسية تتفاوت — الى أبعد مدى — من انسان الى آخر .

وأنصار هذه « المدرسة الطبيعية الحديثة » التى يصح وصفها بأنها « مدرسة اكلينيكية » كثيرون ، وتعبر آراؤها أصدق تعبير عن المرحلة الحالية لعلم الاجرام . ومنهم بوجه خاص دى توليو Di Tullio وبندى Pende وأوتولينجى Ottolenghi فى ايطاليا ، وفردون Verdun وايير Heuyer فى فرنسا ، ودى جريف de Greef فى بلجيكا ، وكينبرج Kinberg ووليام شلدون W. H. Sbeldon فى السويد ، وهوتون Hooton فى الولايات المتحدة . وكرتشمر Kritchmer ولانج Lang ولنز Lenz فى ألمـانيا ، ويجمع بينهم ميلهم الى الاعتقاد بوجود تكوين فطرى خاص يميز بعض كبـار الجناة ، وهـذا ما يضـيق عن الخوض فيه المقـام الحالى(١) .

---

(١) للمزيد فى هذا الشأن راجع مؤلفنا فى « أصـول علمى الاجرام والعقاب » طبعة خامسة ١٩٨١ ص ٣٠١ — ٣٦٠ .

الفصل الخامس

في موقف الفقه الجنائي من مشكلة الارادة

موقف المدرسة التقليدية

من المعروف أن أساس حق العقاب عند أنصار المدرسة التقليدية ، هو المنفعة . وهذا الأساس لا يتأتى التسليم به الا مع التسليم بأن الانسان يملك ارادة حرة تدفعه الى سلوك سبيل الفضيلة ، أو سلوك سبيل الجريمة طائعا مختارا ، فأساس المسئولية الجنائية فيها هو المسئولية الخلقية القائمة على مبدأ حرية الاختيار .

بل لقد ذهب بعض أنصار هذه المدرسة الى حد القول بأن حرية الاختيار تكاد تكون مطلقة لدى الانسان ، وأنه يملك ارادة كاملة عندما يحدد مواضع قدميه بين الخير والشر فى كل حركاته وسكناته . كما ذهب هذا البعض الى أن حرية الاختيار ليست مطلقة فحسب لكنها أيضا متساوية عند جميع الأشخاص ، ولذا وجبت المساواة التامة فى مدى المسئولية بين جميع الجناة عندما يكونون كاملى الادراك ، فلا نجد فيها أى صدى لمبدأ تفريد العقوبة أى للمغايرة فى المعاملة بين جان وآخر بحسب ظروف كل منهما ، وهو المبدأ الذى ساد فى الشرائع الحديثة ، والذى تعددت صوره وتطبيقاته فيها .

فهذه المدرسة تعلق الأهمية الأولى على جسامة الفعل من الناحية المادية ثم على جسامة نتائجه الموضوعية ، بدون أن تعلق نفس الأهمية على ميول الجانى وظروفه النفسية والاجتماعية . ومن ثم فهى تعامل المجرم العائد والمجرم البادىء على قدم المساواة طالما كانت جريمتاهما متساويتين فى جسامتهما ، وفى الضرر الناجم عنهما .

وهـذا النظر الموضوعى فى توافر حرية الاختيـار ساد عند وضع التقنين العقابى الفرنسى فى سـنة ١٧٩١ • وكان أساسا لتقرير عقوبات موحدة بالنسبة للفعل الواحد ، بصرف النظر عن احتمال تفاوت الظروف والملابسات والدوافع • وقـد كان ذلك من ضمن الأسباب التى يعزى اليها أحيانا سرعة فشل هذا التقنين ، وظهور قصوره عن ارضاء احتياجات العدالة • كما ساد نفس النظر بعـد ذلك فى تقنين نابليون الصادر فى سـنة ١٨١٠ ، ولكن بصـورة أقل تطرفا وان كانت أصول المسئولية الجنائية بوجه عام قد استمدت منه ، ثم لحقتها تعـديلات تدريجية فيما بعد طابعها التخفيف بدأت منذ سنة ١٨٣٢ •

وقد أثرت هذه المدرسة أيضا فى الشرائع التى وضعت بعد الثورة الفرنسية فى كافة أنحاء أوروبا ، فجاءت حلولها مستحدثة فى جانب منها أو أكثر ، الا أنهـا ظلت فى جانبهـا الأكبر متأثرة بمبدأ نفعية العقوبة وبالتالى أميل الى القسوة فى العقاب • وأغلب هذه الشرائع لم يطل به العهد طويلا فاضطر أصحابها الى مراجعة الكثير من أجزائها فى اتجـاه تخفيف العقاب •

* * *

وبطبيعة الحـال لم تفلت المدرسـة التقليدية من جملة انتقـادات أساسية ، أهمها أنها مدرسة متطرفة تبالغ فى التجريد عنـدما تنظر الى الجانى كما لو كان كائنا مجردا un être abstrait أو انسانا مجرما homo criminalis كالانسان الاقتصادى l'homo oeconomicus لدى الاقتصاديين الأحرار التقليديين ، هذا الانسان الذى لا وجود له فى الواقع ، لكن توضع النظريات الاقتصادية لتلائمـه كما توضع النظريات الجنائية لتعاقبه • فنظرها يقوم على فكرة سطحية افتراضية لا تمثل — فى نظر المعترضين — الواقع الصحيح فى شىء •

كما قيل أيضا فى نقد هذه المدرسة ان اهتمام الشارع بحماية المجتمع من الجريمة عن طريق الردع وحده أمر يؤدى الى المبالغة كثيرا فى تقدير

جدوى العقاب على النحو الذى لوحظ دائما فى الأنظمة العقابية التى تقام لتحقيق هذه الوظيفة وحدها ، أو لتحقيقها بصفة أساسية .

كما وجه الى هذا النظر التقليدى أنه يتجاهل واجب تحقيق العدالة، وهو واجب أساسى ينبغى أن يكون الهدف الأوحد لأى تشريع يضعه الشارع ، أو لأى حكم يصدره القاضى . والعدالة لا تتحقق الا مع مراعاة جميع الظروف والملابسات الواقعية ــ الشخصية والموضوعية المتنوعة ــ التى أحاطت بالجانى وقت ارتكاب جريمته ، وهيهات أن تتحقق العدالة اذا وضع الشارع أو القاضى نصب عينيه مجرد درء احتمال وقوع جرائم مماثلة مستقبلا من جناة آخرين .

وفى الحقيقة ان فكرة العدالة لم تكن غريبة على أذهان أنصار هذه المدرسة ، لكن تحقيق العدالة أمر نسبى ، ومفهومها قد يتفاوت بين نظر وآخر . والأمر المحقق هو أن تحقيق المنفعة من العقاب كان لديهم فى الصف الأول بالنسبة الى تحقيق العدالة . فلم تكن القسوة من أهداف هذه المدرسة بالمرة،ومن يقرأ لبكاريا يجد بصورة واضحة الكثيرمن مشاعر الرحمة والاعتدال فى العقاب . لذا رأيناه يحاول الوصول الى العقوبة المحققة التوقيع قبل العقوبة الرادعة ، أو بالأدق يحاول تبرير عدالة العقوبة بمدى نفعها .

وقد تابعه فى هذا عدد ملحوظ من أقطاب هذه المدرسة متأثرين ولا ريب بالفلسفات الكثيرة التى سادت قبيل الثورة الفرنسية وبعدها ، وبصيحات الاستنكار التى أعلنها الفلاسفة فى أوروبا ضد كل صور القسوة التى اتسمت بها تشريعات العصور الوسطى بوجه عام ، والتى نجحت فى احلال العقوبات السالبة للحرية تدريجيا محل العقوبات البدنية القاسية التى عرفتها شرائع العصور الأولى والوسطى .

لكن لا يمكن القول مع ذلك بأن الاعتدال فى العقاب يعد من السمات المميزة لهذه المدرسة بالمقارنة مع المدارس الحديثة ، اذ هيهات

أن يتحقق اعتدال فيه مع المغالاة فى القول بمدى حرية الاختيار وتغليبها كلية على ما عداها من عوامل أخرى • ولقد كانت هذه المغالاة فى اعتبار حرية الاختيار واسعة النطاق سببا للمغالاة فى العقاب من ناحية جسامته ، وللمغالاة أيضا فى تقدير جدواه من ناحية أثره فى الردع العام ، وبالتالى فى مكافحة الجريمة • وذلك مع أنه من أصول التشريع أن القانون الذى يغالى فى التجريم والعقاب مقضى عليه مقدما بالفشل ، لأنه سرعان ما يفقد سيطرته على النفوس فى الوقت الذى يسعى فيه جاهدا الى تأكيد هذه السيطرة •

ثم ان الفضيلة فى أية صورة من صورها لا تتوقف على عنصر الارغام الذى يضعف من ارادة الانسان حتى يقضى عليها فى النهاية • فلا توجد فضيلة حقيقية الا مع الشعور بحرية الارادة التى تكشف حدود هذه الفضيلة وتحسن توجيهها • وكل ارغام لارادة الانسان — اذا كان مغالى فيه — ينال من احساسه الخلقى وينتهى بانهيار القيم الأدبية لديه ، وأولها الشعور بالتضامن الاجتماعى فيطلق عوامل الجريمة فى قوة وعنف لا يمكن أن يصدهما التشريع المكتوب مهما كان صارما •

ففارق كبير بين مجتمع يحكمه تشريع يقدر نوازع الارادة البشرية حق قدرها ، ويتصدى لعلاج انحرافاتها فى رفق وحكمة ، وبين تشريع يسلط على المجتمع — بحجة تحقيق الردع العام أو الخاص — سياطا من الارهاب لا تصنع فضيلة حقيقية ، بل نفوسا شرسة متحفزة للعدوان كلما أتيحت لها فرصته وهى متاحة أبدا — حتى ولو افتقد العدوان أسبابه ، ومهما اشتط الشارع فى عقابه •

فالجزاء الجنائى شر لابد منه ووسيلة للعلاج أليمة دائما وفاشلة غالبا ، وليس غاية مرجوة ولا هدفا مقصودا لذاته مهما قيل عن توافر حرية الاختيار ، ومهما قيل عن خطورة دور الردع العام كوظيفة اجتماعية للتشريع العقابى • فهذه الوظيفة لا ينبغى التعويل عليها الا بعد استنفاد

الوسائل الأخرى للعلاج بالقدر اللازم له ، حسبما تشير به ظروف البيئة وتجارب الواقع ، وتحدده الدراسات التى تتم بروح واقعية مستنيرة •

وذلك أيضا مع مراعاة أن نظرة المجتمع الى جسامة الجريمة ينبغى أن يحسب حسابها قبل حساب وظيفة الردع العام ، اذ أن التفاوت الضخم فى العقوبة بين تقدير الشارع وتقدير المجتمع ينال من أثر التشريع فى النفوس ، بل فى تقوية الوعى العام ضد الجرم ومقترفيه • وذلك لأن سيطرة القانون على النفوس — عندما يكون معبرا تعبيرا صحيحا عن روح البيئة وقيمها الاجتماعية — هى مصدر قوته الحقيقية ، « والقانون بلا قوة — على ما لاحظه العلامة اهرنج Ihring — نار لا تحرق أو نور لا يضىء » •

موقف المدرسة التقليدية الجديدة

من أهم العناصر الجديدة التى نادت بها هذه المدرسة ، والتى نجحت فى وضع تقنين نابليون على أساس منها ، مبدأ تفاوت العقوبات بين حدين أقصى وأدنى ، حتى تكون للقاضى سلطة تقديرية يستخدمها بحسب ظروف الواقعة ومرتكبيها • وقد نجحت هذه المدرسة فى تنبيه الأذهان الى أن الجناة قد يرتكبون جرائمهم تحت تأثيرات نفسية وبيولوجية واجتماعية متنوعة تؤثر فى الجانب الشخصى للمسئولية الجنائية ، وبالتالى فى سلوكهم العام والاجرامى • ودفعت الباحثين بذلك الى الاهتمام بدراسة تأثير هذه العوامل ، مما يمكن أن يعبر بلا ريب عن ارهاصات علم الاجرام الحديث خصوصا فى جانبيه الاجتماعى والنفسى •

ومن أبرز الأدلة على اهتمامها بهذه الدوافع اهتمامها بعنصر الخبرة النفسية فى القضايا التى تشير الى نقص الادراك لدى الجانى أو انتفائه ، ولذا عنى التشريع الاجرائى الفرنسى بتنظيمها عناية خاصة • واهتمامها أيضا بعنصر سبق الاصرار فى بعض الجرائم للتمييز بين المتهم الذى يتمتع بارادة كاملة بسبب هدوئه النفسى ، وذلك الذى يتمتع بارادة ناقصة

بسبب غضبه وانفعاله ، ومثله عنصر استفزاز المجنى عليه للجانى ، بوصفه عذرا مخففا المسئولية والعقـاب • وهكذا فى الكثير من الأمور التى تجنبت فيها ما كان يؤخذ على المدرسـة التقليدية من تطرف ومن غلو ، ومن اهدار للجانب الشخصى للمسئولية لحساب جانبها الموضوعى •

وتقوم هذه المدرسة على مبدأ حرية الاختيار لدى الجانى ، لكنهـا تذهب الى أن هذه الحرية غير مطلقة ولا متساوية عند جميع الأشخاص : فأما أنها غير مطلقة فلأن هـذه الحرية هى قدرة مقاومة الدوافع والميول المختلفة ، وهذه القدرة مقيدة بما جبل عليه الانسان من طباع وما وجد فيه من ظروف • ومصادر الارادة البشرية يتعذر حصرها سـواء أكانت ترجع الى الوراثة ، أم الى تكوينه الفطرى ، لكنها فى نفس الوقت قيود تقيد من حريته فى الاختيار • فاذا كان الانسان مسئولا أدبيا فليس الى المدى الضخم الذى يستثير الشك ، ويتعذر فيه الاثبات •

وأما أن هذه الحرية غير متساوية عند الكافة فلأنها تتفاوت باختلاف الميول والنزعات من انسـان الى آخر ، بل باختلاف الأزمنة والملابسات عند الشخص الواحد ، لكنها تترك للأشخاص مجالا متفاوتا للاختيار بين نقيضى الخير والشر ، أو بين الفضيلة والرذيلة ، فضلا عن مدى اختلاف الادراك ، بشرط أن يكون الجانى اعتياديا ولمثله يتوجه أى شارع وضعى بالخطاب •

فمذهب هذه المدرسـة هو محاولة لايجاد توازن علمى بين الحرية والجبرية ، وهى فى النهاية أقرب الى الحرية منها الى الجبرية • وأقرب الى أن توصف بأنها تقليدية جديدة منها الى أن توصف بأنها مجرد انتقائية eclectique ، وهى فى الواقع تمثل عدة مدارس متنوعة واتجاهات مختلفة آخذة فى التزايد •

وقد نجحت طريقـة هذه المدرسـة فى منع المغالاة والحيلولة دون التعصب الأعمى لأى من المدارس السابقة ، ولذا فان آراءها توجه الى

مدى واضح الحلول التشريعية فى بلاد كثيرة ، لما يميزها من اعتدال واضح يطبع آراءها بروح محايدة بعيدة عن التحيز لفلسفة الحرية المطلقة فى الاختيار ، كما هى بعيدة فى نفس الوقت عن التحيز لفلسفة القدرية المطلقة •

* * *

وقد وصلت هذه المدرسة بسبب اعتدالها بين الجبرية والحرية الى حلول موفقة كثيرة ، وخصوصا فى شأن نفى المساواة فى حرية الاختيار بين جميع الجناة ، وبالتالى الى ايجاد حالات كثيرة من المسئولية المخففة تبعا لتفاوت حرية الاختيار لدى الجناة ، وبصرف النظر عن تساوى الأضرار أو عدم تساويها •

وهذه المسئولية المخففة تفترض حرية اختيار مخففة بدورها ، وتخف حرية الاختيار دون أن تنمحى تماما فى بعض صور الاكراه المعنوى والنفسى وفى بعض حالات الأمراض العصبية والنفسية التى تهبط بقدرة أصحابها على مقاومة نوازع الشر دون أن تقضى على هذه القدرة قضاء مبرما • وبعبارة أخرى أنه اذا كانت فكرة الاثم والمسئولية الخلقية تقع فى الأساس من حلول هذه المدرسة الا أن هذه المسئولية نسبية تتفاوت فى مداها ، وتخضع لكثير من الاعتبارات الموضوعية والشخصية التى لامحل للمنازعة فيها أو للشك فى مدى تأثيرها فى سلوك الجانى •

ولا ريب أنه يعود الى هذه المدرسة كثير من الفضل فى انتشار أنظمة التخفيف العقابى التى من صورها نظام الأعذار القانونية ، والظروف القضائية المخففة ، ووقف التنفيذ ، والعفو التنفيذى والقضائى ، بالاضافة الى انتشار أنظمة التفريد العقابى التى أصبح لها صداها الواضح فى جميع الشرائع الحديثة ، حتى وان تنوعت الصور والتطبيقات • وكلها تفترض فى الجانى حرية الاختيار ، وان كانت تسلم بأنها مقيدة بقيود طبيعية واجتماعية كثيرة ، وبالتالى نسبية تتفاوت بين الجناة تفاوتا ضخما ، بما ينبغى أن يرتبه التفاوت من آثار محتومة فى سياسات الشرائع بوجه عام •

فالمدرسة التقليدية الجديدة لا تغفل دور العوامل الطبيعية ، ولا الاجتماعية ، ولا التاريخية ، كما أنها لا تغفل دور الارادة الانسانية. وعلى التوفيق بين هذه الأدوار المتنوعة قامت فلسفتها الجنائية ، وذلك مع التسليم بتعذر امكان توزيع المسئولية بينها توزيعها ثابتا وعلى أسس محددة . فالجريمة ما هى الا ظاهرة اجتماعية ، وجميع الظواهر الاجتماعية يرجع حدوثها الى عوامل لا حصر لها طبقا للسببية الطبيعية ، لكن نفس الأسباب تنتج نفس النتائج فى كل زمان ومكان ، حتى وان تعذر توزيع مسئولية النتيجة على الأسباب توزيعا ثابتا أو محددا .

وفى هذا التوزيع يمكن أن تلعب الفلسفة الوضعية دورها ، كما تلعب علوم الاجتماع والنفس ذات الدور . وينبغى أن يراعى أن الترابط بين الفلسفة والعلم أمر لا غنى عنه ، لأنه هو وحده الذى يكشف عن قيمة الفلسفة وعن قيمة العلم أيضا . ولا يصح أن يلعب الاعتقاد الموروث هنا أى دور اذا فهمنا الاعتقاد على أنه محض شعور غامض للوجدان . أما اذا فهمناه على أنه قوة دافعة للتطور عظيمة الأثر ، مستمدة من انفعال الاحساس الغريزى بالمجهول متى أحسن الصقل والتوجيه ، فان التوجيه ينبغى أن يكون دائما تحت رقابة العلم والفلسفة معا حتى لا يغالى ولا يجمد فينال الغلو منه والجمود ، كما هى الحال دائما لكل شعور غامض بعيد عن رقابة العلم الوضعى ،وعن الفلسفة المترابطة المستمدة منه (١) .

والمفاهيم العلمية متطورة دواما بطبيعة الحال ، وهى فى نمو لايتوقف، وثراء متزايد نحو الوصول الى أغوار الأمور ، والاحاطة بكافة الاعتبارات عند محاولة رسم سياسة عقابية أقرب من غيرها الى عناصر النجاح . وتستوى فى ذلك مفاهيم علمى الاجرام والعقاب مع مفاهيم كافة العلوم الانسانية والطبيعية الوثيقة الاتصال بتوجيه السياسة العصرية العقابية .

---

(١) راجع ما سبق فى صفحة ٤٦٩ — ٥١١ .

وينبغى أن نضع فى الاعتبار أن المفاهيم العلمية الصحيحة تؤدى بنا تدريجيا الى الاقتراب الصحيح من لب النواميس الطبيعية التى تحكم الكون بطريقة مجردة موضوعية •

واذا كانت هذه المدرسة قد فطنت الى ضرورة التوفيق بين عدالة العقاب ومنفعته ، فان للعدل وللمنفعة معا أصولا أولية تنتمى الى قلب الوجود ، أى الى نواميس الله تعالى فى الكون ، التى تشغل بال العلم والعلماء • وهى أصول لا تنتمى الى محض رأينا فى هذا الحكم أو ذاك ، أو الى محض تقديرنا لهذا النص أو ذاك ، لأن كل أحكامنا محض زيف ورياء ، مالم تمس — عن طريق العلم الصحيح — جوهر الأمور ولب الأشياء !

* * *

ولذا فان بعض الجنائيين لايزال يستند الى فلسفة الفيلسوف الألمانى عمانوئيل Emm. Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤) وبخاصة ما يتصل بتعريفه للأمر المطلق Categorical Imperative « الذى يستمد منه تعريفه للقانون بأنه مجموع الظروف التى تعمل فيها الارادة الحرة لفرد مع ارادة حرة لفرد آخر تحت قانون الحرية الشاملة • فأساس القانون هو أن يتصرف الفرد على الوجه الذى يمكن أن يكون قاعدة عامة للجميع •

والحرية عنده هى القيمة الخلقية العليا ، وبغيرها يصبح القانون الخلقى مدعاة للسخرية ، وهو حق طبيعى للانسان لا منحة ، اذ للانسان فى أعماقه قدرة فى الاختيار أسمى ولا شك من قانون السببية الذى يحكم الظواهر الطبيعية (١) • ويرتب كنط على ذلك أن الانسان فى ذاته غاية ، ولا يمكن أن يكون وسيلة لأى شىء • وأن وجود القوة السياسية مرهون بالحاجة الى تأكيد حق كل فرد مع تحديده بحقوق الأفرا دالآخرين ، ولهذا انتقلت السلطة الى الدولة • فالدولة حارس القانون وليس لها أن

(1) George de Vecchio : Philospohy of Law. Washington 1935, p. 122.

تتدخل فى نشاط المواطنين بل ان وظيفتها فحسب هى ضمان تمتع المواطنين بحقوقهم »[1] •

ومن ثم فان كنط يقيم حق العقاب — لا على أساس من المنفعة التى تعود على الهيئة الاجتماعية من ورائه — كما هى الحال عند بكاريا وبنتام ، وكما يذهب سائر أنصار المدرسة التقليدية — بل على أساس من محاولة تحقيق العدالة المطلقة ، وهى تقتضى عنده العقاب كمقابل حتمى لحرية الارادة التى دفعت الجانى الى سلوك سبيل الجريمة ، وذلك بصرف النظر عن فكرة المنفعة •

ماذا يقول جارو ؟

وفى الواقع أن الاتجاه التوفيقى بين الجبر والاختيار كما ساد فى الشرائع الحديثة ساد فى الفقه الحديث أيضا • وفى تأييده يقرر الفقيه جارو Garraud — أحد أنصار هذا الاتجاه — أن « ثمة وجهتين ينبغى التمييز بينهما لحل مشكلة حق العقاب ، ثم ينبغى بعدئذ ادماج احداهما فى الأخرى لتعيين شروط هذا الحق ورسم حدوده : وهما الناحية الاجتماعية أو الموضوعية والناحية الشخصية أو الفردية • فمن الناحية الاجتماعية يملك المجتمع حق العقاب لأن للمجتمع حق الدفاع عن نفسه كما للفرد • والعقوبة هى السلاح اللازم للمجتمع فى نضاله لتثبيت دعائم النظام العام • ومن الناحية الفردية تعتبر العقوبة عملا من أعمال العدل سواء بالنسبة لمن توقع عليه أم بالنسبة لمن يشاهدون توقيعها •

على أن العقاب كعمل من أعمال الدفاع الاجتماعى لا يجوز أن يكون عملا من أعمال العدل الا اذا أنزل بشخص مسئول لأن المسئولية هى أساس حق العقاب وهى التى تبرر توقيعه • فمن قارف جريمة لا يعاقب

---

(١) عن أحمد محمد خليفه فى « النظرية العامة للتجريم » ١٩٥٩ ص ١٢٩ •

لأنه كان يمكنه فحسب أن يسلك مسلكا آخر غير مقارفة هذه الجريمة ، بل لأنه كان يتعين عليه أن يسلك غير هذا المسلك • وبالتالى فان فكرة الواجب والمسئولية الأدبية هى قاعدة الارتكاز لحق العقاب ، وهذا أمر لا يحتاج الى دليل ، لأنه لا يستطيع الانسان أن ينازع فى ضرورة العقوبة القانونية •

والمجتمع الذى يعاقب يمارسها وظيفة يعين شروطها ونطاقها ناموس « التضامن الاجتماعى » ، هذا الناموس الذى يتضمن واجبات المجتمع نحو الفرد وواجبات هذا الأخير نحو المجتمع • فحين يبدأ واجب المجتمع منذ ولادة الانسان فانه لا ينتهى الا بعد موته ، ويبدو فى مظاهر شتى أخصها الرعاية الاجتماعية التى تبذل الى الطفل والشاب والشيخ • فواجب الفرد هو الخضوع لشروط الحياة المشتركة وألا يفعل بالغير ما لا يريد أن يفعله الغير به • فكلما وقع فعل ارادى ضار بأحد الأفراد فهذا الفاعل يسأل عنه اجتماعيا •

ولا ينبغى أن يفلت من تطبيق ناموس التضامن والمسئولية الاجتماعية هذا سوى الأفعال التى لا صلة للارادة بها ، والتى يمكن وصفها بأنها عوارض كما لو سقطت شجرة بتأثير الريح وجرحت أحد المارة • وحتى يقوم كل فرد بما يفرضه عليه من واجب طبيعته كشخص اجتماعى ينبغى أن يكون فى امكانه ادراك ما يفعله•فان كان معتوها يحيا غريبا عن نفسه وغيره أو اذا كانت لا تتوافر له الشروط العادية المطلوبة للحياة — من الناحية الطبيعية أو من ناحية وظائف الأعضاء — فلا ينبغى أن يعد مسئولا اجتماعيا •

ولتعيين فكرة المسئولية وتحديدها ينبغى النظر اليها من ثلاث نواح : ناحية المسئولية الأدبية أو المعنوية وبمناسبتها يجرى البحث فيما اذا كان الانسان مسيرا أم مخيرا ، على أنه من المحقق أن الانسان لا يسأل أدبيا الا عن الأفعال التى يقارفها عن ارادة وحرية • ثم هناك المسئولية الطبيعية أو العقلية وهى تتوقف على حالة مراكز الأعصاب التى

تسيطر على الوظائف النفسية • وأخيرا هناك المسئولية الاجتماعية وهى متصلة بخطر الجانى على الهيئة الاجتماعية ، هذا الخطر الذى يتكون من عنصرين : طبيعة الفعل الذى قارفه وهو يمثل العنصر المادى ، وشخصية مقارفه وهى تمثل العنصر الشخصى • وتتحقق المسئولية الاجتماعية بثبوت اجرام الفاعل وخطره معا •

ولا ريب أن المسئوليتين الأدبية والطبيعية هما أساس حق العقاب • فالمسئولية الأدبية يفترض وجودها عند الانسان الطبيعى الذى يعيش فى ظروف عادية وهى المبرر للعقاب من ناحية العدل ، لأن دائرة العقاب مقيدة بالأفعال التى تصدر عن علم وعن ارادة،وبالتالى بالأشخاص الذين بلغوا النمو الكافى ، والذين تؤدى مراكزهم العصبية وظائفها بطريقة عادية • فالأطفال الى سن معينة ، والمعتوهون غير مسئولين من الناحية الطبيعية ، وينبغى على هذا النحو اخراجهم عن دائرة العقاب ، فمن ناحية الأطفال يمكن اتخاذ تدبير من تدابير التربية والتهذيب ، ومن ناحية المعتوهين يمكن اتخاذ تدابير الأمن ، أما العقوبة كما نفهمها فلا ينبغى أن تنزل على هاتين الفئتين غير المسئولتين •

وفيما يتعلق بالمسئولية الطبيعية ينبغى على المشرع الذى يعين الجرائم ويحدد عقوباتها أن يعنى بتقدير العقوبة بحسب جسامة خطر الجانى على الهيئة الاجتماعية ، وكذلك الشأن بالنسبة للقاضى الذى يوقع العقوبة فى حدود القانون • وينبغى أن تكون عنايتهما بذلك أكثر من عنايتهما بجعل العقوبة مناسبة لمسئولية الجانى من الناحية الأدبية • ورب قدر قليل من المسئولية الأدبية يقابله خطر شديد كما هى الحال بالنسبة لبعض الأشخاص المعتادين على الاجرام ، أو لبعض الأشخاص المنحرفين الذين لا يملكون من قوة المقاومة ما يمكنهم من التغلب على ميولهم الشريرة • ورب قدر يسير من الخطر يقابله قدر جسيم من المسئولية الأدبية ، كما هى الحال بالنسبة لبعض مجرمى الصدفة الذين قد

يكونون بحسب وراثتهم وتربيتهم ومركزهم قادرين على مقاومة دوافعهم نحو الجريمة ... » (١) .

ويلاحظ كيف أن جارو يربط في هذه الفقرة الأخيرة بين جسامة المسئولية الأدبية وجسامة العقوبة فيطالب أن تتناسب العقوبة من ناحية شدتها مع جسامة هذه المسئولية التى لا تمثل وحدها مدى جسامة الخطر الذى قد يمثله الجانى على الهيئة الاجتماعية . وجسامة خطر الجانى لا ينبغى أن تختلط مع جسامة الضرر الذى سببته الجريمة للمجنى عليه فان هذا الضرر سواء أكان ماديا أم أدبيا ، وحالا أم مستقبلا، اعتبار موضوعى مستقل عن جسامة العقوبة التى ينبغى أن تقاس على جسامة الخطأ الصادر من الجانى بمقدار ما يكشف عن خطورة هذا الجانى على الهيئة الاجتماعية . أما الضرر الذى لحق المجنى عليه فله دوره فحسب عند تقدير التعويض المدنى لا عند تقدير العقوبة بمعرفة الشارع أو القاضى .

أما ما يثيره الفقيه جارو من أن المجرم المعتاد الاجرام يتمتع بمسئولية أدبية أدنى من المجرم البادىء - بصرف النظر عن مدى خطورته على الهيئة الاجتماعية - فهذه مشكلة محل نقاش جدى حتى بين أنصار هذه المدرسة النيوكلاسية التى انبثقت عنها فى الواقع جملة مدارس ذات اتجاهات متنوعة قد لا يجمعها سوى ضابط مجرد محاولة التوفيق بين شتى الاعتبارات الكثيرة الدقيقة التى ينبغى مراعاتها عند محاولة رسم سياسة ناجحة للتجريم والعقاب مستمدة من أسس وضعية علمية .

موقف المدرسة الوضعية الايطالية

لا ريب أن هذه المدرسة الوضعية الايطالية تمثل حدا فاصلا فى تاريخ مكافحة الجريمة بين القديم الذى تمثله رغبة الارتباط بمذاهب فلسفية

---

(١) Garraud : Traité théorique et Pratique de Droit Pénal Francais T. I. no. 42.

معينة فى رسم سياسة العقاب ، وبين الحديث الذى تمثله رغبة الارتباط بالحقائق الواقعية للحياة ، وهذه هى العلامة المميزة لهذا العصر • ولذا نجد أنه قد انبثقت عن هذه المدرسة أهم اتجاهات التجديد فى سياسة العقاب فى القرن العشرين ، التى منها العناية بأنظمة السجون ، ومحاولة تصنيف الجناة على أسس علمية ، ووقف تنفيذ العقوبة ، والافراج الشرطى ، والعقوبة غير المحددة المدة ، والسجون المفتوحة ، بالاضافة الى العناية بالتدابير الاحترازية التى أخذت تلعب دورا متزايدا ، وكل ذلك بفضل الأسلوب الواقعى الذى اتبعته هذه المدرسة فى محاولة تفسير الظاهرة الاجرامية ومواجهتها •

ومعطيات تفسير السلوك الاجرامى ينبغى بحسب هذه المدرسة أن تستمد من علوم الحياة ، والطب ، والاجتماع ، والنفس التجريبى ، وتتوقف على مدى ما يخبئه المستقبل لتطور هذه العلوم • وهى لذلك تبنى بنتائجها على فتوحات هذه العلوم ، وهى فتوحات متطورة نامية لذا فهى أبعد ما تكون عن الاطلاق وعن العصمة • وانما المبدأ الوحيد الثابت فيها هو مبدأ أسلوب البحث الوضعى فى ذاته ، وهو نفس الأسلوب الذى قاد تطور جميع العلوم المادية والانسانية •

فهذه المدرسة – بوصفها تقوم على الأسلوب الوضعى فى بحث ظاهرة الاجرام – ترفض ابتداء أية نظريات تقوم على تأملات ما وراء الطبيعية ووظائفها الأساسية ينبغى أن تكون تقويمية أو علاجية فيما يتعلق بالجانى ، كما هى تربوية فيما يتعلق بأفراد المجتمع بوجه عام • وهى ترمى الى أن تجعل الجانى خارج قدرة الاضرار بابعاده عن المجتمع • فالانسان مسئول عن أفعاله اجتماعيا أو قانونيا بوصفه عضوا فى المجتمع وبصرف النظر عن خصائصه النفسية والفردية • لكن رد الفعل القضائى ينبغى أن يدخل فى الاعتبار هذه الخصائص لأن المسئولية العامة للفرد عن أفعاله تكملها مسئولية المجتمع ازاء الفرد ، ولذا فعلى المجتمع أن يجاهد على قدر طاقته على ابعاد أسباب الجريمة بكل ما فى وسعه من سبل ، والا فهو الجانى وهو فى نفس الوقت المجنى عليه •

وتعنى هذه المدرسة عناية تامة بالدوافع الشخصية للاجرام ، لكنها بدلا من التركيز على معنى الاسناد المادى الى شخص الجانى كما ذهبت المدارس القديمة نجدها ترتكز على معنى الاسناد الواقعى ، أى على معنى الاسناد الى الدوافع الحقيقية المحركة للاجرام الكائنة فى البنيان الشخصى للجانى ، الموروث والمكتسب ، سواء من الناحية العضوية أم النفسية .

وبالتالى فانه من اتباع أسلوب البحث الوضعى فى تفسير ظاهرة الجريمة ، يمكن أن يتجه هذا الأسلوب عدة وجهات متنوعة فى هذا التفسير ، كلها يمكن أن توصف بالوضعية ، وكلها تعبر فى نظر صاحبها عن الاسناد الواقعى لظاهرة الجريمة ، وعن الأسلوب الصحيح لمواجهتها . وهكذا نجح أصحاب هذه المدرسة فى فتح آفاق جديدة للبحث فى ظاهرة الجريمة ولمواجهتها ، تتجاوز الى مدى واضح الآفاق التى كانت تتطلع اليها المدارس السابقة لها . كما نجحوا فى توجيه أنظار الباحثين فى العالم أجمع اليها باهتمام شديد ، حتى وان اختلف أصحابها فى النتائج التى وصلوا اليها بحسب الأسلوب الذى اتبعه أى منهم ، وبحسب الجانب الذى أثار اهتمامه .

ولذا تعددت الاتجاهات داخل نطاق هذه المدرسة الوضعية الايطالية فغلب بعضها فى تفسير ظاهرة الجريمة الاعتبارات المتصلة بالتكوين الفطرى وبوجه خاص الجثمانى للجانى كما فعل لومبروزو ، وغلب بعضها فى هذا التفسير الاعتبارات المتصلة بالبيئة الاجتماعية كما فعل فرى ، وغلب بعضها فى هذا التفسير الاعتبارات المتصلة بالتكوين الروحى والخلقى للجانى كما فعل جاروفالو . لكن التقت جميع هذه الاتجاهات عند نفى توافر حرية الاختيار لدى الجانى ، والنظر اليه بوصفه أسيرا كاملا لبعض هذه الاعتبارات ، أو لها كلها .

وترتبت على ذلك نتيجة من أخطر النتائج وهى الغاء وظيفة الردع العام للعقوبة التى تتمثل فى منع غير الجانى من الاقتداء بالجانى ، والابقاء

على وظيفة الردع الخاص التى تتمثل فى مجرد منع الجانى من التمادى فى سلوكه الاجرامى • ذلك لأن وظيفة الردع العام تفترض أن الجانى حكم مختار ، وأنه يملك عقلا واعيا وارادة حرة ، فاذا انتفى ذلك وجب أن ينتفى بالتالى الردع العام ليصبح وظيفة محض افتراضية • بل وجب فى بعض الأحيان بالأقل أن يحل محل العقوبة التدبير الاحترازى فى وقاية المجتمع من خطورة المجرم ، بل أيضا من خطورة الشخص الذى قد لا يصدق عليه هذا الوصف بحسب الاتجاهات التقليدية ، لأنه قد لا يكون ارتكب — بعد — أية جريمة ، بل يمثل — فحسب — وضعا له خطورة اجتماعية معينة يجدر بالمجتمع أن يقى نفسه منها •

* * *

وعلى أية حال فانه ليس من النظر السديد ما ذهبت اليه هذه المدرسة — بالأقل فى جناحها المتطرف — من أن المسئولية الأدبية أو حرية الاختيار أصبحت لا تصلح لأن تعتبر أساسا مقبولا لحق العقاب ، ومن أن الانسان المجرم ينبغى أن تنظر اليه دائما كالانسان المريض الذى لا ذنب له فى مرضه ، وبالتالى من أن أساس حق العقاب فى الشرائع الحديثة ينبغى أن يكون هو مجرد علاج الجانى من جريمته ، كما ينبغى أن يكون هو مجرد رغبة الهيئة الاجتماعية فى وقاية نفسها من حاملى جراثيم الأمراض الخلقية والنفسية المتنوعة ، وعلاجهم من أمراضهم اذا أمكن العلاج •

هذا وقد أخذ جابريل تارد (١٨٤٣ — ١٩٠٤) على ذلك التسليم بمبدأ الجبرية المطلقة أنه يعرض مبدأ المسئولية نفسه للخطر ، لما ينطوى عليه من انكار لمعانى المسئولية الخلقية والحق والواجب والاثم • « ولأنه بغير حرية اختيار لا توجد أخلاق بالمعنى الذى يفهمه المجموع • ولأن الاحساس الخلقى وحده يحتم عقاب الجانى • كما يرى كثير من رجال القانون أن العقاب قد شرع لما تبين من أن خشية العقاب قد تؤدى الى الاحجام عن الجريمة ، وأن حرية الارادة لا تكون مفهومة على

أساس قانون الوقائع الطبيعية الذى تحكمه السببية ، بغير اعتبار لقانون الارادة الانسانية ، مع أنه حقيقى وثابت كقانون السببية سواء بسواء .

وتأسيسا على ذلك ، فان تارد لا يعارض مبـدأ الدفاع الاجتماعى كأساس للعقاب ، فان على الجماعة أن تدافع عن نفسها كالفرد ، ولكن كما يختلف رد الفعل باختلاف الفعل كذلك تدافع الجماعة عن نفسها ازاء مرتكب الجريمة بشكل يختلف عن دفاعها ازاء المجنـون ، لأن العقاب دفاع اجتماعى ضـد من ينسب اليهم الخطأ لا على أنهـم مجرد أذى أو خطر .

ان فكرة الخطأ أقـدم وأعـم بكثير من فكرة حـرية الاختيـار بمعناها المدرسى . ومن ثم فان التقـدم الذى يبشر به فرى Ferri — على ما يرد تارد — يستلزم قضاء تاما على الشعور الانسانى بحيث يقضى تماما على الانفعالات التى تثيرها الجريمة ، ولكن النفعية البحت تقضى بأن الخوف رادع وتجعل الشـعور الخلقى ضرورة تحتم عقـاب مرتكب الجريمة ، بينما لا ضرر من عدم العقـاب على جريمـة ارتكبها مجنون ، اذ لا يخشى من ألا يرتدع بقية المجانين[١] .

وبمثل ما يقول تارد يقـول أحد فلاسفة القـانون وهو العـلامة هانز كلزن [٢] اذ يرى أن حرية الارادة لا تفهم على أساس قانون الوقائع الطبيعية الذى تحكمه السببية ، فان العقاب شرع لأنه رئى أن الخوف من العقاب قد يتسبب فى عدم الاقدام على الجريمة » [٣] .

ولهذا النظر أصوله فى الشرائع العقابية المعاصرة ، وهى فى جملتها لا تتطلب — لتوافر المسئولية — مجرد اسناد الجريمة اسـنادا ماديا الى صاحبها ، وسواء أكان هـذا الاسناد المـادى مفـردا أم مزدوجا ، بل تتطلب فيها أيضا توافر الاسناد المعنوى ، أى اسناد السلوك الاجرامى

---

(١) G. Tarde : Essais et Mélanges Sociologiques 1895 p. 153

(٢) Hans Kelsen : What is Justice, 1957 p. 346.

(٣) عن أحمد محمـد خليفة فى « النظرية العامة للتجريم » ١٩٥٩ ص ٣١ ، ٣٢ .

الى انسان متمتع بحرية الاختيار ولو جزئيا الى جانب تمتعه بالادراك أو التمييز ولو جزئيا . فاذا انتفى الاختيار أو الادراك فلا مسئولية ، ومن باب أولى اذا انتفى كلاهما . وذلك حتى فى الشرائع ذات الصبغة الماركسية التى كانت تعتبر الجريمة نتاج النظام الرأسمالى كما يقول كارل ماركس ، والتى أصبحت فى اتجاهاتها الحديثة تميل — على ما لاحظه الأستاذ سافيكى Sawicki عميد كلية الحقوق بجامعة وارسو — بشكل واضح نحو آراء المدرسة النيوكلاسية فى تمسكها بمفهوم المسئولية وفقا لخصائصها الأصلية القائمة على الاسناد وعلى الاثم (١) .

موقف بعض المدارس اللاحقة

وللمدرسة النيوكلاسية أنصارها بالأقل من زاوية الاقتناع بوجود ارادة مقيدة بعدة عوامل متنوعة حتى فى ايطاليا موطن المدرسة الوضعية ، حيث ظهر عدد من كبار الجنائيين الذين يميلون الى عدم التحيز الى فلسفة القدرية المطلقة ، وان كانت تتميز آراؤهم بطابع علمى واقعى لا يختلف كثيرا عن طابع المدرسة الوضعية ذاتها .

وهذه المدارس اللاحقة متعددة ، ولعل أقوى تعبير عنها هو موقف « الاتحاد الدولى لقانون العقوبات » (فون ليست — فان هامل — أدولف برانز) . ومنها بعض المدارس الايطالية اللاحقة للوضعية مثل « المدرسة العقابية الثالثة » (كارنيفالى) ، و « المدرسة الفنية القانونية » (سابايتنى — ما سلاى — روكو)(٢) ، و « المدرسة الفنية العلمية » (فلوريان — جرسبينى — فروزالى) ، و « المدرسة الوضعية الانتقادية » (أليمينا) . ومنها أيضا « المدرسة الطبيعية

---

(١) Session d'Etude de Strasbourg sur la responsabilité pénale. Rev. Dr. Pen. Crim. 1958 p. 858.

(٢) وهذه هى المدرسة التى هيمنت على وضع التقنين العقابى الايطالى الحالى الصادر فى سنة ١٩٣٠ والذى لايزال مطبقا .

الحديثة » (دينوليو ــ بنــدى ــ كينبرج) التى لها أنصــارها فى بلاد متعــددة •

ولا ريب أن الفهم الذى يمكن أن يستخلص من المدارس الحديثة بوجه عام مهما تنوعت تفسيراتها واتجاهاتها بين اجتماعية ، وجغرافية ، وتاريخية ، ونفسية ، وطبيعية ••• لا يمكن تأصيله فلسـفيا الا على أساس ما نادت به المدرســة النيوكلاسية من لزوم التوفيــق بين عدالة العقوبة ومنفعتها •

وهذا أمر طبيعى ، لأن العدالة وما تتطلبــه من ايلام بلا منفعة ــ ولو فى أبسط صور الردع ــ تكون محض ظلم صارخ ، ولأن المنفعــة وما تتطلبه من قيود بلا عدالة ــ ولو فى أبسط صور حرية الاختيار ــ تكون محض قسوة حمقاء • ومن ثم فلا يمكن أن تتصور عدالة تقــوم سواء فى موضوعها أم فى شكلها بلا منفعــة ، ولا منفعــة بلا عدالة • ولا يمكن أن تقوم لأيهمــا قائمة الا بالاقرار بهــذه البديهية الواضحة التى فطن اليها الفلاسفة فى جميع العصور وهى أن لبنى البشر قدرا ما من ارادة حرة تقبل التوجيه الصالح أو الطالح عن طريق القدر المنــاسب المعتدل من الألم ، والاطار المناسب من تقييد هذه الارادة عند انحرافها وعدوانها على حقوق الآخرين وهم بصــدد استخدام ارادتهم استخداما مشروعا لا عدوان فيه على حقوق أحد •

وعلى هذا التوفيق ينبغى أن تؤسس محاولات التقــويم الفعــالة والاصلاح الجاد ، وذلك عن طريق مواجهة الجريمة بأساليب واقعية ــ ولنسمهــا عقوبات أو تدابير احترازية اذ شئنا ــ توفرها معاملة عادلة وملائمة تحسن التمييز بين البرىء والمسىء • كما تحسن اختيار المحقق والقاضى ، واجراءات الوصول الى الحقيقة ، وتقدير العقوبة ، وأسلوب التنفيذ ، وفى كل خطوة ينبغى أن تلعب العلوم الانسانية دورها الفعال ؛ فالترابط ينبغى أبدا أن يكون وثيقــا وحقيقيا بين سياسة العقــاب وبين العلوم الانسانية كلها •

وهـذه العلوم كلها ـ مهما قيل انها وضعية بمعنى أنها قائمة على أسلوب الملاحظة الواقعية ـ فانها فى النهاية مستمدة من تحليل نواميس طبيعية تحاول الوصول الى كشف بعض غوامضها ومعمياتها • وهى قد تنجح وقد تخفق فى هذا الوصول وفى التحليل • لكن هـذه النواميس لا تمثل فى النهاية أكثر من جانب واحد من النواميس الطبيعية التى تهيمن على مسيرة التطور والارتقاء ، والتى ينبغى على ارادة الانسان العاقل الحكيم أن تحـاول الاتساق معها على قدر طاقتها اذا أرادت أن تشـق طريقها فى حياة ناجحة خلقيا واجتماعيا •

موقف « مدرسة الدفاع الاجتماعى »

تعبير « الدفاع الاجتماعى » لا يرجع فى أصله الى المدرسة الوضعية أو الى غيرها من المدارس الحديثة ، بل هو قديم قدم الفلسفة الاغريقية ، وقد ورد أيضا فى كتابات عدد من فلاسـفة ومفكرى العصرين الوسيط والحديث من أمثـال فولتـير Voltaire ، ومنتسـكيو Montesquieu وهوارد Howard ، وبكاريا Beccaria • لكنـه يشـير لديهم الى معان متنوعة ، فلم يتحدد له مفهوم علمى واضح الا عند مؤسسى المدرسة الوضعية ، ومن تأثر بهم فيما بعد من أنصار المدرسة التقليدية الجديدة أو غيرها من المدارس الجنائية اللاحقة لهـا •

والجناح المعتـدل من الدفاع الاجتماعى الحـديث منسوب الى المستشار الفرنسى مارك أنسل Marc Ancel ويقوم التسليم بحـرية الاختيار المقيدة بالملابسات الموضوعية والشخصية كأساس لحق العقاب• ولا ينفى بالتالى العدالة ، كما لا ينفى المنفعة كأساس آخـر له ، حتى ليبدون هـذا الجناح ـ من هـذه الزاوية ـ انبثاقا صريحا وان كان حديثا من المدرسة النيوكلاسية ، أو على أحسن الفروض اتجاها توفيقيا جديدا (١) •

---

(١) Marc Ancel : La Défense Sociale Nouvelle 1966, p. 33

والجناح الآخر المتطرف لهـذا الدفاع منسوب الى الفقيه الايطالى فيليبو جراماتيكا Filippo Gramatica وهو يميل بالأكثر الى انـكار حرية الاختيار أو بالأقل من زاوية الهرب من بحثها ، ومن تجنب الكلام فى الاثم وفى المسئولية — انبثاقا صريحا وان كان حديثـا من المدرسـة الوضعية الايطالية كما خلفها مؤسسها سيزار لومبروزو •

وذلك مع أن الجناحين ينتميان معا — بحسب الظاهر — الى محور مشترك واحد ، هو محور الدفاع الاجتماعى • ولعل هذا الاعتبار يعلل لمـاذا ينظر أغلب الجنائيين بحذر الى بعض اتجاهاته • ولمـاذا يعتبره بعض الجنائيين من الكتلة الشرقية محورا رأسماليا ، ورجعيا ، ومناقضا للمبادىء الاشتراكية مناقضة صريحة(١) ، وبصرف النظر عن موقف هذا البعض من موضوع حرية الاختيار بوصفه مشكلة فلسفية •

وفى الواقع ان جميع من يهاجمون النيوكلاسية انما يدورون — من هـــذه الزاوية — فى نفس فلكها ولا يستطيعـون التخلى عنها لأنهم لا يجدون شيئا أفضل منها يقدمونه أساسا لحق العقـاب ، وهو حـرية الاختيار المقيدة بسائر العوامل الشخصية والموضوعية وما يتبع ذلك من ضرورة التوفيق بين مبدأ العدالة والمنفعة بصورة أو بأخرى • بحيث أن النفى هنا لا يكاد يعنى شـيئا على الاطـلاق فى مفهوم سياسة التشريع بصفة عامة •

وهذه الحرية المقيدة بسائر العوامل الشخصية والموضـوعية هى أشبه ما تكون بحرية راكب القطار المحكوم بحـركة سـير القطـار ، وباتجاهاته ، وبالمحطات المحددة مقـدما لوقوفه ، وبسرعته ، وبلحظات وصوله •••• ولكن فى اطار من التقيد بذلك كله يمكن للراكب أن يشغل

---

(١) ومن أصحاب هذا الاتجاه مثلا جيرزى سافيكى
الأستاذ بجامعة وارسو فى مقال له بهذا المعنى ، راجع تعليقا عليه :
Mlle Y Marx : Rev. Science crim. 1955 p. 588 et ss.

وقته وفكره كيفما شـاء فيمكنه أن يتحـرك داخل القطـار ، ويمكنه أيضا أن يرتكب جريمة سرقة ، أو قتل ، أو سب أو ضرب ، أو تهديد ، أو هتك عرض ••••• بل يمكنه أيضا أن يلقى بنفسه من القطار اذا شاء الانتحار •••

فهل حركة القطار ، والقيود الطبيعية والصـناعية العـديدة التى ترتبط بهـذه الحركة من شأنها أن تنفى عن مثل هـذا الراكب حـرية الاختيار ؟ ! ••• وأن تلغى تماما مسئوليته الأخلاقية عن صـور نشاطه المشروعة بكل ما قد ترتبـه من آثار حتميـة بحسب قانون العليـة الطبيعية ؟ !

وهذه الحقيقة تعلل لمـاذا يمكن لأى انسان أن يقول ان هنـاك التقاء شبه تام فى الاتجاهات المعـاصرة حول موقف سياسـة الشرائع من حرية الاختيار ، وهو التسليم بها مهما كانت مقيدة بملابسات الزمان والمكان ، وبالتالى التسليم بعدالة العقاب وبمنفعته ، وبمحاولة تخطيط السياسة العقابية واجراءات الدعوى على هذا الأساس ، بصرف النظر عن تباين الحلول التشريعية ، وترددها من النقيض الى النقيض أحيـانا • وبحيث يمكن الجزم بأن انكار الحرية والعدالة لا يجد له أى صـدى معاصر فى الاتجاهات السائدة التى يمكن القول بأنها تلعب دورا حقيقيا فى رسم سياسات الشرائع الموضوعية والاجرائية معا •••

وفى هـذا الشأن يلاحظ مارك آنسل على أساس من الصـواب : « أننا نعاصر من هذه الناحية تبادلا فى الآراء ، بل التقاء كان يبـدو فى عصر آخر غير متصور الوقوع • ولقد شاهـد المرء بالفعل أن الجنائيين المـاديين من بلاد الكتلة الشرقية الذين أدانوا علم الاجرام بوصفه علما « بورجوازيا » صاروا يعطونه مكانا متزايا من الأهمية • ومن ذلك أن التشريع السوفيتى منذ تعديله بين عامى ١٩٥٨ / ١٩٦٢ انتهى الى اعادة بنيان المسئوليـة على أسس تكاد تكون نيوكلاسية • وفى نفس الوقت

نجد أن أكثر الجنائيين يقظة فى هــذه الكتلة أصبحوا يتناقشون من جديد حول « النية » وحول « الخطأ » • وعلماء النفس والاجرام من الكاثوليك أصبحوا من جانبهم يميزون بين « انقدرية الوضعية » وبين « القدريات الشخصية » التى يمكنهــا أن تؤثــر الى حــد بعيد فى مسئوليــة لا يلغونها » •••

ثم يقول المؤلف بحق : « ومن ثم فان الحقيقة التى ينبغى الرجوع اليها هى التسليم بالشعور العميق والطبيعى بالمسئولية الشخصية • ومن المعروف أن الأطباء العقليين وعلماء النفس والاجرام الحديثين يلحون على هذا المعنى الشخصى للمسئولية الذى يجده الانسان بصورة مألوفة لدى كل كائن انسانى • فهو الذى يعطيهــا مغزاها ، والذى عبر عنه ايتــين دى جريف E. de Greeff بأنه « التيقن من الحــرية الداخليــة » • وهــذه المسئولية هى التى تصنع التجريب الواقعى نفسه لحرية الانسان فى الاختيار •

والمحللون النفســيون بدورهم لا يرفضــــون كل مكان للاثم ، وللاحساس العميق بالمسئولية ، فان هــذا الاحساس فى حقيقته النفسية يربط الانسان بنشاطه وبمستقبله الشخصى • وهذه الحرية التى يشعر بها صاحبها تجعل فعلنا نابعا عن شخصيتنا برمتها ومعبرا عنهــا (كمــا يقول برجسون) ••• والانسان ــ الفرد لا يشعر مع ذلك أنه مسئول وحده ، ولأنه يشعر بذلك فانه يعتبر أن الأشخاص الآخرين مسئولون هم أيضا • وهذا الاحساس الجماعى بالمسئولية ، هــذا الحق فى مطالبة كل انسان بتقديم حساب عن أفعاله ، وكذلك الالتزام بتقديم هذا الحساب بالقبول أو بالقسر ••• كل ذلك مرتبط مباشرة بهذه الحقيقة النفسية الاجتماعية التى هى الاحساس بالمسئولية •

ولا ينبغى للسياسة الجنائية الخاصة بالدفاع الاجتماعى أن تضرب صفحا عن هذه الظاهرة الفردية والجماعية ، بل انها لتقدر كل خطورتها

على المستوى الاجتماعي ـ الفردى حيث تستهدف أن تضع نفسها ، ولهـذا السبب ينبغى عليها أن تضعها فى الاعتبار عند التنظيم المنطقى لرد الفعل المضاد للجريمة . واذا كانت المسئولية على هذا الوضع تكون تعبيرا عن الشخصية ، فانها تكون أيضا مقياسا للأهلية الجنائية ، وتنبنى على ذلك نتائج محددة فى تخطيط العدالة » (١) .

موقف الفلسفة الروحية

ولا ريب أن الفلسفة الروحية بوجه عام تعترف بوجود قدر ولوضئيل من حرية الارادة فى سلوك الانسان ، وقد استقرت على ذلك منـذ زمن طويل ، حتى قبل ظهور ما يصح أن يطلق عليه وصف « الفلسفة الروحية الوضعية » التى ارتبطت بالكشوف الروحية الحديثة ، وأقامت دعائمها على أسس منها فى عدة بلاد .

وممن عنوا بمعالجة هذا الموضوع من زاوية الفقه الجنائى بوجـه خاص عالم جنائى كوبى يدعى فرناندو أورتيز Fernando Ortez

وقد كان أورتيز هـذا أستاذا بجامعة هافانا وعالمـا جنائيا معروفا ، ومعنيا فى نفس الوقت بدراسة الظواهر الروحية ، ووضع مؤلفا عنوانه « الفلسفة الجنائية عند الروحيين » (١) (١٩٥٠) ، حاول فيه أن يحـدد موضع الفلسفة الروحية من المذاهب الجنائية المختلفة . وقد تناول فيـه وجهات نظر بعض أعلام الروحيين فى هـذا الشـأن وبوجه خاص آراء العـالم والفيلسوف الروحى الوضعى آلان كاردك Allan Kardec وانتهى الى وجـود أوجه تقارب واضـحة بين هذه الأخيرة وبين آراء العالمين الجنائيين سيزار لومبروزو وانريكوفرى .

والظاهر أن أورتيز تأثر بهـذا الموقف أكثر مما ينبغى الى حد أنه

---

(٢) La Filosophia pénal de Les Espiritistas.
وله ترجمة فرنسية بعنوان La Philosophie pénale des Spirites.

كان يعتبر أن المسئولية الجنائية مسئولية قانونية قبل أن تكون أدبيـــة أو خلقية . وقد أخذ مشروع قانون العقوبات الكوبى الذى وضعه لجنة برئاسة أورتيز بمبدأ المسئولية القانونية . هذا غير انه وقع فى التناقض فى أكثر من موضع اذ سلم بحلول أخرى لا تستقيم الا مع التسليم بحيازة الجـانى قدرا ما من الاختيـار ، وبالتـالى لا تستقيم الا مع مسئوليته الأدبيـة .

ولذا فقد استبدل مشروع أورتيز بمشروع آخـر اعترف بحـرية الاختيار التى تنادى بها الفلسفة الروحية — بما فيها فلسفة آلان كارك — ، مهما كانت هـذه الحرية مقيدة بعوامل كثيرة يتعذر تماما تجاهلها بمقدار ما يتعذر تجاهل حرية الاختيار ولو كمجرد مبدأ فلسفى سليم .

* * *

ولا ريب أن لومبروزو كان عالمـا عظيم الشـأن فى تاريـخ علم الاجرام ، وقد أدى له خدمات جليلة من الزوايا التى عنى بها وهى وثيقة الصلة بعلمى الاجتماع والنفس . لكن ارتباطـه بحقـائق الاجتماع ، وبالأمراض النفسية والعصبية وبالتشريح ، ثم ارتباطـه أيضا بالأسلوب الوضعى فى البحث كان على حساب أى ارتباط فلسفى فى هـذا الشأن وسواء أكان الارتباط بفلسفة مادية أم روحية .

بل يمكن القـول — على التحقيـق — بأن لومبروزو بدأ حيـاته العلميـة ماديا وظل كذلك الى أن تطور فى النهاية تطورا تحـدث هو نفسه عنه فى مقدمة أحد مؤلفاته عندما قال : « لم يكن هناك أحد أشد منى عداء للظواهر الروحية بحكم تربيتى العلمية وميولى النفسـية . وكنت أعتبر أن من البديهات العلمية أن كل قوة ليست الا خاصـية من خواص المـادة ، وأن كل فكر وظيفـة من وظائف المخ ... لكن ولعى باظهار الحقيقة وكشف غموض الحوادث المرئية قد تغلب على عقيـدتى العلمية (١) » .

(١) عن كتاب « ماذا بعد الموت ؟ » .After Death What

وقد تناول لومبروزو فى هذا الكتاب موضوع الظواهر الروحية التى عالجها بوصفها حقائق ثابتة ، والى المدى الذى دفعه الى التساؤل عما يجرى بعد الموت من أحداث ! ! وهذا التطور من المادية الى الروحية الذى، سلم هو نفسه به كان كفيلا بأن يدفعه الى مراجعه الكثير من آرائه العلمية لو كان قد امتد به الأجل طويلا بعده •

ولعل هذه المراجعة كان من شأنها أن تغير موقفه من موضوع الجبر والاختيار ولو الى حد محدود • وربما الى الحد الذى كان سيضفى على تصنيفاته للجناة — مع ما فيها من صدق نسبى ملحوظ ومن براعة واضحة — قدرا أوفر منهما ، ومن الارتباط بحقائق الحياة الوضعية التى كان يسعى جاهدا الى الوصول اليها فى مثابرة وتفان جديرين بالاعجاب • ويكفى لتقدير براعتها أنها — رغم كل النقد الذى تعرضت له — لا تزال تلقى من عناية المشتغلين بالعلوم الجنائية الشىء الكثير جدا من الاهتمام حتى الآن •

* * *

وكان أورتيز قد اتصل بلومبروزو شخصيا منذ سنة ١٩٠٥ وتحادث معه فى شأن هذا التقارب الفريد بين نظرياته الأساسية فى العقاب وبين الفلسفة الوضعية الروحية التى كان ينادى بها آلان كاردك فى بعض جوانبها (١) ، فكلفه لومبروزو بأن يضع مذكرة كيما يستعين بها فى « أرشيفه » الخاص فى التحليل النفسى ، وقد كان لومبروزو من العاملين فى الحقلين النفسى والروحى وذلك بالاضافة الى عمله فى الطب الشرعى فى الجامعات الايطالية وفى الجيش •

وفى سنة ١٩١١ دعى أورتيز لكى يلقى الخطاب السنوى فى افتتاح دورة الأكاديمية النظرية والعلمية لكلية الحقوق بجامعة هافانا » (٢) ،

---

(١) راجع ما سبق عنه فى صفحة ١٢٤ — ١٢٨ .

(٢) Academie Théorique et Pratique de la Faculté de Droit.

فكان محور هذا الخطاب هو التقارب الواضح بين وجهات نظر لومبروزو وآلان كاردك من الناحية الجنائية •

ومن بين النقاط الهامة التى تناولها أورتيز الفلسفة الروحية المؤسسة على الاعتقاد فى المسئولية الأدبية للنفس الإنسانية عن أفعالها بوصفها تعبيرا عن مستوى تطورها الذى لا يتوقف • وهو يقرر أن ردة المجرم الى أصله الحيوانى — وهو ما نادى به لومبروزو كما قلنا بالنسبة لطائفة « المجرم بالفطرة أو بالتكوين » — تشير بحسب الصيغة الماهرة التى وضعها العالم الجنائى الايطالى فريرو Ferrero الى أن جريمة الحاضر التى يرتكبها المجرم بالتكوين لا تمثل تكرارا دقيقا لأفعال همجية كانت تقع قبل التاريخ ، بل ثمرة اتصال البيئة الحاضرة بكائنات بدائية متخلفة ، أى لم تتطور بعد التطور الكافى •

ولكن لومبروزو يختلف عن كاردك اختلافا جسيما من ناحية أن هذا الأخير لم ينف حرية الاختيار ، بل لقد أكد وجودها فى كل فلسفته الوضعية الباذخة عن الروح والخلود • أما لومبروزو فقد نفاها ونسب سلوك الجانى الى أمراض نفسية وعقلية كثيرة تسبب ردود فعل غير اجتماعية : منها العصاب ، والاكتئاب ، والانحراف ، والتشنج ، والشيخوخة ، والتخلف ، والهوس ••• بالاضافة الى بعض العادات والظروف الاجتماعية مثل ادمان الخمور والمخدرات ، ومثل الفاقة ، وافتقاد الاتزان ، بالاضافة الى جرائم العاطفة ، والحسد ، والانتقام ، والطمع ، والتعصب ••• والمسئولية الجنائية عند لومبروزو لا تعنى أكثر من الصلة بين المجرم وبين الدوافع التى تفرض عليه الاجرام فرضا بغير أن يتسع فيها المقام للحديث عن ارادة ما له ، لو كانت مقيدة بقيود عديدة •

كذلك تتميز الفلسفة الروحية بأنها تذهب الى أبعد من علم الاجرام بمفهومه الشائع من زاوية أنها لا تنظر فحسب الى الحياة الحاضرة

للمجرم ، بل تعتبر أن وجوده الراهن عبارة عن مجرد حلقة واحدة فى سلسلة مترابطة من حيوات متعددة ، وهى العقيدة التى دافع عنها آلان كاردك ، والتى اقتنع بها عدد من كبار الباحثين المدققين لوجود شواهد وضعية عديدة الآن الى جانبها ، ولنا اليها عودة فيما بعد •

وبعبارة أخرى فان الفقه الروحى — كما نادى به كاردك — يعتقد أن الانسان يتصارع مع ظروف الحياة خلال أكثر من وجود واحد حتى تسرع خطى تطوره وارتقائه ، وحتى يتحرر تدريجيا من أوجه ضعفه وقصوره • وبالتالى فان عقاب الجانى ليس وسيلة انتقام لتصرف صدر عنه فعلا ، بمقدار ما هو اعداد له لحياته الاجتماعية فيما بعد توقيع العقاب عليه •

ويلاحظ أورتيز أن فلسفة الروحية لا تعترف أيضا بمذهب لومبروزو من ناحية الاعتراف بوجود مجرم بالتكوين غير قابل للاصلاح ، بما أن كل كائن عاقل قابل للاصلاح والتطور •

ولذا فلا تعترف فلسفة الروحية بجدوى عقوبة الاعدام ، أو بجدوى أية عقوبة بدنية أو مؤبدة ، بل ان العقوبة المؤبدة تعنى ظلما وخرقا للعقل ، لأن الله تعالى لم يخلق الكائنات لكى يصبح جلادها أو عدوها على أى وجه كان •

كما تعرف الفلسفة الروحية — حسبما لاحظه أورتيز — مبادىء التكفير عن الذنب بالألم ، وبالتوبة ، وضرورة تعويض الضرر الذى وقع على نحو أو آخر •

وفى نفس الوقت نلاحظ أنه اذا كان لومبروزو قد عنى بوجه خاص بالتكوين الجثمانى لفئة خاصة من الجناة هى فئة « المجرمين بالتكوين أو بالفطرة » فان الفلسفة الروحية تعنى أولا بالتكوين العقلى أو الروحى

كأقوى مصدر وراء سلوك الانسان بوجه عام ، يستوى فى ذلك الانسان العادى مع الانسان صاحب السلوك المضاد للمجتمع ، وهو المجـرم فى المفهوم الشائع لعلم الاجرام •

بل لمــاذا لا نقول ان وراء التكوين الجثمانى للجانى يوجد تكوينه العقلى أو ان شئنا الروحى الذى يتحكم فيه الى مدى أو الى آخر لأن الذات هى سيدة المــادة وصاحبة السيطرة عليها ــ ولو على نحــو ما خاضع لنواميس طبيعية لا حصر لهــا ــ لا العكس ؟ !

ولذا ينبغى ألا يثير الاستغراب أن نجد أن عددا ملحوظا من علماء الاجرام وفلاسفته الحديثين لا يجد مفرا من تناول موضوعات الأخلاق الطبيعية ، والنواميس الروحية ، للربط بينها وبين السلوك الاجرامى على نحو فلسفى وضعى ، وذلك بالمقدار الذى يبدو لهم فيه السلوك الاجرامى مرتبطا بالتكوين الروحى والجثمانى بنفس المقدار (١) •

(١) راجع ما سبق بشأن التكوين الروحى فى صفحة ٢٣٧ ــ ٣١٤ •

الباب السابع

في سلوك الشواذ

بين السيكولوجي والباراسيكولوجي

تمهيـــد

وضحت فى الأبواب الستة السابقة مدى اتساع الآفاق الجـديدة التى فتحهـا الباراسيكولوجى لاستكشاف أغوار الذات الانسـانية ، ولمواجهة العديد من آلامها ومتاعبها العضوية والبدنية .

على أن اتســاع هذه الآفاق وفرط لزومها لا يتضح تماما للقارىء الا بعد مطالعة هذا الباب السابع الخاص بسلوك الشواذ نفسيا . ذلك أنه لا توجد صعوبات حقيقية أذلت علم النفس القـديم وأنهكت قواه وكشفت تفاهته مثل مشكلة كيفية مواجهة الحالات المرضيه المستعصية .

ذلك لأن التشخيص قد يكون سـهلا ، لأنه يعتمد فى الغالب على محض افتراضات لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تروى للنفس غليلا . أما عند رغبة العلاج فسرعان ما يتكشف عجز المفاهيم النفسية البالية وافلاسها. لأنه فى التعليل قد يسهل الافتراض ، أما فى العـلاج فلابد من تحقيق نتيجة محسوسة هيهات أن يصل اليها المعالج ما لم يضـع يده أولا على التشخيص الصحيح . فكل علاج فاشـل ما لم يبدأ بتشخيص صحيح ، وفى هذا المبدأ لا يختلف اثنان .

لذا يلزمنا هنـا بعض الأناة ، كما يلزمنا التحفظ التام فى اختيـار المراجع ، حتى تكون جديرة بثقـة القارىء ، خصوصا فى هذا الميـدان

الجديد تماما فى تعليل العديد من حالات السلوك الشاذ ، وفى أسلوب مواجهتها بأساليب لا تمت بأية صلة الى أساليب علم النفس القديم .

وفيما يلى نعالج هذه الموضوعات فى فصول ثلاثة متتابعة على النحو الآتى :

الفصل الأول : فى الشذوذ النفسى بوجه عام .

الفصل الثانى : الباراسيكولوجى يستكشف ظواهر المس الروحى والاستحواذ .

الفصل الثالث : فى الموقف التشريعى من اجرام الشواذ .

الفصل الأول

فى الشذوذ النفسى بوجه عام

تعريف الشذوذ النفسى من أصعب الأمور من الوجهة الفنية ، وقد تعددت تعريفاته ، فعرفه البعض بأن يمثل « الشخص الذى يكون عاجزا عن توجيه تصرفاته على صورة صحيحة ، بسبب توقف قواه العقليـة عن النمـو أو انحرافها أو انحطاطها ، بشرط أن يكون من ضمن الحالات المرضيـة المعينة » (١) • وعرفه البعض الآخر بأنه « عدم قدرة الشخص على التوفيق بين أفكاره وشعوره وبين ما يحيط به لأسباب عقلية » (٢) •

وبعض الناس يتصور أن الانسان الشـاذ أو المجنون هو من فقد الادراك تماما ومعه حرية الاختيار ، فأصبح يتصرف عن غير وعى • ذلك مع أن الواقع هو أن المجنون كثيرا ما يتصرف تصرفات واعيـة ، وربما لا تخلو من عمق وترابط • وقد لا يختلف فى مظهره عن سـليم العقل ، فلا يميزه عنه الا أن بعض تصرفاته يبدو غامضا غير مفهوم ، لكنه يعد نتيجة حتمية لاختلال قواه العقلية ، ومنطقية مع مقدمات معينة أوجدها هـذا الاختلال فى ذهن صاحبه •

عن الجنون الخلقى

والجنون ليس اسما لمرض واحد ، فأحيانا يكون مستديما ، كما قد يكون دوريا أو متقطعا ، وأحيانا يكون عقليا ، كما قد يكون جنونا أدبيا صرفا folie morale متخذا صورة فقدان الاحساس الأدبى ، أى القدرة الكافية على التمييز بين الخير والشر • وهـذا الأخير من أعقد المسـائل

---

(١) د. جارنيه Garnier فى « جمعية الدراسات التشريعية » وراجع جارو جـ ١ فقرة ٣١٠ ص ٦٢٣ •

(٢) « الطب الشرعى فى مصر » تأليف سدنى سمث وعبـد الحميد عامر طبعة ١٩٢٥ ص ٤٦٢ •

وأدعاها الى اختـلاف الرأى فيه • اذ أن المتهم يكون عاديا فى ارادته وذكائه لكنه فاقد بالفطرة احساسه الخلقى ، فيطلق عليه وصف « التخلف النفسى » ، وكل ما قد يدل عليه هو انتفاء الباعث الواضح للجريمة من جهة ، وبلادة المتهم بعد ارتكابها من جهة أخرى ، فلا يبدو عليه أى ندم ولا شعور بألم •

وهذه الصورة يطلق عليها أيضـا وصف « الحالة السيكوباتية » Psycopathic state وهى تسمية أطلقها العالم الألمـانى كوخ Koch منذ سنة ١٨٨٨• ويمكن أن يطلق عليها أيضا وصف «حالة التخلف النفسى» أو الروحى ، وهى تنجم فى الراجح عن تخلف روحى عريق فى تطورالحاسة الخلقية التى ينبغى أن تتطور — عند الأشخاص الأسوياء — بمقدار تطور الوعى ، وفى اتساق منظم معه حتى تهب لصاحبها تناسق الشخصية ، ولو عن طريق الألم ، أو بالأدق عن طريق الاتعاظ الصحيح من الألم •

وتخلف الحاسة الخلقية عن التطور يؤدى بطبيعة الحال الى نمو الأثرة والافراط فى الاحساس بالذات ، وبالتالى الى كل مظاهر السلوك غير الاجتماعى أو الى بعضها ، ومنها الجريمة ، خصوصا عندما تقع هذه الجريمة على النقيض من النواميس الطبيعية للأخلاق ، وبصرف النظر عن مدى مخالفتها لأحكام التشريع الوضعى المطبق فى زمان ومكان معينين •

وهذا التخلف قد يصيب من ناحية مبدئه بنسب مختلفة بعض الأفراد، كما قد يصيب بعض الجماعات ، لكنه لا يصل الى مرتبة الجنون الخلقى الا اذا وصل ضعف الحاسة الخلقية عند فرد معين الى مستوى قد يكون هو بعينه مستوى انعدامها أو ما يقاربه • ولعل هذا النوع من الجنون يمثل عندئذ صورة أخرى من صور ارتداد الانسان atavisme الى أصله الحيوانى التى يؤمن لومبروزو بتوافرها لدى بعض الجناة بالفطرة ، والتى يربط بينها وبين بعض المعالم التشريحية لدى هذه الطائفة ، الا أن الارتداد — أو ان شئت التخلف — ليس له هنا معالم تشريحية ، بل نفسية — روحية تتجلى بالأكثر فى نوع خاص من السلوك البدائى المضاد للأخلاق •

« ولاتتميز حالة التخلف النفسى ـ كما يلاحظ الدكتور أكرم نشأت ابراهيم ـ فى سن مبكرة بانحراف خطير لاختلاط أعراضها بمظاهر السلوك السوى للطفل ، وان كان الصغار المتخلفون نفسيا يكونون أقل استجابة من الصغار الأسوياء لوسائل التربية والتقويم المتبعة .

غير أن مظاهر هذه الحالة تبدو واضحة جلية حالما يبلغ صاحبها دور المراهقة لاحتفاظه ـ رغم تكامل نموه العقلى والجسمانى ـ بسلوكه الطفلى العابث ، المتصف بالاندفاعية واللاخلقية والأنانية واللاتكيفية ، وهى السمات الرئيسية للمتخلف النفسى :

فالاندفاعية impulsiveness التى يتصف بها ، تبدو فى جريه وراء أهواء اللحظة الراهنة ، دون تقدير لما كان من تجارب الماضى ، ولما سيكون من أهداف المستقبل .

واللاخلقية immorality تبرز فى انطلاقه نحو اشباع لذاته حيثما يجدها ، بلا رعاية لقواعد الأخلاق والآداب .

والأنانية selfishness تبرز فى اتخاذه من البيئة وموضوعاتها وسائل لارضاء رغباته الجامحة ، بلا مبالاة لما قد يسبب ذلك للغير من المحن والكوارث والآلام .

أما اللاتكيفية inadaptability فانها تتجسم فى اصطدامه المتواصل مع المجتمع ، نتيجة عدم توافقه مع القيم والمعايير التى ألفتها الجماعة .

والمتخلف النفسى الى جانب ذلك كله ، كذوب لايقيم فى قوله أوعمله وزنا للصدق ، مغرور بذاته ينقصه الاستبصار بما هو مصاب به من اضطرابات ، عديم الخجل والندم ، عاجز عن المثابرة على أى عمل مفيد بعيد المدى . لا تدع له تقلبات الانفعالية مجالا للاستقرار . تسوده فجاجة عاطفية ، لعدم قدرته على اكتساب عواطف سوية ناضجة يتطلب تكوينها

تكاتف عدة انفعالات منسجمة حول موضوع معين اقترن بخبرات خاصة متكررة •

أما مستوى الذكاء لدى المتخلف النفسى فانه يكون غالبا متوسطا أو فوق المتوسط ، وقلما يقل عن المعدل الوسطى • هذا اذا اتبعنا فى قياس ذكائه اختبارات الذكاء المقننة • أما اذا قسنا ذكاءه فى ضوء القاعدة التى تعتبر مدى قدرة الفرد على التكيف مع البيئة أساسا لدرجة الذكاء فان حظ المتخلف النفسى من الذكاء يكون ضئيلا الى حد كبير •

وقد تعددت التصنيفات التى أوردها الباحثون لحالات التخلف النفسى « ونحن » نفضل منها التصنيف الذى صنف المتخلفين نفسيا ، على أساس الأسلوب الذى ينهجونه فى سلوكهم ، الى نمطين هما :

١ ـ النمط العدوانى ، ويتبع فى سلوكه أسلوبا عدوانيا عنيفا ، يجعله خطرا دائما يهدد المجتمع لما يبديه من تحد ساخر فظ لنظم الجماعة •

٢ ـ النمط المراوغ ، وينهج فى سلوكه أسلوب التلفيق ، والاهمال ، والمماطلة ، والتقاعس ، والتسكع ، وعدم الاكتراث لشىء ، وتزييف الحقائق •

هذا ولا يعنى تصنيف حالات التخلف النفسى الى نمطين ، أن هناك حدودا فاصلة قاطعة بينهما : بل قد يختلط فى بعض الحالات الأسلوب العدوانى مع الأسلوب المراوغ ، فيتلون سلوك المصاب حينا بالعدوان وحينا بالمراوغة ، تبعا لما يحققه له أى اللونين من لذة فورية عاجلة قصوى •

والتخلف النفسى لا يعيق حتما المصاب به عن اكمال تعليمه وبلوغ قدر من النجاح المادى السطحى اذا واتته ظروف مناسبة ، أو أحاطته عوامل مشجعة مسهلة • على أن مثل هذه الحالة لا تحصل كثيرا ، كما أن

النجاح الذى يفوز به المتخلف النفسى لا يمكن أن يبلغ مستوى انسانيا رفيعا ، ويتعذر الاحتفاظ به الى النهاية لعجز صاحبه عن المثابرة المنظمة المستمرة والسعى نحو أهداف مثلى » (١) •

بعض خصائصه

ولعل من ضمن مصادر النجاح الذى قد يظفر به صاحب الشخصية السيكوباتية ، أى ذلك المتخلف نفسيا أو روحيا ، أن ذكاءه كما قلنا قد يكون متوسطا ، أو فوق المتوسط ، وأنه قلما يقل عن المعدل الوسطى • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه كما يصفه كليكلى Cleckley يكون عادة جذابا فى مظهره فيجذب انتباه الآخرين واعجابهم • وأنه فى المألوف متحدث لبق ، وان كان فى أحاديثه ، لا يتحرى الحقيقة ، ويعوزه الشرف والصدق • ومع ذلك قد يحوز قدرة نادرة على اقناع الآخرين وربما على اقناع نفسه أيضا بأكاذيبه وخيالاته • كما أنه صاحب ضمير بليد مهما ارتكب من أخطاء أو جرائم متكررة فى حق الآخرين ، وأحيانا بلا هدف واضح •

وبلادة الحاسة الخلقية عنده أو انعدامها هى الصفة المميزة لهذا الصنف من الناس ، حتى ولو كان يبدو شديد الانفعال فى حالات عديدة ، ولكن انفعالاته محورها أنانيته المفرطة ، وتسودها فجاجة عاطفية، مع عجزعن وزن الأمور وزنا صحيحا •

ولذا يقول عنه هول Hall بأنه يتميز بالتركيز على نفسه ، وبعدم استقراره الانفعالى ، وعدم الاحساس بالمسئولية ، وبتصرفات مريبة لا تبعث على الثقة فى صاحبها ، وذلك بالاضافة الى ضعف المناعة الخلقية أو انعدامها الجذرى •

---

(١) عن أكرم نشأت ابراهيم فى مؤلفه « علم النفس الجنائى » طبعة ١٩٦٧ ص ١٥٩ - ١٦١ •

وفى تفســير هذه الحالة « كانت هناك نظرية قديمة تذهب الى أن هناك حاسة خلقية تستقر فى التلافيف العليا للفص الجبهى بالمخ ، وأنه كما تدرك حاسة الابصار الألوان ، أو حاســة السمع الأصوات ، كذلك تدرك هذه الحاســة الخلقية معانى الحق والخير والجمال . فاذا أصيبت هــذه الحاسة بضعف أو تلف نتج عن ذلك عجز الفرد عن ادراك هــذه المعانى واتباعها .

ثم تحورت هذه النظرية على أيدى بعض العلماء ، فلم يقولوا بفقد تلك الحاســة الخلقية المزعومة Moral sense ، ولكن قالوا بفقــد « التحكم الخلقى » Moral control فعلى ما يرون توجد بالمخ فى منطقة ما مراكز كف inhibitory centers مهمتها التحكم فى الدوافع الغريزية : فاذا حدث خلل بمراكز الكف هذه تولد عن ذلك السلوك السيكوباتى .

ويرى برت أن المسألة ليست ضعفا فى مراكز الكف ـــ التى لا يقوم دليل على وجودها ـــ ولكنها تضخم فى الطاقة الانفعالية ، فاذا كان الفرد مزودا بمزاج شديد الانفعالية فان قواه العقلية تصبح عاجزة عن كبح جماح دوافعه الغريزية .

ويذهب بعض أنصــار مدرســة التحليل النفسى الى أن الحــالة السيكوباتية ضرب من الخلق العصابى Neurotic Character . ويرون أن الخلق العصابى ـــ كالمرض النفسى ـــ يعتمد على صراع لا شــعورى دائر بين الأنا والهو ، ولكن نتاج هذا الصراع فى حالة المرض النفسى هو تلك الأعراض المرضــية المختلفة التى تصيب الفرد ، بينما يترجم هــذا الصراع فى حالة الخلق العصــابى الى اتجاهات لا اجتماعية فى ســلوكه الخارجى . فهم يرون أن الحالة السيكوباتية مرجعها الى هــذا الصراع بين الأنا والهو ، والذى أدى الى تصدع مبكر فى الأنا ، سمح لكثير من

دوافع الهو بأن تعبر عن نفسها فى سلوك الفرد » (١) .

وهكذا تباينت الآراء حول عوامل التخلف النفسى ، دون أن تستقر أية واحدة منها على تفسير واضح مقبول يصح اعتباره تعليلا جامعا لما هو معروف من صور هذه الحالة السلوكية الشاذة . وهكذا أرجعها البعض الى اختلال الحاسة الخلقية Moral Sense التى زعموا - كمايقول الدكتور أكرم نشأت ابراهيم - « بأنها تتميز فى التلافيف العليا للفص الجبهى من الدماغ ، غير أنهم لم يقدموا أى دليل ملموس على وجود مثل هذه الحاسة المزعومة » .

وفى الواقع أن الحاسة الخلقية نفسها ليست مزعومة ، انما القول بأنها تتمركز فى التلافيف العليا للفص الجبهى من الدماغ هو القول الذى يفتقر الى اثبات ، وذلك لأن هذه الحاسة شأنها شأن كل الأحاسيس الأخرى كامنة فى الوعى العام أو الشامل للانسان المرتبط بجسده الأثيرى . ولا محل حتى للقول بأنها متمركزة فى المخ ، وذلك لأن الاحساس بوجه عام أوسع نطاقا بكثير من دائرة المخ ، وهو لا يشل أكثر من تجسد جزئى يعطى لصاحبه مايوصف بأنه العقل الواعى ، أما العقل الشامل فهو كجبل الثلج يطفو جزء صغير منه على السطح فيوصف بأنه العقل الواعى ويختفى الجزء الأكبر منه تحت السطح فيوصف بأنه العقل الباطن .

« ومما لا شك فيه أن السلوك اللاجتماعى الذى ينتهجه المتخلف النفسى . يشمل فى معظم صوره أفعالا وامتناعات ضارة بالمجتمع مما يقرر لها القانون عقابا جنائيا ، وهى بذلك تنطوى تحت مفهوم الجريمة . غيرأن المتخلف النفسى يتميز فى اجرامه عن المجرم العادى من عدة وجوه لخصها كلكلى Clecoiy فى الفروق الآتية :

---

(١) للمزيد راجع د. أحمد محمد خليفة فى « أصول علم النفس الجنائى والقضائى » طبعة ٢ سنة ١٩٤٥ ص ١٣١ - ١٣٢ . وهو يحيل القارىء الى:
D. Abrahamsen : Crime & The Human Mind. London 1945 P. 107.

١ ــ للمجرم العادى هدف معين ، يروم الاستحواذ عليه من طريق عمله الاجرمى بينما المتخلف النفسى يقدم على اقتراف الجريمة ، دون أن يكون له هدف واضح فى الغالب ، أو لمجرد تحقيق لذة تافهة على الرغم من العقوبة القاسية التى يعرض نفسه لها بصورة أكيدة فى أحوال كثيرة ، فهومثلا قد يقدم على سرقة سيارة لمجرد التنزه مع فتاة تكون بصحبته •

٢ ــ المجرم العادى يحاول جهده عدم تعريض نفسه لأى أذى ، بينما المتخلف النفسى لا يؤذى الآخرين فقط ، وانما قد يؤذى نفسه أيضا ، ويظهر ذلك واضــحا فى اقدامه على الانتحار أحيانا ، وتحطيم واتلاف ممتلكاته •

٣ ــ المتخلف النفسى لا يميل الى ارتكاب الجرائم الخطيرة كالقتل مثلا ، وأن كان يحتمل اقدامه على ارتكابها فى سياق ثوراته الاندفاعية ، ودون أن تكون مسبقة بتدبير أوتحضير الا فيما ندر(١)• وقد ظهر بنتيجة فحص هندرسون ، على ٤٩ شخصا ارتكبوا جرائم قتل مختلفــة ، بأن أربعة منهم فقط هم المتخلفون نفسيا ، وقد ارتكبوا جرائمهم دون تدبير سابق •

والملحوظ بصفة خاصة أن المنتمين للنمط العدوانى agressive تبعا لأسلوب ســلوكهم العنيف هم أكثر اصــطداما بالمجتمع من أفراد النمط المراوغ deceptive ، وبالتالى تزداد نســبة جرائمهم المتســمة بالقسوة والرعونة والافتضاح • وقد ينهالون بالضرب على من يعترضهم ، ويدمرون ما يقع تحت أيديهم من أشياء ، وربما وصلوا الى اضرام النــار فيها • وواضح بأن مثل هذه الأفعال معاقب عليها باعتبارها جرائم تهديد وقذف وسب وايذاء واتلاف واحراق •

كذلك لتجرد هؤلاء العدوانين من الحياة بصــلافة ، ولاضطرابهم

---

(١) Hervery Cleckly : The Mask of Sanity, London 1941. pp. 208—210.

الجنسى ، وتخليهم عن التبعات الاجتماعية الأخلاقيـة ، لا يتورعون عن الانطلاق وراء نزواتهم دون تبصر ، فيرتكبون جرائم هتك العرض والفعل الفاضح العلنى والعرى ، وغيرها من الجنايات والجنح والمخالفات المنافية للآداب ...

أما جمـاعة المنتمين للنمط المراوغ ، الذين يكون « قناع العقل » لديهم أكثر خداعا ورياء ، فانها تتصف غالبا بالمخاتلة والمخادعة والليونة . فالمتخلف النفسى المراوغ لا يمل البطـالة والتسـكع والعيش عالة على الآخرين ، غير أنه يتحاشى الاصـطدام الصريح مع القوانين والأنظمـة الواجبـة الرعاية ، بلجوئه الى التمثيل وذلاقة اللسان كوسيلة لاقنـاع ضحاياه وحملهم دون اكراه على تحقيق رغباته . لذا يغلب عليهم ارتكاب جرائم الاحتيال ، وخيانة الأمانة ، والتزوير ، وابتزاز الأموال ، والانتحال غير المشروع للوظائف والرتب ، والاغواء مع الوعد بالزواج ، والتحريض على الفجور ، والاخبار الكاذب ، وشهادة الزور .

وقد يحدث أن يقترف المتخلف النفسى من النمطين ، جرائم سياسيه بحت أو مختلطة أو مرتبطة ، طمعـا فى تقمص أدوار الزعامة ، واندفاعا أرعن من وراء حب الظهور ، ولأجل المباهاة والزهو ، كما أن المتخلفين نفسيا — العدوانيين والمراوغين على السواء — لا يعترفون بحق التملك على ما يبدو ، لذلك فانهم لا يتوانون عن اختلاس أموال الغير لصرفها فى قضاء حاجاتهم العابرة ، وانفاق ما يتبقى منهـا بسفه فى سبيل الرذيلة . وتنصب السرقات الأولى لأعضاء هـذه الزمرة فى معظم الأحوال ، على ممتلكات أقربائهم وأصدقائهم ، لسـهولة استحواذهم عليها ، ثم تشمل ممتلكات الآخرين ممن لا تربطهم بهم أية رابطة .

ومن الممارسات المعتادة لدى عـدد كبير منهم : الافراط فى تناول الخمر والمخـدرات ، التى تحقق لهـم جزءا غير يسـير من اللذة التى يتصيدونها بكل وسيلة ممكنة . ومثل هذا الادمان يضاعف قوة العوامل

الدافعة لاجرامهم ويزيد فى خطورتها ، فضلا عن أن كلا من حيازة المواد المخدرة لغير الأغراض المشروعة والسكر البين فى المحلات العامة ، يعتبر بحد ذاته جريمة معاقبا عليها »(١) .

وفى الجملة فان أهم ما يميز الشخصية السيكوباتية هو انتفاء القدرة على ضبط النفس لانتفاء الذات العليا المتماسكة القوية لديها . ولذا نجدها تمثل شخصية قاسية ، هجومية ، ميالة الى الانتقام ، والى الاضرار بالآخرين ، والى استغلالهم ، واضحة التركيز على نفسها ، متقلبة فى ميولها ، حتى فى ميولها الجنسية مغالية فى حب نفسها وفى عدم الاحساس بالذنب . وقد تعلل هذه الشخصية اما بالتدليل المفرط فى مرحلة الطفولة المبكرة ، واما بالحرمان من التربية الصالحة فى هذه الطفولة ، ولكن لا ينبغى أبدا تجاهل دور الفطرة .

هذا وقد أثبتت تجارب «مقياس الرأس الكهربائى» على السيكوباتيين أن نسبة كبيرة منهم تتراوح بين ٦٥ ، ٨٠٪ مصابة بشذوذ فى النشاط الكهربائى للمخ (٢) . ولا نستبعد أن يكون هذا الشذوذ من أعراض الشخصية السيكوباتية وليس من أسبابها ، أو بالأقل أن ثمة تفاعلا مستمرا بينهما يقابل التفاعل الذى لوحظ بين بعض صور السلوك الاجرامى وبين النشاط الوظيفى لبعض الغدد ، أو بينه وبين بعض الالتهابات السحائية .

ويتعذر تحديد نسبة السيكوباتيين بوجه عام الى الأشخاص العاديين لأن تعريف الشخصية السيكوباتية لايزال محل خلاف كبير . لكن يمكن مع ذلك القول بأن انتشارها أوسع مما قد يتراءى لأول وهلة ، حتى عند كبار المثقفين ، وأن ثمة حالات سيكوباتية كثيرة تظل كامنة لمدى سنين

---

(١) عن أكرم نشأت ابراهيم . المرجع السابق ص ١٦٧ — ١٧٠ .

(٢) راجع :

Lewis and Bacella : Electroencephalgram in Behavior Disorders.

وراجع حسن شحاته سعفان . « علم الجريمة » ١٩٦٦ ص ٨٧ — ٨٩ .

طويلة ، فلا تظهر أعراضها الا فى مناسبات خاصة عندما تتوافر لها الظروف المؤتية •

عن موقف العلماء منه

هذا وقد تفاوتت الآراء تفاوتا بينا فى موقفها من هذا الجنون الخلقى بحسب المدارس التى وجهتها فى تعليله ، وفى تعيين مدى حرية الاختيار التى يتمتع بها الجانى • كما اختلف الرأى اختلافا بينا فى مواجهتها بالعلاج النفسانى أو العقابى ، بالاضافة الى تلمس أسباب الوقاية للمجتمع التى هى من أصعب الأمور بالنسبة لهذه الحالة بالذات ، لأن الجانى قبل ارتكاب جرائمه قد يبدو طبيعيا جدا وعلى مستوى طيب من الذكاء •

ويمكن فى هذا الشأن التميز بين ثلاثة اتجاهات رئيسية :

— فأولها يرى أن الشخصية السيكوباتية لا تعتبر من ضمن حالات المرض العقلى ، بل هى تمثل حالة شذوذ خلقى ، أو سلوك مرضى أعوج اعوجاجا لا ينفى المسئولية الجنائية ولا ينبغى أن ينتقص منها(١) • وعيب هذا الرأى أنه يتجاهل فى حالة هذه الشخصية توافر المرض النفسى — الذى قد لا يرقى الى مستوى المرض العقلى — والذى يتمثل فى عدم النضج الكافى ، بحيث أن المريض هنا يبدو كما لو كان صبيا قاصرا لم يبلغ بعد سن الرشد القانونى ، ويتعذر بالتالى مساءلته — مساءلة عادلة — كالشخص البالغ سن الرشد سواء بسواء •

— وثانيها يرى — على العكس مما تقدم — أن هذه الشخصية تمثل مرضا عقليا بكل معنى الكلمة ، غاية ما هناك أن أعراض هذا المرض — أو بالأدق هذا الجنون الحقيقى — تكون مغطاة برداء صناعى مزيف من سلامة العقل يخفى حقيقة حالة صاحبه ، حتى عن الاخصائيين فى بعض الأحيان • ولذا فان هذا الاتجاه يميل الى تقرير امتناع المسئولية الجنائية

---

(١) من هذا الرأى فاينهوفن Weinhofen فى مؤلفه عن « الجنون كدفاع فى القانون الجنائى » .Insanity as a Defence in Criminal Law

بتاتا على أساس توافر مرض عقلي دفين من طبيعة خاصة به ، لأنه يختلف عن سائر الأمراض العقلية فى مظهره الخارجي ، لكنه لا يختلف عنها فى قوة تأثيره فى حرية الاختيار التى قد يقضى عليها قضاء تاما فى النهاية (١) •

ــ وثالث هذه الانجاهات يتخذ موقفا وسطا بين هذين الاتجاهين المتطرفين ، فيذهب الى أن الشخصية السيكوباتية من صور المرض النفسى لا من صور المرض العقلى • فهى لا تترك ملكة التمييز على حالتهـا ، ولاتقضى عليها قضاء مبرما ، بل ينبغى اعتبارها من مصادر تخفيف المسئولية الجنائية أسوة بحالات الأمراض النفسية التى تنال منالا مسلما به من حرية الاختيار لدى أصحابها ، حتى وان كانت لا تقضى عليها بتاتا ، وهى تختلف تماما عن الأمراض العقلية ، وتحمل أسماء شتى مثل نزعة الكذب المرضى Mythomania ونزعة الحريق المرضى Pyromania (٢) •

ويبدو أن هذا الاتجاه الثالث أمكنه عن طريق اعتـداله أن يوجه طائفة من أحكام القضاء فى بعض البلاد الأجنبية وخصوصا فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى الجزر البريطانية نحو قبول مبدأ المسئولية المخففة بالنسبة لهذا الصنف من الجناة • لكن لا يمكن القول بأن هذا الحل يلاقى قبولا عاما فى كافة الشرائع ، فقد نص القانون فى روسيا مثلا على أن مثل هذا الجنون الأدبى لا ينفى مسئولية الجانى ، حين أنه ينفيها فى ايطاليا • ويعتبره العلامة لومبروزو Lombroso من صور الجنون الفطرى أو المتوارث التى يجب علاجها والوقاية منها كغيرها •

عن التخلف العقلى

وهناك أيضا عاهات عقلية مختلفة قد تنال من ادراك صاحبها منالا تاما أو جزئيـا بحسب الأحوال ، مثل الهستريا ، والصرع ، واستحواذ فكرة ثابتة على الجانى قد تكون فردية أو دينية أو سياسية • كما أن هناك

(١) ومن هـذا الرأى كاربمان karpman وأيضـا هيرفى كليكلى
(٢) راجع :
James Drener : A Dictionnary of Psychology. 1952.

حالات البله idiotie ، وقد يكون مصدرها الصمم والبكم Sourdo mutisme المتوارث أو المكتسب فى الصغر • ثم هنـاك حالات مرضى الأعصاب nevropathes ، وفاقدى الاتزان déséquilibrés ، والمنحلين degnénerés والمصابين بصور الشذوذ العقلى المختلفة anomalie mentale

فهذه كلها حالات تقع على الحد بين الصحة والمرض العقلى ، وتمثل درجات متفاوتة من التخلف العقلى • وقد تكون الفروق بينهـا قوية ، كما قد تكون تافهة غير محسوسة • وقد يتوافر أيها بسبب جنون حقيقى فلا يدرك المريض اختلال شعوره ، كما قد يتوافر بدون جنون حقيقى فيدرك المريض اختلال شعوره ، ومن ثم تظلمه اذا وصـفته بأنه عاقل وتظلم الحقيقة اذا وصفته بأنه مجنون •

وقد يكون هذا التخلف وراثيا ، كما قد يكون مكتسبا من سبب معين مثل الادمان على الخمور أو المخدرات ، أو التعرض لصدمات عصبية عنيفة كالفشـل أو الذعر أو الحزن • وقـد لا يعرف سـببه على وجه التحديد ، كما قـد يكون سـببه استعداد فطرى له ، بل « ان النفس البشرية مليئة ـ بوجـه عام ـ بالاضطراب والتخيل • وان الكثيرين الذين يعيشون فى أوهام اذا لم تنقذهم العناية الالهية من أوهامهم ينحدر بهم الطريق الى الجريمة والجنون »(١) •

ومن الملاحظ أنه حتى المجـانين الخطرين الموجودين فى المصحات والمستشفيات لا يفقـدون ادراكهم ، ولا اختيـارهم تمـاما ، وكثيرا ما يتصرفون بدوافع مماثلة لدوافع غيرهم من العقلاء ، ويتفـاوتون فى مستواهم العقلى والخلقى ، فيحسن بعضهم التمييز بين الخطأ والصواب ، ويتمتع بعضهم ببعض ملكات ذهنية أو فنية راقية ، الى الحد الذى دفع

(١) عن سيجموند فرويد ووليـام شتيكل فى « الكبت » ترجمـة على السيد حضارة ص ٦١ .

بعض المختصين الى القول بأن عدم المسئولية المطلق مبالغ فيه ، وأن العقاب الجنائى مسألة اجتماعية قد تكون مستقلة عن المسألة الطبية • بل ذهب بعضهم الى أن عقاب المجنون قد يأتى بنتائج حسنة أحيانا (١) •

وقد كان السائد فى القرن التاسع عشر أن العلاقة وثيقة بين الاجرام والذكاء «فقد كان الرأى السائد — خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية — أن الجانب الغالب من المجرمين يعانى من نقص عقلى (٢) • بل حتى اذا بدا أن ذكاء بعض مرتكبى الجرائم يقترب من المتوسط العادى ، فلا ريب أن المجرم يتسم ببعض مظاهر الضعف والاضطراب • ويتحقق هذا الاضطراب بصورة خاصة فى تداعى الأفكار التى كان يجب أن تعمل كمحرك عكسى يحول دون غلبة الدوافع الاجرامية (٣) • وقد أجرى العديد من الأبحاث التى تؤكد هذه العلاقة ، نذكر منها بصفة خاصة ما انتهى اليه « مركز ملاحظة الأبحاث » بروما من انخفاض مستوى ذكاء الأحداث المنحرفين أو مرتكبى الجرائم • وفى دراسة مماثلة على خمسة وثمانين حدثا بمركز الملاحظة بجنوا بايطاليا اتضح أن أربعة منهم فقط يتمتعون بعمر عقلى يماثل عمرهم الزمنى أو يزيد عنه ، اذ يتراوح معدل ذكائهم بين مائة ومائة وتسعة (٤) •

وفى دراسة أخرى أجريت فى الولايات المتحدة الأمريكية وشملت مليونين من نزلاء السجون اتضح أن متوسط ذكائهم يقل عن مستواه

---

(١) لذا يقرر ا. رى Rey أستاذ الطب العقلى بجامعة بروكسل أن الاحساس بالمسئولية يبدو متوافرا لدى أغلب الجناة ، حتى عند بعض المجانين الذين تخضع تصرفاتهم لحتمية مرضية ظاهرة ، ولذا فان هذا الاحساس بالمسئولية جوهرى وعميق ويعد سندا أساسيا وكافيا لتقرير المسئولية الأدبية ، وأيضا لامكان الحياة الاجتماعية

Rev. Dr. Pen. Crim. 1958—59 p. 230.

(٢) H. H. Goddard : Human Efficiency and Levels of Intelligence 1920, p. 73.

(٣) G. Angiolella : di antropoiogia criminale. Mialno. p. 62.

(٤) E. Rietie A Franchini in Atti del primo congresso internazionale di criminologia Volume Secondo. Roma 1936.

عند غيرهم من الأسوياء • ومع ذلك فلا « نعتقد » أن هذه الاحصاءات المقصورة على من اكتشفت جرائمهم تعطى تفسيرا شاملا للجريمة • بحيث يمكن القول بأن السبب يمكن فى مستوى ذكاء المجرم • وقد يكون لمثل هذا التعليل الأخير أساس صحيح بالنسبة لبعض أنواع الجرائم مثل جرائم الاهمال • ولكن ذلك لا يحول أيضا دون تأكيد أنه مازال لكل من الذكاء والصفات الخلقية مجاله الخاص ، فلا يحول تخلف أحدهما دون توفر الآخر • وقد انتهت أبحاث أخرى الى أن نسبة تخلف الذكاء بين المجرمين لا تزيد كثيرا عنها بين الأسوياء (١) • وفى « اعتقادنا » أنه اذا لم يكن مستوى الذكاء كافيا لتحديد سبب الواقعة ، فانه مما لاشك فيه ترتبط به عوامل تحدد الى مدى بعيد كيفية سلوك الفرد ونوعه وصور تنفيذه •

والثابت بالمشاهدة والتجربة أن المصابين بالتخلف العقلى تزداد نسبة ارتكابهم للجرائم • ويتضح ذلك بصورة خاصة فى جرائم التشرد والتسول والجرائم الخلقية • ففى احدى الدراسات بلغت نسبة المتخلفين عقليا بين مرتكبى الجرائم الخلقية ٣٥٫٥٪ ، وفى دراسة ثانية عن مائتى فرد من هذه الطائفة أيضا بلغ عدد البلهاء منهم ثلاثة وسبعين فردا • وهى كلها نسب تؤكد ارتفاع نسبة التخلف العقلى بين طوائف معينة من المجرمين • والملاحظ أن العته قد يدفع الشخص الى ارتكاب أشد أنواع الجرائم خطورة كالقتل تحت تأثير ثورة غضب عنيفة •

ويفسر علماء الأنثروبوجيا الجنائية السلوك الاجرامى للمصاب بالعته بغلبة غرائزه الذاتية ، وضعف قوى التحكم والمنع التى تنهار كلية أمام دوافع متنوعة خارجية أو داخلية(٢) • كذلك فان البله يمهد السبيل أمام

---

(١) L.D. Zeleny : Feeble mindedness and criminal condut American Journal of Sociology. Jan. 1933. 38 pp. 564—578.
Edward J. Ferentz : Mental deficiency related to crime. journal of Criminal Law, Criminology and Police Science sept. oct. 1954 pp. 299 — 307.

(٢) Di Tullio. : Principi di criminologia clinica p. 167. ss.

حالة من الاستعداد الاجرامى تستند الى عدم التبصر والرغبة الجامحة وعدم القـدرة على تحمل القيود النظامية ، مع سرعة التأثر وسـهولة الخضوع للايحاء • كل ذلك يعنى سهولة أن يصبح هذا الشخص سارقا أو متشردا كلما وجد تحت تأثير بواعث اجرامية متنوعة ، فعقليته متفتحة لكل صورة من صور الايحاء •

والواقع « أننا » يمكن أن نخلص من دراستنا للعلاقة بين الذكاء والجريمـة الى أن ضعف الذكاء أو التخلف العقلى ليس بذاته سببا فى الجريمة ، ولكنه بدون شك عامل مهيىء للاجرام ومسهل للانحراف • فكلما كان ذكاء الفرد ضعيفا كلما ضعفت أيضا قدرته على التحكم فى حياته الغريزية ، ويزداد الأمر وضوحا فى حالة التخلف العقلى حيث يزداد احتمال وقوع الفرد فى شرك الجريمة(١) •

كذلك تتميز هذه الفئة بالتقلب النفسى والانفعالى مما يحول بينهما وبين الانخراط فى عمل ثابت دائم ، الأمر الذى يمهد للخمول والتشرد والانحراف • فضـعف الذكاء يضعف بدوره من قدرة الفرد على الكفاح فى الحياة والمنافسة على مراكز العمل • وهو المسئول الأول عن فشل الفرد فى حياته المهنية أو المدرسية فيصبح أكثر تعرضا للانحراف •

ومن الثابت أن التخلف العقلى يرتبط بنواح أخرى من الشـذوذ فى الشخصية ، وبخاصة فى جوانب الحياة النفسية والعاطفية ، ومن جهة أخرى فان دراسات العالمين الانجليزى بيرت Burt والألمـانى فون بيميلين V. Bemmlen أكدت أن أغلب الأفراد الذين يتسمون بضعف فى قيمهم الأدبية هم أيضا ضعاف فى الذكاء ، وان لم يصل هذا الضعف دواما الى مرتبة التخلف العقلى • ولمـا كان التخلف والدونية فى سمات الشخصية يهيئان كثيرا للسلوك الاجرامى فقد وضحت بذلك علاقة غير مباشرة بين

---

(١) Ritter : Die Artung jugendilcher, Deutsches jugendrecht. H. 4 Berlin 1944, 49 ss.

التخلف العقلى والجريمة ، وهو ما يؤكده أيضا ارتفاع نسبة التخلف العقلى بين المجرمين العائدين » (١) .

عن نصف الجنون

وهناك حالات عديدة لا تمثل جنونا كاملا ، ولا تخلفا عقليا ، بل هي حلات من نصف الجنون ، مثل الدوافع القهرية ، ونزعة السرقة المرضية ، والعرى المرضى ، والحريق المرضى ، والهستريا ....

وفى هذا الشأن يلاحظ الدكتور جوزيف مكسويل J. Maxwell (٢) أن عددا من العلماء هناك يرى أن نصف الجنون ينبغى أن يعتبر سببا لتخفيف المسئولية العقابية ، ويؤيدهم فى ذلك بعض الشرائع الحديثة ، لكن لا يفكر أى انسان فى اعفائهم من العقاب . ويقترح جراسيه Grasset اعتقالهم فى دور خاصة بالصحة الى حين شفائهم ، أو الى أن يتوقف الخطر منهم (٣) .

ولكن هل فكر الأطباء الذين يقترحون هذا الاجراء فى قسوته المفرطة ؟ لأن الاجراء سيطبق فى الواقع على أفراد ليسوا مصابين بمرض قابل للشفاء ، بل على ذوى عاهات عقلية لن ينجح أحد فى علاج رواسبها ولا ميولها الوراثية . وبالنظر الى ذلك فان الأطباء المعالجين لن يمكنهم أبدا أن يجرموا بأن المنحل أصبح غير منحل ، أو أن غير المتزن أصبح متزنا .

---

(١) راجع يسر أنور وآمال عبد الرحيم « علم الاجرام » طبعة ١٩٧١ ص ١٩٧ - ٢٠١ ، والمراجع المشار اليها فيه ، وفى نفس الاتجاه مأمون محمد سلامة . « أصول علم الاجرام » .

(٢) يجمع جوزيف مكسويل بين ثقافات منوعة كثيرة تؤهله لأن يكتب فى هذا الشأن عن خبرة خاصة : فقد كان نائبا للجمهورية ومستشارا ، وفى نفس الوقت طبيبا للأمراض العصبية والنفسية ، وله عدة مؤلفات منوعة فيها ، بالاضافة الى مؤلفات أخرى قيمة فى الظواهر غير المألوفة . منها كتابه عن « الظواهر الروحية » Les Phénomènes Psychiques

(٣) فى مؤلف له عنوانه : « أنصاف المجانين وأنصاف المسئولين » Les Demi-Fous et les Demi-Responsables.

فهل يمكنهم الجزم بأن نصف المجنون قد شفى وتوقف خطره ؟ ان مصدر مرضه يتعارض بذاته مع امكان الشفاء . واذا كان ينبغى معاملة المجرم بوصفه مريضا فينبغى أن تستمر هذه المعاملة لمدى حياته ، أليس من التسامح معه اذن أن يعامل كمذنب ؟ وتعلمنا التجربة أيضا أن الخوف من العقاب يؤثر فى عديمى الاتزان ، وأن التيقن منه يخفف من اجرامهم .

ويناقش المؤلف ادخال فكرة المسئولية الخلقية ، فى قرار الادانة معترضا عليها بنفس اعتراضه على فكرة « المسئولية العقابية » ، ذلك لأن الظروف المخففة للمسئولية العقابية يمكن أن تحل محل المسئولية الخلقية عند تقدير العقاب . ثم انه يعتبر أن هناك خلطا فريدا فى نوعه بين الجانبين الاجرامى والخلقى عند تقدير توافر الاثم الجنائى من زاوية المسئولية الخلقية ، لأن القواعد الخلقية تصلح أساسا للقوانين الجنائية فى المجتمعات القائمة على الروابط الدينية كما كانت الحال فى القرن الخامس الى القرن الخامس عشر . لقد كان ذلك غلطة اجتماعية بدون شك لكن الشعور العام ما كان بمقدوره أن يشاهد هذه الغلطة ولا أن يضار بها . وليست الحال كذلك الآن حيث ينبئنا التاريخ وعلم الانسان أن العمل الاجرامى فى جوهره مضاد للمجتمع ، وبالتبعية — لكن ليس بالضرورة — مضاد للأخلاق .

ثم يقول ان المادة ٦٤ من التقنين العقابى الفرنسى التى تشبه القهر بالجنون تسمح لنا بمقارنة مفيدة عندما تقرر أنه لا توجد جناية ولا جنحة اذا كان المتهم قد أرغم عليها بقوة لم يكن بمقدوره أن يقاومها ، ولكن ينبغى لذلك أن يكون المتهم فى حالة استحالة مطلقة من الالتزام بأحكام القانون ، فاذا كان بمقدوره المقاومة ولو فى أدنى حدودها لكنه لم يقاوم فهو مسئول(١) .

---

(١) والمادة ٦٣ من التقنين العقابى الفرنسى هى أصل المادتين ٦١ ، ٦٢ من التقنين المصرى وتقضى أولاهما بأنه « لا عقاب على من ارتكب جريمة الجأته الى ارتكابها ضرورة وقاية نفسه أو نفس غيره من خطر =

كما يقول نقلا عن جراسيه Grasset فى مؤلفه الآنف الاشارة اليه « ان السؤال الذى يطرح على المحلفين عن الاثم يختلف تماما عن ذلك الذى يطرح على الخبراء عن المسئولية. فالمسئولية من الناحية الفسيولوجية عنصر ضرورى للاثم لكنه لا يكفى وحده . وهذه العبارات تكشف عن الخلط الذى يشير اليه بوصفه مصدرا من مصادر سوء الفهم الحالى ، وهو استخدام كلمة واحدة وهى « المسئولية » بمعان متعددة مما يؤدى الى الغموض ، فدور الخبراء النفسيين واسع جدا وينتمى الى أمور خاصة بالاثم بمعناه الصحيح ، وأخرى خاصة بالمسئولية الخلقية .

فالأمور الأولى تتلخص فى السؤال الآتى : هل وقع الفعل بواسطة فرد متمتع بما يكفى من الملكات كيما يرتكبه بحرية ؟ أى هل الفاعل مجنون أم غير مجنون من الناحية الطبية ؟ أما الأمور الثانية فهى أجنبية عن فكرة الاثم وتنفع فى تقدير انحراف الفاعل ، فهى تنطبق فى مرحلة أخرى للدعوى الجنائية وهى مرحلة قياس الاثم من ناحية العقوبة .

وهذا التمييز المألوف عند المحلفين يفلت عادة من الخبراء ، فالأوائل لا يمكنهم أن يتقبلوا بسهولة أن بعض الخبراء يقر توافر أسباب لانتفاء القصد الجنائى فى خارج الحالات التى بينها القانون ، ولا للتخفيف الذى ينتهى بالقول بأن العمل الاجرامى ارادى وغير ارادى فى وقت واحد . أما الخبراء فلا يفهمون كيف أن المستشارين يرفضون التسليم بحقائق علمية غير متنازع فيها .

وفى هذا الخلاف يبدو أن الطرفين على حق . ولكن فى نطاق يتعذر أن يصلوا فيه الى التقاء ، والسبب الأول هو اختلاف مفهوم المسئولية

= جسيم على وشك الوقوع به ولم يكن لارادته دخل فى حلوله ولا فى قدرته منعه بطريقة أخرى » . وتقضى ثانيتهما بأنه « لا عقاب على من يكون فاقد الشعور أو الاختيار فى عمله وقت ارتكاب الفعل اما لجنون أو عاهة فى العقل ، واما لغيبوبة ناشئة عن عقاقير مخدرة أيا كان نوعها ، اذا اخذها قهرا عنه ، أو على غير علم منه بها » .

بين الطرفين • وثمة أسباب أخرى تبعية : منها أن النظام الذى تنتمى اليه مدرسة الأمراض العصبية والنفسية ينتهى الى اضعاف العقاب الى حد أنه قد يصل الى افلات حقيقى من العقاب بالنسبة لبعض أصناف من الجرائم• بل ان المحلفين والمستشارين أنفسهم يترددون فى ادانة متهمين يعرضون عليهم بوصفهم أنواعا من المرضى ، ويحكمون بالبراءة بما يعد كارثة على الدفاع الاجتماعى • وهذا اعتبار عملى من شأنه أن يحرك مشاعر أولئك القائمين برسالة تحقيق النظام والأمن العام •

والأطباء النفسيون لا يتجاهلون هذا الخطر ، ويطالبون من ثم باعادة النظر فى نظامنا العقابى وانشاء مؤسسات خاصة تضم أنصاف المجانين الذين أدينوا بوصفهم جناة ، أو أرسلوا اليها بوصفهم مرضى • وأنا لا ألومهم على أن يطالبوا بكل أصناف السجون الخاصة أو هذه المؤسسات المتخصصة ، بل انى أنضم الى رغبتهم التى أعتقدها عادلة لسببين أساسيين: لأنه لا يبدو لى من المنطقى أن أشبه المتخلف النفسى بالمجرم العادى ، فوجود المرض النفسى يبرر قيام معاملة خاصة مناسبة لشخصية الجانى ، وهذا أمر مرتبط بموضوع تقدير العقوبة •

والسبب الثانى أن المجتمع يرتكب رعونة عندما يخلط بين المجرمين العاديين وبين غير المتزنين فى نفس المؤسسات العقابية • فان المنحلين حساسون لايحاء النموذج ، وللتقليد • وبسهولة تنتقل اليهم عدوى العيب والفساد ويخرجون من السجون أسوأ مما دخلوا ، فالنظام القانونى اذا سيء ومصدر للنفقات على غير جدوى » •

وكل هــذا صحيح يؤيده المؤلف لكن فى النطاق العقابى ينبغى — بحسب تقــديره — تجنب التفكير النظرى الصرف ، وتجاهل الوقائع والحقائق الملموسة ، فان المؤسسات الخاصة غير موجودة ، ولاتوجد حاليا سوى وسيلة واحدة لمكافحة اجرام المنحلين وهى الحكم عليهم بالعقوبة ، وهذا هومادفعه الى القول بأن العقوبات ضدهم لايمكن تخفيفها بغيرخطر ،

بل دعاه الى التشدد معهم ... (١) .

وبعبارة أخرى فان المؤلف يعلق اخضاعهم للمعاملة الخاصة على انشاء مؤسسات خاصة بهم ، وقد كانت غير موجودة فى وقت تدوين هذه الكلمات . وفى نفس الوقت فهو لا يرى اعفاءهم من المسئولية ولا من العقوبة ، بل يرى أن العقاب لازم لهم كما هو لازم لغيرهم ، مع وجوب أن تكون مدة هذه المعاملة الخاصة هى فى نفس الوقت مدة عقوبة .

عن الأمراض النفسية

والى جانب الأمراض العقلية ، أو تلك التى تتراوح بين المرض العقلى والعصبى ، مثل الشخصية السيكوباتية ، ثمة أمراض عصبية صرف ثبت أنها ذات وثيق صلة بالسلوك الاجرامى لصاحبها وتحتاج الى عناية خاصة فى مواجهتها بتدابير ينبغى أن يتغلب فيها جانب العلاج على جانب العقاب.

وفى هذا الشأن يلاحظ المستشار محمد فتحى على أساس من الصواب أن الصلة بين ظواهر الاجرام والأمراض العصبية تزداد على مر الأيام وضوحا تبعا لتقدم البحوث فى ميدان الجريمة « وكلما تقدم البحث العلمى مرحلة كلما كشف العلم عن صلات جديدة تؤيد هذه الحقيقة وتعززها بضم أنواع جديدة من الاجرام الى حظيرة المرض النفسى . فلم تقف جهود الباحثين فى الطبيعة البشرية عند حد دراسة الظواهر النفسية فى حالتى الصحة والمرض ، بل اتجهت أنظارهم فى العهد الأخير الى دراسة ظواهر الاجرام أو السلوك المناهض للمجتمع من جانب الفرد دراسة تحليلية مستفيضة تناولت أعماق نفسه الى أبعد قرار .

وقد كشفت هذه البحوث عن الحقيقة التالية . ألا وهى أن الأمراض النفسية والاجرام صنوان نبتا من أصل واحد ، وهو غرائزنا الأولية ونزعاتنا البدائية لا فرق بينهما الا من حيث المظهر الخارجى ، فالمجرم

---

(١) Joseph Maxwell : Le Concept Social du Crime. Son Evolution. Paris 1914, pp. 411—420.

مريض فى تصرفه وسلوكه ، والعصبى مريض فى تفكيره وتصوره . أعنى أن المجرم عصبى عملى والعصبى مجرم خيالى ، كلاهما كالطفل فى نفسيته يعانى قصورا فى التوفيق بين غرائزه وميوله الفطرية وبين مقتضيات الهيئة الاجتماعية التى يعيش فيها .

ويقول رجال التحليل النفسى ان المصابين بالأمراض النفسية أو « العصابيين » ينصبون من ضمائرهم هيئة قضائية داخلية تتولى محاكمتهم ومعاقبتهم. وان ما يعانونه من آلام نفسية قاسية ان هو الا تكفير عن مشتهياتهم ونزعاتهم المحرمة أو الاجرامية المكبوتة فى أعماق قلوبهم ، ولكنه اجرام معنوى مكظوم فى الصدور ، أو مكبوت كبتا مرضيا فى جوف اللاشعور . فهم مجرمون فى الخيال تتولى ضمائرهم أو « أناهم العليا » — على حد تعبير رجال التحليل النفسى — محاكمتهم ، فيحكمون على أنفسهم بسجن المرض وأصفاده ، وهم فيه من نزلاء سجون الحياة الدنيا أشد بؤسا وشقاء ...

ثم يضيف المؤلف قائلا « ان النظام الحالى يقضى بوجود مستشفيات وعيادات طبية لمعالجة الأمراض البدنية التى يتعرض لها نزلاء السجون ، فلم لا توجد بجانبها مصحات وعيادات نفسية لمعالجة الظواهر الاجرامية بالوسائل العلمية الحديثة ، حتى يكون نظام السجن متمشيا مع الغاية المنشودة منه كأداة اصلاح وتهذيب بالمعنى الصحيح ؟ !

ولم لا يزود كل سجن بما يلزمه من الأخصائيين النفسيين والاجتماعيين للأخذ بيد هؤلاء البؤساء المساكين ، وانتشال القابلين منهم للاصلاح من وهدة الجريمة وتقويم اعوجاج نفوسهم السقيمة ؟ .

انني أخشى أن يجيء دورنا ويتهمنا أبناء الأجيال المقبلة بمثل ما اتهمنا أسلافنا من شعوب القرون الوسطى بالقسوة والجهل لمعاقبتهم المصابين بالظواهر الهستيرية ، لأننا نحذو حذوهم فى معاقبة المصابين بالظواهر الاجرامية دون أن نعالجهم (١) » .

(١) عن تقرير مقدم منه الى « المؤتمر الاقليمى لدراسة وسائل مكافحة الجريمة فى معاملة المذنبين » . القاهرة ديسمبر ١٩٥٣ .

الفصل الثانى

البـاراسيكولوجى
يستكشف ظواهر المس والاستحواذ

المبحث الأول

فى المس الروحى بوجه عام

تمهـيد

تعنى كلمة المس obsession فى التحليل النفسى التقليدى أن عقـل المريض أصبح مسودا بأفكار ثابتة تتفق مع حالة معينة من حالات الشذوذ العقلى • أما فى اطار البحث الروحى فتعنى هذه الكلمة غزوا لانسان حى بمعرفة روح تخلت عن جسدها المـادى • وهدفها من هذا الغزو أن تزحزح الشخصية العادية لمن يكون ضحية الغزو وذلك لاشباع رغباتها الأنانية التى قد يطول أمدها أو يقصر •

والفارق بين الهيمنة الوساطية والمس ليس فى المبدأ نفسه ، بل فى الهـدف ، وفى المدى ، وفى الأثر • فهيمنة الغيبوبة لا تحدث بغتة أثنـاء المجرى العادى للحوادث اليومية ، ولا تؤدى الى انفصـام فى شخصية الوسيط ، ولا الى زحزحة لهذه الشـخصية ،بل ان الكائن المهيمن فى الوساطة الروحية يجعل موضع الاعتبار حقوق الوسيط أو الوسيطة • ومدة الهيمنة محدودة ، ينسحب بعدها الروح المهيمن تلقائيا ، تاركا أيهما كى يمضى الى حال سبيله •

ثم ان المس يعتبر حالة مرضية ، ويجىء عقب صدمة ، أو اصـابة عضوية ، وأحيانا نتيجة انحلال خلقى واجهاد لقوة الارادة بسبب تقلب فى المزاج ، وضعف فى البنية • وعند الاقرار بوجود الأرواح يكون الاقرار بامكانية المس الروحى أمرا متيسرا من حيث المبدأ فى ذاته •

بل يقول جيمس هايسلوب James Hyslop (١) اننا اذا كنا نعتقد فى التخاطر (التلباثى) (٢) فانه يكون بمقدورنا أن نعتقد بحدوث تطور قد يجعل من الممكن حدوث غزو لشخص بمعرفة شخص آخر بعيد عنه . ولا يبدو من الراجح اطلاقا أن تكون الأرواح السليمة أو الذكية هى تلك التى يمكنها بمفردها أن تحدث تأثيرا فى ذهن انسان وهى فى عالمها الغيبى. واذا كان بمقدورها أن تحدث هى هذا التأثير ، فلماذا لا يقدر غيرها من الأرواح (المريضة أو الغبية) أن يحدث نفس التأثير ؟ !

ثم يتساءل هايسلوب : كيف يتأتى لنا أن نميز المس الروحى من تعدد الشخصيات ؟ ويقول ان بعض الأرواح المهيمنة قال له انه حتى بالنسبة للأرواح يكون أحيانا من الصعب أن تجزم الى أى مدى تعمل الذات اللاشعورية للمريض تحت تأثير ضغط أو ايحاء من الأرواح . أو تعمل كشخصية ثانوية لهذه الذات .

ثم يروى هايسلوب اختبارا مبتكرا له فى هذا الشأن ، اذ أنه أراد التمييز بين المس وبين ازدواج الشخصية ، فاصطحب مريضا بازدواج الشخصية الى وسيط ، بعد أن أخفى عن الوسيط حالة المريض ، لأنه قدّر أنه اذا ما حدثت نفس الأعراض المألوفة من المريض خلال الوسيط ، واذا ما أمكنه تعيين شخصية الكائنات الماسة للمريض وحصل منه على نفس المعلومات التى حصل عليها من المريض نفسه فانه سيكون لديه ما يدعوه للاعتقاد بأن الحالة هى فعلا حالة مس خارجى ، وليست حالة ازدواج شخصية مصدرها العقل الباطن للمريض ، أو ذاته اللاشعورية .

---

(١) راجع ما سبق عنه فى صفحة ٩١ .

(٢) التخاطر أو التلباثى بحسب تعريف فردريك مايرز « الانتقال الواضح للأفكار والانفعالات والأحاسيس والصور أو التصورات من عقل الى عقل آخر بدون بدون تداخل أعضاء الحس المادية أو مساعدتها » . للمزيد فى هذا الشأن راجع كتاب « الاتصال بين عالمين » الترجمة العربية بمعرفتنا ١٩٨١ ص ١٧٣ — ١٧٧ ، ٢٩٩ — ٣٠ ، ٣١٢ — ٣١٣ . وكتابا حديثا للمؤلف رينيه برتراند René Bertrand عنوانه :
La Télépathie et les Royaumes Invisibles. Paris 1974.

ودفعته أمثال هــذه الاختبارات وغيرها لأن يقطع بأن العـديد من الحالات التي يشخصها المحللون النفسيون بأنها حالات هستريا ، أوازدواج شخصية ، أو تعدد شخصيات ، أو خرف مبكر dementia precox أى اسكزوفرانيا ، أو بارانويا (١) ، أو أية صيغة أخرى من صيغ الاضطرابات العقلية ، انما هى فى حقيقتها حالات غزو من كائنات أجنبية عن المريض قد تخلت عن أجسادها (٢) .

والاسكزوفرانيا بالذات لها صور عديدة (٣) ، وهناك عدد ضخم من الأمراض العقلية التى لا تزال لغزا ، وعلى التحليل النفسى يقع عبء ضخم لدراسة هذه الحالات . ولعل الاسكزوفرانيا تعد نموذجا للفحوص فى هذا الحقل ، فلا يوجد حتى الآن أى تعريف محدد لها .

والكلمة نفسها تغطى مجموعة غامضة من الأعراض ومن سبل العلاج التى يتضمن بعضها اجراء جراحات فى المخ ، أو اعطاء صدمات كهربائية أو استخدام مخدرات عنيفة . وكل جوانب هــذا الداء الوبيل لا تزال حتى الآن لغزا يعصى على الارتيــاد تمــاما بدون الرجوع الى مراجع الباراسيكولوجى والنتائج المحددة الواضحة التى وصلت اليها .

ويكفى أن نعلم أنه رغم تعدد صــور المرض لكن فى جانبها الأعم

---

(١) عن صلة هــــذه الأمراض بالسلوك الاجرامى راجع مؤلفنــا فى « أصــول علمى الاجــرام والعقــاب » طبعــة خامســة ص ٨٢ – ٨٣ ، ٣٤٠ – ٣٤٤ .

(٢) وقد شرح هايسلوب أسانيد اقتناعه فى مؤلفين له وهما : الحياة بعد الموت » و « تلامس بالعالم الآخر »
Life After Death (1918).
Contact with the Other World (1919)

(٣) أهمها أربعــة : وهى الانفصام البسيط ، والانفصام الكتاتونى الذى فيــه يميل المريض الى أن يظل ثابتــا بلا حراك ، وبلا سبب ظاهر لمدة طويلة ، والهيبوفرانيا وفيها يحب المريض العزلة التامة عن الآخرين والبارانويا وفيها عدة أنواع: منها بارانويا الاضطهاد ، والعشق ، والخيلاء ، والتدين .... ومريض الاسكزوفرانيا بوجه عام يهمل التزاماته العائلية والاجتماعية ، ولا يهمه سوى اشباع رغباته الشخصية .

يظهر — على نحو أو آخر — وجود تداخل عقل أو ارادة أجنبية فى تصرفات المريض • وبقدر حدوث هذا التداخل بقـدر ما يفقد المريض اتصـاله الذهنى بعالمه الخارجى • وكثيرا ما تظهـر على المريض أيضـا أعراض للبارانويا paranoia المصحوبة بهذاءات العظمة ، أوالعشق ، أوالاضطهاد، أو الهوس الدينى ••• كلها أو بعضها •

أما فى الباراسيكولوجى فان الاسكزوفرانيا تمثل — شأنها شـأن حالات أخرى متنوعة من الأمراض العصبية — مجرد حالة مرضية «للجسد الثانى» أى لذلك الجسد الذى تناولناه فيما سبق فى الباب الرابع بفصوله الأربعة •

وهذه الحالة المرضية تبدأ عندما يبدأ العالم الكوكبى يشق طريقه الى شعور المريض بدلا من لا شعوره (وهو الوضع المـألوف) • وعندئذ قد يسمع المريض أصواتا ، ويشعر بتأثيرات غير منظورة ، مع احسـاس بالحاجة لطاعة أوامر قد تصدر اليه بالحاح من « ذاته الداخلية » بحسب الظاهر ، ومن خارجها بحسب الواقع •

ويقاسى جسمه العضوى — بسبب الحالة المرضية للجسد الثانى — من مواقف غريبة شـاذة ، أو من أعراض مؤلمة ، أو من توقف فى بعض عضلاته لمدى عدة أيام عدة وساعات • وبعض هذه المواقف عبارة عن حركات لنماذج قديمة archetypal character بحسـب تعبير كارل يونج • وبعضها يشبه حركات تدريبات كهان الهند ، أو أتباع اليوجا التى قد تستمر ساعات طويلة •

وقد يساعد المريض على الشفاء طقوس التأمل التى يعرفهـا الآن العديد من المتصلين بفلسفة الهند وبعض أساليبها العلاجية ، التى قد تبدو غريبة على العلم المـادى ، لكنها قد تنجح فى شفاء بعض حالات الأمراض العصبية أكثر مما تنجح الصـدمات الكهربائية أو جراحات المخ الخطيرة الفاشلة (١) •

---

(١) راجع ما ورد عن « التأمل » فى الجزء الأول ص ٤٨٨ — ٤٩٥ •

ولعله لهــذا الاعتبار قال وليــام بروض W. Broad الفيلســوف والأستاذ بكامبريدج « انني أعتقد انه خلال الاختبار الديني والصوفي يمكن للناس أن يدخلوا في اتصــال مع بعض الحقيقة ، أو بعض أوجه الحقيقة التي هيهات أن يدخلوا في اتصال معها عن أي طريق آخر » . وهذا الاعتبار نفسه هو الذي يجعل علم النفس المعاصر ينظر الى الاحساس الديني بوصفه سبيلا الى فتح الطريق نحو بُعد آخر غير العالم المــادي بأبعاده الثلاثة المعروفة ، وهو بعد الدالة P.S.I. والذي أشرت اليــه فيما سبق (1) .

ولعله لهذا الاعتبار أيضا قد تظهر مع بعض أعراض «الاسكزوفرنيا» الخاطئة بعض صور الارتباط الصوفي غير المــألوفة ، والتي يمكن القول بأن علم النفس المعاصر ينظر اليها بوصــفها صورا لردود فعل طبيعيــة يعرفها التصوف الراقي ، وقادت خطى أحسن الملهمين . كما كان يعرفهــا الاغريق وطبقها سقراط أبرز فلاسفتهم ــ بلا غلو ولا تطرف ، وتحدث عنها أفلاطون في احدى رواياته المسماة Symposium .

ولهذا الاعتبار نفسه قد يكون لبعض صور التصوف الراقي صــلة ببعض صور الالهام والعبقرية النادرة . وهذا مايخرج عن نطاق موضوعنا الحالي الذي نريد أن نقصره على معالجة الحالات المرضــية وحدها ، وهي تلك الحالات من الاضطرابات العقلية أو العصبية التي ثبت أن لها صلة ما ببعض صور المس الروحي أو الاستحواذ . أما النشــاط العادي للاشعور فلنا اليه عودة في الباب التاسع .

طائفة من أعلام الباحثين

ولعل أجل خدمة قدمتها أبحاث الباراسيكولوجي منذ بدء ظهورها الى بني الانسان هي ما انتهت اليه من ثبوت وجود بعض صــور معينة

---

(1) راجع ما ورد عن عالم البعــد الثالث في ص ١٦٠ ـــ ١٦٣ ، وما ورد عن غريزة الاحساس بالمجهول في ص ٤٦٩ــ٤٨٦ من الجزء الأول .

من الجنون قد ترجع الى بعض صــور المس Obsession أو الاستحواد Possession كان يجهلها تماما علما النفس والأمراض العصبية الى عهـد قريب ويعتبرانها من الافتراضات الخاطئة • لكنها وجـدت قبولا بعـد بحوث مضنية عند عدد من كبار العلماء •

ومن هؤلاء الفيلسوف وليام جيمس الذى يعد من أبرز علماء النفس، والذى قرر بعد بحوثه الروحية « أن رفض التعاليم الحديثة اعتبار المس الروحى أمرا ممكن الحدوث رغم روايات النـاس المتراكمة المبنيـة على التجربة الملموسة انما هو فى نظرى مثل غريب للتحكم الشكلى فى المسائل العلمية • ترى هل يكون الانسان علميا فى الواقع ، اذا كان هو من العمى والجهل بحيث يرتاب فى امكان ذلك ؟ ! » •

بل لقد ذهب جيمس الى حد اعلانه أن ضوء المحبة يعمل على طرد الروح المـاسة ورفعها • ولكى لا تعود هذه الروح يجب عمل الحماية للشخص المريض أو غيره • وتتلخص هذه الحماية فى عمل شعلة ذهنية من الضوء • فتلك الأرواح المتأخرة أو الجاهلة لا تستطيع تحملها شـأنها فى ذلك شأن الوحوش عندما يضع الانسان أمامها شعلة من نار حقيقية •

لذا يقول جيمس بأن بمقدور الانسـان أن يحمى نفسه من هـذا الخطر عندما يحيط نفسه بدائرة ذهنية من الضوء ••• ويمكن وضع هذا المعنى كالآتى : « اننى أحيط نفسى بدرع من المحبـة التى لا يمكن أن يبقى بداخلها شيء ، ولا يمكن أن يخترقها من الخارج شيء سوى المحبة الالهية » •

وكانت بحوث جيمس الروحية من ضمن الأسباب التى دفعته الى أن يصف مؤلفه المعروف فى « مبادىء علم النفس (١) » بأنه أصبح يمثل « كتلة كريمة منتفخة مستسقية متورمة تشهد أنه لا شيء هناك يسمى علم النفس » • ويقصد جيمس بذلك أ نعلم الروح Psychic science قد حل محل السيكولوجى القديمة هذه •

---

(١) Principles of Psychology.

وقد فحص عددا ضخما من حالات المس العــالم المجرى ناندور فودور Nandor Fodor •وكان محللا نفسيا معروفا ، اتصــل بفرويد شخصيا فى مســتهل حياته العلمية وشجعه الأخير على مواصــلة البحث ووصل فودور الى منصب « مدير للبحث » « بالمعهــد الدولى للبحث الروحى» (١) بلندن• كما كان عضوا فى « أكاديسية العلوم بنيويورك »(٢)، وعضوا فى « الجمعية النفسية » بواشنطون ، وأســتاذا فى « المعهــد التــدريبى للتحليــل النفسى » التــابع « للجمعية الأهليــة للتحليــل النفسى » (٣) •

ووضع فودور فى هــذا الموضوع عدة مؤلفات منهــا : « العقــل المسكون » (٤) (١٦٩٠) ، و « بين عالمين » (٥) (١٩٥١) ، وهذا الأخير بالاشتراك مع العالم النفسى الدكتور هيروارد كارنجتون •

وحاول فودور أن يضع نظرية عامة للأرواح المــاسة والمشــاغبة Poltergeists تربط بين أعراض بعض الأمراض العصبية وبين الكشوف الروحية الحديثة • ونظريته تتميز بســعة الأفق ، مع التسليم بضــآلة المعلومات التى وصل اليها علم الانسان حتى الآن فى هذا الربع المجهول، وهو ربع النفس الانسانية ، وما يكتنفها من ألغاز وآلام كان العلم يقف عاجزا ازاءها بسبب ارتباطه المزمن بفلسفة خاطئة عن مادية الانســان ، بل الكون كله •

ويقول فودور انه يلزم دائما علاج الروح المــاسة مثلما يلزم علاج المريض نفسه ، لأنه اذا طردت الروح المــاسة بما هى عليه من جهل وغباء

(١) International Institute For Psychical Research

(٢) New York Academy of Science.

(٣) Training Institute of the National Psychological Association of Psychoanalysis.

(٤) The Haunted Mind.

(٥) Between Two Worlds.

وأنانية عن طريق قوة الارادة من الضحية ، أو بالسبل العنيفة (مثل الصدمات الكهربائية) فان هذه الروح ستبحث عن ضحية أخرى وستجدها • لكن لو أمكن توعية الروح الماسة واقناعها بخطأ السبيل الذى اختطته ، فانه من الممكن درء خطرها على ضحايا آخرين محتملين •

ولتحقيق هذا الهدف العسير قام كارل ويكلاندCarl Wickland عضو «المجمع العلمى الأمريكى » — بانشاء « المعهد الوطنى النفسى لعلاج المس » (١) فى كاليفورنيا • كما قام جيمس هايسلوب — أستاذ المنطق والأخلاق بجامعة كولومبيا — بانشاء معهد مماثل أسماه « معبد الضوء » فى كنساس سيتى Kansas City فى سنة ١٩١٠ ، وأوصى له بجزء من ثروته ، وأصبح هذا المقر فيما بعد يحمل اسم « مؤسسة جيمس هايسلوب لعلاج المس » (٢) ، وكان يديرها الدكتور تيتوس بول Titus Bull . ولنا عودة الى الحديث عن جهود كل هؤلاء العلماء فيما بعد •

ويقول فودور فى موسوعته ان الأرواح الماسة هى فى الغالب أرواح هائمة على وجهها على الأرض • وهى لا تتعمد بالضرورة احداث أى أذى ، بل تريد فحسب أن تنعم بالوجود الأرضى مرة أخرى ، ولكن بعضها قد يرتكب أفعالا انتقامية ، أو أفعالا شريرة أخرى نظرا لجهله بها• واذا أمكن لروح شريرة أن تستحوذ على شخص فقد تدفعه الى الجريمة ، أو الى اتيان أفعال غير عاقلة •

وعندما تجيد الروح الماسة التسلط على المريض بحكم المران ، فانها تتمكن من الاقامة فيه بصفة الدوام على قدر الامكان ، وتشعر عند ذاك بأنها أصبحت فى مقرها • وقد يتخذ هذا المس شكلا وبائيا كما حدث فى دير أورسلين Ursiine للراهبات بلندن فى الفترة من سنة ١٦٣٢ الى سنة ١٦٣٤ • وكانت الأحداث التى جرت فيه سببا فى اتهام أحد الرهبان، ثم حرقه حيا فى شهر أبريل سنة ١٦٣٤.

(١) The National Psychological Institute for the Treatement of Obsession.

(٢) James Hyslop Foundation for the Treatment of Obsession.

وفى أحيان قليلة قـد يحدث استحواذ كامل possession لتحقيق هدف نافع لشخص ما كما حدث فى حالة معجزة واتسيكا Watseka التى سنعود اليها فيما بعد .

ويقول أيان سنفسون Ian Stevenson - وهو من أعلام الباراسيكولوجى ويعمل حاليا أستاذا للتحليل النفسى بجامعة شارلوتسفيل بولاية فرجينيا « اننى أومن بدوام الحياة بعد موت الجسد ، أى بوجود أرواح متحررة من أجسادها المادية . وأعتقد أنه من الجائز جدا أن تكون بعض الأمراض العقلية ، وربما نسبة كبيرة منها ، ناجمة عن تأثيرات ضارة آتية من هذه الأرواح . وعلى أية حال فان هذا الموضوع أريد أن أنظر اليه مستقبلا بعقل متفتح ، لأنى أظن أنه يفتح آمالا واسعة جدا للعلاج فى المستقبل » (١) .

ويقول المارشال لورد دودنج Dowding وهو صاحب خبرة واسعة فى العلاج الروحى ان ١٠٪ بالأقل من حالات الأمراض العصبية والنفسية ، هى حالات استحواذ من أرواح جاهلة ، وأنها لو عولجت على هذا النحو لكان من المحتمل أن تشفى (٢) .

ويقول الدكتور راينور جونسون Paynor C. Johnson مدير « كلية الملكة » بجامعة ملبورن Melbourne انه يعتقد أنه بين كل خمس حالات من الأمراض العصبية والنفسية توجد حالتان لمس أو لاستحواذ روحى . أى أن النسبة تعادل فى تقديره حوالى ٤٠٪ من مجموع الحالات .

موقف مكدوجال

وممن بحثوا هذا الموضوع أيضا وليام مكدوجال W. Mc Dougall الذى يعد من أبرز الأسماء فى علم النفس وكان أستاذا بعدة جامعات

---

(١) راجع : Fercy Corbett : On Wings of Spirit. London (1977). P. 102 — 116.

(٢) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول صفحة ٣٣٨ - ٣٤٢ .

بريطانية وأمريكية ، ورئيسا فى وقت ما « لجمعية البحث الروحى » بلندن، ورئيسا لقسم التحليل النفسى « بالجمعية الملكية الطبية » . وقد عنى بعلمى النفس العادى والشاذ ، وله تحقيقات لوساطات متعددة .

وقد تعرض مكدوجال للصلة بين العقل والمخ فى بعض مؤلفاته ، منها واحد عنوانه « الجسد والعقل» (١) وفيه يقرر بكل وضوح أن الروح (أو ان شئنا النفس) Soul عبارة عن كائن أو وحدة متميزة فى معنى ما عن كل ما عداها . وأن وحدة الوعى تعبير عن فرديتنا الروحية Psychical individuality ، وأن وعينا الذاتى معروف لدينا باعتباره مجرد تيارات فردية متماسكة للوعى الشخصى .

كما يقرر مكدوجال ان وحدة الوعى هذه لا تنفى امكان أن يرتبط أكثر من كائن روحى واحد بأعضاء جسدية واحدة (٢) . فمن الجائز أن تكون الروح أو الذات التى تفكر فى كل واحد منا ليست أكثر من قمة تدرج كائنات مماثلة . وأن هذه الروح قادرة بمفردها على أن تبرز نفسها وبكامل طاقتها كل امكانياتها فى النشاط الواعى .

ثم يضيف مكدوجال أنه من الجائز أن يرى الانسان فى هذا الامكان تفسيرا لتلك الظواهر الغريبة والخارقة للعادة التى بحثت بحماس كبير فى هذه السنين الأخيرة تحت عنوان الشخصية الثانوية أو المزدوجة (٣) .

وهكذا لا يتحدث مكدوجال فحسب عن امكان استقلال المخ عن روح أو عن نفس صاحبه ، بل يتحدث عما هو أخطر من ذلك وهو ارتباط أكثر من كائن روحى واحد بأعضاء جسدية مشتركة ، ويرى فى هذا القول تفسيرا مقبولا لظواهر ازدواج الشخصية التى يعبّر عنها الروحيون

(١) Body And Mind

(٢) وهذا القول متفق مع امكان هيمنة وعى أجنبى عن الوسيط على أعضائه .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٦ .

بأوصاف شتى ، أصبح كل وصف منها يشير الى نوع قائم بذاته ــ أو أكثر ــ من الظواهر الوساطية التلقائية ، مثل هيمنة ، وارشاد ، واستحواذ ، وكتابة تلقائية وغيرها . وقد يقتضى بعضها غيبوبة الوسيط ، أو لا يقتضيه بحسب مدى قدرة الوعى الأجنبى عن الوسيط من السيطرة التامة أو الجزئية على وعيه ، لاستخدام جهاز هذا الوعى بصفة مؤقتة ولفترة محدودة .

فقد لاحظ مكدوجال ــ كما لاحظ من قبله العالم النفسى مورتون برنس Morton Prince ــ أنه أثناء الغيبوبة المغناطيسية كانت السيدة بوشان تأخذ شخصية أخرى ، لها ذكرياتها الخاصة ، وخصائصها ، وطباعها ، وأهواؤها المتميزة عن شخصيتها المألوفة ، وان كانت تشاركها فى جسدها فقط . وكانت بوشان فى الجملة أرقى وأكثر تهذيبا وصراحة واتزانا من الروح سالى ، وان كانت صحتها أضعف منها بكثير . ثم ظهرت شخصية ثالثة كانت تشترك مع الشخصيتين السابقتين فى استخدام نفس الجسد ، وان كانت مختلفة بدورها عنهما فى الميول والأهواء ، ولكن لا تملك ذاكرة خاصة بها . وقد شفيت هذه الحالة بعد مجهود ضخم من مورتون برنس(١) .

وقد انتهى مكدوجال بسبب دراساته فى هذه الظواهر الى الاعتقاد بخلود النفس ، وكان بعض هذه الظواهر هو الذى كشف له بصورة حاسمة عن عدم تبعية العقل للمخ ، ومنها بوجه خاص ظواهر السيدة كريستين بوشان هذه ، والأرواح المهيمنة عليها . وقد انتهى فى دراسته لها الى أن شخصية سالى Sally (التى كانت تستحوذ على وعيها أثناء الغيبوبة) عبارة عن كائن روحى ، أو روح psychic entity, a spirit وأن حالة السيدة بوشان تظهر بوضوح « أن الشخصية العادية تتكون

---

(١) عن كتاب « الخلود : البينة العلمية » (أكتوبر ١٩٦٧) .
Immortality : The Scientific Evidence تأليف آلسون ج . سميث
Alson J. Smith. (ص ٤٩ ــ ٥٥) .

من جسد وروح يتعـاملان معا in interaction ، وأن الروح ليست تابعة للمخ ، أو لأية أسس فيزيقية بالنسبة لذاكرتها ، بل تملك قدرة ذاتية على الحفظ retaining ، وعلى التذكر بين ملكاتهـا الأخرى » • بل قرر مكدوجال أن الحالات المماثلة لهذه « تذهب بعيدا كيما تبرر الاعتقاد فى استمرار حياة الشخصية الانسانية بعد موت الجسد » (١) •

موقف يونج

وفى صدد الصلة بين الاقتناع بالخلود ، وبين تعليل بعض الأمراض العصبية بوجه عام يتحدث كارل يونج فى مؤلف له عنوانه « علم النفس والدين : فى الغرب والشرق » (٢) (١٩٥٨) عن الاضطرابات العصـبية من الزاويتين النفسية (التقليدية) والروحية فنجده يقول منتقدا سـلفيه فرويد وآدلر « ان نظرية فرويد عن الاضطرابات العصـبية ترتكز على هذه الركيزة التى تفسرها بوصفها اضطرابات فى الغريزة الجنسية • وآدلر يلجأ الى فكرة الدافع ، ويفسر الاضطرابات العصبية فى صورة اضطرابات فى الاستعجال نحو القوة وهى فكرة ينبغى أن نقر بأنها روحية أكثر من الغريزة الجنسية الفسيولوجية •

وتعبير « غريزة » أبعد ما يكون عن التحـديد فى المعنى العلمى ، وهو يشير الى ظاهرة بيولوجيـة ذات تركيب شـديد ، وليس أكثر من فكرة سطحية عن محتوى غير محـدد على الاطلاق لكلمة غير معلومة • ولا أريد أن أدخل هنـا فى مناقشة انتقـادية للغريزة ، وبدلا من ذلك سأفترض امكان أن يكون العامل الروحى عبارة عن تجمع للغرائز التى يمكن من جانبها أن تختزل الى نشاط الغـدد • بل يمكننا أن نفترض امكان أن يكون كل شىء روحى مستوعبا فى النهاية مجموع الغرائز ، وأن الروح تكون لذلك مجـرد غريزة أو كتل من الغرائز وبالتـالى فى

---

(١) W. Mc Dougall : Body and Mind p. 366.

(٢) Psychology And Religion : West And East المجلد الحادى عشر وله ترجمة انكليزية بمعرفة ر. ف. هال R. F. Hull .

نهاية التحليل مجرد وظيفة للغدد ، وعندئذ فسيكون الأضطراب العصبى مجرد مرض غددى •

ولكن لا دليل على صحة هذا الافتراض ، ولم يمكن العثور على خلاصة غدد يمكنها أن تشفى الاضطراب العصبى • ومن الجانب الآخر لقد تعلمنا عن طريق أخطاء أكثر مما ينبغى أن العلاج العضــوى يفشل كلية فى علاج الاضطرابات العصــبية حين تنجح الوسائل النفســية فى الشفاء ، ولكن هذه الوسائل فعالة ــ حسبما نفترض ــ بقدر ما تكون فعالة افرازات الغدد • وبالتالى حسبما تهدينا معلوماتنا الحــاضرة فان الاضطرابات العصبية ينبغى أن نؤثر فيها أو أن نعالجها بالاقتراب اليها ليس من مركزها • وهو نشاط الغدد ، بل من أقصى أطرافها وهى الروح ، وكما لو كانت هذه الروح مادة بدورها (١) •

ومن ثم فان التفسير المناسب ، أو الكلمة التى تريح المريض يمكنها أن تحدث أثرا معالجا قد يؤثر حتى فى افرازات الغدد • فكلمات الطبيب مجرد اهتزازات فى الهواء ، ومع ذلك فان أثرها الخاص قد يعزى الى حالة روحية خاصة لدى الطبيب • فكلماته تحــدث أثرها ــ فحسب ــ بمقدار ما تحمل من معنى ، أو مالهــا من دلالة فان ذلك هو ما يجعلهــا تعمل • ولكن « المعنى » شيء عقلى أو روحى ، وسمه وهما اذا شئت ، ومع ذلك فان هذا الوهم هو الذى يمكننا من أن نؤثر فى سبب المرض بقدرة تتجاوز بكثير ما نقــدر عليه عن طريق المستحضرات الكيميائية ، بل أن نؤثر حتى فى تطور الجسم من الناحية البيوكيمائية •

وسواء أكان الوهم يصنع نفسه بداخلى تلقائيا ، أم يجىء الى من الخارج عن طريق حديث انسان ، فان بمقدوره أن يجعلنى مريضا أو أن يشفى مرضى • فالأوهام ، والخدع ، والآراء لعلها أكثر الأشياء التى

---

(١) وهذا أمر متفق مع اتصال الروح بالجســد الأثيرى الذى هو بدوره مادى ولكنه ذو ذبذبة مرتفعة تعلو عن مســتوى الحواس المــادية .

لا تلمس والتى ليست حقيقية ، ومع ذلك فانها أقوى الأشياء مفعولا فى المملكة الروحية ، بل أيضا فى المملكة الروحية — الفيزيقية • وعن طريق الاعتراف بهذه الحقائق وصل الطب الى اكتشاف الروح ، ولا يمكنه بعد الآن أن يكون أمينا اذا ما أنكر الحقيقة الروحية • ولقد اتضح أن الغرائز عبارة عن شرط للنشاط الروحى فى حين أن الموكب الروحى يبدو قادرا على السيطرة على الغرائز •

فالمأخذ الذى يمكن أن يوجه الى نظريات فرويد وآدلر ليس هو أن هذه النظريات مؤسسة على الغرائز ، بل انها تنظر للأمور من جانب واحد ، وهو جانب النفس بدون الروح ، هذا الجانب الذى يناسب الأشخاص الذين يظنون أنه ليست لديهم احتياجات أو تطلعات روحية • ولكن هنا يخدع الطبيب والمريض كلاهما نفسيهما • وحتى اذا كانت نظريات فرويد وآدلر تقترب الى قلب الاضطرابات العصبية أكثر من اقتراب الجانب الطبى ، فان اهتمامها بالغرائز وحدها يقصر عن أن يرضى الاحتياجات الروحية الأعمق من ذلك للمريض • فهى مرتبطة أكثر مما ينبغى بافتراضات علوم القرن التاسع عشر ، وهى مادية أكثر مما ينبغى ، وتعطى قيمة أقل مما ينبغى لقوة التصور والتخيل ، وفى كلمة لا تعطى مغزى كافيا للحياة ، مع أن المغزى هو المحور •

وثمة عدم منطق شائع يطرق الحكم الانسانى وهو النظر الى العلم بوصفه مجملا للذوق السليم ، وهذا يقودنا بلا ريب خلال شطر هام من الطريق ، ولكنهم لا يأخذوننا (أى النفسيين القدامى) أبدا الى أبعد من حقائق الحياة العادية الشائعة ، أى الى خارج الانسان العادى أو المتوسط ، فلا يقدمون أى جواب عن مشكلة الألم الروحى ودلالته العميقة • فاضطراب الأعصاب ينبغى أن يفهم فى نهاية المطاف بوصفه ألما لروح لم تكتشف ذاتها ، ولكن كل ابتداع فى مملكة الروح ، شأنه شأن كل تقدم روحى للانسان ، ينبع من ألم الروح • وعلة الألم هى الاختناق

الروحى أو اجداب الذات »[1] .

* * *

وهـذا الرأى قيمته فى أنه يمثل نموذجا صغيرا من اتجاهات علم النفس الحديث فى موضوع واحد هو موضوع الاضطرابات العصـبية وكيف أنه لم يعد ينظر الى الانسان بوصفه مجموعة غرائز . هـذا النظر الذى هو علة افلاس وسائل علم النفس القديم فى تخفيف آلام المرض عند المرضى ، بل أصبح ينظر اليه ـ قبل كل اعتبار آخر ، وبغير انكار لخطورة دور الغرائز ـ بوصفه كائنا روحيا يريد التعبير عن ذاته ، متطلعا الى فوق ، موهوبا للبقاء ، لأداء رسالة تتجاوز بمراحل كثيرة تلك الرسالة الحيوانية التى كان يحددها له علم النفس القديم .

وهـذه الرسالة الروحية هى موضوع « علم الروح الحديث » ، وعليها أقيمت وتقام تدريجيا الآن ـ وفى البيئات العلمية الراقية ـ دعائم أخرى لعلم نفس آخر جـديد قائم على الحقائق الواقعية التى كشفت عنهـا بحوث الظواهر الوساطية ، وذلك بعـد الاغراق فى الافتراضات المرتجلة غير المدروسة ، المرتبطة بفلسفة سطحية عن مادية الحياة ، والتى ضللت أسوأ تضليل اتجاهات علم النفس القديم .

ولذا تجـد يونج ينعى ـ بحق ـ على نظريات فرويد وآدلر فى الأمراض العصبية ارتباطها المزمن الخاطىء بعلوم القرن التاسع عشر الموغلة فى الارتباط بهذه الفلسفة المـادية . وهذا وحده من شأنه أن ينبهنا الى أية جناية يجنيها على المرضى هؤلاء اننفسيون القدامى الذين لا يريدون ـ حتى الآن ـ أن يتزحزحوا ولو قيـد انملة عن هـذا الارتباط البالى ، ويخشون بالتالى أن ينزلوا الى حلبة البحث المتحرر لئلا يتهموا بالسذاجة أو بالمروق على الأصول الصحيحة للعلم ! !

---

(١) عن المرجع السابق ص ٣٢٩ ـ ٣٣١ .

وهكذا أصبحت ظواهر الباراسيكولوجى أو ما وراء الروح تمثل الوسيلة المعملية المعترف بها علميا للبحث فى الروح ، وفيما يتصل بخصائصها وملكاتها واستقلالها عن الجسد المادى ، و « احتمال » بقائها بعد موت هذا الجسد • فبحوثها بدأت غير متقيدة بأى قيد ،
بقائها بعد موت هذا الجسد • فبحوثها بدأت غير متقيدة بأى قيد ،
وفى ذلك وحده من الضمان العلمى وبواعث الاطمئنان ما فيه •

التمييز بين المس والغيبوبة الوساطية

ويلزم دائما التمييز بين أعراض المس الروحى وبين ظواهر الغيبوبة الوساطية Trance • وفى هذا الشأن يقول الدكتور جون بيرس هيجنز John Pearce-Higgins ان لوسطاء الغيبوبة عادة عدة أرواح مرشدة • وهؤلاء المرشدون أيا كان نوعهم يعملون عادة بصورة منتظمة وحميدة • وفيما عدا ظروف استثنائية جدا لا يتدخلون فى الحياة العادية للوسيط ولا يفرضون أنفسهم عليه ، اللهم الا اذا حدث ذلك لسبب طيب وعاجل •

أما فى حالات الاستحواذ ، أو الاسكزوفرانيا ، وحالات التعدد المرضى للشخصيات ، فان الهيمنة لا ضابط لها ، ولا رغبة فيها • كما حدث فى حالة كريستين بوشان Christine Beauchamp وحالة دوريس فيشر Doris Fisher « كتاب الأوجه الثلاثة لحواء »(١) حيث كانت الكائنات تستحوذ على ضحاياها رغما عنها ، وتتعاقب ، وتتزاحم على الاستحواذ بدون رضا من الضحايا ، ولا توقع منها •

وكذلك فى حالات الاستحواذ التى فحصها الدكتور كارل ويكلاند (لنا اليها عودة فيما بعد) فان الضحايا التعساء لم يكن بمقدورهم أن يعتبروا أن عقولهم أو أجسادهم تنتمى اليهم ، وذلك بسبب التدخل المستمر ، والاكراه الواقع عليهم •

---

(١) T. K. Oesterreich : Three Faces of Eve.

ولا يحــدث شيء من ذلك ــ فيما يبــدو ــ في الغيبوبة الوساطية العادية ، والتي ــ بالاضافة الى ما سبق ــ تكون عادة مصحوبة بظهور القــدرة على الجلاء البصرى • فاذا أراد الروح المرشــد الهيمنة على الوسيط (أو الوسيطة) لسبب طيب هيمنة غــير متوقعة من الوسيط ، فان الوسيط يتلقى تنبيها مسبقا بقرب حــدوث الهيمنة ، اما عن طريق الجلاء البصرى واما عن طريق الجلاء السمعى •

لكن في جميع الحالات يوجد ترحيب بالتعاون المتبادل بين الشخصية الواعية للوسيط وبين الأرواح المرشدة التي تعمل بتنسيق للعمل فيمــا بينها•أما عند تعدد الشخصيات فيظهر بيقين وجود حرب بين الشخصيات الراغبة في الاستحواذ بالاضافة الى الحرب التي تدور رحاها بينها وبين الشخصية الواعية للوسيط •

ويتضح ذلك تماما من الاطلاع على كتاب « الأوجه الثلاثة لحواء » حيث يقول المؤلف ت • ك • أوستريتش T. K. Oesterreich ان النشاط الوساطى المماثل يجعل الوسيط يتحول بغتة بحسب الظاهر الى شخص آخر •••• ناهيك بأن وساطة الغيبوبة قد ترتبط ارتباطا وثيقا بظهــور بعض القــدرات المسرحية ، أو الأدبية ، أو الفنية ، وببعض التنبؤات الصحيحة •••• وبحيث يمكن القول انه متى كانت الأرواح المرشــدة مستقلة تماما عن وسيط الغيبوبة ، فانه من الجائز أن تكون هي مصدر الهام واع العقــله •

فاذا كان الالهام الموسيقى مثلا أوثق اتصــالا بالجلاء البصرى أو السمعى الواعى ، فمن أين يجىء الالهام المبدئى ؟ لقــد أنجز عدد من الوسطاء لوحات رائعة عنــدما كانوا في الغيبوبة الوساطية ، ومن ثم فان الغيبوبة الوساطية تبدو على صلة بأرفع مصادر الالهام الفنى والدينى • ودراستها تحتل شطرا مذهلا من أعماق السيكولوجى التي تقود الانسان

الى الاعتقاد بوجود عقل أسمى متميز عن خبايا العقل الباطن (١) ....

وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الشأن ان هذا الحقل لايزال بحاجة الى المزيد من الدراسات الموسعة من النواحى الطبية والفسيولوجية ألتى تكشف بعض أسرار هـذا العقل الأسمى(٢) ... فلا يجوز اذا الخلط بين ظواهر الغيبوبة الوساطيـة من جانب وبين حالات المس الروحى أو الاستحواذ من جانب آخر ، فالأولى ظواهر صحية باجماع الآراء ، أما الثانية فهى ظواهر مرضية عصبية وعقلية .

تلخيص لأهم النتائج التى سجلها ويكلاند

والبحوث الحاسمة فى ظاهرة المس الروحى بالذات عديدة ، وقام بهـا علماء بارزون ، ومن أبرزهم الدكتور كارل ويكلاند الذى أشرت اليه آنفا . وهى أبحاث تدعو الى الثقة التامة فيها ، بالنظر الى أن صاحبها كان عضوا بارزا فى المجمع العلمى الأمريكى « الجمعية الأمريكية لتقدم العلـوم » . كمـا كان عضـوا فى « الجمعية الطبية » فى شـيكاغو واللينـوى Illinois

وظل يواصـل بحوثه على مدى ثلاثين عاما متواصـلة ، وكانت الوسيطة فى اختباراته هى قرينته السويدية آنا ويكلاند Anna Wickland ووصل الى نتائج واضـحة ، ومعززة بأدلة مترابطة مع وقائع ايجـابية محددة سجلها فى مؤلف من أقيم الكتب فى هذا الشأن عنوانه « ثلاثون عاما بين المـوتى » (٣) .

وقد ترجمه الى العربية ــ مشـكورا ــ صـديقنا الدكتور على عبـد الجليل راضى الأستاذ بكلية العلوم بجـامعة عين شمس فى طبعة

(١) لنا وقفة كافية عند هذا الموضوع فى الباب التاسع عندما نعالج موضوع اللاشعور فى ضوء العودة للتجسد .

(٢) للمزيد راجع : Life, Death, and Psychical Research. London 1973. p. 55 — 65.

(٣) Thirty years Among The Dead.

حديثة قارب عدد صفحاتها الثلاثمائة صفحة ، ننصح كل مهتم بالتعرف على بعض خبايا المس الروحى أن يقرأها كلها بامعان وعناية . وعن الطبعة الثانية التى صدرت فى سنة ١٩٧٦ نلخص الصفحات الآتية .

يقول كارل ويكلاند عن نتائج تحقيقاته الطويلة فى هذه الظاهرة : « يصعب على الكثيرين ادراك وجود حقيقة عالم آخر غير منظور محيط بالعالم الأرضى وذلك بسبب أن حدود العقل لا تريد أن تمتد الى أكثر مما هو منظور ومحسوس . ولكن مما هو جدير بالتفكير أن المادة تتغير من صورة الى أخرى باستمرار اذ أنها تتخذ ثلاث حالات هى الصلبة والسائله والغازية ، أى أنها تروح وتجىء من حالة منظورة الى أخرى غير منظورة وبالعكس .

ان الطبيعة المنظورة ما هى الا وجه آخر للطبيعة غير المنظورة ، فالشىء الحقيقى قد جعل نفسه ظاهرا للعيان بعد أن اتحدت عناصره . والعلم يقول لنا أن ٩٥٪ من النباتات مكتسب من الهواء أى من الجو .

أليس الانسان هو الذى يعيش فى قاع محيط غير منظور وهو الجو الذى هو أكثر أهمية للوجود الفيزيقى من أى شىء مادى آخر ، اذ أن الحياة خارج نطاقه لا تستمر أكثر من دقائق معدودات ؟ !

ان الأزوت وهو المكون الأكبر للهواء الجوى يدخل بنسبة كبيرة فى تركيب النباتات ونمو وكيان الحيوان . وغاز الأكسيجين والايدروجين دائبا التغير من صورة غير مرئية — بخار الماء — الى صورة سائلة أو صلبة يمكن رؤيتها . والكربون مثال آخر للتحول ، كما أن الصوت والروائح وظواهر الحرارة وما عداها من ظواهر عديدة تتراوح بين الالكترون المتناهى الصغر وبين الطاقة التى تسير الكواكب والشموس ، كلها عوامل غير منظورة وغير ملموسة ...

وكل أنواع النشاط سواء أكان كيماويا أم حيويا أم عقليا تتم فى خفاء . ويمكن ملاحظة ذلك فى القابلية الكيماوية وفى الطاقة ، وفى حياة

النبات والحيوان ، وفى الذكاء والعقليات • وعلى هذا ففى كل جانب من مظاهر حياتنا الفيزيقية يتبين لنا أن كل العناصر لها جذورها وأصلها فى الخفاء وأن غير المنظور هو منبع المنظور •••

عندما ندرك اذن أن الأشياء الموضوعية ما هى الا مجموعة من مواد أو قوى غير منظورة ، فوجود عالم غير منظور سوف يسهل ادراكه فى الحال • ولو نظرنا الى تقدم العلم فى مجال القوى الداخلية فانه لا يصعب على العقل المفكر أن يعرف أنه فى الامكان وجود الروح الانسانى بعيدا عن الجسم الفيزيقى •

لايوجد موضوع أعترف به على ممر العصور وفى كل المعتقدات أكثر من موضوع خلود الروح ووجود حياة ثانية •••

ان الظواهر الروحية حقائق خارجية تقع خلال الحواس الخمس ، ويمكن أن يشاهدها الجميع • وعندما يقر بوقوعها كثير من الشهود المثقفين الذين لا ترقى اليهم الشبهات فانه مما لا فائدة فيه ، كما أنه من الغباء والسخرية أن نقف فى وجه الحقائق الثابتة • وتلك الحقائق سوف يظل الايمان قائما بها ولو لعقلاء الناس على الأقل •••

والعالم الروحى متداخل مع العالم الفيزيقى • وليس عالما وهميا أو غير ملموس • انه عالم طبيعى وحقيقى ، منطقة كبيرة قوامها مادة بالغة الرقة فيها تقدم ونشاط ، والحياة فيها تكملة للحياة فى العالم الفيزيقى •

وتكتسب النفس معرفتها خلال تجاربها واحتكاكها بالأشياء الموضوعة على سطح الأرض ، وينشأ الذكاء خلال ظهوره من الحواس الفيزيقية • وفى العالم الروحى يستمر تقدم الفرد ويكبر العقل عن طريق التفكير المنطقى • وخلال التطوع للخدمة والمجاهدة لتشرب المبادىء العليا وتقديسها وفهم الهدف الأهم من الحياة •

والتغير الذى يسمى « الموت » مع كون هذه الكلمة خاطئة ، والذى ينظر اليه العالم بجزع كبير ، يحدث طبيعيا جدا وبكل بساطة لدرجة أن الغالبية العظمى بعد انتقالها من العالم الفيزيقى ، لا تشعر بأن هناك انتقالا قد حدث . ولما لم تكن لديها معرفة سابقة عن الحياة الروحية فهى غير واعية بالمرة الى أنها تحولت الى حالة كينونة أخرى ، ولكونها محرومة من حواسها الفيزيقية فانها تصبح منعزلة عن الضـوء الفيزيقى . ولفقـدانهم الادراك العقلى للغرض الأسمى للوجود يكون هؤلاء الأفراد عميانا بالروح ويجدون أنفسهم فى حالة تشبه الشفق ، أوكما تقول فى « الظلمة الخارجية» ويظلون متخبطين فى المنطقة التى تعرف باسم المستوى الأرضى .

ان الموت لا يخلق من الخاطىء قديسا ولا من الأبله فيلسوفا . فالعقلية تظل كما هى من قبل ، ويحمل الأفراد معهم شهواتهم وعاداتهم وعقائدهم القديمة وتعاليمهم الخاطئة ، كفرهم أو ايمانهم بالحياة المستقبلة ، جاء فى (الأمثال) بالعهد القديم : « لأنه كما شعر فى نفسه هكذا هو » .

وعلى فرض أن الكائنات الروحية هى نتيجة لأفكارها على الأرض فان ملايين منها تظل لفترة ما فى الكرة الأرضية ، وغالبا فى بيئـة حياتها الأرضية مربوطة بعاداتها ورغباتها ، أو كما جاء فى أنجيل متى : « حيث يكون كنزك يكون قلبك أيضا » .

والذين تقدموا فى العالم الروحى العلوى يحاولون دائما ترقية هذه الأرواح المرتبطة بالأرض . ولكن هذه بسبب اعتقادها فى الآخرة فانهـا تعمل على أساس فكرة أن الذين انتقلوا ما هم الا أموات أو أشباح ، وبذلك هى غالبا ما ترفض التعرف على أصدقائها أو أدراك الحالة التى هى فيهـا .

وكثير منها يكون فى حالة نوم عميق ، بينما توجد منها من هى ضالة أو من اختلط عليها الأمر . وقد تملأ العقول المتعبة خوفا بسبب الظلام العجيب وهذه تذهب نفوسها حسرة على سـلوكها فى الأرض . وبعضها

ممن لها ميول الشر أو الأنانية تبحث عن مخرج لرغباتها • وتبقى فى هذه الحالة حتى تنتهى هذه الميول الهدامة وتصرخ النفس طالبة الفهم والضياء وبذا تتمكن الأرواح المتقدمة من الوصول اليها ومساعدتها •

ولما كانت الأرواح الهائمة قد فقدت أجسامها التى تمكنها من تحقيق مآربها الأرضية ، فان كثيرا منها ينجذب الى الضوء المغناطيسى الذى ينبعث من الأحياء • وتلصق أنفسها بهذه الهالات المغناطيسية سواء شعوريا أو لا شعوريا حتى تجد مخرجا لما تريد التعبير عنه بواسطة التأثير والمس والهيمنة على هذه المخلوقات البشرية • ان هذه الأرواح توحى الى كثير من ذوى الحساسية بأفكارها ، وتنقل اليهم عواطفها ، وتضعف من عزيمتهم ، وغالبا ما تتحكم فى أفعالهم مما يتسبب عنه مرض وآلام عقلية وشقاء كبير ••

هذه الأرواح المرتبطة بالأرض هى التى سميت بالشياطين على مر العصور • انها شياطين من أصل بشرى ، نتيجة متفرعة عن الأنانية الانسانية والتعاليم الخاطئة والجهل ، والتى اندفعت عمياء الى الوجود الروحى وتوقفت هناك بسبب رباط الجهل •

ان تأثير هذه الأرواح الضالة هو سبب كثير من الحوادث الغامضة ، التى لا يمكن تفسيرها فى الحياة الأرضية وسبب جزء من شقاء العالم • ان الحياة الطاهرة والنية السليمة أو الذكاء الشديد لا تكفى للوقاية من المس الروحى ، وانما المعرفة والاطلاع هما اللذان يحرسان •

وتختلف الظروف الأرضية التى تسبب هذا التداخل فقد تكون من أثر حساسية طبيعية ، أو انهيار فى الجهاز العصبى أو أثر صدمة مفاجئة • والاضطرابات الفيزيقية تقود للمس لأنه عندما تقل القوى الحيوية تكون المقاومة أقل، وبذلك تصبح الأرواح المهاجمة أكثر تمكنا ، مع أنه فى غالب الأحيان لا يشعر كل من الكائن الحى ولا الروح بوجود الآخر معه •

هذا التداخل يحدث كثيرا من التغيرات فى صفات الشخص كما لو كانت شخصيته قد تغيرت ، وقد تظهر عليه عدة شخصيات مجتمعة أو متفرقة • وكثيرا ما تحدث له حالة جنون تتراوح درجته من الشرود العقلى البسيط الى العته أو الصرع أو جنون السرقة أو الهستريا أو المنخوليا أو مرض النسيان أو صدمة الانفجار او البله أو الهوس الدينى أو الانتحارى أو العجز العقلى أو ادمان الشرب أو الانحطاط الخلقى أو الشذوذ الجنسى الى غير ذلك من أنواع الانحراف التى لا حصر لها •

ان الانسانية محاطة بالأفكار القادمة من تأثير الملايين من المخلوقات الروحية التى لم تتقدم الى الحد اللازم لادراك الأغراض العليا للحياة • فادراك هذه الحقيقة يمكن أن يعلل لنا جزءا كبيرا من الأفكار والانفعالات الدخيلة والتقولات الغريبة والسلوك الغامض ، والدوافع غير المعقولة ، وحالات القلق والتهيجات المفاجئة والجنون وما يشبهه من أمراض عقلية •

وتزخر السجلات بذكر حالات المس والاستحواذ الروحى منذ العصور الأولى حتى يومنا هذا • فها هو الدكتور تايلور عالم الأجناس البشرية الانجليزى يقول فى كتابه « الثقافة البدائية » : « لسنا مبالغين اذا قلنا أن مبدأ الاستحواذ الروحى وهو يوازى نفس النظرية التى قامت لتصف نفس الحقائق يسلم به نصف الشعب البشرى الذى ينادى بما نادى به جدوده فى العصور الأولى » •

ويقول مولر فى كتابه « أريليبونين » : « الاعتقاد السائد فى العالم الملون اليوم هو أن نوبات الصرع والهستريا والهذيان والبله والجنون تتسبب عن أرواح متسلطة على الجسم » •

ولقد أشار هوميروس عدة مرات الى الشياطين فقال : « ان الشخص المريض بالهزال هو شخص نظرت اليه عين الشيطان » وقال بطليموس « أن الشياطين يسكنها أن تمس الأحياء » • وتكلم سقراط بالمثل عن تأثير الشياطين فى المجانين • وكتب بلوتارك ان بعض الشياطين المردة تحتاج فى لهوها الى بعض النفوس الحية لأنها تريد أن تتمكن من الوصول الى أهدافها بطريقة أخرى • فهى تعمل على اثارة الشغب والغرائز والمطالبة بما لها من حقوق حتى تنال ما تصبوا اليه من شهوات • ويقول يوسفوس: « ان الشياطين هى أرواح الناس الخاطئين » •

ولقد وردت قصة مس الأرواح واستحواذها كثيرا فى الكتاب المقدس • ففى صموئيل أن داود « أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شاؤول ويطيب ويذهب عنه الروح الردىء » •

وكان الاعتقاد فى الأرواح واستحواذها فى أيام الرسل شيئا عاديا وكانت القدرة على طرد الأرواح الشريرة من أكبر دلائل المهارة • وانه مما يذكر أن جزءا هاما من العمل الذى اشتهر به السيد المسيح كان طرد الشياطين • ويكفى أن نردد هنا بعض آيات من العهد الجديد :

جاء فى انجيل متى : « ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف » • وجاء فى انجيل مرقص : « فكان يكرز فى مجامعهم ويخرج الشياطين » • وجاء فى انجيل لوقا : « استقبله رجل من المدينة فى مكان فيه شياطين •••أمر الروح النجس أن يخرج من الانسان ••• فأخبرهم أيضا الذين رأوا كيف خلص المجنون » وجاء فيه أيضا «والمعذبون بأرواح نجسة كانوا يبرأون» وجاء فى أعمال الرسل : « وتخرج الأرواح الشريرة منهم » •

وجاء فى انجيل مرقص : « يا معلم قد قدمت اليك ابنى وبه روح أخرس ••• فسأل اياه كم من الزمان منذ اصابه هذا ؟ ••• وقال أيها الروح الأخرس الأصم أنا آمرك • اخرج منه ولا تدخله أيضا • فصرخ وصرعه شديدا فصار كميت • فأمسكه يسوع بيده وأقامه فقام » ••

من أقــوال المعنيين بالموضـــوع

ولقـــد قال الدكتور جودفرى روبر الذى كان مبعوث البابا بيوس العاشر الخاص فى القاء محاضرات فى الروحية على الجماهير فى أمريكا « انه لن يكون فى الامكان بعد الآن تنحية موضوع الظواهر الروحية جانبا • لقد اعترف رجال العلم فى جميع أنحاء الدنيا بأن الروحية قـــوة حقيقية مقطوع بصحتها وأن فى اهمالها سياسة فى منتهى الخطورة • وعلى هذا فقد طلب منى البابا لأخبر الكاثوليك بالموقف تجاه هذا الموضوع•••

والكنيسة تعترف بحقيقة هذه الظواهرالروحية وما يتعلق بها من ذكاء خارجى ، كما كانت تعترف دائما بتلك الحقيقة • والموضوع الآن هـــو الكشف عن طبيعة ذلك الذكاء • نحن الآن على أبواب اكتشافات جديدة سوف تحدث ثورات فى العالم وليس الوقت مناسبا للحصول على تفسير لكل الظواهر • يجب أن نتوقف عن اصـــدار حكمنا حتى تزداد المعرفة بالموضوع • ان دراسة الروحية شىء جديد وعلى هذا فهى شىء خطير••• فالمعرفة الناقصة للموضوع قد تتسبب فى أخطار جسيمة •

وقال السنيور لافيل رئيس كنيســـة سانت باتريك فى نيويورك : « ليس هناك شك فى حقيقة المس الشيطانى فى الأيام الغابرة • وتشـــهد القواعد التى كانت تتبع فى طرد الشياطين على أن الكنيسة الكاثوليكيـــة تعترف بمس الأرواح » •

وكتب جوليان هاوثورن فى احدى الصحف الكبرى : « يموت فى كل يوم آلاف من الرجال والنساء ذوى العقول والأعمال الشريرة ، فماذا يحدث لنفوسهم ولأرواحهم • انها تريد العودة الى هنا ثانية •• وتحاول الكثرة المغامرة ذلك باستخدام الفرص التى تسنح لها بعـــدة طـــرق ••• وأمامنا وسيلتان للدفاع عن أنفسنا : يمكن أن نوقف المصدر الذى يرسل بهؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم ، ويمكننا أن نقفل الباب عليهم » •

وقال الدكتور آكسل جستافسون الذى أعلن عن آرائه فى الاستحواذ الروحى بالنسبة للحالات التى عرضت عليه : « ان الأرواح التى تطلب الثأر لها قوة العودة بعد الموت لتستحوذ على الأحياء تحت ظروف معينة» .

وقال الأستاذ هربرت ستنسن من كلية كالامازو بمتشجان فى محاضرة ألقاها بجامعة شيكاغو « ان الاستحواذ الروحى ليس بخرافة وينشأ المرض غالبا عن الاستحواذ الشيطانى ... والاعتقاد فى الشياطين اعتقادسائد..» .

وقال الدكتور وبستر من قسم الأمراض العقلية فى الجامعة الطبية الأمريكية : « انى أسمع أصواتهم أحيانا ، والمجانين الذى قطع الأمل من شفائهم غالبا ما هم الا أناس تغلبت عليهم روح أو مجموعه من الأرواح . واننا لا نجد بالفحص فى المشرحة أى خلل فيزيقى فى مخ هؤلاء الناس ، أو جهازهم العصبى » .

وقال الفيلسوف وليم جميس : « ان فى اعتقادى الجازم أن نظرية المس سوف تحتل مكانها من جديد ، وأن العالم الذى يشك فى امكانياتها لابد أن يكون أعمى وجاهلا » .

وقال الأستاذ جيمس هايسلوب James Hyslop عندما كان محررا لصحيفة جمعية أبحاث الطبيعة الأمريكية : « ان هناك دلائل آخذة فى التزايد على حقيقة وجود الاستحواذ الذى هو الحجر الأساسى فى الجنون، وأنه يمكن شفاؤه . ويجب على عالم الطب أن يستفيد ويولى هذا الموضوع انتباها والا فان يد الطب سوف تفقد السيطرة على هذه المسألة » .

وفى أحد كتب الأستاذ هايسلوب وهو « الاتصال بالعالم الآخر » يقول « ان وجود الأرواح الشريرة التى تؤثر فى الأحياء قد ورد فى العهد الجديد . كما تضمنه العهد القديم مثلما تضمنته شرائع أخرى ... ويستخدم البحاث الروحيون كلمة المس للدلالة على التأثير غير العادى للأرواح فى الأحياء ، والشفاء اللازم يحتاج الى وقت طويل وصبر

واستخدام عقاقير ن نوع غير عادى وتوسيط روحانيين لكى يتصلوا بعملاء الأرواح الماسة حتى تفك عقدة الرباط أو يعلموها لتتراجع عن عدوانها من تلقاء نفسها .

ولقد تبينت فى كل حالة بله أو جنون درستها أنها تشفى بالطريقة السابقة كما تبينت وجود عوامل خارجية تسبب الخلل العقلى او الفيزيقى.. ان الوقت مناسب لأن تجرى تجارب على نطاق أوسع فى مجال ذى قيمة عملية توازى قيمة المشرط والميكروسكوب » .

ويقول الدكتور كارنجتون H. Carrington فى كتابه عن « الظواهر الروحية الحديثة » : انه لمن الواضح ... أن المس الروحى هو على الأقل شىء ممكن لا يمكن للعلم أن يهمله ، اذ أن هناك حقائق دامغة كثيرة تدعمه . وعلى هذا تكون دراسته شيئا أساسيا ليس فقط من وجهة النظر الأكاديمية ولكن لأن هناك أيضا مئاتا بل آلافا من الناس يعانون فى هذه اللحظة من هذه العلة . وشفاؤهم يحتاج الى دراسة وعلاج توا وبدون تأخير . واذا ما سلمنا بامكانية المس العقلى فان مجالا واسعا للبحث والدراسة سوف يفتح أمامنا ويكون فى حاجة الى كل العناية والمهارة والصبر الذى يمكن أن يتكفل به العلم الحديث والفهم السيكولوجى .

* * *

ولم يحدث من قبل فى تاريخ الطب أن ظهر مثل هذا الاهتمام البالغ من جمهرة الناس ورجال الطب والموظفين العموميين ، لمعرفة السبب وكيفية العلاج والشفاء للأمراض العصبية والعقلية . وتدل الاحصائيات على أن الجنون يتزايد بنسبة تدعو الى القلق الشديد فى كل مكان . ولو أن الاخصائيين من رجال الطب يختلفون فيما بينهم كثيرا فى سبب الخلل العقلى . والعلم ليس متمكنا الآن من معرفة التعليل الصحيح لمصدر الجنون .... وفى هذا يقول الدكتور ونسلو Winslow الانجليزى : سوف يجن العالم بأجمعه فى زمن ليس بالبعيد !! .

ويميل عدد كبير من أطباء الأمراض العقلية والعصبية الى الاعتقاد بأن السبب الفعلى والمختفى للجنون أساسه اختلال الجهاز العصبى • ولكن ماهية السبب الجوهرى فى ذلك الاختلال ما زال لا يعرف عنها الا القليل جدا •

وقال الدكتور كوبلين مدير مكتب الصحة والاحسان فى فيلادلفيا :

« لا يكون الجنون مصحوبا فى معظم الحالات بتغير محسوس فى تركيب المخ • فاذا ما فحص مخ المريض تحت الميكروسكوب لا يظهر فيه أى فارق من أى نوع كان بينه وبين مخ الشخص الكامل العقل • فظاهر اذن أن الجنون قد يكون راجعا الى تسمم فى الدم بسبب تأثير بعض الكائنات الدقيقة على هيئة ميكروب « باسيلوس » ••• ان هناك شيئا يسبب الجنون ، ولكن ما هو هذا الشىء ؟ نحن لا نعرف •• » •

ويقول الدكتور بريتون ايفانز المشرف على مصحة المجانين فى نيو جرسى :

« ان تورم المخ أو حمى المخ قد لا تؤثر على العقل ••• فقد يعانى الشخص من المخ وتظل قواه العقلية عادية » •

وكتب الدكتور زيهن وهو طبيب أمراض عقلية ألمانى ويعتبر حجة فى الهستريا : « لا توجد حدود للأمراض العصبية ولا تعاريف كاملة لها حتى الآن • ولما كان العلم التشريحى للأمراض لم يساعدنا حتى الآن فانه لا يمكننا أن نوضح سببا معتادا مقطوعا به للهستريا ••• » •

وقال الدكتور وليام جون طومسون طبيب مستشفى روزفلت وأستاذ الطب العملى والأمراض العصبية فى جامعة نيويورك معلقا على « قاموس توكى فى الطب النفسانى » : « ان المساهمين فى دائرة المعارف الجليلة هذه هم من أشهر الأساتذة والمجربين والمشرفين على المستشفيات العقلية فى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا والمجر

وبلجيكا والدانمرك وسويسرا وروسيا . وفى مقالات الكتاب عن الجنون المزمن ومرض السرقة ومرض شرب المسكرات لا توجد كلمة واحدة عن علم الأمراض التشريحى (لأنه لا يمكن أن يوجد شىء) ، وكذلك فى مقالاتهم عن المانخوليا وجنون النفاس والجنون الدوار والجنون الانتحارى وجنون الصرع .

وفى كل هذه لا توجد تلك الكلمة لأنه لم يظهر فى أية حالة من حالات الجنون هذه أية ظروف مرضية أو باثولوجية فى المخ تجعله يختلف عن المخ السليم فى شخص مكتمل الصحة قد قتل فى حادث » . وقال أيضا « ان هذا هو الوقت الذى يجب أن ننظر فيه الى تسمم الدم على أن فيه تفسيرا لأنواع الجنون التى لا تحدث تغيرا فى المخ من أى نوع كان ..!!

ولقد أذيع أخيرا أن نسبة كبيرة من حالات الشفاء فى مستشفى الدولة للأمراض العقلية فى نيوجرسى « ترينتون » يرجع سببها الى ازالة الأسنان أو الزوائد الأنفية أو الأعضاء المريضة . ويقول الدكتور كوبلاند فى وصف الطريقة المتبعة أن الفرض الذى يقوم عليه العلاج أساسه وجود تسمم فى الدم نشأ عن وجود عدوى من ميكروب فى جزء ما من الجسم. واذا كان هذا صحيحا فان ازالة النسيج المريض فى مبدأ الأمر سوف يتلوه اختفاء الاضطراب العقلى » .

واذا ما أظهرت احصائيات حكومة الولايات المتحدة وغيرها من الدول أن زيادة عدد حالات الجنون أكبر نسبيا من زيادة عدد السكان فانه من العبث اعتبار أمراض الأسنان وما يشبهها من أعضاء سببا للاختلال العقلى خاصة فى الوقت الذى تقدم فيه طب وجراحة الفم والأسنان . ومع العلم بأنه فى الزمن الماضى لما كان هذا الطب غير معروف وكان الناس يشكون من أسنانهم التالفة لم يكن الجنون منتشرا مثلما هو منتشر الآن ...

ونحن لا نحاول أن نقلل من قيمة تقـارير ترينتون ولكنا نقول أن تجاربنا قد أظهرت أنه فى حالات كثيرة من الخلل العقلى حيث كان المريض ذا أسـنان تالفة ، نجحنا فى اعادة الاتزان العقـلى كاملا بطرد الأرواح المـاسة قبل أن نولى أسنانه أية عناية •

ولما كانت الأرواح المـاسة تتأثر بالآلام فأنا مضـطر لأن أقول بأن حالات الشفاء التى جاءت فى تقرير مستشفى ترينتون قد تكون ناشئة جزئيا عن كون الأرواح المـاسة قد طردت عند ممارسة العلاج أو جراحة الأسـنان •••

ماذا عن مجانين الحرب ؟

والباحث فى السلوك النفسانى الشـاذ على أساس نظرية روحيـة سوف يتبين من دراسـة أعراض « جنون الحرب » وصـدمة القنبـلة كما سجلها الدكتور وليمز المدير الطبى للمؤتمر الأعلى للصـحة العقلية فى نيويورك أن المس والاستحواذ الروحى الذى تحدثه أرواح الموتى فى الجنود الذين لم يدركوا بعد أنهم انتقلوا ، هو السبب الجوهرى ، وهذا واضح فى « مرض الهذيان والهوس وحالات التهيج واختلال عمل القلب والشلل والرعشة وعدم اتزان المشـية والحركات التشـنجية والتخدير وزيادة الاحساس وأمراض النطق الخ » •

ان افتراض التأثير الروحى فى حالة مجانين الحرب قد برهن عليـه أخيرا الشفاء السريع للمرضى الذين خضعوا للعـلاج الكهربائى القاسى « لطرد الأرواح المـاسة » • وهـذا ما بينه الدكتور فنسنت الذى قال عنه الدكتور وليمز ، أن فى امكانه فى ساعات أن يشـفى المرضى الذين ظلوا شـهورا تحت أيدى المعالجين النفسيين الذين كانوا يطلبون منهم المشى وصـعود السلالم !! ••••

وقد أمن الدكتور وليامز فيما بعد على هذا الافتراض قائلا « ان الأمراض العصبية نادرة بين المساجين الذين يتعرضون لصدمة ميكانيكية

وكذلك بين الجرحى الذين يتعرضون لمثل هذه الصدمة ... ولا يكون الخطر فى الجهاز العصبى المركزى والمخ مصحوبا بالأعراض التى تظهر فى حالة الصدمة الناشئة عن سماع الانفجار .. أن النجاح يكون فى جانب العلاج النفسى أكبر منه فى الجانب الميكانيكى ... ويجب أن يعمل التشخيص ويبدأ العلاج فى الحال قبل أن تصبح الصدمة الناشئة عن الانفجار « المس » مرضا نفسيا ـ عصبيا مستقرا » .

وكتبت الصحف أخيرا عن قصة شاب يدعى فرانك جميس كان لصا فى نيويورك ، قائلة أنه تغير من طفل بشوش عاطفى مطيع بعد أن سقط من دراجته البخارية وهو فى سن العاشرة الى طفل معتد شرير تطور به الأمر بعد ذلك لأن يصبح لصا أثيما . وبعد أن قضى عدة فترات فى الاصلاحية وخمس سنوات فى سجن « سنج سنج » تقرر أنه مخبول لا أمل فى شفائه وأرسل الى ملجأ المجانين ، وبعد ذلك هرب فرانك جيمس . ولما حاول مطارده أسره أصابته ضربة عصا فى رأسه فسقط مغمى عليه ، وأخذ الى المستشفى .

واستيقظ الولد فى اليوم التالى وقد تغير كل التغير . لقد أصبح رقيقا مطيعا ليس به أدنى اشارة الى خلل عقلى . ومنذ تلك اللحظة لم يظهر منه أى ميل لارتكاب جريمة من أى نوع كان . وجاء فى التقرير: « أما الذى حدث لتركيب مخ الولد فلا يمكن لرجال الطب آن يفهموه بالمرة » .

كيف نفسر مثل هذه الحالة فى ضوء نظرية تسمم الدم ؟ هل فى امكان ضربة على الرأس أن تضيع تسمم الدم المزعوم وأن ترجع الاتزان العقلى ؟ ان التفسير البسيط من وجهة نظرنا نحن هو أنه بعد الصدمة التى حدثت للولد عند سقوطه جاءت روح مجرمة وهيمنت عليه وأن ضربة العصا بما صحبها من ألم كانت السبب فى طرد الروح الماسة .

وقد يكون النجاح المعزو للعلاج المائى الذى تمارسه المستشفيات العقلية فى معالجة مرضاها مثل تيار قوى من الماء أو الاستحمام المستمر ، ناشئا عن طرد الأرواح الماسة التى لا ترضى بالارهاق لها فى مثل هذا العلاج .

يقول الدكتور و. ف. برنس W. F. Prince فى صحيفة علم النفس الشاذ « اذا كان علينا أن نقرر قواعد ثابتة لتركيب العقل يجب أن نربط نتائج كل الأبحاث سواء كانت عملية أم طبية ونعطى عناية كاملة للنتائج التى يحصل عليها كل البحاث على اختلاف فروعهم » .

وبعد التغاضى عن كل الخرافات والغموض المصاحب لموضوع علم النفس العادى والشاذ واستثناء حالات العلل الذاتية أو الأمزجة الخاصة أو الأمراض العصبية الحمية ، فما تزال هناك حالات كثيرة شاذة فى الخلل العقلى . وكون أطباء الأمراض العقلية المشهورين وذوى الرأى المخضرمين لا يتفقون على سبب الجنون هو دافع قوى يحدو بالمفكرين لأن يفحصوا أية نظرية فيها أمل الوصول الى نتائج لا تصل اليها الأهواء سواء كانت شخصية أم اجتماعية ... ان الموقف الذى نحن فيه موقف خطير . ولا يمكن أن ينقذنا منه الا حرية الرأى وعدم التعصب ، وحيث أن الجنون غالبا ما هو الا مظهر عقلى أو اضطراب سيكولوجى فالأعراض اذن يجب أن تعطى توجيها الى التأكد من وجود تعليل ومساعدة للوصول الى حل مشكلة المرض العقلى .

ويحتاج الفرض على أية حال لا الى بحث ودراسة علم النفس العادى والشاذ فحسب بل لكى يكون أكثر تعميما يجب أن يضم أيضا الاعتراف بازدواج الشخصية مادة وروحا ، فيزيقيا وروحيا ...

ان الجنون ليس وصمة ، ويجب ألا يكون موقف الجمهور نحو هذا المرض هو الانصراف عنه بل الفهم والادراك للعلاقة الوثيقة بين العالمين المنظور وغير المنظور .

* * *

والمس الروحى فى حقيقته صـــورة خاطئة لقانون طبيعى ، ويمكن بيانه بوضوح .ولقد ثبت ذلك فى مئات من المرات عندما تقل مؤقتا هذا الجنون أو الشرود العقلى من الضحية الى وسيطة روحية متمرنة على هذه المهمة. وبهذه الطـريقة ثبت أن السبب فى المرض هو وجود روح جاهلة ضارة يمكن أن تثبت شخصيتها فى كثير من الأحيان .

ولقد ثبت أيضا بهذه الطريقة وبدون وقوع أى ضرر للوسيطة أنه فى الامكان انقــاذ الضحية وانقــاذ الروح المــاسة فى نفس الوقت من ظروفها فى الظلام الروحى وذلك بتوضيح القوانين التى تتحكم فى العالم الروحى لها كما سيتبين فى الجلسات الآتى ذكرها فيما بعد .

والاتصال بين العالمين المنظور وغير المنظور هبة طبيعية ويتم خلال شخص له صفات روحية معينة ، يعمــل كوسيط يمكن للأرواح أن تأتى خلاله وتترنم مع العالم الفيزيقى ... والغيبوبة اللاشعورية هى احدى المظاهر المختلفة ذات الأهمية العظمى للاتصــال . وفيهــا يمكن أن يتم الاتصال المباشر مع العــالم غير المنظور وأن يتعرف على الحــالة العقلية للكائن الروحى سواء أكان متقدما أم جاهلا .

والتجارب الروحية التى تجرى على غير هدى قــد تكون فى غاية الخطورة للذين يسهمون فيها دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة ، والذين ينقصهم فهم القوانين التى تتحكم فى الموضوع ، تماما كالذين يتعرضون للخطر اذا أصابهــم الجهــل أو تغاضــوا عن القوانين المســيرة للحياة اليوميــة ... ان اساءة استعمال الشيء هى بلا شــك عملية مضــادة لاستعماله .

والبحث الروحى ينتمى الى مملكة العلم على وجه الخصـــوص . فوجود البديهة والتميز شيئان ضروريان فى مثل هــذا العمل التجريبى وكذلك السيطرة على القوانين اللازمة . تحت هذه الظروف يكون البحث العلمى عاملا عديم النظير فى الكشف عن العالم الروحى .

* * *

ثم يستطرد كارل ويكلاند فى باب لاحق قائلا :

« يحتوى البحث الروحى على عناصر عظيمة الأهمية للجنس البشرى وأصبح عاملا حيويا فى الحياة الاجتماعية فى العـالم كله . ومن المقطوع بصحته أيضا أن فروع البحث المختلفة آخذة فى تبويب نتائجها على أسس سيكو — فسيولوجية خالصة .

فالمحلل النفسانى يفترض نظرية أن الأمراض النفسـية تقوم على وجود اضطراب أو صدمة نفسية اما مختفية واما منسية . ومقياسة للقدرات العقلية باختبارات الذكاء يمكنه أن يصل الى تقسيم صفات العقول الى فئات . وبالمثل يحاول أطباء الأعصاب والنفوس البحث فى فصل العوامل التعليلية للأمراض المختلفة للأعصاب وشرود العقل والبله وللتأكد من أفضل الطـرق لمنعها وعلاجها .

ولو أن فروع هذا البحث لم تؤكد قبول افتراض اشتراك الأرواح كعوامل مهيجة فى كثير من الحالات الا أنها على أية حال تقوم بخدمة كبيرة فى الكشف عن الصفات العارضـة فى المجنون والعصبى وذى الحساسية وكل من لديه ميل للاختلال العقلى .

ويقوم البحث الروحى على طورين من الدراسة : الطور العـادى والطور الشاذ : فمن وجهة الطبيب ورجل الدين ، يختص الطور العادى ، من بين ما يختص ، بالاجابة على هذا السؤال : ماذا يحدث للميت ؟ ان هذا الموضوع فى غاية الأهمية للمريض الذى يتأرجح بين الخط الفاصل بين العالمين متشككا فى المستقبل والذى قد يكون مرتعد الأوصال مما سيحدث له غداة الموت . أليس من أنبل واجبات الطبيب فى مثل هذا الموقف هو أن يكون فى مركز يمكنه منه أن يؤكد لمريضه ، بناء على المعرفة الحقة ، أنه لا يوجد موت وانما ولادة فى مجالات جديدة مملوءة بالنشاط والفرص فى عوالم عقلية أعلى ؟ ! ...

وفى دراسة الطور الشاذ نجد أن هنــاك حاجة للمعرفة الكاملة من جانب الطبيب المشرف على وظائف العقل الخطيرة سواء كان العقل فى هذا العالم أم فى ذاك • والبحث فى علم النفس الشاذ بل فى علم النفس العادى يبين بلاشك لا وجود الأرواح فحسب ، بل يبين بالتأكيد أيضا أن مثل هذه الكائنات تلعب دورا هاما فى حالات الجنون والأمراض النفسية المختلفة• ويحتك الطبيب أكثر من أى شخص آخر بلا شك مع النتائج التى تترتب على الانهماك غير المنظم فى الممارسة ، والتى ينشــأ عنها أحيانا الشرود العقلى • ذلك لأنه يكون عادة أول شــخص يدعى للفحص وينبنى على تقريره مصير هذه الضحية العديمة الحظ •

لهذا السبب وحده على الأقل يجب ألا يكون لديه الحماس فقط ، وانما يملى عليه واجبه المقــدس أيضا أن يتزود بمعلومات صحيحة عن أطوار البحث الروحى وخاصــة أخطاره اذا قام به باحثون غير أكفاء ، خصوصا اذا كانوا قد عملوا من قبل فى الأمراض العصبية أو النفســية •

ولقــد دفعتنى النتــائج المتعلقة بالبحث الروحى الى اتبــاع طريقة الفحص لكى أتعرف بواسطتها على الأسباب الحقيقية للمرض حيث أن هذه أيضا تدخل فى اختصاص الطبيب •

وقائع صارخة يسجلها ويكلاند عن المس

ولقد أثبتت زوجتى أنها وسيطة روحية جيدة وأنهــا تقع بسهولة تحت هيمنة الأرواح • وردا على وساوسها من « أقلاق الأموات » فقــد قالت لها هذه الأرواح أن هناك فكرة خاطئة جدا شائعة بين الأحياء عن حالة ما بعد الموت •

قالت أنه فى الحقيقة لا يوجد موت ولكنه انتقال طبيعى من العــالم وسيلة للاتصال مع الأحياء لكى تنير بصائرهم عن مدى التقدم الذى ينتظر الروح المهذبة • وما الموت سوى تحرير للروح من أسار الجسم ، وهو فى المنظور الى العالم غير المنظــور ، وأن الأرواح المتقدمة دائبة البحث عن

غاية البساطة وطبيعى جدا لدرجة أن كثيرا منها لا يدرك لمدة قصيرة أو طويلة ذلك التغير • وهذا بسبب نقص تعليمها بما يخص الجانب الروحى من طبيعتها ولهذا فهى تستمر فى زياراتها للأرض •••

وقــد باحت أيضــا هذه الأرواح بأن كثيرا منها ينجذب للهالات المغناطيسية للأحياء ، مع أن الأرواح وأيضا الأحياء قد لا تشعر بهــذا التداخل • وعلى هذا فانها بمسها أو باستحواذها على فرائسها تسبب لها بجهلها أو بحقدها متاعب لا تحصى بما ينتج عنه العجز وانحطاط الأخلاق والجرائم والجنون •

وقالت أيضا أن خطر التداخل من هذا النوع قد يكون بالغ الأثر للذين يمارسون البحث الروحى من المبتدئين • ولو أن الجهل بمضمون هذه الحقائق هو أشد خطرا خاصة لمرضى الحساسية العصبية •

وقررت هذه الأرواح الذكية أيضا أنه بواسطة جهــاز تحويل خاص يجذب الروح المــاسة من الضحية الى وسيط روحى ، يمكن اظهار صحة هذه النظرية ويمكن الاستقصاء عن حقيقة الظروف : وبنقل هذه الأمراض العقلية يمكن للضحية أن تبرأ ، فى حين أن الأرواح المتقدمة يمكنها أن تصل الى الأرواح المــاسة وتتولى أمرها وتعلمها القوانين العليا للحياة •

وقررت هذه الأرواح أنها وجدت فى زوجتى جهازا مناســبا لهذه التجارب • واقترحت أن أســاهم معها بتعليم تلك الأرواح الجــاهلة والالتفات لها عندما يسمح لهــا بالهيمنة الكلية المؤقتة على زوجتى دون أن يحدث لها أى ضرر حتى يمكن لهذه الأرواح أن تثبت صحة دعواها •

ووافقنا على الأخذ بهذا الرأى على مافيه من خطورة رغبه منها فى معرفة الصدق أو الكذب فى هذه الدعوى الهامة ، والتى اذا صحت يكون لها تأثير كبير على موضوع حيوى سواء فى علم الاجرام أم فى علم الأمراض النفســية •

وسمحت الأرواح المرشدة لأجل القيام بأغراضها بحـدوث ظواهر متعددة غالبا ما تأتى على غير انتظار وحدث بعضها عنـدما كنت أجاهد فى السنين الأولى لدراستى الطبية ...

وغادرت المنزل يوما بدون أدنى تفكير فى البـدء فى التشريح حتى لا يتأثر العقل اللاشعورى لزوجتى بما سيتمخض عنـه المستقبل . كان مطلوبا من التلاميذ أن يشرحوا النصف الجـانبى لجثة وكان الشخص الأول رجلا فى الستين من عمره وفى ذلك اليوم بدأت أشرح رسغا منه .

رجعت الى منزلى فى الساعة الخامسة ولم أكد أدخل البـاب حتى شعرت زوجتى بمرض مفاجىء وأحست احساسا غريبا وتمايلت وكأنهـا على وشك السقوط . وعندما وضعت كفى فوق كتفها سحبت نفسها الى أعلى وذهبت فى غيبوبة بتأثير روح خارجى أخذ يقول فى اشارة تهديدية ، « ماذا تقصد بتقطيعى ؟ » فقلت له اننى لم أتنبه الى أنى أقطع أى شخص. ولكن الروح رد فى غضب :

ـ « بالطبع قمت بذلك . انك تقطع ساقى » .

وعندما أدركت أن روح الرجل الذى كنت أعمل فيه قد تبعتنى الى المنزل أردت أن أبدأ التفاوض معه بعد أن أجلس زوجتى على كرسى . ولكن هذا الروح عارض بشدة قائلا أنه ليس لى شأن فى أن أمسـه ؛ ولكنى أجبته بأن لى حقـا فى أن أمس زوجتى . عنـدئذ زمجر قائلا : « زوجتك ؟ علام تتكلم ؟ أنا لست امرأة . أنا رجل » .

فشرحت له أنه قد انتقل خارج جسـمه الفيزيقى وأنه يهيمن على جسد زوجتى وأن روحه هنا بينما جسده موجود فى الكلية . وعندما ظهر أنه قد اقتنع نهائيا بذلك قلت له : « افرض أننى أقطع الآن جسمك فى الكلية فان ذلك لن يقتلك لأنك الآن هنا » .

فرد الروح موافقا على أن هذا شيء معقول ثم أردف : « أنا أظن أننى الذى يسمونه — ميتا — وعلى هذا لا تكون لى أية فائدة فى جسدى القديم • اذا أمكنك أن تتعلم أى شيء بتقطيعه فاذهب واقطع منه » ثم أضاف فجأة : « قل لى ياسيد • اعطنى مضغة تبغ » •

فأخبرته بأن ليس معى شيئا ولكنه بدأ يرجونى طالبا غليونا ثم قال :

— « أكاد أموت شوقا للتدخين » •

فرفضت طلبه هذا أيضا • ولكون السيدة ويكلاند تكره منظر أى شخص يمضغ التبغ فان عقلها الباطن لم يلعب أى دور فى هذا الطلب • وبعد شرح مفصل لحقيقة « الموت » فقد أدرك الروح ظروفه الحقيقية وذهب • وبفحص أسنان الجثة بعد ذلك تبين أن الرجل كان يدمن مضغ التبغ أثناء حياته •

* * *

وفى مرة أخرى عندما عينت مساعد مدرس لفصل من التلاميذ فى مادة التشريح جيء بجثة ملون ولكنها لم تمس حتى حدث فى احدى الأمسيات أن ذهبت السيدة ويكلاند فى غيبوبة وبدأت روح غريبة فى التكلم خلالها :

— « يا ريس • انك لن تقطع هذا الرجل الملون ! » •

فقلت له أن الدنيا تسميه ميتا وأنه ليس الآن فى جسمه وانما يهيمن على جسد امرأة ، فلم يصدق ذلك • ولكنى لما أظهرت له يدى زوجتى على أنهما بيضاوتان وليستا ملونتين قال :

— « لقد حصلت على بعض البياض من الغسيل •• أثناء عملى » •

وبدأ أن الروح عنيد جدا فأخذ يتلو التفسيرات والاعذار المختلفة بدلا من أن يصدق • ولكنه أخيرا اقتنع وذهب •

وهــذه الحادثة الأخرى تبين أيضا الى أية درجة تظل الأرواح غير المصدقة ملتصقة بالأجسام الأرضية نتيجة لجهلها بحقيقة انتقالهــا الذى يسمى الموت • كانت هناك جثــة امرأة فى غرفة التشريح عمرها حوالى الأربعين عاما ، وقد ماتت فى يونيو المــاضى فى شيكاغو • وفى ينــاير أى بعد سبعة أشهر من موتها اخترناها أنا وتلاميذى كموضوع للتشريح • ولم يتيسر لى الحضور فى أول مساء ولكن الآخرين بدأوا فى العمــل • ولم يقل لى أحد عما حدث فى أثناء تلك السويعات ولكن لسبب ما مجهول لى لم يمس التلاميذ تلك الجثة ثانية فيما بعد •

وفى اليوم التالى لم تكن هناك دراسة بعد الظهر ، وعلى هذا فقــد بدأت أشرح وحدى فى الرقبة والذراع • كانت حجرة التشريح فى خلف دور ســفلى طويل هادىء ولكننى سمعت بوضــــوح صــوتا يقول : « لا تقتلنى » •

كان هذا الصوت خافتا كأنه قادم من بعيد • ولكننى لمــا كنت غير متشكك ولم أكن لأعتقد أن كل الحوادث التافهة تكون مصدرها الأرواح فقد استنتجت أن هذا الصوت ربما جاء من بعض الأطفال الذين يلعبون فى الشارع ولو أنى لم أسمع أيا منهم يلعب بقرب ذلك المكان •

وبعد ظهر اليوم الثانى كنت أعمل وحــدى حينما فوجئت بصوت أجش من صحيفة مطبقة مرمية على الأرض • كان هــذا الصوت يشبه الصوت الذى ينشأ عند ما تدوس على صحيفة • ولكننى لم ألق أى انتباه خاص الى ذلك ولم أذكر هذه الحوادث لزوجتى •

ونسيت هذه الأشياء حتى حدث بعد عدة أيام أن كنــا نعقد جلسة روحية فى منزلنا • وبعد أن غادرنا أصــدقاؤنا غير المنظورين لاحظت أن زوجتى مازالت فى حالة نصف نوم غير طبيعى ، وخطوت نحوها لأتحقق

من السبب فى ذلك فاذا بالروح المهيمنة تثور فجأة وتضربنى بغضب وتقول : « ان لى بعض العظام التى سوف آخذها منك » .

وبعد فترة عراك مع هذه الغريبة سألناها عن السبب . فردت قائلة : « لماذا تريد أن تقتلنى ؟ » فرددت عليها قائلا : « أنا لا أريد أن أقتل أى انسان » فقالت : « نعم أنت تريد ، أنت تقطع ذراعى ورقبتى ، ولقد صحت عليك حتى لا تفعل ذلك ، وقد ضربت تلك الصحيفة فوق الأرض لأزعجك ولكنك لم تلق أى انتباه » .

ثم ضحكت الروح فى تهيج واستأنفت : « ولقد أرعبت الرفاق الآخرين » .

وكان من الضرورى أن أفسر بالتفصيل الموقف الحقيقى للروح التى قالت لى ان اسمها مورجان ، وأخير فهمت وغادرت متعهدة بأن تبحث عن حياة أكثر سموا ...

والطريقة التى تهيمن بها الأرواح على الوسيطة الروحية (السيدة ويكلاند) مضبوطة ومريحة بحيث أن معظمها فى أول الأمر تعجز عن ادراك أنها تسمى موتى وأنها ليست سوى شاغلة لجسم انسان آخر ...

وتلك المخلوقات التى يكون لديها ملكات عقلية عادية يمكن جعلها تتحقق من أن موقفها غير عادى وذلك بلفت نظرها الى عدم وجود أوجه شبه بين ملامح أجسامها السابقة مثل اليدين والقدمين والملابس وبين مقابلها فى الوسيطة . وهذا يكون واضحا فى حالة ما اذا كان الروح رجلا اذ يكون من السهل ملاحظة الفرق عندئذ .

وغالبا بعد أن أقول أن هذا الجسد الذى تحدث فيه الهيمنة هو تابع لزوجتى ترد الروح قائلة : « أنا لست زوجتك » وعندئذ يلزم شرح طويل قبل أن تصل الروح الى درجة التعرف على حقيقة أنها فى حالة استحواذ وقتى على جسم انسان آخر .

* * *

ومن جهة أخرى توجد أرواح عنيـدة وموغلة فى تمردها وكفرها ولذا ترفض بوقاحة أن تفهم أنها غادرت جسمها الفيزيقى • وهـذه لن تصغى الى المنطق وتفشل فى ادراك حالتها الجديدة حتى ولو جئت لهـا بمرآة لتنظر فيها وتعلن أنها قد نومت تنويما مغناطيسيا وتروح تبرهن فى تغفيل كبير حتى تضـطر للذهاب تحت اشراف أرواح غـير منظورة أخرى •••

ويمكن تسهيل انتقال الشرود العقلى أو المرض النفسى من المريض الى الوسيطة الروحية السيدة ويكلاند باستخدام الكهربائية الاستاتيكية التى تعطى للمريض غالبا فى حضور الوسيطة • ومع أن هذه الكهرباء غير ضارة بالمريض الا أنها كبيرة الأثر اذ أن الروح المـاسة لا يمكنها المقاومة الطويلة لمثل هذا العلاج الكهربائى وبذلك تنطرد • بعد ذلك تعمل هذه الروح بتأثير مساعدينا غير المنظورين على ايقاع الوسيطة فى غيبوبة وبهذ يمكن الاتصال المباشر مع الروح • ويمكن بذل مجهود حتى تصل لادراك موقفها وامكانياتها الأكثر رقيا • وبهذا تذهب تحت رعاية الأرواح المتقدمة وتعود السيدة ويكلاند الى نفسها العادية من جديد •

ولقد ثبت قطعا فى حالات كثيرة أن الأوراح كانت السبب الدخيل فى الشرود العقلى • وذلـك بعد دراسـة تجريبية مسـتمرة فى الدائرة الروحية • فالأرواح المـاسة تطرد من فريستها حيث تبقى على بعد منها غالبا ثم تحمل الى الدائرة بمساعدة الأرواح الذكية ثم تترك لتهيمن على الوسيطة • مثل هذه الأرواح غالبا ما تشكو من أنها قد طردت حيث أنها ما زالت تجهل أنها أرواح وأنها تهيمن أو تؤثر على انسان ما •

هذا وجه الشبه بين أفعال الروح المهمن وأعراض المريض • وأيضا الشفاء الذى يتم للمريض بعد زوال الروح يثبت بدون جدال أن الروح هو السبب فى الاضطراب • وفى كثير من الحالات تحققت صحة شخصية الروح •

ويشفى المريض تدريجيا بعد طرد الروح المـاس ولو أنه قد يكون هناك عدد من الأرواح فى حاجة الى الطرد من نفس المريض ...

وقد يسأل سائل لمـاذا لا تتولى الأرواح المتقدمة أمر هذه الأرواح المرتبطة بالأرض وتحول تفكيرها بدون أن تجعلها تهيمن على الوسيطة أولا . وللرد على ذلك نقول أن كثيرا من هذه الأرواح الجاهلة لا يمكن أن تصل اليها الأرواح المتقدمة الا بعد أن تتصل أولا بالظروف الفيزيقية ، حيث تضطر للتعرف على موقفها وبعدئذ يمكنها أن تبدأ السير فى طريق التقـدم .

وزيادة على كون هيمنـة الروح الجاهل على الوسـيطة عاملا على الوصول به الى حالة الفهم وأنها ذات أهمية للباحث ، فهى فى نفس الوقت وسـيلة لاعطاء درس ناجح لمجموعات الأرواح الأخرى التى تعيش فى الظلام ، خلال الأفعال التى يقوم بها الروح المهيمن .

وتبدو بعض الأرواح المهيمنة فى أفعالها كما لو كانت مخبولة ، ويصعب التفاهم معها . وهذه الحالة منشؤها اعتقادات خاطئة وأفكار راسخة وتعاليم مختلفة أخذت مجراها أثناء الحياة الفيزيقية . ولذا غالبا ما تتمرد وتتهيج عندما تكون هناك حاجة لتهدئتها بالقبض على يد الوسيطة لكى تظـل ثابتـة .

ويبدو الشعور بالموت على كثير من الأرواح عنـدما تدرك حالتها الحقيقية ، ويحدث ذلك عندما تأخذ فى فقد هيمنتها على الوسيطة ويبدو على أرواح أخرى مظهر النوم الأحمق وتطلب أن تترك وحدها . وقـد يلزم لايقاظها عندئذ الكلام الشديد اللهجة .

وبناء على قانون روحى معين يكون للأرواح الذكية سلطة وضـع الروح الجاهل فى ظروف تشبه السجن ، أى غرفة مثل الزنزانة التى لايمكن اختراقها والتى لا يمكن الهرب منها . وفيها يجب أن تظل الأرواح السيئة

الخلق حيث لا ترى غير انعكاسات لشخصياتها وظهور أفعالها السابقة أمام عيون عقولها الى أن تصبح نادمة وتظهر نية لتكييف أنفسها تحت الظروف الجديدة وتتجاوب مع التقدم الروحى .

والغيبوبة اللاشعورية هى سمة السيدة ويكلاند الروحية . فتغمض عينيها ويحجب تفكيرها الخاص ، وتصبح فى حالة نوم طوال تلك المدة ولا تتذكر أى شىء يصدر منها خلال ذلك . والسيدة ويكلاند ليست سلبية الشخصية فيما بين تلك الجلسات . ان لها فى كل وقت شخصيتها الذاتية وعقلها النير الايجابى . ولم تشك بعد خمسة وثلاثين عاما من العمل الروحى من أى ألم أو ضرر من أى نوع .

انها محمية من ضرر الجانب غير المنظور بواسطة اشراف جماعة من الأرواح القوية تعرف باسم (جماعة الرحمة) وهى المرشدة لها فى عملها وغرضها هو توجيه الانسانية لادراك البساطة فى الانتقال الذى يسمى الموت ولفت نظرها الى أهمية الفهم المعقول لما يحدث للأرواح .

وكان الغرض من عملنا هو الحصول على برهان صادق لا يقبل الشك بما يتعلق بظروف « ما بعد الموت » ولقد كتبت تقارير لمئات الجلسات على ورق الستنيوجراف كيما نسجل الموقف الحقيقى للأرواح المتصلة بنا ...

العقل اللاشعورى والايحاء الذاتى فرضان خاطئان

تم الكشف فى خلال ثلاثين عاما من البحث الذى لم يكل بين الموتى على حالات غريبة مما يجعلنا نوقن أن المفسرين الأذكياء الآخرين الذين سلكوا سبلا أخرى فى التفكير ، قد تجاهلوا الحقائق البسيطة التى يمكن اثباتها فى الحال . ان من المستحيل حدوث أى غش فى هذه التجارب . لقد سمعت عدة لغات أجنبية غيرمعلومة بالمرة للسيدة ويكلاند كما استخدمت اصطلاحات لم تسمع بها من قبل قط . فى حين شخصية الأرواح المهيمنة قد تحققت صحتها مرة ومرات كما تم اجراء اثباتات لا عدد لها .

لقد تناقشــت مرة مع واحد وعشرين روحا مختلفا تكلموا خلال زوجتى وأعطــانى معظمهم الدلائل الكافية علىأنهم أصــدقاء وأقارب معروفون لى عندما كانوا على الأرض • وعلى وجه عام لقد تكلموا بستة لغات مختلفة فى حين أن زوجتى تتكلم فقط الانجليزية والسويدية •

ولقد أمكننا أن نطرد من السيدة (ا) المريضة التى جاءتنا من شيكاغو ثلاثة عشر روحا سمح لهم بأن يهيمنوا على السيدة ويكلاند ، وتعرفت أمام المريضة السيدة « هـ • و • » على سبعة من هؤلاء على أنهم أقارب أو أصدقاء معروفون لها جد المعرفة عندما كانوا فى حياتهم الأرضية •

كان واحد من هؤلاء قسيسا فى كنيســة ميثودية كانت السـيدة « هـ • و » عضوا فيها • وقد قتل هذا القسيس تحت القطار منذ تسع ســنوات ولكنه لم يتنبه الى وفاته • وكانت روح أخرى هى روح أخت زوجها كما كانتهناك ثلاثة أرواح لنسوة عجائزصديقات لها منذ سنوات• وتعرفت أيضــا من بين هؤلاء على روح لولد وروح حماة ابنتها وجميع هؤلاء ليسوا معروفين للسيدة ويكلاند •

وتحدثت السيدة « هـ • و » فى النهــاية مع كل واحد منهم وهم يتكلمون خلال السيدة ويكلاند مثبتين أقوالا لا عدد لها كانت الأرواح قد أدلت بها وساعدت على ايصــالها الى ادراك تغير ظروفها وأنها تمس ابنتها • وهذه المريضة الآن فى حالة جيدة جدا ومنهمكة تماما فى الأعمال الاجتماعية والموسيقية والعائلية ••

وهناك حالة أخرى تبين بوضوح انتقال المرضى النفسى من المريض الى الوسيط وتعذر قيام « العقل اللاشعورى » أو « تعدد الشخصية » بأى دور فيها يخص الوسيطة •

دعينا ذات مساء صيف الى منزل السيدة « م » وهى ســيدة مثقفة راقية • كانت تعمل موسيقية من الطراز الأول ولمــا تكاثرت عليها الطلبات

أخذت تعانى من انهيار الأعصاب • أصبحت غير محتملة وظلت طوال ستة أسابيع فى حالة هياج حتى أن أطباءها عجزوا عن شفائها ولازمتها الممرضات ليلا ونهارا باستمرار •

رأينا المريضة جالسة فى فراشها تصبح لحظة كالطفل اليائس وتصرخ ثانية وهى خائفة : « مانيللا ـ مانيلا » وبعد أن قامت تتعارك وتتضارب فجاة أخذت تتكلم فى لهجة انجليزية وأسبانية بذيئة تقذف بها كأنها الحجارة (لم تكن لتعرف اللغة الأسبانية) •

قامت السيدة ويكلاند فى الحال بالتشخيص الروحى فقالت أن هذه بلاجدال حالة مس وهذا ثبتت صحته بغتة عندما كانت السيدةويكلاندواقفه بجوار الفراش ومعها ملابس مستعدة للخروج فوجدت أنهـا تذهب فى غيبوبة مفاجئة • أجلسـناها على طاولة صـغيرة فى غرفة الموسيقى حيث تكلمت لمدة ساعتين مع عدة أرواح انجذبت اليها توا من المريضة •

كان هناك ثلاثة أرواح فتاة تدعى مارى وصديقها سامى الأمريكى ومنافسه المكسـيكى مانيللا ، كل من هذين الرجلين قد أحب الفتاة الى درجة الجنون و كره كل منهما الآخر ، وفى لحظة غيرة قتل أحدهما الفتاة وعندما دخلا فى عراك وحشى قتل كل من المتنافسين الآخر ، والثلاثة جميعا لم ينتبهوا الى كونهم « أموات » اذ أن مارى قالت وهى تنتحب « لقـد ظننت أن كلا منهما سوف يقتل الآخر ولكن ها هما ما يزالان يقتتلان »•

هذه المـأساة ، الحب والكراهية والغيرة لم تنته بالموت الفيزيقى ، وها هى المجموعة تجر لا شـعوريا الى جو الوسيطة الروحى ويسـتمر القتال الوحشى داخل هالتها • ولمـا كانت مقاومتها العصبية قد تقصت جدا ابان تلك الفترة فان كلا منهم قد استخدم خطأ جسـدها الفيزيقى واحدا بعـد الآخر مما نتج عنه اضطراب لم يتمكن المشرفون عليها من تفسيره •

وبكل صـعوبة أمكن افهام الأرواح الثلاثة أنها فقدت أجسـامها الفيزيقية . وأخيرا أدركت الصدق وأخذها زملاؤها غير المنظورين . وبعد قليل قامت المريضة تتكلم بكل رزانة الى الممرضة وهى مندهشة ثم أخذت تتمشى بكل هدوء فى حجرتها . ثم قالت « سوف أنام جيدا هذه الليلة » ولمـا عادت الى فراشـها نامت بدون تناول أية أقراص منومة كالمعتاد واستراحت فى سكون طوال الليل ...

وفى الليـلة التالية جاءت مصـحوبة بممرضتها الى منزلنـا .صرفنا الممرضة ورمينا بأدويتها وبعد أن عالجنا المريضة بالكهرباء جلست لتتناول غذاءها فى غرفة الطعـام العامة مع غيرها من المرضى الآخرين ، وحضرت فى ذلك المساء الى غرفة اجتماعاتنا .

وفى اليوم التالى طردت منها روح أخرى وكانت هذه بنتا قتلت فى زلزال سان فرانسـكو وقد أخذت تصرخ باستمرار قائلة أنها فقـدت فى الظلام . وليس ضروريا أن نقول أنهـا قد استراحت وتولى أمرهـا الأصدقاء الروحانيون الذين لم يتمكنوا من الوصول اليها عنـدما كانت واقعة فى هالة الوسيطة الروحية . وبعد عدة أشهر من العـلاج والراحة والنقاهة عادت المريضة الى منزلها واستأنفت حياتها العادية من جديد .

* * *

وحدثت احدى تجاربنا فى شيكاغو فى ١٥ نوفمبر سـنة ١٦١ ففى احدى دوائرنا الروحية وقعت السـيدة ويكلاند فى غيبوبة بفعل روح غريبة ثم سقطت فى اعياء على الأرض وبقيت فى حالة نوم غير طبيعى لحين من الوقت . وفى النهاية أمكن جعل الروح أكثر اقترابا وقد أخذت تتأوه كما لو كان بهـا ألم بالغ وتقـول : « لمـاذا لم آخذ المزيد من حامض الكربوليك . أريد أن أموت ، أنا متعبة جدا من الحياة » .

وأخذت الروح تشكو فى صـوت ضعيف من الظلام الكثيف الذى يحيط بها ولم يمكنها أن ترى المصباح الكهربائى الذى يسيطع أمام عينيها مباشرة . ثم همست فى خفوت « ابنى المسكين » ولمـا سئلت للتوضـيح

قالت أن اسمها هوماری روز وأنها عاشت فی رقم ٢٠٢ شـــارع ساوث جرين الذی لم نسمع عنه أبدا فی ذلك الوقت •

لم تكن لتتذكر أی تاريخ فی مبدأ الأمر ولكن لمـا سئلت « هل نحن فی ١٥ نوفمبر ســنة ١٩٠٦ ؟ » أجابت « لا ان هذا يقع فی الأســبوع القادم » •وقالت أن الحياة كانت خيبة مرة ، وأنها قاست باســتمرار من أمراض باطنية مزمنة وفی النهاية ابتاعت سماكی تضع حدا لوجودها البائس ,

ولم تكن لتعرف أنها قد أتلفت جسمها الفيزيقی لأنها كانت ـــ مثلما هو الحال فی جميع حالات الانتحار ـــ جاهلة تماما بقاء الحياة وحقيقـــة العالم الآخر • ولكن لمـــا وضح لها الغرض الحقيقی من الحياة والتجربة والآلام فقد تغلب عليها الندم وبدأت تصلی خاشعة طالبة الغفران • ثم تفتح بصرها الروحی قليلا ورأت بعض الشیء روح جدتها التی جاءت لتأخذها الی العالم الروحی •

وبالسؤال بعد ذلك عن العنوان الذی أعطته الروح ثبت أن قوالها صحيحة وأن امرأة بهذا الاسم المعطی عاشت فی ذلك المنزل وأنه لا يزال لها ابن هناك وعلمنا أيضا أن مسز روز كانت قد أخذت الی المستشفی حيث ماتت هناك قبل أسبوع •

ولمـــا سألنا فی المستشفی حصلنا علی معلومات اثباتية أخری وأعطی لنـــا نسخة من سجل المريضة •

اسم المستشفی : كوك كاوتنی • شيكاغو • الز •

اسم المريضة : ماری روز •

تاريخ الدخول : ٧ نوفمبر ١٩٠٦

تاريخ الوفاة : ٨ نوفمبر ١٩٠٦

ســـبب الوفاة : تسمم بحامض الكاربوليك •

رقـــم : ٣٤١١٠٦

وتثبت هذه الحالة الأخرى أن التعرف على الروح يكون غالبا شيئا ميسورا . كانت السيدة « فــل » مريضة بعقلها وقطع الأمل من شفائها أطباء عديدون . هى سيدة رقيقة المزاج ولكنها أصبحت متوحشة لاتطاق، حلافة باستمرار وتتعارك بقوة بحيث لزم لاسكاتها عدة أشخاص .

وكانت أيضا عرضة لحالات النوم غير الطبيعى ونزلات الاعياء وترفض الطعام وتزعم أنهــا كانت متزوجة فى الســماء تحت تأثير قوى علــوية واستخدمت لغة شاذة . وتبدلت عليها هذه الأمور المختلفة باستمرار ولكن لم يظهر دليل قاطع على وجود حالة مس بها حتى ذلك اليوم الذى فقدت فيه السيدة « فــل » كل مقدرتهــا على الكلام وبدأت تهمهم فى خبل كما لو كانت بالضبط شخصا أصم وأبكم .

وفى ذلك الوقت جاء رجل من ولاية مجاورة ليزور مريضا فى المنزل وبعد وصوله بقليل قالت الممرضة التى كانت تصاحب السيدة فــل أن مريضتها قد تغيرت ثانية وبدأت تتكلم كالطفل ... كان الرجــل غريبــا بالنسبة لهــا تماما ، ولكنه عندما دخل اليها قالت وهى تشير اليه فى صوت طفل حاد :

« أنا أعرف ذلك الرجل ، لقد اعتاد أن يضع الأقواس على كتفى ويشد مصاصتى . لقد أخذنى الى مخيم الغجر أيضا . انه يعيش أمامى فى نفس الشارع واعتاد أن يناديني باسم « روزبد » عندما كان عمرى أربع سنوات » .

ووافق الرجل فى دهشة على كل كلمة قائلا أنه عرف تلك الطفلة فى مدينته فى « أيوا » وأنها ماتت منذ سنة . وقال أنه كان يغرم كثيرا بالأطفال وأنه أخذها فى عدة مناسبات الى مخيم الغجر وأنه كان عندما يشــترى المصاصة يشد العصا وهى تأكل منها خائفة أن يخلع أسنانها ...

كان واضحا اذن أن التأثير قد جذب روح الطفلة الى صديقها وأنها وجدت فى مسز «فل» مركبة يمكنها من خلالها أن تجعل وجودها محسوسا بالنسبة لهذا الرجل •

خلصت المريضة من هذه الروح ومن الأرواح الماسة الأخرى بالتدريج ، وبعد عدة أشهر كانت تعتبر سليمة جدا بمقتضى أوراق رسمية• وأنها شخص عاقل بشهادة قاض ومستشارين •

ويجرنا الحديث الى حالة أخرى وهى السيدة « و » التى كانت طباخة فى مطعم • شاهدت مرة خادمة وهى تتصرف تصرفا شاذا وفى حالة هوس وخبل فأحضرتها الى مكتبى بعد علاج كهربائى صرخت المريضة بأنها قد تحسنت كثيرا ثم عادت الى منزلها • ولكن فى تلك الليلة أصيبت السيدة « و » نفسها باضطراب عجيب منعها من النوم واستمرت متاعبها حتى العاشرة من صباح اليوم التالى حينما كانت تقوم باعداد الغذاء • أصبحت فجأة فى حالة وحشية تشد شعرها وتهدد بأنها سوف تضر نفسها •

أرسلوا الى ولما وصلت وجدت السيدة « و » فى حالة جنونية تشكو من أنها تطارد هنا وهناك وأنها لاتجد مكانا تستريح فيه • ولشكى فى وجود روح غير منظورة فقد أجلست السيدة «و» فى كرسى وربطت ذراعيها حتى لا يصابان فى عراك وبعد عدة ملاحظات أعلن الروح أنه رجل ولم يعترف بأنه ميت أو أنه يمس امرأة •

وقال الروح أن اسمه جاك وأنه عم الخادمة المريضة وأنه كان شرسا فى حياته • وبعد النقاش معه ابتداء يدرك موقفه وذهب بعد أن تعهد بأنه لن يحدث أية مضايقات بعد ذلك • عندئذ عادت السيدة « و » الى نفسها العادية ورجعت الى عملها بدون حدوث أى اضطراب آخر •

ولقد أكدت الخادمة بعد ذلك أن لها عما توفى يدعى جاك كان

شرسا حقا . فى هذه الحالة قد عملت السيدة « و » كوسـيطة روحية وبذا انتقلت اليها الروح المـاسة للخادمة .

* * *

وكتب منذ عدة سنوات الدكتور ليدســتون فى أوراق مريض فى شيكاغو أنه كان لا يعرف الفرنسية ولا الموسيقى ولكنه كان يغنى جيدا « المـارسليز » بالفرنسية عندما يقع تحت تأثير مخدر ، وهذا الدكتور لا يوافق على استمرار العقل الباطن ويفسر هذه الظاهرة على أنها وعى ماهم أو ذاكرة لا شعورية ويقارنها بحالة خادمة أمية كان تسمع لغة لاتينية على درجة مضبوطة جدا كما كان يفعل مخدومها السابق الأستاذ فى اللغـة اللاتينية أيام حياته ...

ولقد رددت فى احدى الصحف بأن مثل هذه الظاهرة طالمـا اعترضتنا أثناء أبحاثنا الروحية وأنه بالرغم من تقسيمات العلماء المـاديين فهـذه الحالة تبين بوضوح وجود الأرواح بعد الموت وقدرتها على الاتصـال بنـا خلال الأحيـاء .

وقلت أيضا اننا لو توخينا الصدق فى هاتين الحالتين لأمكننا أن نعرف أن الرجل الذى كان يغنى بالفرنسـية انما كان ذا حساسية روحية بينما كانت الخادمة التى تتكلم اللاتينية ممسوسة بروح الأستاذ السابق ذكره .

وبعد مدة قصيرة جاءنى الرجـل الذى نوه عنه الدكتور ليدستون بعد أن قرأ مقالى وقال لى : « أنا لا أعرف أى شىء من الفرنسية ولكنى أعرف أننى قد ضايقتنى الأرواح الى درجة الموت » .

وفى دراسـة حالات « تعدد الشخصية » و « تفكك الشخصية » أو « تشعب اللاشعور » ينكر علماء النفس امكان وجود أرواح على أساس أن هذه الشخصيات لا تعطى براهين على معرفة فوق العادية ، أو على أنها من أصل روحى ... فدلت تجاربنا ، على الضد من ذلك ، على أن معظم هذه المخلوقات الذكية غير شاعرة بانتقالها ، وعلى هذا فانه لايدخل عقلها القول بأنها أرواح وهى لا تعتزم الاعتراف بذلك .

وفى حالة الآنسة بوشامب Beauchamp التى أوردها الدكتور مورتون فى كتابه : « « تفكك الشخصية » حيث تكلم عن أربع شخصيات مختلفة لم يدع أحد أن هناك أرواحا خارجية مسؤولة عن هذه الشخصيات المختلفة . ومع ذلك فان الشخصية الثالثة « سالى » أصرت على أنها ليست نفس السيدة بوشامب (كريستين) وأن وعيها كان مختلفا عن وعى الآنسة بوشامب وتكلمت عن تعلم الآنسة بوشامب للمشى والكلام : « عندما كانت طفلة صغيرة جدا مبتدئة فى المشى أنا أتذكر أن أفكارها كانت مختلفة عن أفكارى » (١) .

وبالمثل فى حالة « برنسيس رديك » التلميذة التى من « أوهيو » التى تغيرت باستمرار من حالتها العادية الى شخصية « بولو » وهى طفلة شقية ظهر البرهان القاطع على تأثير روح عليها ، ربما كانت جاهلة بأنها ميتة ، مهيمنة على مس رديك .

ويمكن البرهنة بسهولة على كون هذه الشخصيات مستقلة عن بعضها اذا ما هيئت الظروف المناسبة وذلك بنقلها الى وسيطة روحية .

وأية محاولة لتفسير تجاربنا بنظرية العقل الباطن والتأثير الذاتى أو تعدد الشخصية تفسير غير مقبول حيث أنه واضح استحالة وجود ألف شخصية للسيدة ويكلاند . وحيث أنه فى الامكان نقل الأمراض النفسية من شخص مفروض فيه الجنون الى السيدة ويكلاند وشفاء الضحية .

وبهذه الطريقة يمكن اكتشاف أن الاضطراب كان ناشئا عن روح يمكن التأكد من شخصيته فى غالب الأحوال . ويعانى الأشخاص ذوو الجلاء السمعى كثيرا من المضايقة الدائمة من الاستماع الى أصوات الأرواح الماسة (الهوس السمعى) والذى يلاحظه كثيرا أطباء الأمراض العقلية . وعندما يكون مثل هذا الشخص موجودا فى دائرة روحية ، حيث يمكن طرد الأرواح ونقلها الى الوسيطة الروحية ، تنتج تطورات هامة (٢) .

(١) راجع ما سبق بشأن هذه الحالة فى صفحة ٧٥٧ ـ ٧٥٨ .
(٢) عن كارل ويكلاند . المرجع السابق ترجمة الدكتور على راضى طبعة ٢ صفحة ٣٤ ـ ٥٧ .

عن الأرواح والجريمة

وفى الباب السادس من نفس الكتاب يعالج كارل ويكلاند موضوعا من أخطر الموضوعات وأوثقها اتصالا بعلم النفس الجنائى وبالسلوك الاجرامى بوجه عام تحت عنوان « الأرواح والجريمة » خصوصا من زاوية الصلة بين المس الروحى وهذا السلوك •

وهذا موضوع يتحتم أن يناقشه وأن يتعرض له كل باحث جاد فى موضوع الظاهرة الاجرامية • وفيه يقول ويكلاند (نقلا عن نفس الترجمة العربية بمعرفة صديقنا الأستاذ الدكتور على راضى) :

ان العادات والرغبات والميول تثبت جذورها فى العقل وتظل مصاحبة للشخص بعد أن يفقد جسمه الأرضى الى أن يعتزم هو التخلص منها • وأرواح كثير من المجرمين والقتلة ، الذين أعدموا والذين يبحثون عن الأخذ بالثأر يظلون فى جو الأرض الى أزمان غير معلومة وتحاول عندئذ أن تباشر نفس أعمالها الأولى وتستمر فى مخططاتها الشريرة وذلك بالهيمنة على أجساد أناس آخرين حساسين لتأثيراتهم •

وسوف تبين الاستقصاءات فى كثير من حالات القتل العنيفة أن الجرائم قد ارتكبها أشخاص أبرياء حينما هيمنت عليهم أرواح غير متجسدة تمكنت من الاستحواذ التام على القاتل •

ان حادث قتل ستانفورد هوايت على يد هارى ك• ثو فى حديقة سطح فى ميدان ماديسون فى نيويورك فى سنة ١٩٠٦ نتيجة لتأثير روحى حقيقة لا يتطرق اليها الا القليل من الريب • كان هارى ثو وسيطا روحيا وبرهن على تلك الحقيقة طوال حياته ، ومهما كان هناك من آسى شخصى قاساه بعد أن قتل ستانفورد هوايت الا أنه بدون أدنى شك كان واقعا تحت استحواذ أرواح محبة للانتقام أرادت ايقاع الأذى جزاء على ما حدث لها ، أو لأقاربها من ظلم حقيقى أو تصورى •

ولم يكن هارى ثو فى الحقيقة ســوى الشخص الروحى والآلة الفيزيقية التى نفذ بواسطتها أحد سكان العالم غير المنظور مأساة فظيعة ، وكان ممثلوه أرواحا جهلة محبة للأخذ بالثأر .

فى يوم ١٥ يوليو سنة ١٩٠٦ أى بعد حدوث المأساة بعــدة أسابيع جاءت روح غريبة وهيمنت على السيدة ويكلاند أثناء الجلسة فسقطت على الأرض . ووضعت هيكل زوجتى على كرسى ثم بدأت أســأل الروح المهيمن . واعترض هذا الغريب بشدة على أية لمسة له ، وطلب فى عنف أن يترك وشأنه ثم صاح :

— جرسون . أحضر لى شرابا .

— أى نوع من الشراب تريد ؟

— ويسكى بالصودا وبسرعة ...

— من أنت ؟

— ليس هذا من اختصاصك .

— أين تظن أنت الآن ؟

— فى ميدان ماديسون بالطبع .

— ما اسمك ؟ ...

— ستانفورد هوايت (يمســك ببطنه وصــدره) هل أحضر لى الجرسون هذا الويسكى بالصودا ؟ (ينظر الى روح آخر بخوف) .

— هل ترى أمواتا ؟ ...

— هم ورائى (وجرى الى ركن الغرفة يحاول الهروب وكانت قفزته قوية لدرجة أنه فقد هيمنته على الوسيطة) . وعندئذ جاء روح آخــر ليلبسها وابتدأ يقــول :

— لقد قتلت الكلب . ها هو يرقد هناك (يشــير بيده الى حيث يرقد هوايت) ظللت أحاول قتل هذا الكلب عدة سنوات ونجحت فى آخر الأمر . (أجلس الروح وعرفت منه أن اسمه جونسون ، استمر يقول) :

لقد قتلت هوايت • انه يستحق القتل • لقد عبث كثيرا مع بناتنا • انهم يسرقون أطفالنا ويضعون عليهن ملابس جميلة ولا يعرف الآباء بعدئذ عنهن شيئا • (سألته اذا كان يعرف أنه ميت ولكنه قال) :

ــ كيف يتكلم الميت • لقد قال الطبيب أنى سوف أموت ولكنى لم أمت • لم أشعر بأحسن من هذا فى حياتى •

قلت له ليتحسس يديه وملابسه وطلب منا افهامه كيف أنه وهو رجل قد استحوذ على جسم امرأة وبعد جدل طويل اقتنع الروح المختلط عليه بحقيقة انتقاله فغادرنا وهو مبهوت تماما • ثم تلاه روح ثالث ولكنه كان عالما بأنه فى الروح يستخدم جسما مستعارا وبدأ يقول :

ــ انقذ ولدى • أنا أب هارى ثو • انه ليس مذنبا ولن يعدم ••• (ثبت بعد ذلك أن هذا صحيح) انه كان حساسا للتأثر الروحى طوال حياته وكم صبرنا على حالته هذه حتى لا يصيبه الجنون • ولكننا نرى غلطتنا الآن •

وأنا لم أفهم أفعال هارى الغريبة عندما كنت فى الدنيا أما الآن وأنا فى عالم الروح أعرف أن هارى كان طول عمره آلة فى أيدى أرواح أنانية مرتبطة بالأرض •

لقد كان ممسوسا بالأرواح عندما قتل هوايت • لقد حاولت أن أصل الى العالم الخارجى لأخبر الناس أن هارى ليس مجرما بل هو حساس للأرواح • انقذ ولدى • انقذ ولدى •

ــ ماذا تود أن نعمله ؟

ــ أرجو أن تكتب الى زوجتى والى محامى مستر الكوت (تأكدنا من صحة هذه البيانات فيما بعد) اخبرهم عن جلساتك وما قلته لك كى يعلموا عن حالة هارى • (أخبرناه أننا سوف نعمل ذلك وانصرف الروح) •

* * *

فى المساء التالى جاء روح آخر وكأنه كان يبحث عن شخص ما :

ـ أين ذهب الشخص الآخر (ثم أخـذ يسب فى الطبقات الراقية والفتيات الصغيرات بالخصوص لبلاهتهن) :

ان الأغنياء يأخذون بناتنا الى جحورهم ، ثم يضعوهن على المسرح وعندئذ يخن آباءهن • انهن يستحققن اللعنة (من شدة انفعاله قفز خارج جسد الوسيطة واختفى قبل أن نحصل منه على أية بيانات أخرى) •

وفى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٧ عاد روح مستر ثو وقال من جـديد ان هارى كان ذا حساسية روحية وقد تعرض كثيرا لتأثير أرواح سيئة التصرف• وقرر بأن الانسانية فى حاجة ملحة للبحث فى موضـوع التأثير الروحى وقال أن الفهم الصحيح سوف يمنع التعاسة التى لا يمكن وصفهـا التى تحدث لكلا الأرواح ولضحاياهم من البشر السيئى الحظ •

ويتضح أن ريتشارد ايفانز الذى شنق لقتله السيدة بيسى هولستر فى شيكاغو سـنة ١٩٠٦ كان ضـحية لتأثيرات خارجية مما دفع رجال الأمن وخبراء الجريمة وعلم النفس الى اعتقادهم بأن ايفانز كان بريئـا ، وأنه أعترف بالجرم تحت تأثير ايحاء بالتنويم المغناطيسى قام به تجاهه شخص مجهـول •

وكان ايفانز يعترف بذنبه بطريقة آخرى فيقول وهو يحملق بطريقة غريبة كأنه فى غيبوبة بأن رجلا ضخما اضطره ليرتكب الفعلة ـ ثم ينفى هذا مرة أخرى بشدة •

ولقد كتب هوجو منستربرج أستاذ علم النفس فى جامعة هافارد فى يونيو سنة ١٩٠٦ فقال :

« انها حالة هامة وواضحة للانفصال والايحاء الذاتى لقـد أحرقت الساحرات فى القرن السابع عشر بسبب اعترافات مماثلة • ولم يتقـدم كثيرا الفهم العام للشرود الذهنى منذ ذلك الوقت » •

وكتب الفيلسوف وليم جيمس من جامعة هارفارد يقول : « سواء كان ايفانز مذنبا أم لا فلابد أنه كان فى حالة شخصية منفصلة .. انه لم يكن هو « نفسه الطبيعية » أثناء تلك الأيام الأولى الحاسمة . ولكن ضحية احدى تلك التبدلات النادرة للشخصية سواء كانت ايحائية أم عابرة ، والتى من المعروف جيدا أنها تحدث للأشخاص الذين لهم قابلية لذلك » .

* * *

ونحن نقدم هنا ملخصا لهذه القصة المحزنة :

جلسة ٧ مارس سنة ١٩٠٧

الروح ريتشارد ايفانز ـ الوسيطة السيدة ويكلاند

عندما هيمن الروح على الوسيطة سقطت هذه على الأرض بدون حراك وبعد نصف ساعة من المجهود الجبار أمكن ارجاع الروح الى عقله وقال :

الروح : أتركونى وحدى . هل تريدون شنقى ثانية ؟

الدكتور : ماذا فى رقبتك ؟

الروح : انها مكسورة ، شنقونى وها أنا ميت . أريد أن أبقى ميتا . اذا أحييتمونى فانهم سوف يشنقوننى ثانية .

الدكتور : ما اسمك ؟

الروح : ريتشارد ايفانز .

الدكتور : هل اتهموك بقتل السيدة هوليستر ؟

الروح : لا أعلم ولكن آخرون يقولون ذلك .

الدكتور : لماذا تعترف أحيانا وأحيانا أخرى تنكر ؟

الروح : أعترف أحيانا لأن هذه الأرواح الثلاثة تضطرنى . لقد وقف ذلك الرجل الكبير فوقى ومعه سكين مهددا اياى بالقتل اذا لم أعترف بالقتل . ولما كان الرجل غير موجود قلت لهم أننى لا أعرف اذا كنت قد قتلت السيدة أم لا . قلت ذلك للبوليس وللسجان ولكل انسان سألنى ولكنهم لم يصدقونى عندما أخبرتهم بالحقيقة . (يصرخ) ألا ترون ذلك الرجل الكبير ثانية ومعه السكين والرجلان القصيران .. أوه .. (يمسك ركبته) يا ركبتى . لقد ضربنى بالسكين فى ركبتى وفى الرجل الأخرى . ساقى . ساقى . انه الشيطان . لقد طعننى . (ثم فهم الروح أخيرا ان هؤلاء كانوا أرواحا وانه ليس ذا جسم مادى ولن يحدث له ضرر منهم . وسئل هل يرى أرواحا أخرى غير أعدائه) :

ـ نعم هناك بعض الأصدقاء وها هى السيدة هوليستر .

الدكتور : اسأل الرجل الكبير لماذا يريد أن يقتل السيدة .

الروح : يقول لأنه يكره النساء (ثم توقف مذعورا كأنه يرى حادثا فظيعا) لقد أخذوا هؤلاء الشياطين بعد عراك عنيف . (يهدىء من روعه) أشعر الآن بتحسن . أنا سعيد بعد ذهاب هذا الرجل الفظيع . (وعندما سئل عن قصة تلك المرأة قال) :

عندما رأيت هذه المرأة فى ذلك المساء رأيت هذا الرجل الكبير أيضا وشعرت بشىء عجيب فى رأسى . لقد أخذت من رقبتى وشعرت أنى لست فى وعيى . وعندما صحوت ثانية قال لى هذا الرجل أننى قد قتلت هذه المرأة . لقد عرفت الرجل لمدة شهر ولكنى لم أكن أعرف أنه روح . لقد كان يهددنى منذ ذلك الوقت .

لماذا لم يعطونى فرصة لأعيش حتى ولو فى السجن . يا للعار الذى جلبته على أسرتى . لو كانت أمى المسكينة تعرف الحقيقة . لو كنت أتمكن فقط من التكلم معها .. أنا لا أعلم ما اذا كنت قد عملت هذه الجريمة . لماذا قتلونى ؟

وعندما شرحت له أن الحياة تستمر بعد الموت قال :

الروح : اذا لم يكونوا قد قتلونى فهل السيدة مازالت حية ؟

الدكتور : بالتأكيد . لقد جاءت هنا لتصفح عنك . ولو أنك حطمت جسمها الفيزيقى الا أنك لست مسئولا . لقد استخدمتك الأرواح المجرمة التى نومتك مغناطيسيا .

عندئذ أخذته الأرواح المتقدمة التى أخبرتنا أن الرجل وعصابته كانوا يتبعون فى حياتهم عصابة « هوايت كابس » التى كانت تمارس نشاطها فى آمريكا وانجلترا بالتمثيل بالنساء وتقتيلهن فى قسوة اجرامية — وبعد عدة أشهر أحضرت روح « الرجل الكبير » الى دائرتنا .

* * *

جلسة ٦ يونيو سنة ١٩٠٧

الروح شارل المقاتل — الوسيطة السيدة ويكلاند

كان الروح ثملا وعندما أوقظ تمرد حتى احتجنا لعدد من الأشخاص لاعادة الهدوء اليه وابتدأ يقول :

— « أنا شارل المقاتل وسوف أقتلكم جميعا » . (نظر الى بعض الأرواح غير المنظورة وأخذ يلعنها بسبب احضارها له هنا ، وأمرها بأن تساعده بدلا من وقوفها كسولة هكذا) .

نوقش هذا الروح ثم أفهم مركزه ولما طلب منه رؤية يديه قال مفزوعا :

— خذ هذه اليد بعيدا . خذها لا أريد أن أراها ثانية .

ولما سئل عن السبب قال : لن أقول ، أفضل الموت . آه ان وجهها هنا أيضا واليد التى قطعتها لأحصل على الماسة . لقد طاردتنى هذه جميعا هذه المرة ...

نظر وتراءى له جمع غفير فقال :

ـ أنظر الى هذه الوجوه . هل قتلت هؤلاء الناس جميعا . هل جاءوا ليتهمونى هناك ؟! ابنى : لقد شنق مرة ولكن يظهر أنه جاء ورائى أيضا . (ايفانز) . لقد قتلت المرأة ولكنى جعلته يعترف لينقذ رقبتى . ولكن أنظر أيهـا الشيطان . أنت سوف آقيّدك عندما أخرج من هـذا سوف أقطعكم جميعا .

ولكنه أدرك أخيرا مركزه . وتكلم عن تاريخه فى الاجرام والقتل والأخذ بالثار وكيف سرق ليشرب الويسكى ولكى يخفت ضميره ويهرب من العيون التى تطارده .

ثم قال أنه بعد موت أمه عاملته زوجة أبيه بقسوة فكان يهرب باكيا الى غرفته ويركع مصليا لكى تساعده آمه المتوفاه . وهكذا وضع زوجة أبيه فى مركز الغيرة بالرغم من نصح أبيه الضعيف الشخصية . وأخذت تضربه حتى لا يذكر اسم أمه مرة أخرى . وهذا الحقد والوحشية التى لقيها منهـا أوجدا فيه عقدة نفسـية جعلته ينوى عندما يكبر آن يضر ويقتل كل من بمكنه من نساء ...

وكانت حياته على هذا النمط مؤامرات وجرائم تتعلق بالنساء خصوصا . ومات فى سنة ١٨٧٠ فى عراك مع رفاقه ولم يدرك أنه فقد جسمه الأرضى وقال أنه اشترك ثانية فى جرائم ضلل فيها البوليس ، وها هو يقول :

ـ « فى بوسطن حاولت أن أقتل رجل البوليس ولمـا جريت خلفه وضربته على رأسـه بالعصا غاصت العصا فيـه ولم يحـدث له ضرر ، ولم يلتفت » ...

وظن أنه فى يد السلطات وأراد أن يسلم نفسه حتى تختفى وجوه ضحاياه من أمامه . وبعدئذ رأى أمه فخارت قوة الاجرام فيه وقال :

ـ لا يمكننى المجىء معك يا أمى العزيزة . يجب أن تذهبى للسماء وأذهب أنا الى الجحيم التى أستحقهـا . يجب أن أقطع وأحـرق فى لهيبهـا .

ولكن الحب الأبوى سما على ذلك وذهب معها فى خشوع وطاعة .

* * *

حدث فى سنة ١٨٩٤ أن هارى هيوارد وهو وجيه فاسق عرف بالضعف أمام النساء الجميلات وبأنه يحيا حياة بذخ ، استأجر مجرما ليقتل خطيبته فى مينوسوتا ثم شنق .

وظل محتفظا فى سجنه لآخر لحظة برباطة جأشه يلعب الورق مع حارسه ويطلب الآيس كريم ، وهى طبقه المفضل ، كلما سنحت له الفرصة . وكان يقول للحارس :

— «عندما تأتى الى جهنم حيث أنا ذاهب سوف أقدم لك الآيس كريم» .

فى تلك المدة أرسلت اليه بعض الأوراق والكتب الروحية ولكن لم تكن لى به أية علاقة .

وفى ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٨ طلبت منى ممرضة أن تعالج مريضة اسمها السيدة « م. س. ا » كان لديها حالات مس . وكانت الممرضة ذات حساسية روحية أيضا ورأت أن مريضتها ممسوسة وكانت تحاول طرد الأرواح الماسة عنها .

وفى ذات يوم أرادت السيدة « م. س. ا » أن تعمل آيس كريم منزليا ولقد كانت لا تهتم به فى العادة قبل ذلك . ولما دخلت الممرضة الغرفة شعرت أن شخصا دفعها وخنقها وأخرجها من الغرفة . وبعد أن أفاقت عادت وهى مدركة وجود روح ففتحت نافذة وأمرت أى مخلوق غريب أن يغادر الغرفة .

هذه الممرضة وخادمة المريضة حضرتا ذلك المساء فى جلستنا ، وشكا الروح المهيمن فى الحال من ألم فى الرقبة اثر شنقه وقال أن اسمه هارى هيوارد . وقال :

ـــ « ألا تعطونى بعض الآيس كريم ؟ لقد حاولت كثيرا اليوم ولكنى لم أذقه . ولقد طاردتنى امرأة قذفت بى من النافذة » ولمـا سئل كيف علم عن العالم الروحى قال أنه قرأ بعض الأوراق الروحية وهو فى السجن أرسلها له شخص مجهول وقال ان الحارس لم يمت . ولمـا فهم مركزه بالنقاش ذهب الى العالم الروحى . وبدأ التحسن على المريضة العاجزة . وبعد عدة مراسلات تبين صدق كلام الروح من أن الحارس لم يمت وأنه كان فى وقت كلامنا مع الروح يلعب الورق مع ابنه فى منزله .

وبعد عشر سنوات ، وبعد أن جاء روح قاتل آخر الى دائرتنا ، عاد هيوارد ثانية ليقص شيئا عن حياته الأرضية .

* * *

جلسة ٢١ سبتمبر ١٩١٨

الروح : هارى هيوارد ـــ الوسيطة السيدة ويكلاند

الروح : منذ جئت الى العالم الروحى وأنا أريد أن أذهب الى كل شارع وناصية لأنادى على الأمهــات لئلا يربين أطفالهن على الطريقــة الخــاطئة .

ليت أمى قالت لى لا ، بدلا من عبــادتى واعطائى كــل نقودها . لو كانت عاقبتنى عندما كنت أرتكب الحماقات لكنت شيئا آخر الآن . لم أكن لأشنق لو كانت علمتنى كيف أخدم الآخرين وأحبهم كما أحب نفسى .

لقد عشت حياة رياضية أكثر من اللازم . لم يعلمنى أحد شــيئا آخر . قضيت وقتا مرحا . كنت أحب الفتيات ، وجاء وقت كنت أصرف فيه أكثر مما يعطينى والدى . كان أبواى ثريين ، فبدا لى العمل مشينا ، وبدأت القمار وقابلت امرأة أحببتها . لقد كانت الفتيات دائمــا يملن الى ونلت منهن كل ما أبغى . أحببت السيدة الصــغيرة وأحبتنى وعزمنا على أن نؤمن على حياتنا بمبلغ ١٠٫٠٠٠ دولار لصــالحى وقدرت أنه

لو قتلها أحد فسوف أحصل على المبلغ ولن يكون على أى اتهام ، ولذلك أجرت رجلا . وفى الوقت الذى وقعت فيه الجريمة كنت أنا مصاحبا لفتاة أخرى فى المسرح حتى لا توجه الى الشبهات .

أخذها الرجل الى الغابة وقتلها وعاد . ولكنى كنت مجنونا فذهبت الى شركة التأمين بعد الوفاة مباشرة فشكوا فى وقبضوا على . ليتنى انتظرت أسبوعا أو أسبوعين ... قبضوا على ولما كانت أمى تحبنى فقد أخذت تلوم أخى الثانى .

وعندما كنت فى السجن جاءنى كتيب صغير يحوى بعض المعلومات عن العالم الروحى . وعلمت أنى ذاهب الى هناك . فانهمكت فى قراءة الكتيب واقتنعت بما ورد فيه .

وتكلمت بشأنه مع الحارس ولكن لما حان موعدى بدأت أتراجع . انه الاحساس عجيب أن تعرف أن عمرك قد وصل الى نهايته ، ولكن الرسالة أعطتنى بعض الشجاعة وقلت لنفسى ربما جسمى فقط هو الذى سيتلف وليست روحى . ولآخر لحظة كنت شجاعا وقلت فلأشاهد نتيجة هذه التجربة . كم أشكر ذلك الذى أعطانى الكتيب فى أواخر أيامى . لقد كانت نقطة مضيئة فى تاريخ حياتى .

وعندما تحققت أنى خرجت من جسدى كانت أول فكرة لدى هى « أنا لست ميتا » . ذهبت الى أمى وتكلمت معها وشعرت هى بوجودى . كنت متعلقا بجسدى بعض الشيء وظننت أنى لن أفارقه . خرجت منه بسرعة ولكنى عدت اليه ثانية . وعندما حرق الجسد كنت أشاهده . وبعدئذ أخذت أسير ولكنى لم أعرف أين يوجد العالم الروحى . لقد ظل شعورى كما هو بالنساء الجميلات . وأخذت ألاحظ أننى ميت ولو أننى لم أتأكد .

أردت ذات مرة أن أسافر بالقطار . ذهبت الى بائع التذاكر ولكن

لم يكن معى نقود • وقلت ربما أتكلم معه بلباقة فيعطينى واحدة ، لكنه لم يلق الى أى انتباه • فذهبت الى القطار وجلست فى أحد المقاعد • وكم كانت دهشتى عندما وجدت رجلا سمينا يجلس على ركبتى • جننت حقاء أردت أن أتخلص منه ولكن بدون جدوى فقـد ظل كذلك حتى غادر القطـار •

لم أتعلم كيف أفكر وانما تعلمت كيف أمشى • لم أتعلم أنه لوفكرت فى مكان ما أجد نفسى هناك • ثم جئت الى السيدة الجميله (السيدة«ا») وأحببتها • وفى الحال أصبحت فى هالتها المغناطيسـية ولم أعرف كيف أتركها • أرادت أن تكون فى الفراش دائما وكنت أنا كذلك •

وفى مرة سمعت واحدا يقول « يجب أن تترك هذه السيدة » • لقد كنت مغرما بالآيس كريم فأوحيت الى السيدة بشرائه ولما أحضرته أردته لنفسى • ويظهر أنى احتككت بالسيدة التى تحمله ، وظننت أنى لو تملكتها لحصلت على الآيس كريم •

وفى الحال أصبحت أنا نفسى سيدة عندما أردت أن أحصـل على الآيس كريم • وشعرت بنفس شعورى عندما كنت معلقا ، ولكن السـيدة التى كانت تحمل الآيس كريم كانت قوية لدرجة أنها قذفت بى ، جسديا، الى النافذة •••

أنى لأشكرك على مساعدتى لفهم حقائق العالم الروحى• ان لى منزلا صغيرا هناك • عمل هناك لم يتم بعد • سوف أسـتمر فى مساعدة الذين يحتاجون الى المساعدة • أنعم مساء •••

كان « قاتل مخزن السيارات » فى شيكاغو مجرما من نوع آخر ، فريسة البيئة • وقد أحضر الى دائرتنا بعد فترة من اعدامه عندما أخـذ يلاحق بنتا كانت فيما مضىجارة للعائلة ،وقد جاءت لزيارة السيدةويكلاند• ولقد عاد عدة مرات بعـد ذلك ليدلى بقصـته وليحضر أرواحا مرتبطة بالأرض ذات تجارب مماثلة حتى تصل الى وعيها •

جلسة ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٨

الروح : بيت نيدمير ـ الوسيطة السيدة ويكلاند

الروح : أريد المجىء هذه الليلة لأخبركم بأنى أيضا واحد ممن يتشكرون جدا لكم ولو أنكم قد لا تهتمون بحضورى أو بعدم حضورى مرة أخرى • ولكنى أعلم أنكم ساعدتمونى لأشعر بشىء من السعادة التى لم أكن أتصور أبدأ أنى سألقاها •

أنا لم أكن سوى وحش كاسر فى الحياة الأرضية ولا زلت أقول أنكم اذ لم تعطوا الأطفال التدريب الصحيح فكيف تتوقعون أن يكون لكم رجال طيبون ؟ وأنا لم ألق أى تدريب بالمرة وكانت أمى فظة جدا • ولم تعن بمستقبل أطفالها • وكانت فكرتها « دعهم يعنون بأنفسهم » •

وسرت فى طريق الرذيلة منذ كنت ولدا صغيرا الى أن أصبحت لا أطيق الحياة أطول من ذلك سواء أردت أم لم أرد •

وسوف أخبركم اذا كان لديكم أطفال أن تفهموهم وهم فى سن مبكر ، انهم اذا أخذوا شيئا من شخص يعيدوه ثانية الى حيث أخذوه • لا تدعوهم يتصورون انكم سوف تأخذونه منهم وتظنون ان الفعل لاغبار عليه • اذا ما سرقوا مرة فسوف يسرقون ثانية اذا لم ينالوا التعليم الصحيح •

وعندما سرقت ظنت أمى أنى ولد بارع • وعلى هذا تدرجت من سىء الى أسوأ • كنت ضمن عصابة مكونة من حوالى اثنى عشر ولدا••• وانغمسنا فى كل أنواع السرقات ، وكلما زاد انغماسنا كلما زاد حبنا للعمل • وفى النهاية أخذنا نقبض على الناس ونقتلهم ـ وكانت النتيجة أن قبض علينا وشنقنا •

انا نيدرمير وها أنذا • ولقد أحضرونى الى هذه الدائرة من خلال البنت جارتنا • لقد كنت أحب هذه البنت كثيرا جدا • وفى أحد الأيام خرجت من المنزل وظننت أنى سوف أذهب معهـا • لم أكن أدرك أنى قد مت • لقد ذهبت الى المنزل ومكثت هناك فترة طويلة ولكنى لم أكن أعرف أنى كنت ميتا •

وكانت أمى امرأة غريبة • ولما جئت الى عالم الروح أدركت أنها كانت ممسوسة ولم يكن أحد يقدر عليها • كان أبى وأخى طيبين جـدا أما أنا وأمى فقد كنا ملعونين •••

كانت البنت جارتنـا طيبة وحاولت أن تخدمنى بقـدر امكانهـا • وفى اليوم الذى تتبعتها فيه جاءت الى منزل هذا الرجل (الدكتور ويكلاند) ودخلت فى غرفة صغيرة وتكلمت مع الوسيطة التى أتكلم من خلالها الآن • ورأيت فى ذلك اليوم أشـياء لم أرها أبدا من قبل ولم أعرف معناها • ويبدو أن أحدهم عمل على ابقائى هناك فلم أستطع الافلات •

وقبل أن أدرك أنى أجلس فى اجتماع صـغير سمعت غناء وقبل أن أتأكد منه وجدت نفسى ممتلئا بالحياة ثانية • كان فى استطاعتى الكلام ولم أشعر بأى ألم فى رقبتى ثانية • وبدأت أتعجب فيما قد حدث لى •••

ولم أكن من ذلك النوع الذى يمكنه السير فى ذلك الطريق المستقيم لأنى شعرت بأن ذلك شىء فى منتهى السهولة • ولم أستطع أن أعتقد فى قدرتنا على الوصول الى السماء بدون أى مجهود من جانبنا • كنت أعلم أنى سىء ومع ذلك كانت أشعر بأن على أن أفعل شيئا لأحاول أن أصبح طيبا وأفعل خيرا عوضا عما سبق منى — وبدت تلك الفكرة أكثر معقولية من فكرة القفز من حالتى السيئة الى السماء مباشرة •

لقد كلمتمونى عن فلسفة الله بطريقة لم أسمع بمثلها من قبل قط • وهذه حركت مشاعرى • وآمل أن يتكلم واحد بهذه الطريقة الى زملائى الذين هم فى نفس الظروف التى كنت أنا فيها ، انها سوف تمس قلوبهم ••

ولقد بدأت معاركى منذ جئت الى هـــذه الدائرة الصغيرة فى أول مرة . ونلت منها المساعدة ــ لقد مر على أول ظهور لى هنا عدة سنوات.

وأود أن أقول لكم ماذا كان على أن أفعله بعد انتقال أمى . حاولت المرة بعد الأخرى أن أجعلها تفهم الحقيقة ولكنها لم تنصت لى،وآمل يوما ما أن أتمكن من رفعها الى حالة أعلى ....

وعندما انتقلت من جسمى قلتم لى بأن على أن أبحث عن أرواح أصدقاء ليساعدونى وأن أول درس لى أننى يجب أن أضع نفسى فى خدمة الآخرين ــ ولقد مررت بوقت عصيب جدا .

أول ما لزمنى عمله هو التغلب على نفسى وأنانيتها . وانه لفى غاية الصعوبة أن تتغلب على الأنانية وأنت لم تفكر فى شىء من قبل ســوى نفســـك .

علينا أن تتغلب عليها بأن نقدم على عمل أى شىء فى عالم الروح . وأحسن طريقة هى أن توجد فى غرفة مظلمة أو ما نسميها بالزنزانة حيث لا نرى سوى أنفسنا وأعمالنا فى المــاضى . فسوف تتراكم هذه الأعمال واحدا بعد الآخر فيها . والطيب منها قليل العدد حقا فلا يكاد يحسب . واذا ما رأينا عملا طيبا فانه يبدو نابعا من شخص آخر . وعلينا أن نظل هناك حتى تتفتح عيوننا وقلوبنا ــ ولمــا نحاول التغلب على عاداتنا السيئة ونبدأ الحياة من أجل الآخرين نكون قد خرجنا من حالة الأنانية .

كم كان قلبى مثقلا ولكن أخيرا صرخت « ليست ارادتى بعد الآن ولكنها ارادتك أنت » ...

وأول مايجب عمله هو مساعدة الذين هم أسفل سافلين ممن نقابلهم. وكنت أشعر أن لا رغبة لى فى مساعدة هذا أو ذاك ولكن كان على أن أفعل . كان على أن أتعلم الصبر ــ واذا استطعنا أن نخدم بدون تململ ونفعل ذلك من أجل محبتنا لاخواننا البشر فلن يبدو ذلك شــيئا كبير الصعوبة .

وعلى هــذا فقد سرت وسرت ، من شيء الى آخر وأنا أتعلم دائما ومن خلال التعليم وضــعت قدمّى فى حالة أكثر جمالا ، ونحن نتقــدم أطوارا فى عالم الروح ومن خلال التعليم فقط ،

وأريد أن أشكركم هذه الليلة على المســاعدة التى قدمتوها الى ، ان لى منزلا جميلا فى عالم الروح الآن ، وأنا سعيد ولو أن عملى لم يتم بعد ، ان عملى هو مساعدة المحتاج الى المساعدة ومحاولة التأثير على الأولاد فى الأرض حتى لا ينفذوا الأعمال السيئة التى يخططون لها ولكى يكونوا طيبين محسنين الى اخوانهم ، عموا مساء ،

* * *

جلسة ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٢

عودة الروح بيت نيدمير ــ الوسيطة السيدة ويكلاند

الروح : أحببت أن آتى هــذه الليلة لأقول بضــع كلمات ، أود أن أشكركم على مساعدتكم للتوجيه الىحياة أرقى ، لقد هبطت وهبطت ولم يكن لدى سوى الحقد والأفكار الأنانية ، لقد هبطت الى أبعــد ما استطعت ، وكانت أمى ممسوسة ، وكان لها تأثير كبير على ، كانت شغوفة بالدنيا وجعلتنى أفعل أشياء مع الجيران لم أكن أفعلها أبدا وكان أبى وأخى طيبين وكانا معروفين بذلك ،

أنا بيت نيدمير ، أحب أن أشــكركم على مساعدتكم لى ، والآن أحب أن أطلب منكم ارســال الأفكار الى أمى ، لقــد انتقلت ولكنى لا أستطيع الوصول اليها ، لقد كانت ممسوسة بواســطة روح شريرة جدا ، وكانت ترسل بأفكار شريرة لى وكنت أنا حساسا لها ،

لقد قمتم بعمل انسانى لى ، لم يقم به أحد آخر أبدا ، وكان الكل يتجنبنى وعندما تكون فى مدينة كبيرة بما فيهــا من مغريات ، ولم تكن تعلمت شيئا عن الأمور الأرقى ، فأنت تجد نفسك مع رفاق الســوء ، تجــد نفسك غارقا فى مسائل رديئــة ، لدرجة انك تظن أن كل ما يعنى

الآخرين فهو يعنيك أيضا بنفس المقدار • ان الحسد والأنانية والجهل ثلاثة أشياء علينا جميعا أن نكافحها • فاذا هي تملكت منك فانها بمثابة الشيطان فيك • انك لتشعر بالحسد على كل انسان يمتلك أكثر مما تمتلك • أنت أنانى • انك لا تريد أن تعطى أى شىء وانما تحتفظ به لنفسك • أنت تريد كل ما يمتلكه الآخرون • وتشعر بأنه لو كان هناك اله لأعطاك فرصة مثلما أعطى الآخرين •

ونشأت فى هذا الجو • كانت أمى أنانية وحقودة ، ولم يحبها أحد من الجيران ولم يكن لها صديق واحد • وكنت أنا مدللها وأستطيع أن أحصل على كل شىء •

وقال لى أبى الا أفعل السوء ولكن أمى لم تهتم بما قاله لى وقالت لى أن أسير قدما وأفعل ما أحب • كنت أخرج وأمكث ليالى فى صحبة اخوان السوء • كونا عصابة ولم أقصد الدخول فى العصابة وانما اضطرنى النادى لعمل ذلك •

أنتم تعرفون أن هؤلاء الأشخاص لهم نواد ، نواد سرية • وعندما تنضم لهم عليك أن تفعل ما يأمرونك به تماما • لأ نك فى قبضة يدهم • واذا حاولت الانسحاب فلن تستطيع ، اذ هم سيطاردونك • هم سيراقبونك وسيتبعك أحدهم طوال الوقت ، وعلى الجدد مباشرة الأعمال القذرة أما الرؤساء فمن النادر أن يقبض عليهم •

هناك مدرسة يتدرب فيها المبتدءون الجدد على كيفية القيام بالأعمال السيئة : ويتواجد بعض الرؤساء فى أرقى المجتمعات فى المدن الكبيرة • ويعرفون كيف يمكننا العثور على الأغنياء الذين نسرقهم • ولقد تعجب أحيانا كيف يتسنى لنا الذهاب للعثور على المجوهرات والمال : ان رؤساءنا يعرفون كل شىء عنها • انهم بين المجتمع الراقى طوال الوقت• وان لديهم المال ، وعلى ذلك فلن يكون من اللياقة اتهامهم •

واذا أردت اخبارك بأسماء بعض رؤسائنا فى مجتمع شيكاغو فلن تصدقنى ، ستقول ان هذا هراء • واذا تحدثت عنهم فسوف يطاردونك فى الحال ويقولون أنك أنت الذى سرقت ذلك المنزل : فماذا ستفعل ؟ عليك أن تظل ساكنا •• هذا ما تفعله العصابات السرية فى « العالم الهابط » وأما « العالم الراقى » فيستخدم العالم الهابط اذا ما توافق مع أهدافه • وما نسرقه فى احدى المدن هم يبعثون به الى مدينة أخرى •

انك سوف تجد رؤساءنا فى أرقى مجتمع ولكن لا نجرؤ أن نقول شيئا • واذا انضممت الى ناديهم : والذى سوف أسميه نادى الشياطين : لا يمكنك أن تنطق بشىء : انك فى مخالبهم ورؤساؤنا أسوأ من الشياطين: انهم جد بخلاء • واذا رحنا نقتل فاننا نحن الذين نعانى وهم الذين يحصلون على المال •

لقد جئت الليلة لأشكركم على مساعدتكم لى • لم يقدم لى أحد أبدا يد المساعدة من قبل • وفى حادث مخزن السيارات أنا لم أقتل أى انسان • كنت مع العصابة ولكن الشخص الذى قام بالعملية لم يشنق اذ أنه هرب • ونحن الأربعة شنقنا لأننا كنا هناك • لقد كنت بريئا — وكانت مهمتى هى المراقبة ولكنى لم أقتل • ولقد شنقت من أجل ذلك •

اذا كان لكم تأثير فلا تشنقوا الناس • اتركوا لهم فرصة أخرى فربما تجدونهم أبرياء بعد ذلك • اتركوهم تحت المراقبة • اذا عاقبتموهم فأين هم اذا ؟ ! سوف يظل الحقد فى قلوبهم ويرجعون للأرض ويزيدون الطين بلة • يهيمنون على الناس ويسببون حالات المس • لقد شنقت وقلت لنفسى لو كانت لى حياة أخرى لنزلت لكى أقاتل من أجل ثأرى •

هل تتذكرون تيلى جارتى ؟ انها اعتادت المجىء الى دائرتكم •

لقد تعقبتها يوما ما وبتأثيرها دخلت الى دائرتكم وبذلك تعرفت على الحياة العليا ، لقد كان لتيلى تأثير على دائما ، وكانت أمى تغار منها

وعندما شنقت طار صوابها . وأغلقت جميع النوافذ المطلة على الجيران وأساءت معاملتهم .

ان تيلى كانت ملاكى الحارس وبدائرتكم تغلبت على الحقد وأنا الآن أساعد الغير بواسطة النور الذى أعطيتموه لى . ورسالتى هى مساعدة منكودى الحظ مثل هذا الشخص الذى سبقنى الى المجىء .

انى أحاول أن أوحى للناس لكى يكونوا أكثر عدلا . اذا كانت لديك الفرصة لتشنق شخصا لا تفعل ، ولكن اعطه فرصة أخرى . ليس لك حق القتل . لا يجب أن يقتل واحد شخصا آخر . نحن جميعا أطفال الله . كلنا نخطىء . وعلى القوى أن يساعد الضعيف .

وماذا يبدى القاضى أو المحلفون من رحمة لشخص عندما يقتل ؟ لماذا يقتلونه بدلا من اعطائه فرصة أخرى ؟ لماذا لا يحكمون أفضل على المساكين ؟ لماذا لا يذهبون للمساجين ويعلمونهم عن الحياة الأعلى ويكون لديهم دوائر روحية ويحاولون مساعدتهم ؟

وعند تلغون عقوبة الاعدام لن يكون عندكم حوادث قتل كثيرة . فعندما يشنق الأشخاص يذهبون والغل فى قلوبهم ويريدون الثأر والحقد والقتل . ويؤثرون على الناس ذوى الحساسية ويجعلونهم يقدمون على القتل ....

ان الوقت سيأتى حينما يفهم العالم أن عليه أن يكبح الأنانية . سيكون هناك متاعب جمة قبل حلول ذلك الوقت . سيكون هناك تخريب كثير وبعدئذ تتحسن الأمور .

انى أقوم بعملى فى عالم الروح وأنا أشكركم على جعلى أعى وأصحو . ان لى مقابلات هنا وهناك ، وأبعث ببعض الأفكار الى هؤلاء الذين فى ظلام .

انى أواجه حالة جد صعبة وهى محاولة ايصــال أمى الى الفهم • وكم أود أن ترسلوا جميعا بأفكار طيبة حنونة نحوها لأنها لا تعرف سوى الحقد والأنانية والحسد فى قلبها • كانت منطوية على نفسها حتى أصبحت لا تود الانصات الى أى واحد الآن • ســاعدونى على ايقاظها حتى تعى الظروف الصحيحة للحياة •

أوه • كم أشكركم على مساعدتكم لى • اننى فى قلبى لم أكن قاتلا ، ومع ذلك فقد شنقت لجريمة القتل •

لقد أراد والدى ذهابى الى مدرســة الأحد • ولكن أمى قالت لى ألا أذهب ولكنى ذهبت ولم أجد أى شىء يجذبنى لذا فقد هجرتها •

وأما الآن فأنا أعلم أن الله فى كل مكان وأننى جزء من الله — لقد قضيت وقتا عصيبا للتخلص من الأنانية والحسد والجهل — انها هى جذور الشر • وعندما تنمحى يحل محلها الحب والعطف والمواساة • أفهم معنى الحياة السامية وعندئذ تكون سعيدا • على الجميع أن يصبحوا أخوة وأخوات على الأرض مثلما نحن فى الحياة السامية •

ان أعيننا الحقيقية متفتحة فى عالم الروح • لا يمكنك أن تتقــدم قبل أن تتعلم دروس الحياة • وأنتم تعرفون أن تلميذ المدرسة لا يمكنه دخول الجامعة قبل أن يستوعب الكتب المدرسية • وهو لا بد أن يذهب للحضانة قبل أن يدخل الجامعة لأنه يذهب الى هنالك خطوة بعد خطوة ، هكذا الحال فى عالم الروح •

انه عالم السعادة — لا يمكننا تقديره قبل أن نراه • على كل واحد أن يعرف هذه الأشياء قبل أن يتجه الى أرض الحدود • لايمكننا الذهاب الى عالم الروح قبل أن يكون لدينا فهم عنه • وعنــدما نتوافق مع الله تأتينا السعادة •

انى لا أعرف الكثير ويسكننى قول الكثير لكنى لم أر الا القليل • ولدى عمل كثير قبل أن أتقدم •

ان عالم الروح يشبه ذهابك الى حديقة ورؤيتك لزهرة جميلة هنا وأخرى هناك • ان الأزهار جميعها واقفة معتدلة وتنظر اليك كما لو كانت تريد أن تقول « تفضل خذنى » فهذه لها رائحة خاصة وتلك لها رائحة أخرى ولكن جميعها جميلة وعطرة •

ان عالم الروح شبيه بفراش من الزهر • الكل بديع ومتوافق — أعنى أنه ليست هناك أية أنانية • فواحد يضىء أكثر من الآخر لأن ما لديه هو فهم أكبر — اننا جميعا نذهب الى هناك — وعلينا أن نعمل على تقدم أنفسنا • ولا يجب أن تثبط عزيمة أى شخص • ان كل واحد سيذهب هناك — ولو أن ذلك سيستغرق زمنا •

أشكركم على مساعدتكم لى للوصول الى وعى والى منزل • ولولا ذلك لكنت روحا مرتبطا بالأرض محدثا من الشر أكثر من الخير لأن فى قلبى كراهية •

وانى لسعيد جدا ولكن أريدكم جميعا أن تبعثوا بأفكار طيبة الى أمى • حتى أستطيع أن أوقظها وأساعدها على مقاومة انانيتها وحقدها وجهلها • اعطونى فرصة فقط لكى أوقظها وشكرا لكم جميعا (١) •

استمرار العمل بأسلوب ويكلاند

وقد كان ويكلاند يستعين بزوجته بوصفها وسيطة روحية قوية • وكان الأسلوب المتبع كله من ارشاد أرواحها المرشدة التى أشارت عليهما باستخدام جهاز ويمزهرست Wimshurst لتوليد شحنة من الكهربائية الاستاتيكية (٢) ، تصوب على موضع المس من الضحية •

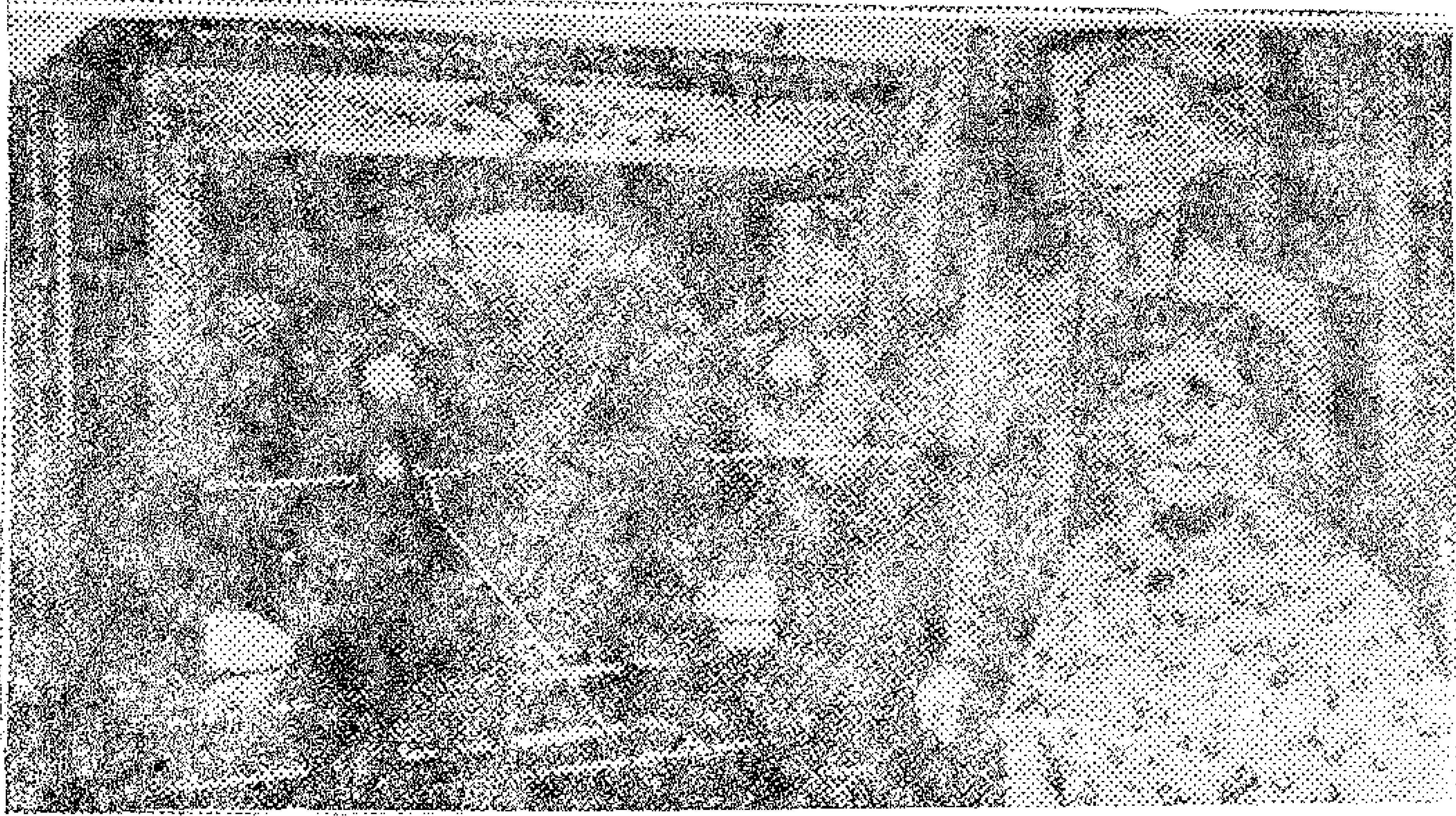
---

(١) عن المرجع السابق . صفحة ١٣٧ — ١٥٧ .

(٢) Static — Electric generator.

والجهاز يحمل اسم مخترعه .

وبعدئذ كانت الأرواح المرشدة فى الجلسة تتولى نقل الروح الماس المهيمنة على وعى الوسيطة • ثم يبدأ الروح الماس فى الحديث مع الموجودين عن ظروف حياته الأرضية ، وبعضها كان لا يشعر أنه قد توفى بعد • وبعد حوار طويل معه يتفاوت فى مدته ، كانت تتمكن الأرواح المرشدة من اقناعه بأن يترك جسم الضحية جانبا ، ولا يعود اليه ثانية ، وبذلك كان يتم الشفاء بعد أن تكون كل السبل العادية المألوفة فى التحليل النفسى ، والصدمات الكهربائية والمسكنات ، قد فشلت فى تحقيق هذا الشفاء ، الذى هو حق طبيعى لكل مريض •



كارل ويكلاند وعقيلته الوسيطة آنا ويكلاند
وبجوارهما جهاز ويمزهرست

وعلل ويكلاند سبب عجز الأرواح الأخرى فى عالم الروح عن علاج هذه الحالات هناك ومنع هذه الأرواح المتأخرة من الاضرار بالغير هنا بقوله أن الأرواح العليا لا يمكنها الاقتراب من هذه الأرواح السفلى وأن لا أمل فى علاجها قبل أن تتصل بالأرض وتفهم ما هو موقفها الحقيقى وتستنير للسير فى الطريق السليم • وقد يقتضى فهمها الحقيقة عدة سنين أو أحقاب بحسب الأحوال •

وقد حذا الكثيرون حذو ويكلاند فى طريقته فى بلاد مختلفة . ومن الدوائر الروحية لطرد الأرواح الماسة دائرة كوربيت حيث تعمل الوسيطة السيدة فيلبس جوف وهى تقتفى طريقة الدكتور ويكلاند .

وقد حضر بعض اختبارات هذه الجمعية المؤلف جيوفرى موراى Geoffrey Murray ووصف ما رآه بنفسه فى كتاب له عنوانه « أمور الحياة والموت »(١) ، وفيه يقول : —

« كان يجلس المريض على بعد حوالى ثلاثة أمتار فى مواجهة الوسيط . ويدير أحد المختصين عجلة آلة ومزهرست فى حين أمسك المريض بأحد طرفيها ووضع الطرف الآخر على مؤخرة رأسه وطلب منه أن يجلس فى استرخاء . وكذلك الوسيط الذى سرعان ما يذهب فى غيبوبة .

بعد سريان الكهرباء فترة قصيرة يشاهد رد الفعل فى الحال اذ يبدأ الوسيط فى اتخاذ شخصية جديدة . يتكلم مثلا لغة أخرى قد لا يعرفها الموجودون . وقد يبدو عليه وكأن قواه العقلية قد اختلت . وهذا من أثر الكهرباء التى ضايقت الروح الماس فأخذ يسب ويلعن بعد هربه من جسم المريض الى جسم الوسيط .

ويرجو المختص هذا الروح الساخط أن يهدأ ويتكلم باللغة الانجليزية فيعلن مثلا أن اسمه موانجا من أواسط آفريقيا ويقول « السحر الأسود ... هذا هو ما أمارسه » فيرد عليه المختص « ان سحرك لا قيمة له مقابل سحرنا الأبيض » فيصيح موانجا « سوف أصب عليكم اللعنة جميعا أيها الشياطين .. سوف أعطى حبة الى ذلك الرجل الواقف عند الآلة » فيرد عليه المختص « اننا لا نخافك . لن تستطيع الاضرار بنا » وأخيرا يهدأ موانجا وينصرف مع أرواح الانقاذ (٢) .

---

(١) Matters of Life & death.

(٢) للمزيد راجع على عبد الجليل راضى فى مؤلفه عن «العلاج الروحى» ١٩٧٥ ص ٢٧٣ وما بعدها . وراجع ما سبق عن العلاج الروحى للأمراض العضوية وعناوين بعض الهيئات والدوائر العلاجية فى جـ ١ ص ٣١٥ — ٣٧٥ .

عن دور جهاز ويمزهرست

وجهاز ويمزهرست الذى كان يساعد كارل ويكلاند فى اختباراته الطويلة عبارة عن جهاز للكهربائية الاستاتيكية لا يضر أحدا ، ولا يحدث ألما . فلا يصح أن يقارن بجهاز الصدمات الكهربائية الذى يلجأ الأطباء النفسيون اليه أحيانا لعلاج بعض الأمراض العصبية .

والكهربائية الاستاتيكية ليست هى التى تطرد الروح الماسة ، وانما تحدث عندها — بحسب تقديرى الخاص — بعض التنبيه . إن الاختبارات الروحية أثبتت بحسب أقوال عدد من كبار الباحثين أن هناك أرواحا تفقد الوعى بمجرد الانفصال عن الجسد المادى ، كما يفقد الوعى الشعورى وسيط الغيبوبة الروحية ، أو وسيط التنويم المغناطيسى عندما يروح فى الغيبوبة .

وفقد الوعى عندئذ قد يطول لآماد طويلة ، وقد يحتاج الى جهد ضخم للتغلب عليه . وقد يكون من أسبابه صدمة الانفصال المباغت عن الجسد المادى ، أو صدمة الخوف من الأبدية ، ومن المصير . ومن المحتمل أحيانا أن يكون هو المس من الروح الماسة بعد أن فقدت وعيها الشعورى . وقد يكون فقدان الوعى الشعورى للروح نتيجة لهذا المس ذاته .

وبعبارة أخرى أنه من المتصور أن يكون فقدان الوعى الشعورى عند الروح الماسة سببا لحالة المس ، وقد يحدث نتيجة لهذا المس ، بسبب الاختلاط الحتمى بين هالة الروح الماسة وهالة ضحيتها . وهذا كله لا يتعارض مع القول بأن السبب الأساسى فى المس هو جهل الروح الماسة أو تخلفها العقلى ، لأن هذا أو ذاك لا يمنع من حدوث فقدان كلى أو جزئى للوعى ، يكون ملازما أحيانا للمس . وهو يشبه — بالنسبة للروح الماسة — الى حد ما ، بالأقل فى مظهره الخارجى ، حالات الغيبوبة الوساطية أو شبه الغيبوبة Semi — trance بالنسبة للوسطاء الروحيين .

وعلى أية حال فيبـــدو أن أول خطوة فى علاج حالة المس فى مثل هذه الصــورة هى محاولة تنبيه الروح المـاسة وايقاظهـا ، كما يحاول الانسان أن يوقظ شخصا نائما بهزه برفق أو بعنف بحسب مدى عمق النوم •

ومع مراعاة أن هذه ليست هى الحالة المـألوفة عند الانسان العادى الذى ينتقـل فى ظروف هادئة ، ويكون على دراية ولو ضـئيلة بمفهوم « الموت » بوصفه محض تغير من حالة الى حالة أخرى أرقى من سابقتها• فعندئذ من السائد القول بحصول اندماج تدريجى للشخص المنتقل بين وعيه الشـعورى (الذى كان معتقـلا قبل الموت داخـل المخ) ووعيه اللاشعورى الذى كان يعمل عن غير طريق المخ •

وبعد تنبيه الروح المـاسة ولو تنبيها جزئيا — بواسـطة جهـاز ومزهرست يبدأ دور الأرواح المعالجة التى لها أساليبها الخاصة عن طريق الاستعانة بطاقة روحية مميزة للوسيطة — وهى هنا السيدة آنا فرينـة الدكتور ويكلاند — لانهاء حالة المس ، التى يبدو أنهـا حالة مركبّة : فهى « فيزيقية » من جانب تداخل « هالة » الضحية بهالة الروح الماسة • وهى عقلية من جانب تداخل ذكريات الروح وآرائها مع عقل الضحية •

ولذا فكثيرا ما نجد فى حالات الهستريا والاسكزوفرانيا أعراضـا مركبة بين عضوية وعقلية • ويبدو أنه عندما يتغلب الجانب « الفيزيقى » فى المس على الجانب العقلى تبرز عند الضحية طائفة من تلك الأعراض التى قد ينسبها التحليل النفسى الى الهستريا ، وعندما يتغلب الجانب العقلى أوالروحى تبرز عند الضحية بالأكثر طائفة من تلك الأعراض التىقد ينسبها التحليل النفسى الى الاسكزوفرانيا أو ازدواج الشخصية •

فالمرض العصبى يكون فى كثير من الحالات مزيجا من أعراض عقلية وعضوية ، مجتمعة معا ، أو متميز بعضها عن البعض الآخر بحسب موقع

المس من جسم الضحية ، ومدى رسوخه أو تغلغله،وشخصية الروح الماسة أى تكوينها الروحى . وهو فى النهاية عبارة عن تداخل بين تكوينين روحيين بصورة قهرية مرضية تختلف تماما عما يحدث فى حالات الغيبوبة الوساطية .

ولعل الأمور تكون أكثر وضوحا للقارى عندما نعالج فى الباب التاسع موضوع اللاشعور بين السيكولوجى والباراسيكولوجى خصوصا فى ضوء آراء يونج ، وبروض ، وجيلى ، وغيرهم .

تلخيص لأهم النتائج التى سجلها تيتوس بول

والنتائج الحاسمة التى أسلفناها والتى سجلها كارل ويكلاند فى أبحاث ثلاثين عاما جاءت لتدعمها ولتؤكد صحتها نتائج أخرى سجلها زميل له فى نفس الحقل الروحى وهو تيتوس بول Titus Bull .

وكان هذا الأخير طبيبا بمدينة نيويورك ، وبدوره عضوا فى أكاديمية العلوم الأمريكية أى « الجمعية الأمريكية لتقدم العلم » وهى أرفع هيئة علمية هناك . كما عمل مديرا « لمؤسسة جيمس هايسلوب James H. Hyslop لعلاج حالات المس بالأساليب الروحية » (١) . وهذا العلاج تعتبره « موسوعة العلم الروحى »(٢) . « واحدا من أهم الانجازات فى البحث الروحى » . وفى تقديرى هو أهمها كلها بلا استثناء .

وسردت بعض تجاربه السيدة هيلين ك لامبرت Helen C. Lambert سكرتيرته الخاصة فى مجلة « العلم الروحى» التىكانت تصدر عن « الكلية البريطانية للعلم الروحى » . ومما ورد فى سردها أن من ضمن الحالات التى تم شفاؤها على يديه حالات لثلاثة مرضى كانوا من قبل نزلاء فى

---

(١) The James Hyslop Foundation for the Treatment of Cases of Obsession.

(٢) Encyclopaedia of Psychic Science.

مؤسسات الأمراض العقليـة ، وكان جنون أحدهم من النوع الهـائج الخطر .

ومن بين هذه الحالات سيدة أودعت من قبل فى خمس مؤسسات للأمراض العقلية ، وتسلمها الدكتور بول بوصفها حالة غير قابلة للشفاء . وبعض الحالات التى عالجها لم تكن حالات مس ، بل فحسب حالات أشخاص كانوا يشعرون أن هناك كائنات غيبيـة تطاردهم وتريد أن تلتصق بهم ، وهى تعكس عليهم انعكاسات شـتى من ذكرياتها الأليمة وأمراضها عندما كانت لا تزال فى الجسد .

والوسيطة هنا هى السيدة ديوك Duke ، وكانت فى مبدأ الأمر مدركة تماما للرسـائل التى كانت ترد عن طريقهـا من هذه الكائنات ، ثم أصبح الاتصال مع تلك الكائنات فيما بعد مباشرا ، وبالتالى أيسر من ذى قبل وأفضل .

ونشر الدكتور بول ملخصا لاختباراته فى كتاب عنوانه « اختبارات فى العلاج الخاص بالعقول المريضة » (١) (١٩٣٢) وذلك بعد مضى عشرين عاما على بدأ اختباراته .

* * *

ويلخص تيتوس بول أهم النتائج التى وصل اليها بعد هذا الأمد من التجريب الطويل قائلا ان الشخصية الماسة ليست مكونة من نفس وعقل وارادة كائن تخلى عن جسده المـادى ، بل هى فى الواقع شخصية مركبة مكونة من عدة كائنات . والكائن المـاس الأصلى ، أى أول كائن قام بغزو المريض، هوفى المعتاد كائن لايملك الا مقاومة ضئيلة للايحاءات الصادرة من الآخرين . ولذا فهو — أو هى — يصبح فريسة سهلة لأولئك الذين يرغبون فى الاقتراب من شخص ما بهذه الطريقة .

Fxperiences in Healing Relative to Diseased Minds. (١)

وهناك أشـخاص قد يولدون بميول تجعل منهم ضحايا لتغيرات عقلية لاحقة فيما بعد • ويوجد تأثير يمكن أن يمارس على عقول بعض الأحفاد بسبب الآراء القادمة من ناحية أجدادهم الراحلين • وبعبـارة أخرى فان هناك أجدادا راحلين قد يحاولون — اذا تمكنوا — من أن يتدخلوا فى حيوات أقاربهم الأحياء • وكلما كانت الأواصر العائلية قوية، كلما بدت هذه الظاهرة واضحة على كلا الجانبين من الحجاب ، ولكنها قد لا تتخذ صورة المس الروحى بالمعنى الصحيح •

واذا ما تدخلت صدمة ما ، أو أى حادث من شأنه أن يقلب الاتزان العصبى لفرد من أفراد أسرة من هـذا النوع ، فان ذلك من شـأنه أن يجعله فى حالة خطـر داهم من أن يصبح ضـحية مس روحى حقيقى • والروح المـاس الأول فى هذه الحالة قد يكون — فيما يبدو — شخصا يزعم لنفسه الحق بحكم رابطة الدم فى أن يفرض على الضحية أن يلتزم بما يعتقده عن خط المثل العليا للأسرة !

ويقول أيضا أن الأرواح المـاسة لها ثلاثة مواضـع هامة للمس : منها بوجه خاص قاعدة المخ ، والمنطقة المحيطة بالجسم من الهالة ، وفى المركز الذى يهيمن على الجهاز التناسلى • وبالتـالى فانه من الجائز أن نفترض أنه لكل منطقة توجد طائفة خاصة من الأرواح المـاسة ، وكل طائفة منها تبدأ المس عن طريق روح ماس أصلى •

وما الذى تبتغيه هذه الأرواح المـاسة ؟ ان هـذا التساؤل يتضمن كل كتلة الانفعالات البشرية •

والكائنات المـاسة الأصلية التى تقوم بالغزو الأول لجسم المريض تصبح بمثابة قنوات آلية للآخرين•وكثيرون منهم كانوا بدورهم ضحايا مس قبل مغادرتهم لعالم المـادة • وآخرون قد يصبحون أرواحا ماسة خلال ألاعيب وحيل غيرهم • لأنهم بسبب جهلهم لمـا لحق بهم (أى بوفاتهم) فانهم يكون لديهم الاستعداد الجاهز للتأثر بغيرهم،بأن يتحولوا للمس ••

وهناك نقطة عامة أخرى ، وهى امكانية حدوث حالات مس تسبب آلاما مفاجئة لاذعة للضحية ، وهى نفس الآلام التى تعرضت لها من قبل الروح الماسة فى حياتها الفيزيقية • فهذه الأرواح الماسة قد احتفظت فى ذاكرتها بآلامها السابقة التى لا تقدر أن تتخلى عنها •

ولذا يقول تيتوس بول انه من الجائز أن نفترض أنه فى بعض الحالات قد تكون الآلام المفاجئة اللاذعة لبعض الأحياء ناجمة من ذكريات الآلام المماثلة التى حاقت بالموتى • وعندئذ تصبح السيطرة على الألم خارج قدرة الطب ، لأنه ناجم عن سيطرة كائن أجنبى مخادع يسبب هذا الألم لغاية فى نفسه(١) •

حالة نموذجية لاستحواذ كامل

ومن أحسن الحالات النموذجية لاستحواذ كامل من روح خضع لتحقيق علمى طويل بمعرفة عدة هيئات حالة « معجزة واتسيكا » Watseka التى ورد عنها فى « موسوعة العلم الروحى » ما يلى :

« معجزة واتسيكا من أبرز حالات الهيمنة المستمرة لروح • وقد فصل الوقائع الدكتور ا • و • ستفنز E. W. Stevens فى كتاب عنوانه

(١) عن تيتوس بول . المرجع السابق .
ومن المراجع الأخرى الهامة فى هذا الموضوع :
C. H. Carson : Obsession.
Peebles : Spirit Obsession.
Morton Prince : A Dissociation of Personality (The Beauchamp Case). New York 1920.
O. K. Oesterreich : Posession — Dominical and other 1930.
W. Franklin Prince : The Doris Case of Multiple personality (Doris Fisher). S. P. R. Vols IX and X
R. D. Laing : The Divided Self (Schysophrenia) 1965.
Nandor Fodor : The Haunted Mind (1960).
N. Fodor & Hereward Carrington : Haunted People.

« معجزة واتسيكا » [١] وموجزها ما يلى : فى سنة ١٨٦٥ توفيت فتـاة تدعى مارى روف Mary Roff من ناحية واتسيكا عقب جنون هائج .

وبعد ثلاثة عشر عاما أصيبت فتاة من نفس الناحية — وهى غريبة عن عائلة روف — بنفس المرض وتدعى لورانسى فينوم Lurancy Vennum وشخص الدكتور سـتفنز حالتها بأنهـا حالة مس obsession ، وقد أكدت المريضة نفسها صحة التشخيص وهى فى حالة تنويم مغناطيسى .

وعندئذ اقترح الدكتور ستيفنز على الفتاة أن تحاول أن تستنجد بروح طيب كيما يهيمن عليها . فأجابت بأن « عدة أرواح ستقبل ذلك ، ومنها واحدة تدعى مارى روف » . وكان موجودا معهم والد مارى روف الذى أقـر الفكرة ، وطلب الى مارى روف أن تهيمـن على لورانسى ، ففعلت . وكان ذلك بتاريخ أول فبراير سنة ١٨٧٨ ، وقـد ظلت مارى مستحوذة على جسد لورانسى لفترة سـتة عشر أسبوعا متواصلا بغير انقطاع تقريبا .

وبمجرد أن تم الاسـتحواذ تصرفت لورانسى كما كانت تتصرف مارى روف حال حياتها ، فلم تعد تعرف أقاربها ، ولمـا توجهت الى منزل مارى روف تعرفت على كل شىء قديم فى المنزل ، كما تعرفت على جميع الأصدقاء القدامى الذين كانت مارى روف تعرفهم منذ ثلاث عشرة سنة سابقة وكشفت عن ملكات فوق عادية لديها ، وأعطت بينات على الجلاء البصرى ، وعلى قدرة التنبؤ ، وتجارب على الطرح الروحى فى الغيبوبة ، ووصفت سياحات كوكبية لها بعد عودة وعيها اليها .

وفى ٢١ مايو سنة ١٨٧٨ استأذنت من والديها فى الانصراف وهى تبكى ، وكذلك استأذنت من جميع أصدقائها ، وبعدئذ راحت فى الغيبوبة وأفاقت بوصفها لورانسى فينوم من جديد . وكانت لورانسى الجـديدة

---

(١) The Watseka Wonder.

قد استردت عافيتها عقليا وجثمانيا ، لكن يبـدو أنها ظلت تحت رعاية ماري روف لفترة أخرى من الزمن وكانت هذه تعود لمـاما عندما تكون الفتاة فى غيبوبة .

وبعد ثلاث سنين ونصف تزوجت لورانسى فينوم ، وعنـدما حان وقت الوضع أوقعتهـا مارى فى غيبوبة لكى تعفيهـا من آلام الولادة . وينبغى أن يضـاف الى ذلك أن مارى روف لم تظهـر لأى انسـان فى واتسيكا الا خلال جسم لورانسى ، بمعنى أنها لم تتجسد أبدا مستقلة عنهـا .

وقام العلامة الدكتور ريتشارد هودجسون Richard Hodgson (١) بتحقيق هذه الحالة بناء على طلب « الجمعية الأمريكية للبحث الروحى » A.S.P.R. واختتم تقريره لها بما يلى :

« ليس عندى شـك فى أن الوقائع حدثت فى جوهرها كما رواها الدكتور ستيفنز ، وبحسب رأيى أن التفسـير الآخر للحالة ــ بجانب التفسير الروحى ــ والذى قدم كبديل له ــ لا يبدو مقبولا ، وهو نفس البديل الذى قدم للنظرية الروحية فى تفسير اتصالات الغيبوبة التى تمت عن طريق السيدة بيبر Piper وفى حالات مشابهة ، وهو القول بوجود شخصية ثانوية ذات ملكات غير عادية .

وانه ليبـدو من الصـعب تأييد هذه الافتراضات فى حالة معجزة واتسيكا بالنظر الى الضآلة النسبية لمـا كتبوه عنها ، والتدفق المحتمل للايحاء فى البيئة المحيطة بها . وأى رأى نصل اليه ينبغى أن نصل اليه ــ الى حد كبير ــ عن طريق ما نقتنع به فى شأن الحالات الأخرى . ورأيى الشخص هو أن معجزة واتسيكا تنتمى فى ظواهرها الأساسـية الى فئة الظواهر الروحية » (٢) .

---

(١) كان أستاذا بجامعة كامبريدج ، ومعنيا بالبحث الروحى ، وعضوا فى « جمعية البحث الروحى » بلندن .

(٢) « موسوعة العلم الروحى » ص ٤٠٤ .

المبحث الثانى

بعض مشكلات المس والاستحواذ

ماذا عن التعليل ؟

سـئل الروح المراسل الذى يرمز لنفسـه باسـم « هوايت راى » (الشعاع الأبيض) لمـاذا يصاب بعض الناس فى عقولهم ؟ فأجاب قائلاـ « يرجع ذلك أحيانا على أرضكم الى عامل الوراثة من الآباء ، وأحيـانا أخرى يرجع الى أمراض مختلفة ، أو الى اصابات فى المخ ، ومن ناحية أخرى ، فهناك الأفراد الموهوبون بموهبة وساطية بدرجة عالية ، ولكنهم لا ينمونها اما لجهلهم بالطريقة اللازمة لذلك ، واما لاهمالهم اياها ، ولذا لا يتيحون لحلفائهم من المناطق العليا الفرصة لأن يحصنوا لهم ذلك الباب المفتوح الذى يتمثل فى المواهب الوساطية ، فيصـابون بالمس من روح شريرة .

وهذه الحالات جميعها لايمكننا أن نقول انها تحل بالانسان كعقاب له . بل أنها تأتى كرد فعل أوكنتيجة لعملكم، أولتصرفكم ، أولتخطيطكم . والحالات الناجمة عن الوراثة لا تأتى بالتـأكيد من عالمنا . وتلك التى تتسـبب عن المرض ــ لا عن الوراثة ــ من الممكن ، بل من الواجب ، علاجها فى عالمكم . ولو أن كل الجهود التى تنفق على الحروب فى عالمكم وجهت الى العناية بصحة البشرية ، ولو أن كل التفكير الذى يعطى لأسلحة الدمار تحول الى علاج أمراض الجسم والعقل ، اذا لحصلتم على علاج لهذه الأمراض ، وان كنتم ستواجهون كثيرا من المشكلات فى سـبيل الوصول الى ذلك العلاج .

أما السبب الثالث (غير الوراثة ، وغير الأمراض المختلفة واصابات المخ) وهو المس بأرواح شريرة فيرجع الى الجهل بالقوانين الطبيعية . انكم تذهبون الى المدارس وأنتم أطفال وتلقنون كيف تقرأون وكيف تكتبون ، وكيف تكتسبون رزقكم ، وكيف تصيرون مواطنين صالحين .

كذلك تلقنون أنه نظرا لوجود أناس فى عالمكم بعقليـة منحطة أو ادراك ناقص ، فعليكم أن تغلقـوا أبواب بيوتكم فى وجوههم لئلا يدخلوها ، ويسببوا لكم ازعاجا أو ضررا .

نعم أنكم تتعلمون هذه الأشياء ، ولكنكم لا تعرفون كيف تحمون أنفسكم من أولئك الذين لهم عقليـات منحطة أوادراك ناقص فى عالم الروح ، فتبقون أبوابكم مفتوحة بسبب الجهل ، معرضـة الى جميع اللصوص غير المنظورين الذين قد يفدون عليكم ويتلفون عقولكم . اننا لا نقول لكم ان كل شيء رائع فى عالمنا . فعلى العكس من ذلك يوجـد فى المناطق السفلى من عالمنا أولئك الذين لم يستطيعوا أن يرتقوا فى عالمكم ، أولئك الذين لم تسنح لهم الفرصة لرفع أرواحهم ، أو الذين كانت لديهم الفرصة ولكنهم لم يستخدموها .

ان الاضطراب العقلى ليس محنة مرسلة من الله ، ولكنه قد يحدث بسبب الجهل الذى تعيشون فيه . وفى الوقت الذى تستيقظ فيه معرفتكم وتقوى ، تنقص المخاطر التى تتعرضون لها ، لأنكم ستكونون على جانب من الحكمة أكبر مما أنتم عليه الآن » ...

ماذا عن المصير ؟

كما سئل الروح « ماذا يحدث للمصـابين عقليا عنـدما ينتقلون اليكم ؟ ... » فأجاب قائلا : « ان هؤلاء الأشخاص عندما يأتون الينا سيجدون رعاية خاصة لأن لدينا لكل نوع من الأرواح مساكن خاصـة لاعداد أصحابها لملاءمة الحياة الجديدة . وهناك يوزعون على أقسـام مختلفة : فيوضع المصابون بأمراض عقلية فى قسم خاص ، والمصـابون بمس من روح شريرة فى قسم آخر .

وهؤلاء المصـابون بالمس يمثلون أصـعب الحالات ، لأنهم كثيرا ما يرتبطون بالأرواح التى اختلطت هالاتها بهم ، ومع أنه لا يمكن الجمع

بين تلك الأرواح بالحب أو بأى رباط آخر ، الا أنها تبقى معا فى المستوى المظلم • هذه اذا أصعب الحالات لنا ، لأننا اذا لم نستطع التفريق بينها فى لحظة قطع الرابطة بالحياة الأرضية ، فانه سيبقى أمامنا عمل شاق طويل قبل الوصول الى علاج الحالة •

وفى النهاية نستطيع أن نتصل بها ونجعلها تدرك امكانياتها الخاصة ، وملكاتها السماوية ، وذكاءها الخاص ، وفى أثناء تلك العملية نستعين بعلماء التحليل النفسى الذين على هذا الجانب من العالم ، ولو أن هذه الحقيقة قد تبدو غريبة جدا لكم • ثمة حاجة ماسة الى التحليل النفسى ، ففى حالة وجود أمراض عقلية أو حالات مس بالأرواح الشريرة ، يجب الاستعانة بالتحليل النفسى • ولو أن هذا لا يتبع الآن عندكم كقاعدة عامة الا أنه بهذه الطريقة قد يمكن معالجة تلك الحالات (١) •

أما المرضى الآخرون فيتعهدهم الأطباء • وبواسطة معالجة الجزء المصاب من الروح (الجسد الأثيرى) المقابل لما يقابله فى الجسم البشرى، يمكن اعادة القوة اليه ، وتمكين العقل من التفكير المستقل • وبعد ذلك يبدأ تعليمهم مثل الأطفال الصغار فى مدارسكم ، فيدربون على استعمال عقولهم مع تفهيمهم أن عقولهم المريضة قد تركت خلفهم وأنهم — بعد — ليسوا مصابين بشىء •

---

(١) التحليل النفسى الذى تتحدث عنه الروح ، هو التحليل الحديث القائم على أسس جديدة من التسليم بدوام الحياة بعد الموت ، وصحة الظواهر الوساطية ، وامكان التداخل بين عالمى الروح والمادة ، وامكان المس الروحى والاستحواذ . وقد بدأ فعلا بعض مدارس التحليل الحديثة يتجه هذا الاتجاه بفضل عباقرة نفسيين وفلاسفة كبار من طراز وليام جيمس ، وبرجسون ، ومكدوجال ، وراين ، ويونج ، وفردريك مايرز ، وبوزانو ، ونااندور فودور ، وبروض ، وكارل ويكلاند ، وتيتوس بول وغيرهم من أصحاب العقول المتحررة من أغلال الماضى وقيوده البالية .

وفى نفس الوقت لاحظنا على بعض الوسطاء الروحيين فى بلادنا أنه يسىء استخدام كلمتى المس والاستحواذ اساءة بالغة ، وينسب اليهما حالات كثيرة من الأمراض النفسية والعضوية التى لا تمت اليهما بأية صلة . ولا ريب أنه كلما تقدمت البحوث الروحية الجادة كلما أمكنها أن تصل الى نتائج أقرب الى الصحة من غيرها .

وبعد تدريبهم يتمكنون من التفكير ومن الابتكار مثل سائر الأرواح • كذلك يتعلمون الحكمة من نواميس الحياة ، فيفقهون أن تلك النواميس لا ترضى باستمرار النقص أو عدم الكمال • وبذا يصير فى ميسور من كانوا يعانون من الانحطاط العقلى فى عالمكم أن يتقدموا ويحصلوا على الحكمة الروحية ، وعلى النور السماوى ، فان جميع الأرواح خلقها الروح الأعظم وهى جزء منه » (١) •

هذا وقد بعثت سيدة متألمة الى نفس هذا الروح المراسل « الشعاع الأبيض » قائلة له : ان ابنتى الصغيرة متأخرة عقليا ، فهل معنى هذا أن بها مسا من روح شريرة ؟ واذا كان الأمر كذلك ، ولم يعمل شىء هنا لعلاجها ، فماذا يكون مصيرها عندما تنتقل الى العالم الآخر ؟ » فأجاب الروح على هذا السؤال قائلا : « ان الانسان المصاب بنقص فى قواه العقلية ليس من الضرورى أن يكون مصابا بمس من روح انتقلت من عالمكم الى عالمنا (بالوفاة) ، ثم ظلت هائمة حول عالمكم ، ولو أن تلك قد تكون الحال أحيانا ، بل ان ذلك النقص قد يكون راجعا ، فى كثير من الأحوال ، الى الوراثة • وليس من الضرورى أن تكون الوراثة عن الآباء أو الأجداد الأقربين ، بل ربما من الأجداد فى الماضى السحيق ، فهؤلاء ربما كانت لديهم نقائص جسمية أو عقلية ، بسبب أخطائهم هم أو أخطاء آبائهم • فمن الحقائق التى توصل اليها علماؤكم أن ذنوب الأجيال السابقة قد تقع عواقبها على الأطفال الأبرياء •

وقد تتساءلون : وهل هذا من العدل فى شىء ؟ !

وعلى هذا نجيب بأن هذا قانون لا يمكن تغييره • فالروح الأعلى قد عمل نواميس معينة للبشر فيتمتعون بالأجسام الصحيحة طالما كانوا

---

(١) عن كتاب فلسفة « هوايت راى » (الوسيطة السيدة بوليت اوستن) • ص ١١٠ — ١١٢ •

The Philosophy Of White Ray (Through The Trance Mediumship Of Paulette Austen).

لا يخرجون على هذه النواميس ، ومنها القانون الذى يحكم العالم ، ولو بعد أجيال كثيرةمن الجهاد والآلام ، وهو قانون السبب والنتيجة ، ومن حقائقه الثابتة أن ذنوب الآباء قد تحل على الأبناء أيضا .

وليس هذا نتيجة لارادة الله ، بل نتيجة للطريق الذى اتخذه الانسان لنفسه . ولو أن الطرق رسمت لكم بواسطة العقل الأكبر ، غير أنه بسبب الارادة الحرة التى منحتموها ، فانكم تختارون الطريق الذى يروق لكم . ونتيجة لذلك وقعت المآسى لبنى البشر فى أوقات مختلفة . فمثلا قد تنمو ثمار جميلة جدا على شجرة ما . ولكن اذا تلفت الجذور ، أصيبت الشجرة بنفس الضرر الذى أصيبت به الجذور . وهكذا الحال للجنس البشرى ، بل لكل الخليقة ، وعندما تتلف الجذور ، يقاسى النبت جميعا معها الى أن يشفى بعد كثير من التعاسة والألم .

نعم ستنتصر الطهارة فى النهاية ، وهى تنطوى على النور الجميل والقوة اللذين يشعان من الاخلاص والنبل والكرم ، نعم أنها تنتصر دائما وان كان يبدو لكم أحيانا أنها هزمت . ولاتنسوا أنه رغمالوراثة اللعينة، والذكريات المريرة ، ستحل القداسة حتى بأكثر المعذبين أو المنسيين منكم منذ الولادة . وحتى اذا ظهر عدم الاتزان على الانسان ، فان الومضة القدسية تكون كامنة فيه ، وان كانت فى بعض الأحيان تختفى ، فلابد أن يأتى اليوم الذى تتلألأ فيه .

واذا كان الجسم ، وحتى العقل ، قد أتلف فى عالمكم ، فانه يعود الى قواه الكاملة ، حالما يواصل الحياة فى عالم الروح . والى هذا العقل ، وهذه الروح ، يمنح الادراك العميق للحقيقة الجميلة التى تمنح لسائر البشر ، فتعطيه مباهج الحياة ، ثم تزدهر منه نفس الروح التى تصل فى أروع مجدها الى العلياء » (١) .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٨ ــ ١١٩

هل من صلة بين المس و « العودة للتجسد » ؟

ولا يوجد أى تعارض بين تعليل البله أو الجنون بالمس ، أو بالاستحواذ ، أو بالعوامل الوراثية ، أو باضطرابات وظيفية عضوية ، أو بالدورة الدموية ، أو بالصدمات العصبية ، وبين التعليل بقانون الكارما أو بسداد ديون الماضى • وذلك لأن هذه التعليلات الأولى تمثل التعليلات القريبة أو المباشرة ، لكن يوجد دائما وراء الأسباب المباشرة لأية ظاهرة من ظواهر الوجود المادى أو الروحى ، أسباب أخرى غير مباشرة تمتد الى الماضى البعيد وتتعدد بطبيعتها تعددا لا نهاية له •

وهذا الأسباب البعيدة أو غير المباشرة هى تلك التى يعنى بها «علم الروح الحديث» الذى يعنى بالمثل بالبحث عن تلك الأسباب غير المباشرة لكل ما قد يعانيه الانسان من أعراض ، وأمراض ، وآلام ، ومن بينها ظاهرة التخلف العقلى فى كل أنواعها ، ودرجاتها • وهذا هو الفارق بين دائرة نشاط هذا العلم ، ودائرة نشاط العلوم الطبيعية الأخرى مثل علم النفس ، والطب النفس ، والطب العام والتكوينى ، وعلم الاجتماع •••

ويراعى دائما أن علم الروح ينبغى أن يفهم بدوره على أنه علم طبيعى الا أنه غير مرتبط بالفلسفة المادية عن الوجود ، وهو أدخل فى طائفة العلوم الطبيعية منه فى غيرها ، وهو الآن أهمها بلا ريب فى قدرته على الكشف عن الكثير من أسرار الذات الانسانية ، وبالتالى فى تخفيف بعض ويلاتها ومتاعبها •

وقد بحثوا فى « جمعية باريس الروحية » موضوع صلة البله والجنون بقانون الكارما ، أى بسلوك الروح فى تجسداتها السابقة ، وتداولوا فى هذا الشأن مع أحد الأرواح المراسلة ويدعى بيير جوتى Pierre Jouty فأملى الروح البيان الآتى نصه : « البلهاء كائنات تعاقب على الأرض بسبب سوء استخدامها لملكاتها القوية ، فتكون أرواحهم سجينة فى جسم تنوء أعضاؤه العاجزة عن التعبير عن أفكارهم • وهذ

العجز العقلى والجثمانى من أقسى صور العقاب الأرضى ، وكثيرا ما تطلبه الأرواح التائبة التى تريد أن تكفِّر عن أخطائها .

وهذه المحنة ليست عقيمة بالمرة ، لأن الروح لا تظل متوقفة فى سجنها اللحمى ، لأن عينيها المشدوهتين تبصران ، وعقلها الحائر يتصور ، لكن لا يمكن التعبير المطلوب لا بالقول ولا بالنظر . وفيما عدا الحركة ، فان الروح تكون معنويا فيما يشبه السبات أو التشنج . فهى ترى وتسمع ما يجرى من حولها بغير أن تقدر على التعبير عن نفسها .

وعندما يصيبك فى الحلم كابوس مخيف عن خطر تريد أن تفلت منه ، فتصرخ طالبا النجدة بينما يظل لسانك معقودا فى فمك ، وتظل قدماك مقيدتين على الأرض فأنت تمر بمحنة عابرة يحيا فيها المعتوه على الدوام ، وهى محنة شالل الجسم عندما يكون مرتبطا بحياة الروح .

وجميع التشوهات لها علة وجودها ، لأنه لا يوجد آمر بلا علة ، وما قد تطلقون عليه ظلم المصير هو تطبيق لأسمى صور العدالة ، والجنون هو كذلك عقاب لسوء استخدام الملكات العليا . والمجنون له شخصيتان احداهما خارجة عن الوعى ، والثانية تملك الوعى عن حركاتها، لكنها لا تملك السيطرة عليها .

أما بالنسبة للبلهاء فان حياة التأمل والعزلة لأرواحهم التى لا تملك نعيم الجسد ، قد تكون أكثر اضطرابا من حياة أولئك الذين يمرون بأحداث معقدة جدا . وبعضهم قد يثور ضد هذا التعذيب الاختيارى ، ويندم على سبق اختياره ، ويشعر برغبة جامحة فى العودة الى حياة أخرى ، وهى رغبة تدفعهم الى نسيان التسليم بالحياة الحاضرة ، لأن البلهاء والمجانين قد يعلمون أكثر منكم بحالتهم ، وقد تختفى تحت عجزهم الجثمانى قدرة معنوية ليست لديكم فكرة عنها .

وأعمال الغضب أو البلاهة التى قد يندفع اليها الجسد كثيرا ما ينقدها الكائن الداخلى الذى يتألم منها ويحمر خجلا . ومن ثم فان انتهارهم وسبهم ، واساءة معاملتهم ، كما يحدث أحيانا ، يؤدى الى زيادة آلامهم ويدعو الى مضاعفة الاحساس على صورة قاسية بعجزهم وانحطاطهم ...

والبلاهة ليست قانونا من قوانين الله ، وقد يتمكن العلم من التغلب عليها لأنها تمثل النتاج المادى للجهالة ، وللتعاسة ، وللدنس . ووسائل الصحة الحديثة التى جعلها العلم فى متناول الجميع تميل الى التغلب عليها . واذا كان التقدم هو الوضع المصريح للانسانية ، فان الاختبارات المفروضة ستتبدل ، وستتبع مسيرة الزمن ، وستصبح الاختبارات كلها معنوية . وعندما تكون أرضكم — التى لا تزال شابة — قد أنجزت جميع أوجه وجودها ، فانها ستصبح مقرا للتنعم ، كما هى الحال فى كواكب أخرى أكثر تقدما » .

بيير جوتى

* * *

ثم يكتب آلان كاردك الفيلسوف الروحى المعروف(١) تعليقا فى هذا الشأن مقتضاه أنه مر وقت كان يثار فيه التساؤل عما اذا كان البلهاء والمجانين ينتمون حقيقة الى الجنس الانسانى ، ولكن الطريقة التى تواجه بها الروحية مشكلتهم أليست ذات قيمة خلقية وتعليمية عالية ؟ ألا نجد هنا مصدرا لتأملات جادة بالتفكير فى أن هذه الأجسام القاصرة قد تضم أرواحا ربما تكون قد لمعت فى العالم ، وهى مثل أرواحنا فى قدرتها على الوضوح وعلى التعقل ، لكنها مغلفة بغلاف كثيف من جسد عاجز (الاشارة الى الجهاز العصبى) يحد من قدرتها التعبيرية ، وأننا قد نصبح يوما مثلهم لو أننا أسأنا استخدام الملكات التى وهبتنا العناية اياها ؟

---

(١) راجع ما سبق عن آلان كاردك فى الجزء الأول صفحة ١٢٤ — ١٢٨ .

والا فكيف يمكننا أن نفسر نقص العقل ؟ وكيف يمكننا أن نجعله ملتئما مع عدالة الله وطيبته بغير أن نتقبل تعدد الحيوات ؟ واذا لم تكن الروح قد عاشت من قبل فمقتضى ذلك أنها خُلقت مع الجسم فى وقت واحد ، وفى هذه الحالة خلق الله أرواحا بائسة ، كأرواح ناقصى العقول ، مع أنه اله عادل ورحيم ؟

ولا يتعلق الأمر هنا بحادثة من تلك الحوادث التى يمكن تفاديها أو علاجها ، بل ان هذه الكائنات تولد وتموت فى نفس الحالة ، وليست لديها أية فكرة عن الخير والشر فما هو مصيرها فى الأبدية ؟ وهل ستكون سعيدة بمقدار سعادة الأشخاص الأذكياء العاملين ؟ هل ستكون فى حالة محايدة أو مختلطة ليست بالسعيدة ولا بالتعيسة ؟ ولكن لم هذه الدونية الأبدية ؟ فهل من خطئهم أن يكون الله قد خلقهم ناقصى العقول ؟

اننا نتحدى كل أولئك الذين يرفضون فقه العودة للتجسد أن يخرجوا من هذا المأزق • أما مع قبول هذا الفقه فعلى العكس من ذلك أن ما يبدو الآن ظلما صارخا يصبح عدالة رائعة ، وما يبدو الآن غير قابل للتفسير يصبح مفسَّرا بأكثر الأساليب التئاما مع المنطق •

بالاضافة الى أننا لا نعرف أن رافضى هذا الفقه قد قدموا الينا حججا أخرى سوى نفورهم الشخصى من العودة الى الأرض • وعن هذا النفور نقول لهم : ان الله لا يطلب لاعادتكم الى الأرض أن تأذنوا له بذلك، كما أن القاضى لا يطلب من المتهم الاذن بارساله الى السجن • وكل انسان يملك امكانية عدم العودة اذا ترقى بما يكفى كيما يستحق الذهاب الى مستوى أعلى ، ولكن فى تلك المستويات السعيدة الأنانية والكبرياء مرفوضان ، فيتعين بالتالى العمل على التخلى عن هاتين الرذيلتين الخلقيتين، اذا كان الانسان يرغب حقا فى الصعود قدما •

ومن المعلوم أنه فى بعض الأوساط لا يكون ناقصو العقول عرضة للازدراء ، بل محلا للرعاية ، ألا يستمد هذا الشعور مصدره من الهام

صادق بحالة أولئك التعساء ، وهو شعور جدير بالتقـدير ، خصوصـا لأن أرواحهم التى ينبغى أن تدرك حالتهم تتألم حتما عنـدما ترى نفسها نفاية للمجتمع ؟

بل أنهم فى تلك الأوساط يعتبرون أن من مصـادر الثواب والبركة احتضان أحد أولئك التعساء فى الأسرة ، فهل هذه خرافة ؟ من الجـائز أن يكون الأمر كذلك ، لأنه فى الأوساط الساذجة قد تمتزج الخرافة مع أكثر الأفكار قداسـة بغير قصد . وفى جميع الحالات تكون هذه للآباء فرصة لممارسة البر ، الذى يزيد من مجده أن ناقصى العقول يكونون فى المعتـاد من الفقـراء ، فعبء تربيتهم يكون بلا مقـابل مادى لمن يتولى العناية بهم .

ويكون الثواب عن العناية العطوفة بطفل ناقص الادراك أعظم قدرا اذا كان هـذا الطفل أميل الى التخريب ، وذلك لأن بر القلب أسـمى الفضائل المقبولة من الله ، وهويجلب دائما بركته على من يطبقونه . وهذا الشعور الفطرى الكامن عند أولئك الأشخاص يعادل هذه الصـلاة : « الشـكر لك يا الله لأنك منحتنا كاختبار لنـا كائنا ضـعيفا لكى نرعاه وحزينا لكى نواسيه » (١) .

هل من صلة بين المس والهستريا ؟

وبطبيعة الحال فان هذه الحقائق الهامة عن وقائع محددة بالذات ، وعن شخصيات ماسة أمكن تعيين أصحابها ، وظروف حياتهم ، وظروف وفاتهم خلال اختبارات امتدت الى العشرات من السنين بمعرفة علماء كبار محايدين لا يمكن أن تدحضها تلك التفسيرات البالية لبعض الأمراض العصبية ، والتى ثبت فشلها فى مواجهة أيةحالة مواجهة فعالة الا بالمسكنات أو بالمخدرات ذات الأثر الوقتى ، وذات رد الفعل الضار .

---

(١) عن كتـاب « الجنـة والنـار » Le Ciel et L'Enfer طبعة ١٩٢٣ ص ٤٧٦ — ٤٧٩ .

وللايضاح نقدم هذا المثال التقليدى فى تفسير الهستريا عندما يقول « ان السبب الرئيسى فى هذه الآلام هو مرض الهستريا ، اذ أن هذه الآلام تجذب للمريض الاهتمام ، وتعطيه الرعاية والحنان اللازم ، وتنتشر هذه الآلام بين الزوجات التعيسات فى حياتهن الزوجية ، أو فى الرجال الذين يواجهون مشاكل دائمة فى عملهم مع رؤسائهم أو زملائهم • أو فى هؤلاء الذين لم تتح لهم الحياة فرصة لتحقيق رغباتهم وطموحهم ، أو عندما تكون قدرات الشخص أقل من الأعمال الموكولة اليه ، أو فى الطلبة الفاشلين •••••

وفى أحد أبحاث المؤلف جمع عددا كبيرا من هؤلاء المرضى والذين تعرضوا لعمليات جراحية مختلفة بسبب آلام هستيرية ، فالكثير منهم قد لبس نظارات على عينه ، وأزيلت أسنانه واستبدلت بطاقم صناعى ، وأجريت عمليات كى فى الجيوب الأنفية ، وأزيلت اللوزتان ، وكذلك الزائدة الدودية ، وفى البعض الآخر استؤصلت المرارة وهكذا •• اعتقادا بأن هذه الأعضاء هى السبب الأصلى فى الآلام ، وبعد كل هذه الاجراءات ينصح له بالذهاب الى الطبيب النفسى ، حيث أن آلامه نفسية ! ! وبالطبع يكون المريض قد فقد الثقة فى الشفاء وفى الأطباء ، وفى حالة نفسية أليمة •

ولا يعنى ذلك أن آلام المريض كلها هستيرية ، ولكن يجب أخذ ذلك فى الاعتبار عند الفحص الطبى خصوصا اذا كان المريض أو المريضة يمر بأزمات وجدانية ، أو اجتماعية ، أو اقتصادية ••• الخ مع عدم وجود علامات عضوية عند الكشف الطبى » (١) •

كما يقول نفس المؤلف فى موضع لاحق : « وقد وجد المؤلف فى أحد أبحاثه عن الزار فى مصر أن ٤٠٪ من المترددات عليه يعانين من الهستريا ،

---

(١) راجع الدكتور أحمد عكاشة . فى مؤلفه عن « الطب النفسى المعاصر » القاهرة ١٩٧٦ ص ٧٤ — ٧٥

و ١٦٪ من أعراض عضوية حشوية شبه هستيرية • وأن الزار يفيد فى بعض حالات الهستيريا من خلال عملية الانفصال التى تحدث تحت الارهاق الجسدى والعقلى من جراء دقات الطبول وهزات الجسم المستمرة ، حتى يصل الفرد الى الغيبوبة الهستيرية ويصحو بعد هذا « الكف الوقائى » فى حالة صحية سليمة • ولكنه بالطبع معرض للنكسة حيث أن هذا العلاج لم يحاول معرفة معنى وعمق هـذه الأعراض ، ويصبح المريض تحت استغلال دائم من المشرفين على عملية الزار •••••

ثم يقول « وقد قام المؤلف بدراسة مائة مريضة وخمسين مريضا من مرضى الهستريا فى مصر ، ووجد أن معظم المرضى بين سن ٢٠ — ٤٠ وأن ٥٢٪ من المريضات زوجات ، وأن ١١٪ من المرضى الرجال عزاب•••

ونجد هنا اختلافا بين الأعراض فى الرجال والنساء ، فالنوبات الهستيرية تزيد فى النساء ، أما الشلل فيكثر فى الرجال ، وكذلك الأعراض الانفصالية • أما الهستيريا الحسية فهى أكثر شيوعا فى النساء ، وقد وجد المؤلف أن حوالى ٦٠٪ من كل حالات الهستيريا قد ترددت على العلاج التقليدى عند المشايخ مع عمل أحجبة وغيرها قبل المجىء الى العلاج الطبى •

ثم يقول : تظهر الأعراض الهستيرية فى ضحية الكثير من الأمراض النفسية والعقلية والعضوية ••• وعلينا قبل أن نشخص مرض الهستيريا أن نستبعد وجود مرض أولى يسبب هذه الأعراض الهستيرية » (١) •

* * *

وهذه الأقوال كلها واضح أنها تعبر تعبيرا أمينا عن الطب النفسى التقليدى لا الطب النفسى المعاصر رغم عنوان الكتاب ، ورغم تقديرنا الشخصى لصاحبه • اذ أن من حقنا أن نسأل المؤلف الفاضل أن يجيبنا

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤ — ٨٥ •

بصراحة : كم حالة نجح هذا الطب التقليدى النفسى فى علاجها ، وكم حالة فشل فيها ، وما هى ظروف النجاح والفشل ؟ !

ولمـاذا لم تحاول أن تعرض للاختبار العملى ـ ولو كمجرد فرض نظرى ـ قضية المس الروحى مستعينا بأحد الوسطاء الأمناء والأقوياء ؟ ولمـاذا لا تفكر فى انشاء دائرة روحية علاجية راقية تغنى المرضى البائسين عن اللجوء الى الزار والى المشايخ والأحجبة ؟ !

أليس من حقنا أن نسأله : هـل اطلعت على مراجع معينة فى المس الروحى لبعض الأعلام ، وهى الآن وفيرة وموجودة فى المكتبات بالخارج كيما تقارن ما ورد بها على تلك الحالات التى قمت بفحصها شخصيا تحت تأثير هذا الارتباط الشديد بافتراضات عفى عليها الزمن أكثر بكثير مما قد يتصور الانسان لأول وهلة ؟ !

ونحن لانقول أبدا ان كل حالات الهستيريا عبارة عن مس (أومحاولة مس روحى وهى تلك التى قد ينجح الزار أحيانا فى درئهـا بسبب انتفاء الوسـائل العلميـة) • بل نقول فحسـب ان التعليل بالمس الروحى احتمال يجب أن يكون ماثلا فى ذهن المعالج النفسى المعاصر فلا يهـدره الا اذا ارتبط ارتباطا تاما بالفلسـفة المـادية للوجود ، وهى الفلسـفة التى رفض فرويد نفسه الارتباط بها ، خصوصا فى أخريات أيامه ، وفى آخر مؤلفاته عن « الذات والغرائز » (١) •

هذا مع العلم أن الهستيريا كثيرا ما تكون عنيفة ، وشديدة الخطورة على المريض وقد يصل المرض فى خطورته الى مدى قاس للغـاية ، مثل فقد المريض قدرة الابصار ، أو السمع ، أو النطق ، أو الشعور ، وقـد يتسبب المرض فى بعض التقلصات العضـلية غير الارادية ، أو الشـلل الجزئى أو الكلى • وكل هذا بدون توافر مصدر عضوى أو ميكروبى معين •

---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٣٢ ــ ٣٤ .

ولو كان هـذا الاحتمال ماثلا لأمكن للطبيب المعالج ــ بحسب الراجح ــ تخفيف بعـض الحالات التى لا يمكن أن تنجح فيهـا تلك الأساليب التقليدية المؤسسة على الخطأ فى التشخيص • واما الممكنات فان أثرها وقتى ، ولا تعتبر اطلاقا وسيلة فعالة لانهاء حالة المس ، ثم انها دائما ذات رد فعل ضار بالمريض •

ونحن عندما نطالب المعالج النفسى بأن يختبر السبل الوساطية فى علاج بعض الحالات العصبية فلا نطالبه بسلوك سبيل عجيب أو مخالف للفن الطبى • ويكفى لأى معالج أن يقرأ ما سبق أو أوردناه عن قرارى « الجمعية الطبية البريطانية » فى سنة ١٩٧٧ والأمريكية فى سنة ١٩٨٠ ، كيما يرتاح ضميره الى أنه اذا ما لجأ الى اختبار السبل الوساطية فانه يكون قد لجأ الى سبل قتلت درسا وبحثا فى الخارج ، وخضعت لتمحيص دقيق طويل قبل اعلان صحتها ومشروعيتها (١) •

ويكفيه أيضا أن يزور بعض المعاهد والمستشفيات الروحية الموجودة الآن فى انجلترا ، وايسلندا والأرجنتين ، وخصوصا فى البرازيل ، لكى يقتنع تماما بأن أساليب علاج الأمراض العصبية ــ ناهيك بالعضوية ــ قد لحقها تطور جذرى فى ضوء انجازات الباراسيكولوجى خصوصا منها تلك المتصلة بظاهرة المس الروحى •

وأنا لا أوجه هذه المقترحات الى شخص المؤلف الفاضل بالذات ، بل أوجهها أولا وأخيرا الى علم النفس التقليدى ، والى كل طبيب نفسى لا يزال متعلقا بأهداب هـذا العلم بدون متابعة لوجهة النظر المتطـورة الأخرى التى تبدو الآن أوفر فى أسانيدها من وجهـة نظر ذلك العـلم التقليدى •

ومع ذلك فالتجربة العملية هى وحـدها محك الاختبار والحكم ، فلماذا نهرب من التجربة ونجرى وراء الافتراض النظرى ؟ ! هذه هى كل القضية أطرحها على جميع السادة من المعالجين النفسيين •

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٣٦٨ ــ ٣٧٢ •

ومن أحسن الكتب التى أنصح المعالجين النفسيين بقراءتها بامعان كتاب عنوانه « علاج العقل » (١) (١٩٥٧) وضعه طبيب بريطانى اسمه ر• كونيل R. Connell يشرح فيه اختباراته التى استمرت لمدى عدة سنين مع وسيطة من أحسن الوسيطات فى هذا القرن وهى السيدة جيرالدين كامينز Geraldine Cummins •

وكان هذا الطبيب يستخدم مواهب هذه الوسيطة الفذة فى الادراك عن غير طريق الحواس فى تشخيص الحالات المستعصية من الأمراض العقلية ، وفى علاجها أيضا • وكثيرا ما ساعدته هذه الوسيطة على مواجهة حالات صعبة من الأمراض العقلية ، أو الأعراض الشاذة الخطيرة ، التى يقف الطب العادى حائرا ازاءها •

طفرات سريعة فى علاج المس والاستحواذ

وازاء هذه الحقائق المتزايدة لمصلحة صحة ظاهرة المس والاستحواذ وصحة علاجها بأساليب ناجحة ، تلتئم مع التشخيص الصحيح — وهى أساليب مغايرة تماما لأساليب علم النفس التقليدى — أخذوا فى الخارج يشيدون مستشفيات متخصصة فى علاج المس والاستحواذ بهذه الأساليب الحديثة •

وأهم هذه المستشفيات ، ذلك المستشفى الشاسع الذى يحتل موقعا ممتازا على ضفاف نهر جوايبا Guaiba بضاحية بورتو الليجر الجميلة بالقرب من مدينة أوبيرابا Uberaba عاصمة مقاطعة ميناس جرايس بالبرازيل (١) •

والبرازيل من دول أمريكا اللاتينية • وهى واسعة المساحة ويبلغ

---

(١) عنوانه كالآتى : —
Spiritualist Psychiatric Hospital. Porto Alegre, Uberaba, Minas Graes, Brazil.

تعدادها حوالى مائة وعشرين مليونا ، وانتشرت فيها الروحية من الناحية العملية انتشارا يتجاوز انتشارها فى أى بلد آخر • وتلاقى الجمعيات ، والمعاهد ، والمستشفيات ، والصحافة الروحية هناك اقبالا وتأييدا شعبيا ورسميا ، قلما يجد الانسان له نظيرا فى غيرها •

وكانت النتائج التى تكشفت عنها سبل العلاج بهذا المستشفى من أهم الموضوعات التى بحثها « المؤتمر الدولى السابع للروحيين » الذى عقد بمدينة كوبنهاجن (عاصمة الدانيمارك) فى شهر أغسطس سنة ١٩٦٦• وهو المؤتمر السابع فى سلسلة المؤتمرات التى يعقدها « الاتحاد الدولى للروحيين »(١) دوريا كل ثلاث سنوات ، والذى حضره أكثر من ثلاثمائة مندوب يمثلون خمسا وعشرين دولة •

* * *

ولهذا المستشفى الفريد فى نوعه تاريخ طويل بدأ فى سنة ١٩١٢، عندما فكر أعضاء « جمعية آلان كاردك الروحية » فى بناء مستشفى من هذا الطراز ، لكن لم يتمكنوا من اخراج فكرتهم الى حيز التنفيذ الا فى سنة ١٩٢٥ عندما قاموا ببناء مستشفى صغير •

وبعدئذ تبرعت جهة خيرية بأرض واسعة تبلغ مساحتها عشرين فدانا فى موقع رائع بناحية من بورتو أليجر تسمى تيريزوبوليس Teresopolis لتشييد مبان حديثة للمقر الجديد لهذا المستشفى الذى انتقل اليه منذ سنة ١٩٤١ ثم أخذ يتسع تدريجيا باضافة أجنحة جديدة الى مبانيه ، واضافة أسرة متزايدة ، حتى بلغ عددها الآن ستمائة سرير •

وأصبح المستشفى مكونا من سبعة أقسام يتولى ادارة كل قسم منها مدير خاص •

---

(١) وله فروع فى عدد كبير من الدول • ومقره الرئيسى بكندا ، وعنوانه :
20, Rideau River Lane, Ottawa, Ontario, Canada.
Tel (613) 797 — 3262.

ويتبع المستشفى حدائق غناء جميلة ، وملاعب رياضية أيضا • وقد تلقى منذ انشائه اعترافا رسميا من حكومة البرازيل بأنه « مؤسسة ذات نفع عام » •

وأحد نواب رئيس المستشفى حاليا الدكتور ارنستو ديستل Ernesto Destel ويقول فى خطاب له « لقد تعلمنا فى خلال السنين القليلة الماضية أن غالبية الأمراض العصبية والروحية مصدرها أرواح شريرة • ولذا فاننا نبنى دوائر روحية يمكنها — عن طريق معاونة وسيط قوى — أن تدخل فى اتصال مع هذه الأرواح ذات العقول الشريرة ، وتطلب منها برفق أن تترك ضحاياها لحال سبيلها •

وخلال هذا السبيل يمكن للمرضى أن يتلقوا الشفاء ، أو بالأقل تصبح حياتهم أيسر مما كانت •••• وهذا السبيل الذى يطلق عليه باللغة البرتغالية فصم المس desobsesso يتعاون فى انجاحه شركاؤنا فى العمل من الجانب الآخر • وهم يحضرون الروح الماسة الينا ، ويلهمون رئيس الدائرة كيف يعثر على الكلمات المناسبة التى تقنع الأرواح الماسة بالانصراف •

وفى حالات عديدة يصبح بمقدورنا أن نطلع الروح الماس وضحيته على بعض وقائع من حياتهم المبكرة ، وهى تظهر أنه لا يوجد أبدا شخص يحيا بلا خطيئة ، وأن الأرواح الخاطئة تؤذى نفسها بنفسها • وهكذا يصبح بمقدورنا ، مع قدر من الصبر أن نصل الى حل يؤدى الى شفاء المريض على هذا الجانب ، ويعطى الروح الماسة (أو المطاردة) القدرة على أن تغادر الأرض الى مستوى آخر أعلى منها » •

كما يقول ديستل « ان الباراسيكولوجى تحاول أن تفسر الظواهر الروحية بطريقة علمية ، ونحن على استعداد لأن نساعد علماءها فى دراساتهم ••• » •

ويقول الدكتور اناسيو فريرا Ignacio Ferreira مدير هذا المستشفى عن بعض نتائج العلاج التى لمسها بنفسه « لقد شاهدت أجسادا دمرتها الأرواح الماجنة . وأصحابها هم أولئك الذين يسميهم الطب مجانين . وكثير منهم قد شفوا على أيدى وسطاء لم ينل بعضهم حظا كبيرا من التعليم ، أو قدرا كافيا من التدريب الطبى » .

كما يقول « كنت فى الماضى أسخر من هؤلاء الوسطاء ، اذ كيف يعالجون حالات ليس بمقدورنا أن نعالجها نحن الأطباء ؟ والآن بعد دراسة متعمقة لهذا الموضوع أنحنى أمام أولئك المعالجين غير المثقفين، اذ أننى قد اقتنعت أن بمقدورهم أن يعالجوا ٨٠٪ من حالات الأمراض العقلية التى فشل فى فهمها الطب العادى ، والتى يأبى أن يدرسها » .

والدكتور فريرا هذا أصبح صاحب خبرة خاصة فى ظواهر المس الروحى نتيجة اختبارات دامت لمدى خمسة وعشرين عاما ، ويقول انه شاهد فيها بنفسه شفاء أكثر من ألف حالة مس بالسهل الروحية .

والأصل فى هذا المستشفى أنه مخصص لعلاج حالات المس والاستحواذ ، لكنه قد يعالج أيضا الأمراض العضوية اذا ظهرت أعراضها على المرضى الذين قبلوا فعلا للعلاج الروحى . وليس للعلاج أية صلة باعتقاد المريض فى صحة الظواهر الروحية ، أو فى خلود النفس ، أو بالانتماء العقيدى أو المذهبى .

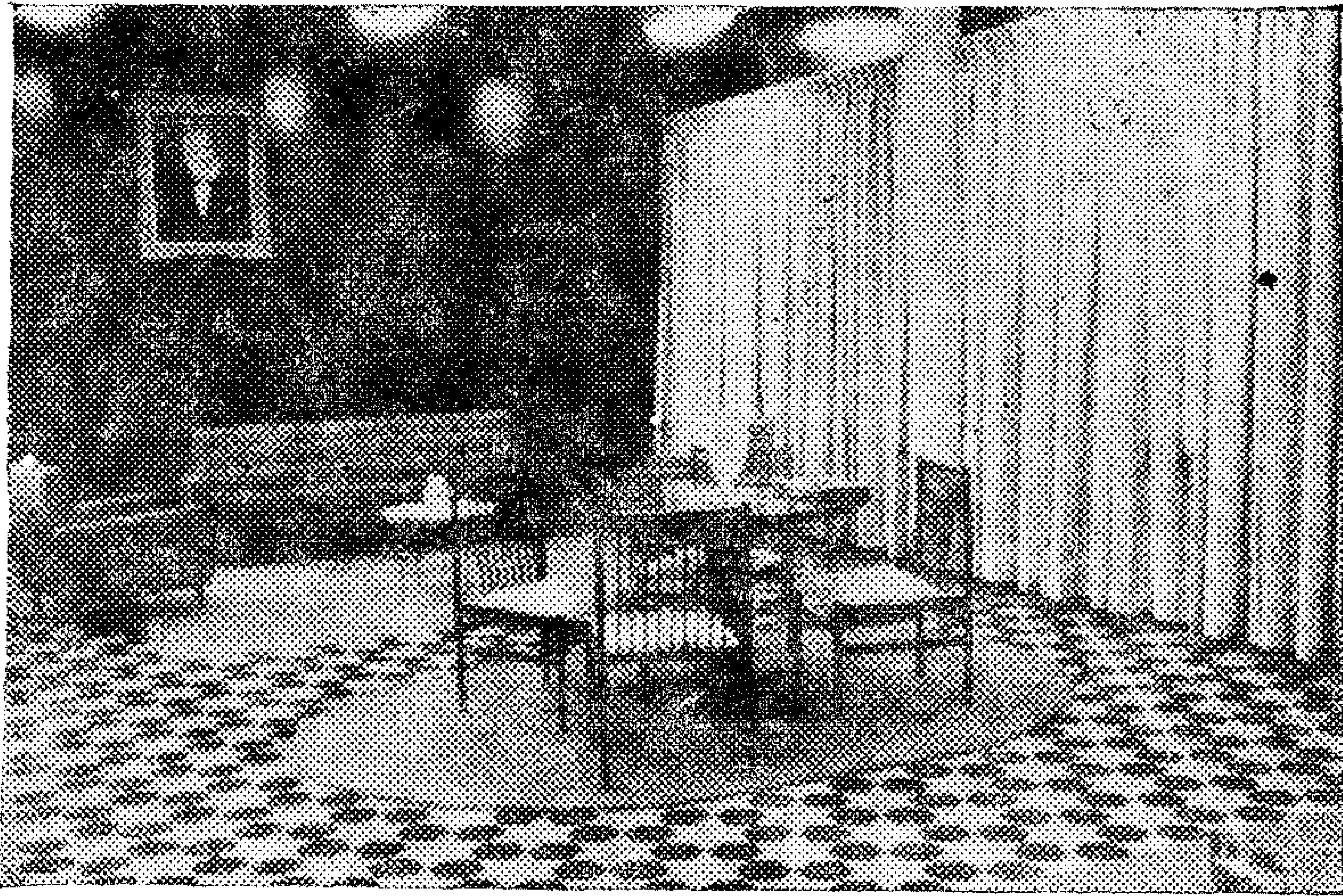
ويتسع هذا المستشفى حاليا — بعد أن تم توسيعه على عدة دفعات — لستمائة مريض كما قلت ، يعالج ثلثهم تقريبا بلا مقابل . وبه جهاز عامل مكون من مائتين الى ثلاثمائة بين أطباء واداريين وممرضين ... وهو يسمح للمحللين النفسيين الناشئين ولطلبة كليات الطب بالتردد عليه ، وبالاقامة فيه لمدد مختلفة للمراقبة وللتعرف على الأساليب المتطورة المستخدمة . ويتردد عليه عادة حوالى ستون وسيطا يؤدون خدماتهم مجانا .

ويساير المستشفى فى نفس الوقت الأساليب المألوفة ، اذ تتوافر به أيضا كافة العقاقير العادية بما فيها العقاقير المهدئة ، والمضادات الحيوية ، والأنسولين ، لكنه لا يستخدم أبدا الصدمات الكهربائية ولا المخدرات .

وتوجد به أيضا عيادة خارجية يتردد عليها الراغبون فى العلاج الروحى المجانى ، وغير المحتاجين لاقامة دائمة فيه ، ومنهم نسبة كبيرة من أصحاب الأمراض العضوية ، أو النفسية ــ العضوية .

والى جانب هذا المستشفى العام المتخصص فى الأساليب الروحية يوجد بالبرازيل واحد وأربعون مستشفى تطبق الأساليب الروحية للأمراض العقلية ، وهى على صلة وثيقة بادارة هذا المستشفى العام(١) . وفى البرازيل اللغة الرسمية هى البرتغالية فقط ، لكن يوجد عدد ضخم من المواطنين يعرف الانكليزية أيضا ، أو الألمانية ، أو الايطالية ، أو الفرنسية .. ، وكل مقاطعة بحسب ظروف قاطنيها .

مستشفى بورتو اليجر



غرفة الاستقبال بالمستشفى

---

(١) للمزيد عن هذا الموضوع راجع :
Isa Gray : From Materialisation to Healing 1972 P. 111 — 124.

عن الصلة بين المس أو الاستحواذ والسلوك الاجرامى

ولا ريب أن هذه البحوث الحديثة نسبيا فى مجالات العلم قد تلقى أضواء هامة على بعض حالات الجنون من ناحيتى المصدر والعلاج معا ، ولكنها فى نفس الوقت تثير مشكلة حرية الارادة لدى بعض الجناه من زوايا جديدة لم تكن مطروقة من قبل ، وماتزال حتى الآن محل نزاع — خصوصا لدى أبناء مدرسة فرويد وأنصار مادية الوجود — وهذه المشكلة هى هل ينبغى أن يسند التصرف الى المريض عقليا أم الى وعى آخر ؟ والى أى مدى يمكن أن يلغى هذا الوعى الأجنبى ارادة المريض العقلى أو يتحكم فيها ؟ وهذا التساؤل يشبه الى حد بعيد التساؤل الحالى عن مسئولية المتهم الخاضع للايحاء أو للتنويم المغناطيسى ، وهل ينبغى أن يتحمل أية مسئولية أم لا ؟

ولكن المس الروحى فى ذاته ينبغى أن يعتبر الآن مبدأ ثابتا علميا . وهو يتطلب ليس فقط النظر الى المسئولية الجنائية من زوايا جديدة ، بل يتطلب أيضا التساؤل عن سبل العلاج ، وكيفية توفيرها للمريض ، لانقاذه وانقاذ المجتمع كله من أضرار المس وهى فادحة جدا .

وتحكم الوعى الأجنبى عن المريض عقليا يبدو فى حالات الاستحواذ الكامل أقوى مما هو فى حالات المس ، ففى الحالات الأولى يكاد يفقد المريض ذاكرته وبالتالى شخصيته على نحو ما . أما فى الحالات الثانية فان المريض لا يفقدها الا فقدا جزئيا ، وهنا قد يثار أيضا تساؤل من نوع آخر ، وهو هل يمكن أن يلعب قانون التوافق العقلى دوره أم لا ، والى أى مدى يؤثر هذا الدور فى مسئولية الجانى ؟ وكل هذه أسئلة حديثة لا تزال قيد البحث العلمى ، ولا تمكن الاجابة الدقيقة عليها الآن . وذلك لأن جميع الأبحاث الروحية — رغم مضى أكثر من قرن وربع عليها — لا تزال تعتبر فى مبدئها .

واذا أضيف الى ذلك أن الدراسات الروحية تتصل بأدق مايتعرض له الباحثون عن أسرار النفس الانسانية فى أعمق جوانبها ، لتبين تماما صعوبة اعطاء اجابة دقيقة عن جميع الأسئلة المثارة ، وان كانت اثارتها

لا تخلو من فائدة محققة فى فتح أبواب جديدة للبحث الوضعى ، وكلما تقدمت الدراسات فيها كلما أمكن أن تصل الى نتائج أقرب الى الصحة من غيرها (١) .

* * *

ثم يضاف الى ما تقدم مشكلة من أدق المشكلات فى موضوع أثر الشذوذ النفسى أو العقلى فى المسئولية ، وهى أنه لا يكفى مجرد اثبات توافر أيهما سواء قبل ارتكاب الجريمة أم أثناء ارتكابها ، بل يلزم أيضا اثبات مدى الاتصال القائم بين حالة المتهم العقلية والجريمة المسندة اليه ، فعلى مدى هذا الاتصال يتوقف مدى مسئوليته وذلك بصرف النظر عن نوع التدبير الوقائى اللازم اتخاذه نحوه . فلا تنحصر مهمة القاضى ـ « فى تحديد نوع المتهم الماثل أمامه من بين أنواع الرجال بقدر ما تنصب على تحديد مدى ما كان المتهم يمكله من أهلية الادراك والاختيار وقت أن انزلق الى جرمه حتى يتأتى قياس الجزاء على قدر الاثم .

وبناء على ذلك فانه من الخطل الظاهر أن يقرر الخبير عدم مسئولية المتهم لمجرد اكتشافه أنهذا المتهم مصاب بمرض عقلى أوبشذوذ نفسانى. فحتى المرض العقلى أو العصبى قد لا يكون هو السبب فى الجريمة التى وقعت بالذات على النحو الذى ارتكبت به ، اذ قد تكون راجعة الى سبب آخر غير ذلك المرض ، وان كان من الأمراض التى يمكن أن تتولد عنها الجريمة . ويكون من المفيد عندئذ فى تحديد المسئولية بيان ما اذا كان سير المرض قد أدى الى الجريمة بطريق غير مباشر ، أى عن طريق التأثير فى استعداد سابق لنفس المجرم . وعلى العكس فان عدم اكتشاف مرض عقلى فى المجرم وقت الفحص لا يقطع بأن حالته وقت ارتكاب الجريمة كانت غير مرضية .

---

(١) للمزيد راجع مؤلفنا « مفصل الانسان روح لا جسد » ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ الجزء الأول ص ٨٢١ ـ ٨٢٧ والجزء الثالث ص ٦٥٣ ـ ٦٧١ .

على أن فحص مدى ما كان للمجرم من أهلية ادراك وقت الجريمة يجب أن يكمله فحص ما كان لديه من أهلية اختيار عندئذ ، أى الحالة التى كانت عليها ارادته • ذلك لأن كثيرا من المجرمين يكون على حالة سليمة من أهلية الادراك وقت ارتكاب الجريمة ، فيكون مقدرا للغاية الاجرامية ، محيطا بها ، وبنتائج تحقيقها ، وانما يكون انزلاقه الى تنبذها راجعا الى نقص لا فى أهلية الادراك وانما فى أهلية الاختيار أى فى ملكة الارادة ، اذ قد لا تقوى ارادته على تغليب المانع من الجريمة على الدافع اليها فيقع الحدث الاجرامى •

على أنه لما كانت كل جريمة وليدة خلل فى ملكة الارادة كان من شأنه تغليب الدافع الى الجريمة على المانع منها ، فانه لا يفهم مما تقدم أن كل جريمة يعتبر مرتكبها معذورا • فالخلل فى ملكة الارادة أو الاختيار ليس معناه انعدام هذه الملكة • أى ليس معناه أن المجرم يساق بغير طوع الى جريمته دون أن تكون له خيرة فى الاحجام عنها • ذلك لأنه اذا بلغ الخلل فى ملكة الاختيار هذا الحد يعتبر المجرم مصابا بجنون ، لا شخصا سليم العقل ، وهو ما يعنى الخبير باستظهاره على كل حال (١) » •

هذا وقد أوصى مؤتمر لاهاى (١٩٥٠ قسم ٤ مسألة ٢ • فقرة ج) بأن « تحقيق الدعاوى المتعلقة بالجناة الشواذ يفرض تحولا للخبرة العصبية النفسية عن المسئولية (التى تجرى حاليا) الى ملاحظة طبية ونفسية واجتماعية للشخصية » •

وهذه التوصية تقتضى عمل ملف بنتائج هذه الملاحظة المتعددة الجوانب • ولذا أوصى المؤتمر الدولى الثالث للدفاع الاجتماعى فى دورته التحضيرية فى سنة ١٩٥٠ ، وفى بروكسل فى سنة ١٩٥١ ، كما أوصى المنهج الدولى الأول لعلم الاجرام فى سنة ١٩٥٢ أن يتضمن هذا الملف جانبا طبيا وبيولوجيا وآخر نفسيا ، كما يتضمن تحقيقا اجتماعيا عن المتهم بوجه عام•

---

(١) رمستيس بهنام فى مؤلفه فى « علم الاجرام » طبعة ٣ جـ ١ ص ٢٣٨ — ٢٤٠ •

كما أوصى مؤتمر لاهاى أيضا (قسم ١ ، ٢) أن « كل حالة خطيرة ينبغى أن تدرس وتشخص بمعرفة فرقة من الأخصائيين تتبع أنظمة متنوعة، وذلك فى اطار من البحث الفنى موجه نحو الوصول الى القرار القضائى والمعاملة المناسبين » •

والقاضى هو الذى ينبغى أن يختار ان لم يكن جميع أعضاء فرقة الاخصائيين فبالأقل رئيسها الموجه لها ، والذى يكون عادة طبيبا أو معالجا نفسيا • وينبغى أن يكون للقاضى الاشراف على الوسائل المستخدمة فى التحرى والفحص • لأن بعض هذه الوسائل قد لا يخلو من خطورة على الحرية الفردية ، أو على سلامة الجسم ، أو على استخدام الملكات العليا للوعى ، هذا ان لم تكن هذه ماسة بالكرامة الانسانية • وفى هذا المقام ينبغى أن يترك مكان كاف للمدافع الذى ينبغى أن يحضر جميع الاجراءات • وأن يحل محل المتهم نفسه فى بعض أوجه هذه الاجراءات[1] •

---

(١) راجع :
George Levasseur : Les delinquants anormaux mentaux.
Rapport au nom de la Société Internationale de Défénse Sociale
21-25 Avril 1963. p. 44.

الفصل الثالث

فى موقف بعض الشرائع من اجرام الشواذ

أجمعت الشرائع الحديثة على نفى المسئولية الجنائية فى حالات الشذوذ التام ، ولم يكن الأمر كذلك فى العصور القديمة والوسطى حيث كان المجرم الشاذ أو المجنون يعاقب كغيره ، بل ظل يحاكم فى الصين الى عهد قريب لكن كان للسلطة الادارية حق تخفيف العقاب عنه •

وتميل المدرسة الوضعية الايطالية — فى بعض أجنحتها — الى التخلص من بعض القتلة المجانين وقت ارتكاب جريمتهم ولو باعدامهم اذا كان لايرجى شفاؤهم، لا لردع غيرهم بطبيعة الحال ، بل استنادا الى مقتضيات الدفاع الاجتماعى وحدها • الا أن هذا النظر لا يلقى تأييدا من الرأى العام ومن سائر المدارس العقابية الأخرى لأن اعدام المجنون — مهما ظهر خطره على المجتمع — اجراء غير عادل •

موقف التشريع المصرى • نقده

واقتصر تشريعنا المصرى فى المادة ٦٢ منه على النص على أنه « لا عقاب على من يكون فاقد الشعور أو الاختيار فى عمله وقت ارتكاب الفعل ، اما لجنون أو عاهة فى العقل ، واما لغيبوبة ناشئة عن عقاقير مخدرة أيا كان نوعها اذا أخذها قهرا عنه أو على غير علم منه بها » •

وهذا النص يهمنا منه هنا بوجه خاص الفقرة الأولى التى تنص على أنه « لا عقاب على من يكون فاقد الشعور أو الاختيار فى عمله وقت ارتكاب الفعل لجنون أو عاهة فى العقل •• » ، فان هذه الفقرة تتضمن انضماما صريحا الى القول بأن أساس المسئولية الجنائية فى تشريعنا المصرى هو القدرة على الشعور والاختيار • وهـذه هى نقطة البدء فى الشرائع

المعاصرة بوجه عام ، ولا يثير ذلك مشكلة حقيقية من الناحية الوضعيه ، انما المشكلة هي في تعيين معنى فقدان الشعور أو الاختيار .

وفي نفس الوقت يأخذ الدكتور محمود نجيب حسني — على أساس من الصواب — على هذا النص أنه لا يتضمن تنظيما لحالات الجنون الجزئي ، أو بالأدق لحالات الشذوذ الاجرامي ، بل انه ليس في نصوصه ما يوحي بأن المشكلة قد عرضت لواضعيه في صورة من الصور ، وهو يشترك في هذا النقص التشريعي مع قانون العقوبات الفرنسي .

ويفسرهذا القصور أن القانونين الفرنسي والمصري قد تأثرا — في هذا الموضع — بآراء فقهاء المدرسة التقليدية الأولى الذين تصوروا المسئولية الجنائية فكرة غير قابلة للتجزئة (١) ، فهي اما أن توجد كاملة واما ألا توجد على الاطلاق . وليس عندهم بين الطرفين وسط ، فالمجرم أحد رجلين : مسئول أو غير مسئول ، وكل من لم يتوافر لديه مانع من المسئولية بشروطه المحددة في القانون هو حتما مسئول (٢) .

ويعني ذلك أن المجرم الشاذ باعتباره لم يتوافر لديه مانع من المسئولية مسئول عن جرائمه ، وتستند هذه النظرة أيضا الى تحديد مجرد « لحرية الاختيار » باعتبارها أساس المسئولية الجنائية . فهي عندهم قدرة عامة على المفاضلة بين الطريق المطابق للقانون والطريق المخالف له ، وهي في هذا المدلول تتوافر لدى الناس جميعا عدا من توافر لديه مانع من المسئولية .

ويفسر هذا القصور من الوجهة العملية أن القانون الفرنسي قد وضع في وقت لم تكن فيه حالات « نصف الجنون » قد حظيت بالكشف العلمي ، اذ كان مستقرا لدى الأطباء أن الجنون لاوجود له في غير صورته الكاملة ،

---

(١) Garraud : t. 1 no. 324, p. 632.

(٢) Saleilles : De L'individualisation de la Peine, p. 53. et, 72 et suiv.

وهو فى هذه الصورة يذهب بالقيمة القانونية للارادة ويمنع المسئولية(١).

ويفسر ذلك أيضا أن القانون قد وضع فى وقت لم تكن فيه نظرية الخطورة الأجرامية ونظام التدابير الاحترازية قد اتخذا مكانيهما بين النظم القانونية : وعلى الرغم من أن القانون المصرى قد وضع فى وقت عرفت فيه نظرية المسئولية المخففة ، وأحرز فيه طب الأمراض العقلية والنفسية وفقه القانون تقدما ملموسا ، فقد صرفه عن الاهتمام بذلك حرصه على التمثل بالتشريعات التقليدية ، ومنها القانون الفرنسى » .

ثم يضيف المؤلف : « يعيب التنظيم القانونى الحالى أنه يتجاهل وضعا لم يعد وجوده من الناحية العملية محلا للشك ، وهو بذلك يتمسك بنظريات ثابت فسادها : فالحالات التى تتوسط بين الجنون واضحة العقلية يؤكد الطب وجودها ، والتمييز المطاق الجامد بين الجنون واكتمال العقل قد مضى زمان القول به . ويعيب هذا التنظيم بعد ذلك تجاهله أفكارا قانونية حديثة كالخطورة الاجرامية والتدابير الاحترازية ، واصراره على التمسك بمبادىء فقهية تقليدية غدت قيمتها فى الفقه الحديث محلا للشك.

ونلاحظ أن التحديد المجرد لحرية الاختيار بعيد عن الدقة العملية ، اذ الأدق أن تفحص هذه الحرية فحصا واقعيا بالنظر الى حالة كل شخص يقدم الى المحاكمة ويراد تحديد نصيبه من المسئولية ، وحظه من المعاملة العقابية . فاذا أخذنا بهذه الخطة تبين لنا أن التمييز وحرية الاختيار يحتملان تدرجا ، ويتصفان بنسبية تجعل العديد من الناس محتلين المنزلة الوسطى بين اكتمالهما وفقدهما (١) .

وتتضح عيوب هذا التنظيم اذا لاحظنا أنه ألجأ القضاء الى التماس

---

(١) Germain : Science Penitentiaire P. 203.
M. Ancel. Delinquants anormaux. p. XIII.
ومقال حسن صادق المرصفاوى « مسئولية الشواذ جنائيا ــ المجلة الجنائية القومية » سنة ١٩٦١ ص ٣٣٥ .

(٢) Saleilles p. 61, Garraud t. 1 no. 324 p. 63 et suiv.

السبل غير المباشرة للاعتراف بنظرية المسئولية المخففة : فأهمية هذه النظرية كانت مقتضية اعترافا صريحا مباشرا بها ، بالاضافة الى آنه من العسير فى المنطق القانونى اعتبار الشذوذ الاجرامى نوعا من الظروف المخففة ، اذ أن الظروف بطبيعتها أوضاع عارضة فى حين يصدر الشذوذ عن مرض له نصيب من الاستقرار (١) •

ولكن أهم ما وجه الى هذا التنظيم من نقد يتعلق بقيمته العملية ، اذ من هذه الوجهة يتضح قصوره عن حماية المجتمع ازاء الخطورة الاجرامية التى يهدده بها اجرام الشواذ : ذلك أن المجرم الشاذ خطر على المجتمع : وهو لمرضه أخطر من المجرم العادى ، وقد كان ذلك مقتضيا عزله عن المجتمع وقتا أطول مما يعزل خلاله المجرم العادى ، ولكن الظروف المخففة تقود الى عكس ذلك ، اذ تعنى الحكم عليه بعقوبة قصيرة المدة ، فيقود ذلك الى اطلاق سراحه فى وقت لا يزال فيه خطرا على المجتمع (٢) •

وعلى هذا النحو يؤدى التنظيم القانونى الى نتيجة غير مقبولة : يؤدى الى أنه كلما زادت خطورة المجرم على المجتمع كلما خفت عقوبته ودنا موعد الافراج عنه وتعريض المجتمع لخطورته • ويعيب هذا التنظيم أنه يجهل الأسلوب الصحيح لدرء خطورة المجرم الشاذ ، وهذا الأسلوب هو العلاج والتهذيب • وهو يقتضى وقتا طويلا أو على الأقل غير محدد مقدما ، وهو يقتضى كذلك عناية طبية وتربوية من نوع خاص •

ولكن التشريع الحالى بجعله عقوبة الشاذ قصيرة المدة لا يوفر هذا الوقت وبجعله العقوبة عادية لا يوفر هذه العناية • بل ان عيوب هذا التنظيم تذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، فالمجرم الشاذ يحتاج الى العلاج والرعاية ويضار بالأساليب العقابية العادية التى تنطوى على الحزم والصرامة ، اذ يغلب ألا يتحملها وأن تؤدى الى الزيادة من المرض الذى

---

(١) Saleilles p. 78.

(٢) Vienne : Rev. penitentiaire et dr. Pen. 1947, p. 332.
Chronique de défense sociale, Rev. de Science crim. 1948 p.

يعانى منه والى جعل علاجه بعد ذلك عسيرا (١) • ويعنى ذلك أن هـذا التنظيم يزيد من الخطورة الاجرامية التى تنطوى عليها شخصية المجرم الشاذ ، ويعرض بذلك المجتمع لمزيد من الخطر (٢) » ••

الحل الذى نقترحه

ولا ريب أن مواجهة حالات الجنون الجزئى من أدق الأمور لاتصالها بعلوم النفس والاجرام والعقاب الى جانب فلسفة القانون ، وما ينبغى مراعاته فى حلول التشريع الوضعى من اعتبارات عملية • ومع ذلك فان الوصـول الى حل معقول يوفق بين الاعتبارات الشـائكة الكثيرة ـ بل المتضاربة فى كثير من عناصرها ـ أمر لا يبدو مستحيلا مهما كانت صعوبته •

ولأن حالات الجنون الجزئى ـ عندما تكون متميزة تماما عن المس الروحى ـ تنتقص من حرية اختيار الجانى الى مدى أو الى آخر ، وتتطلب مواجهة علاجية مناسـبة بمقدار ما تتطلب مواجهة عقابية ووقائية مناسبة، فاننا نرى أنه مما قد يلتئم مع هـذه المواجهة المتعددة الجوانب أن ينص تشريعنا العقابى على استبعاد عقوبتى الاعدام والأشغال الشـاقة وجوبا بالنسبة لهؤلاء الجناة ، وأن يكتفى بالنسـبة لهم بعقوبتين فقط سالبتين للحرية وهما السجن فى الجنايات والحبس فى الجنح • بل قد تكفى بالنسبة لهم عقوبة واحدة سالبة للحرية ازاء الحاجة الى العناية التامة بتصنيفهم الدقيق •

كما ينبغى أن تنص المحكمة فى حكمها ـ بعد التحقق من حالة المتهم ومن نقص ادراكه للأمور ـ على اخضاعه « لنظام **المعاملة الخاصـة** » •

---

(١) Germain : Science penitentiaire p. 203.
Levasseur : Délinquants Anormaux p. 5; Chronique de défense Sociale Rev. de Science Crim. 1948 p. 55.

(٢) راجع د. محمـود نجيب حسنى فى مؤلف عنـوانه « المجرمون الشواذ » ١٩٦٤ ص ١١ ـ ١٦ . والمراجع المشار اليها فيه .

وهذه المعاملة الخاصة ينبغى أن ينظم التشريع أحكامها • وأن تتضمن اضفاء سلطات واسعة للجهات المشرفة على تنفيذ العقوبات فى تصنيف المحكوم عليهم بها طبقا للاعتبارات التى يشير بها علما العقاب والنفس ، مع لزوم اخضاعهم لرعاية طبية مناسبة لحالة كل منهم فى أثناء التنفيذ •

أما عن مدة العقوبة فيلزم أن تبيّنها المحكمة فى حكمها ، وذلك كوسيلة لارضاء شعور العدالة ، اذ لا ينبغى أن يفوتنا أن هؤلاء الشواذ ليسوا مسلوبى الارادة تماما ، وانما ينبغى أن تخول الجهات المشرفة على تنفيذ العقوبة سلطة تحويل المحكوم عليه من هذا الصنف من « المعاملة الخاصة » الى المعاملة العادية اذا شفى تماما من شذوذه العقلى قبل انتهاء مدة العقوبة • أما اذا لم يشف رغم انتهاء هذه المدة فيكون للجهة المشرفة على تنفيذ العقوبة سلطة تحويله اجبارا الى مصحة عقلية أو نفسية يخضع فيها لرعاية نفسية كاملة بعيدة عن فكرة العقاب الى أن يحصل المريض على الشفاء الكامل •

وبمثل هذا الحل يمكن فى تقديرنا التوفيق بين اعتبارات العدالة المجردة واعتبارات الرأفة ، مع ارتباط هذه الاعتبارات وتلك برغبة علاجهم من جانب ، مع الاحتراز من خطرهم المحتمل على المجتمع من جانب آخر • ونجاحه يتوقف على حسن تعيين حالات الجنون الجزئى وتمييزها عن حالات الجنون الكامل • وهذا أمر يرجع فيه الى نظام « الخبرة المفروضة » أمام المحاكم الجنائية المستندة الى الالمام بحقائق علوم النفس والاجرام والعقاب •••

أما حالات الجنون الكامل — ومنها حالات المس التى تحدثنا عنها — فلا تثير نفس الصعوبات حالات الجنون الجزئى ولا تتطلب عند الجزم بتوافرها — وبانتفاء المسئولية الجنائية كلية — أكثر من أن يحكم بايداع المتهم المجنون فى صحة عقلية أو روحية الى أن يتم شفاؤه من مرضه • وهذا الايداع محض تدبير علاجى ووقائى مستقل تماما عن فكرة العقاب التى لا محل لها هنا •

موقف القضاء المصرى

ويراعى أن نص المادة ٦٢ من التشريع العقابى المصرى يترك للمحكمة تركا كليا حرية تقدير جنون المتهم أو عدم جنونه ، ومدى تأثير هذا الجنون فى حسن ادراكه ، وفى مدى حريته فى الاختيار ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل مرض عصبى أو نفسى فان وجدت المحكمة أن هذا أو ذاك يعدم الادراك — وبالتالى الاختيار — قضت ببراءته • وان وجدت أنه ينتقص منهما قضت عليه بعقوبة مخففة فى نطاق الحدين الأقصى والأدنى ، فاذا وجدت أن ذلك لا يسعفها كان لها أن تطبق عليه نظام الظروف القضائية المخففة (م ١٧ ع) حسبما تقدره من حالته العقلية أو النفسية مسترشدة بآراء الاخصائيين العقليين والنفسيين • ومراعية أن يكون تخفيف العقاب بالقدر المناسب الذى تقدره هى لنقص الادراك وبالتالى للقيود التى كانت تقيد الجانى فى اختيار الطريق الذى سلكه •

هذا وقد ذهب قضاء قديم لمحكمة جنايات مصر الى أن العته الذى نص عليه القانون الموجب للعذر هو الجنون المعروف ، لا ضعف العقل أواضطرابه فىجزء منه دون غيره ، ولامحل للتفسيراللغوى أوالاصطلاحى ما دام لألفاظ القانون معان مقررة معروفة ، ولا اعتبار لأقوال الطب فى ذلك الا بما يطابق القانون ويوافقه (١) • كما قضى بأن الحمق والسفه لا يرفعان التكليف عمن وصف به للفرق العظيم بينه وبين العته (٢) •

وذهب قضاء لمحكمة النقض الى أن المصاب بالحالة المرضية المعروفة باسم الشخصية السيكوباتية لايعتبر فى عرف القانون مجنونا ، وأن صاحبها وان عد من الناحية العلمية مريضا مرضا نفسيا الا أنه لا يعتبر فى عرف القانون مصابا بجنون أو عاهة فى العقل مما يصح معه اعتباره فاقد الشعور أو الاختيار فى عمله (٣) •

(١) فى ١٨٩٨/٦/٢٨ مجلة الحقوق س ١٣ ص ١٩٨ •
(٢) فى ١٨٩٨/١٢/١٤ مجلة القضاء س ٦ ص ٧٦ •
(٣) نقض ١٩٥٤/٦/٣٠ قواعد النقض ج ١ رقم ٩ ص ١٧٢ و ١٩٦١/١١/٢٨ • أحكام النقض س ١٢ رقم ١٩٤ ص ٩٤٢ •

هذا وقد عاملت محكمة الجنايات المتهم فى هذه القضية الأخيرة بنظام الظروف القضائية المخففة (م ١٧ ع) « لظروف الواقعة فى مجموعها ، وأهمها ما تبين من سوء سلوك المجنى عليها » • أى أنها لم تعط للحالة السيكوباتية سوى أثر لا يكاد يذكر فى التخفيف ، حين اتجه القضاء الى غير ذلك فى حالات أخرى حيث طبق بسبب توافر هذه الحالة وحدها نظام الظروف القضائية المخففة •

كما ذهب حكم لمحكمة النقض الى أن المرض العقلى الذى يوصف بأنه جنون أو عاهة عقلية هو ذلك الذى من شأنه أن يعدم الشعور والادراك ، أما سائر الأمراض والأحوال النفسية التى لا تفقد الشخص شعوره وادراكه فلا تعد سببا لانعدام المسئولية •

* * *

هذا عن موقف التشريع والقضاء فى مصر ، وهو موقف مشوب بالغموض والقصور على ما بيناه ؛ أما عن موقف الشرائع الأجنبية فهو بوجه عام متفاوت تفاوتا كبيرا ، وهى حتى وان أجمعت على نفى المسئولية الجنائية بالنسبة للمجنون الكلى الا أنها تتعمد تفادى وضع حلول محددة لهذا الامتناع من ناحية أحواله وشروطه •

ومن ثم تباينت حلولها فى شأن هذا الموضوع بحسب المدارس الطبية والنفسية التى وجهتها وهى متشعبة ، الى الحد الذى جعل بعضها ينفى عن جريمة المجنون ركنها الأدبى — كما هى الحال فى التشريع المصرى — حين ينفى بعضها الآخر عنها ركنها المادى — كما هى الحال فى التشريع الألمانى — حيث يرى الرأى السائد أن جريمة المجنون لا تعد « عملا جنائيا » لأن الارادة الحرة لم تتعلق به •

بل ان حالات امتناع المسئولية وشروطها أمر مختلف عليه بين الشرائع بقدر اختلافها فى فهم معنى الجنون ، وبقدر مدى اعترافها بأثر الأمراض

---

(١) نقض ١٩٦٢/٣/٢٦ أحكام النقض س ١٤ رقم ٥١ ص ٢٥٤ .

النفسية بوجه خاص فى الشعور وفى الاختيار اذا كان ثمة اعتراف صريح فيها ، وهو أمر نادر . ومن هــذه الأمراض النفسية تلك الحالات التى يطلق عليها وصف الجنون الجزئى أو نصف الجنون ، ومن بينها حالات السرقة المرضية ، والحريق المرضى ، والقلق النفسى ، والشعور بالاضطهاد ، والسادية أو الوحشية الجنسية ، والجنون الخلقى وغير ذلك ...

الموقف فى انجلترا

هذا ويعتبر التشريع الانجليزى من أكثر الشرائع تشددا مع الجانى بالنسبة لهذه الأمراض الأخيرة . فهو لا يعترف بامتناع المسئولية الا عند الجنون المطبق أو ما فى حكمه فحسب ، وذلك عملا بقــانون يرجع الى سنة ١٨٤٣ يسمى قانون ماكناتن McNaghten's يقضى بأن « الدفع بعدم المســئولية للجنون لا يكون مقبولا الا اذا ثبت بوضوح أن المتهم كان وقت مقــارفة الجريمة مصابا بسبب مرض فى العقل ينقص من الادراك والتمييز بحيث لا يستطيع معرفة طبيعة العمــل الذى اقترفه ولا كنهه . أو اذا كان يعرف ذلك فانه لم يكن يعرف أنه خطأ (١) » .

وقانون ماكناتن لا يفسح مجالا يذكر لامتناع المسئولية أو لنقصها فى حالات الاضطرابات النفســية المعترف بها ، ومن ذلك مثلا الظواهر العصبية القهرية Compulsions التى يطلق عليها عادة وصــف الدوافع القهرية impulsions irresistibles التى تنشــأ عن الأمراض النفســية التسلطية ومنها أيضا السرقة المرضــية cleptomanie ، ونزعة الحريق المرضى pyromanie ، ونزعــة العــرض المرضى exhibitionnisme والانحرافات الجنسية وهى قد تدفع الى ارتكاب جرائم شتى .

---

(١) كان الشخص الذى سمى هذا القــانون باسمه فريسة هذيان جعله يعتقــد أنه ضحية للاضطهاد ، فحاول قتل سير روبرت بيل الذى اعتبره مسئولا عن اضطهاده لكنه أخطأه وقتل ســكرتيره . وقــد وضع هذا القانون بعد تبرئة القاتل المجنون وما أثارته التبرئة من موجة استياء أدت الى منــاقشات فى مجلس اللوردات اشــترك فيهــا بعض القضــاة وانتهت بوضع هذ القانون الذى ينظر اليه الآن على أنه لا يمثل الاتجاهات العصرية المتقــدمة فى المسئولية الجنائية ، بمقــدار اتصــالها بالأمراض النفسية والعصبية .

لكن ذلك لا ينفى أن المحاكم فى بريطانيا وفى الولايات المتحدة الأمريكية اتجهت فى بعض أحكامها الحديثة الى الاعتراف بأن بعض الأمراض النفسية كالشخصية السيكوباتية — أى الجنون الخلقى — وكالهستريا لها أثرها فى تخفيف المسئولية الجنائية . ويحاول أطباء التحليل النفسى بوجه عام دفع هذا التأثير قدما الى الأمام ايمانا منهم — وقطعا على أساس من الصواب — بأن العدالة لا تستقيم تماما الا بالتسليم بدور يتفاوت فى مداه لبعض الأمراض النفسية فى حرية الاختيار ، وبالتالى فى توجيه السلوك الاجرامى . ويعتقد بعضهم بأن التحليل النفسى لبعض الجناة قد يكون أجدى لهم وللمجتمع من العقوبة .

وفى هذا المعنى يقول العالم النفسانى شتيكل Stekel : « ان قاضى المستقبل لا يستطيع أن يؤدى واجبه على الوجه الأكمل الا اذا أصبح محللا نفسيا (١) » . كما يقول كل من فرانز ألكساندر F. Alexander وهوجر ستوب H. Staub ان « مهمة القضاء فى نشر العدالة دون الاعتماد على علم النفس ضرب من المحال (٢) » . ويقول المستشار محمد فتحى « ان الاجرام ظاهرة مرضية تخضع للعلاج بالوسائل العلمية فى كثير من الأحيان أكثر من خضوعها لمجرد العقاب (٣) » .

ويقول نفس المؤلف أيضا عن الأمراض العصبية وأثرها فى المسئولية الجنائية : « تنص المادة ٦٢ ع على أنه عقاب على من يكون فاقد

---

(١) فى مؤلفه Technique of Analytical Psychotherapy ص ١ ٤
(٢) فى مؤلفهما The Criminal, The Judge, and The Public ص ١
(٣) فى مقال له عن « الوسائل العلمية فى مكافحة الاجرام » فى « القانون والاقتصاد » عددا سبتمبر وديسمبر سنة ١٩٥٤ . وراجع أيضا عددى مارس ويونية ١٩٥٦ من نفس المجلة عن « الفحص النفسى فى القضايا الجنائية » . كما يقرر أيضا فى مذكرة مؤرخة ١٩٥٧/٥/١٤ بوصفه مقررا للجنة المباحث الجنائية بمجلس ادارة « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » أن « الأمراض النفسية وخاصة ما يرجع سببها الى ظاهرة الانفصال العقلى mental dissociation أثبت العلم بما لا يدع مجالا للشك أنها فى بعض الحالات قد تؤثر فى ملكتى الشعور والاختيار أثرا لا يقل عن أثر الأمراض العقلية أو عن فعل المخدر ان لم يفقه شدة أحيانا حيث ينعدم الشعور أو تشل الارادة ، بدليل حوادث الانتحار المفاجئة التى ترجع الى عوامل نفسية بحت » .

الشعور والاختيار فى عمله وقت ارتكاب الفعل ، اما لجنون أو عاهة فى العقل • فاذا نظر الى هـذا النص نظرة سطحية وطبق القـانون بشكله وحرفيته ـ لا بروحه وحكمته ـ اخرجت الأمراض النفسـية اطلاقا من موانع العقاب أو مخففاته ، لأن القـانون لم يتعرض لذكرها صراحة فى الباب المخصص لأسـباب الاباحة وموانع العقاب ، بل قصر ذلك على حالتين : هما الجنون والعاهة العقلية •

ويكون من نتيجة ذلك أن الشخص الذى يرتكب جريمة خلال نوبة يقظة نومية Somnambulic fit يعتبر بحسب التـأويل الحرفى للقـانون مسئولا عن جريمته لأن هذه الحالة ليست مرضا عقليا ، بل مجرد حالة نفسية مرضية لا تخرج عن كونها نوبة هستيرية من طراز خاص تقوم على الظاهرة المعروفة باسم « انقسام الشخصية أو ازدواجها » • ومصدر العلة فيها هو ما يعانيه المريض فى أعماق عقله الباطن من عقد نفسية مكبوتة ، شـأنه فى ذلك شأن المريض بالهسـتيريا التحويلية ، وغيرها من أنواع الأمراض الهستيرية الأخرى •

فاذا ما فرض وعرضت على القضـاء جريمة من هـذا القبيل فانى لا يخامرنى أدنى شك فى أن القضاء سيجد لها مخرجا للاعفاء من العقاب بتأويل نص القانون تأويلا يتفق مع روحه وحكمته • ولعل مما يسبق على القضاء مهمته فى هذا المقام هو كون كلمة « عقـل » ذكرت فى الفقرة الثانية من المـادة ٦٢ انما وردت على اطلاقهـا دون تحـديد أو تعريف لمدلولها ، فلم يتصـد المشرع لذكر أى العقلين يرمى الظاهر أم الباطن ؟ وللمشرع عذره فى هذا لأن حقيقة النفس البشرية واشتمالها على نوعين من مظاهر التفكير لم تتكشف لرجال العلم بوضوح الا من عهـد قريب حينما قامت مدرسة التحليل النفسى بزعامة العلامة سيجموند فرويد تنادى بنظرية العقل الباطن ، وأثر هذا العقل الخطير فى حياتنا الشعورية •

وليس هذا التقسيم بدعة فى طبيعة الانسان فان له نظيرا فى المجموع العصبى الذى يتألف من جهـازين أحدهما ارادى والثانى لا ارادى •

كذلك كشف العلم عنأن العقل البشرى ينقسم بدوره الىعقلين أوجهازين للتفكير أحدهما ارادى ويسمى بالعقل الظاهر والثانى لا ارادى ويسمى بالعقل الباطن . وأن العقل الباطن له أثره الخطير فى حياتنا الشعورية وله أقوى سلطان فى تفكيرنا الظاهرى ، وفى توجيهنا فى تصرفاتنا وأعمالنا الخارجية . وقد يبلغ من سلطان العقل الباطن علينا فى بعض حالاتالمرض النفسى درجة تفقد معها كل قطرة من حرية التصرف أوالاختيار (١) ...

ولما كان المرض النفسى آفة من آفات العقل الباطن ، ولها آثرها الخطير فى حياتنا الشعورية ، فلا معنى لحرمان المريض نفسيا من حكم الاعفاء المنصوص عليه فى المادة ٦٢ اعفاء كليا أوجزئيا تبعا لحالة المرض شدة أوضعفا ، ومقدار تأثيره فى ملكه الارادة أوحرية الاختيار.ومما يلفت النظر فىعبارة القانونالتىتضمنت الاعفاء منالعقاب قوله « لفقد الشعور أولفقد الاختيار » ، وهواستدراك حكيم جعل النص ينطبق تمام الانطباق على الحالات النفسية التى يكون فيها المريض مالكا لشعوره ولكنه فاقد الاختيار كما هى الحال فى الجرائم المرضية التى سبق ذكرها (٢) » .

الموقف فى شرائع أخرى

وازاء هذه الاعتبارات كلها نجد أيضا أن النصوص التشريعية قد تفاوتت فيها العبارات التى تشير الى الشذوذ المرضى : وبعض التشريعات آثر البساطة فى التعبير : فاشترط أن يفضى المرض الى نقص فى الادراك وتعنى به التمييز ، أو الارادة وتعنى بها حرية الاختيار (المادة ٨٩ من قانون العقوبات الايطالى) . ولكن تشريعات أخرى استعملت تعبيرات

(١) راجع عن العقل الباطن محمد فتحى فى « علم النفس الجنائى علما وعملا » طبعة رابعة ١٩٦٩ ص ٧١ — ٩٨ .

(٢) عن مقال له بعنوان « الشخصية الهستيرية واثرها فى المسئولية الجنائية » فى مجلة « القانون والاقتصاد » عدد يونية ١٩٥٩ (عدد ٢ سنة ٢٩) ص ٢٩٠ — ٢٩٢

وراجع ما سبق عن العقل الباطن أو اللاشعور فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٦ — ٦٠ . ولنا عودة عن تطور مفهوم اللاشعور فى الباب التاسع ، خصوصا بحسب كارل يونج .

مختلفة : فقانون العقوبات الألمــانى يشترط نقصان « أهلية ادراك عدم السماح بالفعل أو أهلية التصرف وفقا لهذا الادراك »(م٥١ فقرة ثانية) • وتقترب من هذه الصياغة عبارات القانون السويسرى (م١١) ومشروعى ليل ولفاسير (م ٢) •

ولم يكتف قانون الدفاع الاجتماعى البلجيكى بنقصان أهلية المجرم الشاذ ، بل افترض أن المرض قد جعله غير أهل للتحكم فى أفعاله (م١)(١) • وقد اشترط أغلب التشريعات أن يكون الانقاص من التمييز أو الاختيار على نحو محسوس • وهى بذلك تستبعد من نطاق الشــذوذ الاجرامى حالات الانقاص اليسير منهما (٢) •

واختطت تشريعات أخرى خطة مختلفة عندما نصت على أثر المرض العقلى فى المسئولية فلم تجعله منصرفا الى المرض فى ذاته ، وانما جعلته منصرفا الى تأثير المرض فى القيمة القانونية للارادة ، فاشترطت أن يفضى على نحو محسوس الى الانقاص من التمييز أو حرية الاختيار •

فالمــادة ٥١ من قانون العقوبات الألمــانى اشترطت كون الأهلية لادراك عدم ســماح القانون بالفعل ، أو للملاءمة بين هــذا الادراك أو السلوك ، قد أنقصت على نحو محسوس (٣) نتيجة للحالة المرضية • وتطلبت المــادة ٨٩ من قانون العقوبات الايطالى فى المرض أن يفضى الى حالة عقلية تنقص على نحو ملحوظ(٤) من « أهلية الادراك أو الارادة » • واشترطت المادة ٢٦ من قانون العقوبات اليونانى فى الانقاص من المسئولية أن يكون أساسيا (٥) • وعلى الرغم من أن قانون العقوبات السويسرى لم يتطلب فى النقص الذى يصيب الملكات الذهنية أن يكون خطيرا فان القضاء السويسرى قد استقر على تطلب الخطورة •• (٦) •

---

(١) incapable du controle de ses actions.

(٢) عن كتاب « المجرمون الشواذ » لمحمود نجيب حسنى ١٩٦٤ — ص ٥٥ .

(٣) erheblich Vermindert.

(٤) seemare grandemente.

(٥) imputabilité essentiellement diminuée.

(٦) انظر المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩ •

الباب الثامن

الباراسيكولوجى
يقتحم مشكلة «العودة للتجسد»

تمهيـــيد

هنـاك مشكلة اقتحمتها بعمق واصرار أبحـاث الباراسيكولوجى لعلها تتجاوز فى أهميتها العديد من المشكلات الخاصة بتعليل اللاشعور، وبتحديد العلاقة بينه وبين الشعور وهى مشكلة « العودة للتجسـد » Reincarnation ، أو الميلاد من جديد فى مستوى الحيـاة الأرضية Rebirth • وهى نفس المشـكلة التى تعبر عنها مراجع أخرى بتعبير « الوجود السبقى » للانسان Pre - Existence التى يتضمن عـدد ضخم من الفلسفات والعقائد الحديث عنها ، منذ عهد الفلسفة الاغريقية فى أزهى عصورها الى العهد الحاضر •

فان هـذا « الوجود السبقى » متى ثبتت صحته بأسانيد حاسمة وضعية ، سيلعب دورا خطيرا فى القاء أضواء علمية مكثفة على العديد من ألغاز النفس الانسانية وأسرار سلوكها العـادى والشاذ ، السوى والاجرامى على حد سواء •

وهذا « الوجود السبقى » لم تتعرض له مدرسـة فرويد واقتصر فرويد على ارجاع العقل الباطن الى الولادة فقط ، وارجاع كل صـور السلوك الى رغبات مكبوته فى اللاشعور ترجع الى الوراء منذ الحمل أو الولادة ، لا قبل ذلك • ولكن هناك صورا من السلوك لا يكفى أبدا هذا الارجاع المحدود لتعليلها •••• فهل فات أمرها على فرويد ؟ !

يعتقد بعض الدارسين أنه من المحال أن تكون هذه الصور قد فات أمرها عليه ، لأنه كان عالما مدققا ثاقب النظر الى مدى بعيد ، ولكن هل كان بمقدور عالم أوروبى فى القرن العشرين أن يرجع بعض صور السلوك الانسانى الى وجود سبقى للانسان ؟ ! وهل كان بمقدور البيئات العلمية المتزمتة التى ارتبطت بمدرسة فرويد أن تتقبل — بسهولة أو بصعوبة — هذا الاعلان الخطير ؟ ! ..

على أية حال أخذت الأسانيد تتراكم — منذ أكثر من نصف قرن بالأقل — فى اتجاه يشير بوضوح الى ثبوت هذا الوجود السبقى : وذلك من النواحى السيكولوجية ، والبيولوجية ، والفسيولوجية ، ناهيك بالنواحى الفلسفية ، وبالذات بمبدأ حرية الاختيار والايمان بالعدل الالهى كمبدأ عام مطلق يحكم الكون .

فمشكلة كهذه ليست بسيطة بالمرة ، بل انها تتغلغل الى أبعد مدى متصور فى مشكلات التكوين الروحى والعضوى للانسان . وعند الجواب عنها بالايجاب نجد أن العديد من التساؤلات القديمة التى ظلت بلا جواب فى اطار علم الانسان مثل التطور ، والشعور واللاشعور ، والجنس ، والأحلام ، والارادة ، والعدل الالهى ، والقدر والمصير ... أصبحت تتلقى اجابات أوضح وأفضل مما كانت . بل أوثق ترابطا فيما بينها ، وفيما بين الحقائق الأخرى التى أزاحت عنها النقاب جهود كبار العلماء المنقبين فى أسرار العلوم الانسانية والطبيعية .

فلابد اذا من التذرع هنا بقدر كبير من الأناة فى معالجة هذه المشكلة . ولابد أيضا من التذرع عند بحثها بقدر كبير من الحذر فى اختيار المراجع ، والأسانيد ، وأيضا فى تأصيل النتائج لأن المقام يبلغ أقصى درجات الأهمية من النواحى العلمية المتصلة بالتكوين الروحى للانسان ، ناهيك بالعديد من أسرار سلوكه التى لاتزال تعيى الباحثين الجادين .

ولهذه الاعتبارات مجتمعة رأيت أن أعرض لهذه المشكلة الضخمة فى الأبواب الثلاثة المتبقية لمحاولة الاحاطة « بالعودة للتجسد » كمشكلة قائمة بذاتها ، وبالنتائج الشاسعة الأرجاء المترتبة على القول بثبوتها علميا .

ورأيت أن أبدأ فى الباب الحالى بتناول موضوعين فحسب مفردا لكل منهما فصلا على حدة : فأخصص أولهما للكلام « فى العودة للتجسد بين الفلسفة والاعتقاد » ، وثانيهما للكلام « فى موقف العلم المعاصر من هذه المشكلة » .

ثم يلى ذلك دراسة النتائج المترتبة على هذه القضية الكبرى فى البابين التاسع والعاشر طبقا للتبويب المناسب ، مع التركيز — بالأكثر — على الجوانب العلمية لهذه القضية الكبرى ، وبالقدر الذى تبدو به ذات اتصال مباشر بمحاولة التعرف على بعض جوانب التكوين الروحى للانسان وعلى أسرار سلوكه فى ضوء التحولات الجذرية التى تمر بها الآن العلوم الانسانية والطبيعية .

الفصل الأول

فى « العودة للتجسد »
بين الفلسفة والاعتقاد

المبحث الأول

جولة عامة
فى أرجاء الفلسفة والاعتقاد

موقف بعض الفلاسفة والمفكرين فى الغرب

يعتقد بعض المؤلفين أن ذيوع الاعتقاد فى العودة للتجسد فى الغرب جاء نتيجة لانتشار الفلسفة الهندية هناك بعد الحرب العالمية الأولى ، وتزايد الاهتمام بتلك الفلسفة . على أن هذا القول غير صحيح بالمرة ، لأن هذا الاعتقاد وجد صدى قويا له فى مؤلفات لفيف من أبرز رجال اللاهوت فى الغرب ، وعلى رأسهم أبرزهم اطلاقا وهو سانت أوغسطين ، ويليه رأسا سانت أوريجين ، وسان جريجوار ، وسان فرانسوا الأسيسى ... وغيرهم على ما سيرد فيما بعد .

كما وجد هذا الاعتقاد صدى أقوى من ذلك بكثير فى آراء وكتابات لفيف ضخم من أبرز فلاسفة العصرين الوسيط والحديث ومفكريهما وشعرائهما ، ممن يضيق المقام عن ذكرهم كلهم ، وانما أكتفى بذكر طائفة كافية ، فمنهم بترتيب تاريخى : —

— روجر باكون Roger Bacon (١٢١٤ — ١٢٩١) .
— دانتى ألليجيرى Dante Alighieri (١٢٦٥ — ١٣٢١) .
— فيليب براسيلز Philippe Paracèlse (١٤٩٣ — ١٥٤١) .
— جيروم كاردان Jérome Cardan (١٥٠١ — ١٥٧٦) .
— جيوردانو برينو Giordano Bruno (١٥٤٨ — ١٦٠٠) .

— جاكوب بويهم Jacob Boehme (١٥٧٥ — ١٦٢٤) .

— توماس كامبانيلا Thomas Campanella (١٥٦٨ — ١٦٣٩)

— رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ — ١٦٥٠) .

— باروخ سبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢ — ١٦٧٧) .

— توماس براون Thomas Brown (١٦٠٥ — ١٦٨٢) .

— جوتفريد ليبنتز Gottfried Leibnitz (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

— ادوار يونج Edward Young (١٦٨١ — ١٧٦٥) .

— عمانوئيل سويدنبرج Emmanuel Swedenborg (١٦٨٨ — ١٧٧٢)

— دافيد هيوم David Hume (١٧١١ — ١٧٧٦) .

— فرانسوا فولتير Francois Voltaire (١٦٩٤ — ١٧٧٥) .

— جوتهولد لسنج Gotthold Lessing (١٧٢٩ — ١٧٨١) .

— سام جنيز Saame Jenys (١٧٠٤ — ١٧٨٧) .

— بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin (١٧٠٦ — ١٧٩٠) .

— شارل بونيه Charles Bonnet (١٧٢٠ — ١٧٩٣) .

— سان مارتن Saint Martin (١٧٤٣ — ١٨٠٣) .

— جوهان هردر Johann Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣) .

— عمانوئيل كنط Emmanuel Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤) .

— جوهان شيللر Johan Schiller (١٧٥٩ — ١٨٠٥) .

— جان فشتة Jean Fichte (١٧٦٢ — ١٨١٤) .

— سام دى نيمور Sam D. de Nemours (١٧٣٩ — ١٨١٧) .

— پيرسى شيللى Percy Shelley (١٧٩٢ — ١٨٢٢) .

— سان سيمون Saint Simon (١٧٦٠ — ١٨٢٥) .

— وليم بلايك William Blake ١٧٥٧ — ١٨٢٧) .

— فردريك فون شليجل F. Von Schlegel (١٧٧٢ — ١٨٢٩) .

ــ همفری دافی Humphry Davy (١٧٧٨ ــ ١٨٢٩) ٠

ــ جوهان جوته Johann Goethe (١٧٤٩ ــ ١٨٣٢) ٠

ــ والتر سكوت Walter Scott (١٧٧١ ــ ١٨٣٢) ٠

ــ صمويل كوليردج Samuel Coliredge (١٧٧٢ ــ ١٨٣٤) ٠

ــ فراسوا فوريه Francois Fourier (١٧٧٢ ــ ١٨٣٧) ٠

ــ بير بالانش P. Ballanche (١٧٧٦ ــ ١٨٤٧) ٠

ــ ادجار آلان بو Edgar Allan Poe (١٨٠٩ ــ ١٨٤٩) ٠

ــ وليام وردزورث William Wordsworth (١٧٧٠ ــ ١٨٥٠) ٠

ــ أونوريه بلزاك Honoré Balzac (١٧٩٩ ــ ١٨٥٠) ٠

ــ توماس مور Thomas Moore (١٧٧٩ ــ ١٨٥٢) ٠

ــ آرثر شوبنهور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨ ــ ١٨٦٠) ٠

ــ شارل رينوفيه Charles Renouvier (١٨٠٤ ــ ١٨٦٠) ٠

ــ جان رينو Jean Reynand (١٨٠٦ ــ ١٨٦٣) ٠

ــ أدولف جارنييه Adolphe Garnier (١٨٠١ ــ ١٨٦٤) ٠

ــ ألفونس لامارتين Alphonse de Lamartine (١٧٩٠ ــ ١٨٦٩) ٠

ــ ألكسندر ديماس Alexander Dumas (١٨٠٢ ــ ١٨٧٠) ٠

ــ بيير ليرو Pierre Leroux (١٧٩٧ ــ ١٨٧١) ٠

ــ بونسون دى تيراى Poncon de Terrail (١٨٢٩ ــ ١٨٧١)

ــ تيوفيل جوتيه Theophile **Gauthier** (١٨١١ ــ ١٨٧٢) ٠

ــ أندريه بيزانى André Pezzani (١٨١٨ ــ ١٨٧٧) ٠

ــ بايار تايلور Bayard Taylor (١٨٢٥ ــ ١٨٧٨) ٠

ــ توماس كارليل Thomas Carlyle (١٧٩٥ ــ ١٨٨١) ٠

ــ لويس بلانكى Louis Blanqui (١٨٠٥ ــ ١٨٨١) ٠

ــ رالف أمرسون Ralph Emerson (١٨٠٣ ــ ١٨٨٢) ٠

ــ هنرى لونجفلو Henry Longfellow (١٨٠٧ ــ ١٨٨٢) ٠

— فيكتور هيجو Victor Hugo (١٨٠٢ — ١٨٨٥) •

— روبرت برونتج Robert Browning (١٨١٢ — ١٨٨٩) •

— جون هويتير John Whittier (١٨٠٧ — ١٨٩٢) •

— ألفريد تنيسون Alfred Tennyson (١٨٠٩ — ١٨٩٢) •

— والت هويتمان Walt Whitman (١٨١٩ — ١٨٩٢) •

— فردريك نيتشه Friedrick Nietsehe (١٨٤٤ — ١٩٠٠) •

— كامى فلاماريون Camille Flammarion (١٨٤٢—١٩٢٥) •

— رودلف شتاينر Rudolf Steiner (١٨٦١ — ١٩٢٥) •

— جون ماك تاجارت أليس John Mc Taggart Ellis (١٨٦٦ — ١٩٢٥) •

— جورج وليام راسل George Russell (١٨٦٧ — ١٩٣٥) •



فهل نعرف تاريخ الفكر الانسانى الرفيع ، والفلسفة العميقة أندادا حقيقيين لهم أو أشباه أنداد ؟! ••• وذلك بالأقل منذ العصر الوسيط وبغير حاجة للرجوع الى العصور السابقة عليه ، أو تناول الفلسفات اليونانية أو الشرقية لأن هذا موضوع يطول شرحه ، ولا يتسع له المقام الحالى •

ولم يكن لهؤلاء الفلاسفة والمفكرين والشعراء والأدباء والملهمين اطلاع خاص فى الفلسفة الهندية ، أو ولع معروف بها ، فيما خلا آحاد قلائل على رأسهم آرثر شوبنهور فانه قد تعمق فيها ، وأعجب بها ، وقال أن المستقبل سيكون لها • وأنها ستجتاح أوروبا وتؤثر فى الثقافة الأوروبية المستقبلة ، مثلما فعلت الفلسفة الاغريقية فيما مضى •

أما بالنسبة للباقين فقد كانت العودة للتجسد نظرية مقبولة لكى تفسر الكثير من ظواهر الحياة التى يتعذر تفسيرها بغيرها ، وأهمها مفارقات الدهر العجيبة ، والتفاوت الضخم فى الملكات ، وفى فرص السعادة والشقاء ، بالاضافة الى تفسير مصدر الحل ، وبالتالى مصدر

العقل • ولذا أشاروا كلهم اليهـا بأساليب متنوعة ، تتفـاوت فى مدى قوتها ووضوحها بطبيعة الحال ، اما نثرا واما شعرا •

ولذا يتعذر القول بأن أولئك المقتنعين الكبار بعقيدة العودة للتجسد قد بأخذوها عن فلسفة الهنـد أو غيرها من فلسفات الشرق ، خصوصا عنـد من يعرفون مدى ما تتميز به الروح الغربية ــ خصوصا فى مثل المستويات التى أشرت اليها ــ من وضوح ، وترابط ، ونقد ، وحذر ، بالمقارنة بروح الشرق الأقصى بوجه عام ، ناهيك بما يتميز به الغرب من أساليب واقعية وضعية ، وايجابية أيضا •

وانما كان ارتباط هؤلاء الأعلام بعقيدة العودة للتجسد بمقـدار ارتباط هذه العقيدة نفسها بجانب هام من الحقائق الكونية التى ينبغى دواما السعى للارتباط بها بدلا من الجرى وراء الأوهام والترهات •

وفى الوقع أن الفلسفة الهندية تتسم بالكثير من عناصر الغموض ، والتعقيد ، والافتراضات المرتجلة الكثيرة ، الا أنها وصلت فى الروح الى العديد من الحقائق الكونية الصادقة • وبالذات فى شأن العوده للتجسد ، والعديد من النواميس الأخلاقية ، ومن الظواهر الروحية ، ودور العقل وتأثيره فى المـادة ••• وربما كان ذلك عن طريق الهامات صادقة وصلت الى معلمى الهند الكبار فى عصور ازدهار الحضارة الهندية ، كما وصلت نفس الالهامات الى معلمى الفراعنة والاغريق فى عصور ازدهار حضارتهم • وهذا أمر طبيعى اذا ما عرفنا أن الالهام الراقى ظاهرة طبيعية قد أدت دورها الخطير فى تطوير الانسانية منذ فجر التاريخ حتى الآن •

ويتعذر فى نفس الوقت القول بأن هؤلاء الأعلام قد بنوا اقتناعهم على نتائج التحقيقات الوضعية فى الباراسيكولوجى ، لأن هذه النتائج لم تكن فى أيامهم قد أعلنت بعد ، أو لم تكن قد بدأت بعد • وبالتالى لم تكن بالنسبة لغالبيتهم العظمى من ضمن عناصر تكوين اقتناعهم •

فلا ينبغي اذا أن نغفل أن هذه أسماء قمم عالية فى شتى مجالات الفلسفة ، والشعر ، والأدب . ورسوخ القدم فى هذا الميدان أو فى ذاك قد يكون مصدره الأول هو تطور الروح وعراقتها ، ومدى ما وصلت اليه من نضج صحيح بسبب العودة المتكررة للتجسد ، وربما فى فترات متفاوتة . وفى ظروف مؤاتية .

وهذا هو ما يفرق هذه الطائفة من الفلاسفة والمفكرين والشعراء عن طائفة العلماء والباحثين الوضعيين الذين بدأوا منكرين للعودة للتجسد ، وللظواهر الروحية فى جملتها ، ثم تحولوا تدريجيا الاقتناع بها بعد لأى وطول عناء ، وذلك بناء على مقدمات محددة ، وأسانيد محسوسة ملموسة يمكن اخضاعها لكل صور النقد والنقاش .

فاذا صح تعليل اعتناق نظرية العودة للتجسد عند اثنين أو ثلاثة من الأعلام الذين أسلفنا ذكرهم بالاطلاع على الفلسفات الشرقية بوجه عام ، فانه بالنسبة للباقين قد يصح القول بأنها قد جاءتهم عن طريق الالهام أو الحدس ، لأن عبقرية الفلسفة ، أو الشعر ، أو الأدب الراقى عند دارسى التصوف الراقى ، والفكر الرفيع ، كثيرا ما تكون نابعة من محض الالهام أو الحدس(١) .

هـذا وقد تناولت هذا الموضوع الهام وهو موضوع الالهام أو الحدس فى أكثر من موضع سابق عندما عالجت فى الجزء الأول « الفطرة والاحساس بالمجهول »(٢) . وأيضا عندما عالجت فى نفس الجزء مشكلة « العقل والأحلام » (٣) . وسوف أتناول فى الباب التاسع أيضا صلة اللاشعور بالحدس أو الالهام فى ضوء مبدأ العودة للتجسد

---

(١) راجع ما ورد فى الجزء الثانى من «مفصل الانسان روح لا جسد» طبعة رابعة ١٩٧٥/١٩٧٦ ص ٤٨٤ وما بعدها الى نهاية الجزء . وأيضا كتاب « عروس فرعون ، وشوقيات جديدة من عالم الغيب » القاهرة ١٩٧٢ ، وموضوعه برمته هو الالهام الروحى .

(٢) راجع منه بوجه خاص صفحة ٤٧٥ — ٤٩٦ .

(٣) راجع منه بوجه خاص صفحة ٥١٨ — ٥٢٩ .

فلعل الأحاسيس بهــذه العودة تكون قد انزلقت عند بعض هؤلاء الى اللاشعور فدفعتهم دفعا الى الحديث عنها ، والى الاعتقاد بصحتهــا على نحو أو آخر • ومنهم من تحدث صراحة عن رجوع الذاكرة اليــه بسبب وجوده فى أمكنة معينة حركت عنــده ذكرياته القــديمة ، مثل ألفونس لامارتين ، وتيوفيل جوتييه ، وألكسندر ديماس وغيرهم•ومنهم من شــيد فلسفة متكاملة فيمــا وراء الطبيعة تأسيسا على مبدأ العودة للتجسد مثل جون ماك تاجارت اليس •

طائفة أخرى من كبار المفكرين

ومما هو جــدير بالذكر أن المؤلفة ايفــا مارتن Eva Martin فى كتاب عنوانه « حلقة العودة »(١) جمعت ما يقرب من خمسمائة اسم من أبرز أعلام الفكر والفن والشعر فى الشرق والغرب الذين أعلنوا — خلال العصور المختلفة — أنهم يؤمنون بالعودة للتجســد ، وكتبوا فيه نثرا أو شعرا •

كمــا قرر البروفسو لوتوسلاوسكى Wincenty Lutoslawski « أننــا اذا أمكننا أن نجمع ما قاله أحكم الرجال فى جميع الأصــقاع والعصور لكى نحدد موقفهم من هذا الموضوع يمكننا بسهولة آن نؤكد أن أغلبية ساحقة منهم لا تؤمن فحسب بأن لهــا وجودا سابقــا وعودة للتجسد ، بل لقد قاموا بخطوة متقدمة على ذلك ، وهى توسيع اعتقادهم الشخصى الى دائرة نظرية عامة تصدق على جميع الأشخاص ، حتى منهم أولئك الغافلين عن ماضيهم ، غير الواثقين من مستقبلهم » •

ويعلق البحاثة الارلندى شو دزموند Shaw Desmond مؤسس « المعهد الدولى للبحث الروحى » بلندن بقوله ان الوقائع تثبت صحة

---

(١) The Ring of Return.

(١) فى مؤلف عنوانه « عودة التجسد لكل انسان » .
Reincarnation For Everyman P. 66 — 70.

ذلك ، وقد اتفق جميع مؤسسى البرهمية والبوذية على العودة للتجسد — ورغم اختلافاتهم الجوهرية فى أمور كثيرة — كما نجد أن صفحات الفلسفة الهندية غاصة بأسماء الحكماء الذين انضموا الى هذا الاعتقاد بكل جوارحهم خلال ثلاثة آلاف عام • وهو ما ينطبق أيضا على بلاد الفرس ، والصين ، ومصر القديمة ، والدرويد ، والصابيين ، والاغريق ، والرومان ....

ويستشهد دزموند ببعض أقوال شاعر ألمانيا العظيم جوته **Goethe** فى رواية فاوست Faust ، وشاعرى بريطانيا الكبيرين تينسون **Tennyson** و وردزورث W. Wordsworth حتى يصل الى شاعر الهند العظيم طاغور Tagore ثم فيلسوفها المناضل غاندى •

بين « دوام الوجود » و « العودة للتجسد »

وعقيدة العودة للتجسد قد تبدو بحسب المنطق الواضح وثيقة اتصال بعقيدة دوام الوجود الفردى بعد الموت ، أو بالأدق بعد الانفصال عن الجسد المادى بحيث لا يتصور صحتها ، مالم تصح أولا عقيدة دوام فردية الانسان بعد الموت • والعكس غير ضرورى بمعنى أنه من الجائز أن تصح عقيدة دوام فردية الانسان بعد الموت دون التسليم بعقيدة العودة للتجسد من جديد على الأرض على أساس أن الحياة فى أى مستوى من مستويات ما بعد المادة قد تغنى عن الميلاد من جديد على مستوى المادة •

قد يقال هذا ، ولكن الأمر الذى لوحظ لدى ندرة من كبار الفلاسفة والمفكرين أنهم قد تقبلوا التسليم بمبدأ العودة للتجسد الأرضى من جديد ، رغم رفضهم قبول مبدأ دوام الفردية الانسانية بعد الموت بكامل مقوماتها وخصائصها•ومن هذا الفريق الأخير الفيلسوف المتشائم آرثر شوبنهور ، الذى قد يظهر من بعض آرائه عدم اعتراضه على العودة للتجسد من الناحية الفلسفية ، وان ظهر تماما اعتراضه على

مبدأ دوام الوجود الفردى بعد الموت ، وهــذا الدوام هو محور علم الروح الحــديث ، بل حجر الأساس فيــه ، وفى كــل ما ارتبط به من تحقيقات ، وآراء ، وفلسفات •

ومنهم أيضا الفيلسوف فردريك نيتشــه الذى راح يقيم فلســفته برمتها على مبدأ سيادة « الانسان الأسمى » ، وفناء الانسان فى الطبيعة ، لكنه لم يجد غضاضــة من الحديث عن مبدأ « العود الأبدى » الذى استقاه من فلسفة المعلم الدينى الفارسى زرادشت •

وهــذه الحالات النادرة فى الفلسفة الغربية من تقبل مبدأ العودة للتجســد دون تقبل مبدأ دوام فردية الانسان بعــد موته قــد يعلل « بوضعية » العقلية الغربية بوجه عام ، وبالاتجــاه الذى كان سائدا فى الفلسفة المــادية من أن الانسان بالموت يفقــد شخصيته بالاندماج فى المجرى الكونى للحياة وهو مجرى محض موضوعى •

أما بحسب كشوف العلم الروحى الحديث فانه ينبغى التمييز بين « فردية » الانسان و « شخصية » الانسان • فالفردية باقية أزلية لايمكن أن تتلاشى • أما الشخصية فهى متطورة دواما نحو الأفضل — وبالتالى نحو الموضــوع الأسمى — عن طريق تبــادل العيش بين عالمى الروح والمــادة •

وعن طريق التطور تتحول الذات تدريجيا — وببطء شديد — من الخصائص الشخصية الى الموضوعية ، وهــذا هو الهــدف النهائى من تطورها البطىء • أما الذات نفسها فتحافظ على فرديتها على الدوام فى وسط التغيرات التى لا تتوقف ولا تنقطع للجسد وللوعى معا •

ولذا فان الذات حتى عنــدما تصل الى قمة تطورها ، عن طريق التحقيق المتواصل لخصائصها السامية المطلوبة ، قــد تندمج فى المجرى الكونى للحياة ، وتسعد بالنرفانا Nirvana أى تلك السعادة الأزلية التى

لا تشوبها أية شائبة بحسب التعبير الهندى ، وذلك بعد ما تتخلص من شهواتها الترابية ، وأوجه ضعفها وقصورها فى المواهب والملكات ، لكنها تظل مع ذلك محتفظة بفرديتها ، التى لا تقبل التلاشى ولو أرادته باصرار ، كما أن الانسان وهو فى المادة لا يمكن أن يتلاشى ولو أقدم بنفسه على الانتحار .

وعلى أية حال فان الآراء التى تتقبل مبدأ العودة للتجسد ، وفى نفس الوقت ترفض أن تتقبل مبدأ دوام الوجود الفردى بعد الموت هى آراء متناقضة مع نفسها تناقضا واضحا ، لأن مبدأ العودة للتجسد اذا كان صحيحا ، فانه لا يتصور صحته بغير مبدأ دوام الحياة بعد موت الجسد المادى ، ولذا فلم أقابل رأيا ينفى الروح والخلود ويسلم بالعودة للتجسد — ولو على وجه ما — الا عند نيتشه الفيلسوف الألمانى المريض بعقله الذى كان يصر على اتباع أسلوب « خالف تعرف » فى أمور عديدة .

انما الأمر المسلم به عند جميع العلماء والمفكرين الروحيين والوضعيين هو أن التسليم بمبدأ العودة للتجسد يجر بطبيعته الى نفى الفناء وافتراض دوام الوجود الفردى بعد الموت ، على نحو ما ، وصيغة ما من صيغ الوجود غير الخاضعة لحواسنا ، بما يرتبط به ذلك من نواح فلسفية متعددة شدت انتباه كبار الفلاسفة والمفكرين منذ فجر التاريخ .

موقف الاعتقاد فى الماضى

وهذه الجوانب الفلسفية كانت ولا ريب ملحوظة فى رسوخ هذا الاعتقاد فى أديان مصر الفرعونية ، ثم فى اعتقاد عدد ضخم من أبرز فلاسفة الاغريق وعلمائهم المرموقين منهم فيثاغورس Pythagore وسقراط Socrate وأفلاطون Platon ، وأفلوطين Plotin ، وفيلون Philon ، وفيرجيل Virgile ، وأمبدوقليس Empedocle ، وأوفيد Ovide وغيرهم .... ثم تبنته أعظم المدارس الفلسفية عندهم وهى « المدرسة الرواقية » . ثم انتشر عند فلاسفة الرومان ومشترعيهم من أمثال

الامبراطور ماركوس أوريليوس Marc Aurèle والخطيب سيشرون Cicero وغيرهما ....

وبعدهم كان هـذا الايمان الشائع يقع فى الأساس من الاعتقـاد الكنسى استنادا الى نصوص صريحة عديدة فى الانجيل .

ومن أوضح هذه النصوص ما ورد فى العهد الجديد فى انجيل متى (اصحاح ١٧ عدد ١ — ١٣) على لسان السيد المسيح عندما سأله تلاميذه قائلين « فلماذا تقول الكتبة ان ايليا ينبغى أن يأتى أولا ، فأجاب يسوع وقال لهم ان ايليا يأتى ويرد كل شيء ، ولكننى أقول لكم ان ايليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا . كذلك ابن الانسـان أيضـا سـوف يتـألم منهـم ، حينئذ فهـم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنـا المعمدان » ...

لذا فقد تبنى هذا الاعتقاد ودافع عنه عدد من أبرز آباء الكنيسة الأوائل وفلاسفتها وشهدائها ومنهم : سان جوستين الشهيد St. Justin le Martyr ، وسان كليمـان السـكندرى St. Clement وسانت أوريجين St. Origène ، والأسقف سينوسيوس Syenesios وسان جيروم St. Jerome وسانت أوغسطين St. Augustin أسقف هيبو Hippo وهو أبرز آباء الكنيسة الكاثوليكية حتى الآن .

ثم تعثر هذا الاعتقـاد بمقاومة من « المجمع المسكونى الخامس » الذى عقد بالقسطنطينية فى سنة ٥٥٣ م الذى أصدر قراره الشهير بشأن هذا الاعتقاد بأمر من تيودورا Theodora الجاهلة ، التى كانت ممثلة مسرح ثم أصبحت عشيقة ، فقرينة للامبراطور جسـتنيان justinian (٤٨٣ — ٥٦٥) . وبالتالى أصـبحت امبراطورة على جميع الرومان ومن حقها أن تصدر الأوامر الملزمة حتى الى المجامع الدينية .

ومن المعروف من النـاحية التاريخية أن صراعا قد نشب بين أتباع سانت أوريجين الذى كان ينادى بالعودة للتجسد ، وبين منكرى هـذه العودة . كمـا نشب أكثر من صراع حول طبيعة جسـد المسيح عليـه السلام . وكانت الوسيلة لحسم النزاع هى عرضه على المجمع المسكونى الذى عقد فى القسطنطينية فى سنة ٤٥١ ميلادية ، فحاول أن يضـع حلا وسطا للمشكلة لكنه كان فى الواقع أكثر ولاء الى تعاليم سانت أوريجين منه الى تعاليم معارضيه .

وهـذا القرار هام لتفهم الأحداث التى جرت فيما بعد فى المجمع المسكونى الذى عقد بالقسطنطينية . ذلك لأنه أبرز شعبية سانت أوريجين وكانت آراؤه ذات أثر عميـق فى الامبراطور جستنيان Justinian (٤٨٣ ـ ٥٦٥ م) الذى جاء بعد قرنين تقريبا من وفاة سانت أوريجين . وقـد أعلن بطريرك القسطنطينية علنـا تأييـد الامبراطور لآراء سانت أوريجين بناء على طلبه(١) .

* * *

لكن مالبث أن حدث تحول هام لدى جستنيان عنـدما وقع تحت تأثير عشـيقته الممثلة تيودورا Theodora التى أصبحت هى نفسهـا الامبراطورة (٥٠٨ ـ ٥٤٧) . وكانت ذات تأثير قوى عليه ، كما يروى المؤرخون وتكره عقيدة العودة للتجسد فى كل صـورها . فحاولت أن تمحوها من العالم الغربى بسبب جهلها . كما يعتبرها المؤرخون مسئولة عن قتل اثنين من البابابوات ، الى حد أن أصبحت تختار البابا بنفسها ، وبالتالى كانت تمسك بيديها جانبا قويا من زمام سلطانه الدينى وكانت تطلب من كبار رجال الدولة أن يقسموا اليهـا يمين الولاء كالامبراطور

---

(١) تقول « دائرة المعارف البريطانية » عن سانت أوريجين انه أعظم آباء الكنيسة كلهم فيمـا خلا سانت أوغسطين . وكلاهما من المعتقـدين الجازمين فى صحة العودة للتجسد .

سواء بسوء . وكان لها جواسيس وعيون فى كل مكان ، كما تروى « الموسوعة البريطانية » .

وفى هذا الشأن يروى المؤرخ المعروف جونتر روزنبرج Gunther Rosenberg أنها كانت معارضة ـ بسبب جهلها ـ لآراء سانت أوريجين على طول الخط ، وكذلك لقرارات مجمع كالكيدونيا بوجه عام « فصممت تصميما مطلقا على أن تمحو كل اشارة الى العودة للتجسد من تعاليم الكنيسة ، وسيطرت على الامبراطور جستنيان الذى أصبح لا حول له فى مقاومة مخططاتها » . فأصدر قراره الامبراطورى فى سنة ٥٤٣ ميلادية بادانة موقف سانت أوريجين بسبب اعتناقه لصيغة ما من صيغ « الوجود السبقى للانسان » رغم أنه كان قد توفى منذ قرنين سابقين ! ! .. وهكذا كان التمهيد للمجمع المسكونى الثانى بالقسطنطينية بعد هذا التاريخ بعشر سنوات (وهو المجمع الخامس فى تسلسل المجامع الدينية منذ بدء انعقادها) .

* * *

يقول روزنبرج أيضا أنه على العكس مما يعتقد الناس لم يكن مصرحا للبابا نفسه بحضور هذا المجمع . ولقد أنكر هو صحة قراراته ، لكنهم تجاهلوا رأيه وعقد المجمع فى حضور مجموعة من الأساقفة كانت ترغب فى السيطرة على المسيحية ، وكان البابا فرجيليوس Virgilius عاجزا تماما أمام القوة العسكرية المتزايدة للامبراطورية البيزنطية ، خصوصا وأن سلفين من أسلافه ماتا مقتولين بأمر من تيودورا هذه .

كما يقول روزنبرج أنه عندما وافق المجمع على قصر حضور جتماعاته على ستة أساقفة غربيين فحسب تمكن من التمتك بتعاليم سانت أوريجين ، وهكذا محوا العودة للتجسد من اللاهوت المسيحى . وأكثر من هذا لقد أدى الهجوم على آراء أوريجين الى الهجوم على كل آباء الكنيسة الأوائل الذين كانت كتاباتهم تعكس تقديرهم له ، ولم تكن نسخ هذه الكتابات عديدة ، فكان من اليسير سحبها وحرقها .

ويقول روزنبرج أيضا ان ظلاما كثيفا لايزال يخيم حتى الآن على هذا المجمع ، ولم تبذل جهود جدية لكى تكشف عن حقيقة الدوافع التى كانت وراءه ، ووراء أولئك الذين سمح لهم بحضوره • بل يوجد بعض الشك حتى فيما اذا كان هذا المجمع الدينى قد أدان بالفعل آراء سانت اوريجين ••• وهكذا سقطت عقيدة العودة للتجسد فى عالم الاعتراض ، ورصفت بانها هرطقة ، وألغيت كل مناقشة بشأنها فى العصور الوسطى ، حيث كان قد بدأ عصر محاكم التنقيب والتحرى واضطهاد كل من يعارض « الفقه الدينى المستقر » •

* * *

ويبدو لى أنه كان من ضمن دوافع تيودورا على استصدار هذا القرار من المجمع المسكونى ليس فحسب جهلها الطبيعى بأمور الاعتقاد والعلم ، بل أيضا تصورها الاله على صورة ملك شخصى ينبغى أن يتقى الانسان غضبه بالزلفى له والرياء ، وهو موقف شائع جدا حتى الآن فى تصور الاله •

ولا ريب أنها كانت تتصور أن فى مثل هذا القرار المزيد من الزلفى والرياء كما يبدو من صياغته العجيبة • كما كانت تتصور أن انكار العودة للتجسد فيه المزيد من الاقرار لله بسلطاته المطلقة فى الخلق والانشاء ، وفى الثواب والعقاب ، وفى توزيع المواهب والأرزاق ، وفى حكم الكون بلا نواميس ولا ضوابط ••• ألم يحدث فى تاريخ لاحق أن قاوم المتزمتون اكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية « لأنه يخلع العناية عن عرشها » كيما يضع بدلها بدعة عجيبة تسمى « قانون الجاذبية » ؟ !

وقد لاحظ عدد من كبار الفلاسفة منهم توماس هوبز T. Hobbes أن « الصفات التى نخلعها على الاله ليست الا أسماء نعبر عن عجزنا عن معرفته ، وعن رغبتنا فى وصفه بعبارات تمجيدية من شأنها ارضاء قوة

مجهولة ... وكل تقــدم فى المعرفة العلمية والفلســفية معناه التضييق النسبى لمجال الأسماء اللاهوتية » .

فلم تكن تيودورا تحب الله أو تفهمه أكثر من سانت أوريجين ، بل كانت فى تقــديرها تتزلف الى الله غير مدركة أنه لا يحقــد ، ولا يمالىء أحدا ، وأن سلطانه على الكون لا يتوقف على موقفنا منه ، وتزلفنا اليه. وغير مدركة أنه يختلف تماما عن طغــاة الأرض الذين يبحثون عن متعة الملق ، ويحيطون أنفسهم بالأذناب والمرائين .

وهذا هو كل الفارق بين الايمان باله موضوعى — لا حدود له — يحكم الكون بنواميس موضوعية مطلقة من الحكمة والترابط والعدالة — وهذا هو نوع ايمان سانت أوريجين — وبين الايمان باله شخصى يحكم الكون بميوله ونزواته وأهوائه — وهذا هو نوع ايمان تيودورا — فأى نوع من الايمان نختار لأنفسنا ؟ ! ان لنــا لحديثا فى هــذا الشأن فى موضوع لاحق .

* * *

ومع ذلك فمن يمعن النظر فى قرار مجمع القسطنطينية هذا يدرك تماما أنه لم يتضمن ادانة حقيقية لمبدأ العودة للتجسد ، بل بالعكس قبولا لهذا المبدأ فى جوهره . اذ ينص هــذا القرار على أنه « اذا قال أحــد أو فكر فى أن نفوس البشر كانت توجد من قبل ، باعتبار أنها كانت فيمــا مضى أرواحا ، وأنها كانت ذات فضائل مقدسة ، وأنها قــد ارتوت من التأمل الالهى ، ولذا فقد انحرفت ، وبالتالى قد فتر حب الاله فيهــا ، وأصبحت تدعى أرواحا خاطئة واستحقت أن ترسل فى أجســاد أرضــية كعقاب ... ان من يقول أو يفكر فى ذلك يعتبر مجدفا Anathème

ولا يعتقد أصحاب عقيدة العودة للتجسد أن عودة الأرواح تكون بسبب الملل من التأمل فى عظمة الاله ، أو بسبب فتور حب الاله لديها . بل انهم يرون أن العودة لا تكون دائما بمثابة عقاب ، بل قــد تكون فى

كثير من الأحيان محض اختيارية لأداء خدمات معينة لبنى البشر عن طريق العيش بينهم ، أو لاكتساب خبرات مقصودة يريد العائد أن يكتسبها بمحض ارادته واختياره ، فعندئذ لا يكون هناك بمفهوم المخالفة أى تجديف فى القول •

ويكون قرار مجمع القسطنطينية بالتالى قد أقر مبدأ العودة للتجسد فى جوهره ، وفيما خلا احتمال القول « بالملل من التأمل فى عظمة الاله ، أو بسبب فتور حب الاله لدى الروح العائدة » • وهذا القول الأخير لم يقل به أحد من الروحيين ، أو من الباحثين الجادين • ولذا نجد أن عددا من هؤلاء الباحثين يلاحظ بحق أن جانب تأييد مبدأ العودة للتجسد فى هذا القرار التاريخى أوضح من جانب رفضه كلية ، ومنهم روزييه Rozier ، وبابيس Papus (دكتور جيرار أنكوس Gérard Encausse)

عن الوضع اللاحق لقرار مجمع سنة ٥٥٣

على أنه رغم صدور قرار المجمع المسكونى الخامس فى سنة ٥٥٣ بشأن الاعتقاد بالعودة للتجسد ــ على هذا النحو الملتوى الذى ذكرته وبأمر صريح من تيودورا ــ فان عددا من أبرز آباء الكنيسة ظل متمسكا بصحة هذا الاعتقاد نذكر منهم هنا : ــ

ــ الراهب الفيلسوف سان بونافنتورا St. Bonaventura (١٢٢١ ــ ١٢٧٤) وهو صاحب كتاب « رحلة النفس الى الله » • ويعتبره اتين جلسون صاحب كتاب « روح الفلسفة فى العصر الوسيط » أكبر ممثلى التصوف العقلى الذين ينتمون الى ديوسان فكتور الأوغسطينى بباريس ، هو وتلميذه ريشار Richard •

ــ سان فرانسوا الأسيسى St. Francois d'Assisses وهو مؤسس نظام الفرنسيسكان (١٣٨٢ ــ ١٤٢٦) وعيده السنوى فى ٤ أكتوبر من كل عام •

---

(١) للمزيد راجع Papus : La Réincarnation : L,evolution Physique, Astrale et Spirituelle. P. 171 — 177.

— الفيلسوف الديني الايطالي توماس كامبانيللا Thomas Campanella (١٦٥٨ — ١٦٣٩) المعروف بنضاله المرير ضد الفلسفة المدرسية (التي كانت تدرس في مدارس الغرب في القرون الوسطى) . وهو من أوائل المنادين في الغرب باتباع الأسلوب الوضعي في تحقيق الأمور . وآراؤه مزيج من الفلسفة الوضعية ومن التصوف . وقد قاسى طويلا من السجن والاضطهاد . ولجأ الى فرنسا حيث مات فيها ، وأهم مؤلفاته « مدينة الشمس »(١) .

— ويلي هؤلاء عددا آخر من أبرز مؤسسي الكنيسة اللاتينية وأساقفتها من طراز سان جريجوار St. Gregoire وسان هيلاريوس St. Hilaire ، وسان مارتان St. Martin ، ونيمسيوس Nymesius ، وآخرون عديدون ممن وجدوا في عقيدة « العودة للتجسد » تفسيرا واضحا لأمور غامضة كثيرة . ومنها بوجه خاص مشكلات العدل الالهي ، والرحمة ، والقدرة السماوية على درء الشرور . وكلها مشكلات تبدو في نظرهم غير قابلة للحل بدون هذا التعليل بعودة الروح الانسانية للتجسد على الأرض عدة مرات .

— ومنذ سنة ١٨٦٠ نشر الأسقف الأمريكي و . ر . آلجر W. R. Alger دراسة متعمقة في موضوع الخلود عنوانها « نقد تاريخي لفقه الحياة المستقبلة »(٢) .

وفي طبعته العاشرة الموسعة الصادرة في سنة ١٨٨٠ تبنى هذا الأسقف الدفاع عن قضية العودة للتجسد ، بوصفها تتضمن التفسير الوحيد الذي يتلاءم مع ما يبدو بين الناس من تفاوت صارخ في ظروف الحياة ، مقرونا بالظلم ، وانتصار الشر في كثير من أحوال الحياة البشرية .

---

(١) La Cité du Soleil.

للمزيد في هذا الشأن راجع : E. D. Walker : Reincarnation. : A Study of Forgotten Truth P. 232 — 237.

(٢) A Critical History of the Doctrine of a Future Life

ويقول ك • جـ • ديكاس C. J. Ducasse أستاذ الفلسفة بجامعة براون بأمريكا ، وعضو « الجمعية الأمريكية للبحث الروحى » تعليقا على هذا الرأى ، انه لا يكفى وحده فى اثبات العودة للتجسد ، لأنه من الجائز أن يكون العالم مليئا بالظلم ، وبانتفاء المساواة ، وبالشر ، كما يبدو لأعيننا ، ومع ذلك فان افتراض العودة للتجسد لا يكون ثابتا •

انما يثبت هذا الافتراض كما تثبت هذه الواقعة : وهى كيف يعرف أى واحد منا أنه يعيش على الأرض منذ عدة أيام ، أو منذ عدة شهور ، أو عدة سنوات خلت ؟ والجواب أنه الآن يذكر أنه عاش فعلا منذ هذا التاريخ المبكر ، فى مكان ما ، أو فى ظروف معينة ، وأنه قام بأفعال معينة ، ومر باختبارات محددة ..(١) •

وهذا هو بعينه أسلوب تحقيق ظواهر « رؤى من قبل » أو « سمع من قبل » الذى يتبعه الآن عدد من أبرز الباحثين فى الباراسيكولوجى مثل أيان ستفنسون I. Stevenson على ما سنعود اليه فيما بعد •

* * *

ولايزال هناك عدد من آباء الكنيسة فى الغرب ينادى باصرار بصحة مبدأ العودة للتجسد ، والتئامه مع أمور الاعتقاد • ومن هؤلاء المعاصرين الأسقف والمفكر المعروف ليزلى د• ويذرهيد Leslie D. Weatherhead (٢)•ومنهم الدكتور بتلر Butler أسقف دبرهام Durham ببريطانيا ، والدكتور هنرى مور Henry Moore ، والدكتور شيين Cheyne • ومنهم أسقف كاليفورنيا السابق جيمس بايك James Pike

---

(١) وذلك فى تقديم ديكاس لكتاب « عشرون حالة ترشح للعودة للتجسد » ١٩٦٦ من عمل أيان ستفنسون •

(٢) للمزيد عنه راجع مؤلفنا فى « العودة للتجسد بين العلم والفلسفة والاعتقاد » ١٩٧٦ ص ٥٠ ــ ٥٢ • وعن ويذرهيد ، وتاريخه ، وآرائه راجع كتاب رابنور جونسون Raynor Johnson مدير « كلية الملكة » بجامعة ملبورن الذى عنوانه « الضوء والبوابة »
The Light and the Gate. London 1964 P. 241 — 293.

هذا وقد أجرى محرر « الجريدة الروحية » Psychic Magazine حوارا كالآتى مع هذا الأخير :

ـ هل تتعارض العودة للتجسد مع المسيحية ؟

ـ ان هذا سؤال مغاير للسؤال الآخر : هل هذا صحيح ؟

ومع ذلك فأنا لا أرى هنا أى شيء مخالف للتقاليد العامة للمسيحية: فقد كان هناك أربعة من ثمانية من آباء الكنيسة الأوائل يؤمنون بالعودة للتجسد . وكان أربعة من هؤلاء من اللاتين وأربعة من اليونانيين ، وهذه نسبة طيبة .

وكان السامريون يعتقدون أن مخلصهم سيكون هو موسى الجديد ، أو أن موسى سيعود ثانية . والانجيل الرابع يشير الى عودة المسيح فى الجسد اذا شئت .

وماذا يمكن أن تعنى عقيدة العودة الثانية التى يؤمن بها الآن العديد من المسيحيين ؟ واذا عاد ثانية فهذه هى العودة للتجسد .

ولكن هذا ما يذهلنى من الأشخاص الحرفيين ، أنه من الأيسر لى أن أقول اننى اقتنعت بصحة المسح الذى قام به الدكتور ستفنسون وبحثه للموضوع (لنا اليه عودة فى الفصل المقبل) . وبأن هذا كله موجه لهم هم ، وأعتقد أن من واجبهم أن يتقبلوا ستفنسون بوصفه صديقا لهم ، لكنهم لا يفعلون ذلك بل يهربون منه ! !(١) .

* * *

وعندما أتيحت لى فرصة حضور « المؤتمر الروحى الدولى الحادى عشر » الذى انعقد فى لندن فى أغسطس/سبتمبر ١٩٧٨ أذكر أنه

---

(١) راجع الحوار منشورا فى كتاب عنوانه : Psychics : In depth Interviews from Psychic Magazine. London 1972 P. 141.

قد جمعنى مجلس مشترك مع بعض الأعضاء القادمين من البرازيل . وهى بلاد تضـم حوالى مائة وعشرين مليون نســمة أغلبهم من الكاثوليك المحافظين ومن سلالات أصلها من البرتغال ، وأسبانيا ، وايطاليا ، وألمـانيا وغـيرها ....

والروحية منتشرة هناك الى حد لا يضارعه من الناحية الشعبية أى بلد آخر . فلا تخلو مدينة من عدة جمعيات كبرى وصحف منتظمـة(١) ولا يخلو حى من دائرة روحية . وهى أول بلد فى العالم أقام مستشفى ضخما متخصصا للعلاج الروحى يتسع لستمائة سرير على ما وضحته فى البـاب السابق ، بالاضافة الى العشرات من المستشفيات الأخرى الأقل منه اتساعا .

والأمر الهام هنا أننى عندما سألت أحدهم عن مدى ذيوع الاعتقاد بالعودة للتجسد هنـاك ؟ قال انه ذائع الى حد أنه أصبـح من الأمور المألوفة حتى فى الكنائس التقليدية حيث قد تجرى الاشارة الى العودة للتجسد وقانون الكارما أحيانا فى الوعظ الأسبوعى(٢) ! ! . وعنـدئذ سألته ما موقف الفاتيكان من هذا التحول الهـام ؟ أجاب قائلا يبدو أنه واقف على الحياد تاركا لكل متكلم أن يكون رأيه حسبما يشاء ، وحسبما يهديه اليه اقتناعه الخاص . فلا يوجد أى تدخل منـه فى هذا الشأن ، لأنه فيما يبدو يقدر تماما أبعاد الأدلة التى كشف العلم الحديث النقاب عنها وتعذر دحضها أو تجاهلها(٣) .

واذا كانت هذه هى الحال فى الكنائس التقليدية ، فهى كذلك من باب أولى فى الكنائس الروحية . وهذه الكنائس الأخيرة تعد بالآلاف

(١) يتراوح عدد الصحف والمجلات الروحية المنتظمة هناك بين مائتين وثلاثمائة ، وهو عدد لا نظير له فى أى بلد فى العالم .

(٢) لنا وقفة كافية عن « قانون الكارما » فى البـاب الأخير ، حيث سنفرد له فصلا على حدة .

(٣) ولعله لهذا الاعتبار نفسه أنشأ الفاتيكان منذ حوالى عشر سنوات مركزا خاصا به للبحوث الروحية .

هنـــاك ولا تخلو منهـــا مدينة خصـــوصا فى شـــمال البرازيل ، أما فى انجلترا فقـــد قدروا عددها منذ عـــدة سنوات بحوالى ألف ، وهـــذا الرقم ارتفع الآن فيما يبدو من شواهد عديدة •

* * *

هذا وقد سئل المندوب البابوى فى باريس — وهو نفســه الذى أصبح فيما بعد بابا روما باسم يوحنا الثالث والعشرين — عمـــا اذا كان يعتقد فى صحة مبدأ العودة للتجسد فأجاب قائلا بصراحة خلابة تسترعى الانتباه « نعم ، ولكن ليس من حقى أن أقول ذلك »[1] •

وبطبيعة الحال لم يكن من حق المندوب البابوى أن يتحدث باسم الفاتيكان فى قضية كبرى كهذه القضـــية ، لكنه أراد على أية حال أن يكون صادقا فى التعبير عن اقتناعه الخاص ، شأنه فى ذلك شأن لفيف آخر من رجال الدين الذين كونوا اقتنـــاعهم الخـــاص بنتائج التحقيقـــات العلمية المحايدة المتزايدة •

ومهما يكن مدى شعور رجل الدين بضرورة الارتبـــاط بمفاهيم المـــاضى . الا أن هذا الشعور لا يصح أن يكون على حساب المفـــاهيم العلمية الثابتة ، سواء فى القضايا الكلية أم الجزئية على حد سواء ، لأنه ليس من مصلحة أحد فصم الاعتقاد عن العلم ولا العلم عن الاعتقاد •

وقرارات المجـــامع الدينية بوجه عام يسرى عليهـــا قانون احتمال الخطأ والصواب شأنها فى ذلك شأن غيرها من الهيئات ، خصوصا عندما يكون قـــد مضى عليهـــا عـــــدة قرون • ويلزم أن تجىء قراراتهـــا معبرة عن رغبة الارتباط المتواصـــل بالحقائق العلمية المتجددة أكثر مما تجىء معبرة عن رغبـــة الاصرار على قرار أو آخر من قرارات المـــاضى القريب أو البعيد •

---

(1) عن : Jean — Francis Crolard : Renaitre Après la Mort, Paris 1979 P. 34.

وعلى أية حال فانه رغم القرار الذى أصدره — مجبرا — مجمع القسطنطينية فى سنة ٥٥٣ م فقد ظل الاعتقاد فى العودة للتجسد سائدا حتى بعد صدوره لدى العديد من آباء الكنيسة الذين سلف بيان بعضهم ، ولدى بعض المذاهب المسيحية التى منها طائفة الغنوطيسية ، والالبيجيين ، والميثوديست Methodist • وابتدأ الآن يظهر واضحا من جديد فى العديد من التيارات الدينية المعاصرة فى الغرب بتأثير من رغبة وصل المفاهيم الدينية بالحقائق التى تكشفت عنها التحقيقات العلمية الحديثة •

عن « العودة للتجسد » فى الاسلام

وفى الاسلام تبنى صحة هذا الاعتقاد لفيف من أحسن الفلاسفة والمفكرين الدينيين ، استنادا الى العديد من الآيات الكريمة الصريحة ، التى يصح أن يقال فيها حقا انه « لا اجتهاد مع وضوح النص » •

ومن هذه الآيات الكريمة مثلا : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون » (سورة البقرة ٢٨،٢٩) و « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » (سورة طه ٥٥) و « قالوا ربنا أمتنا اثنتين ، وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا . فهل الى خروج من سبيل » (سورة غافر ١ ، ١١) •••••

ومن هؤلاء الذين تبنوا هذا الاعتقاد بالعودة للتجسد واحد لايزال معتبرا من قمة فلاسفة الاسلام وهو يعقوب بن اسحق بن محمد الكندى (ولد فى أواخر القرن الثانى من الهجرة) •

ومنهم الفيلسوف شهاب الدين عمر بن محمد السهروردى (٥٣٩ — ٦٣٢ هـ) ، وأحمد بن خابط (توفى فى سنة ٢٣٢ هـ ٨٤٦ م) ، وعبد الله بن سبأ ، وجعفر القاضى ، وأبو مسلم الخراسانى ، ومحمد ابن زكريا الرازى ، والحسين بن منصور المعروف بالحلاج ، ومحيى الدين

ابن عربى ، وأصحاب أبى يعقوب المزايلى ، وأبى جعفر محمـد بن على الشلفانى المعروف بابن أبى الفرائز ...

وتكاد جميع المذاهب الصوفية تلتقى عنـد التسليم بصحة هـذا المبدأ سواء منها القديمة أم الحديثة . وهذا بالاضافة الى بعض المذاهب والفرق الاخرى التى منهـا فرق المحمـدية ، والعلبـانية ، والمغيرية ، والقدرية ، وقد ذكر ذلك جماعة من مصنفى كتبهم منهم اسحق بن محمد النخعى فى كتابه المعروف « بالصراط »(١) .

ماذا يقول عبد الرزاق نوفل ؟

ويتحـدث الدكتور عبـد الرزاق نوفل — وكيل وزارة التجـارة الخارجية ، وهو بحاثة معروف وعضـو مبرز فى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ومقرر « لجنة التعريف بالاسلام » بهذا المجلس — عن هـذه العقيـدة من الناحية الدينية فيقول « وتفيد آيات القرآن الكريم وجود خلق أكثر من مرة للانسان مما يؤكد ويساند هذا الرأى . وذلك فى مثل النص الشريف « وهو خلقكم أول مرة »(٢). فذكر القرآن الكريم للخلق أول مرة انما يفيد وجود أكثر من خلق . وهذا الخلق الآخر المقصود غير قيام الناس يوم القيامة ، اذ أن القرآن الكريم لم يطلق على قيام القيامة الخلق وانما أطلق عليه البعث ...

وفى نفس المعنى وتوضيحا له نجد أن هناك آيات كريمة قد أوردت اعادة الخلق . مما يؤكد وجود أكثر من خلق ، وذلك مثل النص الشريف « قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون »(٣) . وهذا النص يشـير علاوة على زيادة الخلق عن مرة الى أهميـــة الخلق الأول الذى بدأ به الخلق . كما أن آيات الخلق الأول ثم اعادته وردت بعد عمليات الخلق

---

(١) راجع للمزيد مؤلفنا فى « العودة للتجسد » ص ٥٢ — ٧٠ .
(٢) آية ٢١ سورة فصلت .
(٣) آية ٣٤ سورة يونس .

والرجوع الى الله ، وذلك فى مثل النص الكريم « الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون »(١) .

خلق فى البداية ، ثم اعادة للخلق ، ثم الرجوع الى الله . ورجوع لفظ لا يحتاج الى تفسير أو بيان ، فالرجوع معناه العودة . حيث كان الانسان مرة . فكأن الانسان كان عند الله سابقا ثم خلق فى الحياة ، ثم سيرجع الى ما كان عنده ، وسيكون ذلك بعـد الحياة ثم الموت ، وذلك كما تنص الآية الشريفة « هو يحى ويميت واليه ترجعون »(٢) .

كما توجد آيات شريفة كثيرة قررت عودة الانسان الى عالم الغيب مما يؤكد وجود الانسان فى هـذا العـالم الغيبى ، ثم غادره فسيعود اليه مرة أخرى . ورد الانسان الى جهة انما يفيد وجوده السابق فيها . وفى ذلك تقـول آيات القـرآن الكـريم « وستردون الى عالم الغيب والشـهادة »(٣) .

فلاشك اذا فى أن الانسان كان فى عالم الغيب قبل عالم الشهادة ، أى كان فى حياة سابقة لحياته الأرضية ، ولذلك نجد أن القرآن الكريم قد قرر أن للانسان حياتين وموتتين بالنص الكريم « قالوا ربنـا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين »(٤).ويكون المعنى الواضح القريب للآية الشريفة وجود حياتين للانسان وموتتين كما يفيد النص . وليست مرتين بالعدد ، وبذلك فالآية أوردت وجود نوعين للحياة ونوعين للممات ولم تقصـد مجرد العدد ، لذلك قالت « اثنتين » لتختلف عن « مرتين » التى تشير الى العدد . .

وبعد أن يستشهد المؤلف بآيات كريمة أخرى يقول « فدون أى بحث

(١) آية ١١ سورة الروم .
(٢) آية ٥٦ سورة يونس .
(٣) آية ١٠٥ سورة التوبة .
(٤) آية ١١ سورة غافر .

أو اجتهاد ، وبلا لبس أو غموض ، تقرر الآيات الشريفة أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق جميعا يوما ما قبل مولدهم المعروف ، فأخذهم من ظهور آبائهم وأشهدهم على أنفسهم أنهم به يؤمنون ... » .

وهكذا تأكد الأمر ووضحت الحقيقة ، ولم يعد هناك أى مجال للبحث ، فلقد كان للانسان حياة سابقة على حياة الأرض ، فكم يا ترى استمرت هذه الحياة ؟ وعلى أى شكل كانت ؟ كيف كان يعيش الخلق ؟ وهل كانوا جميعا فى وقت واحد . أم تعاقبت الخلائق ؟ وكم ظل الانسان فى هذه الحياة ؟ لاشك أنها فترة طويلة اذ تعلم وشهد وأقر ثم رجع الى ظهر آبائه حتى يحين موعد مولده فى الحياة الدنيا ... » .

ثم يقول المؤلف « ان الآيات المنظورة التى نراها بأعيننا فى حياتنا الدنيا موجودة وواضحة فى كل ما خلق الله ، ولاشك أنها كذلك كانت الآيات المنظورة التى رأيناها فى حياتنا السابقة . فان فى كل خلق الله آيات وآيات » ...

فآيات السماء والأرض كانت الآيات المنظورة للخلق فى حياتهم السابقة ، وهى نفسها الآيات المنظورة لهم فى حياتهم الدنيا . كما أن خلق الانسان نفسه هو آية منظورة جلية وواضحة . وكما هو آية له فى حياته السابقة حيث خلق فهى آية له فى حياته الدنيا لأنه خلق فيها أيضا . وكذلك كل كائن حى يدب فى السماء أو الأرض انما هو آية منظورة يراها الانسان فى حياته السابقة والحالية ... »(١) .

ماذا يقول عبد العزيز جادو ؟

وفى هذا الشأن يضع المفكر المعروف الدكتور عبد العزيز جادو كتابا قيما عنوانه « العودة للتجسد فى المفهوم العلمى الحديث »

---

(١) عن كتاب « أسرار وعجب » ص ١٨ — ٢٥ .

(١٩٧٤) • وهو كتاب غنى بالأسانيد العلميـة والدينية التى تسـند دعوى العودة للتجسد فى الاسلام •

فبعد أن يستشهد المؤلف بالعديد من الآيات الكريمـة وشروحهـا المعتمدة يقول : « تظهر الروح لكى تؤدى ــ وفقا لعرف معين ــ عملية التطور التى هى أصلا سبب الوجود • ولهـذا التطور حاسة غائية فذة هى التطور الأخلاقى • ونظرا الى أنه ليس فى الامكان ادراك هذا التطور خلال حيـاة واحـدة مفردة بمقتضى قانون طبيعى ، فمن الضرورى أن تؤديها على مراحل أو أطوار على قدر ما هنالك من ضرورة ، حتى تضىء الحقيقة الالهيه بكل فخامتها وأبهتها ، وبكل اشراقاتها السرمدية ••••

ثم يقول « وهكذا يتم توزيع العـدل الالهى بالتساوى على كل المخلوقات وعلى جميع الكائنات • وثمـة تعبيران جميلان يترجمان قلب القانون ولبه : وهما المحبة والحكمـة • الأول يهـدى الى الصلاح ، والتقوى ، والكمال ، والطيبة ، والثـانى يقود الى التعلم والمعـرفة ، والخبرة ، والتجربة • وهـذه الأهداف هى القوة المنظمـة والوجهـة الصحيحة للعدل الالهى • بمعنى آخر هى الهـدف الموضوعى للوجود ، والسبب الفعلى للحيـاة كبوتقة فيها اختبار قاس للنفوس فى التطور ، وصورة المطلق أو الحقيقة المطلقة تتطلب العمل والتنسك والفهم•والفهم الروحى انمـا هو بالانتصار ، وبالأشياء المكتسبة ، وبالتحصيل • ويتم هذا عن طريق مرات عديدة من رجعة الروح للبحث عن قدرها،فاذا وصلت الى هذا الوقت ، فان الحاجة أو الرغبة الملحة لعودة التجسد ستختفى من سبيل الروح المتطورة »(١) •••

ثم يضيف قائلا : « ولقد عملت الجماعات الصوفية جهدها للتمييز بين العودة للتجسـد Reincarnation والرجعية Transmigration

---

(١) عن « العودة للتجسد فى المفهوم العلمى الحديث » المرجع السابق ص ٦٤ ، ٦٥ •

وتعدد الحيوات أو التجسدات المتكررة Métempsychosis اذ أن الأمر كان ملتبسا بينها سواء فى الشرق أم فى الغرب .

والمبدأ المقرر بأن الروح التى كانت تعيش من قبل فى صورة بشرية لا يمكن أبدا أن تعاد ولادتها فى جسد مادى لحيوان اذ أن المخلوقات الآدمية التى لم ينم نضجها وارتقاؤها ربما تسلك سلوكا بهيميا أو تتصرف بكيفية وحشية ــ واضح وصريح .

كما يقول أيضا : « وفى العصر العباسى حين التقت الثقافتان الهندية والعربية اعتنق بعض الفرق الاسلامية هذه العقيدة مثل:البيانية ، والخباجية ، والخطابية ، والراوندية ، والقدرية ، والنظامية(١) . ويروى البيرونى أن بعض المتصوفين المسلمين ذهب الى هذه العقيدة فى بعض معتقداتهم .

وفى كتاب « الزهر » أو كتاب « النور (٢) نقرأ : « أن الأرواح كلها خاضعة لتجربة الرجعة ، اذ أن الروح يجب أن تدخل مرة أخرى فى الجوهر المطلق الذى منه انبثقت . ولكن لكى تتم هذه الغاية وتكمل ، يجب عليها أن تنمى جميع الكمالات وتحسنها ... أى أن الجرثومة أو المنطقة التى زرعت فيها ينبغى أن تبلغ أعلى درجات الكمال . واذا هى لم تحقق هذه الحالة فى خلال حياة واحدة ، وجب عليها أن تبدأ من جديد فى حياة ثانية ، وثالثة ، وهكذا الى أن تنال الحالة أو الدرجة التى تناسبها للوصول أو التوصل الى رحاب الله » ...

ويمكن أن يقال نفس الشىء فيما يتعلق بتعاليم « الكارما » أو القانون الأخلاقى الخاص بالسبب والنتيجة ، أو العلة والمعلول . وفى

---

(١) يحيل المؤلف القارىء الى كتاب « عن الفرق بين الفرق » للبغدادى ص ٦٥٣ .

(٢) وهو كتاب يحتوى على الفلسفة القبلانية .

الكتب المقدسة اشارات كثيرة تشير الى هذا المعنى • ففى القرآن الكريم كثير جدا من الآيات البينات التى تفهم منها ما يعنيه هذا القانون :

« من عمـــل صالحا فلنفســـه ، ومن أساء فعليهـــا ، ثم الى ربكم ترجعون »(١) •

« من عمـــل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليهـــا ، وما ربك بظلام للعبيـــد »(٢) •

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٣) •

« وليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط »(٤) •

* * *

ويخلص الدكتور جادو الى النتيجة الهامة الآتية وهى أننا « ليس لنا أن ننسى أن الاسلام ، دين المسلمين فى بقاع الأرض من المشرق الى المغرب ، أقر هـــذه العقيـــدة ، كمـــا أقرتهـــا المسيحية ، واليهودية ، والبوذية ، والهندوكية • ولقـــد ذكرنا فى بعض فصول هـــذا الكتاب ، وبالأخص فى الفصـــل الأول منه كثيرا من الشـــواهد والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التى يستدل منها على هـــذه الحقيقة • وهذا دليل واضح على أن عملية التطور من المـــادة الى الروح ، ومن النقص الى الكمال ، انما تتم عن طريق العودة للتجسد » •••

كما يخلص الى أن المقصود بالولادة الثانية ليس الرجوع الى هذه الأرض بأنفسنا الحالية ، فلا تتجسد ثانية كما كنا • وهـــذه الشخصية بمميزاتهـــا الجسمية والنفســـية والعقلية ، وباســـم الذى أطلق عليهـــا والسلالة والعقيدة والجنس والنظرة الى الحيـــاة لا تعود ثانية • وطبقا

---

(١) سورة الجاثية آية ١٥ .
(٢) سورة فصلت آية ٤٦ .
(٣) سورة الزلزلة آية ٧ ، ٨ .
(٤) سورة يونس آية ٤ . وللمزيد راجع عبـــد العزيز جادو المرجع السابق ص ٧١ — ٧٣ .

للحكمة القديمة يطرح بالموت الجسم الوقتى الترابى ولا يبعث ثانية . ويحدث نفس هذا الأمر مع الجهازين النفسى والعقلى(١) . وما ينظر اليه المرء هنا على الأرض على أنه روحه ليس فى حقيقة الأمر روحه الحقة . بل ان هذه متميزة تماما عن الجسم المادى ولو أنها تحتله . وهى لا تموت لأنها خالدة وأزلية بعكس الجسم ، فان مصيره الى الفناء لأنه فان بطبيعته ...

وطبقا لعقيدة العودة للتجسد فان الذى يعود هو النفس الالهية أو النزيل الالهى بداخل الجسم لا الجسم الفانى أو الانسان الجثمانى بمشاعره وأفكاره العابرة . ولذا فاننا حينما نعترض على الولادة الجديدة بمقولة أننى « لست أرغب فى العودة » يجب أن نضع نصب أعيننا أننا لا يجوز لنا أن نخشى شيئا ، فنحن كما نفهم أنفسنا عادة لا نرجع ، بل ان الذى يرجع الى التجسد هو الجوهر الكامن أو الروح بخلالها الفردية المكتسبة(٢) ...

ماذا يقول مصطفى محمود ؟

وفى هذا الشأن أيضا يكتب المفكر الدينى المعروف الدكتور مصطفى محمود أكثر من مقال له . فى أحدها بعنوان « هل كان لنا وجود قبل أن نولد ؟ » يقول « يلازمنى احساسى منذ بدأت أعى وأدرك وجودى أننى كنت موجودا دائما ، وأنى حقيقة ، ولست أمرا طرأ بالميلاد . أنى كنت هنا أو هناك فى مكان أو لا مكان لست أدرى . انما هو احساس دائم ومؤكد بالحضور لا أعلم كنهه ومصدره .. وكل ما يحدث أمامى الآن هو مرور شريط متتابع لأحداث متتالية لماض وحاضر .

---

(١) يحيل المؤلف القارىء الى كتاب « الموت وما بعده Death & After تأليف انى بيزانت Annie Bessant .

(٢) يحيل المؤلف القارىء الى كتاب « العودة للتجسد حقيقية أم خيال ؟ » تأليف جودفرى هدسن ترجمة الأستاذ زكى عوض المحامى .

وهو شريط يمر أمامى ولكنى فى الأعماق خارج عن هذا الشريط واقف على عتبة حضور مستمر وآنية مطلقة لا تعرف زمنا •••• ويؤيد هذا الاحساس الداخلى حقائق الدين التى تقول بأنى أحاسب وأعاقب وأموت وأنا أتنقل الى حياة برزخية ، ثم بعث ، ثم الى خلود فى نعيم أو خلود فى شقاء •••

وبعد أن يسوق الدكتور مصطفى العديد من الأسانيد الدينية يقول « ثم لماذا يقول المجرمون يوم انكشاف الحقائق ساعة البعث والحساب • « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ، فهل الى خروج من سبيل » (١١ — غافر) متى كانت هاتان الموتتان ونحن لا نعلم ولا نرى الا ميتة واحدة ؟ ••••••

تلك حياة ممتدة اذن •• ووجود ممتد •• له فصول •• فصل بعد فصل وخلق بعد خلق •• لم ننقطع عن الحضور لحظة منذ الأزل ، وانما ظللنا فى انتقال من حال الى حال •• ولم يكن أمرنا أبدا عدما معدوما •

ألهذا يحدث دائما أن نحب أحدا دون مقدمات ، أو تنفر منه دون مقدمات •• أيكون هذا الشوق لمعرفة سابقة ولقاء سابق قبل الميلاد فى ذلك الغيب الأول •• أهى ذكرى باهتة لتلك النفوس التى تعارفت وتنافرت وتحابت وتناكرت منذ الأزل ؟ ! » •••(١) •

وغير من سلف ذكرهم يوجد لفيف آخر من المفكرين الناطقين بالضاد ممن اقتنعوا بصحة هذا الاعتقاد ، ووجدوا أنه — فضلا عن التئامه مع النصوص الصريحة — يلتئم مع الحقائق التى وصل اليها العلم الحديث(٢)•ويوجد لفيف ضخم من صفوة المفكرين المقتنعين بالعودة

(١) الأهرام عدد ١٣ أغسطس ١٩٧٩ ص ١١ .
(٢) منهم الأستاذ سعيد اسماعيل فى كتاب حديث له عنوانه « الانسان والأشباح والجن » يونيو ١٩٨١ صفحة ٢٩ — ٣٢ .

تجسد فى سوريا ، ولبنان (١) . والعراق ، ودول الخليج ، خصوصا من أتباع الطرق الصوفية وغيرهم ...

ذيوع نفس الاعتقاد فى أديان أخرى

ويسود الاعتقاد بالعودة للتجسد تقريبا جميع الأديان المنتشرة فى الشرق الأقصى ، أى فى الهند ، والصين ، واليابان ، وبرمانيا ، وكوريا ، وتايلاند ، وفيتنام . بل هو يقع فى الأساس منها كلها ، فلا يخلو منه دين هناك وان كانت الخرافات تداخله فى كثير من الأحيان .

وشرح هذا كله لا يتسع له المقام الحالى ، لأننا نريد أن نحصر كلامنا فى الاطار العلمى وحده . فالكلمة الفاصلة فيه يجب أن تكون للحقائق العلمية لا لاعتقادات المعتقدين أو لأقوال المفسرين ، وهى تتبنى فى غالب الأحيان تفسيرات متباينة للنصوص الدينية ، حتى ولو كانت صريحة . وكل تفسير منها ينتحل لنفسه دائما الصواب المطلق كما جرت العادة ، وكأنما الغلو أو الاعتداد أصل من أصول الاعتقاد منذ فجر التاريخ الى يوم الميعاد !! ..

كما لا يتسع المقام أيضا لتناول مدى انتشار هذا الاعتقاد فى الأديان الأفريقية مثل الكالابارى . وهى الديانة الشائعة فى جنوب الصحراء الكبرى . انما يكفى أن أقول أن القوم هناك يعرفون هذا الاعتقاد تماما ويتخذونه أساسا للعديد من طقوسهم ، ونواحى سلوكهم ، وعباداتهم .

وذيوع الاعتقاد بمبدأ العودة للتجسد على نطاق واسع فى أرجاء عديدة من هذه الدنيا الواسعة لا يصلح بذاته دليلا على صحة هذا المبدأ، لو وصل ذيوعه الى حد الاجماع . لأن الشعوب بوجه عام تتعلق بالأوهام

---

(١) على رأسهم الفيلسوف الكبير جبران خليل جبران ، والمفكر العميق ميخائيل نعيمة ، والشاعر المعروف ايليا أبو ماضى وغيرهم ... (المزيد عن موقف جبران ونعيمة راجع مؤلفنا « فى العودة للتجسد بين الاعتقاد والفلسفة والعلم » ١٩٧٦ ص ٤٣ — ٤٧ ، ٨٢ — ٨٤) .

والترهات أكثر مما تتعلق بالحقائق • وهذه وتلك أسهمت معا فى تطور الشعوب أكثر مما أسهمت الحقائق ، على ما يلاحظه علماء العلوم الانسانية كلهـا ، ويستوى فى ذاك تطور ميولها العـاطفية ، مع ملكاتها العقلية ، مع اتجاهاتها الروحية •

انما العلماء الجادون هم أولئك الذين يبحثون عن الحقائق النفيسة ، أيا كان موقف المجتمعات منها ، أو أيا كان موقفهم منها قبل الوصول اليها• ولا تحول المشقة والتضحية دون بحثهم عنها مهما بلغ مدى هذه أو تلك ، لأن عبادة الحقيقة تمثل عندهم نوعا من عبادة الله تعالى ، وهى الضـوء الوحيد الذى يضىء سبل بحثهم عنها •

فالحقيقة عند العالم الجاد تمثل جوهرة ثمينة تائهـة فى قلب جبل شاهق من الرمال والصخور ، أى من الترهات والأوهام • ولا يحول دون ارتقاء الجبل شموخه ، وصعوبة ارتقاء مسالكه وارتياد دروبه •

وفى سبيل الوصول الى جوهرة الحقيقة تهون عند المستكشف الجاد جميع التضحيات • واذا وصـل اليها فان الحقيقة تسـمو عنده على كل الجبال الشامخة بكل ما فيها من رمال وصخور • والجوهرة عنده لا يمكن أن تصبح صخرا لأن الصخر أضخم منها ، والصخور كلها عنده لا تساوى هذه الجوهرة رغم أن حجمها ضـئيل أو بالغ الضـآلة بالنسبة للصخور الشامخة •

فقضية الحجم هنا غير مطروحة بالمرة ، ولا اعتـداد لأى باحث عن الحقيقة بأعداد المقتنعين أو الرافضين ، وبمواقف المصدقين أو المنكرين • بل هى قضية متعلقة بالبحث عن مدى صحة حقيقة كونية فى مقامها الأول والأخير ، ولا صلة لها بمدى ذيوع المعتقدات أو بمدى ذبولها •

وهى حقيقة مفرطة فى أهميتها ، وفى لزوم حسمها سلبا أو ايجابا ، ما دامت أساليب العلم الحاضر بمقدورها هذا الحسم لأنها أقدر من أساليب

المـاضى على ارتقاء الجبال الشامخة وارتياد مسالكها ودروبها بحثا عن كنوز الحقيقة الخبيئة فيها .

وهذا ما يتعين أن يضعه دائما فى الاعتبار كل قارىء جاد أسوة بكل باحث جاد . وليضع أيضا فى الاعتبار أن الوصول الى القمم العالية كان محالا فى المرحلة المـاضية من مراحل الحياة ، أما الوصول الى قمم جبال القمر فلم يعد أمرا محالا فى المرحلة الراهنة ، لأن سنة الله تعالى فى الحياة هى التطور والارتقاء ، وليست الجمود أو النكوص الى الوراء .

المبحث الثانى

« العودة للتجسد »

من ناحية صلتها بالثواب والعقاب والعدل الالهى

عن ضرورة التمييز بين « الفرد » و « الشخصية »

هنا لا بد من وقفة كافية عند تساؤل هام سوف يثير نفسه بنفسه فى أذهان جميع المفكرين وهو : كيف سيحاسب الله سبحانه وتعالى الانسان اذا كان قد ارتدى شخصيات متعددة خلال حيوات متعددة ؟ ! والجواب بسيط : وهو أن هذا التساؤل يخلط بين جانبين من الانسان لا ينبغى الخلط بينهما ، ذلك أن « شخصية الانسان » حتما سـوف تتغير خلال حيوات متعددة أما « فرديته » فهى باقية أزلية .

ولذا يجب دائما التمييز بين مفهومى « الشخصية » personality وهى بطبيعتها متطورة ، نامية ، متغيرة حتى فى الحياة الواحـدة من عمر الى عمر بل من يوم الى يوم ، وبين « فرديته » individuality ،وهى انتماء الانسان لذاته أى للعنصر أو المبدأ الروحى الكامن فيه والذى يستمد منه قدرة الحياة والنمو .وهذا انتماء لا يمكن أن ينازعه فيه أى انسان آخر. وهذا الانتماء للذات ، أو « لفردية » معينة ، هو ذلك الذى يبقى على

حاله دائما،وقد يعود للتجسد مرارا وتكرارا للحصول على القدر المطلوب من التطور والارتقاء ، وثراء العقل والوجدان.

وفى هذا الشأن يلاحظ الفيلسوف الروحى السويسرى الذائع الصيت رودلف شتاينر Rudolf Steiner اننا حتى فى حياتنا الراهنة لا يمكن أن تكون طبيعتنا الروحية حبيسة بداخل أغلال « الشخصية » . بل على العكس من ذلك ان جسدنا المادى محدود بأعضائه اللصيقه به ، أما الروح فهى تنتشر بحرية فوق الخليقة بأجمعها عن طريق نشاط العقل (١) .

فالروح — بمفهوم الفردية — ليست هى الشخصية ، وهى تنتمى الى الأزل . ولذا تقبل اتباع فيثاغورس هذا النظر ، وهو أن « الحمقى وحدهم يفترضون أن خصائص الروح ، يمكن أن تفنى فى الشخصية » . بل ان الروح عندهم تتوقف أيضا على يقظة ما هو أزلى بداخل هذه الشخصية.والمعرفة عندهم هى الشركة مع الأزل ، وبمقدار ما ينجح أى فرد فى أن يجعل لهذا الأزل وجودا بداخله بمقدار ما يستحق تقديرهم .

وبالتالى فان الشركة مع الأزل هى عماد التربية عندهم ، وهى مرتبطة بالالهام الروحى . وكان منهجهم فى الحياة ينبىء عن رغبة الاتجاه الى نفس الهدف الذى تستهدفه مذاهب التصوف والتأمل ، والاتجاه الى الغيب ، وكلها نابعة عن غريزة الاحساس بالمجهول (٢) .

ولكن عند الفيثاغوريين بالذات هذا الاحساس بالمجهول نابع — فى المقام الأول — من حنين الروح الى الرقعة من الكون التى جاءت منها، طبقا لاقتناعهم بالوجود السبقى لهذه الروح وعوداتها المتكررة للتجسد من تلك الرقعة المتوارية خلف سحاب المادة ، والحواس المادية .

---

(١) Rudolf Steiner : Occult Mysteries of Antiquity P. 83.

(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٤٨٦ — ٤٩٥ عن الاحساس بالمجهول وعن التأمل وما سيرد فى الباب التاسع عن التصوف والالهام الروحى .

وحصيلة ما تقدم أن التساؤل عن أية « شخصية » من شخصيات « الفردية » سيخضع للعقاب أو للثواب يصبح عند الباحثين فى موضوعات الخلود والأزل تساؤلا غير ذى موضـوع ، كالتساؤل مثلا — عند وفاة ممثل معين قام بتمثيل « شخصيات » متعددة — عن أى من هذه الشخصيات التى ظهرت كلها على مسرح الحياة — أو على شاشتها الفضية — سيخضع فيما بعد للثواب أو للعقاب ؟ !

واذا كان الصبى الصغير بمقدوره أن يحسن التمييز بين الممثل نفسه وبين الشخصيات المتعددة التى يقوم بأدائها ، والأزياء المختلفة التى يقوم بارتدائها ، أفلا يكون بمقدور نواميس الحياة العاقلة هـذا التمييز بين « فردية » الانسان وبين شخصياته مهما تعددت فى الحياة الواحدة أو فى الحيوات المتعددة ؟ !

والقضية — فى اطار خلود الروح وعدم قابليتها للفناء — تكون أوسع نطاقا من أفق رؤيتنا بكثير • لأنها عبارة عن قضية تطور عريق أزلى واسع النطاق فى سبيل تخلص الفرد أو بالأدق « المبدأ الروحى » فى الانسان من الرذائل تدريجيا مع الاكتساب التدريجى — خلال عدد غير معروف من الأدوار أى من التجسدات — لأكبر قدر ممكن من الفضائل • وعلى قدر الرذائل تكون فرص المتـاعب والآلام ، وعلى قـدر الفضـائل تكون فرص البهجة والسعادة فى هذا الأزل الذى لا يعرف العلم له حدودا بعد •

وكما أن الخبرات التى يحوزها الفرد الواحد من شخصياته المتعاقبة فى التجسد الواحد ، تندمج فى النهاية فى فرديته الواحـدة أى فى مبدئه الروحى ، كذلك أيضا تندمج جميع تلك الخبرات التى يحوزها هذا الفرد الواحد من تجسداته المتعددة فى فرديته الخالدة الواحدة •

ومثلما تتداخل ألوان قوس قزح السـبعة فى ضوء مشرق واحـد لا لون له ، كذلك تتداخل شخصيات الانسان المتعددة الألوان فى فردية

واحدة أخيرة ناصعة الاشراق ، من طبيعة الضوء ، لأن الضوء هو الحقيقة الكونية الوحيدة التى يسلم بها العلم فى نهاية تحليله للمادة وللطاقة .

ولعل هذا التشبيه يتجاوز مجرد رغبتى فى تقريب المعنى الى الرغبة فى وضع الصورة الحرفية برمتها أمام القارىء ، عندما يضع فى الاعتبار صورة الجسد الأثيرى للانسان ، وهو جسد ضوئى تنبعث منه فعلا هالة متعددة الألوان ، ومتداخلة فيما بينها ، كأنها ألوان قوس قزح . وتكشف بألوانها الزاهية عن حالته الصحية والعصبية ، وعن حقيقة ميوله واتجاهاته العاطفية والروحية ، وبالتالى عن مدى نضجه وتطور ملكاته وأخلاقه . وهى تلك الهالة التى نجح جهاز كيرليان فى تصويرها بألوانها الطيفية المتعددة على نحو ما وضحته آنفا (١) .

والظاهر أن مصير هذه الألوان هو أن تتداخل — على الأمد البعيد — فيما بينها عندما يتحقق بينها القدر المطلوب من التناسق ومن الانسجام ، بمقدار النضج العاطفى والروحى المطلوب من الذات تحقيقه عن طريق التطور الأمين للعاطفة وللروح . وهذا هو نفسه طريق التطبيق الفعلى للقيم وللمفاهيم الروحية الصحيحة ، بغير التواء ولا رياء .

ولعل هذا هو نفس ما قصده كارل يونج بتعبير وصول الانسان الى التفريد individuation عن طريق التناسق بين شتى عناصر الذات والتداخل الكامل للشعور فى اللاشعور ، وقصده غيره من الفلاسفة بتعبير الانسان الأسمى Surhomme فى مفهومه الروحى الصحيح .

وهنا يبرز فارق آخر بين الشخصية والفرد أو الذات ، هو أن عناصر الانسان تكون مشوبة دائما بتداخل عدة ألوان من الأنانية تتفاوت تفاوتا ضخما بين الانسان البدائى وبين الانسان الأخلاقى المتطور . وهذه الألوان قابلة للتهذيب وللتراجع على الأمد البعيد مع الحصول على

(١) راجع ما سبق فى الجزء الاول صفحة ٢٦٨ — ٢٨٥ .

المزيد من الخبرات ، والتعرض للمزيد من آلام الفشل والحرمان بسبب هذه الأنانية ذاتها • أو من أداء المزيد من الخدمات الحقيقية اللازمة لتطور الآخرين ، أو لتخفيف مصادر آلامهم الواعية وغير الواعية •

* * *

أما عن ذات الانسان فالمفروض أنها تسير فى طريق غير هذا ، وهو طريق التحرر من الدوافع الأنانية تدريجيا ، ومن هنا تتراجع تلك الألوان والحواجز البغيضة التى تفصل الشخص حتى عن أقرب الناس اليه ، ولذا فكلما ارتفع مستوى النضج فى مجتمع ما كلما قلت الفروق فى ألوان « الشخصية » ومكوناتها بين بعض أفراده والبعض الآخر •

وهذه الظاهرة تتضح تماما كلما ارتقى مستوى الوجود غير المحدود، حيث أجمعت رسائل الأرواح الراقية على أن اعتزاز هذه الأرواح بشخصيتها ، أى ببعض عناصر أنانيتها وخصائصها الخاصة ، يتراجع كثيرا فى المستويات الراقية من عالم الغيب ويتزايد كلما هبطت هذه المستويات•

فالمستويات الراقية للأرواح المضيئة المشرقة تتميز بهذه الخاصية الهامة عن تلك المستويات الهابطة ، وهى عدم الاعتزاز « بالشخصية » ، بل انكار الذات ، الى حد أن الأرواح الراقية العريقة كثيرا ما تأبى حتى الافصاح عن ماهية « شخصيتها » لكنها مع ذلك تقدم أجل الخدمات لمستحقيها فى يسر وسخاء ، فى صورة الهام ، أو علاج ، أو عزاء ، أو ارشاد صحيح ، أو تخفيف الآلام ، أو انقاذ من المحن الجسام •

وهكذا تكون « الذات » المشرقة فى ثراء تدريجى متواصل فى العقل والوجدان ، حين تكون « الشخصية » فى تراجع مستمر بكل ما قد يلازمها من ألوان الأنانية والاعتداد بالذات وبالملذات ، التى نكابد كلنا منها فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا هو بالتحديد موضوع التطور والارتقاء الذى عرضنا له فيما سبق ، ولنا اليه عودة فى الباب التاسع •

وبعبـارة آخرى ان الذات موجودة ، وهى حقيقـة أزلية متطورة لا سـبيل الى انكار وجودها ، لكن الاعتـداد بالذات رغم كل عيوبها ومثالبها خصلة مرفوضة فى علم الأخلاق . وفى هذا الصدد لا ينبغى الخلط بين الفردية فى مفهوم الذاتية أو انتماء الانسان لنفســه وبين الفردية فى مفهوم آخر مغاير تماما وهو مفهوم الأنانية أو الأثرة . فان الفردية فى هذا المفهوم الآخر تعنى وصـفا مغايرا تماما لمعنى تحقيق الذات فى مفهومه السامى النبيل .

ذلك أن تحقيق الذات فى مفهومه السامى ينصرف الى معنى وصول الانسان الى أغوار نفسه الحقيقية التى تمثل قبسا حقيقيا من الضـوء الالهى(١) . وهذا الوصول يكون عن طريق محـاولة التغلب على حب الذات فى مفهوم الأنانيـة أو الأثرة ، لكى يحل محلهـا الارتباط بالقيم والمفاهيم السامية . هذا الارتباط الذى ينتهى بالانسان الى حب الآخرين على حساب حب الذات ، وحب الارتباط بحقائق الوجود على حســاب الارتباط بالأوهام والترهات .

وعلى هذا الوضع تكون الأنانية هى العقبة الحقيقية التى تحول بين الانسان وبين وصوله الى تحقيق ذاته ، أى الى تلك الخصائص الســامية الكامنة فى ذاته ، عندما تعرف كيف تنجو من شوائب الفردية أو الأنانية بكل ما ينبع عنها من رذائل عديدة ، لعلها تمثل فى نهاية المطاف كل ما تعانى منه الانسانية من أهوال ومتاعب .

أما الغيرية فهى تمثل على العكس من ذلك الطريق الأوحد لحصول الفرد على أسمى مزايا العقل والوجدان . وهى التى تفتح الطريق الحق أمام ازدهار الحياة فى عقول بنى البشر ووجداناتهم . والعبرة ليست فى الحديث عن هذه المزايا ، ولا فى الاعتقاد الخاطىء الذى يساور الانسان الغر فى أنه يحوز دائما أكبر قدر منها . بل ان العبرة هى بالتطبيق الحق

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٤٨١ — ٥١١ .

الذى يتحدث عن نفســه بنفسه ، وقد يتحدث عنه الآخرون ، لكن من المحال أن يتحدث عنه صاحبه ، أو حتى أن يفطن اليه فى حالات كثيرة •

وهذه الغيرية هى أساس كل حضارة حقيقية،وهى مصدر العديد من المزايا العقلية أو الوجدانية التى قــد يحوزها الانسان • وهى فى نفس الوقت ثمرتها ، ومن المحال أن يتوافر منها أى قدر فى وجدان الفرد ما لم يكن الحب توأما لها ورفيقا على طريق التطور الشاق الطويل الذى يتعين على الفرد أن يجتازه بنجاح فى صحراء هذا الوجود غير المحدود •

صلة هذا التمييز بطباع بنى البشر

وكل دارس لطباع بنى البشر يدرك تماما أن الحصول على آية مزية عقلية أو وجدانية من تلك المزايا التى ترفع من قدر الانسان ، وتعلى من شأنه فى حياة المــادة أو فى حياة الروح ، لا يمكن أن يتحقق فى حيــاة واحدة ولو امتدت الى مائة عام ، فما بالك اذا قصرت الى بضعة أيام ؟ ! •••

فالانسان ــ مهما قيل عن توافر قدر ولو ضئيل من حرية الاختيار فى سلوكه ــ أسير لفطرته ولبيئته فى كل نواحى سلوكه • والتطور يسير ببطء يفوق كل تصــور • ويحتاج حتما الى التنقل للعيش بين بيئــات متعددة ، وفى عصور متعددة ، والى وراثة بعض الخواص العضــوية من وراثات متعددة •

واذاكان من رسالة الانسان أن يتخلى تدريجيا ولو عن بعض عناصر أنانيته ، واعتداده بذاته وبملذاته ، فمن المحال أن يتحقق له أى قدر من هذا التخلى بسبب اقامة واحدة على المستوى المــادى ، أيا كان مداها من الطول أو القصر •

وذلك خصوصا اذا روعى أن الانســان كائن متكيف بطبيعته مع ظروف بيئته ، ومع مفاهيمها وقيمهــا السائدة ، حتى ولو بلغت مستوى

رهيبا من الانهيـار والدمار • فاذا لم تتح له أكثر من فرصـة للدرس ، والاختبار ، والتكيف ، كان التطور نحو الأسمى أمرا محالا •

وهذا ما فطن اليه عدد من أحسن الباحثين فى التطور من النـاحية البيولوجية — الروحية،ووجدوا فيه — وحده — ما يرشح للقول بضرورة العودة للتجسد ، حتى قبل الحصـول على تلك الأكداس الضـخمة من البينات الحاسمة المترابطة التى حصلت أساليب العلم الحديث عليهـا • ولنا عودة الى توضيح هذا الموضوع فيما بعد على لسان جوستاف جيلى Gustave Geley مدير « المعهد الدولى لمـا وراء الروح » بباريس •

وعنـدما أقول ان الشخصيات المتعاقبة للانسـان الواحد تتداخل فيما بينها ، لكى تكون بمثابة عدة لبنات أو مجموعة عناصر لازمة لتكوين ذاته أو فرديته الواحدة بكل خصائصها الطيبة والسيئة،فليس مقتضى هذا القول أن تلك الشخصيات تذوب أو تتلاشى نهـائيا ، أو تفنى احداها فى الأخرى ، فلا شىء فى الوجود — حتى من المشاعر والانفعالات — قابل للفناء •

بل ان الأمر الثـابت الآن فى دوائر الباراسيكولوجى هو أن كل شخصية سابقة للانسان أسهمت فى بناء طبقة من طبقات وعيه المتعددة • وكل شخصية لا تزال تمارس نشاطها ، وتدفع ما عليها من ديون ، وتحقق فى نفس الوقت ما تستحق من أرباح معنوية فى الشعور وفى اللاشعور ، بغير أن يدرك هـو كيف يحدث ذلك • بل بغير أن يدرك حتى أن ذلك يجرى فعلا بوصـفه ناموسا طبيعيا للحياة ، معروفا تحت اسـم ناموس « الكارما » أو الجزاء من جنس العمل الذى سوف نعرض له فى البـاب الأخـير •

والأمر الهام الذى يلزم أن نعرفه من الآن هو أن الوعى الانسانى مكون من رواسب عدة طبقات ،كل طبقة منها بجوار الأخرى•أو فى تشبيه آخر أن هذا الوعى مكون من تلاصق عـدة ورقات كثيرة مثل تلاصق

ورقات الخرشوفة ، أو برعم الزهرة ، أو البصلة ، وكل ورقة منها تشبه الأخرى لكن لها مع ذلك ما يميزها عن غيرها • ولذا فليس من الصواب القول بأن شخصيات الانسان — حتى فى الحياة الواحدة — قد تلاشت فى فرديته ، أو ذابت نهائيا بين حنايا ذاته الباقية •

بل الأصوب من ذلك أن يقال انها قد اندمجت أو تداخلت فى تكوين ذاته الكلية ، التى أصبحت — نتيجة هذا الاندماج أو التداخل — أوفر ثراء فى بنيانها ، ومقوماتها ، وعناصر نشاطها • وهذا التداخل قد يفسر العديد من أسرار السلوك الانسانى المألوف والشاذ ، كما يفسر العديد من حالات ارجاع الذاكرة الى الوراء ، وتذكر الماضى السحيق أحيانا التى سوف أفرد للحديث عنها مكانا كافيا فى عدة مواضع لاحقة •

وهـذا هو نفس النظر الذى تتبناه نظرية سائدة الآن عن الوعى الانسانى فى دوائر علم النفس المعاصر يطلق عليها وصف « النظرية المركبة للعقل» Compound Theory of the Mind والتى سوف أعود اليها بدورها فى الباب التاسع •

ولا ريب أن هذا التمييز بين ذات الانسان وبين تعاقب عدة شخصيات له فى الحياة الواحدة له ، أو فى احتمال تعدد حيواته ، كان غائبا تماما عن ذهن العدد الأكبر من مفسرى النصوص الدينية • ولم تكن عناصره ماثلة فى أذهانهم ، ولم تكن معطيات العلوم المتداولة وقتذاك تساعدهم على الوصـول اليه •

بل لقد كانت الفكرة الماثلة فى أذهانهم هى أن الفرد هو الشخص، وأن الشخص هو الفرد ، وأنه لا محل بالتالى لامكان التمييز بينهما ، ولذا اتجهت شروحهم فورا الى القول بنفى « تناسخ الأرواح » • هـذا من جهة أولى ، ومن جهة ثانية لقد اختلط الأمر عليهم من زاوية التمييز بين « تناسخ الأرواح » و « تناسخ الأجساد » بسبب أزلية الروح • ولذا

استخدموا جميعهم تعبير « تناسخ الأرواح » وهو محض خطأ ، ولم يستخدم أيهم تعبير « تناسخ الأجساد » وهو ذلك الذى يمثل الآن المفهوم العلمى لمبدأ العودة للتجسد •

وكانت نتيجة هذا الخلط بين هذين المفهومين المتنافرين تماما هى الاعتراض على مبدأ « تناسخ الأرواح » الذى لا يقل اعتراضنا عليه عن اعتراضهم هم عليه • فهو مرفوض علميا ، لأن الروح لا تقبل النسخ ولا الالغاء ، ولا تقبل الآن سوى احتمال واحد هو احتمال التطور مع البقاء •

ونتيجة ذلك كله أنهم تجاهلوا تماما النصوص الصريحة التى تتحدث فى عبارات — لا يعوزها الوضوح — عن العودة للتجسد كما اسلف القول، والتى لا يقابلها نص واحد — ضمنى أو صريح — فى معنى نفى العودة للتجسد فى أى كتاب من الكتب السماوية ، التى كانت ولاتزال موضوعا لشروح مرتجلة كثيرة • أو موضوعا لشروح أصبحت لا تتفق مع معطيات العلوم الطبيعية والانسانية •

وهى معطيات متطورة دواما ، وتحتاج فى متابعتها للكثير من الجهد ، مع المرونة ، مع الرغبة الجادة فى تعقل الأمور ، مع الرغبة المخلصة فى التوفيق بين العلم والاعتقاد ، مع الحماس الحقيقى للارتباط بحقائق الوجود ••• وأين نحن الآن من هذا كله ؟ ! ••••

بعض عناصر التمييز بين « الفرد » و « الشخصية »

واذا كانت الشخصيات المتعاقبة للانسان الواحد حتى فى حياته الواحدة تندمج فى « فرديته الكلية » فان الشخصيات المتعاقبة فى عدة تجسدات متعاقبة من شأنها أيضا أن تندمج فى هذه الذات الكلية تدريجيا، أثناء التجسد الأرضى وبعد التخلى عن الجسد المادى بالموت ، لأنها أشبه ما تكون بعملية التمثيل الغذائى للجسد المادى التى تجرى

دواما طبقا لنواميس حيوية فى اليقظة والنوم ، وفى الصحة والمرض ، وعن طريقها يتجدد الجسد المادى بتجدد خلاياه على وجه الدوام والاستمرار •

هكذا أيضا الشأن بالنسبة للذات الانسانية التى هى بحاجة الى تجدد مستمر فى الوعى ، وفى الاختبار ، وفى ثراء الوجدان ، وفى نضج الحاسة الخلقية ، والجمالية ، والقيم الاجتماعية ، والمفاهيم الصحيحة••• وكل هذا يحدث ببطء شديد عن طريق هضم تلك الاختبارات المتتابعة وانزلاقها المتواصل الى اللاشعور ، كيما تصبح فيما بعد تدريجيا ملكات واعية فى الشعور المتجدد للانسان ، الخالد بفطرته ، أى للمبدأ الروحى الأزلى فيه •

واذا كان من شأن الشخصيات المتعاقبة للذات الواحدة أن تندمج فى هذه الذات تدريجيا ، أى فى تلك الفردية الكلية المكونة لها ، فان العكس غير صحيح • بمعنى أنه ليس من شأن الذات أبدا أن تتلاشى أو تذوب فى أية شخصية من تلك الشخصيات التى مرت بها تباعا • لأن ذوبان الذات فى أية شخصية منها مقتضاه — بمعناه الحرفى — فناء الذات • وهذا هو بعينه المذهب المادى فى الوجود الذى ينكر صحة الخلود ، ويعتبر أن دوام الفرد رهن بدوام شخصيته • وهذا هو أيضا ما قد يؤدى اليه ذلك التعبير الخاطىء الشائع الذى يستخدمه بعض المؤلفين وهو « تناسخ الأرواح » بوصفه بديلا للتعبير الصحيح وهو « العودة للتجسد » •

* * *

والمذهب المادى يقع — بطبيعة الحال — على النقيض تماما من تلك الفلسفة الروحية الباذخة التى تكشفت عنها بحوث الباراسيكولوجى والتى تمخضت عن حقائق كونية بالغة الأهمية فى الكشف عن بعض أغوار هذا التكوين الذاتى للانسان • ولعل أهمها كلها أن هذه الذات تطوى —

فى حنايا تكوينها الشعورى واللاشعورى — العديد من الاختبارات التى مرت بها فى تجسداتها المتتابعة ، أو بالأدق فى ترددها المتواصل للعيش بين مستوى للمادة محكومة بالعقل ، ومستوى آخر للعقل محكوم بالمادة . وذلك طبقا لقوانين حيوية مسلم بها عن الفعل ورد الفعل ، وعن الديناميكية النوعية ، وعن الحركة الدائرية ، أو الذبذبة المتواصلة لاهتزازات الوجود ، وهذا ما عرضنا له فى الجزء الأول ، وما سنعود اليه فيما بعد فى أكثر من موضع من الباب التاسع .

وهذه الذات « الفردية » individuality يطلق عليها المؤلفون أسماء متعددة : مثل « مبدأ الأنا » ego Principle أو « الأنا الفردية » Individual Eao . كما يطلقون عليها أحيانا وصف الذات الحقيقية Real self أو الذات الداخلية Inner Self . ويطلق عليها مكدوجال وصف « الفردية الروحية » Psychical Individuality .

وبعد التحرر من الجسد المادى عن طريق الموت للارتقاء الى ذلك المستوى من الوجود الأسمى من سابقه — تحمل هذه الذات الحقيقية أو الداخلية أحد أوصاف أخرى جديدة : منها وصف النفس Soul أو الروح spirit ، أو الوحدة الكلية Entity بمفهوم الكائن الغيبى أو المجهول . وقد يطلق عليها أيضا وصف الشبح أو الطيف أو الخيال ghost, phantom, phantasm . واذا قام هذا الروح بدور المهيمن فهو Control ، وبدور المرشد فهو Guide ، وبدور المراسل فهو Communicator (١) ....

وهكذا تتعدد الأوصاف التى يستخدمها كل باحث بحسب سياق

---

(١) وللأرواح غير الراقية عدة أوصاف أخرى عديدة : فاذا كان الروح هائما على وجهه فهو Earthbound ، واذا كان ماسا لضحية من الضحايا فهو Obsessor ، واذا كان ملازما لمكان معين يحدث فيه صوتا أو شغبا مجهول المصدر فهو Poltergeist ، واذا كان روحا ماجنا أو هازلا فهو Incubus ، واذا كانت انثى فهى Fairy ... وهكذا .

الحديث ، أو بحسب الجانب الذى يعالجه منها • لكنها كلها أوصافه تلتقى فى النهاية عند هدف واحد : هو الرغبة فى تمييزها عن الشخصية الخارجية ، أو المظهرية ، أو المؤقتة ، أو العابرة التى تمر بها الذات أثناء تجسدها فى حياة المادة •

وهذه الشخصية المظهرية نخدع بها فى الغالب أنفسنا ، ونحاول أن نخدع بها الآخرين، عندما تتصور أنها منزهة تماما عن المثالب والعيوب، أو نحاول أن نصورها على هذه الصورة أمام الآخرين • وهذا هو بعينه خداع الذات self - delusion الذى يضلل العديد من خطانا فى طريق الحياة ، ومن تصرفاتنا نحو من نتعامل معهم ، والذى يقع فى الأساس من عوامل آثامنا وآلامنا •

وموضوعات « الذاتية » و « الشخصية » متنوعة بطبيعتها•وطالما كانت محل أحاديث طويلة من الفلاسفة والملهمين والعلماء ، لكنها رغم تنوعها خاضعة لمبادىء بسيطة واحدة كثيرا ما يغفل المتحدثون عنها ذكرها • وهذا الاغفال يؤدى الى أن تفقد الذات الرؤية الصحيحة عن نفسها • وهى تلك الرؤية اللازمة لتحقيق هدفها المشروع فى الصحة ، والسعادة والسلام ، والرخاء ،والثقة بالنفس وبالآخرين ، والاطمئنان الى القدر والى المصير ••••

ولتحقيق هذه الأهداف لا تكفى المعرفة ، ولو تعلقت المعرفة بأبسط مبادىء علاقة الذات بالوجود ، بل تلزم أيضا الحكمة ، وبنفس المقدار يلزم الحب • فبدون الحكمة تكون المعرفة ادعاء أو هذاء ، وبدون الحب تكون الحياة جحيما أوهباء • والمعرفة مصدر قوة حقيقية للذات ، وهذه القوة قد تكون خيرة أو شريرة بحسب الاستخدام السليم لها أو السقيم •

* * *

ولنزيد المقام بيانا نفترض أن شخصا قام بتغيير اسمه بمقتضى اعلام رسمى الى اسم آخر • فهل نعتقد أن الفترة السابقة على تغيير الاسم

أصبحت نسيا منسيا من نواميس الطبيعة ، وأن بمقدور هذا الانسان أن ينكر شخصيته السابقة ، أو أن يهرب من أفعاله التى صدرت عنه تحت اسمه القديم ؟ ! حتى لو جمع الى تغيير الاسم تغيير الموطن ، والمهنة ، والجنسية ؟ ! ....

وقيمة هذا المثل فى توضيح الفارق بين الشخصية والفردية تبدو جلية خصوصا اذا وضعنا فى الاعتبار أن غالبية الأرواح التى ترتاد غرف البحث الروحى ، وتضع جهودها فى معاونة جهود العلماء الباحثين فى الكشف عن بعض أسرار الخلود تحمل أسماء جديدة وتتعمد أحيانا اخفاء أسمائها القديمة (١) .

وهى تقول أن الانتماء الى اسم معين له دلالة خاصة عند الأرضيين لأن هذا الاسم يشير الى الانتماء الى وطن معين ، وأسرة معينة ، ودولة معينة ... الخ أما هناك فان الانتماء الوحيد الذى يستحق الاعتبار هو الانتماء الى مستوى معين من نضج العقل والأخلاق ، وهو الذى يحدد الأجواء الروحية التى تقيم فيها والتى لا حصر لها .

وما عدا ذلك لم تعد له قيمة تذكر ، فالأرواح الراقية لاتعرف أسلوب التفاخر بالانتماءات المتوارثة المختلفة ، على النحو المعهود بين سكان الأرض . خصوصا اذا لم يكونوا على مستوى عال من نضج العقل والأخلاق ، كما نلمس بأنفسنا ، حيث تكثر صور الزهو والافتخار ، كلما انحط مستوى الأخلاق والأفكار ، وبالتالى كلما كثرت مصادر التنابذ والشجار .

وبعبارة أخرى فان الانتماء الوحيد المعترف به فى المستويات الروحية الراقية هو انتماء الانسان الى ذاتيته أو الى فرديته بما لها وما عليها ، أما انتماؤه الى شخصية سابقة أو الى عدة شخصيات سابقة فلا وزن له ، ولا قيمة ، ولو كان هذا الفرد فى شخصياته السابقة فيلسوفا مثل سقراط ،

---

(١) وهذا القول يصدق على غالبيتها لا عليها كلها . لأن بعضها يفصح أحيانا عن شخصيته .

أو امبراطورا مثل شارلمـان ، أو قائدا مثل نابليون ، أو سياسـيا مثل بسمارك ، أو شاعرا مثل شكسبير ...

لأن العبرة فى النهاية هى بما يكون قد ادخره هذا الانسان أو ذاك من « رصـيد دائن » للطبيعة لفرط ما حازه من صفات طيبة ، وملكات رفيعة ، وبما يكون قد قدمه من خدمات نبيلة للآخرين . وكلها مرتبطة بفرديته أو بذاتيته ، ومستقلة تماما عن تلك « الشخصية » أو الشخصيات البالية التى عفا عليها الزمن منذ وقت قريب أو سـحيق ، بمجرد هجرة الأرواح من عالم المـادة الى مستوى أو آخر من مستويات عالم الغيب.

لهذه الاعتبارات مجتمعة فان التمييز بين الشخصية والفرد يبدو أمرا لازما ليس فحسب لتفهم مبدأ العود ةللتجسد بوصفه نتيجة حتمية لمسيرة أحداث الحياة الكونية التى تجرى فى شكل دائرى دائما ، بل أيضا لتفهم مبدأ دوام الحياة بعد الموت فى أبسط صوره .

ذلك أن الموت ينهى بلا أدنى ريب ما يبدو لنـا أنه يمثل شخصية الانسـان باختفاء هذه الشخصية عن حواسـنا المـألوفة . فلو كانت الشخصية هى بعينها الفرد لكان الموت بمعنى الفناء التـام هو النهـاية المحتومة لكل شخصية . لكن لو كانت الفردية مستقلة عن الشخصية ، ولا تفنى بفنائها ، فان فناء الشخصية لا يعنى بالمرة احتمال فناء الفرد ، بل يعنى فحسب اندماج عناصر هذه الشخصية فى الفرد أو الذات بمفهوم المبدأ الروحى الأزلى فى الانسان .

وهذا المبدأ الروحى يكون خاضعا لقانون التطور الأبدى لا لقانون الفناء . ويصبح دوام الحياة بعد فنـاء الشخصية ، هو فى الواقع دوام للفردية رغم تطورها لا للشخصية رغم فنائها .

ويكون دوام حياة الفرد بعـد الموت Survival — على هـذا

الوضع — بمثابة ناموس تلقائى طبيعى لا يتوقف فى نشاطه على رغبة من الفرد ، أو رهبـة ، وعلى أمل أو حاجة • وغير مرتبط بالتالى بايمـان بالدوام ولا باذعان ، ولا نابع من جهل أو عرفان ، حتى وان كانت ظروف هذا الدوام وثيقة صلة بالتكوين الروحى — العقلى للانسان •

وهذا التكوين يمكن تحليله الى عناصر لا نهاية لها تتفاعل فيما بينها فى رسم طريق السـعادة أو الشـقاء ، والنجاح أو الفشل ، والتخلف أو الارتقاء لهذا الفرد أو لذاك من بنى البشر •

وهذه العناصر تنتمى — فى بحثها — الى الفلسفة الأخلاقية ، والى علوم الأخلاق والتربية،والنفس والروح،بروابط وثيقة عرضنا لبعضها فى الأبواب السابقة من هـذا المؤلف ، وسنعرض لباقيها فيما تبقى له من أبواب • وكلها ان كانت تثبت شيئا ما فهو أن بذرة الروح الهية قدسية فى مصدرها ، وأنها تمثل الرابطة الأزلية بين الله والانسان •

عناصر اخرى للتمييز بين « الفرد » و « الشخصية »

وقبل كل هذا ينبغى ألا نغفل — بشأن التمييز بين الفرد والشخصية — أن الفرد بمفهوم المبدأ الروحى الخالد فى الانسان يعلو على قيود الزمان والمكان استـدلالا وشـعورا • أما الشخصية فهى مغلولة بقيود الزمان والمكان لأنهـا مرتبطة بالجسد المـادى وهو أسـير هذين البعـدين ، ولا فكاك له منهما الا جزئيا بالنوم وكليا بالموت •

وهذا التمييز يلزم أن يكون واضحا فى العقل تماما حتى يتقبل العودة للتجسد بوصفها مبدأ محتملا بالأقل وثابتا بالأكثر • وهو أمر ليس سهلا، بل يتطلب جهدا ذهنيا ، ونضجا كافيا ، وقدرة خاصـة على الاحسـاس باحتمال اسـتقلال الوعى تجاه المـادة : والوعى من خصائص الفرد ، أما المـادة (بمفهومها الأرضى أو الترابى) فهى من خصائص الشخصية •

ولعل صعوبة هذا التمييز ، وعدم وضوحها تماما فى أذهان سواد المفسرين دفعتهم الى المبادرة الى رفض العودة للتجسد بوصفها مبدأ محتملا بالأقل وثابتا بالأكثر ، وجعلتهم يقفون فى جانب آخر غير جانب سواد المفكرين الروحيين والفلاسفة الذين تقبّلوا هذا المبدأ فى يسر وسهولة . لأنهم عثروا فيه على ضالتهم المنشودة لتفسير العديد من ألغاز الحياة ، خصوصا منها تلك المتصلة بمفارقات الوجود وتصاريف الدهر التى تكاد لا تجد لها حلا آخر .

وهناك صعوبة أخرى وقفت — وأعتقد أنها لا تزال تقف — فى وجه تقبل هذا المبدأ عند العديد من المفسرين — وهى موضوع ناموس الثواب والعقاب : وهل يطبّق نفسه بنفسه شأن كل النواميس الطبيعية الأخرى، أم أنه يحتاج الى كائنات معينة تتولى التطبيق والتنفيذ ؟ ! ...

وحين اتجه سواد الفلاسفة والمفكرين الروحيين الى القول بالتطبيق التلقائى شأن كل نواميس الطبيعة — ومن بينها تلك النواميس الأخلاقية الحكيمة — اتجه سواد المفسرين الى التمسك بالحرف — ولا شىء غير الحرف .

ولذا قالوا ان التطبيق هنا لا يمكن أن يكون تلقائيا ، بل محتاجا دائما لأيدٍ منفذة متخصصة لهذا التطبيق . وكأن أحداث الحياة كلها — بحلوها ومرها — لا يصح أن تعتبر صدى صحيحا لتلك النواميس الأخلاقية المفرطة فى حكمتها وفى عدالتها . والتى قد لا تظهر فى كل أبعادها الحقيقية — ورونقها الصحيح — الا عند الاتجاه الى العودة للتجسد ولو بوصفها مبدأ محتملا لتعليل العديد من تلك الأحداث الحلوة والمرة معا ، والتى كثيرا ما تظهر بلا أى تعليل يسندها ، وبلا أية مقدمات تولدها .

وهذه الأحداث وتلك تعتبر نتاجا لقانون « الكارما » الذى يتحكم فى تلك الأحداث بحكم العلية الطبيعية ، والذى يعتبره الروحيون تعبيرا

كونيا عن قانون الزرع والحصاد ، أو قاعدة أن « ما يزرعه الانسان اياه يحصـــد أيضا » بحكم ذلك الترابط المحتوم بين الأفعال ونتائجها • فمن يزرع تينا أو عنبا يحصد تينا أو عنبا ، ومن يزرع مرا أو حسكا يحصـــد مرا أو حسكا ، لأن « الجزاء دائما من جنس العمل » • ولنا عند قانون الكارما وقفة كافية فى الباب العاشر بوصـــفه المكمل الأخلاقى المحتوم لمبدأ العودة للتجسد •

فاذا ما رسخ فى ذهن أى مفكر الاحساس من جانب أول باستقلال الوعى تجاه المـــادة ، ومن جانب ثان الاحساس بالتطبيق التلقائى لناموس الزرع والحصاد فانه يزول من تلقاء نفسه كل اعتراض ذهنى محتمل فى وجه تمييز الفرد أو الذات عن الشخصية •

وتبرز فى الوعى تمـــاما فكرة أن الفرد غير الشخصية • وأن الفرد لايتعدد ، ولايتحلل ، ولايتلاشى حتى وان تعددت الشخصيات ، وأمكن لها أن تتحلل ، وأن تتلاشى • أو بالأدق أن تذوب بين حنايا الوعى الفردى فتكون فى تكوينه بمثـــابة وريقات فى برعم الزهرة أو خلايا فى تكوين الثمرة •

وعندئذ يستوى أن يتجسد الفرد مرة واحـــدة أو مئات المرات ، كما يستوى أن يؤدى الفرد دورا واحدا أو عدة أدوار ، أو لا يؤدى أى دور بالمرة لأنه مقطوع الصلة بفن التمثيل •

ففى جميع الحالات الفرد شىء والشخصيات التى قد يظهر بها على مسرح الحياة شىء آخر • والأول مصيره الى خلود وبقاء ، أما الثـــانية فمصيرها الى توارٍ واختفاء بين حنايا هذا الفرد فى صورة وريقات متعددة من الوعى يجاور بعضها البعض الآخر •

وهـــذه الوريقات تخدم الفرد فى نضجه ، وفى تطور ملكاته ، وفى قدراته الابداعية والأخلاقية ، وفى الجملة فى ثراء عقله ووجدانه • ولنـــا

عند هذا كله أكثر من وقفة فيما بعد ، مؤيدة بأسانيد التحليل النفسى والمنطقى كما تكشفت عنها جهود العلماء المنقبين فى ألغاز التكوين الروحى للانسان • ويا له من تكوين لا ينتهى أبدا فى عمق ألغازه ، التى يظهر فيها أحيانا من عناصر الوضوح والبساطة أكثر مما قد يشوبها من عناصر الغموض والتعقيد •

* * *

وفى شأن هذه الألغاز كلها لا يعوّل العلماء أبدا على المعتقدات السائدة أو على المذاهب المشهورة أو المهجورة • بل ان اعتماد العلماء — فى المقام الأول والأخير — على ما قد يكشف عنه أسلوب التحليل العلمى المدقق من حقائق •

ولا يكون التعويل أيضا على الآراء المنتشرة فى عالم الغيب بين قاطنيه ، فانها تذهب كل مذهب • ولذا لا يصح الاستناد الى ما قد تقوله روح أو أخرى من تلك الأرواح المراسلة والتى قد تكون فى غالبية الحالات متأثرة بنفس الآراء والمعتقدات التى انتقلت بها •

وهى تظل تصر على آرائها ومعتقداتها وربما لآماد بعيدة الى أن يلحقها التطور ببطء شديد • هذا اذا كانت من تلك الأرواح القابلة للتطور ، والباحثة عن الحقائق بجدية وباخلاص • وذلك هو نفس ما يحدث بالنسبة لقاطنى هذا المستوى المادى من مستويات الوجود حيث يعتمد كل انسان على ما تلقنه من أفكار ومعتقدات ، لا على منطق الاستدلال الواعى فى أى أمر من أمور دينه أو دنياه •

ومع كل ذلك فانه مما قد لا يخلو من فائدة أن نقرر أن هناك اجماعا ، أو شبه اجماع — بين الأرواح المراسلة الراقية — أى تلك الأرواح التى أمضت فى الأثير الآلاف من الأعوام بحسب تقاويمنا الأرضية — على صحة هذا المبدأ فى حد ذاته ، وبصرف النظر عن صحة أية حالة أو أخرى من تلك الحالات التى قد ترد أحيانا على لسان أى

واحد من « العائدين للتجسد » (١) •

والسبب الأول فى اعلانها هذا ليس هو انتماؤها المذهبى أو الدينى، بل هو فى المقام الأول نضجها وتطورها فى الاتجاه الصحيح ، ذلك التطور الذى وصل بها الى ادراك الفارق بين الفرد والشخصية من جانب ، والى ادراك كيفية عمل النواميس الطبيعية من جانب آخر ، ناهيك بماهيتها وآثارها ، وهذا ما سنعرض له فى عدة مواضع لاحقة •

ولم يقتنع أى عالم بصحة هذا المبدأ استنادا الى أقوالها ولو بلغت حد الاجماع • انما الأمر الذى شد انتباههم هو التئام هذا المبدأ مع سائر حقائق الوجود التى اقتنعوا بصحتها بشأن أمور عديدة ، لها دلالة بالغة منها مثلا :

— تعليل مصدر العقل عند الحمل •

— تعليل مآل العقل عند الوفاة •

— التفاوت الضخم بين العقول ، والمشاعر ، والمواهب •••• مع أن الكل يبدأون بحسب الظاهر بنفس الأسلوب ، ومن نفس البداية •

— ظهور حالات عديدة من تذكر الماضى البعيد فى اليقظة ، وقد أمكن التحقق من صحتها بأساليب التحقيق العادية •

— ظهور حالات مماثلة من تذكر الماضى البعيد فى غيبوبة التنويم المغناطيسى ، وقد أمكن التحقق من صحتها بأساليب التحقيق العادية •

— ظهور حقائق كثيرة عن التطور العقلى والجسدى تلتئم تماما مع العودة للتجسد •

— ظهور حقائق كثيرة عن اللاشعور تلتئم بدورها مع نفس المبدأ •

---

(١) راجع نماذج عديدة من آرائها فى «مفصل الانسان روح لا جسد» ج ٣ صفحة ٦٩١ — ٧١٢ • وراجع ايضا فيه بشأن نفس الموضوع صفحة ٨٤٣ — ٨٦١ ، ٩٥٠ — ٩٧٢ .

ـ ظهور حالات عديدة « لوحمات » أواصابات أوبقع بأجساد بعض الأطفال اتضح أن لها صلة بعلة وفاتهم فى حياتهم السابقة [1] •

ـ ظهور حالات عديدة لصفات جسدية وعقلية عجزت عن تعليلها نظريات الوراثة من الأسلاف ، والاكتساب من البيئة ، حين نجحت ـ الى حد ما ـ نظرية وراثة الذات من ماضيها السحيق •••••

وهكذا تكاثرت تدريجيا الأدلة التى يصح وصفها بأنها « أدلة علمية » • لأنها مستقلة تماما عن المذاهب والمعتقدات ـ الى جانب صحة هذا المبدأ ، مما دفع « هيئة الخبراء الدوليين » الى أن تعلن فى اجتماعها بالولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٩٧٩ ثبوت مبدأ العودة للتجسد كحقيقة علمية على ما سنوضحه فيما بعد • وهو اعلان يحتل أعلى درجات الخطورة بشأن التطور العلمى الراهن والمستقبل المتوقع خصوصا فى اطار البيولوجيا والسيكولوجيا ، على ما سوف يتضح للقارىء تدريجيا •

عناصر « الفردية » و « الشخصية » بين الفطرة والاكتساب

وقد يتصور القارىء لأول وهلة أن من عناصر التمييز بين الفردية والشخصية أن أولاهما مادية موضوعية ، والثانية معنوية شخصية • الا أنه لا محل للتمييز بينها من هذه الزاوية ، وذلك لأن كلا منهما مكونة من عناصر ثلاثة وهى : الجسم ، والعقل ، والروح ، بحسب الرأى السائد عند الباحثين الروحيين •

لكن الجسم فى اطار مفهوم الشخصية هو جسم مادى ترابى خاضع لقوانين البيولوجيا المعروفة ، حين أنه فى اطار مفهوم الفردية جسم أثيرى لا مادى على المستوى المادى ومادى على المستوى الأثيرى للحياة •

---

(١) وهذه الحالات الصارخة فى اثبات المبدأ نفسه اكتشفها ايان ستفسون I. Stevenson رئيس قسم الباراسيكولوجى بجامعة فيرجينيا ، وأشرك معه فى تحقيقها بعض أساتذة التشريح بالجامعة ، على ما سوف نوضحه فيما بعد .

أما العقل فهو عنصر مشترك بين الشخصية والفردية . ألا أنه فى اطار الشخصية يعمل جانب منه عن طريق المخ المادى وهذا هو العقل الشعورى . ويعمل جانبه الآخر عن غير طريق المخ المادى ، وهذا هو العقل اللاشعورى . أما فى اطار الفردية فيحدث اندماج تدريجى للعقلين الشعورى واللاشعورى بسبب التخلى بالموت عن الجسد المادى بما فيه المخ ، وهو أداة العقل الشعورى قبل هذا التخلى .

بقى العنصر الثالث — المشترك بين الشخصية والفردية — وهو الروح ، وهى المصدر المباشر للحياة فيهما معا . وهذا المصدر المباشر يؤدى للفرد وللشخصية عدة وظائف مشتركة . هذا وان كانت وظائف الروح فى الشخصية لها صلة وثيقة بقوانين الحياة المادية مثل تجدد الأنسجة والخلايا ، ودورة الدم ، والتنفس والاحتراق ... أما بالنسبة للفرد فان الروح تؤدى عدة وظائف أسمى من هذه وتلك وهى متصلة وثيق اتصال بالملكات الروحية السامية للنفس الانسانية ، بعد تحررها من أقبح رباط يربطها بالمادة ، وهو الجسد المادى نفسه .

فلهذه الاعتبارات يتعذر القول بأن أوصاف « المادية الموضوعية » أو « المعنوية الشخصية » يمكن أن تؤدى أى دور مجدٍ فى التمييز بين « شخصية » الانسان وبين « فرديته » . وذلك ما دامت العناصر الأصلية بينهما مشتركة فى نهاية المطاف ، ومادامت حقائق الفيزياء الحديثة انتهت كلها الى القول بأن التحول بين المادة والطاقة ناموس طبيعى يجرى يوميا من خارج الانسان ومن داخله ، وأن الحواجز بين المادة والطاقة يمكن فى صور عديدة أن تكون محض حواجز عقلية ووجدانية ، لأن المادة فى نهاية تحليلها محض أثير فى رتبة اهتزاز معينة ، والطاقة أيضا محض أثير فى رتبة اهتزاز أخرى أعلى منها .

* * *

والشخصية ميراث الذات من البيئة ومن أجدادها ، لأنها نتاج تعامل الروح مع الجسد ، وتعامل الاثنين معا مع البيئة . أما الفردية أو الذات

الحقيقية أو الداخلية فهى ميراث الذات من نفسها ، ومن تاريخها العريق الحافل بالاختبارات وبالآلام والأهوال التى تركت بصماتها الواضحة فى التكوين الدفين العضوى والروحى لصاحبها ، ولم تنج منه خلية واحدة من خلاياه •

ومن هنا لا أبعد عن الصواب كثيرا عندما أقول ان خصائص الانسان المكتسبة ألصق بشخصيته منها بفرديته ، أما خصائصه الفطرية فهى ألصق بفرديته منها بشخصيته • أو بعبارة أخرى أنه اذا كانت خصائص الانسان — النفسية والعضوية — عبارة عن مزيج من اكتساب ومن فطرة ، فهى فى النهاية تعبّر عن شخصيته عندما تتفاعل مع فرديته ، وعن فرديته عندما تتكشف للآخرين عن طريق شخصيته الظاهرة ، بالمقابلة مع ذاته الحقيقية أو الداخلية أو الدفينة •

وعلى هذا الوضع لا أبعد عن الصواب عندما أقول أيضا ان هذا النظر يجب أن ينتهى الى أن دور الفطرة يجب أن يعد أقوى بكثير فى تكوين خصال الانسان وبنيانه العضوى من دور الاكتساب •

وذلك لأن الفطرة تنتمى الى الماضى برمته ، أما الاكتساب فهو ينتمى الى ظروف الحياة الراهنة•وبغير مغالاة ، وبغير محاولة وضع حدود حاسمة بين الفطرة والاكتساب ، لأن هذا الاكتساب بدوره يتوقف — فى سرعته وفى نشاطه وفى أسلوبه — على الفطرة المستمدة من وراثة الانسان من اختباراته السابقة ، أكثر مما هى مستمدة من وراثته الخاصة من آبائه وأجداده •

وأعتقد أنه ليس فى هذا النظر ما يتعارض مع معطيات البيولوجيا فى طورها الراهن • وبالتالى يستوى فى هذ الشأن أن يكون القارىء قد كوّن اعتقادا جازما بصحة مبدأ العودة للتجسد ، أم ما يزال ملتزما منه موقف الحياد أو الاعتراض •

ولذا فان كل فرد مغاير للآخرين • ولذا توجد شعوب لا حصر لها وسوف توجد ، لكن يوجد فرد واحد متميز عنها هو أنت أو أنا أو أى انسان • وكل فرد يحوز امكانيات خاصة به ، وطاقة حيوية مستقلة عن الطاقات الأخرى الكامنة فى شتى ظواهر الوجود •

وهذه الطاقة تنطوى على ألغاز لا تحصى ، وفى نفس الوقت تنطوى على مصادر لا تحصى للثقة والاطمئنان الى عدالة المصير والتقدير ، ما دام أنه يوجد وراء ذلك كله تخطيط عاقل وحكيم ينفى احتمال أن يجىء الفرد الى الوجود — بكل ما له وما عليه — بغته وبلا مقدمات سابقة ، رغم كل ما ينطوى عليه من ألغاز • وما يبعث تكوينه من عناصر للثقة وللاطمئنان الى حكمة العقل المدبر الحكيم الذى يقع وراء كل هذا التاريخ الطويل الحافل بالأحداث ، والذى انتهى به الى أن يكون انسانا فى المفهوم السامى لهذه الكلمة •

وما زلنا نتجاهل مدى ما تنطوى عليه كلمة « انسان » من ألغاز ، ومن أسرار تدعونا كلها لاحترام الانسان ، ولأن نذود الى النهاية عن حقوقه ، وكرامته ، وآدميته ، وآرائه ، وحريته حتى لو تنكبت شخصيته الى آخر مدى حدود الحكمة والاتزان • وفى هذا النظر يكمن كل الفارق بين نظرة الانسان الروحى الى أخيه الانسان ، ونظرة الانسان المادى أو الحرفى خصوصا اذا ما وضع القدر بين يديه أى قدر من السلطان •

ومن ثم فان أمانة الانسان مع نفسه ألزم من أمانته فى علاقته مع الآخرين • فهذه الأمانة هى النبراس الذى يضىء له طريقه ، ويشعره دائما أن فرديته باقية له بكل ما لها وما عليها ، لأنه ليس بمقدوره أن يساوم عليها ، أو يستبدلها بفردية شخص آخر • ولذا أيضا كان اختبار الذات ونقدها أمرا مرا ومحفوفا بالصعاب ، لكن لا غنى عنه لتحقيق الذات ، ولتطورها الأزلى نحو ما هو أسمى وأكمل فى جميع الصفات والمواهب والملكات •

وهذه الصفات والمواهب والملكات مجتمعة تنتمى الى هذا التكوين الثلاثى للذات الانسانية : روح ، وعقل وجسد • لكن ليست هذه العناصر الثلاثة على قدم المساواة فيما بينها ، فان الروح هى أسماها كلها وأبقاها لأنها تمثل العنصر الأزلى فى الانسان • يليها مباشرة العقل الذى يستمد طاقته الحيوية من الروح • ثم يليه الجسد بمفهومه الواسع المتطور الذى ذكرته ، والذى يتحول دواما من جسد مادى الى أثيرى الى عقلى •••••

وقد يتحول الجسد الانسانى الى عدة أجساد أخرى سواء اكانت متتابعة أومتداخلة مثل الجسد السببى، ودون الأثيرى ، وفوق الذرى••• مما لا يعنينا هنا ، وان كانت تعنى به الفلسفة الروحية أو الثيوصوفية أكثر مما يعنى به أسلوب البحث الوضعى ، بالنظر لتعذر استكشاف الصلات القائمة بين هذه التحولات والتداخلات التى لا تزال ربما مجهولا أو شبه مجهول من جهود الباحثين الوضعيين •

ولأن الروح هى العنصر الأسمى فى ذاتية الانسان فان من الأصوب أن نعرّف الانسان بروحه الباقية لا بجسده المادى الفانى • وعندما أطلقت على كتابى الآخر « المفصّل » عنوان « الانسان روح لا جسد » كان يجول بخاطرى هذا المفهوم الواضح البسيط للانسان •

فلم يكن يجول بخاطرى أبدا أن أقول « الانسان روح بلا جسد » كما تصور البعض خطأ • وذلك لأن مقتضى هذا القول الأخير هو انكار وجود الجسد ــ المادى أو الأثيرى أو العقلى •••• وهو ما لا يمكن أن يرد على بال أى باحث فى موضوع التكوين الروحى للانسان وأسرار سلوكه •

فالروح هى أبدا العنصر الأسمى ، والجانب المميز للتكوين الانسانى• وعلى ألا نغفل فى هذا الشأن تلازم الروح مع العقل مع الجسد• وعن تلازمها وتفاعلها معا ينبثق كل ما يصح أن تطلق عليه وصف التكوين

الأخلاقى ، والوجدانى ، والشعورى ، واللاشعورى ••• وما يشـبه ذلك من أوصاف شتى كلها تتداخل فيما بينها حتما تداخلا يشـير بذاته الى انبثاقها من مصدر واحد مشترك وهو تفاعل الروح مع العقل مع الجسد (المـادى أو الأثيرى أو العقلى ••• بحسب الأحوال) • ناهيك بتفاعل هذه العناصر الثلاثة مع ماضيها ، ومع ظروفها الراهنة فى الزمان والمكان فى تكوين عناصر كل ذات ناطقة •

* * *

وأقرب أسلوب للتمييز بين المبدأ الروحى فى الانسان أو « فرديته » من جانب وبين « شخصيته » من جانب آخر ، هـو أن تنظر الى الفـرد الواحد العادى فى حياة واحدة له ، فانك تجده قد مرَّ بشخصيات متعددة متتابعة : وهى الطفولة ، فالشباب ، فالرجولة ، فالكهولة • وكل شخصية منها متميزة عن الأخرى تماما •

فلا يوجد فرد واحـد ــ كما يقول رودلف شتاينر ــ يظل شخصا واحدا ، ولا بمقدوره أن يكون شخصا واحـدا • لكننا نصير أشخاصا متتابعين على التوالى بحسب مراحل العمر المختلفة • وفى كل مرحله لنـا متع مغايرة للأخرى ، ونحب ونكره أمورا متعارضة ، وتتقبل ونرفض أمورا شتى ، ونستخدم فى عباراتنا ألفاظا متغايرة ، للتعبير عن انفعالات متجددة• ولا يعود لنـا ــ بعد ــ نفس المظهر الخارجى ، ولا نفس الأهـداف العقلية •

وذلك لأنه بدون التغيـير لا يكون من المنطقى أن يحوز فرد ما اختبارات وانفعالات مختلفة • فلا يكون هو نفس الشخص اذا ما لحقه التغيير ، وليس له من بقاء دائم ، لأن طبيعته نفسها فى تغير دائم بمقـدار تعاقب الشخصيات التى تنتمى اليه ، الشخصية بعد الأخرى • وحواسنا بسبب جهلنا بالحقيقة لا تخبرنا الا عن المظهر الخارجى لهذا التغيير[1]•

---

(١) عن شتاينر . المرجع السابق صفحة ٥٩ .

فاذا ما سألك شخص ما قائلا أجبني : هذا الانسان اذا توفى فى كهولته أية شخصية فيه تكون موضعا لثواب أو عقاب : طفولته ، أم شبابه ، أم رجولته ، أم كهولته ؟ ! سيكون جوابك طبعا ان تتابع هذه الشخصيات أمر هنا لا قيمة له البتة ، لأن موضع الثواب أو العقاب هو الفرد نفسه صاحب هذه الشخصيات المتتابعة كلها .

وهذا هو بالضبط ما يحدث بالنسبة للروح الأزلية رغم تتابع شخصياتها المتجسدة فى حيوات متعددة لها ، ما دامت الفردية — أى الحقيقة الروحية — لا تفنى بموت ولا بحياة . فلا توجد مشكلة حقيقية هنا ، انما المشكلة هى فى درء خداع حواسنا عن هذه الحقيقة التى وضحت تماما فى اطار البحث النفسى — الروحى ، وهى أن « الفردية » غير « الشخصية » . وأن الأولى أزلية باقية ، لكنها متطورة عبر الشخصيات العديدة التى تمر بها ، كتطور الفرد الواحد عبر الشخصيات المتعددة التى يمر بها حتى فى الظهور الواحد على مسرح هذا الكوكب الأرضى من المهد الى اللحد .

ماذا عن العدل الالهى ؟

بالاضافة الى ذلك فان رفض مبدأ العودة للتجسد من شأنه أن يثير العديد من التساؤلات الهامة التى يستحيل أن تجد لها فى هذا الرفض أى جواب شافٍ أو غير شاف ، وكلها متصل بلا مشقة بمبدأ العدل الالهى — اتصالا مباشرا ، ومن هذه التساؤلات المشروعة ما يلى :

— كيف سيحاسب الله الطفل الذى انتقل فى طفولته ، أو فى صباه المبكر والذى لم تتح له أية فرصة لفعل الخير أو الشر ، أو حتى للحصول على التكوين العقلى اللازم لمبدأ المسئولية الأخلاقية ؟ !

— وكذلك الشأن بالنسبة للانسان الناقص العقل ، أو ذلك المريض بمرض نفسى أو عصبى ، خصوصا اذا بدأت أعراضه عنده منذ فجر وجوده الراهن ؟ !

ـ وكذلك الشأن فى الانسان المولود مصابا بعجز خطير ينال من ارادته أو يحجبها عن أى نشـاط نافع أو ضار مثل ذلك المولود آعمى ، أو مشلولا ، أو بلا أطراف ، أو بلا قدرة على السمع أو النطق •

ـ وكذلك الشأن بالنسبة للتفاوت الضخم الذى يبدو بلا حدود فى المواهب الفطرية والملكات المتنوعة ، بما فيها مدى نمو الاحســاس الخلقى أو تخلفــه ، ناهيك بالظروف الصـــحية مثــل افرازات بعض الغــدد (١) ، والاجتماعية مثل ظروف البيئــة ذات القيم الصــالحة أو الطالحة ؟ !

أما قبول مبدأ العودة للتجسد فهو بالأقل يلقى أضواء باهرة على كل هذه التساؤلات المشروعة ويعطيها اجابات شــافية بالقول بأن ماضى الانسان يبرر حاضره ، وحاضره يبرر مستقبله • وذلك لأن حاضر الانسان هو ثمرة ماضيه ، وهو فى نفس الوقت بذرة مستقبله ، مادامت للانسان عدة حيوات متضامنة ومتتابعة هنا وهناك ، ومترابطة فيما بينها شأن ترابط حلقات السلسلة الواحدة أو جسيمات الذرة الواحدة •

وهنا يتجلى العدل الالهى فى أروع صوره ، ويتراجع العــديد من صور تلك التساؤلات المشروعة بشأن بعض مشكلات الثواب والعقاب ، والمسئولية الأخلاقية للانسان عن أفعاله بوجه عام • ويتراجع معها العديد من صور المغالطات والرياء المكشوفة بشأن هذه التساؤلات المشروعة •

فانكار مبدأ العودة للتجسد ـ رغم وضوح دور هذه المفارقات الضخمة كلها فى سلوك الانسان ، وهو مزيج من فطرة ومن اكتســاب كما ذكرت آنفا ـ يتضمن بالأقل تشكيكا فى عدل الله تعــالى ورحمته حيثما يلاحظه بعض المفكرين الروحيين •

---

(١) ونقصد هنا تلك الغدد ذات التأثير المبــاشر الثابت فى ســلوك صاحبها ، مثل الغدة الدرقية ، وفوق الكلية ، والكبد ....

وذلك لأن هذا الانكار ربما يظهر الله كما لو كان حاكما مستبدا يعمل بلا عدل ،ولا حكمة ، و لارحمة واضحة • وهذا بالذات ما ترفضه من أساسه فلسفة الروح ••• فأيهما أقرب الى تنزيه الله تعالى عن التحكم والمحاباة من ينكر هذا المبدأ أم من يسلم به ؟ •••• والأمر مع ذلك مرده فى النهاية الى الوقائع الثابتة لا الى مضاربات علوم الكلام وهى دائما تنتهى الى طريق خاطىء أو مسدود ••••

وفى النهاية فان اضفاء صفات العدل والحكمة والرحمة ••• على القدرة الخالقة أمر يسير ، لكنه كثير ما يحدث بدافع الرهبة الحمقاء منها أكثر مما يحدث بدافع الارتباط بالحب الصحيح نحوها • وهذه الرهبة لا يحق لها أن تخلط بين صفات شيطان رجيم وصفات اله عادل وحكيم ورحيم •••• ولكن الأمر المطلوب فى النهاية هو اقناع العقل المفكر بهذه الصفات جميعا للقدرة الخالقة ، وهو أدنى الى أمور العلم الخالص منه الى محض الايمان •

واذا كان الايمان بالقدرة الخالقة لازما للانسان ، ومريحا للوجدان، فان استخدام منطق العقل ألزم لتطور العقل والوجدان وأوجب • وهيهات أن يتحقق أى تطور فيهما بدون هذا الاستخدام على أوسع نطاق ممكن، وفى تحرر تام من قيود العبودية والاذعان ، وأغلال الرغبة أو الرهبة • وهذا هو طريق الايمان الذى لا يسد منافذ العلم والعرفان ، وأين نحن منه الآن ؟ !

* * *

ويتجلى العدل الالهى على حقيقته فى مشكلة من أدق مشكلات الثواب والعقاب وهى مشكلة الرابطة العقيدية التى يتصور المتدين الساذج العادى أنها تمثل كل شىء فى مصيره وقدره ، وأن الانتماء الى اعتقاد معين كفيل وحده بأن يفتح له أبواب السعادة الأبدية على مصراعيها، وبأن يفتح لغيره أبواب الشقاء الأبدى على مصراعيها ! ! •••

ويؤسس « أرباب الحرف » على هـذا الفهم المغلق للانتماء فقهـا شامخا من الأنانيـة والغرور لا يلتئم مع أية حقيقـة من الحقائق النقيـة للوجود • وكلها ـ فيما يتعلق بنشاط السلوك الانسانى ـ تشير الى وجود نواميس مطلقة موضوعية لا تعترف أبدا بأى فضل للانتماء الموروث حتى ان كان صحيحا ، ولا بأى وزر فيه حتى ان كان خاطئا •

وبالتـالى فان الانتماء الوحيـد الذى تعرفه نواميس الطبيعة ـ ويعترف به العلماء الجادون ـ هو ذلك الانتماء الى مستوى رفيع من النضج العقلى ـ الروحى • وكلما كان هذا المستوى أرفع من غيره كلما كانت فرص السـعادة لصاحبه أوفر من غيرها • وبالتـالى فان المشكلة الحقيقية التى تبرز نفسها بكل الحاح واصرار هى التساؤل كيف يتـأتى الوصول الىهذا المستوى الناضج المتطور فى الاتجاه الروحى الصحيح ، الذى من حق كل انسان ـ ومن واجبه أيضا ـ أن يتطلع الى الوصول اليـه ؟ !

ان الاعتقاد هنا يقوم بدور الوسيلة لا الغاية كما قلت • وبشرط أن يؤدى الىغرس العديد من القيم الروحية الصحيحة ، وأن يرتبط بهـا صاحبها ارتباطا حقيقيا نابعا من أعماق احساسه الوجدانى بأن الفضـل يكون للحب على الكراهية ، وللخـدمة على الأنانية ، والمتواضـع على الغرور ، وللوداعة على العدوان ، وللحرية على التحيز والطغيان •••

والانتماء الوثيق الى هذه القيم الفاضلة هو ذلك الذى يخطط وحده للنفس طريق تطويرها الصحيح للحصول على المستوى المطلوب من نضج العقل والروح • أما تلك الفروق البغيضة التى يقيمها بنو البشر بين شتى الانتمـاءات • وتلك الحواجز الغبيـة التى تفصـل بينهم ، فهى محض « شـطحات » لمـا يعتمل فى نفوسهم جميعا من شـتى ضروب الأنانية والغرور ، والاعتقاد الكاذب بأن « الله النا لا لأعدائنا »

وهو ذلك الاعتقاد الذى يقع وراء العـديد من صـور الشحناء والبغضاء التى نكب بها الانسان آخاه الانسان على مر الدهور والأجيال وجعل منه ذريعة لحب التسلط وشهوة الاستبداد ، وهى كامنة فى نفس كل انســان متى كان يعوزه نضج العقـل والوجدان ، أيا كان انتماؤه العقيدى أو المذهبى أو الوطنى أو الاقليمى ....

ثم ان مشكلة الانتماء العقيدى هنا — ومعها مشـكلة الحواجز النفسية بين شتى العقائد والشعوب — تتراجع بل تزول تدريجيا عنـد مجرد تصور العقل باحتمال تعاقب الفرد الواحد على العودة للتجسـد فى عقائد شتى ، وشعوب مختلفة ، للتزود من كل تجسد منها بالمزيد من الخبرات ، ومن الفضائل .

ومن هنـا يجىء التطبيق الحقيقى — عبر الأزل — لمبـدأ الاخاء الانسانى العام ، الذى يضعه الروحيون على رأس مبادئهم الأخلاقية ، كما سبق القول . ويجدون فيه المنقذ الوحيد من صور العبودية النابعة عن تلك الحواجز النفسية البغيضة بين شتى العقائد والشعوب . والتى كثيرا ما أدت الى الشحناء والحروب ، أو الى العديد من صـور الرياء المتعددة ، وكلها كوارث حقيقيـة على الروح الانسـانية كما ينبغى أن تكون (١) .

عن صلة العدل الالهى بناموس التطور

ولايضاح هذا المفهوم العلمى المتطور للعدل الالهى المطلق ، نفترض أن طفلا ولد فى قرية تقع فى غابة استوائية متخلفة ، وعاش فى بيئة غارقة فى بحر الجهالة من كل جانب . بل غارقة فيما هو أسوأ من الجهالة وهو القيم الفاسدة ، والمغالطات العـديدة التى تجعل من الحقد حبا ، ومن الأنانية ايثارا ، ومن الانتقام مجدا ، ومن القسـوة رحمة وحنانا ، ومن الشعوذة عبادة وايمانا ، ومن السحر الأسود علما وعرفانا ....

---

(١) راجع ما سبق فى صفحة ٥٠١ — ٥١١ .

وبطبيعة الحال رضع الطفل الاستوائي هذه القيم الملوثة وأصبحت أصيلة فى عقله ووجدانه ، وطبّقها مرارا وتكرارا فأصبحت بمثابة لبنات دفينة فى تكوينه الروحي ، ثم توفي عند حلول الأجل المحتوم فماذا يكون مصيره ؟ إن قلت هي النار فقد ظلمته بلا نزاع ، وان قلت بل هي الجنة — لأنه لا ذنب له في هذا التكوين — فقد ظلمت الجنة بوجوده ، وأضعت التناسق harmony الذى يسود — ولو على نحو ما — النواميس الطبيعية للاجتماع ... فما العمل ؟ !

والجواب فى اطار الحقائق الروحية بسيط للغاية ، وهو أن أكوان الأثير عبارة عن مستويات متعددة تعددا لا حدود له . وهـذا الانسان مصيره بحكم قانون التوافق الطبيعي — أن يعيش الى حين فى مستوى الوجود الذى يتناسب تماما مع مستوى تكوينه الروحي — العقلي ، الى أن يتطور تدريجيا الى ما هو أحسن فى هذا التكوين فيجد نفسه يحيا فى مستوى الوجود الذى يتناسب مع تكوينه الجـديد ، والذى يتفق مع الاهتزازات التى تنبعث منه .

وذلك حتى يحصل هذا الانســان على مزيد من النضج فى العقــل والوجدان فى هذه المدرسة المستمرة للتطور والارتقاء ، وهي مدرســة الحياة الأزلية التى لا تعرف التوقف أبدا ، لكن تعرف التنقل بين فصولها المتعددة تعددا يبدو بلا حدود .

وما يصدق من نواميس التطور على ساكن القرية الواقعة فى قلب الغابات الاستوائية يصدق أيضا على ساكن أية بقعة من البقع الواقعة فى قلب الحضارة المزدهرة . فالحياة بالنسبة للجميع مدرسة ذات فصــول عديدة . ومهمة الانسان هي أن يتنقل بين فصولها فى تجسداته المتتابعة ، وفى آجال متباينة حسبما يلزمه من استكمال تطور العقل والوجدان عن طريق المرور باختبارات متنوعة الأشكال والفترات ، تحددها له نواميس الطبيعــة .

وهى نواميس يصح وصـفها بأنها المعـلم الحقيقى للانسان ، وأنه لا يصح أن تقاس بها أنظمة التعليم فى أرقى المدارس والجامعات . فالطبيعة مدرسة رومانسية ، أو خيالية لكنها أكثر واقعية من أية مدرسـة أقامتها أيدٍ بشرية ، لانقاذ طلابها من عوامل الجهل والتخلف ، ولتحقيق رسالة التطور والارتقاء التى تبـدو الآن لجميع الدارسين بغير حدود معروفة للبداية أو للنهاية .

وليس لهذه المدرسة من اجراءات خاصة للالتحاق بها أو لمغادرتها ، الا اجراءات التردد بين الحياة والموت ، والموت والحياة . مع خداع ضخم للحواس لأن ما يظهر لحواسنا كأنه الحياة هو الموت بعينه ، وما يظهر لها كأنه الموت هو الحياة بعينها .

وبالتالى فان ما يظهر كأنه البداية هو فى حقيقته نهاية فترة اقامة فى الأثير ، وما يظهـر كأنه النهـاية هو فى حقيقتـه بداية فترة من الراحة والسرور ... وفى هذا الشأن لا يختلف الآن اثنان من العلماء والباحثين فى بعض أسرار المصير والتقدير .

وكلما ارتفع الانسان الى فصل أعلى من بين فصول مدرسة الطبيعة كلما ازدادت مسئولياته ، وفى نفس الوقت ازدادت فرص السعادة أمامه ، أماالانتماء العقيدى فهو لا يلعب فى هذا التطور سوى دور الوسيلة دون الغاية . وكثيرا ما تتشـابه الوسائل فى شـتى العقائد رغم الفروق التى لا يستهان بها أحيانا . والعبرة فى النهاية هى بتطبيق المبادىء السـامية تطبيقا حقيقيا لا بكثرة الحديث عنها حديثا معادا . وأول خطوات التطبيق الصحيح هو الوصول الصحيح اليها ، والارتباط بها وجدانيا وعقليا .

* * *

وعن طريق هذه المبادىء الأخلاقية الحقيقية ـ التى تقع وراء ناموس التطور ـ تطور الانسان تطورا بطيئا من انسـان العصر الحجرى الى انسان العصر الحاضر . من انسـان لا يختلف كثيرا فى مستواه العقلى

والخلقى عن حيوانات الغابة ، الى انسان يرتاد الفضاء بمركبات متطورة لاستكشاف أسراره • ومن انسان يمارس السحر الأسـود ، وقد يأكل لحوم البشر ، الى انسان يعرف بعض منابع الفضيلة عن طريق الاعتقاد ، وبعض منابع المعرفة عن طريق البحث والاجتهاد •

أما عند من ينكرون العودة للتجسد فلا تجد آية اشـارة الى مبدأ التطور ، وكأن الانسان قد ظهر بغتة فى الطبيعـة على النحو الذى نعرفه حاليا عنه كما أنه سوف يختفى بغتة بالوفاة • وكأن فترة عام أو مائة عام يمضيها على الأرض كفيلة بأن تتحكم فى حياته الى الأزل فى نعيم مقيم ، أو فى جحيم رهيب ، أو فى انتظار طويل عجيب لا معنى له ولا هدف منه•

ومن المعروف أن الانسان كائن متكيف بطبيعته • ومدى تطوره فى أثناء اقامته الأرضية ـ طالت أم قصرت ـ لا يكاد يذكر ، بل فى الواقع لا يحدث فيها أى تطور له ، بسبب هـذا التكيف ذاته مع ظروف بيئته مهما كانت بالغة التـدهور ، بل خصوصا اذا كانت بالغة التـدهور • كما نشـاهد بشأن تكيف انسـان الغابة ـ حتى فى العصر الحاضر ـ مع ظروف غابته ، واصراره عليها ، وزهوه الشديد بها ، ودفاعه الشرس عنها بكل جوارحه وامكانياته • وهذا ما يجرى بالفعل الى الآن فى بعض غابات الكونغو ، والأمازون ، والهند ، واستراليا •••• فما بالك بما كان يجرى منذ أجيال وحقب طوال ، وما مصـير كل هؤلاء البشر البدائيين الذين لم يتصلوا أى اتصال بأى اعتقاد أمين ولا بأى علم صحيح ؟ ! ••••

هل هم فى النعيم ؟ هل هم فى الجحيم ؟ هل هم فى فترة انتظـار خامل عجيب قـد يطول الى ملايين أخرى من السنين ؟ هل الطبيعـة من حولهم تهزل وتعبث مع أنها لا تعرف أبدا الهزل ولا العبث فى أى ناموس من نواميسها ؟ ! وتعرف تمـاما ثمن الوقت وقيمته وأثره ومغبة اضاعته هدرا ؟ ! ••••

ولماذا لا تعطيهم الطبيعة فرصة بعد فرصة للتجسد فى هذا الكوكب الأرضى أو فى غيره لكى يفيدوا من العيش فى ظروف أخرى غير تلك التى عرفوها ، ولكى يمروا باختبارات جديدة متنوعة غير تلك التى اختبروها؟! فعن هذا الطريق وحده يحدث التطور — وهو بطىء غاية البطء • ومن المحال أن يتحقق فى حياة واحدة ، ومن المحال أن يتحقق أى تطور فى حياة رقاد أو محض انتظار ••••

وكلما تطور الانسان خطوة واحدة الى الأمام كلما شعر أنه ما تزال تنقصه خطوات وخطوات حتى ينمو فى العلم ، فى الأخلاق ، فى الوجدان ، فى الحب ، فى الفضيلة ، فى الخدمة ، فى الابتكار ، فى الايمان ••• وهذا كله يتطلب نشاطا دائبا متجددا ، لا يعرف كللا ، ولا تراخيا ، ولا جمودا ، ولا همودا من هذا الصنف الذى تردده وتصر عليه — على نحو أو آخر — جميع مدارس الرجعية والجمود والمكابرة فى أبسط حقائق الوجود •

وعندما يصل هذا الانسان الى مرحلة فجر الضمير يبدأ فى الاحساس بنواميس الحياة السامية ، فيعرف معنى البحث عن العفة ، وضبط النفس ، والقناعة . والوداعة ، والاخلاص ، والتضحية ، والايمان ، والصلاة ، والتأمل •••• ويعرف أيضا معنى محاولة البحث عن حقائق الوجود النقية لمحاولة الارتباط بها ارتباطا حقيقيا • ومعنى محاولة توسيع نطاق علمه ومعلوماته لخدمة اخوته فى البشرية وتذليل صعوبات حياتهم ، وآلام أرواحهم وأجسادهم وما أفدحها من آلام ، ومن أهوال جسام تزداد كلما ازداد تخلفهم عن امتطاء ركب الأيام •

وكلما خطا الانسان خطوة واحدة نحو الأمام فى الطريق الصحيح للتطور كلما ازداد احساسه ببهجة الحياة ، وكلما ازدادت فى نفس الوقت مسئولياته ازاء الحياة • فالحياة معادلة عادلة بين البهجة والألم ، والسعادة والعناء ، والنشاط والسكون ، والأمن والقلق • وكتاب الحياة كتاب

عظيم « لا يترك شاردة ولا واردة الا أحصاها » • ويحاسب كل نفس حسابا عادلا دقيقا « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » •

وفى شأن هذا الكتاب الطبيعى وتطبيقه العملى على مر الآماد والأيام لا يختلف الآن باحثان فى أسرار الروح والخلود على آسس علمية وضعية هى أبعد ما تكون عن الارتجال أو الافتراض •

ولذا فان الاعتراض هنا لا يملك سوى رغبة عارمة فى ابهام الأمور mystification تنادى بالبعد عن المنطق الواضح البسيط المرتبط بكل حقائق العلوم ، للاصرار — من جديد — على ما من شأنه أن يزكى فى الوجدان عناصر التعالى والغرور •

ناهيك بنزعة مواجهة حقائق الحياة الهادئة ، الوديعة ، البسيطة ، المترابطة بما يلزمها دائما من زوابع مفتعلة وأعاصير لا منطق لها ولا هدف منها سوى محاولة وقف التطور نحو ثراء العقل والوجدان • وكل تطور مخيف خطير ، بقدر ما هو أليم مرير • واسألن فى ذلك كل دارس فى علم الانسان ، أو فى علم النفس ، أو فى علوم الحياة يأتيك بالخبر اليقين والايضاح المبين ••••

* * *

وعلى هذا النحو فان « علم الروح الحديث » لا ينكر مبدأ الثواب والعقاب لكل نفس ناطقة ، بل لقد وصل الى الجزم بصحته • والى ارتباطه بنواميس كونية أزلية لا تعرف ممالأة ولا محاباة • وهذه النواميس تحاسب الانسان على كل كبيرة وصغيرة فى أفعاله ، وأقواله ، ومشاعره • ولن يفلت منها انسان لمجرد أنه ظهر على مسرح حياة المادة مرتديا أكثر من رداء ، أو ممثلا لأكثر من دور • فالمآل فى النهاية هو الى حياة الروح صاحبة الذات المتطورة وهى أزلية ، لا الى حياة المادة التى قد تقصر الى دقائق أو قد تطول الى أعوام طوال أو قصار •

وقد شرح نواميس العقاب والثواب هذه شرحا وافيا آلان كاردك Allan Kardec الذى لا يزال معتبرا أبرز اسم فى الفلسفة الروحية حتى الآن . وقد خصصت للنتائج التى خلص اليها موضعا كافيا من كتاب « مفصل الانسان روح لا جسد » فى جزئه الثالث المخصص « للخلود والقضايا الفلسفية » (١) فلا حاجة للوقوف عندها من جديد هنا ، خصوصا وأن التركيز فى الكتاب الحالى ينبغى أن يكون على القضايا العلمية قبل الفلسفية .

وبالاضافة الى ذلك فان قانون العودة للتجسد مرتبط دوما بقانون الكارما أى بارتباط النتائج بأفعالها ارتباطا تلقائيا بشأن مصير الروح ، وتوافر فرص السعادة أو الشقاء التى قد تعترض طريقها فى تجسداتها المتتابعة .

ولما كان قانون الكارما يُبحث الآن على نطاق علمى ، وبأساليب وضعية لذلك سأفرد له فى الفصل الأخير من الباب العاشر صفحات كافية وبعد الاطلاع عليها سيدرك القارىء تماما أن مشكلة الثواب والعقاب تحل نفسها بنفسها فى اطار قانون العودة للتجسد ، وتحل معها — فى نفس الوقت — العديد من المشكلات التى يثيرها العقل الانسانى عن دور العدل الالهى وماهيته وقدرته . ومن المحال أن يجد لها جوابا شافيا خارج اطار الاقتناع بصحة العودة للتجسد ، وقانون الكارما ، بوصفهما قانونين طبيعيين متلازمين معا فى كل خطوة من خطوات التنفس سواء على مستوى المادة أم على مستوى الروح .

عن صلة الجماهير بحقائق الوجود

ورغم هذه الاعتبارات مجتمعة فان الاقتناع بهذا المبدأ ، رغم ثبوته الآن بأدلة لا تحصى — كما يعلم كل دارس فيه — لن يجد استجابة سهلة ولا سريعة من أفئدة الجماهير وذلك لتوافر عيوب ضخمة كثيرة فيه :

---

(١) راجع منه صفحة ٨٤٣ — ٩٧٣ .

ـ ومنها أنه يلقى أضواء باهرة على العـديد من المشكلات العلمية والفلسـفية ـ كما بينت آنفا ـ والجمـاهير كالقطط الصـغيرة تكره بطبيعتها تدفق الضوء ، لأنه يزعج حواسها المرهفة ويوقظهـا من رقادها المريح •

ـ ومنهـا أنه مبدأ موضوعى لا يمت بصلة ما الى ارضاء مشـاعر الأنانية والغرور عند الجماهير ، والجماهير لا تتقبل الا ما يرضى مشاعرها هذه على نحو أو آخر ، وهذه هى أولى البديهيات فى علم الاجتماع •

ـ ومنها أنه مبدأ محايد ، غير مرتبط بأى اتجاه دينى ، أو اقليمى أو وطنى معين فهو بالتـالى مرفوض من جميع « المتحاربين » كما تجرى الأمور دائما فى الحروب الساخنة والباردة ! !

ـ ومنها أنه يتطلب نوعا من العمق فى فهم المشكلة ، وفى دراسـة أبعادها ، وفى الاطلاع على أسانيدها وتحليل مدلولها ، وكل هذا يعـلو على مستوى القارىء المتعجل والمفكر العادى •

ـ ومنها أنه قد ينقص من نفوذ بعض الجهات والهيئات التى كثيرا ما تنتحل لنفسها نفوذا لا سـند له على مصائر بنى البشر أجمعين دونه نفوذ رب العالمين ! ! ••••

وكل هذه العيوب الضخمة ـ كما ترى ـ كفيلة بأن تعلل ما يلقاه هذا المبدأ من مقاومة عند العديدين هو جدير بها تماما ، لكنها مقاومة ينبغى ألا تنتقص مع ذلك ذرة واحدة من قيمته أو صحته • كما لا ينبغى أن تنتقص مقاومة الجماهير لتطبيق فضائل الصـدق والطهارة والعـدالة والأمانة •••• شيئا من قيمة هذه الفضائل ، ولا من صحتها بوصـفها مبادىء أزلية تحكم بحكمة تامة تسلسل الأحداث ، سواء أقبلت الجماهير ذلك أم لم تقبله ، وسواء اقتنعت به أم لم تقتنع • لأن وجود القـانون الطبيعى لا يتوقف على مدى اقتناعها بوجوده ، ولا على مدى التزامهـا بتطبيقه •

فكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس قانون طبيعي كان موجودا قبل أن يكتشفه جاليليو • وكانت الشمس تشرق وتغيب بسبب هذا القانون • وكانت الفصول الأربعة تتعاقب على التوالى بسببه • ولم يتوقف هذا القانون عن العمل لأن الناس لم يكونوا يعرفوه • ولا توقف لأنهم قاوموه وأنكروه ، وأصروا طويلا على المكابرة والانكار • بل كانت الأرض تدور بهم ، وتجرى فى الفضاء بسرعة تحير الألباب ، وهم ما زالوا ينكرون ويكابرون ، ويحاكمون جاليليو التافه الجهول ويضطهدونه ! •

وقل مثل ذلك عن قانون الجاذبية ، وعن قوانين الفعل ورد الفعل ، والصحة والمرض ، والخلود والمصير ، والثواب والعقاب ••• فهى قوانين طبيعية أزلية ليست من وضع عقل بشرى ، ولا من اقتراحه ، ولا يتوقف نشاطها على علمنا بها ، أو رضائنا عنها ، أو اعتراضنا عليها ، أومدى فهمنا لأسلوب عملها ••• بل ان مهمة العلم هى محاولة الوصول الى جانب منها ، وتسخيرها ــ ان أمكن ــ فى خدمة قضية التطور والارتقاء ، وهى تمثل بذاتها أخطر قضايا الوجود •

ودور العلم ازاء مبدأ العودة للتجسد بوصفه قانونا طبيعيا لا يختلف أبدا عن دوره ازاء سائر قوانين الحياة • وصفوة العلماء والدارسين الذين تصدوا لبحثه فى روية وهدوء ــ ليس لديهم ارتباط مسبق بأى مذهب أو اعتقاد • ولا يعنيهم أى موقف تقفه الجماهير ازاء هذا المبدأ • ولايحرك شعرة من رؤوسهم صراخ الصارخين ، أو صياح الصائحين •

بل يعنيهم الوصول الى لب الحقيقة فى هذه القضية الكبرى من قضايا الوجود والخلود ، والبقاء أو الفناء • وفى الصفحات المقبلة سوف أقتصر على سرد طائفة محدودة من البينات التى حصلوا عليها ، ومن النتائج التى وصلوا اليها • بل سأقتصر على سرد طائفة محدودة جدا ، لأن الموضوع أصبح الآن أوسع نطاقا بكثير من أن تحيط به صفحات كتاب واحد ولو بلغ عددها الآلاف العديدة •

وذلك لأن أصبح موضع عناية بالغة من أبحاث العديد من الجامعات والمعاهد المعنية بالباراسيكولوجى ، والمنتشرة الآن فى كل أرجاء العالم المعاصر كما أشرت الى ذلك مرارا • حتى ليمكن القول بأن الأبحاث فى موضوع العودة للتجسد — وحده — أصبحت لا تقل فى حجمها وفى نوعيتها عن الأبحاث المتعلقة بفرع هام من فروع الطب ، أو الفيزياء ، أو الكيمياء ، أو العلوم ، أو النفس ، أو الاجتماع ••• وهى بين فروع علوم الحياة والنفس أهمها كلها بدون أدنى ريب ولا نزاع •

كلمة لابد منها

وأحب أن أوجه نظر القارىء فى هذا المقام الى اعتبار أرجو أن يكون له وزنه ، وهو اننى ما وقفت حتى الآن هذه الوقفة العابرة عند موقف العقائد الدينية من نظرية العودة للتجسد ، الا لأبين كيف أن كافة العقائد لا تعترض طريقها على أى وجه كان الاعتراض ، فلم يكن وقوفى بالمرة لأننى أقر وصاية الاعتقاد على العلم ، على أى وجه كانت الوصاية •

بل لقد كان الوقوف لاعتبار واحد : وهو أن أبيّن كيف أن الأصول الدينية بوجه عام تقف الى جانب هذا الاعتقاد ، ولا تقف الى جانب من قد يعترضون باسم العقائد بغيراطلاع كاف عليها وعلى الحقائق الهامة التى تكشّف عنها العلم • والتى تلعب — أو ينبغى أن تلعب — دورا أساسيا فى القاء أضواءها على مفاهيم العقائد ، وتبديد أخطاء بعض الشروح القديمة المرتجلة وما أكثرها فى كل اعتقاد ، وما أعظم رسوخها فى الأذهان ، ناهيك بأخطاء التزمت والغلو ، التى من شأنها أن تجنى على المفاهيم الصحيحة فى الاعتقاد والعلم أيضا •

فالوصاية ينبغى أن تكون لمعطيات العلم الوضعى على « مفاهيم العقائد » ، لا « للمفاهيم العقيدية » أيا كان مصدرها أو نطاقها على معطيات العلم الثابتة • وهى بداهة لا تصبح « معطيات » ثابتة الا بعد أن تحظى بكل صور التحقيق والاختبار الممكنة ، والا بعد أن تجتازها بنجاح يرضى عنه أسلوب التحليل الناقد ، وهو أسلوب بالغ المشقة ، باهظ التكاليف •

ولو اتبع المفكرون من شتى العقائد والمذاهب والنحل منهج البحث العلمى المحايد عن الحقائق لذابت تدريجيا أعتى عناصر سوء الفهم ، ومصادر الخلاف فى الرأى ، أو بالأقل لتراجعت كثيرا عما كانت عليه من قبل . ولما وجدت كل عقيدة ، وكل نحلة أنها وحدها على صواب مطلق، وان من حقها أن ترمى غيرها بالهرطقة والالحاد كما حدث على مر العصور بين جميع العقائد بل بين أرباب العقيدة الواحدة ، أو المذهب المشترك .

وتكفير المخالفين فى الرأى أمر يسير ، لكن الوصول الى الحقيقة هو الأمر العسير ، لأن الحقيقة هى أثمن شىء فى الوجود ، ولا يمكن أن يصل الانسان اليها لمجرد ارتباطه مقدما برأى ما ، وتكفيره لمن يخالفه فيه . ولو صدقنا غلاة المعتقدين فى حكمهم على غيرهم بالكفر والالحاد لكان الكفر هو الصفة المشتركة الوحيدة المميزة لجميع العقائد ومعتقديها منذ فجر التاريخ حتى الآن ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ! !

أما فى اطار البحث الروحى فان كل الارتباطات المسبقة لا تقدم ولا تؤخر فى مصير الانسان . والكفر الحقيقى فيه هو التعالى على كل شىء حتى على محاولة فهم حقائق الحياة . وهو الأحقاد يطويها الانسان بين جنبيه ازاء كل مخالف فى الرأى . أو هو تكفير الآخرين لمجرد الخلاف فى الرأى ، مهما كان الخلاف يسيرا أو جسيما . فهذا هو الكفر الحقيقى بالله لأنه يتضمن مروقا صريحا على كل نواميس التواضع ، والوداعة ، والتسامح ، والجد فى البحث عن الحقائق ... التى هى كل شىء فى ارتقاء الانسان أو فى تخلفه ، وفى نجاته أو ضياعه ، وفى نجاح الحياة خلقيا واجتماعيا أو فى فشلها الذريع .

ثم ان النضال الجاد للوصول الى حقائق الحياة هو أنقى صور العبادة ، لأن الله هو أسمى حقائق الوجود ، ولا يمكن أن يخطو خطوة واحدة فى طريق الوصول الى الله الا من عرف أولا كيف يتجرد من الاعتداد

المفرط بالرأى وبالذات ، ومن التصور الخاطىء بأنه قد ملك وحده الفهم الصحيح لله ولنواميسه التى أعيت ولا تزال تعيى كبار المفكرين والعلماء.

ولذا فانه اذا أثير أى نقاش هام بين رأيين متعارضين ، وكان كل منهما يعتمد على النصوص ، ولا شيء غير النصوص ، كما يحدث عادة بين أرباب المذاهب والنحل المختلفة حتى تلك التى تنتمى الى اعتقاد واحد ، فكيف يكون الترجيح بينهم ؟ ومن يملك سلطة الترجيح ، أو سلطة التوفيق ان كان ثمة محل للتوفيق ؟ هل هى المناقشات التى لا تنتهى أبدا ، أو تنتهى دائما من حيث بدأت وربما أشد عنفا وغثاثة مما بدأت ؟ أم هى معطيات العلم الثابتة التى لم تعد تحتمل بعد جدلا ولا نقاشا ؟ .

من البديهى أن تكون معطيات العلم الثابتة هى الحكم وهى الفيصل فى هذا النقاش ، ولا شيء غيرها ، عند من يناقشون للوصول الى الحقائق لا للمكابرة فيها . وعند من يبحثون عن الصواب بحثا جادا لا عند من يبحثون عن اثبات وجودهم وقدراتهم « البلاغية » والدفاع عن آرائهم المسبقة بكل الأساليب مهما كان نوعها ، وأية كانت مراميها .

وأولئك الذين يبحثون عن الحقائق بحثا جادا مخلصا — وهم بحمد الله كثيرون — سيتفهمون فيما أرى موقفى هذا ، وسيتجاوبون بسهولة مع وجهة نظرى من امكان التوفيق — فى أمور عديدة — بين العلم والعقائد من جانب ، وبين العديد من الأمور الخلافية بين شتى النحل والمذاهب من جانب آخر .

وهذا الأسلوب نفسه تبناه ودافع عنه الامام الغزالى عندما قرر فى كتابه « تهافت الفلاسفة » أن الدين لا يحتج به على العلم ، بمعنى أن ما يقرره العلم لم يعد يجوز لأحد أن يكذبه بما يزعم وروده فى الدين . يقول الغزالى : « من ظن أن ابطال شيء مما يقوله العلم هو دفاع عن الدين فقد جنى على الدين ... فان هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية

لا يبقى معها ريبة ، فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها .. اذا قيل له أن هذا خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وانما يستريب فى الشرع .

وأعظم ما يفرح به الملاحدة ـ هكذا يقول الغزالى ـ هو أن يصرح ناصر الشرع بأن ما قـد أثبتته البراهين العقلية العلمية هو على خلاف الشرع ، مادام شرعا تتنافى أحكامه مع نتائج العلم »(١) .

(١) عن د. زكى نجيب محمـود « المعقـول واللامعقول فى تراثنـا الفكرى » ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

الفصل الثاني

في موقف العلم المعاصر
من « العودة للتجسد »

المبحث الأول

العودة للتجسد بوصفها قضية علمية

لعل أخطر نقطة يتعين على العلوم الحديثة فى بحثها لمشكلة الوجود السبقى أو العودة للتجسد هى اعطاء اجابة حاسمة عن هذا التساؤل المبدئى وهو هل خلق الروح سابق على خلق الجسد أم العكس ؟

ذلك أن هناك حقيقة منطقية فى هذا الشأن وهى أنه اذا كان خلق الروح لا يكون الا ساعة تكوين الجنين فى بطن أمه ـ نتيجة اتحاد جنسى للأجساد الفانية . فان التكوين الجثمانى يصبح لا غنى عنه للروح ، ويصبح فناء الروح بفناء التكوين الجثمانى هو الأمر الأقرب الى المنطق من الناحية النظرية بالأقل .

أما اذا قلنا ان خلق الروح سابق على خلق الجسد ، وان الجسد مجرد موطن عابر ومؤقت للروح الأزلية لأصبح من المفهوم التحدث عن حياة الروح بعد فناء الجسد . أو بعبارة أخرى ان النظرية الروحية كلها لا يمكن أن تقف على قدميها عند القول بأن حياة الجسد مبدأ لحياة الروح ، لأن موت الجسد يصبح على هذا النحو مبدأ لموت الروح أيضا .

وقد حاول سير أوليفر لودج Oliver Lodge (١٨٥٢ ـ ١٩٤٠) عالم الفيزياء ومدير جامعة برمنجهام ـ وهو من أضخم الأسماء فى العلم الطبيعى الحديث ومن أقدرها فى الحديث عن هذا الموضوع وعن الصلة بين العقل والمادة ـ أن يضع صياغة علمية لهذا الموضوع عندما قال: « عندما يثار موضوع الوجود السبقى pre - existence فان بمقدورى

أن أقول ان الانسان كما نعرفه عبارة عن ظهور طازج fresh apparition أى « تفـريد » أو « تشخيص » individualisation لشىء موجـود من قبل • ان حياتنـا دخلت فى رابطة بالمـادة عنـدما أصبحت المـادة صالحة لاستقبالها •••

والآن لابد أن تقولوا ان هذا مجرد افتراض ، وهو كذلك بلا ريب ، لكن هدفى هو أن أحاول أن أوضح معنى الأشياء كما ظهرت لى تدريجيـا من دراسة الطبيعيات والروحيات • واذا لم يكن ذلك صحيحا فان شيئا أفضل منه هو الصحيح • وعلى أن ألفت نظركم الى أن هذ القول يؤيده الهام الشعراء ، أى تؤيده العبقرية والالهام ، لأن ثمة سبلا عديدة للوصول الى الحقيقة ، وما التحقيق العلمى سـوى سبيل من بينها • وهو سـبيل بطىء ، ومجهد ، وشاق ، لكنه يكون سـبيلا آمنا لو أحسنا الانتظـار بما يكفى •

ولكن الانسـان العبقرى قد يكون صاحب الهام ، وليس لنـا أن نحتقر على أى وجه كان الهامات العباقرة ، وقد تكون أقوال الشعراء لها مغزاها • وعندما يقول وردزورث Wordsworth « ان ميلادنا نوم ونسيان » فانه يقول شيئا يماثل ما بدأت أفكر أنه الحقيقـة • ومرة ثانية ترد بخاطرى هذه العبارة وهى « النزول الى الجيل » (١) ، وعبارة « ان الروح تتطلع الى أن تخلط نفسها بالطين » •

ويمكننى أن أتخيل أنه من آن الى آخر تسنح للروح فرصـة كيما تدخل فى ارتباط بالمـادة ؛ وتصبح تدريجيا شخصا ، وتنمى لهـا طبعا ، وشخصية ستبقى • وبحيث يبـدو بالأكثر وجود نوع من الاختيار فيما اذا كنا ندخل الى حياة المـادة أم لا ، وفى نوع هذه الحياة التى ندخـل اليها • وعلى هذا النحو قد يطلب الينا أن نتخير أبوينـا ، وهو ما قد يبدو خارقا للعقل بحسب الظاهر ، حتى وان كان من الجائز أنه يمثـل

---

(١) Descent into generation.

قدرا من الحقيقة • وبالتالى فان بعض حقائق الوراثة ينبغى أن يدخل فى الاعتبار •

والآن أكرر أن الحياة الأرضية هى المغامرة ، وهى الشىء المحير ، والاستثنائى • فنحن تجسدات ، ودخلنا الى المادة ، ونحتفظ مع ذلك ببعض الصلة بعالم الروح ، وهو العالم الحقيقى الذى هو موطننا أكثر مما نحن هنا • ولذا تحدث الرؤى ، والالهامات ، وحتى « الصوت المباشر » ، وكل صور الظواهر التى أضحت مألوفة لدينا تدريجيا ، كما كانت لدى الأقدمين أيضا •

كما اختبرنا الارشاد والمساعدة اللذين يمنحان لنا أثناء تجسدنا ، سواء أشعرنا بهما أم لم نشعر • وفى الواقع أن هذا النظر الذى حاولت أن أبرزه عن تجسد الروح بالمادة لهدف تقدمها ، أو لهدف آخر راق سواء أكان تحسن طباعها أم تحقيق خدمة ما ، يلتئم تماما مع الايمان الدينى ، ومع القول بأن التجسد أكثر من مجرد ارتباطنا المألوف بالمادة » (١) •

هذه هى ثمرة أو خلاصة بحوث دامت لمدى خمسين عاما بمعرفة علامة طبيعى عبقرى ذى سمعة ضخمة • ويقال انه وضع حجر الأساس فى أخطر كشفين وصل اليهما عقل الانسان فى القرن العشرين : وهما الارسال اللاسلكى ونظرية النسبية (٢) ، فكيف نتجاهل ثمار أمثال هذه البحوث ولحساب من يكون التجاهل ان لم يكن لحساب الاصرار على ما ألفناه من مفاهيم وآراء ؟ ! وعلى أن آراءنا المسبقة أصوب من آراء كل الباحثين العلميين سواء أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها أم لم تتح؟ !

---

(١) Phantom Walls. 1969 p. 98 — 101.

(٢) للمزيد عن أوليفر لودج راجع كتابا حديثا بمعرفة و. ب. جولى W. P. Jolly عنوانه « سير أوليفر لودج الباحث الروحى والعلامة » Sir Oliver Lodge : Psychical Researcher and Scientist. . (١٩٧٤)

نقد تعبير « تناسخ الأرواح »

وهـذه الظاهرة أطلق عليها المؤلفون القـدامى وصفا خاطئـا هو « تناسخ الأرواح » • ومصدر الخطأ أن النسخ هنا أو الالغـاء لا محل له ، انما كان الأولى أن يطلق عليها « تناسخ الأجساد » لأن الروح تبقى دائما وتواصل حياتها ونشاطها فى النمو وفى تحقيق الذات ، انما العنصر محل النسـخ هو فحسـب الجسـد الترابى الذى ينفصـل عن الروح فى لحظة الوفاة ، وتعيش الروح فى اطار من جسد آخر أرق منه وأرقى هو الجسد وراء المادى • وذلك الى أن تأذن ارادة الله بأن تحل الروح فى جسد لها جديد عنـدما يصلح ـ وهو فى بطن الأم ـ لاسـتقبال ذلك الضيف القادم من عالم ما وراء المـادة ، أو بالأدق من عالم الأثير •

وهدا هو ما تعنيه نظرية العـودة للتجسـد Re - incarnation ويمكن بالتـالى تعريف هذه العودة للتجسـد أو للميلاد بأنها « عودة المبدأ الروحى فى الانسان الى غلاف لحمى جديد » • وهذا الغلاف يتخذ بالنسبة للانسان دائما جسـما آدميا • ولو أنه يمكن أن يفترض مجرد افتراض أن هذه العودة كما هى جائزة الى نفس الكوكب الذى كان موطنا للتجسد القديم فانها جائزة نظـريا الى كوكب قد ينتمى الى مجمـوعة شمسية أخرى ، صالح لصيغة ما من صيغ حياة التجسد الفيزيقى للانسان•

و « العودة للتجسد » بهذا المفهوم المحدد تختلف تماما عن المعتقدات الشائعة عن احتمال تقمص روح الانسان لجسد حيوان ، وهذا ما ترفضه تماما كل البحوث العلمية فى الروح • كما يختلف أيضا عن دورات الحياة فى عالم المادة[1] أوتحول خلايا جسم الانسان بعد تحلله بالوفاة الى غذاء للنبات ، أو تحول خلايا النبات الى غذاء للحيوان ، أو تحول خلايا الحيوان الى غذاء للانسان (عن طريق أكل لحمه مثلا) •

---

(١) وقانون « دورات الحياة » هذا يتوائم ولا يتعـارض مع قانون العودة للتجسد ، وسنوضح ذلك فى الفصل الأول من الباب التاسع .

وهو ما قد يمثل الأصل التاريخى للخلط الذى شاع بين دورات الحياة فى عالم المادة على هذا النحو وهى تلك التى يطلق عليها «التناسخ» وبين « العودة للتجسد ، أو للميلاد » ، وهذا أمر مختلف عن ذلك تماما ، رغم أن بعض الباحثين تعود من باب التجاوز الضار استخدام هذا الوصف الأخير وهو « التناسخ » للتعبير عن « العودة للتجسد » Re - incarnation أو « العودة للميلاد » Rebirth فى مفهومها العلمى المحدد المعاصر •

ولذا نفضل فى معالجة هذا الموضوع استخدام هذا التعبير وهو « العودة للتجسد » أو الميلاد باعتباره أصحها وأكثرها شيوعا فى البيئات العلمية • أما تعبير تناسخ الأرواح فينبغي العدول عنه نهائيا لأنه يقود الى خطأ بين وليس لا مبرر له فى فهم هذا الموضوع • وطالما جنى هذا التعبير الخاطىء • أو بالأدق هذا التعبير المقلوب رأسا على عقب ، على أية محاولة لتفهم هذه القضية الكبرى أو لمحاولة اخضاعها لحركة البحث الموضوعى المحايد ، كما جنى تعبير « تحضير الأرواح » أيضا على حركة البحث الموضوعى فى الظواهر غير المألوفة أيا كان نوعها أومصدرها ، أو تعليلها•

ويراعى أيضا ان تعبير « تقمص الأرواح » تعبير خاطىء بدوره ، لأنه أما أن يشير الى حالة الهيمنة أو الاستحواذ الروحى ، وهذه لا ينبغى ان تختلط بموضوع « العودة للتجسد » ، وأما ان يشير الى تقمص أرواح الحيوانات والنباتات ••• وهى عقيدة كانت ولا تزال معروفة فى الشرق الأقصى ، ولكن لم يقم على صحتها أى دليل حتى الآن ، بل أنها تتعارض فى الواقع مع أولى حقائق العلم الوضعى وما يرتبط به من فلسفات عن الروح ، وعن الخلود فى مفهومه الحديث •

تزايد الاهتمام بهذه القضية الكبرى

وحتى اذا تركنا جانبا موضوعات الخلود وما تثيره من مباحث عديدة فان حقائق الحياة ، وكشوف العلم الحديث لا تعترض طريق الاعتقاد باحتمال العودة للتجسد فى صورة آدمية وهو نفس المعنى الذى

عبر عنه الدكتــور ك • ج • ديكاس C. J. Ducasse أســتاذ الفلســفة بجامعة براون Brown بأمريكا فى مؤلف له عنوانه « دراسة انتقادية فى الاعتقاد فى داوم الحياة بعد الموت » (١) (١٩٦١) بقوله أنه « ســواء أكانت الحياة بعــد الموت حقيقة أم لم تكن ، فان من المتصــور تعــدد الحيوات على الأرض ، ومن المتصــور منطقيا أن تكون تلك الحيوات مترابطة ومتماسكة ، وليست متعارضة مع الحقائق التى نعرفهــا فى العلم التجريبى أو متضاربة معها » •

وهذه الحقائق هى نفسها التى استند الى بعضها عدة بحاث علميين بكل معنى الكلمة ، وقدموا نتائج خطيرة لأبحاثهم تسبب الحيرة والذهول ، منهــم لويس كريستوفورو بوستليونو Leuis Cristoforo Postiglono فى مؤلف له عنوانه « أسس لفلســفة علمية عن دوام الحياة بعد الموت ، والعودة للتجسد » (٢) (١٩٥٦) • وكان ذلك موضوع رسالة طبعت فى بوينس أيرس (عاصمة الأرجنتين) وتقدم بها صاحبها الى أحد المؤتمرات الروحيــة الدوليــة •

على أن أهم ما ينبغى أن يراعى هو أن جميع الأسانيد التى تثار الآن فى شأن هذا الموضوع ليست ــ بالمرة ــ نظرية ، أو فلسفية ، أو عقيدية ، بل هى أسانيد وضعية وصل اليها البحاث العلميون فى محاولة استكشاف مجاهل الانسان ، وأسرار تكوينه العقلى ــ الروحى والجثمانى أيضا •

واذا كان للفلسفة من دور هنا فهو تحليل الوقائع التى جمعها فى كد ونصب البحاث الوضعيون فى جميع الأرجاء لمحاولة تشييد قضــايا كلية صحيحة على الوقائع نفسها • واذا كان للاعتقاد من دور هنا فهو أن يعيد صياغة المفاهيم العقيدية بما يلتئم مع كشوف العلم الثابتة بدلا من المكابرة فيها ، على غير أساس ، ولغير جدوى •

---

(١) A Critical Examination of the Belief in a Life After Death.

(٢) Fundamental Scientific Philosophy About Survival and Reincarnation.

خصوصا وأن الأسانيد العقيدية فى جانب صحة هذا الاعتقاد وفيرة وفرة لا يمكن أن يتصورها الانسان الذى يعيش على هامش الاعتقاد معتقدا أنه قد حاز منه أوفر نصيب ، وأصبحت له — وحده — الكلمة الأولى والأخيرة فى هذا الموضوع البعيد الاغوار ، المترامى الأطراف .

وهو فى أول المطاف ، وفى نهايته أيضا ، موضوع محض علمى شأنه شأن كل نواميس الطبيعة التى نجح كد العلماء فى الوصول اليها بعد طول عناء ، وبعد تطبيق أسلوب التحليل الناقد على أكبر قدر ممكن من الوقائع الثابتة . وموضوع هذا شأنه ليس من الحكمة فى شىء أن يترك لأسلوب التطرف ، أو لأسلوب الافتراض والارتجال ، الا اذا صح أن يترك لنفس الأسلوب استكشاف أسرار الطاقة ، أو الجاذبية ، أو المغناطيسية ، أو النسبية ، أو الفضاء ، أو الكيمياء ، أو استكشاف أسرار التطور أو الشعور واللاشعور وهى تقع فى الصميم من موضوع احتمال العودة للتجسد .

ومراعاة لهذه الاعتبارات الواضحة بذاتها كل الوضوح نجد أن الجامعات والمعاهد الأجنبية بوجه عام بدأت تولى دراسة هذا الموضوع الهام الكثير من العناية للبت برأى حاسم فيه — ايجابا أو سلبا — على أسس محض وضعية — وذلك الى حد أن أعدت له فى الولايات المتحدة وحدها مشروعات بحث جاد فى عدة معاهد كبرى منها :

— جامعة هوارد Howard بمدينة واشنطون .

— جامعة أدلفى Adelphi بمدينة نيويورك .

— جامعة سانت لورانس St. Laurence بسانت لورانس .

— جامعة لاسال Lasalle بمدينة فيلادلفيا .

— جامعة فيرجينيا Virginia بولاية فيرجينيا .

— كلية كاليفورنيا California بمقاطعة كاليفورنيا .

— كليـة تكساس Texas فى مقاطعة ويزليانيا .

تعليل الاهتمام المتزايد

ولا غرابة أن يتزايد على الدوام الاهتمام بدراسة هـذه القضـية الدقيقة المركبة ، خصوصا وأن المقـام ليس المرة مقام رأى ثانوى قـد أثير اعتباطا فى شأن مشكلة عادية من مشكلات الاعتقاد ، أو الفلسـفة ، أو العلم . بل أن المقـام جد خطير ، لأنه مقام البحث فى أعماق عـلاقة الانسان بالكون وبنفسه ومحاولة تحديد أبعادها الصحيحة على أسـس يقينية يراد لها أن تكون بعيدة تماما عن أسلوب المضاربات الجزافية ، أو الافتراضـات النظرية التى كانت ــ فى المـاضى ــ تهيمن هيمنة شـبه تامة على دوائر الفلسفة والاعتقاد .

ويكفى فى هذا الشأن أن تعلم أن « عودة التجسد » متى قيل بثبوتها علميا ، وهو ما يقوله الآن العديدون من المطلعين اطلاعا كافيا على مايجرى بشأنها من تحقيقات معملية مثابرة منذ مطلع هذا القرن ، فانها تلقى أضواء ساطعة كثيرة على أمور خطيرة متعددة منها :

أولا : تفسير البعض من النواحى الغامضة فى سلوك الانسان وملكاته والغاز الكثيرة ، ، والتى كان علم النفس القديم يقف أزاءها فى حيرة تامة ، وفى عجز مطلق ازاء اصراره على حداثة الذاكرة الانسانية .

ثانيا : أنها توضـح بالتالى بعض معالم الحـدود بين الشـعور واللاشعور ، تلك الحدود التى طالمـا كانت أرضا خصـبة لصراع قـد طال أمده بين المدارس النفسية المختلفة .

ثالثا : أنها تثبت بطريقة محسوسة ملموسة وجود نواميس غيبية ــ طبيعيـة لا مادية ــ تحكم الكون بصرامة واطراد لا تقـل عن صرامة نواميس المـادة واضطرادها . وهذه النواميس جزمت الفلسفات العريقة بوجودها ، ولكن أنكرتها مدارس كثيرة للشك وللالحـاد زعمت لنفسها الاطلاع الكامل على كل أسرار الكون لأن الكون لا يتعدى فى نظرها حدود حواسنا الخمس المعروفة .

رابعا : أنها تثبت بطريقة وضعية قانون « السبب والنتيجة » ، أو « العلة والمعلول » . وأنه يعمل فى نطاق الروح فى اطراد تام ، ومنطق صارم ، كما فى نطاق المادة أيضا .

خامسا : أنها تقيم دعائم لاتدحض للايمان بالله ، بوصفه صانعا حكيما للكون على أسس اخلاقية مفرطة فى حكمتها وفى عدالتها .

سادسا : أنها تلقى أضواء ساطعة على ماهية تلك الأسس ، الخلقية لا على مبدأ وجودها فقط ، وبعبارة أخرى أنها تساعد على تحديد الطريق الصحيح لمسيرة الانسان فى رحبات هذا الأزل الذى لايعرف له بداءة ولا نهاية .

سابعا : أنها تثبت بطريقة عملية واضحة توافر قدر ما من حرية الاختيار لدى الانسان ، وبالتالى تقيم أساسا وطيدا لمسئوليته الأخلاقية عن أفعاله ، وهى تقع فى الأساس من مسئوليته الاجتماعية والتشريعية أيضا .

ثامنا : أنها قد تلقى أضواءها على العديد من الروابط الاجتماعية والوراثية التى ما يزال أمرها مجهولا من المعارف الانسانية ، وبالتالى قد تفسر صلة الانسان بأسرته ، وبوطنه ، وبجنسه تفسيرا أعمق من التفسير الشائع وربما أصح منه أيضا . ناهيك عن صلة الانسان بنفسه التى قد يثبت أنها أعرق بكثير من صلته بجسده العضوى الراهن . وهذا التفسير الجديد من شأنه أن يدخل دور ارادة الانسان وحريته فى الاعتبار عند تحديد مصدر هذه الصلات كلها ، والرجوع بها كلها الى ماضيه السحيق لا الى حياته الراهنة فحسب .

تاسعا : انها تثبت بطريقة علمية نهائية صحة دوام حياة الانسان بعد الموت . وبالتالى صحة مبدأ الخلود ناهيك بجميع الأسس الفيزيقية والرياضية التى أصبح يقوم عليها هذا المبدأ الأساسى الذى يكاد يمثل كل شىء لضمير الانسان ومصيره .

عاشرا : واذا ثبت نهائيا دوام الحياة بعد الموت ، وبالتالى استقلال الروح عن الجسد المادى فقد ثبتت نهائيا أقوى دعامة للايمان النقى ، ولعزاء الانسان عن آلام حاضره وماضيه ، وتراجعت بنفس المقدار دعاوى الشك والانكار بكل ما تورثه من يأس ، وقلق ، وتشاؤم من مستقبل الانسان فى الحياة ، والحياة فى الانسان .

حادى عشر : وبالتالى فان كل ذلك يصلح أساسا لفلسفة جديدة باذخة عن الروح ، والخلود ، والوجود ... ذات آثار عميقة فى التكوين الروحى للأفراد وللشعوب ، وذات أسانيد وضعية ثابتة تعطيها من عناصر الرسوخ ، والترابط ، والموضوعية ، والوضوح ، ما لم يتحقق بيقين لأية فلسفة روحية أخرى جاءت عن طريق محض المضاربة والارتجال .

ثانى عشر : أنها تلقى أضواء لها قيمتها على جوانب كثيرة من الاعتقاد فى كل صوره وارتباطاته . وتمهد السبيل للتوفيق بين شتى العقائد والنحل ، ناهيك بالتوفيق بين النصوص ، وهى فى الحقيقة قد يكمل بعضها البعض الآخر ، أو قد يتصدى بعضها لمواجهة أوضاع غير تلك التى يتصدى لها البعض الآخر .

ثالث عشر : انها تعطى مفاهيم وتطبيقات حية ومحددة عن حقيقة الصلة بين العقل والمادة . كما تبين أهمية تلك « الهيولى المحايدة » التى يتكون منها الوجود ، والتى هى ليست بعقل ولا بمادة ، أو هى بالأدق عقل من جانب ومادة من جانب آخر ، وهذا هو ما وصل اليه وليام جيمس أبرز فلاسفة هذا القرن فى أمريكا عن طريق الربط بين الفلسفة النظرية ، والبحث الروحى الوضعى . كما وصل اليه برتراند راسل الفيلسوف البريطانى المعروف عن طريق معادلاته الرياضية (١) .

رابع عشر : وبالتالى فهى تلقى أضواء جديدة على نظرية التطور .

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٢٨٦ — ٣٣١ .

وتحدد له مصدرا روحيا واضحا بعد مصدره المادى الخاطىء الذى نادى به داروين وهو نقص الطعام فى الطبيعة ، وبالتالى تنازع البقاء بين الأحياء وبقاء الأصلح منهم • أما الآن فقد أصبح التطور الجثمانى خاضعا للتطور الروحى للانسان ومحكوما بتخطيط رياضى حكيم يسبب الحيرة والذهول عند أولى الألباب من المطلعين والمفكرين ، ولنا عند هذا الموضوع وقفة فى الباب التاسع بالاضافة الى ما أوردناه عنه فيما سبق (١)•

خامس عشر : انها تساعد على حل بعض جوانب مشكلات العدل والشر ، والألم ، والضمير، والمصير، وهى مشكلات طالما أعيت الفلاسفة الكبار وحيرت أعمق رجال الاعتقاد تفكيرا ، منذ أول عهد الانسان بأسس الفلسفة الراقية وعناصر الاعتقاد المترابط •

سادس عشر : أنها قد تساعد على تفسير الكثير من ألغاز الحياة وعصىّ مشكلاتها ، ومن بينها مثلا : مصدر الحمل ، أى مصدر الجسد بما له وما عليه ، ومصدر العبقرية ، ومصدر الذاكرة ، ومصدر الغريزة والعاطفة ، ومصدر النمو ، ورسالة الشيخوخة والموت •••

سابع عشر : أنها قد تقع فى المستقبل القريب فى الأساس من علم الانسان بكل فروعه • ناهيك بعلوم أخرى كثيرة مرتبطة به منها « المورفولوجى » أى الأشكال الخارجية ، و « الميزولوجى » أى علم تأثير البيئة فى الأعضاء ، وعلم « السلالات البشرية » وغيرها •••

ثامن عشر : وأنها قبل كل اعتبار آخر ستقع فى الأساس من علم النفس « السيكولوجى » بكل فروعه وأخصها « علم النفس التكوينى » وستكون سببا لثورة جذرية فيه تقتضى اعادة النظر فى كل مفاهيمه • وبالتالى قد تكون أعمق تأثيرا فى تطور علم النفس من اكتشاف دورة الدم، والميكروبات ، والتخدير ، والمضادات الحيوية ••• فى تطور الطب

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٤٤٠ — ٤٦٧ •

ومن الموضوعات التى سيتناولها هذا التغيير الجذرى مثلا مفاهيم اللاشعور ، الادراك خارج الحواس ، ودور الجهاز العصبى وكيفية قيامه بوظائفه ، وبالتالى تفسير العديد من الأمراض العصبية والنفسية • والأحلام التى لا تزال تفسيراتها حتى الآن قاصرة تماما عن شمول جميع الحالات ، بالاضافة الى تفسير بعض جوانب السلوك الغامضة التى تعنى بها علوم النفس ، والاجتماع ، والاجرام ، والتربية ، وكلها تحاول تفسيرها سعيا الى تخفيف بعض ويلات الانسان ومواجهة بعض متاعبه وآلامه •••

المبحث الثانى

« العودة للتجسد » والمنهج العلمى

اذا كانت « العودة للتجسد » قد تحولت من قضية دينية تعتمد على محض الاعتقاد ، أو الفلسفة الدينية ، أو اللاهوت ، الى قضية علمية بحكم تطور موضوعات العلوم الحديثة وارتقاء أساليبها المتجددة ، فهل لك أن تتساءل من بعد عن سر الاهتمام المتزايد بدراسة هذه المشكلة العظمى ؟ !

وهل لك أن تتردد فى القول بأنها أم القضايا كلها،ومن أجدرها بعناية الباحثين والدارسين بهدف البت فيها برأى حاسم ونهائى ؟ وذلك مع مراعاة أنه فحسب عند هذا البت تكون العلوم الانسانية برمتها قد وقفت على قدميها لأول مرة فى التاريخ شامخة الرأس موفورة الكرامة ، لا يشوبها قلق واضطراب حتى فى أسسها الأولى •

ومنذ قرون عديدة اتجهت الفلسفة بوجه عام الى التمييز بين الجسد والروح والى الاقرار بكيان سبقى للروح على الجسد ، الى أن سادت الفلسفة المادية فى البيئات العلمية فتراجع هذا الأسلوب فى النظر الى الأمور • ولكن منذ منتصف القرن الماضى ابتدأت « الحكمة القديمة » تسترد اعتبارها ، وابتدأت حقائق العلوم العصرية نفسها ، وبوجه خاص البيولوجيا ، والنفس ، والفيزياء تشير فى وضوح وفى جلاء الى أن الربط بين حياة الروح وحياة الجسد ربط خاطىء ، شأنه شأن الربط بين العقل

والمخ ، الذى ثبت بعد بحوث متواصــلة دامت لمدى ثلاثين عاما أو أكثر بجامعة ديوك بالولايات المتحدة الأمريكية أنه « محض تدليس علمى ليس له ما يبرره » على حــد تعبير عالم من أبرز علماء الباراسيكولوجى وهو جوزيف راين J. B. Rhine [1] .

وعلى أية حا لفانه اذا كانت العلوم المــادية قد وصلت الى تعليل جسد الانسان بتلقيح البويضــة وانقســام الخلايا ، فان روحه لا تزال — حتى الآن — بلا تعليل ، وبالتالى مصدر الحياة التى تحل بالجنين بعد فترة طويلة أو قصيرة من بدء الحمل . ولمــا كان قانون السببية الطبيعية أو العلية يحكم الكون — وهــذه بديهية لا نزاع فيها فى أى علم أو أية فلسفة — فلابد لهذه الحياة من علة سابقة ، خصوصا اذا ما ارتبطت هذه الحياة بعقل له كيانه الخاص ، ومقوماته التى تميزه حتى عن عقول الآباء والأجداد ، والتى تتشابه أو لا تتشابه معها الى مدى أو الى آخر .

ولذا أخذت الدراســات العلمية فى احتمال « الوجود الســبقى » ترتدى قيمة متزايدة ، خصوصا بعد أن عرف المنهج العلمى ســبيله الى اتباع أساليب معينة للتحقيق وللاستكشاف كانت مجهولة من دوائر العلم القديمة ، وساعدت هذه الأساليب الحديثة أيما مساعدة فى الكشف عن بعض أسرار الانسان وسبر بعض أغواره ، وتعليل بعض أطواره .

فهل ثبت فعلا هذا الوجود السبقى ؟ وهل تبين فعلا مدى اتصــاله بالوجود الراهن ؟ وهل ثبت فعلا تبادل التأثير بين العقل والجسم أو بين الروح والجسم والى أى مدى ، وعلى أى أساس ؟ !

ان الاجابة عن هذه التساؤلات الخطيرة هى — فى الجملة — موضوع تلك الدراسات التى تجرى الآن على قدم وساق فى العودة للتجســد فى العديد من الجامعات والمعاهد المعنية ، والتى يعلقون عليها أعظم الآمال

---

(١) راجع ما سبق فى هــذا الشأن فى الجزء الأول صــفحة ٤٢٣ — ٤٣٩ .

فى الوصول الى استكشاف بعض أغوار الانسان فى شتى جوانبه الشعورية واللاشعورية •

وتعد النتائج الايجابية الواضحة فيها بالآلاف لا بالمئات : فى انجلترا ، وفرنسا ، والسويد ، وألمانيا ، وايطاليا ، وأمريكا وفى جميع الأوساط العلمية المعنية بها خصوصا منها اختبارات ارجاع الذاكرة الى الوراء فى غيبوبة التنويم المغناطيسى والتى تتضمنها الآن العديد من المؤلفات الجديرة بكل أسباب الثقة فيها •

بعض الباحثين الوضعيين

وفى نطاق البحاث الوضعيين فى الظواهر غير المألوفة ثمة اجماع — خصوصا عند الفرنسيين منهم — على أن العودة للتجسد لم تعد مجرد افتراض علمى له ما يبرره ، بل أصبحت حقيقة تؤيدها مشاهدات يقينية لا تحصى ، وتعززها حقائق العلم المتنوعة عن الحياة ، والمادة ، والتطور ، والعقل ، والشعور ، واللاشعور ، والهيولى المحايدة ، والعلية الطبيعية••

ومن ألمع العلماء الوضعيين الذين أفنوا حياتهم فى دراسة الظواهر غير المألوفة وفى تحليلها ، والذين قدموا بيانات كثيرة متراكمة تلتئم تماما مع نظرية العودة للتجسد ، ولا تلتئم مع غيرها ، نذكر هنا :

— آلان كاردك Allan Kardec (١٨٠٤ — ١٨٦٩) وهو أبرز اسم فى الحركة الروحية اللاتينية منذ نشأتها لغاية الآن (١) •

— جابريل ديلان Gabriel Délanne (١٨٥٧ — ١٩٢٦) وهو من أبرز الأعلام فى نفس هذه الحركة (٢) •

— ليون دنيز Léon Denis (١٨٤٧ — ١٩٢٧) وهو أيضا بحاثة روحى له مكانته البارزة (٣) •

---

(١) راجع ما ورد عنه فى « مفصل الانسان روح لا جسد » الجزء الأول ص ٤٦٨ •
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٢ •
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦٩ •

ـ جوستاف جيلى Gustave Geley (١٨٦٥ ـ ١٩٢٤) وهو أول مدير « للمعهد الدولى لما وراء الروح » بباريس وصاحب سمعة عالمية فى تحقيق الظواهر الوساطية[١] .

ـ أوجين أوستى Eugène Osty الذى خلّف جيلى فى ادارة هذا المعهد من سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٣٨[٢] .

ـ رينيه فاركولييه René Warcollier الذى خلف أوستى فى ادارة هذا المعهد ، وظل يديره من سنة ١٩٣٨ الى حين وفاته فى سنة ١٩٦٢[٣] .

وذلك بالاضافة الى أسماء كثيرة لأعلام فرنسيين منهم بوجه خاص :

ـ ألبير دى روشا Albert de Rochas [٤] .

ـ شارل لانسلان Charles Lancelin [٥] .

ـ وموريس ماجر Maurice Magre [٦] .

ـ وادوار شيريه Edouard Schuré [٧] .

ـ وهكتور ديرفيل Hector Durville .

ـ وجيرار انكوس Gérard Encausse (أو الدكتور بابيس)[٨] .

ـ وجورج بارباران George Barbarin [٩] .

ـ وبيير نوفيل Pierre Neuville [١٠] .

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦٤ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦٧ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦٨ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٤٥٤ .
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٨ .
(٦) المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٩ .
(٧) المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٥ .
(٨) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥ ، ٨٠٧ ـ ٨٠٨ .
(٩) المرجع السابق ج ١ ص ٤٨١ .
(١٠) المرجع السابق ج ٣ ص ٥٨٩ ـ ٦٠٢ .

ومنهم فى سويسرا :

— راؤول موتاندون Raoul Montandon •

— وكارل موللر Karl Müller •

— ومنهم فى بلجيكا موريس ماترلنك Maurice Maeterlinck(١) •

ومنهم فى انجلترا وارلندا :

— سير آرثر كونان Arthur Conan Doyle (٢) •

— سير أوليفر لودج Oliver Lodge مدير جامعة برمنجهام(٣) •

— مارشال الطيران لورد داودنج Dowding (٤) •

— تشارلى بروض Charlie Broad الأستاذ بكامبريدج(٥) •

— موربس باربانيل Maurice Brarbanell عضو « جمعية البحث الروحى » بلندن ، ورئيس تحرير جريدة « الأنباء الروحية »(٦) •

— شو دزموند Shaw Desmond مؤسس « المعهد الدولى للبحث الروحى » بلندن(٧) •

ومنهم فى ألمانيا :

— أوتو فرانك Otto Franck •

— و ك• أ• شميدت K. O. Schmidt •

ومنهم فى السويد :

— جون بجورخم J. Bjoerkhem •

— و س•لوندجرين S. Lundgreen •

وهما أستاذان للتحليل النفسى بجامعة أيسالا Upsala بالسويد.

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٤٨٥ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٧ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤١٢ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٨٠٣ .
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٤٤٦ .
(٦) المرجع السابق ج ١ ص ٤٤٣ .
(٧) المرجع السابق ج ١ ص ٤٣٨ .

ومنهم فى الولايات المتحدة الأمريكية :

ــ ادجار كايس Edgar Cayce (١) •

ــ وآرثر فورد Arthur Ford (٢) •

ــ وأيان ستفنسون Ian Stevenson وهو حاليا أستاذ بالتحليل النفسى بكلية الطب بجامعة فرجينيا •

وذلك بخلاف العشرات من العلماء الذين يعملون فى أقسام الباراسيكولوجى فى العديد من الجامعات فى أمريكا وأوروبا والذين انتقلوا الآن من مرحلة البحث عن أدلة حاسمة الى مرحلة أخرى متقدمة عنها وهى استخلاص العناصر الثابتة فى العودة للتجسد للتعرف على النواميس الطبيعية التى تتحكم فى هذه العودة التى لا تزال تحف بها الألغاز الضخمة من كل جانب •

عن اتساع رقعة البحث

ومما يسترعى الانتباه فى هذه البحوث هو اتساع رقعة البحث الى مدى ضخم ، وذلك للتمكن من تحقيق الاستخلاص للعناصر الثابتة فيها على نحو يرضى عنه الأسلوب العلمى المتشدد ومن ذلك مثلا :

ــ أن أيان ستفنسون حقق المئات من الحالات الموزعة على عدة أنحاء من العالم منها ٨١٣ حالة فى آسيا منها ٢٢٦ فى برمانيا Bermanie ، و ٢٠٨ حالة فى الهند ، و ٢٤١ فى أوروبا منها ٣٨ فى فرنسا • وكلها من فصيلة ظاهرة « رؤى من قبل » Seen before, already seen و « سمع من قبل » heard before, already heard التى أصبح متخصصا فى تحقيقها • وهى تجرى عندما يكون الشخص فى تمام يقظته •

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٣٩ •

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٧ •

ــ أن كارل موللر Karl Müller البحاثة السويسرى جمع منها أكثر من سبعمائة حالة ، خلال ثمانى سنوات من البحث المثابر • وكلها من نفس الفصيلة الآنف الاشارة اليها « التذكر الواعى » •

ــ ان الدكتور جون بجورخم John Bjoerkhem أستاذ التحليل النفسى بجامعة أبسالا Upsala بالسويد جمع ستمائة حالة خلال تجاربه فى التنويم المغناطيسى على طلبة الجامعة • وذلك عن طريق ارجاع الذاكرة الى الوراء régression de mémoire ، أى متبعا نفس أسلوب الرائد الفرنسى المعروف دى روشا de Rochas •

ــ أن العالم السويدى س• لوندجرين S. Lundgreen عندما طبّق نفس الأسلوب وصل الى تسجيل ٨٧٥ حالة • ونتائجه تشبه الى حد صارخ تلك التى سجلها جون بجورخم ، وهو زميله وأستاذ معه لعلم النفس فى جامعة أبسالا •

ــ أن العالم البريطانى ألكساندر كانون Alexander Canon فحص خمسمائة حالة من نفس هذه الفصيلة •

ــ أن العالم البريطانى آرنول بلوكسهام Arnall Bloxham فحص أكثر من أربعمائة حالة سجلها على أشرطة تسجيل • وهذا البحاثة بدأ حياته بتسجيل خمسين حالة فقط ثم أخذ يوسع رقعة البحث • وهو الآن رئيس « الجمعية البريطانية للعلاج بالتنويم المغناطيسى » (١) ، ويعد من أحسن الخبراء فى فن « ارجاع الذاكرة الى الوراء » •

ــ أن الدكتور بانجيرى Banjiree مدير « المعهد الهندى للبحث فى الباراسيكولوجى » (٢) سجل أكثر من ١١٠٠ (ألف ومائة حالة) أغلبها من فصيلة التذكر الواعى لأحداث الماضى •

---

(١) British Society of Hypnotherapists

(٢) Indian Institute of Parapsychology's Research.

وطبعا هناك أعداد ضخمة أخرى من الحالات مدونة بلغات عديدة ، فى مؤلفات مختلفة ، أو فى مجلات علمية معنية بهذه التحقيقات ، أومحفوظة فى سجلات المعاهد التى تقوم بالبحث والدراسة ، وسترد اشارات عابرة عن بعضها فيما بعد •

فقرات من تقرير هام

هذا وقد أشرت فيما سبق الى تقرير هام صادر من « المعهد البرازيلى لبحوث علم النفس الطبيعية البيولوجية » .I. B. P. P منشور فى مجلة « العلم والمجتمع » التى تصدر عن اليونسكو وهو « ادارة ثقافية تابعة لهيئة الأمم المتحدة » عند الكلام عن بعض الأسماء والهيئات المعنية بالباراسيكولوجى (١) •

يقول هذا التقرير العلمى الخطير فى كل حرف منه :

« لا شك أن أكبر وأضخم الملفات فى أرشيفنا هى تلك التى تعالج الأرواح المشاغبة Poltergeist والعودة للتجسد Reincarnation • ونحن نعتقد أننا قد جمعنا أدلة كثيرة تؤيد كلا من هذه الظواهر ••• وكان نجاحنا تاما بالنسبة لجمع أدلة تؤيد العودة للتجسد • ويسعدنا أن نعترف ونشكر الدور الذى قام به فى هذا المجال أيان ستفنسون Ian Stevenson فهو الذى لفت نظرنا منذ أول الأمر الى حاجتنا الى بحث استقصائى ، وهو الذى أمدنا بأول الحالات حتى أصبح لدينا الآن ما يزيد عن ثمانين حالة •

وباستثناءات قليلة فان الدلائل التى حصلنا عليها والتى تؤيد حقيقة العودة للتجسد جاءت عن طريق أطفال من عمر أربع أو خمس سنوات أو من آبائهم ، فقد استطعنا أن نتابع حالات بدأ فيها الأطفال يتحدثون تلقائيا بلغات أجنبية لم يكن من الطبيعى أن يعرفوها •

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ١٧٧ — ١٧٨ .

وثمة أطفال فى حالات أخرى لديهم علامات (وحمات) ولدوا بهـا تدل على جروح خطيرة حدثت من قبل فى أثناء حوادث يبدو أن الأطفال يذكرونها جيدا ، هذا بالاضـافة الى حالات كثيرة يروى فيهـا الأطفال ببسـاطة ، ولكن باصرار وثقـة ، أنهم كانوا كبارا ، أو أنهم كانوا آباء لوالديهم • واذا تجاوزنا وسمحنا ببعض اختلافات خيـالية للأطفال فاننا نعتقد أننا جمعنا أدلة جيدة تدل على أن العودة للتجسد موضوع يستحق الدراسة الجادة •••

وينتقل التقرير بعدئذ الى الحديث عن تجارب تجرى على البكتريا عن طريق ضاغط كهرومغناطيسى فضائى يعرف باسم تيم Teem ، وأخرى تجرى منذ خمس سـنوات سـابقة على تصـوير الحقـل الكهـربى المغناطيسى لجميع الأجسام الحية باستخدام جهاز كيرليان[1] ••• وغـير ذلك من التجارب الدقيقة التى يعنى بها هذا المعهد فى اطار الكشف عن الأغوار الحقيقية للانسان ، أو بالأدق عن صلة الانسان بالكون بأجهزة علمية متطورة [2] •

انتصار التعليل ((بالعودة للتجسد))

واتباع المنهج العلمى المرتبط أيما ارتبـاط بالفلسـفة الوضعية عن الانسان وعن الكون هو الأمر الذى قاد كل خطى العـلوم المعاصرة فى المـادة والطاقة ، ووصل بها الى ما وصلت اليه من تقدم نسبى وازدهار ملموس• فهو لم يخيّب أبدا رجاء أحد من الباحثين العلميين ، ولم يخذلهم فى نضالهم المتواصل لكشف بعض أسرار الوجود •

وهو أيضا فى هذا المقام بالذات ــ مقام محاولة كشف بعض أسرار الانسـان ــ لم يخيّب الرجاء المعقود عليه ، بل لعله تجاوز بكثير آمال أكثر الباحثين تفاؤلا ، وذلك رغم وعورة الطريق ، وفداحة تبعاته • ولكن

---

(١) راجع ما سبق عن هذا الجهاز فى الجزء الأول ص ٢٧٨ ــ ٢٨٥.

(٢) راجع مجلة « العلم والمجتمع » عـدد يونيو ــ اغسطس ١٩٧٥ صفحة ١٢٠ ــ ١٢٦ .

مما يتصـــل بدراسة الانســـان تحف به كل عناصر الوعورة فى الطريق ، والفداحة فى التبعات •

ولكن النتائج التى تم التوصل اليها ـــ حتى الآن ـــ تتجاوز فى أهميتها وتشعب أرجائها كل الجهود المبذولة ، ولذا فانها تستحق منا تماما جهد العناية بمتابعتها ، ودراستها ، وتحليلها ، والافادة منهـا ، على ما يمكن أن يدركه القارىء تماما بعد الاطلاع بنفسه على ما سجلته بحوث أولئك الرواد المثابرين الشجعان الذين أفنوا حياتهم فى سبيل محاولة استكشاف المجهول من أسرار الإنسان فى علاقته بنفسه ، وبالكون • ويا لها من أسرار تتجاوز فى قيمتها كل تقدير اذا ما وضعها فى الاعتبار عند اتخاذ أى قرار ، مهما بدا له ضعيف القيمة هيّن الآثار •

ولا ريب أن الاعتقـــاد فى « العودة للتجســـد » ـــ حتى فى المفهوم المحدود الواضح الذى أشرت اليه آنفا ـــ اعتقاد جديد على أذهاننا • وكل اعتقاد جـــديد على الذهن ـــ خصوصا اذا كان هاما ـــ يحتاج الى وقت كاف لدراسة أسانيده ، ولهضمه ، ولتمثيله ، حتى يصبح جزءا من وجدان الانسان • وهو اعتقاد لقى مقاومة ملحوظة عند السواد الأكبر من الناس فى الشرق الأوسط والغرب ، ولا يزال يلقى ، بسبب عدم فهمه على النحو المطلوب ابتداء ، ثم بسبب تجاهل شعبى غير مفهوم للنصوص التى تؤيده باشارات واضحة الدلالة وتكاد لا تقبل تفسيرا آخر لو أحســـنا التفســـير ، وكانت العقلية الموضوعية المتفتحة هى رائدنا الحقيقى عنـــد محاولة تفهم النصوص وتفسيرها •

وهـــذا الموقف من مقـــاومة احتمال العودة للتجسد يضـــاهى نفس الموقف من مقاومة التحقيقات الروحية بوجه عام ، والتى لقيت مقـــاومة ضخمة عند السواد الأكبر ، ولا تزال تلقى لنفس هذه الاعتبارات : وهو من جانب أول عدم فهم الموضوع على وضعه الصحيح • ومن جانب ثان تجاهل غير مفهوم للنصوص التى تشير الى صحة نفس المفاهيم المستفادة

من هذه التحققات الروحية التى تقع أو ينبغى أن تقع فى الأساس من كل فهم أمين للنصوص، وبعد اطلاع كاف على كل جوانب الموضوع •

ومراعاة لهذه الاعتبارات وتلك فانه ينبغى على القارىء ألا يتعجل الحكم على الموضوع ، فهو أجل شأنا بكثير من أن يبت فيه برأى مبتسر أو بمحض شعور مستمد من الارتباطات المسبقة فى فهم النصوص ، والتى قد تحتاج الى اعادة النظر فى بعض المفاهيم اذا أردنا فعلا اعتقادا بعيدا عن شوائب الخرافة أو الغلو ، أو التناقض ، أو الارتجال ... وهذا هو ما يسعى اليه المناضلون لأجل الارتباط بحقائق الحياة الصحيحة بوصفها تمثل أسمى ما ينبغى الارتباط به ذهنيا ووجدانيا ، وهو ما لا يتـأتى تحقيقه الا عن طريق الدراسة المتأنية ثم توفير عناصر الترابط المنطقى ، وهو أمر ليس باليسير ، لكنه ليس محالا لو كنا نحسن التقدير والتفكير.

عن قرار « لجنة الخبراء الدوليين » فى سنة ١٩٧٩

والعبرة فى القول بثبوت هذا المبدأ أو بعـدم ثبوته بعد لا تكون فحسب بمراعاة اتساع رقعة البحث وضخامة النتائج التى حصل عليهـا العلماء بقدر ما تكون بترابط هذه النتائج فيما بينها ، وبترابطها أيضـا مع معطيات العلوم الأخرى المتصلة بهذا المبدأ المفرط فى خطورته وبوجه خاص علوم النفس ، والبيولوجيا ، والفسيولوجيا ، والطب العلاجى ، والطب التكوينى .... ناهيك بعلوم طبيعية أخرى متصلة به اتصالا غير مباشر ، وان كان يتفاوت فى مداه ، مثل الانثروبولوجيا ، والطبيعيات ، والرياضة الحديثة ....

وهذا الترابط هو المنهج الذى يعطى ــ وحده ــ الدليل المقنع على صحة أى مبدأ علمى أو بطلانه • ولا ريب أن هـذا كله كان أمام بصر « لجنة الخبراء الدوليين » التى اتخذت فى سنة ١٩٧٩ عند اجتماعها فى الولايات المتحدة الأمريكية قرارا صريحا ــ لأول مرة فى التاريخ ــ بأنه مبدأ العودة المتجسد ينبغى أن يعتبر الآن « مبدأ ثابتا علميا » •

ولا ريب أيضا أنه كان أمام هـذه اللجنة ـ التى تضم قمة خبراء العالم المتخصصين فى كافة العلوم الانسـانية والطبيعية ـ نتائج أبحاث حوالى عشرة من الجامعات والمعاهد الأمريكية المعنية بهذا الموضوع والتى تجرى ـ منذ ربع قرن بالأقل ـ أبحاثا متشعبة النطاق ، باهظة التكاليف ، لكى تحسمه نهائيا : ان سلبا أو ايجابا •

هذا بالاضافة الى أبحاث عدد ضخم من علماء القمة العاملين فى حقل دراسات التنويم المغناطيسى ، والظواهر غير المـألوفة ، والذين آثروا هذا الميدان باعداد وأنواع متزايدة من البينات منذ قرن كامل مضى فى أنحاء شتى من العالم • وقـد بدأوا كلهم تحقيقاتهم غير مرتبطين بأى رأى فى شأنه • بل لقد بدأوا فى الواقع منكرين اياه ، ومتصورين أنه يمثل نوعا من الخرافات الشائعة فى بعض أرجاء من أفريقيا وآسـيا ، والتى لا تلتئم مع علم صحيح ولا مع حضارة متطورة •

فكانت النتيجة ـ المذهلة غير المتوقعة ـ هى الايجاب الذى لم يعد يحتمل بعد الآن أى تردد ، أو مكابرة • والمكابرة تعوق بطبيعـة الحال ركب العـلم وتطور المعرفة ، لكى يسـير قدما الى الأمام ركب الجهـالة مقرونة بالأوهام والترهات • وذلك فى أرحب ميدان يمكن أن تستشرى فيه العديد من صـور الجهالة الضـارة والترهات الجوفاء ، التى طالمـا عاقت التقدم العلمى المطلوب فى استكشاف أغوار التكوين الانسانى من كافة جوانبه الشعورية واللاشعورية •

وعندما يجمد تقدم المعرفة يجمد بنفس المقدار تقدم الوعى والأخلاق، وهنا الكارثة التى طالمـا أساءت الى العديد من بنى البشر فى كل أنحاء العالم •

* * *

وعلى أية حال فان موضوع الوجود السبقى ليس هينا بالمرة ، بل انه موضوع متشعب الأرجاء ، وقـد كثرت وثائقه الى مدى يتجاوز امكان

تصورنا ، ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار دائما أنه عندما تتخذ « لجنة الخبراء الدوليين » قرارا مثل هذا الذى أسلفناه ، فلابد أن يكون قرارها موضعا للاعتبار الشديد . والسبب فى ذلك واضح ، وهو أن أمثال هذه الهيئات لا تلقى الكلام على عواهنه ، ومن المحال أن تتخذ قرارا — فى موضوع مفرط فى خطورته كهذا الموضوع — الا بعد دراسات موسعة ناقدة هادئة تمتد الى سنين عديدة ، وتتناول جميع الاحتمالات والوثائق التى يقدمها العلماء ، وعلى أوسع نطاق ممكن .

ولكن يلزم على أية حال مرور وقت طويل حتى تتقبل الهيئات العلمية المتزمتة فى العالم الالتزام بهذا القرار الخطير . الذى سوف يقلب رأسا على عقب العديد من المفاهيم العلمية السائدة فى فروع شتى من العلوم المختلفة ، ولعل أولها مفهوم اللاشعور ، ومصدره ، ونوع الصلة بينه وبين الشعور . هذا بالاضافة الى العديد من المفاهيم السائدة فى السيكولوجيا ، والبيولوجيا ، والطبيعيات منها مثلا ما يلى :

— تعزيز وجهة نظر القائلين بأن الضمير الانسانى — أو بالأدق الاحساس الخلقى فيه — ليس مجرد فعل منعكس شرطى نابع من أسلوب التكييف التربوى منذ الطفولة كما يقول بعض النفسيين التقليديين ، بل هو ميراث الذات من ماضيها السحيق التائه فى جنبات تاريخها العريق .

أو هو بعبارة أخرى حصيلة تطور الذات ، والاختبارات المتنوعة التى تكون قد مرت بها ، ونوعها ، والقيم التى رسخت فيها . كما هو حصيلة الارتباطات المتنوعة التى ارتبطت بها ، والأهوال التى عانتها ، ونوع الثمار التى جنتها الذات من هذه الارتباطات ، والصراعات المختلفة التى ترجع الى ماض أبعد بكثير من أيام طفولتها المعدودة فى حياتها الراهنة .

ـ ولا ينبغى أن تتجاهل أبدا أن الانسان ـ كما يقول الفيلسوف الاجتماعى جابريل تارد Gabriel Tarde ـ ميال الى تقليد نفسه ، ولديه حنين دفين الى ماضيه • وهـذا الميل من الممكن جدا ـ فى ظل نظرية الوجود السبقى ـ أن ينصرف الى ميل الانسان الى تقليد نفسه فى وجود سابق له عن طريق الحنين الكامن فى حنايا اللاشعور ، والذى يرجع الى ماضيه السحيق • والتى جعلت منه مستودعا حيا لجميع المتناقضات والغرائب ، وبركانا يغلى بجميع المشاعر والانفعالات الطيبة والشريرة ، الظاهرة والخبيئة فى اللاشعور • والتى تجعله يتردد فى اللحظة الواحدة بين الرضا والغضب ، والاذعان والتمرد ، والحب والكراهية ••

ـ وفى نطاق السلوك الاجرامى بالذات فلا ريب أن هـذا القرار سيعزز ولو الى حد ما وجهة نظر سيزار لومبروزو عن « المجرم بالفطرة »، بمفهوم المجرم المرتد الى أصله الحيوانى ، باعتبار أن هذا الأصل الحيوانى يكون لا يزال قابعا فى لا شعور المجرم منذ حقب طويلة مضت ، فلم يتمكن من الاندماج فى سائر العناصر العليا للاشعور•وبالتالى لم يتمكن التطور من أن يدمج هذه العناصر كلها ـ الى المدى المطلوب ـ ليخرج منها الانسان الأخلاقى المعاصر لأسباب تحتاج الى جهود طويلة قبل امكان تعليلها •

ـ وما يصدق فى هذا الشأن على مدرسة لومبرورو يصدق ـ لنفس الأسباب ـ على جميع المدارس الأخرى التى قطعت بوجود صنف خاص من الجناة يطلق عليهم فيها المجرمون بالتكوين أو بالاستعداد الفطرى inné • ومنهم مثلا بنينو ديتوليو B. Di Tullio والعديد من أنصار « النيولومبروزية » فى أمريكا وألمانيا وانجلترا والسويد ••• (١) •

---

(١) راجع فى هذا الشأن مؤلفنا فى « أصول علمى الاجرام والعقاب » طبعة خامسة سنة ١٩٨١ صفحة ٣٠١ ـ ٣٦٠ وما سبق فى صفحة ٦٩٠ ـ ٦٩٣ •

وعلى أية حال فان مشكلة « الوجود السبقى » Pre — existence أصبحت لا تدانيهـا مشكلة أخرى من المشكلات التى يعنى بها علمـاء الباراسيكولوجى ، لا فى اتساع نطاقها ، واتصالها بكل منا-ى السلوك الانسانى ، ولا فى أهمية آثارها نظرا للأضـواء الضخمة التى تلقيها على التكوين الفطرى للانسـان من زوايا عديدة ذات وثيق اتصـال بنظرية التطور ، أو بالأدق بالنظريات العديدة فى التطور ، بالاضافة الى معضلات اللاشعور وحقيقة مصدره وأبعاده .

الفصل الثالث

طائفة من البينات والوقائع
بشأن « العودة للتجسد »

تمهيد

الوضع العلمي لهذه المشكلة التي تعتبر في الباراسيكولوجي أم المشكلات كلها هو : هل يحيا الانسان في جسده الترابي مرة واحدة فحسب ، أم من الجائز أن تتاح له فرصة العيش فيه أكثر من مرة ؟ تساؤل مفرط في خطورته ، كما هو مفرط في قدمه ، وتنوعت صيغ الاجابة عليه تنوعا ضخما منذ أقدم العصور حتى الآن • وثمة صيغة واحدة بالأقل يعنى بها كل العناية الباراسيكولوجي في وضعه الراهن وهي مدى احتمال عودة الروح للتجسد في صورة آدمية قد تشبه على نحو أو آخر صورتها السابقة . وان لحقها بعض التطور في الشكل أو في الموضوع طبقا لناموس التطور الطبيعي •

وقد انتقل العلم الحديث بهذا الموضوع الخطير من اطار النقاش النظري البحت الى اطار التحقيقات الوضعية كما هو الشأن في موقف العلم الحديث من دراسة كافة الظواهر الطبيعية • ولما كان الانسان العائد للتجسد يفقد بحسب الأصل ذاكرته الواعية عن تجسده السابق ، لذا فان التحقيقات الوضعية هنا اتخذت لها عدة مسالك متنوعة جديدة ـــ نسبيا ـــ على دوائر العلم :

ـــ وكان من أولها استخدام أسلوب ارجاع الذاكرة الى الوراء في غيبوبة التنويم المغناطيسي وقد تكشف في بعض الحالات عن نتائج مذهلة، وقد ذلل الطريق أمام هذا الأسلوب الرائد الفرنسي العظيم الكونت أوجين ألبير دي روشا Eugène Albert de Rochas • ثم تابعه فيه عدد من الباحثين الجادين في بلاد متنوعة ، على ما سيرد فيما بعد •

ـ ثم ظهر أسلوب تحقيق ظواهر « رؤى من قبل » و « سمع من قبل » وقد جاء بدوره بنتائج ايجابية غزيرة مترابطة أخذت تدريجيا تجتذب انتباه بعض الجامعات المعنية ، والهيئات المختصة بدراسة الانسان من جميع جوانبه •

ـ ويضاف الى ما تقدم أسلوب الاتصالات الروحية ، أو أو بالأدق التحقيقات المتواصلة التى جرت فى الظواهر الوساطية العقلية والفيزيقية معا ، وقد جاءت بدورها بنتائج ايجابية عديدة لها وزنها •

ـ وقد تضافرت هذه الأساليب فى تجميع عدد ضخم من الوقائع الهامة ، التى ينبغى أن تخضع للتحليل العلمى الناقد لاستخلاص نتائجها المنطقية •

وتجميع الوقائع أو تحليلها ينبغى بداهة أن يجرى بمعزل تام عن كل آراء مسبقة الى جانب العودة للتجسد أو الى جانب انكارها ، حتى يتسنى الوصول الى نتائج يعتد بها فى شأن هذه المشكلة العامية الكبرى • ولذا يقول الدكتور جوستاف جيلى Gustave Geley (١٨٦٥ ـ ١٩٢٤) وهو أول مدير « للمعهد الدولى لما وراء الروح » بباريس ـ فى مؤلفه عن « العودة للتجسد » : « ان نظرية العودة للتجسد اذا ما فهمت فهما جيدا بكل نتائجها الميتافيزيقية ، من الناحيتين المعنوية والاجتماعية سترتكز فى المستقبل على أساس ثابت ، وبالتالى لا يقبل الزعزعة •

لكننا ينبغى أن نتجنب بلا تحفظ طغيان التعاليم المزعومة ، المؤسسة على صور من الالهام المزعوم ، والابتكار المزعوم » • وبقدر ما ينبغى تجنب التعاليم الروحية المزعومة ينبغى أيضا تجنب التعاليم الرافضة مقدما لأنها مؤسسة على خرافات مادية يطلقون عليها أحيانا وصفا خاطئا وهو « العلم المادى » •

وتحقيق المشكلات العديدة المرتبطة بالعودة للتجسد ينتظر منه أن يلعب دورا فعالا فى تراجع خرافات العلم المادى • ولذا غاز ثمة نساطا علميا واسعا يجرى حاليا فى جامعات عديدة نحو تحقيق هذه المشكلات أو بعضها ويرجى لها أن تلقى بعض أضواء على العديد من ألغاز الاضطرابات العقلية والعصبية • وأن تساعد فى الكشف عن مجاهل الشعور واللاشعور ، وتوسيع نطاق دراستها الى مدى أو الى آخر •

وفى نفس الوقت قد تساعد هذه التحقيقات فى اثبات الطبيعة الروحية الحقة للانسان ، وللعقل ، وللذاكرة ، وبالتالى لانفصال كل ذلك عن نشاط المخ — وهو جهاز محض مؤقت كسائر أعضاء الجسد المادى — القول بازدواج الانسان فى الجسد المادى الى روح ومادة ، وبصحة دوام الروح بغير حاجة الى هذا الجسد المادى ، وهذه هى بعينها النظرية الروحية بكل نتائجها المفرطة فى خطورتها واتساع نطاقها ، وتشعبها فى مسالك الفلسفة ، والاعتقاد ، والنفس ، والأخلاق ، والبيولوجيا ، والفيزياء (١) •

وفيما يلى نقدم طائفة من البينات والوقائع المتنوعة التى تنتمى الى شتى الأساليب العلمية الحديثة المتبعة فى تحقيق هذه القضية الكبرى من قضايا الوجود الانسانى وصلة هذا الوجود بسائر نواميس الطبيعة •

وهذه البينات والوقائع مستمدة من أعمال لفيف من أبرز العلماء العاملين فى هذا الحقل • وهم ينتمون الى عدة جنسيات ، وتغطى اختباراتهم وأبحاثهم فترة تقترب الآن من قرن كامل ، وقد جرت كلها بأسلوب حذر ومدقق تماما مما يدعو الى الثقة فيها وفى نتائجها المفرطة فى أهميتها لكل العاملين فى حقل التحليل النفسى •

وسنعود الى طائفة أخرى من نفس هذه الاختبارات والوقائع فى

---

(١) راجع ما ورد بهذا الشأن فى الجزء الأول ص ٢٨٦ — ٣٣١ ، ٤٢٣ — ٤٣٩ •

الباب المقبل عند تناول صلة هذا الموضوع بالتطور البيولوجي وباللاشعور في مفهومه الحديث. وصلته أيضا ببعض المفاهيم التي ألقى الباراسيكولوجي عليها أضواء باهرة خصوصا ما تعلق منها بالوعي ، وبالاحساس بالذات ، وبالالهام ، وبالنسيان ، وبالذاكرة، وبالنشاط الفسيولوجي والسيكولوجي ، والأنا ، والجنس .....

والبينات والوقائع التي هي موضوع الفصل الحالي سنوزعها على مباحث خمسة على النحو الآتي :

المبحث الأول : نماذج متنوعة من اختبارات ارجاع الذاكرة للوراء.

المبحث الثاني : من تحقيقات أيان ستفنسون في ظاهرتي « رؤى وسمع من قبل » .

المبحث الثالث : طائفة من اختبارات هانز هولزر في ارجاع الذاكرة ورجوعها تلقائيا للوراء .

المبحث الرابع : وقائع أخرى عن « العودة للتجسد » لشخصيات تاريخية معروفة .

المبحث الخامس : حالة فريدة عن « العودة للتجسد » كانت موضوعا لرسالة دكتوراه في الطب النفسي .

المبحث الأول

نماذج متنوعة من اختبارات ارجاع الذاكرة للوراء

من أغرب الاختبارات التي يعتقد الكثيرون أنها ذات وثيق صلة بموضوع احتمال « العودة للتجسد » تلك التي تستخدم التنويم المغناطيسي في محاولة ارجاع ذاكرة الشخص المنوَّم للوراء régression de mémoire ، لعله يتذكر شيئا من أحداث حيواته الماضية .

وقد أمكن أحيانا عن طريق بعض الحالات الفريدة للتنويم المغناطيسى ارجاع ذاكرة الشخص المنوَّم الى ما قبل الولادة فى حياته الحالية ، فروى بعضهم ذكريات معينة عن حيوات سابقة له مؤيدة بوقائع محددة ، وبأسماء أشخاص ، ومدن ، وطرقات ، ومعالم جغرافية ثبتت صحة البعض منها بطرق التحقيق المادى المألوفة •

من اختبارات دى روشا

ولا ريب أنه يرجع الفضل فى افتتاح هذا الأسلوب الجديد فى استكشاف أغوار الذاكرة الانسانية للبحاثة الروحى المعروف الكلونت البير دى روشا E. A. De Rochas الذى كان مديرا « للمدرسة الفنية العسكرية بباريس » Ecole Polytéchniques وكان رائدا من أعظم أعلام البحث الروحى فى العالم أجمع ، وتعد مراجعه فيه من أحسن المراجع وأعمقها حتى الآن(١) •

ولم ينازع أى انسان فى صحة هذه التجارب وفى الثقة التامة فى صاحبها ، وان كان الجدال كله يدور حول تعليل النتائج التى وصل اليها وهل تشير فعلا الى صحة « العودة للتجسد »أم فحسب الى أن وعى الشخص المنوَّم كان على صلة بعقول أخرى عديدة متحررة من أجسادها المادية ، يستمد منها قدرا ما من المعلومات الصحيحة • وقد رجح التعليل الأول لاعتبارات كثيرة مررنا ببعضها آنفا ، وسنمر بباقيها فيما بعد •

وهذه التجارب أجراها دى روشا فى الفترة من سنة ١٨٩٣ الى سنة ١٩١٠ ، ودفعته نتائجها الى أن يكتب قائلا : « من المؤكد أنه عن طريق السبل المغناطيسية يمكن — لدى أشخاص يملكون حساسية كافية ، احداث سلسلة من أوجه السبات Léthargie ، وحالات اليقظة النومية الحركية(٢) Somnambulisme التى تتتابع باتنظام

---

(١) راجع ما ورد عنه وعن أبحاثه فى «مفصل الانسان روح لا جسد» الجزء الأول • ص، ٤٥٤ — ٤٥٥ ، ٩٤٠ — ٩٤٢ •

(٢) وهى من مراحل التنويم المغناطيسى ، ولنا اليها عودة فى الفصل الثانى من الباب التاسع •

كما تتتابع الليالى والأيام • وخلالها تبدو الروح وقد تخلصت شيئا فشيئا من أربطة الجسد واندفعت الى مناطق فى المكان وفى الزمان ، لا يمكنها أن ترتادها بوجه عام فى حالة اليقظة العادية •

ومن المؤكد أنه عن طريق عمليات مغناطيسية معينة يمكن للانسان أن يقود تدريجيا غالبية الوسطاء الى عصور سابقة لحياتهم الراهنة ، بكل ما فى هـذه العصور من خصائص عقلية وفسيولوجية مميزة ، وذلك الى لحظة ميلادهم • وليست هى محض ذكريات توقظ ، بل هى حالات متتابعة من الشخصية تستدعى ، وهذه الاستدعاءات تحدث دائما بنفس النظام ، وخلال تتابعات من السبات ، ومن حالات اليقظة النومية الحركية •

ومن المؤكد أنه بمتـابعة هـذه العمليات المغناطيسية الى ما بعـد الولادة ، وبدون حاجة من اللجوء الى الايحاءات ، يمكن للانسان أن يمر بالمنوَّم الى تجسدات سابقة ، والى فترات تفصل بين هذه التجسدات • والموكب هو نفســه يتم عن طريق تتابعات السـبات ، وحالات اليقظة النومية الحركية •

وهذه الحالات من « كشف المـاضى » عندما أمكن تحقيقها لا تعبِّر عن الحقيقة دائما ، لكن من الصـعب أن نفهم كيف أن نفس التجارب الفيزيقية التى تحدد ابتــداء تراجع شخصيات حقيقية للوراء الى لحظة الميلاد يمكن بغتة أن تسمح بحدوث هلوسات زائفة تماما •

ومن المؤكد أنه بمتابعة « التمريرات الموقظة » الى ما بعـد العمر الحالى للشخص المنوَّم يمكن للانسان أن يحدث ظواهر مماثلة لتلك التى أحدثها فى المـاضى ، بمعنى حدوث نفس الأوجه المتقابلة من السبات ومن حالات اليقظة النومية الحركية ، وفيها يلعب الشخص أدوارا تقابل أدوار حياته اللاحقة ، اما فى حياته الراهنة ، واما فى حيواته المستقبلة •

ولم يمكن بعـد مراقبة حقائق التوقعات المستقبلة التى يمكن أن يعزى بعضها فى الراجح الى مخططات الشخص فحسب • ومع ذلك فقد ثبت فى ظروف عديدة بما يكفى ، وان كانت لم تحدد بعـد ، أنه أمكن

للانسان أن يرى أشياء فى المستقبل » (١) •

وهذه النتائج الخطيرة تمثل ثمرة بحوث جرت على تسعة عشر شخصا ، وأمكن تكرارها مع لويز Louise ومايو Mayo لمدى عدة سنوات متتابعة • ويضيق المقام عن ايراد جميع هذه الحالات ، لكن تكفى هنا الحالة رقم ٧ التى جرت أحداثها فى سنة ١٩٠٥ والتى هى أهمها كلها ، وأكثرها استرعاء للانتباه ، وقد تكشفت عن أحد عشر تجسدا متتابعا ، وهى حالة السيدة روجيه Roger ، وقد سردها دى روشا على النحو الآتى : (بعد أن نختزل بعض الوقائع ونكتفى بتلخيص البعض الآخر لضيق المقام) •

حالة السيدة روجيه (فى تجسدها الراهن)

ورغم أن دى روشا كان منوما بارعا الا أنه كان مع ذلك يستعين بمنوِّم قدير يدعى بوفييه Bouvier من ليون وكان فى نفس الوقت رئيسا لتحرير مجلة تدعى « السلام العالمى » وكان ابن بوفييه يقوم بتدوين مضابط الجلسات • وكانت هذه الجلسات تبدأ بمحاولة ارجاع ذاكرة الشخص المنوَّم بتمريرات طولية مصحوبة بالايحاء على النحو الآتى (٢)•

س : (الكولونيل دى روشا للسيدة المنوَّمة روجيه ، وكانت فى التاسعة والثلاثين من عمرها) : أنت الآن فى الخامسة والثلاثين فماذا تعملين ؟

جـ : أعمل فى صناعة الحرير ، ولا أحبها •

س : أنت الآن فى الثلاثين فقط ، فماذا تعملين ؟

جـ: فى صناعة الحرير •

---

(١) راجع ما سبق عن استشعار الأمور المستقبلة فى ص ٦٠٧ — ٦٦٤ •

(٢) من أهم عناصر نجاح مثل هذه التجارب براعة المنوم المغناطيسى فى فنه وطول خبرته . بالاضافة الى ملكة خاصة ينبغى ان تتوافر فى الشخص المنوم ، حتى يطفو عقله الباطن الى مستوى الشعور اثناء الغيبوبة المغناطيسية . وسنعرض لهذا كله فى الباب التاسع .

س : أنت الآن فى العشرين فماذا تعملين ؟

جـ : أنا مع والدىَّ ، وأعرف رجلا أعتقد أننى سأتزوجه لكننى لست متمسكة به كثيرا ، انها أمى هى المتمسكة به ولست أنا .

س : وماذا يدعى ؟

جـ : أندريه

س : هل يعجبك ؟

جـ : الى حد ما .

س : ماذا يعمل ؟

جـ : عامل بالأجرة عند ساعاتى .

س : هل تعرفين السيد بوفييه (المنوم) من ليون ؟

جـ : كلا .

س : ومع ذلك فهو معروف جيدا فى ليون بوصفه منوما قديرا .

جـ : لا أعرفه .

س : (من السيد بوفييه) ماذا كنت تعملين عندما كنت فى الثانية عشرة من عمرك ؟

جـ : أطهو الحساء .

س : أين تقطنين ؟

جـ : شارع بلفدير ، ٤ حديقة بيساردون مع أبى وأمى .

س : هل أنت سعيدة ؟

جـ : انهم يؤنبوننى كثيرا .

س : هل تذهبين الى المدرسة ؟ وأين هى ؟

جـ : مدرسة الآنسات حيث توجد الآنسة روز Rose والآنسة أجات Agathe ...

ثم يقوم بوفييه بارجاع ذاكرة المنومة الى مرحلة الحمل ، ثم الى ما قبلها .

س : ماذا تعملين فى الفضاء ؟

جـ : السـياحة .

س : ما شكلك ؟

جـ : فتاة شـابة .

س : هل ترين أشياء من حولك ؟

جـ : لى رفيقات ، وأراهنّ ضاحكات .

س : هل لديهن تكوين جثمانى ؟

جـ : تبدو أحيانا لهن أشكال أطول منى ، وأسعد منى .

س : هل لك مدة طويلة وأنت على هذه الحال ؟

جـ : نعم وقت طويل بما يكفى .

س : وماذا أنت ؟

جـ : أنا آنسـة .

س : هل عشت على الأرض ؟

جـ : نعم وقد قالوا لى اننى غادرت جسدى .

س : وكم كان عمرك (وقت مغادرته) ؟

جـ : ١٩ عاما وبضعة شهور .

س : استردى جثمانك لأنك تبلغين التاسعة عشرة فقط من عمرك .

جـ : وعندئذ تتذمر المنوّمة ، ويبدوعليها الألم مع صعوبة التنفس .

س : أنت تعلمين أنك مريضة ، فهل ذلك منذ مدة طويلة ؟

جـ : منذ ثلاث سنوات .

عن التجسد الأول (السابق مباشرة على تجسدها الراهن) :

س : ما اسـمك ؟

جـ : مادلين Madeléne

س : ماذا تعملين فى السادسة عشرة من عمرك ؟

جـ : لسـت سعيدة ، ويبدو لى أننى لن أعيش طويلا .

س : اسمك مادلين ، وما هو اسمك الثانى ؟

ج : مادلين بولييه M. Baulier •

س : فى أى عام نحن ؟ (أى فى أى عام أنت تشعرين الآن ؟) •

ج : فى سنة ١٧٢٤ •

س : ماذا تفعل أسرتك ؟

ج : تتجول •

س : هل تتجول للترفيه أم للتجارة ؟

ج : للترفيه •

س : وأنت ماذا تعملين ؟

ج : أتجول أحيانا مع أسرتى ، وأحيانا أخرى أمكث مع والدى الطيبين •

س : وأين يقطن والداك الطيبان ؟

ج : فى مونبلييه Montpellier •

س : فى أى شارع ؟

ج : شارع سانت ايلير Saint Hylaire •

س : هل يوجد رقم على المنزل ، أم ثمة أشجار أمامه ؟ ••• أعطنا أية علامة حتى تتعرف عليه (١) •

ج : توجد أشجار أمامه •

س : ماذا تعملين ؟

ج : أتعلم التطريز والغناء •

س : هل تذكرين أيام شبابك ؟

ج : لا أذكرها جيدا •

وفى هذه اللحظة بدا عليها مظهر البحث عن شىء ، وقالت انها تريد أن تعمـــل •

---

(١) أى هل كان منزلكم داخل المدينة ، أم خارجها فى الريف مثلا .

س : فى سن العاشرة ماذا كنت تعملين ؟

ج : ألعب مع رفاقى .

س : ما اسم والديك ؟

ج : بوليبه ، وهما متقدمان فى السن ، وجدتى بيضاء تماما ، وهم مرضى .

س : ماذا يعمل والداك ؟

ج : يجولان فى المدن الكبرى .

س : هل يعملان فى التجارة ؟

ج : يعملان فى التجارة قليلا ، وتجوالهم بالأكثر للترفيه ...

س : فى سن السادسة ماذا تعملين ؟

ج : ألهو . وبدا عليها أنها تلقى شيئا ، وتتطلب أن يلقى لها « البالون » ، كما بدا عليها ضيق الصدر والغضب عند التأخير . وفى سن الثالثة أخذت تطلب الحلوى بالحاح . وفى سن الواحدة أخذت تحطم كل شى يعطى لها وبدا عليها سوء الطبع . وفى سن الستة أشهر أخذت فى البكاء ، وفى اتخاذ مظهر العناد . وفى رحم الأم أخذت وضع الجنين .

عن التجسد الثانى

س : ماذا تفعلين كروح ؟

ج : أنا أتنزه طيلة الوقت ، وأرى أقاربى وأصدقائى الذين لا يرونى (لأنهم لايزالون فى عالم المادة) . كما أتمنى أن أرى خطيبى لويس الذى سبقنى الى عالم الروح لكننى لا أجده .

س : هل ترين جثمانك ؟

ج : اننى أرى جثمانى كآنسة فى مقبرة فى بريانسون

س : هل شاهدت نفسك فى لحظة الاحتضار ؟ (١) .

ج : لقد رأيت نفسى بنفس الشكل .

---

(١) الاشارة الى انسلاخ الجسد الأثيرى عن المادى فى لحظة الاحتضار ، حيث قد يشاهد بعض المحتضرين أجسادهم المادية .

س : أنت تغــادرين جثمانك (عندئذ أخذت المنوَّمة فى السعال بكثرة ، ومرت بحالة الموت ، ومال الجسم للوراء ، وأصبح باردا) .

س : أنت تعيشين من الناحية المــادية ، فما هو عمرك ؟

ج : ٢٥ عاما .

س : فى أى عام ولدت ؟

ج : ١٨٦٠ .

س : ما اسمك ؟

ج : مرجريت ديشين Marguerite Duchesne

س : فى أى عام أنت ؟

ج : فى سنة ١٨٣٥ .

س : ما اسم أبيك ؟

ج : لويس ديشين .

س : ماذا يعمل ؟

ج : صاحب تجارة بقالة بشارع الثكنة .

ثم أخذت فى السعال ، وشكت من صدرها وقلبها .

س : ماذا يؤلمك ؟

ج : أنا مريضة تماما ، ويقولون ان داء الصدر قد يقضى علىَّ ، وأنا فى عذاب .

س : أنت اذا تتعذبين ، فما هى العلة ؟

ج : كنت أحب جنديا شابا لكنه توفى .

س : ما اســمه ؟

ج : لويس — جيل مارتان Louis — Jules Martin آه آيا لويسى العــزيز .

س : أين كان جنديا ؟

ج : فى بريانسون .

س : هل كان من بريانسون ؟

ج : كلا بل كان من مرسيليا •

س : أنت الآن لا تتجاوزين العشرين من عمرك ، فماذا تعملين ؟

ج : أفكر فى لويس مارتان •

س : وفى الثامنة عشرة ماذا تعملين ؟

ج : أساعد والدى فى تجارة البقالة •

س : وفى الخامسة عشرة ماذا تعملين ؟

ج : تركت مدرسة « راهبات الترينيتيه » التى أحبها كثيرا •

س : وأين تقع هذه المدرسة ؟

ج : بشارع جارجوى Gargouille (١) •

س : وفى سن الثامنة ماذا تعملين ؟

ج : أذهب الى راهبات شارع جارجوى •••

س : وفى سن الثانية ؟

ج : لا أريد أن أذهب الى شقيقتى •••

س : وفى سن الواحدة ماذا تعملين ؟

ج : أجلس على ركبتى والدتى تدللنى •

وبعدئذ عجزت المنومة عن الاجابة ، فجعلها المنوم السيد بوفييه تسترد قدرة الرؤية بدلا من أن تعيش ماضيها ، وأخذت فى الاجابة كانسان واع تماما لما يجرى فى طفولته •

س : ماذا تعملين فى سن ستة شهور ؟

ج : اننى مريضة تماما ، وكان عندى تشنجات •

س : ما نوع هذه التشنجات ؟

ج : يقولون اننى أتلوى •

---

(١) تقول دى روشا انه اتضح فعلا انه توجد فى بريانسون مدرسة للبنات الصغيرات تديرها راهبات الترينيتيه تقع بشارع جارجوى •

وهنا يجعلها السيد بوفييه تتقدم فى العمر الى سبعة شهور ويسألها : ماذا تعملين ؟

ج : يضعوننى فى الماء لعلاجى ويقولون اننى عصبية تماما .

س : وفى سن الشهرين ماذا تعملين ؟

ج : لقد وضعوا على غطاء ثقيلا ...

س : لازلت جنينا فى بطن أمك ؟

ج : الدنيا ظلام . وهنا أخذت المنومة منظر الجنين الموجود فى بطن الأم ، وانطوت تماما على نفسها . وبعد الايحاء اليها بتمام خمسة شهور من الحمل فردت نفسها قليلا ، لكنها ظلت بلا حراك ، وذراعاها ساقطان الى جوارها ، ملقية ظهرها على « الفوتيل » وتبدو بلا حياة .

عن التجسد الثالث

وهكذا تسير التجارب حتى تنتقل السيدة المنومة الى حياة ثالثة لها فى سنة ١٧٨٠ كانت فيها رجلا باسم جيل روبير Jules Robert ولد فى سان بيير Saint Pierre بالقرب من بريانسون وكان والده مزارعا ، وتوفى فى سن الثانية والأربعين .

وأعطى « هذا الرجل » بيانات دقيقة كثير منها اسم قس الناحية أنطوان Antoine ، وصاحب المزرعة بارنو Earnéoud . وقال انه عمل فى صناعة الأحذية وفشل فيها ، ثم عمل بائع جرائد . ولما سئل عن اسم الجريدة قال جريدة « الاستمرار » La Durance ، وقد اتضح فعلا وجود جريدة محلية بهذا الاسم كانت تصدر فى « الألب العليا » فى وقت الاختبار . كما عمل فى بقالة فى بريانسون ، وعمل مساعدا لنحات معروف فى ميلانو يدعى باولى Paoli كان يصقل له الرخام . ووصف بعض قطعه الفنية . وقال انه كان بائسا ، وتوفى فى ميلانو بمرض السل .

عن التجسد الرابع

وفى وجوده الرابع يقول انه كان أنثى من جديد ، واسمها جينى

ليدوفيك Jenny Ludovic وأنها تزوجت أوجست ليدوفيك Auguste Ludovic الذى كان يعمل حطابا فى بلورميل Plouermel وأنها أنجبت طفلين : أوجست ، وجان • ويبدو أن جينى هذه توفيت فى سنة ١٧٠٢ بسبب ولادة متعسرة وكانت فى الثلاثين من عمرها •

وأعطت جينى تفصيلات كثيرة عن طفولتها قائلة انها لم تشاهد والديها ، وكفلها عمها الذى كان يعمل عطارا ••• كما قالت ان زوجها كان أرملا ، وله ولدان من زوجته الأولى آلان Alain وايفون Yvonne وقالت انها كانت تجمع النباتات والأزهار النادرة اللازمة لعطارة عمها •

عن التجسد الخامس

أما الوجود الخامس لهذا الشخص فينتمى الى الذكورة باسم ميشيل بيرى Michel Berry • ويقول انه ولد فى موتتمورانسى Montmorency فى سنة ١٤٩٣ • وأنه منذ العاشرة من عمره عمل خادما بالبلاط الملكى وروى عدة تفاصيل عن عمله ، وقال انه فى العشرين من عمره حلم بأن سويسريا طعنه طعنة قاتلة بخنجره •

وأنه كان أزرق العينين ، أشقر الشعر ، جميل الملامح ، وموضع تودد النساء•كما روى مغامرات غرامية مع شارلوت دى موتتمورانسى ، وديان دى كوسى Diane de Coucy عندما كان يعمل فى خدمة والدها فى بلوا Blois • ثم انضم الى حرس الملك ، واشترك فى حرب ضد السويسريين تحقق فيها الحلم الذى سبق أن رآه ، وكان عند ذاك فى الثانية والعشرين من عمره : —

س : وفى أى مكان أصبت بجرحك القاتل ؟

ج : فى مارينيان Marignan سنة ١٥١٥ •

س : وفى أى جانب كنت تحارب ؟

ج : مع الفرنسيين ، وتحت امرة فرانسوا Francois •

س : أى فرانسوا ؟

جـ : فرانسوا سيدى ورئيسى ، وبحق الله ملك فرنسا .

س : وما اسمك ؟

جـ : ميشيل بيرى .

س : ومن ذا تحارب ؟

جـ : أولئك السويسريين الخنازير .

عن التجسد السادس

وبعدئذ يقوم دى روشا باحياء الوجود السابق ، أى السادس فى هذا التسلق الزمنى المذهل ، فاذا بهذا الوجود متعلق بفتاة شابة تدعى ماريت مارتان Mariette Martin مرت على الأرض مرورا عابرا ، اذ توفيت فى العشرين من عمرها .

وقالت انها ولدت فى سنة ١٣٠٢ . وعند سؤالها عن اسم الملك المعاصر أجابت : « لا أعلم ، لكنهم يقولون أن اسمه فيليب الجميل » . وأعطت عن طفولتها بيانات قليلة ، منها أن والدها يصنع رسوما لوضعها فى الغرف ، وأنه يعمل لحساب الملك . وأنها تذهب الى المدرسة ، وتعذر تماما الحصول منهـا على أية بيانات عن الفترة من ١٢ الى ١٦ سـنة ، وان كان يبدو أنها كانت تعانى من مرض خطير .

وفى الثامنة عشرة تقول انها شابة وصيفة تقيم عند « الكونتيسة » جيز Guise التى عهدت اليها بتعليم أبناء شقيقهـا . وفى التاسعة عشر تلتقى بمن يدعى جاستون Gaston وتزمع الزواج منـه ، لكن خطيبها يروح ضحية حادثة سقوطه من على ظهر فرسه . فتمضى عامهـا الأخير فى فان Vannes عند والدة جاستون كمعلمة ، وتقضى بعد معاناة آلام ضـخمة .

عن التجسد السابع

أما الوجود السابع لهذا الشخص فهــو أغنى من هذا بالبيانات . وأغرب ما فى الموضوع أنه عندما كان دى روشا يدفعه الى تخطى الحاجز بين هذا الوجود وسابقه كان يبدو عليه عــدم التنبه الى أنه قــد غادر جسده المــادى . ويقول انه يعمل رئيسة دير ، وانهــا توفيت فى سنة ١٥١٠ ، وكانت فى السابعة والثمانين من عمرها .

وعندما سئلت عما كانت تفعله فى سن الســابع والسبعين قالت ان ذلك يقع فى سنة ١٠٠٠ ، وأن العرافين قــد تنبأوا بقرب يوم القيامة ، وبوفاة جميع البشر لذا كان الذعر عظيما .

وتقول ان اسمها كان لويز دىماراى Louise de Mareuil ، وأنه كفلهــا عمهــا الفيكونت دى ماراى . ودخلت الى دير سان دنيز Saint Denis عندما كانت فى الثــامنة عشر ، وترهبت فى العشرين وأصبح اسمها الأخت مارتا Marthe . وكان رئيس الدير قس كهل يدعى الأب لوتى Lotty فى السبعين من عمره ...

وبعد عشرة أعوام أخرى لاتزال فى الدير ، وتصبح عشيقة للرئيس الجديد للدير الأب شوازيل Choiselles ، وتتحمــل تأنيب الضمير بسبب ذلك .

وفى الستين تصــبح رئيسة للدير ، وعليها الاشراف على فتيــات شابات من أسر عريقة وتحاول أن تضمهن للدير بكل الســبل ، وبينهن بلانش من باريس التى تؤكد أنها أودعت فى الدير بأمر الملك نفسه .

س : أى ملك ؟

جـ : الملك كابت Capet (١) .

---

(١) لقب لملك هيج Hugues ، وهو أول ملك من السـلالة الثـالثة ثم اصبح لقبا لكل ملوك هذه السلالة التى انتهت بحكم لويس السادس عشر الذى أعدم فى الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ .

س : ولماذا أمر الملك بايداعها ؟

ج : حتى يستولى شقيقها روبير على كل مالها •

ويبدو من تأنيب ضميرها أنها كانت سببا فى آلام هاته الفتيات الشابات ، وأنها كانت حارسة عليهن وتمنعهن من مغادرة الدير • وظلت كذلك الى أن توفيت •

س : هل تستطيعين أن تخبرينى عن اسم الملك ؟

ج : انه روبرت الثانى •

س : وحينما كنت فى السبعين من عمرك من كان الملك ؟

ج : كابت Capet •

س : وفى الستين ؟

ج : لويس الرابع •

س : وفى سن ٣٦ ؟

ج : لويس الرابع ، ويقولون انه رجل ليس جميل المنظر ، فهو سمين متورم ولم أره قط •

س : وحينما كنت فى سن ٢٤ فماذا كانت السنة ؟

ج : ٩٤٧ ميلادية •

س : ومن كان الملك ؟

ج : لويس الرابع •

س : وحينما كنت فى سن الخامسة عشرة ؟

ج : هو نفسه لويس الرابع •

عن التجسد الثامن

وعندما يتابع دى روشا استكشافه لماضى هذا الشخص خلال حيواته المتعاقبة يصل الى وجوده الثامن على الأرض الذى يقع فى سنة ٤٤٩ • وعندئذ يفرك الشخص عينيه بعنف ويبدو متألما منهما • وبسؤاله يبين أنه محارب متطوع اسمه كارلوميه Carlomée وأنه وقع

أسيرا فى قبضة أتيلا Attila فى معركة «شالون سير مارن» Chalons Sur Marne حيث أحرقوا عينيه .

وعندما سئل عن السبب اقتصر على القول بأن هذا هو ما أعجبهم مشيرا بذلك الى ملوك « الهون »[1] . وقال أيضا أنه لم يكن محـاربا بسيطا ، بل قائدا ، ولذا نكلوا به . وأن رئيسـه ماسويه Massoée كان بدوره مرؤوسا لمن يدعى ميروفيه Mérovée الذى كان قائدا للقواد .

فسأله دى روشا عما اذا كان يعرف الله ، فأجاب : « يوجد واحد فوق الجميع هو ثيوس Théos » .

س : كيف تعبدونه ؟

ج : يقدمون له الرجال الذين يحرقونهم أحياء،وهذا جميل جدا !

وسئل عن سنى مراهقته وطفولته فكانت الاجابات عادية . وحدد اسـم والدته بأنه لى كارلوميه Li Carlomée ، وأنه ولد فى ألبينو Albinon على نهر التورن Le Tourn .

عن التجسد التاسع

وعنـدما تبدأ استثارة الوجود التـاسع يبدو على الشخص الألم الشديد ، وتبدو قبضتا يديه ــ اللتين وضعهما الواحدة فوق الأخرى ــ كما لو كانتا مقيدتين ، ويحاول الخروج من قيوده ، وعنـدما يسأل عن مصدر آلامه يقول انه يحترق ، وقد أصبحنا فى سنة ٢٧٩ .

ويقول ان اسـمه ايزيوس Esius ، وأن عمـره أربعون عاما ، ويقوم بحراسـة الامبراطور بروباس Probus فى روميلوس Romulus (روما) . وكلمة فكلمة يروى تاريخـه المحزن قائلا انه ولد فى تورينو

---

(١) شعب همجى من أصل فنلندى أو تتارى قدم من شواطىء بحر قزوين ، وغزا بلاد الغال La Gaulle (فرنسا القديمـة) بقيادة قائده أتيلا فى حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى .

Tourino حيث كان أبواه يعملان فى الزراعة ، كمـا كان يعمـل فيها مثلهمـا . وعندما يسئل عمـا اذا كان قد تعلم القراءة والكتابة يجيب بالايجاب .

س : كم عدد حروف الكتابة ؟

ج : خمسة عشر حرفا .

س : ما هى ؟

ج : لا أذكرها جيدا ... ثم يذكر منها حرفا .

ثم يتزوج فتاة صغيرة تدعى فلورينـا Florina ثم يستـنجد بالآلهة ، وعند سؤاله عن ماهيتها يجيب « انها هى التى تنبغى عبادتها ، وهى التى تتسبب فى قتل الناس ، ومع ذلك تقـدم اليها التضحيات » .

س : وكيف تتم التضحية ؟

ج : بتقطيعها اربا اربا ... كم أتمنى أن أتمكن من الذهاب لانقاذ الضحايا .

وبعـدئذ حـدثت المـأساة اذ حضر حرس الامبراطور بروتوميه Protomée فى تورينو وتحدثوا مع فلورينا عن القصر ، وعن الامبراطور ، واتفقوا معها على التوجيه الى روميليس (روما) . ولمـا رفض ايزيوس التوجه معهم ، اختطفهـا الحرس . فاضطر أيزيوس الى اللحاق بهم فى روميليس . وبعد مسيرة خمس عشرة يوما على الأقدام طلب من رئيس الحرس بيكيوس Pecius أن يدخل فى خدمة الامبراطور فقبل طلبه .

وعزم على الانتقام من الامبراطور الذى أخـذ منه فتـاته ، وهمَّ بضربه بحربته عنـدما كان على وشك أن يغتصب فلورينـا فأمسكوا به وأحرقوه ، وفلورينا معه ، لكن قبل أن يتمكن الامبراطور من اغتصـابها بسبب محاولة ايزيوس : « وهكذا خرج الامبراطور من القصر وشعرت بأننى قـد ثأرت لنفسى ، وأن ثمـة شيئا يعزينى وهو أن فلورينا ماتت طاهرة » ... وهكذا مات ايزيوس فى لهيب المحرقة سنة ٢٧٩ ميلادية .

عن التجسد العاشر

أما الحياة العاشرة لهذا الشخص فقد كانت فى صورة امرأة تدعى اريسيه Irisée • وبعد تردد قالت انها ولدت فى سنة مائة ميلادية فى بلاد تدعى ايموندو Imondo وتعيش مع شخص يدعى على يعمل كاهنا • وتجمع له أزهارا يقدمها الى آلهته ابراهيم وجوزيه • وهو يحرق الأزهار ويقدم عطرها للآلهة •

وفى سن الرابعة كانوا يضربونها كثيرا ، وتسببوا فى موت والدتها • وفى سن السادسة كانوا على وشك أن يضحوا بها فى سبيل الآلهة لولا أن أنقذها جيوس Jéüs ، وهو حاكم بلاد ايموندو كلها ، وأخذها لتعيش عنده حتى بلغت الثامنة عشرة من عمرها •

وعند استيضاحها عن موقع بلاد ايموندو قالت أنهـا قريبـة من تريستا • وقالت انهـا عندما بلغت التاسعة عشرة وقع جيوس أسيرا فى معركة من المعارك ، فكانت تذهب وتقدم له الطعام حتى لا يموت جوعا ، وحاولت أن تنقذه بالتوسل الى من أسره ، ويدعى جوانيم Joanime

وهكذا جرى مع اريسيه حوار طويل تضمن تفصـيلات أخرى عن حياتها هذه التى انتهت عندما بلغت السادسة والعشرين •

عن التجسد الحادى عشر

أما الحياة الحادية عشرة فهى على جانب يسير من الأهمية : عبـارة عن حياة طفل توفى فى الثامنة من عمره ، ولم يحرزه أية اختبارات رغم أنها تمثل مرحلة واحدة فى سلسلة من الحيوات التى تمتد الى ماضى الروح منذ زمن سحيق ، والتى كشـفت عنها محاولة من محاولات استكشاف مجاهل اللاشعور ، تمت بأسلوب فريد ، وتكشفت عن نتـائج تستوجب الحيرة ، بل الذهول الشديد •

وحسبما لاحظه دى روشا أن من المحال على خيال شخص خاضع

التنويم المغناطيسى أن ينتج هذا القدر الضخم من التفصيلات عن حيوات تبدو أنها قد تحققت بالفعل • واذا صح افتراض الخيال بالنسبة لحياة واحدة ، فما بالك اذاتعلق الأمر باحدى عشرة حياة متعاقبة •

وبالاضافة الى ذلك ، فان تكرار نفس الاختبارات مع نفس الشخص أدى الى نفس النتائج ، والى وقوع الشخص فى نفس الأخطاء المتعلقة بالذاكرة •

ومن ذلك مثلا تلك المتعلقة بسنى حكم الملوك والقواد الذين أشارت اليهم هذه الشخصية المنومة • ذلك أنه لما روجعت كتب التاريخ الخاصة بهذه الأزمنة كانت التواريخ كالآتى :

فرانسو الأول : ١٥١٥ — ١٥٤٧ •

فيليب الجميل : ١٤٧٨ — ١٥٠٦ •

روبرت الثانى : ٩٩٦ — ١٠٣١ •

لويس الرابع : ٩٣٦ — ٩٥٤ •

أتيلا : ٤٣٤ — ٤٥٣ •

وبمقارنة هذه التواريخ بتلك التى ذكرتها السيدة وهى واقعة فى التنويم المغناطيسى اتضح أنها تكاد تكون متطابقة عدا حالة أو اثنتين فى حياتيها السادسة والسابعة ، فان التواريخ تختلف عن الواقع ببضع سنين فقط ، وهذا أمر طبيعى اذا روعى البعد السحيق لهذه التجسدات عن الحياة الحالية •

كما أن تكرار نفس الاختبارات عدة مرات كثيرة مع الشخص الواحد أدى الى اعادة سرد نفس التجسدات بترتيبها الزمنى الذى سبق بيانه ، وهو ما يتعذر تعليله عند القول بأن هذه الوقائع من محض الخيال • كما يتعذر تعليله أيضا عند القول بأن هذه الشخصية — وهى

فى غيبوبتها المغناطيسية - كانت واقعة تحت تأثير كائنات غير متجسدة تروى عن طريقها ذكرياتها الأرضية الخاصة •

ذلك أنه فى هذا الفرض الأخير - يكون تعاقب الأرواح كيفما اتفق، ولا يتبع تسلسلا زمنيا معينا • وعند تكرار التجربة يجىء تعاقب جديد بوقائع جديدة تماما وهو ما لوحظ فى جلسات الغيبوبة الوساطية عندما يقع الوسيط أو الوسيطة تحت تأثير هيمنات مختلفة فى الجلسة الواحدة ، أو فى عدة جلسات متعاقبة حيث تتنوع الوقائع تنوعا ضخما ، ولا تتبع تسلسلا ثابتا ، ولا يمكن اعادة الوقائع بنفس تفاصيلها وترتيبها ، ولو كان الوسيط لم يتغير •

وذلك على عكس ما حدث فى الحالات التى قدمها دى روشا والتى بلغت ١٩ حالة روى بعضها حتى أحد عشر وجودا على الأرض على النحو الذى بينته ، وثبتت صحة العديد من البيانات عن العناوين ، والأسماء ، بوسائل التحقيق المادى ، وان كان الخطأ هنا محتملا أيضا ، ولذا لم تثبت صحة البعض الآخر من البيانات المملاة خصوصا ما تعلق منها بالتواريخ اذ غالبا توجد فيها أخطاء لسبب مفهوم وهو أن الانسان ينسى عادة حتى ما يتصل بتواريخ وجوده الحالى فما بالك بحيواته السابقة ؟ ! •••

واذا أضيفت الى ذلك الثقة المستمدة من سمعة دى روشا كباحث ممتاز ذى نزعة علمية تماما ، لتبين لماذا لا تزال لاختباراته ، ولنتائجها ، قيمتها القصوى • وقد تابع آخرون نفس الأسلوب ، وحصلوا على نتائج مشابهة لتلك (١) •

---

(١) وروى لى أكثر من منوم مصرى أنه حصل فى تجاربه فى التنويم المغناطيسى على نتائج مشابهة لهذه ، لكنه لم يثبتها فى أوراقه ، اما فى الخارج فقد تعودوا اثبات أمثال هذه الأمور الهامة بدقة تامة للتحقق منها ، وللرجوع اليها وقت اللزوم •

وقد كانت تجارب دى روشـا موضع عناية من « المؤتمر الروحى الدولى » الذى عقد بباريس سنة ١٩٠٠ . وقد أكد بعض المؤتمرين أنهم حصلوا على نتائج مشابهة لنتائجه منهم اثنان من المختبرين الأسبان هما فرنانديز كولافيدا Fernandez Colavida ، واستيفا ماراتا Esteva Marata(١) .

كما تناولهـا بعض المعلقين بالتحليل العلمى بالعناية التى تستحقها أمثال هذه الظواهر النادرة التى قـد يتصورها البعض بالنظر لندرتهـا « تافهة » مع أن لها أكبر القيمة فى محاولة استكشاف مجاهل اللاشعور ، وما أوعرها من مجاهـل . ومن هـؤلاء الأخـيرين الدكتوران سـوليه Sollier وكومار Comar فى « المجلة العلمية والأدبية للروحية » (٢) .

فلا ينبغى أبدا أن تهدر دراسة أية ظاهرة بحجة أنها نادرة أو تافهة متى ثبتت صحتها على وجه اليقين : ولمجرد الذكرى من كان يتصور منذ قرن واحـد فقط أن ملاحظة ظاهرة « تافهة جدا » وتنجم عن احتكاك الكهرمان بالصوف يمكن أن تكون مصدرا لاكتشاف أعظم طاقة فى الوجود وهى الكهرباء ؟ ! ومن كان يتصـور عندئذ أن هـذه الكهرباء يمكن أن تستخدم على النحو الذى نلمسه حاليا ، وأنه بدونها تظلم جميع المدن ، وتتوقف جميع الصناعات ، وتنقطع جميع سبل المواصـلات والارسـال السلكى واللاسلكى ... ، وتزول أخطر معالم الحضارة المعاصرة كلها ؟ !

من اختبارات مورى برنشتين

ومن الباحثين المعاصرين فى موضوع العودة للتجسد باحث أمريكى يدعى مورى برنشتين Morey Bernstein ذهب الى ولاية فرجينيا

---

(١) راجع أعمال هذا المؤتمر ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٢) La Revue Scientififique et Morale du Spiritisme Juillet et. Août 1904.

بعد وفاة ادجار كايس ـــ الوسيط الروحي المعروف ـــ فى سنة ١٩٤٥ بتصميم أكيد على أن يهاجم تجارب هذا الأخير وأن يتهمه بالتدليس •

وقد كان برنشتين هذا طبيبا نفسيا ومعنيا بدراسة التنويم المغناطيسى • فأخذ يتردد على مقر « جمعية البحث والاستنارة » الروحية الأمريكية(١) ، وذلك لفحص الآلاف من مضابط « قراءات الحياة » التى كان يقوم بها ادجار كايس ، وانتهى برنشتين الى الاقتناع بأن ثمة رقعا أعمق من غيرها من العقل غير الواعى يمكن أن تحتفظ بذكريات عن حيوات سابقة •

ثم قادته الظروف الى بلدة بولدر Boulder بمقاطعة كولورادو Colorado حيث عثر فى سنة ١٩٥٢ على سيدة تدعى روث سيمونز Ruth Simmons (ولدت فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٢٣) تصلح وسيطة ناجحة لاختبارات التنويم المغناطيسى• فنجح فى ارجاع ذاكرتها الى وجود سابق لها عندما كانت يوما فلاحة ايرلندية عاشت فى مدينتى بلفاست وكاونتى كورك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر • ونشر فى سنة ١٩٥٦ عن تجاربه معها كتابا عنوانه «البحث عن بريدى مورفى»(٢) ، وهو اسم هذه السيدة فى وجودها السابق فى ايرلندا ، وقد كان لهذا الكتاب دوى شديد فى الصحافة وفى الرأى العام الأمريكى •

وقد روت الوسيطة ـــ وهى فى تنويمها المغناطيسى ـــ كثيرا من البيانات والتفصيلات عن حياتها السابقة ، التى يتعذر اعتبارها من محض مبتكراتها : من بينها أسماء بعض المحلات التجارية التى كانت موجودة فى ذلك العصر فى بلفاست ، وأسماء الصحف والمجلات الشائعة ، والعملات المتداولة •

وقالت انها ولدت فى سنة ١٧٩٨ وتوفيت فى سنة ١٨٦٤ ، وذكرت أسماء الأطعمة الايرلندية التى كانت تتناولها ، والأدوات التى كانت

---

(١) Association for Research and Enlightenment.

(٢) The Search For Bridey Murphy.

تستخدمها باللغة الايرلندية الدارجة . كما عبَّرت عن رهبتهـا من الأب جورمان Gorman وهو كاهن الناحية الذى كان فيما يبدو صـاحب نفوذ كبير فيها .

وقالت بريدى مورفى أنها فى وقت ما كانت زوجة لأحد المحامين فى المحاكم العليا اسمه بريان ماك كارثى Bryan Mc Carthy وكان عضوا فى هيئة أساتذة « كلية الملكة » فى بلفاست ورسمت خريطة أوضحت عليها ــ بدوائر صغيرة ــ موقع بيتها .

وأضافت أنها توفيت عندما بلغت السادسة والستين ، وأنها خلعت جميع أسنانهـا . وكانت جميع أحاديثها باللهجة الايرلندية العامية التى كان يستخدمها دهماء القوم هنـاك ، وهى لهجـة لم تعبر أبدا المحيـط الأطلنطى ولم يستخدمها أحد من الممثلين الأمريكيين .

وكل هـذا سجله برنشتين على أشرطة تسجيل الصوت التى كان يستخدمها فى اختباراته معهـا . وبطبيعة الحال لم تكن للوسيطة روث سيمونز أية صلة بهذه اللهجة ، ولا يمكنها تقليدها أو تمثيلهـا وهى فى صحوتها . وذلك الى حد أنه يمكن القول بأن أسلوب روث سيمونز فى سلوكها المسجل على الأشرطة يعد أكثر اقناعا من جميع البيانات والأسماء والتفصيلات التى ذكرتها عن الحياة فى بلفاسـت فى النصـف الأول من القرن التاسع عشر .

وبالاضـافة الى ذلك تبين بالتحقيق أن هناك سـيدة تحمل اسـم بريدى مورفى مكارثى عاشت بالفعـل فى المكان والزمان اللذين ذكرتهما السيدة الأمريكية وأنها مرت بالأحداث والظروف التى وضـحتها وهى فى غيبوبتها المغناطيسية .

هذا وقد عنى كـ. جـ. ديكاس C. J. Ducasse أستاذ الفلسفة بجامعة براون بأمريكا بهذه الحالة فى مؤلف له عنوانه « دراسة انتقادية

فى الاعتقاد فى دوام الحياة بعد الموت » (١) (١٩٦١) فخصص لها صفحات كافية من التحليل العلمى المحايد ، ودافع فيها عن برنشتين ، كما أيد فيها الوسيطة روث سيمونز نافيا عنها شبهة التدليس •

اختبارات لاحقة من نفس النوع

وهذه أيضا اختبارات حديثة تتلخص وقائعها فى أن قسا أمريكيا يدعى كارل جاى Carroll Jay يعمل راعيا من مذهب الميثوديست بقرية تقع بوادى شناندوه Shenandoah Valley بالقرب من مدينة الكتون Elkton بالولايات المتحدة الأمريكية اتخذ التنويم المغناطيسى هواية له منذ سنة ١٩٥٤ ، وكان هدفه الأصلى منه مجرد المساعدة على علاج زوجته من الصداع ، ومن بعض آلام ظهرها •

ولذا أخذ هذا القس ينوّم زوجته دولوريس Dolores التى كانت عندئذ فى الحلقة الثالثة من عمرها والآن فى الثامنة والخمسين • ثم دفعه حب الاستطلاع لأن يختبر ظاهرة ارجاع الذاكرة للوراء فاذا بها تسرد وقائع معينة يظهر منها أنها كانت فيما يبدو سيدة أمريكية تعيش فى ولاية انديانا وتوفيت بها فى سنة ١٩٣٢ •

وعندئذ بدأ يفكر فى التثبت من صحة تلك الوقائع التى وردت على لسانها وهى فى غيبوبتها المغناطيسية ، كما فعل العديد من الباحثين عندما بوغتوا بحدوث ظواهر مماثلة ، وذلك لمحاولة الوصول الى تعليل لها يروى الغليل •

وانتقل القس الى تلك الولاية حيث يقول انه حصل على بيانات جعلته يعتقد أنها مطابقة لتلك التى وردت على لسان زوجته فى غيبوبتها ! وفى مرة سألها وهى نائمة عن ألم ظهرها فأجابت سلبا باللغة الألمانية • وبعد ذلك رأى ضرورة تسجيل اجاباتها على شريط التسجيل ، وبدأت

---

(١) A. Critical Examination of the Belief in a Life after Death.

هذه الظاهرة بعد مضى ستة شهور تتبلور تدريجيا ، وأخذت السيدة تجيب على جميع أسئلته بلغة أعتقد أنها لابد أن تكون اللغة الألمانية .

وعندئذ حرر زوجها بيانا الى مجلة مهتمة بالوقائع الروحية ، فاتصل رئيس تحريرها بالدكتور ايان ستفنسون أستاذ الباراسيكولوجى بجامعة فرجينيا الذى أعطاها العناية المطلوبة ، فأخذ يواظب على حضور هذه الاختبارات منذ سنة ١٩٦٩ مصطحبا معه عددا ممن يتقنون اللغة الألمانية وظل مثابرا على ذلك لمدى ثلاث سنوات حضر فيها ١٨ دورة للتحقيق والاختبار .

وفى هذه الجلسات أخذت دولوريس تسرد بيانات عديدة عن حياة سابقة لها كفتاة بروسية تدعى جريتشن جوتليب Gretchen Gottlieb وكان والدها يدعى هيرمان Herman وكان أشيب الشعر وعمدة لمدينة أبرسوالد Eberswalde تقع حاليا بألمانيا الشرقية . وكانت توجد عندهم طباخة تدعى فراو شيلدر Schilder أو شيلر Schiller وكان لديها طفلان يحملان اسم كارل Karl فى السابعة وكارين Karin فى التاسعة .

وقالت ان والدها وضع فى السجن بسبب صراع مذهبى عنيف نشب بين البروتستانت والكاثوليك فى تلك الأيام وأنها بعد سجن والدها حاولت أن تهرب من المدينة مع عمها الذى كان يخفى بعض الخيول فى الغابة ، والظاهر أنها لقيت مصرعها فى الغابة وأثناء محاولة الفرار ، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها فقط .

واتضح للدكتور ستفنسون أن ابرسوالد كانت مدينة تقع فى الشرق من الدولة البروسيه ، وأن وصف جريتشن للصدام المذهبى العنيف الذى جرى مع ابداء مخاوفها من السناتو (مجلس الشيوخ) البروسى Bundersat يرجع هذه الأحداث — بحسب الراجح — الى سنة ١٨٧٠ حين نشب تناحر مذهبى فى المنطقة أطلق عليه Kulturkampf (تحت

حكم بسمارك) ، وكانت أبرسوالد ضمن مناطق هـذا الصراع المذهبى الذى أثير فى وجه الكاثوليك ، وكانت تقع فى مركز اقليم تغطيه الغابات •

وحسبما قرره الدكتور ستفنسون فى بيانه عن الوقائع كانت جريتشن تجيب بطريقة شخص تائه dazed بين الأحداث ، لكن كان الأسلوب مناسبا • بل لقد كانت الكلمات الألمانية التى تستخدمها تنتمى أحيانا الى لغة القوم فى بروسيا فى القرن التاسع عشر والمام جريتشن بالنحو الألمانى ضعيف جدا •

كما قرر أن أسرة « جاى » مكونة من أشخاص أمناء جدا « وبدو ان الذاكرة تشبه صندوق مغلق به ملابس ، ولكن قد تظهر منه أحيانا بعض أطراف هذه الملابس ،وليس كل شىء يناسب الغرض منه ، ولكن هذه حالة هامة » •

ويقصد ستفنسون بذلك أنه يعتبر اللاشعور بمثابة مخزن لذكرياتنا السحيقة التى تختبىء فيه ، والتى هى ثمرة الاختبارات التى مرت بنا مهما كان مداها من القدم ، ولكن من المحتمل — تحت تأثير ظروف معينة — أن تبرز من ثقب أو آخر فى هذا المخزن بعض أطراف الذكريات التى لم يحكم العقل الواعى اغلاقه عليها ، عن طريق تجسده فى المخ ، الذى هو تجسد مؤقت لجانب فحسب من الوعى الانسانى الشامل • وهذه الأطراف قد تظهر فى الغيبوبة عن طريق التنويم المغناطيسى ، وقد تظهر فى اليقظة عن طريق تحقيق ظاهرتى « رؤى من قبل » أو « سمع من قبل» التى سنتناولها فى المبحث التالى ، وبوجه خاص موقف ستفنسون منها •

وبلغ من حذر ستفنسون — فى تجاربه مع أسرة « جاى » هذه — أنه استخدم جهازا لكشف الكذب ، فلم يسجل حدوث أى كذب من الأشخاص الذين أخضعهم للتحقيق الدقيق •

ويقول أيضا انه مما يدعوه الى الاقتناع بالموضوع أن أحدا من أسرة

« جاى » لم يتعلم اللغة الألمـانية من قبل رغم أن الجدين البعيدين لهـا قدما من ألمـانيا • وقد وقع أقاربها وجيرانهـا اقرارات بأنهم لم يتبادلوا أى حديث بالألمـانية • كما قرر القس كارول من جانبه بأنه يعتقـد بأن جريتشن كانت فيمـا يبدو طفلة متخلفة عن عمرها فى الذكاء ، وربمـا لم تذهب الى المدرسة أبدا ، بل لقد قالت أنها أميّة ، وهو يعتقد أنهـا بطيئة التعلم وجميع أحاديثها بالألمـانية محفوظة على أشرطة تسجيل •

وبطبيعة الحال فان السيدة دولوريس لا تعرف شيئا عن شخصيتها الأخرى الا من خلال هذه الأشرطة ، والمضابط التى تم تدوينهـا بمعرفة المحققين • ولم تكن أبدا ترحب بأن تقع فى الغيبوبة وأن تفقد نفسها فى شخصية جريتشن ، بل لقـد حاولت مرارا أن توقف هذه الاختبارات لولا تمسك ستفنسون بتكرارها وبمواصلتها بالنظر لأهميتها الشـديدة للتحقيق العـلمى ، ولذا اصـطدمت معه أكثر من مرة • وهى لا تؤمن بالعودة للتجسد ولا أفراد أسرتها كذلك •

وقـد ناقش زوجها بعض الصحفيين فى هذا الموضـوع ، وصرح لمنـدوب مجلة « نيوزويك » Newsweek قائلا « نحن لا نؤمن بالعودة للتجسد ، ولكننى لست خبيرا بالقدر الذى يسمح لى بأن أنفى أن تكون الحالة حالة عودة للتجسد • وكل ما أعلمه هو أن هذه الحالة صـحيحة أيا كان التعليل » • كما قال أيضا أنه ينبغى الوصول الى هـذا التعليل من النواحى العلمية ، واللاهوتية ، والفلسفية •

وقد حاول بعض مندوبى جريدة الديلى ميل Daily Mail العثور على بيانات رسمية خاصة بمن يدعى هيرمان جوتليب وأسرته فلم يتمكنوا بالنظر الى ضـياع جميع سجلات المواليد فى المنطقة فى الحرب العـالمية الثانية ، وفى الأحداث التى تلتها ، والتى منها احتلال الحلفاء للمدينـة فى سنة ١٩٤٥ •

* * *

وهذه وقائع مماثلة أثبتها طبيب ألمـانى للأمراض النفسية يعمل فى معهد « علم النفس غير المـألوف » (١) بمدينة ميونيخ Munich فى تقرير رسمى له ، وهو يدعى ثوروالد ديتهلفسون Thorwald Dethelfson •

ويقول فى تقريره أنه قد نوّم طالبا ألمـانيا يدعى تيزنجر Tisinger تنويما مغناطيسيا بقصد العلاج ، وأنه أرجع ذاكرته للوراء عنـدما كان عمره عامين فقط ، ثم عاما واحدا ، ثم الى تاريخ ولادته ، ثم الى ما قبل الولادة • وعندما حدد له عام ١٨٧٠ قال الطالب فجأة « أنا فى زنزانة » فى ويسيمبورج Wissembourg بفرنسا•

وأعطى اسـم الشـارع الذى يقيم فيـه وهـو شـارع كونتابل Connetable ، وقرر أنه مسجون بسـبب الحرب مع البروسـيين • وفى النهاية يقول الطبيب « وجدت نفسى أتبادل الحديث مع شاب فرنسى يبلغ من العمر ثمانية عشر عاما ، يتحدث لغتين ، ويعيش خلال الحرب الفرنسية البروسية • وقال ان اسمه جويلا فارجو Guilafargo وأنه عاش من سنة ١٨٥٢ الى سنة ١٨٨٠ ، وتوفى بغتة عندما كان فى السابع والعشرين، أو الثامن والعشرين من عمره بسبب حادثة لم يشرحها » •

ويقول أيضا ان هذا الطالب ـ وهو فى يقظته لا يذكر أى شىء عن الأقوال التى تصـدر منـه وهو فى غيبـوبته المغنـاطيسية • وتحوى اختبارات العديد من العلماء المدققين المئات من الحالات المماثلة •

متابعة لنفس الاختبارات

ومن التجارب التى أجريت منذ وقت قريب تلك التى قام بها الدكتور لوند جرين Lundgreen الأستاذ فى جامعة أبسالا Upsala وقد اكتسبت هذه التجارب أهميتهـا من أن ذلك العالم السويدى جعل هـذا الجانب من موضوع العودة للتجسد فى المتناول ووضعه فى مقدمة الموضوعات الهامة•

---

(١) The Institute of Extraordinary Psychology.

وعلى سبيل المثال سجل لوند جرين بحضور عدد من الشهود حالة سيدة فى الأربعين من عمرها بعد أن نومها مغناطيسيا ، وأرجعها تحت هذا التأثير الى طفولتها المبكرة فتصرفت السيدة كطفلة صغيرة جدا تسلك سلوكا حسنا .

بعد ذلك راح الدكتور يستدرج الطفلة الى ما قبل مولدها فتأتأت وفأفأت ، ثم أخذت وضعها كجنين . واستمر الدكتور فى تجربته عائدا بها القهقرى حتى سألها : « أين كنت قبل مولدك بخمس سنوات ؟ » . وهنا تغير صوت السيدة فجأة ، وبات نبراته خشنة وقالت :

الجو شديد الحرارة هنا .

س : ما اسمك ؟

جـ : ايج كاريستروم .

س : ما هى مهنتك ؟

جـ : فلاح من مجولبى .

س : هل لك أولاد ؟

جـ : لى ثلاثة أولاد (وذكرت أسماءهم) .

وقد اتضح من نتيجة التحقيق أن مزارعا بهذا الاسم كان يعيش فى مجولبى وتوفى قبل مولد هذه السيدة بأربعة أشهر تاركا وراءه الأطفال الثلاثة الذين ذكرت أسماءهم فى أثناء الغيبوبة المغناطيسية .

ويلاحظ هنا أن هذه السيدة لم تفصح عن ماضيها فى تجسدها السابق الا عندما أرجع المنوم ذاكرتها الى ما قبل مولدها بخمس سنوات ، فذكرت عندئذ اسمها القديم وبعض ظروف حياتها التى لاتزال عالقة بعقلها الباطن . وهذا الاعتبار يلتئم تماما مع القول بأنها كانت تسرد تجسدا حقيقيا مر بها من قبل ، فلم تكن الحالة حالة تقمص أو استحواذ خارجى لأن هذا الفرض الأخير يحدث بمجرد الوقوع فى الغيبوبة الوساطية أو المغناطيسية ، ولا يحتاج لارجاع الذاكرة تدريجيا

الى الوراء ، كما حدث فى كل الحالات المماثلة التى من نفس الفصيلة (فصيلة العودة للتجسد ، لا فصيلة الهيمنة أو الاستحواذ) .

من اختبارات فلورنوا

ومن أجدر الحالات بالتسجيل هنا حالة فريدة لفتاة تدعى هيلين سميث . وقد تولى دراستها ت. فلورنوا T. Fleurnoy أستاذ علم النفس بجامعة جنيف ، والمشهور بعدائه لمبدأ واقعية الظواهر غير المألوفة ، لأنه كان ينسب كل شيء الى أحلام اليقظة ، وتناقل الأفكار (التلباثى) ومع ذلك اضطر البروفسور الى أن يعترف بأن بعض هذه الظواهر يجعله يشد شعره من الحيرة والعجز عن التفسير .

وهيلين سميث كانت تدعى فى الحقيقة كاترين اليز مولل وهى من مواليد مارتينى بمنطقة فاليه بسويسرا فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٦١ ، وتوفيت فى جنيف فى ١٠ يونية سنة ١٩٢٩ وكتب فلورنوا عنها قائلا : ـ

« هذه الوسيطة التى أدعوها هيلين سميث كانت طويلة القامة ، جميلة ، فى حوالى الثلاثين من عمرها ، شعرها أسود تقريبا ، وكذلك عيناها . وجهها صبوح وذكى ، ونظراتها عميقة توحى بالثقة ، وصحتها كانت جيدة وتفكيرها سليما .

وكانت فى أثناء طفولتها تشاهد فى أحلامها مناطق ذات طابع شرقى جميل وفخم . وحدث فى سنة ١٨٩٢ أثناء جلسة روحية أن اكتشفت موهبتها الوساطية ، فطورتها بسرعة .

وفى التجربة الأولى اقتصرت على تحريك مائدة ، وعلى رؤى قصيرة ... وفى حوالى سنة ١٨٩٥ تمكنت هيلين من وساطتها وتوصلت الى مشاهدة رؤى واضحة وضوحا مدهشا . وأحيانا كانت ترى « سيمانوينى » الأميرة العربية التى كانت زوجة مفضلة للأمير الهندى « سيفرو كانا ياكا » التى حكمت منطقة « كانارا » وشيدت فى سنة ١٤٠١ قلعة « تشاندرا جيرى » .

والمدهش فى موضوعها هو اتجاه الدراسة التى قام بهـا فلورنوى الى أنهـا فى تجسد سابق لهـا كانت تدعى الأميرة سيمانوينى ، فكثيرا ما كانت وهى فى حالة حلم اليقظة تتنـاقش مع الفقير « كانجـا » ومع خدمها «موجيا» و «ميوزيا» و « كانجيا » أو « كانا » • وقد استعادت ذات مرة صورة موتها محترقة •

وفى احـدى الجلسـات عاملت البروفسور فلورنوا كمـا لو كان هو بعينه « سيفروكا » (أحـد معـاصريها السـابقين) فحيته باللغة السنسكريتية بعبارة كانت شائعة عندهم وقتذاك وهى (آحييك باسـم جانا باتى) • وجاناباتى هو بحسب الأساطير اله هنـدى له رأس فيل !

وفى مرة أخرى غنت هيلين بالسنسكريتية ، وأمكن تسـجيل نوتة للحن الأغنية ، الأمر الذى أوقع البروفسور فى حيرة ، فقال « لعلها قرأت يوما ما قواعد اللغة السنسكريتية دون أن يعلق شيء منهـا فى عقلهـا الواعى ! » •

وقد ازدادت حيرة فلورنوا عندما اتصل بالاخصائيين فى الدراسات الهنـدية حتى اكتشف كتابا نشر فى سنة ١٨٣٨ وعثر فيـه على المقطع التالى « كانارا هى المقاطعات المجاورة لمدينة دلهى ، ويمكن اعتبارها مثل جورجيا الهندستانية ، وكانت هذه المقاطعات مشهورة بنسائها الجميلات المحجبات عن الأجانب » • أما « تشاندراجيرى » التى تعنى « جبـل القمر » فهى قلعة بناها الراجا سيفروكا ناياكا فى سنة ١٤٠١ •

ونظرا لأن فلورنوا ظل متمسـكا بآرائه فقـد اكتفى بالقول بأن الوسيطة ربما تكون قـد عرفت بأمر هذا الكتاب ثم نسـيته ، الا أنه ما لبث أن أقر بأن هـذا الافتراض فى غير محله لأنه لم يكن فى جنيف سـوى نسختين فقط منه احـداهما فى « جمعية القراء » وهى جمعية خاصة ، والثانية فى « المكتبة العامة » التى لم تطأها قدما هيلين •

ومن جهة أخرى أقر فلورنوا بدافع من ضميره أنه حتى لو كانت الوسيطة قد قرأت تلك الفقرة من الكتاب لتذكرتها حرفيا ، وهو مالم يحدث ، ومع ذلك أضاف قائلا : « رغم كل شيء أفضل الأخذ بنظرية الامكانات الطبيعية على الملكات الروحية » ! !

عن تعليل النتائج

ومن الطبيعي أن يثار التساؤل حول تعليل هذه الحالات . وثمة اجماع على أن هذه الظواهر التي تحدث أحيانا في غيبوبة التنويم المغناطيسي صحيحة لاشك فيها ، بالنظر الى تكرار حدوثها في بيئات كثيرة ، والى الروابط التي بينها ، والى السمعة النقية التي لا غبار عليها لمن قاموا بجمعها ، ولانتفاء كل مصلحة لهم في الاثبات أو في النفي ، لأنهم جميعهم ليسوا من أرباب عقيدة العودة للتجسد ، ولا يعنيهم في كثير أو في قليل أن تكون هذه العقيدة صحيحة أم زائفة .

فمحور النقاش هو في الواقع الوصول الى تعليل صحيح حاسم لهذه الظواهر . ولو حدثت هذه الظواهر في بيئات تؤمن بالعودة للتجسد كعقيدة شائعة راسخة في الأذهان كما في الهند أو اليابان أو الصين لكان التعليل بالعودة للتجسد أوضح من أن يحتاج الى المزيد من البرهان ، أو لأن يثير أي قدر من النقاش .

ولكن في بيئات لاتزال تنكر في جملتها صحة هذه العقيدة من الناحية الشعبية ، بل كانت تنكر حتى احتمال دوام الحياة بعد الموت ، كما كانت الحال في البيئات العلمية في الغرب كان من الطبيعي أن يثير تعليل هذه الظواهر نقاشا طويلا ، وأن يحتمل في نظر الباحثين العلميين أكثر من افتراض .

وأول افتراض أثير للتعليل كان القول بأن الشخص المنوم يتلقى جميع المعلومات التي يدلي بها عن طريق الايحاء Suggestion من المنوم شخصيا . ولكن هذا الافتراض سرعان ما ينهار اذا ما أدركنا أن هذه

المعلومات نفسها غالبا ما تكون غريبة حتى عن عقل المنوم الذى لا يعرف عنها شيئا بالمرة . والتى قد يفاجأ بها كما قد يفاجأ بها أى شخص من الحاضرين . وقد يبذل المنوم جهدا طويلا بعد الحصول عليها للتثبت من صحتها كما سبق أن رأينا ... فكيف يقال ان عقل المنوم كان هو المستودع الوحيد لهذه المعلومات التى قد تكون بعيدة كل البعد عن ثقافته مهما كان نوعها ، وعن نواحى اطلاعه ؟ ! ومن الغريب أن هذا الافتراض غير العلمى وغير المطابق للوقائع الثابتة لايزال يشار بمعرفة بعض المعترضين لدحض هذه التجارب ولنفى دلالتها الواضحة .

وبعد أن أخذ يتزايد الاقتناع بدوام الحياة بعد الموت وبامكان حصول استحواذ أو هيمنة روحية على عقل وسيط التنويم المغناطيسى أخذ يبرز تدريجيا افتراض آخر جديد لنفى احتمال العودة للتجسد : وهو أن وسيط التنويم المغناطيسى قد يستمد المعلومات الصحيحة الغزيرة التى قد يقدمها من عقول كائنات سابحة فى الأثير تتابع الواحد بعد الآخر فى الاستحواذ على وعيه ، لامداده بهذه المعلومات الغريبة من ذكريات محددة عن تجسدات سابقة فى هذا العالم الأرضى .

وهذا الافتراض الثانى سرعان ما ينهار بدوره اذا ما لاحظنا أن تتابع عقول الكائنات السابحة فى الأثير فى الاستحواذ على وعى الوسيط من المحال أن يتكرر الواحد بعد الآخر دائما بنفس الترتيب الزمنى ، كلما أعيدت التجارب ولو لعشرات من المرات وعلى مدى سنين عديدة كما حدث فى بحوث دى روشا ، وديرفيل ، وأندريه ديبيل ، وبيير نوفيل ، ومورى برنشتين،والكساندر كانون ، وبلوكسهام،ودنيز كازى ، وهانز هولزر ... وغيرهم فى أنحاء كثيرة من العالم . فان الواحد منهم كان أحيانا يوقع نفس الوسيط أو الوسيطة خمسين مرة أو أكثر فتتتابع المعلومات والوقائع بنفس الترتيب السابق سرده تماما . ولا يتلقى وسيط التنويم من المنوم أكثر من الايحاء بارجاع الذاكرة للوراء ، أما نفس

المعلومات والوقائع موضوع هذه الذاكرة فهو لا يعلم عنها شيئاً بالطبع بما فى ذلك التواريخ العامة والخاصة ، وأسماء الشعوب والأشخاص ، والأمكنة ، والمدن . والشوارع،والأنهار ••• ناهيك بالتقاليد ، والعادات، والمعتقدات ، والأجهزة المستخدمة ، والمعالم الحضارية ••••

ثم ان أى افتراض — حتى يكون مقبولا علميا — ينبغى أن يلتئم مع سائر الظواهر الأخرى المشابهة ، والا ينبغى رفضه كافتراض صحيح• والمطلوب هنـا هو الوصـول الى تعليل شامل يلتئم مع ظواهر ارجاع الذاكرة فى غيبوبة التنويم المغناطيسى بقدر التئامه مع الظواهر الأخرى المشابهة التى منها ظواهر « رؤى من قبـل » ، و « سمع من قبـل » عندما تحدث وصاحبها فى تمام يقظته ، ولنا اليها عودة فيما بعد •

ناهيك بظواهر أخرى حققها باحثون ثقات حدثت فى غرف الجلسات الروحيـة ، ناهيك بحقائق العـلم وكشوفه الأخرى عن التطور ، وعن العقل ، وعن الشـعور واللاشـعور ••• على ما سيرد بيـانه تباعا فيما بعد • ولا يوجد حتى الآن تعليل يصلح لمواجهة كل هذه الأمور مجتمعة يضاهى فى قوته التعليل البسيط الواضح بالعودة المحتملة للتجسد •

ثم يتبقى بعدئذ الافتراض الأخير الذى قد يثار ، وهو أن التنويم المغناطيسى يجعل المنوم على صلة بالعقل الباطن للوسيط وبالتالى يتمكن من اكتشاف محتوياته ، فكل المعلومات التى قد يدلى بها هذا الوسيط مستمدة من عقله الباطن الذى لايزال لغزا مغلقا على علم النفس •

واذا سلمنا بذلك كان من حقنا أن نقول ان هذا الافتراض الأخير لا ينفى نظرية احتمـال العودة للتجسـد ، ولا يتعـارض معها ، ولذا استبقيناه حتى الآن ، لأنه يمثل فى الواقع التحليل الصحيح بعد الوصول الى التعليل الذى أسلفناه • فان العقل الباطن أو اللاشعور هو المستودع الوحيد لاختبارات المـاضى السحيق برمتها ، سـواء أكانت هـذه الاختبارات لاتزال تقبع فى هذا العقل كذكريات محددة واضـحة يمكن

استرجاعها بتنويم أو بغير تنويم ، أم كانت قد انمحت بمرور الأيام فلم يبق منها غير درجة التطور التى وصلت اليها الذات •

وكل هذا سنعالجه فيما بعد ، وانما يكفى أن نبادر من الآن الى القول بأن من الأوليات التى يقوم عليها علم النفس التقليدى ان كل ما ينزلق الى العقل الباطن من معلومات ينزلق اليه عن طريق المرور بالعقل الواعى أولا • فاذا كانت الحياة الراهنة للمنوم مغناطيسيا تعجز — منذ الولادة حتى لحظة التنويم — عن اعطاء تعليل مقبول عن انزلاق هذه المعلومات الى عقله الباطن فلابد اذا من البحث عن مصدر آخر لتعليل وصول هذه المعلومات اليه •

وهذا المصدر يكون اذا هو التجسدات السابقة التى كان عقل الوسيط فيها — غير الواعى الآن — واعيا لما يدور حوله من اختبارات وأحداث حلوة ومرة • وفى الأثير يحدث اندماج بين العقلين كما قلت أكثر من مرة(١) • وعند العودة للتجسد يتجسد جانب أو شطر محدود فحسب من وعى الانسان فيصبح هذا الجانب وحده واعيا وما عداه غير واع ، وهكذا الى أن تتكامل الشخصية عن طريق التجسدات المتكررة ، ببطء شديد وبعد أحقاب بعيدة •

وعندما نعالج — فى موضع لاحق — صلة العودة للتجسد باللاشعور ، وبالتحليل النفسى كوسيلة لعلاج بعض الآلام الدفينة فى اللاشعور من تجسدات سابقة ، سيتضح تماما أن تعليل نتائج هذه الاختبارات بالعودة للتجسد هو التعليل الوحيد الذى أصبح يصمد للنقد الآن فى الدوائر المعنية بعلم النفس فى مفهومه المعاصر ، بعد أن تخلى نهائيا عن الارتباط بالفلسفة المادية للوجود •

صلة النتائج بظاهرة النسيان

وفى الواقع ان أداء عقل الانسان — الشعورى أو اللاشعورى —

---

(١) وقد يكون الاندماج تاما أو جزئيا ، ومتوقفا على اعتبارات عديدة •

لوظيفة التذكر أمر بالغ التعقيد ، ومايزال الغموض يحف به من كل جانب • ولا غرابة فى ذلك لأن التذكر من وظائف العقل ، كما أن العقل من وظائف الروح ، وكل ما يتصل بوظائف العقل والروح يحف به الغموض الشديد من كل جانب ويعصى تماما على كل محاولة سهلة أو سطحية للارتياد •

لكن الأمر المؤكد هنا هو أن نسيان أحداث الحيوات السابقة بمعرفة العقل الشعورى لا يصح أن ينهض حجة ضد صحة مبدأ العودة للتجسد فى ذاته ، لاعتبارات كثيرة • وقد تناول هذه الاعتبارات عدد من الباحثين فى هذا الموضوع منهم جابريل ديلان Gabriel Delanne (١) فى تقرير له قدمه الى « مؤتمر دولى للعلوم الروحية » عقد بباريس فى سنة ١٩٠٠ •

ومما ورد فى هذا التقرير أنه حتى فى حياتنا العادية نجد أن الأحلام لا تترك فى المعتاد أثرا يذكر فى الذاكرة عند اليقظة • وأن ثمة فترات من وجودنا الراهن تنمحى تماما من الذاكرة الى المدى الذى يصبح معه من المحال استعادتها عن طريق الارادة •

ومع ذلك فان هذه الذكريات لا تكون قد ضاعت بل ان بالمقدور العثور عليها بالكامل فى مرحلة من مراحل التنويم المغناطيسى ، وهى المرحلة المسماة : اليقظة النومية الحركية Sommeil Somnambulique (١) عندما يوضع الجسد الأثيرى فى نفس الظروف الديناميكية التى كان يحيا فيها صاحبها عند حدوث هذه الأحداث •

وقد أثبت صحة ذلك بما يخرجه عن كل منازعة السادة بيتر Pitre ومدرسته ، والأطباء بورى Bourru وبيرو Burot وبير جانيه Pierre Janet ولا يوجد منوم مغناطيسى لا يعرف أن النسيان عند اليقظة يمثل خصلة من أكثر الخصال استقرارا بعد الحركة النومية المغناطيسية •

---

(١) لنا عودة لشرح تتابع حالات غيبوبة التنويم المغناطيسى فى الباب المقبل •

وعند ايقاع وسيط التنويم المغناطيسى مرة آخرى فى الغيبوبة ، فى مرحلتها الثانية يستعيد التعرف على ما سبق أن قاله وفعله فى غيبوباته المغناطيسية الأخرى • ولذا فانه توجد مجموعات من الذاكرات المتعاصرة عند نفس الشخص ، وكل ذاكرة منها تجهل وجود الأخرى تماما •

وازاء هذه الاعتبارات يكون من السهل أن نتفهم أنه اذا كان افتراض وجود حيوات متتابعة صحيحا ، فان تذكر أحداث تجسد سابق يكون فى المعتاد محالا ، لأن الحركة الاهتزازية للغلاف الأثيرى مجتمعا مع المادة (الجسدية) فى الحياة الراهنة يختلف بشكل محسوس عما كان عليه فى حياة سابقة ، مما يتعذر معه الوصول الى الحدود الدنيا للكثافة وللمدة اللازمة لاستعادة هذه الذكريات •

وهذا المستودع الهائل للذخائر الروحية يكون الأساس الدفين لفرديتنا العقلية والأدبية ، والنواة الأصلية للذكاء • وهى تتفاوت فى ثرائها ، وعليها ينقش الانسان نقوشا جديدة (عن طريق اختباراته فى حياته الراهنة) • ولكن كل مكاسب الانسان من ماضيه لا يمكن أن تعبر عن نفسها الا عن طريق تلك الميول الأولية التى يجلبها معه بالولادة ، والتى يطلق عليها الانسان وصف الطبع Caractère •

ومن ثم فان اللاشعور التام ينبغى أن يعتبر هو القاعدة ، وهذا بالضبط ما يجرى بالفعل ، لكن لا توجد قاعدة بدون استثناءات • فكما أنه قد شوهد بعض الأشخاص محتفظا بذاكرته عند اليقظة ، كذلك يوجد أيضا عند أشخاص نادرين تذكر بأنه سبق لهم العيش فيما مضى • فهذا التيقظ لانفعالات الماضى يجرى عندهم بطبيعة الحال •

وهنا رغم رغبتى فى أن أكون متحفظا على قدر الامكان — ليس بمقدورى أن أتجاهل تلك الحالات الكثيرة نسبيا ، التى وصلت الى

علمى ، والتى يبدو أنها تساند بقوة مبدأ العودة للتجسد[١] • والاشارة هنـا الى ظواهر « رؤى من قبل » و « سمع من قبل » التى تجرى فى نمام اليقظة والتى سنقف عندها وقفة كافية فى الصفحات المقبلة •

ولكن قبل الانتقال الى هذه الصفحات يلزمنى أن أشير هنا الى أن أهم ما فى تقرير ديلان الى هذا المؤتمر هو هـذه العبارة وهى « وجود مجموعات من الذاكرات المعاصرة عند نفس الشخص ، وكل ذاكرة منها تجهل وجود الأخرى تماما » •

وأضيف الى ذلك أن كل ذاكرة منها مستقلة أيضا عن الأخرى وغير مندمجة فيها ، بل ان هذه الذاكرات تتجاور فى لاشـعور الانسـان مثل تجاور ورقات البصلة الواحدة أو الخرشوفة الواحدة بدون اندماج تام لأية واحدة منها فى الأخرى • وهذا من أهم ما سجله الباحثون الروحيون فى اطار التنويم المغناطيسى ، وخارج هذا الاطار •

وهذه الحقيقة تعزز تماما « النظرية المركبة عن العقل » التى اقتنع بها عدد من كبار الباحثين فى أسرار التكوين الروحى للانسـان ، وعلى رأسهم تشارلى دانبار بروض Ch. Dunbar Broad الأستاذ بكامبريدج وهو أبرز فيلسوف وعالم بريطانى فى النفس والروح فى القرن الحالى •

ولى عند آراء بروض وقفة كافية فى مبحث على حدة من البـاب التاسع بمناسبة الكلام فى بعض أسرار اللاشـعور بحسب نظرية العودة للتجسد • وانما أكتفى بهذا القدر الآن قبل الانتقال الى تحقيقات أيان ستفنسون Ian Stevenson — رئيس قسم التحليل النفسى بجـامعة فيرجينيا — فى ظاهرتى « رؤى من قبل وسمع من قبل » •

---

(١) عن بابيس • المرجع السابق ص ٢٢٣ — ٢٢٦ •

المبحث الثانى

عن تحقيقات ستفنسون
فى ظاهرتى « رؤى وســمع من قبل »

اسلوب مستحدث للتحقيق

بالاضافة الى أسلوب « ارجاع الذاكرة الى الوراء régression de mémoire فى غيبوبة التنويم المغنــاطيسى الذى اكتشــفه الرائد العظيم دى روشا de Rochas ، والذى تبعه فيه عــدد من العلماء فى أنحاء متفرقة من العــالم ، وبوجه خاص فى فرنســا وانجلترا وأمريكا والسويد ، ظهر أسلوب جديد فى بحث موضوع العودة للتجسد ، وهو أسلوب تقصى وقائع « رؤى من قبل » Seen before أو already seeen و « سمع من قبل » heard before أو Already heard • وذلك عند حدوثها تلقائيا فى أى مكان فى العــالم مع اخضــاع هذه الظواهر وتلك الأســلوب التحليل النفسى المــألوف لمحــاولة تأصيلهــا تأصيلا صحيحــا •

وهــذا الأسلوب الثانى أكثر مشــقة بكثير من الأساليب الأخرى ويتطلب نفقات باهظة للتنقل المتواصل بين أرجاء هذه الدنيا الواسعة • وهذه الظواهر ذاتها ليست جديدة ، لأن هنــاك اشارات عديدة عنهــا فى عدة كتب بين قديمة وحديثة •

لكن الجديد فى الموضوع هو توسيع رقعــة البحث والتحقيق ، بحيث يجرى استجواب دقيق لصاحب الظــاهرة ، ولجميع الأشــخاص المحيطين به ، وأيضــا لجميع الأشــخاص الذين ترد أسماؤهم فى هــذا الاستجواب الذى قد يمتد بالنسبة للحالة الواحدة الى خمسين أو الى مائة صفحة أو أكثر بحسب حجم الوقائع التى قد ترد على لسان الشخص صاحب الظاهرة • وهو عادة طفل أو طفلة ، أو فتى أو فتاة قــد لا يبلغ أيهما العاشرة من عمره ، وغالبا أقل من ذلك ، ثم تتلاشى هذه الذكريات تدريجيا مع تقدم العمر •

وهذا الأسلوب الأخير — اذا رؤى القيام به على الوجه المطلوب من ناحية توسيع رقعة البحث على قدر الامكان — يتعذر أن يقوم به عالم منفرد مهما كانت امكانياته المادية ، لذا تكفلت جامعة فيرجينيا Virginia بولاية شارلوتسفيل Charlotsville بالولايات المتحدة الأمريكية بالانفاق عليه • وندبت له علما من أعلام التحليل النفسى المعاصرين وهو أيان ستنفسون Ian Stevenson ، الأستاذ بجامعة فيرجينيا والذى أخذ يجوب أرجاء الدنيا الواسعة منذ سنين عديدة وذلك لعمل مسح علمى على نطاق واسع ولتجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة عن هذه الظواهر • وقد أوردنا بعضا منها — كمجرد نماذج — فى مؤلفنا « فى العودة للتجسد بين الاعتقاد والفلسفة والعلم »(١٩٧٦)• ونكتفى هنا بأهم النتائج التى خلص اليها •

ماذا عن النتائج ؟

وتكفى الاشارة هنا الى أن أيان ستفنسون وصل الى نتائج ايجابية عديدة وضح بعضها تفصيلا فى مؤلف له عنوانه « عشرون حالة ترشح للعودة للتجسد »(١) ، وقد تخيرها هذا العالم بحذر شديد من بين المئات من الحالات التى فحصها لأنه وجدها أجدر من غيرها بالتحليل العلمى ، وبعناء عرض وقائعها على القارىء •

ويقول ستفنسون انه يهمه أن يوجه نظر القارىء الى أن بعض الحالات التى حققها ينتمى الى بيئات لا تعرف شيئا عن العودة للتجسد ، وحدثت منها حالات عديدة فى الغرب فى أسر اما لم تسمع اطلاقا عن هذه العودة ، واما لا تعطى هذا الاعتقاد أى اعتبار ، بما فى ذلك بعض حالات فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا ، وانجلترا •

ففى هذه البلاد تجرى الثقافة فى مجرى الكراهية لعقيدة العودة للتجسد ، وكثير من الأشخاص لم يسمع حتى مجرد سماع عن هذه

(١) Twenty Cases Syggestive of Reincarnation. New York (1966).

العقيدة ، أو سمع عنها ولكنه اعتبرها خرافة حمقاء يؤمن بها القوم هناك في آسيا ••• ويقول انه واثق من أن كل أسرة من تلك الأسر التى تحدث فيها أطفالها عن ذكريات معينة عن حياة سابقة تلقت تلك الأقوال بدهشة ، بل بعدم تصديق •

كما حدثت حالات مماثلة فى الهند فى أسر اسلامية لا تؤمن بالعودة للتجسد ، بل وتنكر صحتها • وقد يعترض بعض الأشخاص قائلا انه توجد جيوب معزولة من الناس تميل الى الايمان بالعودة للتجسد حتى فى الغرب ، وهو أمر صحيح بلا ريب • أو قائلا ان ثمة أسر ما قد لا تؤمن بالعودة للتجسد ولكن يكون أفرادها مسئولين عن حديث أحد أطفالها عن حياة سابقة له ، بغير أن يتعمدوا ذلك •

ومثل هذه التأويلات تدفعنى الى توسيع مفهوم التأثيرات الثقافية الى ما وراء ، بل الى ما يناقض الوقائع التى وصلت اليها والتى حدثت خارج اطار الثقافات الموالية للعودة للتجسد ، ولا أعتقد أنه يتعين علينا أن نصوغ نظرياتنا لكى تلائم الاستثناءات ، بل أن نصوغها بحيث ندخل فيها تلك الحالات الاستثنائية أيضا •

واذا كان أحد الأشخاص بمقدوره أن يحوز بيانا يمكن تحقيقه عن حياة سابقة ، وهذا البيان ليس بمقدوره الحصول عليه عن طريق عادى ، بمقدار ما يمكننا القول ، واذا كان هذا الشخص يقدم بيانه بوصف أنه اتصل به كذكرى من حياة سابقة ، فانه فى الواقع من الجائز فعلا أن يكون الأمر كذلك • فاذا كانت العودة للميلاد تحدث فعلا فان علينا أن نتوقع ذكر بيانات عن حياة سابقة على الحاضر كتذكارات عن الماضى ، وعلينا أن نستغرب اذا لم يكن الأمر كذلك •

وعلينا فى الواقع أن نتساءل — اذا كان ثمة طفل يزعم وجود هذا البيان عن شخصية سابقة له — عما اذا كان هذا البيان ينتمى الى شخص آخر غير متجسد (أى الى روح) ؟ ولكن اذا كان هناك دليل

آخر يدعونا الى الاعتقاد بأنه يصف لنا شخصيته الخاصة التى لاتزال مسمرة معه فلا مندوحة من الاعتقاد بصحة ذلك .

وهذا الافتراض يتحقق بشكل نموذجى عندما يحمل المولود حديثا علامات معينة ذات خصائص محددة عالية مشتركة بين شخصين (أحدهما سابق وثانيهما لاحق) كما حدث فى حالة كورليس شوتكين Corlis Chotkin .ولدى حالات عديدة تحمل علامات حقيقية ، وقواعد صحيحة للاقتناع بأن الطفل ما كان بمقدوره أن يحصل بالسبل العادية على البيانات التى قدمها عن شخصيته السابقة ...

ثم يضيف ستفنسون بعد تحليل واف لهذه الحالات قائلا : ولقد عثرت على بينة قليلة على أن بعض أولئك يحوز قدرة خاصة على الادراك خارج الحواس بصرف النظر عن دائرة الالمام بشخصيته السابقة . وكانت البينة عبارة عن معلومات قدمتها أسرهم مفادها أن أولئك الأطفال قد تنبأوا عن أحداث وقعت لأقارب أو لأصدقاء للأسرة ، قبل وقوعها ، أو كانوا بعيدين عنهم . وكان ذلك فى أسر جناناتيليكا Gnantilleka ، وسوكلا Sukla ، ومارتا Marta ولكن هناك أسر أخرى نفت حدوث أمور من هذا القبيل(١) .

* * *

وقوة تحديد شخصية الأشخاص الذين يدعون تذكر حياة سابقة لهم بالمقارنة بشخصيتهم الحاضرة تتفاوت . فبعض أولئك الأطفال يستخدم صيغة الماضى لوصف الحياة السابقة فيقولون مثلا : « كنت أحمل اسم كذا وكذا » . لكنهم يتقبلون أيضا أسماءهم الحاضرة . أما البعض الآخر فهو يناضل ضد الشخصية الحاضرة ويقول مثلا : « لا تنادونى يا فريد Fred لأن اسمى جون . وأنتم لستم أقاربى ، فان أبى وأمى يعيشان بعيدا عن هنا » .

---

(١) عن ستفنسون : المرجع السابق ص ٣١٢ - ٣١٦ .

بل ان ثمة أطفالا يحوزون تحديدا قويا عن شخصية سابقة يمكنهم أن يميزوا أحداث الحياة السابقة بوصفها أحداثا ماضية . فيقول أحدهم مثلا : « لقد حدث لى حادث كهذا عندما كنت كبيرا » . وهم فى المعتاد لا يعيشون المـاضى من جديد كما لو كا يحدث الآن . وهذ ايحدث أيضا فى أحلام كثيرة اذا حدثت ايحاءات بوجود حياة سابقة .

وفى تلك الأحلام بالذات يشـعر الانسان بأن له فى الحلم شخصية مغايرة كانت تعيش فى عصر ماض ، وفى مكان مختلف . وطيلة الحلم ، وربما لمدة أطول من الحلم قليلا ، يشعر بنفســه كما لو كان شـخصية أخرى . وبعضهم ينظر عنـد اليقظة فى مرآة حتى يتأكد أنه مثلا يملك لحية أو لا يملكها .

وتحدث أمور مماثلة لهذه فى حالات التنويم المغناطيسى عندما تؤدى الى ارجاع الذاكرة الى حيـاة سابقة . كما تحدث آيضا كثيرا فى بعض الحالات التى فيها يتذكر انسان وهو فى يقظته حادثة قديمة لكنه يشعر كما لو كان لايزال يحيا فى مجرى الحادثة كما حدثت فى أصلها ، ويتصرف كما لو كانت هذه الحادثة لاتزال تجرى فى الحاضر(١) .

* * *

ثم يتعرض ستفنسون لموضـوع آخر دقيق ، وهو الى أى مدى يمكن للوالدين أن يفرضا على طفلهما سلوكا معينا ، خصوصا فيما يتعلق بتذكر حياة سابقة له ؟ وبعبارة أخرى الى أى مدى يمكن للوالدين أن يؤثرا فى شخصية طفلهما بما يدفعه مثلا الى القول بأنه كان فى حياة سابقة هذا الشخص أو ذاك ؟ !

ويقول ان هذا النوع من الأحداث مر به الطفل الهنـدى رانجيت Ranjitth الذى كان يعتقد اعتقـادا جازما أنه كان فى حياته السـابقة

---

(٢) عن المرجع السابق ٣٢٠ — ٣٢١ .

شخصا يعيش فى انجلترا • والموضوع ليس موضـوع تشابه فى الملامح بل موضـوع احساس منه بأنه يمثل دوام حيـاة شخص آخر • وكان رانجيت يحس بذلك احساسا متدفقا الى حد أنه كان أحيانا يستخدم صيغة الحاضر للحديث عن الحياة السابقة فيقول : « ان لى أبا وأما فى انجلترا » أو أن أمى تدعونى « يا عزيزى ، أو يا حبيب قلبى » •

وللاجابة على التساؤل السابق فان بمقـدورى أن أقول اننى فيما خلا حالات العودة للتجسد التى من هـذا القبيل ، فاننى لم أسمع أبدا عن طفل يضع نفسه فى شخصية أخرى يزعم طويلا أنها تمثل شخصيته الخاصة كما يفعل أولئك الأطفال الذين يزعمون أنهم قد عاشوا من قبل •

وقد يحدث هذا عند البالغين العصابيين لكن هذا المرض نادر جدا عند الأطفال • وتشخيص الطفل نفسه تشخيصا زائفا بأنه شخص آخر أكثر ندرة • وقد ناقشت هذا الافتراض مع الاخصائيين فى علم التحليل النفسى للأطفال ، ولم يذكر لى أى واحد أنه سـمع أبدا عن حالة يزعم فيها طفل ما أنه يمثل شخصا آخر • ولم أكتشف فى كل اطلاعى فى « علم نفس الأطفال » حالة واحـدة من هذا القبيل فيما عدا حالة لعب الأطفال مع الآخرين أو مع الحيوانات •

ثم يقول ان بعض أولئك الأطفال مثل براكاش ، وسكلا ، وبارمود ، وعماد كان يريد مغادرة والديه وقريته والذهاب الى أسرته الحقيقية فى قرية أخرى ، وأن هذا السلوك هو آخر ما يفكر فيه الآباء ، أو آخـر ما يمكن أن يعزى الى ايحاءاتهم أو الى تأثيراتهم فى أطفالهم(١) •

* * *

وينبغى أن نلاحظ عند تقدير هذه الآراء الخطيرة التى وصل اليها ستفنسون أنه قبل كل شىء آخر عالم نفسى ، وأنه يعمل حاليا أسـتاذا للتحليل النفسى بجـامعة فيرجينيـا ، وهـو يتكلم فى ميدان من صميم

---

(١) عن المرجع السابق ص ٣٣٣ - ٣٣٤ ، ٣٣٦ •

اختصاصـه العلمى ، الذى يؤهله للحـديث فيـه عن دراية وخبرة كافيتين .

وليست تحقيقات ستفنسون هى الأولى أو الأخيرة فى ظاهرة رؤى أو سمع من قبل بل ان ثمـة تحقيقات مماثلة قام بها بحاث لهم مكانتهم فى عدة بلاد ، وانتهوا الى نتائج ايجابية منذ أوائل القرن الحـالى حتى الآن كما سبق أن قلت .

ولكن تحقيقات ستفنسون ـ فيما أعلم ـ هى أدق التحقيقات التى جرت فى هذا المحيط ، وأغناها بالتفصيلات ، وأشدها تحفظا ، وأكثرها ارتباطا بمنهج التحليل الناقد . وقد اقتضت منه مشقة ضخمة فى التنقل المستمر ـ لحساب جامعة فيرجينيا ـ بين أرجاء العالم المختلفة ، ناهيك بمشقة تجميع التفصيلات ، وعمل الجـداول الكثيرة للتمكن من تأصيل هـذه الأحداث وتحليلها . وبسبب هـذه الاعتبارات مجتمعة أصبحت مؤلفاته تمثل مستوى رفيعا جدا ، بحيث يتعذر أن يتجاوب معهـا سوى صفوة العلماء والمثقفين . فهى ليست بالمرة للقارىء العادى ، أو لصاحب الثقافة الجارية ، وهذا من مزاياها ، لا من عيوبها .

وهو يقرر أن هذه الظواهر تحـدث فى كل مكان ، لكنها تتكرر بوجه خاص فى البيئات التى تؤمن بعقيدة العودة للتجسـد حيث تكون الأذهان متنبهة اليها ، وبالتالى مدفوعة الى ملاحظتها ، والى تتبع حدوثها على نحو أو آخر .

وهـذه الأحداث هامة فى الكشف عن طبيعة الانسان ، وعن طبيعة صلته بالكون العجيب الذى يعيش فيه . وهى لم تكن تحظى بأية عناية من علم النفس القديم ، لكنها فى الباراسيكولوجى تحظى بأجل عنـاية من زاوية تحليلها العلمى الصحيح . ومن شأن المثابرة فى تتبعها أن تلقى الكثير من الأضواء على بعض ألغاز النفس ، أو ان شئت الروح الانسانية ، التى تزال تحير الألبـاب ، فى كل مكان ، وتتكشف كل يوم عن أبعـاد جديدة من العمق والتركيب لم تكن تخطر على بال أى عالم .

ملحوظات عنها

١ ـ وهنا ملحوظة مبدئية عن نتائج الحالات التى عرضها أيان ستفنسون وغيره وهى أن العودة للتجسد لم تكن فورية ، أى بمجرد الوفاة • وذلك يدحض بعض الاعتقادات التى تذهب هذا المذهب والتى لها أتباعها فى الشرق الأقصى • ففى جميع الحالات اتضح مضى فترة تراوحت فى مداها قضتها الروح فى عالم الغيب محتفظة بشخصيتها وبذاكرتها ـ ولو على وجه من الوجوه ـ وهذه الفترة قد تمتد الى سنين وربما الى قرون وعلى ذلك أجمعت رسائل الأرواح الراقية ، وبحوث الباحثين الجادين ، ومع مراعاة أن الزمن ، فى الطبيعة الأزلية للروح كلمة جوفاء لا معنى لها ولا سبيل لقياسها •

وبطبيعة الحال كلما كانت العودة للحياة الأرضية قريبة العهد بالتجسد السابق كلما كانت الذكريات عن ذلك التجسد أغزر وأوضح وكلما كان التحقق من صحتها أيسر منالا ، لأن معالم المكان والزمان تكون لاتزال موجودة بما فى ذلك بقاء بعض الأشخاص الذين يكونون قد عاصروا التجسدين السابق واللاحق •

وكلما كانت هذه العودة الى الحياة الأرضية بعيدة العهد بالتجسد السابق كلما كان التحقق من صحة التجسد السابق صعب المنال ، بل ربما صار متعذرا تماما بالنظر الى تراجع الذكريات أو اختفائها وبالنظر الى زوال جميع معالم المكان والزمان • ولذا نجد أن جميع الحالات التى نجح العلامة ايان ستفنسون فى متابعتها وتحقيقها قريبة العهد جدا اذ لم يمض على غياب صاحب الحالة فى عالم الغيب سوى فترة تتراوح بين سنة واحدة وعشر سنوات فقط • ومجرد احتمال صحة التجسد القريب تحمل على الاعتقاد بامكان صحة المبدأ من الناحية العلمية ـ الفلسفية ، ولو تعذر التحقق القاطع لطول العهد بالماضى السحيق للانسان (١) •

---

(١) ولنا وقفة عند هذا الموضوع فى الفصل الأول من الباب العاشر .

٢ ـ وثمـة ملحوظة ثانية : وهى أن العودة للتجسد كانت دائما فى صورة آدمية ، وربما قريبة ـ ولو على وجه ما ـ من صورتها السابقة مباشرة • فلم يثبت فى أية حالة من الحالات أن العودة يمكن أن تكون فى صورة حيوان ، أو طائر ، أو شجرة ••• وغير ذلك على نحو ما تذهب اليه بعض الأساطير خصوصا فى الشرق الأقصى •

ولذا ـ كما سبق أن بينت ـ فان مبدأ « العودة للتجسـد » أو « الميلاد من جـديد » ينبغى أن يعتبر مبدأ متميزا تماما عن مذاهب « التناسخ » أو « التقمص » أو نحوهما ـ كما سبق أن قلت ـ وبالتالى عما داخل هذه المذاهب الأخيرة من خرافات كثيرة مستمدة ـ ولا ريب ـ من الغلو العقيدى ، هذا الغلو الذى أساء الى العقـائد والمذاهب فى كل مكان ، فنأى بهذه الاعتقادات فى كثير من الحالات عن النصوص الصريحة وعن المفاهيم الصحيحة للنصوص ، وما يرتبط بها من مدارس منوعة •

ووصف الغلو العقيدى يصدق على من أنكروا عالم الروح بسبب ايمانهم « بالتقمص الفورى » ، كما يصدق بنفس المقدار على من أنكروا « العودة للتجسد » رغم ايمانهم بعالم الروح ، ورغم النصوص الصريحة الحاسمة فى معنى هذه « العودة للتجسد أو للميلاد » (١) • وذلك ربما بسبب اصرارهم على الخلود الفورى فى عالم الروح ، وربما أيضا على الاستئثار بمعاملة خاصة لا يصح أن يشـاركهم فيهـا غيرهم من أرباب العقائد الأخرى •

وهكذا يجنى الغلو العقيدى دائما على كل فهم نقى للايمان ولعلاقة الانسان بالكون وبأخيه الانسان ، بل كل محاولة تبذل للوصـول الى هذا الفهم الصحيح ، مهما كان أقرب الى الحق والى الاعتدال ، وأوسع أفقا من كل ما عداه من مفاهيم الاغلاق والتزمت ، بل خصوصا اذا توافر له ما ذكرناه من خصائص •••

---

(١) راجع ما سبق عن هذا الموضوع فى صفحة ٨٧٧ ـ ٨٩٩ .

فالاعتدال هو الوزر الذى لا يعادله وزر آخر فى مفاهيم الاغلاق والتزمت ، وما أخطرها على العقل ، وعلى العلم ، وعلى تطور الروح فى طريق الصفاء والنقاء ، والفهم الأمين لحقائق الوجود •

ولا تقف الآن قوة فى الوجود فى وجه هذا الغلو العقيدى وما يرتبط به من ضيق فى الأفق ، وتزمت فى الحرف ، قدر قوة هذا البحث المحايد فى مصير الروح الانسانية • وهذا سبب واحـد من أسباب كثيرة تعلل الحرب العوان التى يلاقيها هذا البحث المحايد من جهات متعددة تناضل بكل جوارحها دفاعا عن الجهالة والجمود والاغلاق •

٣ — وثمـة ملحوظة ثالثة عن جميع هذه الحالات وهى أن النفس العائدة للتجسد — مهما كانت عودتها قريبة — لا يمكن أن تتذكر أبدا كل ماضيها ، انها تتذكر فقط لمحات أو ومضات سريعة من هذا المـاضى تكون قد ربضت قابعة فى عقلها الباطن وطفت الى الشعور عندما أتيحت لها فرصة الطفو على السطح من جديد •

ولذا فان امتحان هذه الروح العائدة للتجسد فى هذا المـاضى أمر لا يجدى شيئا فى اثبات شخصيتها • بل يكفى فى هذا الشأن قدرتها على تذكر بعض الأحداث أو بعض الأسماء التى سبقت لها رؤيتها ، أو سماعها والتحقق من صحة هذه وتلك للتعرف على مدى صحة الحالة •

وهذا أمر بديهى اذا روعى الاختبار الحيوى الهام الذى تعرضت له الروح مرتين : مرة عند انفصالها عن جسدها المـادى ، وأخرى عند اتصالها بجسد مادى جـديد فى رحم الأم ، وأثر ذلك كله فى ذاكرتهـا وفى وعيها •

وهذا هو نفس الوضع الذى يقابله كثيرا الباحثون الروحيون عند محاولة الاتصال بأى روح وهى خارج الجسـد ، ثم عنـد رغبة تحقيق

شخصيتها عن طريق اختبارها فى ذكرياتها الأرضية . فهـذا الاختبار غير منتج فى المعتاد ، اذ ينبغى أن تترك للروح أن تعبر عن نفسها وأن تروى ذكرياتها على النحو الذى يتفق مع سليقتها والذى يتراءى لهـا ، والذى تقدر عليه هى بحسب حالتها الجديدة خصوصا بعد تغير كلى لظروفها ، وحـدوث اندماج جزئى أو كلى بين الجانبين الواعى وغير الواعى للعقل أو بين الشعور واللاشعور ، وأثر ذلك فى الذاكرة أثر عميق ، وخطير ، ومتعدد الجوانب[1] .

ومن الملاحظ بوجه عام أن تذكر الروح العائدة للتجسد أحـداث حياتهـا المـاضية يكون باهتا ضعيفا ، وأضعف بكثير من تذكر الروح العائدة للتجسد عن طريق التنويم المغناطيسى الفنى لنفس هذه الأحداث . لأنه فى هذه الحالة الأخيرة يطفو العقل الباطن للروح الى مستوى الذاكرة الواعية لدرجة أن الروح قد تتذكر عدة حيوات لا حياة واحدة فحسب ، وهو مالا يحدث الا عند التنويم المغناطيسى فيما بعد اذا توافرت اعتبارات معينـة .

من حديثين له مع صحيفة بريطانية وأخرى لبنانية

ويجمل بى أن أشير فى هذا المقام الى حديث صحفى جرى بين أيان ستفنسون وبين محـرر جريدة الأنبـاء الروحيـة Psychic News البريطانية عنـد زيارة ستفنسون لبريطانيـا فى سنة ١٩٧٠ ، وكان مما ورد فيـه : ـــ

س (من المحـرر) : معظم ما قرأته عنك أو ما قرأته لك يبحث فى العودة للتجسد ، فهل هذا الموضوع هو الذى اخترته لدراساتك والذى استغرق أكثر وقتك فى الباراسيكولوجى ؟

جـ : قد يكون ذلك . وقد يكون على وجه التحديد شاغلا ٧٥٪

---

(١) راجع ما ورد فى الجزء الأول من « مفصل الانسان روح لا جسد » ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

من وقتى • اننى أهتم أيضا بالوساطة ، ولذلك بدأنا فى اعـداد منهاج لدراسة الوسطاء فى جامعة فيرجينيا • أن اهتمامى شديد بسلسلة الحالات التلقائية كلها : الأرواح ، والأحلام الكاشـفة وغير ذلك ، وانى أشارك أيضا من وقت الى آخر فى القيام بتجارب أخرى أرى أنها لا تبعدنى عن تركيز اهتمامى حول الموضوع الأساسى •

س : ألا يصلح التلباثى (انتقال الأفكار) لتحليل هذه الظواهر ؟

ج : اننى لا أوافق على هذا التفسير القاصر وغير المناسب لجميع الاتصـالات الوساطيـة • ولكنه يعتبر دفعـة الى الأمام يقوم بهـا المتشككون • ويمكن أن يحصل الانسان على حالات من العودة للتجسد فيها بالأقل سـمات معينة لا يمكن تفسـيرها على أسـاس التلباثى بين الأحيـــاء •

وهنـاك نموذجان من الحالات • افرض أن رجلا قد أصيب بطعنة سكين قاتلة تركت علامة واضحة على جسمه ، فان طفلا قد يولد فيما بعد بعيدا عن مكان الحـادث بخمسين ميلا أو مائة ميلا أو أكثر من ذلك ، وفى جسمه علامات مختلفة تشبه « الوحمة » متطابقة ومماثلة فى المظهر ونفس الموضع الذى أصيب فيه الرجل المتوفى ولم يسمع أهله شيئا عنها !

وأكثر من ذلك فان هذا الطفل قد يظهر معرفة خارقة يتعذر تعليلها عن الرجل المتوفى • أعتقد أن هذه بينة قوية على أن جسم الرجل المصاب قام بطريقة ما كنموذج (موديل) على جسم الطفل ، ولا يمكن أن يحدث هذا عن طريق التلباثى •••

س : بنيت قـدرا كبيرا من الأهميـة على المظـاهر الخـارجية الفيزيقية كعلامات •

ج : نعم أعتقد أن هذه السـمات مؤثرة جـدا فى حالات الولادة

الجديدة . لقد درست نحو مائة حالة من هذه الحالات وعندى كثير منها مزود بالصور ، وبعضها لا يتضمن علامات على الجلد فحسب ، ولكن تظهر عليه تشوهات وعاهات جسدية فعلية . وهناك حالات عديدة أعدها من الحالات القوية على طول الخط وسأضمها الى كتابى القادم ...

* * *

(ومن هذا القبيل روى ستفنسون لمحررة صحيفة « الحوادث » اللبنانية واقعة الصبى طليع سويد « فقد شاهدت بعينى أثر الرصاصة فى الخد الأيسر لهذا الصبى الذى لم يصب برصاصة فى حياته — كما علمت أن الشخص الذى تجسدته روحه وهو المرحوم سعيد أبو الحسن كان قد مات مقتولا برصاصة فى خده الأيسر وفى الموضع ذاته . وقد ازدادت دهشتى حين علمت من الدكتور سامى مكارم بصعوبات النطق التى يعانى منها طليع سويد ، والتى ترجع أسبابها الى الاصابة التى صرعت الجسد السابق لروحه) . ثم نستأنف تلخيص حديثه مع هذه الصحيفة اللبنانية فيما يلى : —

س : هل تسلم بالعودة للتجسد ؟ وهل تساعدك فى فهم أكثر من غيره للحياة .

ج : ان موقفى من هذه القضية هو أنى أعتقد أنها أحسن تفسير لعدد معين من الحالات التى لدينا فى الوقت الحاضر . وعلى كل حال ربما أغير رأيى فى هذا غدا ، اذا قدم لنا شخص ما تفسيرات أفضل .

وانى لا أظن أن أية حالة فردية ، أو كل الحالات جميعا تعطى البرهان الحاسم والنهائى ، ولكنها تبدو لى فرضيات مساعدة على العمل ومعقولة جدا ، ويمكن أن يعتمد عليها الانسان فى مباشرة تحقيقات أخرى . وان العودة للتجسد اذا حدثت فهى كما يبدو لى تجعل للحياة معنى وطعما ، ويجد فيها المضطهدون أملهم .. اننى أميل الى الاعتقاد بأن العودة للتجسد قائمة بعملها فعلا ...

نعم ان العودة للتجسد تحدث فى كل مكان ، وأنا الآن أحضر كتابا آخر عن العودة للتجسد فى أوروبا والولايات المتحدة ، وقد درست فيه ٣٠ حالة عودة تجسد أوروبية ، كما درست بعض حالات العودة للتجسد فى ألمانيا ، والولايات المتحدة ، واستراليا .

س : حينما نقول كلمة « عودة للتجسد » هل تفهمها أنت بمفهومها التقليدى ؟ وهل يمكن أن يكون التجسد هو اللاشعور المتوارث جيلا بعد جيل ؟

ج : لا يوجد شىء اسمه المفهوم التقليدى . فالمفهوم يختلف بين قوم وقوم ، ولكن روح الفكرة تظل واحدة . وثمة علاقة بين شكل الايمان وشكل العودة للتجسد . مثلا فى لبنان ، وهو أكثر بلدان العالم كثافة من حيث حالات العودة للتجسد ، لا توجد حالات تغير جنس (أى أن الروح تتجسد أنثى بعد أن كانت فى جسد سابق ذكرا ، أو بالعكس) أما عند الهندوس فاننا نجد كثيرا من حالات تغير الجنس فى العودة للتجسد .

أما عن « اللاشعور المتوارث » فانه يفسر بعض حالات العودة للتجسد لا كلها (تذكرت هنا حكاية عن صبى انجليزى ولد يتحدث اليابانية ، ويحمل عادات يابانية منها أكل السمك نيئا ، وهو آمر يشمئز منه الانجليزى العادى . وهذه الحادثة لا يمكن تفسيرها باللاشعور المتوارث ، والعودة للتجسد وحدها تفسرها) .

س : هل انت وحدك فى أمريكا مهتم بهذا الحقل ، أم أن هنالك أساتذة جامعيون سواك ؟

ج : فى أمريكا أعرف حوالى اثنى عشر أستاذا فى الجامعات متفرغين لحقل الباراسيكولوجى ... بينهم ثلاثة مهتمون بقضايا الروح ، ولى زميل يدرس رؤى المحتضرين ، أى لحظة انفصال الروح عن الجسد

المشحونة بطاقات عجيبة من الرؤيا ويقظة ما بعد الحواس ، والطرح الروحى[١] ، وهناك زملاء لى استطاعوا تصوير أفكار شخص بواسطة أجهزة فى غاية الحساسية ...[٢] .

حالتان من البرازيل

وهاتان حالتان عن ظاهرة « رؤى من قبل » قادمتان من البرازيل ، حققهما هناك باحث معروف يدعى جى بلايفير Guy Playfair وقد أوردهما فى كتاب له عنوانه « قوة غير المنظور » [٣] .

وأولهما محصلها أن طفلة ولدت بمدينة ساو باولو Sao Paulo فى ٢٠ مارس سنة ١٩٦٣ . ومنذ كان عمرها شهرا واحدا بدا منها خوف غير مفهوم من ركوب الطائرة . وعندما بلغت الثانية بدا أنها تفهم الايطالية ، وأخذت بالتدريج تنطق بعض كلمات بها ، مع أن أحدا من حولها لا يتحدث بها .

وفى الرابعة من عمرها شاهدت صورة لمبنى الكابيتول بروما على مفكرة ، ومن حوله بعض المبانى . ولم تكن هناك أية اشارة على الصورة الى طبيعة المبنى . وعندئذ صرخت الطفلة قائلة « هذا هو الكابيتول ، وهذا هو المنزل الذى عشت فيه ، وهذه هى المدرسة ، وهذه هى الصخور التى كنت أقفز عليها » .

ثم قالت لجدتها « عندما كنت هناك » ، عند الكابيتول حضر صبى ومعه قنبلة بيده (ووصفت قنبلة على شكل قلم حبر يبدو أنه عثر عليها فى خلال الحرب العالمية الثانية ، وكانت قد ألقيت على المدينة لكنها لم تنفجر) . وانفجرت القنبلة فعدوت باحثة عن ركن أختبىء فيه (ثم

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٣٧٦ ـ ٤٠٧ بشأن ظاهرة الطرح الروحى . ولنا عودة الى رؤى المحتضرين فى الباب التاسع .

(٢) عن د. عبد العزيز جادو . المرجع السابع السابق ص ١٨٥ ـ ١٦٤ .

(٣) Le Pouvoir de l'Invisible.

وضعت الطفلة يدها على صدرها للتعبير عن الخوف والألم)٠٠ثم صعدت بعد ذلك صعدت عاليا ٠٠٠ ثم حضرت الى هنا ٠٠٠ ولا آريد العودة الى الكابينتول ٠ والان ولدت هنا ٠ وهذه هى ماما التى آريدها » ٠

والواقعة الثانية محصلهـا أن طفلة ولدت فى ساو باولو فى سـنة ١٩٤٠ ، اسمها تينا Tina ٠ وتعلمت الفرنسية بلا عنـاء ، وكانت تحب الأطباق الفرنسية وتكره كل ما هو ألمـانى (مع أنها برازيلية) ٠ وعندما نضج عقلها قررت أنها تتذكر تماما اليوم الذى قتلت فيه فى حياتها السابقة عندما كانت فى الثلاثين من عمرها وتعيش فى فيشى فى فرنسا ٠ اذ طرق بابها شخص مجهول ولمـا فتحته رأت جنـديا يضع على رأسـه خوذة مستديرة ويرتدى بدلة خضراء غامقة ، ثم صـوب بندقية الى صـدرها وأصابها برصاصة فى قلبها ٠

وأغرب ما فى الموضوع أن تينا كانت لاتزال تحمل علامتين صغيرتين تشبهان « الخال » احداهما على الصدر من اليسار بالضبط فى موضـع دخول الرصاصة ، والأخرى فى الظهر بالضبط فى الموضع الذى خرجت منه الرصاصة ٠

* * *

وهاتان العلامتان فى نفس مواضع الاصابة أو الاصابات القـديمة فى الحياة السابقة ، لا يحدثان دائما ، ولكن أيان ستفنسون I. Stevenson أستاذ التحليل النفسى بجامعة فيرجينيا سجل حدوث علامات مماثلة لهما فى بعض حالات العودة للتجسد التى قام بتحقيقها ، عندما عهـد اليه أن يقوم بعمل مسح شامل لأكبر قدر ممكن من ادعاءات العودة للتجسـد فى أنحاء متفرقة من العالم على ما ذكرته آنفا ٠

ومن بين هذه الحالات التى تركت آثار « وحمات » ، أو خدوش ، أو بقع حمراء ٠٠٠٠ فى مواضع معينة من أجسام الأطفال فى أعمار مختلفة ما يتفق مع ذكريات أصحابها ، وما تلقوه من طعنة خنجر ، أو من الاصابة

برصاصة ، أو بعضة ثعبان ... مما كان سببا فى وفاتهم ، أى فى تحررهم من أجسادهم المـادية السابقة .

واجرى ستفنسون تحقيقاته فى هذا الشأن بعناية بالغة ، عالما أنه يخوض فى ميدان جديد من ميادين البحث العلمى . ولذا استعان بأساتذة التشريح كيما يساعدوه فى الارشاد عن هذه الحالات ، فعثر على ١٩حالة تبين منها أن العلامات الموجودة بجسم الطفل الذى لا يزال حيا تتفق مع موضع الاصابة الموجودة فى جسده الميت فى حياته السابقة .

كمـا فحص ثلاثمائة حالة لأشخاص بهـم علامات أو تشـويهات جثمانية ، قدم مائتان منهم معلومات محددة تماما عن مصادرها فى حيـاة سابقـة .

ويبدو أن قدرة بعض الأطفال على تذكر جانب من أحداث حياتهم الماضية تتلاشى تدريجيا فى المعتاد عند بلوغ السنة الثامنة من أعمارهم ، الا اذا كانت الوفاة قـد نجمت عن فعـل عنيف من نوع تلك الاصابات التى ذكرناها ، لأن عنف الصدمة يكون أعمق تأثيرا مما يجرى عنـد الموت الهـادىء .

وهذه العلامات وجدها ستفنسون واضحة بل صارخة الى حد أنه سجلها بالصور ، وربط بينها وبين ذكريات أصحابها ، واعتبرها بمثـابة الأدلة المـادية القاطعة على صحة هذه الذكريات ، والدليل المـادى هو دائمـا أقوى الأدلة ، لذا قال انه سيخصص لهـذا الموضوع كتابا على حـدة(١) .

ولهذا الموضوع بطبيعة الحال أهمية قصوى ليست بالنسبة لقضية العودة للتجسد فحسب ، بل أيضا لقضية تأثير ذاكرة الروح فى خصائص جسدها

---

(١) راجع Jean — Francis Crolard : Renaitre Après La Mort. Paris 1979 P. 22 — 26.

وما سبق فى صفحة ١٠٢١ - ١٠٢٢ .

الأثيرى كعنصر من عناصر وراثة الذات من نفسها ، ينبغى أن يضاف الى عنصر وراثة الذات بعض الخصائص العضوية والنفسية من آبائها وأجدادها وذلك بحسب قوانين الوراثة التى لا يزال أغلبها مجهولا من البيولوجيا المعاصرة ، ولنا الى هذا الموضوع عودة فى أكثر من موضع من الباب التاسع •

المبحث الثالث

طائفة من اختبارات هانز هولزر
فى ارجاع الذاكرة ورجوعها تلقائيا للوراء

ماذا عن هولزر ؟

من العلماء المعروفين فى أبحاث الظواهر الروحية عالم أمريكى معاصر من أصل نمساوى يدعى هانز هولزر Hans Holzer وكان فى مستهل حياته شغوفا بالدراسات الأثرية والتاريخية ، وحصل فيها على عدة مؤهلات من جامعتى فينا وكولومبيا •

ثم أقبل هولزر على البحث الروحى منذ عشرين عاما فأصبح من أشهر المؤلفين فى الباراسيكولوجى،حتى لقد ظهر أكثر من مائتى وخمسين مرة فى برامج الاذاعة والتليفزيون فى كل من الولايات المتحدة ، وبريطانيا، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، وسويسرا • وهو يحاضر حاليا فى الباراسيكولوجى فى عدة من الكليات والمعاهد المعنية هناك •

وظهرت له مؤلفات عديدة تتسم بالأصالة ، والحذر، والاحاطة • منها « **الادراك خارج الحواس وأنت** »(١) ، و « **هل التنبؤ حقيقة أم خرافة ؟** »(٢) و « أشباح نيويورك »(٣) ، و « صائد الشبح »(٤) ،

---

(١) E. S. P. and you.

(٢) Predictions — Fact or Fallacy.

(٣) Yankee Ghosts.

(٤) Ghost Hunter.

و « نجم فى المشرق » (١) ، و « المحقق الروحى » (٢) ، و « الأشباح الحية فى ايرلندا »(٣) ، و « التصوير الروحى : هل هو عتبة علم جديد ؟ » (٤) ، و « أشباح العصر الفيكتورى » (٥) ، و « لعنة أسرة هابسبورج » (٦) ، و « الحقيقة حول الادراك خارج الحواس (٧) » .

وقد عنى هولزر فى هذه السنوات الأخيرة بظاهرة العودة للتجسد عناية خاصة ، خصوصا من زاوية تحليل ظواهر الاحساس الغامض بأحداث الماضى الذى يحدث لدى بعض الأشخاص فى اليقظة ، ويسبب لهم أحيانا احساسا بالضيق أو بالقلق أو بالاكتئاب بدون صلة ظاهرة بظروف حياتهم الراهنة .

واستعان هولزر فى مواجهة هذه الحالات بمعلوماته فى التحليل النفسى العادى فى اليقظة ، مع تكملته بأسلوب ارجاع الذاكرة الى الوراء فى غيبوبة التنويم المغناطيسى لمحاولة استكشاف مدى صحة تلك الأحاسيس الغامضة بأحداث الماضى التى كثيرا ما تراود بعض الأشخاص فتسبب لهم متاعب نفسية شتى ...

وهذه الأحاسيس بأحداث الماضى تتفاوت كثيرا من انسان الى آخر بالنسبة لمدى وضوحها ، ومدى تأثيرها فى نفسية صاحبها ، ومدى امكان الوصول اليها عن طريق التنويم المغناطيسى الذى قد ينجح مرة ويفشل مرات .

وأثناء اختبارات هولزر توصل الى ثمانى حالات ناجحة من حالات تذكر الماضى بدقة فريدة فى غيبوبة التنويم المغناطيسى . وبعضها يتضمن

---

(١) Star In The East.

(٢) Psychic Investigator.

(٣) The Lively Ghosts of I reland.

(٤) Psychic Photography : Threshold of a New Science.

(٥) Victorian Ghosts.

(٦) The Habsburg Curse.

(٧) The Truth About E. S. P.

أكثر من تجسد واحد ، وكان التوصل اليها سببا فى اراحة المريض وانقاذه من أهوال الذكريات الأليمة التى مر بها فى ماضيه السحيق ، وما أحدثته من جراح عميقة الأثر فى عقله الباطن .

* * *

وهذه الجراح ــ اذا كانت عميقة دامية ــ قد لا يكفى كر الأعوام الطويلة وحده لشفائها ، بل قد يصبح مصدرا دفينا لآلام تهدد اطمئنان ضحيتها . وفى شأنهـا يقول هولزر ان تشـبيه ذاكرة الانسان بشريط مغناطيسى للتسجيل تشبيه لا يبعد عن الحقيقة كثيرا ، كمـا يبدو لأول وهلة « ولقد اقتنعت تماما من تحقيقاتى أن الحياة نفسها عبارة عن طاقة كهربية ــ مغناطيسية . وأن ما نطلق عليه وصف الشخصية عبـارة عن حقل كهـربى مغنـاطيسى معتقل فى مستودع خارجى يسـمى الجسـم الفيزيقى .

ولكن عند الحديث فى العودة للتجسد ، فاننا مع ذلك تتحدث عن وجود طبقات Layers متعـددة للوعى ، أو طبقات متعددة لبصمات كهربية مغناطيسية يحتويها الجسم الفيزيقى الواحـد فى وقت واحـد . فالذاكرات مسجلة على كل طبقة منها للوعى . وبهذه المناسبة فان عنصر الزمن لم تتفهمه تماما ، ولذا فان الوعى العقلى قد يخلط بين طبقة زمنية معينة وبين طبقة أخرى . وما يحدث عنـد ذاك هو أن يقتنع شخص ما بأن حدثا ما يجرى فى حياته ، أو سوف يجرى فى حياته الراهنة ، مع أن هذا الحدث يكون قد مر به فى الواقع فى تجسد سابق .

لكن الانطباع بهذا الحدث قد يكون حيا وقويا عنـد صاحبه الى حد أنه يكون من العسير عليه أن يتبين له أنه فى الواقع يعايش من جديد شيئا من المـاضى الذى مر به فعلا . وهذا الانطباع قد يكون محيرا ، وعميقا ، ومخادعا ، ومالم يتفهم الانسان مغزاه ، فمن الممكن أن يقوده الى متـاعب عصـبية جـدية ، بل حتى الى مرض عقلى فى حيـاته

الراهنــة »(١) •

ثم يقدم هولزر عدة نماذج من هذه المتاعب والأمراض العصــبية والعقلية مميزا بينها وبين بعض ظواهر الادراك عن غير طريق الحواس • وهذه الحالات من العسير أن تشفى الا باتباع أسلوب التنويم المغناطيسى مــع ارجاع الذاكرة الى الوراء ، بشرط أن تجرى بمعــرفة عالم نفسى متمرس فى هذه الأمور الدقيقة الحــديثة نسبيا ، وبشرط أن يتمكن من ايقاع مريضه فى غيبوبة التنويم •

ولهذه الاعتبارات مجتمعة برزت العناية فى بلاد متعــددة بضرورة دراسة فسيولوجيا الانفعالات التى أقيم لها معهد متخصص فى السوربون منذ أكثر من نصف قرن • ثم برزت بعــد ذلك ضرورة انشاء معــاهد متخصصة فى دراســة الانســان من جميع جوانبــه السيكولوجيــة ، والفسيولوجية ، والبيولوجية • وهو ما تحقق فعلا فى بلاد عديدة ، وذلك بالنظر الى ضرورة الربط بين الدراسات الانسانية بعضها بالبعض الآخر مادام الانسان يمثل فى نهاية المطاف « مجموعة متوحدة » ensemble unitaire لا تقبل التجزئة عنــد رغبة الوصــول الى بعض أغواره الحقيقية وصولا صحيحا(٢) •

* * *

وثمــة حالات من ذكريات المــاضى السحيق أمكن هولزر التحقيق من صحتها بأسلوب التحقيق العادى ، والرجوع الى المراجع التــاريخية المختلفة بشأن الأحداث ، والتواريخ ، والأسماء ، والأماكن التى قد يرد ذكرها على لسان صاحبها ، وهو فى غيبوبته المغناطيسية • وثمة حالات أخرى تأرجحت فى نظره بين الثبوت وعدمه ، وثمة طائفة ثالثة تعذر فيها تحقيق الوقائع لأسباب أوردها •

---

(١) راجع : Hans Holzer : Born Again. London : 1975 P. 87.

(٢) راجع ما سبق فى صفحة ٢٠ ــ ٢٢ •

واحدى هـذه الحالات سبقتها اتصالات بعـالم الغيب عن طريق الاستعانة بلوحة الحروف الهجائية Ouija — Board وقد أشارت هذه الاتصالات الى أن صاحبة هذه الحالة كانت احدى زوجات الملك هنرى الثـامن ، وتبين من ارجاع الذاكرة الى الوراء ـ فى غيبـوبة التنـويم المغناطيسى ـ صحة هـذه المعلومات • اذ أخذت صـاحبة الحالة تسرد أدق التفصـيلات ومعـلومات صـحيحة كثيرة عن عصر الملك هنرى الثامن وزوجاته الأخريات من المحال أن تكون قد وصلت اليهـا بالطرق العادية للادراك •

وقد عرض هولزر هـذه الحالات الثمانية فى مؤلف قيم له عنوانه « ولد ثانية » ظهرت طبعته البريطانية فى سنة ١٩٧٥ • وأنصح القـارىء بقراءته بعناية وامعان ، لأنه يلقى عدة أضواء هامة على هذه الاختبارات ، وعلى كيفية ارجاع الذاكرة الى الوراء فى غيبوبة التنويم المغناطيسى •

الحالة الغريبة لروث ماكجور

ومن بين هذه الحالات الثمانية اخترت الحالة الخامسة منها لتلخيصها للقـارىء ، وهى حالة روث ماكجوير Ruth Mac Guire التى كانت تراودها وهى فى يقظتها أحاسيس واضحة عن عدة تجسدات سابقة لهـا ، هى عبارة عن ومضات خاطفة من ذكريات أليمة لها فى الهند وفى انجلترا وفى هولندا وفى غيرها من البلاد لا تعرف لها تعليلا ، لكنها كانت مصدرا لاحساسها بالقلق النفسى ، مما دفعهـا الى أن تراسل هولزر لأول مرة بخطاب منها مؤرخ ١٠ مايو سنة ١٩٦٧ راجية اياه أن يخف الى معونتها لانقاذها من هذه الومضات الأليمة التى لا تعرف لها تعليلا ، واليك بيان الحالة بقلمه :

بحثت بعناية قصـة روث ماكجوير الغريبة عن تواجدها فى حيـاة سابقة ابان ثورة الهنـد على الاستعمار البريطانى • ومبدئيـا أرجو أن أوضح أن روث ماكجوير لم تكن دارسة للتاريخ الهندى • واذا كانت

عنـــدها معلومات عامة عن سياســـة بريطانيـــا الاستعمـــارية فى القرن لتاسع عشر ، فان ذلك لن يتضمن بطبيعة الحـــال أية تفـــاصيل عن سير المعارك وحالات الحصار وأين وقعت .

ولكننى استجوبت روث بعناية واقتنعت أنه لم يكن لديها حتى قدر ضئيل من المعرفة عن سياسة بريطانيا فى الهند فى عصر الملكة فكتوريا . كما أنها لم تظهر أى اهتمام بذلك العصر سوى أنها تذكرت ما حـــدث لها فى حياة أخرى .

واذ كان زوجها أنذاك رونالد هويتنج عضـــوا فى الفرقة ٦٧ فكان يكون من نصيبه التواجد فى الهند فى تلك الفترة الخطيرة ، فترة العصيان الذى جرى فى سنة ١٨٥٧ . ولقد كان « للسيخ » ـ وهو مذهب لفريق من الهنود ـ دور فى تلك الأحداث ـ ولو أنهم كانوا أحيانا يساندون جهود القوات البريطانية الاستعمارية ، ولا يقفون دائما مع الثوار .

طلبت من روث ـ وهى فى حالة الغيبوبة ـ أن ترجع الى ماضيها فى الهند وأن تجيب على بعض الأسئلة .

ـ ما معنى كلمة سيبوى « Sepoy » ؟

ودون تردد لحظة واحدة أجابت :

ـ « السبوى » فئة من سكان البلاد .

ـ وماذا يفعلون ؟ أو ما هى مهنتهم ؟

ـ انهم فى القوات المسلحة . أليس كذلك ؟

كنت أشك كثيرا فى أن لروث ماكجوير المعرفة الكافية لأن تشرح كلمة « سيبوى » شرحا صحيحا . ولكننى ألقيت عليها هذا السؤال فقط على سبيل الاختبار لأرى ماذا يكون رد فعلها .

وتكلمت روث عن « لاكناو » Lucknow والفظائع التى حدثت هنـــاك . ومن الحقائق التاريخية أن فرقة « لاكناو » كانت محـــاصرة

بواسطة قوات الثوار وأن الألوف قتلوا فعلا فى كل من لاكناو ودلهى فى تلك الفترة • وقد كانت دلهى فى يد الثوار ، ولكن القوات البريطانية حاصرتها أخيرا واستردتها • وقد حدث حينئذ حمام دم فظيع • وكانت « لاكناو » حينذاك مدينة حرة ، وأخليت من النساء والأطفال ومن بقية الفرقة الحربية • ومن الحقائق أيضا أن كثيرا من النساء — بل أكثرهن — تم ترحيلهن بالسفن الى انجلترا ، بعد انقضاء سنتين من الفزع على بدء ثورة الهند •

وبدا على روث ماكجوير وهى لاتزال فى غيبوبة — أنها تعيش ثانية ذلك الفزع الذى واجهته فى لحظاتها الأخيرة على الأرض ، بصفتها زوجة أحد الضباط الانجليز • وسألتها :

— ماذا كان احساسك التالى لذلك مباشرة ؟

أجابت :

— لا شىء • فقط أحاط بى ضباب قاتم ••••• ثم كان هناك أناس وأشباح وأشخاص لا أعرفهم ، ولكن كانت هناك أيضا أمى وقد رأيتها (المعنى أنها قتلت فى تلك الأحداث فشاهدت هؤلاء الناس وبينهم أمها المتوفاة) •

— كيف بدت لك ؟

— كانت مستريحة ومنشرحة •

— هل كنت بجوار السفينة اذ ذاك ؟

— كلا • كان ذلك فى مكان مغطى بالضباب • وقد رأيت أمى فشعرت بالارتياح لأنى عثرت عليها أخيرا • وكان هناك أيضا طفل صغير كان قد توفى حال ولادته ، وقد بدا لى أننا نتحرك ببطء شديد ، كأننا لا نتحرك أبدا ، أو كأننا نتحرك على شريط ما •

— مثل التزحلق ؟

— نعم •

أجابت روث بذلك ثم استطردت قائلة :

ـ ثم ظهر نور عظيم • وكانت أمى تبدو وكأنها تزيح ما أمامها • أما أنا فشعرت أننى تنقصنى القوة اللازمة للحركة التى كانت أمى تمتلكها • غير أنه كانت هناك قوة تدفعنى الى الأمام فتحركت على شريط الضوء العائم متجهة نحو ذلك النور الشديد •

ـ هل رأيت أحدا آخر تعرفينه ؟

ـ نعم كان هناك جد لى وكان لطيفا جدا ، وقال لى ألا أخاف ، وقال انه كان هناك منذ وقت طويل مضى ، كما قال لى اننى بعد أن أبقى هناك بعض الوقت وأقوم ببعض الدراسة ، سأصل الى الضوء البنفسجى ففكرت أن ذلك سيكون جميلا جدا نظرا للونه البنفسجى •

ـ وهل قمت بالدراسة ؟

ـ لا أذكر • ويبدو أن حالتى تحسنت •• غير أنى لا أذكر التفاصيل • كنت وكأننى أكبر وأتنفس •• أو شيئا من هذا القبيل ،••• كانت تلك أشياء تحدث تلقائيا • ثم واصلت السير نحو النور •

ـ وعندما وصلت الى النور ، ماذا رأيت ؟

ـ واجهت ذلك النور الأبيض الذى يكاد يعمى البصر •• لم يكن يعميه كلية ، ولكنه كان ساطعا وجميلا •

ـ أكان هناك كثيرون فى دائرته ؟ أو بالقرب منه ؟

ـ كان النور ساطعا بحيث لم يسمح لى بأن أعرف • نعم كان هناك بعض الناس • أجسام لونها أبيض مزرق •• وكانت هناك موسيقى بديعة ، لكننى لم أعرف من أين تأتى •

ـ هل كلمك أحد ؟

ـ ليس بصورة الكلام تماما • ولكن كان هناك شىء من الاتصال ، وأذكر أنه قيل لى أن أكون طيبة ومتجاوبة ، وسأعرف لماذا حدثت لى تلك الحوادث الفظيعة ، ويجب أن أتعلم ، رغم المعاملة القاسية التى

عوملت بها ورغم الأحداث الوحشية التى حلت بى ، أن تكون معاملاتى بالحب •• الحب •• الحب • بدون حنق أو حقد بل بالتجاوب والقبول وليس بمحض الاستسلام الأبله • وقالوا لى اننى اذا فعلت ذلك فاننى سأنمو • لقد كنت خائفة جدا عندما ذهبت الى هناك • وكنت قد أبغضت زوجى لأنه كان عنيدا وأبله ، وأبغضت الرجال عموما ، وخصوصا الرجل الذى اعتدى على فى الهند •

— هل تعرفت على أى من الناس الذين كانوا حول النور ؟

— يبدو أننى وجدت عمات وخالات وأبناء عم وبعض الأصدقاء •

— كيف تركت ذلك المكان ؟

— كان ذلك مثل السير فى قارب على مياه نهر ببطء وبالتدريج ، دون التنبه الى أنك تتقدم مع أنك فى الواقع تفعل ذلك •

— وأين كنت ذاهبة حينذاك ؟

— لم أكن متأكدة الى أين أنا ذاهبة لكن كنت ألتقط بعض المعرفة مما يقوله الناس • كان هنـاك رجل حكيم •• رجل كبير لطيف هادىء ميال الى العزلة • فقال لى « تعالى أيتها الصغيرة ، تعالى » •

— هل قال لك شيئا عن حالتك حينئذ ؟

— نعـم • قال لى « تخلصى من كل هـــذا الحنق الذى مازلت تتمسكين به بسبب ما حـدث لك ، لأن كل ذلك حـدث لك انما لكى تتعلمى الحب » فقلت له « ولكنى لا أقـدر •• لا أقـدر » • فأجاب : « بل ستقدرين •••• هيـــا معى » فاكتسب ذلك الرجل احترامى • وودت أن أحصـل على فهمه وعلى رضاه • ورغبت أن أنجو فمضيت معه • ولكنى قلت له : « اننى لم أرجع الى بلادى انجلترا ، الى البقعة الجميلة الخضراء بجانب البحر » • فقال لى : « سترينها مرة أخرى • انها لن تضيع • فلا تنزعجى • فقط اتبعينى » • لقد كان رجلا لطيفا ، وكان ألطف من أى واعظ •

ـ ولمـا سرت معـه ، الى أين ذهبت ؟ أين كان مكان وقوفك فى الرحلة التالية ؟

ـ خيل الى أننى نمت نوما عميقا •

ـ أين نمت ؟ على ماذا ؟ على فراش ؟

ـ كلا • لم يكن هناك شيء مادى البتة ، وكان ذلك آمرا يستحق أن أتفهمه وأتعوده • ولكننى كنت لا أزال أريد فستانى المحلى بالأشرطة• كنت أكثر التفكير فيه • ولكننى تعلمت بعـد ذلك أنه يجب ألا نفكر فى الملابس ، فانها ليست ذات أهمية • ولكن لم يكن الأمر متعلقا بالفستان كاهتمام النساء بملابسهن ، بل بالفستان لمـا له من ذكريات عزيزة لدى ، فقد كنت أبحث عن تلك الذكريات •

ـ وبعد ما نمت ، ماذا حدث لك ؟

ـ نمت فترة ما •

ـ ثم ماذا ؟

ـ بدا لى أننى أتعلم بعض الأشياء وأنا نائمة • لم آكن نائمة فعلا بل مسترخية فى هدوء •

ـ وبعد ما تعلمت تلك الأشياء ، هل بقيت تتعلمين طويلا ؟

ـ بقيت مع الناس بعض الوقت • وقد تدعو ذلك الوجود حياة ، وهو كذلك فى بعض النواحى • ولكنـه يختلف عن الحيـاة التى على الأرض • فقد كان يتعين على أن أتغلب على أشياء كثيرة ، وشعرت أننى سيدة طيبة جدا ، مثل نموذج السيدة الانجليزية اللطيفة التى تكثر من زيارة الفقراء • ربمـا كان ذلك سخفا منى ، لأن الطيبة ليست هكذا ، على ما تعلم ، بل انهـا تستدعى صقل أشياء كثيرة منذ البداية • انهـا تشـمل الاتجاهات العامة المختلفة • هذا ما تعلمته ، فلا تكفى المظـاهر الخارجية•ثم تعلمت أن تكون صلتى وثيقة بالله فكنت أكثر من الصلاة ، حتى صرت ما يمكنك أن تسميه سـيدة ورعة • ولكننى اذ تطلعت الى

الوراء ، فى تلك المرحلة ، ضحكت على غرورى • ففى الواقع لم أكن أعرف شيئا حتى الآن • لقد كنت أمارس كل المظاهر الخارجية فقط • ولكنك لن تصير ذا معرفة صحيحة ، الا بعد ما تجعل كل دوافعك الداخلية مستقيمة •

— والآن وقد تعلمت القيم الحقيقية ، هل بقيت معهم أم ظللت تتحركين ؟

— بقيت معهم بعض الوقت ، وكنت سعيدة جدا بما أحصل عليه من معرفة • ثم قالوا شيئا عن عودتى وممارستى ما تعلمته • ولم أكن أريد العودة لأننى كنت سعيدة جدا(١) •

— من الذى قال انك يجب أن تعودى ؟

— المعلم الحكيم •

— ما اسمه ؟

— أظن أننى كنت أدعوه « يا سيد » وكان اسمه قريبا من لفظ فالنتين Valentine ولكنه لم يكن اسمه فعلا « فالنتين » •

— هل أخبرك بنفسه من هو ؟

— قال لى انه معلمى •

— ولكن من كان هو فى حياته على الأرض ؟

— لم أسأله بتاتا •

— لقد قال انك يجب أن تعودى • وتقولين انك لم تريدى العودة ، ولكن ها قد عدت !

---

(١) مما يسترعى الانتباه فى شأن الأوصاف التى ذكرتها هذه السيدة عن الحياة فى عالم الأثير ، أنها تتفق تماما مع تلك الأوصاف العديدة الواردة من ذلك العالم الأثيرى ، والتى تملأ الآن الآلاف من المؤلفات . والسيدة روث — فيما يبدو من المعلومات التى أوردها هؤلاء عنها — ليست لها اهتمامات روحية معينة ، ولا اطلاع خاص لها فى الكتب الروحية .

هذا ولنا وقفة فى الفصل الأول من الباب العاشر عند بعض هذه الأوصاف العامة .

ــ فى الواقع لم يكن لى اختيار فى ذلك ، فهذه الأمور تقرر لنـا •

ــ وكيف رجعت ؟ ماذا حـدث ؟

ــ لقد قال لى المعلم : « حسـنا • لقد حان وقتك • فانك قـد تعلمت وصرت تتجهين نحو التفكير الصحيح والنظرة الصحيحة للأمور وتستمرين فى هـذا الاتجاه ، وتتأملين • ولكن لا يمكنك التأكد من أن هذه المبادىء قد غرست فيك تماما الى أن تمارسيها فى العـالم ، ولذا يجب عليك أن تعودى الى العالم لتمارسيها فيه •

ــ وكيف جعلوك تعودين الى العالم ؟

ــ أوه • لقد قالوا اننى يجب أن أولد طفلة من جديد • فقلت لهم « اننى لا أريد أن أصير طفلة ثانية ، فهذا شىء غير محترم • والطفل يبلل ملابسه وهذا شىء غير محتمل » ولكنهم ابتسموا وقالوا « ان هذا شىء محتم ، انك ستصيرين طفلة ، وسيحبك الجميع • وهـذا الشىء ليس بغيضـا » وعنـدما فكرت أنه مع ذلك مركز غير محترم ، قالوا لى : « ان ذلك يرجـع الى الكبرياء •• الكبرياء •• الكبرياء • ويجب أن تتغلبى عليها » •

ــ وكيف حققوا ذلك ؟

ــ لقد جعلونى أنام • ثم شعرت كأننى أغطس وآدور •

ــ ثم ماذا ؟

ــ ثم رجعت الى هنا •

ــ ما هو أول شىء تذكرينه بعد ذلك ؟

ــ أذكر أننى بكيت • بكيت فوق شعر أمى ، وكان شعرها طويلا جميلا كستنائيا • وأذكر أنه كان من الممتع مراقبتها وهى تمشطه • كنت طفلة فقط ، ولكننى كنت أذكى مما كانوا يتصورون •

ــ أكنت تعرفين ، وأنت طفلة ، من كنت قبلا ؟

ــ كلا • فقط كنت أعرف أن هناك غرضا من عودتى وهـذا هو الفرق ، كما ترى ••• فـلم أكن مجرد طفـلة بوجنتين جميلتين وأفكار

ساذجة . هـذا ما لم يدركوه . لقد كنت فى تفكيرى كثيرة التسـاؤل عما يجرى حولى وأريد معرفته. فى الواقع كنت أعرف ما يجرى ولكننى أعجز عن شرحه . ولم يكونوا على استعداد لأن يصغوا الى لو أننى تمكنت من شرحه .

ـ من كان هؤلاء ؟ أتذكرين أسماءهم . أتقصدين والديك ؟

ـ نعم والدى فى هذه الحياة . كان ذلك منذ سنوات كثيرة مضت منذ سنة ١٩٠٩ . وكانت والدتى وجدتى لهما مركز هام . وكانتا طيبتين جدا نحوى .

تجسدات اخرى سابقة لروث

وبما أن روث كانت قد تحدثت عن تجسدات آخرى ، عندما ناقشنا ذكرياتها وهى فى حالة الوعى ، لذا قررت أن آخذها الى الوراء الى مرحلة أبعد من هذه فأرجعت ذاكرتها الى ما قبل الهنـد من حيث الزمان . وقلت لهـا :

ـ اننا الآن قبل مولدك الحالى بثلاثمائة سنة ، فماذا ترين ؟

ـ يوجـد دخان فى الغرفة ، ومدفأة ، فى غرفة بكوخ ، والمدفأة يتصاعد منها دخان يحرق حلقى . ولكنهم لا يفتحون النافذة لأن الجو بارد . وكذلك لا يريدون أن يفتحوا الباب .

ـ أترين نفسك ؟

ـ نعم .

ـ كم يبدو عمرك ؟

ـ اثنتى عشرة سنة .

ـ أتعرفين اسمك ؟

ـ انه اسم من الكتاب المقدس .. ماجدلين .. ماجدلين دارلنج

ـ فى أية بلدة أنت ؟

— اننا الآن فى هولندا • لسنا فى انجلترا • ولكننا نتكلم الانجليزية وسائر الناس لا يتكلمونها •

— وما هى السنة ؟

— سنة ١٦١٣ •

— وما هى البلدة ؟

— ليدن Leyden

— ولماذا أنت بها ؟

— ان الموقف سخيف • ان أبى كان هناك ، ولكنه لم يكن معنا كثيرا • وخالتى ووالدتى هناك كذلك • وعلينا أن ننتظر •يجرى عندنا حديث عن الابحار الى الدنيا الجديدة (أمريكا) •

— على أية سفينة ستبحرون ؟

— لا نعلم • اننا فى الانتظار • ولنا غرف فى فندق البلدة •

— من سيرسل هذه السفن ؟

— اننا ، كما ترى ، لسنا مرضيا عنا فى انجلترا • ونحن قوم محترمون جدا •• فى غاية الاحترام فى الواقع •

— ما هوم مذهبكم ؟

— نحن من المذهب البيوريتانى Puritans (١) •

أتذكرين اسم الشركة التى تتبعها السفينة ؟

— اننى لم أعر هذه الأمور كثيرا من الالتفات • ولم تكن صحتى على ما يرام فقد كنت مصابة بالسعال • وكانت أمى وخالتى هناك وكانتا

---

(١) المذهب البيوريتانى ظهر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بين طائفة من أعضاء « كنيسة انجلترا » وكان يطالب بمزيد من البساطة فى شعائر العبادة ومزيد من التزمت فى الأخلاق والسلوك • وقد هاجر الكثيرون من أتباعه الى مقاطعة « نيو انجلاند » بالولايات المتحدة الأمريكية •

مستاءتين لذلك وتقولان انني يجب أن أكون شجاعة • فاننا سنذهب الى الدنيا الجديدة وكل شيء سيكون مختلفا هناك عن بلادنا • ولن تتعرض للاضطهاد • ولكننا كدنا نفقد الأمل لأننا انتظرنا طويلا •

— من أية بلدة فى انجلترا كان والداك ؟

— أبى من بلدة فى الشمال •

ما اســـمها ؟

— نورث ريدنج North Riding •

— أين نورث ريدنج ، فى أية بقعة ؟

— هورتون Horton •

— ما هو اسم والدك ؟

— جون دارلنج John Darling

— واسم والدتك ؟

— والدتى كانت جوهانا Johanna •

— وماذا كان اسم أسرتها قبل الزواج ؟

— بليس Bliss

— ومن أية بلدة كانت ؟ أية بلدة بانجلترا ؟

— انها هى أيضا من الشمال •• من درهام Durham • انها بالقرب من نيوكاسل Newcastle

* * *

ولقد أثبتت أبحاثى التالية صـــدق أقوال روث • « فهورتون » فعلا فى مقـــاطعة « يوركشير » • ولو أن الخرائط الحـــالية تضعهـــا كجزء من

« ريدنج » الغربية لا الشمالية الا أنها فى الجزء الشمالى من « ريدنج الغربية » . ودرهام فعلا جنوبى نيوكاسل مباشرة . ولا يعرف هذه المواقع الا شخص وثيق الصلة بجغرافية انجلترا . فقد كنت فى هذه المنطقة ولكننى لا أذكر هذه المواقع . واسم « دارلنج » من الأسماء الكثيرة الانتشار فى منطقة يوركشير .

وفى سنة ١٦١٢ أنشأ الهولنديون مدينة نيو أمستردام وهى حاليا مدينة نيويورك . وفى الواقع ان البيوريتانيين الذين رحلوا الى هولندا بسبب اضطهادهم فى وطنهم انجلترا هاجروا بعد ذلك ، بتاريخ لاحق بعض الشىء لسنة ١٦١٣ التى ذكرتها روث فى غيبوبتها (١) . فمعظمهم هاجروا ما بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٧ ولكن من المحتمل جدا أن بعضهم هاجر قبل ذلك . ولاشك أن البيوريتانيين الانجليز قضوا بعض الوقت فى هولندا التى كانت أكثر تعاطفا مع مذهبهم من انجلترا . وليدن أقرب مدينة كبيرة على الشاطىء المقابل لشاطىء انجلترا .. ولذا لجأ البوريتانيون فى القرن السابع عشر الى ليدن .

وواصلت استجوابى لروث قائلا :

— هذا يعنى أنك ستذهبين معهم الى الدنيا الجديدة (أمريكا) ؟

— نعم . ومعنا خالتى . ولكن هل سنصل الى هناك ؟ ! ....

فاننا لا نجد مكانا فى السفن . ها نحن ننتظر وننتظر . يا لها من كارثة فوق كارثة . ان أمى تقول ان الأمر سينتهى بى الى التحدث بالهولندية ، وهو أمر لا تريده . ان هؤلاء قوم مثل الحيتان .. قالت ذلك باحتقار فانهم فعلا مترهلون وهى ليست كذلك .

— أتذكرين اسم الفندق الذى كنت به فى ليدن ؟

— اسمه « الأتراك الثلاثة » على ما أظن .

---

(١) الخطأ فى التواريخ أمر شائع الحدوث فى هذه الاختبارات ، لأن من طبيعة الذاكرة أن تخون صاحبها حتى فى بعض تواريخ حياته الراهنة .

— وهل السنة هى ١٦١٣ ؟

— نعم والجو رطب بارد ولكن المدفأة تدخن دائما والجو أبهج وأدفأ فى الطابق الأسفل ولكن والدتى لا تريدنى أن أذهب الى هناك حيث يوجد الهولنديون الصاخبون ، لأنها لا تريد أن تعرضنى لهم •

— وهل أبحرت بالسفينة الى الشاطىء الآخر ؟

— كلا • لم أذهب الى هناك البتة ، فقد توفيت فى ليدن •

— كم كان عمرك حينئذ ؟

— ثلاث عشرة سنة •

— وهل رجع والدك الى انجلترا ؟

— لا أعرف حقا ماذا جرى • فانى كنت مصابة بذلك السعال ، وكنت تعيسة وملازمة الفراش لا أبارح غرفتى • وكان الجميع يقولون لى : « تشجعى أيتها الطفلة ، فانك ستشفين » ولكن •••

— كم من الوقت قضيت فى هولندا ؟

— ثلاث سنوات •

— هل كنتم تعيشون طول الوقت فى فندق ؟

— كنا نعيش أولا فى منزل مع أسرة أخرى • ولكن البيت كان مزدحما وقال والدى ان من الأفضل لنا أن نعيش فى فندق •

— ما شكل المكان الذى كان به البيت ؟

— كان بجوار مزرعة بالريف • وكنت أحبه وأفضله على غيره • فقد كان هناك تفاح وأبقار وطاحونة هوائية كنت أسر لمراقبتها وهى تدور •

— هل أحببت الطاحونة الهوائية ؟

— نعم كنت أحبها فى أثناء النهار ، أما فى الليل فانها كانت تخيفنى لأنها كانت تبدو كعملاق له سبعة أذرع على استعداد لأن يبتلع من

بجوارها .. وكان الأطفال طيبين وكذلك الهولنديون فى الريف ، ولكننا اذا انتقلنا الى المدينة وجدناهم مختلفين عن هؤلاء .

— ماذا كان اسم المزرعة التى سكنتموها ، هل تذكرينها ؟

— اسم قريب من جريك Greck

— أكانت بالقرب من ليدن ؟

— كانت ليدن أقرب مدينة كبيرة اليها .

— فى أية مقاطعة ؟

— كانت تبدأ بمقطع « أو » .

— أكانت أوترخت Utreckt

— نعم ، أوترخت . ولكننا لم نهتم اذ ذاك أين ذهبنا ، وكان يكفينا الارتياح لخروجنا من انجلترا . وكانت هناك أشياء كثيرة تسلينا مثل التزحلق على الجليد فى الشتاء ، وركوب القوارب على الجليد ، وكنت أحب كل ذلك . ولكننا اذ ذهبنا الى المدينة كان الجو فظيعا والمكان غير نظيف . ثم مت فى الغرفة بالفندق .

وكان الوقت متأخرا ولاحظت مظاهر الاعياء على روث فقررت أن أعيدها الى الوقت الحاضر.ولم يستغرق ذلك سوى لحظات ثم استيقظت ولم تكن أسوأ حالا بعد ساعة قضتها فى غيبوبة مغناطيسية . ولم تتذكر أى شىء مما قالته وكانت تشعر بالانتعاش والبهجة .

وفى الصباح التالى بعد الافطار المنعش رجعنا الى مدينة نيويورك تاركين روث سعيدة وهادئة لمعرفتها بأنها قد أزاحت الستار عن اختباراتها فى العودة للتجسد ، وهى تنتظر فى نفس الوقت تقييمى لما ذكرته من وقائع فى القريب العاجل.ولم تسأل عما قالته وهى فى حالة الغيبوبة ، ولكنها صارت مهتمة بموضوع العودة للتجسد وأخذت تقرأ بعض الكتب

المتعلقة به كما لم تفعل قبلا • ولم أر سببا لأن أمنعها من ذلك بعد أن قالت لي كل شيء وهي في حالة الغيبوبة ، ولم يكن من المنتظر استجوابها مرة ثانية •

ولقد أعجبت روث بالأساليب التي وصفتها جون جرانت Joan Grant والدكتور دنيز كلزي Denis Kelsey (١) في كتابهما « الحياة عدة مرات » Many Lifetimes وقررت أن تجرب تلك الأساليب بالنسبة لحالتها • واستعملت البندول لينبه الطبقات المختلفة للوعي •• ويظهر أن الطريقة نجحت في حالتها •

وفي فبراير سنة ١٩٦٨ اتصلت بي ثانية ووصفت لي بوضوح سوقا بمدينة كلكتا ثم أضافت بعض التفصيلات الخاصة لاختبارها المرعب قبيل أن ترجع الى انجلترا على ظهر سفينة ، وقد حدث أنها حملت نتيجة للاعتداء عليها أثناء حصار مدينة لاكناو Lucknow • وبعد ذلك تعلقت الى حد ما بضابط هندي تقدم أولا لحمايتها من الآخرين ثم عمل على اثارة اهتمامها به على انفراد • ورغم الانطباعات القوية التي تركتها هذه الذكريات فانها كانت تشك في قيمة تلك الاختبارات السابقة لمولدها الحالي وحذرتني من عدم قدرتها على أن تبرهن على صحة أي اختبار منها •

وبعد ذلك تبادلنا الرسائل من وقت الى آخر كما تقابلنا على العشاء مرتين ، وكانت تلك المناسبات بهيجة ومرحة ولم نطرق فيها موضوع العودة للتجسد • ومن الواضح أن الرؤى كانت باقية في عقلها الباطن وفي بعض الأحيان ازدادت عمقا ، اذ أنها في شهر يوليو من سنة ١٩٦٩ دونت لي أهمها •

ثم أصبحت الرؤيا المتعلقة بسوق كلكتا من أوضح الصور الآن • وكانت زوجة الكولونيل تدعى دورا Dora وكانت هي معها فسارتا

---

(١) لنا عودة الى اختبارات كلزي وجرانت في الباب التاسع .

تتفقدان أشغال النحاس والفخار والأقمشة والطعام • وكانت دورا هذه تلبس فستانا باللونين الأخضر والأبيض له جونلة واسـعة ، حين كانت روث تلبس فستانا من الموسلين الباهت • وكانت كل منهما ترتدى قبعة وتمسك بمظلة • وكانت احدى النساء الوطنيات تقبع بجوار منضـدة صغيرة عليها حلوى مصـنوعة من المشمش ، وكانت ترضـع طفلا يغطى الذباب وجهه • فأخذت دورا منديلا من حقيبتهـا وأعطته للمرأة اشارة الى ضرورة مطاردة الذباب بالمنديل • فابتسمت المرأة شاكرة ثم وضعت المنديل فوق رأس الطفل ، ومضت السيدتان •

وكانت الرؤيا الثانية تتعلق بكنيسة بانجلترا مصـنوعة من الحجر ولها مدخل مربع تغطيه الأعشاب • وترى روث نفسها واقفة على السلم مع زوجها الجديد الذى يرتدى زى الضباط ، بينما تلبس هى فستان العرس وطرحته وتقف فى حالة انفعال شـديد • وكان فى نهـاية الممر الأصدقاء والفلاحون يلقون عليهـا الأزهار • فتشعر روث بالخجل وتود لو أنهـا كانت على الباخرة التى ستنقلهما الى كلكتا ، فتغلق عينيها اذ تعلم أنهـا يجب أن تمر وسـط الجموع حتى تصـل الى العربة • وكم كان ذلك مخيفـا لهـا !

والرؤيا الثالثة كانت لها وهى فى لاكناو• وكان كل الرجال قد تركوا المكان سوى أولئك الذين عليهم دور الحراسة • وكان صـوت الطبول سمع منذ ساعات وقد فزعت النساء ولكنهن يحاولن آلا يظهرن خوفهن ، اذ كانت خادمة السيدة جيننجز Jennings على وشك الوضع •

فأخـذت دورا تروح وتجىء لتعجل الاستعدادات اللازمة وقـد حصلت على الملابس والأقمشـة من مختلف المصادر • كما أنهـا أعدت المراهم والبرطمانات بجوارها • وأشعلت احـدى النساء بخورا ، اذ أن لحظة الوضع قـد دنت • وكانت روث تقف بجانب وعاء مملوء بالمـاء ولكنهـا لم تقو على احتمـال المنظر والرائحة ، فصار ما حولهـا فاترا ثم أصيبت بالاغمـاء •

والرؤيا الأخيرة كانت لهـا وهى على ظهر السفينة فى طريقهـا الى انجلترا ، ولكنه لم يكن عودا سعيدا . وترى روث نفسها وهى فى حالة اعياء وتعب شديد على السـفينة المتمايلة وتظن دورا أن ذلك يرجع الى دوار البحر لا غير ، وتحاول أن تطعمها ببعض الحساء والشاى . غير أن روث كانت مريضة لسبب آخر وهوانها حبلى بسبب اغتصابها . لقد تدنست، هكذا قال زوجها . وليس أمامها الا أن تدير وجهها نحو الحائط وتموت . لقد قال ذلك أيضا .. انها ستميل على درابزين السفينة . فاذا اهتزت السفينة وسقطت هى من عليها ، فمن سيهتم بما حـدث ؟ لا يحيط بهـا سوى العار .. فلتنته هذه الحياة ! !

وكانت هـذه الرؤى الأربع مجرد اعادة وديبـاجة لمـا سبق أن قالت لى بعضا منه وهى فى حالة الوعى ، ثم سردته باسهاب وهى فى حالة الغيبوبة المغناطيسية ، مع وجود بعض التفصيلات التى لم تكن ضـمن الأقوال السابقة . وهناك احتمال ، بطبيعة الحال ، أن تكون روث قـد نمقت قصصها ، سواء بوعى أو بدون وعى ، ببعض التفصيلات لتصـير قصصا أكثر جاذبية .

ولكننى لا أظن ذلك . فالاختبار الذى سردت وقائعه كان اختبارا ممقوتا ، وكان الأحرى بها لو فكرت فى تنميقه أن تكتمه أو تحذف بعض تفصيلاته . ومن الواضح أنها فى سرد ذكريات حياتها السابقة قد تخلصت من التوتر الذى كانت تسببه لها تلك الذكريات . وأظنها قد قبلت تلك الاختبارات كجزء لا يتجزء من تكوينها ، وأدركت أنها كانت بحاجة الى تلك الآلام المـاضية .

ومما يجعل لحالة روث ماكجوير أهمية خاصـة بين سجلات حالات العـودة للتجسـد هو أمانتها المطلقـة فى سردها ، وتراجعهـا فى أول الأمر عن التحدث عنهـا ، ومعرفتها الدقيقة لأماكن جغرافية صـغيرة فى انجلترا والهند لا تتفق مع ما لديها الآن من معلومات عامة . وعلى هذا

تعتبر حالتهـا حالة حقيقيـة يجب أن تتخـذ مرجعا لموضـوع العودة للتجسـد .

ومن جانبى فاننى أجد من دواعى اهتمامى وصفها للمرحلة المتوسطة التى تلت موتا وسـبقت ولادة ثانية . فان ذلك يعطينا فكرة عن طريقـة الميلاد الثـانى وان لم يعطنا الجواب عن كل الأسـئلة المتعلقة به . ومن الأمور التى تتضح لنا من ثنايا ذلك الوصف أنه ليس لنا اختيار فيما اذا كنا نريد أم لا نريد أن نعود ثانيـة الى وادى الدموع (أى الى الحيـاة الأرضية) (١) .

عن أسلوبه فى ارجاع الذاكرة الى الوراء

ثم يتحدث هولزر فى مؤلفه هذا عن بعض اختباراته فى الأسـلوب الصحيح لارجاع الذاكرة الى الوراء فى التنويم المغناطيسى قائلا :

اننى أجد ان الربع فقط من أولئك الراضـين بأن ينوموا تنويمـا مغناطيسيا يمكن بالفعل تنويمهم ، وأن واحـدا فقط من كل عشرة منهم يصير وسيطا ممتازا فى مجال التنويم المغناطسى . وليس هنـاك قانون ثابت أو مؤكد من حيث نوع الشخص الذى يمكن تنويمه بسـهولة .. على أن النساء بصفة عامة أسهل للاستجابة للتنويم من الرجال . هـذه حقيقة ، ولكن هناك استثناءات حتى بين النسـاء . فالحالات الهستيرية يمكن أن تحول دون السيطرة على الأجساد والشخصيات . وهذا شرط هام جدا لتحقيق التنويم المغناطيسى الكامل . والأشخاص العـاطفيون أكثر استعدادا لأن ينوموا من الأشخاص المنطقيين المتزنين .

ومن المفيد أن يكون موقف الشخص ايجابيا ، وان كان ذلك أمرا غيرأساسى . علىحين أن الموقف السلبى، الذى يشمل عدم الرضا بالتنازل عن التحكم فى الذات ، قد يعوق محاولات المنوم . ومن المعتاد أن أوحى الى الشخص المزمع تنويمه بأن يستريح على أريكة أو مقعد مريح ، وأن

(١) تلخيص عن : Hans Holzer : Born Again. 1975 PP. 115 — 128.

يخلع حذاءه اذا كان ضيقا ، وأن يسترخى بضع دقائق قبل مخاطبته • ثم يغمض عينيه ويصغى الى صوتى • وعادة أعد من واحد الى عشرة وأوحى اليه أن يصل حينئذ الى حالة من الاسترخاء التام • وأتبع ذلك بارشادات للأطراف المختلفة للشخص ، ذاكرا أن الأطراف ستصير أثقل وأثقل ، وأن الجسم كله سيشعر كأنه يهبط على الأريكة •

ثم أمضى قائلا للشخص أنه وحيد تماما ، وأنه لا يمكنه أن يسمع الا صوتى آتيا اليه من مكان بعيد ، وأنه لن يسمع أية أصوات خارجية أخرى • وأعد ثانية من واحد الى عشرة ذاكرا له أنه فى نهاية هذه العشرة الثانية سيسبح فى الفضاء ، بعيدا عن الأماكن التى تحيط به ، ولكن صوتى فقط سيكون مسموعا لديه دائما •

واعتمادا على نجاح المرحلة الأولى ، أوحى اليه أنه سيسمع كل شىء أقوله ، وأنه لن يستيقظ حتى أوقظه أنا ، ولكنه سيجيب على كل أسئلتى دون أن يستيقظ •

وطوال هذا الوقت أرقب بدقة وبعناية ما اذا كان التنويم المغناطيسى يتحقق فعلا أم أن الشخص لايزال يقظا • ولكنى لا أختبر من أنومهم بابرة أو بأية وسيلة مادية • فهذا يحدث فقط عند مباشرة التنويم المغناطيسى على المسارح • وأنا أرقب تلك الحركات بخوف وازدراء ، لأن التنويم المغناطيسى أمر من الجدية بمكان ولا يجوز استعماله للهو أو للتسلية •

وللوصول الى المرحلة الثالثة ، وهى أعمق مراحل التنويم المغناطيسى، أقترح عشر خطوات وكأنها خطوات للهبوط على سلم وهمى نحو البحر أو نحو مكان فسيح مفتوح مثل مرعى واسع • وأوعز الى المنوم بأحوال تشبه التحرر الكامل من جميع المشكلات ، والوحدة الكاملة فى جو جميل مثل سماء زرقاء ، أو سحب فوق الرأس ، أو يوم مشرق ، أوآخر مماثل يشعر بالرضا والارتياح • وفى هذه المرحلة يكون أكثر المنومين

تحت السيطرة الكاملة للتنويم المغناطيسى ، وأختبر ذلك بسؤال الشخص عن اسمه • وان لم يكن قد وصل الى حالة التنويم فانه يجيبنى « اننى لست تحت سيطرة التنويم المغناطيسى بعد ، يا سيد هولزر » وفى هـذه الحالة أضطر الى اعادة الكرة من الأول • وان لم أنجح فى المرة الثانيـة فاننى أصرفه وأطلب منـه أن يعود الى فى وقت آخر • فمن الممكن أن يشعر المرء بالتوتر فى أول لقاء بى ، ولكنه يتمكن من الاسترخاء فى المرة الثانية • فاذا لم يتحقق التنويم المغناطيسى فى المرة الثـانية ، فانى أصرفه آسفا وأتجه الى شخص آخر فى بحوثى •

ولا يمكن تنويم انسان تنويما مغناطيسيا ضـد ارادته ، أو بدون افصاحه عن الرغبة فى أن يمر بالتجربة ، حتى لو لم يكن فى ذلك تحقيق للتنويم المغنناطيسى تحقيقا كاملا• وقد حدث أن وقع فعلا بعض الأشخاص تحت نوبات بتـأثير التكرار أو الاعلانات أو الشـعارات التى سمعوها أو رأواها فى وسائل الاعلام مثل التليفزيون أو على المسرح • غيرأن التنويم الشخصى ، ولاسيمـا ذلك النوع اللازم لتحقيق التقهـقر الى الوراء ، لا يمكن تحقيقه الا بالتعاون مع الشخص الذى ينوم نفسه •

وبافتراض أن الشخص المنوم قد هبط فعلا الى المستوى الثالث ، وهو أعمق المستويات فى التنويم ، فانى أوعز اليه الآن بالتقهقر فى العمر • وهذا يعنى أن أقول له « انك الآن فى السنة كذا من عمرك » ثم أعود به تدريجيا الى مرحلة سابقة من عمره ، أى حينما كان أصغر عمرا ، ثم أوحى اليه بتاريخ معين فى حياته ، وأطلب منه معلومات عن الأحوال التى كان يعيش فيها فى تلك الفترة ؛ فأطلب اسـم مدرس معين فى المدرسـة ، أو عنوانه ، أو عنوان والديه فى ذلك الحين ، أى معلومات لا يعرفها الانسان الا اذا كان قد عاش فعلا فى تلك الأحوال فى ذلك الوقت ، ولكن الانسان معرض عادة أن ينساها فى مراحل عمره التالية • وهذا يبرهن طبعا على أن الانسان فى حالة التنويم المغناطيسى يتذكر أشياء أكثر من تلك التى يتذكرها وهو فى وعيه الشعورى أى فى حالته الطبيعية •

وبالتدريج أرجع مع الشخص المنوم الى الطفولة ثم الى لحظة ولادته • ثم أوحى اليه أن يعبر عتبة مولده الى حياة آخرى • وأحيانا أحدد رقما معينا فأقول مثلا « خمسين سنة قبل مولدك ، أو مائة سنة قبل مولدك » • وأحيانا أخرى أقود الشخص الى الوراء حتى يقابل هو تجسدا آخر ، أى يواجه مرحلة كان فيها شخصا آخر فى حياة آخرى • وعندما يحدث ذلك أطلب منه تفاصيل معينة ، ووصفا للشخص الذى يعينه هو وعصره والأحوال التى ترتبط بحياته •

وبعد أن أحصل على هذه المعلومات ، أرجع الشخص ثانية الى الحاضر بمراحل تدريجية سهلة محتاطا بألا ينتزع من حالة التنويم المغناطيسى بطريقة سريعة جدا • وقبل أن أعود به الى حالة الوعى العادى، أوعز اليه ألا يتذكر أى شىء من الحديث الذى دار بيننا وهو منوم • وأوحى اليه فى نفس الوقت بحالة من الرضا الكامل ليختبرها حال أن يفوق من التنويم •

واذا كان الشخص قد طلب منى أن أساعده فى التغلب على عادة سيئة مثل ادمان التدخين أو المسكرات فاننى فى هذه ابعث برسالة الى عقله غير الواعى ألا يقبل على التدخين أو شرب المسكر مثلما يفعل ، أو ألا يقبل عليه بتاتا ، حسب الرغبة التى يكون قد أبداها لى • ثم أعد الى عشرة مرة أخرى ، موحيا اليه أنه بعد عد العشرة للمرة الثانية ، سيصحو ويكون بحالة معنوية طيبة •

وهذا يحدث على وجه السرعة ولا يذكر الشخص الا قليلا أو لاشيء على الاطلاق من الحديث الذى دار بينه وبينى وهو فى حالة التقهقر المغناطيسى • وان كان يذكر بعض الأجزاء فهذا يعنى أن التنويم المغناطيسى لم يكن بالعمق المرغوب فيه ، وأننى يجب أن أصحح هذه الحالة فى المرات القادمة • ومع ذلك فحتى التذكر الكامل لكل ما قيل أثناء التقهقر المغناطيسى لا يعنى أن الحالة لم تكن ناجحة ، فبعض الأفراد يتذكر كل شيء رغم الايعاز اليه بألا يفعل ذلك •

وبعد بضع دقائق يسمح للشخص أن يقوم وأن يمضى الى بيته . وبوجه عام أحتاج الى عـدد من الجلسات من واحـدة الى خمس حتى أتحقق تماما من الشخصية فى حالة الحياة السابقة . وفى بعض الأحيان كانت جلسة واحـدة كفيلة لأن تحقق مالم يتم تحقيقه الا بعد أربع أو خمس جلسات فى حالات أخرى . وهذا يعتمد على العمق الذى خزنت فيه الحياة السابقة لهذا الشخص فى لا شعوره الخاص .

وأنا لا أقوم بعمل أى بحث أو تحقيق فى أثنـاء عملى مع الشخص المنوم ، ولكنى أبدأ بعدما أكون قد اقتنعت بأننى حصلت على كل المواد الممكنة من هذا الشخص .

وهناك بطبيعة الحال ، عامل الوهم أو الخيال ، الذى يجب أخـذه فى الاعتبار ــ فبعض البحاث يشعر أن المواد الخاصة بالعودة الى التجسد عبارة عن أوهام يصوغها اللاشعور بارادته كى يدخل السرور الى نفس الباحث . ومن جانبى لا أقبل هذا التعليل بتاتا ، ولكن هناك حالات قد يلعب فيها الوهم أو الخيال دورا ما . وبالنسـبة لى ، فانى فى السنوات الطويلة التى قمت فيهـا ببحوث تتعلق بالعودة للتجسـد ،لم أواجه أية حالة قام فيهـا الخيـال بدور هام . ولكنى صادفت حالات من التنويم المغنطيسى سرد فيها الأشخاص المنومون قصصا خيالية ليفرجوا بهـا عن حالات كبت أو ليعبروا عن أهداف لا يمكنهم تحقيقها فى حياتهم الواقعية. وهذه الحالات تتعلق بحياتهم الحاضرة فقط لا بحياة سابقة لهم .

وعند الحصـول على معلومات حقيقية ، أو تبـدو حقيقية ، فمن الواجب محاولة اثبات عناصرها على قدر الامكان . وعندما يصير جزء على الأقل من المعلومات يمكننا تأكيده ، وليس من الممكن تعليله بعوامل أخرى ، فحينئـذ يمكننا افتراض أن العودة للتجسـد هى التفسـير الصحيح للحالة . ثم يجب أن نقدر أن العودة للتجسـد لا تعمـل ، على ما يبدو ، بنفس الطريقة لكل شخص مثلها عند الآخر . فانهـا أمر

شخصى معقد بحيث يجب دراسة كل حالة منها على حدة . فهناك قواعد ولكنها لا تنطبق على أى شخص مثلما تنطبق على غيره . وكيفية عمل قانون العودة للتجسد لا تزال سرا الى حد ما ، ولكن حقيقة وجوده أمر لا أشك فيه البتة (١) .

المبحث الرابع

وقائع أخرى عن « العودة للتجسد » لشخصيات تاريخية معروفة

ماذا يقول لامارتين ؟

الوقائع المتعلقة بموضوع العودة للتجسد أكثر مما قد تتصور. وبعض رواتها كانوا من كبار العلماء أو الشعراء ، أو رجال الفكر الذين لا يهزلون ولا يتسرعون . ومن هؤلاء مثلا الشاعر الفرنسى الكبير آلفونس دى لامارتين A. Lamartine الذى يقول فى كتاب له عنوانه « رحلة الى الشرق » (٢) عن سياحة قام بها الى فلسطين : « لم يكن عندى انجيل ، ولا دليل سياحى ، ولا مرشد ، ومع ذلك لقد تعرفت تلقائيا على مواقع كثيرة ، منها الأرض التى حارب فيها شاؤول .

وعندما كنا فى الدير ، أيد لى الآباء صحة أحاسيسى ، ولم يصدق ذلك مرافقى . وفى مكان ما أشرت الى تل من التلال وعينت اسمه ، وكان عليه أنقاض مبنى قلت انه من المحتمل أن يكون محل ميلاد السيدة العذراء . وفى اليوم التالى تعرفت على قبور المكابيين ، وأشرت اليها بغير أن يرشدنى أحد .

وفيما عدا لبنان فاننى تقريبا لم أقابل فى ارض اليهودية مكانا أو شيئا لم يحرك فى تذكارا ما . فهل نحن عشنا اذا مرتين أم آلف مرة ؟ وهل ذاكرتنا ليست سوى صورة باهتة تحييها نسمة الاله ؟ » .

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٤٩ .

(٢) Voyage en Orient.

ويتعـذر تعليل ذلك باطلاع لامارتين على الانجيل ، لأن الانجيل لا يعطى أية بيانات محددة عن هذه المعالم ، أو المناظر ، أو البقاع ، التى كانت مسرحا للأحداث التـاريخية . كما يتعذر تعليلها بنوع من الجلاء البصرى الذى يحدث فى الغيبوبة ، أو فى اليقظة النومية الحركية ، لأن لامارتين لم يكن فى حالة من هذه الحالات . كما يتعـذر تعليلها بارشاد روحى لأن للارشاد الروحى دلائل وعلامات معينة . ثم لمـاذا تعـرف لامارتين على معالم موجودة فى بقاع معينة ولم يتعرف على معالم غيرها كتلك الموجودة فى لبنان كما قال ؟ ! فهل عاش لامارتين هناك فى فلسطين فى حيـاة سابقة ؟ !

طائفة من « ذكريات » بعض الأدباء والعلماء

وفى عدد ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٦١ من جريدة « الصحافة » La Presse نشر أديب وصحفى يدعى بونصون دى تيراى Ponson de Terrail — وكان مناهضا للروحية — أنه يذكر أنه عاش فى انجلترا تحت حكم هنرى الثالث وهنرى الرابع ، وأن الملك العظيم بحسب ذاكرته لم يكن يشـبه فى شيء ذلك الذى كان يتحدث عنه والده .

ويقول ان تيوفيل جوتييه Théophile Gautier والكسندر ديماس Aléxander Dumas أكدا فى مناسبات عديدة اعتقادهما بأنهما قد مرا بحيوات سابقة استنادا الى ذكريات شخصيةباقية لديهما منها .

كما يقول كاتب آخر فى « الجريدة الأدبية » journal Littéraire الصادرة بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٦٤ فى مقالة عن تاريخ حياة الأديب المعروف ميرى Méry أنه كان يعتقد اعتقادا جازما أنه سبق له أن عاش عدة مرات . وأنه يذكر بعض الظروف الصغيرة المتعلقة بتلك الحيوات ، ومنها أنه اشترك فى حرب أهل الغال وحارب فى ألمـانيا تحت امرة جرمانيكوس Germanicus . وأنه تعرف على عدة مواقع سبق أن عسكر فيهـا ، وعلى بعض وديان حارب فيهـا وكان اسـمه عنـد ذاك يدعى مينيوس Minius

وهنا واقعة هامة قد تبين أن هذه الذكريات ليست مجرد انعكاسات قادمة من الخيال : وهــذه الواقعة هى أنه فى يوم من أيام حياته الراهنة كان فى روما يزور مكتبة الفاتيكان وهناك قابله بعض السيدات والرهبان الذين تحدثوا معه بلغة لاتينية فصحى ...

وعندئذ بدا له أن غشــاوة ما قد انقشــعت من على عينيه ، فانه ــ رغم أنه كان يعرف اللاتينية لكنه لم يتحدث بها مطلقا ــ وتذكر عندئذ أنه سبق له فيما مضى أن تحدث باللغة اللاتينية مع أصدقائه القدامى الذين كانوا يتحدثون بها ، فأخذت الجمــل تتدفق من بين شــفتيه باللاتينية وبسقدرة غريبة ، وعثر فجأة على أناقة العبارة وصحتها ، وتحــدث بهــا بطلاقة كما لو كان يتحدث بالفرنسية . وكل ذلك كان من المحال أن يحدث الا نتيجة تعليم ومران ، وأنه ما لم يكن قد مر بهذه اللغة فيما مضى فانه كان من المحال عليه أن يحصل بغتة على قدرة كهذه .

ويقول صاحب المقال ان الحديث هنا لم يكن عبارة عن نطق بضع كلمات بلغة أجنبية كما يحــدث أحيانا فى بعض حالات اليقظة النومية الحركية ، أو فى حالات الحمى الشديدة ، حيث يتفوه أحيانا الانســان ببضع كلمات ، أو يروى بعض مشاهد تكون قــد مرت فعــلا فى حياته الراهنة ثم نسيها . كلا بل لقــد كان الأمر متعلقا بحوار أجراه شخص متيقظ فى طلاقة بلغــة لم يســتخدمها من قبل فى الحديث ، وبلا تردد ، أو تعثر ، وباستخدام كامل لمواهبه الدفينة .

وهذا يعنى بحسب الظاهر ، بالنســبة للنطق ، وللتعبير عن الآراء اســتخدام قدرة ظلت خامدة لأمد طويل ، لكنها استيقظت فى الوقت المناســب ، وبتأثير دفعة من جهوده الخاصــة . ولا يمكن لانســان أن يستحوذ بغتة على قدرة الحديث فى طلاقة بلغة ما حتى ولو كان يعرف كلماتها ، وقواعدها النحوية .

ثم يتبقى الجانب الأخطر وهو التعبير عن الآراء فان ذلك يتوقف على حسن استخدام عضلات الحنجرة ، وعلى الجهاز العصبى ، ولا يمكن تحقيقه الا بالمران • فاذا أضيف الى البعث المباغت الذى حدث فى اللغة ، والذكريات المحـددة التى تحركت لديه عن الأماكن التى كان فيما مضى يسكنها ويرتادها ،فانه تتوافر قرائن قوية لتقبل الحيوات المتعددة بوصفها تمثل أكثر التفسيرات اتساقا مع سائر الشواهد والبينات •

واقعة يرويها كارل يونج عن نفسه

ومن نفس هذه الطائفة واقعة يرويها كارل يونج العالم النفسى الذائع الصيت (١) ، الذى يبدو فى العديد من آرائه واختباراته متعاطفا مع مبدأ العودة للتجسد • وقد ذكرها فى كتاب له عنوانه « حياتى » Ma Vie (٢) بمناسبة وصف رحلة قام بها الى كينيا Kenya فى أفريقيا الاستوائية •

يقول يونج « كان القطـار مغلفا بخيمة من التراب الأحمر ، ويدور حول منحدر من الصخور الحمراء • وكان يقف على ربوة من فوقها شخص أسمر نحيل مستندا الى رمح طويل ، وملقيا نظره الى أسفل نحو القطار، وبجواره شجرة صبار ضخمة •

وشعرت بهذا المشهد كما لو كان قد سحرنى ، فهى لوحة جديدة علىَّ تماما ، ولم أشاهدها من قبل ، ومع ذلك فقد أعطتنى شعورا متدفقا بظاهرة « رؤى من قبل » • اذ أصبح لدىَّ انطباع بأننى قد سبق لى أن عشت هذه اللحظة من قبل ، وأننى كنت أعرف دائما هـذا المكان الذى لا يفصله عنى الا تباعد الزمن • وكان احساسى كما لو كنت قد عدت من جديد الى نفس البلاد التى عرفتها فى شبابى ، وكما لو كنت قد عرفت من قبل هذا الشخص الأسمر الذى بدا لى كما لو كان ينتظر أوبتى منذ

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول صفحة ٧٦ ــ ٨٠ ولنا عودة الى موقفه من اللاشعور فى الباب التاسع •

(٢) ولهذا الكتاب ترجمة فرنسية بمعرفة كاهان Cahen و ليلاى Lelay

خمسة آلاف سنة •••• وشعرت بكل بساطة أن عالمه كان عالمى منذ آعداد لا تحصى من السنين » !! •••

والاحساس المفاجىء الغريب عند السياحة فى بلاد أجنبية بأننى « سبق أن عشت فى هذه البلاد أو سبق أن شاهدتها » أكده سائحون عديدون على نفس النحو الذى رواه كارل يونج ، وألفونس لامارتين ، وتيوفيل جوتييه ، وألكسندر ديماس ••• وغيرهم ولم يعثر العلم على تعليل له أفضل من القول بالعودة للتجسد ، كما سبق أن بينت ، وكما ستتضح الصورة للقارىء تماما من خلال ما سيرد من بيانات فيما بعد •

طائفة من « ذكريات » بعض أعلام الحرب والسياسة

ويروى الجنرال جورج باتون George Button (١٨٨٥ — ١٩٤٥) عن نفسه أنه كان وسيطا للجلاء البصرى • ويقول أنه واجه موقفا حرجا فى الحرب العالمية الأولى عندما كان يقود جيشه فى فرنسا ثم شاهد أرواح بعض أقاربه المنتقلين ، فكان أن جاءه الالهام بالمبادرة الى الهجوم الفورى، فنهض وقام بهجمة مباغتة حققت النصر لجيشه وأصيب فيها بجراح بليغة شفى منها فيما بعد •

كما يقول أنه شاهد روح والده مرارا عديدة ، وأنه ظهر له بعد وفاته فى سنة ١٩٢٦ بسنة واحدة ، وأنبأه بأنه سيشترك فى اكبر حرب فى التاريخ ، وقد تحققت النبوءة باشتراكه فى الحرب العالمية الثانية •

وكان الجنرال باتون يعتقد أيضا فى صحة العودة للتجسد ، ويقول أنه فى تجسد سابق له اشترك فى حروب طروادة ، ثم فى فرقة قيصر العاشرة ، ثم فى الحروب الصليبية •

وهو فى ذلك يشبه نابليون بونابرت الذى كان يعتقد أنه هو نفسه الاسكندر الأكبر ، وقد عاد للتجسد من جديد • وكان نابليون يؤكد ذلك لبعض خلصائه الذين كانوا يحملون أقواله على محمل الدعابة لا الجد •

وبطبيعة الحال يتعـــذر اقامة الأدلة على صحة هذه الأقوال ، التى لا قيمة لها البتة فى مقام الدراســـات العلمية ، وانما أوردتها هنا لبيان كيف أن فئة من الشخصيات البارزة لم تجـــد غضاضـــة فى الحديث عن تجسدات سابقة لها ، تقول ان آثارها لا تزال عالقة بذاكرتها .

طائفة من معتقدات زعماء النازى

ومن هذا القبيل أيضا ما كان يعتقده نفر من زعماء النازى من أن لهم تجسدات سابقة فى عصور مختلفة . فمثلا هناك طبيب نمساوى يدعى شتاين Stein عرف أدولف هتلر فى صدر حياته ، ثم هرب من ألمـــانيا ، وظل لاجئا فى انجلترا طيلة الحرب العالمية الثانية . ويقول ان هتلر عرف عالمـــا معنيا بالأمور الروحية يدعى ديتريش ايكارت Ditrich Eckhart .

وعن طريق هـــذا الأخير اكتشف هتلر تجســـدا سابقا له فى القرن التاسع باسم لاندولف الثانى وهو رئيس أساقفة كاربو Capoue . وكان يعيش فى كارلتا بيلوتا Carlta Belota فى القرن التاسع ، وكان يقيم فى قلعة تقع فى أعلى تل كاســـتللو Monte Castello فى الجنوب الغربى من جزيرة صقلية .

وكان هتلر يعتقد أيضا عن نفس الطريق أنه اكتشف تجســـدا آخر سابقا له ، اذ كان هو نفســـه الامبراطور الرومانى تبيريوس Tibére الذى توفى فى جزيرة كابرى Capri (١) .

كما كان جورنج Goering — قائد الطيران النازى — يعتقد أنه كان متجسدا مع زعيمه هتلر فى القرن التاسع ، وأن اسمه كان الكونت بويز Boese وكان صديقا خاصا للاندولف الثانى . وأنه كان أيضا متجسدا

(١) هو الامبراطور تبيريوس كلوديوس Tiberius Claudius ثانى أباطرة الرومان (١٤ — ٣٧ م) وكان مشـــهورا بالقســـوة والصرامة والوحشية لكنه نجح فى تثبيت دعائم الامبراطورية فى وجه الجرمان .

فى القرن الثالث عشر باسم كونراد دى ماربورج Konrad de Marburg عندما كان جوبلز Goebbels — وزير الدعاية النازى — متجسدا باسم اكبرت دى ميران Eckbert de Méran أسقف بامبرج Bamberg • وكان كلاهما صديقين للكونت داكيرا d'Acerra حاكم نابولى وكابرى الذى توفى فى سنة ١١٩٧ •

وكان هيملر Himmler يعتقد بدوره أنه عودة لتجسد هنرى الأول Henri 1er l'Oiseleur أول ملوك السكسون •

وكان الجنرال الألمانى لودندورف Ludendorff قائد القوات الألمانية فى الحرب العالمية الأولى يعتقد انه عودة لتجسد البابا يوحنا الثامن Jean VIIII صديق وشريك لاندولف الثانى • ولودندورف هذا هو الذى لعب دورا كبيرا لوصول النازى الى السلطة فى سنة ١٩٣٥ •

* * *

ويتساءل الباحث جان فرانسيس كرولار Jean-Francis Crolard قائلا : ماذا نستخلص من هذه الأقوال كلها ؟ ••• هل كان زعماء النازى جميعا ضحايا هذاءات كاملة ، وهل كانوا من المجانين الخطرين ؟ لكن من أفلتوا من معسكرات الاعتقال كان يراودهم احساس بأنهم ضحايا طقوس دموية شيطانية قريبة الصلة بما كان يجرى فى العصر الوسيط فى محيط جهنمى متعطش الى دماء الضحايا الآدمية •

ثم ان أساتذة العلم الروحى يتحدثون كلهم عن هذا الميل العام الموجود لدى الأرواح التى عاشت معا فى عصر معين من التاريخ أن تعود للتجسد معا فى وقت واحد فى عصر آخر •

ولذا يقولون أيضا ان الامبراطورية الاستعمارية البريطانية قام بانشائها نفر ضخم من قدامى المستعمرين الرومان الذين عادوا للتجسد من جديد (١) •

---

(١) Renaitre Après La Mort. Paris 1979 p. 164 — 167.

وعلى أية حال فكل هذه الأقوال — أيا كان نصيبها من الصحة أو البطلان ، ومن الصدق أو من الضلال لا وزن لها عند العلماء الجادين الذين يبحثون عن تجسدات سابقة لأشخاص معينين تكون معززة بوقائع ثابتة ، وبأدلة مادية يمكن التثبت منها بوسائل التحقيق والتقصى المألوفة • ثم يمكن اخضاعها لمتطلبات التحليل العلمى والرياضى بعد توسيع رقعة البحث الى أبعد مدى ممكن •

تحقيق حديث بالصور والخطوط

وهذا الأسلوب فى تحقيق واقعة أو أكثر من وقائع العودة للتجسد مع الاستعانة ببعض السبل العلمية فى التحقيق استخدمته حديثا وسيطة بريطانية تدعى كلاريس توين Clarice Toyne كانت وسيطة للتخاطر مع عالم الغيب Telepathy • أى أنها كانت تتلقى رسائل من كائن مجهول رفض أن يكشف عن شخصيته وكان يضع توقيعه على رسائله باسم مستعار هو : المدرس أو الأستاذ Teacher ، وظل على صلة بها لمدى عدة سنوات •

ويتضح بجلاء من رسائله أنه مدرس ممتاز ذو اطلاع واسع بوجه خاص فى فلسفة الهند ، وفى التعرف على بعض أسرارها وعقائدها • لذا فهو يبدو مقتنعا تماما بصحة دعوى العودة للتجسد ، مع محاولة تعليلها دواما بأسانيد انسان مثقف ثقافة طيبة فى الفلسفة ، وفى اللاهوت ، وأيضا فى البيولوجيا ، وفى علم النفس •

ولكى يقنع وسيطته بصحة اقتناعه الخاص أخذ يرشدها الى وقائع محددة عن عودة بعض الشخصيات التاريخية التى عاشت فى الغرب منذ عدة قرون الى التجسد من جديد فى الحياة الأرضية تحت أسماء مشهورة أو مغمورة •

وفى هذا الشأن تلاحظ كلاريس أن الشهرة قد ترجع بالاضافة الى

مواهب معينة لدى الشخص المشهور الى ظروف معينة تكون قد أحاطت به فى أثناء مروره العابر على الأرض فى حياته الجديدة ، ومنحته بالتالى الأسباب الأخرى لأن يعيش مشهورا أو مغمورا بحسب الأحوال •

وبحسب هذه الرسائل المتعددة التى أخذت ترد على الوسيطة تباعا خلال عدة سنين من الكتابة التلقائية :

ـ يكون الفيلسوف الرياضى بليز باسكال Blaise Pascal (١٦٢٣ــ١٦٦٢) هو نفسه الذى عاد للتجسد من جديد باسم المفكر بيير تيلهــارد دى شاردان Pierre Teilhard de Chardin (١٨٨١ــ١٩٥٥)•

ـ ويكون فيكتور هيجو Victor Hugo (١٨٠٢ ــ ١٨٨٥) هــو نفسه الذى عاد للتجسد فيما بعد تحت اسم رفضت المؤلفة أن تفصح عنه لأسباب غير واضحة ، وأعطته كناية عنه اسم «الفنان» The Artist وقالت انه عاد للتجسد من سنة ١٩٠١ ــ ١٩٥٣ •

ـ ويكون هانز كريستان أندرسون Hans Christian Anderson (١٨٠٥ ــ ١٨٧٥) الروائى الدانيمركى المعروف بقصصه للأطفال هو نفسه الذى عاد للتجسد باسم الممثل الأمريكى دانى كاى Danny Kaye (ولد فى سنة ١٩١٣) • ومن الطريف أن هذا الممثل مثل فى أحد أفلامه شخصية هانز كريستيان أندرسون ، ونجح نجاحا باهرا نظرا للشبه الصارخ بينهما فى الملامح والتقاطيع على ما سنوضحه بالصور فيما بعد •

ـ ويكون الفيلسوف الفرنسى المعروف بتهكمه المر فرنسوا فولتير F. Voltaire (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨) هو نفسه الأديب الذى عاد للتجسد تحت اسم جورج برنارد شــو G. B. Shaw (١٨٥٦ ــ ١٩٥٠) الأديب الايرلندى الذائع الصــيت فى ميدان التهكم بالذات • وكلاهما له عدة روايات مسرحية معدنها التهكم على الناس أجمعين •

ـــ ويكون ليجراند كونديه Le Grand Condé (١٦٢١ــ١٦٨٦) ، وهو حاكم احدى المقاطعات الفرنسية فى القرن السابع عشر ، هو نفســه الذى عاد للتجسد تحت اسم جوزيف الثانى Joseph II (١٧٤١ــ١٧٩٠) ثم عاد من جديد للتجسد تحت اسم شارل ديجول Ch. de Gaulle رئيس جمهورية فرنسا (١٨٩٠ ــ ١٩٧١) •

ـــ وتكون مدام دى ســتايل de Staël (١٧٦٦ ــ ١٨١٧) هى نفسها التى عادت للتجسد تحت اسم الســيدة ايثيل ســمايث Ethel Smythe (١٨٥٦ ــ ١٩٤٤) •

ـــ ويكون صمويل جونسون Samuel Johnson (١٠٧٩ــ١٧٨٥) وهو كاتب ومفكر أخلاقى معروف هو نفسه الذى عاد للتجسد من جديد باسم جـ كـ• ستسترتون G. K. Chesterton (١٨٧٤ ــ ١٩٣٦) وهو أيضا كاتب أخلاقى ، ومفكر ومتصوف معروف •

ـــ ويكون توماس وينتورث Thomas Wentworth (١٥٩٣ ــ ١٦٤١) ايرل سترافورد Earl Strafford الذى كان سياسيا مناضــلا ذا عزيمة وارادة حديدية ، ورغبة عارمة فى التنظيم والاصلاح ، ووزيرا بارزا فى عهد شارل الأول هو نفسه الذى عاد للتجسد من جديد تحت اسم ونستون تشرشل W. Churchill (١٨٧٤ ــ ١٩٦٥) رئيس الوزارة البريطانية الذى قاد الحرب العالمية الثــانية بنجاح فى مواجهــة النازى (١) •

* * *

ولم تأخذ كلاريس تونين أقوال روحها المراسل قضايا مسلما بصحتها لمجرد أنه قال لها ذلك • بل لجأت الى أسلوب منهجى ههو الأول من نوعه فيما أعتقد • وهو أنها عمدت ــ بمعاونة زوجها ــ الى كتب التاريخ ، والأدب ، والسياسة لتقارن بين طباع وأسلوب وطريقة الفرد الواحد فى تجسدين مختلفين له لتضع بينهما مضاهاة هادئة تتسم بالذكاء ، والفن ،

---

(١) رأس الوزارة من ١٩٤٠ ــ ١٩٤٥ ثم من ١٩٥١ ــ ١٩٥٥ •

أى عمدت الى تطبيق أسلوب التحليل النفسى على الشخصيتين اللتين تمثلان تجسدا أو عودة لتجسد نفس الفرد . وساعدها على ذلك أنها — بعد أن تلقت هذه الرسائل الروحية الفريدة ، وقبل نشرها — اطلعت على كتاب أستاذ التحليل النفسى أيان ستفنسون Ian Stevenson الذى عنوانه « عشرون حالة ترشح للعودة للتجسد » (١) فى سنة ١٩٦٦.

وقد استخدم فيه هذا العالم الأمريكى منهج التحليل النفسى على الحالات التى ترشح للعودة للتجسد ، والتى استبقاها من بين مئات الحالات التى قام بعمل مسح شامل وشاق لها فى عدة أرجاء من الكرة الأرضية لظاهرة « رؤى وسمع من قبل » (٢) .

وذكرت المؤلفة أن كتاب ستفنسون عاونها أيما معاونة فى الدراسة — الطريفة والذكية — التى قامت بها بدورها . على أنها لم تكتف بتطبيق منهج التحليل النفسى على هذه الشخصيات ، بل عمدت الى عمل مضاهاة بالصور ، فجاء التشابه فى الملامح صارخا أحيانا ، الى حد من حقه أن يثير فينا العجب وأن يشد الانتباه كما يتضح من بعض النماذج الآتية :

وهذا بالاضافة الى عمل مضاهاة للخطوط كلما كانت المضاهاة ممكنة . ومنها مضاهاة بين توقيعى فرانسوا فولتير وبرنارد شو مثلا فاتضح وجود بعض أوجه للشبه بينهما ، لا الشبه كله . وهذا أمر متوقع لتداخل بعض العوامل الجديدة ، ومنها تلك التى تنتمى الى قوانين الوراثة ، والى تأثر الشخصية الجديدة ببعض العوامل المكتسبة الى جانب تكوينها الفطرى الأصيل ، المتطور دواما .

وهذه الوقائع الفريدة ، المصحوبة بالتحقيق المثابر الذى قامت المؤلفة بعمله ، جعلت منه موضوعا لكتاب حديث من أطرف الكتب فى

---

(١) Twenty Cases Suggestive of Reincarnation.

(٢) راجع ما سبق بشأنها فى صفحة ١٠١٠ — ١٠٢٧ .

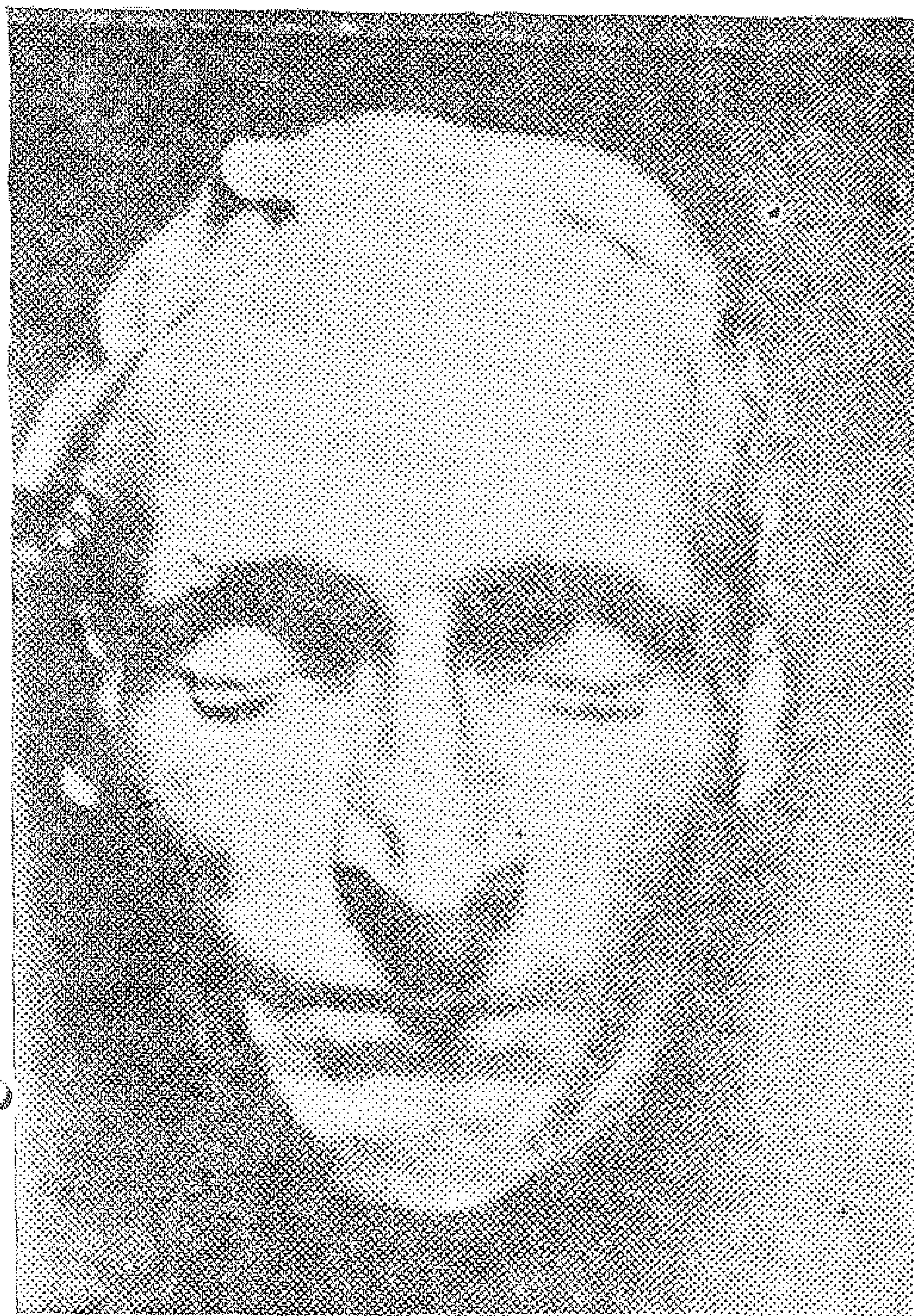
شأن العودة للتجســد وأجدرها بالقراءة ، وعنوانه « الورثة الشرعيون للخلود » (١) ١٩٧٦ .

وقد خصصت المؤلفة لدراســة كل شخصية من الشخصيات التى تناولتها فى كتابها فصلا على حدة وذلك بعد أن سردت تفصــيلا قصــة اتصالاتها الروحية بروحها المراسل ، أى « بالمدرس » Teacher كما كان يلقّب نفسه فى رسائله . وهى الأولى فيما أعتقد التى تتضمن سردا لوقائع محددة عن العودة للتجسد لبعض الشخصيات التاريخية مصحوبة ببعض البيانات اللازمة التى تساعد على التحقيق والتقصى .

وأكتفى منه بهذا القدر ، كما أكتفى ببعض الصور اللازمة لعمــل المضاهاة فى الملامح ، ثم أقدم بعد ذلك بعض بيانات لا غنى عنها عند رغبة عمل أية مضاهاة سليمة بين الخطوط والتوقيعات . وهى بيانات أرجو أن تكون موضع الاعتبار ، خصوصا لأننى أعتقد أن هذا الأسلوب الجديد فى بحث موضوع العودة للتجســد سوف يكون له فى المستقبل صــداه الواسع وأتباعه العديدون .

---

(١) Clarice Toyne : Heirs to Eternity 1976.
Publisher : Neville Spearman. London.



بليز بسكال
١٦٢٣ – ١٦٦٢
(قناع الموت)



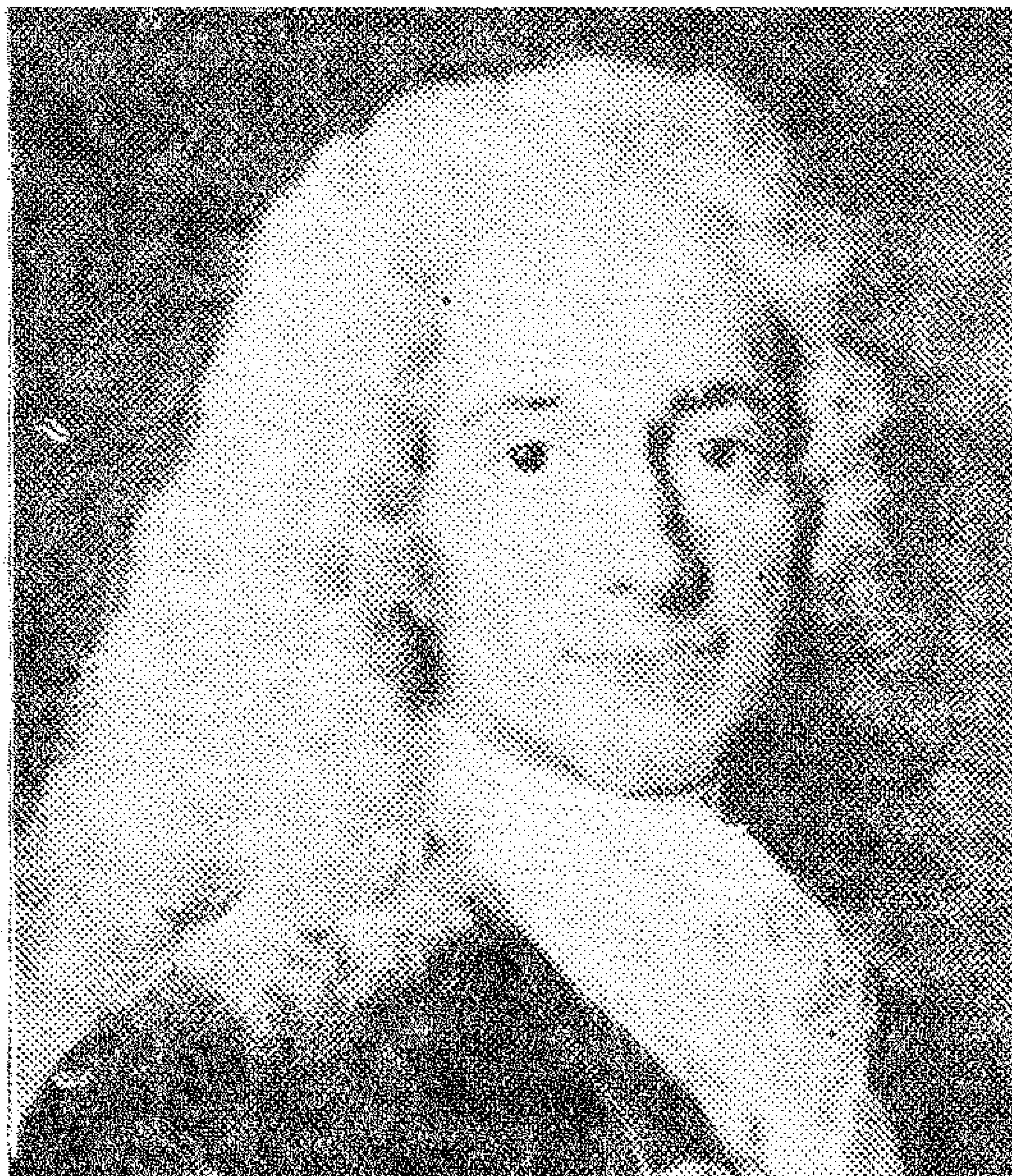
بيير تيلهارد دى شاردان
(١٨٨١ – ١٩٥٥)



هانز كريستيان أندرسون
(١٨٠٥ – ١٨٧٥)



دانى كاى
(ولد فى سنة ١٩١٣)



فرنسوا فولتير
(١٧٧٨ — ١٦٩٤)



جورج برنارد شو
(١٩٥٠ — ١٨٥٦)



ليجراند كونديه
(١٦٢١ — ١٦٨٦)



جوزيف الثانى
(١٧٤١ — ١٧٩٠)



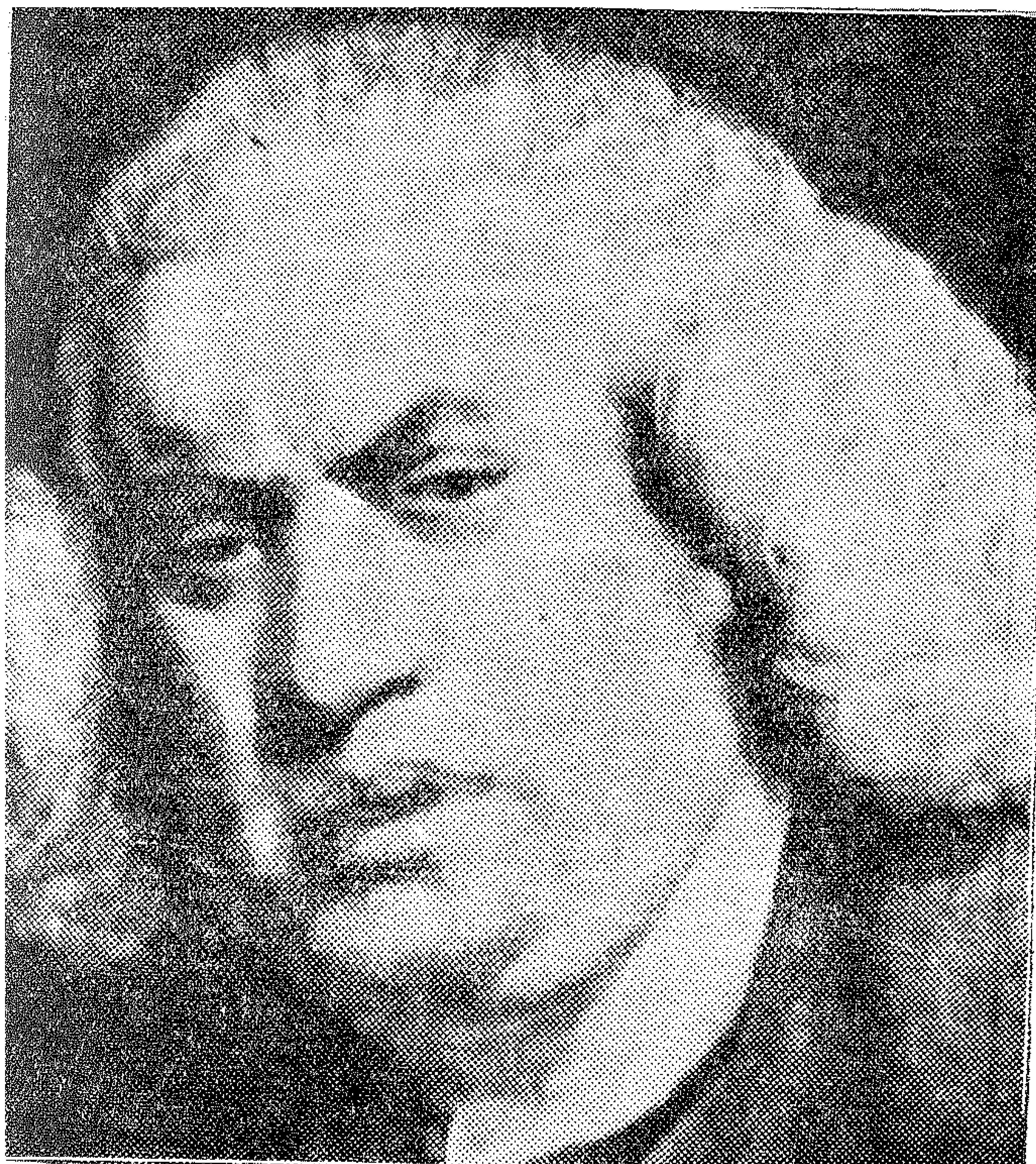
شارل ديجول
(١٨٩٠ — ١٩٧١)



مدام دی ستــایل
(١٧٦٦ - ١٨١٧)



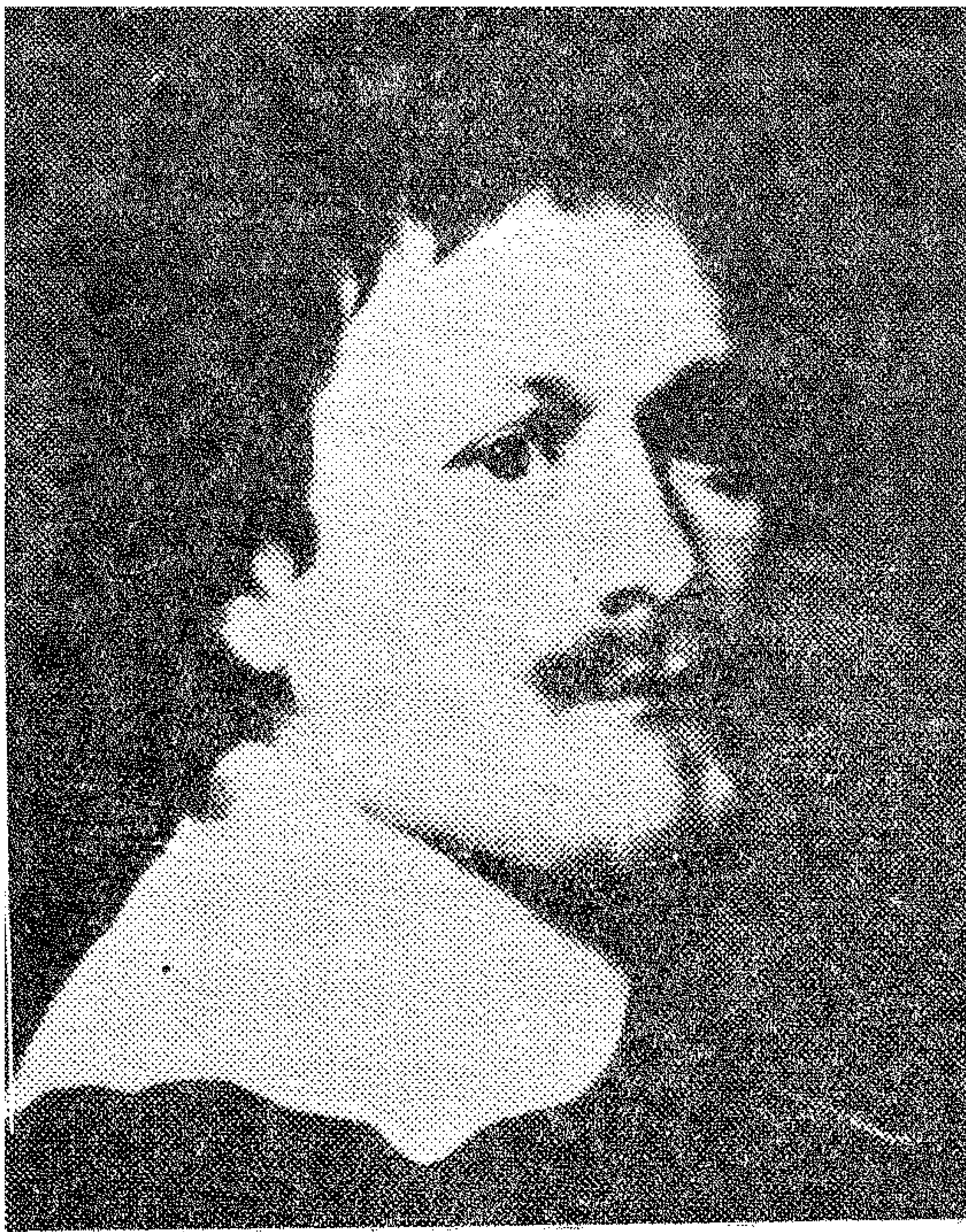
ایثیــل سـمایت
(١٨٥٦ - ١٩٤٤)



صمويل جونســون
(١٧٠٩ — ١٧٨٤)



ج . ك شسترتون
(١٨٧٤ — ١٩٣٦)



توماس وينتورث
(١٥٩٣ - ١٦٤١)



ونستون تشرشل
(١٨٧٤ - ١٩٦٥)

G. Bernard Shaw

Voltaire

Sam: Johnson.

G.K. Chesterton

Winston S. Churchill

Victor Hugo

Chantal

Ch. Baudelaire

Pascal

بعض توقيعات « العائدين للتجسد »
للمضاهاة بين توقيعاتهم الراهنة والسابقة

تعليق واحالات

لاريب أن هذه الصور لها قيمة خاصة من ناحية محاولة تعليل شكل الانسان أو بنيانه العضوى بوجه عام ، فهل ننسبه الى الفطرة أم الى الاكتساب ؟

هذا وقد تعرضت لهذا الموضوع فى الفصل الثانى من الباب الخامس وعنوانه « فى العقل والتكوين الفطرى » (١) ثم عدت اليه من جديد فى الفصل الرابع من الباب السادس وعنوانه « فى موقف العلوم الجنائية من مشكلة الارادة » (٢) . وبينت كيف أن هناك صراعا ما يزال ناشبا بين المدارس التى تغلب فى سلوك الانسان دور الفطرة ، وهى تتضمن جميع العوامل الوراثية ، وتلك التى تغلب دور الاكتساب ، وهو يتضمن جميع العوامل البيئية غير الوراثية .

وقلت — بعد مقارنة كافية — اننى وان كنت أسلم بوجود دور محسوس للعوامل الاجتماعية نظرا لقابلية التكيف الفطرية فى الانسان ، الا أننى أميل الى تغليب دور الفطرة بوصفها أقوى أثرا فى توجيه سلوك الانسان الى اتجاه دون آخر ، سواء بالنسبة لردود الفعل الغريزية ، أم بالنسبة لردود الفعل التى يمكن اسنادها الى استخدام المنطق الاستدلالى استخداما صحيحا أو خاطئا .

فدور الفطرة ما يزال — فى النتيجة التى أقنعتنى — أقوى أثرا من دور الاكتساب وأوضح منه مفعولا . وألتقى فى هذا الرأى مع العديد من المدارس الحديثة فى علم الاجرام ومنها بوجه خاص المدرسة الطبيعية الحديثة . التى يبدو أنها أميل الى تغليب دور الفطرة ، وفى نفس الوقت أميل الى عدم انكار دور الارادة الانسانية بالكلية فى توجيه سلوكه ، بل التسليم بأنها تلعب فى هذا السلوك دورا ما يتعذر انكاره تماما .

(١) راجع ما سبق فى صفحة ٤٤٠ — ٤٦٨ .
(٢) راجع ما سبق فى صفحة ٦٦٥ — ٦٩٣ .

وهذا الدور يتعذر قياسه لأنه يتراوح تراوحا كبيرا من انسان الى آخر كما تتراوح كل ملكات الانسان ، وطاقاته العقلية والعضوية •

وتكرار نفس الملامح للفرد الواحد لا بد أن يسهم اسهاما واضحا فى تغليب دور الفطرة على دور الاكتساب فى البنيان العضوى للانسان • وبالتالى فى شتى نواحى سلوكه السوية والشاذة ، الاجتماعية والمضادة للمجتمع •

وقد يساعد على قبول هذه النتيجة الخطيرة ليس فحسب ملاحظة التشابه الواضح — والصارخ أحيانا — بين التكوين العضوى لأصحاب هذه الصور فى تجسد سابق لهم مع تكوينهم العضوى فى تجسد لاحق ، بل أيضا التحليل النفسى الذى قامت به المؤلفة كلاريس توين لبعض نواحى السلوك التى يمكن أن تسند لنفس الشخص فى تجسدين مختلفين له على الأرض •

وذلك خصوصا من ناحية بعض المواهب العقلية والأدبية التى تكررت بأشكال متقاربة : مثلا عند بليز بسكال وبيير دى شاردان ، ثم عند فرنسوا فولتير وجورج برنارد شو ، ثم عند صمويل جونسون و ج•ك شسترتون •••••

فهذه النتائج تعزز — ولو الى حد ما والى مدى محدود — وجهة نظر القائلين بتغليب دور الفطرة والوراثة فى سلوك الانسان وملكاته على دور البيئة والمران فى شأن هذا السلوك وتلك الملكات •

لكن الأمر الجديد فى الموضوع — والبالغ أقصى درجات الخطورة — هو أن الفطرة تكتسب على هذا النحو مفهوما جديدا أوسع بكثير مما تصور الباحثون التقليديون • فهو ينبغى أن يتضمن عنصر وراثة الذات من نفسها قبل عنصر وراثة الذات من أبويها أو من أجدادها القريبين أو البعيدين •

ذلك أن شخصية الانسان تكون على هذا النحو حصيلة تفاعل روحه الأزلية وجسده المـادى • واذا كان الانسان يرث جسـده من أبويه أو أجـداده ، فهو لا يرث روحه منهما ، لأن الروح لا تورث ، ولا تلد ولا تولد • وبالتالى فان صلة الانسان بأبويه تكون من الناحية المـادية صلة لحم ودم ومن الناحية العاطفيـة تكون هذه الصـلة محض رابطة كارمية ، أو عدة روابط كارمية ترجع الى تجسد مشترك معا أو عـدة تجسدات مشتركة جمعت بينهم بروابط عائلية ، أو اجتماعية ، أووطنية ، أو عقيدية ، أو اقليمية •••••

وهذه الرابطة الكارمية أساسها الأول العاطفة العميقة المؤسسة على الحب ، أو على المصلحة والتى قد تستهدف اقتضاء حق سابق ، أو سداد دين قديم • ولكنها قد تكون أيضا — عند انحطاط الأخلاق والمدارك — مؤسسة على محض الجهل أو الغباء ، وربما على الحقد أيضا وتستهدف مجرد الانتقام من عدوان قديم •

وهكذا يبين تماما أن مصير الانسان يتوقف فى أمور أكثر مما يبدو لأول وهلة — على مدى ما يتمتع به من نضـج فى العقل وفى الأخلاق • خصوصا اذا وضعنا فى الاعتبار أن الانسان قد يطلب منه أن يتخير أسرته المقبلة كما قال سير أوليفر لودج Oliver Lodge العالم الفيزيائى الكبير •

واذا صح أن بمقدور الفرد أن يتخير أسرته المقبلة — وهذا ما أيدته بعض الأبحاث — فان هذا الاختيار لا يكون مطلقا ، بل ما يزال محكوما فى النهاية بقوانين طبيعية عديدة • منهـا — غير قانون الكارما — قانون التجاذب الروحى الذى يعبر عنه بأن الطيور على أشكالها تقع ، أو أن كل شبيه منجذب الى شبيهه ، حتى لا بفسـد تماما ما يسـود الطبيعة من تناسق ، ومن توافق واضح ، نلمسه حتى هنا على المستوى الأرضى بين أبناء الأسرة الواحدة ، والاقليم الواحد ، والوطن الواحد •• ولوالى مدى محدود لكنه ملموس فى النهـاية ومعترف به تماما فى العلوم الانسـانية والطبيعية •

وبالتالى فانه يصدق على اختيار الأسرة المستقبلة ما نشاهده حتى فى الحياة الأرضية من اختيار الأسرة المستقبلة عن طريق المصاهرة • ويماثله اختيار الوطن الآخر عن طريق الهجرة ، واختيار الحى الآخر عن طريق تغيير الاقامة ، واختيار الزملاء الآخرين عن طريق تغيير العمل ••••

فكل هذه الضروب من الاختيار ليست نتاج محض ارادة حرة ، بل هى مقيدة باعتبارات متشابكة عديدة تنتمى فى النهاية الى نواميس طبيعية هى تلك التى نستخدمها على نحو طيب فيكون اختيارنا ناجحا ، أو نستخدمها على نحو سيء فيكون اختيارنا فاشلا ، وفى الحالين نحصد ما نزرعه من غراس النجاح أو الفشل • والأمر فى النهاية رهن بمدى ما يصاحب اختيارنا من نضج فى العقل وفى الأخلاق ، وعناصر هذا النضج متعددة تعددا لا نهاية له •

* * *

ولذا تلزم كلمة هنا عن محاولة مضاهاة الخطوط بين توقيعات العائدين للتجسد فى حياتهم السابقة واللاحقة ، وهى أننا لا ينبغى أن نتوقع أبدا أن تكون المطابقة تامة بين أى توقيعين لشخص واحد فى تجسدين متتابعين ، حتى ولو توافرت قرائن كافية للقول بأن هذين التجسدين ينتميان الى فرد واحد •

ذلك أن هذا الفرد الواحد يستخدم فى توقيعه الجديد تكوينا عضويا جديدا فى جوهره ، حتى وان كان من صنع مبدأ روحى واحد فيه • ومن شأن تغيير هذا التكوين العضوى أن يستخدم الفرد جهازا عصبيا جديدا ، ناهيك بالجهاز العضوى الجديد برمته • وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يحدث تغيير يتفاوت مداه من ناحية الخطوط والتوقيعات •

لكن هذا التغيير لا ينفى فى الوقت احتمال بقاء بعض أوجه الشبه فى الخطوط بمقدار بقاء بعض أوجه الشبه بين التكوين العضوى اللاحق

---

(١) راجع ما سبق عن التمييز بين الفرد والشخصية فى صفحة ٩٠٠ — ٩٢٦ •

والســابق ، وغالبية الميول والملكات التى تتطور قليــلا بمضى الوقت ، وبحسب ظروف البيئة الجديدة .

وبالتالى فان الأمر الطبيعى المتوقع هنا هو أن الخط الجديد لهذا الفرد فى تجســده الجديد لا يتطابق تماما مع خطه الســابق ، بل يكفى توافر نسبة كافية من السمات المشتركة بين الخطين السابق واللاحق .

وبعبارة أخرى ان كل المتوقع هو أن يحمل الخط الجديد أكثر من وجه للشــبه مع الخط القــديم ، بحيث يمثل هذا الوجه الحــد الأدنى لمــا يمكن أن يوجد فى مثل هــذه الظروف ، بغير أن تتوقع تطابقا تاما بين الخطين . ومع مراعاة أن التطابق التــام بين توقيعين مختلفين لنفس الشخص فى حياة واحدة أمر يرفضه علم مضاهاة الخطوط ، الذى يتطلب أن تجرى المضاهاة على أساس البحث عن بعض الخصائص المشتركة بين الخطين ، لا على أساس البحث عن التطابق التام بين أى توقيعين ولو كانا منسوبين لشخص واحــد ، لأنه أمر محال حدوثه من النــاحية الفنيــة والواقعية .

وهذه المشكلة تماثل فى الواقع ــ الى حد ما ــ مشكلة مدى التطابق المتوقع حدوثه بين خط أية رســالة قد يكتبها وسيط الهيمنة الروحية ، وبين خط الروح المراسل قبل أن يتخلى بالموت عن جسده المــادى . وهنا أيضا ذكرت فيما سبق أنه من غير المتوقع أن يكون التطابق تاما بين الخطين ، وأن المطلوب هو فحسب أن توجد نسبة كافية من السمات المشتركة بين الخطين لامكان القول بحدوث هيمنة حقيقية على وعى الوسيط (الشعورى فى اليقظة واللاشعورى فى الغيبوبة) أو على يده بحسب الأحوال .

وقد سبق تناول هذا الموضوع ، بما يغنى عن العودة اليه من جديد هنا . وأجدر بالاعتبار من الســمات المشتركة بين الخطين وجود بعض الســمات المشــتركة بين شتى الاهتمامات والملكات والميــول والآراء والأساليب ... (١) وكل هذا يجرى بحثه الآن فى اطار الباراسيكولوجى على أوسع نطاق ممكن .

(١) راجع ما سبق فى صفحة ١٩١ ــ ١٩٥ .

المبحث الخامس

حالة فريدة عن « العودة للتجسد »
كانت موضوع رسالة دكتوراه فى الطب النفسى

الوقائع

بالاضافة الى تلك الأدلة الوضعية الكثيرة التى قدمها الباحثون العصريون ، والتى قد تؤيد احتمال صحة دعوى « العودة للتجسد » ، ثمة طائفة أخرى من الأدلة لها طابع خاص فريد • وهى عبارة عن مجرد تنبؤات بقرب عودةانسان معين بالذات للتجسد أبديت فى « الجلسات الروحية » عن طريق « الطرقات المسموعة » ، أو « تفوهات الغيبوبة » ، أو « لوحة الحروف الهجائية » •• أو غيرها من طرق التراسل بين العالمين ، وقد تحقق بعضها على وجه قوى أو ضعيف •

ومن هذه الطائفة من الوقائع الفريدة التى خضعت للتمحيص الدقيق ما نشر فى مجلة « فلسفة العلم » (١) التى كان يصدرها فى Palerme بايطاليا الدكتور اينوسنزو كالدرونى Innocenzo Calderone وها هى التفصيلات نقلا عن كتاب « الحياة اللاحقة » Vie Posthume للبحاثة الروحى شارل لانسلان Charles Lancelin • وقد أخذها من رسالة حصل بها صاحبها على درجة دكتوراه فى الطب النفسى من « كلية طب بالرمو » وهو الدكتور كارملو سامونا Carmelo Samona وعنوان الرسالة « الغاز الروح » (٢) • ويحسن أن نبدأ فى سرد تلك الأحداث الهامة بالخطاب الآتى :

عزيزى كالدرونى

رغم الصفة الشخصية تماما للوقائع التى سبقت ولادة طفلتى فاننى لا أتردد — خدمة للعلم — فى تقديمها للنشر فى مجلتكم المحترمة

---

(١) Filosofia della Scienza,

(٢) Psyche Mysteriosa.

الواسعة الانتشـار ، وبغير أن أخفى أسـماء الأشخاص المتعددين الذين يعرفونها ، وبقدر اتصالهم بها • واذا كنت أمتنع أنا عن مناقشتها ، فانني أرى مع ذلك ضرورة كشف النقاب عنها ، حتى يناقشها الآخرون •

ولا يمكن لأى علم أن يتقدم خطوة اذا كان يتجاهل الوقائع • واذا كان كل انسان يخشى السخرية ، أو لأى سبب آخر ، يحتفظ لنفسه بالوقائع التى تقع فى منطقة « ما وراء الروح » والتى تتفاوت فى مدى ندرة تحقيقها ، اذا فالوداع لكل أمل فى التقدم •

ولذا فهأنذا أرسـل اليك بيانا مفصـلا صادقا بصـفة مطلقة عن الوقائع كما حدثت ، وبدون أدنى مناقشـة من جانبى للمشكلات الهامة التى تثيرها •• وها هو البيان :

بتاريخ ١٥ مارس سـنة ١٩١٠ توفيت طفلتى المحبوبة الكسندرين Alexandrine البالغة من العمر خمس سنوات أثر اصـابتها بالتهاب سحائى خطير • وكان ألمى عميقا وكذلك آلم زوجتى ، الى حد كادت معه أن تفقد صوابها • وبعد ثلاثة أيام من وفاتها حلمت بها زوجتى ، وبدا لها أنها تراها كما لو كانت حية وسمعتها تقول لها : « لا تبك يا ماما ، فاننى لم أفترق عنك ، بل ابتعدت عنك فحسب • وترقبى بالأكثر عودتى اليك صغيرة على هذا النحو » • ثم ظهرت لها كما لو كانت قد أصبحت جنينا صغيرا كاملا • ثم أضافت قائلة : « وبالتالى فانك ستبدأين فى التألم من جديد بسببى » •

وبعد ثلاثة أيام تكرر لها الحلم مرة أخرى • وعندما علمت احـدى صديقاتها بذلك حاولت أن تقنعها ــ اما عن اقتناع شخصى ، واما لمجرد تعزيتها ــ باحتمال عودة ابنتها الى الحياة عن طريق ولادة جـديدة •• قائلة لها أن حلما كهذا يصح أن يكون اشعارا لها من ابنتها بأنها تستعد للولادة من جديد عن طريقهـا • ولكى تنجح فى اقناعها بامكان حدوث

واقعة كهذه أحضرت اليها كتابا لليون دنيز Léon Denis يعالج فيه موضوع « العودة للتجسد » • لكن شيئا لم ينجح فى تخفيف آلامها لا الأحلام ولا هذا التفسير ، ولا قراءة كتاب دنيز •

كما ظلت لا تصدق احتمال أن تصبح أما من جديد ، خصوصا وأنه كان قد حدث لها حمل زائف اقتضى تدخلا جراحيا لها بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠٩ أعقبه نزيف متكرر ، فأصبحت تقريبا متيقنة من أنها لا يمكن أن تحمل مرة أخرى •

وفى ساعة مبكرة من صبيحة أحد الأيام بعد موت طفلتها ، وكانت زوجتى تبكى كعادتها ، قالت لى وهى غير مصدقة : « اننى لا أرى أمامى سوى الحقيقة الرهيبة ، وهى اننى فقدت ملاكى الحبيب الصغير ، وهذا الفقد قاس أكثر مما ينبغى ، ورهيب الى حد أننى لا يمكن أن أتعلق بخيط أمل مستند الى مجرد أحلام كتلك التى مرت بى ، فأومن بحادثة غير متصورة وهى عودة ابنتى الحبيبة الى الحياة عن طريقى ، خصوصا عندما أتمثل فى ذهنى حالتى الصحية الراهنة •

وبغتة عندما كانت تندب حظها العاثر بطريقة مرة ويائسة ، وكنت من جانبى أجاهد لتعزيتها ، سمعنا ثلاث طرقات خشنة وقوية على باب الغرفة ، كما لو كانت صادرة من مفاصل أصابع أشخاص يبغون أن ينبهونا الى رغبتهم فى الدخول • وقد اشترك معنا فى الاستماع اليها أولادنا الثلاثة الصغار الذين كانوا معنا فى نفس الغرفة ، ولم يكن هناك — لدهشتنا العظمى — أى شخص يريد الدخول كما توقعنا ••

وفى نفس الليلة عزمنا على أن نبدأ فى عقد جلسات وساطية عن طريق « الطرقات المسموعة » Typtologie (١) وواظبنا عليها لمدة ثلاثة

---

(١) بحسب قاموس « لاروس العالمى » Larousse Universel يشير هذا التعبير — عند أنصار الروحية — الى الرسائل الواردة من الأرواح عن طريق طرقات الموائد التى تدور Tables Tournantes أو الطرقات على جسم ما •

شهور بالأقل • وقد حضرها زوجتى ، وحماتى ، وأنا ، وأحيانا ولداى الكبيران • منذ الجلسة الأولى اتصل بنا كائنان ، زعم أحدهما أنه ابنتى ، والآخر أنه شقيقة لى كانت قد توفيت منذ زمن طويل عندما كانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، والتى كانت بحسب أقوالها تقوم بدور المرشدة للطفلة الصغيرة ألكسندرين •

وكان أسلوب هذه الأخيرة يبدو هو نفس أسلوبها الطفلى الذى كانت تستخدمه عندما كانت ما تزال حية • أما الأخرى فكان أسلوبها صحيحا ، وكانت تتدخل فى الحديث اما لكى تشرح بعض عبارات الكائن الصغير ، التى كانت تبدو أحيانا غير مفهومة ، وأما لكى تحمل زوجتى على تصديق التأكيدات الصادرة من ابنتها •

وفى الجلسة الأولى أضافت الكسندرين — بعد اذ قالت انها هى بشخصها التى ظهرت فى الحلم لأمها ، وان الطرقات التى سمعت فى ذلك اليوم أحدثت للاشارة الى وجودها ، ولمحاولة تعزية والدتها بأساليب أشد من غيرها تأثيرا — أضافت قائلة : « يا أمى الصغيرة لا تبك بعد الآن لأننى سأولد من جديد عن طريقك ، وقبل عيد الميلاد سأكون معكم» ثم استمرت فى الحديث قائلة : « يا أبى العزيز اننى عائدة اليكم ، يا أشقائى الصغار اننى عائدة ، يا جدتى اننى عائدة • قولوا لأقربائى الآخرين والمعمة كاترين Catherine أننى سأكون قد رجعت اليكم قبل عيد الميلاد » •• وهكذا ظلت تكرر القول الى جميع الأقارب والمعارف الآخرين الذين كانت تربطها بهم أحسن الصلات فى أثناء وجودها القصير •

ويكون من الممل أن نورد جميع الرسائل التى حصلنا عليها منها خلال ثلاثة شهور تقريبا ، لأننا اذا تركنا جانبا بعض العبارات الرقيقة الموجهة الى بعض أعزائها ، فان هذه الرسائل تتحدث — دائما تقريبا — وبتكرار ثابت وممل عن ايذان بقرب عودتها الينا قبل عيد الميلاد وهى موجهة — كما هى الحال منذ أول جلسة — الى كل واحد من أقاربها ومعارفها •

ولقد حاولنا عدة مرات أن نوقف هـذا التكرار المحير ، بأن نؤكد لهذه الروح الصغيرة بأننا سنعنى بأن نبلّغ الجميع نبأ عودتها . أو بالأدق نبأ ميلادها من جديد قبل عيد الميلاد وبغير أن ننسى أي انسان. لكن بغير جدوى ، لأنها كانت تصر على عدم التوقف الا بعد أن تفرغ من سرد أسماء جميع معارفها .. ومنذ البداية أعلنتنا بأنها لن تتمكن من الاتصال بنا الا خلال ثلاثة شهور تقريبا ، لأنها فيما بعد ستكون — تدريجيا — أوثق اتصالا بالمادة ، وأنها ستنام فيها تماما .

وفى ١٠ أبريل كان لدى زوجتى أولى دلائل الحمل . و فى ٤ مايو كنا فى مدينة فنيتيكو Venetico من أعمال مقاطعة مسينا ، فتلقينا نبأ جديدا عن قرب عودتها ، وأضافت الروح قائلة : « يا ماما توجد فى أحشائك فتاة أخرى أيضا » . ولما لم نفهم هذه العبارة الأخيرة واعتقدنا أن ثمة خطأ قد وقع تدخلت الروح الأخرى (العمة جان Jeanne) قائلة : « ان البنيّة لم تخطىء ، لكنها لم تحسن التعبير تماما . اذ أنها تريد أن تقول ان كائنا آخر يطوف من حولك أيتها العزيزة آديل Adèle ويريد أيضا العودة الى هذه الأرض » .

ومنذ ذلك اليوم أخذت الكسندرين تؤكد فى كل رسائلها ، باطراد وباصرار ، بأنها ستعود مصحوبة بشقيقة صغيرة ، وبأنها ستكون — بحسب أسلوب حديثها — سعيدة بذلك . وبدلا من أن يكون هذا القول سببا فى تشجيع زوجتى وتعزيتها كان سببا فى ازدياد شكوكها وقلقها ، خصوصا بعد هذه الرسالة الجديدة الفريدة ، وبدا لها آن كل شىء سينتهى بخيبة أمل عظمى .

وفى الواقع كان ينبغى تحقق وقائع كثيرة بعد هذه الرسائل حتى يكون ما فيها صحيحا — وهى : ١ — أن تصبح زوجتى حاملا فعلا . ٢ — ألا يكون هذا الحمل سببا فى اجهاضها كما حدث من قبل . ٣ — أن تضع توأمين ، وهو ما لم يحدث من قبل لا لها ، ولا لأى واحد

من أسلافها ولامن أسلافى ٤ — أن تضع مولودين اثنين ، لا ذكرين ولا ذكر وأنثى » .

ويضاف الى ذلك — فى تقديرنا — اعتبار خامس هام ، وهو أن الولادة حدثت فعلا قبل عيد الميلاد المقبل حسبما ورد فى رسائل الروح مع أن الحمل لم يكن قد حدث وقت املاء أول رسالة . كما ينبغى أن يضاف اعتبار سادس ، وهو المشابهة — ولو الى حد ما — بين ملامح الطفلة فى تجسدها السابق واللاحق ، وهو ما تنبأت به أيضا الروح المراسلة وما تحقق بدوره فعلا ، على ما سيرد فيما بعد . ومن المحال رياضيا أن يقال — اذا كانت هذه الوقائع ثابتة — أن تحقق هذه الأمور كلها كان محض صدف عشواء ، أو محض رجم بالغيب وقد تحقق كله مع ذلك ! ! ..

ثم يقول الدكتور سامونا أنه فى جلسة من الجلسات الأخيرة عبّرت زوجته عن الصعوبة التى تجدها فى الاقتناع بعودة الكسندرين ، لأنه من الصعب أن يكون شكل الطفلة القادمة مماثلا تماما لشكل الطفلة التى فقدتها . وعندئذ بادرت الروح جان الى الاجابة قائلة « ستكونين يا آديل راضية من هذه الناحية ، لأنها ستولد مشابهة تماما للأولى ، وان لم تفقها جمالا بكثير ، فانها ستكون أجمل منها قليلا » .

وفى الشهر الخامس من الحمل ، كنا فى شهر أغسطس فى سبادافورا Spadafora ، وفحص زوجتى عالم فى الولادة هو الدكتور فنسنزو كوردارو Vincenzo Cordaro الذى قرر لها من تلقاء نفسه : « اننى لايمكننى أن أؤكد بصفة قاطعة : ولكن لدىَّ عدة أسباب تحملنى على الاعتقاد بوجود حمل بتوأمين » . وكان لهذه العبارة على زوجتى تأثير السحر ، وبدأت بارقة أمل تلمع فى روحها التى كان الألم قد أضناها وهدّها .

وبمجرد الدخول فى شهرها السابع أصيبت زوجتى بآلام مباغتة فى الكلى ، وبأعراض أخرى لمدة خمسة أيام جعلتنا قلقين عليها من لحظة الى أخرى ، وخائفين من حدوث ولادة قبل الميعاد لا يتيسر معها للمولود أو للمولودين أن يعيشا نظرا لأن الحمل لم يتم سبعة أشهر كاملة • وقد تدخل الدكتور كوردارو لمعاونتها ، وأمكن لحسن الحظ درء الخطر على خلاف جميع التوقعات • وعندما استعادت صحتها تماما ، وكانت قد انقضت على الحمل سبعة شهور كاملة عدنا الى مدينة بالرمو حيث قام بفحصها طبيب الولادة المعروف الدكتور جيجليو Giglio الذى قرر وجود توأمين ••

وفى ٢٢ نوفمبر ١٩١٠ وضعت زوجتى توأمين عبارة عن طفلتين • أما عن تشابه الملامح ، فان تحقيقه يقتضى بطبيعة الحال زمنا ما ، ويتطلب مراقبة الطفلتين فى أثناء نموهما • ومع ذلك فمن الغريب أنه ظهرت بعض علامات مميزة تؤكد صحة النبوءة ، وتشجع على متابعة الملاحظة ، وتسمح لنا بالاعتقاد بأنه حتى من هذه الناحية لقد تحققت صحة الرسائل حرفيا •

وفى هذه اللحظة لا تتشابه الطفلتان التوأمتان أبدا ، بل ان كل واحدة منهما تختلف عن الأخرى فى الطول ، وفى اللون ، وفى الشكل ، لكن القصيرة منهما تبدو صورة طبق الأصل من « المتوفاة » • أى صورة طبق الأصل من الكسندرين فى لحظة ولادتها الأولى • ومن العجيب أنها تحمل ثلاث خصائص مميزة مشتركة بينهما وهى : احتقان فى العين اليسرى ، وافراز دهنى خفيف فى الأذن اليمنى ، وانتفاء خفيف لتوافق تصفى الوجه مماثل تماما لذلك الذى كان لدى ألكسندرين عند ولادتها السابقة » •

التوقيع : **الدكتور كارملو سامونا**

شـــهود الحـــالة

ومع تقريره الخاص قدم الدكتور سامونا عدة تقارير مفصـــلة من جميع شـــهود هـــذه الجلســـات الروحية الذين أيدوا صـــحة الوقائع كما وردت بتقريره الخاص • وروى كل واحد منهم التفصيلات المطابقه التى شاهدها بنفسه ، وهم :

أولا : شقيقته السيدة كاترين سامونا جاردينى C. S. Gardini

ثانيا : الآنسة آديل ميركاتينى Adèle Mercantini كريمـــة البروفسور الكبير ميركاتينى •

ثالثا : البروفســـور رافايل فيجـــلى Raphael Wigley وهو رجل دين •

رابعا : المركيز جوزيف ناتولى Joseph Natoli وهو أديب معروف •

خامســا : الأميرة دى نيســـيمى De Niscemi والدة الدوق ديل آرينيـــلا Dell Arenella عضـــو مجلس النواب الايطالى •

سادسا : الكونت فردينـــاند مونرى Ferdinand Monroy وهو أديب وسياسى معروف •

والى هذه السلسلة من الشـــهادات يضيف الدكتور أينوســـنزو كالدرونى رئيس تحرير مجلة « فلسفة العلم » الاعتبارات الآتية :

« ان هـــذه الحالة جديرة بالتـــأكيد بأن تنشر فى جميع التقاويم الخاصة بالظواهر العليا ، وبأن تدرس بعنـــاية قصوى بمعرفة راويهـــا الدكتور كارميلو سامونا الذى يعتبر اسمه نفسه ضمانة كبرى على صحة الوقائع ، وعلى كفاءة الالمـــام بها • ولقد نشر فى هـــذا الشأن مؤلفـــا هاما عنوانه « ألغاز الروح » الذى حصل به على درجة دكتور من كلية

الطب بجامعة بالرمو ، والذى نال تقريظا ضخما من الصحافة على تنوع اتجاهاتها . كما نال اهتماما من عدد من العلماء الكبار من أمثال البروفسور شارل ريشيه (١) وغيره .

وقد قال فيه ريشيه « ان هذا الكتاب مصيره أن يصبح كتابا تقليديا فى العلم الجديد » . كما أثار اهتمام العلماء دى روشا (٢) de Rochas ، وفلورنوا Flournoy ، وبوزانو Bozzano (٣) وأجابيتى Agabiti وغيرهم من الأعلام .

ويضيق المقام بطبيعة الحال عن سرد جميع هذه التقارير والآراء ، ناهيك عن النظريات المختلفة عن مصدر الحمل بوجه عام وصلة الجنين به . ومن يريد المزيد فليرجع الى مؤلف البحاثة شارل لانسلان عن « الحياة اللاحقة » ، فقد خصص لموضوع الكسندرين مكانا فسيحا فيه . كما سرد بعض حالات أخرى قد تعزز صحة هذا الأسلوب فى تحقيق نظرية « العودة للتجسد » ، وهو أسلوب « الاتصالات الروحية » ، الى جانب سائر الأساليب الأخرى التى تناولت بعضها فيما سبق (٤) .

وشيد المؤلف على كل ذلك مفهوما محددا عن نطاق الادراك بشطريه الواعى وغير الواعى وعن ، وعن صلة الشطرين معا باللاشعور المطلق ، أو بالوعى غير الشخصى le non moi . ولنا عودة الى ذلك عند معالجة التطور من اللاشعور الى الشعور ، وصلة ذلك بتكوين « الأنا » بحسب آراء جوستاف جيلى .

صور المقارنة

وفيما يلى نقدم بعض صور ألكسندرين فى حياتيها السابقة

---

(١) راجع ما ورد عنه فى « المفصل » الجزء الأول ص ٦٣١ — ٦٦٠ .

(٢) راجع ما ورد عنه فى المرجع السابق ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

(٣) راجع ما ورد عنه فى المرجع السابق ص ٦٦١ — ٦٩٠ .

(٤) وراجع ما سبق فى صفحة ١٠٦٠ — ١٠٧٧ .

واللاحقة للمضاهاة ، مأخوذة عن نفس هذا المرجع ، الذى لم يشك أحد فى قيمته ، وفى نزاهة الروح العلمية التى هيمنت على وضعه .



الكسندرين السابقة فى سن
ثلاث سنوات وثمانية شهور



الكسندرين اللاحقة فى سن
عامين وأربعة شهور



الى اليسار الكسندرين اللاحقة ، والى اليمين شقيقتها
مارى باتش وهما فى سنتهما الثانية

بعض شواهد أخرى

وهــذه الوقائع التى حصــل بها محققها على اجازة الدكتوراه فى الطب من جامعة بالرمو وأيدتها تقارير دقيقة ، وشهد بصحتها الدكتور كالدرون الذى كان ذا سـمعة ضخمة فى ايطاليا ، كان لها دويهــا الذى

تجاوز الأوساط المهتمة بأمثال هذه الموضوعات • وقد أعقبتها مقالة أخرى للدكتور ساموناظهرت فى نفس المجلة وهى « فلسفة العلم » فى عددى مايو ويونية سنة ١٩١٣ وقد حلل فيها الدكتور ساموناالطفلتين التوأمتين تحليلا فيزيقيا ونفسيا • وكان مما ورد فى هذا التحليل الجديد :

ان التفاوت فى الشكل بين التوأمتين آخذ فى التزايد ، وكذلك التفاوت فى النفسية • ولقد أردت توضيح هذا التفاوت الذى لم يظهر لى مهما فى مبدأ الأمر ، لكن قيمته ظهرت فيما بعد من زاوية أنه يبرز بصورة أوضح من غيرها الشبه الشديد بين ألكسندرين الحالية وألكسندرين السابقة ، ومن جهة أخرى من شأنه أن يستبعد من احتمال التأثير الايحائىمن جانب الأم فى النمو الجثمانى والنفسانى للطفلة ألكسندرين الحالية ••

فألكسندرين الحالية ما تزال مستمرة فى ابراز تشابه كامل مع الأخرى التى توفيت •• وعلى أية حال يمكننى أن أؤكد بطريقة مطلقة أن التشابه ما يزال تاما ، وأن سلوكها من الناحية النفسية هو نفس سلوك ألكسندرين المتوفاة • وبمجرد ما بدأت حياة التوأمتين فى الدخول فى صلات مع العالم الخارجى فان اتجاه كل منهما كان مغايرا للأخرى بحيث يمكننا أن نقرر أن كلا منهما تمثل طبيعة متميزة تماما عن زميلتها •

وهكذا يسرد والد الطفلتين العديد من التفصيلات عن هذا السلوك ، ويبين الى أى مدى يوجد شبه صارخ بين سلوك ألكسندرين فى حياتيها السابقة واللاحقة ، حين يوجد تفاوت صارخ بين سلوكها وسلوك شقيقتها التوأم ، وهو أمر غير مألوف بالنسبة للتوائم العادية (١) •

---

(١) للمزيد راجع شارل لانسلان • المرجع السابق ص ٣٠٩ — ٣٧٣ • كما تجد فيه وقائع أخرى مماثلة •

اعتبارات عامة ينبغى أن تراعى

وبالاضافة الى ما تقدم فان عددا كبيرا من أصحاب المواهب الوساطية المتنوعة قدم بيانات محددة كثيرة عن تجسدات معينة له مستعينا بذاكرته الواعية ، أو بارشادات يقال انها منسوبة الى أرواح مراسلة ، وأحيانا قد تكون مؤيدة ببيانات محددة ، أو برسوم ، أو بصور ، أو بأصوات مباشرة ، أو بتفوهات غيبوبة ، أو بتنبؤات معينة •

ولا ينبغى تقبل جميع البيانات على علاتها ، فقد تكون مشوبة بجانب قليل أو جسيم من الوهم ، أو من الخطأ ، أو من الايحاء ، أو من التسرع فى الاستنتاج من جانب الوسيط ، أو من جانب روحه المرشد أو المراسل • وينبغى دائما أن نضع فى الاعتبار أن الأرواح المراسلة فيها حشد هائل من محبى الهزل ، والكذب ، والادعاء • وفيها من يزعم كذبا الاطلاع على حقائق الأمور ، أو الالمام بخفايا الوجود • بل فيها من ينتحل لنفسه صفة النبوة ، بل الألوهية أيضا • وفيها حشد هائل من أصحاب العقليات المضطربة ، أو الأخلاق الضعيفة ، أو المعلومات الخاطئة•

فينبغى اذا أن نخضع كل قول وكل زعم لأسلوب التحليل الناقد والتمحيص الدقيق ، كما هى الحال — بالضبط — بالنسبة لأقوال سكان الأرض ومزاعمهم ، ففيهم أيضا خليط لا ينتهى من كل المستويات والأصناف والاتجاهات كما نعلم جميعا • وعندما يأتى الارشاد الروحى من مصدر أهل للثقة فهو يأتى عادة لمساعدة انسان فى التغلب على بعض الصعوبات الراهنة التى قد يواجهها عن طريق الكشف عن بعض جوانب ماضية السحيق ، أو لمساعدته فى محاولة الحصول على المزيد من التطور الروحى •

كما ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن الوعى الانسانى لا يتجسد بكامله فى التجسد الواحد ، بل ان أغلبه يظل خارج نطاق التجسد ، وبالتالى

دفينا فى اللاشعور ، وهو أمر قد يفسر فى حالات عديدة عدم وضوح التطابق المتوقع بين شخصية الانسان فى حاضره وشخصيته فى ذلك الماضى السحيق ، بل يفسرظهور تفاوت أوتناقض جلى فى بعض الأحايين. وعلى أية حال فان كل اعتبار ينبغى أن يوزن وزنا دقيقا — ومعه كل احتمال متصور — عند دراسة أية بيانات للحكم لها أو عليها .

وينبغى أن نضع فى الاعتبار أيضا أن ظواهر تجسد الأرواح ، وهى ظواهر قد خضعت لتحقيقات جادة كثيرة تحت أدق صور الرقابة العلمية (١) ، هى فى حقيقة الأمر ظواهر عودة للتجسد أيضا ، لأن جميع الأرواح التى ثبت تجسدها عن طريق استعارتها لمادة الاكتوبلازم من جسم الوسيط أو الوسيطة انما هى أرواح سبق لها العيش على الكوكب الأرضى لفترات تتفاوت فى مداها .

فاذا كان بمقدور الروح أن تعود للتجسد لمدة بضع دقائق أولحظات عن طريق استعارة عنصر معين من دم الوسيط أو الوسيطة ، فان عودتها لتجسد لبضع سنوات عن طريق استعارة جسم آدمى من أحشاء الأم ، يصبح أمرا متصورا من الناحية البيولوجية .

ويتقوى هذا الاحتمال اذا روعى أن هذه التجسدات تأخذ أحجاما وأشكالا متنوعة . وأنها تمر بمراحل مختلفة بحسب قدرة الروح ، وطاقة الوسيط ، وكثافة الاكتوبلازم المنبعث منه ، وطول المثابرة ، والخضوع للمران الكافى . وهذه كلها أمور غريبة على أذهاننا لكن حققها علماء مدققون كبار وتثبتوا من صحتها بكل السبل . ولعل ما سبق عن « الهيولى المحايدة » التى ليست هى بعقل ولا بمادة ، أو بالأدق هى بين العقل والمادة ، أى تجمع بين خصائص الاثنين معا ،

(١) راجع ما ورد فى هذا الشأن فى « المفصل » . الجزء الأول ص ٥٢٧ — ٦٣٠ ، ٦٣٤ — ٦٤٩ ، ٦٥٢ — ٦٥٥ ، ٦٦٤ — ٦٨٠ وما سبق فى هذا الكتاب جـ ١ ص ٣١٣ — ٣١٤ ، ٣٢١ — ٣٢٧ .

ما قد يلقى أضواء لها قيمتها على تفسير هذه الظواهر المفرطة فى أهميتها[١] .

* * *

وعلى أية حال فاننا عند دراسة جميع الظواهر الوساطية ينبغى دائما التحفظ الشديد فى قبول الروايات ، وفى تعليل الوقائع . وينبغى أن يكون المحقق صاحب خبرة طويلة فى التحقيق وفى التحليل ، وصاحب المام كاف بكل الظواهر المماثلة ، لأن هذه الظواهر قد تختلط فيما بينها عند النظر السطحى اليها ، ومثال ذلك :

أولا : أنه ينبغى التمييز بين ظواهر « رؤى من قبل » و « سمع من قبل » والذكريات المنسية المخبوءة فى اللاشعور منذ أيام الطفولة فى الحياة الراهنة ، والتى لا صلة لها بموضوع العودة للتجسد ، ويطلق على هذه الأخيرة « ما وراء النسيان » Paramnésie .

ثانيا : وينبغى أيضا التمييز بين هذه الظواهر وظواهر الهيمنة الوساطة الواعية ، التى فيها قد يتلقى الوسيط ايحاءات صحيحة ناجمة عن هذه الهيمنة عن طريق الجلاء البصرى أو السمعى ، وهى بدورها لا تمت بأية صلة الى العودة للتجسد .

ثالثا : وينبغى أيضا التمييز بينها وبين حالات المس الروحى ، وهى حالات مرضية بدورها مستقلة عن العودة للتجسد وتكون مصحوبة دائما بأعراض نفسية ، أو عصابية ، أو عضوية ، أو بأعراض مركبة ... على ما بينته فى الباب السابع من هذا الجزء الثانى .

رابعا : وينبغى كذلك التمييز بين حالات « رؤى من قبل » أو «سمع من قبل » التى تحدث تلقائيا فى مرحلة أو أخرى من مراحل العمر ، وبين اختبارات ارجاع الذاكرة الى الوراء عن طريق التنويم المغناطيسى ، اذا جرت على شخص مريض لمحاولة علاجه عن طريق استكشاف ذكرياته

---

(١) راجع ما سبق فى ج ١ من هذا الكتاب صفحة ٢٨٦ — ٣١٤ .

المخبوءة فى اللاشعور للطفو بها الى الشعور • ولانقاذه بالتالى من مرضه النفسى أو العصبى •

فينبغى دائما التحرز من الخلط ، بين كل طائفة من هذه الظواهر والأخرى ، اذا ما أردنا الوصول الى نتائج صحيحة بشأن التعليل وبشأن التحليل النفسى والعلاج اذا لزم الأمر • ولذا قصرت هذا الباب الثامن على تلك الظواهر التى تشير مباشرة الى مبدأ العودة للتجسد •

بقى بعد ذلك أن أتناول جانبا من أهم جوانب هذا المبدأ ، وهو مدى اتصاله بالحقائق الأخرى التى كشفت نضال العلماء النقاب عنها فى محاولة الوصول الى النواميس الكونية التى تتحكم فى شتى ظواهر الوجود •

وقد سبق أن أشرت — أكثر من مرة — الى أن الاقرار بصحة أى مبدأ كونى أو بطلانه لا يتوقف فحسب على تعدد الظواهر التى تشير الى هذا المبدأ ، وترابطها فيما بينها ، بل يتوقف أيضا على مدى الترابط الكائن بين هذا المبدأ المقول به ، وبين سائر النواميس أو المبادىء الأخرى التى احتلت مكانها بوصفها نواميس طبيعية ثابتة •

ولا أعتقد أنه يوجد فى دوائر العلم من ينازع الآن فى صحة وجود مبدأ ما للتطور الطبيعى ، أيا كان تعليله وتفصيلاته • كما لا أعتقد أنه يوجد فى دوائر العلم المعاصر من ينازع فى وجود جانب خفى ما من الوعى الانسانى يطلق عليه اللاشعور ، أيا كان تعليله وتفصيلاته •

ولذا يتعين الآن أن أعرض « لبعض مشكلات التطور واللاشعور فى ضوء العودة للتجسد » للتعرف على الدور الذى يقوم به هذا المبدأ الأخير فى مواجهة تلك المشكلات المفرطة فى دقتها وتشعبها ، خصوصا فى اطار محاولة التعرف على بعض جوانب « التكوين الروحى للانسان وأسرار سلوكه » ، وهذا هو موضوع الباب المقبل •

الباب التاسع

بعض مشكلات التطور واللاشعور
فى ضوء « العودة للتجسد »

تمهيد

تطور كل ظواهر الحياة والوجود ـ على نحو أو آخر ـ قضية حسمها العلم منذ مدة طويلة ، وحسمها بالايجاب ، مهما تنوعت المدارس وذهبت مذاهب شتى فى تعليله . وحين تعنى البيولوجيا بتطور الجسد الانسانى أو الحيوانى ، فان علم الروح الحديث يعنى بمحاولة دراسة تطور روح الانسان فى المقام الأول .

وقضايا تطور الروح لا تقل فى دقتها وفى تشعب مسالكها عن قضايا تطور الجسد بل لعلها تتجاوزها بكثير . وأساس بحث قضايا تطور الروح ليس هو مجرد النظر الى سلوك الانسان من الخارج ، بل هو أولا ، وقبل كل اعتبار آخر ، دراسة هذا السلوك من منبعه فى الداخل .

وكثيرا ما يقال ان الانسان يكون مع سلوكه الخارجى « وحدة واحدة » ، لكن هذا القول قلما يرضى الباحث العلمى الذى يريد أن يبحث فى مدى تطور الوعى ونضجه ، بصرف النظر عن سلوكه الخارجى .

وهذا الوضع قد يبدو غريبا لأول وهلة ، لكن عند امعان النظر تظهر قيمته الحقيقية خصوصا عندما تسأل أى انسان ناضج يقظ الضمير ولو قليلا : ألم تخجل من أى تصرف صدر منك ؟ فهو سوف يجيبك على الفور قائلا لك : ما أكثر ما انتابنى من خجل عندما نظرت الى سلوكى فى ضوء يقظة الضمير ، أى ذلك القائد الهادى الذى بداخلى . أو عندما استمعت الى « صوت الصمت » الذى أمسك بزمامى منبها اياى الى ما كنت غارقا فيه من انحلال وانحدار سببهما الحقيقى الأنانية أو الغرور

والانسان — بوجه عام — أفضل من سلوكه ، وهو فى جوهره أرقى عادة من العديد من تصرفاته حتى تلك التصرفات الشعورية التى قد تصور عنه فى لحظات الغضب ، أوالانفعال ، أو الزهو ، أو الشهوة ، أوالطمع ... والتى سرعان ما يندم عليها ندما مرا ، يتفاوت فى مداه بقـدر التفاوت بين جوهره الروحى وبين سلوكه الخارجى .

والانسان الراقى يتطلع — بدافع فطرى داخلى — نحو المزيد من الرقى . وهو يحاول جاهدا السيطرة التدريجية على مصادر الخطأ والزلل بداخله ، وكثيرا ما ينجح الانسان الذى تصـمه المحاكم بوصمة الاجرام فى أن يتحول تدريجيا الى انسـان أفضل من كثيرين من الأبرياء حتى من بين قضاته . أو بالأدق أفضل من أولئك الذين يصح أن نطلق عليهم وصف « أبرياء الصدفة » للتمييز بينهم وبين « مجرمى الصدفة » من جهة وبين « أبرياء الفطرة » من جهة أخرى .

وعلى أية حال فلا ريب أنه توجد لدى بنى البشر رغبة جادة فى النمو الداخلى ، وفى الازدهار الخلقى ، عن طريق انماء الحاسة الخلقية ، وتوليها بالرعاية والعناية ، وهذه الرغبة الملحة فى الارتقاء تقع وراء ظاهرة التطور الروحى ، التى يلزم التمييز بينها وبين التطور الفيزيقى ، الذى قد يرتبط على نحو أو آخر بقوانين الجانب الفيزيقى من الطبيعة وهى عديدة ، ومن بينها قانون البحث عن الغذاء ، وتنازع البقاء وبقاء الأقوى .

أما ظاهرة التطور الروحى فهى مرتبطة — بالأكثر — بهذا الاحساس الغريزى الكامن فى كل نفس بشرية والذى يدفعها الى الصراع مع نفسها لمحاولة السيطرة — ولو الى حد ما — على تطلعاتها وشهواتها ، وكلمـا قويت عناصر هذا الصراع كلما كان التطور نحو الأفضل أقرب وأيسر . وهذا التطور هو أثمن جزاء يحصل عليه صاحبه ، والرغبة فيه هى الدافع الذى يحرك جميع أعمال البطولة النادرة والتضحيات النبيلة ، وسرف يحركها عند العديد من بنى البشر .

ويمكن القول بأنه لا توجد قوة وراء أعمال التضحية النادرة والفداء النبيل سوى نداء الروح ، لا نداء الجسد . فالروح المتطورة لديها نداء لا شعورى باستقلالها عن الجسد ، ولا تميل الى التشبث بالجسد طويلا ، ولا تعتز به كثيرا .

ولذا قال بحق ارنست جونجر Ernst Jünger اننا تعودنا أن نعتبر المرض أوالحادثة سببا للموت ، لأنهما يضعان حدا للحياة : كلا هذا محض خطأ ، والصحيح هو العكس لأنها هى الحياة التى تستدعى الموت عندما تريد أن تنتقل الى طور آخر .

وبطبيعة الحال ليس مقتضى ذلك بالمرة هو محاولة الفصل فصلا تاما بين تطور الجسد وتطور الوعى أو الضمير ، فان هذا الفصل ليس له سند علمى ، وانما كل المطلوب هو التمييز بين التطور البيولوجى الخارجى للتكوين الجثمانى ، والتطور الداخلى اللاشعورى لتكوين الذات الذى يحدث ببطء شديد وخلال حقب طويلة ، والذى يجرى بهدوء من وراء تغيير التكوين الخارجى ، ولكن بلا تلازم محتوم بينهما . لأن مستقبل التكوين الجثمانى قد لا يتغير كثيرا ، أما مستقبل التكوين الروحى فيبدو أن امكانيات تطوره لا حدود لها .

وفيما يلى رأيت أن أعالج جانبا هاما من مشكلات التطور بوجه عام فى فصل أول ، ثم جانبا هاما من مشكلات اللاشعور فى فصل ثان ، خصوصا منها تلك التى تبدو أوثق صلة من غيرها بمشكلات التطور الروحى للانسان .

الفصل الاول

أضـــواء هامة

تلقيها « العودة للتجسد » على التطور

المبحث الأول

جـولة عامـة

فى أرجاء التطـور

التطور والتكوين الروحى للأحياء

لا يتسع المقام الحالى للافاضـة طويلا فى نظريات التطور ، لأنهـا بحسب الأصل تتبع البيولوجيا • هذا وقد سبق أن تناولت بعض جوانبها فى أكثر من مناسبة سابقة من الجزئين الأول والثانى من هذا الكتاب • وذلك بالقـدر اللازم للتعرف على موقف « علم الروح الحـديث » من التطور (١) •

وبينت كيف أن البحث ما يزال مثارا فيما يتعلق ببـداية التطور ، وبتحليله وبأهـدافه الحقيقية ••• لكن مبدأ التطور نفسـه ليس محل اعتراض من أحد ، ولا ينبغى أن يكون محل اعتراض ، اذا ما وضعنا فى الاعتبار ذلك الفارق الضخم الواضح بين قدرات انسان العصر الحجرى وقدرات انسـان العصر الحاضر فى انجازاته المعنوية والمـادية ، ناهيك بمظهره الجثمانى •

والعصر الحجرى مع ذلك قريب جدا من العصر الحاضر اذا قيس بتلك العصور السحيقة لظهور الانسان التى يتحدث عنها التطوريون ،

---

(١) راجع الجزء الأول صفحة ٤٤٠ ـ ٤٦٩ والجزء الثـانى صفحة ٥٦٣ ـ ٥٦٩ •

والتى تمتد الى أبعد مدى بمقدور الانسان أن يتخيله ، كامتداد الفضاء الى أبعد مدى بمقدور بصر الانسان أن يصل اليه ، أو بالأدق بمقدور خيال الانسان أن يعجز عن الوصول اليه (١) .

ذلك لأن خيال الانسان محدود بقدراته العقلية المحدودة التى ينظر التطوريون اليها على أنها لا تزال بدورها ضئيلة للغاية ، اذا قيست بما هو متوقع أن يصل اليه منها بعد انقضاء آماد طويلة مستقبلة .

وقد يبدو غريبا لأول وهلة وجود صلة بين موضوع « العودة للتجسد » وموضوع التطور بوجه عام ، لكن وجه الغرابة يزول اذا ما وضعنا فى الاعتبار موضوع « الديناميكية النوعية » التى تميز جميع الكائنات الحية وصلتها باستمرار الحياة بعد الموت .

وهذه الديناميكية النوعية dynamisme qualitatif عنى بها عدد من أبرز العلماء منهم بوجه خاص أوتو فرانك Otto Franck من الألمان ، وعليها يتوقف وجود الحقل الكهربى — المغناطيسى لجميع الكائنات الحية ، وتجدد الخلايا والأنسجة فى أى عضو صحيح أو مريض . وبالتالى الحفاظ على التكوين الأصلى البيولوجى للكائنات الحية ، وما يرتبط بهذا الحفاظ من ضرورة وجود « حركة دائرية ديناميكية » الى جانب الحركة الدائرية الآلية التى تعتبر ألزم النواميس الكونية للحياة .

---

(١) يقدر بعض العلماء تاريخ الانسان على الأرض بحوالى نصف مليون سنة ، أما عمر الأرض منذ أن أصبحت جسما منفصلا فيرجع الى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ مليون سنة حدث خلالها تطور بطىء جدا أدى الى ظهور المائيات ، ثم البرمائيات ، ثم الزواحف ، ثم الطيور ، ثم الانسان فى حقب متباعد بعضها عن البعض الآخر جدا . وكانت آخر مرحلة هى مرحلة ظهور الانسان العاقل Homo Sapiens الذى سيطر على سائر الحيوانات منذ حوالى مائة ألف سنة ، وينتمى اليه الجنس البشرى الحالى ، وتوجد نظريات أخرى عديدة فى هذا الشأن .

وقد تناولت هذا الموضوع فى مناسبة سابقة ، مبينا كيف أن دراسة هذه الأبواب الدقيقة المتشعبة من موضوعات البيولوجيا انتهت بعدد من أبرز العلماء الى الاقتناع بصحة مبدأ العودة للتجسد بوصفه مبدأ بيولوجيا كونيا فى المقام لأول (١)

كما تناولت أيضا موضوع « التكوين الروحى والجسد الهيولى » للانسان ولهذا التكوين صلته الوثيقة أيضا بموضوع التطور بوصفه حقيقة بيولوجية ، يستوى فى ذلك تطور الجسد مع تطور الروح • ومع مراعاة عدم وجود حواجز فاصلة بين الجسد والعقل ، وبالتالى بين تطور الجسد وتطور الروح ، ما دام الجسد المادى هو مطية العقل والروح معا (٢) •

* * *

ومما قد يعزز هذا النظر تلك المرونة الشديدة التى يتميز بها الجسد الأثيرى فى سلوكه بشأن ظواهر التجسدات • وابتداء يعتقد أكثر الباحثين — خصوصا الفرنسيين منهم — أن هذاالجسد الأثيرى — حتى فى وضعه المألوف — أصغر حجما من الجسد المادى مع أنه مصدر الديناميكية النوعية فيه •

ويؤيدهم فى ذلك بعض الصور التى التقطت للجسد الأثيرى مطروحا من الجسد المادى فى غيبوبة التنويم المغناطيسى فانها تظهر بجلاء وجود فارق يتفاوت فى مداه بين حجم الجسد الفيزيقى للوسط النائم وجسده الأثيرى (٣) •

كما يؤيدهم أيضا بعض صور التجسدات التامة والجزئية ، المادية

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٢٥٨ — ٢٦٥ .

(٢) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٢٨٦ — ٣١٣ .

(٣) انظر ثلاثة نماذج منها فى « مفصل الانسان روح لا جسد » ج ١ صفحة ٩٤٩ .

والأثيرية • فانها بدورها تظهر أحيانا صغر حجم الجسد الأثيرى بالمقارنة بالجسد الفيزيقى ([1]) •

على أن الاعتبار الأول فى هذا الشأن هو ما يتميز به الجسد الأثيرى من ديناميكية نوعية تجعله قابلا لأن يتشكل بأبعاد مختلفة تتفاوت فى مداها بين حجم دمية صغيرة وحجم انسان عادى ، لكنها لا تتجاوز أبدا حجم صاحبها عندما كان يعيش فى جسده المـادى •

ولذا أطلق عدد من الباحثين على هذا الجسد الأثيرى أو الهيولى وصف الجسد السيال Fluidique أو الجسد القابل للتشكل plastique وذلك بالنظر الى خضوعه للذاكرة ، ناهيك بالجسد العقلى الذى يبدو أنه بدوره أكثر مرونة وفاعلية من الجسد الأثيرى •

وهذه الاعتبارات مجتمعة تجعل أمرا ممكنا ارتداء المبـدأ الروحى فى الانسان جسدا ماديا جديدا أكثر من مرة واحدة ، وذلك بأن يفترضه من رحم الأم عندما يبلغ الجنين مرحلة معينة من نموه ، ويكون بمقدوره احتواء هذا المبدأ الروحى • وهذا الاحتواء يؤدى الى تراجع سرعة ذبذباته وبالتالى الى محو ذاكرته الشعورية بما لها وما عليها • وتكون النتيجة هى السيطرة على هذا الذاكرة ــ الى مدى أو الى آخر ــ بحيث يبدو الجنين عند ولادته وكأنه يعيش ــ بحسب الظاهر ــ بدون تاريخ سابق ، وبالتالى بدون ذكريات طيبة أو سيئة •

ولكن يمكن لهذا « المولود حديثا » فى حالات نادرة عنـدما يبلغ الرابعة أو الخامسـة من عمره ــ أن يسترجع بعض ذكرياته هـذه على ما وضحته فى الباب السابق •

وفى الجملة فان مشكلة حجم الجسد الفيزيقى هنا مشكلة وهمية عند من درسوا بعض خصائص ديناميكية هذا الجسـد الذى يحمل شـعلة

---

(١) انظر عدة نماذج منها فيما سبق فى جـ ١ صفحة ٣٢١ ــ ٣٢٩ •

الحياة ، ومن باب أولى عند من درسوا بعض خصائص ذلك المبدأ الروحى فى الانسان الذى هو الانسان الحقيقى ، والذى يحمل جميع اختباراته التى تنتمى الى ماضيه القريب والبعيد .

وهذا المبدأ الروحى قد ثبت لجميع الباحثين أنه غير قابل للفناء ، لأنه من طبيعة الضوء الذى لا يفنى ، لكنه قد يتخذ أوضاعا وأشكالا لا تقف عند حد فى تنوعها ، ولا فى قابليتها للتطور وللارتقاء ، وبالتالى للثراء المتزايد فى الاحساس وفى الأخلاق وفى الذكاء .

وهذا التكوين الروحى خاضع للتطور ، بمقدار خضوعه لقانون آخر من أهم قوانين الطبيعة وهو قانون « السلوك الدائرى لكل ظواهر الوجود » . وهذا السلوك الدائرى نلمسه فى كروية الأرض وحركاتها الدائرية حول نفسها وحول الشمس . كما نلمسه فى سلوك جميع الشموس والأفلاك والمدن النجومية ... (١) فكلها خاضعة لتلك الحركة الدائرية أو بالأدق لتلك الديناميكية الحلزونية التى يسلم بها علم الفلك ، والتى تتحكم فى مسيرة هذا الموكب الضخم من الحياة الذى يعمر رحبات الفضاء ، وهى تتجاوز قدرات تصورنا بما لا يقاس .

ويعتقد الكثيرون أن هذه الديناميكية الدائرية للأحداث تتحكم أيضا فى عودة المبدأ الروحى فى الانسان للتجسد مرة بعد أخرى فى حركة حلزونية متصلة ومتواصلة حتى تحقق الطبيعة أهدافها فينا ، وهى تسمو على مداركنا بما لا يقاس ، وبما يتجاوز قدرات تصورنا مهما أجهدنا هذا التصور . بل حتى دورة الدم اللازمة لجميع الكائنات الحية تتخذ لها سلوكا دائريا مستمرا لا يتوقف الا بتوقف الحياة العضوية .

---

(١) بل حتى الضوء الذى كان يقال فيما مضى انه يسير فى خطوط مستقيمة ، أصبح بحسب حقائق النسبية يسير على الأمد البعيد فى خط منحنى ويعود حتما الى مصدره الذى بدأ منه . ولذا نفى أينشتين احتمال وجود خط مستقيم فى الطبيعة .

وهذا السلوك الدائرى لكل ظواهر الوجود يدخل فيه أيضا قانون دورات الحياة العضوية . فنحن نقترض أجسادنا العضوية من تراب الأرض وتتغذى من النباتات والحيوانات التى تتغذى بدورها من تراب الأرض. وبالموت يعود الجسد العضوى الى تراب الأرض الذى تستمد منه – من جديد النباتات والحيوانات غذاءها .

وما يجرى فى هذا الشأن بالنسبة لجسد الانسان يسرى مثله أيضا لجسد أى نبات ، أو أى حيوان خضوعا لهذا القانون الذى لا مفر لأى كائن منه ، وهو قانون « دورات الحياة » .

« واذا نظرنا الى المكونات الأساسية للغلاف الجوى (الأوكسيجين – النتروجين – ثانى أكسيد الكربون) نجدها أيضا فى دورات مستمرة تتفاعل مع مكونات الكائنات على سطح الأرض ، وتعود مرة أخرى للغلاف الجوى فى تنسيق يحفظ للغلاف الجوى استمرار ثبوت نسبة الغازات الثلاثة فيه .

وعناصر التربة هى الأخرى تجرى فى دورات دورية منسقة . فعند هبوط الأمطار تذوب بعض المواد المعدنية وتنقل مع مياه الأمطار ، وبعضها يعود الى تربة أخرى أثناء عمليات انتقال المياة أو فى عمليات رى الأراضى الزراعية والبعض الآخر ينتقل الى مياه المحيطات ...

أما العناصر التى تصل مع مياه الأنهار الى المحيطات والبحار فتقوم بعض الكائنات الحية والنباتات المائية بالاستفادة منها فى غذائها والاحتفاظ بجزء منها داخل أجسامها واخراج الجزء الآخر للمياه مرة أخرى ...

وكذلك نجد أن جميع العناصر الموجودة فى التربة أو فى الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية أو فى المياه ، والتى يستفيد منها الكائن

الحى فى عملياته الغذائية تعود مرة أخرى الى مصادرها بعد أو أثناء حياة هذا الكائن الحى •

وهكذا نجد أن هناك تنسيقا Harmony يجرى على كوكب الأرض يشترك فيه جميع الكائنات الحية من نبات وحيوان • ويسير هذا التنسيق فى دورات محددة قد تجرى احداها فى اتجاه عكس الأخرى ولكنها تعمل جميعا على تثبيت النسب الواجبة للحياة وتواجد الموجودات على وجه الأرض •

والناظر الى كوكب الأرض بنظرة جامعة فاحصة يجد أن هذا الكوكب الذى نعيش فيه يشبه المعمل الكبير • جميع أجزائه فى حركة دائمة من غلاف حيوى الى تربة ، ومن عناصر الى كائنات حية ، ومن سحب الى أنهار ومحيطات ، الكل فى حركة دائمة تتداخل مع بعضها البعض •

بل ان كل ذرة على كوكب الأرض تعرف الطريق الذى يسير فيه فى دورات منظمة محددة ، دورات منسقة واعية تدل على التخطيط السليم والتنظيم الدقيق المبدع بحيث يحافظ دائما — وهو فى تحركه — على استمرار وجود كوكب الأرض بصورته التى نعرفه بها ، والتى تهيىء استمرار بقاء الحياة عليه • وأى خلل أو تعطيل فى هذه الدورات المنسقة فان نهاية هذا الكوكب تكون المصير وتتناثر الحياة على سطحه ، ولربما تناثر هذا الكوكب وأصبح شظايا فى الفضاء » (١) •

* * *

ويقابل دورات الحياة العضوية قانون آخر هو قانون ديناميكية الحياة الروحية ، فالحياة الروحية غير قابلة للفناء لكنها تخضع لنفس هذا القانون فى صيغة أخرى تتخذ صورة اهتزاز بندول الساعة • فكما أن

---

(١) راجع حامد عوض الله فى مؤلفه عن « الالوهية وفكر العصر » ١٩٧٧ ص ١٢٦ — ١٢٨ •

البندول يتردد يمينا ويسارا كذلك تتردد ديناميكية الحياة الروحية دواما بين الطبيعة المنظورة والطبيعة غير المنظورة •

ويتجلى هــذا التردد كأوضح ما يكون فى ظاهرة تجدد الأنســجة والخلايا التى تظهر وتتلاشى على الدوام فى جسم كل كائن حى لأنها تتردد بين الطبيعــة المنظورة وغير المنظورة فى ظهــورها وفى تلاشــيها الذى لا يتوقف ، وليس بمقدوره أن يتوقف •

كما يتجلى بنفس المقــدار فى ظــاهرة اختفاء شخصية الانســان بالموت ــ لا فرديته ، وظهور نفس الفردية من جديد فى رداء آخر جديد هو ذلك الجسد الجديد الذى تقترضه الفردية من رحم الأم عند وصول الجنين الى مرحلة ما من النمو (١) •

وهــذا النظر كان كفيلا باقناع بعض العلماء بصــحة مبدأ العودة للتجســد بوصفه متضــمنا تعايلا صحيحا للتطور ، ولظهور الحيــاة ، واختفائها ، وعودتها ثانية للظهور كقانون طبيعى يحكم الوجود • ومن بين هــؤلاء من الألمــان أوتو فرانك Otto Franck ، وديتريش ايكارت Dietrich Ekhart (٢) ، والبارون دى اكستدس De Extedts (٣) وغيرهم •••

فكل هؤلاء وضــعوا فى الاعتبار ذلك التحكم المركزى المذهــل

---

(١) راجــع ما ســبق عن التمييز بــين الفرد والشــخصــية فى ص ٩٠٠ ــ ٩٢٧ •

(٢) وهو غــــير ما يســـتر ايكارت Meister Eckhart الذى كان متصــوفا (١٢٦٠ ــ ١٣٢٨ م) • وكان من رجال الكنيســة الجرمانيــة ولمــا نادى بمبدأ العودة للتجسد أتهم بالهرطقة وبالخروج على التعــاليم الدينية المستقرة ومات قبل محاكمته •

راجع عنه : ــ R. B. Blakney : Meister Eckhart. London 1941

(٣) فى مؤلف له عنوانه « الذرة والروح »
Atôme et Psyché. Stuttgart 1954.

فى نوايا الخلايا الحية « هذه النوايا (جمع نواة) التى يبلغ حجم البلايين منها حجما أقل من حجم رأس الدبوس تتحكم تحكم العقل المنظم ••• يسبح داخلهـا خيوط متشابكة مكونة من جزيئات ذات طابع خاص ، وتخرج منها شفرات تنطلق داخل أجزاء الخلية المحيطة بها ــ تستطيع بها التحكم فى خواص وتفاعلات الخلية •

ولكل شفرة تحكم محدد لتفاعل معين ، ولا يمكن لأى من التفاعلات أو الانقسامات التى تحدث داخل الخلية أن تتم الا بناء على شفرة معينة من تلك الشفرات التى تخرج من النواة •

ان عقل الانسان الذى بلغ قمة الموجودات فى الابتكار والاختراع لا يستطيع أن يعمل جهازا الكترونيا للتحكم فى مثل تلك التفاعلات التى تتم داخل النواة مهما وصل من السمو والتثقيف والعلم • واذا افترضنا جدلا أنه يمكنه عمل مثل هذا الجهاز فسوف يتطلب حجم ذلك الجهاز مساحة تزيد عن قاعة هائلة • ولكننا نجد هذا الجهاز موجودا داخل نواة الخلية التى لا يتجاوز حجم الملايين منها حجم رأس الدبوس الابرة •

ومثال آخر الجزىء الذى لا يتجاوز حجم ملايين الملايين منه حجم رأس الدبوس الابرة ، فانه يتحكم فى الصـفات الوراثية لكل جنس من المخلوقات الحية ، نباتية كانت أم حيوانية • وأى تغيير أو تعديل فيـه يغير من خاصية الجنس ، ويعطى خاصية جديدة للكائن الحى • وهذا الجزىء المكون ممـلوء بالجينات genes ••• ولكل جنس جينـاته الفريدة المميزة ••• » (١) •

وعملية تجدد الخلايا ــ التى تجرى تلقـائيا بداخل جسم كل كائن حى بصورة تسبب الحيرة والذهول ــ نبهت الأذهان الى ضرورة العناية بدراسة ما يطلق عليه وصف « الديناميكية الروحية » ، بل واستخدامها

(١) عن حامد عوض الله . المرجع السابق صفحة ٢٤٢ ــ ٢٤٣ •

كلما أمكن الاستخدام فى تحقيق صحة الجسد واطمئنان الروح عن طريق سيطرة العقل أو الروح على الجسد .

وفى هذا الشأن يقول المؤلف الألمانى ك . ا . شميدت K. O. Schmidt فى كتابه عن « الروح والذرة » ان الديناميكية الروحية عبارة عن دراسة نطاق هذه الديناميكية فى الروح وتطبيقها . وهى لا تتبع أية مدرسة من المدارس العديدة فى علم النفس ، لكنها تنبع تلقائيا من تطبيق الحياة عندما يتجه التطبيق نحو هدف سام ومثل أعلى ، هو السيطرة الظافرة على الذات ، وبالتالى على مصيرها .

وهى مبنية على التعرف على قدرة الروح على التوصل الى السيطرة على الجسد وعلى الحياة ، وتنادى بالاستخدام الايجابى للعوامل التى تشكل مصير الانسان . وقبله ترسم الطريق نحو فعالية الفكر ، والايمان المستقيم . فالديناميكية الروحية تقود بوجه خاص نحو استخدام العقل، ونحو اتخاذ سلوك ونشاط مناسب للوجود ، وفى نفس الوقت نحو تحقيق واع للذات ، ونحو اتجاه خلاق ومتكامل للمصير .

وتقترب دراسات علم النفس التحليلى (لا علم التحليل النفسى) للعالم السويسرى كارل يونج Carl Jung جدا من مدرستنا (بشأن الديناميكية الروحية) عندما تعالج الطاقة الروحية والتسلسل Processus اللازم لنضج الروح ، وميلها نحو التفريد (بمعنى اندماج الشعور فى اللاشعور — كما سبق أن بينت ، ونحو اتخاذ موقعها الشخصى فى الكل العظيم)(١) .

وثمة وجهة نظر أخرى لدينا أوفر اتساعا ، وهى أن الديناميكية الروحية تعتبر الانسان عبارة عن حقل الطاقات مكونة من عدة طبقات ،

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٤٨١ — ٤٨٨ عن آراء كارل يونج فى هذا الشأن .

توجد بينها مغايرات ، أو درجات تمثل الى حد ما القوى المكونة للذات ، والتى تمارس وظائفها الفسيولوجية بالاضافة الى كافة العناصر التدريجية التى تكوّن الذات (الروح والنفس) ومستقلة عن انتمائها المبدئى ، والتى تعمل مجتمعة طبقا لخطة مشتركة .

* * *

واذا لاحظنا الانسان عن قرب ، أى حوّلنا رؤيتنا الى داخل الذات والى معرفتها الدفينة ، فان الملاحظة تكشف لنا عن وجود اتجاهين أساسيين متوافقين فى الانسان :

فتوجد ابتداء « دفعة نحو الأمام » . أى نحو هدف محدد للنماء وللازدهار فى طريق السيطرة على الحياة والسعادة ، والوصول الى الأمن والأمان .

وتوجد ثانيا « دعوة الى فوق » تدعوه الى التكامل التدريجى والى تحقيق الذات عن طريق البحث عن الوحدة الثلاثية ، وهى تلك الوحدة التى تعوز غالبية الرجال : وهى وحدة الداخل مع الذات ، ووحدة الروح مع الآخرين بل مع جميع الكائنات الحية ، والوحدة الكونية مع الأزل .

واذا نظرنا الى الانسان من داخله وجدنا فيه مجموعة حية ، مجموعة لا تقبل التجزئة أى « فردية » نطلق عليها وصف « الشخصية » ، لأنها تمثل المظهر الخارجى لها . أى ذلك المكوّن المنظور للمبدأ المركزى غير المنظور ، الذى هو الطاقة الموجهة للتخطيط الكلى والذى يعمل من خلفه الاتجاهان اللذان يكوّنان الانسان . ونحن نطلق وصف « المرشد » ، أو « القائد » على الروح أو على الذات التى تحكمنا من الداخل .

وهذا الأسلوب الجديد للنظر الى الطاقة الديناميكية للكائن

الانسانى ، والى اعادة تقييمه يسمح بامكانيات لا شبهة فيها ، ومن شأنها ليس فحسب أن توسّع وأن تستزيد من حقيقة الانسان ، ومن ذكائه ، ومن فاعليته ، بل ان من شأنها أيضا أن تنشط بداخله طاقات ذرية للروح تعمل عن طريق التركيز الواعى • وهى طاقات كانت خاملة ، وبمقدورها عند النشاط تعميق علاقات الانسان بنظرائه وتحسين سلوكه نحو المستوى الغيبى القدسى (١) •

عن تأييد ذلك فى فيزياء الذرة والبيولوجيا

ولتقريب هـذه الامكانيات الى القارىء يمكن تشبيهها بصـلات الذرّة مع الروح •••• وهى صلات لا تنتمى الى قوانين معروفة ومطبقة ، بل الحـديث فحسب هو عن نمـاذج مستخدمة فعلا فى فيزياء الذرّة ، أو عن رموز مماثلة لتلك الرموز المستخدمة فى علم النفس ، أو فى الاعتقاد•

فهذه اذا مجرد تشبيهات مبسطة لكى نجعل هذه المنطقة التى تعلو على كل تشبيه ، ممكن لمداركنا أن تعيها ، وبالتـالى من الجائز أن تفتح طريقا كان مغلقا ، وسيظل بعيدا عن كل تجريب عملى بحسب الظاهر • لكن المضمون الكامن فى أمثال هذه الرموز والتشبيهات ، واستخداماته تمثل المفتـاح لكل معرفة أفضـل من غيرها عن الحقائق التى سـوف نعرض لها •

لذا يقول شميدت ان تشبيه نشاط الروح بنشاط الذرّة هو التشبيه السائد فى العصر الحديث عند العلماء الذين يعتقدون أنهم وصـلوا الى الحقيقة فى محاولات استكشافهم للروح بوصفها حقيقة قدسية • وعن هذا الاعتقاد تنبعث عدة مذاهب علمية ونفسية ولاهوتية بسـبب الاختبارات المتزايدة التى تجرى على ظواهر الشفافية الروحية •

---

(١) عن : K. O. Schmidt : L'Ame et L'Atôme : Trad. Fr. 1971 P. 13 - 15.

وهى مذاهب نسبية ومتطورة مما دفع البعض حتى الى انكار الأساس الذى يقع وراء هذه الظواهر . متجاهلين أن الرموز والتشبيهات لا يمكن الا أن تكون أمورا نسبية بجانب الحقيقة المطلقة . وكما يجرى فى فيزياء الذرة فان سؤالا وحيدا يمكن أن يثار هنا : وهو أى رمز هنا يقترب من الحقيقة أكثر من غيره ؟

وبنفس الطريقة فانه فى مبدأ ديناميكية الروح يثار نفس السؤال وهو : أية فكرة رمزية تقترب أكثر من غيرها الى حقيقة الروح والنفس؟ ولا يمكن انكار أنه بالنظر الى درجة النضج الحالية للبشرية فان الفكرة الديناميكية والتطورية تظهر أقرب الى الحقيقة من غيرها .

وبالذات بحسب الاختبار العملى ، والنفسى ، والدينى للحياة ، يتعين على المرء أن يتحدث — على أساس من الصواب — عن النشاط الديناميكى الفعال للروح ، وعن حقل الطاقات المتصل به ، ليس لاستخلاص معادلات رياضية تحكمه ، بل لمواجهته بالتعبيرات الرمزية ، على النحو الذى كان يعنيه جوته Goethe (الشاعر الألمانى المعروف) عندما قال « كل ما يجرى ليس الا صورة مما لا يقبل الفناء ، وهى صورة انعكست علينا فى عالم الظواهر (أى العالم المادى) » .

وهذا التمهيد — يقول شميدت — كان لازما لكى نفسر كيف أننا نتحدث عن الطاقة الذرية للروح ، التى تشهد بنشاطها القريب جدا ، والذى يختلط خلال الاختبارات الايجابية بالفكر ، وبالنشاط الديناميكى فى مفهوم الرموز والتشبيهات بالنسبة لصيرورة الجسم ، والحياة ، والمصير(١) .

ويلاحظ شميدت أن مفاد هذا كله هو تقدير قيمة الانسان تقديرا

---

(١) عن شميدت . المرجع السابق ص ١٣ — ١٩ .
وللمزيد راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٢٤٥ — ٢٦٤ .

خاصا كما فعل دعاة الروح الأوائل حتى خارج اطار الديناميكية الروحية من أمثال امرسون Emerson ، و فيلمور Fillmore ، وميلفورد Mulford ، ووليام جيمس W. James ، ومكدوجال Mc Dougall وغيرهم من أئمة الفلسفة الروحية •

وهؤلاء بدورهم غير أولئك الذين أشاروا الى هذه الديناميكية على نحو أو آخر من أمثال ليبنتز Leibniz ، وشوبنهور Schopenhauer وأستوالد Ostwald ، وبرجسون Bergson ، وقد عبَّر عنها كل منهم بأوصاف مختلفة •

وبعد عمل عدة مقارنات لتوضيح أوجه الشبه الصارخة بين نشاط الذرَّة ونشاط الروح ، وملكات هذه وتلك ، وخصائصها ، يقول شسيدت اننا نجد فى الروح نفس القدرة الموجودة فى الذرَّة على حفظ التوازن واستعادته ، وعلى تحليل عناصرها ، واستعادتها •

ونجد أن الروح ليس لها فحسب — بوصفها حقلا لطاقات بيولوجية — القدرة على اصلاح غلافها الجسدى وعلاجه ، بل انها كما يقول أوتوفرانك Otto Franck فى مؤلفه « طريق الشكل » (١) لها القدرة على انجاز تطورها التدريجى ، وعلى السيطرة على النمو معتمدة على وسيلتها لتعبير عن نفسها ، وهى جسدها المادى •

والروح أيضا كالذرة من ناحية عدم خضوعها للزمان ولا للمكان • فهى مثلها لا يمكن احتجازها لا فى الزمان ولا فى المكان ، ومع ذلك تقوم بدور ايجابى فى هذين البعدين •

وهى مثلها من ناحية أنها لم تعد خاضعة لقانون السببية الطبيعية فى الفيزياء التقليدية الذى يعبر عنه بأن نفس الأسباب تولد نفس

---

(١) Le Chemin de la Forme. 1949.

النتائج . ففى اطار الروح نجد الآن نفس الفكرة بسبب الاعتقاد بأن لأية روح قـدرة على التصرف بحرية ، وعلى أن تستجيب بأسـلوب مغاير لمـا تستجيب به روح أخرى رغم تماثل الأسباب(١) .

وكما أن المـادة والطاقة يكونان فى نهاية المطاف وحـدة واحدة ، كذلك العالم الداخلى (الروح) والعالم الخارجى (الجسم المـادى) يبدوان منفصلين بحسب الظاهر ، لكنهما يكونان وحدة واحدة بحسب الواقع ، أى روحا ذات احساس اشعاعى له مركز ذرى (هو الروح) (٢) .

* * *

ويلاحظ أوتو فرانك Otto Franck — بالاضـافة الى ذلك — أن فكرة الحقل الحيوى للكائن الانسانى تجبرنا على أن نعترف بأن الشكل الحى غير قابل للفناء حتى بعد أن يتخلى بالموت عن كتلته المنظورة ، لأنه

---

(١) للمزيد راجع ما سبق فى جـ ٢ صفحة ٦٠٠ — ٦٠٦ ، ٦٥٢ — ٦٦٤ .

(٢) عن شميدت . المرجع السابق صفحة ٣١ — ٣٣ .

ويراعى فى هذا الشأن أن الاعتقاد الذى كان سائدا منذ أيام لافوازييه Lavoisier هو أن الكتلة تبقى محتفظة بكيانها احتفاظا دقيقا . لكن ظهور نظرية النسبية قد غير هذا الاعتقاد ، فالكتلة لم تعد سوى شـكل خاص من أشكال الطاقة التى تظل محتفظة بكيانها احتفاظا مطلقا . وهو ما يعبر عنه بمبدأ « سكون الطاقة » الذى أعلنه أينشتين فى سنة ١٩٠٥ ، والذى انتهى الى مبدأ وحدة المـادة ، وتعقد تركيب أنوية الذرات (جمع نواة) .

وهذا هو ما يشير اليه المؤلف بقوله « ان المـادة والطاقة يكونان فى نهـاية المطاف وحدة واحدة » . ولهـذا الموضوع صـلة وثيقة بدراسات جسيمات ما دون الذرة . وكانت الفيزياء النووية فى الثلاثينات لا تعرف أكثر من أربعة أو خمسة من هذه الجسيمات دون الذرية أما الآن فيوجد منها أكثر من ثلاثمائة . (للمزيد راجع كتـاب « الذرات » تأليف روبرت لافون . ترجمة أحمد الأرفلى ١٩٧٧ . صفحة ٨٤ ، ٨٩) .

وكل ما فى الكون من صيغ الحياة يتكون من أساسيات ثلاثة مشتركة : أساس موجب ، وأساس سالب ، وأساس متعادل ، وهى نفس أساسيات التكوين الذرى . ولذا فان علماء العصر الحاضر لا يغالون كثيرا فى تشـبيه النشاط الروحى بالنشاط الذرى ، لكن مع مراعاة أنه فى النشاط الروحى يوجد دائما مركز حيوى يتحكم فى نشاط الذرات من خارجهـا وداخلها ، وهو ما يطلق عليه وصف « التحكم المركزى » .

لا يمكن أبدا تدمير أى حقل للطاقة بأى عامل خارجى عنه ما دام المصدر المولّد لهذا الحقل مايزال قائما •

وهذا القول كما يصدق على الحقل الفيزيقى ، يصدق أيضـا على الحقـل البيولوجى الذى لا يزال تكوينه مجهولا منا ، لكنه لا يمكن أن يناقض فى أية حالة قوانين الحقل الفيزيقى • وازاء هذه الاعتبارات فان البيولوجيا المعاصرة تجد نفسها مضطرة لأن تستخلص النتائج الأخيرة من فكرة الحقل ، وأن تتقبل فكرة عدم قابلية الشكل الحى للفناء بوصـفها نتيجة حاسمة لأبحاثها • وتقبّل هذه الفكرة يعنى فى نفس الوقت الاقرار بوجود عالم آخر غير منظور وغير مادى للشكل الحى •

وهذا يعنى — لا أكثر ولا أقل — من الاعتراف بوجود عالم بيولوجى آخر • وبالتالى فان دائرة العالم اللامادى لا تكون اسـتثناء من دائرة الأشياء المحسوسة والمدركة • ويكون بمقدور الأشياء المحيطة بنـا أن تختفى بالتعاقب فى العالم اللامنظور واللامادى ، ثم تظهر فى العالم المنظور بدون أن تفقد طبيعتها الخاصة ، وحتى بدون أن تتغير تغيرا ضروريا •

وبسبب حركة البندول أو تردد الروح بين الطبيعة المنظورة والطبيعة غير المنظورة ، وعنـدما تفقد الروح جسدها المـادى عند نقطة الصـفر (أى عند توقف البندول عن الحركة) تسترد الروح وعيها بعد الاحتضار فتدخل فى العالم الآخر بشكل تتابع سلسلة من الأحلام تتتابع فيها الذكريات التى عاشتها الروح فى المـادة طبقة بعد أخرى بكل التفصيلات المخزونة فى الذاكرة فى اتجاه عكسى من الشيخوخة الى الطفولة بسـبب قانون السببية الذى يعمل فى الوعى وفى المـادة • وفى تلك الحالة المتوسطة بين العالمين تبدو الحياة الروحية حقيقية للذات بقدر ما تبدو لها الحياة المـادية حقيقية ••• (١) •

---

(١) K. O. Schmidt : Nous Vivons Plus d'une fois P. 46 — 47.

ويشير المؤلف هنـا الى « قانون بقـاء الكتلة » ففى كل ظاهرة تظل الكتلة ثابتة ، والى هذا القانون يجب اضافة « مبدأ بقاء الطاقة » . فكل=

وهذه المعـــانى كلهـــا أوجزها العـــالم الأمريكى المعروف هيروارد كارنجتون Hereward Carrington عندما قال « لقد تقبل العلم الحديث فكرة أن شيئا ما يمكن أن يكون غير منظور لكن حقيقيا ، وأن الحواس بمقدورها أن تدرك أشياء منظورة أو غير منظورة ، وأن كل الطـاقات والحقائق غير منظورة وستظل كذلك دائما •

والوعى هو أعظم الحقائق ، ومع ذلك فان أية حاسة من الحواس المـــألوفة لم تصل اليه • والانسان العادى ينظر الى نفسه بوصفه جسدا يحوز روحا مؤقتة ، والحقيقة أن الانســـان روح تحوز جسدا مؤقتا • وان هذا لأمر هام الى حد أننا لا نجد أنفسنا بحاجة الى الالحاح عليه ، وهو يعطينا نظرة صحيحة عن الانسان فى علاقته بالكون » •

وهذه الأقوال لم تصـــدر جزافا ، ولا نتيجة تسرع فى الاستنتاج ، بل صدرت من عالم معروف فى الموضوعات الروحية • وهو الذى أسس « المعهد الروحى الأمريكى ومعمله » (١) منذ ســـنة ١٩٢٠ ، ووضع عدة مراجع قيمـــة فى هـــذه الموضـــوعات ، منفردا أو بالاشـــتراك مع علماء آخرين(٢) •

= نظام مادى يحتوى على طاقة نتيجة لحركته (طاقة الحركة) ، أو لوضعه النسبى (طاقة الوضع) ، ولتكوينه الداخلى الخاص (الطاقة الكامنة) . أما الطاقة الكلية ، وهى مجموع تلك الطاقات ، فانها تظل باقية فى أثناء أى تحول يحدث للمادة .

وان معـــادلة أينشتين Einstein التى أثبت بها أن الكتلة تعـــادل مربع سرعة الضوء تعيد صياغة قوانين بقاء الكتلة والطاقة فى قانون واحد . ولا يمكن لأى من هـــذين المقدارين أن يبقى بمفرده ، ولكن مجموعهما يظل ثابتـــا (للمزيد راجع روبرت لافون . المرجع الآنف الاشارة اليه صـــفحة ٩٩ — ١٠١) .

(١) American Psychical Institute and Laboratory.

(٢) راجع جانبا من آرائه بشأن ظاهرة الطرح الروحى فى الجزء الأول صفحة ٣٩٤ — ٤١٠ . وعن كارنجتون وانتاجه العلمى الضخم « مفصـــل الانسان روح لا جسد » جـ ١ صفحة ٣٢٣ — ٣٢٦ .

وتظهر أهمية هذه الأقوال عندما نضع فى الاعتبار أنها تمس تكييف علاقة الانسان بالكون تكييفا صحيحا • وهـذه العلاقة هى أساس علم المنطق الذى يعتبر المنفذ الوحيد لكل تفكير استدلالى صحيح • والويل للمعارف الانسانية كلها اذا كانت تشـيد على منطق خاطىء أو ضال ، كما عهدنا فى أى علم يقوم على أساس من الفلسفة المـادية للوجود ، متحديا كل حقائق الروح •

* * *

وعلى أية حال فاننا بحسب أية فلسفة مادية أو روحية نجد أنفسـنا ازاء التطور بوصفه حقيقة كونية ثابتة ، وواضحة أحيانا الى الحد الذى لا يقتضى الوقوف عنـدها طويلا لاثباتها • واذا تقبلنا التطور بوصـفه قانونا ثابتا من قوانين الطبيعة ، فانه يتطلب حتما :

أولا : وجود جوهر substratum ، أى عنصر متطور بمضى الوقت•

ثانيا : دوام هذا العنصر خلال التتابع غير المحدود لأجيال متعاقبة •

وهذا الجوهر هو الوعى ، أو قدرة الكائن على أن يكون واعيا منذ مبدئه على نحو أو آخر • وعند الوصول الى مرحلة الانسان ، فان تطور هذا الوعى قضية لا نجد حلا لها فى نظرية « اللاشعور الجماعى » الذى تذوب فيه اللاشعورات الفردية المؤقتة ، ولا فى الوراثات من الأسلاف •

انما وراثة الذات من نفسـها بسبب تنقلاتها من الجانب المنظور للطبيعـة الى الجانب غير المنظور وبالعكس هى تلك التى تفسر وحدها حدوث هذا التطور • كما تفسر أيضـا تلك الفروق الضخمة فى الطبائع التى تبرز بين أفراد متعددين قـد ينتمون الى نفس الجيل ، والى نفس الوراثة من الأسلاف •

ويتسق هذا القول تماما مع مبدأ العودة للتجسد ، الذى يقتضى أن يكون للوعى الفردى صـفة الدوام ، ولكنه من آن الى آخـر يرتدى

شخصية جديدة تبدو مستقلة عن ظروف الوراثة من الناحية النفسية . فالانسان فى كل ولادة انما يتلقى تركة المعرفة التى تجمعت لديه من حيواته السابقة ناهيك بدور الوراثة . وكل شخصية ليست سوى مظهر انتقالى ومتتابع لوعى فردى واحد يسير فى طريق التقدم خلال اتخاذه عدة شخصيات متعاقبة (١) .

متى وكيف انبثق التطور ؟

ويقول راينور جونسون Raynor C. Johnson مدير « كلية الملكة » بجامعة ملبورن Melbourne وهو باحث روحى ممتاز ، ومقتنع بصحة العودة للتجسد ، وبتفسير الوعى بتطور الروح منذ القدم ، أنه يجب علينا أن ننظر مليا الى تطور الذات فى الفرد ، لأنها لاتظل تنمو الى حين البلوغ . بل ان الفرد يظل فى حالة متخلفة أو باثولوجية غير مطلوبة من الناحية الروحية .

فالحيوانات تكون متنبهة الى بيئتها الخارجية من خلال حواسها وعقولها ، لكن من الراجح أنه لا يوجد مركز للذات ego center بداخل عقل الحيوان ويمكنه أن يقول لنفسه « اننى أعلم أننى متنبه الى البيئة » . لكن عندما ينمو طفل الى نقطة « الأنا » يبدو أنه يصبح متنبها الى أنه يشعر بوجود عالم موضوعى يعرفه ، وعندئذ تكون الذات قد ابتدأت تعمل .

فهذه حالة من الاحساس بالذات مغايرة للحالة الحيوانية البسيطة . وكلنا راقبنا طفلا يلهو بأصابع يديه أو قدميه بلا هدف . ولعلنا نستخلص من هذا أنه يمر بمرحلة سابقة على تلك المرحلة التى تعمل فيها الذات . لأنه فيها يحاول الطفل أن يميز بين وجود الذات وبين انتفائها oneself

(١) للمزيد راجع : George Chevrier : La Mission Créatrice Paris 1917 P. 73 et SS.

وراجع ما سبق عن التمييز بين الفرد والشخصية فى صفحة ٩٠٠ - ٩٢٦ .

والانسان البدائى لم يكن يميّز بوضوح بين ذاته وبين الأشياء المحيطة به فى بيئته • ومن الراجح أنه كان يشعر بوجود رابطة روحية قوية بحجر ما ، أو بحيوان ، أو بشجرة ، أو بمكان ، وكانت الرابطة من القوة بحيث أنه لو دمر هذا الشيء أو لو لحقه تلف ، فانه يشعر بألم فى شخصه قد يودى بحياته •

وقد يبدو هذا غريبا للانسان الغربى ، لكننا كلنا عرضة لما يطلق عليه النفسيون وصف انعكاس أو طرح لبعض الصور العقلية الى الخارج • والعقل اللاشعورى قد يعكس بعضا من محتوياته الخاصة على شيء ، أو على شخص موجود فى بيئته •

فاذا كان هذا هو الظل الذى انعكس الى الخارج ، فاننا نتصرف بنقد له أو بضيق منه ، لكن هذه الانفعالات كان ينبغى أن توجه فى الحقيقة نحو الشيء الذى رفضناه فى وعينا اللاشعورى الخاص • ويجب دائما أن نتصور أن آلية الانعكاس أو طرح الصور نحو الخارج تعمل اذا كان بمقدورنا أن نوجه مشاعرنا بصورة مألوفة بهذه الطريقة نحو شخص معين • فالأشخاص أو المواقف التى نواجهها بانفعال معين تكون بمثابة مرآة تعكس نفس المواقف والميول التى ندينها اذا صدرت عن الآخرين ••• (١) •

* * *

ثم يقول جونسون ان الذات بكل عناصرها قادمة من حياة سابقة ، وهى تدمج نفسها فى خلال السنوات القليلة الأولى فى تجسدها فى صورة طفل ، ثم تنمو الى حين النضج • وهذا ينتقل بنا الى التساؤل عن البنيان الانسانى فكيف نهضت هذه الذات ابتداء ؟

فلو كانت الأرواح خلقت من نفس التكوين الالهى ، لوجب أن تجيء كاملة حتى فى نبتها الأول كما يجيء غصن السنديان من شجرة السنديان •

---

(1) Raynor C. Johnson : The Spiritual path. 1971. P. 25 - 26.

ولكن حدث شيء ما على المستوى الروحى قد يحتمل أن يكون هو انفصال الأغصان عن الشجرة الأم . وهذا الانفصال صنع نفوسا تحركت خطوة بعيدا عن الحضور المباشر لمصدرها .

وربما حدث ذلك نتيجة مجرد رغبة فى مباشرة قدر من الحرية الكامنة فيها ، أو نتيجة فضول ، أو حاجة بريئة لاختبار الحياة فى مستوى أدنى للوجود . لكن أيا كان السبب فان هذه الخطوة من التباعد عن مصدرها الأصلى كانت السبب فى تعيين مصدر وجود مركز بدائى فى النفس للارادة الذاتية ، هو الذات .

فارادة الخالق شاءت أن تسمح لكل نفس أن تكون على نحو ما محددة بذاتها . وبهذا الانفصال بدأ السقوط الميتافيزيقى للانسان الى موكب الزمن . واحتاج الموكب لأجساد متتابعة اتخذها الانسان ، لأنها كانت لازمة له فى موكب السقوط هذا .

وهذا الموكب برمته ، كان واحدا من أسباب تقييد النفس ،وفى نفس الوقت زيادة حواجزها ، وانفصالها عن النفوس الأخرى فى الزمان وفى المكان . وأدى هذا الموكب بصفة أساسية الى زيادة الأنانية ، مع زيادة المعرفة بالذات ونمت النفوس فى القوة ، وفى الاحساس بالذات ، وصادفت تصادم المصالح عندما اتصلت بذوات الآخرين (١) .

وأحط مستوى نزلت اليه النفوس كان عندما سكنت أجسادا تشبه القرود الآدمية antropoid ape التى كانت فى الواقع نتاج تطور عريق بدأ قبل ذلك بكثير . فهذا الانسان المتجسد الذى نطلق عليه وصف الانسان الأولى homo sapiens كان أمامه طريقان للتدهور كامنان فى شخصه : أولهما هوتدهور النفس ، الذى أعطاه جسدا متزايدا فى قيوده : وثانيا هو تدهور شكله الفيزيقى الذى تصفه مراجع البيولوجيا .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٣ .

ولعل هذا يفسر لمـاذا أن مخلوقا يشبه القرد تطور مستخدما مخا ضئيلا ، وعقلا منحطا ، نحو نفس تملك أجسادا أرقى مما كان لها فى الماضى لكى تستخدمه بفاعلية • فعندما انفصل عن هذه النفس الجسد الفيزيقى بسبب الموت ، أصبح جسدها الكوكبى هو مطيتها الخارجية ، وعاشت حياة لها شكل ما ، لفترة ما على المستويات الكوكبية •

وبعد فترة محددة امتدت ربما الى سنوات قليلة أو الى قرون عديدة بدأت ثانية دورة العودة للتجسد ، وهذه هى العجلة التى تدور دائما بين الولادات والميتات•وكل دورة منها فى المعتاد تقوى قدرة الذات ، ولو أن هذا لا يحدث دائما بالضرورة • فقبل العودة للميلاد قد يتأتى للنفس أن تلمح معـالم الحياة الأرضية التى تفكر فى أن تدخل فيهـا • وتأمل — كما أملت فى المـاضى — أنها فى المرة المقبلة سوف تتغلب على ما بها من أنانية وتتجه نحو هدف الحرية التى تبتغيها • وقد تحدث فى هذا المعنى الشاعر وردزوورث Wordsworth بافاضة ••••

وفى غالبية الحالات والسبل ، فان دار الحضانة الأرضية (يقصد حياة المـادة) كانت نافعة جدا لنـا • فان ذوات بنى البشر قد ارتبطت بعجلة الحياة الأرضية بسبب الرغبة فى اشباع الحاجيات الأرضية • وخلال حيوات لا تحصى كان طريق هذه الحاجيات له جاذبية ، ونمت ذواتنا فى القدرة خلال صراعاتها المتبادلة • وكل واحد يشيد جدرانا من الجوع ، والجشع ، والشرور ، والخبث ، والحسد ، ولكن كل ما من الأرض شر، أما صوت الروح فقد ضعف ولم نعد نسمعه كما يجب(١) •••

ولا يتسع الكتاب الحالى للخوض فى هذه الموضوعات المتشـعبة التى هى من صميم البيولوجيا ، والطبيعيات ، والرياضة الحديثة ، والعلوم الانسانية فى أدق جوانبها وأعمقها • بل لقد قصرته على مجرد عرض موجز

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥ — ٦٦ •
ولنفس المؤلف راجع :
The Light and the Gate (1964) P. 117 - 122.

لموقف العلوم الحديثة من تطور جوانب التكوين الروحى وأسرار السلوك بعد التحول من أسلوب السيكولوجي الى أسلوب الباراسيكولوجى . ولكن هذا يقتضى بذاته ضرورة الاحاطة ببعض الجوانب العامة لمبادىء العلوم الطبيعية ، خصوصا منها البيولوجيا المعاصرة .

كل ما فى الطبيعة له وجود سابق

ولكن ابتداء — وقبل الدخول فى صميم التطور — يلاحظ أ. د. والكر E. D. Walker أن القول بأن الروح تخلق بغتة لكى تقدم الى هذا العالم يتنافر مع كل مبادىء العلوم . فالطبيعة تسلك دائما أدق السبل الاقتصادية ، ولا يضيع فيها شىء ، ولا يضاف فيها شىء . وكل ما قد يظهر فى فصل الربيع بغتة الى الوجود انما هو مشتق من عامل كاف كان موجودا من قبل رغم أنه غير منظور منا ، شأنه شأن البخار الذى يغذى الغيوم .

وهناك رأى متفق عليه سواء بين الروحيين أم بين الماديين ، وهو أن كمية الطاقة والمادة تظل ثابتة ، وقانون حفظ الطاقة يعمل فى نطاق الروح مثلما يعمل فى نطاق المادة . ورصيد الطاقة فى الكون رصيد ثابت ، فلا ينقص ولا يزيد لكنه يتغير .

وتطور التكوينات العضوية الذى يشاهد متداخلا فى موكب الحياة يشير الى أن الكائنات الحديثة متطورة من كائنات قديمة طبقا لأسلوب غير مستحدث لكنه أزلى . ولا يسمح العلم بالقول بحصول معجزة مثل بعث الحياة من العدم ، التى تنافى كل اختبار ، لكنه يسمح بوجود بعث عام للحياة خلال كل ظواهر الطبيعة ، وهذا أمر خاضع للمشاهدات الشائعة . والنظر الى الروح بوصفها كائنا أزليا مستمرا خلال حقب من التجسدات نظر يلتئم مع روح العلم الحديث .

ومما له قيمة خاصة هنا قانون السبب والنتيجة ، وهو يمثل محور الوجود . ولا يوجد تفسير ملائم آخر لظاهرة الحياة مثل القول

ـ كما يقول العلم الخالص ـ بأن ثمة أسبابا تشبه تلك الأسباب التى تعمل الآن أمام ناظرينا ، وهى المسئولة عن النتائج التى نشاهدها .

وخصائص كل شخصية نراها تحتاج الى اختبارات سابقة فى حياة فيزيقية تكون قد ولدتها . وكل الحواس الخصبة للطبيعة الانسانية تشير الى اختبار أرضى طويل بوصفه مصدرا لها . والشهوات الجسدية التى لم تتشبع للروح تحتاج الى سلسلة من الوجودات المادية حتى تتغلب عليها ...

ويقول علماء الفسيولوجيا أن البنيان العضوى العجيب للانسان لا يمكن أن يجىء عن طريق محض مادة ، بل لابد له من مبدأ روحى موجود من قبل يجمع من حوله الشروط العضوية اللازمة للوجود الفيزيقى ، وبرغم العناصر المادية على أن تتبع التخطيط الذى وضعه . وهذا العامل الديناميكى أو الروح لابد أن يكون موجودا من قبل ، ومستقلا عن الجسد ، أى قبل اعداد الوعاء اللازم له .

وقد عنى بابراز الوجود السابق للروح على الجسد عدد من علماء الفسيولوجيا منهم بوييه Bouiller ، وموللر Muller وهارتمان Hartmann ، وستاهل Stahl . وأن لهذه الروح طاقة قابلة للتشكيل تشيد بطريقة لا شعورية جثمانها العضوى الخاص . كما تحدث عن هذا المعنى بعض الاغريق وبعض اللاحقين منهم فشته Fichte ولوتز Lotze .

وكما يشيد العصفور عشه بطريقة غريزية بمهارة خرافية ، كذلك تقوم الروح لا شعوريا بصناعة جسدها مستخدمة القوانين المناسبة لها . ويعترف غالبية العلماء بوجود هذه الطاقة اللاشعورية للعقل أو للغريزة التى تقوم باصلاح الجسم ، وشفاء جروحه ، وكسور عظامه ، وهى التى تشرف على نموه . وتحدث عن هذا المعنى أيضا أفلاطون ، وجيوردانو برينو Giordano Bruno .

ويقول الأخير ان النفس ليست فى موضع محدد من الجسم ، بل أنها تشبه شكلها الداخلى ، والنموذج (أو التمثال) الذى صنعته من الخارج . أى أنها تشبه الشكل الذى يصنع الأعضاء ، ويشكل الكل من الداخل ومن الخارج . ومن ثم فان الجسم يكون فى النفس ، والنفس تكون فى العقل (أو فى الروح) .

* * *

وهذا الفهم من شأنه تخطئة المذهب المادى الذى يقصر طاقات الفرد على تعقيدات الآلة . وهذه القدرة للنفس المستقلة على صنع شكل خارجى لها هى تلك التى دفعت أفلاطون الى أن يفترض أن تكون للنفس قوة طبيعية يمكن الامساك بها ، وتخضع لولادات متكررة .

ولما كانت الذات أعرق من الجسد ، ولما كانت هى التى تشيد الجسد بحسب ذوقها وامكانياتها ، ولما كانت أهداف مسكنها الجسدى لا يمكن تحقيقها فى حياة عابرة واحدة ، لذا يتعين عليها أن تستعيد نفس الاختبار ، محاولة دائما أن تصوغ جسدها بما يناسب ملكاتها النامية ، وذلك حتى تستغنى عن حياتها فى المادة . ولذا انفصل منظر الانسان الحديث عن منظره فى ماضيه السحيق ...

ثم أن الذات الواعية لا يمكن أن تشعر بأنه كان لها بداية ما ، ولا تشعر بالفناء . والاحساس بالبقاء عندها يتخطى كل انقطاعات النسيان والنوم ، وكل حواجز المادة . وهذا الاحساس الذى لا يتوقف بالذات يثير فكرة استقلالها عن الجسد المتغير الذى هو سجنها المؤقت . وعندئذ ترد الى الخاطر فكرة أن النفس اذا كانت قد ظهرت مرة فى شكل انسانى ، فلا بد أنها قد تعود للظهور فى أشكال أخرى . وشخصية الذات لا ترتبط — بيقين — بتذكرها كل ماضيها ، فنحن دائما ننسى ، ثم نستيقظ من جديد الى المعرفة ، ولكن الاحساس بالذات يتخطى كل ذلك . وبنفس الطريقة يبدو لنا وجودنا الراهن كما لو كان عبارة عن يقظة نومية حركية دفعنا اليها من حياة سابقة ، كما يبدو لنا أننا سنخرج يوما من

هذا النوم الى اليقظة (١) •

كما يلاحظ والكر أن فلسفة « الأفكار الفطرية » فى الانسان لم تعد مقبولة فى الحاضر . بل تنتمى الى العصور الماضية • وأنصار فلسفة الحدس أو الالهام intuitionalists ينظرون الى مفاهيم العلة ، والمادة ، والزمان والمكان ، كما لو كانت توجد فى العقل مستقلة عن الاختبار • ولكن أنصار فلسفة الاحساس Sensationalists ينسبون هذه المفاهيم كلها الى الاختبار ، أو الى الاحساس بها •

أما التطوريون من أنصار سبنسر Spencer فيتخذون موقفا وسطا ويعتبرون هذه المفاهيم ارثا عقليا ناجما عن اختبارات السلالة برمتها ، وهذا الخلاف كله لا يمكن حله — كما لاحظ ادجار فاوسيت Edgar Fawcett — عن طريق علم النفس الغربى •

ويثور باكل Buckle على هذه الأنظمة المتضاربة لأنها ألقت بدراسة العقل الى اضطراب يماثل الاضطراب الذى وصل اليه الاعتقاد بسبب خلافات رجال اللاهوت • ويرثى جورج هنرى لويز G. H. Lewes فى مؤلفه عن « تاريخ الفلسفة » (٢) هذا الوضع المحير فيما وراء الطبيعة •

وحل المشكلة يجىء عن طريق العودة للتجسد كما يعرفها الشرقيون الذين يؤكدون أن الفكرة الصحيحة للنفس يمكن اكتشافها عن طريق تربية ملكاتها فوق المدركة • وبالتالى فهم يعتقدون أن كل مدرسة متطرفة تحوى شطرا من الحقيقة فحسب • وأن الاكتساب الأول لهذه المفاهيم كان عن طريق الاحساس ، لكنها الآن أصبحت بمثابة أفكار فطرية فى عقل

(١) راجع : E. D. Walker : Reincarnation. A Study of Forgotten Truth 1919 p.p 25 — 28.

(٢) G. H. Lewes : History of Philosophy.

الطفل . فهى الآن عبارة عن اختبارات أصبحت عامة عن وجودات سابقة طفت فى العقل من جديد .

وان عدم الاستقرار الذى تشعر به نفوسنا يشير الى عادات قديمة فينا ذات تأثير متغير . وثمة اشارة الى ماضينا أكثر وضوحا من ذلك ، وهى تنوع الطبع فى الشخص الواحد . فهذا التردد بين عوامل القلق والاضطراب بداخل كل واحد منا ، وهو متلهف للسيطرة عليها ، وعاجز عن ذلك مهما كان ثبات عاداته الحاضرة ، من شأنه أن يجعل أفضل من فينا خاضعا للمغريات ، وأقوى من فينا متخاذلا بين طباع عديدة ، والطريق الرئيسى لطبائعنا كثيرا ما يكون مقيدا بطرقنا القديمة التى نسيناها .

والتكوين الخلقى للأطفال يشير الى ذلك ، خصوصا صدور أفعال شريرة منهم قبل أن يتأثروا بالبيئة . وقد دفعت هذه الظاهرة المراقبين اليقظين الى القول بأن الروح الانسانية قد تخيرت الطريق الى الشر فى مستوى مماثل لهذا المستوى سابق على الولادة فيه . وكل من يعرف الأطفال يرفض نظرية البراءة الفطرية فيهم ، لأنهم بمجرد حيازتهم القدرة على الخطأ يرتكبون الخطأ كأمر طبيعى لا يحتاج الى تعليم .

والميل القوى للخطأ عند الطفل الذى لم يتأثر بالبيئة بعد ، ليس بمقدوره أن يخفى الخير الذى عنده ، لكنه يشير فحسب الى توافر عادات سقيمة سابقة تحاول أن تعاود نشاطها . والمجرم الأثيم فى المعتاد يرى اثمه عندما تجرى الخطيئة فى مجراها ، ويصبح ملتفتا اليها الى حد أنه قد يحاول أن يغيِّر من سلوكه فيما تبقى له من حياة . وهكذا يبدو الشر مصدرا للخير ، وتبدو الرذيلة بمثابة فضيلة بحاجة الى تقوية .

وتثور فى كل انسان ، فى مرحلة من مراحل نموه ، حاسة التعرف على الخطيئة بداخله ، ويكون متأكدا أنها حقيقة الى حد أنها تتجاوز

للوراء كل حياته الراهنــة • وعقلنـا الداخلى يلتئم مع الحاسة العـامة الموجـودة لدى الانسان بأنه وحــده مسئول عن اتجـاهات ميـوله الخاطئة (١) •

المبحث الثانى

بين تطور المـادة وتطور الحيـاة

فى نطاق المـادة هناك اجماع أيضا على أنها فى حالة تطور مستمر من البسيط الى المركب• واذا كانت المـادة فى حالة حركة دائرية دائمة ، وتطور لا يتوقف من البسيط الى المركب ، فمن باب أولى يكون الانسان بكل ما يحوزه من مرونة نفسية وعضوية ، ومن قابلية للتأقلم أو للتكيف مع العصر والبيئة •

وعن تطور المـادة يقول جوستاف لوبون Gustave Lebon الفيلسوف الفرنسى ان الأثير الذى يملأ رحبات الفضاء قد انتهى بأن تحول الى ذرات ، وعن تجمع الذرات نشأت المـادة كما توجد فى أرضـنا ، وكما يمكننا أن نراقبها فى الكوكب • وخـلال فترة التكون التـدريجى للمادة من الأثير ، قامت الذرات باختزان رصـيد من الطاقة كان عليها أن تنفقه فى صيغ متنوعة منها الحرارة ، والكهرباء فيما تلا ذلك من الأزمان• وعنـدما فقدت الذرات ببطء هـذه الصيغ من الطاقة التى اختزنتهـا فى مبدأ الأمر ، مرت المواد بتطورات مختلفة ، وارتدت صيغا متنوعة •

وعنـدما بعثت الذرات بكل ما فيها من طاقة مخزونة فى صـورة اهتزازات مضيئة ، عادت ــ نتيجة للاشعاعات الصادرة عن تحللها ــ الى الأثير الأولى الذى جاءت منه • فالأثير يمثل اذا « النرفانا » النهائية التى تعود اليها جميع الأشياء بعد وجود يتفاوت فى مدى قابليته للزوال •

---

(١) راجع ولكر • المرجع السابق ص ٣١ ــ ٣٤ •

وهذه النظرات الموجزة عن مصـدر الكون الذى نعيش فيه وعن نهايته لا تلقى سوى أضواء باهتة على الظلمات العميقة التى تغلف ماضينا، وتحجب مستقبلنا . وهى تمثل تفسيرات قاصرة جدا ، ولكن العلم لا يملك أن يقترح غيرها . ولا يمكنه بعد أن يرقب اللحظة التى يتمكن فيها من تلمس السبب الأول الحقيقى للأشياء ، أو حتى أن يصل الى الأسباب الحقيقية لظاهرة واحدة . فينبغى اذا أن يدع العلم للاعتقادات وللفلسفات مشقة تخيل الأنظمة المعدة لكى تشبع حاجتنا الى المعرفة (١) .

* * *

ولقد لعبت نظرية التطور دورا هاما فى ارتياد العديد من المجاهل الطبيعية التى كانت قبلها تستعصى على الارتياد ، والتى كانت تمثل محض ألغاز تنتمى الى ما وراء الطبيعة أكثر مما تنتمى الى بحوث العلم الوضعى، وبالذات الى بحوث علم الأحياء « البيولوجيا » .

وذلك الى الحد الذى دفع أحد المؤلفين الى القول بأنه بعد الاعتراف المبدئى بتطور الجسد — حتى بمعرفة اللاهوت — فانه من اليسير توقع الاعتراف — بلا تأخير بتطور الروح . ومن ثم فقد انهار ذلك السد الذى حاول اللاهوت أن يقيمه فى وجه الانسان حتى يمنع تطلعه الى الوراء .

وبالنسبة لدارس علم النفس الحديث فانه يجد أن فكرة « العودة للتجسد » انتقلت من نطاق الاعتقاد الى نطاق الواقع ... لذا كتب العلامة البريطانى توماس هكسلى T. Huxley قائلا : « انه لا يوجد أحد بمقدوره أن يرفض هذه الفكرة على أساس أنها تمثل خرافة متوارثة الا المفكر المتعجل جدا . وفقه العودة للتجسد — شأنه شأن نظرية التطور نفسها — له جذوره فى عالم الواقع ، وربما تكون له أسانيد تماثل فى قوتها أسانيد التطور نفسها » .

ولاحظ أن هذه العبارات الخطيرة قالها هذا العلامة المعروف

---

(١) G. Le Bon : L'Evolution de la Matière

(١٨٢٥ — ١٨٩٥) عندما كانت الأسانيد التى يملكها العلم الوضعى عن هذا الموضوع ضئيلة جدا بالنسبة لتلك التى يملكها الآن ، بل لا تكاد تذكر فما بالك الحال بعد اذ بلغت وثائقه هذا المبلغ الذى عرضنا لبعض جوانبه فيما سبق ؟ !

هذا ، وقد تناولت فى أكثر من موضع سابق بعض آراء عامة عن نظرية التطور ، وعن موقف العلم المعاصر من ناحية عدم انكارها بوجه عام ، وان كانت الفلسفة المعاصرة أخذت تتحول تدريجيا من تعليل التطور بمادية الوجود الى التسليم بوجود قوى عاقلة ، وبتخطيط روحى عريق وراء هذا التطور . والمدارس فى هذا الشأن عديدة يضيق عنها المقام الحالى ، وقد اختلفت فى بعض مبادىء التطور لا فى صحة التطور نفسه كقاعدة عامة خصوصا على الأحياء . ولا ريب أن التطور ينبغى أن يثار كمبدأ عام عند الحديث فى نظرية احتمال العودة للتجسد بالنظر الى الصلة الوثيقة بين الموضوعين .

بين تطور الانسان وتطور الحيوان

فالانسان كائن تام متطور ، وقابل للنمو وللتطور نحو الأفضل ما فى ذلك ريب ، وجميع الشواهد تؤيده . والحيوان كائن تام متطور ، وقابل للنمو وللتطور ما فى ذلك ريب أيضا ، وجميع الشواهد تؤيده . لكن المشكلة الحقيقية هى فى تحديد خطوط التطور ومصدره واتجاهاته الصحيحة .

وكان الاعتقاد السائد بعد اعلان ناموس التطور ان الانسان والحيوان يسيران فى خط واحد مشترك للتطور . وهذا الناموس الخاص بالتطور كان فى شكله الأول مستمدا من الفلسفة المادية للوجود ومرتبطا بها ، ولا يكاد يفسح مجالا بالتالى للحديث عن عنصر روحى يبقى حيا بعد فناء الجسد المادى . وكان القول بأن الانسان لا يختلف عن الحيوان شيئا من ناحية التكوين البيولوجى لكل منهما يعطى دعامة ضخمة للفلسفة

المادية عن الوجود • أو بالأدق يعطى حجة قوية لدعاة القول بفناء شخصية الانسان بسبب فناء جسده المادى •

هذا بالنسبة للغرب ، أما بالنسبة للشرق الأقصى ، فقد تصور عدد غفير من حكماء الهند — بوجه خاص — أن هذا القول يعطيهم دعامة علمية لتأييد دعوى احتمال عودة الانسان للتجسد ولو فى صورة حيوانية أحيانا ، بل وعودته الفورية عقب انفصال الروح عن الجسد رأسا ، بلا حاجة لأية فترة يقضيها خارج جسده المادى فى أى عالم من عوالم ما وراء المادة •

ولكن ما لبث لفيف من أحسن التطوريين فى الغرب أن أدرك أن الانسان لا يسير فى خط واحد فى التطور مع الحيوان حتى مع التسليم بتطور الانسان ، وبتطور الحيوان ، ومن هؤلاء الفيلسوف الكبير برجسون — كما فطنوا أيضا الى أن تطور الانسان أعرق كثيرا من تطور الحيوان وأسمى منه هدفا (١) •

ومن ثم ينبغى أن نقول ان تنازع البقاء وبقاء الأصلح وان كان صحيحا كناموس طبيعى ، الا أنه لايصح أن يعتبر مصدرا للتطور ، بل بالأكثر نتيجة حتمية له • وبالتالى فانه يتعين البحث عن مصدر آخر للتطور غير ناموس تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ومن ثم يبرز دور التخطيط الروحى العاقل وراء هذا التطور لتحقيق غايته الحقيقية •

وهذا الفهم الفلسفى للتطور — سواء أكان فى اطار المفاهيم العلمية أم خارجها — كما يفسح للروح وللخلود ، وللتخطيط الالهى المرسوم ، دورا واضحا فى الوجود ، فانه فى نفس الوقت لا يشجع — فى أى معنى من معانيه — احتمال عودة الانسان للتجسد فى وعى أو فى

---

(١) راجع ما ورد فى « المفصل » الجزء الثانى ص ٣٤ — ٣٧ ، ٤٣ — ٥٢ •

صـورة حيوان أعجم ، لأن التطور يسـير نحو الأمام لا نحو الخلف من جانب ، ولأن خط الانسان فى التطور مستقل عن خط الحيوان ، باستقلال الانسان عن الحيوان فى وعيه ، وفى وجدانه ، وفى حاسـته الخلقية من جانب آخر .

واستقلال خط التطور عند الانسان عن خط التطور عنـد الحيوان لا ينفى وجود بعض نقط التقاء بينهما ، هى تلك التى سـمحت للاثنين أن يوجدا فى وقت واحد على كوكب واحـد ، وأن يتحكم الانسـان فى الحيوان ، فيتخـذ من ظهره مقاما ، ومن لحمـه طعاما ، بغير احتمـال التداخل بينهما من ناحية الوعى ، أو الوجدان ، أو الحاسـة الخلقية ، التى قد توجد عند الحيوان فى صورة باهتة جدا أحيانا ، ولكن يعوزها التقدم الموجود عند الانسـان ، والذى يسير جنبا الى جنب مع تقـدم الوعى الشعورى واللاشعورى فيه ، وهو تقـدم مضطرد ، وان كان بطيئا بل أبطأ مما نتصور .

وليس من الصحيح أن يقـال ان الانسان يختلف عن الحيوان فى أنه يملك حاسـة روحية دونه . أو بالأدق أن له قدرة على الادراك خارج الحواس لا يملك الحيوان الأعجم مثلها ، فان هذا القول محض خطأ ، وهنالك دراسات كثيرة على الحيوانات أثبتت أن بعضـها قد يملك بعض قـدرات روحية متنوعة ، مثل الجلاء البصرى ، ومثل استشعار الأمور المستقبلة أو الحاضرة ... وبعض هذه القدرات قد يكون وصف الالهام وصفا مناسبا له ، وأوضح أمثلة لها هى فى الهـامات النملة ، والنحلة ، والعصفور ، والسمكة ....

لكن الانسـان يختلف تمـاما عن الحيوان من ناحيـة الذاكرة . فللانسان ذاكرة تتراوح فى مداها ليس فى هذا أدنى شك . وهى ذاكرة متطورة دواما بحسـب الذكاء ، والنضـج ، ومراحـل العمـر ، ونوع الاستخدام ... وكل بحسب قدراته الفطرية والمكتسبة .

لكن بالنسبة للحيوان نجد أن الذاكرة محل نقـاش حتى من ناحية المبدأ . وفى هـذا الشأن يلاحظ رودلف شتاينر R. Steiner أنه لم يثبت أن للحيوان أية ذاكرة . وعندما يتعرف الكلب مثلا على صاحبه بعد غيـابه لفترة من الوقت ، فان هذا التعرف قد لا يكون راجعـا الى الذاكرة بل الى شىء آخر مختلف تماما عنها .

فالكلب يشعر بانجذاب معين نحو صاحبه ينبع من شخصية هـذا الأخير . وهـذا الانجذاب يعطى الكلب احساسا بالسـعادة طالمـا كان صاحبه موجودا . وكلما حدث ذلك كان بسبب تكرار هذا الاحساس .

أما عن الذاكرة فلا تتـوافر لأى كائن الا اذا كان يشـعر — ليس فحسب باختباراته الراهنة — بل أيضا يحتفظ باختباراته السـابقة . وقد يتقبل أى انسـان هذا الرأى لكنه يقع مع ذلك فى الخطأ اذا فكر فى أن الكلب له ذاكرة .

وحتى اذا كان الكلب قد يصاب بالحزن والهزال عند غياب صاحبه ، فان ذلك ليس سببه ذاكرة الكلب ، بل سـببه أن الكلب عنـدما كان يعيش مع صاحبه كان وجود صاحبه شرطا لاحساسه بالسعادة ، فاحساسه بغياب صاحبه هو أشبه ما يكون باحساسه بالجوع فقط(١) .

* * *

ولا أريد أن أتعرض هنا للمشكلة الخطيرة التى لم يحسمهـا العلم بعـد ، وهى من أين بدأ تطور الانسان ؟ ولكن هناك نقطة ليست محل نزاع ، وهى أنه اذا كان تطور الانسان قـد بدأ جدلا من أصل حيوانى يشبه الغول أو الشمبانزى ، فان الانسان ولا ريب قـد قطع صلته تماما بهذا الأصل الحيوانى منـذ عشرات الآلاف من الأعوام التى قـد تبلغ المـائة ألف عام أو أقل أو أكثر ، بغير دخول فى التفصيلات الخارجة عن دائرة المؤلف الحالى .

(١) عن مؤلفـه : An Outline of Occult Science P. 27.

وتطور الحياة نحو الأمام ــ على المدى البعيد ــ هو جوهر ناموس التطور الذى ينكر بتاتا احتمال تطورها المخلف•وهذا الجوهر لا يتعارض مع احتمال عودة الانسان للتجسد فى صورة انسان جديد ، وربما أكثر خبرة ونضجا مما كان ، لكنه يتعارض تماما مع احتمال عودته ــ وقد وصل بالفعل الى مرتبة الانســان بكفاح مائة ألف عام أو نحو ذلك ــ الى صورة حيوان يعوزه العقل ، كما يعوزه التطور بمقدار هــذه الحقبة الطويلة نفسها • وذلك حتى اذا صح أن تطور الانســان بدأ من أصــل حيوانى على نحو ما •

وهذا القول لا ينفى أن غرائز الحيوان قــد تظل رابضــة فى وعى الانسان ، وقــد تكشف عن نفسها بسناح شتى للســلوك الاجرامى على ما لاحظه سيزار لومبروز ــ وغيره ــ بالنسبة لطائفة « الجناة بالفطرة » التى قد تمثل ارتدادا بالانسان الى أصــله الحيوانى أو لا تمثل • لكن مقومات الانسان ، وأخصها القدرة على استخــدام الاستدلال المنطقى ، تكون أيضــا ماتزال متوافرة فى هــذه الطائفة المرتدة من الجناة وأقوى ظهــورا فيهم من غرائز الحيوان الرابضــة فيهم والتى قد تنشــط تحت تأثير ذبول الحاســة الخلقية أو اختفائهــا ، لا تحت تأثير ذبول العقــل أو اختفائه •

وهذا هو ما يلاحظ أيضا عنــد طائفة المجرمين المصــابين بالجنون الخلقى أو بالتخلف الروحى (أصحاب الشــخصية السيكوباتية) حيث تعوزهم ــ هم أيضا ــ الحاسة الخلقية ، ولو فى أضعف صورها ، فتبدو تصرفاتهم محض حيوانية وكأنهــا من تراث ذلك المــاضى السحيق الذى مر به الانسان عندما كان يتسلق الأشجار على أربعة أرجل(١) •

* * *

---

(١) للمزيد راجع مؤلفنا فى « مبــادىء علم الاجرام » طبعة خامسة ١٩٨١ ص ٨١ ــ ٨٣ عن « الجنــاة بالفطــرة » وص ٤٥٢ ــ ٤٦٢ عن « الجنون الخلقى » .

ويلاحظ ألفرد راســل والاس A. R. Wallace وهو الذى أعلن نظرية التطور فى سنة ١٨٥٨ ــ قبل داروين ــ أن تطور الانسان فى تكوينه العقلى أبرز مما هو فى تكوينه العضوى • فالانسان يختلف عن الحيوان من ناحية أنه عرضة لكى يتحمل تغيرات ضخمة فى ظروف العيش وفى البيئة بغير أن تحدث تغيرات مقابلة ملحوظة فى بنيانه وفى شكله •

وهو يواجه تغيرات البيئة بأن يغير أساليبه فى الملبس ، والاقامة ، والدفاع ، والأجهزة التى يحوزها ••• ورأس الانسان ووجهه يتناسبان مباشرة مع جهاز الذكاء الذى هو المترجم عن الانسان ، والمعبر عن أرق الحركات فى طبيعته • وأى تغيير حقيقى انما يجىء من جانب تغيير العقل، وذلك منذ العصر الذى لم يكن فيه الانسان يحوز مخا متقدما على هذا النحو الرائع ، هذا المخ الذى هو أداة الروح ، والذى هو حاليا ــ حتى فى أحط أنواع الانســان ــ يسمو كثيرا فوق أرقى الحيوانات ، وذلك منــذ العصر الذى كان يملك فيه الانســان الشــكل ، ولكنــه لا يسلك الا بصعوبة طبيعة الانسان ، ولم يكن يملك أيضا لغة الانسان ، ولا مشاعره العاطفية والأخلاقية • ولكن لابد أن الانسان كان ينتمى فى المــاضى الى سلالة متناسقة ، انتماء أدى الى اختفاء الشعر الذى كان يغطى جســمه اختفاء شبه تام(١) •

وعلى أية حال فلا يوجد حتى الآن أى مبرر حقيقى للاعتقاد بأن خط التطور مشترك ومتداخل بين الانسان والحيوان ، أو بأن من الجــائز أن يعود الانسان المنتقل الى الجسد فى صورة حيوان أعجم ، وذلك بالاضافة الى انتفاء كل دليل يؤيد هذا الاعتقاد الذائع فى الهند وفى الشرق الأقصى بوجه عام ، والذى لا يلقى بدوره تأييدا من آراء العلماء •

---

(١) راجــع ما ســبق عن ألفرد راسل والاس فى الجزء الأول صفحة ٤٤٧ — ٤٥٠ •

أما العودة الى التجسد فى صورة انسانية فيكاد يكون موضع اجماع من الباحثين العلميين • ومع ملاحظة آن هـذ النظر ـ اذا صح ـ قد لا ينفى الأصل البدائى أو شبه الحيوانى لجسم الانسان ، لكنه ينفى المستقبل الحيوانى أو شبه الحيوانى لروح الانسان مهما عظمت خطاياه وتراكمت أخطاؤه •

ونضيف الى ذلك آن بعض المؤلفين الباحثين فى الأديان الهندية ـ منهم سينيت Sinett ـ يقول ان التعاليم البوذية الأصلية قـد سلمت بالعودة للتجسد فى صورة انسان ، لكنهـا خلت تماما من الاشارة الى احتمال العودة فى صورة حيوان • وأن هـذا الاعتقاد الأخير دخيل على البوذية فى مفهومها الأصلى ، وأنه من الخرافات التى تسللت اليها فيما بعـد ، كمـا تتسلل الخرافات والأساطير وتتكاثر تدريجيـا فى جميع المعتقدات[1] •

* * *

ولكن ذلك كله يتسـق ـ على أية حال ـ مع القـول بأن لجميع الكائنات الحية حياة أثيرية تذهب اليها بعد الموت • وفى هذا الشأن يقول جان بريير Jean Prieur ـ وهو باحث روحى معروف فى بلاده ـ ان من يتحدث عن الروح يتحدث عن دوام حياتهـا بعد الموت • والحيوان لم يتلقَ النفس ، لذا من المحال الحديث عن جسـد نفسى للحيوان • والحيوانات لاتصل بعد الموت الى المستويات الروحية العالية ، لكنها قد تصل الى بعض المستويات التى تمكنها فحسب من أن تكون على صـلة بالأشخاص الذين أحبوها عندما كانوا على الأرض ••••

والمنتقلون يقولون فى رسائلهم ان الحيوانات تشاهدهم (حتى وهى على الأرض) • ولقد لاحظ بعضنا أن الكلاب ، والقطط ، والخيول ، تتخذ أحيانا مواقف يتعذر تفسيرها الا بأنها تشاهد كائنات لا نشاهدها نحن ، مثل التوقف فجأة فى رقعة معينة •

---

(1) Karl Muller : ReincarnationBased on Facts 1970. p. 21.

واذا كانت الحيوانات ــ حتى بعد تخليها عن أجسادها المــادية ــ بمقدورها أن تلحق بنا فى هذا العالم أو فى ذاك ، فان السبب بسيط وهو متعلق بحبها لنــا . وهى تبحث عن أصحابها هناك وأحيانا تعثر عليهم . وبين العالم الحيوانى والعالم الانسانى ــ هناك وهنا ــ توجد جســور صنعها الحب ، والحب هو قاعدة الخلود .

وكما يقول الروح بيير Pierre « ان الله لا يسمح أبدا بالاختفاء التام لأية جذوة حب مهما كانت ضئيلة . والانســان أو الحيوان الذى يطوى بين جنبيه جوهر الخلود ــ وهو الحب ــ لا يفنى أبدا » (١) .

وجميع المراسـلين الروحيين يرفضــون تماما تعــذيب الحيوانات أو تشريحها حيَّة ، ويعتبرون هذا التشريح شرا لا يمكن تبريره ، وهو شر يغلق باب الارتقاء فى وجه عالم الحيوان وعالم الانسان معا ....

وحيثما توجد التضحية ، توجــد حرية الاختيار ، وحيثما توجــد الحرية يوجــد الذكاء والحب ، وحيثما بوجــد الذكاء والحب والحرية توجد الروح .

وحيثما توجد الروح توجد القيامة . وحتى الدابة الأم تلحق هناك بأولادها فى مناطق البراءة السعيدة ، حيث يلعب الفهد مع الحمل الصغير والدب الصغير مع الثور ، وتحيا هذه الكائنات كلها بحسب قدراتها فى عالم خالٍ من الفخاخ ، والسموم ، والصائدين (٢) .

ويقول جان برير فى كتاب آخر له عنوانه « شــهود غير المنظور »

---

(١) هناك تحقيقات عديدة فى البحث الروحى تؤيد هذا الرأى الهام ، بما فيها تجسد بعض الحيوانات داخل « المعهد الدولى لمــا وراء الروح » بباريس فى حضــور عشرات من العلماء عن طريق وساطة وسيط بولندى للتجســدات يدعى فرانك كلاســكى F. Kluski (للتفصيلات راجــع « المفصل جـ ١ ص ٨٨٣ — ٨٨٩) .

(٢) عن مؤلف له عنوانه « ذاك العالم الآخر الذى ينتظرنا » ١٩٧٤ .
Cet Au — Delà Qui Nous Attend p. p. 231 et S. S.

(١٩٧٢) « ان المراسلين الروحيين يرفضون النظرية التى بمقتضاها يمكن للروح الانسانية العاقلة الخالدة أن تزود بالحياة وبالتتابع أجسادا حيوانية ، ثم أجسادا آدمية » .

كما يقول الروح المدعو بيير Pierre فى نفس هذا الكتاب « ومع ذلك فان الانسان مخلوق على صورة الله ، وهذا ما لا يمكن للحيوان أن يصل اليه ، رغم الخداع الذى وقع فيه أنصار تقمص الانسان لروح الحيوان . فالكلب مثلا وهو أكثر الحيوانات قابلية للانفعالات العاطفية التى يشعر بها فى روحه الحساسة ، لكنها مع ذلك بدائية ، يظل مع ذلك حيوانا حتى فى حياته العليا التى يلج اليها بعد الموت » .

واذا كان تقمص أرواح الحيوانات نظرية زائفة فان ذلك لا ينفى أن من واجبات الانسان أن يشجع تطور الحيوانات والارتفاع بها الى حياة أسمى من حياتها عن طريق تدريبها ، وايقاظ مواهبها الخاملة ، والعطف المتزايد عليها (١) .

اعتبارات لها وزنها

ثم ان ثبوت وجود أجساد أثيرية لجميع الكائنات الحية ، ومنها الجراد ، والضفادع ، والفئران ــ وقد ثبت ذلك بتجارب معملية متنوعة من بينها التقاط صور ايجابية لها باستخدام « مخدع ويلسون للتمدد » Wilson Expansion Chamber ــ من شأنه أن ينفى الحاجة الى عودة الوعى الانسانى للتجسد فى صورة حيوان ما لكى يزوده بالحياة ، أو للتزود عن طريق تجسده فيه باختبار مفيد فى نمو هذا الوعى ذاته(٢) .

---

(١) Les Témoins de L'invisible p. 137 — 144.
بمقدمة من الفيلسوف جابريل مارسيل Gabriel Marcel عضو الأكاديمية الفرنسية . والرئيس السابق « للمعهد الدولى لما وراء الروح بباريس » .

(٢) مخدع ويلسون للتمدد هو جهاز مستخدم أصلا فى دراسة نشاط جسيمات الذرة . وهو مكون من اناء مشبع ما به من هواء ببخار الماء ، بحيث أنه عند مرور شحنة كهربية من خلاله يتكثف البخار الى قطرات =

انما الأمر الأقرب الى الاحتمال — متى ثبت افتراض العودة للتجسد بمعنى الولادة المتكررة لنفس الكائن على المستوى الترابى — أن تكون عودة الانسان فى صورة انسان ، وعودة أى حيوان فى صورة نفس الحيوان . وهنا ينبغى أن توضع فى الاعتبار عدة اعتبارات هامة وهى :

أولا : أن قانون التطور من الأدنى الى الأسمى يلعب دوره دائما عند كل كائن حى ، ومهما كان التطور بطيئا فلا قيمة لذلك لأن الزمن لا حدود له فى الطبيعة .

ثانيا : أن تطور الانسان يسير فى خط مستقل عن تطور الحيوان على ما لاحظه برجسون وبعض علماء البيولوجيا المعاصرين .

ثالثا : ان المسافة بين تطور الانسان والحيوان تبدو بلا حدود على ما لاحظه نفس الفيلسوف ، حتى اذا قلنا باحتمال التطور من الحيوان الى الانسان .

رابعا : أن وراء التطور تخطيط روحى لا يمكن تعليله بالمصادفة كما لا يمكن تعليله بظواهر الحياة المادية مثل نقص الغذاء فى الطبيعة وافتراس الأقوى جثمانيا للأضعف (١) . لأن هذا الافتراض وان كان ملازما للتطور المادى الا أنه ليس التعليل المناسب له ، وفارق بين التعاصر الزمنى وبين العلية الطبيعية (٢) .

ويبدو أن النظريات الحديثة للتطور تسير فى هذا الاتجاه ، ولا تجد فى التعليل الداروني القديم ما يروى الغليل ، أو ما يتفق مع معطيات العلوم الأخرى .

= صغيرة تكون أثرا ظاهرا على طول مسار الشحنة . وبهذه الطريقة يمكن مشاهدة جسيمات ألفا التى لا يمكن مشاهدتها بطريقة أخرى حتى باستخدام اقوى الميكروسكوبات .

وقد استخدم العلماء هذا الجهاز فى استكشاف الأجساد الأثيرية لبعض الكائنات الحية فى لحظة مبارحتها للجسد المادى بالموت ، وكانت النتائج ايجابية .

(١) راجع ما ورد فى « المفصل » الجزء الثانى ص ٣٥ — ٣٧ ، ٤٣ — ٥٢ وفى الجزء الثالث ص ١٠٧ — ١١٣ .

(٢) المرجع السابق . الجزء الثالث ص ٣٤٤ — ٣٥٥ .

ويقول أيضا الباحث المعروف ليون دنيز Léon Denis ان الروح بعد تطور بطيء تصل الى الحالة الانسانية ، وعندئذ تحصل على المعرفة ، ولا يمكن أن تتقهقر الى الوراء • وفى جميع الدرجات فان الأشكال التى ترتديها الروح انما تعبِّر عن قيمتها الخاصة • والمكان الذى تشغله الروح فى سلسلة الكائنات ملائم دائما لحالتها من التقدم •

ولا ينبغى أن تتهم الاله بأنه قد خلق أشكالا كريهة وشريرة ، فانه ليس بمقدور الكائنات أن ترتدى مظاهر الا تلك الناجمة عن ميولها وعاداتها التى اكتسبتها •وقد يحدث أن أرواحا آدمية تختار أجسادا آدمية ناقصة العقل أو عرضة للألم لكى تسيطر على شهواتها ، وتحصل على الصفات اللازمة لتطورها ، ولكن لا يمكن أبدا أن تمارس هذا الاختبار فى صورة كائنات دنيا حتى وان كان الكائن يقع بالضرورة تحت سيطرة الميول التى نماها فى نفسه •

ولا يوجد بالتالى ما هو أعظم ولا أعدل ، ولا أكثر التئاما مع قانون التطور من ارتقاء الأرواح الذى يحدث على مراحل تدريجية ، تكوِّن فيها نفسها بنفسها ، وتتحرر تدريجيا من وطأة الغرائز ، وشطحات الأنانية لكى تستيقظ فى حياة العقل ، والحب ، والحرية • ومن العدل المطلق أن يخضع الجميع لنفس شروط التعلم ، وأن كل كائن لا يحصل على حالة عليا الا بعد الحصول على قدرات جديدة •

وعندما تصل الروح الى الحالة الانسانية ، وتحصل على سيادتها ، ومسئوليتها الأدبية ، وتتفهم واجبها ، لا تكون بذلك قد وصلت الى نهاية تطورها ، بل العكس يبدأ عملها الحقيقى ، وتناديها مسئوليات جديدة • ومعارك الماضى ليست سوى تمهيد لما يدخره لها المستقبل •

فالروح تعود للميلاد فى أجساد لحمية تتتابع على هذه الكرة • وفى كل مرة تظهر الروح من جديد بأعضاء استعادت شبابها ، ورسالة

التقدم التى تكون قد توقفت (أو بالأدق تباطأت) بالموت تستأنف من جديد ، وتتقدم الروح أكثر فأكثر •

وكسائحة أزلية فانه على الروح أن تصعد من مستوى الى مستوى نحو مزيد من الخير ، ونحو العقل غير المحدود ، وتكتسب مزايا جديدة ، وتنمو فى العلم ، وفى الحكمة ، وفى الفضيلة ، وفى الحب ، وكل وجود أرضى ليس سوى حادثة فى حياتها الخالدة • ولا يمكن لأية روح فى هذه الفسحة القصيرة من حياتها الأرضية أن تتحرر من عيوبها ، وأخطائها ، وشهواتها السفلى التى هى بقايا من حيواتها المنقضية ، بقدر ما هى شواهد تنبىء عن أصلها القديم •

وعندما نقيس الأزمنة التى كان على الانسانية أن تجتازها منذ ظهورها على الأرض حتى تصل الى حالة الحضارة ، فاننا نقدر أنه لتحقيق أهدافها ، وللصعود من ضوء الى ضوء نحو المطلق والمقدس ، كان يلزم للروح أزمنة بلا حدود ، وحيوات لا تتوقف عن طريق الميلاد المتجدد » (١) •

وهذه الاعتبارات مجتمعة تتعارض تماما مع القول باحتمال عودة الانسان الى الوراء فى خط التطور الذى مضت عليه حقب سحيقة تتجاوز قدرتنا على التقدير أو القياس ، وبالتالى فلا نتصور أبدا الغاء كل هذا المجهود المتواصل بالتجسد فى صورة دابة من الدواب العجماء البكماء ، مهما كانت جسامة الشرور والأخطاء • وفى آلام التجسد الأرضى ما قد يفوق كل تصور ، وما قد يصلح لمواجهة أى داء عياء فى العقل والأخلاق ، بسبب مرونة الانسان وقابليته للتكيف وللتربية عن طريق الألم المرير اذا أحاق بتلك الشعلة القدسية الخالدة فيه ألا وهى الروح •

---

(١) عن ليون دنيز Après La Mort p. 163 — 165.

حقائق فى السيكولوجيا لها دلالتها

وعلى العموم فان المنقبين فى خبايا الانسان يكتشفون كل يوم أن هذه الخبايا لا تقف فى تعددها عند حد ، وأنها من الكثرة بحيث تحتاج الى جهود مكثفة من العلماء قد تمتد الى سنين كثيرة مقبلة ، قد تتجاوز تلك السنين التى اقتضاها البحث فى الشعور الانسانى •

ناهيك بالبحث فى أسرار التكوين العضوى ، وما يتصل بها من وظائف شتى ، الى حد أن غددا عديدة لا تزال حتى الآن تخفى بين ثناياها ألغازا ضخمة ، ولا تزال وظائفها محل حيرة المعنيين بدراسة جانب واحد من التكوين العضوى للانسان ، هو ذلك المتصل بهذه الغدد الصغيرة المنتشرة فى أنحاء عديدة من الجسم البشرى •

على أن أهم ماكشف عنه التنقيب فى أغوار التكوين الروحى للانسان هو أنه يتراوح دائما بين الذكورة والأنوثة ، بحيث يمكن القول بأنه لاتكاد توجد فى الطبيعة ذكورة خالصة ولا أنوثة خالصة ، لا من الناحية النفسية ، ولا حتى من الناحية العضوية • بحيث أصبح محالا لدى العديد من الباحثين الاعتقاد بأن خلق الانسان قد بدأ ببدء ظهوره الحالى على مسرح الحياة ، بل ان وراء هذا الظهور تاريخا عريقا ، وتاريخا حافلا بالتحول من جنس الى آخر مرات ومرات •

وبالتالى فان حقائق التطور فى ضوء العودة للتجسد قد تقدم تعليلا مناسبا لهذا التردد بين الجنسين من الناحيتين النفسية والعضوية وبالتالى لما قد يبدو أحيانا من ظواهر متراوحة شائعة أو نادرة ، يتعذر العثور على تعليل آخر مناسب لها • ومن ذلك مثلا ما قد يبدو على بعض الذكور مثلا من خشونة زائدة ، وبالتالى من طباع تشير الى عراقة فى الذكورة ، وعلى بعض الأناث من عراقة فى الأنوثة ، وعلى البعض الثالث من حالة قد تجمع الى صلابة الرجولة واعتدادها برأيها قدرا من رقة الأنوثة ولين

عريكتها ، وعلى البعض الرابع من انحراف نحو نفس الجنس • فيقولون ان ذلك كله راجع الى التجسد المتكرر فى أحد النوعين دون الآخر ، أو فيهما معا مرة بعد مرة • ويحاول بعض الروحيين تفسير بعض صور الشذوذ بأنها قد تتضمن نوعا من الحنين غير الواعى للماضى السحيق فى صورة أو فى أخرى •

ثم ان كل جسد مذكر يحوى أطلالا من الأنوثة كالثديين لا استعمال لهما عند الرجل ، كما أن كل جسد مؤنث يحمل اطلالا من الذكورة يعرفها علما التشريح والبيولوجيا • ووجود هذه الأطلال أمر لا تخفى دلالته عند الباحثين عن العلة والسبب فى كل أمر من أمور الحياة • بل من الناحية البيولوجية أن كل كائن بشرى يخرج الى الوجود حاملا معالم الجنسين معا بطريقة تلقائية ، ثم ما يلبث أن يتغلب أحدهما على الآخر بتأثير الهرمونات • وبعبارة أخرى أن الليبيدو Libido وهو الطاقة الحيوية ، أو الجانب العقلى للغريزة الجنسية ـــ بحسب مدرسة فرويد ـــ واحد بين الذكور والاناث ، ولا يوجد أى فارق بينهما فى هذا الجانب رغم اختلاف الجانب البيولوجى الفسيولوجى •

ولذا كتب فرويد فى « ثلاث مقالات فى نظرية الجنس » (١٩٠٥) « اننا لا نجد فى أى كائن بشرى ـــ لا بالمعنى السيكولوجى ولا بالمعنى البيولوجى ـــ رجولة خالصة أو أنوثة خالصة ، ففى كل فرد يتجلى بالحرى مزيج من الخصائص البيولوجية الجنسية الخالصة به مع قسمات بيولوجية من الجنس الآخر » • كما كتب فى مؤلفه « محاضرات جديدة فى التحليل النفسى » (١٩٣٥) قائلا « لا يوجد غير ليبيدو واحد يعمل فى خدمة الوظيفة الجنسية المذكرة والمؤنثة على حد سواء » (١) •

(١) وهذه الثنائية الجنسية تظهر دائما بصورة سيكولوجية وهذا هو الوضع المألوف . انما قد تظهر بصورة عضوية أيضا فى حالات الخنوثة hermaphroditism ويذهب فرويد أيضا الى ان عقدة أوديب الكاملة انما ترجع الى وجود الثنائية الجنسية فى طبيعة كل طفل (راجع « الذات والغرائز » تأليف سيجموند فرويد ترجمة د. محمد عثمان نجاتى طبعة ١٩٦١ ص ٦٤ ـــ ٦٨) •

وســار الفريد آدلر Alfred Adler تلميذ فرويد والعالم النفسى المعروف فى نفس الاتجاه أيضا ، وسلم بهذه الحقائق ودلل عليها فى عدة مواضع من مؤلفاته قائلا أن الازدواج الجنسى موجود فى النــاس كافة . ويذكر أن لاكير كشف أن هرمونات الجنس الآخر توجــد فى بون الناس جميعا ... هذا الى ما ذكره من أن دراسة التوائم قــد تؤدى يوما الى التثبت من الاشــتراك فى خصــائص الجنس الآخر وتعين على فهم تلك الحقيقة .

كما ذهب آدلر الى أبعد من فرويد عندما سلم بأن الشعور الجنسى ليس هو المحرك الخفى الذى يوجه نوازع النفس الانسانية وأهم ميولها ومخاوفهــا ، بل أن حب الحركة لتحقيق الذات هو هــذا المحرك الخفى الأصيل فى كل انســان ، لأن الذات أوثق صــلة به من جنســه . ولأن ــ وهذا هو المهم ــ «الأنا» فى الانسان أسبق من الذكورة والأنوثة معا وأعرق . وهكذا ابتعد آدلر عن أستاذه فرويد واقترب اقترابا واضــحا من نتائج البحوث الحديثة فى الذات ، وكيف أنهــا أسبق من الذكورة والأنوثة معا ، ومستقلة عنهما ولو على نحو ما .

ومن المســلم به أيضــا أن المرحلة الجنينية هى مرحلة تذبذب بين المؤنث والمذكر ، وهو تذبذب يرجع الى الجنســية الثنائية الأصــلية فى الكائن البشرى حتى ولو كانت نهــاية الصراع بين الجنسيتين فى الكائن الواحد محددة من قبل ، فما علة هذه الجنسية الثنائية ومن أين جاءت ؟! ..

ويقال أيضا انه اذا كان التجسد على المســتوى الأرضى مفيدا فى نضج الروح ونمو ملكاتها ومواهبها عن طريق الألم فان التجســد لمرة واحدة قد لا يكون كافيــا ، خصوصا اذا كانت فترة التجســد الأرضى قصيرة بسبب حلول الأجل المحتوم فى طور الطفولة أو حتى فى الشباب . وأن تعدد مرات التجسد على هذا المستوى يفسح للروح مجــالا أكبر للحصول على مزيد من المعرفة والاختبار ، ومن تناسق الشخصية ، وبالتالى

على مكانة أسمى فى العـالم الذى تسـتحقه الروح ـ بحسب مرحـلة تطورها ـ من عوالم ما وراء المـادة •

وفى الجملة يقولون ان موضوع التطور عن طريق العودة للتجسد هو أنه يعطى للانسان فرصا متعددة لكى يمر خلال فصول متعددة من مدرسة الحياة الأرضية العجيبة هذه ، وبالتالى لكى يحصـل على مزيد من التطور والتناسق فى العقل والعاطفة عن طريق المزيد من الاختبار فى الألم والنضال الشاق فى هـذا المستوى الأرضى الذى يتطلب نضـالا لا ينقطع وألمـا لا يتوقف •

فمثلا تجسد الروح فى الرجولة يعطيها فرصـة أو أكثر للتقدم فى صفات الرجولة الطيبة ، مثل الشجاعة ، والعزيمة ، والاقدام ، والحكمة ، والتواضع ، والصدق ، والتسامح • وتجسدها فى الأنوثة يعطيها فرصة أو أكثر للتقـدم فى الصـفات الطيبة للأنوثة مثل قوة الاحتمال ، ورقة الشعور ، وعمق العاطفة ، والتضحية ، والحنـان ، والحياء • كما قـد تكون الأنوثة ترويضـا للروح على العفة وضبط النفس ، وهكذا حتى تتكامل الفضائل المطلوبة فى الروح فلا تعود بعـد بحاجة للتجسد على المستوى الأرضى ومعاناة دروسـه وأهواله ، بل تستحق مستوى راقيا من مستويات الأثير •

موقف كارل يونج

ويقول كارل يونج ان لكل كائن آدمى سـمات ذكورية وأخـرى أنثوية فى وقت واحد معا سواء أكان ذلك من الناحية البدنية أم النفسية (الأثداء فى الذكر والبظر أو بقايا عضو التذكير لدى الأنثى) • ولذلك نجد أن بعض الرجال يكونون ناعمى الوجوه ، يمتازون بالرقة والتأنث ، كما نجد بعض النساء وقد وخطت شفاههن آثار الشوارب،وهن مسترجلات بارزات العضل •

فاذا كان الشخص ذكرا ، أى شخص تغلب فيه سمات الذكورة ، فان جانب الأنثى فيه يكون كامنا مغلوبا على أمره ، ولكن هذا الجانب الأنثوى المغلوب فى طبيعة الذكر ، والذى يطلق عليه يونج « الأنيما » Anima يظهر فى أحلامه فى هيئة الأنثى • ومثل هذا يحدث فى حالة الأنثى ، اذ تظهر نزعاتها الذكرية الأولية ، ولكنها تظهر لها فى أحلامها فى شكل رجل يطلق عليه يونج « أنيموس » Animus وهو الذى يمثل الرجل الرابض فيها(١) •

ويقول يونج ان مشاعر الرجل — اذ جاز لنا هذا القول — ليست فى حقيقتها الا مشاعر امرأة ، وهى تظهر على هذا الوضع فى الأحلام • وانى أشير الى هذه الهيئة أو ذلك الشكل الذى تظهر عليه باسم أنيما ، فهى تشخيص للوظائف الدنيا التى تربط ما بين الرجل واللاشعور الجماعى فى مجموعه • وهذا التشخيص يظهر للرجل فى هيئة امرأة ، ويظهر للمرأة فى هيئة الرجل ، وهو فى هذه الحالة يسمى أنيموس •

فالأنيما اذن هى المظهر الأنثوى للرجل الفرد أو « المرأة الحالة فى الرجل » • ولكنها ليست دائما قاصرة على الجانب الأنثوى من الرجل الفرد ، ولكنها الجانب الأنثوى الأبدى ، وهو أقدم بكثير من صنوه لدى الفرد ، ولذا فهو نمط عتيق archtype • فالأنيموس والأنيما صور أو هيئات تظهر دواما فى الأساطير ، اذ هى أنماط عتيقة وصور أصلية فى اللاشعور • وعنها نشأت أرباب الأساطير ورباتها •

وهى تحيا فى عالم مختلف كل الاختلاف عن عالمنا ، ومن العبث أن نحاول تطهير جبل أوليمبوس من آلهته بدعوى الاستنارة العقلية ، اذ مافتىء الناس رجالا ونساء يؤمنون بالأرباب بالرغم من كل نزعة تشكك أو نظر عقلى ، وذلك لأنها تقوم مقام أشياء لها وجود واقعى فى ذاتها ••••

---

(١) انيما لفظ يطلقه يونج على ذلك الجانب الداخلى من شخصية الانسان المرتبط باللاشعور •

وطالمـا كانت وظائف الشخص مكبوتة فان الشخصية تتحقق تحققه ناقصا ، فالخصائص الأنثوية أو الأنيما فى الرجل ضرورية بنفس القـدر لنمو المرأة نموا كاملا ، سواء لكى تدير شئون بيتها أم لكى تؤدى أى عمل فى الحياة أداء فعالا •

ولذا فعندما تظهر هذه الخصـائص فى الأحلام تكون بذلك مكملة لذواتنا العادية فى عالم اليقظة ، وتمثل ما هو ضرورى لتحقيق حيواتنا • فطبقا لمـا يقول به فرويد اذا حلم شخص بامرأة كان حلمه هذا اشارة الى رغبات جنسية ، أما يونج فانه يجيز أن تكون جنسية ، ولكنها فى رأيه قد تشـير الى جانب لم يتضح بعد فى شخصيتنا ، وهذا الجانب ضرورى لتحقيق حيواتنا واكتمالهـا ، وينبغى لنا أن نعير هـذه الأحلام اهتماما خاصـا •

وهذا التوازى بين الأسـاطير والأحلام وثيق لدرجة أن يونج كثيرا ما يلجأ الى الأساطير يستلهمها الرؤى ، ويعتبر هذا الأسلوب مكملا لطريقة التداعى الطليق خاصـة وأن التداعى الطليق ذاته يعجز عن أن يسـبر غور العقل اللاشعورى • لذلك فعندما يساورنا الشـك والتردد فى فهم رمزية الحلم قد نجد فى الأساطير ما يوحى لنا بتفسـير صادق • والواقع أن يونج يرى أن الرموز الشائعة فى ديانات الشرق الأقصى مشتقة أصلا من الأحلام ، ولم تكن من ابتداع أحد رجال الدين (١) •

هذا ولنا وقفة كافية عند آراء يونج فى مفهوم اللاشعور ، ومصدره ووظائفه ، فيما بعد ، وكذلك عند نظريته فى ضرورة التمييز بين اللاشعور الفردى ، واللاشعور الجماعى •

حقائق فى البيولوجيا لهـا دلالتهـا

كما أن حقائق السيكولوجيا لا تقف حائلا دون احتمال صحة افتراض

---

(١) عن هادفيلد « الحلم والكابوس » ترجمـة صلاح الدين محمـد لطفى ص ٧١ – ٧٨ •

الوجود السبقى مع تغيير الجنس من الأنوثة الى الذكورة أو بالعكس فان حقائق البيولوجيا لا تتعارض مع نفس الاتجاه . فمثلا حتى وبعد الولادة لا يوجد حاجز حاسم فى الخصائص النفسية - لا العضوية المعتادة - بين الأنوثة والذكورة . وفى هذا الشأن يلخص الأستاذ عباس محمود العقاد حقائق البيولوجيا قائلا « ليست كل امرأة أنثى من فرع رأسها الى اخمص قدميها ، أو أنثى مائة فى المائة . بل ربما كانت فيها نوازع الأنوثة ، ونوازع غيرها الى الذكورة . وربما كانت أنوثتها رهنا بقوة الرجل الذى يظهرها ، فلا تتشابه مع جميع الرجال ....

وقد كانوا فيما مضى يحسبون هذا التراوح بين الذكورة والأنوثة ضربا من كلام المجاز ، فأصبح اليوم حقيقة علمية من حقائق الخلايا ، وفصلا مدروسا من فصول علم الأجنة ووظائف الأعضاء .

وليس التناقض لهذا السبب مقصورا على النساء دون الرجال ... فان الرجل أيضا يصدق عليه ما يصدق على المرأة من تفاوت درجات الرجولة ، اذ ليس كل رجل ذكرا من فرع رأسه الى اخمص قدمه ، أو ذكرا مائة فى المائة .... ولا ريب أن الشخصية الانسانية فى حالى الذكورة والأنوثة عرضة لكثير من التناقض المحير للعقول : عقول الرجال وعقول النساء ... »(١) .

ثم يقول العقاد فى موضع آخر من نفس مؤلفه هذا « وقد يتفق أن يكون فى الانسان خصية ومبيض بدلا من الخصيتين ، فيسرى فى جسده افرازان يميل به أحدهما الى الذكورة ويميل به الآخر الى الأنوثة ، ويشاهد فى مثل هذا الانسان أحيانا مشابه من المرأة فى الصدر وبعض الأعضاء الداخلية .

---

(١) فى مؤلف له عنوانه « هذه الشجرة والانسان الثانى » ص ٧٤ ، ٧٥ .

على أن الحيوانات الدنيا تتناوب الذكورة والأنوثة كمـا فى بعض الحالات النادرة ، فتكون المحارة البـالغة ذكرا ثم تنقلب أنثى ثم تعود ذكرا مرة أخرى . وهى لا تلد البويضات الا اذا ارتفعت الحرارة حولها الى درجة معـلومة . ففى الدرجة من عشرين الى اثنتين وعشرين تنقلب المحارة أنثى مرة فى كل سنة ، وفى الدرجة الرابعة عشرة الى السادسة عشرة تنقلب أنثى مرة كل ثلاث سنوات أو أربع سـنوات ، ولا تنقلب أنثى فيما دون هذه الدرجة على الاطلاق .

وتشاهد هذه الظاهرة فى بعض الأسماك الصغرى وبعض الحشرات المـائية ، فيحدث فيهـا التحول على نحو يشـبه التحول فى المحـار ، ولا يشترط فيه تفاوت الحرارة بذلك المقدار .

فالفوارق بين الجنسين تتقارب كلما هبط الحيوان فى سلم الخلق حتى تزول الفوارق جميعا فى الخلية الأولى ، ولكنها تتشعب وتتعـدد ويصبح التحول بينهما فلتة من فلتات الخوارق كلما ارتقى الحيوان فى سلم الخلق ، حتى تبلغ هـذه الفوارق قصاراها من التنوع والتكافؤ فى بنية الانسان »(١) .

ثم يضيف الأستاذ العقـاد فى موضع لاحق عن موقف البيولوجيـا قائلا ان « من عجائب الاختلاف العريق بين خصائص الذكورة وخصائص الأنوثة أن عدد الصبغيات فى خلية الذكر سبعة وأربعون ، وفى خلية الأنثى ثمانية وأربعون . والذى يحدث عند اللقاح أن خلية الذكر تنقسم نصفين وخلية الأنثى تنقسم نصفين ، ثم يتقابل نصف من هذه ونصف من تلك ، فاذا كانا عند الامتزاج يؤلفـان ثمانية وأربعين فالمولود الذى يتخلق من هذه الخلية أنثى ، واذا كانا يؤلفان سـبعة وأربعين فالمولود الذى يتخلق من الخلية ذكر ...

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٨ - ١٢٩ .

خلاصة هذا جميعه أن الجنس محدود الفوارق منذ الخلية الأولى ، وأن هذه الفوارق كائنا ما كان اسمها ترجع الى فارق واحد يلخصها بأجمعها ، وهو مزيد من الاقدام فى جانب الذكورة ، ومزيد من الاحجام فى جانب الأنوثة . أو مزيد من الارادة يقابله مزيد من التلبية ، أو مزيد من التصريف والحركة يقابله مزيد من التجميع والدعة . ثم يتفرق هذا الفرق الوحيد على مئات من الصور فى كل من الجنسين » (١) .

ثم ان كثيرا من البحوث الحدثة تؤيد وجود الخصائص التشريحية والعضوية للتذكير والتأنيث فى الكائن الحى الواحد . وقد أعلن فرويد من قبل آدلر هذه الحقيقة فذكر أن من الطبيعى أن توجد بالمرء درجة معينة من الخنوثة التشريحية .

فتوجد فى كل فرد سواء أكان أنثى أم ذكرا ، بقايا لعضو التناسل عند الجنس الآخر . وتوجد تلك البقايا فى حالة أولية وهى عاجزة عن أداء أية وظيفة ، أو هى قد تقوم بأداء بعض الوظائف التى تخالف وظائفها الأصلية . وقد استحدث من تلك الحقائق التى عرفت منذ أمد بعيد « الفكرة القائلة بأن الكائن الحى كان مخنثا فى الأصل ، وأنه اتخذ خلال عملية التطور وجهة التوحيد الجنسى مع احتفاظه ببعض البقايا المشوهة من خصائص الجنس المقابل » (٢) .

* * *

وهذه الحقائق الهامة لا يكفى الوقوف عندها أبدا فى دفع مسيرة العلم نحو الأمام ، بل ينبغى دائما اثارة التساؤل عن التعليل الذى هو مفتاح كل كشف علمى وصل اليه الانسان . وقد تعودنا عند اثارة أى تساؤل عن التعليل أن نهرول بالاجابة « انها ارادة الله » .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٠ — ١٣٢ .
(٢) راجع د. اسحق رمزى فى مؤلفه عن « علم النفس الفردى » ١٩٦١ ص ١٠٢ — ١٠٨ وهو يحيل القارىء الى :
Freud : Trois Essais Sur la Sexualié p. 29.
وخلاصة مقال لآدلر عن الانحراف الجنسى فى :
Psychological Abstracts 1933 — 2324.

وبذلك نعفى أنفسنا من مشقة محاولة الاجابة من ناحية أولى . ومن ناحية ثانية نظهر أنفسنا كما لو كنا قد بلغنا الذروة من التدين والايمان . ومن ناحية ثالثة « نجامل الله » لأننا لازلنا نتصوره كما لو كان حاكما طاغيا يسعده من جانبنا اغلاق العقل مع صمت اللسان . ومن ناحية رابعة نرضى غرورنا ونخدع أنفسنا حول مستوانا من العلم والعرفان . ومن ناحية خامسة نخلد جمودنا ونوصد النوافذ والأبواب على كل مفكر حتى لا يشكك المؤمنين فى ايمانهم ، ولا يناقش « آلهة الأرض » فى سلطانهم ! ! ....

ولا يسعنى الا أن أقول ان هذا الأسلوب نفسه ــ بنواحيه التى ذكرتها ــ هو المسئول الأول عن تخلف ركب العلم فى هذه الرقعة من العالم . وهو دائما وراء وضع الايمان فى مواجهة العلم مع الهرولة الى استخدام اسم الجلالة ــ وغالبا مرارا وتكرارا ــ كذريعة باطلة للهرب من كل بحث ونقاش حول التعليل ، ولارهاب كل باحث فى أسرار الوجود أو الخلود ، وبالتالى كل مفكر يغامر بالسؤال أو بالجواب ...

ولذا توقف تطور العلم فى هذه الرقعة عند مستوى محزن من الاختناق والركود منذ عدة قرون ، وتوقف معه كل تفكير فلسفى مترابط أمين ، وعلا مدويا صوت الزعم والخرافة ، ولايزال يغالى فى الدوى والرنين . مستخدما اسم الجلالة ــ وجلالة الأديان ــ على حساب كل منطق سديد ، وكل حق مبين(١) ...

---

(١) أليس من المحزن انه لم يظهر فى الشرق فلاسفة جديرون بالذكر منذ رحيل يعقوب بن محمد الكندى (ولد فى أواخر القرن الثانى من الهجرة) ، ومن بعده أبو الوليد ابن رشد (٥٢٠ ــ ٥٩٥ هجرية) ؟ ! ... وهل لعقل الانسان قيمة تذكر بلا فكر منقب وفلسفة مترابطة ؟ !

وقد يقال لقد ظهر متصوفون عديدون ، ولكن ينبغى دائما الا نغفل أن الفلسفة غير التصوف ، غير العلم ، وأن لكل منهج منها أساليبه الخاصة التى لا ينبغى أبدا أن تختلط بالأخرى . ويكفى فى هذا الشأن أن يقال ان التصوف لا يصلح ــ باجماع الآراء ــ مصدرا لأية نتائج يقينية يعتد بها . وأنه معدوم الصلة تماما بالقضايا الجزئية الهامة التى على العلم ان يواجهها بأساليبه المألوفة .

والنتيجة الحتمية لذلك هى أن طائفة ضخمة من مفاهيم الاعتقاد اتخذت تدريجيا طابعا ماديا صرفا ، وكادت أن تختلط بمادية العلم • وأن الحاد العلم المادى من جانب آخر أخذ يتسلل تدريجيا الى بعض مفاهيم الاعتقاد ، فأصبحت بدورها لا تختلف عنه كثيرا • بل لقد أصبحت عند جمهور الناقدين ذريعة للالحاد ، ودعامة للفلسفة المادية فى كل تفاهتها وشراستها •

وهكذا تحقق النأى تدريجيا عن لب الاعتقاد وجوهره وهو الايمان بالروح وبالخلود ، وبكل ما يتصل به من نواميس كفيلة بأن توجه الوجدان والعرفان وجهة الوداعة والأمانة بدلا من الغرور وحب الظهور •

واذا ما ملأت أى انسان غرورا فقد شغلته بنفسه عن كل حقائق الوجود ، وأقمت منه قلعة شامخة للجمود ، ولاغلاق المنافذ على كل تفكير نقى أو استدلال صحيح • وجعلت منه أداة طيعة لقوى الشر والعدوان فى هذا الكون غير المحدود ، وهى قوى ذات طاقات رهيبة للتخريب والتدمير ، وخداع الذات وغواية الضمير •

ولعل قدرتها على تخريب القيم والمفاهيم الصحيحة أوفر من قدرتها على تخريب السهول أو الوديان • وهى دائما طاقات مراوغة تحسن التخفى والرياء ، وتستخدم ذرائع وهمية من السوابق والنصوص ، وشعارات جوفاء « ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب » •

وهذا وضع مؤسف للغاية لا يتسع المقام الحالى للافاضة فيه ، لكن نأمل أن يتنبه اليه المفكرون الجادون الأمناء ، اذا ما أرادوا لشرقهم نهضة واقعية بعد طول ظلام ، ويقظة حقيقية بعد طول رقاد ، وفكرا منقبا عن حقائق الوجود بعد طول ركود وكساد•

الفصل الثانى

أضـــواء هامة
تلقيها ((العودة للتجسد)) على اللاشعور

تمهيـــد

اذا كانت عقيدة العودة للتجسد قــد تحولت فى البيئات المطلعة من مجرد عقيدة شائعة ــ خصوصا فى الشرق الأقصى وفى بعض أرجاء مختلفة من هذه الدنيا الواسعة ــ الى ((حقيقة علمية)) بحسب وصف ((لجنــة الخبراء الدوليين)) فى قرارها الشهير الذى أصدرته فى سنة ١٩٧٩(١) ، فلابد أن هذه الحقيقة تكون مترابطة مع باقى الحقائق الأخرى الخاصــة بالانسان وبالوجود ناهيك بحقائق التطور التى كانت موضوع الفصــل السـابق ، يســـتوى فى ذلك التطور الجثمــانى مع التطور الروحى أو النفسى .

بقى أن أعالج فى الفصــل الحالى صلة هــذه ((الحقيقة العلمية)) الكبرى بأهم ما يعنى به علم التحليل النفسى المعـاصر ، وهو التنقيب فى أغوار اللاشعور الانسانى . وهذا التنقيب ليس هدفه مجرد التوصل الى قرار حاسم ــ ان ايجابا أو سلبا ــ بشأن هذه القضــية الكبرى ، وهو ما عرضت له فى الباب الثامن برمته.بل ان له هدفا آخر له قيمته القصوى من الناحية العلاجية ، وهو استكشاف ــ أو محاولة استكشاف ــ بعض مصــادر المتــاعب النفسية التى يعــانى منهــا العديدون ، والتى تقف السيكولوجيا التقليدية عاجزة تماما ازاءها : سواء فيما يتعلق بتعليلها ، أم فيما يتعلق بعلاجها ودرء أخطارها .

فلابد هنا من معالجة اللاشعور الانسانى بوصــفه مشكلة قائمــة بذاتها ، وفى ضوء مفاهيم جديدة مغايرة تماما لتلك المفاهيم المغلقة التى

---

(١) راجع ما سبق فى صفحة ٩٦٤ ــ ٩٦٥ .

استقر عليها علم النفس القديم • وهى مفاهيم أخذ يتحول عنها تدريجيا نفر ضخم من صفوة المحللين المطلعين على ما جرى فى هذا الميدان من ثورة عارمة • ولعل أصدق تعبير عنها يتمثل فى التحول من مدرسة « علم التحليل النفسى » كما خلتها مؤسسها سيجموند فرويد الى « مدرسة علم النفس التحليلى » كما خلفها مؤسسها كارل يونج •

* * *

وبعض أوجه النشاط التى ينسبها علم الروح الحديث الى اللاشعور يسلم بها علم النفس فى مفهومه التقليدى • لذا لا أريد الوقوف عندها فى هذا المؤلف الذى خصصته بحسب الأصل لعرض الطفرات التى حدثت فى مفاهيم الشعور واللاشعور بعد تحول منهج البحث نفسه من أسلوب السيكولوجى الى الباراسيكولوجى •

هذا وقد تعرضت فيما سبق من أبواب هذا الكتاب ـ بجزئيه ـ لموضوعات متنوعة لها صلة ـ فى توضيح نشاط اللاشعور ـ بهذا التحول الى أسلوب الباراسيكولوجى •

ـ ولذا عرضت فى الباب الأول (من الجزء الأول) موقف مدرسة فرويد من اللاشعور بوجه عام ، وكيفية عدوله عن بعض آرائه ، وما يتصل بذلك من تعليل فرويد للغرائز ، وتحديده لوظيفة الأنا ، وتحليله لعوامل الاستجابات العصابية •••• وما يتصل بذلك كله من دقة مشكلات الشعور واللاشعور ، ومن موقف فرويد من موضوع الجنس ، مع تقييم منهجه بوجه عام(١) •

ـ وبعدئذ تناولت فى الباب الرابع مفهوم « التكوين الروحى بين السيكولوجى والباراسيكولوجى » ، فان جميع الفصول التى عرضت لها فى ذلك الباب لها وثيق صلة بمفهوم اللاشعور ، واطاره ، وأوجه نشاطه ، بما فى ذلك مفهوم التكوين الروحى ، والجسد الهيولى ، وظواهر العلاج

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٢٦ ـ ٦٠ ، ٦٥ ـ ٧٢ .

الروحى ، والطرح الروحى (١) • فان هذه الأمور كلها تلقى على اللاشعور أبعادا مغايرة لأبعاد المـاضى ، وأوجه نشاط جديدة بالمقارنة بأوجه نشاطه المحدودة التى سلم بها علم النفس التقليدى •

ـ ثم تناولت فى الباب الخامس المفاهيم الجديدة عن « العقل ، والفطرة ، والأحلام بين السيكولوجى والباراسيكولوجى » ، فان جميع الفصول التى فى ذلك الباب لها دورها أيضا فى ايضاح نشاط اللاشعور ، وبعض أوجه سلوكه التى كشف عنهـا الباحثون فى الباراسيكولوجى • بما فى ذلك تحديد الصلة بين العقل والمخ ، وبين العقل والتكوين الفطرى وبين العقل والأحلام (٢) فان هذه الموضوعات ـ فى جملتها ـ تلقى على اللاشـعور أبعادا جديدة بالنسبة لأبعاد المـاضى المرتبطة بالمفاهيم البالية لعلم النفس التقليدى •

ـ وكذلك عندما تناولت فى الباب السادس (من هذا الجزء الثانى) موضوع « الارادة الانسانية بين السيكولوجى والباراسيكولوجى » فان مشكلة الارادة لهـا وجه لا شـعورى بالاضافة الى وجهها الشـعورى المألوف • وهذا الوجه اللاشعورى تعنى به أيضا أبحاث الباراسيكولوجى خصوصا من ناحية مدى توافر الجبر أو الاختيار فيها ، ودور تأثير العقل فى المـادة P. K وصلة الارادة بموضوع الزمن من ناحيـة محاولة تحديد مفهوم الزمن ، ومدى امكان توافر القدرة ـ الشعورية أو اللاشعورية ـ على تخطى حدود الزمن كما تعرفها الحواس العادية للانسان (٣) •

ـ وعندما تناولت فى الباب السابع موضوع « سلوك الشواذ بين السيكولوجى والبـاراسيكولوجى » انتقلت فى الواقع الفعلى الى قلب مشكلة اللاشعور فى جوانبه المريضة والشـاذة • وعندما أخذت أبحاث بعض العـاملين فى حقل الباراسـيكولوجى فى استكشاف ظواهر المس

(١) اجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٢٣٧ ـ ٤٢٠ .
(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٤٢١ ـ ٥٤٨ .
(٣) راجع ما سبق فى الجزء الثانى ٥٧٣ ـ ٦٦٤ .

الروحى ، أخذت بنفس المقدار فى تبديد العـديد من أوهام علم النفس التقليدى وافتراضاته الخاطئة عن مصـادر بعض تلك الأمراض العصبية والنفسية ، وبوجه خاص عن مصادر بعض حالات القلق ، والهستيريا ، وانفصام الشخصية ..... ناهيك ببعض الأمراض النفسية العضوية (١) .

ـ وعندما أخـذت أبحاث الباراسيكولوجى ترفع اللثام ـ بعنـاء ومشقة بالغين ـ عن مشكلة الوجود السبقى أو العودة للتجسـد أخذت بنفس المقدار ترفع اللثام عن أخطاء علم النفس التقليدى بالنسبة لمصدر اللاشعور ، وتاريخه .. وقد عرضت جانبا من البيّنات التى وصـلت اليها أبحاث الباراسيكولوجى فى الباب الثامن . وآن الأوان فى الباب الحالى للربط بين مشكلة العودة للتجسد هذه ومشكلة اللاشعور ، وذلك بعـد أن بينت فى الفصل السابق من هذا الباب الحالى صلة العودة للتجسـد بقضية التطور البيولوجى كتمهيد ملائم للفصل الحالى . وذلك لأن قضية التطور تعتبر فى العصر الراهن بمثابة المدخل الى قضية اللاشعور من ناحية تعليله ، ومن ناحية التطور من اللاشعور الى الشعور ، ومواجهة ما يتفرع عن هذا كله من موضوعات وثيقة صلة بالعديد من أبواب التحليل النفسى التى تواجه الآن ثورة عارمة فى البيئات المعنية بهذا التحليل .

* * *

وفى الفصل الحالى سوف أعالج الجوانب الجديدة المتعددة المتصلة بهذه القضية الكبرى ، ولكن بالقدر الذى يتسع له المقام . فهذا الموضوع متشعب الأرجاء أكثر مما يتصـور القارىء ، ويحتاج لعناية خاصـة ، خصوصا منه تلك الجوانب المتصـلة مباشرة بالتمهيد لاستكشاف أغوار اللاشعور بشتى الوسائل الممكنة ، كخطوة أولى لمواجهة مشكلات بعض الأمراض العصـبية والنفسية ، والتى منها مشكلات المس والاستحواذ التى عرضت لها فى الباب السـابع ، والتى لا أجد أية حاجة لتناولها من جديد هنا .

---

(٢) راجع ما سبق فى هذا الجزء الثانى صفحة ٧٢٧ ـ ٨٦٤ .

انما سأقصر المعالجة بشأن هذا الموضوع الرئيسى — وهو تلك الأضواء الجديدة الباهرة التى تلقيها العودة للتجسد على اللاشعور — على مباحث أربعة على النحو الآتى :

المبحث الأول : جولة عامة فى أرجاء اللاشعور •

المبحث الثانى : التطور من اللاشعور الى الشعور (بحسب جوستاف جيلى) •

المبحث الثالث : اللاشعور والعودة للتجسد (بحسب تشارلى بروض) •

المبحث الرابع : ثورة عارمة فى التحليل النفسى يثيرها اللاشعور فى مفهومه الحديث •

المبحث الأول

جولة عامة فى أرجاء اللاشعور

المفهوم الشائع للاشعور

لا ريب أن اللاشعور حقيقة واقعة لا تقل فى خطورة أثرها عن الشعور • بل ان دور اللاشعور فى توجيه دفة حياة الانسان فى اليقظة والمنام معا يتجاوز بكثير دور الشعور • فعقل الانسان كجبل الثلج العائم فى المحيط أقله ظاهر ، وأغلبه مخبوء فيما تعود النفسيون أن يطلقوا عليه وصف اللاشعور •

وتنكر المدارس الجدلية dialectical ، والماركسية ، وبعض المدارس الوجودية فكرة « اللاشعور » على اعتبار أن اللاشعور يمثل من العقل جانبا سلبيا ، وهى تأبى التسليم بوجود جانب سلبى للعقل • ولكن يبدو أنها تخلط بين معنيين مختلفين تماما فى هذا الصدد ، وهما معنى « سلبية الشعور » و « اللاشعور » • وهو خلط ليس له ما يبرره فى مدرسة فرويد التى أحسنت التمييز بين الأمرين • فاللاشعور مستمد من العقل غير الواعى ، ولكن دوره ايجابى كالعقل الواعى سواء بسواء •

ومهما قيل فى نقد آراء فرويد فان فضله كبير فى استكشاف بعض مجاهل اللاشعور ، مع أصالة بعض جوانب التحليل النفسى الذى يعود الفضل فيه اليه أيضا . والتى لا تخلو مع ذلك من جوانب كثيرة للخطأ والقصور بل وضيق الأفق فى أمور كثيرة ، فضلا عن الارتباط بلاهوت خاطىء من انكار الظواهر الروحية التى لم يقتنع بصحتها الا متأخرا ، وبعد أن كان قد تورط فعلا فى العديد من أخطائه عن دور العقل الباطن.

والعقل الواعى هو ذلك العقل الذى نستخدم عن طريقه حواسنا الخمس ، ونستخدمه فى تكوين آرائنا ، وتقديراتنا،وفى مناقشاتنا . وهو صاحب الهيمنة العادية على الارادة ويمارس النشاط الاستدلالى والاستقرائى ، ويعمل دائما عن طريق المخ .

أما العقل الباطن أو اللاشعور فهو يعمل عن غير طريق المخ ، ويبدو أن جهازه هو الجسد الأثيرى برمته ، وأنه هو المهيمن على وظائف هذا الجسد الأثيرى التى تباشر بدورها تأثيرها فى وظائف الجسد الفيزيقى العضوية والعصبية . وهو المهيمن الأخير على حواس الانسان أو بالأدق على قدرة الاحساس التى تعمل خارج طريق المخ والحواس المادية ، والتى اكتشفتها البحوث العلمية منذ القرن الماضى تحت E. S. P. وصف الحاسة السادسة ، التى تمثل كل قدرات الاحساس عندما تعمل خارج اطار الأدوات المادية للاحساس .

ولهذا العقل الباطن خواص كثيرة هامة قد ثبتت علميا منها :

١ ــ قدرة الادراك عن غير طريق أدوات الاحساس خصوصا عندما تكون الحواس العادية معطلة تعطيلا ماديا (مثلا عن طريق عصب العينين أو الأذنين) أو معنويا عن طريق الغيبوبة المغناطيسية .

٢ ــ خضوعه للايحاء بسهولة مهما كان شاذا أو غريبا . ويحدث ذلك مثلا عند بعض الأشخاص الواقعين تحت تأثير التنويم المغناطيسى .

حتى ليبدو العقل الباطن عندهم كما لو كان طفلا بريئا مفرطا فى سذاجته وفى طاعته ٠

٣ ـ قدرته على التفكير الاستدلالى لا الاستقرائى ٠ أو بعبارة أخرى قدرته على الاستنباط المألوف عند العقل الواعى ، وعجزه عن تجميع المعلومات اللازمة لاستخلاص نتيجة معينة ، أو قاعدة عامة لاستخدامها فى القياس المنطقى ٠

٤ ـ ولوحظ فى عدد كبير من الحالات أن هذا العقل الباطن قد يتمتع بحاسة خلقية نامية ومتقدمة ، ومن ثم فان من الخاضعين للتنويم المغناطيسى من قد يقبلون كل صور الايحاء مهما كانت ساذجة وغير مطابقة للواقع لكنهم يرفضون تماما أى ايحاء يمس الأخلاق والحياء ، مثل الايحاء بالسرقة أو بالقتل أو بارتكاب نشاط جنسى محظور ، أو بالعرى الكامل ، حين قد يقبلون كل صور الايحاء التى لا تمس الأخلاق أو الحياء ٠

ولعل هذا الكشف يوضح عمق دور الحاسة الخلقية ، وكيف أنها ميراث الذات من تاريخها العريق ، وكيف ترتبط اتجاهاتها بتجارب هذا التاريخ الطويل وآلامه وصراعاته المرة ٠ كما يعلل لماذا يقبل بعض الخاضعين للتنويم الايحاءات مهما كانت غير خلقية ، حين لا يقبلها البعض الآخر ، على نفس التفاوت الذى يحدث فى حالة اليقظة ٠

٥ ـ ومن الآراء السائدة الآن أن هذا العقل الباطن هو مستودع غرائز الانسان ومشاعره الخلقية وغير الخلقية أيضا ، بل هو أيضا القوة الكامنة التى تقع وراء وظائف الأعضاء عن طريق الجسد الأثيرى ٠ بل ان هذا العقل الباطن يقع عند كثرة الباحثين الروحيين وراء بنيان الجسم المادى وتجدد خلاياه ، كما يقع وراء عوامل صحته ومرضه التى ترجع الى مصادر متنوعة فيزيولوجية أو بيولوجية أو سيكولوجية ، لا يمكن حصرها وتنتمى الى فروع شتى من المعرفة ٠

٦ ـ وتأسيسا على ذلك فانه يمكن ـ عن طريق الوصول الى العقل الباطن بواسطة الايحاء المغناطيسى ـ علاج بعض الأمراض العصبية مثل الهياج ، والتشنج ، والشلل وبعض الأمراض النفسية ، كالعقد النفسية وما يرتبط بها مثل ضعف الثقة بالنفس ، والتهتهة فى الكلام ، وضعف الذاكرة ، والأرق ، والانحراف الجنسى ، والتغلب على بعض العادات الضارة مثل تعاطى الخمور والمخدرات ، والنهم ، بالاضافة الى مواجهة بعض الأمراض العضوية الصرف • ومع مراعاة أن بعض الأعراض والمتاعب العضوية قد يكون مصدرها نفسيا أو عقليا على النحو الذى سوف أعرض لبعض جوانبه فى المبحث المقبل من هذا الفصل (١) •

عن أعماقه

واللاشعور مدفون فى أعماق القلب ، بداخل هوة يتعذر الوصول اليها ، لكنه مع ذلك يدور من حولنا ، ويحيط بنا ويشقينا ويسعدنا وهو يحرك دواما وعينا الواضح ، ويبلغه رسائله • وهذا اللاشعور أشار اليه فيما مضى بعض الفلاسفة والمفكرين والشعراء اشارات شتى تتفاوت فى مدى وضوحها وغموضها ، لكن لم يحاول أى واحد التغلغل فى بحث مجاهله قبل القرن العشرين • فالقرن العشرون هو قرن محاولة ارتياد بعض مجاهل اللاشعور ، وهى محاولة تمثل واحدا من أمجاده الكبرى •

وتحدث عنه برجسون قائلا ان كشف مجاهله سوف يحدث انقلابا فى العالم • والتحليل النفسى الذى كشف بعض مجاهله قام بدور كدور نظرية النسبية • وبرجسون ظهر فى أمور الروح فى فلسفة الغرب كما لو كان نبيا ، وهذا اللاشعور يقع على أية حال فى توافق منطقى مع فلسفته • ومن الصدف الغريبة أن يبدأ الاهتمام بالتحليل النفسى ونظرية النسبية فى وقت واحد وهو سنة ١٩٠٥ •

وهذا لا ينفى ـ كما قلت آنفا ـ ان بعض المفكرين قد أشار اليه

---

(١) وراجع أيضا ما سبق فى صفحة ١٠٣١ ـ ١٠٤٨ •

ومنهـــم كارل جوستـــاف كاروس Carl Gustave Carus الذي كان تلميذا للعلامة شيلنج Shelling وكتب منذ سنة ١٨٣٠ عن اللاشعور قائلا « ان كل ما يعمل ، ويخلق ، وينشط ، ويتألم ، ويتكاثر ، ويضمر الشر فى ظلام نفوسنا اللاشعورية ، وكل مايظهر منجانب فىحياة أعضائنا وفى جانب آخر يظهر فيما تتلقاه من نفوس الآخرين ، ومن الكون كله.. كل هذا يصـــعد أيضـــا باصرار خاص من ظلام اللاشـــعور الى ضـــوء الوعى » .

* * *

ولقد حاول فرويد ويونج الوصول الى أعماق اللاشعور ، فهل نجحا فى الوصول اليهـــا حقيقة ؟ يتعذر الجواب بالايجاب ، وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الشأن هو وجود فارق ضخم بينهما : ففى رأى فرويد ــ ابتـــداء ــ يتكون اللاشعور فى الطفـــولة ، أما فى رأى يونج فان جذور اللاشعور تمتـــد الى الوراثة من الأجداد . ولمـــا تقدم يونج فى البحث والتنقيب فى أغوار اللاشعور اتجه الى القول بوجود عنصر لوراثة الذات من نفسها أيضا ، وهو عنصر له صلة بقـــانون الكارما ، على ما سنوضحه فى فصل على حدة من الباب الأخير .

ولذا فانه بشأن الظواهر التى تعنينا من اللاشعور فى المقام الحالى ، وهى ظواهر ارجاع الذاكرة الى الوراء واحتمال تذكر المـــاضى البعيد ، نجد فارقا ضخما بين تعليل فرويد ، وتعليل يونج . وكذلك الشأن بالنسبة الى الرجوع التلقائى للذاكرة .

فمدرسة « التحليل النفسى » التى أسسها فرويد قـــد تسند أمثـــال هذه الظواهر الى محض صور من خداع الذات التى تخفى ميولا جنسية مكبوتة . أما مدرســـة « علم النفس التحليلى » التى أسسها يونج فهى تفسر أمثال هذه الظواهر بأنها قـــد تعبر عن مادة مستمدة من الأحلام قد طفت الى السطح فى حالة اليقظة . وقـــد تخفى ميولا مكبـــوتة للعظمـــة وللمحاولة تحقيق الذات ، وقد تكون ذات قيمة لتقدم شخصية صاحبها .

أما عند أولئك العلماء الذين كونوا اعتقادا جازما ونهائيا بشأن التجسد السابق للفرد ، فقد يكون فيها جانب هام — يمثل حقيقة قد مر بها صاحبها فى حياة سابقة له • وهذه الحقيقة قد طفت على السطح فى النوم أو فى اليقظة • وقد تكون ذات أهمية لتقدم شخصية صاحبها ، أو للكشف عن مصدر بعض متاعبه أو أعراضه العصبية ، أو العضوية ذات المصدر العصبى •

أى أن التعليلات هنا كثيرة ، وجميع الفروض والاحتمالات لاتزال معلقة تبحث عن التفسير المناسب لها • بحيث يتعذر وضع قاعدة عامة بشأنها ، لأن دور المحلل النفسى أصبح — فى ضوء حقائق الباراسيكولوجى هذه — شاقا تماما ومتطلبا الغاية من الاحاطة بعناصر المشكلات التى يواجهها ، ومن القدرة على مواجهتها •

وهذا كله لا ينفى أيضا احتمال ارجاعها — أو ارجاع بعضها — الى قدرات للادراك عن غير طريق الحواس قد يحوزها صاحب ذكريات الماضى البعيد • وهذا مما يضاعف من مشقة المحلل النفسى ويقتضى أن يضعه دائما على جانب الحذر الشديد والاحاطة الكافية بخصائص كل طائفة من هذه الظواهر ، وبالعناصر التى تميز كل طائفة عن سواها ، بحثا عن التعليل الصحيح • وبعد استبعاد كل ما قد يمت من هذه الظواهر الى التدليس ، وخداع الذات ، والرغبات المكبوتة ، والذكريات المخبوءة التى قد تنتمى الى الطفولة أو الى المراهقة • فبعد عمل هذه الغربلة الشاقة قد يعثر المحلل النفسى على بعض ظواهر — صحية أو مرضية — قد تمتد جذورها الى الماضى السحيق للّاشعور الفردى •

* * *

واحتمال خطأ الشخص فى تذكر الماضى السحيق وهو فى كامل يقظته أقوى من احتمال خطئه فى تذكر هذا الماضى وهو فى الغيبوبة المغناطيسية • ففى الحالين من المفروض أن تكون ذكريات الماضى السحيق قد انزلقت الى اللاشعور • لكن فى اليقظة يكون تذكر هذه

الأحداث عن طريق طفوها الى الشعور ، وبالتالى احتمال اختلاطها ببعض طبقات العقل الأخرى الملاصقة لها .

ومن هنا يجىء حدوث احتمال لفتح البـاب أمام ذكريات زائفة ، أو ذكريات واقعة « وراء النسيان » Paramnesiques أى ذكريات عن أحداث مرت بالحياة الراهنة لصاحبها فى الطفولة أو فى المراهقة ثم انزلقت الى اللاشعور ، لتطفو من جديد الى مستوى الشعور فى مرحلة لاحقة من مراحل العمر .

لكن المشكلة فى موضوع العودة للتجسد ليست فى حدوث هـذا النوع من الذكريات التى تسـتند الى محض مزاعم لا تؤيدها أية وقائع ثابتـة ، بل فى العثور على آلاف من الحـالات المتعلقة بتذكر المـاضى فى اليقظة أو فى غيبوبة التنويم المغناطيسى ، والتى تأيدت بوقائع ثابتة قام بتحقيقها المحققون العلميون . وهـذه الوقائع الثـابتة مستقلة تماما عن الحياة الراهنة لصاحبها ، بحيث يتعـذر القول بأنها انزلقت الى وعيـه الشعورى أو اللاشعورى فى هذه الحياة نفسها .

وهذه الوقائع الثابتة نفسها قد تبين أنها لم تصـل الى صاحبها عن طريق أية ملكة أو أخرى من ملكات الادراك عن غـير طريق الحواس . ذلك لأن هذه الملكات لهـا بدورها خصائص مميزة لهـا تماما عن تلك الوقائع التى تركت بصماتها الظاهرة فى لاشعور صاحبها ، والتى كانت سببا فى بعض متاعبه العصبية ، أو العضوية ــ العصبية .

ثم ان ملكات الادراك خارج الحواس لا ينظر اليها أحد أبدا بوصفها ملكات مرضـية ، بل هى ملكات صحية غير مألوفة ، لا ينعم بهـا عادة سوى الأسوياء من الناحية العصبية والعقلية ، ولا تسبب لهم بذاتها أعراضا مرضية . وهذه الأمور كلها يضعها الباحثون فى الاعتبار دائما عند رغبة التحليل والتأصيل الصحيحين لظواهر اللاشعور الفردى .

عن « اللاشعور الفردى » بحسب يونج

وهذا التركيز على موضوعات اللاشعور فى العديد من أبواب هذا المؤلف سببه واضح : وهو أن أية خطة زائفة نحو فهم اللاشعور لا تجر الى مرض الفرد فحسب ، بل تجر أيضا ــ كما يقول كارل يونج ــ الى مرض الشعوب • ولهذا الاعتبار راح يونج يحاول ارتياد هذا اللاشعور من زوايا جديدة وبآراء ثورية تماما(١) •

فهو لم يهتم فحسب بدراســة الأمراض النوعية للروح ، بل ذهب اهتمامه بعيدا • خصوصا نحو التنقيب فى ألغاز الروح التى تقع وراء كل أوجه النشاط الانســانى ، وكل أوجه الانتــاج والابداع التى يمر بهــا البشر • وفى هذا الشأن يختلف يونج عن فرويد اختلافا بينا ، فان فرويد عنى بالأوجه المريضة للنفس الانسانيــة وحدها ، أما يونج فراح ينقب فى كل أوجه نشاط الوعى الانسانى عن طريق الشــعور أو اللاشــعور • بما فى ذلك أوجه النشــاط الابداعى الراقى فى اطار العــلم ، أو الفن ، أو الفلسفة ، أو الدين •••

فليس من المغالاة اذا القول بأن الأديان ، والفنون ، وأوجه السلوك الاجتماعى المألوفة للأشخاص تبدو تحت أضواء جديدة عند التوصل الى تحديد صحيح لمفهوم اللاشعور • وأنه يتوقف على اعتناق فكرة صحيحة أو زائفة عن هذا اللاشعور الحكم على القيمة الذاتية التى تنطوى عليهــا حضارتنا ، وربما قدرتهــا على الدوام • ولذا فان آراء يونج لم تتغلغل الا قليلا ، وببطء شديد ، الى التحليل النفسى الرسمى • واســتفادت نفوس تنتمى الى أوجه أخرى من المعرفة من آراء يونج ، قبل أن يستفيد المحللون النفسيون ••• الذين وصلت آراؤه اليهم متأخرة •

فلم يكن الصراع بين يونج وفرويد صراعا شخصيا ، بل انبعث عندما أصر فرويد على القول بأن اللاشعور عبارة عن محض ظاهرة روحية ثانوية

---

(١) وراجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٢٦ ــ ٢٧ متن وهامش •

ناجمــة عن رجوع الذاكرة الى الوراء Refoulement ، حين أصر يونج على أنه بمثابة التربة الأم الذاتية الصانعة للحياة الروحية العادية • وبسبب هذا الخلاف فى المفاهيم اختلف يونج مع فرويد وانفصل عنــه ، وأسس مدرسة خاصة به هى مدرســة « علم النفس التحليلى » Analytical Psychology بدلا من مدرسة « علم التحليل النفسى » Psycho - Analytic التى أسسها فرويد •

* * *

ومن الأسس الأولى فى « علم النفس التحليلى » ألا تقول ان للانسان نفسا Soul أو روحا Psyche ، بل أن تقول ـــ بالأكثر ـــ ان الانسان بوصفه كائنا روحيا ـــ فيزيقيا يعبّر عن حقيقة روحية ، أو هو يمثل شطرا من حقيقة روحية •

وفى تلك اللحظة التى تبــدأ فيهــا فى الدخول الى علم نفس يونج يبدأ لديك انطباع واضــح بالدخول الى عالم رحب جديد يحتوى على مسالك عريضــة لأقاليم مجهــولة ، ولأسرار عــديدة يتعذر ارتيادها أو استكشافها • وذلك العالم الرحب الجديد هو عالم النفس أو الروح على أوسع المفاهيم الممكنة ، لأن يونج يقدم هذا العالم بوصفه غير محــدود فى اتســاعه •

وكما أنه فى الفيزياء الحديثة لا يمكن وضع حد فاصل بين جســم الانسان والعالم المــادى المحيط به ، لأن هذا الحد سيال أو مائع ، كذلك الذات الانسانية ، فانه لا يمكن وضع حد فاصل بينها وبين تلك الحقيقة الروحية التى تعبر عنها •

وهذا الرأى لايلتئم مع ذلك النظر الذى ساد من قبل فى الفلسفة المادية للوجود خلال القرن التــاسع عشر • والتى تسللت الى أذهان الكثيرين لفرط بساطتها ، وسهولة تناولها • ولعل ـــ لهذا الاعتبار ذاته ـــ ماتزال هــذه الفلســفة تتسلل الى أذهان بعض الأشــخاص من منكرى الروح الانسانية ، أو من دعاة تجهيلها وتجاهلها •

وقد رسخ عندهم الاعتقاد بأن ذات الانسان لا تمثل سوى نقطة تافهة فى هذا الكون غير المتناهى الأرجاء ، وبدا لهم الكون كما لو كان لا يحتوى على شىء آخر سوى هذه الذوات على هذا الكوكب المادى التافه الذى يقطنه بنو البشر •

فجاء يونج لكى يقلب هذا النظر رأسا على عقب ، وقام بدور مماثل ـ فى ثورته على الفقه القديم ـ لدور كوبرنيكوس Copernicus العالم الفلكى الشهير • وأقام يونج أسسا جديدة لتحديد علاقة الانسان بالكون ، واعتبر أن الروح حقيقة ، وأمر واقع لأنها تعمل بنشاط جم ، ولأنها بذاتها حقيقة فيزيقية لها قوانينها ، وطاقاتها ، وأسبابها ، وأهدافها ، وتطورها ، ومسالكها الخاصة المتميزة عن سائر الحقائق الفيزيقية الأخرى •

وأصر يونج على رأيه هذا فى كل مؤلفاته ، وخصص للدفاع عنه مؤلفا خاصا عنوانه « حقيقة الذات أو النفس »(١)•ونادى مرارا وتكرارا بأنه عندما يتحدث عن أمر روحى فهو يتحدث فى نفس الوقت عن أمر حقيقى ، رفيع ، موجود من قبل • أو بالأدق رفيع من قبل أن يوجد •

واذا كانت النفس الانسانية حقيقة واقعة لأنها تعمل ، فانها لذلك تمثل الحياة ، أى تمثل تسلسلا حيا ، أو واقعة حية • ولذا لا نعثر عليها أبدا ـ فى علم نفس يونج ـ بوصفها شيئا منتهيا ، أو منسيا ، ولا بوصفها شيئا مستقرا ولا ثابتا ، بل هى دائما حية وحاضرة •

وكما يختزل العلم المادى الحياة الى حركة والى أحداث ، كذلك يفعل يونج بالنسبة للذات • وقد بدأ فرويد هذا النظر لكنه ربط النفس ربطا وثيقا بحياتها الغريزية ، أى بدوافع محض حركية • لكن يونج خفف

---

(١) Wirklichkeit der Seele.
وله ترجمة انكليزية عنوانها Reality of the Soul.

من قوة هـذا الربط بالدوافع الغريزية الى حـد كبير ، وركز كثيرا على حيوية الذات بمفهوم واسع مع الاشارة ــ مرارا وتكرارا ــ الى أنهـا تعيش فى تسلسل حيوى ، وفى حركة ، وفى تطور ، وأن هذا يجرى لهـا دواما بلا توقف ولا نهاية .

وحين راح فرويد يستخدم تعبير لبيبدو Libido للاشارة الى الدوافع الجنسية ، راح يونج يوسـع من مفهـوم الليبيدو حتى يشـمل الطاقة الروحية برمتها . وهذه الطاقة الروحية يعنى بها ــ كما قال ــ مدى كثافة تسلسل العمليات الروحية ، والقيم النفسية . ولا يعنى بها أية قيمة متميزة سـواء أكانت أدبية ، أم جمالية ، أم عقلية . بل هى تلك القيم المرهونة ــ بكل بساطة ــ بالقوة التى تجددها ، والتى تعبر عن نفسها فى صورة تسلسل عمليات روحية محددة .

* * *

ولذا نجد يونج يستخدم تعبير ليبيدو محل تعبير الارادة . ولا تظهر الارادة ضمن وظائف الذات التى يحددها يونج . لأن الارادة فى تقديره تمثل دافعا له هدف Purposive libido . ويختار للتعبير عنها كلمـة ليبيدو لأنه فى حالات شـلل ارادة الطاقة الروحية ، يكون هـذا الدافع مايزال حاضرا ، وقد يشد بعنف اتنباه الشخص .

ومادامت فكرة الليبيدو هى أيسر الأفـكار فهمـا ويمكن أن تغطى بنفس المقدار ظواهر اللاشعور ، بينما أن فكرة الارادة تكون عادة مرتبطة بالشعور ، لذا فان يونج يفضل تعبير ليبيدو ــ لهذا المفهوم الواسع الذى أشرنا اليه وهو مفهوم الطاقة الروحية ــ على مفهوم الارادة .

وكل ما يتصل بالليبيدو يكون نشاطا من الناحية الروحية ، ويجعل نفسه محسوسا ، اما بنشاطه الخلاق ، واما بنشـاطه المرضى فى حالات الأمراض والاضطرابات العصبية . وليس بمقـدور الانسان أن يتحكم

بارادته فى هـذا الليبيدو ، بل بالعكس ان بمقدور الليبيدو أن يهرب من الشـعور ، ويصـبح تأثيره أقوى من أى تأثير منطقى أو أى استدلال عقلى .

وليس بمقدور الانسان أيضا أن يتحكم فى هذه الطاقة الروحية بأن يستخدمها أو أن يمتنع عن استخدامها كما يشاء أسوة بالطاقة المـادية . فالطاقة الروحية فى الانسان يمكن تشبيها بنهر يتحتم أن يجرى فى مجراه ، حتى وان أمكن فى بعض الأحيان التحكم فيه فى حدود معينة .

وكثيرا ما يفعل هذا الليبيدو نفس الشيء الذى لا يريده الانسـان ولا يتوقعه . وفى هـذا النطاق تبدو الذات غير منطقية ، وأوسـع من الشعور ، بل أوسع حتى من الحيـاة كما نفهمها عادة . ولذا فهو يعطى للروح وللطاقة الروحية مفهوما متسعا ، بل بلا حـدود . ويعطى للذات حياة تتجاوز كل تطلعاتنا : حياة لهـا ظلالها وأضواؤها ، ولهـا زهورها وأشواكها . وفى كل الروابط الانسـانية تحيا الذات وتهتز أيضا ، لكن النفس أبعد ما تكون عن البراءة أو عن البساطة . وكل الرؤى الجميلة يراها الانسان من خلال نفســه ، كمـا يعرف أيضا خلال نفســه طاقات التدمير والافناء .

عن مذهبه فى الذات واللاشعور

والذات هى مركز الشعور ، لكن يوجـد جزء من الشخصية ليس متسقا مع هـذه الذات وغير شاعر بهـا . ولذا فان للنفس امتـدادا فى اللاشعور . والشعور هو قمـة لمخروط ، أما قاعدة المخروط فهى عميقة وتمتد الى اقليم اللاشعور ، وهذا اللاشعور الشخصى يقع نسبيا ملاصقا للذات لكنــه يمتد الى الاقليم الروحى الذى ليس بمقـدور الذات أن تدلف اليــه .

واللاشعور لا يخضع لسيطرة الذات . واذا كان ثمـة تشبيه ، فان الشخصية الفردية تشبه جزيرة ظاهرة فوق سطح البحر . وكل شيء فوق

المــاء يمكن استكشافه فى ضوء الشــعور ، أما الباقى فهو تحت سطح المــاء يقع فى منطقة اللاشعور ، ويفقد نفسه فى أعماق المحيط التى تجل عن الوصف .

ولا يعطى يونج تعريفا للاشعور الا بالقول بأنه خصيصة من خصائص التسلسل الروحى الذى لا يمكن فهمه . أو هو الجانب المطلق الآخر من الشعور Absolutely other of Consciousness . وذلك رغم أنه قــد كرس الجزء الأكبر من أبحــاثه للوظائف الروحيــة اللاشــعورية ولتسلسلاتها . وكانت الموضع الأول لاهتماماته ، ولم تعنه متابعة مشكلة الشعور الا بمقدار اتصالها باللاشعور .

وفكرة يونج عن اللاشعور تتطلب من الانسان أن يبدأ بالتفكير فى أن اللاشعور يملك مغزى للحياة الحقيقية يعادل — بالأقل — مغزى العقل الشعورى . وهذا العقل الشعورى ليس أبدا — فى تقديره — هو النفس بذاتها . ووظائف اللاشعور لها نفس قيمة وظائف الشعور . ولها مغزاها الخاص ، والأوجه الخاصة لسيادتها ، فالانســان فى كل ما يفعله ، وكل ما يترك فعله ، محكوم باللاشعور كما هو محكوم بالشعور .

والأحلام ، والأخيلة هى الطريق المعبد للوصول الى اللاشــعور ، لأنها هى تلك التى تعكس تسلسل عمليات اللاشــعور . ونحن لا ندرك هذا التسلسل فى الأحلام ، لأن التسلسل نفسه غير قابل للادراك ، لكننا ندرك انعكاساته . وخلالها يمكننا أن نرى شيئا مما يجرى فى اللاشعور . وبتغير الأحلام والأخيلة قد نصــل الى معرفة النشاطات الداخلية لهــذه التسلسلات .

وكمثال للنشاط الهادف للاشعور كما يفهمه يونج يشير الى ما تقــوم به النفس من استعدادات لاستقبال الموت . وقد اطلع على حالات جاء فيها نذير الموت قبل وقوعه ، وقبل أن يتوقعه أحد . لكن كان من الواضح أن النفس تعد نفسها لاستقبال الموت .

وبطبيعة الحال فان النفس يعنيها دائما أن تعرف كيف يموت الانسان • وكأن الاحساس بقرب حلول الأجل يتمثل فى شكل صور عن حياة مستقبلة • أو فى شكل تحول ، أو أى شىء من هذا القبيل • ولذا فان يونج متفق مع كاروس Carus (١) • بشأن القول بأن اللاشعور يصوغ الحياة •

وحتى بعد الوفاة فان بمقدور اللاشعور أن يواصل هذه المهمة وهى صياغة الحياة • وليس اللاشعور عنده مجرد ركيزة أو قاعدة للشعور ، أو للعقل الواعى ، بل هو المصدر الأساسى الذى منه يستمد الشعور طاقته اللازمة لوجوده المتواصل • ولذا فان « الروحى » أوسع فى أفقه من الذات • ومن بين الحقائق الروحية للاشعور ، أن الانسان يواجه طاقات تتجاوز بكثير حدود شخصيته •

ولذا يلزم الانسان أن يتفاهم مع هذه الطاقات ، وكل من لا يفعل ذلك يقع ضحية لمخاطر النفس • وأقام يونج تطبيقاته العملية فى « علم النفس التحليلى » على أساس هذه الحقيقة الضرورية التى يشعر بها كثير من الناس الآن ، وهى أنهم مجبرون على مواجهة طاقات الروح • وعثر على أمور عديدة هامة عن الحياة الروحية اللاشعورية ، وقال انه من المنتظر استكشاف ما هو أهم منها مستقبلا •

ولذا فان علم نفس يونج يتضمن بين أبوابه كل ما يدخل فى الرمزيات الفنية artistic symbolism ، والدين ، والأساطير ، والخوارق وعلم الفلك •••• ويعتبرها كلها وثائق جديرة بالعناية بها فى علم النفس الحديث ، لأنها كلها تخدم الباحث الجاد عن الحقائق (٢) •

---

(١) راجع ما سبق عنه فى صفحة ١١٥٦ •

(٢) للمزيد فى هذا الشأن راجع : ـ

Hans Schaer : Religion and the Cure of Souls. Eng. trans. by R. F. C. Hull. London 1951.

وراجع أيضا ما سبق عن يونج فى الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ٤٧٥ — ٤٨٨ •

والمحتويات الروحية التى تتدفق على لاشعور صاحبها ليست مرتبطة بوظائف الذات ٠ بل بمقدورها أن تبدأ فى الامساك بزمام حياة خاصة بها فى اللاشعور ، ومن هناك تزاول تأثيرها فى الشعور ٠ وقد تكون سببا فيما يطلق عليه يونج وصف المركبات الذاتية Autonomus Complexes وهى تلك التى قد تكون نشطة فى ظواهر الأمراض العصبية ، وقد تؤثر فى الذات وتقلق راحتها ٠

وهى تتحرك أحيانا بشكل واضح فى بعض الظواهر الغيبية ، ومنها الكتابة التلقائية ٠ وفى مثل هذه الحالات يوجد عامل مكون من عنصرين: أولهما هو اختبار موجه قادم من خارج الشخص مع استعداد نابع من طبعه ٠ وهذا العامل يمكن النظر اليه كما لو كان يعمل بوصفه ذاتا أخرى للشخص ٠

وليست كل وظائفنا الروحية وطاقاتنا متطورة بنفس المقدار ٠ بل ان منها ما قد تطور ونضج ، ومنها مالايزال فى حالة بدائية ٠ والانسان يبدأ — فى تعامله مع الحياة — باستخدام الطاقات المتطورة فيه ، أما باقيها فيظل خامدا فى اللاشعور ٠ وهذه الطاقات الأخيرة لا تضيع تماما هناك بل تلقى بعض ظلالها على تصرفات صاحبها ، وعلى شخصيته ، وقد تكون مصدرا لبعض مركبات النقص فيه ، ولبعض أحكامه الخاطئة على الآخرين ٠

فنحن نأخذ على الآخرين عيوبا ، مستمدة من الرذائل الكامنة فى لاشعورنا الخاص ، ونعتقد خطأ أننا قد أمكننا لحسن الحظ السيطرة عليها ٠ فالانسان المتدين يرى فى عيوب الآخرين جميع الشكوك الممكنة التى يعانى منها هو نفسه ٠ وكل شعب ينسب الى الشعوب الأخرى ما يمثل فى الواقع ظلالا لتكوينه الخاص ٠

وعن شخصيتنا الظاهرة — يقول يونج — انها تمثل الشخصية التى يدربها كل واحد منا للتعامل مع العالم المحيط بنا ٠ ولتقيدنا بضرورة

التكيف مع الحقيقة ، فاننا لا نقدم أنفسنا للآخرين على حقيقتهـا أبدا ، بل نحاول أن نلعب دورا فى تنميقها • وهـذا الدور نستمده من اختيار حذر لتلك الطاقات التى قد نضجت فينا ، مضـافا اليها مدى تكيفها مع احتياجات العالم الخارجى •

وهذه الشخصية الظاهرة Persona نظهرها كما لو كانت خالية من المتناقضات ، وفى صورة طبيب ، أو أستاذ ، أو رجل دين ، أو رئيس ما مثالى وكامل • لكن الضرورة تقتضى منا أن نكيف أنفسنا مع الواقع ، ولذا فليس بمقدورنا أن نتصرف كما لو كنا فعلا مثاليين وكاملين ، وعلينا أن نتعاطف مع رغبات من نتعامل معهم ومطالبهم •

لكننا دائما ننسى أننا نمثل دورا هو هذه الشخصية الظاهرة،وذلك مع أن الشخصية الحقيقية هى من جانب أول أصـغر من تلك الشخصية التى نريد أن نبرزها الى العالم المحيط بنا ، ومن جانب آخر أعظم منها ، ولذا فان بمقدور الانسان أن يقول ان الشخصية عبارة عن وظيفة تصل الذات عن طريقها الى التفاهم مع ما يحيط بها •

وهى تتحول الى « مركب ذاتى » عنـدما يتوقف الانسان عن أن يفكر فى نفســه كما لو كان مطابقا لتلك الشخصية التى يعرضـها على الآخرين ، فلا يعود ينظر اليها على أنها معطف يرتديه ليغطى به ذاته •

ومن هنـا قد ينشب صراع بين الشخصية الظـاهرة ، والحقيقية Personality يقود الى المتاعب النفسية ، وربما الى العصاب • ولايشفيها شىء ســوى ايجـاد التفـاهم بين الشخص ، وظله الآخر (أى شخصيته الظاهرة التى هى انعكاس لاشعوره) •

والوظيفة الثـالثة التلقائية فى الذات ــ غير الظلال التى تنبعث من ملكاتنا الروحية الخامدة ، وغير الشخصية التى نفرضها على الآخرين ــ هى ذلك التفاعل الذى يدور بداخلنا بين الخصائص الأنثـوية anima

والخصائص الذكورية animus • والتى تتصارع فيما بينهـا ، والتى يتعين عليها أن تتفاهم فيما بينها لتحقق للعـالم الداخلى نفس ما تحققه وظيفة الشخصية الظاهرة للعالم الخارجى •

وهذه الوظيفة الأخيرة لها خاصية التناقض مع طبيعة الفرد • فكل فرد ينطوى بسبب الوراثة على معالم فى الجنس تغاير جنسه • ففى الذكر بعض معـالم الأنثى ، وفى الأنثى بعض معـالم الذكورة • والتكيف مع العالم الخارجى يتطلب بطبيعة الحال من كل شخص أن ينمى المعالم التى تتفق مع جنسـه(١) •

ومعالم الجنس المغاير تنزلق الى اللاشعور ، لكن قد تطفو من جديد فى التعامل مع العـالم الداخلى (أى الوجدان) وما تنشـئه الذات من صلات مع ذلك العالم • وهنا أيضا يلعب اللاشعور دوره التعويضى بأن يضيف الى شعور الذكر بعض معالم الأنثى ، والى شـعور الأنثى بعض معالم الذكر • وكل هذا يلعب دوره عند اختيار الرجل شريكة حيـاته ، أو رفيقته ، أو بالعكس •

ويميز يونج أيضا بين الشخصـية الانطوائية introversion وبين الشخصية الانبساطية extroversion • فالأولى تتجه نحو الشخص ، والثانية تتجه نحو الموضـوع • بمعنى أن الشخص الانطوائى يشـعر ، ويتصرف بأسلوب ينبىء بوضوح أن الشخص عنده له المقـام الأول ، أما الموضوع فليس له الا قيمـة ثانوية • لكن الشخص الانبساطى هو عكس الشخص الانطوائى تماما : بمعنى أن ارادته الدافعة ذات الهدف Purposive libido تتجه فى نشاطها نحو الخـارج لا نحو الداخل •

ويعنى بذلك أن الشخص الانبساطى يقيم علاقاته الخـارجية على أساس من نشاط ايجابى لاهتماماته الخاصة نحو ما يطلق عليه «الموضوع» •

---

(١) راجع ما سبق عن هذا الموضوع فى هـذا الجزء الثانى صـفحة ١١٤٠ — ١١٤٢ •

فهو يفكر ويشعر ، ويتصرف على صلة بهذا « الموضوع » • ويفعل ذلك بأسلوب مباشر ، وسهل ادراكه ، بحيث لا يمكن أن يوجد أى شك فى موقفه الايجابى من هذا الموضوع • وفى حالات كثيرة يتراوح الشخص الواحد بين الشخصيتين الانطوائية والانبساطية(١) •

* * *

واللاشعور الفردى هو مفتاح الطريق الى الانجازات العظيمة • وهو السيد الآمر على نطاق آخر ، وهو نطاق التعاطف مع شخص آخر ، وهذا التعاطف قد يؤدى بدوره الى التخاطر معه (٢) •

والتعاطف لا يحتاج الى دليل معين ولا يعتمد على منطق ما ، لأنه برمته لا يخضع للمنطق • فهو دافع غير واع يمر من ثقب جدار يفصله عن الوعى • ويحمل كائنا ما فى اتجاه كائن آخر بسبب تجاذب متبادل لا ينبىء عنه أى شىء • وهذا التجاذب المتبادل لا يقوم على أذواق مشتركة ، ولا على آراء مشتركة ، بل يحدث بغتة ، ويقيم روابط من المحال أن يحسمها أى قياس منطقى •

والكراهية لها نفس الخصائص ، لكن فى اتجاه عكسى ، والنفور الناجم عنها لا يخضع للمنطق بدوره • ومن يشعر بالنفور من انسان يحاول أن يسبغ عليه أسبابا منطقية ، لكنها أسباب غامضة لا تستحق الوقوف عندها • ويمكن تلخيصها فى عبارة شائعة وهى « أن له رأسا لا تعجبنى » !

ويحدث كثيرا أن يتحول أحدهما الى الآخر ، وعندئذ لا تعوزه الأسباب للتحول ••• فيندم الانسان على احساسه السابق ، لأن الوعى ضعيف ، أما اللاشعور فهو ليس ضعيفا بالمرة • وأحيانا يقال « الحركة

(١) للمزيد : المرجع السابق صفحة ٤٨ — ٥٢ .
(٢) راجع ما سبق عن التخاطر فى هذا الجزء الثانى صفحة ٦٤١ — ٦٤٢ .

الأولى هي الأفضل » • ولذا فان النساء لا يبعدن عنها كثيرا لأنهن أيسر خضوعا لنداء اللاشعور •

وبسببه قد يحدث الحب من أول نظرة الذى لا يخضع لأى منطق ، وهو ليس بالأمر النادر كما تتصور أحيانا • ولا يهم هنا أبدا انتفاء كل كل تعارف سابق بين المحبين ، والغـاء كل مقتضيات المنطق ، لأن منطق الوعى لا يملك أى سـلطان على تلك الدفعـة التى ترتفع فى صمت وفى سكون من أعماق صاحبها (١) •

عن مذهبه فى « اللاشعور الجماعى »

وكانت دراسات يونج المتعمقة فى اللاشعور مصدرا لاقتناعه بضرورة التمييز بين وجود لاشـعور شخصى أو فردى Personal Unconscious ولاشعور آخر يسمو على اللاشعور الشخصى أو الفردى هو اللاشعور الجماعى Collective Unconscious • فاللاشعور الشخصى مبنى على ذكريات الشخص واختباراته الخاصة ، وأيضا على تأنيباته • فهـو مستودع اختبارات الانسان فى حياته • ومنه ينبع الشعور بالنقص ، وهو يشـير الى أن شـطرا لاشعوريا من النفس يتعين أن يتحول الى شـطر شعورى ، وأن تهضمه الذات •

وتحليل اللاشعور الشخصى يقود الى تعميق معرفة الذات لنفسها • وعندما ربط يونج بين هـذا المفهوم للاشعور الشخصى وتحليل الأحلام اكتشف أن هضـم الذكريات الشخصية والتأنيبات قد يكون عبئا ثقيلا على اللاشعور • وكان من المحتمل أن يقف التحليل عند هذا المدى ، لكنه وجد أن من الضرورى مواصلة التحليل ، لأنه وان حـدث القـاء بعض الضوء على وصول الذكريات الخاصة الى الشعور ، الا أنه مايزال يوجد نقص كامل عن اتجاه تأثير هذه الذكريات بالنسبة للمستقبل •

---

(١) عن : — René Bertrand : La Télépathie. Paris. 1977. p. 111 - 113.

أما اللاشعور الجماعى ، فهــو مستودع اختبارات الجنس البشرى برمته ، وفى هذا الشأن يختلف عن اللاشعور الفردى • فكما أنه يوجد فى البنيان العضوى لجميع بنى البشر جملة خصائص مشتركة ، بصرف النظر عن سلالاتهم وعصورهم ، وكما أنه توجد فى أجسامهم بقايا من العصور الأولى للتطور ، فكذلك توجد أيضا جملة خصائص شائعة بينهم جميعا ، كامنــة فى لاشعورهم • وهى تمثــل مستودعا لمراحل التطور الأولى فى تكوينهم الروحى ، لأنها عبارة عن نماذج عتيقة archetypes

وهذه النماذج أو الصور العتيقة يتعذر فهمها منطقيا ، ومع ذلك فهى تسود هذا اللاشعور الجماعى فى شتى مناحى سلوكه • لأنه تتبلور فيها اختبارات الجنس البشرى برمته منذ أقدم العصور • وهى تدفع الأفراد الى مســالك متماثلة للســلوك • وهى لا تمثــل أفكارا متوارثة ، بل استعدادات متوارثة لاتخاذ ردود فعل معينة •

وهذه النماذج العتيقة يمكن أن توصف للتبسيط العلمى بأنها صور ذاتيــة للغرائز • وهى موجودة فى جميع الأديان ، والمذاهب الغيبيــة ، والأساطير ، والمعتقدات والروايات •••• وقد نعرف مصدرها وقد نجهله• ويلزم أن تكون موضوعا لعملية مسح روحى ، لا لمحض تمثلات لحقائق خارجيــة •

ويطلق يونج تعبير نماذج عتيقة على ما يصح وصفه بأنه يمثل الجانب الروحى للتكوين العقلى ، مادامت تمثل صيغــا من التكيف ، وتعبر عن الشــطر الدفين من النفس • وهى ذات خصائص مختلطة وغامضــة الى نفس المدى الذى يجعل من العالم لغزا غامضا بالنسبة للانسان • وكما أنه من المحال أن يوجد تفسير نهائى لمغزى العالم ، كذلك فان النماذج العتيقة تسبب الحيرة فى مغزاها ، وفى العجز عن توقع آثارها •

وعندما تتسلل هذه النماذج العتيقة من اللاشعور الى الشعور فقد تقودنا الى وجود أسمى مما كنا،لكنها قد تقودنا الى الاسكزوفرانيا•وهى

دائما حاضرة فى كل تصرف منا قد يتجاوز حدود المألوف • وهى تمثل فى نفس الوقت عاملا قويا فى تطور الجنس البشرى ، لأنها ترغم الانسان على أن يتصرف على نحو مخالف لطبيعته ، بما يترتب على ذلك من أنه يأبى أن يسلم نفسه اليها • فهى تحرره من أغلال الطبيعة المادية ، وتجبره على أن يكيف نفسه مع العالم الروحى •

وعندما يرغمنا أى مثل أعلى على اتخاذ سلوك ما ، فان النماذج العتيقة تعمل وراء هذا الارغام • وعندما نحسن الانصات الى صوتها فى لاشعورنا ، فاننا قد نفيد من ذلك فائدة تتجاوز الانصات الى محض صوت العقل ، وهذا ما يلمحه الشعراء تماما •

* * *

وفى واحد من كتبه الأخيرة أضاف يونج الى النموذج العتيق عاملا جديدا هو عامل الكارما • وهذه الكلمة الهندية المصدر مرتبطة بمبدأ العودة للتجسد ، وتعنى التأثير الذى تمارسه حياة سابقة فى تسلسل الأحداث فى حياة لاحقة • وقد وجد يونج أن اللاشعور الجماعى يحتوى على رواسب من حيوات ماضية(١) •

واذا كانت صور الذاكرة الدفينة فى اللاشعور الفردى قد تم هضمها نظرا لأن صاحبها قد اختبرها بنفسه ، فان النماذج العتيقة الدفينة فى اللاشعور الجماعى لم يتم هضمها ، لأن الشخص لم يختبرها بنفسه •

ومن جانب آخر ، فان الطاقة الروحية عندما تتراجع الى الوراء ، وتتجاوز فترة الطفولة المبكرة ، وتتداخل فى اقليم سابق عليها ، فان الصورة الأسطورية تستيقظ بداخلها ، وهذه أيضا نماذج عتيقة • ويرى

---

(١) يلاحظ أن كارما كلمة مصدرها الأصلى هندى بمعنى جذر النبات Kri ، لكن مفهومها موجود فى جميع الأديان لأنه عبارة عن مفهوم صلة الزرع بالحصاد ، أو هو عبارة عن قولنا « الجزاء من جنس العمل » . لكن المفهوم الهندى يربط عن طريق الكارما بين ما زرعه الانسان فى حياة سابقة وما قد يحصده فى حياة لاحقة من أزهار وأشواك . وراجع ما سبق فى الجزء الأول عن موقف يونج من هذا الموضوع فى صفحة ٥١٨ — ٥٢٠ .

يونج أن هــذا الوجه من أوجه الكارما لاغنى عنــه اذا أردنا فهما أعمق مما سبق عن النموذج العتيق بوجه عام •

ويوجد أشخاص عديدون ليس بمقدورهم أن يعرفوا شيئا عن تلك الامكانيات الوظيفية الخامدة فيهم ، بينما يوجــد آخرون يشعرون أن عليهم واجب تنشيطها فى بعض الظروف • وما يحدث فى الحالات الفردية يتوقف على المستوى أو النضج الروحى • وهذا الميل المنتشر نحو « مذهب حكمة الانسان » Anthroposophy أو نحو « الثيوصوفية » Theosophy ونحوهما يكشف بحسب يونج عن رغبة العديد من بنى البشر فى اختبار هذه الإمكانيات على نحو أو آخر (١) •

وعلى أية حال فان يونج ينظر الى اللاشعور بوصفه لاعبا دورا هاما فى حياة الانســان شأنه شأن عقله الشــعورى ، لأن اللاشعور يعمــل « مقاصة » مع الشــعور ، وكلاهما مرتبطان ويسند كل منهمــا الآخر • فوظيفة اللاشعور هى « المقاصة » أو التعويض لكنها ليست هى التضاد أو التناقص مع الشعور • وبمقدور اللاشعور التدخل واحــداث التوازن عندما يتطرف السلوك الشعورى أكثر مما ينبغى •

واللاشعور هو تعبير موضوعى معاصر يشــير الى وجود اختبارات فى ذاكرة الانسانية موغلة فى القدم كما قلت • وهو يضــم عــدة عناصر أجنبية ، مجهولة تنبعث من عالمنا الداخلى ، ودفعات من القوة قادرة على أن تغيِّرنا بغتة • كما يضم أحلاما ، وأفكارا تلقائية ، نشعر أنهــا ليست من صنعنا ، وان كانت تصعد من أعماقنا بطريقة غريبة ، وقديرة • وقد مر يونج ببعض تلك الاختبارات بنفسه ، وعرضــها فى كتــاب له عنوانه « حياتى » (٢) •

وهذه الاختبارات مرت بها الشعوب المــاضية ، وماتزال تمر بهــا

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٤٧٥-٤٨١ •

(٢) Ma Vie.

الشعوب المعاصرة ، حتى تلك الشعوب البدائية التى تعيش بالقرب من الطبيعة ، لأنها تنتمى الى جوهر الحياة ولبها .

ولذا اتسعت آراء يونج كيما تحتضن جميع الظواهر الروحية التى يعنى بها الباراسيكولوجى . والتى مر هو ببعضها منذ طفولته ، عندما كان يحيا فى الريف ، وكانت مألوفة عنده ، كما هى مألوفة عند كل أولئك الذين يحيون فى أحضان الطبيعة . وهذه الظواهر أثارت فضوله للمعرفة ، وراح يجعل منها موضوعا لرسالته للحصول على الدكتوراه فى علم النفس منذ سنة ١٨٩٩[1] . وهذه الرسالة طبعت فى ليبزج Leipzig بالنمسا فى سنة ١٩٠٢ وحتى الآن لم تترجم الى العربية ! ! ...

وأصبح لديه الهام بوجود ظواهر روحية موضوعية لا شعورية ، ومع ذلك فان لها صلة بصاحبها ، لكنها لا تكوِّن منه مجرد عنصر راجع للوراء ، بل مصيرا جديدا.ولذا جعل همّه الأكبر فيما بعد أن يستكشف تماما هذا اللغز ، وهو لغز الصفة المبتدعة أو الخالقة فى اللاشعور . وأولئك الذين مروا بنفس تلك الاختبارات الداخلية لم يجدوا أية صعوبة فى أن يتفهموا تلك المفاهيم التى قدمها يونج عن هذا اللاشعور ، وأن يتجاوبوا معه فى يسر وبساطة .

والمفاهيم التى يسبغها يونج على اللاشعور تمثل فى الواقع صفحة جديدة مغايرة للأسلوب العلمى كما ساد فى القرن التاسع عشر ، ومصدرا للصراع الذى كان ناشبا حول جهود يونج . لكنها مفاهيم تبدو مقبولة عند أولئك الذين عرفوا ما نادى به أحسن المفكرين من قبل بأنه من المحال التوصل الى معرفة الأمور على نحو مطلق ونهائى ، واللاشعور أحدها .

* * *

وهى آراء تبدو مقبولة تماما عند من يسلمون بدور الالهام فى مقدرات الشعوب ومصائرها . وأداة الالهام هى اللاشعور ، لذا فانه —

(١) راجع ما ورد فى الجزء الأول بهذا الشأن صفحة ٧٧ — ٨٠ .

بحسب يونج ـ يوجد دائما فى بداية الأديان العظمى ، كما يوجد أيضا فى التحركات الصوفية الصغيرة العديدة ، بعض شخصيات تتميز حيواتها باختبارات صوفية ، تختلف عن تلك الأعراض المرضية .

والفارق الهام بين تلك الاختبارات الصوفية والأعراض المرضية الخالصة يتحصل فى أن الكائن الملهم يجد له أتباعا ، ويحصل على نفوذ تاريخى ، ولا يحدث هذا الا اذا كان هـذا الكائن الملهم يعبّر عن أمور وجدانية تتدفق من القلب . ومن ثم فان المعلم الحكيم عندما لا يجد له أتباعا يعتبره الناس مجنونا ، أما المجنون الذى يعلن ابتداء أقوى مبادىء الجنون العام ، فانه يصبح عند الناس نبيا ، ومرشدا ، وزعيما Führer (١) ، ولكن لحسن الحظ فان العكس يحدث أيضا .

وعندما يدع نفر ضخم من الأشخاص أنفسهم للاقتناع برسالة هذا المنادى ، فان مقتضى ذلك هو أن هذا المنادى الملهم يعبّر ـ على وجه التحديد ـ عن تمثلات ، وآراء ، لها صفة تعويضية ازاء حالة عامة من الاحباط الروحى . وهذه التمثلات تصعد من اللاشعور بصورة اختبارات شخصية يبدو أنها ترصّع أيضا نفوس الأشخاص الآخرين .

ودائما تقريبا ـ خلال التاريخ الانسانى ـ نشر ملهمون من هـذا النوع اختبارات داخلية بوصفها تمثل آراء دينية ، مضفين عليها قيمة ميتافيزيقية ، أو مضفين عليها قدرة الكشف عن حقيقة مطلقة . والفلاسفة

---

(١) لعل يونج استخدم هنا كلمة Führer متعمدا الاشارة الى هتلر لانه كان يلقب نفسه بالفوهرر ، وكان فى ذلك الوقت ما يزال يعربد بسلطانه فى طول أوروبا وعرضها . وكان يونج يكره هتلر وقد هاجمه فى أكثر من مناسبة .

وعندما أوشكت المانيا على الهزيمة فى أواخر سنة ١٩٤٤ أرسل هتلر مبعوثا خاصا الى يونج طالبا منه أن يجس النبض لطلب الصلح من بريطانيا .

واعتذر يونج عن القيام بهذه المهمة العسيرة ـ لانه شعر بفشلها مقدما ـ فلجأ هتلر الى توسيط جوستاف ملك السويد ، فجاءه الرد بأن السبيل الوحيد للصلح هو الاستسلام بلا قيد ولا شرط .

والعلماء من جانبهم قد يفعلون نفس الشىء ، مع أن « الحقائق » نسبية للأسف .

وعندما تتأمل الصيغ الدينية المتعددة التى عرفها التاريخ والعالم ، والآراء العلمية التى تصورها أصحابها مطلقة تتفهم لماذا رفض يونج باصرار وبصراحة كل زعم لوجود حقيقة مطلقة فى أى اعتقاد أو فى أى علم . ولماذا نصح الناس بالتزام الحذر والتعقل ازاء كل ما قد ينسب الى الوحى أو الالهام ، لأنه يمثل الميدان الأبعد من غيره عن اليقين ، وعن التحديد .

ولم يمنعه ذلك من أن يكون متدينا ومنتميا بحسب قوله الى أقصى اليسار من المذهب البروتستانتى (١) ، ولكن مع رفضه الشديد لكل صور التعصب المذهبية والطائفية . ومع حماسه لمبدأ التضامن الانسانى والدولى الذى يفرض نفسه فرضا على البشرية بوصفه الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام العالمى المنشود فى مواجهة تصادم مصالح الجماعات والدول المختلفة . ومع حماسه أيضا لمبدأ اخضاع الدين لمنهج العقل ، وللأسلوب العلمى خصوصا بعد ما حققه العلم من طفرات هامة .

صلة اللاشعور بتطور القيم

وثمة اعتبار هام فى هذا الشأن ينبغى أن يكون نصب أعيننا دائما ، وهو أن كل مجتمع من المجتمعات البشرية فى كل عصر من عصور التاريخ يعرف قيما عديدة واسعة الانتشار ، شديدة الرسوخ ، تمتد جذورها الى تاريخ هذا المجتمع ، والى الأديان التى اعتنقها ، والشعوب التى اختلط بها ، والأنظمة التى خضع لها .... بل تمتد أيضا الى الموقع الجغرافى ، والعوامل الطقسية ، لأن لهذا ولتلك أثرا لا شبهة فيه من ناحية بناء

---

(١) مع بعض تحفظات منها انه يقدر السيدة العذراء تقديرا خاصا . لأنها تمثل الأمومة فى أسمى صورها ، ولها عنده تقدير رفيع خاص ، وهذا ما يسلم به المذهب الكاثوليكى دون البروتستانتى ، وكلاهما له أتباعه فى سويسرا موطن يونج .

ما يصح أن يطلق عليه وصف « التكوين الروحى » لكل مجتمع فى كل عصر •

وهذا التكوين الروحى مكونّن بدوره من جانب شعورى وآخر لاشعورى ، ولعل هذا الجانب الأخير أقوى أثرا فى توجيه سلوك المجتمع من جانبه الشعورى شأنه فى ذلك شأن التكوين الروحى للفرد • وهذا « اللاشعور الجماعى » تناوله كارل يونج فى العديد من مؤلفاته وأعطاه قيمته الجديرة به فى تفسير بعض ظواهر السلوك فى كافة المجتمعات منذ فجر التاريخ الانسانى •

وهذه القيم السائدة فى كل مجمتع تتفاوت تفاوتا ضخما بين مجتمع وآخر وعصر وآخر • والأصل فيها البطلان والاستثناء فيها الصحة • وكلما ازداد المجتمع تخلفا عن غيره كلما كان أشد تشبثا عن غيره بكل قيمه الباطلة خصوصا عندما يصبح لها جذورها فى تكوينه الروحى ، وبعد الاصرار عليها لأماد طويلة قد تمتد الى أجيال وأجيال ، من سلالات بنيه• وكلها تمجد دواما هذه القيم الباطلة ، وأولئك المدافعين عنها ، بل أيضا أولئك الراغبين فى التسلط على المجتمع عن طريق تملق قيمه الباطلة ، والاعتزاز بها ، والاصرار عليها ••

وأبناء المجتمع الواحد يتكيفون بسهولة مع قيمه الباطلة ، وليس بمقدورهم أن يكتشفوا ما فيها من بطلان ، ومن زيف ، ومن تعارض مع النواميس الطبيعية للأخلاق•واذا ظهر من بينهم رائد للاصلاح الجاد ، أو للتطور فى الاتجاه الصحيح ، كان مصيره المحتوم أن يتألب عليه الأعداء والخصوم ، وربما انتهى به المطاف الى القتل أو السجون ! ! •

وهذه كلها أوليات فى علم الاجتماع العام ليست محل نقاش من أحد • ومن شأنها أن تنتقص الى مدى كبير من مبدأ المسئولية الفردية ، وتلقى شطرا كبيرا من المسئولية على عاتق المجتمع بكل ما يرتبط به من أوضاع ضالة ، أو من قيم باطلة •

وهذه الأوليات بذاتها تجعل باب الأمل من تطور أى انســان لمجرد عيشه فى أى مجتمع من المجتمعات موصدا أو شــبه موصــد • وتجعل التكيف بالقيم الصحيحة بعد القيم الباطلة ، وبالمفاهيم النقية بعد المفاهيم الغبية أمرا بعيد المنال ، بل فى الواقع من قبيل المحال •

واذا سلمنا بأن فى الانسان مبدأ روحيا غير قابل للفناء ، لكنه قابل للتطور ، فان هذا التسليم يثير فورا التساؤل عن مصــدر هــذا التطور وكيفية حصوله ؟ ومن أين يجىء ارتقاء العقول والقيم والمفاهيم ؟ وهــل يمكن أن يكون الارتقاء فى حياة الأرض فقط ــ وهى قد تقصر الى أيام أو ساعات ؟ ! وهل يمكن أن يجىء الارتقاء المطلوب خلال حياة واحــدة يمضيها الانسان على الأرض ، وربما فى ظروف تعيسة هى أبعد ما تكون عن النقاء والارتقاء ؟ ! •••

وعندما كان الجواب عن هذه الأسئلة محض اجتهاد فلسفى ، أواتجاه عقيدى أو روحى ، كان من المفهوم أن يثير هذا الجواب العديد من أوجه الاعتراض ، والنقاش ، والانكار ، والمزايدة فى تملق مشــاعر الجماهير ومعتقداتها السائدة • ناهيك برغبة التودد الى قدرة الله تعالى بعد تشويه مفهوم هذه القدرة ومسخها تماما حتى تلائم عجزنا البالغ ، وقصــورنا الشديد فى فهم هذه القــدرة بكل ما يرتبط بهــا من مفاهيم آخرى مثل مفاهيم الرحمة والعدل والمساواة والحكمة •••

ولكن هذه الأسئلة العديدة لا تجد لها أى جواب فى أية فلسفة أخرى للوجود غير الفلسفة الروحية ، وبوجه خاص غير فلسفة العودة للتجسد ، للحصول التدريجى على المزيد من النقاء والارتقاء ، ولنا وقفة كافية عند هذا الموضوع فى الباب العاشر •

* * *

والقيم أو المفاهيم الروحية ترجع كلها الى أصل واحد بسيط وهو أن كل ما ينتمى الى الأثرة مناف للأخلاق الفاضلة ، بل مدمر لهــا تدميرا تاما بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، مستقيمة أو ملتوية • حتى لو حاول

الانسان أن يراوغ فيها ، وأن يعطيها وصفا أو أوصافا براقة شتى ، وأن يبررها بمعاذير خلابة قد تخدع السذج والبلهاء ، لكنها هيهات أن تخدع بصر القـدر وبصيرته اليقظى تماما لكل ما يجرى من أحداث فى الأرض أو فى السماء •

أما كل ما ينتمى الى الايثار فهو جوهر الأخلاق الفاضـلة ولبها ، وأسـمى ما يلزم للروح الانسـانية أن تسعى الى تحقيقه ، مهما كبدها التحقيق من مشقة وعناء • وهو النور السـاطع الذى يشـع من أعماق الروح عندما تبلغ مستوى رفيعا من التطور والارتقاء • وهو المصـدر الوحيد لكل احساس بالسعادة يوفر للذات السكينة الحقة مع الشعور الغامر بالغبطة وبالرضاء •

والمبدأ ــ كما ترى ــ واضح بسيط فى حد ذاته ، وقد سلمت به قواعد الأخلاق الفاضلة منذ بدأ ظهور الانسان الأخلاقى على ظهر الأرض ، وقد عرفه الفراعنة ، كما عرفته كل حضارة استحقت أن تحمل اسم حضـارة حقيقية مر بهـا تاريخ الشرق أو الغرب • لكن المشكلة العويصـة تبدأ عندما نبحث عن ماهية الطريق الموصّل الى الأثرة لتمييزه تماما عن الطريق الآخر الموصل الى الايثار • وعن ماهية الوسائل التى تمكن الذات من اختيار طريق الايثار ، والالتزام به مع انه محفوف بكل عناصر الألم والحرمان ، وكل دواعى خدمة الآخرين وحبهم ، وضبط الذات وترويضها •

والعبرة ليسـت بكثرة الحديث عن الايثـار ، فقد يكون الحديث محض التواء وستار • بل ان العبرة هى بالتطبيق الفعلى الذى يتحدث عن نفسه بلا حاجة لأقوال جوفاء ، والذى لا يعترف بتلك الحواجز القائمة بين بعض بنى البشر وبعضهم الآخر ، لأنها كلها حواجز صناعية لا تمت بأية صلة الى نواميس الروح والخلود • أو بالأدق هى حواجز تمت بكل صلة الى ذلك الحرف القاتل المميت الذى يثير كل صـنوف الشحناء ، لا الى ذلك الروح المحيى الذى يجمع القلوب على الحب والصفاء •

وهناك سـبيل يحسن التمييز بين تصرف للأثرة وآخر للايثار هـو

الاستماع الى صوت الصمت فى سكينة واطمئنان • وصوت الصمت هذا هو بعينه نداء اللاشعور الأسمى للانسان • الذى اذا بلغ مستوى معينا من النضج والاختبار يكون بمقدوره أن يمسك بزمام الذات اذا ما ترددت بين الأثرة والايثار • وهو حصيلة تطور الروح خلال تجسداتها المتتابعة بمقدار ما هو انعكاس للقبس الالهى فى الذات الانسانية الذى يمسك بزمامها تطورها الهادىء العريق نحو المزيد من ثراء العقل والوجدان •

وبطبيعة الحال فان هذا القبس الالهى فى الانسان لم يعرفه فرويد ، ولم يعترف به فى كل بنيانه الشامخ الضخم عن الذات الانسانية • هذا البنيان الذى تبين فيما بعد أنه — رغم شموخه وضخامته — مقام على أساس واه جدا من مفهوم العقل الباطن • وعلى قاعدة سطحية من تعليل هذا العقل بوصفه محض تعبير عن رغبات مكبوتة منذ الولادة الى الوفاة، ومحض انعكاس لقانون التطور البيولوجى من البكتريا الى الانسان •

وقد تحدث فرويد — فى عدة مواضع من مؤلفاته — عن الصراع الذى يدور بداخل الذات خصوصا عندما قال فى بعض طبعاتها الأخيرة بوجود أقسام ثلاثة جديدة للعقل هى « الهو » و « الأنا » و « الأنا الأعلى » ، لكنه لم يذهب أبدا الى حد التسليم بوجود نشاط روحى ضخم — يجرى بداخل الذات وبخارجها — متميز تماما حتى عن نشاط « الأنا الأعلى » التى أصر على أنها مجرد أثر يبقى فى النفس بعد مدة الطفولة الطويلة التى يعيش فيها الطفل معتمدا على والديه وخاضعا لأوامرهما ونواهيهما (١) •

وفى هذا التفسير الساذج « للأنا الأعلى » احتدم الخلاف بين فرويد وبين خلفائه الثلاثة الكبار مكدوجال وبروض ويونج ، وخصوصا منهم الأخير الذى أعلنها حربا ضارية طويلة على فرويد بسبب هذا الاغلاق

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٢٩ — ٣٢ ، ٣٥ — ٣٧ •

الشديد فى فهم اللاشعور الناجم عن تجاهله للعديد من الوقائع الروحية التى ظل أمدا طويلا يكابر فى صحتها ، أو يحاول أن يعطيها تفسيرات تبعد عن الصواب بمقدار بعد المكابرة ذاتها عن الصواب .

وبعد أن حاصرته نيران الحرب الضارية من الباحثين فى النفس والروح — وعلى رأسهم يونج — اضطر فرويد الى التقهقر والى التسليم بأن الموت مجرد عودة للحالة اللاعضوية التى منها جاء الانسان ، لكن لم يمتد الأجل طويلا بفرويد حتى يعيد من جديد صياغة كل بنيانه العلمى والفلسفى الذى كان قد انتشر فى بيئات التحليل النفسى واستحوذ عليها استحواذا شبه تام ، ومايزال حتى الآن فى بعض مدارس التخلف والجمود .

خصوصا منها تلك المدارس التى ماتزال — حتى الآن — تتجاهل هذا التطور الخطير فى مفهوم اللاشعور ، والتى ما تزال بالتالى تقف حيرى ازاء مدلول كلمة « لاشعور » التى تبين أنه يوجد لها ما لا يقل عن تسع وثلاثين من المعانى المختلفة . وذلك رغم أن فرويد نفسه قد سلم بأنه يوجد وراء الشعور واللاشعور معا جهاز نفسى روحى غير خاضع للحواس مسئول عن جميع العمليات الشعورية واللاشعورية التى تتم فى نطاق الشخصية .

ويكشف عن وجود هذا الجهاز النفسى الروحى الدور الفعال الذى تقوم به العاطفة فى أفكارنا . فنحن نحب أولا أو نكره ، ثم بعد ذلك نبحث عن أسباب نحاول أن نجعلها منطقية لهذا الحب أو الكره . أو بتعبير آخر ان فكرنا يعمل — كما سبق البيان — على خلفية وجدانية : الخلفى منها هو الوجدان ، والصورة البارزة للرائى فيها هى الفكر . شأننا فى ذلك شأن المشاهد للوحة فنية ، فانه لا يدرك الا تلك الصورة المرسومة على وجهها ويتجاهل جانبها الخلفى .

هذا وقد عرضت لهذا الموضوع الهام الدقيق اجمالا وبالقدر اللازم فقط فيمامضى(١) لكن يلزم الآن المزيد من عمل دراسات موسعة شاملة عن

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول صفحة ٤٥ — ٤٨ .

الانسان فى جوانبه الروحية والعضوية • كما يلزم أيضا أن تتراجع أوجه الاعتراض البالية ، والنقاش والمزايدة ••• اللهم الا أن يكون الاعتراض أو النقاش مستندا بدوره الى أبحاث علمية وضعية مماثلة ، ومترابطة مع كل ما وصلت اليه معارف الانسان من حقائق بخصوص صلة الانسان بالبيئة ، وبالوراثة ، وبكافة النواميس التى تحكم ظهور الانسان فى الطبيعة ، وتطوره ، ومصيره ، وضميره •

* * *

وأين هى هذه « الأبحاث المضادة » ؟ ومن هم أصحابها ؟ وما هى أسانيدها ؟ وما هو مدى اتفاقها مع حقائق البيئة والوراثة ، وظهور الانسان ، وتطوره ، ومصيره ، وضميره ؟ ! ••• فى الواقع انها لا توجد ، ولم يقدم أحد من الباحثين العلميين ، ما يصح أن يوصف بأنه يمثل « بحثا مضادا » أو بأنه يمثل وجهة نظر أخرى لها أسانيدها القوية فى حقائق الوجود كما كشف عنها النقاب جهاد العلماء عبر القرون والأجيال ، وخلال صراع طويل محفوف بالمر والعذاب بين كل خطأ وكل صواب •

وهذا الاعتبار وحده كفيل بأن يجعل مبدأ العودة للتجسد أثبت قدما بكثير من كل مبدأ آخر أثير فى هذا الشأن ، ومن كل غبار أثير فى وجهه باسم العلم أو الفلسفة أو الاعتقاد أو ما يزال يثار •

ولعل هذا الاعتبار أيضا يفسر موقف علماء الروح المعاصرين الذين أصبحوا يشعرون أنهم يقفون — الآن — على أرض صلبة تماما عندما يعلنون أن هذا المبدأ ينبغى أن يعتبر حقيقة ثابتة شأنه فى ذلك شأن الاعتقاد فى دوام الحياة بعد الموت ، بل أيضا شأن الوصول الى نواميس الكون الكبرى المتصلة بالضوء ، والحرارة ، والمادة ، والطاقة ، وحركات الأفلاك والنجوم والمدن النجومية ، وحركات الذرات والجسيمات ، والنسبية •••••

والعلم الآن يطفر طفرات سريعة نحو الأمام لتحقيق المزيد من التطور فى فهم ما يجرى للروح من أحداث بعد انفصالها عن المادة

الترابية ، وبالتالى المزيد من محاولة فهم العلاقة بين الروح والمادة بوجه عام(١) . بل أيضا العلاقة بين الروح وبين قدراتها الادراكية ، التى تجرى عن طريق الحواس ، أو عن غير طريق الحواس . ناهيك بمحاولة القاء المزيد من الضوء عن الصلة بين الروح وبين الوعى الشعورى واللاشعورى .

وفى هذه الميادين الخصبة ، الصعبة ، الدقيقة يعمل الآن جميع العاملين فى حقل الباراسيكولوجى . ولا يمكن أن أقول انهم قطعوا فى هذا الميدان الشوط الأكبر ، لكن بمقدورى أن أقول انهم — بالأقل — قطعوا شوطا لا يستهان به ، ومن المحال تجاهله ، الا فان علم النفس لن يقف على قدميه فى أى يوم من الأيام(٢) . وبالتالى فان محاولة تخفيف بعض آلام بنى البشر ، وعلاج أسقامهم العضوية والنفسية والأخلاقية أيضا ، ستظل الى الأبد محض وهم وسراب ، بل محض خداع وتضليل .

وأنا لا ألقى هذا القول جزافا ، بل ألقيه بحذر كاف ، وبعد اطلاع مثابر فى شتى مراجع الباراسيكولوجى — المنتقاه بعناية وحذر شديدين . وكانت — وما تزال — تغلب على اطلاعى رغبة النقد على الانقياد ، ومنهج البحث عن حقائق الوجود على منهج الاصرار أو الاعتداد .

صلة اللاشعور بالعقل الأسمى

وعندما أعالج موضوع اللاشعور فى ضوء الحقائق الهامة الجديدة التى وصلت اليها أبحاث الباراسيكولوجى يتعين على أن أوجه النظر الى أن اللاشعور فى مفهومه الحديث أوسع مدى بكثير من العقل الباطن ، فهو تعبير يشمل خلجات العقل الأسفل فى الانسان بالاضافة الى خلجات عقله الأسمى أيضا . ذلك أنه فى اطار علم الروح الحديث ينبغى التمييز بين العقل الباطن بمفهومه المألوف فى علم النفس التقليدى وبين العقل الأسمى

---

(١) ولنا عند هذا الموضوع وقفة كافية فى الفصل الثانى من الباب العاشر .

(٢) وكل هذه الجهود لن توقفها بطبيعة الحال تلك المقالات البليغة التى يتسع لها — أحيانا — صدر صحفنا الغراء ! !

الذى يعنى به علم الروح عناية خاصــة بوصــفه يمثل الشــطر الأسمى والأرقى من اللاشعور •

فعلم النفس الحديث وقف على منطقة جديدة فى الانسان أطلق عليها وصف العقل الفوق الواعى Super Conscious • وعلى نقيض العقــل الباطن أو غير الواعى الذى يمثل التيارات المغمورة لطبيعتنا ، فان العقل فوق الواعى يكشف ضروب السمو التى يمكن لطبيعتنا بلوغها • والانسان يتمثل فى شخصية ثلاثية لا ثنائية فحسب ، فكيانا الواعى وتحت الواعى يتوجهما وعى سام ، ينبغى التمييز بينه وبين العقل الباطن حتى وان كان كلاهما يقع فى منطقة اللاشعور •

وفى هذا الشأن يتحدث موريس ماجر Maurice Magre قائلا عن العقل الأسمى بوصفه حقيقة روحية « ان العقل الباطن (أو الغير الواعى) عبارة عن كومة غير مرتبــة متبقية من حيواتنا المــاضية ، ترتفع منها أحيانا دفعات غامضة وقوى متضاربة الى عقلنا الواعى • فالعقل الواعى لا يلقى أضواءه الا على مساحة صغيرة ، لكن أمامه الأرض الواسعة التى للوعى الأسمى التى عليه أن يغزوها ولو عن طريق مجهودات مؤلمة • وعن طريق هذا الوعى الأسمى قد تأتى أحيانا ومضة من الضوء ، أو شعلة ترسم الطريق يخلطونها عادة بما يشير به العقل الباطن ، اذ انه لا شىء عندهم (عنــد النفسيين القدامى) يميز ما هو قادم من فوق عما هو قادم من تحت •

ولذا أســندوا جميع الظواهر التى تتجاوز نطاق القوانين الطبيعية ــ وبغير أية تفرقة بينها ــ الى هذا الذى يسمى بالعقل الباطن ، بغير أن يعرفوا ما هى حدوده بالضبط • فأسندوا الى هذا العقل الباطن قوى أشد اعجازا بكثير من كل ما يمكن تخيله فى نطاق المعجزات • فمثلا اذا ما أخذ وسيط غيبوبة فى التحدث أو فى الكتابة بلغة قديمة ــ ولو كانت هى اللغة السنسكريتية التى لا يعرفها ــ فذلك بفضل العقل الباطن ! !

واذا ما عمد نفس هذا الوسيط الخاضع لاستحواذ كائن غير معروف أو قوة مجهــولة الى قراءة أفكار غيره ، أو الى الرؤية عن بعد ، أو الى

رسم أحداث مضت ، أو الى التنبؤ بأحداث مستقبلة تنبؤ صحيحا ، فكل ذلك يعزى الى العقل الباطن ! •• وهكذا عن طريق تحكم — لا يمكن تبريره — افترضوا أن قوى العقل الباطن لا نهاية لها •

ومعنى ذلك هواستبدال صورة من الاعجاز بصورة أخرى تبدوأشد منها غرابة ، وأبعد منها عن التصور ••• لقد أخطأ فرويد كثيرا عندما قال باستبعاد التمييز بين العقل الأسمى والعقل الأسفل ، لأنه باستبعاد هذا التمييز قد استبعد التفسير الوحيد المقبول لكل الظواهر التى عرض لها ، فان هذا التمييز هو الذى يبرز ذاتية ما هو روحى وما هو واع •

ان هناك نوعا من التعمية الفلسفية وقصورا فى النظر عند القول بأن الانسان مسير بعقله الباطن الأعمى • ان العقل الباطن يجىء من ناحية أعماق أبعد كثيرا من أعماق الطفولة • انه عبارة عن كتلة غامضة من تجارب متراكمة من الحيوات السابقة ، ومن المستحيل ألا يكون فرويد قد رآها ، ولكن هل كان بمقدور عالم غربى أن يقول بذلك ؟ لقد كان فرويد مقيدا بالفكرة الأولية التى كونها عن النفس الانسانية ، والتى لا تحتمل سوى حياة واحدة ، هى حياتها المنظورة •

وأنها لفكرة مماثلة لها ، هذه الفكرة التى تميل الى انكار كل حياة للنفس بعد موت الجسد ، والتى تحمل عددا كبيرا من بحاث ما وراء الروح La Métapsychique الى أن يعزو الى العقل الباطن كل ظاهرة من الظواهر الفوق الطبيعية (١) •

ان العقل الباطن يصح تشبيهه بالجهل الذى كان يتحدث عنه بوذا ، والذى كان يعلم أنه العدو الأعظم للانسان ، لأنه عبارة عن فوضى لا شكل لها chaos informe حيث تتصارع الشهوات الحيوانية والمخاوف القديمة من العصور المنقضية •

ان دعاة العقل الباطن أخطأوا ، أو بالأدق بالغوا ، لأنهم لم يحسبوا

---

(١) راجع ما ورد فى الجزء الأول بشأن تعريف علم « ما وراء الروح » صفحة ٦١ — ٦٢ ، ١٣٧ — ١٣٩ •

حساب وعينا الأسمى الذى يمثل ذواتنا الحقيقية التى صرنا اليها بعناء من حياة الى حياة ، وخرجنا بها من الانعكاسات السفلى ، هذه الذات التى اعتقد كارل يونج أنه قد اكتشفها أخيرا وأطلق عليها وصف الانسان السماوى(١) .

* * *

وعن نفس هذا الوعى السامى تتحدث الباحثة الروحية سانكلير ستوبارت St. Clair Stobart فى مؤلفها عن « السر المفتوح » قائلة « ان العلم الروحى يبدو أنه هو رافع الستار بين درجتين فى الوعى : هما الوعى العادى والوعى السامى . فهذا الستار يصبح شفافا فى ظروف معينة عندما تمكن السيطرة على الوعى العادى فينشط الوعى الأسمى . وهذا الأخير نسميه الوعى الأسمى كيما نميزه عن العقل الباطن ...

وهذا الوعى الأسمى هو الذى يجعلنا نشعر بالأشياء غير المنظورة من عينى الواعى العادى ، فنشعر بوجود كائنات تبدو منظورة ومسموعة ، تبين — استنادا الى كتلة ضخمة من البينات — أنها عاشت بوصفها كائنات انسانية على الأرض فى وقت أو فى آخر . ونحن نحيل الى هذا الوعى الأسمى لأنه يبدو أنه هو الرابطة التى تربط الوعى العادى بذلك الذى نطلق عليه وصف العقل الكونى ...

وهذا الوعى الأسمى يبدو خامدا فى الجنس الانسانى ، ولا يبدو أنه ملكة جديدة ناجمة عن التطور الحديث ، بل يبدو أنه قدرة قديمة ترجع الى العصر الذى بدأ فيه تطور الجسم الانسانى ومعه العقل عندما بدأ العقل يتذوق المعرفة ومعها قدرة التمييز بين الخير والشر ... » (٢) .

(١) عن كتاب التداخلات الفوق الطبيعية
Les Interventions Surnaturelles.
طبعة ١٩٣٩ ص ٥٩ ـ ٦٤ ، وراجع ما سبق عن بعض آراء يونج فى الجزء الأول صفحة ٧٧ — ٨٠ ، ٢٩١ — ٢٩٣ و ٤٧٥ — ٤٨٨ ، ٥١٨ — ٥٢٠ وفى هذا الجزء الثانى صفحة ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٧٥٨ — ٧٦١ ، ١١٥٩ — ١١٧٦ .

(٢) The Open Secret.
راجع بوجه خاص الفصل الثامن عشر عن الوعى الكونى ص ١٦٨ — ١٨٤ . وللمزيد عن المؤلفة راجع كتاب « قصتى العظمى » تأليف سوافر . الترجمة العربية بمعرفتنا سنة ١٩٧٢ ص ٣٠٥ .

وهذا الوعى السامى هو الذى يعلل أعمال الالهام والوساطة الراقية، بل أعمال البطولة الفريدة وانكار الذات بما يعجز المخ كجهاز مادى عن تعليله . فالمخ لا يخرج فى النهاية عن أن يكون ـ كسائر أعضاء الجسد المادى ـ كتلة من هيدرات الكربون ، والبروتينات ، والدهنيات ، والأملاح ، والماء ، مما لا يمكن أن يرتبط بصلة صحيحة بتصرفات العقل واتجاه الانسان الطبيعى نحو تقدير كل ما هو راق وجميل فى القيم والأشياء والأحداث ، الى حد التضحية والفداء النبيل .

وهذه المنطقة من العقل بعينها هى التى تلقى ضوءا على أعمال الملهمين والعباقرة والوسطاء الكبار ، وهى تلك التى يعنى بها بوجه خاص علم الروح الحديث فى دراسته للظواهر الوساطية العقلية قبل غيرها . وهذا الوعى السامى لم يكتشفه فرويد ، لأن فرويد كان قبل كل شىء طبيبا معنيا بالجوانب المريضة من العقل لا بجوانبه الصحيحة ، على ما لاحظه المفكر المعاصر الدوس هكسلى (١) ، أما هذا الوعى السامى فهو يمثل أسمى ما فى الجانب الصحيح من العقل . وهو على أية حال من عناصر العقل غير الواعى الذى يعمل خارج اطار المخ .

* * *

وعلى هذا الوضع يبدو لى أن العقل الواعى ـ فى مجموعه ـ أقرب الى أن يمثل حاضرنا ، والعقل الأسفل يمثل ماضينا ، والعقل الأسمى يمثل مستقبلنا ، وذلك عندما نريد أن نربط بين مفاهيم هذه العقول الثلاثة ، ومفاهيم الزمن بحسب حكم الحواس الحاضرة على هذه المفاهيم ، ولو على نحو أو آخر : ـ

ـ ففى العقل الواعى تقبع ذكرياتنا القريبة ، وملكاتنا التى نستخدمها فى حياتنا الحاضرة عن طريق جهاز التفكير الحاضر ، وهو المخ .

---

(١) فى تقديمه لطبعة ١٩٦١ من كتاب فردريك مايرز بعنوان «الشخصية الانسانية وبقاؤها بعد موت الجسد »
Human Personality and its Survival of Bodily Death.

ــ وفى العقــل الأســفل مخزن ذكرياتنا الســحيقة ومخاوفنــا؛ واختباراتنا البعيدة التى انزلقت اليــه عن طريق العقل الواعى فى جميــع عصوره المــاضية • أو بالأدق أن العقل الأســفل هــو مخزن العنــاصر المفيدة المتبقية من هذه الذكريات والاختبارات ، والتى أمكنها أن تقبــع فيه هادئة صامدة على مر الزمن وعلى عوامل التطور • بل هى فى الواقع تمثل فى هذا العقل أهم عناصر هذا الصــمود ، وهى فى نفس الوقت من عناصر نمو هذا العقل وتطوره •

ــ وأما العقل الأسمى فهو يمثل امكانيات تفكيرنا المستقبلة المؤسسة على تجارب ماضينا واختبارات حاضرنا والهاماتنا • فهو بمثابة الخطوط الباهتة التى يرسمها الرسام قبل أن يصنع لوحته • وهذا العقل الأسمى يمثل محور شخصيتنا الحقيقية ، وهو الخيط الدقيق القوى الذى يشد ارادتنا شدا الى مستوى أسمى من مستواها الحالى والمــاضى •

ومن مجموع العقول الثلاثة : الواعى ، والأسفل ، والأسمى ــ ومع مراعاة أن العقــل الأســمى كالعقل الأســفل عقــل باطن أى غير واع بدوره ــ تتكون عقولنا أو ذواتنا الحقة التى تتحكم فى تصرفاتنا ، والتى تقود خطى تطورنا فى حياتنا • وقد عنى علم النفس فى أولى مراحله بعقلنا الواعى ، ولكنه انتقل منذ زمن قريب الى دراسة العقل الأسفل ، وها هو ينتقل حديثا عن طريق الروح الى دراســة العقل الأسمى بما يســتحقه من عناية قصوى • فهذا العقل الأسمى يعود لعــلم الروح الحديث فضل اكتشافه والعناية به ، لأنه المشعل الذى يضىء طريق الروح فى تجســدها وخارج تجسدها والذى يعبر عن احتياجاتها الحقيقية أكثر مما يعبر عن احتياجات الجسد المــادى •

* * *

هذا وقد تناولت فى مناسبة سابقة موضوع صلة الارادة الانسانية بمفهوم الزمن ، وعرضت بشىء من التفصيل لهذا الموضوع الدقيق من موضوعات الباراسيكولوجى • ومشكلات صلة الارادة الشعورية بالزمن

تكاد تلتقى فى جوهرها مع مشكلات صلة الارادة اللاشعورية بهذا الزمن ، لذا أكتفى فى شأنها بما سبق أن أوردته (١) .

وانما يتعين أن أقف وقفة كافية هنا عند موضوع هام له وثيق اتصال بالنشاط اللاشعورى للانسان ، وهو موضوع الالهام أوالحدس ، الذى يمثل أحد مناشط العقل الأسمى علىالمفهوم الذى بينته .

والالهام أو الحدس جهازه الفعال أو الأقوى كامن فى اللاشعور . وكثيرا ما يتداخل مع ظواهر الاستشفاف : يستوى فى ذلك الاستشفاف السمعى ، مع البصرى ، مع ملكة التنبؤ الصحيح ، مع ملكة السيكومترى أو قياس الأثر الروحى(٢) .

وهو أيضا له صلة وثيقة بموضوع التصوف Mysticisme الذى يتضمن رغبة الاتجاه الى « العالم الأسمى » فى صيغة ما من الصيغ لاستلهام المعونة والارشاد — عن طريق التركيزالعقلى Concentration فى الخلوة الصوفية — من أحد المرشدين الروحيين .

وبين هذه الموضوعات تداخل شديد ، وكلها تنتمى فى دراسات الباراسيكولوجى الى فصيلة واحدة وهو فصيلة الادراك خارج الحواس . وكلها مرتبطة بانجازات اللاشعور الفردى فى مفهومه المتسع بحسب يونج لا بحسب فرويد . لذا فهى تستحق وقفة كافية فى الصفحات القادمة لالقاء بعض أضواء عليها ، لها اتصال مباشر بتحول البحث العلمى من أسلوب السيكولوجى الى أسلوب الباراسيكولوجى .

صلة اللاشعور بالاستشفاف

وللاشعور صلة وثيقة بالجانب الأكبر من الظواهر الروحية العقلية mental, intellectual phenomena التى أشرت اليها فى موضع سابق ،

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الجزء صفحة ٦٠٧ — ٦٦٤ .

(٢) راجع ما سبق فى هذا الجزء عن التنبؤ فى صفحة ٦١٦ — ٦٤١ ، وما سبق عن السيكومترى فى صفحة ٦٤١ — ٦٥٢ .

ومنها بوجه خاص ظواهر الاستشفاف البصرى والسمعى[١] . فمثلا لوحظ أنه فى حالات عديدة من غيبوبة الوسيط تظهر لديه ملكة الاستشفاف هذه فى صورة أو أخرى . وتعليل ذلك أنه عند الغيبوبة الوساطية ـ ومثلها الغيبوبة المغناطيسية التى سأتناولها فيما بعد ـ ينشط اللاشعور على حساب تراجع الشعور . وعند نشاط اللاشعور تنشط معه تلك الملكات الروحية الخامدة فيه .

ولكن يراعى فى نفس الوقت أن الغيبوبة الوساطية ـ أو المغناطيسية بحسب الأحوال ـ ليست شرطا لنشاط الملكات الروحية فى جميع الحالات. فمثلا لوحظ فى حالات عديدة أن بمقدور الوسيط الروحى أن يكون صاحب استشفاف بصرى أو سمعى بدون أية غيبوبة .

وكذلك الشأن أيضا فى ظواهر الهيمنة التى كثيرا ما تكون مصحوبة ببعض الأعمال التلقائية الفنية ، مثل عمل بعض اللوحات الرائعة المسندة الى فنانين منتقلين معروفين بالذات (٢) . ومثل كتابة بعض الرسائل بنفس خطوط أصحابها المنتقلين ، أو بخطوط قريبة منها على نحو أو آخر ، ناهيك بنفس أفكارهم وملكاتهم وذكرياتهم ، واتجاهاتهم العاطفية (٣) ... وقد يبلغ هذا الانتاج الروحى المئات وربما الآلاف من الصفحات ، ومن الخصائص المميزة للانتاج الروحى بوجه عام السرعة الشديدة التى تسترعى الانتباه ، والتى لا تقارن بها مدى سرعة الانتاج العلمى أو الفنى بحسب الملكات المألوفة .

ومن بينها مثلا تلك الأعمال الأدبية العديدة المنسوبة الى ادجار والاس Edgar Wallace ، وأوسكار وايلد Oscar Wilde ، وتشارلز

---

(١) راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول صفحة ١٤٩ ـ ١٥٤ .

(٢) راجع عدة نماذج من هذه اللوحات ـ مع الشروح ـ فى كتاب « الاتصال بين عالمين » الطبعة العربية بمعرفتنا صفحة ٢٣٥ ـ ٢٧٩ .

(٣) راجع نموذجا منها فى الجزء الأول من الكتاب الحالى صفحة ١٨٩ ـ ١٩٥ .

ديكنز Charles Dickens ، وجيروم Gerome ، وجاك لنـدن Jack London ، وآرثر كونان دويل A. Conan Doyle ، ووليـام ستيد William Stead ، ومارك توين Mark Twain ،وجورج برناردشـو George Bernard Shaw ، وجبران خليل جبران وغيرهم ، وهى كثيرة وموجـودة فى دور النشر الروحيـة بالخـارج ، تحت تصرف من يريد الحصو لعليها .

* * *

وأوضح مثل لذلك هو تلك الأشعار التى تتلقاها فى بلادنا السيدة الفاضلة حرم المرحوم الدكتور سلامة سعد من أكثر من شاعر منتقل . وعلى رأسهم أمير الشعراء أحمد شوقى (١٨٧٠ ــ ١٩٣٢) الذى أملاها وحده ما يقرب من عشرة آلاف بيت من الشعر المميز الجزل الرصين ، وروايتين شـعريتين كاملتين ، ونثرا فنيـا مميزا على غرار نثره المعروف فى كتاب « أسواق الذهب » وفى بعض مواضع من الشوقيات . وقد بدأ فى الاملاء منذ أكتوبر سنة ١٩٤٩ ولا يزال حتى الآن يواصل الاملاء (١) .

والوسيطة الفاضـلة لم تتجاوز فى تعليمها المرحلة الابتـدائية منذ سنة ١٩١٤ . وفحص هذا الشعر حتى الآن عشرون عالمـا من علماء الثقة فى شاعرية شوقى ، وانتهوا جميعهم الى صحة نسبة هذا الشعر ــ والنثر أيضا ــ الى الشخصية الفنية لأمير الشعر العربى مستندين الى أسـانيد يبيّنوها تفصيلا فى تقاريرهم التى دونوها بعناية وبحذر ، وبروح علميـة خالصة لوجه الأمانة العلمية وحدها .

ومن بين نخبة العلماء التى فحصت هذه الأشـعار بعناية ، وبروح علمية مدققة ، نجد :

---

(١) وذلك بالاضافة الى مراسلين عديدين آخرين منهم المرحوم الشاعر حفنى ناصف ، وبعض أفراد الأسرة الكريمة ومعارفها .

- المغفور له شاعر الشعراء الأستاذ عزيز أباظة باشا ابن شوقى البار، وعضو « المجمع القومى للغة العربية » ، ورئيس « المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية » .

- خمسة من عمداء وأساتذة الأدب العربى « بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة » وهى كلية اللغة والشعر . وهم السادة الدكاترة : ابراهيم أنيس ، وعلى الجندى ، وأحمد الشايب ، وأحمد الحوفى ، وبدوى طبانة .

- رئيس قسم الأدب العربى « بكلية الآداب بجامعة القاهرة » الأستاذ الدكتور شوقى ضيف .

- رئيس قسم الأدب العربى « بكلية الآداب بجامعة عين شمس » الأستاذ الدكتور ابراهيم عبد الرحمن .

- عميد « كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية » الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .

- مدير عام تفتيش اللغة العربية « بالجامعة الأزهرية » وأستاذ علم العروض بها فضيلة الأستاذ الشيخ حسن النجار .

- رئيس « قسم الشريعة الاسلامية » بجامعة عين شمس فضيلة الشيخ محمد زكريا البرديسى الشاعر والعلامة المعروف .

- رئيس قسم اللغة العربية « بالمعهد العالى للمعلمات » الأستاذ الشاعر حنفى عبد الله الحنفى .

- رئيس « رابطة الأدب الحديث » بالقاهرة الناقد المعروف الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى .

- صفوة معروفة من كبار الشعراء ، وجلهم فى نفس الوقت أعضاء بلجنة الشعر « بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية» ، وهم السادة الأساتذة : أحمد عبد المجيد فريد ، ومحمد مصطفى الماحى ،

وكامل نخلة ، والعوضى الوكيل ، وطاهر الجبلاوى ، وخليـل جرجس ، وعادل الغضبان .

وهكذا بلغ عدد الفاحصين عشرين من علماء وشعراء القمة ، وكانت نتائج فحوصهم — جميعا — ايجابية وحاسمة بعد دراسات متعمقة تماما ومتأنى فيها (١) ... فماذا يريد الناس أكثر من ذلك للاقتناع بصحة دوام الشخصية الانسانية بعد الموت ، ولقيام صـلات راقية فى أحيان عديدة بين عالمى الغيب والشهادة ؟ !

* * *

ومما هو جدير بالذكر أنه بعد انتقـال المغفور له عزيز باشا أباظة الى دار الخلد أملاها بدوره قصيدة رائعة قال فى مطلعها :

بعثتُ أغـاريد النظيم ترنمـا ورحيق شـعرى للمنـادم قـدّما
غـدت سويعات الهوى رقراقـة لترد عن روحى التلهف والظمـا
فبرجعـة الوعى الشـفيف مناجيـا شـغف الأحبـة كى يحق وبحكما
جئـت المحبب من بديـع المنتقى لأعيذ من لغو عسى أن أرحمـا (٢)
وروائع العليـا أضـفت بارقـا مما ارتضى الرحمـن كى لا أهزما
لتصير أوضـاع الهـدى لمـاحة تهب الدراية من هفـا وتعلمـا
فتذرعوا بالصـبر أنّى استروحت(٣) روحى بجنـات الخـلود لتنعمـا
ورأيت ما دونَ النعيـم بلمحـة وهجا يهـادنُ من غفـا وتوهما (٤)

---

(١) للمزيد عنها راجع كتـاب « عروس فرعون وشوقيات جـديدة مملاة من عالم الغيب » تجـد به طائفة كبيرة من الأشعار المملاة مع سبعة عشرة تقـريرا من العلمـاء الفـاحصين ، وبعـد طباعتـه تلقيت ثلاثة تقارير لاحقة . ثم نشرت نصوص جميع التقارير فى « مفصل الانسان روح لا جسد » جـ ٢ ، ٣ .

(٢) أرحم أنا من يكابر فى الحقيقة .

(٣) استروحت : وجدت الراحة .

(٤) والقصـيدة منشورة برمتهـا فى كتاب « الاتصـال بين عالمين » صفحة ٢٩٤ — ٢٩٨ وهى مكونة من اثنين وثمانين بيتا .

وهكذا جرت هذه القصيدة الرائعة فى صورة رسالة حنان وحب واقناع منه الى احدى قريباته التى طلبت هذه الرسالة الشعرية من السيدة الوسيطة فى شهر مايو من سنة ١٩٧٦عقب محاضرة علمية بشأن « الظواهر الروحية » ألقيتها بأحد نوادى القاهرة ، وكان عزيز باشا قد انتقل الى رحمة الله فى يوم ١١ يولية سنة ١٩٧٣ ، وكانت السيدة الوسيطة موجودة فى المحاضرة •

وبعد حوالى أسبوعين من هذا الطلب كانت القصيدة برمتها قد أمليت عليها فجاءت نابضة بالحياة ، وبالخصائص الشعرية الرفيعة التى تميز شعر عزيز أباظة ، والتى لا تعلم السيدة الوسيطة منها شيئا بالمرة ، لأنها مقطوعة الصلة تماما بالشعر وبالنثر أيضا •

وقد فحص هذه القصيدة الأخيرة الأستاذ خليل جرجس خليل — الشاعر والأديب الكبير — رئيس تحرير مجلة « صوت الشرق » الغراء وعضو نجنة الشعر « بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية » (١) ، وعضو اتحاد الكتاب •

وبعد دراسة هادئة متروى فيها لكل بيت من أبياتها تفضل فكتب مشكورا تقريرا مسببا فى ثمانى صفحات بنتيجة دراسته،وقد ورد فى هذا التقرير ما يلى : —

« اننى أرى دلائل واضحة على نسبة هذا الشعر الى قائله على الرغم من انتقاله من هذا العالم • واذ اشتملت هذه الدلائل على السمات اللغوية والأسلوبية التى تميز بها شعر الشاعر أمكننا أن نسلم بأن قائله مازال ينعم بالحياة فى عالم الخلود ، ويستطيع أن يمارس الحياة المألوفة بكامل وعيه • وفى هذا كسب كبير لطالبى الحقيقية ، وكشف لأسرار نحن دائما الى معرفتها والتيقن منها ، لأنها ستكون مصدر طمأنينة لكل انسان يفكر فى مرحلة الانتقال من هذا العالم الى مرحلة محجوبة عنه » •••

(١) أصبح اسمه الآن « المجلس الأعلى للثقافة » .

وبعد تحليل فنى دقيق ــ لكل بيت من أبياتها على حدة ــ يقول صاحب التقرير « واضح اذن أن القصيدة ذات مضمون متماسك ووحدة عضوية مترابطة وموضوع على جانب كبير من الأهمية . واذا كان هذا هو المحتوى ، بالصورة التى استعرضناها ، وهو أخطر وجهى خصائصها ، فان الوجه الآخر وهو الغالب أو الاطار أو الشكل ذو خصائص تشهد بأصالة هذا الشعر ، واقتدار صاحبه الذى عرف به فى حياته .

فأولا القصيدة منظومة بالقالب التقليدى العمودى الذى لا يسلس لكل الشعراء ، وليس فيه شطرة خارجة على الميزان الشعرى ، أو نفظة غير صحيحة ، أو جملة مخالفة لقواعد اللغة .

وثانيا هى قصيدة من النفس الطويل الذى لا يستطيعه الآن كثيرون ... فغالبية الشعراء أصبحت الآن تقف عند حدود الثلاثين والأربعين بيتا . أما القصيدة من وزن الكامل التى تمتد الى اثنين وثمانين بيتا فهى مرهقة ، ولا يسلم صاحبها من التعرض للضعف أو القوافى القلقة . وذلك فضلا عن جزالةالصياغة التى عرف بها الشاعر فى قصائده ومسرحياته الشعرية ....

واذا تركنا هذا ونظرنا فى ملابسات قول هذا الشعر فاننا نجد أن الذى تلقى هذه القصيدة ليس الا سيدة طيبة السمعة وزوجة طبيب فاضل ، ولم تصب حظا كافيا من علوم اللغة ، ولم تحصل على غير الشهادة الابتدائية . ولو كانت تستطيع تأليف هذا الشعر الرصين لكان من مصلحتها أن تنسبه لنفسها ، وتشتهر هى به ، وتصبح فى عداد الشعراء المرموقين ، وخاصة بعد أن حظيت أيضا بأشعار أحمد شوقى الجديدة الكثيرة ، وبمسرحية شعرية أملاها عليها باسم « عروس فرعون » .

وألاحظ أيضا مما يلفت النظر الى هذه القصيدة ويضيف الى خصائصها ــ التى تدل على قائلها الأصيل ــ أن الأبيات توافرت لها

الألفاظ الشعرية • أى تلك الألفاظ التى ينفرد بها قاموس الشاعر ، كما يقول أولو العلم • وبالذات نجد هنا قاموس الشـعر الخاص بالمغفور له عزيز أباظة ، ومن ذلك على سبيل المثال : ـ

رقرافة(١) ، نزعات قلبى(٢) ، صلف الزمان(٣) ، لفينة(٤) ، لآونة(٥) ، وتناهت(٦) ، تخـذتها(٧) ، جمان(٨) ، غام مفرعا(٩) ، نياط القلب(١٠) ، سامق (١١) ، رغائب (١٢) ••••

وهـذا التقرير القيم مؤرخ ٢٣ أبريل ١٩٨١ ، وهو بذاته يغنى عن المزيد من الافاضة فى هـذا الشـأن الآن ، لأن المقـام لا يتسع لأكثر منـه(١٣) •

صـلة اللاشـعور بالتصـوف

هذا عن صلة اللاشـعور بالاستشفاف خصوصا منـه الاستشفاف السمعى • أما عن صلة اللاشعور بالتصوف فلعلها أعمق منها ، وأجـدر بالأناة ويمكن القول بأنه قد حدث تحول واضح بشأن النظرة الى التصوف الراقى فى ضـوء « علـم النفس التحليلى » ، وفى ضـوء أبحـاث الباراسيكولوجى بوجه عام • اذ كان علم النفس فى المفهـوم الفرويدى يتجاهل التصوف تماما •• وبالتالى الالهام أو الحـدس ـ فى كل صيغه الراقية وغير الراقية ، أو ينظر اليه بوصفه نشاطا شاذا للشعور الانسانى •

أما الآن فقد تبدلت هذه النظرة الى حد كبير ، وأصبح علم النفس

---

(١) بيت ٢ (٢) بيت ١٠ (٣) بيت ١٢ (٤) بيت ١٣
(٥) بيت ١٤ (٦) بيت ١٨ (٧) بيت ١٨ (٨) بيت ٣٩
(٩) بيت ٤٢ (١٠) بيت ٤٤ (١١) بيت ٥٨ (١٢) بيت ٧٨

(١٣) راجع النص الكامل لهـذا التقرير فى مجلة « الثقـافة » التى تصـدرها « الهيئة العـامة للكتاب » بوزارة الثقـافة عـدد يونية ١٩٨١ صفحة ٨٩ ـ ٩٢ .

وراجع ما ورد عن هذا الموضوع بقلم نقيب الصحافة الأستاذ حافظ محمود بجريدة الجمهورية عدد ١٣ نوفمبر ١٩٨٠ ، وبقلم الأستاذ مأمون غريب بمجلة آخر ساعة عدد ٢٧ مايو ١٩٨١ صفحة ١٨ .

المعاصر ينفر الى التصوف الراقى بوصفه نشاطا سويا للشعور وللاشعور ولا يكون التصوف راقيا مالم يكن نابعا - ولو على قدر ما وعلى نحو ما - عن انكار حقيقى للذات ، وترفع جاد عن متع الدنيا الباطلة ، مع رفض الشعوذة والخرافة ، مع التفتح الذهنى ، مع ضبط النفس ، مع الاتزان والتعقل ، مع القدرة على تركيز العقل والتأمل ، مع حب بنى البشر أجمعين ، وتأصل النظرة العادلة للأمور .....

فهو عندئذ قد يصبح مصدرا للخلوة النقية مع الذات ، ومنفذا الى يقظة الوجدان ونشاط العقل الفعال فى الانسان ، فى الاستماع الى صوت الصمت ، أو الى نداء الالهام بحسب الأحوال . وبدون تعطل صوت الاستدلال الواعى الذى قد لا يكفى وحده مالم يكن مصحوبا بالالهام الصادق .

وهنا لا ينبغى أن يفوتنا تسجيل ما لاحظه كلود برنار Claude Bernard - أب الفسيولوجيا المعاصرة - عندما قال ان « ان سيادة العقلانية المطلقة تؤدى الى سيادة العقل وموت القلب ! » .

ولعل هذا هو ما لاحظه هنرى بوانكاريه Henry Poincaré (١) ، عندما قال « ان المنطق يظهر الأمور ، أما الالهام فهو الذى يكتشفها ... ولذا فالمنطق وحده لا يكفى ، ويلزم أن يحتفظ الالهام بدوره بوصفه مكملا للمنطق ، أو مقابلا ، أو ترياقا له » .

ولقد أفاض فى ذلك كثيرا الملهم والفيلسوف السويسرى الذائع الصيت رودلف شتاينر R. Steiner (٢) ، كما عنّ له أن يتناول التجربة

---

(١) فيلسوف رياضى فرنسى (١٨٥٤ - ١٩١٢) يعد من أعلام الرياضيين فى القرن الحالى . من مؤلفاته « العلم والافتراض » Science et Hypothèse ، و « قيمة العلم » Valeur de la Science
وينظر اليه عدد من الرياضيين بوصفه واضعا حجر الأساس فى نظرية النسبية التى تبناها بعده ألبرت أينشتين A. Einstein ، وأعطاها عدة تطبيقات جديدة انتهت الى تحطيم الذرة .

(٢) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول صفحة ٤٧٧ ، ٤٧٨ هامش (١) .

الصوفية ، ودور التصوف الروحى الراقى فى تحقيق ارتقاء الذات ، اذا ما اختارت الذات طريق الحب ، والاعتكاف ، وترويض الشهوات ، وبعض التدريبات الروحية الشاقة ، توصلا الى الدخول فى حياة الروح ومعرفة عالم آخر أسمى من عالمنا بكثير Initiation عن طريق الارتباط المستنير بتعاليم الغيب .

فمن يحيا فى عالم الحواس فحسب ، تصبح روحه خامدة بداخله كما يقول شتاينر . أما من يدرك الصفة المخادعة لعالم الحواس ، فهو يكتشف روحه كما لو كانت حقيقة قد تكشفت له بداخله . ومن يحصل على هذه الرؤية الداخلية يكون قد نمَّى جسما جديدا ، ويشعر أن حدثا ضخما قد جرى له ، كأنه كان نباتا ذا أوراق خضراء فقط ، لكنه الآن أصبح يحمل زهورا ذا تألوان . فالطاقات الروحية القدسية خامدة فى الانسان المادى ، لكنها حقيقة جلية عند المتصوف ، ومن هنا يجىء التحول الكلى الذى يجرى فى حياته(١) .

* * *

ويعتقد شتاينر أنه توجد بداخل كل انسان ملكات خامدة يمكنه أن يصل عن طريقها الى معرفة العوالم العليا .. ولقد تحدث المتصوف ، والغنطوسى Gnostic والثيوصوفى Théosophe عن عالم للنفوس والأرواح حقيقى بالنسبة له بمقدار حقية الأشياء التى نشاهدها بأعيننا أو نلمسها بأيدينا .

---

(١) من أجمل مؤلفات شتاينر فى هذا الشأن : —

L'Initation ou la Connaissance des Mondes Supérieurs. trad. fr. par Jules Sauerwein Paris 1918.

وكلمة initiation تعنى طلب مشاركة شخص آخر فى الاطلاع على سر أو فى حل مشكلة . وفى مقام التصوف mysticisme تعنى طلب التوجيه والارشاد من معلم غيبى متطور عريق .

وطالب الارشاد يطلق عليه وصف التلميذ disciple ، فاذا وصل اليه فعلا يطلق عليه وصف الملهم initié بمفهوم الانسان الخاضع للارشاد الروحى أو التوجيه ، من معلم روحى معلوم أو مجهول . وغالبية المعلمين الروحيين لا تفصح عن شخصياتها السابقة ، بل تدع « للتلميذ » أن يحكم بنفسه على قيمة ما يتلقاه من ارشاد فى خلوته الصوفية .

واذا كنا نعمد الى تجربة التأمل الهادىء فبمقدورنا التعرف على هذه العوالم بشرط أن نطرد من وجداننا كل ما ينطوى عليه من نقد للآخرين ومن ادانة ، ومن لوم ازاء الكون والحياة . وكل لحظة تتمكن فيها من ذلك تقربنا من المعرفة الروحية .

ويمكن أن تتقدم سراعا اذا كنا فى تلك اللحظات نملأ أنفسنا بمشاعر الاعجاب والتقدير نحو الكائنات ونحو الأشياء ، ونحو الأشخاص . وأولئك الذين اختبروا هذه الأمور يعلمون جيدا أنه فى تلك اللحظات تستيقظ الطاقات الخامدة فى الروح الانسانية . ويتفتح البصر الروحى فيدرك أشياء هيهات أن يدركها فى الوقت العادى .

وعندئذ فان الأشخاص الذين يعرفهم سوف يظهرون له فى شكل جديد . ويتوقف ذلك على التدريب والخضوع لنظام التأمل(١) . وللارتفاع الى هذا المستوى يلزم أن يكون الانسان قد طور فى نفسه بحماس مشاعر التفانى والاخلاص .

ومن يرغب فى ارتياد هذا الطريق يجب أن يرتاده بلا صخب ، وبدون علم من أحد ، فلا يلاحظ عليه أى انسان حدوث تغير خارجى . وعليه أن يؤدى جميع واجباته كما كان يفعل من قبل ، ويباشر جميع مهامه . ويجرى عندئذ تغير صامت فى روحه فقط ، بعيدا عن الأنظار . وأول آثار هذا التغيير ، أن قرار التفانى والاخلاص يشرق فى كل حياته العاطفية ، ويصبح هو المكوِّن لمركز حياته الداخلية . وكما أن الشمس تحيى بأشعتها جميع الكائنات الحية فان شعور التفانى يحيى فى طالب التصوف جميع المشاعر النقية .

وبمشقة بالغة يمكن للانسان أن يصدق أن المشاعر النقية ، مثل احترام الآخرين وتقديرهم ، يمكن أن تكون ذات صلة بملكة المعرفة .

---

(١) راجع ما سبق عن الاحساس بالمجهول وعن التأمل فى الجزء الأول صفحة ٤٦٩ - ٤٩٦ .

وهذا اللبس مصدره هو أن الانسان يميل بوجه عام الى أن يعتبر المعرفة ملكة قائمة بذاتها مستقلة عن كل العناصر الأخرى للحياة الداخلية •

وقد لا يتصور الانسان أنه فى الروح تقيم ملكة المعرفة هذه ، وأن المشاعر تؤدى للروح نفس الوظائف التى يؤديها الطعام للجسم • فاذا قدمنا للجسم حجرا لا خبزا ، فان نشاطه ينتهى • كذلك الشأن أيضا بالنسبة للروح : فان الاحترام ، والتقدير ، والاخلاص هى العصارات التى تغذى الروح ، وتجعلها صحيحة وقوية ، بل قوية قبل كل شىء آخر فى ملكة المعرفة • وعلى العكس من ذلك فان التجاهل ، والنفور ، واحتقار الأشياء الجديرة بالاحترام كفيل بأن يشل قدرات الانسان على المعرفة ويفصلها عنه ••••

* * *

وآثار الاخلاص للآخرين تصبح أوفر نشاطا مما كانت اذا أضيف اليها شعور ينتمى الى نظام آخر ، وهو عدم انغماس الانسان كثيرا فى انطباعات العالم الخارجى ، بل بالعكس المطلوب منه هو أن ينمى فى ذاته حياة داخلية أوفر نشاطا مما كانت •

فالانسان الذى يجرى دواما وراء البحث عن انفعالات متجددة ، وعن وسائل للتسلية ، لن يكون بمقدوره أن يعرف السبيل الى الاتصال بالعوالم الأسمى • وليس المطلوب من طالب الاتصال أن يصبح جامدا ازاء العالم الخارجى ، لكن ينبغى أن يمنح التفوق لحياته الداخلية ، التى يلزم أن تكون هى المرشد له عندما يمارس الانفعالات الخارجية •••••

ويلزمه أن يرتبط بادخار لحظات للسكينة وللوحدة حتى يغرق فى التفكير • وهذه اللحظات ليست مخصصة لأعماله الخاصة ، والا فسوف يصل الى نتيجة عكسية • وعليه فى تأملاته أن يدع صدى صوت اختباراته الماضية ، وانطباعاته التى تلقاها من عالمه الخارجى ، يتردد بحرية بداخله ••••

ان طالب الالهام أو الارشاد من العوالم الأسمى يعتبر أن متع الحياة الدنيا ليست أكثر من وسيلة للترفع هادفة لارتقاء العالم ، والتنعم بالنسبة له بمثابة معلّم يتلقى منه العلم ، وبعدئذ يسير نحو الأمام فى طريق التقدم ، ناعما بالعمل • وهو لا يتعلم لكى يكدّس معلوماته كما يكدس الانسان كنزا ، بل لكى يضع معلوماته فى خدمة العالم •

فللارشاد الصوفى مبدأ معروف يقضى بأن كل معرفة يبحث عنها الانسان بهدف زيادة معلوماته الخاصة واثرائها تبعد به عن الطريق • أما كل معرفة يبحث عنها لانجاز عمل مفيد للانسانية ولتطور العالم فهى تخطو به خطوة نحو الأمام • وهذا المبدأ يعبّر عنه بالقاعدة الآتية « كل فكرة لا تصبح هدفا أعلى لك تقتل فى نفسك طاقة موجودة ، وكل فكرة تصبح لديك هدفا أعلى تنشط فيك طاقة حية »(١) •

عن صلة التصوف بالحالة النفسية

وفى نفس هذا الاتجاه يقول روح مراسل ذو سمعة ضخمة فى الأوساط المعنية بالبحث الروحى — وهو يرمز لنفسه باسم هوايت ايجل

---

(١) عن شتاينر . المرجع السابق صفحة ٢٣ — ٢٩
ومن مؤلفات شتاينر التى ترجمت الى اللغة الانكليزية والتى تناولت بعض جوانب من فلسفته العميقة فى « حكمة الانسان » بوجه عام ، وهو رائدها الأول ، والارشاد الصوفى بوجه خاص : —

An Outline of Occult Science.
Philosophy of Spiritual Activity.
Way of Initiation and its Results.
Gates of Knowledge.
Mystics of the Renaissance.
A Road to Self — Knowledge and the Threshold of the Spiritual World.
East in the Light of the West.
Fruits of Anthroposophy.

وذلك بالاضافة الى مؤلفاته الأخرى المشار اليها فى هامش صفحتى ٤٧٧ ، ٤٧٨ من الجزء الأول ، وهى من تلك التى ترجمت الى الفرنسية ، أما انتاجه الأصلى فهو بالألمانية ، وقد ترجم الى غالبية اللغات الحية . وله دار نشر خاصة تحمل اسمه .

White Eagle (أى النسر الأبيض)(١)ــ ان أول شروط الدخول فى اتصال مع « العــالم الأسمى » initiation سيطرة الانسان على انفعــالاته • فالسيطرة على الغضب والخوف تمثل واحــدة من أولى مراحــل هــذا الاتصال • والسيطرة لا تكون بالقهر بل بالتسامى بهذه الانفعالات التى يمكن لوسيط الجلاء البصرى أن يشاهد آثارها وهى تنبعث من الهــالة كما لو كانت ألسنة من نار(٢) •

وجميع الانفعالات الزائدة بمقــدور الانسان أن يسيطر عليها عن طريق القبس الالهى الكائن بداخله ، ويحولهــا الى اتجاه آخر • وكل انفعال ثائر يمكن أن يؤذى صاحبه ويدمره ، مالم يحدث تحويل رأسى له الى اتجاه الحب • وعندئذ يصبح بمقدوره أن يعالج ، وأن يبارك ، وأن يخفف من أثقال العالم ، ويسطع فى وسط الظلام بوصفه قبسا من ضوء أبيض ناصع •

ولا شىء بمقدوره أن يولّد رد فعل قاس على الجسم الفيزيقى أكثر من الانفعال العنيف • وليس بمقدوركم أن تدركوا هذا الانفعال بوصفه ســببا فعليــا للمرض اللاحق ، الذى تنســبونه الى مصــدر فيزيقى • أما المتطلع للاتصال بالعالم الأسمى فيلزم أن يعد نفســه لكى يعرف أن الانفعالات التى قد تؤذى الأجساد الرقيقة للانســان بمقدورها أيضا أن تسبب مرضا خفيفا أو جسيما •

لذا فان سيطرة الانسان على جسم انفعالاته (الاشارة الى الجســم الأثيرى أو العقلى •••• بحسب الأحوال) وتحويل انفعالاته الســفلى الى انفعالات عليا من المحقق أن يحدث تأثيره فى الصحة • والنفس التى

(١) وهو فى نفس الوقت روح معالج ذائع الصيت ، تعمل باسمه فى بريطانيا وحدها ثلاث وستون دائرة علاجية . أما عن كتبه فهى تصدر عن دار نشر متخصصة عنوانها كالآتى : ــ

The White Eagle Publishing Trust.
Liss. Hampshire. England.

(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول عن الهالة صفحة ٢٦٨ ــ ٢٨٥ .

تحيا ملاصقة للقبس الالهى فى الانسان (روحه) تحصـــل فى المعتاد على جسد متناسق وصحيح •

ثم يقول هوايت ايجل انه ليس بمقدور أى انسان ، ســواء أكان فى الجسد أم خارجه ، أن يدين انسانا آخر • فلذا لا يجرؤ متصوف على ادانة أى انسان ، لكنه بكل بساطة يمنح رأسا الحب والعلاج ، من هالته الخاصة الى من يعنيه أمره بدون نقد ولا استجواب • فهو يعرف جيدا أن كل ما يملكه أى كائن انسانى هو أن يتطور خطوة فخطوة متعلما من المحن والأخطاء ، حاصــلا بالتدريج على الحكمــة ، وضـبط الذات ، واستضاءة الروح •

وحتى عندئذ ـــ ورغم أن الذات قد تبــدو بالأكثر متكاملة ـــ فانه لابد أن يتبقى لها جانب من انتفاء التناسق ، قد يعبر عن نفسه فى صــورة مرض بالجسم قد يكون خفيفا ، ولايزول الا عند العودة الى التناسق(١)•

فعلى كل نفس أن تتقبل بهدوء تام وفى سكينة كل ما يحدث فى حياتها عالمة أن كل ما يجرى لها اما حصــيلة اخفاق سابق ، واما اعداد لانجاز

---

(١) فلســفة التناسق تقع فى الأساس من المذاهب الروحيــة بوجه عام . وهى ـــ فى ايجــاز شــديد ـــ تعنى الغــاء جميع الحواجز الصناعية القائمة بين العلم والفلسفة واللاهوت من جانب أول .

وتعنى من جانب ثان محاولة تحقيق التناسق بين عناصر الانسان ، وخصائص النفس الانسانية ، وفى النهاية الوصــول الى تحقيق التناسق والاتحاد بين المصالح الاجتماعية التى قد تبدو متعارضة فيما بينها .

وتعتبر مؤلفات الوسيط الأمريكى المعروف أندرو جاكســون دافيز Andrew Jackson Davis (١٨٢٦ ـــ ١٩١٠) من أقيم ما كتب فى فلسفة التناسق ، خصوصا كتابه « التناسق العظيم » The Great Harmonia (١٨٥٢) فى خمسة أجزاء . راجع عن هــذه الفلسفة الكتابين الآتيين : ـــ

W. H. Evans : Twelve Lectures on the Harmonial Philosoply of A. J. Davis. London 1924.

Ernest Thompson : Spiritualism in the Evolution of Philosiphy and Religion. London 1950.

وللمزيد عن أندرو جاكســون دافيز راجع « مفصــل الانسان روح لا جسد » جـ ١ صفحة ٢٢٤ ـــ ٢٢٦ .

لاحق . وأن كل ما يجرى يجرى للخير . وقد نكره حدثا معينا ونصرخ قائلين ان هذا الحدث سوف يحطمنا ! ! كيف يبعث اله المحبة الينا بهذه الاختبارات الأليمة ؟ !

لكن محبة الله أعظم من كل تصوراتنا الانسانية العاجزة عن الحب . والله يبعث بهذه الأحداث الأليمة الى حياة الانسان حتى يهب النفس فرصة لكى تقوى نفسها ، ولكى تدرب نفسها على أن تواجه جميع الاختبارات بسكينة ، وبدون أن تشك فى أن كل ما يحدث انما يحدث لخيرها المستقبل ...

ثم ما هى التوبة ؟ هل هى أن يقول الانسان لنفسه كم أنا آسف لما حدث ! ! ولن يتكرر هذا منى ثانية ، ثم سرعان ما يتكرر من جديد نفس الشىء بالضبط ؟ كلا ان التوبة تعنى بذل جهد حقيقى ، وتصميم جاد من الانسان على أن يغير نفسه بنفسه ، وألا يعود من جديد فيفقد الرؤية الصادقة .

ولذا فبمقدورنا أن نقول ان الخطيئة هى فشل الانسان فى أن يتجه الى الحقيقة رأسا . فمن تزوغ عيناه فى أثناء القيادة فى أخدود من المحال أن يصل الى هدفه المقصود . وهذا ينتمى أيضا الى تصرفاتنا الخاصة ، وبوجه خاص الى ماهية صلاتنا باخوتنا فى الانسانية . فنحن نأثم عندما نفشل فى أن نقود حياتنا رأسا الى الهدف منها .

وقد يحتج أحد الأشخاص قائلا : اننى عشت دائما حياة نقية ، فكيف يقال لى انك آثم ؟ والجواب هو أنه فى كل مرة لا تحيا النفس حياة الحقيقة النابعة من أعماق ذاتها فهى آثمة . وبعض خطايا الجسد قد لا نعتبرها خطايا على الاطلاق ، لأن الخطيئة هى فشل النفس فى أن تحيا فى الحقيقة ، وأن تلتزم بالصدق فى الفكر ، وفى الكلمة ، وفى الفعل .

والالتزام بالصدق أمر صعب لكن مع ذلك فان النفس التى تفشل فى أن تكون صادقة نفس آثمة بالخطيئة • وهكذا نبدأ نرى كيف أن الكثيرين منا خطاة بسبب ضعفهم وخمولهم •

وكل متطلع للاتصال بالعالم الأسمى يفشل فى تحقيق غرضه المرتبط بمدى اخلاصه وطاقته•فاذا كان لا يرتاد طريق الاتصال بلهفة ، فانه سوف يفشل فى التقدم • لكنه عندما يكون صادقا مع نفسه لا يكون الفشل من نصيبه طالما ظل يبحث عن حقائق الروح ، وظل يتعلم كيف يروّض نفسه على الخضوع للنظام • وعندما يتعلم كيف يكون متزنا ، وساكنا ، وهادئا ، فانه سوف يستمع فى النهاية الى الصوت الداخلى • وبقدر ما تتعلم النفس كيف تسيطر على انفعالاتها الصاخبة ، وكيف تحيا فى اطمئنان ، وفى جود ، وفى حب فان جسدها المادى الذى يحتويها سوف يحصل فى الوقت المناسب على الصحة التامة (١) •

* * *

ثم يقول هوايت ايجل : حاول ألا تفكر باحساس مضى الأيام أو الأسابيع أو الأعوام ، أو بمضى أية فترة من الوقت ، بل فكر بالأكثر باحساس وجود عدة تجسدات لك ، لأن طريق الروح محقق ، وبطىء ، وغامض • والاختبارات قد تستمر طويلا ، لأن النفس يلزمها أن تصبح واثقة من نفسها تماما ، وثابتة تماما تحت الضوء المنبعث من الروح •

فعلى النفس أن تتطلع باستمرار نحو داخلها الخاص لكى تشاهد قوة روحها الداخلية ، هذا القبس الالهى فيها • وعند كل مفترق الطرق ، وازاء كل صعوبة ومشكلة تواجهها ، تتعلم النفس كيف تهرول متجهة نحو هذا الضوء الداخلى ••••

---

(١) White Eagle : The Path of the Soul. London 1975 p. 13 — 15 & 20 — 22.

وراجع عن التصوف الراقى بوجه عام :

Hugh Sherman : An Approach to the Occult. 1959.

Walter T. Stace : The Teachings of the Mystics. 1960.

Cyril Scott : An Outline of Modern Occultism 1974.

ولو تكشفت السماء أمام بصرك ذات مرة ولو للحظة واحدة ، واستمعت الى صوت الروح ، فانك ستفهم ما أقوله الآن • والاعجاب بالسماء سوف يكون ضخما الى حد أن أناسا كثيرين سوف يحتجون. ويقول كل منهم : « اذا لماذا يتعين عليَّ أن أظل حبيسا فى هذا الجسد البالى ؟ ! اننى أتمنى لو أمكننى أن أتحرر منه للأبد » غير مدركين أنهم حتى لو تحقق لهم التحرر فلن تكون غبطتهم كاملة مع ذلك • فانهم بعيدون عنها ، لأن كل ما فى عالم الروح لا يشل مجدا كاملا ، ما لم يشرق الضوء من داخل النفس أولا •

فكل شيء سوف يتوقف على نوعية الروح ، وعلى تصرفاتها فى أيامها الراهنة عندما تواجه ظروفا تبدو ثقيلة الحمل جدا عليها ، أو عندما يختبرها الشيطان الذى معناه كوكب زحل saturn وهو الكوكب الذى يجلب القيود على النفس (١) • ومع ذلك فيجب أن تحمدوا تأثير زحل لأنه خلال القيود والأرزاء تنمو النفس فى القوة والثراء (٢) •

وهذا الالهام أو الارشاد من العوالم الأسمى يتنافر تماما مع الفلسفة المادية للوجود ، ولا يلتئم الا مع الفلسفة الروحية • وليس له أى صدى فى علم النفس التقليدى كما قلت لكن فى أغلب مدارس الباراسيكولوجى له صوت واضح وصدى مسموع •

وقد تبنى هنرى برجسون الدفاع عن قضيته تحت وصف « فلسفة الحدس » Intuition جاعلا من الحدس ركيزة أساسية فى فلسفته

---

(١) هناك أرواح كثيرة — غير هوايت ايجل — تعتقد بوجود تأثير للكواكب فى الظروف التى قد يمر بها الانسان ، وان هناك تضامنا بين الأحداث التى تجرى فى كل أرجاء الفضاء .

وهذا هو أساس علم التنجيم Astrology المعروف منذ القدم . ووجود علم خاص للتنجيم ليس معناه صدق كل منجم ، أو صحة كل قاعدة فيه ، فهذا موضوع وذاك موضوع آخر . ولذا فالأصل فى التنجيم انه يمثل محض رجم خاطىء بالغيب وهذا يلتئم تماما مع الحديث الشريف « كذب المنجمون ولو صدقوا » . ويراعى ايضا أن علم التنجيم غير علم الفلك Astronomy الذى يعنى بدراسة الأفلاك والكواكب والنجوم .

(٢) عن هوايت ايجل . المرجع السابق صفحة ٢٩ — ٣٠ .

الروحية الشامخة عن علاقة الانسان بالكون • وكتب برجسون فى هذه الفلسفة بعمق ، وبأصالة فريدة فى نوعها ، حتى ارتبطت باسمه ارتباطا وثيقا ، ووضع فيها ثلاثة من أجمل مؤلفاته وهى « الحدس والميتافيزياء »، و « التصوف والحب الالهى » ، و « منبعا الأخلاق والدين »[1] •

الاختبار الصوفى بحسب جورج راسل

ويربط جورج وليام راسل George W. Russell (١٨٦٧-١٩٣٥) بين اللاشعور ، والعودة للتجسد ، والالهام • وراسل هذا ايرلندى الجنسية ومعتبر واحدا من أعظم العباقرة فى الأدب والشعر • كما هو متصوف من أعلام المتصوفين فى القرن العشرين •

والمتصوفون بوجه عام - سواء فى الغرب أم فى الشرق - ذوو مواجيد روحية مشتركة : منها غير رغبة الاندماج فى العوالم الأسمى والاتجاه الى القدرة الخالقة ، الاحساس الدفين بعقيدة العودة للتجسد وبدورها فى تنمية اللاشعور وبالتالى فى تقوية جهاز الالهام الروحى عند الانسان ، وتنقيته من الشوائب ، حتى يؤدى دوره الفعال فى تحقيق الاتحاد بالعالم الأسمى •

وهذا هو نفس ما كان ينادى به - من قبل - أعظم فلاسفة اليونان: مثل فيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وأفلوطين ممن كانوا ذوى مواجيد روحية متأصلة ، وكانوا بالتالى فيما يبدو من دراسة حياتهم يتلقون الهاما خارجيا - داخليا فى نفس الوقت •

ويقول جورج راسل انه من خلال بعض تأملات نحو الوراء أصبح بمقدوره أن يحوز نظرات مباشرة داخلية الى الأحداث الهامة التى جرت

---

(١) راجع فى فلسفة برجسون مؤلفا باسمه للدكتور زكريا ابراهيم ، و « تاريخ الفلسفة الحديثة » للدكتور يوسف كرم ، والترجمة العربية لكتاب « منبعا الأخلاق والدين » بمعرفة الدكتورين سامى الدروبى وعبد الله عبد الدائم (١٩٧١) •

فى طفولته ، والتى خلقت تطلعاته ، وميوله التى سادت بعد ذلك فى مجرى حياته اللاحقة .

وهو يعتبر هذه الأحداث الخارجية بمثابة منبهات لملكات خامدة ، ولامكانيات موجودة فى الروح من قبل ، وتحاول أن تعاود تجسدها فى جسد جديد . وقد تبين له صدق ذلك فى شعره ونثره على حد سواء ... وهو يقول ان الروح عند أول تلامس بالجسد تجدد حبا قديما . وتكمن فى هذا التلامس — مهما كان رقيقا — كل الرغبات التى عادت بهـا الى التجسد فى العالم . والأحداث الخارجية التى تمر بالطفولة تحدد على نطاق واسع أيا من هذه المواهب الخامدة سوف يستيقظ فيما بعد .

وكان راسل يشعر فى صباه بميل للوحدة كامن فيه . وبسبب هـذا الميل ما كان بمقدوره أن يقنع بالمشاغل العادية للشباب ، ويصف هـذا الشعور قائلا « ان شيئا من هذه العراقة الداخلية للروح اشتبك بالغلام وبدأ يعزلنى عن آراء أولئك الأشخاص المحيطين بى » .

ولازمه هذا الشعور بحب العزلة الى شيخوخته فوصفه عندما كان فى الرابعة والستين قائلا « اننى لا أرى انسانا ، ولا أقرأ شـيئا ، وآكل خبزا جافا ، وأشرب لبنا صافيا ، وأجلس بجوار نار مشتعلة ، وأسير فوق التلال والرمال ، وأحاول أن أخلى عقلى من المشاغل ، حتى تدلف اليه أمى الأرض وتحادثنى قليلا . فقد عودتنى أن تتنفس بداخلى ، ولدى آمال أن تنشد أنشودة جديدة خلالى » .

وصرح راسل بأن ومضات مبعثرة من حيواته السـابقة قد أزيح النقاب عنها فى بعض خلواته الصوفية . فشعر أنه قد سبق له التجسد فى أيام الدرويد فى أيرلندا ، ومرة فى أسبانيا ، ومرة فى مصر ، ومرة بعيدة جدا فى الهند . وقام « بسياحات داخلية » نحو هذا المـاضى السحيق ، وذلك عندما فتحت نافذة بصيرته الداخلية ، وبسبب هذه البصيرة جاءه الالهام الشعرى .

وتحــدث جورج راسل عن هــذا كله فى كتابين له وهما « شــمعة الرؤية » (١) (١٩١٨) ، و « الأنشودة ونوافيرها » (٢) (١٩٣٢) • وهما من أحسن الكتب النافعــة لأولئك المعنيين بالاختبار الصوفى ، وطبيعــة الأحلام ، والرؤى ، والتخيلات ، والالهام •

وعندما يدون الرجال الأذكياء تفصــيلات اختباراتهم الصــوفية الصادقة ، بعد أن يدربوا قدراتهم على فتح نوافذ أرواحهم يصبح بمقدورنا أن نؤمل فى أن نحوز بعض الفهم للتركيب المعقد للانسان •

* * *

ويقول المؤلف جون اجلنتون John Eglinton عن جورج راسل انه منذ السادسة عشرة أو السابعة عشرة كان يحوز ـ خلال سيره فى طرق الريف ـ تصورات كثيفــة ملتهبة عن عالم آخر ذى طبيعة داخليه • وأن الشعور به أخذ يتدفق اليه ، فأخذ العالم المشهود يظهر له « وكأنه بساط منتفخ أثارته الرياح من خلفه » ••••

وروى جورج راسل بعض اختبارات مع تلك « الكائنات الالهية » التى كان بمقدوره رؤيتها من آن الى آخر ، كما كان بمقدوره أن يرى بعض الجنيات Fairies وبعض الأشكال الأخرى من حيــاة الأثير • ويقول اجلنتون انه ليس من اليسر فى شىء أن ننســب كل هذه الأقوال الى مجرد الخيــالات « ودعونا تتذكر أن الخط الفاصل بين الحقــائق الموضوعية والشخصية ينبغى أن يتوقف دائمــا على نوعية الوعى الذى تتحدث عنه ، وعلى المستوى الذى كان مصوبا اليه فى ذلك الحين •

وبالاضافة الى ذلك دعونا نتذكر أننــا نحيــا فى عالم غير مفتوح لحواسنا المدركة العادية الا بقدر محدود • وفى النهاية دعونا نتــذكر أن هذه الأقوال صادرة من انسان متكامل الشخصية تماما ، قال فيه المؤرخ

---

(١) The Candle of Vision.

(٢) Song and its Fountains.

ف.س. أوليفر F. S. Oliver « من بين جميع الرجال الذين قابلتهم ، جورج راسل هو أكثرهم رقة ، وتدفقا ، واقناعا فى الحجة » .

ويقول راينور جونسون R. Johnson فى هذا الشأن « اننى من جانبى الخاص أعتقد أنه يتعين علينا أن نرحب برؤى أولئك الرجال الأمناء الذين يحوزون قدرة على « الرؤية » والاختبار أعظم من قدراتنا الخاصة . ويلزم أن نحرر أنفسنا من التحفظ الأكاديمى الذى مايزاله يتجاهل بكبرياء مصطنعة الرؤية الشعرية ، ومشاهدات الظواهر التى تتجاوز نطاق الاحساس العادى (١) .

ويقول جورج راسل فى شأنها ان الأشخاص الذين يوسعون دائرة أفكارهم يربحون أكثر بآلاف المرات مما يربحونه بقراءة الكتب التى تعكس لهم نفس معتقداتهم القديمة التى يحوزونها من قبل . كما يقول فى خطاب حرره فى سنة ١٩٣٢ « كل حياتى منذ كنت طبيبا ، ومنذ بدأت أفكر، كانت موهوبة لتنمية الرؤية أو الالهام أكثر مما كانت للدراسة عن طريق القراءة » .

ويقول راسل أيضا « انه أنفع لنا بكثير أن نحوز الاختبار العملى من أن نحوز الفلسفات . وأولئك الذين بمقدرهم أن يقولوا لنا كيف نرفع أنفسنا عاليا للاتصال بعالم للعقل ، أو بعالم للنعيم ، هم وحدهم الأشخاص الذين أحوز عناية عميقة بآرائهم .

ان فلسفات العالم كلها جميلة ، وتعبر عن تمرينات عقلية ممتازة ، لكننى أعلم بأننى فى اللحظة التى أغادر العقلية اليومية المنطقية التى تبهج هذه التمرينات ، فأرتفع فيها من داخل نفسى وأقترب الى الكيان الذاتى العميق ، تتلاشى كل هذه الفلسفات ولذا قال أفلاطون « اذا كانت توجد حقا آلهة (أى أرواح راقية عند اليونان) فهى على سبيل القطع لا تتفلسف » ! !

---

(١) The Light and the Gate. 1964 P. 17—18 & 35—37.

ويعلق جونسون على هذا القول بأنه عبارة عن حكمة الروح عندما تتحدث خلال جورج راسل ، الانســان الذى آثر طريق « الرؤية » على طريق الحجة ، أى أنه آثر طريق المتصوف على طريق الفيلسوف • وحدد اختياره منذ شبابه ، أما المتصوفون الآخرون فيختارونه متأخرين • ورغم موهبتـه الروحية فقــد كان صــاحب ذاكرة نادرة ، وعقــل من الطراز الأول •

ومع ذلك فهو يذكرنا دائما « أن التفكير يقود بذاته الى طريق ما ، فيستنشق العبير من كل زهرة ، ويقطف الزهرة من كل شجرة •••• لكن أنضج ما فى أفكارى جاء شابا وعفويا عندما تنسمت الروح عبير حكمتها الخــاصة »(١) •

* * *

ويصف جورج راسل اختباراته مع الهاماته الصوفية مبديا دهشته من صلاته بمستويات رفيعة من التفكير والتعبير لم يبذل جهدا فى سبيل صناعتها • ويقول ان لها مصادر متنوعة : فيمكن النظر اليهــا بوصفهــا ذكريات من حيوات سابقة ، أو ذكريات منقوشة بداخل الروح ، أو بوصفها أحلاما رمزية ، أو لحظات فى حيوات كائنات أخرى اجتذبتها ، وربطتهــا بى بعض الروابط الغامضة فى طبائعنا •

وأعتقد أيضا أننا من الجائز أن نجتذب صــورا ننتزعها لأنفسنا من كتاب الحيــاة ، من ذاكرة الطبيعة حيث تعيش فيهــا تفكر فى الفكر وفى انجــاز الفعل •••• ويوجــد فى تدفقهــا مغزى وقانون وهو أنه ليس بمقدورى أن أفقد ما كان ينتمى الى • ولست بحاجة لأن أبحث عنه ، لأن ماكان ملكى سيعود الىَّ ، أما ما فقدته فقد فقدته لأنه ليس بملكى •

وما نكون عليه من حال هو وحده صاحب الأمر ، فيجب أن نزهد فى تلك الصراعات الخارجية الشخصية ، وأوجه الطموح لأننا اذا ما سلمنا

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧ — ٣٨ .

كل شيء للقانون الطبيعى ، فكل ما ينتمى الينا فعلا من حقوق سنتقاضى ثمنه ..

كما يقول راسل اننا فى الحقيقة نصبح أشقى مما كنا عندما نتخيل أننا لا نملك أية قدرة على الظروف ، واننى أعتقد ان أعظم حكمة هى أن نعلم عن العالم الحى ، أنه لا يوجد قدر فيه غير ذلك القدر الذى نصنعه لأنفسنا ... فالروح الخالدة تطوى بداخلها كل الحكمة التى حصلت اليها عن طريق شخصياتها العديدة . وبداخل كل حقل روحى أو «كارمى» طاقات تستيقظ من وقت الى آخر بداخل الشخصية الجديدة ، وتجتذب بالتالى أو تطرد أحداثا وأشخاصا من مسارها .

وهذا هو وجه النشاط الذى يشير اليه راسل بوصفه « القانون » الذى ينهض بمسيرة الحياة . أو هو ازدهار الحبة التى زرعتها الروح فى ماضيها ، وبداخلها نملك قدرا من حرية الاختيار . وكيفية استخدام الحرية هى أعظم عامل فعال فى حياتنا ، لأنه هو الحكم فى اختياراتنا المقبلة (١) .

صلة اللاشعور برؤى « المحتضرين »

والتصوف الراقى قد ينجح أحيانا فى آن يوجد صلة ما بين وعى الانسان وبين « العالم الأسمى » فى مستوى ما من مستوياته المتعددة تعددا بلاحدود . وهذه الصلة أوثق ارتباطا بلا شعور الانسان منها بشعوره كما قلت .

وتحقيق توافر هذه الصلة ليس أمرا يسيرا ، لكن هناك اعتقادا أصبح شائعا فى دوائر المعنيين بالبحث الروحى ، مقتضاه أن لحظة الاحتضار قد تكون أحيانا مرآة صادقة للخلوة الصوفية ، وأن مشاعر بعض المحتضرين قد تلقى أضواء جديدة على هذه الخلوة .

---

(١) عن المرجع السابق ص ٤١ - ٤٢ .

ومثلها مشاعر بعض الأشخاص الذين توقفت عندهم جميع الوظائف الحيوية ومنهـا التنفس ونبض القلب ، كما يحدث فى بعض الصـدمات والحوادث المباغتة ، والأزمات القلبية • فقد أمكن للطب الحديث اعادة بعض حالات منهـا للحياة بأساليبه المتطورة ، التى منهـا تدليك القلب واجراء التنفس الصناعى ، وسائر وسائل الانعاش الحديثة •

ويجرى اهتمام شـديد الآن فى أمريكا بتجميع أكبر قدر ممكن من معلومات أولئك الأشخاص « العائدين للحياة » لاختبارها ، وعمل مضاهاة موسّعة فيما بينها ، وذلك كجزء من خطة علمية منظمة لدراسـة ظاهرة الموت ، وما يصاحبها من مشاعر ، وما قد يليها من انفعالات متنوعة ازاء ذلك « العالم الأسمى » •

وهذه الأبحاث تجرى الآن فى عدة جامعات أمريكية باهتمام شديد ، وبأسلوب مدروس • وقد انتهت فى جملتها الى نتائج متطابقة عن مشـاعر المحتضرين ، وانطباعاتهم عن وجود امتداد واضح للحياة فى عالم آخر ، وهى مشاعر وانطباعات متشابهة تشابها ملحوظا مثيرا للدهشة ، وجديرا بالتسجيل وبالدراسة • وصدر فيها أكثر من كتاب : منها واحد بمعرفة ريموند مودى Raymond Moody عنوانه « حياة بعد حياة » (١) ، وقـد طبع الآن أكثر من عشرين طبعة رغم حداثة تاريخ صـدور طبعته الأولى فى سـنة ١٩٧٥ وترجم الى ثلاثين لغـة • ومنها كتاب آخر بمعرفة جون تشارترز John Charters عنوانه « التحول الثانى »(٢) (١٩٨٠) •

ومما يسترعى الانتباه أن غالبية هؤلاء « العائدين الحياة » شعرت عند دخولها فى « غيبوبة الموت » بغبطة جلية ، واطمئنان تام لمـا يجرى حولها • ومنهم من شاهد أضواء جميلة ، أو حديقة غناء • ومنهم من تقابل مع بعض أعزائه المتوفين • ومنهم من شاهد أشخاصا لا يعرفهم لكنه ارتاح الى رؤيتهم •

---

(١) Life After Life.

(٢) Second Change.

ومنهم من دخـــل فى غيبوبة الموت عدة مرات بســـبب تعدد أزماته القلبية وفى كل مرة شعر بنفس البهجة والاطمئنان ، الى حد أن بعضـا منهم ـ كان بعد « اعادته الى الحياة » يتشاجر مع الأطباء ويبدى منتهى الضيق والغضب من هذه « الاعادة الجبرية الى الحياة » التى أدت الى حرمانه من مشاعر الغبطة الفياضة التى كان غارقا فيها الى أذنيه .

ولم يكن أى واحد منهم يتصور أنه كان سابحا فى حلم سعيد أو فى بحر من « الأثير المضىء » . بل كان الاصرار دائما على أنهم كانوا أحياء يرون بمشاهد حقيقية ، ولحظات من الســعادة الغامرة التى لن تنسى أبدا ، مهما مضى من وقت طويل بعدها ، وهو نفس الشعور الذى يخالج عادة كل انسان يمر باختبار الطرح الروحى الى عالم الأثير (١) .

كما أن الرسائل الواردة من عالم الروح مجمعة على هذا المعنى ، وهو أن لحظة الانتقال لا يشوبها فى المعتاد أى ألم ، بل بالعكس انهـا لحظة احســاس « بالتخدير » . وغالبا ما تكون لحظة محوطة بنشــوة حقيقية مع شــعور متدفق بالأمن وبالسكينة وبالسعادة لمـا يجرى من حول المحتضر ، سواء أكان الموت متوقعا لسبب المرض الطويل ، أم كان موتا مباغتا بسبب سكتة قلبية مثلا . ومن ثم فان تشبيه الموت بالنوم ليس فيه أية مبالغة ، ولذا قيل بحق ان الطبيعة تدربنا على الموت عن طريق النوم وتدربنا على الحياة اللاحقة عن طريق الأحلام ...

ولا يتسع المقام للافاضة طويلا فى هذا الموضوع ، بل يكفى أن أضع أمام القــارىء تلخيصا لمقــال نشر حديثــا فى جريدة الهيرالد تريبون Herald Tribune البريطــانية ، ونقلته عنها جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى يوم الخميس ٤ يونية سنة ١٩٨١ . وفى هــذا المقال ما يكفى لاقناع القارىء بمدى الاهتمام الجارى الآن فى العالم بدراســة هــذه الظاهرة .

---

(١) هذا وقد قدم التليفزيون البريطانى بعضا من هؤلاء « العــائدين للحياة » الذين رووا مشاعرهم للجماهير بعد توقف اعراض الحياة عندهم ، مع آراء بعض العلماء المعنيين (راجع جريدة الأنباء الروحية عــدد ٢٥٠٧ الصادر فى ٢٨ يونية سنة ١٩٨٠) .

يقول صاحب المقال « ان الاهتمام بهذه الظاهرة انتقل الى الجامعات، وعلى رأسها جامعة كونكتيكات Connecticut الأمريكية التى تكونت فيها « الجمعية الدولية لدراسات الاقتراب من الموت » • ويقوم أحد مديرى الجمعية وهو جون أوديت بزيارة لأوروبا لجمع مزيد من روايات أصحاب هذه التجارب ، واقامة اتصال بالقمر الصناعى بين عدد من المستشفيات الأوروبية وبين مركز الجمعية فى أمريكا بحيث يمكن نقل صورة الحالة التى تسر بالتجربة فورا الى المركز •

ويقول أوديت ان معظم من يمرون بتجارب الاقتراب من الموت يصفون الملامح الأساسية لتجاربهم بأنها الاحساس براحة بالغة ، وشعور بالسلام الغامر فى لحظة خروج الانسان من جسده • وهو احساس يشبه الانسياب الذى يطفو بهدوء عبر نفق طويل ، مع الشعور بأن هناك شيئا كالاشعاع المنير البراق الدافىء ينسحب بهدوء من الجسد • وبأن حبا جياشا يملأ الوجدان ، وتقبلا راضيا قانعا لما يجرى بينما ينغمس الذهن فى استعراض سريع متكامل وعريض لأحداث حياة الشخص نفسه •

وفى نفس الوقت يعى الذهن بأنه يتصاعد وسط كون كامل من الجمال الوادع ، يحف به عدد من أحبائه الموتى منذ زمن كأنهم يقومون له بدور المرشدين الروحيين ، ويقولون له أنه اذا انهار يجب أن يعود الى الحياة الأرضية ، وأن ساعة موته لم تحن بعد •

ويضيف أوديت ان هذه الحالة ـ المتعددة الوجوه والجوانب ـ تحدث لكل من يعيش تجربة الاقتراب من الموت • ولكننا نستطيع أن نقول ـ بناء على ما نملكه من الروايات ـ ان ما يتراوح بين ١٥٪ و ٦٠٪ ممن عبروا هذه التجربة يروون حكايات متشابهة ، أما الآخرون فيتحدثون عن أنهم كانوا فاقدين لوعيهم ، أو أنهم أصيبوا بالاغماء ، ولكن الكثيرين لايستطيعون تذكر ماحدث لهم ، أو لايريدون أن يتذكروه ، أو لايرغبون فى أن يبوحوا به لأحد ومشاركة الآخرين فيه •

ولكن جميع من تحدثوا عما عانوه ورأوه ، بدون استثناء ، يؤكدون أنهم رأوا ما يبرهن على وجود حياة بعد الموت ، ولهذا فانهم جميعا قد فقدوا الخوف الانسانى الغريزى من الموت .

ويقول جون أوديت ان جميع من اقتربوا من الموت بأى شكل، سواء من صعقة كهرباء ، أو اشراف على الغرق ، أو النجاة من حادثة سيارة ، أو من أزمة قلبية ، يشعرون بنفس الأحاسيس ، ويروون نفس الأشياء .

* * *

وقد ثبت أن طائفة من هذه المشاعر والرؤى ترددت عبر التاريخ . فأفلاطون يشير الى بعض منها فى « المحاورات» . و « كتاب الموتى » الذى ألفه رهبان التبت يردد نفس المعانى . وهى تلك التى رددها — بالحرف تقريبا — راهب يدعى سالفيوس فى شمال فرنسا القديمة دفن حيا، ثم استرد وعيه وخرج من القبر لكى يروى لزملائه ما حدث له فى هذه التجربة الفريدة (١) ، وقد وردت قصته فى كتاب المؤرخ الفرنسى جريجوار الذى عنوانه « تاريخ الفرنجة » (٢) .

وقد انتشرت الجمعيات العلمية لدراسة هذه الظاهرة ، ومنها «المنظمة الدولية لدراسة تجارب الحياة بعد الموت » التى تكونت فى جامعة

---

(١) كان من حسن حظ هذا الراهب الذى دفن حيا أنهم اكتشفوا الخطأ فى تشخيص الموت فى الوقت المناسب . أما اذا تأخر هذا الاكتشاف — ولو قليلا — فان مصيره كان سيصبح مؤلما للغاية : وهو الموت الحقيقى البطىء بأبشع الطرق . وقد تناولت هذا الموضوع الهام ، وهو موضوع الخطأ فى تشخيص الموت ، فى الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ٤٠٧ — ٤١٥ .

وأرجو قراءة ما ورد عنه بعناية بالغة ، وذلك نظرا لضرورة تدارك هذا الاحتمال الرهيب بوسائل فعالة .

(٢) الاشارة الى جريجوار دى تور Grégoire de Tours الذى كان أسقفا ومؤرخا (٥٣٨ — ٥٩٤) ، وهو صاحب كتاب «تاريخ الفرنجة» Histoire de Francs المشار اليه عاليه .

جرينتش الأمريكية بولاية كونكتيكت . ومنها « جمعية دراسة الحياة الثانية » فى « كاليفورنيا » .

ويضيف أوديت ان الذين يمرون بتجربة الاقتراب من الموت يتغيرون بأربع طرق مختلفة ، وأحيانا مجتمعة . أولاها هى ايمانهم ايمانا راسخا بالحياة بعد الموت ، وثانيتها هى انتهاء خوفهم من الموت تماما ، وثالثتها هى حصولهم على وعى عظيم بالمسائل المتعلقة باللاهوت والأفكار الخاصة بالعالم الآخر ، ورابعتها هى أنهم يصبحون أقل جمودا وأكثر حبا للبشرية وحرصا على المصالح الانسانية بوجه عام(١) .

* * *

وهذه المشاعر التى يشعر بها أحيانا أولئك « العائدون من الموت » والتى تعتبر تتاجا لتلك الحالة الفريدة التى مروا بها لمدة دقائق قليلة عابرة تشبه الى حد كبير مشاعر الطارحين أرواحهم الى عالم الأثير كما سبق أن قلت . وقد تعرضت فى الجزء الأول لموضوع الطرح الروحى هذا ، ولما تثيره ظواهره من نقاش حول تعليلها ، وحول محاولة تحديد موضعها بين الظواهر الموضوعية أو الشخصية(٢) .

وهى فى بعض جوانبها تشبه ظواهر الخلوة الصوفية والتأمل ، وما قد يصاحبها من اطمئنان تام للموت ، ومن احساس بالسعادة الغامرة للاندماج فى المجرى الكونى للحياة بكل عواطف الحب المتدفق فيه . والتى دفعت بعض المتصوفين الى الحديث عن وجود طاقة كونية للحب المتدفق . كما دفعت بعض المعالجين الروحيين الى القول بأنهم فى خلوة

---

(١) راجع ترجمة المقال برمته بجريدة الأهرام عدد ٤ يونية سنة ١٩٨١ صفحة ٥ بعنوان « دراسات علمية فى جامعات أمريكا حول الذين وصلوا الى حافة الموت وشاهدوا الحياة الأخرى » .

(٢) راجع ما سبق فى صفحة ٣٧٦ - ٤٠٦ منه وما سبق فى الجزء الحالى فى صفحة ٦٥٥ - ٦٥٩ عن مشاعر بعض الطارحين أرواحهم الى الأثير .

التأمل هذه يشعرون كما لو كانوا محض قنوات لهذه الطاقة الكونية ، الكفيلة عند توافر كافة الظروف المؤاتية بشفاء بعض الأمراض العضوية والعصبية •

وقال بعضهم انه فى خلوة التأمل الصوفى يشعر بتزايد طاقته العلاجية ، وأنها تؤدى دورها بدون أى اجهاد أو عناء • بل على العكس من ذلك هذا البعض قال انه يشعر بسعادة بالغة فى هذه الخلوة حتى اذا مارس فيها وساطة العلاج الروحى ، لكنه لا يمكنه أن يمارس فيها اية ظواهر روحية أخرى ، مثل تأثير العقل فى المادة P. K. •

ولعل هذا يلتئم أيضا مع ما قرره بعض « العائدين من الموت » من أنهم بعد حدوث هذه الظاهرة لهم — وهى توقف الظواهر العضوية للحياة لمدة لحظات قليلة — أصبحوا بغتة أصحاب قدرات علاجية لم يكونوا يحوزوها من قبل •

وهذا التوافق الملفت للنظر بين أقوال العائدين من الموت وبين أصحاب اختبارات الخلوة الصوفية يستحق التسجيل والانتباه ، لأن كل هذه الظواهر نادرة جدا ، وتقع وراء الاختبارات العادية للانسان •

بل ان التوافق مثير ويستحق الانتباه حتى بين أصحاب اختبارات الخلوة الصوفية فيما بينهم « فكلها تنصب على مفهوم توسيع الاحساس بالوجود ، وعلى الاقتناع المطلق بأن الكون الخارجى خيِّر تماما ، الى حد دفع العديدين من أصحاب اختبارات هذه الخلوة الى الاحساس بزوال كل خوف من الموت •

والى الحد الذى دفع بعضهم الى القول بأن « شعلة الخلوة » عندما تجىء ، فانها تحمل معها فورا مستوى موسَّعا من الوعى ، يبدو أن غالبية الرجال والنساء لا تصل اليه الا بعد اقامة طويلة وشاقة فى الأقاليم التى تلى الموت ، ولذا فمن الجائز أن صاحب هذه الخلوة يتعجل رؤية ما سوف نراه كلنا فى يوم من الأيام •

وبعض الأوصاف التى وردت عن الوعى من أرواح غير المتجسدين تبدو كما لو كانت عبارة عن خطوات أولى فى ارتقاء هذا الدرج الصوفى • فأوصاف أولئك وهؤلاء يمكن النظر اليها من زاوية آن بعضها يساند البعض الاخر ، حتى وان لم تتساو كلها فى العمق فيما بينها • وذلك على ما يلاحظه بول بيرد Paul Beard ، الذى يعمل حاليا مديرا « لكلية الدراسات الروحية » بلندن(١) فى أحدث مؤلفاته ، وعنوانه « العيش دواما : دراسة لتحول الوعى بعد الموت » ١٩٨٠(٢) ، ولنا عنده وقفة كافية فى الفصل الثانى من الباب العاشر •

المبحث الثانى

التطور من اللاشعور الى الشعور
(بحسب جوستاف جيلى)

تمهيد

بعد أن قدمت فى الصفحات السابقة بعض الجوانب العامة فى نظرية التطور وفى الوعى الانسانى بوجه عام يجمل أن أتناول فى المبحث الحالى طائفة من آراء الدكتور جوستاف جيلى Gustave Geley مدير « المعهد الدولى لما وراء الروح » بباريس وهو مؤسسة معترف رسميا بأنها ذات نفع عام منذ سنة ١٩١٩(٣) •

والأمر الذى يدفعنى الى ذلك هو آن صاحب هذه الآراء له خبرة خاصة فى بحوث الظواهر الوساطية تمكنه من الحديث فى هذه الموضوعات حديث خبير متمكن من عناصرها العديدة التى تحتاج الماما خاصا بأمور كثيرة ، والتى لم يعد الارتجال يجدى فى معالجتها مهما كانت قدرة الكاتب المرتجل وعلو مكانته كمفكر أو كفيلسوف نظرى •

---

(١) College of Psychic Studies.

(٢) Living On : A Study of Altering Consciousness After Death. London 1980 p. 30.

(٣) راجع ما سبق عن هذا المعهد فى الجزء الأول صفحة ١٣٦ — ١٤٤ •

ويبرز هذا الاتجاه عنده تحقيقاته الدقيقة فى الظواهر الوساطية ، وبوجه خاص فى ظواهر التجسدات التامة والجزئية التى جرت داخل « المعهد الدولى لما وراء الروح » بباريس واشترك معه فيها عدد من أبرز العلماء منهم شارل ريشيه Ch. Richet عضو أكاديميتى الطب والعلوم بباريس (جائزة نوبل فى الفسيولوجيا) ، ودى جرامون de Gramont (من أكاديمية العلوم) ، والكونت ج. بوتوكى J. Potocki

وقد تمت كلها بأسلوب مدقق وحذر تماما فى تسجيل المقدمات واستخلاص النتائج ، وكلها مفرطة فى خطورتها بمقدار ما هى جديدة على الأذهان سواء فى الغرب أم فى الشرق . وقد حاضر عنها العلامه جيلى طويلا فى « الكوليج دى فرانس » Collège de France وهو أرقى معهد هناك ومخصص لمناقشة القضايا العلمية الخطيرة بمعرفة جهابذة العلم والفلسفة ، من ذوى السمعة العالمية .

فنحن لسنا هنا بالمرة فى اطار الفلسفة النظرية ، بل الفلسفة الوضعية بمفهومها الدقيق ، ولا يحسن الحدث فى موضوعات التطور والشعور واللاشعور سوى عالم مدقق وضعى فى مثل مكانة جيلى الذى ينظر اليه الكثيرون بوصفه من أبرز رواد هذا النوع من البحث العلمى،ومن أبعدهم صيتا ، وأعمقهم تفكيرا فى العالم أجمع .

ونظرا للترابط الشديد بين آرائه فضلت أن أضمها معا فى المبحث الحالى بدلا من توزيعها بين موضوعات أخرى متعددة ، رغم أنها قد تكون وثيقة اتصال ببعضها ، حرصا على عدم فصم التكامل ، مع الترابط الواضح الذى يربط بين بعض أجزائها والبعض الآخر .

وقد عرض جيلى نظريته فى هذه الموضوعات فى مؤلف قيم عنوانه

« من اللاشعور الى الشعور » (١) (١٩١٩) أنصح كل دارس لهذه الموضوعات بالعناية به ، وعنه ألخص الصفحات الآتية :

عن لغز النشاط الفسيولوجى

ويقول جيلى ان الفكرة التقليدية عن الحياة ، عن التكوين ، عن النمو ، عن بقاء الأعضاء ، عن اعادة بناء الأنسجة ، فكرة ما زالت بلا تفسير . وعلم وظائف الأعضاء مازال بالنسبة لها محض لغز . واذا كان هذا اللغز مايزال خافيا عنا فالسبب هو انخداع الروح الانسانية عن نفسها .

فالروح الانسانية تميل الى الاعتقاد بأنها تفهم أى شىء مادام هذا الشىء مألوفا بالنسبة لها . أما الفيلسوف فهو بطبيعة الحال يعمل ضد هذا الاعتقاد الذى تستسلم له الجماهير بطريقة لا تقاوم ...

ولا يوجد شىء مألوف عندنا أكثر من وظائف الأعضاء فى خطوطها العريضة ، ولذا فهى تبدو بسيطة جدا عند الانسان العادى ، ومع ذلك فلا يوجد ما هو أكثر غموضا منها ، لأن الحياة تتضمن بذاتها لغزا لم يقتحم . فالآلية الحيوية ، ونشاط الوظائف العضوية العظمى ، أمران لم يفسرا بعد . وذلك لأن النشاط يعمل بطريقة لا شعورية ، بالضبط كما يحدث أيضا فى الفسيولوجيا المسماة بالفسيولوجيا «فوق المألوفة» .

فالنشاط المألوف ما يزال لغزا مثل ذلك النشاط فوق المألوف . وحتى التكوين العضوى وكل ما يتصل به من ولادة ، ونمو ، وتطور الجنين ، والتطور فى مرحلة ما بعد الجنين ، والاحتفاظ بالشخصية فى أثناء الحياة ، وقيام الأعضاء باصلاح نفسها بنفسها على النحو الذى يحدث خصوصا عند بعض الحيوانات عندما يصل الى حد بناء أعضاء

---

(١) De L'inconscient Au Conscient.
وراجع ما سبق عنه فى صفحة ٥٦٦ — ٥٦٨ .

جديدة بدلا من المبتورة ... كلهـا ألغاز لا يمكن حلها عندما يتمسك الانسان بالفكرة التقليدية عن الذاتية .

ولا شيء أغرب من محاولة بعض علمـاء البيولوجيا والفسيولوجيا من تعليل دوام الفردية رغم التجدد المتواصـل للخلايا . ولذا فقد كان كلود برنارد حريصـا على أن يبين كيف أن الوظائف الحيوية للانسـان تكون مصحوبة حتما بتدمير عضوى مصحوب باعادة البناء ....

ومع ذلك فان الأمر ليس متعلقـا ـ كما تصـور كلود برنارد ـ بوجود وحدة بيولوجية وراء الطبيعية غير قابلة للفهم ، بل ان الأمر متعلق بفكرة ملموسة عن ديناميكية موجهة ، ومركزية ، وسائدة على كل الأجزاء العضوية من الداخل والخارج ، ومؤثرة فى ردود الفعل الكيميائية للوسط العضوى ، وأيضا فى التأثيرات البيئية للوسط الخارجى .

وهـذه الديناميكيـة ثبت وجودها بيقين ليس فقط من ظواهـر الفسيولوجيا المـألوفة ، بل ثبت وجودها بيقين ، وبظهور خارجى أيضا ، فى الفسيولوجيا الموصوفة بأنها فوق العادية .

ففى هذه الظواهر الأخيرة ظهر أن الديناميكية الفسيولوجية تتجاوز فى ظواهرها حدود الأعضاء ، بل قد تنفصل منها وتنشط خارجا عنهـا . وقد تقدر على أن تفصل هذا التكوين العضوى جزئيا ، وتبنى من مادته ، خارجا عن صاحبه ، أشكالا عضوية أخرى جـديدة . أو ـ اذا شـئنا استخدام التعبير الفلسفى ـ قد تبنى تمثلات جديدة .

ثم يقول جيلى ان أحدا لا يجهل الآن هذه الفسيولوجيا فوق العادية . وكيف أنها قد تحدث فى حضور بعض الأشخاص الموهوبين والمدربين الذى يطلق عليهم وسطاء،وكيف أنه لا يمكن تفسيرها بنشاط أعضائهم ، وكيف أنها تتجاوز دائرة هـذا النشـاط ، ومنها ظواهر التجسـدات وفقدان

التجسدات (١) .

ثم يستعرض جيلى العديد من هـذه الظواهر كما حققها بداخـل « المعهد الدولى لمـا وراء الروح » عندما كان مديرا له ، ويقدم لها تحليلا علميا دقيقا لا يتسع المقام الحالى لتناوله لأنه مخصص أصلا لتلخيص نظرية جيلى عن التطور من اللاشعور الى الشعور .

لكنه ينبغى أن يتسع لذكر ما انتهى اليه جيلى من أن هذه الظواهر مجتمعة تكشف عن وجود ديناميكية عليـا ، تتولى التنظيم ، والتركيز ، والادارة . وهى مستمدة من جميع معارفنا الخاصة بالفسيولوجيا (يراعى أن جيلى كان أصلا طبيبا باطنيا) .

فهذه الديناميكية هى التى تسمح وحدها بتفهم التنظيم الحيوى ، والشكل النوعى ، والتشييد العضوى ، والمحافظة على الشخصية ، والتئام الجروح العضوية . وهى لازمة بوجه خاص ، بل تفرض نفسها على دراسة التطور الجنينى ، والتطور اللاحق للولادة ، وخصوصا تبدل الصـورة خلال سنى العمر ، ناهيك بتجسدات الأعضاء وفقدان تجسداتها ، وهو ما يلاحظ أيضا فى تطور حياة بعض الحشرات .

وهذه الديناميكية الموجهة خاضـعة بدورها لفكرة موجهة ـ وهى أهم الاعتبارات كلها ـ فهذه الفكرة الموجهة توجد لدى جميع الكائنات البيولوجية سواء فيما يتعلق بالتكوين العادى للأعضاء ، أم فيما يتعلق بتجسد غير عادى أية كانت درجة تركيبه . وهذا كله يكشف عن وجود هدف محددللحياة (٢) .

(١ ، ٢) الاشارة الى طائفة من الظواهر الفيزيقية للوساطة الروحيـة وما قد يجرى فيها من تجسدات لبعض الأطراف ، أو من فقدان تجسدات بعض الأعضاء حتى البطن أو الرأس (راجع ما سبق فى صـفحة ٣٢١ ـ ٣٣١ موضحا بالصـور الحاسمة ، والمراجع العلمية حافلة بالعـديد من أمثـالها) .

والفكرة الموجهة لا تنتهى دائما وتماما الى تحقيق هدفهـــا ، بل ان نتيجة نشاطها عادة غير كاملة ، سواء فيما يتعلق بالفسيولوجيا المـألوفة ، أم فيما يتعلق بالفسيولوجيا فوق المـألوفة • فهى قد تعطى نتاجا طيبا ، كما قد تعطى نتاجا مشوها ، أو اجهاضا (١) •

عن لغز نشاط السيكولوجى

ثم يتناول جيلى موضوع النشاط السيكولوجى للانسان موضـحا افلاس الفكرة التقليدية عن الفردية السيكولوجيـة ومبينا كيف، أن تلك الفكرة التقليدية تعتمد أساسا على مبدأين :

ـ أولهما مبدأ الذات المركبة من حالات الوعى •

ـ وثانيهما هو مبدأ التبعية الوثيقة بين كل ما يكون الذات المفكرة، وبين أداء المراكز العصبية لوظائفها •

فبالنسبة للمبدأ الأول عبّر عنه ريبو Ribot عندما قال ان الشخصية الحقيقية للانسان هى تعبير سام عن التكوين العضـوى • والمخ يحتوى بذاته على بقايا كل ما كنا عليه ، وكل امكانيات ما سنؤول اليه • فالصفة الفردية مسجلة برمتها فى هذا التكوين العضوى بكل قدراتهـا الايجابية والسلبية • وبكل ما تحبه وما تكرهه ، وبكل ذكائها ومهارتها أو حماقتها، وفضائلها أو عيوبها ، وخمولها أو نشاطها • فكل ما يطفو منها الى الوعى انما يكون على حساب ما هو مغمور تحت السطح لكنه لايزال نشطا • والشخصية الواعية ليست سوى جزء يسير من الشخصية برمتها ••••

ولودانتك Ledantec ينتهى الى نفس النتائج ، ويعتبر أن الوعى الفردى ليس أكثر من نتاج عضوى « فذواتنا محكومة بعدد الترابطات المتبادلة لجميع عناصر جهازنا العصبى ، وطبيعتها ، وحالتها » •

(١) تلخيص عن المرجع السابق ص ٤٢ ـ ٦٨ •

والاعتراضات التى تفرض نفسها بنفسها ضد هذه الفكرة هى نفس الاعتراضات التى تفرض نفسها ضد الفكرة الفسيولوجية عن الفرد فى أن هذه وتلك لا تلقى اعتبارا الى ضرورة وجود مبدأ موجه،ومركزى،يصنع الذات ويكفل لها البقاء .

أما الفكرة الأخرى فهى تتجاهل هذا المبدأ وتنكره ، ولاتزال مقبولة (حتى تاريخ صدور هذا الكتاب فى سنة ١٩١٩) عند عدد من العلماء مثل هوفدنج Hoeffding ، وبولهان Paulhan ، ووندت Wundt . أما كلود برنارد Claude Bernard فقد أخذ يستعين فى الفسيولوجيا بمبدأ « الفكرة الموجهة » ideé directrice .

وعن المبدأ الثانى — وهو اعتبار الذات نتاجا لنشاط المراكز العصبية — فمقتضاه أن تطور الذكاء الواعى يكون مصاحبا للتطور العضوى ، سواء أكان التطور نحو الأمام حتى الوصول الى مرحلة النضج الكامل ، أم أكان الى الوراء عند تجاوزها الى الكهولة .

— ومقتضاه أن النشاط النفسى يكون متناسبا مع نشاط المراكز العصبية .

— ومقتضاه أن النشاط النفسى يختفى عند رقاد المراكز العصبية للنوم ، أو عند خمولها فى الغيبوبة .

— ومقتضاه أن النشاط النفسى يتطلب النشاط المألوف للمراكز العصبية ، فاذا أصيبت هذه المراكز أية اصابة أدى ذلك الى تحديد أو الغاء النشاط النفسى .

— ومقتضاه أن النشاط النفسى يكون معلقا تماما على نطاق القدرات العضوية ، ولا يمكن فصله عنها أبدا .

— ومقتضاه أن كل الملكات النفسية تتوقف على نشاط بعض مواقع محددة فى الدماغ ، فاذا ما أزيل أى موقع زالت الملكة المرتبطة به .

وهـذه الأفكار التقليدية عن التوازى النفسى ـ التى ظلت لفترة طويلة ليست محل نقاش ولا تقبل نقاشا ـ أصبحت الآن (قبل سنة ١٩١٩) تواجه صعوبات جدية ، سواء فيما يتعلق بالوقائع المألوفة لعلم النفس والتى تتعارض مع نظرية هذا التوازى ، أم فيما يتعلق بوقائع اللاشعور الأسمى الذى يطلق عليه اللاشعور فوق المألوف (١) .

* * *

ومن ظواهر اللاشعور فوق المألوف يخص جيلى بالذكر ظواهر قراءة الفكر التى ثبت حدوثها فى الحالات المغناطيسية والوساطية ، وفى غيرها . وسواء أحدثت فى صورة ايحاء عقلى ، أم فى صورة تخاطر تلقائى أو تجريبى . ويذكر أيضا حالات الطرح الروحى التى قد تحدث لشخص غارق فى نوم غير عادى ، أو مرضى ، أو فى سبات ، أو بسبب أزمة عصبية(٢) . وحالات الاستشفاف البصرى ، وتأثير العقل فى المادة ، والتنبؤات الصحيحة(٣) ...

ثم يتساءل جيلى عن ماهية النتيجة التى يمكن الخروج بها من مجموع هذه الظواهر ، قائلا ان اللاشعور بكل وضوح يتجاوز جميع جوانبه . ويتخطى كلية اطار القدرات الحسية والدماغيـة . وأنه فيما يحوزه من جوهر يقع خارج جميع التمثلات ، بل حتى خارجا عن اطار التمثلات أى خارجا عن المكان والزمان .

ويرفض جيلى امكان تعليل هـذه الظواهر بالتفسير التقليدى للشخصية الانسانية بأنها تمثل « الذات بوصفها تركيبا من حالات الوعى، ونتاجا للنشاط الدماغى » . وتحقيقا لهذا الهدف يناقش تفصيلا كل النظريات التقليدية عن دور الشعور الأسمى مبينا كيف أنها لا تقف على قدميها ازاء هذه الظواهر ، وهى نظريات متعددة لكنها أصبحت الآن بالية تماما بحيث لا تستحق عناء الوقوف عندها هنا .

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق ص ٧٧ ـ ١٠٠ وراجع ما سبق فى صفحة ١١٨٣ ـ ١١٨٩ .

(٢) راجع ما سبق بشأنها فى الجزء الأول فى صفحة ٣٧٦-٤٠٧ .

(٣) راجع ما سبق بشأنها فى هذا الجزء الثانى صفحة ٦١٦ ـ ٦٦٤ .

ويخلص جيلي من ذلك كله الى أن القول بوجود توازٍ بين النشاط الروحي للانسان والنشاط الدماغي والعضوي لم يثبت صحته ولا يمكن الآن العثور على وجود أية علاقة بين مدى أهمية ظواهر الوعي الأسمى النشيط أو الوعي الأرقى ، وبين النشاط الدماغي . بل على العكس من ذلك يبدو هذا الوعي الأسمى أكثر نشاطا بقدر ما يقل نشاط العضو الدماغي . فهو يرتدي كل اهميته ليس عند ازدياد النشاط النفسي الارادي ، بل عند خمول المخ أو راحته في حالات الاسترخاء ، أوالحلم ، أو حتى النوم ، سواء أكان نوما طبيعيا أم صناعيا .

وفي هذا الشأن يكتب بونيس Beaunis — الذي درس العقل الأسمى من الناحية الفسيولوجية وليس من الناحية النفسية — ملاحظا أن العمل اللاشعوري لا يسبب اجهادا مثل العمل الشعوري ... « اذن فلأسمح لنفسي أن أقول الى كل أولئك الذين يعيشون بنشاط الذهن مثل العلماء ، والأدباء ، والفنانين ، دعوا اللاشعور يعمل ، لأنه لا يتعب أبدا » .

وهذا قول في محله ولا خيار لنا فيه ، وهو أن النشاط الروحي للعقل الأسمى يتميز تماما ونوعيا عن الجهد الارادي ، وليس لهذا الجهد دخل فيه....وكل ما بمقدوره أن يفعله هو تجزئة هذا النشاط أو توجيهه الى اتجاه معين ، وهذا كل ما يملكه . فهذا الجهد الارادي لا ينمي النشاط الروحي الأسمى ، بل يعوقه . وتوقف هذا الجهد الارادي قد يكون شرطا للانتاج الالهامي أو الابداعي .

وحين نجد أن الجهد الذهني العادي متقطع مثل كل جهد آخر ، وأن النشاط الدماغي يتطلب فترات طويلة ومنتظمة للراحة ، فان الوعي الأسمى يظل دائما حائزا لملكاته . فهو لا يختفي بسبب راحة الدماغ في النوم ، بل بالعكس يبلغ ذروة اشتعاله عند خمول الدماغ ، وفي الحلم ، وفي الاسترخاء . ففي هذه الحالات المتغايرة تماما يختفي العمل والجهد كيما يجري الالهام بكل نطاقه المتسع ، وبكل تلقائيته .

فكل شيء يجرى بالنسبة لكل انتاج للوعى الأسمى كما لو كان مستقلا تماما عن النشاط الفسيولوجى للدماغ • وكما لو لم توجد آية هيمنة مركزية للدماغ على الوعى الأسمى ، وكما لو لم يوجد أى توازٍ بين الوعى الأسمى والقدرات الحسية •

فحضور القدرات التى تنتمى الى الوعى الأسمى ليس حسيا ، لأن هذه القدرات فطرية ، ونطاقها يتجاوز من كل جانب اطار القدرات الحسية • وبالتالى فان الالهام الأسمى ، والحدس ، والابداع كلها مستقله تماما عن الاكتساب (١) •

عن التمييز بين صورتين من الارادة

ويطالب جيلى بوضع تمييز واضح بين الارادة اللاشعورية ، وبين مقابلها فى الشعور ، لأن كل ما هو راق حقيقة ورفيع فى الانسان وهو جوهره الخالد ، مثل العبقرية والالهام ، وقدرة الابداع ، موضوعى أى ينتمى الى تلك الارادة اللاشعورية •

وان دائرة الوعى التى يصنعها تجسيد خصائص الارادة لا تنبع الا من حيوية المخ ، أو من نشاطه الروحى • ومن ثم فان الشعور مرتبط عند الحيوانات العليا والانسان بموطنه العضوى (أى المخ) فهو يولد ويختفى به ، ويؤدى الموت الى افنائه • وعلى العكس من ذلك أن ما يمثل جوهر الكائن ، وهو الارادة ، لا يمسه سوء •

فاذا كنا بالموت نفقد الوعى ، فاننا نتحول ببساطة عن طريق الموت الى حالتنا الأولى المجردة من المعرفة لكنها ليست حالة لاشعورية بصفة مطلقة • وهى حالة فى شكلها ذلك تكون بلا ريب أسمى من سابقتها اذ يختفى فيها التعارض بين « الشخص » و « الموضوع » • واذا كان شوبنهور يقول ان الموت يعلن عن نفسه بوصفه فناء الفرد ، لكن فى هذا الفرد تكمن نواة لكائن جديد •

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق صفحة ١٠٥ — ١٤٠ •

ومن ثم فان ما يفنى هنا لا يفنى نهائيا ، وما يولد هنـاك لا يتلقى وجودا جديدا فى أساسه . وما يموت يفنى ، لكن تبقى منه نواة ، تخرج منها حياة جديدة ، تدخل الآن فى الوجود دون أن تعرف من أين جاءت ، ولا لمـاذا أصبحت هكذا .

كما ينقل جيلى عن شـوبنهور قوله أنه يمكن بالتالى النظر الى كل كائن انسانى من وجهتى نظر متعارضتين : الوجهة الأولى أنه فرد يبدأ فى الزمان وينتهى فيه ، مارا بطريقة عابرة ... والأخرى أنه كائن أصيل غير قابل للفناء يتجسد فى كل كائن موجود .

ولا ريب أن كائنا كهذا يمكنه أن ينجز شيئا أفضل من مجرد الظهور فى دنيا مثل دنيانا ، تمثل عالمـا محددا للألم وللموت ، كل ما هو موجود فيـه ، وكل ما يخرج فيه ينبغى أن ينتهى ويمـوت . ولكن مالا يخرج فيه ، وما لا يريد الخروج فيه يخترقه بكل قدرة البرق الذى يبرق عاليا بغير أن يعرف فيما بعد زمنا ولا موتا(١) .

ومن ثم فان الوعى الفردى ، وكذلك الكون ، ليس له وجود ذاتى وحقيقى . انه وظيفة مؤقتة للارادة ، ويولد من ارادة الحياة . ولذا فان ارادة الحياة تكون بمثابة خداع ضار للارادة .

عن ماهية « الأنا »

ثم يتساءل جيلى قائلا هل « الأنا » تمثل — كما يقول علم النفس التقليدى — قمة حالات الوعى ، أم أنه يمكن فصلها ، وتصورها مستقلة عن تلك الحالات ؟ ويجيب بأن الجواب لم يعد محل شك وهو أن « الأنا » لا ينبغى أن تختـلط بحالات الوعى ، ولكن لتفهم ذلك يلزم بذل بعض الجهـد .

---

(١) يحيل المؤلف القارىء الى كتاب « الاعتقاد » La Religion للفيلسوف الألمـانى المتشائم آرثر شوبنهور ، أما فلسفة جيلى فمؤسسة على العكس من ذلك على التفاؤل بمستقبل الانسان على ما سـيرد فيما بعـد .

فنحن نتقبل بلا صعوبة تذكر أن «الأنا» لا تتحدد بالجسد المادى ، كما أنها لا تتحدد بحالات العقل ، وهو ما يحتاج الى مزيد من الصعوبة . لأن الانسان بمقدوره أن يميز ذاته عن حالاته العقلية بصعوبة أكثر مما يميزها عن كيانه العضوى ... انه ينبغى تحوير العادات العقلية الراسخة ، والاستعانة بكل صرامة المنطق للذهاب الى أبعد من قاعدة ديكارت « اننى أفكر فأنا موجود » لكى تتقبل قاعدة « اننى موجود حتى خارج أفكارى . أنها تمثل حالتى ، لكن الأمور التى أتمثلها بعقلى Mentales كلها ليست هى « الأنا » .

واذا استندنا الى الوقائع فلا يوجد شىء محقق أكثر من هذه القاعدة الأخيرة ، والمنطق فيها محدد : وهو أنه اذا كانت « الأنا » عبارة عن مجموع حالات من الشعور (أو الوعى) ، فانه يتعذر أن نفهم كيف أن حالات الشعور تلك حتى اذا كانت سليمة لم تمس فان « الأنا » — وهى تركيب من هذه الحالات يمكنها أن تفقد الاحساس بأنها متحدة معها ، وبالتالى تفقد القدرة على السيطرة على تركيبها الروحى ، وهذا هو أخطر ما تملكه « الأنا » ؟

وأنها لحقيقة أولية وهى أن تكامل حالات الشعور يوجد فى نفس الوقت مع اختفاء الوحدة التركيبية (أى الأنا) والتوجيه المركزى (عن طريق المخ) . وأن تناقص اشراف « الأنا » أو اختفائه هو أساس علم النفس الشاذ،ومن المسلم به أن كل حالات الشذوذ النفسى توجد فى وقت واحد مع بقاء المراكز العصبية سليمة من الناحية التشريحية الفسيولوجية ... اذا « فالأنا » متميزة عن حالات الشعور التى تعبر عنها. والظاهرة النموذجية من وجهة النظر التى سنستند اليها هى حالات طروء تحويرات فى الشخصية .

وبالتالى فان جوهر « الأنا » لا يمكن أن يختلط بحالات الشعور الخاضعة لها ، والثانوية فيها . وفيما يتعلق بالعقل — كما هى الحال فيما يتعلق بالجهاز العضوى — ينبغى التمييز بين الجوهر الدائم ، وبين

تمثلاته الوقتية • وحالات الوعى ليست سوى « تمثلات الأنا » ، وهى شطر منفرد من « الحركة الروحية الكونية » لا ينبغى أن تختلط بما تتمثله من أمور •

بالاضافة الى ذلك فان الوقائع تبين أنه توجد فى « الأنا » ملكات تتجاوز حدود حالات الشعور ، وتسيطر على كل ما يتمثله العقل من أمور • فالالهام والعبقرية المبتدعة بتجاوزان بكثير اطار الملكات العقلية • ولا يوجد فى الالهام وفى العبقرية شىء مما يميز تسلسل المنطق ، فهما ملكتان أسمى من المنطق ، نابعتان ــ كما هو واضح ــ من الجوهر المقدس « للأنا » •

ومن باب أولى الملكات الروحية فوق المألوفة ، خصوصا ملكة الاستشفاف ، فانها مستقلة عن الأعضاء وغير مرتبطة بالادراك أو بالعاقلة• ولذا أقول مرة أخرى أن « الأنا » ، أى « الأنا الجوهرية » أو « الأنا الحقيقية » متميزة عن حالات الشعور ، وعن تتابع موكب ما تتمثله بصفة مؤقتة من أمور •

وليكن الأمر كذلك ، اذا ماذا نعنى بالضبط بعبارة « الأنا الحقيقية » المتميزة عما تتمثله من أمور عقلية ؟ هل هى الجوهر المبتدع ، والارادة ، واللاشعور ، والديناميكية الروحية الأساسية ؟ ••• ان الاسم لا قيمة له ، لكن ينبغى أن تعتبر « الأنا » شطرا من الديناميكية الروحية الأساسية يحتفظ بالفردية ، وبالذاكرة ، وبالاحساس بالذات حتى خارج التمثلات العقلية التى تمر بها •

عن دورات النمو فى مجرى الحياة

ولا تضيع أية ذكرى ، ولا أى اختبار نفسى أو جوهرى • ان الأعضاء تلحقها تطورات واسعة خلال مجرى الحياة ، وبلا ريب تجدد نفسها جزئيا بعد جزىء • وحالات الشعور تتتابع بتغير بعضها عن البعض الآخر تغيرا كبيرا أو يسيرا • وان الحياة مصنوعة فى حقيقتها من

سلسلة حيوات : حياة الطفولة الأولى ، ثم حياة الطفولة ، فالمراهقة ، فالرشد ، فالشيخوخة ، وكل حياة منها متميزة عن الأخرى رغم أنه يجمع بينها أساس مشترك .

وهذه الحيوات تتأثر الى مدى أو الى آخر بما يبدو أنه نسيان نهائى لما مضى ، وكل نسيان منها يكون للكائن بمثابة موت صغير . ولكن خلال تجدد الجزيئات العضوية ، وحالات الشعور ، يظل قائما كائن روحى سام وعميق قام بتسجيل كل حالات الشعور هذه ، وهو يحتفظ بها بطريقة غير قابلة للمحو . فهى اذا ليست حالات ضائعة ، حتى وان ظلت خامدة فى جانبها الأكبر .

ومع ذلك فهذا ليس كل شىء ، فان الروح اللاشعورية التى تثرى بهذه الطريقة فى مجرى حياتها من كل حالات الشعور المحددة لا تكتفى بتسجيلها ، بل تقوم بهضمها أيضا . لأن جميع ما تحصل عليه من معرفة واعية تهضمه ، ثم تحوله الى ملكات . وهذا أمر واضح خلال مجرى الوجود حيث نجد أن الكائن ينمو ، ويحصل على ملكات جديدة أوأكثر وضوحا من الاحساس ، والادراك ، والمعرفة .

وهذا النمو النفسى لا يمكن الا أن يكون ثمرة تحول المعارف الى ملكات . وهذا التحول لاشعورى ، وهو لا يجرى فى جزيئات المخ غير المستقرة والفانية ، بل يحتاج الى كيان دائم وعميق فى الشطر الدائم والجوهرى من الكائن ، أى فى كيانه الديناميكى — الروحى الباطن .

وهكذا يكون التغير المستمر للشخصية الواعية ليس بذى قيمة تذكر ، لأن الفردية الباطنة الدائمة تحتفظ بالذاكرة غير القابلة للمحو عن جميع حالات الوعى التى مرت بها .

ثم ينتقل جيلى الى أهم نقطة تعنينا هنا مباشرة فيقول اننا اذا كنا لا نجد فى مجرى وجودنا الراهن سوى مصدر شطر فحسب من كنز

اللاشعور ، فانه يكون من حقنا أن نبحث عما يكمل هذا المصدر فى اختبارات سابقة ، وأن نرجع الى ما وراء الوجود الراهن لتفسير اللاشعور •

ولا ريب أن هذا الاستنتاج خطير،ويبدو لعديد من القراء كما لوكان لأول وهلة غير متناسب مع الوقائع التى يستند اليها ، بل خارقا للعقل • لكن لا ينبغى أن ينظر اليه على حدة ، بل مرتبطا بمجموع الأدلة الأخرى، وعندئذ يكتسب قوة جديدة • وليس من الصعب أن نتفهم كيف أن « الديناميكية الروحية الجوهرية » عندما تتجسد فى تمثلات عضوية جديدة (أى فى أجساد جديدة قادرة على تمثل الأمور) تحتفظ لنفسها بالذاكرة العميقة عن الاختبارات التى حققتها فى تمثلاتها السابقة •

فبدلا من الحديث عن وجود واحد ، اذا تمثل الانسان وجود سلسلة من الوجودات المتتابعة ، فانه يتفهم مباشرة كيف أمكن للانسان الحصول على الشعور بادئا من اللاشعور الفطرى • فان كل وجود منها — وهى وجودات لا حصر لها ومتنوعة — قد أحدث حفرا فى الديناميكية الجوهرية للكائن ، وترجم عن نفسه بحالة من الوعى : أى بذكرى ، وبملكة • وهكذا يتحول الكائن تدريجيا من اللاشعور الى الشعور •

وهذا الاستنتاج لا يتعثر بأى اعتراض علمى ، ومن العبث أن يجاهد الإنسان فى العثور على اعتراض واحد عليه فى كتلة معارفنا • أما فيما يتعلق بنسيان الوجودات السابقة ، فانه ليست له أية قيمة بالنسبة للعلم المعاصر ، لأن الذاكرة لا تلعب الا دورا ثانويا فى علم النفس الحديث ، أما النسيان فهو يحدث دائما وفى كل مكان •

ان الشطر الأكبر من الذكريات يتلاشى خلال الوجود • وذاكرة الانسان ، وأعنى بها ذاكرة المخ ، قابلة للمحو ، وهى غير وفية ، وعاجزة ، وكثيرا ما تخوننا فى الحياة اليومية والعادية • وهى كذلك من باب أولى

فى الحالات الشاذة ، كالحالات الثانوية التى تحـدث تلقائيا ، أو تلك التى تحدث فى الغيبوبة المغناطيسية أو الوساطية .

ولكن فوق هذه الذاكرة المخية ، الجزئية ، الزائلة ، توجد الذاكرة اللاشعورية ، أى الذاكرة الفردية الحقيقية الكلية ، غير القابلة للزوال ، ولا للتدمير ، شأنهـا فى ذلك شأن الفردية نفسها . ففى هـذه الذاكرة الأساسية تظل محفورة للأبد جميع أحداث الحياة الحـاضرة ، وجميع الذكريات ، وجميع المكاسب الواعية التى تم الحصـول عليها عن طريق السلسلة العظمى للحيوات السابقة .

وهكذا يتأتى لنا أن نتفهم تماما التطور الفردى ، وأن نحل جميع المشكلات الطبيعية والفلسفية المتعلقة بالفرد . ولا ريب أنه من وجهـة نظر « ما وراء الطبيعة » فان فكرتنا تجـد مكانا متسعا لها ، لكن من وجهة نظر علم النفس فانها لا تترك لغزا بغير حل له[1] .

عن مستقبل الانسان

وبعـد أن يعالج جيلى ما يراه فى شأن تطور الانسان فى ماضيـه وحاضره يحاول أن يتوقع ماهية مصير الانسان مستندا الى استنتاج رئيسى ، وهو أن اندماج الشعور فى اللاشعور سيؤدى الى اضاءة جوانب هـذا الأخير شيئا فشيئا ، وسيأتى وقت لا يعـد فيه شىء ملغز أو غامض عن اللاشعور .

وعندما يصل الانسان الى ما نطلق عليه « قمة التطور » بمقـدار ما يمكننا أن نتصور هذه القمة ، فان الانفصـال الظاهر ، أو الحـاجز الوقتى بين الشعور واللاشـعور سيختفى . وكل ما يكون الكائن مثـل الملكات والمعارف ، وكل ما حازه خلال ماضيه الهائل من خبرات يصبـح فى متناول يده ، كلية ، ومبـاشرة ، وبانتظام ، وبصـورة طبيعية . حتى الملكات فوق المألوفة ستكون رهن اشارة ارادته الواعية .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٥ — ٢٢٨ ، ٢٣٢ — ٢٣٥ .

أى أن الكائن « اللاشاعر » سيختفى ولا يتبقى من بعـد سوى الكائن الشاعر . أما جوهره الميتافيزيقى فسيظل على حاله ، لكنه سيكون قد حصل على معرفة ما يحيط به . وعند ذاك ، وعند ذاك فقط ستستحق الديناميكية الروحية أن تحمل اسم الارادة .

واذا كنـا لا نخشى أن نذهب فى متـاهات أكثر ممـا ينبغى من وراء الطبيعة فبمقدورنا أن نسمح لأنفسنا باستنتاج آخر ، وهو استنتاج ينبغى أن نقنع بتدوينه بحذر وتحفظ . وهو أن الاتساع غير المحـدود لوعى الكائن ينبغى أن يكون من عواقبـه أن يؤدى الى تفجير الحواجز الوهميـة والانتقـالية التى يصـنعها اتخـاذ الكائن صـيغة الفـرد L'indiviaualisation . وبعبـارة أخـرى أنه يؤدى الى عودة الكائن الى الوحدة الأصلية التى خرج منها . ولكن هذه الوحدة ، التى هى تركيب من كل صور الوعى ، ستضم هذا الانسان مع الحفاظ عليـه بوصـفه فى جوهره كائنا خالدا لا يقبل المحو ... وهكذا فان قمـة التطور يمكن تصورها كما لو كانت نيرفانا واعية(١) .

* * *

ثم ينتقل جيلى الى الحديث عن تحقيق سيادة الوعى واضعا نصب عينيه وجود ثلاث معطيات رئيسية هى : —

أولا — أن كل ما هو أساسى فى الكون أزلى ولا يمكن تدميره ، وهو دائم خلال مظاهر انتقالية للأشياء .

ثانيا — أن كل ما هو أساسى فى الكون يمر بالتطور من اللاشعور الى الشـعور .

ثالثا — أن الوعى الفردى يكون جزءا لا ينفصم مما هو أساسى فى الكون . وأنه يتطور من اللاشعور الى الشعور بطريقة أبدية ، وأنه بذاته لا يقبل الفناء .

---

(١) عن المرجع السابق ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .
و« نيرفانا » كلمـة هندية تعنى مستوى النشـوة والغبطة المطلقة فيما وراء المـادة .

ويقول ان بين هـذه المعطيات الثلاث الرئيسية فى فلسفته : الأولى منها تلاقى موافقة اجماعية ، أو هى بالأقل تقع فى الأساس من كل الأنظمة الفلسفية العظمى فى جميع العصور ، فاذا رفضناها فمعنى ذلك اعلان افلاس الفلسفة افلاسا تاما . ومع ذلك فهـذه المعطاة الأولى ليست بحسب وجهة نظر روحية أو عبقرية ، بل هى بديهية أولية ترتكز على أساس وضعى وطيد .

فالالهام ، والتعقل ، والوقائع كلها على اتفاق فى أن تكشف لنا عن وجود ديناميكية روحية مزودة وحدها بالوحدة وبالدوام ، أى أن لها وحدها وجود حقيقى ، ويمكن أن نكتشفها خلال التمثلات التى لا تحصى، والتى تبدو لنا محسوسة ، ومؤقتة ، ومرتبطة بالمكان ، فهى بالتالى محض خداع شأنها شأن الزمان والمكان .

أما المعطاة الثانية ، فانها وان كانت تفتح الباب للنقاش ، الا أن جميع الاعتبارات الخاصة بالتطور تفرضها علينا . فان المرور من اللاشعور الى الشعور هو أقل الأشياء التى يمكن انكارها فى التطور . ذلك أن تطور الأنواع والكائنات يتضمن حدوث محاولات ، وأخطاء وتوقفات ، بل وتراجعات ، لكن التطور الواعى فى مجموعه لا ينقطع .

فالوعى العام يتزايد بانتقال التطور من طور الأسماك ، الى طور الزواحف ، ثم الى طور الثدييات ، ثم الى طور الانسان . وعند المقارنة بين الأنواع فيما بينها فلا يوجد سوى معيار واحد محقق عن التفوق التطورى وهو الوعى المكتسب . وما يصنع هـذا التفوق ليس هو التركيب ، أو التكامل العضوى ، ولا هو القوة الجثمانية ، ولا هو المواءمة مع وظيفة ممتازة أو أخرى كالقدرة على الطيران مثلا ، بل هو فحسب مدى الوعى المكتسب .

فالتطور هو فى الحقيقة الشعور بالحالة الحقيقية ، وبحالة البيئة المحيطة بنا ، وبالروابط القائمة بين الكائن الحى والوسط الذى يعيش

فيه ، وبين الوسط الخاص والوسط العـام • وتطور الفنون والعلوم ، وتحسين السـبل التى بين أيدينا لانقاذنا من الآلام أو لاشباع حاجياتنا ، أمور لا تمثل بذاتها أهـداف التطور • بل هى نتـائج لتحقيق الهدف الأساسى وهو اكتساب الوعى اكتسابا متزايدا بالتدريج • وكل تقـدم عام مشروط بالتزايد المسبق لدائرة الوعى •••

واذا كانت المعطاتان الأولى والثانية من فلسفتنا لا تقبلان المناقشة ، وعادة لا يناقشهما أحد ، فان المعطاة الثـالثة ليست كذلك ، فان دوام الوعى الفردى وتطوره غير المحدود ينكرهما غالبية الفلاسفة حتى أولئك الذين نادوا بما اقتنعنا به عن الفكرة العامة عن الأمور •

ومن ذلك أن أفيرهوز .Averrhoes وشوبهور Schopenhauer يتفقان فى هذا الشأن مع المـاديين المعـاصرين اذ أن الوعى الشخصى بالنسبة لهما وظيفة من وظائف المخ ، تظهر بظهوره وتختفى باختفائه ••• أما نحن فعلى العكس من ذلك تنـادى بأن الوعى الفردى يمثـل جزءا لا يتجزأ مما هو أسـاسى ودائم فى الكائن (أى الـروح) • وأنه كان موجودا من قبل ، وأنه سيوجد مستقلا عن تطور أعضائه المتتابعة ، وعن جميع ما مر به من تجسدات ومن تمثلات ، محتفظا بالذكرى الكاملة لكل تمثلاته ، وأنه سينمو شـيئا فشيئا عن طـريق جميع الاختبـارات التى مر بهـا •

ومما لا ريب فيه أن دوام الوعى الفردى منـاقض للظواهر ، لأن الشطر الأكبر لمـا اكتسبه يظل خلال فترة وجوده الأرضى فى اللاشعور ، وخامدا • ولذا فليس من المسـتغرب أن يبدو هـذا الدوام لجمهـور الدهماء كمـا لو كان أمرا خارقا للعقل اللهم الا اذا كان هـذا الدوام لديه مجرد بند من بنود الايمان • ولكن مما يؤسف له ــ على العكس من ذلك ــ ومما يسبب الذهول أن يوجد فيلسوف عبقرى مثل شوبنهور يشاطر الدهماء رأيهم بغير أن يناقشه •

ان دوام الوعى الفردى أمر تؤيده الميتافيزيقيا ، كما يؤيده العلم ، ومن الطبيعى أن تلك الأدلة العلميـة المؤسسة على الاحاطة بالوقائـع كانت مجهولة فى وقت شوبنهور ولذا فات أمرها عليه . ولكن من الصعب أن نفهم غشاوته عن الاثبـات الميتافيزيقى ، أو تحيزه ضـد هـذا الاثبـات(١) .

* * *

ثم يعالج جيلى صلة هذا الموضوع بالنسيان قائلا ان نسيان المـاضى عند الولادة فيه خير للانسان ، لأن من الضرورى أن يعتقد الكائن أن نطاق تصرفاته محدود بين الولادة والموت ، وأن يجهل فى جانبها الأكبر — مكاسبه القديمة ، وأيضا ملكاته الدفينة .

وابتداء فان رهبة الموت مرتبطة بجهـل الكائن لمركزه الحقيقى ، وهى لا غنى عنها للكائن ، لأنه بدون هذه الرهبة الآمنة ، لا يمكن للكائن أن يبذل فى حياته الراهنة كل ما تسمح به الحياة من جهد ، وبالتالى كان سيتطلع بسهولة الى التغيير . وكل عجز مهمـا كان ضـئيلا ، أو كل اضطراب عضوى مزمن سيكون فوق طاقته ، وقد يصـبح الانتحار هو العملة السارية بين الناس .

وجهل الكائن لمكاسبه القديمة لا يقل لزوما عن ذلك ، فبدونه كان سيصبح لدى الكائن ميل لا يقاوم نحو العمل الدائم فى نفس الاتجـاه القديم بسبب « قانون أقل مجهود » . وبالتالى فانه كان سيتقبل بصعوبة أى عمل جديد يتطلب منه مزيدا من الجهد . وكان سيكون مقودا بطريقة لا تقـاوم تقريبا نحو تطور فى اتجـاه واحـد لا ينتهى الا الى تخصص متضخم وضار .

وجهل الملكات فوق المـألوفة التى قد يحوزها الكائن هو أيضـا ضرورة مطلقة تزيد عما تقدم ، لأن الاستخدام المنظم ، العادى ، والعملى

---

(١) عن المرجع السـابق ص ٣٥٩ — ٣١٢ . والاثبـات الميتافيزيقى مقتضاه الاثبات بأدلة منطقية مستمدة من وراء الطبيعة المـادية للوجود .

لهذه الملكات كان سيلغى الجهد تماما • والغريزة مثال يوضح لنا تماما هذا الاعتبار • فالغريزة ليست شيئا آخر سوى الصيغة المنحطة والبدائية للالهـام • وهى تتضمن كالالهـام قدرا من التخمين • وماذا نجـد فى نفسية الحيوان بالمقارنة بغيره ؟ نجد أنه حيثما سادت الغريزة فقد أوقفت التطور العقلى •

فالحشرة لهـا غريزة رائعة تخضع لهـا خضوعا أعمى ، فتطورت الحشرة فى أمان تام ، لكن تطورها قادها الى طريق مغلق ، ويبدو أن كل تقدم عقلى أصبح محظورا عليها بطريقة وضعية •

ولننظر الى الحيوانات الفقرية فنجـــد على العكس من ذلك أن الغريزة المعصومة أفسحت المجال للتفكير غير المعصوم ، لكنه تفكير خصب لأنه يفترض الجهد ويتطلبه • ولذا فان التقدم العقلى عندها لم يتوقف ويسمح بأمل كبير • وما هو صحيح بالنسـبة للغـريزة صحيح من باب أولى بالنسبة للملكات الغامضة المستقلة عن قيود الزمان والمكان •

فلنفترض أن انسانا بمقدوره أن يتصرف فى الحياة اليومية بمقتضى هذه الملكات ، فيقرأ مثلا أفكار غيره من الناس ، ويرى الأشياء عن بعد ، ويتمتع بالاستشفاف ، فما حاجة مثل هـذا الانسان لكى يفكر ، ولكى يحسب حساب تصرفاته ، ولكى يقدر العواقب ، ولكى يناضل ؟

فهذا الانسان قد يتجنب الخطأ ، لكنه أيضا سيتجنب الجهـد ، وبالتالى فليس ثمة تقدم عقلى له ، وهذا الانسان كان سيصبح كالحشرة : محض آلية رائعة • وهكذا فان التطور لو سار فى هذا الاتجاه فلن ينتهى الى وعى أسمى بل الى نوع من الحركية النوميـة المفرطة فى الحساسية التى تسمح بمعرفة كل شىء بدون فهم أى شىء[1]•وهكذا فان الانسان الأسمى كان سيصبح محض آلة سامية • فمن المفيد اذا ، بل مما لا غنى عنه أن تكون جميع الملكات الرفيعة ، شأنهـا شأن كل الكنز النفسانى

---

(١) يشـير جيلى الى احـدى مراحل التنويم المغنـاطيسى • وهى « اليقظة النومية الحركية » ولنا عندها وقفة فى المبحث الرابع .

الذى ادخره الانسان فى تطوره كائنة فى شطرها الأكبر فى اللاشعور ، وخامده ، فى المرحلة الراهنة من مراحل تطوره .

وصفة الخمود فيها لا تمنع هذه الملكات اللاشعورية من أن تلعب فى الوجود الأرضى دورا هاما ، بل أساسيا . فانها هى التى تكون المستودع النقى للكائن ، والتى تعطيه صفاته الأساسية . ولكن مظاهرها خامدة بالقدر الكافى الذى لا يعوق الجهد ، حتى وان كانت نشطة بالقدر الذى يساعد الانسان ويرشده . وهنا يوجد توازن رائع ، رغم أنه نادرا ما يكون توازنا كاملا : فغالبية الكائنات تجهل هذه الملكات أكثر مما ينبغى لأنها لديها فى حالة سبات . وثمة كائنات أخرى تعرف هذه الملكات أكثر مما ينبغى فتتألم من ادراك عجزها عن تحقيق تطلعاتها الأسمى من غيرها ، ولكن هذا الألم ضريبة العبقرية .

وجهل الماضى مثل جهل الحاضر فيه خير بدوره . فالكائن الذى بلغ الذروة فى التطور هو الذى يمكنه بلا متاعب أن يتعرف على كل التكدس الضخم لما مر به من اختبارات ، ومن انفعالات وعواطف ، وجهود ومعارك ، ومباهج وآلام ، وميول وأحقاد ، ومشاعر منحطة أو سامية ، وتضحيات أو أعمال أنانية . وفى كلمة يمكنه أن يتعرف على كل ما كون تدريجيا شخصياته المتعددة ، وميزه ، وخصصه المرة بعد الأخرى .

فلو عرف الانسان العادى ذلك — حتى ولو فى صورة ومضة برق — فان هذا البرق كفيل بأن يصعقه ! فان لديه ما يكفيه من أثقال الحاضر بكل أخطائه ومشاغله . فكيف يتحمل بالاضافة الى ذلك آلام الأيام الماضية ، وما ارتكبه من حماقات ومن تصرفات وضيعة ، ومن شهوات حيوانية كانت تدفعه ، ومن الملل الذى يتجاوز كل قياس عندما كان فى حيواته البدائية . فهل التأسى على التجسدات الممتازة يعادل ذكريات التجسدات الاجرامية ؟

والنسيان يؤدى لحسن الحظ الى تهدئة أحقاد الماضى وأطماعه العقيمة ، ويرضى بقدر معتدل الأغلال التى تقيد أكثر مما ينبغى الكائنات بعضها بالبعض الآخر ، وتحد من تحركاتها فى نفس الميدان . فكل تذكر للماضى لن يترتب عليه سوى اعاقة الكائن فى جهاده الحاضر ...

وفى النهاية فان الجهل بالمستقبل أمر لا غنى عنه لأسباب أقوى مما تقدم ، وأدعى الى هدوء النفس فى الأوجه الدنيا لتطور وعيها . وتعتقد الجموع أن هذا الجهل بالمستقبل نقمة كبرى ، وفى الواقع ان الجموع العادية ، أو المنحطة متأقلمة مع ظروف الحياة الراهنة . ومتكيفة مع نزعاتها السفلى ، ورغباتها الهزيلة ، ومع متعها القصيرة ، وأيضا مع موكبها الطويل فى المآسى .

وحتى عندما تشعر باختلاجات الفن فانها لا تفلح فى آن تسمو بها الى ادراك عالم أسمى ومشاهدته . وهى تجد أنه من الطبيعى جدا — لحسن الحظ — أن تحيا فى عالم للمعارك وللآلام . وبفضل جهلها فانها لا تثور عبثا ضد مالا يمكن درؤه . وتجد من الأمور المألوفة — بفضل عناية الله — أن ترى نشاطها يكاد يضيع برمته فى البحث عن لقمة العيش ، أو فى النضال ضد عناصر البغضاء .

وهكذا فان مشاغلها تكون من طراز منخفض وتعيش كما هى الحال فى الاطار الذى خلقت فيه ، ولا ترى بديلا آخر لجهدها الحاضر ، وليس بمقدورها أن تتحمل بديلا آخر من جهد يسمو على الانسان ، ولا حدود له .

وحتى بالنسبة للصفوة المختارة فان الجهل بحياتها المستقبلة أمر خير ، فانها بدون هذا الجهل كانت ستتضاعف آلامها فى حياتها الحاضرة . وكم كانت ستكون مأساتها عندما تدرك الأثر الهزيل فى المستقبل لما يبذل فى الحاضر من جهد ضخم ، وانتفاء الجدوى مستقبلا — بحسب الظاهر — من آلام الحاضر . وعندما تدرك أية مأساة تحققت فى مجرى

التطور الانسـانى حتى الآن : فالجـاذبية المفرطة للجمـال الأنثوى ، كالعبقرية المفرطة للمفكر ، كلاهمـا مرتبطان بتكوين عضـوى واهن ، وبوظائف دنيا ومنفرة ، ناهيك برواسبها وبأمراضها .

وللاستسلام لكل هذا البؤس يلزم ألا تكون لدى الانسان اية فكرة عن وجود عالم للنور وللحب أسـمى من عالمنـا ، وذلك رغم أن بعض الأشخاص من الصفوة المختارة لديهم الالهام بوجود ذلك العالم . وهذا الالهـام لا يعد مع ذلك ميزة لهم بالنظر الى الموقف الراهن من تطـور الانسـان . وان حزن الأشـخاص الممتازين امتيازا حقيقيا ليس له من سبب آخر سوى هذه الانطلاقة غير الواعية للاحساس بعالم جميل أكثر مما ينبغى ، لكنه يبـدو بعيدا كما لو كان يمثل حلما خرافيا وعابثا ... لكنهم وهم فى مواجهة الحقيقة الملموسة لا يتبقى لهم من تلك الرؤية التى تسمو عن الانسان العادى سـوى تثبيط الهمة ، واحتقـار الأشـياء الحاضرة ، والقاء ظلال الكآبة على كل حياتهم .

وهكذا ترى أن هذا الجهل الذى يحيط بالكائن من ناحية موقفه الراهن ، وماضيه ، ومستقبله ، لا ينبغى أن يدعونا الى استخلاص نتيجة تشاؤمية ، لأن هذا الجهل يكون جزءا لا يتجزأ من الآلام التى لا يمكن منعها ، لكنها لازمة ومثمرة .

ألا أن الجهـل فى فلسفتنا أمر عابر بالضرورة ، ومرتبط بالأوجـه الدنيا للتطور . وهو فى جانب منه قابل للتخفيف أو للتوقف المؤقت ، فى نطاق محدود خلال نفس مجرى التطور ، وسيترك مكانه يوما للمعرفة الكاملة والتـامة .

واذا كان الاندماج فى الجسد يتضمن قيودا فى اتجاه معين ، كمـا يبين من كل شىء ، وتحـديدا للفردية الواعية ، فانه يبدو واضـحا أن الانفصـال عن الجسـد يكون مصـحوبا باتساع حدود تلك الفردية . فالكائن يمكنه عند ذاك أن يتفهم ما يعنيه فى النطاق الذى يسمح به وعيه

المكتسب عن طريق التطور وهو ما كان يفلت منه عنـدما كان محكوما بحدود المخ • وهذا هو ما يحدث جزئيا عند اسـتخدام الملكات الوراء الروحية ، وهو ما يحدث لسبب أقوى عند الموت (١) •

عن تطور الوعى

وعن تطور وعى الانسان بعد الموت يقول جوسـتاف جيلى « أن الموت للانسان المتطور تطورا كافيـا يؤدى الى انفجار الدائرة المحدودة التى كانت الحياة المـادية تعتقل فيها الوعى الذى يتجاوزها ، وهى دائرة المهنة والأسرة والوطن ، فيجد الكائن نفسه محمـولا خارج الأفـكار والذكريات المـألوفة ، وخارج حبه وأحقاده وعواطفه وعاداته •

وبالقدر الذى يسمح له به تطوره الحالى يتذكر ماضيه ، كما يصبح لديه نوع من الاحساس السابق بالمستقبل ، فيمكنه أن يحكم على الطريق الذى سلكه ويقدر نتائج سلوكه وجهوده•وهناك أشياء كثيرة كانت تبدو لها أهمية قصوى فى مجرى حياته تظهر له عندئذ تافهـة وضئيلة القيمة عند النظر من عل •

كما أن فرحاته الكبـرى ، وآلامه ، وانفعـالاته التى تتناسب مع النتائج ، ومشاعره التى اجتاحت حياته ، ومطامحه التى افترستها ، كل ذلك يتضاءل عندئذ الى مقداره الحقيقى ، فلا يشغل الا مكانا ضـئيلا فى تسلسل ذكرياته الواعية • وبين روابطه القديمة ، يتلاشى الواهى منها كما يتلاشى الضباب الخفيف مع طلوع الفجر ، أما الروابط القـوية فهى تكون جزءا لا يتجزأ من سلسلة مصيره ، ولا يمكنه التخلص من حلقاتها الا تدريجيـا •

فهذه الفترة التى يقضيها الانسـان خارج الأعضاء ليست فحسب مرحلة استجمام وتركيب عام وحكم تلقائى على النفس ، بل أنهـا بوجه

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٦ — ٣٢١ •

خاص نشيطة جدا للاندماج النفسى ، اذ فيها يتم فى هدوء اندماج التجارب الجديدة فى التجارب القديمة ، كما تتميز فى الكائنات حالات الوعى التى تم تسجيلها خلال الحياة . وهذا الاندماج لا غنى عنه لتوحيد الشخصية والتناسق الروحى . فيبدو آن اضطرابات الشخصية — كما سبق أن بينا — لا ترجع مهما كانت غريبة غامضة الا الى عدم الاندماج النفسى بمعرفة الكائن قبل حياته الحاضرة ، والى ميل العناصر العقلية — التى لم تهضمها الذات — نحو المروق عن سلطة العقل ومناهضتها .

وفى الجملة يبدو أن المراحل المتتابعة للحياة العضوية وخارج الأعضاء لها دور فى التطور متميز هنا عنه هناك ، ولكن مكمل له . وفى سلسلة الحيوات المتعاقبة لا يبدو للحياة الأرضية من قيمة تذكر الا كقيمة يوم واحد فى مجرى هذه الحياة . فللحياة الأرضية برمتها ولليوم الواحد نفس القيمة ، وبينهما تماثل حقيقى . فهناك أيام سعيدة وأخرى سيئة ، كما توجد حيوات سعيدة وأخرى سيئة ، كما توجد أيام وحيوات مفيدة وأخرى ضائعة .

وفى الفترة بين وجودين أرضيين يعد الكائن المتطور تطورا كافيا برنامجه للمستقبل . وتفصل بين الحيوات ، كما تفصل بين الأيام ، فترات للراحة الظاهرة . ولكنها فى نفس الوقت لحظات للجهد المثمر ، ولهضم ما مضى وللاستعداد لما هو آت . وكما تبدو مشكلات كثيرة وقد حلها التوفيق عند اليقظة من النوم فكذلك يبدو الكائن فى مستهل حياته الأرضية مقودا فى خطواته الأولى فيسير فى اطمئنان كما لو كانت تمسك بزمامه يد ما فى الطريق الذى رسمه لنفسه ، والذى يجهله بمجرد ولادته ، ومع ذلك يسير فيه مغمض العينين .

هكذا الحال من وجود الى وجود . وعن طريق فيض التجارب الكثيرة المسجلة المهضومة يصل الكائن شيئا فشيئا الى الأوجه السامية من الحياة التى لا يكفلها الا التطور الكامل للوعى،أى عند تحقيق السيطرة عليه . والسيطرة على الوعى ينبغى أن تمتد —كغاية مثلى — على الحاضر

والمـاضى والمستقبل ، بمعنى أن تحقق نوعا من الاحساس الغـامض بالمستقبل الذى لا يبدو مفهوما الآن . ولكن ما يمكننا بالأقل أن نصل اليه عن طريق المنطق هو حالة من معرفة الذات والكون متسـقة بالقدر الذى يمكنها من الغاء نسيان المـاضى ، ومن السماح بالاستخدام المنظم والطبيعى للملكات السماوية ، وما وراء الروحيـة ، وبالتالى من رؤية معجزات التطور المتحرر السعيد ، المنبثق فى النهاية من ظلمات الجهـل ، ومن قيود الحاجة ومن الآلام الرهيبة »(١) .

تعليق

هـــذه هى بعض جوانب فلسفة جوستاف جيلى عن التطور من اللاشعور الى الشعور ، وهى فلسفة أصيلة وتعتمد على حقائق وضعية كثيرة وتفسر العديد من ألغـاز الوجود التى صادفهـا جيلى فى حياته العادية ، كما صادفهـا فى بحوثه فى الظواهر الوساطية بكافة أنواعهـا الفيزيقية والعقلية داخل « المعهـد الدولى لمـا وراء الروح » بباريس الذى كان مديره منذ تأسيسه الى أن توفى جيلى فى حادثة سقوط طائرة فى وارسو سنة ١٩٢٥ .

وهى الى ذلك تعطينا تعليلا يتعذر تماما الحصول على أفضل منه عن مصدر الادارك خارج الحواس ، وتحديدا يتعذر الحصول على أنسب منه لحقيقة الصلة بين اللاشعور والشعور ، ولموضع كل منهما من تطور ملكات الانسان ، ولصلة ذلك كله بالعودة المحتملة للتجسـد الأرضى مرات ومرات .

كما تساعد هذه الفلسفة على وضع الانسان فى موضعه الصحيح من الكون بوصفه كائنا روحيا ديناميكيا لا ينتمى تطوره نحو الأمام الى آلية الغرائز بقدر ما ينتمى الى حسن استخدامه لملكاته ومواهبه العقلية ،

---

(١) عن مؤلفه «من العقل غير الواعى الى العقل الواعى» De L'inconscient Au Conscient باريس ١٩١٩ ص ٣٢١ — ٣٢٣ .

وما قد يبذله من جهد فى سبيل تنميتهـا وتوسيع دائرة نشاطهـا ، عن طريق النضال الخلقى الحكيم • ومحور هـذا كله هو اقتناعه بخلود الانسـان ، وباحتفاظه بشخصـيته ، وبكل مكاسبه العقلية والعـاطفية وهو فى طريق تطوره الهادىء من اللاشعور الى الشعور ، الى أن يكون كائنا راقيا جديرا بمكانه السامى فى الطبيعة ، ومتمتعا بقـدر وافر من السعادة لا يتاح له الآن سوى شطر ضئيل جدا من هذا القدر •

فهى فلسفة من التفاؤل العلمى بمصير الانسـانية ، ومن التفاؤل الذى يتجاوز كل حدود ، مادام تطور الانسان نحو الأفضل يتجاوز بدوره كل حدود تصـورنا الراهنة • وهى بالتالى فلسفة تقع على النقيض من أية فلسـفة مادية بوجه عام ، ومن أية فلسـفة تشاؤمية بوجه خاص • ولذا فان جيلى جعل مناقشة فلسفة شوبنهور ودحضـها يقع فى الأساس من هذه الفلسفة الروحية المتفـائلة المترابطة مع المنهج العلمى بمقـدار ترابطها مع منهج البحث فيما وراء الطبيعة كما قال •

وهو يصل فى تفاؤله الى حـد الاعتقاد بأن الانسان حتى عنـدما يتكامل فى تطوره ، وتصبح ملكاته اللاشعورية ملكات شعورية،لا يتلاشى فى الوعى الكونى العام ، ولا يفقد نفسه وملكاته فيه ، بل يظل محتفظـا بمكاسبه العقلية والروحية ويظل طافيا فى هـذا الوعى العام كما تطفو قطع الجليد على مياه المحيط •

وهنـاك نقطة فى هذه الفلسـفة لا تثير الآن أى نقاش فى دوائر الباحثين . وهى أن الانسان الراهن لا يمثل تجسـدا تاما لكل عنـاصر وعيه ، أى لكل عناصر تكوينه الشعورى واللاشعورى ، بل انه يمثـل فحسب تجسدا عارضا لجانب يتفاوت فى مداه من هذا الوعى الذى يعمل خلال المخ ، حين يظل باقيـه ــ الى مدى أو الى آخر ــ خامدا خارج اطار المخ والجهاز العصبى للانسان •

ومقتضى هذا القول ــ عند المقتنعين بدوام حياة الانسان بعد الموت كنتيجة تفرض نفسها فرضا تأسيسيا على بينات لا تحصى توصل اليهـا

أسلوب التحقيق الوضعي ـ ان الانسان يكون بعد تخليه عن جسده الترابي بفترة تتفاوت في مداها أفضل مما كان قبل هذا التخلي ، من الناحيتين العقلية والوجدانية .

وهذا التحول نحو الأفضل يجيء نتيجة زوال الحاجز القديم بين الشعور واللاشعور ، والذي كان من صنع الجسد المادي الخاضع لهيمنة المخ والجهاز العصبي ، وهما جهازان بالغا الضعف بالمقارنة بالعقل والجهاز الأثيري ، هذا حتى اذا صرفنا النظر عن الأمراض الجثمانية التي قد تصيب المخ والجهاز العصبي من شتى المصادر وأولها الشيخوخة ، وكل أمراض الدورة الدموية أيضا ، بالاضافة الى الأمراض التي تصيب المخ والأعصاب بصفة مباشرة .

ولذا تجد أن الباحثين المطلعين يتحدثون كثيرا عما يسمونه « ذواتنا العظمى » التي نحصل عليها عن طريق « عملية الموت » أو بالأدق عن طريق عملية التحول عن طريق الموت أي مغادرة المعتقل الرهيب الذي يعتقل جانبا هاما من شعورنا وبالتالي يعطل الاستخدام الكامل لحواسنا وملكاتنا الفطرية ، ألا وهو الجسد المادي بكل ما يتحكم فيه من عناصر الضعف المتوارثة أو المكتسبة .

و « ذواتنا العظمى » ، أو بالأدق ذواتنا التي تسير سيرا حثيثا وان كان بطيئا نحو النمو والثراء في العقل والوجدان ، عن طريق العلم الصادق والايمان النقي ، هي موضوع فلسفة النفس في علم الروح الحديث ، كما هي موضوع فلسفة الروح في علم النفس الحديث . ولا تعجب لما أقول ، فان علم الروح هو الوارث الشرعي لعلم النفس بمفهومه القديم ، وقد سلم تماما بحقيقة هذه « الذات العظمى » حتى لقد أضحت فيه الآن بمقام البديهيات التي حاول جوستاف جيلي تأصيلها علميا ، كما اتجه اليها آخرون كبار من قبله ومن بعده ، ومن أكثرهم اطلاعا ، وأعمقهم مستوى .

وقد اختلف أكبر علماء النفس مثل مكدوجال ، وآدلر ، ويونج ، خلافات جوهرية عند محاولة وضع الحد الفاصل بين الشعور واللاشعور ، وبالتالى عند تعيين دور كل منهما فى سلوك الانسان واتجاهات مناشطه المختلفة .

ويبدو أن العلم لن ينجح فى هذا التحديد فى المستقبل القريب ، وذلك بالنظر لتداخل العقلين الواعى والباطن تداخلا تاما فى نشاطهما ناهيك بتداخل دور العقل الأسسى معهما فى أداء هذه المناشط . وأن اختلاط عناصر العقل المختلفة فيما بينها هو أشبه ما يكون بماء البحيرة المتحركة التى تتداخل مياهها على الدوام : ما يوجد منها فى القاع ، مع ما يوجد منها فى السطح ، مع ما يوجد منها بين القاع والسطح ، بسبب نشاط أى عامل يؤدى الى تحريك المياه ، ومنها مثلا حركة الهواء ، والتيارات المائية التى تجرى فيها ، ناهيك بالنشاط الملاحى فيها .

وعندما يتجمد جزء من ماء البحيرة بسبب حلول فصل الشتاء من المحال تعيين مصدر هذا الجزء المتجمد فى مائها رغم أن الجليد يطفو على السطح ، ويكون الجزء الأكبر منه (حوالى تسعة أعشاره) تحت السطح . ولكن مصدر هذا الجليد عبارة عن مياه مختلطة ومتداخلة معا قادمة من كل مستوى من أعماق مياه البحيرة .

وعملية تجمد جزء من ماء البحيرة قادم من أعماق متفاوتة لكى يطفو وحده على السطح هو — فى تقديرى — أشبه شىء بتجسد جزء من وعى الانسان قادم من أعماق متفاوتة من وعيه المتوارث والمكتسب ، لكى يطفو وحده على السطح العاقل فى جانبه الأكبر ، ويظل أغلبه معزولا عن باقى ماء البحيرة الذى لم يتجمد كله ، ولكنه يظل فى نفس الوقت غارقا فيها ، حتى يذوب هذا الجليد فيعود من جديد للاختلاط بباقى ماء البحيرة .

وعملية ذوبان الجليد يقابلها فى الانسان انفصال العقل عن المخ ، بالوفاة ، فعندئذ تعود كل عناصر هذا العقل الى الاندماج — بعضها فى

البعض الآخر من جديد ــ داخل اطار الشخصية الجديدة التى يصير اليها الوعى بعد الوفاة ، ويظل عليها . وهو مع ذلك يظل فى تفاعل دؤوب ، وعمل متواصل الى أن يحل وقت عودة جانب آخر من ماء البحيرة للتجمد جزئيا من جديد .

وكل انسان هو هذه البحيرة الصغيرة برمتهـا ، وليس هو مجرد قطعة الجليد المتجمدة ــ الى وقت ما ــ من هذه البحيرة . وكل بحيرة هى عبـارة عن قطرة ماء صغيرة فى محيط لا يعرف العلم له حـدودا ، ولا أبعـادا هو محيط الحياة الكونية نفسهـا . وكل قطرة ماء مآلها فى النهاية الأخيرة الى الاندماج فى هذا المحيط الأعظم عندما تصبح القطرة جديرة بالاندماج فى المحيط . وعندئذ يحصل صاحبها على « النرفانا » أو السعادة الأزلية التى لا تعكر صفوها تجسدات ترابيية سعيدة أو شقية، متقاربة أو متباعدة ، وذلك لأن السعادة الخالصـة عند تجسد جانب من الوعى فى التراب محض سراب ، وان وجدت فهى مقيدة بأغلال ومخاوف عديدة تنبع من طبيعة التجسد الترابى نفسه .

وهكذا يبدو تماما أن قضية مصـير الانسان أخطر بكثير من أن تكون قضية وجود مقيد محدود،مع انتماء بالوراثة الى اعتقاد وطقوس معينة،يلقى به الى جحيم لا حدود له ، وبلا مقدمات واضحة معينة وبلا منطق مقبول عادل . أو انتماء الى اعتقـاد وطقوس أخرى يلقى به الى جنات لا نهاية لها ، وأيضا بلا مقدمات واضحة معينة ، وبلا منطق مقبول عادل . فقضية مصير الانسان تصبح على هذا النحو هى قضـية دوام ، مع تطور . وتطور بعيد المدى ، عميق الأثر ، لا يحدث جزافا ، بل تلعب فيه ارادة الانسان دورا يتعذر اهداره تماما . وهو قبل كل اعتبار آخر دور روحى وأخلاقى لا يعصى على الفهم ، والتبرير ، والتقدير .

وعن طريق هذه العملية التى تتكرر عن طريق تكرار الميلاد والوفاة ،

كما يتكرر تجمد ماء البحيرة عن طريق تعاقب الحر والبرد ، يحدث النمو المطلوب فى عناصر الوعى المختلفة وتطورها ، واندماجها معـا فى وعى واحد متناسق ، متطور على الأمد البعيد ، مخصص لأداء رسالة فى مستوى معين من مستويات الوجود أسمى بكثير من مستوى نشاطه الراهن عندما يتجسد جانب منه ، أو بالأدق عندما يعتقل جانب منه فحسب للعمـل فى اطار التكوين العضوى المكتسب والمتوارث للمخ ، وعن طريق هــذا التكوين العضوى فحسب •

وهذه الاعتبارات تجعل من أشق ما يمكن محاولة وضع حد فاصل بين نشاط الشعور واللاشعور من جهة ، ونشاط العقل الأسمى والأسفل من جهة أخرى ، فالمشكلة ليست هينة بالمرة • وهى كالمشكلة التى يقابلها جميع الباحثين فى سلوك الانسان عندما يحاولون رسم حدود فاصلة بين ما يمت من عناصر السلوك الى الاكتساب ، وما يمت منها الى الفطرة •

هذا عن الطبع الفطرى للانسان ، أما عن العناصر البيولوجية المرتبطة به فهى تشير الى معنى نسبى يتحدد وفقا لظاهرة السلوك الانسانى المطلوب اخضاعهـا للدراسة ، لأنها عبارة عن علاقة بين الذات (أى الوعى بكل عناصره المتجسدة وغير المتجسدة) وبين عدة عوامل حيوية ليست غريبة عنها ، مرتبطة بها من كل جانب •

وتتوقف هذه العلاقة على طبيعة هذه العوامل وما يتولد عن تفاعل هذه وتلك من ظواهر شتى • وقد تشعبت الآراء فى شأن تحديد هــذه العلاقة : فمثلا يعطى بعض العلماء قيمـة خاصة للعوامل الاجتماعية فى تسيير السلوك الانسانى حين يعتبرها البعض الآخر مجرد وسيلة لابراز الصفات الفطرية التى تلقاها الفرد عن طريق الوراثة(١) •

ويمكن أن يضاف اليها الآن ـ فى اطمئنان كاف ـ التأثيرات التى

---

(١) للمزيد راجع مؤلفنا فى « مبـادىء علم الاجرام » طبعة خامسة ١٩٨٢ ص ٣٠١ وما بعدها والمراجع المشار اليها فيه .

تلقاها عن طريق تجسداته السابقة ، وظروف هذه التجسدات وهى لا يمكن أن تنتهى عند حد فى تعددها وتنوعها • وهكذا يمكن بسهولة الاتفاق مع الدكتور جيلى فى أن اختبارات الشعور تتحول الى اللاشعور، وأن ذكريات اللاشعور تصبح مع الوقت الطويل ملكات ومواهب يقظة فى الشعور نفسه •

* * *

وفى هذا الشأن يتساءل برجسون الذى هو فيلسوف وضعى وعالم نفسى أيضا قائلا : « ماذا عسانا أن نكون فى الواقع ، أو ماذا عسى أن يكون طبعنا ان لم يكن تلك الحصيلة التى تجمعت من تاريخ حياتنا السابقة ، منذ ولادتنا حتى الآن ، ان لم نقل قبل ولادتنا ، ما دمنا نحمل معنا ميولا وراثية ، أو استعدادات سابقة على الولادة •••

صحيح اننا لا نفكر الا بجزء ضئيل من ماضينا ، ولكننا نرغب ، ونريد ، ونعمل ، بماضينا كله مع ما ينطوى عليه من اتجاه أصلى قد اتخذته نفوسنا منذ البداية • واذن فان من شأن ماضينا أن ينكشف لنا بأكمله من خلال قوته الدافعة على شكل ميل أو اتجاه ، ولو أن جانبا ضئيلا منه فقط هو الذى يستحيل الى تصور عقلى » •

ثم يقول ان من شأن الماضى أن يظل حيا باقيا فى الحاضر ، وأن من المحال على الشعور أن يمر بنفس الحالة مرتين ، وذلك لأنه مهما تكن الظروف متشابهة ، أو مهما تكن الملابسات واحدة ، فانها لا تؤثر مطلقا فى شخصية واحدة بعينها ، مادامت تعرض لها فى لحظة جديدة من اللحظات تاريخها •

ولما كانت شخصيتنا فى تكوين مستمر لأنها تبنى ذاتها فى لحظة ، مستعينة بما تجمع لديها من تجارب فان شخصيتنا فى تغير دائم دون أدنى توقف أو انقطاع • وهذا هو السبب فى أنه لا يمكن أن تتكرر فى أعماق شعورنا حالة نفسية واحدة ، حتى ولو بدا لنا لأول وهلة أننا بازائه

ظاهرة واحده بعينها ... »(١) .

وهكذا يتحدث برجسون ليس فقط عن دور الوعي وكيف أنه « لا يعمل الا بجزء ضئيل من ماضينا ، ولكننا نرغب ونريد ونعمل بماضينا كله » ، كما يتحدث أيضا عن أنفسنا بوصفنا الحصيلة التي تجمعت من تاريخ حياتنا السابقة منذ ولادتنا حتى الآن ، ان لم نقل قبل ولادتنا مادمنا نحمل معنا « ميولا وراثية أو استعدادات سابقة على الولادة » . وهكذا نرى برجسون وقد اقترب اقترابا واضحا من جيلي في الجوهر والمضمون .

كما ذهب برجسون الى أن « المذاهب الروحية كانت على حق في استماعها الى الشعور عندما كان الشعور يؤكد الحرية الانسانية لكن العقل مازال موجودا هنا ليقول ان السبب يحدد نتيجته ، وان كل شيء معاد ، وأن كل شيء موجود من قبل . وقد كانت هذه المذاهب الروحية على حق عندما آمنت بوجود شخصية فردية مطلقة ، وباستقلال الفرد تجاه المادة » ...

فالموت بحسب هذا النظر ، لا يمثل فناء للانسان ، أو بالأدق للعنصر الخالد فيه وهو مبدؤه الذاتي Ego Principle أو فرديته الروحية Psychical individuality بحسب تعبير مكدوجال ، بل يمثل « تحولا من الحالة العضوية الى تلك الحالة اللاعضوية التي جاء منها » بحسب تعبير سيجموند فرويد في آخر طبعة له من كتابه « معالم التحليل النفسي » . وذلك عندما اقتنع في أواخر حياته — بعد طول مكابرة وعناد — بدوام حياة الانسان بعد الموت عن طريق الظواهر الوساطية الصحيحة . وهذه المكابرة الطويلة تضفي على اقتناعه المتأخر قيمة خاصة نظرا لمكانته العلمية الكبرى في تاريخ علم النفس(٢) .

* * *

(١) عن الدكتور زكريا ابراهيم في « مشكلة الحياة » ١٩٧١ص ٣١٢، ٣١٣ .

(٢) راجع ما ورد بهذا الشأن في الجزء الأول صفحة ٦٥،٣٤ — ٧٢.

ولكن يلاحظ أن تعبير « حالة لاعضوية » لا ينصرف بنا الى مفهوم انتفاء التكوين العضوى كلية للنفس بعد الموت ، أو قبل وفودها الى هذا العالم ، بل ينصرف فحسب الى مفهوم انتفاء التكوين العضوى الترابى ، أى ذلك التكوين الخاضع للحواس المادية . فللنفس دائما تكوين عضوى قد يكون خاضعا للحواس المادية ، أو لا يكون خاضعا، لكن التكوين موجود دائما بالأقل عندما يكون لدى النفس احساس واع بالذات بلا غلو ولا تطرف .

وهذا الاحساس بالذات من خصائص النفس الانسانية . ويؤدى دورا لا غنى عنه فى أداء رسالتها ، وفى تطورها التدريجى نحو الأمام . وهو متغير فى مداه،ويتزايد كلما سار تطور النفس فى الاتجاه الصحيح ، وهو اتجاه انكار الذات . ولا يوجد هنا أى تعارض بين الاحساس بالذات وانكار الذات ، بل بالعكس ان كل واحد منهما يوصل صاحبه الى الآخر . فكلما تزايد احساس النفس بذاتها كلما اتجهت الى انكار ذاتها . وكلما تراجع احساسها بذاتها — بسبب تراجع ثقتها بنفسها — كلما ظهرت عليها جلية أعراض الظواهر الأنانية للسلوك ، ومنها بوجه خاص الغرور ، والعنف ، والتشبث بالرأى الخاطىء ، وسوء الظن بالآخرين ، وفى الجملة كل ما قد يكشف عن توافر قدر او آخر من الميول العدوانية .

وهذا ما يلمسه المعنيون بالسلوك الاجرامى بوجه خاص عند أصحاب الشخصية السيكوباتية Sychopathic state سواء أكانت من النمط المزنوغ ، أم من النمط العدوانى ، أم منهما معا ، ومع مراعاة أنه لا توجد فى الواقع حدود فاصلة بينهما(١) . كما لا توجد حدود فاصلة بين الشخصية السيكوباتية وبين البارانويا — بالأقل فى بعض صورها خصوصا منها بارانويا التدين ، والغيرة ، والخيلاء ....

---

(١) راجع ما سبق فى جـ ٢ صفحة ٧٢٥ — ٧٣٥ .

أما عند توافر قدر معتدل من الثقة بالذات ، أو ان شئت من الاحساس بالذات ، فان هذا القدر كثيرا ما يقف وحده حاجزا كافيا فى وجه تلك الصور الشاذة من السلوك الضار بصاحبه وبالآخرين •

ومما هو جدير بالذكر أن الأشخاص من أصحاب هـذا السلوك المضاد للمجتمع يتمتعون فى المعتاد بمظهر خارجى ينم عن منتهى الافراط فى الثقـة بالنفس ، ويتحدثون كثيرا عن هـذه الثقـة بالنفس ، وهم فى الواقع أبعـد الناس عنها ، وبالتالى أبعـد الناس عن انكار الذات وأقربهم الى الأنانية المفرطة التى تكشف تمـاما عن مدى مغـالاتهم فى الاعتـداد بالذات • ولكنهم كثيرا ما ينجحون فى فرض آرائهـم على الآخـرين الذين لا يجرؤون على مناقشتهم الحسـاب ، أو على النقـد أو الاعتراض •

ولعله مما يوضح الفـارق الجسيم بين مجرد الاحساس المعتـدل الواعى بالذات ، وهو فطرة سليمة فى بنى البشر ، وبين المغالاة فى الاعتداد بالذات — وهو كارثة ، سلوكية اذا انتشرت فى مجتمع ما كان انتشارها وبالا على بنيه — هو مدى توافر القـدرة على نقد الذات نقدا أمينا ، سواء أكان هذا النقد مستترا أم مكشوفا(١) •

فالقدرة على نقد الذات نقدا أمينا قد تكون أفضل وسيلة للتخلص التدريجى من المغالاة فى الاعتداد بالذات • أما تراجع قدرة النقد الذاتى كليا أو جزئيا فقد يكون أقرب سبيل الى استفحال داء الاعتداد بالذات بكل ما قد يجلبه من ويلات على صاحبه وعلى الآخرين ، خصوصا على من يتعـاملون معـه فى محيط الأسرة ، أو فى المهنـة ،أو فى البيئـة الاجتمـاعية ••••

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى ج ٢ صفحة ٩٠٤ — ٩٠٦ •

المبحث الثالث

اللاشعور و « العودة للتجسد »
(بحسب تشارلي بروض)

تمهيـــد

يمثل الدكتور تشارلي دانبار بروض Charlie Dunbar Broad اسما من أرفع الأسماء في اطار البحث الروحى ، وفى البحث فى صـــلة العقل بالجسد وبالروح • وهو الى جانب ذلك فيلسوف من أبرز فلاسفة القرن العشرين فى بريطانيا ، ان لم يكن أبرزهم جميعا •

وقد ولد فى سنة ١٨٨٧ • وكان أستاذا للفلسفة بجــامعة سانت أندروز St. Andrews باسكتلندا ، ثم بجامعة داندى Dundee ، ثم بجامعة برستول من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٣ ، ثم أستاذا بكلية الترنتى بجامعة كامبريدج للعلوم الانسانية والأخلاقية من سنة ١٩٢٣ الى ســنة ١٩٣٣ ، وللفلسفة الأدبية بعد هذا التاريخ الى سنة ١٩٧١ أى الى حين انتقــاله الى عالم الروح حيث كان يحاضر فى البحث الروحى بجــامعة كامبريدج •

وكان عضوا فى « المجمع العلمى البريطانى » منذ ســنة ١٩٢٦ • كما كان عضوا فى « الأكاديمية الملكية » بالسويد ، وفى « جمعية البحث الروحى » بلندن • وقد اختير عضوا فى مجلس ادارتها منذ سنة ١٩٣١ ، كمــا انتخب رئيسا لهــا فى ســنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ وأعيد انتخابه فى ســنة ١٩٦٢ •

وأهم مؤلفاته : « الطبيعيات والحقيقة »(١) (١٩١٤) و « التفكير العلمى »(٢) (١٩٢٣) ، و « العقل ومكانه فى الطبيعة »(٣) ، و « خمسة

---

(١) Physics And Reality.
(٢) Scientific Thought.
(٣) The Mind And Its Place In Nature.

نماذج للنظرية الأخلاقية »[١] (١٩٣٠)، و « الأخلاق وتاريخ الفلسفة »[٢] (١٩٥٢)، ثم « الاعتقاد، والفلسفة، والبحث الروحى »[٣] (١٩٥٣)، ثم « محاضرات فى البحث الروحى » (١٩٥٩/١٩٦٠)[٤]، و « علم النفس التعليمى »[٥]، و « علم النفس التطبيقى »[٦] .

وقد كون اعتقادا علميا هادئا بصحة الظواهر الروحية، وأيضا بصحة مبدأ العودة للتجسد . وتعد أعماله فى الروح والعقل امتدادا لأعمال رواد هذا النوع من البحث من أساتذة كامبريدج الأعلام من طراز هودجسون، ومايرز، وسيدجويك، وجيرنى وغيرهم ....

وبالاضافة الى آرائه الخاصة عن التكوين الروحى للانسان، فان بروض — العلامة والفيلسوف العظيم — لا يجد غضاضة فى أن يكون رجوعه الى ما أملاه زملاؤه الراحلون من أساتذة النفس السابقين عن التكوين الروحى للانسان بعد رحيلهم ومرورهم شخصيا بذلك التحول الهام الذى ندعوه « موتا » بالمقارنة بنفس التكوين قبل هذا التحول . فقارن ما يجرى الآن فى أرقى البيئات العلمية فى الخارج، من تبادل الرأى بين الأحياء و « الأموات » فى مثل هذه الموضوعات البالغة الأهمية، وما يجرى عندنا من خمول مزمن وسبات عميق ! !

عن رأيه فى التمييز بين الشعور واللاشعور

وعن التمييز بين الشعور واللاشعور، وصلة كل منهما بدوام الحياة بعد الموت، وبموضوع التذكر والنسيان، يقول بروض فى محاضراته عن « البحث الروحى » التى ألقاها بجامعة كامبريدج فى عامى

---

(١) Five Types Of Ethical The ory.

(٢) Ethics And The History Of Philosophy.

(٣) Religion, Philosophy And Psychical Research.

(٤) Lectures On Psychical Research.
Incorporating The Parrott Lectures Given In Cambridge Univesity In 1959 And 1960.

(٥) Educational. Psychology.

(٦) Practical Psychology.

١٩٥٩ ، ١٩٦٠ — وهى مطبوعة فى كتاب صادر فى سـنة ١٩٦٢([1]) — ما ملخصه أن طبيعة الذات الانسانية وتكوينها بعد الموت بالمقارنة بتكوين العقل الانسـانى قبل الموت كانت محلا لمناقشـات كثيرة مع الروحيين جير نى([2]) Gurney ، ومايرز Meyers ([3]) عن طريق الوسـيطة ليونارد Leonard وروحها المرشدة المنتظمة فدى Feda ، ومع الوسيطة ويليت Wilett والروحين جون John وايتا Etta وعن طريق الوسيطة ليونارد أيضا فى جلسات الأسقف درايتون توماس([4]) .

ويقرر « أن الأرواح التى تحدثت عن طريق الوسيطه ليونارد تذهب الى أن التمييز بين العقلين الواعى والباطن يتلاشى بعد الموت ، وأن هذا يعنى بحسب الراجح أن كل ما كان غير واع يصبح واعيا تماما.ويضيفون أن هذا التمييز بين العقلين يعود اليهم مؤقتا عندما يستحوذون على جسم الوسيطة . وعندئذ فالجزء المستحوذ عليه منها يعمل كالشطر الواعى من العقل الانسانى فى حالته العادية قبل الموت ، أما الباقى فيعمل كما يعمل الشطر الباطن .

ولكنهم يقررون أن الشطر من عقل الروح المراسلة الذى يستحوذ مؤقتا على جسم الوسيطة يتحمل بالنسبة للشطر الباطن من عقله نسـبة أقل مما يتحمل الشطر الواعى من العقل الانسانى — فى يقظته العـادية فى حالة ما قبل الموت — بالنسبة لباقى هذا العقل([5]) .

---

(١) عنوانه : Lectures on Psychical Research.
الناشر : International Library of Philosophy And Scientific Method

(٢) العـالم النفسى الذى كان أسـتاذا بكامبريدج ومعنيا بالبحوث الروحية (١٨٤٧ — ١٨٨١) .

(٣) العالم النفسى الذى كان أستاذا بكامبريدج ، وهو من أبرز رواد العلم الروحى من البريطانيين (١٨٤٣ — ١٩٠١) .

(٤) راجع ما سبق عنه فى جـ ٢ صفحة ٦١٦ — ٦٢٧ .

(٥) ذلك أنه بعد انتقال هؤلاء العلماء الى عالم الروح جرت اتصالات عديدة معهم على مدى سنوات طوال . كما جرت اتصالات مع غيرهم منهم سير وليام بارت William Barrett الأستاذ بجامعة دبلن =

وان عليّ — يقول تشارلي بروض — أن أعتقد أن القيمة الحقيقية لهذه التقريرات مرتبطة بالنقاط الثلاث الآتية عن حالة عقل الانسان بعد الموت ، وهي : —

أولا : أنه اما أن يكون هذا العقل في حالة تذكر دائمة ، واما على أية حال يمكنه في أية لحظة أن يتذكر — اذا أراد — كل تجاربه السابقة على الموت واللاحقة له .

ثانيا : أنه عندما يكون هـذا العقل في حالة استحواذ مؤقت على جسد الوسيط يتذكر حقيقة ، أو يمكنه أن يتذكر — اذا أراد — جزءا فقط من تجاربه السابقة للموت واللاحقة له .

ثالثا : أن هذا الجزء قـد يكون أصـغر بكثير من الجزء المتعلق بتجاربه السابقة الذي يتذكره حقيقة انسان لايزال حيا في جسده الفيزيقي ، أو يمكنه — اذا أراد — أن يتذكره في أية لحظة من لحظات حياته اليقظة العـادية » .

= ومن أهم ما قرره هـذا الأخير — والأسقف درايتون توماس أيضـا — أن هيمنة الروح على وعي الوسيطة برمته غير متيسرة ، وان الهيمنة دائما تقتضي أيضا من الروح المراسل الا يستخدم وعيـه كله ، بل عليه أن يدع « شطرا من نفسه خارج اطار الهيمنة » .

ولذا فانه من المتعذر أن نقول الى أي مدى يحـدث اتصال بالكامل بالوعي الكلي للروح المراسل ، بل علينا أن نضع في الاعتبار دائمـا أن جانبا من وعي الروح المراسل قد ترك جانبا ، وذلك بالنظر الى انتفاء الحـدود الفاصلة التي تحـد من وعينا ومن عالمنا . وقـد أيدت هذا النظر أرواح مراسلة أخرى .

والمشكلة ليست سهلة ، خصوصا بعد أن تكون اقامة الروح المراسل في عالم الأثير قد امتدت الى آماد طويلة . للمزيد في هذا الموضوع راجع :—

Paul Beard : Survival of Death. London 1972 P.P. 122—130.
Living On : A Study of Altering Consciousness After Death London 1980.

وما يصدق على هيمنة الرواح على وعي الوسيط أو الوسيطة قـد لا يصدق على الصور الأخرى من الاتصالات الروحية بمثل الكتابة المباشرة أو التلقائية ، عندما تنتقل الهيمنة من الوعي الى اليد . أو عنـدما تنتفي الهيمنة تمـاما ، ويكتفي الروح المراسـل بانتزاع قـدرا آخر من الطاقة الوساطية التي قد يحوزها الوسيط أو الوسيطة بحسب الأحوال .

أما الأرواح المراسلة عن طريق السيدة ويليت willett (١) فلها نظرة مغايرة نوعا لهـذه ، وتعتمد على فهمها لمعنى « الشطر السماوى » للعقل الانسانى بوصفه أسمى من شطريه الواعى والباطن وأعلى منهما . فطبقا لهذه الأرواح يظل هناك شطر بعد الموت فى عقل الميت يمكن أن يوصـف بأنه واع ، وشطر آخر يوصـف بأنه غير واع ، ولكن بعض محتويات العقل الواعى قبل الموت يتلاشى ، والباقى يتصـل بمحتويات العقل الباطن كما كان قائما قبل الموت ، كيما يكون نطاق الوعى بعـد الموت .

فالشطر الباطن من الذات التى تتبقى بعـد الموت يتلقى امداداته ـ أى معلوماته ـ من الشطر السماوى من ذات ما قبل الموت . ويقول الدكتور بروض أنه بدون الزعم بفهم ما يعنيه هـذا القول حرفيا ، فانه يمكن أن يقدر أن اضافة « النفس السماوية » تعطى هنـا معنى مغايرا للمعنى الذى ذكرته الأرواح المراسلة عن طريق الوسيطة ليونارد ، وأكثر منه تركيبا بكثير .

والأرواح المراسلة عن طريق الوسيطة ليونارد تقرر صراحة أن لديها أعضاء احساس تستخدمها فى الادراك عنـدما لا يكون مستحوذة على جسد الوسيطة . وتقرر أنها يمكنها أن تستخدم هذه الأعضاء حتى عندما

---

(١) السيدة ويليت هو اسم مستعار للسيدة كومب تينانت Coombe Tennant . وكانت سياسـية معروفة وأول مندوبة لبريطانيا فى عصـبة الأمم (عقب الحرب العالمية الأولى) . وظلت حريصة على أن تبقى وساطتها طى الكتمان حتى تدرأ الازعاج الذى قد يتعرض له أحيانا بعض الوسـطاء من الفضوليين ، ومحبى الاستطلاع ، ومنكرى الظواهر الروحية .

ولكن علم بروض ـ الذى كان أستاذا بجامعة كامبريدج ـ بمواهبهـا الوساطية عن طريق نجلها الذى كان بدوره طالبا بنفس الجامعة ، فحضر العديد من جلساتها وسجل ظواهرها دون ذكر اسمها الحقيقى .

فهى لم تكن وسيطة محترفة أسوة بغالبية الوسيطات الممتازات اللاتى أسهمن فى أبحـاث جامعة كامبريدج ، وأيضا فى أعمـال « جمعية البحث الروحى بلندن » التى تضم لفيفا كبيرا من أساتذة هذه الجامعة ، وهم من جميع التخصصات فى العلوم الطبيعية والانسانية . وتصـلنى مطبوعاتها بانتظام منذ أن منحتنى شرف عضويتها فى سنة ١٩٧٣ .

تكون مستحوذة عليهـا ، ولكنها عادة تتفاوت فى ذلك ، وتفضـل أن تستخدم فى الادراك أعضاء الاحساس التى لدى الوسيطة • وتقريرات مماثلة قدمتها روحها المهيمنة فدى Feda وهى تقرر أنهـا تستخدم أذنى الوسيطة كيما تستمع الى الأصوات الفيزيقية العادية ، بينما تستخـدم أعضاءها السمعية الخاصة لتستمع الى أصوات المراسـلين (الأرواح) وتلح فى أنها تستخدم كلمة «الاستماع» بنفس المعنى الحرفى فى الحالين •

وفى الواقع ان نوع بعض الأخطاء التى وقعت فيها فدى دفع بعض الجلساء اليقظين الناقدين الى استنتاج أنها فى حالات كثيرة لا يمكن القول بأنها كانت تشاهد ــ بالمعنى الحرفى للمشاهد ــ بعض المراسلين الظاهرين الذين كانت تقول هى نفسها انها كانت تشاهدهم•وفى الواقع ان الروحيين جون John وإتا Etta قررا أن فدى تقول ، وتعتقد بغير ريب ، أنهـا كانت تشاهد بأعضاء النظر الخاصة بها ، حين كان مصدر معلوماتهـا فى الواقع هو التلباثى • ولكنهما مع ذلك يوافقان على أنها تشاهد من آن لآخر ــ بالمعنى الحرفى للمشاهدة ــ أشخاصا وأشياء فى عالمهم بأعضاء الاحساس الخاصة بها • كما يقرران أنها فى أحيان أخرى تخطىء بصورة عكسية فتعتقد أنها تلقت معلومات ما عن طريق التلباثى ، حين أنهـا فى الواقع تلقتها خلال مشاهدة حقيقية لها •

وكل هذا يتضمن طبعا أن الأرواح المراسلة والروح المهيمنة تدعى أنها تملك وتستخدم عادة أعضاء للاحساس وللحديث مماثلة لمـا يقابلها هنا • وما تقرره هذه الأرواح عن الحـديث الى فدى بالمعنى الحرفى فى بعض المناسبات ، بالمقابلة مع نقل الأفكار الى عقلهـا بطريق التلباثى فى مناسبات أخرى ، مما يتلاءم تماما مع ذلك » •

صلة هذا الموضوع بخلود النفس

ثم يضيف تشارلى بروض « اننى أظن أننا ينبغى أن نلخص ما تقدم بالقول بأن المراسلين (الروحيين) عن طريق الوسيطة ليونارد ، وروحهـا المهيمنة على اتفاق فى أنهم يحوزون نظرة حيوية محـددة عن أنفسـهم

وبالتالى طبيعة انسانية بوجه عام »(١) • وينتقل المؤلف بعــد ذلك الى الجسد الأثيرى وصلته بالجسد المــادى وباللاشعور •

كما ينتقل الى ما قرره سويدنبرج Swedenborg الفيلسوف ووسيط الطرح الروحى والالهام(٢) من أنه عرف طائفتين من الأرواح الانسانية : طائفة أصرت على القول بأنها عبارة عن مجرد كائنات عقلية خالصة ، كما قابل طائفة أكثر عددا بكثير من هذه تعتقد أنها لاتزال تملك أجسادا مادية كاملة لها حواس وأعضاء خاصة بها ، وبالتالى ترفض أن تصــدق أنهــا أصبحت « موتى » •

ويميز ســـويدنبرج فى هذا الشـــأن بين تلك الذات الخارجيــة والداخلية للأشخاص فى حالة ما قبل الموت • فالذات الخارجية هى الجزء منـــا الذى يعبر عن نفسه فى صلاتنا بالأشياء الخــارجية ، وبالأشخاص الآخرين ، وهو الواجهة التى يعرضها كل واحد منا على الآخرين ، وكثيرا ما تصبح هى نفس الواجهة التى قد يعرضها الواحد منا على نفسه أيضا • وهذه الذات الخارجية كثيرا ما نجحت تماما فى أداء دورها خلال الحياة الأرضية ، الى حد أننا أصبحنا نعتقد أنهـــا تمثل فينا كل الشخصية أو بالأقل الشطر الغالب فيها •

وبعد الموت مباشرة يظل الانسان مسودا بذاته الخارجية،ومايشغلها من اهتمامات موجهة الى الخارج • وهذه هى حالة غالبية الأرواح التى صادفها سويدنبرج فى مرحلة التطور هذه ••• وخلال هــذه الفترة ، عندما نفكر الروح فى وجه شخص آخر أو فى وقائع متصلة بهذا الشخص على الأرض ، فانه يخيل اليها أن هــذا الشخص حاضر بجســـمه أمام عينيها • وأثناء انقضاء هذه الفترة يبدو أنه تكون هناك روابط كثيرة بين الأصدقاء والمعارف السابقين • وتتراوح هذه الفترة بين يوم واحد الى

---

(١) عن المرجع السابق ٣٣٥ ــ ٣٣٨ •

(٢) راجــع ما ورد عنــه فى ص ٢٢١ ــ ٢١٤ من الجــزء الأول من « مفصل الانسان روح لا جسد » ، وص ٣٢ ــ ٣٤ من الجزء الثالث •

عام تقريبا بتوقيتنا ، وذلك بحسب درجة سيطرة الذات الخارجية فى لحظة الموت[١] .

أما فى المرحلة التالية — فان كل روح حية — بحسب سويدنبرج — يكون عليها أن تعمل وأن تظهر لنفسها وللآخرين بما يتفق مع ذاتها الداخلية ، وما يسودها من رغبات ، وانفعالات ، ومشاعر ، وقيم ، لا تنال منها خشية الاعتبارات الاجتماعية والتحكمية المختلفة . فالأشخاص ذوو الرغبات والمشاعر الشريرة الذين فرض عليهم المجتمع مظهرا عاديا ، والذين كانوا يجاروز هذا المجتمع لا يمكنهم بعد الموت أن يخفوا حالتهم ، بل تنكشف، آلوانهم الحقيقية . فعندما تتصرف روح انسانيه فى هذه المرحلة بنية سيئة ، فانها تجذب تلقائيا وبطريقة لا تدفع ، الأرواح الشريرة وتضع نفسها تحت سلطانها ...

ويلاحظ سويدنبرج أنه فى كل مرحلة من مراحل التطور فى عالم الروح يجد الانسان صعوبة فى أن يتخيل — وصعوبة أكثر منها فى أن يعتقد — أن هناك مرحلة أخرى تالية ، وكل انتقال من مرحلة الى مرحلة يبدو له كأنه الموت . فهو من جهة يريد أن يصبح فى حالة أسمى من حالته ، ولكنه من جهة أخرى لا يريد أن يفقد حياته الراهنة .

ثم يربط بروض بين أقوال سويدنبرج هذه وبين أقوال الأرواح المراسلة عن طريق السيدة ليونارد ، وتلك المراسلة عن طريق السيدة ويليت فيرجح أن كل طائفة منها تتحدث عن مرحلة من مراحل تطور الروح بعد الموت مغايرة للمرحلة الأخرى (٢) .

وفى محاضراته التى ألقاها بجامعة كامبريدج فى عامى ١٩٥٩و١٩٦٠ فى موضوع « البحث الروحى » يقرر بروض « آن مشكلة امكان استمرار

---

(١) عن المرجع السابق ص ٣٤٢ — ٣٤٨ .

(٢) ويلاحظ بروض على ذلك أن عددا وفيرا من الرسائل التى وردت خلال الوسطاء والمفروض أنها آتية من أولئك الذين ماتوا بغتة بسبب الحوادث أو فى ميدان القتال تتلاءم بصورة طبيعية مع ما يبدو أن سويدنبرج قد شاهده بنفسه .

الشخصية الانسانية فى الحياة بعد موت الجسد المادى الذى كانت مرتبطة به تجريبية فى شطر منها وفلسفية فى شطر آخر ، بمعنى واحد من هذا التعبير .

فهى تجريبية بمعنى أنه اذا أمكن صياغتها بوضوح وعرضها فى صورة سؤال قابل للفهم ، فان السبيل المناسب الوحيد لمحاولة الاجابة انما يكون باللجوء الى الوقائع الخاصة بهذا الموضوع والخاضعة للمشاهدة . ومن هذه الزاوية يمكن مقارنة هذه المشكلة بهذا التساؤل : هل تستمر قطعة النحاس فى الوجود حتى بعد أن تذوب فى حامض النتريك ؟ والوقائع المناسبة الخاضعة للمشاهدة هى بعض الوقائع التى يحققها الباحثون الروحيون ، وبوجه خاص وقائع معينة للغيبوبة الوساطية .

وهذه المشكلة فلسفية من ناحية أن استمرار حياة شخص بعد موت الجسد ليست بالمرة مشكلة واضحة ولا جلية . فنواحى غموضها بحاجة الى تبيانها ، والاحتمالات المختلفة التى تخفيها ينبغى تمييزها وصياغتها بوضوح . وهذا عمل الشخص ذى الاستعداد والاهتمامات الفلسفية . ولكن من العبث أن يعمل فى خواء اذا أمكنه أن يتم أى شىء يستحق العناء ، لأنه محتاج الى قاعدة من المعرفة عن حقائق السيكولوجيا الشاذة ، والظواهر التى درسها الباحثون الروحيون ، وينبغى أن يواصل تحليلاته فى ضوء معلومات كهذه . وفى الخاتمة سيكون اهتمامى موجها بالكامل نحو مسئولية ايضاح المشكلة وما تقتضيه .

واذا كان لنا أن نتفهم ماذا تعنى عبارة « دوام الشخصية الانسانية بعد الموت » ، وما الذى تتضمنه من معان ، فان علينا أن نوضح ابتداء ماذا تعنى عبارة « شخص انسانى » . ولهذا فانى سأبدأ بالنظر الى هذا الموضوع ...

ثم يقول : هناك بالتأكيد حالات أمكن فيها لجسد انسانى واحد أن يرتبط بالتبادل بشخصيتين متميزتين أو أكثر • وهناك حالات أخرى يفترض فيها افتراضا مقبولا أن شخصين أمكنهما فى وقت واحد أن يرتبطا بنفس الجسد الانسانى الواحد •

وفى الحالات التى يكون فيها الوسيط خاضعا بحسب الظاهر لاستحواذ روح كائن انسانى متوفى فان الشخصية المرتبطة بجسد الوسيط خلال فترة الاستحواذ مطالبة بأن تكون مطابقة لتلك الشخصية التى كانت فيما سبق مرتبطة بجسد هذا الكائن الانسانى • وفى مثل هذه الحالات هناك بالتأكيد بينة تبدو مؤيدة بقوة ولأول وهلة هذه الدعوى، حتى ولو لم تكن هذه البينة حاسمة فى أية حالة منها •

ومن المتصور أيضا أنه ينبغى أن توجد حالات لاستحواذ ظاهرى فيها تكون الشخصية المرتبطة مؤقتا بجسد الوسيط مطالبة بأن ترتبط بعد مضى وقت معين بجسد كائن انسانى معين عليه أن يولد فى تاريخ مستقبل ما لأبوين فى مكان معين ، وانى أعتقد أنه توجد حالات قليلة من هذا النوع • ولو كانت البيانات التى تمت باتة بما فيه الكفاية فانه من ناحية المبدأ سيكون من الممكن قبولها أو رفضها • واذا أمكن التحقق منها فان هذا التحقق من شأنه أن يؤيد هذه الدعوى ، ولو أن البينة الى جانبها لن تكون حاسمة أبدا • ولا أعلم حالات تقترب من الوفاء بهذه الشروط ، ولكنى أتصور هنا جميع الاحتمالات المتصورة[١] •

ثم يقول بعد تحليل دقيق لجميع الاحتمالات والافتراضات المتصورة لحالات الهيمنة أو الاستحواذ ، وبعد استعراض بعض وجهات النظر الدينية عن كيفية دوام الحياة بعد موت الجسد المادى فى عقائد الشرق والغرب « ولنفترض أنه أمكن اظهار أنه من غير المتصور سواء من ناحية المبدأ أم من ناحية التفاصيل أن يوجد تيار للتجريب الشخصى غير مرتبط

(١) عن المرجع السابق ص ٣٨٧ — ٣٨٩ •

بأى نوع من الأعضاء الجسدية فان ذلك لن يعادل بالمرة اظهار أنه من غير المتصور أن تبقى شخصية الانسان بعد الموت فى حالة لا جسد لها فان بقاء كهذا يتطلب أن حالة معينة — من تيار التجريب الشخصى المرتبط بجسد انسانى أصبح الآن ميتا — ستعتمد على حالة أخرى لها جسدها فى صورة هذه العلاقات الوثيقة الغريبة التى ينبغى أن تسلك بنفس الجسد اذا كان كلاهما يحسبان بمثابة « فصين » متتابعين من تيار تجريبى معين واحد لنفس الشخص ... »(١) .

وبعد أن ينفى بروض احتمال دوام الحياة بعد الموت بدون جسد اطلاقا يتعرض للاحتمال الآخر وهو أن يكون الدوام مرتبطا بنوع من جسد غير مادى قائلا : « أظن أنه من الحق أن أذكر أن بعض أولئك المراسلين الظاهرين خلال الوسطاء الذين أعطوا أشد البيانات تأثيرا عن شخصياتهم بوصفهم أشخاصا متوفين والذين استخدموا الذكاء ، والذوق السليم ، والثقافة فى اتصالاتهم الظاهرة قد أكدوا صراحة أن لديهم جسوما وأنهم يدركون عن طريق أعضاء الاحساس . وان كانوا يدعون أيضا أن لديهم وسائل أخرى للتعرف على الأشياء وعلى الحوادث ، وللتأثير فى الأشياء وفى الأشخاص (وعلى أن أذكر على سبيل المثال المراسلين الظاهرين لدرايتون توماس Drayton Thomas.(٢) وما قرروه) . ومن الحق أيضا أن أقول اننى لا أعلم عن مراسلين ظاهرين أنكروا صراحة أو ضمنا أن لهم أجسادا .

وأظن الآن أنه من الممكن أن نقبل كأمر حقيقى أن شطرا من الاتصالات يشير الى أن الشخصية الظاهرة المراسل (الروحى) تمثل شخصا متوفيا معينا بالذات ، وأن نرفض من هذه الاتصالات بوصفه شطرا يمثل مجرد الخداع ، أو مجرد تخيل من جانب الوسيط ، ما يذهب أو ما يدل

(١) عن المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) الأسقف والبحاثة الروحى المعروف ، راجع ما ورد عنه فيما سبق فى صفحة ٦١٦ — ٦٢٧ .

على أن المراسل الظاهر له جسد من نوع معين ويدرك بواسطة نوع من أعضاء الحس (المـادية) • ولكن ينبغى على أن أقول ان ذالك من شأنه أن يخطر ببالى كوسيلة عالية المستوى وتحكمية لمعالجة البينة • ولنفرض أن من الجائز أن نقبل — كوقائع ذات قيمة أساسية — هـذه التقارير العديدة عن ظهور الاكتوبلازم من أجساد الوسطاء فى غيبوبتهم ، وتشكله مؤقتا فى شكل تجسدات تأخذ صورة هذا الشكل الانسانى أو ذاك فان ذلك يقوّى فى اعتقادى افتراض دوام الحياة مرتبطة بنوع من جسد غير مادى •••

ومتى كان دوام الحياة متصـورا ، فانه لا يسعنى الا أن أظن أن الصورة المقبولة هى أنه على أية حال بعد الموت مباشرة ، وبعد فترة لاحقة غير محـددة فان الشخصية التى تبقى تظل مرتبطة بجسـد من نوع غير مادى كان أثناء الحياة مرتبطا بوسيلة وثيقة بالجسد المـادى(١) • واذا كان الأمر كذلك فان على أن أظن — كما ذهب سويدينبرج — أن هـذه الشخصيات البـاقية تظل لمدة طويلة لاحقة تخلط بين هذا الجسـد غير المـادى (الذى أصبح لها) وجسدها المـادى السابق(٢) ، ويتعذر عليها أن تدرك أنها ماتت »(٣) •

* * *

كمـا يقول بروض ان اختبارات الخروج من الجسد تعزز — لأول وهلة فيما يبدو — افتراض ازدواج الانسان الى جسدين • وتكون هذه الاختبارات هامة لموضوعنا الحالى بقدر ما تتضح صحة البيانات التى جاء بها من مر بها ، وبقدر ما تكون غريبة عن وعيه المألوف ، أو رأيه المحتمل • وأيضا عندما يكون من المتعذر الوصـول الى التفصيلات الا من كائن انسانى زار نفس المكان الذى يقول الشخص انه زاره فى ذلك الوقت •

(١) راجع ما ورد عن التجسدات فى « مفصل الانسان روح لا جسد » طبعة ٤ . الجزء الأول ص ١٧٧ — ٢٠٨ ، ص ٥١٧ — ٦٨٠ .

(٢) الحديث هنا عن الجسد الأثيرى أو غير المـادى . راجع ما ورد عنه فى الجزء الأول ص ٢٨٦ — ٣٣١ .

(٣) عن المرجع السابق للدكتور بروض ص ٤١٠ ، ٤١١ .

وتزداد أهمية هذه الوقائع اذا كان ثمة شبح لهذا الشخص قد شوهد بمعرفة شاهد أو أكثر كانوا موجودين فيزيقيا فى المكان الذى يبدو ان الشخص نفسه كان موجودا فيه فى جسده الكوكبى ...(١) .

ومن ناحية طبيعة الحالة فان أقوى سند يعزز افتراض الازدواج يجىء من ناحية تلك الظواهر التى تتطلب لتفسيرها موضوعيا أن يبقى بعد موت الكائن الانسانى « شىء » منه يحمل آثارا من اختباراته ، وعاداته ، ومواهبه كما كانت فى أثناء حياته ، ومنظمة بنفس الطريقة المميزة له عندما كان حيا . وهذه الظواهر على نوعين بالأقل : حالات الأمكنة المسكونة (٢) ، وبعض أنواع الاتصالات الوساطية . وهذه الأخيرة أهمها ، لأنها أوفر منها عددا ، وتفصيلاتها كثيرة ، والشهادات عنها أفضل ....

كما يقول بروض فى موضع لاحق أنه يعتقد أنه من غير المناسب الزعم بأنه كل هيمنة محسوسة على وسيط بمعرفة روح انسان متوف — اذا كانت من الحالات التى ثبتت جيدا — يمكن تفسيرها بالتخاطر (انتقال الأفكار) من أشخاص لا يزالون فى اللحم ، ويمثلون أدوارا عن طريق الوسيلة وهى فى غيبوبتها . وانه يتحدث الآن عن تلك الحالات التي فيها تتحدث الوسيطة وتسلك نفس السلوك المسند الى الكائن المراسل ، رغم أنها لم تقابله أبدا خلال حياته ، ولم تستمع اليه ، كما لم تر أى تقليد لصوته أو الحركاته .

وثمة حالات أخرى يقال فيها ان الوسيطة تقدم كتابة تلقائية مسندة الى هيمنة كائن انسانى معين متوف ، وبنفس خطه المميز المؤكد رغم أنها لم تر أى خط له ، أو أى أنموذج ، أو أى تقليد لخطه ... فهذه

---

(١) راجع ما ورد عنه فى الجزء الأول فى ص ٣٧٦ — ٤٠٧ .

(٢) راجع ما ورد عنها فى كتاب « الاتصال بين عالمين » ١٩٨١ ص ٢٢ — ٤٠ ، ٩٧ — ١٦٣ .

الحـالات اذا ثبت تماما حدوثهـا ، فانها تنتمى الى نفس طائفة حالات الصوت المباشر ، التى يبدو أن بعضا منها يخضع لهذا الوصف (وصفه الثبوت التام)(١) .

والآن يبدو لى أن أية محاولة لتفسير هذه الظواهر « بالتخاطر » بين الأحياء انما تسىء الى مفهوم كلمة « التخاطر » حتى لتصبح بالأكثر خالية من كل معنى ، وتستخدم هذه الكلمة فى غير موضعها ، ولا تماثل أية مماثلة الظواهر التى ابتكر « التخاطر » للتعبير عنها .

وهذه الحالات تمثل بينة قوية على بقاء « شىء » بعد وفاة الانسان يحمل آثارا من اختباراته ، وعاداته ، ومواهبه ، ويصبح هذا « الشىء » مرتبطا مؤقتا فى أثناء الجلسة بأعضاء الوسيطة وهى فى غيبوبتها . كما أنها تمثل بينة على شىء أكثر تحديدا ، وينبغى أن يثير الاستغراب فعلا . وهو أن هـذه الحالات تفترض وجود بعض أنواع مميزة من السـلوك الجثمانى الواضح الذى يتحدث فى نبرة مميزة من الصوت.ويكتب بخط مميز ، ويقوم ببعض حركات مميزة وغير ذلك مما يحمله الوعى عنـدما يتوقف عن التجسد ، ويكون على اسـتعداد للتعبير عن مميزاته هـذه عندما يرتبط من جديد مؤقتا بجسد انسانى حى مناسب . وهذه المميزات تبقى قوية الى حد أنهـا عندما تنشط مؤقتا فانهـا تتغلب على المميزات المقابلة للوسيطة فى غيبوبتها عنـدما تتحدث ، وتكتب ، وتتحرك بنفس أساليبها المـألوفة(٢) .

* * *

وبعد أن يستعرض بروض الحالات الثـابتة من الاتصالات الروحية لأسباب ذكرها ، يتحدث عن الذاكرة وعن الدور الذى تلعبه الذاكرة فى شخصية صاحبهـا ، وفى تنبـه شخص معين فى وقت ما من شخصيته الى

---

(١) راجع ما ورد عنها فى الجزء الأول فى ص ١٥١ ، ١٨٩ ــ ١٩٥ .
(٢) عن المرجع السابق للدكتور بروض ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

تذكر نفسه كما لو كان عبارة عن شخص آخر عاش فى فترات سابقة معينة من حياته .

فيقول ان هناك حقيقة هامة عن اختبارات حدثت لبعض الأشخاص تذكروا فيها أحداثا سابقة بصورة مغايرة عن التذكر الحقيقى لهذا الأمر ولذلك . ويبين بروض عناصر التفرقة بين التذكر الحقيقى لأحداث الحياة الراهنة والتذكر الغامض لأحداث قديمة خارجية عاصرها هو بنفسه . وعناصر القدرة على تذكر هذه الأحداث القديمة ، أو الفشل فى تذكرها ، كما ينجح الانسان أحيانا فى تذكر بعض أحلامه ، بالتفصيل وبالدقة ، أو يفشل فى تذكرها .

كما يقول انه من المناسب القول بأن مهارة ما فى الانسان لا توجد حقيقة الا بعد أن يكون هذا الانسان قد حصل عليها بالتدريج .... فاذا كان هناك أى شخص يمكنه خلال فترات معينة من حياته أن يظهر القدرة على أن يتفهم الفرنسية ويتحدث بها مثلا ، دون القدرة على تفهم الألمانية والتحدث بها ، ثم يحدث له بعد ذلك العكس ، فان مقتضى ذلك هو — الى حد قوى — أن جسمه قد خضع لهيمنة من شخصيتين مختلفتين بالتعاقب .

وهذا وضع آخر غير وضع العودة للتجسد ، وهذا الوضع الأخير لا يتطلب استبعاد دوام الحياة مؤقتا فى جسد غير فيزيقى ، أو فى حالة لا جسدية . لأن « العائد الى التجسد » لابد أن يكون قد أمضى فترة من الوقت قبل الحمل الجديد فى حالة أخرى مغايرة لحالة التجسد الفيزيقى . ثم يقدم بروض تحليلا دقيقا لجميع الاحتمالات والفروض المتصورة فى هذا الشأن بعمق فريد فى نوعه ، وبافاضة لا تصدر الا عن فيلسوف متحفظ بكل معنى الكلمة ، ومفرط فى تحفظه عند وضع المقدمات واستخلاص نتائجها(١) .

---

(١) للمزيد راجع مؤلفه « محاضرات فى البحث الروحى » بجامعة كامبريدج ص ٤٠٧ — ٤٣٠ .

عن النظرية المركبة للعقل

ولا ريب أن الظواهر العقلية للوساطة تلعب الدور الأكبر فى كشف بعض أسرار العقل ، التى هى فى نفس الوقت أسرار للروح ، مادام لا يمكن الفصل بين الروح وبين الشعور أو اللاشعور ، وهو الطاقة الموجهة لسلوك الروح أيا كان نوعه .

وقد كثرت النظريات الحديثة فى اللاشعور وتنوعت . الا أنه مما هو جدير بالذكر هنا أن بعض هذه النظريات الحديثة قد يلتئم مع نظرية التجسدات المتكررة . ومن ذلك مثلا تلك النظرية المركبة Compound Theory عن العقل ، والتى مقتضاها أن العقل الانسانى مركب من عدة مراحل مندمجة معا . فيحسب هذه النظرية يقول بروض وهو من المقتنعين بصحتها عن طريق بحوث معملية مثابرة فى الغيبوبة وفى الهيمنة الروحية واصلها لأكثر من خمسين عاما واستمرت الى حين وفاته فى سنة ١٩٧١ . « يمكننا أن نفترض أن العامل الروحى يمكن أن يستمر بالأقل الى فترة بعد تحطم الأعضاء التى كان مرتبطا بها (أى بعد الموت) لكى يكون المركب الذى يدعى عقل « جون جونز » (١) .

وهذا العامل الروحى لا يمثل بذاته عقلا ، ولكنه يمكن أن يخضع لتغييرات بسبب الاختبارات التى حدثت لصاحبها عندما كان حيا.ويمكن مؤقتا أن يرتبط بأعضاء وسيط فى غيبوبته . واذا كان الأمر كذلك فانه يتكون بالتالى عقل مؤقت ، وهذا العقل المؤقت يحتوى على نفس العامل الروحى الذى كان « لجون جونز » ، وبالتالى فليس من المستغرب أن يبرز بعض الخصائص المميزة « لجون جونز » ، وبعض ذكريات الحوادث التى مرت به أثناء حياته الأرضية .

وبما أن العنصر الجسدى لهذا العقل المؤقت عبارة عن أعضاء

---

(١) كناية عن أى شخص مجهول مثل قولنا بالعربية « زيد » أو « عمرو » ..

الوسيط المعـدة للعامل الروحى للوسيط لا « لجون جونز » فليس من المستغرب اذا كان هذا العقل يبرز مميزات كثيرة من خصائص الوسيط... وتظل هذه الحالة قائمة طالمـا ظل الوسيط فى الغيبوبة » .

ويضيف العلامة بروض فى نهـاية تحليله لهـذه النظرية التى لهـا أسانيدها التجريبية الوفيرة أن « لها مزايا معينة فى جانب نظرية التجسدات المتكررة ... فبدلا من أن يكون ثمة عقل واحد هو الذى يهب الحياة لحلقات متتابعة من الأعضاء فانه يوجد ثمـة عامل روحى واحـد يرتبط بهـذه الحلقات المتتابعـة من الأعضاء كيما يكون حلقات متتابعـة من العقـول .

ولابد أن توجـد فترات يظل خلالها هـذا العامل الروحى الذى انفصل من الجهاز العضوى الذى مات ، والذى لم يدخل بعد فى ارتباط بجهاز عضوى آخر على وشك أن يولد .

وخلال هذه الفترات فان هذا العامل الروحى هو الذى يحدث هذه الظواهر غير العادية التى يأخذها الانسان الروحى العـادى مأخذ البينة على دوام حيـاة عقل الانسان . ولا أعلم وقائع معينة تحسـم هـذه التجسدات المتكررة لكنها نظرية ممكنة ، ولهـا مزية تفسير « مصدر » العقل أثناء الحمل « ونهاية » العقل عند الموت . وتبدو لى مقبولة أكثر بكثير عندما تصاغ فى تعبير العامل الروحى البـاقى الذى ليس بعقل ، عنها عنـدما تصاغ فى صيغة عقل باق يهب الحياة لحلقـات متتابعـة من الأعضاء »(١) .

* * *

(١) عن كتـاب الدكتور بروض « العقـل ومكانه فى الطبيعـة » The Mind and its Place in Nature ، وقد ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٢٥ ، والثامنة فى سنة ١٩٦٨ . وعن الفصل الثانى عشر منهـا وعنوانه « الحجج التجريبية لحياة الانسان بعد الموت » أخذنا هذه الاحالة (راجع بوجه خاص صفحة ٥٤٠ – ٥٥١) .

ويراعى أن « أن النظرية المركبة » عن الوعى تقوم على وجوب التمييز بين العقل والروح ولو أنهمـا متلازمان دائمـا ، والازمان معـا لتكوين الشخصية الانسانية ، لزوم ارتباطهما بجسد عضوى مادى أو آثيرى •

فالعقل الانسانى لا يتكون من عنصر واحد ، بل من عدة عنـاصر متداخلة ومتجاورة ، أو عدة طبقات يعلو بعضها فوق البعض الآخر بغير اندماج تام فيما بينهـا • وكل طبقة منهـا تمثل مرحلة من مراحل تطوره أو تجسداته السابقة ، وذلك كما تتكون الخرشوفة أو برعم الزهرة من عدة ورقات متجاورة • وكل طبقة منها مدفونة فى اللاشعور ولها كيـانها الخاص بهـا لأنها عادة لا تتلاشى تماما فى جارتها ولا تذوب فيها ذوبانا كاملا ، ومن الجائز أن تكون مصدرا متميزا من مصادر السلوك الراهن للانسان ، سواء أكان سويا أم غير سوى(١) •

وعن طريق التنويم المغناطيسى أمكن كما سبق القول الوصول الى المرحلة أو الى الطبقة الراهنة من اللاشعور ، كما أمكن ــ الى مدى أو الى آخر ــ الوصول الى مراحل أو الى طبقات سابقة لنفس هذا اللاشعور فى الآلاف من الاختبـارات العملية التى جرت فى أنحـاء عـديدة من العالم(٢) ، ولنا عودة الى هذا الموضوع فى المبحث المقبل •

المبحث الرابع

ثورة عارمة فى التحليل النفسى
يثيرها اللاشـعور فى مفهـومه الحـديث

عن الذاكرة بوجه عام

بعد أن بينت فى الباب الثامن جانبا ضيئلا من الشواهد التى جمعها بعض الباحثين عن طريق دراسـة اختبارات ارجاع الذاكرة الى الوراء ، وظاهرتى « رؤى من قبـل » و « سمع من قبل » وغيرها مع اخضاعهـا

---

(١) راجع أيضا ما سبق فى صفحة ١٠٩٦ ــ ١٠١٤ .
(٢) راجع ما سبق فى صفحة ٩٧٣ ــ ١٠٠٩ ، ١٠٣١ ــ ١٠٥٣ .

للتحليل العلمى يتعين أن أعالج بعض النتائج العلمية العــامة التى خلص اليها الباحثون ، خصوصا ما كان منها نافعا لخــدمة طب التحليل النفسى الذى يلاقى الآن ثورة جذرية فى العديد من مفاهيمه القديمة •

وسيكون اعتمادى ــ بالاضافة الى المراجع الآنف الاشارة اليهـا وغيرها ــ على مؤلف لعــالم معروف يدعى كارل موللر Karl Müller بذل جهدا ضخما فى تجميع المئات من وقائع هذا الموضوع ، وفى تحليلها للخروج منها بدلالاتها المنطقية ، بالاضافة الى عدد آخر من النتائج الهامة التى خلص اليها غيره من الباحثين •

وكارل موللر هذا (١٨٩٣ ــ ١٩٦٨) بحـاثة روحى سويسرى له وزنه بدأ تحقيقاته الروحية مبكرا مع القــاضى جورج سولزر George Sulzer الذى كان رئيسا لأكبر هيئــة قضائية فى زيورخ Zurich أما موللر فقد كان مهندسا كهربائيا ناجحا • وقــد أفادته خبرته هذه فى مواصلة تحقيقاته المثابرة فى دائرته الخاصة بمنزله فى زيورخ حتى وصل الى تسجيل ظواهر التجسدات بكاميرا تعمل بالأشعة دون الحمراء ، وقد واصل هذه التحقيقات منذ بدأ نشاطه فى دائرته الروحية فى ســنة ١٩٣٦ الى حين انتقاله فى سبتمبر من سنة ١٩٦٨ •

وأسس موللر جمعية للبحث الروحى فى زيورخ وكان رئيسا لهــا ، كما أصبح فيما بعد رئيسا « للاتحاد الدولى للروحيين(١) » I. S. F. وكان موللر مقتنعا بصحة العودة للتجسد •

* * *

ويقول موللر انه خلال تحقيقات متواصلة لمدى ثمانى سنوات جمع أكثر من سبعمائة حالة ، وقال فى شأنهــا « اننى مقتنع تمــاما بأن دعوى

---

(١) International Spiritualist Federation.
وهو يعقد مؤتمرا دوليا للروحيين مرة كل ثلاث سنوات ، وقد عقد حتى الآن اثنى عشر مؤتمرا ، آخرها فى اغسطس سنة ١٩٨١ .

العودة للتجسد قد ثبتت نهائيا ، كما ثبتت دعوى دوام الحياة بعد الموت • واذا تقبلت احداهما ستتقبل الأخرى » • كما يرى أنه كان يكون من المفارقات أن يتقبل العلم العودة للتجسد قبل أن يتقبل دوام الحياة بعد الموت •

والحالات التى عنى موللر بتجميعها عن العودة للتجسد كلها من فصيلة حالات التذكر الواعى أى حالات « رؤى من قبل » ، و « سمع من قبل » التى عنى بتحقيق أمثالها أيان ستفنسون ، وغيره من أساتذة التحليل النفسى خصوصا فى الولايات المتحدة • وقد نشرها موللر فى مؤلف معروف قيم عنوانه « **العودة للتجسد مؤسسة على وقائع** » (١) (١٩٧٠) •

ويتناول موللر هذه الحالات بالتحليل العلمى الذى يساعده فيه المام كاف بدراسة الظواهر الروحية المتنوعة بما فيها « التليباثى » أو التخاطر التى اقتنع بصحتها ، كما اقتنع بصحة سائر الظواهر العقلية • ويقول فى شأنها : انه يبدو أن عدد الأشخاص ذوى المواهب الروحية يتجاوز كثيرا عدد أولئك الذين يمكنهم أن يتذكروا بصورة واعية حياة سابقة لهم • ويمكن تقدير عدد أصحاب المواهب الروحية بواحد من كل عشرين واحد (أى بنسبة ٥٪) ويعتقد الدروز بجبل لبنان أنه فى كل عشرة آلاف شخص يوجد شخص واحد يمكنه أن يحوز ذكرى واضحة عن حياة سابقة له •

وحتى اذا قلنا ان هذه الأرقام تمثل مجرد رجم بالغيب فانها تبين أن الموهبة الروحية — وهى تنمو بالمران — أكثر شيوعا من حالات التذكر الواعى ••• بالاضافة الى ذلك فان حدوث انفعال ما أو ارتباط معين بحادثة خاصة قد يفتح الطريق الى تذكر القديم •

---

(١) Reincarnation Based on Facts. 1970

وقــد يرى هذا الشخص رؤى معينة تشير الى ذكريات تنتمى الى وجود سابق ، بغير أن تحوز هذه الرؤى وضوحا كافيا ، وبعض هــذه الرؤى قد يكون رمزيا ، مما يؤدى الى زيادة الصعوبة فى تكملة الصورة عن المــاضى ...

وعنــدما تصل ذاكرة معينة الى وضوح معين ، فلا يتبقى من بعــد شك فى العقل أن هذه المناظر التى تم تذكرها تمثل تجــارب شخصية . ويطلق أيان ستفنســون على هـــذه الظــاهرة وصــف التشــخيص Personation . وبالاضــافة الى ذلك فان انفعــالا قويا يصــاحب عادة التذكر ، وقــد يدفع بعض الأطفال الى المطالبة بالعودة الى آبائهم الأقدمين ، أو قد يدفع زوجة ما الى المطالبة بالعودة الى زوجها فى الحياة الســابقة(١) .

* * *

ويقــول ديون فورتيــون Dion Fortune فى مؤلفــه « الروح تدافع عن نفسها »(٢) ان دخول المفاهيم الغيبية الى العقل الواعى قد يميل الى ايقاظ الذاكرة اللاشعورية عن اختبارات مماثلة فى حيوات سابقة . وان الانفعال الذى يحيط بتذكر معين قد يتحرك قبل أن تحدث الصورة الراهنة للحادثة القديمة . وهذه واحدة من أحسن الاختبارات عن صحة الذكريات المتعلقة بحيوات سابقة .

وهــذا الانفعال الذى قد يجىء مبكرا قد يظل معلقــا لفترة طويلة على عتبة الوعى قبل أن تتضح صورة المــاضى بشكل كاف ومحسوس . وهكذا يبين أن الموضوع ليس فحسب موضوع العلم بحوادث سابقة ، بل هو موضوع انفعال قد يكون هو الجزء الأمامى من الصورة برمتها قبل أن تخرج الى حيز الوجود .

وبعض الأحــداث الروحية مرتبط بذاكرة عن مكان معين ، قــد تتحرك بلا سبب ظاهر عند زائر ما لهذا المكان . وسواء أكان « الظرف

(١) عن المرجع السابق ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) Psychic Self Defense. P. 106.

الكهربى للطقس » له صلة ما بتحرك « الذكرى » أم ليست له صلة ما بذلك ، فان بمقدورنا أن تنفهم هذه المسألة بوصفها نوعا من السيكومترى (أى تتبع الأثر الروحى فى المكان أو فى الزمان) (١) •

ويمكن أن نفترض أن هناك حالات تثير الشك فيما اذا كانت « الذكرى » ترجع الى نفس المكان ، أم الى نفس الواقعة الخبيئة فى ذاكرة صاحبها • وينبغى أن يواجه الموضوع بدرجات الانفعال ، وبمدى وضوح الصورة ، وتركيزها فى ذهن صاحبها(٢) •

و « نضيف » الى ذلك أيضا أن ثمة حالات لاسترجاع ذاكرة التجسد السابق حدثت بسبب ارتفاع درجة حرارة المريض فى أثناء الحمى ، أو بسبب التخدير الجراحى ، أو بسبب الغيبوبة عقب حادثة تصادم • وهى حالات على حدة اذ تتنبه فيها الذاكرة بغتة ، ولكن بصورة مرضية •

وعلة هذا التنبه المباغت هى فيما يبدو حدوث خروج جزئى من الجسد يسهل لصاحبه الاتصال بعقله الباطن وبالذكريات المخبوءة فيه (٣) • ولا توجد حالات كثيرة من هذا النوع ، لكنها لا تغاير كثيرا حالات استرجاع الذاكرة فى الظروف الأخرى • ومنها حالات النطق بكلمات من لغة أجنبية عن الشخص متى ثبت أنه لم يكن واقعا تحت هيمنة روحية تتميز عادة بغيبوبة لها أوضاع وشروط معينة •

وبعض حالات المس الروحى والاستحواذ قد يكون ذا صلة أيضا باسترجاع الذاكرة عن تجسد سابق ، لأن الروح الماسة أو المستحوذة

---

(١) راجع ما سبق عن السيكومترى فى صفحة ٦٤١ — ٦٥٢ .

(٢) عن كارل موللر . المرجع السابق ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٣) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٣٧٦ — ٤٢٠ .

قد تكون ذات صلات عريقة بالانسان ضحية المس والاستحواذ ، بمعنى أن هـذه الصلات قد يرجع العهد بها الى تجسد سابق ، لكنها ما تزال محفوظة فى ذاكرة صاحبها •

ويلاحظ موللر أيضا أن تذكر حياة سابقة يحتمـل أن يفترض نوعا من الحساسية أو من الموهبـة الروحية • ان قنطرة ما ينبغى أن توجد لتربط بين الذاكرة وبين العقل الواعى سـواء أكان هـذا الأخير يقع فى جانب من البنيان الروحى للانسـان ، أم فى موقع آخر مثـل « الذاكرة الكونية » •

والتعريف الشائع للوسيط يكون عن طريق قـدرته على احضـار معلومات مسلم بها الى عقله الواعى بطريقة مغايرة للمألوف ، أو الحصول عليها عن طريق بعض الأجهزة (مثل جهـاز الكوميونجراف) أو لوحة الحروف الهجائية •

عن موطن الذاكرة

وموطن الذاكرة هو بطبيعة الحـال الجسـد الهيولى أو الأثيرى لا المخ • والجسـد الأثيرى لا يفنى بالموت كالمخ ، بل يظل حاملا وعى الانسـان الشامل الذى كان يعمل جانب منـه فقط عن طريق المخ وهو الجانب الشعورى ، والآخر كان يعمـل عن غير طريق المخ وهو الجـانب اللاشعورى ، وهو يمثل الجـانب الأخطر ، والأعمق ، والأوسـع من الوعى (١) •

وبعد الوفاة بوقت يتراوح فى مداه يحدث اندماج تدريجى للجانبين الشعورى واللاشعورى من الوعى ، وباندماجها معا يبدو الوعى السليم العادى أكثر اشراقا ، وانطلاقا وصفاء ، وذكاء • وهـذا هو الاتجـاه السائد عند كبـار الباحثين الروحيين وأوثقهم اتصالا بالبحث فى صـلة

---

(١) راجع ما ورد عن الجسد الأثيرى فى الجزء الأول ص ٢٨٦ — ٣٣١ •

العقل بالمخ ومنهم مايرز ، ويروض فى انجلترا ، وجيلى وآوستى فى فرنسا . وقد سبق أن تحدثت طويلا فى هذه المشكلة الدقيقة ، وهى مصدر هذا الجانب غير الواعى أى اللاشعور مبينا كيف أن نظرية العودة للتجسد تلقى على تعليل هذا المصدر أضواء لا تظفر بها محاولة التعليل عن أى طريق آخر (١) .

والانسان العادى لا يتذكر أحداث حياته الماضية ، لكنه يمكن أن يكون خاضعا لتأثيرها بدرجات مختلفة وبأساليب متنوعة،بما فى ذلك الأمور التى قد يحبها أو يكرهها ، وربما لسبب غير ظاهر . ويقول كارل مولنر أنه يبدو أن قوة هذه التأثيرات تتوقف على الطاقة الانفعالية التى لا تزال مرتبطة بجانب معين من التذكر . وسواء كانت الانفعالات المكبوتة تعتبر مسئولة ، أم غيرها من صور الطاقة الروحية ، فان هذه الذكريات لها تأثيرها حتى فى احداث بعض الاضطرابات العقلية . ومن الصعوبة بمكان أن نعين أى التذكارات المتنوعة ينبغى بالتالى أن يعتبر مسئولا فى حالة أو فى أخرى ، ولماذا يتلقى هذا التذكار طاقة روحية تحركه دون غيره بدلا من أن يظل خاملا فى اللاشعور .

ومما يثير الحيرة العلامات التى فى أجسام بعض العائدين للتجسد ، والتى تتفق مع بعض الجروح أو التشوهات التى صادفتهم فى تجسد سابق لهم ، وتوجد عدة أمثلة لذلك (٢) . لذا تجدنا مضطرين لأن نفترض أن نمو الجنين فى رحم أمه لا يكون محكوما بعوامل الوراثة وحدها ، لكنه قد يكون خاضعا أيضا لتأثير الروح التى على وشك أن تتجسد .

فمثلا وجد أن الموت العنيف فى ظروف قاسية قد يحدث علامات مماثلة ، وربما لأن ذاكرة التجسد الأثيرى تكون قد انفعلت بالطاقة

---

(١) راجع ما سبق عن هذا الموضوع فى صفحة ٩٦٩ - ١١٧٥ .
(٢) راجع ما سبق عنها مأخوذا عن تحقيقات ستفنسون فى ص ١٠٢٥ - ١٠٢٧ .

العاطفية التى من شأنها أن تؤثر فى نمو الجنين . وعلم النفس المعاصر يتقبل التأثيرات الروحية - العضوية التى تسببها الانفعالات ومن بينها العلامات التى تظهر على البشرة تحت تأثير الايحاء فى أثناء التنويم المغناطيسى . وأيضا قدرة بعض أتباع المذهب اليوجى على الدخول فى حالة تشبه حالة الموت (بما فى ذلك توقف النبض ودورة الدم والتنفس)(١) .

واذا كنا نتقبل امكان تأثير الذاكرة فى نمو الجنين ، فان العلامات الجثمانية لا تعكس فحسب ظروف التجسدات السابقة ، بل قد تظهر أشكالا رمزية .

* * *

وعلى ذلك يبدو لى جليا أنه لا محل للاعتراض على مبدأ العودة للتجسد بنسيان أحداث الماضى ، لأن النسيان لم يحدث انما تحققت مجرد وظيفة بيولوجية محددة وهى انزلاق اختبارات الماضى من الشعور الى اللاشعور ، لكى نجنى من الماضى أزهاره ، ولا نضار بأشواكه ، وأهواله ، وذلك بالنسبة للانسان العادى ، وفيما عدا بعض الحالات غير المألوفة أو فوق المألوفة ، ومنها بعض الحالات المرضية أيضا .

وقد نجح علم النفس الحديث فى اكتشاف وجود العقل الباطن أو اللاشعور ، ولكنه لم ينجح الى الآن فى اكتشاف كل مجاهل هذا اللاشعور ، أو فى رسم حدود واضحة بين الشعور واللاشعور .

واذا صح اعتبار هذا اللاشعور مخزنا لاختبارات الماضى السحيق للانسان خلال صراعه المرير المستمر مع تجسداته وكان يحمل خلاصة أو ثمرة ما مر به من اختبارات سعيدة وأليمة ، فانه يكون على العلم أن يسلم بأن نظرية الوجود السبقى للانسان تصبح على هذا الوضع اجدر النظريات بأن تفسر هذا اللاشعور على نحو واضح وبسيط ، يتحدى فى

---

(١) راجع ما سبق بهذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٤٠٧ - ٤٠٩ .

وضوحه وفى ترابطه كل التفسيرات الأخرى التى تريد أن تبـدأ الوجود الانسانى منذ ولادة الانسان فى حياته الراهنة فحسب ، أو منذ صيرورته جنينا فى بطن أمه .

خصوصا وأن وجود هـذا اللاشعور قد ثبت تماما لدى الانسان العاقل الناطق ، ولم يثبت وجوده لدى الكائنات الحية الأخرى سـواء أكانت من الفقريات أم غير الفقريات . ولا أعلم عالمـا واحدا يسلم مثلا بأن الحصان أو الكلب ــ وهما من أرقى الحيوانات الفقرية ــ يملك عقلا باطنا أو لاشعورا . وأنه بالتالى عرضة لأن يصاب ــ مثـل الانسان ــ بجنون العظمة ، أو الاضطهاد ، أو بمركبات النقص المختلفة أو بالمخاوف التى لا مبرر لهـا ، أو بانفصام الشخصية ... بالمفهوم العلمى لهـذه الأوصاف .

كما ينبغى أن نضع فى الاعتبار ما ثبت من أن القـدر الأكبر من حوافز الانسان ودوافعه الحقيقية مختبىء فى هذا اللاشعور ، بحيث يمكن القول بأن عقل الانسان ينظر اليه كأنه جبل من الثلج يطفو عشره فقط فى الشعور ويختبىء تسعة أعشاره تحت المـاء فى اللاشعور . فمن أين جاء هذا اللاشعور الحافل بأكداس متراكمة من الحوافز والدوافع المرتبطة بداهة بالتجـارب والاختبـارات الحلوة والمرة المـاضية وما أكثرها ، وما أعمق أثرها ؟ ! وكلها دفينة فى الروح حاملة الشعور واللاشعور معا وبغير حدود فاصلة بينهما .

* * *

وفى هـذا الشأن يقول روح فون ليست Von Liszt الموسـيقار المعروف فى بعض رسائله للوسيطة روزمارى براون Rosemary Brown ــ بعد أن أثبت شخصيته بسمفونيات وقطع موسيقية عديدة أملاها عليها تحمل بشهادة كبار النقاد كل خصائص موسـيقاه (١) : « فى الواقع أن

(١) راجع ما ورد عنها فى « المفصـل » . الجزء الأول ص ٢٣٢ ــ ٢٣٦ .

جانبا فقط منكم هو الذى يظهر على الأرض عن طريق الجسد الفيزيقى والمخ ، أما الباقى فيظل دفينا فى الروح ، ويكون كلا لا يتجزأ معكم • وان هذا واحــد من الأشياء التى نريد أن نساعدكم فى أن تنموها وأن تتفهمــوها لكى يحاول الأفراد أثناء اقامتهم على الأرض أن يعبّروا عن أنفسهم بطريقة أكمل من غيرها ، وعلى مستوى أرفع من غيره » •

كما شرح لها كيف أن الشخص الواحد لا يعود أبدا بذاته وبكل مميزاته مرتين على الأرض ، فان هــذا أمر محال بالنظر الى تغير الآباء ، والأجداد ، والمخ ، والجسد • وفى الجملة فان كل ما فى الانسان سيتغير ، ولكن جانبا من الذات سيندمج أو سيتداخل فى كائن جــديد • وعندما يتوقف الجسد الفيزيقى عن العمل فى تلك اللحظة التى نسميها « موتا » فان هذا الجانب الرئيسى الذى اندمج فى الجسد يعود الى أصله الكلى• وعلى هذا النحو توجــد فى معنى من المعانى « عودة للتجســد » ، لكن لا يوجد تكرار لنفس الشخص ، وبالتالى فان الحديث عن هــذه العودة للتجسد يعنى بوجه عام مجرد امكانية للكائن فى أن يولد من جديد على الأرض •

كما يقول ان تبسيط فهم عملية العودة للتجســد قد أساء اليها • وبحسب رأيه فاننــا لا نمضى أوقاتنــا فى الذهاب والاياب بــين عالمين بلا نهاية • بل اننا قد لا تمكننا العودة الى الأرض سوى عــدد محدود من المرات ، وتوجد احتمالات أخرى لا حصر لها ، كما لا توجد آية قاعدة مطردة •

وجميع مرات العودة اختيارية بصــفة مطلقة ، فلا يلقى أى انسان الى الأرض رغم أنفه ، ولا يرغم على الذهاب اليهــا ، وفى هــذا تكمن العدالة • كما شرح لها أن العودة قد يكون من أهدافها أن تتلقى درسا جديدا أو آخر ، ولكن بمجرد وجودنا هنا تنسى علة مجيئنا ، وفى الواقع

لا يوجد منـــا سوى جانب فقط جاء الى الأرض هو ذلك الجانب الذى قبل طائعا المجىء اليها (أى الجانب المتجسد أو الشعورى فى الانسان ، دون جانبه الاخر غير المتجسد وهو الجانب اللاشعورى منه) •

وقد يقاسى الانسان بسبب تعصبه لجنس أو للون أو لدين معين • وهذا المتعصب يمكن أن يعود الى التجســد فى نفس الجنس أو اللون أو الدين الذى كان يكرهه فيما مضى والذى كان يناضل ضده • وعلى هذا النحو يمكن أن يفهم الدرس القائل بأن جميع البشر هم على قــدم المساواة فى عين الله •

ويشبه فون ليست تكوين الروح الانسانية من عناصر متعددة بالذرة التى تتكون من بروتونات ونيوترونات تتفاعل معا فى تكوين النواة التى تحيط بها الالكترونات • وهكذا الروح الانسانية فان أجزاءها المنفصلة تتجمع معا فى نواتها ، لكن كل جزء منها يمكن أن ينفصل عن باقيهـا ، وهذا الجزء القابل للانفصال هو ذلك الذى يمكنه أن يظهــر فى عالمكم فى صور شخصيات متنوعة[1] •

وبالتالى فانه يوجد ما يطلق عليه دعاة العودة للتجسد « تجسدات متنوعة » لكنها كلها تنتمى الى روح واحــدة بمقدورها أن تتخير أى جانب فريد منها ينبغى أن تكون له الأفضلية فيهـا • ولنفترض مثلا أن روحا كانت لهـا صلات بمصر ، ثم وضعت فى مكان آخر ولنفترض أنه اليونان ، فان هــذه الروح يمكن أن تظهر كمصرية أو كيونانية بحسب الزى الذى ستختاره لنفسها ، وسيكون شأنها شأن الممثل الذى يقوم بأداء عدة أدوار مختلفة • فالممثــل يظل على حاله ، لكن دوره المسرحى هو الذى يجعله يتخذ شكلا مغايرا ، أما حياته الخاصة فلا تتغير[2] •

---

(۱) راجع ما سبق عن هذا التشبيه على لسان شميدت فى صــفحة ۱۱۰٥ — ۱۱۱۱ .

(۲) عن كتاب « على اتصــال بالعــالم الآخر » للوسيطة البريطانية روز مارى براون . الترجمة الفرنسية :

Florent Peiré : En Communication Avec L'Au - Déla. Paris 1971 P. 129 — 132.

الذاكرة بين الشعور واللاشعور

وليس للذاكرة موطن محدد بين الشعور واللاشعور ، لأنها تمثل أرضا شائعة بينهما تماما ، فكما توجد ذاكرة شعورية توجد أخرى لاشعورية بدون أية حواجز بينهما . وفى هذا الشأن يقول رودلف شتاينر Rudolf Steiner ان الذاكرة والنسيان لهما بالنسبة للذات نفس المغزى الذى لليقظة وللنوم بالنسبة للجسد الكوكبى .. فكما أن النوم يحول الى لا شيء مشاغل اليوم ومتاعبه فكذلك النسيان أيضا يسدل ستارا على الاختبارات المحزنة فى الحياة ، ويمحو شطرا من الماضى .

وكما أن النوم لازم لاستعادة الطاقات الحيوية المجهدة ، كذلك يتعين على الانسان أن يخرج من ذاكرته بعض أجزاء من حياته السابقة اذا كان برغب فى أن يواجه اختباراته الجديدة بحرية وبدون أحكام مسبقة . وعن طريق هذه القدرة على النسيان تنهض قدرته على ادراك الأحداث الجديدة ...

وتوجد درجات متعددة للذاكرة . وأبسط شكل لها يظهر عندما يشاهد شخص شيئا ما ، ولما يبتعد عنه يحتفظ بصورته فى ذهنه . فهو قد كون صورة له عندما نظر اليه ، وحدث تسلسل عقلى عند ذاك بين الجسد الكوكبى وبين الذات . ذلك أن الجسد الكوكبى قد رفع الى الشعور ذلك الانطباع الخارجى عن هذا الشيء ، لكن معرفة الشيء سوف تستمر فحسب بقدر ما يكون الشيء لا يزال موجودا ، مالم تتكفل الذات بامتصاص معرفته بداخلها ، لتجعل منها ملكا خاصا لها .

وعند هذه النقطة يرسم علم الروح الخط الحاجز بين ما ينتمى الى الجسد وما ينتمى الى النفس . فهو يتحدث عن الجسد الكوكبى طالما كان الموضوع متعلقا بالحصول على معرفة شيء مايزال حاضرا . لكن ما يعطى للمعرفة نوعا من الدوام هو ما يعرف بالنفس . ومن ذلك بمقدورنا أن نرى عمق الصلة بين الجسد الكوكبى وهذا العنصر من النفس الذى يعطى صفة الدوام للمعرفة .

وكلا الاثنين ــ الى مدى معين ــ متحدان فى عنصر واحد للطبيعة الانسانية ، يطلق عليه الجسـد الكوكبى • وعنـدما تتطلب استخدام التعابير الدقيقة ، فان ذلك الجسـد الكوكبى يطلق عليه جسـد النفس Soul body وعندما تتحد النفس بهذا الجسد النفسى فانه يطلق عليها النفس الحاسة أو الشاعرة sentient soul

وتسمو الذات الى مرحلة أعلى من وجودها عندما تمركز نشاطها على ما حصلته لنفسها من معرفتها بالأشياء الموضوعية • فعن هذه السبل من النشاط تتخلص الذات شيئا فشيئا من الأشياء موضوع الادراك ، حتى تمارس نشاطها بداخل ما تكون قد حصلت عليه من ادراك •

والعنصر من النفس الذى يجرى فيه هـذا النشاط يسمى بالذات العـاقلة أو العقليـة rational or intellectual soul • ومن خصائص النفس الحاسة والنفس العاقلة أنهما تعملان عن طريق ما تتلقيانه من الأشياء الخارجية خلال الانطباعات الحسـية ، التى تحتفظ بهـا فى الذاكرة • فكل ما تجعله الذات ملكا لهـا خلال الذاكرة انمـا تلقته فى الواقع من خارجها •

لكن بالمقدور أن نذهب الى أبعد من هـذا كله ، وبمقدور العلم الغيبى occult science (ويعنى به شـتاينر علم النفس الغيبى) أن يعطينا فكرة عن هذا بأن يجتذب انتباهنا الى واقعة بسيطة لكنها مع ذلك ذات أهمية قصوى ، وهى أن فى اطار المحيط الكلى للحديث يوجد اسم واحد متميز بطبيعته الخاصة عن كل الأسماء الأخرى ، وهـذا الاسـم هو « الأنا » •

فكل اسم آخر من الجائز أن يطبقـه أى واحد على الشيء أو على الكائن الذى ينتمى اليه • أما كلمة « الأنا » بوصفهـا تعرينا لكائن ما فهى تصبح ذات معنى عندما يطلقها هذا الكائن على نفسه • فلا يوجـد

أى صوت خارجى يمكن أن ينادينا باسم « الأنا » ، لكن بمقدورنا أن نطلقه فقط على أنفسنا (١) ...

* • *

وهكذا يقرر أن الجانب النفسى من الانسان مكون من عناصر ثلاثة : وهى النفس الحاسة ، والنفس العاقلة ، والنفس المدركة أو الشعورية . وذلك كما أن الجانب العضوى منه مكون من ثلاثة عناصر : وهى الجسد الفيزيقى ، والجسد الأثيرى ، والجسد الكوكبى .

ولذلك فان الانسان خلال المبدأ الثالث من نفسه يحصل على معرفة داخلية لنفسه ، تماما كما يحصل عن طريق جسمه الكوكبى على معرفة بالعالم الخارجى . ولهذا فان علم النفس الغيبى يطلق على هذا المبدأ الثالث وصف النفس المدركة أو الشعورية Consciousness - soul

وتتكشف طبيعة الذات ابتداء خلال النفس المدركة أو الشعورية . فخلال الشعور والعقل تفقد النفس نفسها فى الأشياء الأخرى ، لكنها كالنفس الشعورية تحتفظ بجوهرها الخاص . لذا فان هذه الذات لا يمكن ادراكها الا عن طريق النفس المدركة ، بسبب وجود نشاط داخلى معين . فصور الأشياء الخارجية تتكون بمقدار ما تذهب هذه الأشياء وتجىء ، وتمارس هذه الصور نشاطها على العقل بفضل قوتها الخاصة ...

وما يتسلل الى النفس المدركة أو الشعورية بوصفه نقطة من محيط الأبدية هو ما يطلق عليه علم النفس الغيبى وصف الروح . وبهذه الطريقة تتحد النفس الشاعرة بالروح التى تمثل العنصر المختفى وراء كل الأشياء الظاهرة . واذا كان الانسان يريد أن يضع يده على الروح فى ظواهر الأشياء فانه يتعين عليه أن يفعل ذلك بنفس الطريقة التى يضع بها يده على الذات فى النفس الشعورية .

---

(١) Rudolf Steiner : An Outline of Occult Science. P. 28 — 30.

لذا فانه يتعين عليه أن يوسع الى العالم المنظور نفس النشاط الذى قاده الى ادراك وجود ذاته • وبهذه السبل يتطور الى مستويات أخرى أسمى من وجوده الراهن • لأنه يضيف شيئا جديدا الى عناصر جسده ونفسه • وأول شيء يحدث له أنه هو نفسه يصل الى معرفة ما هو كائن بصورة متخفية فى عناصر نفسه ، ويتم ذلك خلال العمل الذى تمارسه الذات بداخل النفس •

وكيف أن الانسان يكون بوسعه تحقيق ذلك التطور يصبح أمرا واضحا عندما نقارن انسانا مثاليا ذا عقل سام بانسان آخر مايزال مستسلما للمطالب الدنيا ، وللمتع الحسية كما يطلقون عليها • فهذا الأخير بوسعه أن يتحول الى الأول اذا أمكنه التخلى عن بعض الميول السفلى متجها نحو المطالب العليا • وهو عند ذاك يعمل من خلال تأثير ذاته على نفسه حتى يجعلها أوفر نبلا وروحانية • وذلك عندما تصبح الذات سيدة على الحياة النفسية عنده •

وبوسع الانسان مواصلة هذا النشاط لأنه لا توجد حاجة أو رغبة بوسعها أن تثبت جذورها فى النفس مالم تسمح الذات بدخولها اليها • وبهذا الأسلوب فان النفس برمتها تصبح تعبيرا عن الذات ، التى كانت فيما مضى مجرد تعبير عن النفس الشعورية • وكل عيش متحضر ، وكل جهد روحى يتحصل فى حقيقة الأمر فى جعل الذات هى السيدة على كل مطالب النفس • وكل انسان حى مطالب الآن ببذل هذا الجهد سواء أراده أم لم يرده ، وسواء أكان شاعرا بما يجرى أم غير شاعر به •

ومرة أخرى فانه عن هذا الطريق ترتفع الطبيعة الانسانية الى مستويات من وجودها أسمى مما كانت • فالانسان ينمى عناصر جديدة من كيانه . وهى تقبع متخفية بداخله خلف ما هو منظور منه • واذا كان بمقدور الانسان أن يمارس نشاطا على نفسه ، وأن يجعل من ذاته سيدة على نفسه ، حتى تكشف له عما هو مختف بداخلها ، فان هذا النشاط قد يتسع الى أبعد من ذلك ، حتى يصل الى الجسد الكوكبى •

وعندئذ فان الذات تضع يدها على الجسد الكوكبى بأن توحد نفسها بالحكمة المتخفية فى ذلك العنصر الكوكبى . وفى علم النفس الغيبى فان هذا الجسد الكوكبى متى بقى تحت السيطرة عليه — مع التسامى به عن طريق هذه الذات — يطلق عليه وصف الذات — الروح Spirit - Self وهو نفس ما يطلق عليه الأدب الثيوصوفى وصف ماناس Manas المأخوذ عن حكمة الشرق .

وفى الذات — الروح يوجد عنصر آخر مضاف الى الطبيعة الانسانية . وهذا العنصر موجود بوصفه محض نواة لكنها تثمر شيئا فشيئا خلال نشاط الكائن الانسانى الذى يمارسه على نفسه . فالانسان عندما يسيطر على جسده الكوكبى عن طريق الطاقات المخبوءة الكائنة فيه ، يحدث نفس الشىء فى مرحلة لاحقة للتطور بالنسبة للجسد الأثيرى . لكن نشاط الانسان على هذا الأخير أوفر مشقة ، لأن ما هو مخبوء فى الجسد الأثيرى مغطى بستارين (هما النفس والذات) أما ما هو مخبوء فى الجسد الكوكبى فهو مغطى بستار واحد (هو ستار الذات) ....

والنضج العقلى للانسان — مقرونا بتطهير مشاعره والسمو بها وبمظاهر ارادته — يمثل مقياس مدى نجاحه فى تحويل جسده الكوكبى الى حياة الروح . وكل اختباراته الدينية وغيرها تترك طابعها على الجسد الأثيرى ، ومنه الى حياة الروح . وفى المجرى المألوف للحياة يحدث ذلك بطريقة لاشعورية لكنها تتدرج فى مداها . أما عند رغبة الدخول فى شركة مع العوالم الأسمى initiation فان ذلك يحدث بطريقة شعورية ، وذلك عندما يخضع الانسان لتوجيه علم النفس الغيبى نحو السبل المؤدية الى ممارسة نشاطه بشأن الذات — الروح ، وحياة الروح(١) .

* * *

---

(١) تلخيص عن شتاينر . المرجع السابق صفحة ٣٤ — ٣٩ .

ثم يستطرد شتاينر قائلا ان جميع الكائنات الحية تسقط فريسة للموت ، حتى تتيح ظهور حياة جديدة ٠ وانما هو علم النفس الغيبى الذى يقوم بالقاء ضوء على تلك العبارة الجميلة التى قالها جوته Goethe (الشاعر الألمانى المعروف) وهى « أن الطبيعة أبتكرت الموت حتى تحصل على المزيد من الحياة » ٠

وكما أنه فى المعنى المألوف لا يمكن أن توجد حياة بلا موت ، كذلك أيضا لا يمكن أن توجد معرفة حقيقية للعالم المنظور بدون القاء البصر الى العالم غير المنظور ٠ فكل تمييز بين الأشياء المنظورة يلزمه أن يغوص مرارا وتكرارا الى غير المنظور حتى يتقدم للأمام ٠

ومن ثم يبدو واضحا أن علم الروح وحده بمقدوره أن يتيح للحقائق أن تتكشف ٠ وعندما يسلك هذا العلم سبيله الصحيح فانه لا يضعف أبدا من قوة الحياة ، بل يقويها ويجدد دواما ازدهار الحياة وصحتها ، هذه الحياة التى اذا تركناها لحال سبيلها تضعف وتمرض ٠

وعندما يروح الانسان فى النوم فان طبيعة الرابطة بين عناصره المختلفة تتغير ٠ فالشطر الراقد على الفراش من الانسان النائم يتضمن الجسدين الفيزيقى والأثيرى ولا يتضمن الجسد الكوكبى ولا الذات وبسبب الارتباط بين الجسد الأثيرى والجسد الفزيقى فى النوم ، فانه يكون بوسع الوظائف الحيوية أن تستمر ، لأنه اذا ترك هذا الجسد وحيدا فانه سرعان ما يموت ٠

والأمور التى تنطفىء فى النوم مؤقتا هى الأفكار ، والآلام ، والمتع ، والفرح ، والترح ، والمقدرة على التعبير الشعورى عن الارادة ، وما الى ذلك من وقائع الوجود ٠ لكن الجسد الكوكبى هو مركبة كل هذه الأشياء ٠ وهو لا يفنى فى النوم بل ينسحب مؤقتا من الأجساد الأخرى سالكا فى الوجود أسلوبا آخر مغايرا للأسلوب الذى يسلكه

عندما يتحد فى اليقظة بالجسدين الفيزيقى والأثيرى(١) •

للوعى أكثر من ذاكرة

ومقتضى هذه الحقائق كلها أن يكون للوعى المتجسد فى الانسان أكثر من ذاكرة ، بعضها قريب وبعضها الآخر بعيد • وكل ذاكرة منها تمثل طبقة من الوعى قائمة بذاتها بدون أى تداخل ولا اندماج بين طبقات الوعى المختلفة ، وان كان قد يحدث بينها أحيانا بعض الاختلاط أو الاحتكاك • وهـذا هو ما تنادى به الآن « النظرية المركبة للوعى » التى تحدثت عنها فى المبحث السابق(٢)• وهى نظرية يعتنقها الآن جانب من صفوة العلماء ، ويجدون فيها تفسيرا لظواهر عديدة فى السلوك الانسانى لا تقبل أى تفسير بدون التعويل عليها •

وهذه الاعتبارات المتنوعة مجتمعة من شأنها أن تفسر هذه الحقيقة التى يمكن لأى انسان أن يكتشفها بنفسه ، وهى أن الانسان يطوى غالبا بين جنبيه عدة شخصيات ، بدلا من شخصية واحدة متناسقة ومتكاملة • فاذا ما حاول الانسان أن يسبر أغوار أى صديق له لتبين له أنه يصادق فيه أكثر من انسان ، وأن هـذه الشخصيات المتعددة فيه قد تتصارع فيما بينها وقد تتآلف كما قد تتصارع وتتآلف فى علاقاتها مع مجموع الشخصيات التى تحيط بها •

فلا تحاولن اذا أن تسبر أغوار أية شخصية ، حتى شخصيتك الخاصة لأنه يبدو أنه قد كتب على الانسان أن يحيا غريبا حتى عن نفسه، عاجزا عن أن يتفهم شيئا جديا عن أغوار طبيعته الخاصة ، فما بالك بطبائع الآخرين ؟ ! • وكلما اعتقد الانسان أنه قد وصل بالفعل الى معرفة شىء ذى بال عن نفسه أو عن نفس غيره كلما كان فى واقع الأمر أبعد ما يكون عن الوصول الى هذا الهدف البعيد المنال •

---

(١) تلخيص عن شتاينر • المرجع السابق صفحة ٤٦ ـ ٤٧ •
(٢) صفحة ١٢٧٠ ـ ١٢٧٢ •

ثم ان ثمة حقيقة قد ثبتت ثبوتا كافيا ، وهى أننا نتصرف فى حياتنا بما قد ينبعث من داخلنا من مشاعر ورثناها عن ماضينا ، وعن تراث التجارب المسجلة فى اللاشعور ، أو ان شئنا فى عقلنا الباطن . فهذه وتلك هى الحوافز الحقيقية التى توجه ارادتنا وتتحكم فى مواقفنا من أحداث الزمان حلوها ومرها معا ، أما مشاعر الآخرين فقد تكون لنا بمثابة السدود الحكيمة التى وضعتها الطبيعة كيما نعيد النظر فى أحكامنا وتصرفاتنا فنكتسب لأنفسنا سلسلة تجارب متجددة ، وبالتالى ذخيرة مخبوءة .

وأيضا تلزمنا لتكييف علاقاتنا على نحو أفضل بأنفسنا وبنواميس الحياة الصحيحة التى يلزمنا الاتساق الصحيح معها حتى نحصل على قدر أكبر من تناسق الشخصية ، وبالتالى من السعادة الداخلية التى هى حقا مملكة السماء فى الانسان . فنحن فى الواقع قد نستفيد من الاختبارات التى قد ننساها قدر فائدتنا من الاختبارات التى قد نذكرها فلماذا النسيان اذا ، وما هو هدف الطبيعة منه ؟

هذا النسيان يحصل كما لاحظ الباحثون الروحيون لحكمة الهية سامية : وهى دفع عجلة التطور للأمام ، وحتى لا يكون ماضى الروح السحيق عائقا يعوقها فى تقدمها ، بما قد يكون فيه من أخطاء ، ووصمات ، وآلام ، وأهوال . فهو رد اعتبار من الطبيعة للروح يسلبها مخازيها السابقة . ولا يسلب النفس حقها فى الاحتفاظ بالمرحلة التى وصلت اليها فى التطور عن طريق الألم والاختبار المتكررين . هذا وقد وضحت ذلك فيما سبق على لسان الدكتور جوستاف جيلى مدير « المعهد الدولى لما وراء الروح » (١) .

ومما هو جدير بالذكر أنه قد حدثت اتصالات وساطية بعدد من الأرواح التى أمكنها أن تتذكر — استثناء من ذلك — شطرا ولو غامضا من ذكريات حياة سابقة لها أو أكثر طفت الى السطح — بعد الموت —

---

(١) راجع ما سبق فى صفحة ١٢٣٨ — ١٢٤٣ .

من عقلها الباطن الى عقلها الواعى ، وأن تربط بين ذكرى هـذه الحياة السابقة وصنوف التجارب القاسية التى تعرضت لها فى حياتهـا الأخيرة للتكفير — فى صور شتى — عن ذنوب اقترفتها فى حياة سابقة لهـا على الأرض . ومؤلفات آلان كاردك A. Kardec — وهو أبرز اسم فى الفلسفة الروحية حتى الآن — مليئة بالعشرات من هذه الحالات ، وبوجه خاص كتابه عن « الجنة والنار »(١) .

وهنـاك أيضا حقيقة علمية سائدة الآن حتى فى علم النفس ، وهى أن اللاشعور أعمق وأعم من الشعور . فهذا الأخير ليس سـوى جزء ضئيل من العقل يطفو على سطح المـاء ، حين يختفى الجزء الأكبر منه وهو العقل الباطن تحت السطح ، بالأقل طيلة الحياة الأرضية . ويقول علم الروح الحديث ان علة ذلك هى أن الوعى الانسانى لا يتجسد كله فى المرة الواحدة ، فلا يتجسد منه فى المرة الواحدة سوى جانب يسير عن طريق المخ الذى يتحكم بدوره فى الجهاز العصبى للانسان .

ومقتضى ذلك بالضرورة هو تعـدد عـدد المرات التى ينبغى أن يتجسد فيها الوعى للحصول على النمو المطلوب ، وعلى التناسق الكافى لأنه هوالذى يحقق للانسان قدرا أوفر من السعادة ومن الاطمئنان النفسى بعد الشقاء والقلق . ومقتضى ذلك أيضا هو تعدد ذاكرات الوعى وتنوعها الى أكثر من ذاكرة واحدة ، لكن يلزم دائما تحقيق التناسق التدريجى بين عناصرها ، ناهيك بتحقيق التناسق بينها وبين الذاكرة الشـعورية . ونتاج هذا التناسق هو الوصـول الى ما أطلق عليه كارل يونج وصف التفريد individuation وذلك بمفهوم الوصـول الى توحيد الوعى الشعورى واللاشعورى ولو على نحو ما ، والى حد ما ، وبعد وقت ما .

والوعى موطنه الحقيقى هو الجسد الأثيرى (٢) لا الجسد المـادى كما سبق أن بينت . فالجسد الأثيرى هو نتاج تطور الحياة ، وهو الذى

(١) Le Ciel et L' Enfer.

(٢) أو الكوكبى أو العقلى بحسب الأحوال ونشاط كل منها يتوقف على جملة اعتبارات منها التردد بين اليقظة والنوم .

يدخر الوعى كل ذكرياته واختباراته الماضية ، فهو المخزن الحقيقى للاشعور الذى يغذى الشعور كما تغذى التربة النبات عن طريق جذوره الدفينة فيها .

والجسد الأثيرى هو الذى يعطى الهالة لونها ، وهى الهالة التى يمكن لذوى الحساسية الخاصة مشاهدتها ، ولها طاقة سماها العالم الألمانى ريخنباخ Reichenback « الطاقة الشاذة » (١) . وهذه الهالة يفترض أنها نصف مادية ، وأن لها بعض الوزن ، بالأقل قبلما تصبح فى مرحلة انعدام الوزن عند انفصالها عن الجسد المادى شأنها شأن سفينة الفضاء عندما تصبح فى حالة انعدام الوزن عند انطلاقها من جاذبية الأرض أو القمر . وأنها ذات اتصال وثيق بالوظائف الحيوية للجسد المادى ، ويتوقف عليها انتاج الاكتوبلازم والطاقة الروحية المسئولة عن ظواهر الوساطة الفيزيقية (٢) .

ويلاحظ أيان ستفنسون أن نطق الطفل بكلمات أجنبية عنه (كما حدث فى بعض حالات العودة للتجسد التى حققها بنفسه) يفترض الالمام السابق بهذه الكلمات ، كما يفترض قدرة خاصة على السيطرة أيضا على أعصاب الحنجرة واللسان ، والشفاه ، والوجنتين ... فاذا ظهرت قدرة كهذه بدون تدريب سابق ، فيكون علينا أن نفترض أن هذه القدرة الخاصة أتى بها صاحبها من حياة سابقة ، وأنها تؤثر فى العضلات بطريقة مباشرة . وبعبارة أخرى أن هذه انتقلت عبر الجسد الأثيرى ...

ويقول موللر ان تأثير الذكريات القديمة يشاهد بدرجات كثيرة من الكثافة ، من مجرد الميول البسيطة الى النفور الذى قد يستوجب الاضطراب ، وهو تأثير غير مرتبط بأى فهم لمصدره ، خصوصا عند

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول عن الجسد الأثيرى والهالة صفحة ٢٦٨ — ٣١٤ .

(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول عن الاكتوبلازم والتجسدات صفحة ٣٢١ — ٣٢٩ .

الأطفال • وقد يقدم اللاشعور عندهم بعض تفسير لذلك ••• وقد تكون الذكرى عن حياة ماضية ذكرى سريعة الهرب كما يظهر فى اختبارات ارجاع الذاكرة الى الوراء فى التنويم المغناطيسى عندما يصل المنوَّم مغناطيسيا الى حالة من الخروج من الجسد أو من النوم العميق فيفقد ذاكرته • ولذا كان الدكتور بجورخيم Bjoerkhem يستخدم التنويم الخفيف ، وعندئذ كان الشخص المنوم يتمكن من تذكر الاختبار • وكثيرا ما كان هذا الأخير ينسى كل شىء بعد بضع دقائق (١) •

صلة الذاكرة بتغير الجنس

ويتحدث كارل موللر عن موضوع هام ، وهو احتمال تغير الجنس وأثره فى الذاكرة اللاشعورية بسبب العودة للتجسد فيقول ان عددا من الناس لا يستسيغ فكرة العودة للتجسد بسبب احتمال تغير الجنس من الذكورة الى الأنوثة أو بالعكس •

ويرد على المعترضين بأن الوقائع تثبت قيام هذا الاحتمال : فقد تبين بالنسبة للأطفال أن ١٦٪ من البنات اللائى أمكنهن أن يتذكرن شيئا عن حياتهن السابقة تذكرن تغيرا فى الجنس • وأن ٢٣٪ من النساء البالغات اللائى أمكنهن أن يتذكرن شيئا عن تلك الحياة السابقة تحدثن عنها بوصف أنهن كن فيها رجالا لا نساء • وهو يرى أن الرقم الأول ربما يكون أقرب الى الاحتمال من الثانى ، وأنه بالتالى فى كل حالة من ست حالات للعودة الى التجسد تكون تلك العودة مصحوبة بتغير فى الجنس •

كما يقول ان الرجال الذين يتذكرون حياة سابقة لهم فى الجسد فى ظل الأنوثة أقل بكثير من النساء اللائى يتذكرن حياة سابقة لهن فى ظل الذكورة • وهو يعتقد أنه ربما تكون « سيكولوجية » الرجل من خصائصها أن تجعل تذكر الأنوثة السابقة أمرا صعب المنال •

---

(١) عن كارل موللر : المرجع السابق ص ٢٧٨ — ٢٨١ •

وهو يقول أنه من المؤسف أن تفصيلات قليلة عن تغير الجنس وردت فى الحالات الستمائة من عودة التجسد التى فحصها الدكتور جون بجورخم Bjoerkhem (١) وفى الحالات الخمسمائة التى فحصها الدكتور الكساندر كانون A. Canon ، وفى الحالات الخمسين التى فحصها أرنول بلوكسام Arnall Bloxham .

والدكتور جون بجورخم الذى يتحدث عنه موللر عالم سويدى ذائع الصيت فى الطب النفسى وأستاذ بجامعة أوبسالا Upsala ، وكان يجرى تجاربه فى التنويم المغناطيسى على المئات من طلبة الجامعة وطالباتها، وعرض نتائج هذه التجارب فى كتاب له عنوانه « تفوهات التنويم المغناطيسى » (استوكهلم ١٩٤٣) .

أما الدكتور آرنول بلوكسهام فهو طبيب نفسانى بريطانى له تجارب عديدة فى التنويم المغناطيسى ومحاولات ارجاع الذاكرة ، ولنا اليه عودة فيما بعد .

فكل هؤلاء الباحثين أشاروا الى حالات من تغير الجنس . ويعتقد بجورخم الذى كان يستخدم التنويم المغناطيسى لارجاع الذاكرة — مثل دى روشا — ان التنويم المغناطيسى قد تكون له مزية تحقيق هذا الهدف. وأنه عند حدوث تغير فى الجنس ، فان الشخص المنوّم كان يحاول مقاومة الكشف عن جنسه السابق. ولذا فان ظاهرة تذكر القديم تكون ذات طابع تشنجى ، ولكن طبيعة الجنس السابق تظهر رغم المقاومة ، ويبدو الوعى الراهن عاجزا عن التدخل لمنع كشف سر هذا الجنس السابق .

---

(١) راجع فى شأن بعض اختباراته مؤلفا للمؤلف الألمانى ك. أ. شميدت عنوانه « نحن نعيش أكثر من مرة » . الترجمة الفرنسية بعنوان :
Nous Vivons plus d'une fois 1978 P. 21 et ss.

(٢) عن تراوح شخصية الانسان بين الذكورة والأنوثة راجع ما سبق فى هذا الشأن فى صفحة ١١٣٧ — ١١٤٥ .

وأن ذلك يثبت أن هناك « سيكولوجية آلية » تحمى طبيعة الجنس الراهن من تأثيرات الجنس العكسى عنـد حدوث تغير فى الجنس بسبب العودة للتجسد . ويبدو أن هذا « العازل السيكولوجى » عند الرجال أقوى منه عند النساء . ولذا فان الرجل قلما يتحدث عن أنوثته السابقة مثلما تتحدث المرأة عن رجولتها السابقة .

ويخلص كارل موللر الى أننا اذا أدخلنا فى الاعتبار جميع الحالات التى خضعت للبحث من حالات العودة للتجسد نجد أن النسب العـامة كالآتى : ٤٪ من الرجال غيروا جنسهم السابق ، ٢٤٪ من النسـاء غيرن جنسهن السابق ، وأن المتوسط ١٣٪ للجميع .

وأنه رغم صعوبة تفسير هذه الأرقام تفسيرا صحيحا فانه لم يعـد أى شك فى أن تغيير الجنس أمر جائز الحدوث . وهو يعتقـد أن تغيير الجنس يبدو أقرب الى الاحتمال بعد أربعة تجسـدات متتابعة فى نفس الجنس . وأن تغيير الجنس ليس معضـلة ، كما أن تخنث الرجل ، أو استرجال المرأة فى الحيـاة الراهنـة ليس هو القـاعدة ، بل هو أمر استثنائى(١) .

* * *

ولا ريب أن هذه الكشوف التى أخذت تظهر فى تدفق شديد ، وفى ترابط يسترعى الانتباه ، وفى وضـوح وخطورة ، تمثل ثورة كبرى فى الكشف عن مجاهل النفس الانسانية وما أوعرها من مجاهل : وهى تلقى مسئوليات جـديدة على علم النفس فى طوره الراهن . وفى نفس الوقت تفتح أبوابا جديدة للأمل فى العثور على مصدر بعض الأمراض النفسية والعصـبية ، كما أن الاقرار بامكان المس الروحى أو الاستحواذ يفتح أبوابا أخـرى جـديدة لتشخيص بعض الأعراض العضـوية والعقليـة ولعلاجها أيضا وهو ما وقفت عنده وقفة كافية فى باب سابق (٢) .

---

(١) عن كارل موللر : المرجع السابق ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
(٢) راجع ما سبق فى ص ٧٤٧ — ٨٥١ .

ولكن يتعين هنا الوقوف عند مهمة المحلل النفسانى بعد ثبوت مبدأ العودة للتجسد وضرورة الاستعانة بهذا الاحتمال عند رغبة تقصى السبب الدفين لمتاعب المريض ، النفسية أو العضوية . فمهمة المحلل النفسانى هنا ستصبح مهمة دقيقة للغاية لأنها تتطلب ايقاع المريض فى غيبوبة مغناطيسية ثم محاولة ارجاع ذاكرته الى الوراء الى ما هو أبعد من حياته الحالية .

بعض سمات الغيبوبة المغناطيسية

وللتنويم المغناطيسى مدارس وسبل متعددة . وهو موضوع علم قائم بذاته ما زلنا نتجاهله تماما فى البلاد العربية مع أهميته البالغة للكشف عن أخطر جوانب اللاشعور ، وصلتها بالعديد من الظوهر الهامة الجديرة بالدراسة سواء أكانت تلك الظواهر مرضية أم غير مرضية .

ويمكن تعريفه بأنه عبارة عن دفع شخص الى النوم المباغت بسبب اجهاد حواسه مثل القاء شعاع من ضوء فى العين ، أو عن طريق تمريرات هادئة عليه ، أو دفع طاقة عصبية معينة اليه ، حتى يروح المنوم فى غيبوبته المغناطيسية léthargie ، وهذه هى أولى مراحل التنويم المغناطيسى .

ومرحلة الغيبوبة هذه متصلة بحسب مدرسة العلامة شاركو Charcot بثلاث ظواهر فيزيقية هامة :

١ ـ المبالغة فى رد الفعل الاسترخائى réflexe tendient الذى يحدث فى عضو أو آخر من أعضاء الجسم .

٢ ـ القابلية الدائمة لاثارة العضلات excitabilité musculaire permanente

٣ ـ القابلية العابرة للاثارة العصبية ـ العضلية excitabilité nervo - musculaire transitoire

وتلى هذه المرحلة الأولى فى التنويم المغناطيسى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة التخشب Catalépsie ولهـا أكثر من صـورة • وصـورتها الشائعة عبارة عن تصلب عضلى ــ فى الغيبوبة طبعا ــ فيصبح الجسـم صلبا كما لو كان مصنوعا من حديد أو خشـب • ويظل المنوم سـاكنا بلا حراك ، وملامح وجهه لا تعبر عن أى انفعال • وقـد تكون العينان مفتوحتين وثابتتين على وضع معين •

وتصبح الملكات العقليـة خامدة ، لكنها أقـل خمودا مما فى فترة السبات • اذ يكون بمقدور التخيل أن يشكل بعض الصور ، لكنها صور تظل معزولة ، أو تتجمع فى مجموعات محدودة جدا ، وتفلت من هيمنة الأفكار الشخصية الوفيرة التى تكون قـد تجمعت فى وجدان صـاحبها بوصفها حصيلة اختباراته المـاضية •

* * *

وقـد تلى ذلك مرحلة اليقظة النومية الحركية somnambulisme وهذه المرحلة بحسب وصف دى بوتيه Du Potet « تفتح لنـا المطل على المجهول » • اذ فيهـا يبدأ المنوَّم فى النظر عن غير طريق العين ، والسمع عن غير طريق الأذن •••• وفى الجمـلة تبدأ فى الحدوث عنـده ظواهر الشفافية المختلفة التى قد تظهر عند بعض الوسطاء الروحيين بدون حاجة لغيبوبة مغناطيسية •

وبمقدور الشخص المنوَّم عند وصوله الى هـذه المرحلة أن يتلقى ايحاءات مختلفة من المنوِّم ، ويبدو عليه التصديق السهل السريع لكل ما يوحى به اليه حتى بشأن تغيير الجنس ، أو المهنة ، أو الاقامة ••• وقد تكون لهذه الايحاءات تأثيرات متنوعة فى وظائف أعضائه •

فمثلا اذا أوحى اليه أن الطقس حار ، فانه يأخذ فى التصبب عرقا ، مع أن الطقس قد يكون عاديا • واذا تسلم بصلة أو قطعة بطاطس نيئـة وأوحى اليه أنها تفـاحة فانه يأكلها بلذة وباحساس بطعم التفـاحة • واذا أوحى اليه بالضحك فانه يغرق فى الضحك بلا سبب •

وقد يخضع المنوَّم أيضا لايحاءات دينية كالايحاء اليه بأنه فى السماء ، أو أنه يرى الملائكة ، أو أنه يستمع الى موسيقى أو الى أناشيد سماوية فيشعر بنشوة دينية فياضة .

وقد يستمر الايحاء حتى بعـد يقظة الشخص من غيبوبة التنويم ، وقد يطول تأثير الايحاء ـ بحسب أمر المنوم ـ الى مدى عدة أيام لاحقة ليقظتـه سـواء أكان الايحاء بأمور سـارة ، أم بأمور تبعث القـلق والاضطراب .

وكل هذه الظواهر الغريبة التى تحدث فى غيبوبة التنويم المغناطيسى ، أو فى الغيبوبة الوساطية تنتمى الى فصيلة ظواهر الادراك عن غير طريق الحواس E. S. P. . والعلم المعاصر يسـلم بلا أدنى ريب بوجود ظواهر عديدة من هذه الطائفة سواء فى الغيبوبة ، أم فى اليقظة التامة .

ومايزال العلم ـ حتى هذه الساعة ـ عاجزا تماما عن تفسير كيفية حدوث هذه الظواهر ، وهذا أمر غير مستغرب منه لأنه ما يزال عاجزا حتى عن تفسـير كيفية حدوث الادراك المـألوف عن طريق الحواس ، أو كيفية عمل الذاكرة .... ولكن هذا العجز لا ينفى أن العلم قد قطع مع ذلك مرحلة طيبة فى الكشف عن بعض ملكات الانسان المألوفة وغير المـألوفة ، اذا ما قورن بوضعه فى المـاضى القريب .

وفى تفسير بعض ظواهر الادراك عن غير طريق الحواس يسـتعين كارل يونج أحيانا بنظريته المعروفة فى اللاشعور الجماعى (١) ، اذ يرى هذا اللاشعور الجماعى الكائن بداخل الانسان بمقدوره أن يقدم وقائع متعددة عن الرؤى ، والأحلام ، والصور المختلفة ... الى الشعور . وأنها تكون عندئذ بمثابة حقائق موضوعية حتى ولو اختبرها صاحبها بصـفته الشخصية ، ولم يختبرها غيره .

* * *

---

(١) راجع ما سبق عنه فى صفحة ١١٧٠ ـ ١١٧٦ .

وبعد مرور المنوم مغناطيسيا بهذه المراحل الثلاث على التعاقب وهى السبات ، ثم التخشب ، ثم اليقظة النومية الحركية ، قد يصل الى مرحلة رابعة يفقد فيها المنوَّم سلطانه تماما عليه ، ويشعر فيها أن للمنوَّم وجودا روحيا قائما بذاته ومستقلا تماما فى مقوماته عن المخ والجسد المادى ، وأنه عبارة عن روح ترتدى جسدا ماديا بصفة مؤقتة وعابرة •

وفى ظروف عديدة ظهر وجود هيمنة خارجية على المنوَّم ، مصحوبة بقدرات غير مألوفة مثل الادلاء بمعلومات صحيحة عن بعض الأشخاص الأحياء أو المنتقلين ، أو النطق بكلمات بلغة أجنبية قد لا يعرف المنوَّم عنها شيئا • وفى الجملة يبرز نوع من استقلال وعى المنوَّم ــ الى مدى أو الى آخر ــ عن قيود الزمان والمكان ، بسبب الهيمنة الجـارية على وعيه اما من المنوم ، واما من كائن خارجى هو فى الغـالب روح أحـد المنتقلين الذى قد يكون معروفا من المختبرين أو مجهولا منهم بحسـب الأحوال • وفى المراجع المختلفة ظواهر عديدة مذهلة جرت للوسطاء عند الوصول الى هذه المرحلة الرابعة ، لا يتسع المقام الحالى لعرضها •

واذالم يكن المنوَّم أو الكائن المهيمن على وسيط التنويم ذلك على مستوى رفيع من الأخلاق ، فقد تجنى هذه الحالة على المنوَّم • وما لم يكن هذا الأخير ذا ارادة قوية تماما لمقاومة أيهما ، فانه قد يصبح بمقدور أيهما أن يستدرجه الى اتخاذ أى مسلك شائن ، قد يصل الى حد السلوك الاجرامى •

وأحيانا يشـعر المنوَّم كما لو كان يفقد الحياة تدريجيا ، أو يفقد الوعى ، أو يفقد الوزن ، أو يفقد صلابة الجسم حتى الجسم المـادى ، أو لون البشرة اذ يتحول الى أصفر ، أو أبيض ، وتبدو له ملابسه طافية من حوله •

ودور المنوِّم ليس سهلا بل يحتاج الى فن ، والى مقدرة حقيقية ، والى خبرة كافية للتنويم ، وللايقـاظ • وعليه أن يتعـلم كيف يمكن احداث

التنويم بدون مخاطر ، وكيف يمكن تفادى العديد من الأخطاء ، وكيف يمكن ارجاع الذاكرة للوراء ارجاعا صحيحا وترك الشخص يتحدث بدون ايحاء اليه ، وكيف ومتى يتم ايقاظ المنوم •

وللأسف لا توجـد باللغة العربية حتى الآن أية مراجع علمية عن التنويم المغناطيسى ، مع تزايد دوره بين سبل التحليل النفسى المعترف بها وهذه واحدة فقط من أوجه النقص العديدة التى يلزم تداركها فى هـذا الشـأن •

* * *

وعلى المحلل النفسـانى أن يسـتعين بجهاز لتسجيل كل ما يسرده مريضـه فى هذا الشأن حتى اذا ما نجحت التجربة يعيد على مسامعه — بعـد يقظته — كل ما تفوه به فى غيبوبته ، فقد تسـاعد الاعادة المحلل النفسانى على صحة التشخيص • كما قد تساعد المريض على سرعة الشفاء عن طريق التعرف الواعى على مصدر ما قد يعانيه من آلام نفسية بسبب الكبت فى اللاشعور •

وقد يبدو هذا كله غريبا للمحلل النفسانى التقليدى ، لكن غرابته لا تنفى صحته ، لأن علم النفس الحديث أخذ يتحرر تدريجيا من الفلسفة المـادية عن الوجود كمـا أشرت الى ذلك مرارا ؛ وأيدته بأسـانيده ، وأخـذ يتجه اتجاها صريحا نحو تقبل أخطر القضـايا ، أو ان شـئت النظريات الروحية الواحدة بعد الأخرى •

وأما عن دور التنويم المغناطيسى فى استكشاف مجاهل اللاشعور فهذا الآن أمر مسلم به علميا وفيه يقرر الدكتور أحمد عكاشة الأستاذ بكلية الطب بجامعة عين شمس « يؤكد علماء النفس أن حالة التنويم المغناطيسى هى أفضـل الحالات التى يمكن أثنـاءها استكشاف محتويات العقـل الباطن ••• واذا عرفنا أنه بين كل جلسـة تنويم وأخرى لا يتـذكر الشخص الأحداث التى مرت أثناء جلسـة التنويم ، بينما أثناء جلسـة

التنويم ذاتها يستطيع أن يتذكر ما جرى فى جلسة التنويم السابقة ، وذلك دليل على أن حالة التنويم تتيح فرصة الاتصال بالعقل الباطن • وكثير من ظواهر حالة التنويم يمكن تفسيرها بالقدرة على الاتصال بالعقل الباطن ••• » (١) •

فاذا صح أن كان للنفس حياة سابقة على حياتها الحاضرة وأن ذكريات العقل عن تلك الحياة السابقة قد انزلقت الى اللاشعور ، فان التنويم المغناطيسى قد يكون اذا من أفضل السبل المؤدية الى استعادة بعض هذه الذكريات ، على النحو الذى بدأه دى روشا ثم تابعه فيه علماء آخرون بدرجات متفاوتة من النجاح مما ساعدهم على تقبل نظرية العودة للتجسد كأمر صحيح تؤيده الآن أدلة كثيرة معملية وفلسفية ، وتحقيقات متتابعة جاءت كلها الى جانب صحة هذا الاحتمال •

ومما ساعد على تقبل نظرية العودة للتجسد بالذات أن كثيرا من الأمراض النفسية قد يستعصى تعليله بأحداث معينة يكون قد مر بها المريض فى حياته الراهنة منذ الولادة حتى اصابته بالمرض ، أو بالأدق حتى ظهور أعراض المرض النفسانى أو العصبى عليه•وكذلك أن بعض تفسيرات فرويد بالاصابة أثناء عملية الولادة بالذات أخذ يظهر ساذجا وقاصرا عن مواجهة غالبية هذه الحالات ، ناهيك بمحاولة انقاذ المريض من آلامه •

ومن ذلك مثلا مرض الخوف الذى لا مبرر له ، كالخوف من المبانى الشاهقة ، أو من النار ، أو من حيوان أليف ، أو من لون معين ، أو من وسيلة مواصلات معينة ، أو من مادة معينة ، أو من موضوع مألوف ••• وهو مرض عصبى شائع فانه قد يكون ذا صلة باختبارات مريرة مر بها المريض فى حياة سابقة له ، وقد انزلقت بطبيعة الحال فى اللاشعور : مثل وفاته فى حياته السابقة من سقوطه من مبنى شاهق ،

---

(١) عن مؤلفه فى «التشريح الوظيفى للنفس.علم النفس الفسيولوجى» طبعة ١٩٧٢ • ص ٢٦٨ •

أو من احتراقه بالنار ، أو وفاته فى حادثة ما بوسيلة مواصلات معينة ... وغير ذلك مما يحمل بعض المحللين النفسيين المعروفين على ألا يستبعد من الذهن أن يكون ثمة جانبا من سلوك الفرد العصبى أو النفسى قد بدأ فى حياة ماضية له .

من اختبارات دنيز كلزى وقرينته

ومن هؤلاء مثلا الدكتور دنيز كلزى Denys Kelsey وهو عضو فى « الكلية الملكية للأطباء » (١) وقد ناقش هذا الموضوع فى مؤلف له عنوانه « حيوات متعددة » (٢) فى فصل عن « العودة للتجسد والعلاج النفسى » وفيه يقرر أن اسهام العودة للتجسد فى العلاج يجىء عن طريق الاعتراف بأن بعض العناصر النفسية كثيرا ما يبرز من الشخصية المبكرة للانسان . وأنه عندما وسع من نطاق مفهومه ابتدأ يدرك النقطة الأساسية وهى أن الانسان يتجسد بالطبع الذى يكون قد حصل عليه خلال تاريخه الطويل .

كمايقول ان هذا الطبع لم يرثه الانسان كله ، ولم يتشكل كله تحت ضغط البيئة لكنه قد تشكل عن عن طريق استخدام الانسان لحريته فى الاختيار . وأن الضغوط الخارجية لا تتسبب فى أن يغير الانسان من سلوكه ، بل أن التغير يحدث عندما يمكنه هو أن يغير من نواياه . وأن هذا المبدأ يقع الآن فى الأساس من مواجهته للأمراض العصبية التى تعزى الى طبع معيب فى الشخص . كما يعتقد أن كل شخص يمكنه أن يغيِّر من نواياه عندما يصمم على ذلك .

وكل شخص يتجه فى تقدير الدكتور كلزى آما الى العزلة واما بعيدا عنها ، لأن الحب الذى لا يجد اشباعا نقيا يتحول الى عدم اكتراث ، واحتمالا الى كراهية . وأثر العودة للتجسد هو تحديد هذا الاحتمال

---

(١) Royal College of Physicians.

(٢) Many Lifetimes.

الأخير ، لأن انتهاء الحياة الأرضية لا يعنى بالضرورة وضع حد لنموذج معين من نماذج الانفعال • ومن ثم فان الاقتراب الى العزلة بسبب الجفاء الذى قد يلاقيه الانسان قد يعبر عن نفسه فى صورة قلق قد يعطى أنواعا متباينة من الأعراض العصابية •

ولكن اذا أمكن تبصير المريض عن أوجه طبـاعه التى تقوده نحو العزلة ، وأمكن اقناعه اقناعا كاملا بلزوم تغييرها فان التغيير سيبدأ ، وستبدأ الأعراض فى التراجع •

* * *

وكغيره من الباحثين فىهذا الموضوع بدأ دنيز كلزى حياته فى التحليل النفسى بأسلوب علم النفس التقليدى وهو خالى الذهن تماما من موضوع العودة للتجسد • ثم لمع اسـمه فى لندن كمحلل نفسى بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان قد تجاوز الأربعين من عمره بقليل •

وباتباع أسـلوب التحليل النفسى المصحوب بالتنويم المغناطيسى ، فوجىء كلزى ببعض تفوهات من النائمين عن أحداث تنتمى الى عصـور مضت ، مع تكرارها مرارا واصرار عليها ، مما دفعه الى أن يبحث هـذا الاحتمال ، وهو العودة للتجسد • وبحسب تعبيره « لقد أجبرنى مرضاى على أن أشغل نفسى بهذا الموضوع » •

ثم تزوج كلـزى وسـيطة روحيـة معروفـة هى جـون جرانت Joan Grant ، وواصـلا معا تجاربهما فى محاولة التعرف على الحيوات السابقة للمريض ، المسطورة فىحنايا جسده الأثيرى ، والتىظهر له تدريجيا أن لها أثرها الحتمى فى لا شعوره ، وبالتالى فى أمراضه النفسية والعصبية الراهنة •

ووضعا كتابا مشتركا اسمه « حيواتنا السابقة » (١٩٦٧) (١)•وكانت

---

(١) Joan Grant et Denys Kelsey : Nos Vies Antérieures.

خبرة جون جرانت فى الوساطة الروحية ، وفى محاولة استكشاف بعض أسرار حيواتنا السابقة هى التىقادتها الى التعرف على الدكتور دنيز كلزى ثم الى الزواج به فيما بعد .

والأمر الهام هو أن دنيز كلزى ـ بعد تجارب تسعة وعشرين عاما وصل الى نتيجة حاسمة مفرطة فى أهميتها : وهى أن بعض حالات العصاب النفسى والعقلى قد يكون مصدرها ذكريات قديمة ترسبت فى لا شعور المريض من حيــواته الســابقة . وتأسيسا على ذلك طبق هــذا المحلل المعروف أسلوبا ثوريا فى معالجة هذه الحالات ، يعتمد بوجه خاص على الاعتراف بمــا يصــح أن يوصــف بأنه الجســد « فوق الطبيعى » supraphysique ، الذى يمثل جسدا خالدا فى الانسان(١) . وهو ليس مكونا من المــادة ذات الأبعاد الثلاثة ، بل يتجاوزها ولا يفنى بفنائها(٢). وهــو المكون « للأنا الكلى » moi intégral ويطوى جميع الحيوات السابقة لصاحبه ، كما يطوى أيضا شخصيته الراهنة .

ووصل كلزى بعناء الى اتباع الأسلوب المناسب الذى يسمح باحياء تفصيلى لتجسد سابق للمريض عنطريقجهد واع منه يتناسب مع استرجاع « الذاكرة البعيدة » التى تتناسب مع « التاريخ الطويل » وهو ما يؤدى الى شفاء بعض الحالات المستعصية التى لا يعرف العــلم ســبيلا آخر لشــفائها .

ويعتمد دنيز كلزى وقرينته جون جرانت Joan Grant ـ الوسيطة المعالجة والكاتبة التلقائية(٣)ـ علىأسلوب فى التنويم المغناطيسىخاص بهما

---

(١) « فوق الطبيعى » تعبير يشــير الى ما يتجاوز الوجود المــادى من أمور ، قد تكون لصيقة الصلة بهذا الموضوع المــادى . وهو على هذا الوضع يختلف عما « وراء الطبيعة » أو « الميتافيزياء » فى أن هذه الأخيرة تمثل نوعا من اللاهوت الفلسفى أو العلم الباحث فى أسرار الوجود النــائية عن حواسنا ومداركنا .

(٢) راجع ما سبق عنه فى جـ ١ ص ٢٨٦ ـ ٣٣١ .

(٣) من كتبها التلقائية « الفرعون المجنح » .The Winged Pharoah (١٩٢٧) وله ترجمة عربية .

اذ يطلبان من الشخص المطلوب تنويمه أن يكون فى حالة هدوء شامل ، اى فى حالة استرخاء تام من الناحيتين العضوية والعقلية . ثم على هـذا الشخص أن يتخيل ضوءا أبيض ويركز تفكيره عليه ، عندما يكون كازى قائما بعملية التنويم المغناطيسى . وبعد أن يأخذ كلزى فى العد الى ٢٠ يحدث تحول عند هذا الشخص فى درجة الوعى ، اذا كان هذا الشخص مستجيبا للتنويم .

وعندئذ يحتمل أن تتتابع عند هـذا الشخص ذكريات عن حيواته الماضية ، حتى تلك التى انزلقت الى أعمق أبعاد اللاشعور ، فاذا بها تطفو الى السطح . وبعـد استدراج الذاكرة الى الماضى على هـذا النحو ، تأخذ فى السير التدريجى ، فتستعيد الذاكرة عدة مشاهد ماضية ، بنفس المشاعر والانفعالات التى صاحبتها ، وهو ما يسبب فعلا منتهى الذهول .

فالشخص عندئذ لا يرى محض حياة ماضية ، لكنه يعيش فيها من جديد ، عيشا مصحوبا فى الغالب بصوت ، وبقاموس لغوى مغايرين تماما لشخصيته الراهنة .

فمثلا حدث أن شخصا يدعى توماس أورفيـل Thomas Orville كان يشكو من ألم حاد ومستمر فى جنبه الأيسر عند أعلى الطحال . وكل صور الأشعة عجزت عن اظهار أى مصدر فيزيقى لهذا الألم . واتضح من تنويمه مغناطيسيا أن هذا الشخص كان يعيش فى ايطاليا فى أوائل القرن السادس عشر ، ومات قتيلا بطعنة خنجر فى سن العشرين بمعرفة صديق له كان ينافسه على حب فتاة . وكانت الرغبة فى الانتقام ما تزال مشـتعلة فى لا شعور هذا الشخص ، وتقع فى الأساس من هـذا الألم النفسى ـ العضوى Psycho - somatique ، الذى كان يستيقظ من جديد كلما صادف هذا الشخص خيبة أمل فى حياته الراهنة .

وبعد جلسات متعددة ، كان فيها هذا المريض يستعيد نفس المسرح القديم للأحداث ، أمكن أن يقتنع بأن الخطأ خطؤه هو عندما كان يرغب فى أن ينشىء صداقة بأى ثمن مع شخص غير جدير بها . وفى نفس اللحظة التى أدرك فيها خطأه شعر بصدمة كما لو كان الخنجر قد انتزع منه ، واختفى الألم الغامض المصدر نهائيا .

وفى حالات أخرى عديدة مماثلة عديدة ثبت لكلزى أن المصدر الحقيقى لمتاعب المريض هو الرواسب المترسبة فى لا شعوره من تجسدات مضت . ولا يشترط أن يكون هذا الانسان مريضا بالمعنى السائد المألوف ، بل قد يعانى من بعض صور القلق ، والضيق التى مصدرها الحقيقى هو جهل الانسان بنفسه .ويكتب فى هذا الشأن متحدثا الى قارئه :

« فأنت تعرف عن نفسك أنك انسان فاضل ، غير عنيف ، جواد ، ودود ، عاجز عن فعل الشر ، وعاجز حتى عن أن تتمناه لأى انسان . وأنت تشعر بنفسك انسانا ناضجا نضجا كافيا ، ومع ذلك فأنت قد تتقبل وجود بعض مركبات نفسية Complexes نائمة فى شعورك ، لأنك قرأت أنها موجودة ولا يسلم منها انسان .

لكنك لا تعطى لهذه المركبات أية قيمة ، أو تعطيها قيمة ضئيلة جدا ، مادمت ميالا للهدوء ، وليست لديك رغبة فى أن تقتل أحدا ، أو تشعل النار فى مكان ، أو تفسق باحدى الفتيات . ولكن ها هو الغضب قد يدفعك الى القتل ، وحقدك يبحث عن الانتقام . وأنت الآن فقدت الثقة بنفسك ، وبما نقوله لك ...

لكن شهودنا هم مرضانا الذين شفوا ... واذا كنت الآن قلقا على نفسك ، وحصلت على اليقين بأننا نعمل فى اطار الحقيقة ، فلن تصبح — بعد — نفس الانسان الذى تفتقده فى نفسك ...

وأينا أقرب الى الحقيقة من أخيه : أنت بآرائك التقليدية المتوارثة ، أم نحن بالنتائج التى تحققت فعلا بسبب اتباع أسلوب ثورى فى العلاج ؟ !

أنت الآن تعبر الفترة الحرجة التى يتعذر فيها أن تجيب على مثل هذا التساؤل • ولا تشعر الا بيقين واحد : وهو أنك غير مستقر على رأى بعد• لكنك اذا ما واصلت البحث عن الحقيقة ستحصل على يقين ، هو يقينك الشخصى • ويكفى لذلك فحسب أن تعمل بطريقة مطردة • لا تدع الخوف يوجهك ولا الانبهار ، وهما كثيرا ما يتلاصقان • والتوقف عند أحدهما لن يسمح لك برؤية صادقة للأمور » •

* * *

وتجد أيضا فى كتاب حديث عنوانه « الموت ليس موتا » عدة حالات نجح دنيز كلزى وزوجته فى علاجها عن طريق ارجاع ذاكرة المريض الى حيواته السابقة للتعرف عن هذا الطريق على مصدر متاعبه فى حياته الراهنة • وهذا الكتاب من عمل السيدة ايزولا بيزانى Isala Pisani وصدرت طبعته الفرنسية فى سنة ١٩٧٨(١) •

ومن ضمن هذه الحالات حالة شخص كان عند اعتزامه ركوب أية طائرة يصاب بأعراض نفسية شديدة أو نفسية ــ عضوية ••• فاتضح عن طريق التنويم المغناطيسى أن سبب ذلك أنه كان قد توفى فى حادثة سقوط طائرة فى حياته السابقة(٢) •

وفى كتاب آخر عنوانه « العودة للميلاد بعد الموت » للباحث الفرنسى المعاصر جان فرانسيس كرولار Jean - Francis Crolard حالات أخرى عديدة من هذا القبيل • وقد تناول فيه المؤلف ــ من بين موضوعات

---

(١) عنوانه : Mourir n'est Pas Mourir. Paris 1978. ed. Robert Laffont

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ ــ ١٠٦ .

أخرى — حملة التحليل النفسى بهذا الوجود السبقى للانسان ، وهـذا الكتاب صادر فى سنة ١٩٧٩(١) •

وهكذا يجد المتابعون لهذه الوقائع والدراسـات أن ثمة نوافـذ جديدة نجح التحليل النفسى فى فتحها لاستكشاف بعض أسرار اللاشعور، وما قد تخفيه من متاعب ضخمة قد تكون سببا لأعراض متنوعة ، لا يمكن أن ينجح فى علاجها التوقف عند المنهج التقليدى فى هذا التحليل • وهذه النوافذ تعتمـد على التركيز على علاج ذاكرة الانسـان — ودفعها الى « امتصاص » آثار الجراح والآلام المـاضية ، مهما بعدت بها المسافة ، باتباع أسلوب محاولة الطفو بها من اللاشعور الى الشعور •

من اختبارات روبرت سميث

وينادى دوك أندرسون Doc Anderson أيضا — وهو وسيط أمريكى للادراك خارج الحواس وللغيبوبة وللعلاج — بصحة العودة للتجسـد ، وبامكان اعادة الذاكرة عن طريق التنويم المغناطيسى للتعرف على أسرار الحياة السـابقة لبعض المرضى النفسيين كوسـيلة فعالة لعـلاجهم من أمراضهم الراهنة •

وقد قام بسرد بعض تجاربه وتلخيص بعض آرائه زميل له فى بعض تجاربه يدعى روبرت سميث Robert E. Smith وجمعها فى مؤلف له عنوانه « نحن نحيا حيوات متعددة » (٢) (مايو ١٩٧١) •

وقد وصل فيه الى أن هـذا الموضوع يحتاج الى مواصلة البحث فيـه ، وأنه عنـدما « اختلس » المحللون النفسيون الشيطان من رجال الدين اعتقلوا « رهينتهم » داخل العقـل الباطن للانسان • ومنذ هـذا التاريخ حصروا اختباراتنا وفحوصنا ، وتنقيبنا فى المكونات الفيزيقيـة

---

(١) Jean - Francis Crolard : Renaitre Aprés La Mort.

(٢) We Live Many Lives.

والعقلية للانسان ، ودفعونا الى اهمال البحث فى التكوين الروحى واستكشاف جوهر ذواتنا ...

ان العودة للتجسد شأنها شأن كل نظرية أخرى : اما أن تكون صادقة واما أن تكون كاذبة،لكن كل الشواهد الى جانبها،حتى وان كانت غير حاسمة . ومع ذلك فان التعرف على الحيوات السابقة ذو طاقة حيوية فى التخفيف من حدة التوتر الانفعالى .

ويقول روبرت سميث فى مؤلفه الآنف الاشارة اليه أن دوك أندرسون تعرف مثلا على التجسد السابق لرجل أمريكى ، واتضح له أنه كان متجسدا فى انجلترا فى صدر القرن التاسع عشر باسم هنرى هاركنز Henry Harkins وأنه كان يعمل مديرا لأحد المصانع فى ولاية لانكاستر Lancaster بالريف البريطانى . وكان يستغل سلطته على بعض العاملات الجميلات الفقيرات لكى يفرض عليهن الرضوخ لرغباته وشهواته .

ويقول ان هذا الشخص مات قتيلا فى نفس المصنع بطعنة سكين فى ظهره من فتاة ذات شعر أحمر ، وقد سرقت بعد مقتله ساعته الذهبية ونقوده . وقد سرد الوسيط على هذا الشخص ذلك الجانب الخفى من حياته السابقة كوسيلة لانقاذه من متاعبه ومخاوفه المجهولة المصدر التى كانت تطارده فى حياته الراهنة (١) .

وبعد أن تحسنت حالته عن ذى قبل أرسل هذا الشخص خطابا الى دوك أندرسون يقول له فيه : « لقد أبتدأت أتفهم تدريجيا مصدر حبى للأدب الانجليزى فى صدر القرن التاسع عشر ، اذ أن حبى يرجع

---

(١) قد يعترض أحد المعترضين قائلا : وهل هذا هو كل جزاء هذا الشخص عن أفعاله السيئة فى حياته الماضية ؟ والجواب هو : وهل نعلم كيف أمضى هذا الشخص أيامه فى الأثير فى الفترة بين التجسدين السابق والحالى ؟ واليس من الجائز انه أمضاها أشد قلقا واضطرابا مما هو الآن ؟

الى رابطة تربطنى بذلك العصر . كما تبين لى وجود أشياء آخرى كثيرة يتعذر تفسيرها « بالمصادفة » . لقد كنت أكره السكاكين بصفه منتظمة ، كما كنت أشعر بالضيق من أى مصنع قديم ، أو من أى مبنى معد المصنع ما . وأبتدأت تضاف الى ذلك كمية من أمور أخرى صغيرة .

كما حدث تحسن أعجازى فى حياتى الجنسية ، وأننى مدين ومقر بذلك . كما أنا مدين لتغير شخصيتى وبدأت أرى كيف آن قدرة الله قدرة صديقة لنا لأنها تسمح لأولاد الله أن يتعلموا عن طريق استخدام حريتهم فى الاختيار ، وهكذا تقوى اعتقادى الدينى . وأنا الآن بكل بساطة أكثر دعة واطمئنانا من ذى قبل ، ولا أفقد هدوئى فى المنزل أو المكتب . أن ثمة وقتا ومكانا لأجل كل شيء ، وتبدو لى الحياة الآن أكثر من مجرد لحظات عابرة سريعة تضيع هباء .

لقد قرأت فى مكان ما أن اختبار المعجزة الحقيقية يكون عندما يتمكن أى اختبار من تغيير حياتك نحو الأفضل ، وهذا ما قد تم انجازه بالنسبة لى . وبعد بضع سنوات سأخبركم عما اذا كان هذا التغيير نهائيا أم لا »(١) .

* * *

ويتساءل روبرت سميث فى مكان لاحق قائلا : هل ستصبح نظرية « العودة للتجسد » حقيقة ثابتة فى يوم من الأيام ؟ ثم يجيب قائلا : ربما سيتمكن الانسان فى يوم مستقبل من رفع النقاب الكثيف الذى يغطى الموت ، وسيتعلم الكثير من الحقائق الخطيرة الأزلية عن الحياة الروحية . والعودة للتجسد هى العنصر الخالد لوجودنا وقد تصبح حقيقة مطلقة ومثلها دورة الموت والميلاد الثانى ، وهذا التحول التاريخى الخطير يمكن أن يتحقق خلال اختبارات ثابتة عن الاتصال بين الانسان المتجسد والانسان غير المتجسد . كما يمكن أن يتحقق خلال بعض

---

(١) عن المرجع السابق ص ٧٠ — ٨٠ .

اختبـارات ارجاع الذاكرة عن طريق التنويم المغنـاطيسى الى الحيوات السابقة عندما تقدم أدلة لا تقبل الجدل •

وأدلة كهذه ينبغى أن تخضـع للمتطلبات الصارمة التى يتطلبهـا أسلوب التحقيق العلمى ـ بحسب رأى دوك أندرسون ـ وان تكون من النوع الذى يصمد لأقسى صور الفحص • ان العقل الباطن لهو من طراز فريد ، ويمكنه أن يقوم بأدوار من تزيين الأمور تضلل المنوم والمنوم معا •

ثم ما هو الأمر الذى يمكنه أن يقيم بينـة قوية لمصـلحة العودة للتجسد ؟ لقـد حاول دوك أندرسون وأنا أن نحصل على معلومات عن موضع سلعة يكون المريض قد أخفاها فى مكان ما (فى حياته السـابقة) ولا يعلم عنها أحد شيئا (١) • ولذا ففى كل تجاربنا المغناطيسية توجـد أسئلة حول موضع سلعة ما لا يعرفه الا الشخص المنوم •• ان العـلوم الخفية أهملت أو الغيت خلال قرون ، وجيلنا الحاضر يحاول أن يشـيد قلعة من الوقائع عن هذه الموضوعات ••

لقد أخبرنا عدد وفير من المنومين مغناطيسـيا عن تجسـدات فى العصـور الغابرة ، ولا توجد لدينا سجلات قديمة لتحقيق صحة هـذه الحيوات ، وحتى الحيوات التى قيل ان أصحابها أمضوها فى الولايات المتحـدة خلال القرن المـاضى وجدنا أن بحثها وتحقيقهـا من أصـعب الأمور • ولم تبدأ حكومتنا فى العناية بحفظ سجلات صحيحة عن المواطنين الا منذ عهد قريب • وفى بلاد أخرى لا توجد ـ حتى فى العصر الحاضر ـ سوى الأقوال الشفهية • وهكذا يمضى كل جيل ومعه تاريخ الانسـان العـادى (٢) •

---

(١) عنى العالم الأمريكى المعـاصر ايان ستفنسون بتسـجيل بعض الوقائع من نفس هذا النوع ونجح فى بعضها على ما سبق . ولم يكن ذلك عن طـريق التنويم المغناطيسى ، بل عن طـريق ذكريات « العـائدين الى التجسد » وهم فى كامل يقظتهم . (راجع ما سـبق فى صفحة ١٠١٠ ـ ١٠٢٧) .

(٢) عن المرجع السابق ص ٨٧ ، ٨٨ .

من اختبارات أرنول بلوكسهام

وفى هذا الشأن أيضا يقول أرنول بلوكسهام Arnall Bloxhom وهو دكتور فى العلوم النفسية ويرأس حاليا « الجمعية البريطانية للعلاج بالتنويم المغناطيسى » وقد اتخذ العلاج بالتنويم مهنة له — انه استطاع أن يشفى خلال ربع قرن حالات كثيرة ، وانه منذ سنة ١٩٥٦ ابتدأ يكون اقتناعه بالعودة للتجسد ، وأنه سجل العديد من حالات تذكر الحيوات السابقة على أشرطة التسجيل بمساعدة زوجته دولشى التى توفيت فى سنة ١٩٧٠ .

وقد استطاع بلوكسهام أن يكون مكتبة صوتية غريبة يحار أمامها العقل فى صورة حوار مع الماضى مدته مائتا ساعة !! بل لقد سجل مع زوجته حقائق عديدة تاريخية وجغرافية كما كانت عليه أصلا . ولكل شريط ملف خاص يتضمن دراسة دقيقة للأدلة العلمية التى تؤكده . ومعظم الأشرطة تتعدى بالطبع الوقائع التاريخية الشائعة وتزودها باضافات فريدة . وهو يرى أن تشخيص مرض عصبى ما يمكن أن يكون أدق كثيرا عند تفهم خصائص المريض الشخصية فى ضوء تجسداته السابقة .

كما يرى أن خصائص المرء التى اكتسبها فى أعماره السابقة تظل معه فى حيواته التالية ، وان كان بعض المواهب يصبح ثانويا . وأن تفاعل الحيوات السابقة قد يجعل المرء أحيانا فى انحدار مستمر . وان ثمة مواهب كثيرة تكمن فينا جميعا ، لكن قلما يوجد الشخص الذى يستطيع استثمارها كلها .

ولذا فهو يأخذ بقاعدة « الكارما » التى سنعرض لها تفصيلا فى فصل لاحق ، والقائلة بأن سلوك الانسان يلاحقه حتى بعد وفاته ، ولكنه يرى أن تفهم الانسان لقدراته ، ومعرفته لامكانياته الدفينة ، أمور كفيلة بأن تغير وجه العالم .

* * *

وقد وصـل بلوكسهام ـ الذى جاوز الآن الخامسة والثمانين من عمره ـ الى هذه النتائج بعد أن تمكن من تسجيل أربعمائة حالة ناجحة من حالات أرجاع الذاكرة الى الوراء فى غيبوبة التنويم المغناطيسى ، خلال فترة من التجريب المتواصل أمتدت الى أكثر من عشرين عاما •

وبعض هذه الحالات بلغ من الدقة مبلغا رائعا • فمثلا هناك سيدة بريطانية من ويلز تدعى جين ايفانز Jane Evans سردت فى غيبوبتها وقائع محددة تماما عن ستة تجسدات سابقة لها ، كل تجسد منها يتميز تماما عن الآخر واجمالها كالآتى : ـ

١ ـ تجسد كانت فيه زوجة لأحد المدرسين الانجليز تحت الحكم الرومانى ، وتوفيت فيه فى سنة ٢٨٦ • وكان اسمها ليفونيا Livonia واسم زوجها تيتوس Titus الذى كان يكبرها بكثير ويعطى دروسا خصوصية فى اللاتينى ، والاغريقى ، والشعر •

٢ ـ تجسد كانت فيه امرأه يهودية تدعى ربيكا Rebecca وعاصرت فيه مذبحة لليهـود فى ولاية يورك York بانجلترا حيث فتك أعداؤهم بمائة وخمسين منهم فى برج كليفورد Cliffords Tower • وتوفيت ربيكا فى سنة ١١٩٠ وتقول أن والدها فى هذا التجسد حضر الى يورك من جزيرة قبرص وتزوجت بالمدعو يوسف من سبط حزقيال ، وكان مرابيا غنيا ، وأنها أنجبت ولدين أسمتهما يوسف وراشيل •

٣ ـ تجسد ثالث كانت فيه خادمة عند تاجر فرنسى يدعى جاك كير Jacques Coeur من نبلاء القرون الوسـطى ، وتوفيت فيه فى سنة ١٤٥١ • وأمضت حياتها بمدينة بورج Bourges فى وادى اللوار فى قصر منيف مملوك لمخدومها •

٤ ـ تجسد رابع كانت فيه وصيفة شرف للأميرة كاترين أوف أراجون Catherine of Aragon ، واستمر من سنة ١٤٨٥ ـ ١٥٣٦ وسافرت فى هـذا التجسـد من أسـبانيا لكى تتزوج الأمير الانكليزى آرثر فى سنة ١٥٠١ •

٥ ـ تجسد خامس كفتاة فقيرة تعمـل فى حياكة الملابس بمدينـة لندن تحت حكم الملكة آن ، واستمر من سـنة ١٦٦٥ ـ ١٧١٤ • وكان اسمها فيه آن تاسكر Ann Tasker وكانت تعيش مع آمها فى بادنجتون Paddington فى حالة فقر •

٦ ـ تجسد سادس بوصفها راهبة بمدينة ماريلاند Maryland بأمريكا أسـمها الأخت جريس Grace ، أمضـت فيه سنى طفولتها بمـدينة ديس مونيز Des Monies بولاية أيوا Iowa بالطريق الثانى Route Two ، وكانت تحمل لقب اليس Ellis وظلت حية فى هذا التجسد الأخير بالأقل الى سنة ١٩٢٠ •

وأمكن تقصى العديد من الوقائع التى سردتها هـذه السيدة عندما كان بلوكسهام يوقعها فى الغيبوبة المغناطيسية مرارا وتكرارا • وقد ثبت صحة بعضها خصوصـا بالنسبة لهذا التجسـد الأخير بالنظر الى حداثة وقائعه نسبيا •

ثم ولدت هذه السيدة من جديد فى حياتها الراهنة فى بريطانيا فى سنة ١٩٣٩ وما تزال على قيد الحياة (١) •

---

(١) للمزيد عن تجارب بلوكسهام راجع :
Bloxham, Dulcie : Who was Ann Ockendon ? London 1958.
Jeffrey Iverson : More Lives than One. The Evidence of the Remarquable Bloxham Tapes. 1976.
وللمزيد عن كل موضوعات اللاشعور فى ضوء علم الروح الحـديث راجع كتابا قيما للدكتور راينور جونسون Raynor C. Johnson مدير « كلية الملكة بجامعة ملبورن » عنوانه « الطريق الروحى » ١٩٧١ .
The Sipirtual Path.

من اختبارات شارل لانسلان

من البحاث الفرنسيين المعروفين فى دراسات الظواهر غير المـألوفة ، ومنها بوجه خاص ظواهر التنويم المغناطيسى ، شارل لانسلان Charles Lancelin (توفى فى سنة ١٩٤١) • وقد تتلمذ كما قال عن نفسـه على مؤلفات أوجين ألبير دى روشا E. A. de Rochas ، وبابيس Papus وبارادوك Baraduc وغيرهم من أعلام المدرسة الفرنسية فى العلوم الروحية بوجه عام والمغناطيسية بوجه خاص •

وأصدر لانسلان عدة مؤلفات فى هـذه العلوم منها : « الازدواج الشخصى » (١) ، و « التدليس فى الظواهر الوساطية » (٢) ، و « كيف يموت الانسان وكيف يولد » (٣) ، و « أسلوب الازدواج الشخصى »(٤)، و « العودة للتجسد »(٥) ، و « الروح الانسانية »(٦) ، و « الحيـاة اللاحقة » (٧) ، و « ما هى الروح » (٨) ، و « الغيب والعلـم » (٩) ، و « الغيب والحياة » (١٠) وغيرها كثير ••••

ويسرد لانسلان عدة اختبارات مبتكرة بشأن ارجاع الذاكرة للوراء فى مؤلف له عنـوانه « حيواتى الخمس السـابقة » (١١) • وفيه يوجه أنظـار المختبرين والمعالجين عن طريق التنويم المغناطيسى الى وضـع له

---

(١) Dédoublement Personnel.

(٢) La Fraude dans la Production des Phenomènes médiumniques.

(٣) Comment on Meurt, Comment On Nait.

(٤) Méthode de Dedoublement Personnel.

(٥) La Réincarnation.

(٦) L'Ame Humaine.

(٧) La Vie Posthume.

(٨) Qu'est ce que c'est que l'Ame ?

(٩) L'Occultisme et la Science.

(١٠) L'Occultisme et la Vie.

(١١) Mes Cinq Dernières Vies.
وهذا آخر مؤلفاته ، وقد نشر بعد موته .

وجاهته ، وهو احتمال تداخل ذكريات المنوم فيما بينها ، عند سرد بعض أحداث حيواته السابقة •

فيقول مثلا ان شخصا واقعا تحت التنويم المغناطيسي أرجعت ذاكرته الى تجسده السابق مباشرة تحت حكم لويس الرابع عشر ، فروى عدة تفصيلات صحيحة تماما عن هذا العصر • ولما أرجعت ذاكرته الى الحياة السابقة لها قال انه يعيش تحت حكم القديس لويس • لكن عندئذ اختلطت عليه ذاكرتاه : ذاكرته عن عصر القديس لويس مع بعض ومضات من ذاكرته عن لويس الرابع عشر ، فاذا به يقرر أن البلاط الملكي في عهد القديس لويس كان في قصر فرساي !

وعندما أرجعت ذاكرته دفعة أخرى للوراء تبين أنه يعيش في القرن الثامن في عصر شارلمان ولكن أخذ يسرد بعض تنف عن أحداث وقعت له بعد هذا التاريخ بحسب التسلسل الطبيعي للزمن •••• وبقدر ما كان يحاول استرجاع الأحداث المختلفة التي مرت به في تجسداته المتتابعة بقدر ما كانت تختلط عليه الأمور فيروى ذكريات لا تتناسب أبدا مع العصر الذي يحدده لوقوعها • وذلك الى الحد الذي دفع لانسلان الى أن يقرر بأنه من الصعب جدا مع شخص كهذا الشخص تجاوز التجسد السابع أو الثامن له رجوعا الى الوراء ، للحصول منه على ذكريات صحيحة (١)•

وقد اتبع لانسلان أسلوبا جديدا في تحقيق التجسدات السابقة لبعض الأشخاص ، وهو أنه كان لا يوقعهم هم في الغيبوبة بل كان يوقع وسيطا عاديا للتنويم المغناطيسي ، ثم يسأله عن التجسدات السابقة لشخص آخر غيره ، بما في ذلك تجسدات لانسلان الخاصة السابقة • وكان يوقع في

---

(١) يراعى دائما أن الخطأ في تواريخ الأحداث التي تنتمي الى الماضي السحيق امر شائع الحدوث في جميع هذه الاختبارات ، لأنه اذا كان الانسان ينسى عادة تواريخ أحداث حياته الراهنة ، فمن باب أولى ينسى تواريخ تلك الأحداث التي تنتمي الى ماضيه السحيق ، ويخلط بينها كثيرا كما قد يخلط بين شتى الوقائع ، وعلى ذلك أجمع الباحثون في أسرار هذه الظواهر .

الغيبوبة أكثر من وسيط للتنويم المغناطيسى لسؤالهم عن تجسدات شخص ما ، ثم يقوم بعمل مضاهاة بين أقوالهم ، للمقارنة بينها • ويعتقد أن هـذا الأسلوب قد يكون أنجح من غيره فى الوصول الى بيانات صـادقة عن ماهية التجسدات السابقة لشخص ما •

ويقول لانسلان فى هذا الشأن « ان هذا هو الأسلوب الذى اتبعته خلال تحقيقاتى فى علم النفس التجريبى عن طبيعة الحياة بعد الموت ، لكن هنا يكون الأسلوب أبسط من غيره لأنه لا يلزم فيه ارسال وعى الشخص النائم الى مستوى مجاور للأرض (وهو ذلك الذى يلى الموت مباشرة) بل اننى أطالبه ــ بدون أن يغادر مستوانا المـادى وعالمنا الأرضى ــ أن يوجه رؤيته (أى شـفافيته Voyance) الى ذلك المـاضى للتعرف على بعض بيانات عن شخص معين مؤيدة بالأسانيد اللازمة •

وبالتالى فهذا الأسلوب لا يتطلب ازدواج الشخص النـائم (أى طرح روحه فى المكان) ، كما لا يحتاج لعمل دائرة للحماية من حوله ، ولا حتى لايقاعه فى غيبوبة وساطية مثلما يحدث فى الاختبارات الأخرى • والشرط الأساسى هو أن تكون بياناته متكاملة على قدر الامكان ومرتبطة فعلا بماضى ذلك الشخص الذى نبحث عن ماضـيه • واذا كان هـذا الشخص هو المنوِّم المغناطيسى نفسه ، فان الوضع يكون أفضل ، ويصبح الوصول الى المـاضى أيسر منالا » ••••

وللتوصـل الى أن نكون قريبين من الحقيقة فان لانسلان يقترح أن يقـع التنويم المغناطيسى على عدد من المنوَّمين لا يقل عن خمسـة أو ستة ، وكلما أزداد عددهم كلما كانت النتائج أفضل من غيرها •••

ومن الأهميـة بمكان أن يتلقى المنوَّم ايحاءين أساسيين : أولهما ألا ينتزع أية اجابة من عقل أحـد من الموجودين ، وثانيهما ألا يلقى أى بيان الا اذا كان يمثل عنده يقينا مطلقا • أما اذا كان يمثل مجرد احتمال

فعليه أن ينبهك الى مدى ما يعتقده من رجحان هذا الاحتمال • وهـذان الايحاءان لا غنى عنهما بصفة مطلقة قبل السير بعيدا معه •

وعندما يقدم المنوِّم تقريره بالكامل ، ســواء أكان الشخص محل البحث عن ماضيه موجودا أم غائبا ، فأطلب من المنوِّم أن يروى لك وقائع حياتك الراهنة أنت رجوعا الى الوراء مع تصحيح الوقائع اذا لزم الأمر، واعادة المنوِّم الى طريق البحث عن البيانات المطلوب الوصــول اليها ، اذا خرج عن الطريق الصحيح •

وعندما يصل الوسيط النائم الى العصر الذى ولدت فيه ، كلفه بأن يرجع الى الوراء باحثا عن حياتك السابقة ، ثم يرويها لك • وعندما ينتهى من ذلك أرفع الجلسة ، وأيقظه بدون أن تذكر أمامه شيئا عما قاله لك فى الغيبوبة بل دعه يعتقد أنه لابد قد أخطأ • وأن أقواله لم تتفق مع الحقيقة الى المدى الذى يدعه فى شك من أمره • وهــذا الشك سيدفعه عند وقوعه فى الغيبوبة مرة أخــرى الى أن يحاول البحث عن الحقيقة بعزيمة أكثر مما جرى فى المرة السابقة ••••

ثم كرر نفس هذا الأسلوب مع وسطاء عديدين للتنويم المغناطيسى، ولا تتوقع دائما تطابقا تاما فيما بينهم ، ولكن توقع بعض التوافق فحسب، وعندئذ يحسن أن تجمعهم فى مكان واحد وتوقعهم فى الغيبوبة الواحــد بعد الآخر وتناقش كلا منهم الى أن تحصل على جواب مقنع متبعا نفس الأسلوب ، خصوصا اذا حدث بينهم تعارض واضح • ويهم ألا توقع أكثر من أثنين منهم فى الغيبوبة فى وقت واحد للحصــول على نتائج سريعة ، لأن المنومين مغناطيسيا قد يتبادلون التأثير فيما بينهم • فاذا كانوا ثلاثة فهناك أحتمال قوى لكى لا تصل الى أية نتيجة (١) •

ويقول لانسلان انه للتعرف على حياتيه الســابقتين الأولى والثانية

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٨ .

احتاج الأمر الى جهود خمسة وسطاء للتنويم المغناطيسي ؛ لكن بقدر ما كان يحاول الرجوع الى الوراء بقدر ما بدا الجهد شاقا ، واحتاج الى اضافة وسطاء جدد • ولما وصل الى محاولة آستكشاف حياته الخامسة (رجوعا الى الوراء)كان عدد الوسطاء قد بلغ اثنى عشر وسيطا ووسيطة•

والصعوبة العظمى كانت فى محاولة الوصول الى ذكرياته فى الحيوات المتوسطة بين كل تجسد وآخر (أى عن فترات اقامته فى الأثير بين كل تجسدين) ••••

« وبقدر ما كنا نرجع الىالوراء فى استرجاع بعض الذكريات ، بقدر ما كانت حياتى تتضخم هذه الصعوبة ، الى حد أنى بشأن حياتى السادسة والسابعة السابقتين لم أتمكن من الحصول الا على وقائع غير ثابتة ومختلفة، الى المدى الذى أصبح على فيه مستحيلا أن أستخرج آية دلالة محققة ، ولذا أهدرت تلك الوقائع (السابقة على الحياة الخامسة) وآعتبرتها كأن لم تكن » • ولذا قصر لانسلان موضوع مؤلفه هذا على سرد وقائع حيواته الخمس السابقة فقط بحسب عنوانه نفسه (١) •

تعليق على اختبارات لانسلان

هذا الأسلوب الذى اتبعه لانسلان فى اختباراته المبتكرة لمحاولة استكشاف الحياة السابقة ، أو الحيوات السابقة لانسان ما له مزية واضحة ، وذلك اذا كان هذا الانسان لا يمكن تنويمه مغناطيسيا لأنه قد لا يصلح له ، وهذا أمر شائع ومألوف جدا •

أما فيما عدا ذلك فان ايقاع نفس الشخص الذى يعانى من متاعب نفسية ، كالقلق أو الاكتئاب •••• أفضل أسلوب لمحاولة الوصول الى لا شعوره الخاص ، وادعى للثقة فيما يتعلق بالبيانات التى قد يدلى بها عن ماضيه السحيق ، اذا نجح المحلل النفسى فى ارجاع ذاكرته الى ذلك

---

(١) نفس المرجع صفحة ٢٢ •

الماضى الذى قد ينتمى الى اى تجسد من تجسداته السابقة ، وهـذا أمر فى حد ذاته من الصعوبة بمكان كبير •

فكل هـذه الاختبارات ليست سهلة بالمرة ، بل انها تتطلب خبرة واسعة ، وظروفا مؤاتية عديدة فيما يتعلق بالملكات الروحية عند المنوَّم وعند المنوِّم على حد سـواء • وهذه الملكات الصحيحة أندر مما قد يتصور أى انسان •

ثم أن الاستعانة بخمسة أو ستة وسطاء قديرين للتنويم المغناطيسى مشـكلة هيهات التغلب عليها فى ذاتها • وقد تكون هذه الاسـتعانة بالوسطاء المتعددين ممكنة أحيانا عنـد اجراء تجـارب علمية على نطاق محدود فى المعاهد التى تتكبد نفقات باهظة • لكن عند التحليل النفسى لعـلاج المتاعب والأعراض المتنوعة ــ من المحـال تكليف المحلل بهـذه الاستعانة التى قد تستنفذ كل وقته وطاقته •

وأما قول لانسلان بأنه فى مثل هذه الحالة لا يحدث عند وسـيط التنويم المغناطيسى ازدواج أو طرح روحى فى المكان ، فهو قول صحيح فى ذاته ، لكن يحدث على سبيل القطع ــ طرح روحى فى الزمان • ولا فارق بينهما من ناحية لزوم انفصال الوعى عن الجسد • وبالتالى فلا يوجد أى فارق من ناحيـة المخاطر التى قد يتعرض لهـا الوسيط ، والتى تتطلب لدرئها توفـير « دائرة كافية للحماية الروحيـة » من حوله • ومع لزوم وصوله الى مرحلة ثابتة ومستقرة من التنويم على أية حال •

بقيت نقطة هامة تحدث عنها لانسلان ، وهى صعوبة تذكر أحداث محددة وواضحة عن الفترة التى قضاها الانسان فى الأثير بين أى تجسدين متتابعين ، بالمقارنة بتذكر العديد من الأحداث التى تكون قد وقعت أثناء كل تجسد منهما ، وهذه حقيقة سجلها العديد من المختبرين فى اختباراتهم الروحية •

والظاهر أن جميــع الذكريات السابقة تنزلق بالميلاد الجـديد الى اللاشعور ، فلا تطفو منها الى الشــعور سوى نسبة ضئيلة اذا توافرت شروط معينــة ، اما فى غيبوبة التنويم المغناطيسى ، واما فى حالة اليقظة الكاملة خصوصا فى الطفولة المبكرة • ولكن طفو الذكريات من اللاشعور الى الشعور عن حياة عالم المــادة أيسر بكثير من طفوها عن الحياة السابقة فى عالم الأثير • وذلك يرجع ــ فى تصورنا ــ الى اعتبارات متعددة أهمها ما يلى : ــ

أولا : أن المستوى الاهتزازى لعالم الأثير يعلو كثيرا عن المســتوى الاهتزازى لعالم المــادة • وتقارب ، أو اتحاد المستوى الاهتزازى للحياة الحاضرة مع الحياة السابقة فى المــادة يجعل التذكر أيسر منالا ، والصورة أكثر وضوحا فى ذهن صاحبها من الفرض الآخر •

ثانيا : يبدو أن ذكريات حياة المــادة تكون فى المعتاد أشد مرارة ، ولذا تحدث خدشا أقوى أثرا فى الذاكرة الشــعورية واللاشعورية معا من ذكريات حياة الأثير ، التى يضيع فيها حتى الاحساس بالزمان وبالمكان، والتى قد تقصر ــ بحسب مقاييسنا الأرضية ــ الى أيام قلائل أو تدوم الى قرون عديدة ، وهذا هو موضوع الفصل الأول من الباب المقبل •

ثالثا : أن أسلوب الذاكرة فى العمل فى الأثير بالعقل رأســا وبدون الاستعانة بجهاز المخ ، مغاير تماما لأسلوبها فى العمل فى عالم المــادة عن طريق المخ • ولذا فان ارتباط الذاكرة الأرضية بالمخ يجعلها أقــدر على تذكر المــاضى البعيد عندما كانت تعمل أيضا عن طريق المخ السابق ، وهو واحد فى طبيعته •

رابعا : أن العيش فى عالم المــادة من جديد قد يساعد على تحريك الذكريات الدفينة فى اللاشعور ، والتى تتحرك فى بعض الأحيان لمجــرد العودة لارتياد نفس مسارح الأحداث القديمة ، أو لمشاهدة بعض أحداث

مماثلة قد تكون سببا فى تحريك الذاكرة عن الأحداث المماثلة القديمة ، ولو بطريق تداعى المعانى ، كما يحدث أحيانا فى الأحلام .

خامسا : أن الظروف الكهربية للطقس قد تلعب دورا فى تحريك الذكريات القديمة ، حتى تطفو من اللاشعور الى الشعور . وهذه الظروف الكهربية مستقلة عن الحرارة والبرودة ، لكنها – فيما يبدو – ليست مستقلة عن تأثير الاهتزازات الأثيرية المنبعثة من الشموس ومن سائر الأفلاك والمدن النجومية . وكلها متضامنة فيما بينها ، وتؤدى دورا فريدا فى تحريك مشاعرنا اللاشعورية فى اتجاه أو فى آخر بطريقة ماتزال غامضة على العلم .

وهذه الظروف الكهربية للطقس يبدو أنها تؤدى للحياة فى مستوى المادة دورا يتجاوز فى مداه الدور الذى تؤديه للحياة فى مستوى الأثير ، بل يختلف عنه أيضا فى طبيعته بمقدار تفاوت طبيعة الحياة فى هذين المستويين المتباينين تماما من مستويات الوجود غير المحدود .

ومن يدرى فلعل صعوبة تذكر الماضى الذى أمضته الروح فى عالم الأثير – بالمقارنة بتذكر الماضى الذى أمضته فى عالم المادة – هو الاعتبار الذى يقع خلف بعض المذاهب الهندوسية التى تتصور أن التجسد فى الأرض يحدث بعد الوفاة مباشرة ، بل قد يبدأ فى أثناء الاحتضار؟! وأنه بالتالى لا توجد فترات للراحة والاستجمام قد تمضيها الروح فى الأثير وقد تطول الى دهور ودهور !! وهذا ما ينتقل بنا الى بعض موضوعات الباب العاشر والأخير .

الباب العاشر

تساؤلات هامة اخرى

تثيرها «العودة للتجسد»

تمهيـــد

أظن أن الصفحات السابقة(1) ليست شحيحة بالبيانات المؤدية للاقتناع بالعودة للتجسد بوصفها مبدأ كونيا قد يتحكم فى تسلسل الأحـداث بقدر اتصالها بسلوك صاحبها • كما يتحكم فى خلجات هذا السلوك بقدر اتصـاله بتكوينه العقلى ــ الروحى الذى ظهر للباحثين العلميين أعرق بكثير من تأثيرات البيئة المكتسبة منذ أيام الطفولة ، كما أنها مستقلة ــ فى جانب منها بالأقل ــ عن تأثيرات الوراثة من الآباء والأجداد •

كما أن تلك الصفحات نفســها ليست شحيحة بالبينات عن ارتباط هذا المبدأ بنظرية التطور الطبيعى بالأقل فى جوانبها التى أصبحت لا تثير نزاعا جديا الآن • ناهيك بارتباطه ببعض نواحى السلوك الانسانى ، وهى تلك التى تنتمى الى لاشعوره الخاص ، والتى يلزم تمييزها ــ ولو على نحو ما ــ عن نواحى السلوك المسندة الى عقله الواعى ، أى الى استخدام أسلوب الاستدلال المنطقى الذى قد يستخدمه الانسان ، ولو فى اطار ضيق ، والى حد محدود •

وأقل ما قد يقال فى مبدأ العودة للتجسد هذا أنه قد ألقى أضــواء جديدة لا يستهان بها على هذين الموضوعين الهامين جدا فى تفسير سلوك الانسان وهما : نظرية التطور بقدر اتصالها بتفسير التكوين البيولوجى ــ الروحى للانسان ، ونظرية اللاشعور بقدر اتصالها بتفسير العــديد من

---

(1) ابتداء من صفحة ٨٦٥ من هذا الجزء الثانى ، وتضاف اليهـا البينات التى سترد تباعا فيما تبقى من فصول هذا الباب .

نواحى سلوكه التى كانت بمثابة المجاهل التى يتعذر تماما ارتيادها عن طريق تلك النظريات الافتراضية التى كانت تحتل مكان الصدارة فى علم النفس التقليدى ، ولم يعدلها مكان يذكر بين حقائق الباراسيكولوجى فى مرحلته الراهنة •

والتحول الجذرى الذى جرى بشأن هذين الموضوعين الهامين كان موضوع الباب السابق • ولفرط أهميتهما وقفت عندهما وقفة ليست بالقصيرة ، وان كان هذان الموضوعان ــ لفرط دقتهما وتغلغلهما الى أبعد أعماق التكوين الروحى للانسان ــ ما زالا بحاجة الى عناية متزايدة من كل المعنيين بالبيولوجيا وبالسيكولوجيا •

ولذا يلزم الربط بين أبواب هذين العلمين ربطا متواصلا ، لأن الانسان عبارة عن « مجموعة متوحدة » كما أشرت الى ذلك فى أكثر من موضع سابق • ناهيك بضرورة الربط بين كل أبواب الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وعلم الانسان فى مفهومه الواسع(١) •

ويدخل فى هذا العلم الأخير موضوعات عديدة من علم الاجرام الذى لا يخرج فى جوهره عن كونه محض « انتروبولوجيا جنائية » • فهو علم طبيعى لا يختلف عن العلوم الطبيعية الأخرى من ناحية منهج البحث ، وان اختلف كل علم منها عن الآخر من ناحية موضوع البحث اختلافا طبيعيا •

واذا كانت العودة للتجسد تعتبر الآن « حقيقة ثابتة علميا » بحسب القرار الخطير الصادر من « لجنة الخبراء الدوليين » فى اجتماعاتها التى جرت بالولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٩٧٩ ، فانه مما ينساق طواعية مع هذا القرار اثارة تساؤلات هامة متصلة بموضوع هذه العودة للتجسد

---

(١) وهذا هو المنهج الذى تتبعه الآن جميع المعاهد التى أقيمت خصيصا لاجراء دراسات موسعة عن الانسان فى جميع جوانبه النفسية والحيوية والوظيفية . ومن بينها مثلا « مؤسسة البحث فى طبيعة الانسان » التابعة لجامعة ديوك بالولايات المتحدة الأمريكية ، وغيرها (راجع صفحة ٩ من الجزء الأول) .

أوثق اتصال . ومن المحال أن يتسع المقام الحالى للاجابة عن كل تلك التساؤلات الواسعة ، الدقيقة ، المتشعبة ، الهامة ، لكنه لا ينبغى أن يضيق عن الاجابة عن أخطر ثلاثة تساؤلات منها وهى : —

— ماذا يجرى من أحداث بين كل تجسدين ؟

— ماذا عن طبيعة التكوين الروحى فى عالم الأثير خصوصا من ناحية صلته بالعودة للتجسد ؟

— ماذا عن قانون الكارما ، أو ارتباط النتائج بمقدماتها فى اطار هذه العودة للتجسد ؟

وفيما يلى سوف أعرض للاجابة عن كل تساؤل منها فى فصل على حدة . وذلك بالقدر المناسب فحسب ، وبغير حاجة للدخول فى متاهات الأمور الخلافية ، والتفصيلات الجزئية التى لا تقف عند حد فى اتساع نطاقها ، خصوصا فى هذا الميدان الجديد تماما على أبواب العلم الوضعى لكنه عريق تماما فى أبواب فلسفة الروح والخلود .

الفصل الأول

ماذا يجرى من أحداث
بين كل تجسدين ؟

عن الفترة بين كل تجسد وآخر

من الطبيعى أن يحاول الباحثون فى مشكلة « العودة للتجسد » تحديد الفترة التى تمضى بين كل تجسد منها والآخر ، ولا توجد نقطة أثارت من التساؤلات عند الباحثين قدر ما أثارته هذه النقطة التى ما تزال معلقة ، ومايزال العلم حائرا ازاءها .

واذا قام أى باحث باستعراض جميع الحالات التى أوردها البحاث الجادون فى موضوع العودة للتجسد فانه سيجد أن الفترة التى تمضى بين أى تجسدين أرضيين متتابعين تتراوح بين لا شىء وبين ٢٥٠٠ عام بالأكثر .

ويقول المؤلف الألمانى المعروف ك. أ. شميدت K. O. Schmidt استنادا الى الوثائق التى أخذ فى جمعها على مدى عشرات من السنين ، أنه حصل على الاقتناع بأن العودة للتجسد تكون للانسان المتوسط بعد فترة قصيرة ، خصوصا اذا كان نصيبه ضئيلا من النضج النفسى ــ الروحى ، أما الكائنات البشرية المتطورة تماما من الناحية الروحية فانها لا تعود للتجسد الا بعد فترات طويلة .

وبالتالى فكلما كان الكائن أكثر تطورا كلما طالت فترة اقامته « هناك » بين وجودين أرضيين . أما بالنسبة للانسان الذى وصل الى درجة عالية من التطور الروحى فان رسمه البيانى يكون أكثر غوصا فى العالم غير المنظور ، أو بالأدق فى « العوالم الرقيقة » les mondes subtils . ومع ذلك فتوجد استثناءات هنا لأن الطبيعة لا تعرف أبدا مستوى ثابتا بالنسبة للروح الانسانية .

ويقول الدكتور هانز – هاسو Hans - Hasso فى مقال له بمجلة « الجامعة »[١] انه يأخذه العجب من الفترة القصيرة التى يحددها بعض الهنود والصينين للانقضاء بين وفاة الانسان وميلاده الجديد . ولقد قال له هؤلاء ان هـذه الفترة تتراوح بين ٧×٧ أى ٤٩ عاما ، أو ٩×٧ أى ٦٣ عاما ، أو ١٠×٧ أى سبعين عاما [٢] .

وان هذه المدة تختلف ع ن ذلك وتصبح أطول بالنسـبة للمعلمين الروحيين الكبـار Gurus ، والقديسيين ، وذوى الكشف . وبالتالى فانه يوجد فارق فى طول هذه الفترة بين غالبية الأشخاص العاديين ، وبين القادة الروحيين الذين قد يخرجون من بين الجماهير .

ومن ثم فان شميدت يقول انه من المناسب أن ننظر الى العودة – بوجه عام – من وجهين مختلفين ، وبالتالى ينبغى أن نميز بين « العودة للتجسد » وبين « هجرة الأرواح » . وعندئذ يصل الانسان الى هـذه النتيجة وهى أن الأشـخاص العـاديين يتبعون خطوط العودة المـألوفة الخاصة « بالروح الجماعية » Ame Collective التى تقتضى منهم العودة السريعة للتجسـد بعـد موتهم . أما الأشخاص الذين تطورت عندهم الذات تطورا واعيا فانهم يعودون للتجسد بعد فترات طويلة تفصـل بين الموت والميلاد من جديد .

وكلما قصرت فترة الغياب كلما تيسر استرجاع الذاكرة « تلقائيا » لظروف الحياة الغابرة . ولهذا السبب بالذات فان رجوع الذاكرة للوراء يحدث قليلا عند الأشخاص المتطورين الذين طالت فترة غيبتهم بعد الموت. واذا ما رجعت الذاكرة عندهم للوراء فان رجوعها يكون « واعيا » وليس « تلقـائيا » .

---

(١) عـدد ٢ سنة ١٩٥١ .
(٢) من يدرى فلعل لهذا التحديد الجزافى صـلة بالاعتقاد الشائع فى تلك البلاد من أن لرقم ٧ قدسية وقيمة روحية خاصة ؟ ! ...

والرجوع الواعى للذاكرة لا يكون ممكنا فى المعتاد الا بسبب تداع فى الذكريات ، وهذا مالا ينصح المؤلف بتعمد اجرائه ، لأنه ليس من المناسب دائما رفع النقاب عن « أبى الهول » طالما أن نضج الروح واطمئنانها المطلوبين ليسا موجودين •

وبوجه عام فانه من الأفضل الانتظار الى أن تظهر الذكريات الغابرة من تلقاء نفسها • ويكون صاحبها بمقدوره أن يستعين بها — بصفة حاسمة — فى تحديد الفترة التى قضاها بعد الموت فى عالم الغيب • لكن يبدو على أية حال أن الفترات التى تمضى بين وجودين أرضيين ليست محددة على عكس ما يزعم البعض (١) •

وفى النهاية فانه لا توجد قاعدة فى هذا الشأن ، وذلك أمر مفهوم ، نظرا لأن عدد الحيوات الأرضية يتوقف على مدى الاستخدام الطيب أو السىء الذى استخدمته الروح لوقتها على الأرض ، وعلى الاختبارات التى مرت بها فى كل حياة لها • أما الفترة التى مضت بعد الموت فانها تتوقف بدورها على سرعة موكب الأحداث والاختبارات التى حصلت عليها الروح فى حياتها الماضية • ومع مراعاة أنه فى موكب النضج فان الوقت لا يمضى الا بحسب المفهوم الأرضى والفيزيقى لمفهوم الزمن •

وبالتالى فان طول كل حياة أرضية للكائن الواحد ، وكذلك طول الفترات بين حياتين أرضيتين ، يتفاوت تفاوتا ضخما ، وأيضا عدد التجسدات • فكل هذا رهن بمدى التطور الروحى الذى تحصل الذى عليه عند التنقل من حياة الى حياة •

وفى هذا الشأن تقول السيدة ألكسندرا دافيد نيل A. David Neel — وهى باحثة فرنسية معروفة فى العلوم الروحية — فى مؤلف لها عن

---

(١) راجع ك. ا. شميدت . المرجع السابق صفحة ٥٧ — ٥٩ .

« الخلود والعودة للتجسد » (١) • ان فترة اقامة الذات فى مناطق السعادة يمكن — اذا قسناها بمقاييسنا الأرضية — أن تمتد الى قرون عديدة ، لكنها لا تطول الى الأبد لأن الآثار الطيبة للأفعال التى ذهبت بالذات الى تلك المناطق السعيدة لابد أن تستنفد ، ثم يجىء دور العودة للتجسد بكل ما قد يتضمنه من تحولات •

وبعد مضى حقبة ما يتكون للذات جسم عقلى جديد ••• ثم ينضم أيضا جسم حيوى جديد الى الجسم العقلى • ويصبح لدى الذات بحسب قول رودلف شتاينر Rudolf Steiner — القدرة على أن تتعرف مقدما على وجودها المستقبل • وهذه القدرة تكشف لصاحبها عن جميع العقبات التى يتعين عليه أن يزيحها من طريقه حتى يواصل تقدمه •

وما يراه الانسان عند ذاك يمثل نقطة البدء للطاقات التى يتعين عليه أن يحملها معه الى وجوده الجديد • فصورة الألم الذى سببه للآخرين تصبح طاقة تدفعه — عند العودة الى الأرض — لاصلاح هذا الشر • وهكذا تؤثر الحياة السابقه فى الحياة اللاحقة عن طريق طاقة التوجيه ••• وهذا هو قانون القدر الذى تعودوا أن يطلقوا عليه وصف « الكارما » مستعيرين اياه من الحكمة الشرقية(٢) (وقانون الكارما هذا هو موضوع الفصل المقبل) •

---

(١) Immortalité et Réincarnation

ولهذه الباحثة دراسات متعمقة فى معتقدات الشعوب الشرقية ، وقد عاشت بين رهبان التبت سنين عديدة قبل أن تضع مؤلفاتها عن الشرق الأقصى ومنها : —

Voyage d'une Parisienne à Lhassa.
Le Modernisme Bouddhiste et le Bouddisme du Bouddha.
Le Lama aux Cinq Sagesses.
Mystiques et Magiciens du Thibet.

(٢) فى مؤلف له عنوانه « العلم والغيب » La Science de l'Occult.
وراجع ما سبق عن شتاينر فى ص ٤٧٧ — ٤٧٨ ، ١١٩٧ — ١٢٠٢ •

عن تبدل احوال الروح

ويقـول هيرمان فيـدمير Hermann Wiedmer فى مؤلف له عن « التبدلات أو التحولات » ان على كل روح أن تعيش وتعرف كل مرتفع من الحياة وكل منخفض ، وكل المتع ، وكل الآلام الخاصـة بكل أوجه الوجود ، قبل أن تتمكن من العودة الى الله •

ولا تصل الروح — الا ببطء شديد — الى الاحتفاظ فى شكل لاحق للوجود بذكرى تجسداتها السابقة • ولا تجىء اللحظة السعيدة الا متأخرة جدا ، عندما تسقط الحجب الأخيرة عنها ، وعنـدما يمكن للروح التى استنارت أن تراقب الدورة الرهيبة للآماد العـديدة التى انقضت من أعوامها •

ولا يوجد أى قهر لاستعجال تحقيق هذا النضج ، ولا آية وسيلة ، ولا أى لغـز لارغامها عليـه • ولقد زعموا آن « الانسـان الأسمى » Surhomme بمقدوره أن يصل الى ذلك ، لكننى أتحـدث هنا عن « الروح الأسمى » Sur — âme ، الروح ذات البصـيرة الشـفافة ، الروح اليقظى ، التى تعرف آن لها مصدرها فى الله ، وأنها سـتعود الى الله ، والتى تلج باب الموت كما تلج باب الميلاد ، والتى تصبح متيقنة — خلال مرورها بكل صـور الاعتقاد — أن تعثر على وطنهـا فى رحاب الألوهية (١) •

* * *

ويقول شـميدت ان هذا الذى رواه فيدمير صحيح بشـأن تعدد الحيوات الأرضـية ، والانفصال الأصلى الذى حدث للروح عن شجرة الألوهية ، وواجبها فى أن تصنع لنفسها بنفسها سـعادتها فى مرحها الأول بالمجد الأبدى ، وفى احتفاظها بداخلها بذكرى الاتحاد مع الله ، ورغبتهـا الأولى فى آن تصبح كائنا كالأزل •

---

(١) الاحالة الى فيدمير فى المرجع السابق •

وتطلع الروح السرمدى الى العـودة الى رحاب الألوهية نابع من ألمها من انفصالها الأول عن الله ، الذى يمثله سقوطها التدريجى فى أثقال المـادة ، وفى دوامة مصير العوالم ، ونزولها الى جو النشاط الأرضى ، ثم صـعودها غير المحدود من حياة الى حياة للاندماج فى اتحاد جـديد مع الله .

وتتدافع الروح كما لو كانت تخترق موكبا حزينا من وجود الى وجود ، مرتفعة ببطء غير محدود من مستوى الخليقة الأولى الى أشكال متنوعة من الحياة ومتطورة الى فوق شيئا فشيئا . وذلك فى ولادات لاتحصى تموت فى أجساد متعددة ناسية فيها مصادرها الأولى . وفى ميتات لاتحصى تولد من جديد فى كيانها الروحى .

وبين موت جسـد وولادة آخر تستريح فى الحركة الخالقة للقدرة الكونية ـ وبعدئذ تختار من جديد جسما مخصصا يكون من وظيفتها أن تبعث فيه حياة الثمرة .

وبما أن رحلتها الضائعة فى خلال حيوات لا تحصى تريد أن تستمر، فان فترات التجسدات تتباعد ، وتنعم فيها الروح بمزيد من الوعى . وعن طريق تركيز مباهجها وحسراتها يكون حصـادها الذى يبقى بعد موت الجسـد .

وعندما تبدأ حيوات الروح يمكنها أن تنهل من ينبوع ذاكرتهـا ، لأن كنز المعرفة الذى حصلت عليه من ماضيها السحيق ، أصبح مغروسا فى الاختبارات التى تقبلتها الروح ، واحتفظت بها فى حيواتها السابقة .

وآلاف التجسدات السابقة لا تمثل الا حلقة مضطربة من نصـف الوعى بالولادات والميتات ، فهى أشبه ما تكون بسنى الطفولة من الوجود الحالى . أما الاحساس بالذات فهو يستيقظ تدريجيا ، للاسهام بطريقة متزايدة على الدوام ونشيطة فى أحداث تجسد أو آخر للروح ، وللاسهام بطريقة من الفهم المتزايد فى مصيرها .

ويبين فيدمير كيف أن الذكريات الأولى للحيوات السابقة ظهرت لدى الانسان البدائى • وكيف أنه بعد كل ميتة أرضية ، ولدت الروح فى العالم الآخر ، وبعد مضى فترة من التركيز ومن النضج عانت من موت جديد فى ذلك العالم الآخر كيما تولد مرة أخرى هنا فى هـذا العالم • ولكن مع الميلاد فى العالم الأرضى تخبو ذكرى الحيوات السابقة ، والمصدر السابق المتحد فى الله (١) •

* * *

ويقول جان فرانسيس كرولار J. Francis Crolard عن الفترة التى يلزم أن تنقضى بين تجسدين متتابعين أنها تتفاوت تفاوتا ضخما بين عدة سنين وعدة قرون • وهى تتناسب مع الوقت اللازم لكى تستمد الذات الدرس من مجموع الاختبارات التى تكدست أثناء حياتها الأخيرة• فاذا ما أضفنا اليها مجموع الاختبارات التى مرت بها فى تجسداتها السابقة فانه قد يتعين عليها أن تمضى فى العالم الآخر زمنا أطول بكثير من الزمن الذى قد تقضيه على الأرض •

والفترة التى تمضى بين حياتين أرضيتين تتوقف أيضا بالنسبة لكل انسان على عاملين : وهما مدى لهفته أو عدم لهفته على العودة للتجسد ، ومدى وجود الفرصة الملائمة لكى يجد تجسدا فى هذه الأسرة أو فى تلك• ولذا فمن الجائز أن يقبل انسان تجسدا متوسطا عندما تكون لهفته على التجسد ضعيفة ، لكنه قد يجد فرصة طيبة جدا للتجسد • أوبالعكس عندما تكون لهفته شديدة جدا على التجسد فيتقبل فرصة ليست ملائمة تماما لتجسـده • وذلك مثلا كما فى حالة المنتحرين الذين قد يعودون بسرعة للتجسد (لأنهم لا يجدون الراحة المرجوة هناك) •

وكلما كانت الروح شديدة الطموح فى طلباتها كلما تعين عليهـا أن

---

(١) تلخيص عن ك. شميدت . المرجع السابق ص ٦٩ — ٧١ . وراجع ما سبق عن هذا الموضوع فى ص ١١٠٦ — ١١٠٧ ، ١١١٥ — ١١١٧ .

يطول انتظارها حتى تجد الأسرة التى تقدم لها جسدا متوائما أكثر من غيره مع جسدها العقلى والحيوى (١) • ومن الجائز أن توجد حالات نادرة جدا لعودات فورية للتجسد •••

والأطفال الذين يموتون صغارا ، لأن لديهم مستودعا ضعيفا للطاقة تحت تصرفهم ، يعودون للتجسد بسرعة شديدة ، وهذا هو السبب فى أنهم فى حياتهم اللاحقة يتذكرون حياتهم السابقة أكثر من أولئك الذين ماتوا طاعنين فى السن •

وعندما تغادر أية روح جسدها الفيزيقى ، فانها تصبح عبارة عن مجموع تجسداتها السابقة ، والشر الذى يكون قد صدر عنها فى تجسدها الأخير قد تحدث مقاصة بشأنه مع الخير الذى صدر عنها فى تجسدها السابق ••••

وهذا الاعتبار يفسر لماذا أن بعض مراكز الأشخاص فى حياتهم الحاضرة قد يكون ناجما من حيوات أخرى سابقة لحياتهم الراهنة • وكيف أنه فى المعتاد لا تكون ثمة رابطة ظاهرة بين فرص السعادة أو الشقاء فى حيوات متعددة متلاحقة • ولذا يقول دنيز كلزى Denys Kelsey « ان حياة قاطع طريق قد لا يتبعها حتما وبصيغة رياضية تجسد بائس»(٢) (لأن العبرة هى بمجموع التجسدات السابقة فيما بينها ولا يحل تجسد واحد محل آخر) •

وقد تكون هناك أرواح مرشدة تشير على الكائن الراغب فى العودة

---

(١) وهما يدخلان فى تركيب الجسد الهيولى أو الأثيرى : راجع ما سبق عنه فى ص ٢٨٦ — ٣٣١ من الجزء الأول .
والأمر لا يرجع فقط الى اختيار الروح الراغبة فى العودة للتجسد ، بل يلزم أن نضع فى الاعتبار وجود قانون طبيعى عن « الاستحقاق » يلعب دوره دائما فى تنظيم الحياة هنا وهناك بجانب قوانين أخرى عديدة كلها وثيقة صلة بتحقيق العدل الالهى الذى يسمو على كل تطلعاتنا ، وتقديراتنا وأحكامنا السطحية الزائفة .

(٢) راجع ما سبق عنه فى ص ١٣٠٢ — ١٣٠٨ .

للتجسد باتباع اختيار معين ، لكنه ليس ملزما بالأخذ برأيها . وعندئذ يمكن لهذا الكائن أن يتطلع فى لحظة رغبته هذه الى صورة مجملة للأحداث الهامة التى يحتمل أن يتعرض لها فى حياته المقبلة من المهد الى اللحد . ويكون شأنه شأن السائح الذى يقطع تذكرة سفر يسرى مفعولها خلال فترة معينة ، والى مكان معين ، ولا يتبقى عليه الا أن يعين مكان المغادرة وزمانها .

وفى تلك اللحظة يشعر عادة بضيق عميق رغم تشجيع مرشديه ومحبيه عندما يكون عليه أن يتغلب على محن ضخمة مثل : الفقر أو المرض أو الصدمة الزوجية أو فقد الأولاد .... وهى أمور سينساها بمجرد العودة للتجسد ، والا فقد يدفعه تذكرها الى محاولة الانتحار .

ويكون على الروح عندرغبتها فى العودة للتجسد أن تختار السلالة ، والوطن ، والأسرة . وعادة تنجذب الروح الى الأوساط التى تربطها بها روابط أكثر من غيرها ، وكما يقول المثل الشائع « الطيور على أشكالها تقع »(١) .

وفيما يتعلق بالجنس Sex فلا توجد أية قاعدة محددة ، لأن « الذات » لا تنتمى الى جنس معين(٢) . لكن التغير من جنس الى آخر يبدولازما للحصول على أكبر قدر ممكن من فرص التكامل فى أجساد فيزيقية متنوعة (٣) .

* * *

ويقرر بابيس (د. جيرار أنكوس) ان العودة للتجسد هى عودة المبدأ الروحى الى غلاف لحمى جديد . وهذا الغلاف يكون للكائن الانسانى عبارة عن جسد انسانى . لكن من الجائز أن يعود الانسان

---

(١) qui se ressemble s'assemble.

(٢) يقول العالم النفسى المعروف الفريد أدلر A. Adler ان الذات الانسانية أعرق من الذكورة والأنوثة معا . وراجع ما سبق فى ص ١١٣٧ — ١١٤٥ .

(٣) Jean-Francis Crolard : Renaitre Apres la Mort. Paris 1979 P. 97 — 102.

للتجسد فى نفس الكوكب الذى عاش فيه ، أو فى كوكب آخر (١).

ولا يمكن لانسان ما أن يحدد مقدما فترة العودة الى الجسد المادي ، كما أنه لا يمكنه أن يحدد فترة الحياة الأرضية . فهناك كائنات انسانية تمضى ثلاثة أعوام على الأرض ، وأخرى تمضى تسعين عاما .

وفترة الحياه على الأرض عبارة عن عنصر شخصى يتوقف على ظروف كل انسان ، كما أن الفترة التى يقضيها الانسان قبل العودة الى الأرض عنصر شخصى أيضا ، لأنه يتوقف على ظروف متعددة . ولنبادر الى القول بأن الكائن الروحى قبل أن يعود للتجسد يعد نفسه لفقدان ذاكرته عن حيواته السابقة ، وهذه الواقعة يمكن أن تشبه تناول الانسان مخدرا يغيب به فى عالم النسيان ، وهو ما يمكن التعبير عنه بأن الانسان يغرق فى بحر النسيان عندما يعود الى الأرض .

وقد وجدوا على جدران مقبرة فرعونية ترجع الى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد هذه العبارات عن العودة للتجسد « قبل أن يولد هذا الطفل قد عاش من قبل ، فالموت لا ينهى شيئا . والحياة هى صيرورة . خبراوو Khépraou (صاحب المقبرة) قد ذهب أشبه ما يكون باليوم الشمسى الذى يبدأ من جديد » .

ولذا كان الفراعنة يعتقدون أن الانسان مكون من عقل Khou ومن مادة Khat . والعقل مضىء ويرتدى جسما من جوهر هو الروح Ba . والحيوانات أيضا لها روح ، لكن روحها محرومة من العقل . والروح نسمة nivvou وعندما تنسحب النسمة من الروح يموت الانسان . وهذا الموت المبدئى يظهر ماديا بتجمد السوائل ، أى بتجمد الدم فى الأوردة والشرايين ، وعندئذ تتحلل المادة التى تكون الجسم .

---

(١) الدكتور بابيس هذا ولد فى سنة ١٨٦٥ وتوفى فى سنة ١٩١٦ تاركا وراءه ٣٢٦ كتابا ، غالبيتها فى العلوم الروحية والغيبية . وهو معدود من أعلام المدرسة الفرنسية فى هذه الموضوعات .

وعن طريق التحنيط كان الفراعنة يحاولون الاحتفاظ بجميع المواد بما فيها الدم حتى تعود الروح لاحيائها من جديد بعد آن تخضع لمحاكمة أوزيريس ، أما النسمة فهى فى خدمة الروح •

ولذا كان الفراعنة يعتقدون خطأ أن العودة للتجسد لا تكون للروح فقط ، بل للجسد أيضا لتحقيق معجزة اتحاد العقل بالجسد ، بعد مضى فترة كوكبية • والظاهر آنهم كانوا أيضا يعتقدون خطأ بمرور أرواح الآدميين بأجساد الحيوانات métempsychose قبل أن تعود من جديد الى أجسادها المادية •

ويقول بابيس — كما يقول كل الباحثين بلا استثناء — انه لا يجوز أبدا الخلط بين العودة للتجسد فى جسم آدمى وبين العودة للتجسد فى جسم حيوانى (وهى خرافة شائعة فى بعض أنحاء الشرق الأقصى) لأن الانسان لا يرجع الى الوراء أبدا ، وروح الانسان لايمكن أبدا أن تمسخ روحا لحيوان (١) •••

تداخل عناصر جديدة فى مستقبل الروح

ويقول بابيس ان الجسم الكوكبى للانسان مكون من قسمين : قسم يكوّن مركبة الروح ويغلف الجسد الأثيرى ، وقسم آخر يكون الطاقة الكوكبية ويتخلل الجسم الفيزيقى •

فاذا ما نجح الانسان فى تكوين مركبة الروح مطبوعة بطابع الطيبة، والتفانى ، فان هذا كله يؤثر فى اشراق هذه الكتلة الكوكبية من الطاقة ، التى سوف تؤثر بدورها فى تطور الجسم الفيزيقى المقبل فى شتى مراحل نموه •

---

(١) تلخيص عن : Papus : La Réincarnation. P. 6 — 9
وراجع ما سبق عن تطور الانسان وتطور الحيوان فى صفحة ١١٢٥ — ١١٣٦ •

ولذا فانه بعد مضى فترة الراحة الكوكبية التى قد تطول أو تقصر بحسب ظروف كل كائن معد للعودة للتجسد ،فان الجسد الكوكبى فى المستقبل سوف يختلف عن الجسد الكوكبى فى الماضى بحسب السلوك الذى اختطه الكائن لنفسه فى حياته الماضية . فعلى هذا السلوك يتوقف جمال الجسم المادى المستقبل أو عدم جماله ، وعليه تتوقف أيضا قوة أعضاء المستقبل أو ضعفها . وعليه يتوقف أيضا نوع الأبراج انفلكية التى سوف يولد فيها هذا الكائن والتى سوف تحمله فيه أمه .

فمستقبل الكائن الانسانى لا يتوقف فقط على البرج الذى يولد فيه من المجموعة الشمسية ، بل أيضا على البرج الذى يدلف فيه الى الجنين المعد لاستقباله فى رحم الأم . وكل القوانين الغيبية المتعلقة بالعودة للتجسد الروحى مرتبطة بهذا السلوك الذى يملكه الانسان : ان خيرا فخيرا ، وان شرا فشرا .

فتاريخ الحمل بالجنين هام جدا بالنسبة لمستقبل الجنين ومرتبط بماضيه ، كما هو مرتبط بالطاقات الكوكبية ، ولكل ذلك صلة وثيقة بما يصح أن يطلق عليه «علم النجوم الغيبى» Astrologie mystique (١) .

ولكن مصير الانسان فى تجسده الراهن قابل مع ذلك للتعديل بسبل ثلاثة : —

أولها : الشجاعة .

وثانيها : الخضوع للمحن وللاختبارات المعنوية .

وثالثها : الصلاة والمساعدة الالهية .

ولذا فان قدر الانسان يسيطر على ماضيه ، وارادته البشرية تسيطر على حاضره ، أما العناية الالهية فهى المسيطرة على مستقبله .

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق صفحة ٣١ — ٣٥ .

وبمقدار ما يغفر الانســان ذنوب الآخرين نحوه ، بمقدار ما يغفر الله له ذنوبه • والتجسد الأرضى من شأنه أن يقوى الأعضــاء الروحية المستقبلة • وقوة مقاومة تلك الأعضاء لطاقات المصير لا يمكن الحصول عليها الا عن طريق التدريب الروحى ، الذى يطلق عليه فى الأرض وصف الاختبــارات الأليمة • والآية التى تقول « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » التى علمنا اياها معلمنا الروحى مقتضاها أن نطلب من الله أن يمنحنا من الاختبارات ما يتناسب تماما مع طاقات احتمالنا (١) •

ثم يتحدث بايبس عن الشخص الذى يتصور أنه كان فى تجســده السابق ملكا ، أو امبراطورا ، أو ســيدا عظيما ••• قائلا أن الغالبية العظمى من هذه التصورات محض أوهام ســببها الكبرياء ، والكبرياء تلعب دائما دورا ضارا وخطيرا •

ويتناسى مثل هذا الشخص أن العودة للتجسد تطوى أيضا القتلة، وكبار المجرمين ، ومعهم كبار الضحايا ، وفى النهــاية جميع المســتويات من بنى البشر لتحقيق أهداف متعددة • (وأولهــا هدف تحقيق التطور نحو الأكمل والأحسن على ما بينته آنفا)(٢) •

لكن الأرواح الراقية الناضجة تعود للتجسد مختارة اذا شاءت ، لا يرغمها على العودة شىء الا حبها لخدمة البشرية ، ولكى تكون بمثابة شمس مشرقة فى ظلام جهنمى • فهى بمثابة عطف عظيم يرســله الأب الســماوى لكى يعيش بين قلوب من حجر ، أو هى بمثابة اشــعاع من الطيبة يتسلل الى ما يحيط به من نفوس أنانية ، وهمجية ••• وبهــذا وحده تصبح الحياة جديرة بأن يحبها الانسان •

وهذه الأرواح الراقية تذكر ماضيها جيدا وتلك الخدمات الجليلة التى سبق أن أدتها للبشرية • ولأنها تذكر ماضيها الجليل فانها لا تتحدث

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق صفحة ١٢٣ — ١٢٧ •
(٢) تلخيص عن نفس المرجع صفحة ١٤١ — ١٤٣ •

عنه ، ولا تعلن أبدا أنها كانت صاحبة أسماء عظيمة ، ولا ماهية الخدمات الماضية التى قدمتها للبشرية فى تجسداتها السابقة[١] .

* * *

ويقول د. ادوار برتوليه Edouard Bertholet وهو طبيب معنى بالبحوث الروحية فى كتاب له عنوانه « العودة للتجسد » مستندا الى أقوال متصوف ومعالج روحى يدعى نيزيبه فيليب (١٨٤٩—١٩٠٥)[٢] ان الروح تعلم قبل تجسدها — بفترة تتراوح بين خمسة وستة أعوام — الأرض التى سوف تقطنها ، والفترة التى سوف تمضيها على الأرض .

وأن بعض حالات الاجهاض سببها أن الروح قاطنة الجنين قد تستشعر مقدما مدى الآلام التى سوف تعانيها ، فتتمرد على القدوم الى هذا العالم . لكن هروبها من التجسد لا يعفيها مع ذلك من آلامها المستقبلة ، لأن على كل روح أن تؤدى دورها المطلوب منها ، وذلك لمصلحة تطورها وارتقائها .

وبوجه عام تعود الروح للتجسد فى نفس العالم الذى تحملت فيه ديونها ، والذى تجىء فيه لسدادها . وبمقدور الأرواح المتحررة من الديون أن تذهب بمحض رغبتها الى عوالم أخرى ، أو الى عالمنا ، حيث تمضى تجسداً تؤدى فيه رسالة ما أو مهمة ، أو تكون فيه نموذجاً للآخرين .

---

(١) تلخيص عن نفس المرجع صفحة ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) La Réincarnation d'Après le Maitre Philippe de Lyon. Lausanne 1969.

والدكتور برتوليه كتاب آخر عن العودة للتجسد عنوانه « العودة للتجسد قانون واضح »

La Réincarnation est une Loi Evidente (1947).

وله أيضا أكثر من كتاب عن العلاج الروحى منها : —

Les Guérisseurs Mystiques et le Magnétisme Curatif (1926)

وله أيضا عدة مؤلفات فى الطب الغذائى ، وفى فلسفة الروح ، وفى الظواهر الروحية .

وأننا عندما نعود للتجسد ، نعود بنفس الميول التى لم تتغلب عليها فى تجسدنا السابق . وبالنسبة لتجسد التوائم ، فانه يحدث عادة بسبب وجـود رابطة من حب عميق ماض فيما بينهما . لكنه قد يحدث هـذا التجسد أحيانا بسبب وجود عداوة قديمة ، اذا استقر الرأى فيما بينهما على التصالح ، وعلى تبادل الصفح .

ويقول أيضاً ــ هذا الوسيط المتصوف ــ ان كل ما حصلته الروح من نور المعرفة فى تجسد سابق ، تحتفظ به فى تجسدها اللاحق . فالخطأ والآراء الزائفة تتلاشى ، أما الحقيقة فهى خبز الروح ولا تقبل التلاشى .

ويقول أيضـا بأننا عندما نعود للتجسد نحتفظ دائما بنفس عناصر الشكل القديم ، لكن فى أوضاع جديدة . لذا فانك أنت الذى كونت شكل جسمك ، وقست باعداده منذ قرون (١) .

ويقرر أنه يوجد بيننا قلائل يحاولون أن يكونوا عظماء فى وجودهم اللاحق ولو بدافع أنانى ، لأنهم فى وجودهم الراهن صـغار النفوس . ولذا يحاولون منذ الآن أن يكونو عظماء ، بغير أن يبحثوا عن العظمة الحقيقة فى مستقبلهم ، وهى لا تجىء الا عن طريق المرور بالآلام والمحن .

واذا كانت الآلام والمحن تمثل ديوناً تعاقدنا عليهـا منذ وجوداتنا السابقة ، فانه بمقدورنا أن نخفف منها عن طريق الصـلاة ، وعن طريق تحولنا الى أناس أفضل مما كنا . لكن براءة الذمة الكاملة لا تجىء اعتباطاً ، ولن يذهب أحد الى السماء ما لم يسـدد أولا ديون أخطائه بالكامل .

وقبـل عودة الروح للتجسـد قـد يتـاح لهـا أن ترى شريط الأحداث التى يتعين أن تمر بها فى الحياة ، لكن بشرط أن تكون شجاعة أما الروح الجبانة فلا ترى شيئا . واذا استشعرت بعد ارتباطها بالجنين

---

(١) للايضاح راجع ما سبق فى صفحة ١٠٦٠ ــ ١٠٧١ .

شـيئا من آلامها المستقبلة فقد تهرب منه ، وتكون سببا فى الاجهاض • لكن بيقين ان حسابها فى هذا الشأن سوف يخيب لأنه سوف يتعين عليها أن تعود للتجسـد ان عاجلا أو آجلا • وتأجيل المتاعب الى المسـتقبل عبارة عن أسلوب مخادع ، وعن سوء تصرف(١) •

* * *

ذلك لأن من يبحث عن السـعادة يلزمه أن يدفع الثمن ، وهو هنا تضحية العـديد من الآمال والتطلعات • والتضحية تقترن بالألم ، لكنها المنفذ الأوحد الى السعادة الحقة • أما آية سعادة لا تدخل من منفذ الألم فهى وهم عابر أو وحش كاسر • أو هى بالأدق محتال قدير يحقق مآربه بالغواية والتغرير ، وبمقدوره أن يأخذ منا كل شىء عندما يوهمنا أنه يعطينا الشىء الكثير ! !

وهذا المحتال القدير يرتدى دائما قناع أعطـاء الأمل فى اشـباع الشـهوات المخادعة البراقة : مثل شـهوة السلطة ، والغرور ، والمـال والطعـام ، والجنس ، والخمول ، والركود •••• مجتمعة أو منفردة • وهذا المحتال قد يعطى ضحيته لحظة أو لحظات ، وسـنة أو سنوات من لذات عابرة ، لكن هيهات أن يعطيه أى قدر من السعادة الحقة التى بها يسعد حقا وجدان أى انسـان وضميره ، وتتحدد بها معـالم مستقبله ومصـيره • وهى معالم تتحدد من حيث لا يدرى أى انسان ، لكن من حيث تدرى نواميس الحياة ومقاييسها العادلة الحكيمة •

ولذا فان بمقدور أى انسان أن يحقق لنفسه بعض السعادة الحقة لو عرف كيف يوقف هـذا المحتال القـدير عند حده ، بأن يسـيطر ولو بعض سيطرة ــ على هذه الآمال فى اشباع الشهوات الباطلة كلها ، عندما تمارس احتيالهـا القدير على وعيه ووجدانه : هنا وهناك وفى كل مكان وزمان •

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق صفحة ١٦٦ ــ ١٦٨ •

الفصل الثاني

عن التكوين الروحى للذات فى عالم الأثير

(بحسب بول بيرد)

تمهيـــد

من الطبيعى عند البحث فى حقيقة الأحـــداث التى تجرى بين كل وجودين على الأرض أن يثار التساؤل الهام بشأن وصف عالم الروح ، وطبيعة الحيـــاة فيه وطبيعة التكوين الروحى فيه • وقد تناولت هـــذا الموضـــوع برمته بتفصيل كاف فى الجزء الثانى من « مفصل الانســـان روح لا جسد » (طبعة ٤ صفحة ١٩٩ ــ ٤٥٢) معتمداً على العشرات من المراجع الجديرة بالثقة فيها •

وبالاضافة الى ذلك فمن المفيد أن ألخص هنا قدراً ليس باليسير من دراسة حديثة قيمة قام بها فى هذا الشأن علاَّمة معروف معاصر وهو الدكتور بول بيرد Paul Beard الذى يعمل حاليـــاً مديراً « لكلية الدراسات الروحية » بلندن • وعنوان دراسته « العيش دواما : دراسة لتحول الوعى بعد الموت » (١) (١٩٨٠) •

وفى هذا الكتاب يستعرض بيرد مراحل تحول الوعى الانسانى فى بعض المستويات القريبة منا من العالم غير المنظور • بما يتطلبه ذلك من الكلام فى التكوين الروحى للانسان فى تلك المســـتويات من حيوات ما بعـــد المـــادة • مستنداً فى ذلك الى العديد من البيانات الواردة من هناك ، وبعضها من علماء معنيين بالروح كانوا أســـاتذة فى جامعة كامبريدج ، وفى نفس الوقت أعضاء فى « جمعية البحث الروحى » بلندن (٢) •

---

(١) Living On : A Study of Altering Consciousness After Death.

(٢) راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول صفحة ١١٢ ــ ١٢٣ •

وقام بيرد بعمل مضاهاة ــ على نطاق واسع ــ بين هذه البيانات الواردة منهم ومن غيرهم ، والمتعلقة بعناصر تكوينهم الروحى ، وصلة هذا التكوين بنوع الظروف الطبيعية المحيطة بهم ، وهى تلك الظروف التى تمثل عدة أجواء أو مستويات تتدرج تدرجا محسوسا ، وكل مستوى منها يتوقف على مدى نضج التكوين الروحى لقاطنيه .

وهذه الدراسة المنهجية التى قام بها بول بيرد عن مستويات عالم الأثير ، وأجوائه المختلفة ، وظروف الحياة فى هذه المستويات والأجواء ، ليست الأولى من نوعها ، بل توجد الآن المئات من المراجع بكافة اللغات التى تتناول الجوانب الوصفية لعالم الأثير فى بعض مستوياته وأجوائه .

وبين هذه الدراسات عدة أوجه من التقارب الواضح ، بمعنى أن النتائج التى وصلت اليها عن أوصاف هذه المستويات والأجواء متقاربة فيما بينها تقاربا يسترعى الانتباه ، وفى ذلك ما يعزز الثقة فيها ، وفى أن البحوث التى يواصلها العلماء فى عدة معاهد وجامعات فى هذه الجوانب الوصفية لبعض مستويات عالم الأثير وأجوائه لا تجرى وراء سراب ، ولا تتعلق بمحض أوهام ، كما قد يتصور القارىء المتعجل .

لكن هذه الدراسة المنهجية التى قام بها بول بيرد تتميز عن كل الدراسات السابقة لها فى أن صاحبها عنى فيها بالتركيز على محاولة استكناه النواميس التى تتحكم فى تحول الوعى عند تنقل صاحبه من مستوى الى آخر ، أو من اقليم معين الى اقليم آخر ...

فهل يحدث هذا التحول أم لا ؟ ومتى ، وكيف ، ولماذا ؟ وما هى صلته بالتكوين الروحى لصاحبه ، وما هى انعكاساته فى سعادته أو شقائه ؟ وما هى صلته بماضيه القريب والبعيد ، وبمستقبله فى الأرض والأثير ؟! الى غير ذلك من الأسئلة التى من حق كل باحث علمى أن يثيرها ، وأن يحاول الوصول فيها الى اجابات صحيحة مترابطة فيما بينها ، ناهيك بترابطها مع حقائق العلوم الطبيعية الأخرى .

وهذه الاجابات المترابطة موضوعية هنا الى آخر مدى متصور • وهي — نظرا لوثيق ارتباطها بمنهج البحث العلمي المحايد — تغاير على نحو أو آخر العديد من الاجابات التي قدمها في هذا الشأن أرباب العقائد المتنوعة منذ فجر التاريخ حتى الآن •

وهذه العقائد لا يقل مجموعها حاليا عن ثلاثة آلاف عقيدة ومذهب منتشرة في جميع أرجاء الأرض • وغالبية العقائد — بل جميعها — انتحلت لنفسها امتيازا خاصا ومعاملة استثنائية لا يصح أن يشاطرها فيها أرباب أية عقيدة مغايرة أو أي مذهب آخر •

بل ان كل عقيدة منها صنعت لنفسها الها شخصيا خاصا بها ، متحيزا لها، متضامنا معها ، عاملا على مرضاتها تماما، متجاوبا مع انفعالاتها وأهدافها ، ساهرا على اسعادها وسحق أعدائها ••• حتى لقد بعد مفهوم الاله تماما عن النقاء ، والعدل ، والحكمة ، والرحمة ••• وعن سائر تلك الصفات السامية التي تسبغها بسخاء شتى العقائد والمذاهب على هذا المفهوم الالهي ثم تغالط في نتائجه المحتومة •

كأني بكل عقيدة ونحلة تريد أن تجعل من هذه الصفات مصدرا مباشرا لنوع فريد من « الاقطاع المذهبي » وصدى جديدا لما يعتمل في نفوس أصحابها من دواعي الأنانية بل الغرور ، التي تعتبرها فلسفة الروح مصدرا لكل الشرور •

أما عن فلسفة الروح فانها تقف من هذا الموضوع موقفا محايدا تماما ، ومغايرا تماما لجميع تلك المفاهيم السائدة عن اله متحيز لأي من النحل والمذاهب المختلفة • بل انها تنظر الى هذه المفاهيم بوصفها وجها جديدا للتشكيك في عدل الله تعالى ورحمته، ومصدرا مباشرا لاذكاء عوامل التعالي والغرور بين شتى العقائد ومعتقديها •

وفلسفة الروح تناضل في هذا الميدان بالذات لمحاولة اذابة تلك

الحواجز النفسية الشامخة التى طالما أشعلت فى الماضى نيران الحروب الغبية ، والصراعات الدموية التى لا تمت بصلة الى أية فلسفة موضوعية ولا الى أية حقيقة من حقائق الوجود الروحى النقى العادل التى نلمسها بأنفسنا حتى فى حياة كل يوم . وهى حقائق موضوعية ومترابطة الى المدى الذى لا تثار بشأنه تلك الاعتراضات الجوفاء ، ولا تلك الأسئلة الطفولية عن القدر والمصير ، والحساب والثواب (١) .

ماذا عن موقف الاعتقاد ؟

وهذه العقائد والمذاهب الثلاثة الآلاف ــ المنتشرة الآن على سطح هذا الكوكب الضئيل التائه فى رحبات الأزل بين آلاف الملايين من الكواكب الأخرى التابعة لشتى المجموعات الشمسية والمدن النجومية ــ ليست حديثة كلها . بل منها ما يرجع الى بضعة آلاف سنة خلت مثل الديانة البوذية التى تفرعت منذ هذا التاريخ الى المئات من المذاهب والنحل المختلفة (٢) .

وقبلها كان يوجد بلا أدنى ريب ــ الآلاف من الأديان الأخرى التى قد يرجع تاريخ بعضها الى بدء تحول الانسان من مرحلة السحر الى مرحلة الاعتقاد . والمرحلتان متداخلتان معا ، بلا حدود فاصلة بينهما، وكلتاهما مرتبطتان بمشاعر مشتركة . ولهما وثيق اتصال بانفعالات غريزة الاحساس بالمجهول ، التى تشير كافة الدلائل الى أنها بدورها مرتبطة بشعور الانسان منذ صباه بأن له انتماء دينيا ينبغى أن يعتز به ، مثل اعتزازه بالانتماء الى وطنه ، وجنسه ، وأسرته ...

وارتباط الانتماء العقيدى بغريزة الاحساس بالمجهول ــ وغيرها ــ ارتباطا وثيقا يعلل مدى تأثير هذا الانتماء ، ووثيق اتصاله بأعمق خلجات

---

(١) للمزيد فى هذا الشأن راجع « مفصل الانسان روح لا جسد » جـ ٣ صفحة ١٤١ ــ ٢٠٦ ، ٩٧٤ ــ ١٠٩١ .

(٢) اذ ولد بوذا حوالى سنة ٥٦٤ وتوفى حوالى سنة ٤٨٣ قبل الميلاد .

الذات الانسانية ، أى بأعمق جوانب تكوينها الروحى • ومن هنا يعتقد جميع المفكرين أن المقام بحاجة الى جهد متواصل للتطور وللتهذيب ، بمقدار تطور هذا التكوين الروحى وتهذيبه •

ولا شىء بمقدوره أن يقوم بهذا الدور الخطير الا اخضاع الاعتقاد لمرقابة العلم • أما العكس فهو يؤدى الى نتيجة عكسية : وهى مروق جوانب الاعتقاد عن أهم حقائق الوجود ، ومعها المروق عن استخدام الاستدلال الواعى وعن التطبيق الجاد للفضيلة • أو بالأدق انه مع هذا المروق يصبح الحديث فى العقل والفضيلة مجرد ترديد أجوف لبعض الأقوال والنصوص ، التى لا تعبّر بحال عما تختلج به حقا وصدقا خلجات النفوس ، وعما يجول فى جنبات الرؤوس •

وذلك مع أن رقى خلجات النفوس هو أسمى هدف تسعى الأديان والعقائد الى تحقيقه ، ناهيك بكل مبادىء التربية الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة منذ استيقظ فى الانسان صوت الضمير ، عن طريق نمو نفس هذه الغريزة : وهى غريزة الاحساس بالمجهول •

ونضج العقول هو أيضا هدف توأم لرقى خلجات النفوس • وهو يمثل مرحلة متقدمة فى تطور الانسان • وهذه المرحلة سمت به كثيرا عن الزواحف والعجماوات وجعلت منه سيدا لها متحكما فيها ، بقدر ما هو متحكم فى العديد من طاقات الطبيعة ، وكنوزها الخبيئة التى سخّرها لراحته وخدمته ، وتخفيف آلامه وأسقامه •

وهذه النفوس والعقول كثيرا ما تسىء فهم أى اعتقاد أو مذهب لا تنتمى اليه ، وتتجاهل كل نواحى الحق والجمال فيه ••• وكثيرا ما تتجاهل مقتضيات المنطق الموضوعى الصحيح ، ناهيك بالحقائق المتطورة للوجود ، حتى تشبع حاجتها من الزهو الشديد ، وترضى نزعتها من الجمود واقامة السدود • ويستوى فى ذلك قاطن خط الاستواء مع قاطن القطب الشمالى ، وأخو الجهالة مع صاحب المؤهل العالى !! ••

ولاتفاضلن فى هذا الشأن بين عالم وجاهل ، أو بين عاقل وناقص عقل : فالكل راض بحاله ، واثق من نفسه ، عملاق فى الشعور ، وفى العقل ، وفى التقدير ... وقد يشقى فى تقدير الأمور العالم ويسعد الجاهل ، ويبكى الانسان الفاضل ويمرح زهوا ـ الأفاق أو القاتل . ولذا قال الشاعر بحق :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله

وأخ الجهالة فى الشقاوة ينعم !

* * *

وهكذا من اليسير أن يتحول الانتماء العقيدى من أداة نضج وارتقاء الى أداة تخلف وجمود . ومن منبع حب وايثار الى مصدر حقد وأثرة . ومن وسيلة عقل وذكاء الى وسيلة مغالطة ورياء . ومن طريق موصل الى يقظة الشعور والضمير ، الى طريق موصل الى أقرب صور الشقاء المرير .

بل قد يتحول الانتماء العقيدى بسبب الغلو والجهالة الى أداة فرقة وبغضاء، وسلاح حرب شعواء حتى بين أبناء الاعتقاد الواحد والمذهب الواحد . فيمارس أبناؤه كل صور القسوة والدهاء مع مخالفيهم فى الرأى لأسباب لا تمت الى الاعتقاد الأمين بأية صلة ، بل تمت ـ بكل الصلات الى صور شتى من الضعف الانسانى ، وحب السلطة ، والمال ، والجاه ، والخوف ، وعبادة الذات .

وكل اعتقاد عرف التحول والتكيف مع ظروف المكان والزمان . وكان التكيف مع ظروف المكان أسرع وأوضح من التكيف مع ظروف الزمان . وذلك بالنظر للتفاوت الشديد بين المكونات الروحية لكل شعب من شعوب العالم . ولذا كانت مفاهيم المسيحية فى الحبشة غيرها فى ألمانيا ، أو السويد ، أو اليونان . ومفاهيم الاسلام فى الجزيرة العربية غيرها فى الصومال ، أو ماليزيا ، أو ايران . ومفاهيم البوذية فى الهند غيرها فى كوريا ، أو الصين ، أو اليابان ... وهكذا الشأن ـ بلا استثناء فى جميع المذاهب والأديان .

وفى هذا الشأن يقول الفيلسوف جوستاف لوبون Gustave Lebon « لا رجل يجهل أن جميع الديانات العظمى كالبرهمية والمسيحية والاسلام أسفرت عن دخول الناس أفواجا فيما يلوح أنه اعتنقها من أمم بأسرها .

ولكن اذا ما أوغل المرء قليلا فى دراسة ذلك لا يلبث أن يبصر أن الذى غيرته الأمم على الخصوص هو اسم دينها القديم نفسه . وفى الحقيقة أن المعتقدات المنتحلة عانت من التحولات الضرورية ما تكون به ذات صلة بالمعتقدات القديمة التى حلت محلها ، والتى لم تكن غير ادامة لها .

وما تخضع له المعتقدات من تحول عند انتقالها من أمة الى أخرى هو من القوة فى الغالب ما يكون به الدين المنتحل حديثا غير ذى نسب واضح بالمعتقد الذى احتفظ باسمه .... ولم تخرج ديانات أوروبة عن السنة القائلة بتحول الأديان وفق روح الأمم التى تعتنقها . وكما فى الهند ترى فى أوروبة أن حرفية العقائد التى أثبتتها النصوص قد ظلت ثابتة ، غير أن لهذه النصوص صيغا عامة يفسرها كل عرف على شاكلته » (١) .

* * *

أما التكيف مع ظروف الزمان فهو يجرى ببطء شديد ، لأن سدنة كل اعتقاد يقيمون عادة من أنفسهم رقباء على تطور اعتقادهم ، ويحاولون بكل الطرق أن يوصدوا أبواب التطور لأسباب عديدة أهمها رغبتهم فى تدعيم نفوذهم على المعتقدين من أتباعهم . وفى هذا الشأن أيضا تتفاوت الى مدى بعيد المكونات الروحية لتطور الأمم خلال الأجيال ، وعبر القرون .

يضاف الى ذلك أن كل انسان قد تعود أن يطوّع مفاهيم اعتقاده الخاص حتى تتلاءم مع مكونات عواطفه وميوله الروحية ، وحتى تتجاوب تماما مع انفعالات فطرته واكتسابه . ولذا نجد أن كل شخص يتقبل عدة جوانب من مفاهيم اعتقاده الخاص، ولا يتقبل ــ صراحة أو ضمنا ــ جوانب

---

(١) للمزيد راجع : جوستاف لوبون « السنن النفسية لتطور الأمم » . ترجمة عادل زعيتر ١٩٥٧ صفحة ٨٧ ــ ٩٠ .

أخرى عديدة ربما تتجاوزها فى العدد وفى القيمة • وبالتالى نجد أن لكل شخص موقفا — يكاد يكون خاصا به — من شتى جوانب الاعتقاد الذى ينتمى اليه ، ومفاهيمه المتنوعة ، سواء أكانت أصيلة فيه أم دخيلة عليه •

ونتيجة هذه الحقائق كلها أن يتضح تماما أن العبرة فى أى اعتقاد ليست بمحض الانتماء ، بل هى بالتطبيق الأمين للأخلاق الفاضلة • والتطبيق ليس بالأمر الهين أو اليسير ، ويتطلب الكثير من المثابرة والمران ، ناهيك بالقدرة على التعقل والاعتدال وهذا هو بيت القصيد فى آية فلسفة وضعية تبحث فى مصير الذات ، بعد أيام قصار أو سنوات طوال •

أما ذريعة الانتماء — التى يثيرها دائما أرباب الحرف ويتشبثون بها — فهى ذريعة مخادعة ، وما أيسر أن تخدع الانسان وتضلل خطاه ، الى طريق كله رياء مع الذات ، قبل أن يكون الرياء مع الآخرين ، ولو كانوا من أرباب نفس المذهب والدين • والى طريق كله قسوة مع الذات تؤدى أيضا الى القسوة على الآخرين ، ولو كانوا من الأهل والأقربين •

لكن هناك انتماء وحيدا من المحال أن يخدع الانسان أو يضلل خطاه ، فى طريق الحياة الطويل المحفوف بالصعاب والأهوال • وهو انتماء الانسان الى ذاته الحقيقية ، بمفهوم انتمائه الى تكوينه الروحى الذى وصل اليه بكفاحه الشاق العريق ، وما اكتسبه من خبرات ، وما مر به من أمور ، وما اجتازه من امتحانات عسيرة أو يسيرة خلال حقب عديدة ودهور •

وبالتالى فان هذا التكوين يمثل فى نهاية المطاف ذروة ما حصل عليه الانسان من رقى فى خلجات نفسه ، ومن نضج فى ملكات عقله • فهو حصيلة المزايا التى اكتسبها تدريجيا على الأمد البعيد ، والمثالب التى عجز عن التخلى عنها رغم الفرص التى صادفته فى أحداث تتراوح دواما بين حدث شقى وآخر سعيد •

ومن هنا يظهر تماما أن الانتماء العقيدى يلعب دور الوسيلة لا دور الغاية ، ودور الطريق لا دور المقر أو المسكن ، ودور المصباح الذى قد يستخدمه الانسان فى الوصول الى ذاته على نحو خاطىء أو صحيح ؛ لا دور الارث الذى لا فضل لانسان فيه على آخر ، سواء أكان الارث زاخرا بالكنوز أم مثقلا بالأعباء والديون .

فالطبيعة لا تعرف هنا تحيزا ولا محاباة ، ولا تسير بلا هدف أو ضوابط . بل على العكس من ذلك تماما تشير كل الشواهد الى أنها محكومة بنواميس مطلقة ، موضوعية ، منطقية ، لا مفر منها ولا فكاك . وهذه النواميس تحكم جميع الظواهر الملموسة التى تخضع لحواسنا مثل الضوء ، والحرارة ، والكهربائية ، والمغناطيسية ، والجاذبية ، والنسبية .... وهى بنفس المقدار تحكم جميع الظواهر الروحية التى يدرسها العلماء الآن بالضبط كما يدرسون ظواهر النفس ، والفيزياء ، والكيمياء ...

فأى انتماء هنا لا وزن له ما لم يمثل ابتداء انتماء صحيحا الى هذه النواميس الطبيعية المطلقة التى تتطلب من كل ذات أن تبذل غاية جهدها فى سبيل تطوير نفسها نحو المزيد من الحب ، من التواضع ، من الوداعة ، من انكار الذات ، من السيطرة على الملذات ، من البحث عن المعرفة ، وفى الجملة من رقى خلجات الشعور والضمير ، ونضج المواهب والملكات ....فنواميس الروح والخلود تعمل من وراء هذا كله ، وهدفها الأسمى هو تحقيق هذا كله عن طريق كل نفس ناطقة . لأنها تمثل قبسا كونيا ليس من طبيعته الذبول أو الخمود ، وان كان من طبيعته — فى أحيان كثيرة — التمرد والمروق ، والعناد أو الجمود .

عن المنهج العلمى

وفى هذا الشأن ينبغى مراعاة وجود فارق ضخم بين منهج هذه الآلاف الثلاثة من الأديان والمذاهب السائدة فى العالم الآن ، وبين منهج الفلسفة الوضعية للروح . وهذا الفارق هو أن هذه الآلاف الثلاثة من

الأديان والمذاهب تطالب أصحابها بأن يؤمنوا بلا نقد ولا نقاش . أو بنقد ونقاش ينتهيان فى جميع الأحوال الى صور لا تحصى من خداع الذات ، ومن التسليم بتفوق أى من هذه الانتماءات . وسيادة مفاهيمها الخاصة على كل صور المفاهيم والمعتقدات الأخرى المليئة طبعا بالأخطاء وبالثغرات ، فى النتائج والمقدمات !!

أما الفلسفة الوضعية للروح فان لها موقفا مغايرا تمام المغايرة فى المنهج الأساسى لأنه لا يمت فيها بأية صلة الى تسلق أى جانب من الانتماءات أو الانفعالات . بل ان هذا المنهج ينادى الأفراد والجماعات قائلا : أن اختبروا بأنفسكم ظواهر الروح كما تختبرون كل ظواهر الوجود المشهود . وادرسوها ، وحللوها ، وجرحوها ، وأخضعوها لكل صور النقاش المنطقى ، والنقد الصارم الذى لا يرحم ولا يمالىء أى انسان ، ولا يعرف شيئا اسمه خداع الذات ، أو ارضاء الأهواء والنزوات .

وبهذا المنهج العلمى قفزت معارف الانسان قفزا الى الأمام ، وحقق الانسان كل فتوحاته العلمية المتتابعة التى خففت الكثير من آلامه ، وحجبت عنه العديد من مصادر جهله وظلامه . وطورت أخلاقه أيضا فى العديد من جوانبها نحو آفاق أوسع ، ونحو انجازات أجدى من تطلعات الماضى القريب أو البعيد .

وبذلك فان الفلسفة الوضعية للروح ليست بالمرة فلسفة للايمان بمفهومه السائد ، ولا للاذعان بمفهومه المتوارى خلف شتى الانتماءات المتوارثة أو المكتسبة . بل هى فلسفة علمية لا تعترف الا باستخدام العقل على أوسع نطاق ، والا بتحكيم المنطق الناقد والوجدان الأمين فى تحليل الوقائع ، بعد توسيع رقعة البحث الى أوسع مدى ، توصلا الى محاولة اعطاء اجابات علمية مترابطة عن أسئلة يلزم أن تثار عند وصول العقل والوجدان الى مرحلة متقدمة من النضج والارتقاء .

ولهذا الاعتبار نفسه ليس من المتوقع أن تكون اجابات الفلسفة الوضعية للروح عن هذه الأسئلة محل رضاء من أحد المعتقدين الا اذا كان من صفوة العلماء والمثقفين،الذين يبحثون عن حقائق الأمور فى تؤدة وأناة ، وفى حياد تام ازاء جميع العقائد والمذاهب ومعتقديها • عالمين تماما أن الحقيقة لا تنتمى الى أسلوب آخر غير هذا المنهج العلمى ، وهو منهج استخدام العقل فى تحليل الوقائع ، بعد تجميع أكبر قدر منها ، لاستخلاص العنصر أو العناصر الثابتة فيها •

وعالمين أيضا أن مضى الزمن وحده كفيل باقناع كل المعارضين ، والثائرين فى وجه كل كشف جديد ، كما كانت الحال دائما فى شأن كل الكشوف التى غيرت وجه التاريخ • ومنها اكتشاف كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، وقانون الجاذبية ، وقانون التطور • واكتشاف الكهرباء ، والارسال السلكى واللاسلكى •••• بل حتى اكتشاف الميكروبات ، ودورة الدم ، والتخدير وهى أعظم كشوف الطب البشرى فى تاريخه الطويل — كانت محلا لصراع مرير طويل ، على ما وضحته فى الجزء الأول بأسانيده التاريخية (١) •

* * *

وهنا فى هذا الميدان بالذات ينبغى دائما أن نضع نصب أعيننا ثلاثة اعتبارات هامة يتجاهلها دائما المتمسكون بالحرف فى كل دين وهى :

أولا : أن نصوصا لاتحصى من تلك التى يستشهدون بها فى هذا المقام حافلة بصور كثيرة جميلة من المجاز ، ومن الاستعارات ، ومن الكنايات الرائعة التى يسبغون عليها معانى ومفاهيم حرفية بلا أى سند مقبول •

ثانيا : أن جميع الأديان السماوية تخاطب الناس على قدر عقولهم وقت نزولها • وقد كان حديث الرسول الكريم صريحا فى هذا الشأن ، عندما قال « انا معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم »(٢)

(١) صفحة ٨٣ — ٧٨ •

(٢) عن « المقاصد الحسنة » للسخاوى صفحة ٩٣ .
وللمزيد فى هذا الشأن راجع كتاب « المفصل » ج ٣ صفحة ٩٨١ — ١٠١٢ •

فمن لا يفعل ذلك انما يحرث فى المــاء بل فى الهواء ! والرسالات لا تعبث، ولو خاطبت الناس على غير عقولهم لمــا نجحت فى توجيه عقولهم نحــو الفهم ، ولا ضمائرهم نحو الايمان ، ولا أخلاقهم نحو الفضيلة •

ثالثا : أنه ورد فى الحــديث الشريف المتفق عليــه « من مات فقد قامت قيامته » كما ورد فيه أيضا « الأرواح بعد الموت تلج مكانا ألفته ، وتلزم عملا عرفته » و « الأرواح جنود مجنــدة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » (١) • وكلهــا تتفق تماما مع مفاهيم علم الروح الحديث عن البعث وظروف الحياة بعد الموت ، وتطور حالات الوعى فيها •

وفى جميع الأديان نجد نصوصا عديدة تشير الى دوام الحياة بعد الموت رأســا ، بل تجعل من الاعتقاد بذلك ركنا أساسيا من أركان الاعتقاد • وهذا موضوع يطول شرحه ، وهو وثيق اتصال أيضا بدراسة الظواهر الروحية فى جميع صورها ، ولذا يضيق عنه أيضا المقام الحالى •

ويلزمنى فى هذا الميدان البالغ الأهمية من ميادين البحث الحديث فى الباراسيكولوجى أن أثير عدة أسئلة من نوع آخر ، لكنها تنساق طواعية مع هذه الأسئلة ، وتترتب عليها بحكم اللزوم العقلى •

ومن هذه الأسئلة : متى يجىء دورنا فى الاسهام فى هذا الميــدان الهام من البحث العلمى ؟! ومتى نستيقظ من سباتنا العميق ؟! ومتى يكف بعض الكتاب عن التصدى لهــذه الأمور بالمقاومة وبالاعتراض بلا بحث ولا دراســة ؟! ومتى نملأ الفراغ الشــاغر فى نفوس الناس بمعلومات صحيحة تجعلهم أقوى اقتناعا مما كانوا بالروح والخلود ، وأوثق ارتباطا مما كانوا بالحب وبالتواضع ، بعد طول ارتباط بما يغذى فى النفس عناصر الأنانية والكبرياء ، ناهيك بالجمود والانطواء ؟ ! ••••

ان بمقدورنا طبعا أن نصر على مواصلة اغلاق النوافذ والمنافذ كلها فى وجه الضياء والهــواء • لكن ضوء الشمس لن يضار البتة من هــذا

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأنبياء ، ومسلم فى كتاب البر، وابن حنبل فى مسنده ، وأبو داود فى كتاب الجهاد .

الاغلاق . بل سنضار نحن من الظلام والقتام . والهواء النقى لن يضيره ألا يجد منفذا الى دورنا وصدورنا ، بل نحن الذين سنضار من الأدواء والأسقام .

ومن الغريب أننى كثيرا ما أصادف فى بعض الصحف أوجه نقد كلها تزمت واغلاق ، صادرة من واحد أو آخر من ذوى المؤهلات العلمية الذين يزجون بأنفسهم فى ميدان ليس ميدانهم . لكنهم مع ذلك يجولون فيه ويصولون ، ويتصورون أن الغلبة تكون لمن يخدع نفسه أكثر من غيره ولمن يرفع صوته بالصياح أكثر من غيره ...

والى هؤلاء أتوجه بسؤال آخر مكمّل لأسئلتى السابقة : وهو ما قيمه اعتراضات عالم الجغرافيا عندما يتحدث فى الكيمياء ؟ ، وما قيمة اعتراضات المهندس أو الطبيب عندما يصول ويجول فى الفيزياء ، أو فى التاريخ ، أو فى القانون ، وهو لم يفتح كتابا ، ولم يجر بحثا ، ولم يحمّل نفسه مشقة أية مطالعة أو متابعة ؟ وهو ما يزال — فى اغلاقه البالغ — يتصور أن القضايا الكبرى للعلم يحلها الارتجال والاعتماد على شهادة الحواس .

ان الارتجال هو الآفة الكبرى التى بمقدورها أن تنال من حقائق الأمور ، وتجلب على بنى البشر العديد من المتاعب والآلام . خصوصا اذا جرى الارتجال فى ميدان مفرط فى دقته ، وفى أهميته ، وفى عظيم دوره لتخفيف، نفس هذه المتاعب والآلام . أما عن شهادة الحواس فمن المقطوع به علميا أنها دائما تخدعنا عن كل كبيرة وصغيرة من حقائق الوجود الروحى والمادى حتى فيما يتعلق بحركة الأرض والذرات . وفى هذا القدر ما يكفى الآن قبل أن أعرضَ موضوعا من أهم موضوعات علم الروح الحديث ، بل لعله أهمها كلها بلا استثناء (١) .

* * *

(١) أما عن موقف الاعتقاد فأكتفى هنا باحالة القارىء الى ما سبق فى هذا الشأن فى الجزء الأول صفحة ٢١٧ — ٢٣٥ . وأرجو أن يكون فيه فصل الخطاب فى هذه القضية التى طال فيها النقاش ، حتى أصبح المزيد من النقاش كفيلا باعاقة ركب البحث العلمى الجاد بلا أى سند صحيح .

وقبل أن أدخل فى صميم الدراسة التى قام بها بول بيرد يتعين أن أوجه نظر القارىء الى أن هذه الدراسة تناولت حالات تطورالوعى ابتداء من السماء الأولى الى السماء الثالثة • وليس مقتضى ذلك أبدا أنه لا توجد مستويات أخرى للحياة فى الأثير • بل بالعكس توجد عدة مستويات أخرى : منها مستوى سابق على السماء الأولى ، بل هو سابق أيضا على مستوى السمرلاند ، وهو مستوى الأرواح الهائمة على وجهها بالقرب من هالة الأرض Earthbound •

وهذا المستوى تهيم فيه تلك الأرواح المتخلفة عقليا وخلقيا ، والجاهلة ، والآثمة ، وتلك التى أدمنت الخمور والمخدرات ، والتى احترفت القسوة والكبرياء والشر والضغينة ••• وقد تكون — بسبب هيامها على وجهها — مصدرا للوسواس وللارشاد غير الراقى ، بل المضلل والضار • كما قد تكون مصدرا لبعض حالات المس التى عالجتها فى الباب السابع (١) • وبطبيعة الحال ان ذلك المستوى غير سعيد ولا راق بالمرة ، بل هو شقى غاية الشقاء •

وتوجد أيضا بعد السماء الثالثة عدة مستويات أخرى ، أرقى منها وأسمى ، لم يتناولها المؤلف لأسباب واضحة بذاتها ، وهى ندرة البيانات الواردة عنها ، وصعوبة الحصول عليها ، وربما أحيانا صعوبة فهمها وتحليلها • لكن من المتفق عليه أنه كلما ارتفع مستوى الوجود كلما أصبحت الحياة أرق من ذى قبل وأرقى •

والآن لنتصفح مع القارىء الكريم بعض صفحات كفيلة بتلخيص هذا العمل العلمى الجليل :

---

(١) راجع ما سبق فى صفحة ٧٤٧ — ٨٤٣ عن المس الروحى والاستحواذ . وعن الاتصالات بأرواح عديدة فى درجات متفاوتة من السعادة والشقاء راجع « مفصل الانسان روح لا جسد » ج ٣ صفحة ٨٦٣ — ٩٧٣ .

عن التناسق بين الذات والبيئة

وابتداء يقول بيرد ان الصورة المـألوفة للحياة فى الأثير عبارة عن مرور من جو الى آخر ، وكل جو لاحق أرق وألطف من كل جو سابق • وهذه الصورة مقتضاها أن القيم السائدة فى كل جو تهيمن على العمل ، وعلى المعرفة ، وعلى التنعم • كما هو الشأن فى الفصول المدرسية ، وذلك الى أن يغادرها « الطالب » بلا رجعة اليها •

وهناك تبسيط آخر أكثر ملاءمة ، وهو أن نفكر فى الحياة هنـاك كما لو كانت عبارة عن تسلسل للأحداث يمر خلال عدة طبقات من الوعى، وأن نفكر فى الانسان بوصـفه غير متنبّه تماما لذاته الخاصة ، شـأنه شأن العديد من الكائنات الحية ذات المستويات العديدة • وأن هـذا الانســان فى تلك المراحل المبـكرة من حياته يبدو أدنى بكثير من ذاته الكاملة •

وعلى هذا المســافر الأزلى (كناية عن الانسان السائح فى الأثير) أن يدخل الى مايطلق عليه أحيانا وصف السماء الأولى ، وأن عليه آن يمر فيما بعد بمرحلة تطهير عن آثامه (أو تكفير) • وهاتان حالتان متوازيتان فى نوع الاختبارات التى تلزم الانسان ، وكل حالة منهما لازمة بمقـدار لزوم الأخرى •

ففى الســماء الأولى يتقاضى الانسان حقوقه المعنوية (أى ثمرات فضائله) • وفى حالة التطهير يسدد تلك الديون المعنوية (أى يجنى آثار رذائله) • ويبدو أن الأمرين يجريان معا فى وقت واحد ، وأن السماء والمطهر يمثلان جانبين متقابلين لعملة واحدة • ومن المحتمل فى غالبيـة الحالات أن تتعاقب الاختبارات بالتبادل وبالتنقـل بين كل جانب منهما والآخر •

فبالنسبة لرصيده الدائن يجد الانسان نفسه متنعما باحساس غامر بكل تلك الصفات الطيبة التى عنده ، والتى تتجاوب مع طبيعته الحقـة ،

بالمقابلة مع تلك الشوائب التى ألصقها بشخصيته الأرضية ، والتى كان لها صداها عند اقامته فى السمرلاند(١) (وهى كناية عن أول المستويات الجميلة التى تلى الأرض ، ويعبر عنهـا فى بعض المراجع بأنها تمثل « المستوى الثالث » Third Plane على أساس وجود مستوى سابق لها للأرواح غير السعيدة ، أو تلك التى فى حالة من الغيبوبة أو من عدم التنبه ، يطلق عليه وصف المستوى الثانى) .

ولأن هذا الجانب من شخصيته صحيح روحيا ، فانه يجده متناسقا مع بيئته الروحية الجديدة . وكلاهما على نفس طول الموجة الاهتزازية (على أساس أن كل ما فى الوجود له موجة اهتزازية خاصة . وأن تناسق الموجات يحكم كل مستويات الوجود المنظور وغير المنظور) .

وهناك يستيقظ الوعى تدريجيا لكن بصورة أكثر وفرة خلال تغير يجرى فى القلب ، الى مستوى شعورى كائن بداخله ، وتعبر عنه كل ظواهر الوجود المحيطة به ، والتى يتقاسمها معه آخرون كثيرون ، ويمكنه فيها أن يعيش وأن يعمل فى فرح . ورغم أن هذا المستوى هو مستواه الصحيح ، الا أنه صحيح أيضا بالنسبة للحياة التى تجرى من حوله . ولذا فانه اذا ما رجع الى نفسه وجد أن نفسه تشابه الآخرين ، وبالتالى وجد أن هناك تناسقا يساعده على الاستمرار فى ضبط موجة ارادته نحو العمل ، والنمو ، واتساع الرؤية (٢) .

* * *

(١) بمعنى أنها قد تعكر بعض صفوه هناك فى صورة تأنيب للضمير .

(٢) الاشارة هنـا الى قانون هام من قوانين الطبيعة وهو قانون التوافق الطبيعى أو التناسق harmony ، الذى يجمع كل طائفة من الكائنات المتماثلة فى بيئة مشتركة .

وهو أيضا يخضع كل صيغة من صيغ الحياة الانسانية أو الحيوانية أو النباتية لنوع أو آخر من التوافق الطبيعى ، والتجاذب الفطرى عن طريق تقارب مدى الاهتزازات ، وبالتالى أطوال الموجات الخاصة بكل ظواهر الوجود المادى والروحى . ولذا فان تشبيه ظواهر الوجود — خصوصا فى مستوياتها الروحية — بأنها تمثل سمفونية رائعة كبرى تشبيه قريب جدا من الواقع ، لأن العلم لا يملك تشبيها أقرب منه الى مداركنا المحدودة .

وبقدر ما يكون موفورا تقدمنا فى سلم التطور الروحى بقدر ما تتسع دائرة الكائنات الانسانية التى يصبح بمقدورنا أن نمنحها حبنا • فالانسان البدائى — كالطفل الصغير — لا يحب الا نفسه ، أما عند نضجه فى الوعى والشعور فان دائرة حبه تتسع تدريجيا بمقدار هذا النضج •

وفى هذا الشأن يتحدث روح مراسل قائلا « انه بقدر ما يكون عظيما تقدمنا فى النضج الروحى ، بقدر ما تتسع دائرة الكائنات الانسانية التى يصبح بمقدورنا أن نمنحها حبنا • فنحن فى العالم لا نحب كائنا واحدا فحسب ، ومن هنا ينبع التناسق الرائع الذى يترنم عندئذ كأنه نابع من وتر موسيقى • وكل نغمة لها رنينها الخاص ، لكن فى التناسق يكمن الجمال » (١) •

فالمكان هناك ليس مكانا للخمول يجلس فيه الانسان دواما للراحة ، والايمان بذلك يتحدى تماما طبيعة ما يحاوله الآن • ورغم أن الانسان لا يفهم فى البداية كل هذا تماما ، لكنه يصبح مع ذلك صاحب حرية فى أن يستكشف نفسه ، حتى يصبح كائنا أسمى بكثير مما كان يعرف فى الماضى • أى أنه يبدأ فى استكشاف نفسه من جديد تدريجيا ، فيعود الى ذاته الكلية • ومع ذلك فانه فى السماء الأولى لا يتحقق من ذلك سوى شطر يسير •

وفى هذا الشأن يتحدث روح مراسل قائلا « ان فهمكم « للأنا » الحقيقية فهم خاطىء ، لأنكم تتحدثون عنها كما لو كانت شيئا معزولا ، وخارجا عنكم • وبهذا الفهم لن تصلوا اليها أبدا • « فالأنا » العليا ومعها « الأنا » السفلى — بحسب الأوصاف التى تعودتم عليها — يكونان حقيقة واحدة ومتكاملة • حاولوا أن تتمثلوا ذلك تماما •

---

(١) يحيل المؤلف القارىء الى كتاب عنوانه « القنطرة فوق النهر » The Bridge Over the River صفحة ٥٨ ، من مطبوعات « دار حكمة الانسان » بنيويورك . وهو من املاء روح فنان شاب مجهول الهوية .

وفى الواقع انها ليست « الأنا » العليا هى التى يلزم أن تصلوا اليها ، لأنها دائما موجودة هناك ، وتقع فى الأساس تماما من حياتكم وانما يتعين على وعيكم الشخصى ، عندما يفكر فى « الأنا » العليا كأنها تحلم ، أن يوقظها من سباتها • حاولوا أن تحددوا شخصياتكم عن طريقها، ففى التحديد الكامل يوجد التحقيق »(١) •

وبعد أن يلخص المؤلف عدة رسائل تعزز هذا النظر يستطرد قائلا ان « المسافر » يقيم الآن فى عالم للادراك المكثف ، وللصلات العاطفية المتعمقة • وبعد أن تكون المتع التافهة التى قابلها فى « السمرلاند » قد أجهدته ، هاهو الآن (فى السماء الأولى) قد أصبح على صلة بأولئك الأعزاء الذين يعرفهم ، وبطريقة أبعد عن الأنانية مما كانت فى الماضى • وينعم بطبائع الآخرين حبا فيهم ، وبقدر ما ينال من حبهم • فالموقف طبعا متبادل لأن كل واحد يجد متعته فى جمال طباع غيره ممن يعاشرهم من الأشخاص •

والمناظر الطبيعية من حوله سخية وجميلة ، وتملؤها مساكن خاصة ، وأماكن للعبادة ، ومبان تمثل ما يمكن أن يطلق عليه وصف جامعات الروح • وهذه أمور لا أكتبها بوصفها قصصا عن الجنيات ، أو صورا خيالية تمثل مجرد استعاضات عاطفية لما يعوزنا على الأرض ••• بل ان لها بالنسبة للروح وجودا حقيقيا لازما لحياتها بقدر ما تحتاجه للتعبير عن نفسها •

عن بعض مشاغلهم

وهذه المناظر الجميلة ، والمبانى ، تحمل بذاتها الاحساس بالدوام، لأن غالبية ما تعلمته الروح يصعب عليها فيما بعد أن تتجاهله • ويكون عليها أن تعطى انتباها خاصا لدراسة قوانين الروح ، ولاستكشاف الجانب الداخلى لنفس الموضوعات التى سبق أن عرفتها وأحبتها عندما

---

(١) راجع ما سبق عن « الهو » و « الأنا » فى صفحة ١١٧٩–١١٨١ •

كانت ما تزال مقيمة على الأرض (١) •

ويكون أيضا من مشاغلها الهامة الخارجية أن نحاول اغاثة من تصادق من سكان الأرض بأن تمس أرق انفعالاتهم ، اما بالتأثير فى عقولهم عن طريق التخاطر فى أثناء النهار ، واما بالاتصال التخاطرى أو المباشر معهم فى أثناء نومهم ، ولعل هذا الاتصال الأخير أكثر حدوثا من سابقه •

ولعل هذا التأثير هو مصدر بعض القرارات الحكيمة ، وبعض مبادرات الشعور(٢) ، وتزايد النظرة الداخلية الصحيحة التى قد تستيقظ عند الكائن الانسانى ، وتتسلل اليه عند اليقظة من النوم ، أو فى أحسن أوقاته من التنبه الداخلى inner attention ، لكن بمقدور ارادته الحرة أن تستجيب لهذا التأثير أو أن ترفضه •

وفى هذا الشأن يقول روح وليام ت• ستيد « ان علينا أن نمضى وقتا نكون فيه على اتصال وثيق بالأرض ، حتى نتمكن عن طريق التأثير فى النفوس أن نصحح أخطاءنا السابقة ، وأن نفعل الخير على قدر الامكان• ونحن نحوز أيضا المعرفة والرؤية التامة لنتائج أخطائنا القديمة ، وهى لا تسبب لنا سعادة ما ، لكن بعد انقضاء هذه الحالة ، يتعين علينا أن تدبّر أمورنا ونضع خطة للعمل ، يكون من شأنها بالتدريج وباستمرار أن تمحو النتائج والمتاعب التى نكون قد تسببنا فيها ، وبعد ذلك يكون

---

(١) والدليل على ذلك هو ما ثبت من استمرار نفس الميول الأدبية والفنية والعلمية •••• بدلالة هذا الانتاج المستمر المتزايد الوارد عن طريق وسطاء متعددين فى بلاد مختلفة من مؤلفين وفنانين وعلماء منتقلين ، والذى مايزال يحمل أبرز خصائص أصحابه وملكاتهم وميولهم واتجاهاتهم السابقة (راجع ما ورد فى هذا الشأن فى صفحة ١١٨٩ — ١١٩٥) •

(٢) مثل اغداق العناية المطلوبة الى فقير ، أو حزين ، أو محتاج لأية اغاثة لمواجهة آلامه المعنوية أو المادية •

بسقدور أى واحد منا أن يحيا هنا فى حرية » (١) •

وهذا النوع من التأثير للمساعدة يمكن أن يرتدى العديد من الصور المختلفة ، منها مثلا الرعاية التى قد يبذلها روح لانماء موهبة معينة موجودة عند أحد الأشخاص الذين يعرفهم •

وفى هذا الاتجاه يقول روح سير وليام باريت W. Barret (٢) فى رسالة منه الى قرينته ــ التى كانت عميدة لكلية طب السيدات بلندن ــ « انك تشعرين برغبة قوية فى بعض الأحيان لأن تجلسى بمفردك • وسببها ليس ضيقك من الناس ، ولا لأنك أنانية ، بل ان احساسا داخليا يقول لك ان اعتزال الناس لازم لراحتك الذهنية والبدنية •

وهذا الاعتزال لازم لكل انسان ، لأن اهتزازات الشخص الآخر لو لم تكن متناسقة تماما مع اهتزازاتك فانها قد تسىء الى صحتك ، بل قد تكون خطرة عليها ••• والتأثير الذى قد يجىء من ناحيتنا قد تجهلونه ، لأنه لا يتم تسجيله على الجسد العضوى ، بل خلال الجهاز العصبى » (٣) •

وبعد أن يعزز هذا النظر بعدة رسائل واردة من مراسلين متعددين، يقول بيرد ان السماء الأولى ينبغى النظر اليها على أنها تنتمى الى نفس الحقل من الاختبارات الذى يطلق عليه الثيوصوفيون والمتصوفون وصف كاما لوكا Kama Loka أو العالم الكوكبى • وهو مكان الرغبات ، الذى تظل

---

(١) هو نقيب الصحافة البريطانية (١٨٤٩ ــ ١٩١٢) وقد كان فى حياته الأرضية من المهتمين بالبحوث الروحية ، ومن كبار الداعين اليها (للمزيد راجع ما ورد عنه فى « المفصل » جـ ١ صفحة ٣٨٨ ــ ٣٩٣) .

(٢) كان فى حياته الأرضية عالما معروفا فى الفيزياء ، ومن المهتمين بالبحوث الروحية . (راجع ما ورد عنه فى « المفصل » جـ ١ صفحة ٣٩٩ ــ ٤٠٠) .

(٣) يحيل المؤلف القارىء الى كتاب لليدى باريت عنوانه « الشخصية تحيا بعد الموت Personality Survives Death » صفحة ١٥٩ ــ ١٦١ .

فيه النفس شاعرة بما حققته من انجازات وما لم تحققه بعد ، وتحاول التغلب فيه على العيوب التى اكتشفتها فى نفسها خلال حكمها عليها ، وذلك حتى تجرر نفسها منها .

ومن الجانب الآخر فبقدر ما تتطور الذات ، وتنمو فى قدرتها على ابصار داخليتها ، وفى الانصات الى صوت الالهام العميق ، وفى التنبه الى وجود الكائنات الأسمى منها (كما فعل مثلا صفوة فلاسفة اليونان والرومان) ، وفى توسيع دائرة اختباراتها الى ما يتجاوز ذاتها ، بقدر ما يمكن القول بأن النفس تعد ذاتها للدخول الى العالم العقلى ، أو عالم الدبفاشان Devachan (بحسب الفقه الثيو صوفى) حيث توجد بداءات الخلق بالعقل (١) .

ومع ذلك فان هذه المستويات المتعددة التى يفصل بحاث الغيب بعضها عن البعض الآخر فصلا حاسما ، قد يمكن التردد بينها عن طريق الذهاب والاياب ، جزئيا عن طريق التحرر الذاتى من الماضى (وهو اجراء يقابل التوبة فى المفهوم المألوف) ، وجزئيا عن طريق التطلع الى المستقبل (وهو ما قد يقابل الخلوة الصوفية الراقية) . الى حد أنه قد يمكن الارتقاء بضع درجات نحو حدود ذلك العالم العقلى عندما يكون العمل الأساسى للروح ما يزال فى منطقة العالم الكوكبى بسبب ثقل تركة النفس من أخطائها السابقة التى يتعين عليها أن تصلح منها .

* * *

ثم يتساءل بيرد عما اذا كان يوجد أى مقابل للصلات الجنسية فى حياة ما بعد الموت ، قائلا ان الفكرة قد تبدو مثيرة لاتباد بعض

---

(١) ففى تلك المستويات الراقية تصنع الأرواح منازلها وكافة احتياجاتها بتأثير مباشر من العقل فى « مادة الأثير » ، ولذا يطلق على هذا النشاط وصف « الخلق بالعقل » . والعيش فى تلك المستويات يتطلب عقولا ناضجة ، وأذواقا فنية رفيعة حتى تؤدي دورها فى الخلق بالعقل على النحو الذى يحقق الإتساق المطلوب مع الفن الرفيع ، ومع ظروف البيئة الخارجية .

الأشخاص ، لكن هذا الانفعال يمثل أحد الأفكار التى قد يرسمها الناس للحياة فى « الجنة » !

ويقول انه اذا كان هناك انسان متعطش حقيقة للاشباع الفيزيقى للجنس ، فان هذا الاشباع لن يختلف شيئا عن اشباع العطش الى الخمر مثلا ، لسبب بسيط وهو أنه لم يعد يحوز جسما فيزيقيا • فالاحتياجات المادية عندئذ يتعذر اشباعها ، لكن ما العمل اذا لم يكن الاحتياج من هذا الصنف ؟ !

ان الحاجة للاشباع الجنسى قد تظل باقية بعد الموت بصرف النظرعن قدرة الاشباع ، كما هى الحال عند ما يروض أى انسان نفسه على الكبت بدافع دينى ، أو لطبعه الخاص مثل عجزه عن المغامرة ، أو بسبب عجزه الجثمانى ، أو فقد الشريك بالموت •

وفى هذا الشأن يقول ت• ا• لورانس T. E. Lawrence فى رسالة له عن الفروق فى الصلات الجنسية أنه يلزم أن نذكر أنه قد حدث تغير كلى فى جوهر الجسد ، وأن جميع الصلات هناك أسسها محض عاطفية •••

فاذا ما شعر شخص بتجاذب جنسى ، فان شعوره يكون محض انفعال بالحب مع رغبة فى الاقتراب من شخص آخر ، ومشاركته فى دفء رغبته ، أما الشهوة فى هذا المستوى فهى أمر عسير • وعندما يحدث اتحاد (بسبب اختلاط الهالات فى الجسمين) ، فانه يحدث احساس بنشوة وباختبار معين أجمل بكثير من أى اختبار يمر به الانسان فى جسمه الأرضى • أما انجاب الأطفال فهو قضية غير مثارة هنا ، بكل ما قد يرتبط بها من مشكلات •

ثم يقول بيرد ان مراسلا آخر تحدث عن هذا الموضوع بعد انتقاله بفترة قصيرة قائلا « ان الرجال والنساء مازالوا محتفظين بنفس المشاعر

التى كان بعضهم يشعر بها نحو البعض الآخر على الأرض ، لكن بدون وجود دافع بيولوجى » • ويعلق بيرد على ذلك قائلا انه توجد هناك عدة مستويات ، وأن الصلات العاطفية قد تكون أكثر رقة فى أحدها عن الآخر • ويبدى المراسلون بعض التحفظ فى أن يقولوا لنا عنها الشىء الكثير ، ولعل ذلك نظرا لصعوبة الحديث الدقيق فى هذا الشأن •

كما تحدث مراسل آخر قائلا « ان الحب المتبادل فى أقاليمنا مغاير تماما للصلات الجنسية المألوفة بين الناس ••• فنحن نشعر بحبنا المتبادل على درجات متفاوتة العمق • وأعمق درجة تكون مصحوبة باندماج مؤقت لأحدهما فى الآخر يجرى دائما فى خلوة كاملة ••• وهو شىء مقدس جدا ومشروع تماما ، ويجرى مع شريك اختاره صاحبه نظرا لعاطفة عميقة تربط بينهما • ويترك فيما بعد احساسا بالسعادة لا توجد أية كلمات للتعبير عنه • وهذه الصور من المشاركات لا تستهدف زيادة سكان الجنة ، لكنها محض تعبيرات شخصية نقية عن الحب »(١) •

ويفرق بيرد بين صلات عاطفية حقيقية ، وبين صلات نزوة عابرة ، قائلا ان ما قد يجرى فى السماء الأولى قد يكون محض تعبير أو امتداد للمشاعر الأرضية ، وأنها بالتالى لا تتلاءم تماما مع مشاعر الحياة فى السموات الثانية أو الثالثة •

عن الطبيعة من حولهم

ثم يقول بيرد ان أوصاف السماء الأولى و « السمرلاند » تبدو لأول وهلة متقاربة الى حد كبير • لأن هذه الأوصاف وتلك تتحدث عن مبان ، ومناظر طبيعية جميلة ، وعن رفقة طيبة مع الأصدقاء (٢) ••••

---

(١) يحيل المؤلف القارىء الى الكتاب الآتى : —
Revd. Charles Frayer : A hand in Dialogue P. 148.
وللمزيد فى هذا الشأن راجع « مفصل الانسان روح لا جسد » جـ ٢ صفحة ٣٩٦ — ٤٤٩ •

(٢) للمزيد عن « السمرلاند » راجع « مفصل الانسان روح لا جسد » جـ ٢ صفحة ٢٨٨ — ٤٥٦ •

ولكن يوجد مع ذلك فارق هام جدا وهو يتحصل فى نوعية الحياة . فأولئك المقيمون فى السماء الأولى — كما قيل — متنبهون الى حياة أكثر عمقا من حولهم تسود مشاعرهم ، ومن خصائصها تغذية هذه المشاعر ومناجاتها .

وفى هذا الشأن تقول الروح المراسلة ايتا Etta لشقيقها الأسقف درايتون توماس Drayton Thomas [1] ان « الشكل واللون فى عالمنا هذا مماثل للشكل وللون فى عالمكم ، لكن ما أجده عسيرا علىَّ فى وصفه لك ليس الأشياء كما تبدو لنا، مثل وصف زاوية من جدار أو وصف الأزهار أو الأشجار ، بل ان المشكلة هى فى وصف المشاعر . وأنت نفسك تعلم يادرايتون أن ثمة أوقاتا فى حياتك تشعر فيها باحساس ما ، كل ما تملكه فى وصفه أنه احساس بالفرح وبالبهجة . لكن ليس بمقدورك أن تصفه وصفا حقيقيا ... فهل بمقدورك ذلك ؟

وهذا الاحساس عندك لا يدوم طويلا أبدا ، لكنه نوع من الاحساس الذى نملكه طيلة الوقت .... وليس بمقدورى أن أصف لك هذا الاحساس ، لأنه مختلف عن الأحاسيس التى تميز الأرض » .

ويعلق الأسقف توماس على ذلك قائلا « تذكر كيف أنه تغمرك أحيانا وبلا توقع سعادة مباغتة ، أو انشراح مألوف ، أو بصيرة ، أو أمل . وتظل مع ذلك عاجزا عن تفسير هذا الاحساس للآخرين . وفى الواقع انك تشعر عند ذاك بالأمل الخفى فى الحياة .

وتكون عين النفس قد التقطت ما تعجز عين الجسد عن رؤيته . والآن بقدر ما تمضى أيامنا ندرك بصورة متزايدة ذلك الجمال المخفى عنا ، ونجد الحب والأمل فى جميع الأشياء : أنا وأيتا . فلم يعد ذلك الجمال مخفيا عنا بقدر مايزال مخفيا عنك . ايتا وأنا نحيا فى عالم رائع » .

---

(١) راجع ما سبق عن بعض أبحاث درايتون توماس فى هذا الجزء صفحة ٦١٦ — ٦٢٧ .

وعن المناظر الطبيعية هناك يكتب عالم النفس المعروف ف. و. هـ. مايرز F. W. H. Myers (١٨٤٣ — ١٩٠١)(١) بعد انتقاله « ان فى تلك الحالة التى تلى الخداع illusion ... أنت تقيم فى عالم هو أصل الأرض . وباختصار ان الأرض صورة قبيحة ومشوهة من ذلك العالم الذى تقيم فيه النفس الرقيقة فى جسدها الرقيق »(٢) .

ويصف و. ت. ستيد W. T. Stead الطبيعة هناك قائلا « عندما تكون على الأرض أنت تضع جسمك للظروف اللاحقة ، فان هذه تتوقف على حيواناتكم الراهنة ، وعلى نقاء تفكيركم . وهذا العالم الذى مكثت فيه طويلا حتى الآن هو أقرب الأشياء المتصورة الى الأرض ... وقد تقولون انه محض انعكاس من عالمكم ، وهذا يخالف الواقع لأن الأرض هى التى تمثل انعكاسا من عالمنا . فالأرض ليست هى العالم الدائم ، بل هى مدرسة للتدريب » .

* * *

وأولئك الذين هم فى السماء الأولى قد نفضوا الآن عن أنفسهم ما يكفى من ثقل الأرض القديمة (أى ثقل الحياة الأرضية) حتى يتمكنوا من أن يستخدموا تلك التأثيرات الخلاقة من حولهم . وهم الآن مشغولون من آن الى آخر يحدوهم أمل محقق ومتيقن بأن حياتهم هى الحياة الوحيدة التى تستحق أن يحياها الانسان .

---

(١) راجع ما ورد عنه فى « مفصل الانسان روح لا جسد » ج ١ صفحة ٣٨٢ — ٣٨٥ .

(٢) ذلك أن مايرز بعد انتقاله أملى فى كتاب عنوانه « الطريق الى الخلود » The Road to Immortality (على الوسيطة جـ. كامينز) ما يفيد أن رحلة النفس تتطور خلال سبع مراحل أطلق على كل مرحلة منها اسما اصطلاحيا : فأطلق على المرحلة الأولى اسم « مستوى المادة » وعلى الثانية اسم « حالة انتقالية » ، وعلى الثالثة اسم « مستوى الخداع » ، وعلى الرابعة « مستوى اللون » ، وعلى الخامسة « مستوى الشعلة » ، وعلى السادسة أطلق اسم « مستوى الضوء » ، وعلى السابعة اسم « حالة انعدام الوقت » . للمزيد فى هذا الشأن راجع « المفصل » جـ ٢ صفحة ٢٤٧ — ٢٥٢ .

وعندما يجدون أن السماء الأولى تنطوى بالنسبة لهم على بعض أوجه للتطهير أيضا ، فانه يصبح بمقدورهم تدريجيا أن يتقبلوا برضى هذه الأوجه بقدر ما يتقبلون الأوجه الخلاقة من حياتهم الجديدة بوصفها ضرورية لاتساع قدراتهم أسوة بالأوجه الأخرى السعيدة .

وفى كلمة ان أولئك المقيمين فى السماء الأولى ينعمون باتساع متزايد فى الآفاق يتجاوز كل شىء كان بمقدورهم أن يختبروه على الأرض ، وذلك فيما عدا لحظات قصار للضيق تمر بهم (بسبب الندم على أخطائهم) . ورغم تلك اللحظات القصار للضيق التى مرت بهم ، والتى سوف تمر بهم — وربما على مستوى أعمق مما كان — فان هذا التنعم سوف يظل مستمرا . وليس بمقدور أى شىء أن ينتزعه منهم ، وليس بمقدوره أن يتلاشى ، وذلك لأن نفوسهم قد ارتقت الآن بما يكفى لأن يكونوا أهلا لبدء هذه الحياة الخلاقة .

وبطبيعة الحال فان تلك المصادر الخارجية للمتاعب ، وللصعوبات ، وللقيود التى تميز الحياة على الأرض تكون قد زالت فى المراحل الأولى للحياة التالية للموت . بما فى ذلك أيضا العناء الذى كان يبذله الانسان للحفاظ على جسده الحيوانى ، والوقت الذى كان يمضيه فى كسب قوته ، واشباع حاجياته ، وكل الجهد الشاق الذى كان لازما « لحياة الطين » ، والذى أدى الى نمو فى ذكاء النفس والى صقله وتهذيبه . وفى الجملة يخلع الانسان عن نفسه بعض المتاعب الماضية كما يخلع رداءه .

أما فى السماء الأولى فانه يكون بمقدور النفس أن تعبر عن طبيعتها الخاصة بطريقة أوفر ايجابية وحرية لأنها تحيا فى عالم أقرب الى فرديتها الحقيقية الخاصة . وبدلا من التأثير المميت للأرض تسبح النفس فى ذلك الجو الروحى المنعش . وأمامها توجد فرص دائمة لكى تستجيب لكل ما يتطلبه الحب من نشاط ، والذى ينسج نفسه من حولها . ولكى تشعر بوحدة كل صورة من حولها ، ومن الداخل العميق لكل ذات .

وهذا هو الجانب المشرق من الحياة فى السماء الأولى • آما العمل والجهد اللازمان للحياة على الأرض فلا يزالان مطلوبين لكن بطريقة أرق « فكل رائد يريد أن يتسلق جبال الاختبار يلزمه العمل والجهد — بحسب تعبير روح مراسل — وعليَّ أن أخبرك بأن ذلك لا يتأتى تحقيقه الا بالضرورة كما يحدث فى عالمكم عن طريق التطبيق ، واستخدام العقل ، والاختبار • فبذلك وحده يمكن للقيم الصحيحة المتجهة الى الأمام أن تصل الى معارفكم ، وأن تشعروا بها »(١) •

وكما أن تعاقب الفصول يجلب الازدهار والذبول فان الطاقات الروحية فى السماء الأولى يمكن تشبيهها بضوء الشمس الذى يضع الازدهار فى النفس • أما الذبول فانه يمثل تلك الأجزاء من الطباع التى تجد الذات أنها ليست بحاجة اليها ، لأنها لا استخدام لها الآن ، ولذا يتعين عليها أن تتعلم كيف تتخلى عنها تدريجيا •

ولذا فان هذا السائح (أى الروح) سوف يتعين عليه أن يواجه تغيرات عميقة فى كيانه • فنحن حتى هنا لا نتوقع عند انقضاء النهار أن نصل الى حلول دائمة للمشكلات الأرضية العويصة ، كذلك أيضا فى الاختبارات التى تلى الموت فان هذه الحلول لا تأتى سراعا •

وهذا السائح يكون عليه أن يعد نفسه بعد الموت لاختبارات جديدة تهدف الى الاسراع فى نضج تكوينه ، وفى الوصول الى مستويات جديدة للوعى ، وبالتالى يكون عليه أن يصل الى تحقيق شخصية أرقى له (٢) •

ماذا عن الموت الثانى ؟

والانسان الذى يصل الى السماء الأولى يشعر نفسه كما لو كان

---

(١) يحيل المؤلف القارىء الى الكتاب الآتى : —
Steward Eduard White : The Betty Book Vol. 1 P. 17.

(٢) تلخيص عن بول بيرد . المرجع السابق صفحة ١٠٨ — ١٢١ .

هو نفس الشخص فى جوهره الذى كأنه على الأرض ، والذى شق طريقه فى اتجاه أو فى آخر • ويصل الى هذا الشعور عن طريق الاحساس بدوام شخصيته الخاصة • والآن يتعين عليه أن يستعد للتخلى عن شطر كبير من ذاته المألوفة •

وهذا هو الثمن الذى عليه أن يدفعه فى مقـابل أن يتفهم الجوانب الأخرى الأعمق من غيرها فى ذاته ، والتى تتجاوز حدود معرفته الراهنة • وهو فى ذلك يشبه انسانا عاش حتى الآن فى غرفة مألوفة ، لكن أصـبح مطالبا بأن يغادر غرفته تلك ، الى ذلك الخلاء الذى يتعين عليه فيه أن يقابل آفاقا جديدة من ذاته الخاصة •

وغالبية الأشخاص لا يجدون صعوبة ما فى أن يتقبلوا مبدأ التخلى عن أجسادهم عند الموت ، خصوصا أنه عند نهاية الدورة العادية للحياة يكون الجسـد فى المعتاد قد أصبح مصـدرا للتعب وللمشقة • وكثيرا ما يعبِّر فى أمراضه عن تجمع التحديدات الانفعالية التى تجمعت خلال الحياة الأرضية والتى أصبحت الآن تكون حصارا حول الذات •

فعلى هذا السائح الأزلى (كناية عن الانسان) أن يواجه (فى سمائه الأولى) الاحساس بأن هذه الذات الشخصية سوف تصبح فى النهـاية عبئا عليه كما أصبح جسده العضوى عبئا عليه فى الأرض ، أو كما كان سوف يصبح عبئا عليه (لو امتد به الأجل طويلا) •

وفى البداية تخشى غالبيتنا أن تتخلى عن سـمات الشخصية التى تتصور أنها تمثل ذواتنا الحقيقية ، مع أنها فى واقع الأمر لا تمثل الا شطرا صغيرا منهـا • لكن ماذا يعنى تعبير « الذات الشخصية » ؟ انه يعنى خلاصة الذكريات عن الاختبارات ، والأفكار ، والمشاعر التى تعطى كل انسان قدرة الاحساس بذاته بوصفه فردية خاصة خلال حياته المـاضية على الأرض ، والتى ما تزال تواصـل حياتها بعـد الموت بوصفها نفس الشخص المألوف •

وعنـــدما يتوقف هـــذا الانسان عن أن ينظر الى ذاته تلك النظرة الشخصية التى كان بمقتضـــاها يتصور ذاته ثمينة جدا ــ لكنه أصبح تدريجيا يراها لا تستحق كل هذا التقدير ــ فانه يحرر نفســـه متهنا ، ولا يعود يخشى أن يفرض على ذاته بعض القيود وصور الحصار الذاتى .

ومن الغريب أن الكائن الانسانى يفضل غالبا أن يبقى لفترة طويلة شطرا من ذاته ، بغير أن يعرف ما بعدها ، وبغير أن يدرك مدى الحرية التى يحصل عليها عندما يسلم ذاته الى القدرة الالهية ، التى ينتمى اليها فى الواقع . وهذه هى طبيعة الاختبار الذى يتعين على الكائن الآن أن يجتازه عن الموت الثانى .

وثمة أشياء أخرى بمقدورها أن تعوق تطور الانسان غير التمسك بشخصيته القديمة ، منها تلك القيود التى تكمن بداخل ما يعتقد كل انسان أنه يمثل قلب فضائله الحقة . والتغلب على هذه القيود يتطلب نشاطا جما من الوعى ...

* * *

والرسائل الواردة من غير المتجسدين تتحدث عن وجود مجموعات وجماعات ، وروابط متنوعة . وكل رابطة منها تضع صورة عن الســـماء المحيطة بها تلتئم تماما مع مستواها العقلى . وكل رابطة منها تزعم التيقن من صورتها الخاصة ، وهو ما يشير بوضوح الى تلك القيود التى تحاصر كل صـــورة منهـــا .

فهناك اذا شطر من نفس كل رابطة منها يعيش فى مفهوم أدنى بكثير من الواقع ، وكل نفس يحملها الحب أو الخوف الى حيث توجد . لذا فان المفاهيم العقيدية القديمة قد تضع عدة حواجز فى وجه التقدم ، وقد تظل النفس راضية عنها لفترة من الوقت . لكن مع العيش الطويل تذوب تلك الحواجز تدريجيا ، ويتخلى الناس عن العـــديد من تلك المفـــاهيم التى تصوروا أن فيها خلاصهم الخاص .

وبعد التخلى عنها ، على الجميع أن يتحركوا نحو وحـدة صريحة تجمع حيواتهم ، ونحو اخوة انسانية شاملة ، بداخل تلك الطاقة الغامضة الخلاقة التى تزود الكل بالحياة .

ولكى يجعل الانسان نفسه جاهزا لتلك الخطوة الهامة نحو الأمام ، عليه أن يدفع ثمنها ، وهو التخلى عن الكثير من الأمور التى كان يتصورها فيما قبل شطرا من ذاته الخاصـة جـدا . وذلك حتى يؤدى دوره فى الاستعداد لهـذا الموت الجـديد الذى ينتظره ، وهو موت شـخصيته (أى فنائها فى فرديته الخاصة) . ولذا يتعين عليه أن يطفو فوق ميـاه الترفع ، قبل أن يقدر على تحقيق ذلك .

وفى هذا المعنى يملى روح مايرز ما مقتضاه أن على الفرد أن يزحزح أفكاره وينحى كل نظرة خاصة شكلت عقليته وحاصرتها حتى أصـبحت رؤيته محاصرة ، واختبـاراته أيضا محاصرة ، وضـاع منه الاحـسـاس بالحقيقة .

ويواصل مايرز الحديث عن ذلك الموت الثانى واصفا اياه بأنه عبارة عن « تحطيم الصورة » . وهذه الصورة التى يقوم « السائح » بتحطيمها هى صورة شخصيته القديمة . أو هى ذلك القنـاع ، الذى تعنيه كلمة شخصية ، ويتعين عليه أن يجد فرديتـه ، التى لا تنفصـل عن الحقائق الروحية الكائنـة من حوله ، لكنها لا تزال مع ذلك مختفـاة عنـه على وجه ما (١) .

وكل فعل ، وتنعم غير أنانى ــ بحسب ظاهره ــ ما يزال مسـتمرا جزئيا لتحقيق غرضه ، أو ربما للحصـول على ميزة منه . واليد اليمنى لا تكون متنبهة دائما لمـا تصـنعه اليد اليسرى . لكن من يتوقـع من

---

(١) راجع ما سبق عن التمييز بين الشخصية والفردية فى صـفحة ٩٠٠ - ٩٢٦ .

السماء أن تعطيه وساما يخدع نفسه عندما يتصور ذلك لأنه يتضمن أن شخصيته التى سوف ينفصل عنها تطالب السماء بمكافأة لنفسها •

وجميع الأفعال الطيبة ، والمشاعر الكريمة ، والنوايا العقلية الرفيعة ، التى ينعم الآن بها صاحبها ، بمقدورها أن تبقى فى الذاكرة ، ما دامت من النوع الذى لا يمت الى الغش بصلة ، وتكون بمثابة جوهرة فى جسم من نحاس ، أما الغش فيجب ابعاده • وحتى فى فترات معينة من الحياة نقية أخلاقيا قد تظل راسبة بعض عناصر غير نقية ، وتحتاج بالتالى للتطهر منها • وبقدر ما يحدث ذلك يكون التحرر من تلك الذات التى كانت تبدو لكل انسان كأنها ذاته الخاصة •

وفى هذا الشأن يتحدث روح مراسل آخر قائلا ان أولئك الذين يحوزون الاختبارات ، ينتقلون الى أرض أخرى ، مغايرة لسابقتها وأرق منها • ويصبح كل شخص موضوعيا impersonal بمعنى أنه لم يعد هو زيد أو بكر • الجميع قد أصبحوا الآن أرواحا نقية ، وحبهم السابق الذى كان شخصيا وفرديا لم يعد موجها الى فرد معين بل الى الجميع • والكل يتعاطف مع الكل ، والنسيج النقى للحب الالهى يغطى الجميع •

ومن اليسير أن ننظر الى ذلك الموت الثانى ، وأن نتهيب ما يتطلبه من تضحية مطلوبة فعلا بالطبع • وعندما نواجه التضحية قبل أن نقدمها من الطبيعى أن ننظر بضيق الى ذلك الشطر الذى يجب التخلى عنه من ذواتنا ، ونتساءل لماذا لم نتخلَّ عنه من قبل ، مع ما ثبت من آن هذا الشطر هو نفسه الذى كان يشدنا الى الخلف •

وبعد انجاز هذه الخطوة ، تصبح طبيعة الانسان أكثر شفافية وأوفر ادراكا وتجاوبا مع تلك القداسة التى أضحت منظورة فى كل الحياة من حوله ، ويصبح تدريجيا أليفا لها • ويصبح بمقدور كائنات أخرى أن تكشف تدريجيا لهذا الدارس الجديد الكثير من طبيعتها الخاصة • وذلك لمجرد أنه حاز بدوره قدرة أكثر مما كان على أن يرى ويتعلم •

وفى هذا الشأن يتحدث روح آخر قائلا « انني أحوز وعيا هنا ، لكنه لا يشـبه كثيرا الوعى على الأرض ، ذلك الوعى الضيق المحاصر بالذات • لقد ضاعت الذات الخاطئة القديمة ونسيت فى تواضع شديد ، وذابت فى الوعى الالهى ، ووعى الآخرين ، لكن الذات لم تعد تستحوذ على الفرد » •

* * *

انه اختبار عجيب أن يلقى الانسان جانبا تلك الذات الشخصية ، لأننا عند النظر اليها من عتبة التحول تبدو لنا خطوة ضخمة فى الظلام ، لكن عن طريق هـذا التخلى يحدث موكب التحول ، الذى يخلق منه انسانا جديدا • وبتعبير آخر انه الموكب الذى فيه يفقد الفرد نفسه حتى يحصل على ذاته الفردية ، كأنه فراشة خرجت من الشرنقة ، أو قوقعـة خرجت من صدفتها •

وفى هذا الشأن يقول آرثر كونان دويل A. C. Doyle (١) بعد ثلاث سنوات فقط من مغادرته للأرض ــ وهى فترة قصيرة نسبيا ــ فى رسالة له يصف فيها كيف قابل ذلك الموت الثانى « هـذا الموت الثانى رائع ، لكنه اختبار رهيب ••• ولمـاذا لا يحدث عنـدما يبدو من الضرورى اثراء الشخصية بكل الكنز الذى يصبح بمقدورنا أن نجمعه بجهد اليـد والعقل ؟ ! •••

نحن لا نصل عراة الى العالم الكوكبى ، لكننا نحمل معنا بالأكثر كنوزا أرضية كثيرة من المعرفة ، ومن القدرة ، ومن الاحساس بالانجاز • وعندئذ فان تاج نضالنا وذروته يصلان الى مرحلة من رغبة الاعتزال • وفى ذلك يكمن ما فى نفس الانسان من روعة وما فى روحه من اعجاز •

---

(١) هو القصصى البريطانى الشهير الذى كان فى حياته الأرضية داعية عالميا للحقائق الروحية ، وأملى بعد انتقاله أكثر من كتاب : منها واحد على الوسيط ايفان كوك Ivan Cooke عنوانه « ليأت ملكوتك » Thy Kingdom Come وعليه يعتمد بول بيرد فى هذه الاحالة . (راجع عنه ما ورد فى « مفصل الانسان روح لا جسد » جـ ١ ص ٤٠٧ ــ ٤١١) .

وهــذا الاعتزال يتضــمن رغبة التخلى عن معلوماتنا ، وقدراتنا ، وانجازاتنا السابقة ، وكل ما يصنع ذاتنا الشخصية الحافلة بالمزاعم الجوفاء والتأكيدات ، وصور التعاطف معها والتركيز عليها ، وآمل تحقيق انجازات أخرى لحسابها ، وبالتــالى تعرية الذات باعادة كل شىء الى مانح كل شىء » •

ولا يعنى ذلك أن كل شخص يواجه اختبار الموت الثانى بالضبط كما يواجهه غيره • بل ان الناس يواجهون كل اختبارات ما بعد الموت ، كل بحسب طريقته الخاصة • ولقد كان دويل صاحب قلب كبير ، وطبع انبساطى متميز بالعزيمة ، ولذا فلم يكن مســتغربا منه أن يواجه هــذا الاختبار بكل هذا التجرد الشجاع • أما اذا كان الانســان صاحب طبع مخالف فمن الجائز أن يواجه نفس الاختبار على دفعات متعــددة ، بدلا من مواجهته على دفعة واحدة ، وبتدرج شديد •

وبالتالى فمن الجائز أيضا أن يحدث هذا الاختبار بصــورة هادئة ومستقرة فى شكل تخل عن الشخصية القديمة واستنارة للذات • أى أن تغير الوعى عنــدهم يشرق عليهم تدريجيا كما يشرق ضــوء الفجر على الخلاء الجميل • وينتبه العديدون الى المساعدة الكبرى التى قد يتلقونها من تلك الكائنات الأخرى التى تسكن فى أمان فى تلك المستويات ، والتى تجىء بما يصح أن يطلق عليه تدفق الضوء والنعمة من أعلى ، وهو تدفق يعبر عن عيشهم فى مستوى أسمى فى تدرج الوعى من سابقه •

فالسائح قد يلقى مساعدة تدريجية على أن يرفع نفســه نحو ذلك المستوى الأسمى فى رحلة هى فى حقيقتها رحلة للوعى • وفى وصف ذلك يقول روح مراسل « ليس بمقدور الانسان أن يرفع نفسه كثيرا الى ذلك المستوى ، والا راح فى غيبوبة • لكنه اذا كان برفقة شخص ذى نضج كاف قد يكون بمقدوره أن يذهب بعيدا • واذا ذهب شخص الى أبعد من قدرات يقظته فانه يروح فى ســبات لا يذكر بعده شــيئا واضحا ،

ويقظة الروح تنمو بمقدار نضج الانسان ، كما يتحول الطفل بصورة طبيعية الى انسان بالغ بعد مضى وقت ما ، بسبب نضجه العقلى والروحى. وطبعا لا يؤدى مضى الوقت دوره هنا كما يؤدى دوره فى النمو العضوى فهنا يوجد أشخاص ينضجون بسرعة ، ويوجد آخرون لا يكادون ينضجون الا بصعوبة ، والعبرة هى بمدى الرغبة فى التقدم » (١) .

ماذا عن السماء الثانية ؟

والموت الثانى هو الحادثة التى تفتح الباب للسماء الثانية كما يقول بول بيرد — وبالتالى للثراء فى الوعى الذى نجىء به . وبحسب وصف روح ف . و . هـ . مايرز (عالم النفس الذى أشرت اليه فيما مضى) تدخل النفس فى مرحلة اللاشعور ، بعد أن تكون قد تخلت عن بعض صفاتها السابقة عندما كانت فى السماء الأولى .... وفيها تكون فى حالة من الذهول الظاهرى ، وفى هدوء عظيم ... وتلاقى فترة استرخاء فيما يبدو ، ثم تسترد ببطء مع ذلك القدرة على الرؤيا Vision .

ويرسل روح العلامة ماكس هيندل Max Heindel رسالة بدوره عن هـذا التحول يقول فيها : ان التحول يبدأ منذ السماء الأولى الى السماء الثانية . وعندئذ يغادر الانسان جسده السابق (أى يفقد تجسده السابق) (٢) ويصبح صاحب وعى تام ، ويدخل الى سكون عظيم . ولفترة من الوقت يبدو له كل شىء آخذا فى الزوال ....

ويصبح لديه شعور بأنه واقف فى الأزل العظيم The Great Forever كما لو كان وحده ، لكنه مع ذلك لا يعتريه أى خوف ، وتمتلىء نفسه بسلام عجيب ... وهذا هو ما يطلق عليه فى العلم الغيبى وصف

---

(١) تلخيص عن بول بيرد . المرجع السابق صفحة ١٢٢ — ١٢٩ .

(٢) يراعى أن فقد التجسد يختلف عن فقد الجسد ، من ناحية انه مجرد عبارة عن ارتفاع اهتزاز الجسد الأثيرى الى مستوى أعلى من مستواه السابق . وبالتالى فان الانسان لا يترك وراءه جسدا ماديا كما يفعل عند مغادرة المستوى المادى للحياة بالموت الفيزيقى ، بل يتحول الى كائن أسمى مما كان بصورة تتفاوت فى سرعتها وفى مداها .

« الصمت أو السكون العظيم » The Great Silence ، وتلى ذلك اليقظة ، فاذا بالروح تجد نفسها فى « عالم موطنها » .

* * *

وبقدر ما يتعلم السائح كيف يعيد تكييف نفسه مع اختبار مواصلة العيش بعد الموت ، وكيف يهجر الشخصية التى عاش مرتبطا بوثاقها على الأرض ، فانه يصبح جاهزا لكى يحول شعوره الى فرديته التى كان حتى ذلك الوقت يجهلها .

ويكون متنبها تماما الى أن الرحلة التى قام بها أثبتت بحق أنهـا عبارة عن نشاط تحولى لذاته السـابقة . ولقد وصل تدريجيا الى رؤية الآثار الكاملة لحياته الأخيرة على الأرض ، ونفض عن عقله وعن مشاعره الصدأ الكثيف الذى كان غارقا فيه .

وثمار حياته هذه تكمن فى الجوهر الذى خرج به منها عن طريق أفعاله الطيبة ، وأيضا عن طريق جانب من ذلك الصدأ الذى عرف كيف يحوله ببطء وباخلاص الى فضـائل ، فهذه هى الثمار التى يجنيها من أيام شقائه فى العمل ، والتى أصبحت شطرا دائما من ذاته .

وعندما يضبط موجته مع حياته فى السماء الثانية (كناية عن التأقلم الصـحيح معها) فماذا يكتشـف بداخل فرديته ؟ والجواب هو أنه فى الصورة المركبة الآن للحياة بعد الموت ابتدأ يظهر عامل هام جدا ، مقتضاه أن صورة هذه الحياة أصبح لها منطق يفرض نفسه مشـيرا الى العودة للتجسـد .

وفى الواقع أن جميع البيانات الواردة عن الحياة بعد الموت ـ اذا جمعت معا ـ لا تكون مفهومة فهما صحيحا بدون هذه العودة . ذلك أن هذا السائح الأزلى (كناية عن الانسان) سوف يكتشف أن حياته الأخيرة ليست أكثر من الفصل الأخير فى كتاب متعدد الفصـول ، وأن الوقت قد حان لكى يعرف أيضا فصوله الأولى .

وكما أن جوهر حياته الأخيرة (بقدر تميزه عن تفصيلاتها) أصبح مطبوعا على ذاكرته الدائمة ـ أو بعبارة أخرى على ذاته السببية نفسها Causal self ـ وهو الوصف الأنسب لها فانه بأسلوب مماثل قد تم طبع جوهر حيوات عديدة سابقة على فرديته ، وكلها أسهمت فى صنع ما صار عليه الآن من حال .

وفى انتظاره يجد جميع ما حصله ، وما اختبره من أمور سارة أو أليمة ، وكلها من شأنها أن تبين بصيغة حاسمة أن النموذج الذى تم نسجه فيه عن طريق العودة للتجسد تغلغل فى أعماق حياته ، وأن عملية النسيج سوف تستمر بداخله .

* * *

وفى هذه السماء الثانية يتحرك الانسان الى مستويات تتاح له فيها رؤية أوسع . ويواجه عودة تدريجية للذاكرة عن حيواته الأرضية السابقة . وعن تأثير كل حياة منها فى الأخرى ، وفى حياته الأخيرة بوجه خاص ، وعن الفردية التى وصل اليها خلال كل هذه الحيوات ، وعن تاريخه برمته ، هذا التاريخ الذى أخفته عنه الى مدى واسع اشغالاته بشخصيته الذاتية المحدودة الأخيرة .

وهذا التتابع المتصل أطلقت عليه روح السيدة فرانسيس بانكس Frances Banks وصف « العودة الى الاتصال بنفسها » rejoining her soul لأن مقتضاه أن يصبح الفرد وجها لوجه ازاء المغزى الروحى لجميع تلك الأحداث التى مرت به منذ ماضيه العريق ، وازاء المهمة التى عليه أن يتولاها . وهى الاصلاح التدريجى لما تبقى فيه من أوجه النقص التى يظهر له كيف أنها كانت كفيلة خلال عدة حيوات بأن تشوه وجهه الروحى الحقيقى وتضالل خطاه ...

وفى هذا الشأن تقول روح مراسلة أخرى « ان ثمة أوقاتا يتعين علينا فيها أن نعتكف فى خلوة حتى نتفهم المزيد عن تطورنا . ولقد أتيح لى فى

هذا الاعتكاف ليس أن أرى فحسب شريط حياتى الأرضية ، بل أن أرى أيضا مجرى تطورى برمته ...

فبمجرد ما تكون قد غزوت ذاتك السفلى وسموت فوقها ، يصبح بمقدورك أن تمر بهـذا الاختبار ... ويكون بمقدورك أن تتعلم منه الشىء الكثير ، ومع ذلك لا تشـعر بأى ألم منه ، لأنك ترى كيف أن كل غلطة وقعت فيهاتحولت الى ما فيه ترقيك على الرغم منك ، بل بفضل قبس الألوهية الذى يعمل بداخلك بمقدار ما تسمح له أنت بهذا العمل .

أى يكون بمقدورك أن ترى خيط الذهب الذى ظل موصولا خلال كل شىء ، وأن تفكر فى ذلك وحده . فأنت تختزن فى هالتك جميـع الدروس التى تظن أنها سوف تنفعك فى صلاتك المقبلة بالآخرين ، أو فى أى عمل من المحتمل أن يعهد به اليك ...

ولقد تبينت — خلال كل مراحل تطورى — أن المقارنة كانت هى أسلوبى العقلى الذى دفعنى الى تكرار نفس الخطأ مرارا ، أو هو الذى أضعف عنصر الخير فى العمل الذى كان بمقدورى أن أعمله . لذا أنصحك بألا تسمح لنفسك أبدا بالمقارنة : فلا تفكر فى نفسك قائلا « لمـاذا كان نصيبى شيئا معينا ونصيب غيرى شىء آخر ، ما هو الفارق بيننا ؟ ! » .

فاذا كان بمقدورك الرؤية الصحيحة ، ربما كنت تعرف أنه لم يكن يوجد فارق تحت السطح ، لكن القضية عبارة عن ضبط موهبة معطاة لك تتلاءم مع مرحلة تطورك ... ان الذات الأوسع للانسان تعرف الحقيقة الكائنة وراء ذلك ، لكن ذاته الشخصية الصـغيرة هى التى تدفعه الى عقد المقارنات العقيمة مع الآخرين » (١) .

* * *

(١) يحيل المؤلف القارىء الى الكتاب الآتى : —
Arthur H. Stockwell : Veronica, Co-operationP.P. 219 — 221.
ومن الكتب الحديثة القيمة ايضا فى هذا الشأن :
Neville Randall : Life After Death. London 1975.

وتظهر للسائح أيضا ومضــات باهتة عن حياته المقبلة على الأرض ولــذا يدرس الجزء التالى من الطريق الذى عليــه أن يقطعه فى رحلته الآتية . وهذه الومضات ليست لتعذيبه رغم أنها قد تتضمن قدرا هادفا من ارشاده الى ما يلزمه من دروس تتسق مع ذاته السببية ، وقد تكون دروسا شاقة فى بعض مراحلها كما تظهر له . ولذا يتعين عليه أن يتفحص بامعان رصيده من الطبع ، ويستعد لكى يحاول أن يستخدم الفرص التى سوف تتاح له على أحسن وجه ممكن .

وبعد أن يدعم المؤلف هــذا النظر بعدة رسائل تفصيلية واردة من أرواح السيدة فرانسيس بانكس ، والعالمين فردريك مايرز ، وألبير بوشار Albert Pauchard (١) وغيرهم يقول أيضا ان الذات العليا أو السببية للانسان تحتوى على خلاصــة اختباراته فى تجسداته على الأرض ، وفى العالم الآخر . كما تحتوى على بذور اختباراته المستقبلة المزروعة فيها عن طريق اختباراته المــاضية . وبالتالى فانه تكون أمام السائح رحلة لا تزال طويلة عليه أن يقطعها .

وبقدر ما يبدأ فى فهم الجوهر الداخلى لحياته الراهنة فى حــدود استطاعته ، وبعد التخلى عن كل تفصيلاتها الخارجية ، يصل هذا السائح الى فهم مصادر ما مر به من أسباب للنجاح والفشل فى حيواته القديمة على الأرض . ويبدأ فى الحصــول على معرفة أدنى عن الطريق الذى ما يزال عليه أن يقطعه .

وهو لا يكون بمفرده أبدا ، بل انه يرى أن هناك أشخاصا آخرين فى نفس المجموعة ومتضامنين معه فى انجاز مهام مشتركة ، يتوقف انجازها على جهوده الخاصة ، كما يعتمــد هو بدوره على جهودهم ، ومصــيره مرتبط بمصيرهم .

---

(١) هو باحث روحى سويسرى أملى بعــد انتقاله كتــابا جميلا عن الحياة فى الروح على قرينته السيدة انتوانيت بوشار (للمزيد عنه راجــع المفصل جـ ٢ صفحة ٢٦٩ — ٢٧٠) .

ولذا فهو يكون معنيا تماما باعادة اقامة صلات كثيرة ، غالبا أقيمت بعنـاء ، وأحيانا بحب ، وأحيانا خلال كره عابر ، مع أعضاء منتمين الى نفس مجموعته • وقـد تكون ذكريات الفشل السابق معهم فى حيوات سابقة مصدرا يمكنه من أن يداوى ما به من جراح تركوها فى نفسه •

وفى الجملة فان الرجال والنسـاء تربطهم بغيرهم روابط روحيـة داخلية ، ولا يوجد هنا مجال للتحاسد • وعندما يعود الفرد الى مجموعته الخاصة فى السماء الثانية يشـعر تماما أنه عاد الى منزله فى معنى أعمق بكثير مما كان يشعر به فى السماء الأولى • فكل واحد يعثر فى الآخرين على ذاته الخاصة ، وكل المفاهيم عن الحياة خارج الجسد العضوى يتعذر فهمها الا بالقول بوجود اتجاه نحو تقارب بين النفوس ، وتراجع للحواجز فيما بينها •

وبمقدار اتساع الوعى يجىء التغير فى الشكل الخـارجى فهـذا الشكل يصبح أقل استقرارا ، وأوفر مرونة ، وأكثر قدرة على آن يشع نحو الخارج كل عناصر طبيعته الداخلية ، هذه العناصر التى تصنع الآن نسيج حياة هذا السائح • وتنبعث هالته من حوله ، وتتخذ آشـكالا ذات ألوان متعـددة تعبر عن حقيقتـه أكثر بكثير ممـا يعبر جسـده العضوى (١) •

وتعكس هذه الهالة كل مشاعره نحو كل الكائنات التى يلتقى بها • مع شعوره بالعرفان وبالعبادة الذى هو تجاوب عميق مع كل صور الجمال والحق الكائنة فى الكون المحيط به • ومن هذه الهالة تنبعث ألوان رقيقة وحية ، تنمو وتتراجع بالتجاوب مع كل ما تقابله • أما الوجه فهو يظل بوصفه العضو الأساسى المعبر عن الفردية الجميلة لصاحبه • وهـذا هو التحول الخارجى البطىء الذى يجرى لتكوين الذات والذى يتجاوب مع درجة نضج وتهذيب طبيعتها الداخلية •

* * *

(١) راجـع ما سبق عن الهـالة والجسـد الأثيرى فى الجزء الأول صفحة ٢٨٦ — ٣٣١ .

ويتحدث مراسل روحى فى هذا الصدد قائلا : ان كل شخص هنا يرتدى ضوءه الخاص • ويكون من المحال أن يرتدى روح الا الرداء الذى يمثل حصيلة نفسه • أما أزياء الأرض فلا تناسب تنوع جميع الأرواح •••• لأن أضواء الأرواح هى أزياؤها التى تتفق مع مدى رقى مشاعرها •

ويقول بيرد أنه حتى عندما يتحدث عن السماء الأولى آو الثانية أو الثالثة ، أو عن التكفير السابق أو اللاحق ، أو عن جماعات النفوس المتآلفة ، فانه مع ذلك يجد مشقة فى أن يتفادى تحليل الحياة بعد الموت كما لو كانت عبارة عن محض ممالك مختلفة • لأن هذه الحياة هى فى الواقع مجرد أوجه للوعى يتعذر فصلها عن أجواء الحياة ، كما يتعين ربطها بالروابط الداخلية التى عن طريقها يتنقل الوعى من جو الى آخر ، ويمكن لأن انسان أن يعثر عليها عندما يكون بمقدوره توسيع دائرة وعيه الى القدر اللازم •

ولذا فان المعلمين غير المتجسدين (كناية عن المراسلين الراقين من عالم الروح) يفضلون الحديث عن اندماج الوعى ، وتعميقه ، ونضجه أكثر مما يتحدثون عن الأجواء والأقاليم •

وسواء أكان الانسان على الأرض ، أم فى السمرلاند ، أم فى احدى السموات ، وسواء آكان متنبها أم غير متنبه : فان كل شخص مرتبط أيضا بوعى كائنات أخرى معنية بيقظته الروحية ، وهو يشاطرها اهتماماتها بقدر ما يسمح به مدى نضجه الخاص • مع مراعاة آن دور الأمور الروحية يجرى فى صفوف بنى البشر مجرى الدم الحار فى عروق الانسان• وكل انسان ينتمى منذ الآن الى كل ما يحيط به ، وأيضا الى كل مايتجاوز قدرة عينية على الابصار الى آن يصبح مستعدا لفتحهما (١) •

---

(١) تلخيص عن بول بيرد . المرجع السابق صفحة ١٣٠ ـ ١٤٣ .

عن المعرفة والفضيلة

ثم يقول بيرد انه بقدر ما يذهب السائح بعيدا فى عوالم الغيب بقدر ما يجد صعوبة أمامه فى وصف ما أصبحت حواسه — الآخذة فى الاتساع — كفيلة بعرضه عليه من مشاهد ، ومن رؤى • ولذا فان أولئك المقيمين فى العالم التالى مباشرة للأرض — شأنهم شأن أولئك الذين قطعوا خطوات متقدمة فى النضج الروحى — يفترضون فى أنفسهم أنهم قد قطعوا من مسافة الطريق أكثر مما فعلوا فى الواقع •

ولذا فانهم مازالوا يقيسون الأمور الروحية بنفس المقاييس الأرضية • ومازالوا يكونون لأنفسهم عدة مفاهيم فى يسر وفى تسرع أكثر مما ينبغى • لكن من يكون منهم أوفر اختبارا من غيره يدرك أن الصورة التى يرسمها للحياة هناك لا تمثل سوى شطر من الحقيقة الكاملة ، التى يدرك أنها بعيدة عن منال قدراته الخاصة فى الادراك •

وعندما يدرك هذا السائح أن الوجود الذى أمامه ما يزال بعيد المدى ، فان مغزى حياته السابقة على الأرض يزداد فى حجمه وفى قيمته • وهذا المدى البعيد لحياته الجديدة يجعلها تبدو له أكثر من كونها محض امتداد لأيامه العابرة القصيرة التى أمضاها فى « روضة الأطفال » على الأرض •

وكما أن هناك أشخاصا يرغبون فى المزيد من المعرفة ومن الادراك على الأرض ، وعلى استعداد لأن يتكبدوا النفقات اللازمة ، كذلك هناك توجد دور للدراسة ذات فصول متعددة يرتادها أولئك الذين فاتتهم فرص الدراسة على الأرض ، لكى يتلقوا فيها دروسا كانت ستكون أجدى لهم لو أنهم تلقوها على الأرض •

وسرعان ما تبدو الصورة واضحة لأولئك « التلاميذ » وهى أن بنى البشر لا ينتمون جميعا الى مستوى واحد من النضج حتى ولو كان يجمعهم « فصل واحد » • ورغم تعقد طريق الحياة ، فان كل واحد

سيجد نفسه — على التحقيق — على الدرب اللازم له لدراسة تلك الأشياء التى تلزمه روحيا • ونظرته التى تلى الموت سوف تكشف له الى أى مدى أن العقبات التى صادفها فى حياته وتذمر منها كانت نافعة له •

والأعباء التى عليه أن يقوم بها هناك تتجاوز كثيرا أن تكون محض عقاب وتوبة ، لأنها كثيرا ما تكون أعباء خلاقة • فالحياة أكثر من أن تكون محض درس أخلاقى ، بل ان على الانسان أن يتعلم أيضا كيف يحيا فى بهجة • والبهجة لا تغيب بالضرورة حتى عندما يكون على الانسان أن يواجه تحمل أعباء وأدوارا ضخمة •

وجميع المتاعب والعقبات تصبح أهون أثرا عندما يكون بوسع الانسان أن يحيا حياته بتركيز أوضح على أهدافها الحقيقية • وتسرع خطى حياته الخاصة بقدر ما يحوز القدرة على الوصول الى الادراك الداخلى المرتبط بالحقائق العميقة عن انشاء الصلات فى الروح ، وتكوين الصداقة ، وأيضا بقدر التعرف على الفلسفة الموضوعية للأمور • والضربات التى تنزل على الشخصية الخارجية للانسان — عندما يتقبلها صاحبها بنفس راضية — كفيلة بزحزحة المتاعب من طريقه •

وهكذا تصبح الحياة أوفر تدفقا بقدر ما يبدأ الناس فى السباحة فى الطاقات المشرقة التى تتدفق من مستوى الى مستوى آخر ، فى تدرج هذه المستويات •

وجميع الرسائل الواردة من هناك تعلن أن الكون كله مؤيد بالحب، مهما كانت تصرفات الناس على الأرض نائية عن الصواب • ولذا فيتوقف هناك هذا الصراخ الذى نعهده هنا من التفاوت الصارخ ، ومن المحاباة • أو من الشك فى وجود الله ما دام لا يتصرف كما يتصرف بنو البشر وهم فى موقعهم فى « روضة الأطفال » هذه •

فهذا الظلم الظاهرى يبدو مختلفا تماما عند الانسان عندما يوافق

على أن يتقبل أن دروس حياته الخاصـــة لم تفرض عليه بطريقة تحكمية من مصـــدر رئاسى ، بل على العكس من ذلك جاءت متوائمة تماما مع طبيعته الخاصة الكلية • بل جاءت لكى تكون صورة من صورته الخاصة•

والأرض مع ذلك أكثر من أن تكون مجرد فصـــل مدرسى سرعان ما يتركه الانسان وراءه عند الموت ، بل هى فى نفس الوقت مصـــنع ، وصحراء ، ومكان للفوضى المحلية ، وأيضا مملكة مهجورة سوف تذبل يوما كما تذبل الزهرة •

* * *

وثمة عنصر بالغ الأهمية فى هذا الموضـــوع ، وهو أن الانســـان لا يلقى فى هذا العالم الأرضى ، ويترك بمفرده ، والا فكيف يتأتى لطلبة « روضة الأطفال » أن يتعلموا دروسهم بدون مدرس أو عدة مدرسين ؟! لا ريب أن الحياة تلعب شطرا هاما فى عملية التدريس ، كما أن كل طالب يتعلم من غيره ، وأحيانا بغير أن يدرك أنه يفعل ذلك •

لكن عندما يكون المصير ما يزال معقدا ، والعصفور ما يزال يجهل كيف يطير ، فانه لابد من تداخل كائنات ذات ذكاء أعلى للتوجيه الجزئى• ولـــذا فان علينا أن نتقبل فـــكرة وجود تخطيط عاقـــل يجرى من وراء ستار • وأيضا فكرة وجود مرشدين غير منظورين ، هذا ولو أن المرشد الحقيقى فى النهاية كائن بداخلنا •

وفى هذا الشـــأن يقول روح ســـير أوليفر لودج (١) O. Lodge فى رسالة له « أذكر أننى كنت أستمع كثيرا جدا عما يقال عن الأرواح المرشدة فى عدة جلسات مبكرة لى مع الوسطاء ، وكنت بالأكثر رافضا المبـــدأ ، لكننى الآن قد فهمته • ولقد تعرفت على أرواحى المرشـــدة

---

(١) عالم الطبيعيات العظيم الذى كان فى حياته الأرضية معنيا جدا بالأثير وبالبحث الروحى . راجع ما ورد عنه فى الجزء الأول ص ١٠٧ — ١٠٨ .

بوصفهم أصـــدقاء منذ زمن بعيد ، بل منذ زمن بعيد جدا ، والآن آقدر اخلاصهم وجدَّهم معى » •

وكثيرا ما يشعر الرجال والنساء آن الصلات المألوفة التى تنبع عن الحب ، آو القربى ، آو العمل ، أو الواجب ، آو الهوايات ، لا تصل أبدا فى الأرض الى أعماقها الكاملة • ودائما يوجد شعور أكثر من ذلك الشعور الذى قد يمكن التعبير عنه ، وأشياء تتجاوز تلك التى أنجزت بالفعل ، وتلك التى تم فهمها ، وشرع فيها •

ودلك بحيث يبدو أن شطرا فقط من قصة الانسان قد روى له فى أثناء حياة أرضيه واحدة ، وعندئذ فان مبدأ وجود رفقاء للانسان منـــذ حيوات أخرى سابقة له يصبح أيسر قبولا •••• فبقدر ما تنضج الذات خلال حيوات متعددة ، بقدر ما تحتاج الى نماذج داخليه متعددة للتعلم ، لأن جوهرة الذات كالمــاسة ذات الأوجه المتعــددة ، وكل وجه منهــا بحــاجة الى الصــقل •

ويبدو جليا أن خطة تجسد الانسان تتضمن عدم عودة كل عناصر الانسان للتجسد فى كل مرة ، بل انه يمكن انجاز قدر أوفر من تطوره عند تحديد مهامه فى كل تجســد منها ، بما يتطلبه التحديد من التفات أوثق الى صفاته النامية بالقدر اللازم منها فورا • ونجــاح الانسان أو فشله فى المفهوم الدنيوى يصــبح غير متلائم مع المفهوم الصحيح لأية حيــاة بمفــردها • ويكون على كل انســان أن يتعرف على ما يحتاج لانجازه مستقبلا ، مستمدا اياه من أعماق ذاته الخاصة •

ففى طباع كل نسان من الواضح أنه توجد أركان مهجورة ، وبالتالى تكون هنــاك حاجة منطقية كلية الى الرجوع اليهــا خلال حياة أخرى لاحقة • ومن جانب آخر فان الصفات الطيبة التى حازها الانسان فعلا ، قد تكون محلا لتركها جانبا فى تجسد معين لأن صاحبها ليس بحاجة اليها فى أداء واجبه الفورى فى تجسده هذا • ولذا فان الفرد فى كيانه الكلى قد

يكون أسمى بكثير من هذه الشخصية المحدودة التى يكون عليـه أن يحيا فيها مؤقتا فى هذه الحياة .

فوقائع الأرض قد تخفى بالتالى المركز الروحى الحقيقى لصاحبها . ولذا تقول فرانسيس بانكس Frances Banks ان الشخص الذى قد أنظر اليه بوصفه عدوا لى فى حياة ما ، قد يكون دخل هذه الحياة لكى يقدم لى أثمن درس يمكن أن يقدمه انسان ما الى آخر . وقد يكون فى حقيقته عضـوا متطورا الى مدى بعيد من نفس مجموعة الأرواح التى ننتمى اليها نحن الاثنين معا ، وبالتالى قد يكون رفيقا محبا وعزيزا على . كما تقول رسالة من روح « ليس بمقـدوركم على الأرض أن تحكموا حكما صحيحا على حياة أى انسان ، ونحن لا نجرؤ على ذلك » .

* * *

وسـواء هنا أم هناك فانه ليس بمقدور الانسان أن يكون قطعة واحدة ، بمعنى أن شطرا من نفسه سوف يعمل بطريقة متقطعة نابعا من أبعد أعماق مستويات نفسه ، حين يوجد أكثر من شطر آخر يعمل بالقرب من السطح . وحتى فى حدود التعابير المألوفة عن الشخصية ، فان سواد الأشخاص متنبهون لما يتردد بين جوانحهم من صور الصراعات النفسية التى يحاولون السيطرة عليها لكن بغير جدوى(١) .

وغالبا توجـد أمام الانسان متـاعب محيرة ، مع عجزه عن معرفة مصـدرها الصحيح . وهذه المتـاعب تنبىء عنها أوجه القصـور التى تسببها ، والتى من شأنها أن تصنع للذات سجنا بلا جدران . ومثل هذه الصعوبات قد يقابلها الانسـان أيضا فى العالم الآخر ، وربما على مدى المئات من السنين ، وهـذا الاعتبار وحده يذكرنا ــ بطريقة هادئة ــ بواجبنا فى أن نحاول أن نستكشف مصدرها ، وأن نعمـل على التغلب عليها ، ونحن ما زلنا على الأرض .

---

(١) هذا النظر يتواءم تماما مع « النظرية المركبة للعقل » . راجـع ما سبق عنها فى صفحة ١٢٧٠ ــ ١٢٧٢ .

وأحيانا يكون من اليسير نسبيا أن نشاهد كيف أن انسانا ما يتقلب فى سلوكه بين ذواته المتعددة . فهناك أجزاء من الانسان تركها صاحبها (عند عودته للتجسد) خارج اطار التجسد ، ويمكن تشبيهها بطفل مختف بداخل حنايا الروح . وهناك رجال ونساء عديدون شوهوا أنفسهم بأنفسهم ، وأصبحوا كائنات عاجزة ، وسوف يحملون معهم ذواتهم الجريحة عندما يموتون .

ومن الأهمية بمكان ألا نيأس عندما تتحقق من أن بعض أوجه الشخصية لا يمكن أن يتحول الى الرقى الكافى فى حياة واحدة ولا يمكن أن يجد الاستخدام النافع . وهذا الجانب المخيب للأمل من الحياة يمكن مع ذلك أن تتقبله بوصفه اعدادا قيما جدا للتجسد المقبل . فما يتم صقله الآن من جوانب الشخصية قد يكون فى الحياة المقبلة ذا قيمة قصوى ، ويبدو كما لو كان يمثل موهبة جاهزة جديدة بحسب الظاهر .

وبالتدريج من حياة الى حياة تتعلم الشخصية كيف تصبح أداة طيعة للذات ، كطاعة الحصان لراكبه ، أو كالخادم **الذى تعلم ببطء ، بل ببطء** شديد كيف يخدم سيده .

والأرواح القديسة التى تفرض على نفسها نظاما صارما تتعجل اختباراتها ، وقد تحصل حتى قبل الموت على اختبارات عديدة سوف يحصل عليها الآخرون بعد الموت . فصور الترفع والزهد التى قد يطبقها الانسان على نفسه قبل الموت قد تعفيه من العديد من المتاعب فى حياة ما بعد الموت(١) .

عن طبيعة الحواجز بين شتى المستويات

ويقول بيرد انه قد جرت عدة محاولات لتصوير سياحة الانسان

---

(١) راجع ما سبق عن هذا الموضوع فى صفحة ٤٨٨ - ٤٩٥ .

فى الأقاليم اللاحقة للموت ، بمعرفة سويدنبورج Swedenborg ، والسيدة بلافاتسكى Blavatsky (مؤسسة الجمعية الثيوصوفية) ، ورودلف شتاينر Rudolf Steiner [1] ، وماكس هيندل Max Heindel ، وروبرت ليز R. W. Lees ، وروبرت كروكول R. Crookall [2] ...

ووردت عدة بيانات من آرثر كونان دويل A. C. Doyl ومن فردريك مايرز Frederic Myers بعد انتقالهم[3] . كما وردت بيانات مجزأة عديدة فى الكتابات الروحية . وهذه البيانات التصويرية لها بلا شك قيمة كبرى فى اضاءة طبيعة الاختبار الذى يلى الموت ، لكنها مع ذلك تتطلب تحليلا ثاقبا فيها حتى لا تقودنا الى الخطأ .

ورغم أنه توجد بين هذه البيانات التصويرية أوجه شبه متعددة ، الا أنه مع ذلك عند الجمع بينها فى أسلوب منهجى ومنطقى ، يظهر أيضا وجود فروق متنوعة . والسبب فيها واضح وهو أن المصادر المرسلة لهذه البيانات المتنوعة لا تعمل من مستوى واحد ومشترك من التنبه الروحى ، مع أنه بقدر عمق الوعى ، بقدر ما تتسع الصورة أمامه .

وما يبدو شيئا طبيعيا عند رؤيته من مستوى معين من الوعى ، لا يصبح كذلك عند رؤيته من مستوى آخر أعمق من سابقه . ومن ثم فان السبيل الرقيق لتطور حياة فردية معينة ليس بمقدوره أن يتجنب الخضوع للصور الجامدة ، ولتلك النماذج التى قد يحاول عقل ما من العقول أن يفرضه عليها .

والحياة بعد الموت ليس مضمونها مجرد المرور خلال أجواء تفصلها عن بعضها البعض حواجز محددة وثابتة ، وذلك رغم أن العديد من

---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ٤٧٧ — ٤٧٨ متن وهامش .

(٢) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول صفحة ٣٨٥ — ٣٨٦ .

(٣) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول صفحة ١٠٦ — ١٠٧ .

الأشخاص قد فسروا البيانات الواردة من هناك بحيث تبدو تلك الأجواء على هـذا النحو .

والأشخاص المتغايرون يتعلمون بأساليب متغايرة . وفيما يتعلق بالحياة التالية للموت فى مجموعها — ونعنى بها تلك الحياة المحدودة جدا التى تقع فى نطاق هذه السموات الثلاث الأولى — يبدو من الواضح أنه من المتعذر تحديد مستوى التنبه الروحى الذى يكون أى شخص قـد حصل عليه فى أى وقت معين ، أو تحديد الفترة التى قد يختارها للاقامة هنـاك .

ولا يعنى وصول أى انسان الى مسـتوى ينتمى الى اقليم أسمى من سابقه ، مع ارتباط انسـان آخر باقليم يحمـل اسما أدنى من سابقه أن الانسان الأول أفضل من الثانى . فالكل على قدم المساواة فى التخطيط العظيم ، وكل انسان يتعامل مع ما يحيط به من ظواهر الحياة فى الوجود اللاحق للموت الى أن يستوعب درس هذا الوجود ومغزاه ، ويضع نفسه دائما بوصفه شطرا بالغ الضآلة من تلك الطاقة الخـالقة للحياة فى أمان بين يدى الله .

* * *

ثم يقول بيرد ان خطة كتابه هذا تتمثل فى أن يرسم للقارىء مجموعة من الاختبـارات الشخصية النمـوذجية ، وأنه يحاول أن يرسـم بعض محيطات الوعى التى تعكسها هـذه الاختبارات ، وذلك بالقـدر الذى يمكننا من فهمها فى الوقت الراهن .

وأنه يؤمل فى أن يكون قد أمكنه أن يقدم الكثير من المعلومات الى مجموع القراء الذين قد يجدون فيها ما يكفى لأن يحدث تأثيرا له مغزاه فى احساسهم الخاص بالحقيقة . واذا ما قام أى انسان بالتركيز على هـذه المعلومات ، ووصل الى تقبل بعضها بوصفها بيانات عن اختبارات حقيقية مر بها أصحابها ، حتى ولو لم تكن كاملة ، فانهـا كفيلة بأن تكون له بمثابة معالم على طريق يؤدى الى منازل عديدة .

وبمضى الوقت سيقوم أشخـاص آخرون باضافة معـالم أخرى ، وستقترب الصورة تدريجيا من المركز المضبوط • والى أن يجىء هـذا الوقت يتعين علينا أن نقنع بما وصلنا من المستكشفين الذين لم يستكشفوا سوى شطر فقط من الاقليم المطلوب استكشافه •

وهذه البيانات التقريبية تماثل الخرائط الأولى التى ترسـم بتحفظ ووقار ، لكنها يحتمل أن تتضمن بعض أخطاء • هـذا ولو أنه من غير المتصور أيضا أن تجىء هذه الخرائط متطابقة تماما كتطابق المثلثات •

ولنضرب مثالا لذلك ما يقولونه عن الموت الثانى : ـ فآرثر كونان دويل يتحدث عنه (من هناك) بوصفه حادثة حاسمة عند نقطة تحول بين « السمرلاند » والعالم العقلى : فالسماء الأولى عنده تقع بعد السمرلانده ـ أما مايرز فهو يطلق على الموت الثانى وصف « تحطيم الصورة » breaking of the image وهو ذلك الذى يميز عنـــده الانتقـال بين المرحلتين الرابعـة والخامسـة ولذا فليس من اليسـير دائما التمييز بين مستويات الوعى التى تقابل أجواءه المتعددة •

ـ أما السيدة بلافاتسكى فهى تتحدث عن اطراح الصدَفة جانبا (أى تشـبه الانسان بقوقعة خارجة من صدفتها) عند مسـتوى العقل الشخصى personal mind ، ثم تشبه وصول الانسان الى مسـتوى الانسان الأسمى أو العقل الروحى higher Manas or spiritual mind بخروج الفراشة من الشرنقة ، وتتحدث عنه بوصفه حادثة محض تلقائية •

ـ أما السيدة فرنسيس بانكس فهى تتحدث عن عودتها الى نفسها من جديد بدون أن تتحدث عن اختبار حاسم عن الموت الثانى ، بل تصفه بالأكثر كما لو كان يمثل تكيفا تدريجيا ، وصعودا لوعيها على درجات سـلم •

ـ أما ألبير بوشار فهو يتحدث عن التحول وعن الوصــول الى اتساع فى الوعى يمكنه من أن يرى خلاله حيواته السابقة •

فكل تصوير من هذه التصويرات المتعددة يختلف نوعا فى خطوطه عن الآخر ، رغم أن كل تصوير منها يتحدث عن نفس الاختبار التحولى ، وذلك بدون أية شبهة فى هذا الشأن •

ان المراسلين الروحيين خلال مائة عام مضت لم يقدموا لنا شــيئا يتفق مع بعض المعتقــدات التى كانت جارية عن ظروف الحياة فى الأثير كما عرفتها عقائد الفراعنة ، أو التبت القديمة أو الحديثــة ••• بحيث يمكن القول ان فكرة العقاب قد حلت محلها فكرة النتائج الموضوعية ، ومعها أساليب اعادة التهذيب ورد الاعتبار • وفى النهاية فانه رغم تعدد المصادر والتأكيدات ، يظهر بلا نزاع ما يشير الى وجود تخطيط روحى شــامل ذى تنظيم مترابط الى الحد الذى ينبغى أن يفضــله ويتوقعه الأسلوب العقلانى •

* * *

ثم يقــول بيرد انه بقــدر ما تنمو الألفة بين الانســان وبين تلك العوالم الداخلية ، بقــدر ما ينفتح الطريق تدريجيا ـ عن طريق تدريب الذات ـ للاستماع الى صوت الصمت • وهذا التعبير الجميل يشير الى الصمت الحادث فى العقل الداخلى للفرد ، عندما يتمكن مؤقتا من تسكين تلك الانفعالات والاهتمامات المختلفة الخاصة بذاته الخارجية •

وعند ذاك سوف يجد كيف أن بمقدوره أن يشارك ذاته الحقيقية الداخلية فى حياتها ، وكيف أن رفقاء الروح يكادون أن يصبحوا جزءا من ذاته ، وأن يعكسوا ما يجول بعقله من أفكار ، بقدر ما يجول بعقولهم هم ، لأنه يوجد توافق أساسى بينه وبينهم • وأحيانا يكون من الأيسر له أن ينصت اليهم من أن ينصت الى نفســه • وعند ذاك يكون بمقــدور مجالات عالم الذات أن تنزل للتغلغــل فى نفس انســان قد يكون على

الأرض (١) •

وبالتعبير الروحي يوجد دائما نشاط عليهم أن يباشروه لترقية بني البشر والسمو بأرواحهم spiritualising وبالتعبير الأرضي يظهر أن استعجال نمو وعي الأفراد في القرن الحالي ضرورة حيوية • بل هو حاجة ملحة تماما للتمكن من التغلب على أوجه التخلف التي جاءت بهـا أجيال عديدة من الأنانية ، ومن المـادية في الفكر وفي النشـاط • والنتيجة هي محاصرة الانسان من كل جانب بالتلوث ، وبالفوضى الاقتصادية ، وبخطر التدمير النووي •

فمن الضروري أن نتعلم كيف نستجيب لهذا النشاط العاجل القادم من عالم الروح ، والراغب في أن ينفذ تخطيطا يجري بمعرفة كائنات تقيم في العوالم العليا ، ذات نوايا طيبة آخذة في النفاذ التدريجي الى عقول الخاصة من بني البشر •

ولذا بعث سير أوليفر لودج ــ رسالة يؤكد فيها القول « بأننا قد قسمنا الحياة خطأ الى شطرين منفصلين تماما (أي شـطر منظور وآخر غير منظور) ووضعنا حاجزا بينهما • والآن يتعين علينا أن نمحو هـذا الحاجز • لقد تعودنا أن نتحدث عن الحياة الروحية وعن الحياة الأرضية أي الفيزيقية •

كلاهما حياة واحدة ، ويتعين أن نجعل منهما من جديد حياة واحدة ، لأنه لا يوجد بينهما حاجز ، أي حاجز بالمرة • ولقد وضع الانسان هـذا الحاجز ، ويلزم أن يزول الآن ، حتى ولو احتاجت ازالته تماما الى بعض الوقت ، لكن يلزم أن نعمل في هذا الاتجاه •

---

(١) وذلك لاحداث تأثير طيب في نفس الانسان الموجود على الأرض ، أو لالهامه قرارا حكيما ، أو كشفا ذا بال ، أو لاملائه نثرا أو شعرا .... الى غير ذلك من الصور الراقية للوساطة العقلية (راجع ما سـبق عنهـا في الجزء الأول صفحة ١٤٩ ــ ١٥٤) . وكلها لها وثيق اتصال بموضـوع الادراك خارج الحواس .

ماذا نسمى هـذه الحواجز ؟ هـل هى حدود وطنيـة وتحديدات عنصرية ؟ ان كل هذا يجب أن يزول ، خصوصا تلك الحدود التى أقمناها بلا أى داع بين ما نطلق عليه الآن عالمينا اللذين هما عالم واحد . يوجد عالم واحد فقط ، أما الحواجز فيلزم أن نسقطها .

ان حواجز الخداع التى أجبرتنا أن نفكر فى أنه يلزم وجود عالمين (منفصلين) سببها هو عجزنا عن النظر فوق هذه الحواجز التى أقمناها بأنفسنا بسبب قصورنا وجهلنا ، وكذلك عجزنا عن النظر من خلالهـا . وهى يجب أن تنهار ، ، وهذا هو واجبكم كما هو واجبنا » (١) .

وفى كل القضايا الخاصة بدوام الحياة بعد الموت لا توجد أهم من هذه القضية : وهى هذا العبء الذى يقع على عاتق الرجال والنساء الذين يحيون على الأرض ، كما يقع على عاتق أولئك الذين مروا بالموت ، وهو عبء مشترك وعام على الجميع ، فلا هو عبء منفصل ولا متحدد .

وهناك شـطر من هذا العبء يتعين انجازه فرديا ، والشطر الآخر بالتعاون . والتعاون موجود دائما حتى عندما لا يتقبله شعوريا أولئك المقيمون على الأرض . وهذا العبء هو الذى يتضمن تجديد العالم ، عن طريق تجديد الفرد . وهو الذى يأتى الى الأرض بمملكة السـماء التى تقع بداخلنا وتنتظر من كل رجل وامرأة أن يعثر عليها (٢) .

* * *

وهكذا يقدم بول بيرد مدير « كلية الدراسـات الروحية » بلندن فى كتابه هذا عصارة ما وصل اليه من دراسة قيمة تماما عن مراحل تحول

---

(١) هـذه الرسالة منشورة فى « جريدة جمعية البحث الروحى » بلندن

Journal of the Society for Psychical Research

عدد يونية ١٩٤٥ مجلد ٣٣ صفحة ١٤٦ .

(٢) تلخيص عن بول بيرد . المرجع السابق صفحة ١٧٩ — ١٩٤ .

الوعى بعد الموت • وهى دراسة متزنة ، وموضوعية ، وعلمية فى منهجها الى الحد الذى من شأنه أن يسترعى انتباه أى باحث جاد فى هذه الموضوعات ، بل أى مثقف يريد أن يحيا فى عصره كما يحيا الآخرون •

مراجع اخرى فى نفس الموضوع

ومما هو جدير بالذكر أننى بعد أن تلقيت كتاب بول بيرد الآنف الاشارة اليه تلقيت كتابا آخر يدور حول بعض موضوعات مشتركة مع كتاب بيرد ، وهذا الكتاب الآخر صدر فى سنة ١٩٧٥ ، وأعيدت طباعته فى سنة ١٩٧٩ • وهو من املاء روح مراسل فى الولايات المتحدة الأمريكية يحمل اسم سيت Seth •

وهذا الكتاب اسمه « مغامرات فى الوعى » (١) ويتناول بدقة كافية دراسة مستويات التنبه الانسانى بعد الموت ، وهو نفس موضوع كتاب بيرد ويتضمن مواضع عديدة للمطابقة معه عما يجرى بعد الموت من تحولات فى الوعى الانسانى • وصلة هذه التحولات بتكوين الذات وسعادتها أو شقائها فى حياة الأثير •

كما يتناول بعناية خاصة موضوع العودة للتجسد وصلته بهذا التكوين ، وبالمصادر الأساسية لأوجه الوعى ، وصلة هذا كله بالالهام ، وبالتنبه المتحرر ، وبالادراك المقيد بقيود الأحكام المسبقة ، وببؤرة الشخصية ، وبما تصادفه من أحداث ، وبجو « الفردية » Sphere of I dentity ، وبالحواس ••• وغير ذلك مما يضيق عنه المقام الحالى •

وهذا الكتاب أملاه سيت على وسيطة غيبوبة تامة تدعى جين روبرتس Jane Roberts ، وقد أقام صلة معها منذ سبتمبر ١٩٦٣ • عندما أملاها — على غير توقع منها كتابا عنوانه « العالم الفيزيقى بوصفه تكوينا عقليا » (٢) • كما اشترك معها زوجها روبرت باتس Robert

(١) Adventures in Consciousness.

(٢) Seth Speaks : The Physical Universe as Idea Construction

F. Butts فى هذه الاختبارات ، وتلقيا من الروح عدة رسائل عن طريق لوحة الحروف الهجائية Ouija board ، بالاضافة الى الغيبوبة الوساطية التى كان يوقع فيها السيدة جين هذه .

وتلقت جين أيضا كتابا من سيت هذا عنوانه « الحقيقة الأزلية للنفس »(١) تناول فيه ظروف العمل فى بيئة الأثير ، أو بحسب تعبيره فى « أبعاد تلك الحقيقة التى تحملنى اليها » .

كما تناول فيه كيف تنجح الأفكار فى تشكيل المادة ، وصلة النفس بطبيعة ادراكها ، وامكانيات النفس ، وصلة النوم والأحلام بالوعى ، واختبار الموت ، واختبارات ما بعد الموت ، وآليات التحول ، والصلات التى ترجع الى العودة للتجسد ، وصلة العودة للتجسد بالذكورة والأنوثة الدفينين فى الذات ، ومفهوم الالوهية ، وصلته بتعدد الأبعاد الكونية ، وطبيعة الخير والشر ، والرموز الدينية ، ومراحل الوعى المختلفة .... وغير ذلك من الموضوعات التى عرضت لبعضها فى أبواب هذا الكتاب بجزئيه .

وكتاب هذا الروح المراسل طريف ، وعميق ، وجدير باطلاع القارىء المثقف ، خصوصا ذلك القارىء المعنى بموضوع الفصل الحالى ، وهو ماهية « التكوين الروحى للذات فى عالم الأثير » . وذلك عندما يضع فى الاعتبار أن ماهية هذا التكوين الروحى الأثيرى بعد التخلى عن الجسد المادى تلقى أضواء باهرة على ماهية هذا التكوين قبل التحرر من الجسد المادى .

وذلك على اعتبار أن نفس الانسان أو ذاته الداخلية عبارة عن مجموعة متوحدة ، متكاملة ، وقابلة للتطور أو للتحول ، لكن غير قابلة للتلاشى ، وأن هذا التكوين الروحى الأثيرى هو فى جوهره امتداد للتكوين الروحى العضوى الذى به تجتاز حياة المادة الترابية .

---

(١) The Eternal Validity of the Soul.
وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى سنة ١٩٧٢ وطبع حتى الآن اثنى عشر طبعة .

الفصل الثالث

ماذا عن قانون الكارما ؟

المبحث الأول

صـلة ((الكارما))

بالتكوين الروحى للانســان

عن مفهــوم الكارما

قبل الحديث فى صلة الكارما بالتكوين الروحى للانســان يلزم أن نعرف ابتداء مفهوم الكارما ، وهى كلمة شائعة فى المؤلفات التى تناولت موضوع العودة للتجسد ، بكل ما يتصل به من قضايا علمية وفلسفية ، ومنها بطبيعة الحال قضية الصلة بين الكارما وبين هذه العودة للتجسد .

والمفهوم الشائع للكارما هو ارتباط ظروف حاضر الانسان بأحداث ماضية القريب والبعيد ، مهما بعدت المســافة بين هذه وتلك . وكذلك ارتباط ظروف مستقبله بأحداث حاضره الأخلاقية ان خيرا فخيرا أو شرا فشرا . أو هو بتعبير آخر قانون « ما تزرع اياه تحصــد أيضا » مطبقا تطبيقا طبيعيا على حيوات الروح المتتابعة .

وســواد الباحثين ممن اقتنعوا بصحة مبدأ العودة للتجسد ، ربطوا بين اقتناعهم هذا وبين قانون الكارما بوصفه تعبيرا لا مناص منه للعدالة المطلقة أو الالهية . لكن مع ذلك يمكن الفصل بين الاقتناعين ولو الى حد ما ، بمعنى أنه من الجائز أن يقتنع انسان ما بالعودة للتجسد بوصفها مبدأ طبيعيا صحيحا ، ولا يقتنع بالكارما بوصفها تعبيرا صحيحا عن العدالة المطلقة .

وبعبارة أخرى من الجائز أن يعتقد انسان أن العودة للتجسد لهـا

ضوابط أخرى مستقلة على نحو أو آخر عن الكارما ، وبالتالى يمكن أن تتدخل فيها الصدف والحظوظ بدور ما ، كما تتدخل هذه الصدف، والحظوظ ـ فى تقديره الخاص ـ بدور ما فى كل أحداث حياتنا الراهنة.

ومن ثم فان الاعتقاد فى صحة الكارما يتطلب حتما الاعتقاد فى صحة العودة للتجسد ، لكن العكس غير صحيح ، بمعنى أن بمقدور الانسان أن يعتقد فى صحة العودة للتجسد لكن يرفض الاقناع بصحة الكارما .

الا أن هذا الأسلوب الأخير من الفصل بين مبدأى العودة للتجسد والكارما أسلوب نادر جدا ، ولا يمثل الأسلوب السائد عند صفوة الباحثين فى هذه الموضوعات ، وهى ترى أن قبول صحة أحد المبدئين يعنى قبول صحة المبدأ الآخر ، بوصفه مكملا طبيعيا له ، ولمبدأ العدالة المطلقة.

وعند القائلين بالكارما ـ وهم يمثلون شبه اجماع من الباحثين فى هذه الموضوعات ـ توجد أكثر من صورة لهذا المبدأ :

ـ فتوجد ابتداء « الكارما المرتدة الى صاحبها » Boomrang Karma أى تلك التى ترتد الى نفس فاعل الشر فتصيبه بنفس ما أصاب به غيره . وتعنى الجزاء المباشر ، والتطبيق الحرفى الطبيعى لقاعدة « عين بعين وسن بسن » . ومن صورها أن يولد شخص أعمى لأنه فى حياة سابقة تعمد اصابة شخص ما بفقد الابصار .

ـ وتوجد ثانيا « الكارما العضوية أو الوظيفية » Organismic وتعنى أن يولد شخص بعيوب عضوية أو وظيفية معينة ، وذلك بسبب تأثير قادم من عادات سيئة فى حياة سابقة على تكوينه العضوى أو أدائه الوظيفى الراهن . ومن ذلك أن يولد شخص بجهاز هضمى ضعيف كنتيجة طبيعية لأنه كان نهما فى حياته السابقة .

ـ وتوجد ثالثا « الكارما الرمزية أو التعبيرية » Symbolic Karma

أى كارما تعبر بصورة رمزية عن بعض صور الضعف أو الاستهتار التى شابت صاحبها فى حياة سابقة • ومن ذلك مثلا أن يولد شخص أصم أو ضعيف السمع ، لأنه فى حياته السابقة كان يرفض الانصات الى صوت الاستغاثة أو دعوة النجدة بلا سبب مشروع •

— وتوجد رابعا « الكارما النفسية أو الروحية » أى كارما تركت أثرها فى نفس صاحبها من حياته السابقة بطريقة لا شعورية • كشخص كان سببا فى تعذيب شخص أو أشخاص آخرين فى حياته السابقة ، والآن يعذب نفسه بلا سبب واضح فى حياته الراهنة ، كما يشاهد الاخصائيون فى العديد من الأمراض العقلية والعصبية •

— وتوجد خامسا « الكارما العاطفية » ومقتضاها احساس انسان ما بعاطفة لا شعورية عميقة نحو شخص آخر ، أو نحو مكان ما ، أو نحو دين أو علم أو أدب أو فلسفة معينة ••• لوجود روابط عريقة كانت تربطه بهذه الأمور فى حياة سابقة ، وربما فى أكثر من حياة • وهذه الكارما العاطفية تتحقق عند الحب أو النفور بلا سبب واضح ، وقد تفسر بعض صور السلوك الشاذ ، بل الاجرامى أيضا •

وفى الجملة فمن شأن الوحشية فى السلوك بحسب التعاليم البوذية أن تسبب فى حياة لاحقة تشويها عضويا ، والغضب المتواصل من شأنه أن يولّد فى حياة لاحقة دمامة فى الشكل • والبخيل قد يولد فى حياة لاحقة فقيرا ، والمتكبر قد يولد وضيعا • والشرير قد تقصر حياته اللاحقة أما الانسان الرقيق العطوف فقد تطول حياته اللاحقة وهكذا •

ولا ينبغى أن تؤخذ هذه الأمثلة بمعناها الحرفى ، أو بوصفها أوضاعا لا تقبل احتمالا آخر ، لأن الاحتمالات هنا لا حصر لها ، خصوصا مع تعدد أخطاء الانسان ، وعيوبه ، وصور نشاطه العقلية والمادية واتجاهها الى كل اتجاه خير ، أو شرير ، أو مختلط •

انما ما تنادى به فلسفة الكارما هو تطبيق قانون العلية الطبيعية على كل صور السلوك الانسانى ، ومعه قانون الفعل ورد الفعل ، بوصفه قانونا مطلقا • وأن سبيل عمل هذا القانون هو أن كل فعل يصدر من أى انسان يضع بصمة على نوع من « الذاكرة الكونية » وبالتالى يشيد نموذجا لحياته اللاحقة ومصيره • وقد يتأجل هذا النموذج فلا يتحقق الا بعد حدوث عدة تجسدات متلاحقة لأسباب متنوعة •

والافادة من هذا القانون تتوقف على قوة الروح ، ومدى تصميمها على أن تسير فى طريق ضبط النفس بكل ما يتطلبه الضبط من مشقة ومن تضحية ، وبكل ما يولده من صفات نبيلة مثل حب السلام ، وحب الخليقة بأجمعها ، وتقليل مطالب الذات الى الحد الأدنى • ومع ذلك فقد لا ينجح الانسان فى تحقيق السعادة التى يرنو اليه فى حياته المقبلة ، نظرا لديونه الماضية فى تجسد سابق أو أكثر ، والتى يلزمه أن يصفيها أولا •

وقلما يكون بمقدور الانسان أن يتذكر كارماه الخاصة • فهو خاضع لها بالتالى دون أن يذكر شيئا منها ، لكن هناك حالات قليلة أمكن فيها لأشخاص نادرين أن يتذكروا هذه الكارما ، وأن يربطوا بين أخطائهم الماضية والأوجه الراهنة لمعاناتهم ، ولذا فقد تقبلوا بشجاعة أوفر هذه المعاناة •

وليس للصلاة من دور هنا فى تعطيل قانون الكارما أو الغائه بحسب المفهوم البوذى لها • ولكن قد يكون للتأمل مع التركيز قدر ما فى رفع الروح المعنوية ، وبالتالى فى امداد الذات بشجاعة أوفر لتحمل ما تفرضه الكارما من معاناة مهما كانت رهيبة • وينبغى أن نضع فى الاعتبار أيضا دور التوبة الصادقة ، خصوصا متى اقترنت بالرغبة الجادة فى تصحيح مسار السلوك الشخصى بدافع من يقظة الضمير والشعور •

* * *

وفى شأن « الكارما » يكتب كريستماس همفريز T. Christmas Humphreys قائلا ما مضمونه أن « كارما » Karma كلمة سنسكريتية مشتقة من كلمة Kri أى جـذر النبات . وتعنى عندهم الفعـل أو العمـل ، فالكارما لذا تعنى العمـل أو الفعـل ، لكن مع مرور الوقت أصبحت هذه الكلمة تنطبق على ما وصفه المفكر الألمانى ليسنج Lessing بأنه أقدم فقه فى العالم ..

وهى من وجهـة النظر المـادية تعنى مجـرد قـانون السـببية Law of causation أو العلية ، أو ميزان السبب والنتيجة ، أو ما يطلق عليه فى هذا النطاق قانون التسـاوى بين الفعل ورد الفعل ، والتقابل بينهما . أما من وجهة النظر الروحية ، فالكارما هى قانون الجزاء الأدبى ، ليس فحسب بمفهوم أن لكل سـبب نتيجة ، بل أيضـا بمفهوم أن من يحرك نشاط السبب يتحمل هو نفسه النتيجة .

وقد أطلق المعلم الروحى الهندى رادا كريشنان Radakrishnan على الكارما قانون « حفظ الطاقة المعنوية » ... وهـذا القانون ليس قانونا هندوسيا ، ولا ثيوصوفيا ، بل هو قانون أساسى فى كل فلسـفة شرقية ، ونادى به القديس بولس عندما قال « أيها الأخوة ، لا تضـلوا الله لا يشمخ عليه ، فان الذى يزرعه الانسان اياه يحصد أيضا »(١) .

وفى القرون الأولى للمسيحية كان هذا القانون يمثل اعتقادا كنسيا فى الغرب . ولكن عندما اكتشف مجمع القسطنطينية فى سـنة ٥٥٣ أن العودة للتجسـد لا تلتئم مع النظام العجيب للتفـكير الذى كان بعض الأساقفة بصدد اقامته ، أعلنوا أن هذه العودة للتجسد تعتبر هرطقة ، ومعها القانون الآخر الذى يجعل العودة مقبولة ، وهو قانون الكارما(٢) .

---

(١) غلاطية ٦ ، ٧ .

(٢) راجع ما سبق عن هذا الموضوع فى ص ٨٧٧ — ٨٨٣ .

وهذا القانون اما أن يكون صحيحا ، واما أن يكون زائفا ، والكون اما أن يكون تنظيما ، واما أن يكون فوضى • ومن المحال أن يكون فى جانب منه محكوما بالقانون ، وفى جانب آخر محكوما بالصدف العمياء غير العاقلة • والكارما ليست قانونا يمكن أن يقال فى شأنه « انه من الجائز أن يوجد ثمة شيء ما فيه » • فهو اما موجود ، واما لا وجود له • فاذا كان موجودا فان الانسان الأحمق هو ذلك الذى لا يستخدمه، والانسان الحكيم هو ذلك الذى يدرسه ، ويعلنه بالطول وبالعرض ، ويطبقه على أصغر تفصيلات حياته اليومية •

واذا لم يكن قانون الكارما صحيحا ، فان الخطأ يكون خطأ ضخما الى حد فريد اذا نظرنا الى أنه ظل ينادى به كأساس لكل الحكمة المتراكمة فى العالم منذ بدأ البحث عن الحقيقة فيه ، واذا نظرنا الى أن أحدا لم يقدم الينا قانونا بديلا له لتفسير العديد من ظواهر هذه الحياة الدنيا•

ولكن هذا القانون لا يمكن فهمه الا من وجهة النظر الروحية • أما اذا نظرنا اليه بوصفه قانونا آليا للاستحقاق والمديونية ، للأعمال الطيبة والشريرة ، فاننا نجرده من كل قوته الحية • واذا كان هذا القانون ينطوى على كل شيء مرتبط بالكون فانه ينبغى النظر اليه فحسب من ناحية شاملة ، وهذه هى النظرة الروحية اليه •

ان الانسان ينتمى الى مستويات مختلفة للادراك ، هى بمثابة نوافذ تضيء له طريق الفهم الصاعد الى فوق • وكما أن حارس الفنار يقيم فى برج مشيد على صخرة عالية لكى يتطلع الى مستوى المصباح الذى يلقى ضوءا ليس موجها الى الحارس ، كذلك فان وعى الانسان عندما يتطور يكون عليه أن يتسلق من مستوى الى مستوى حتى يجد الضوء الذى بداخله ويميل اليه ، وهو ذلك الضوء الذى يشرق للأزل •

ووراء العقل ، الذى هو جهاز التفكير ، يوجد مستوى الالهام ، وملكة التأمل ، والتعرف المباشر على الحقيقة • وهذا المستوى خامد

فى غالبيتنا ، أو يعمل بطريقة خاملة فيعطى انعكاسا منخفضا ، كما تفعل الغـرائز • ومع ذلك فعلى كل انسـان آن ينمى هـذا المسـتوى من الالهام •• وهذا الالهام ينفع فى اضاءة البصيرة بشـعلات مناسبة من الفهم ، وفيما بعد فان الوعى الصاعد يبدأ فى استخدامه على مسـتواه الخاص • وكل من اختبر هـذه الشـعلات السـاطعة المنبعثة من قلب الأشياء سيعلم ، وسيعلم بعيدا عن كل شك ، أن هذا القانون حق •

ومن آن الى آخر ، فانه حتى على مسـتوى العقل عنـدما تثار الشـكوك وتعوق الفهم ، يمكن أن ينظر الى هذا القانون بوصفه فحسب فقها مؤسسا على اعتبارات معقولة جميلة ، يمكن اختبارها وهى فى حالة نشاط للتحقق من صحتها •

فالكارما اذا قانون يسود جميع القوانين الطبيعية الأخرى من قانون الجاذبية ، الى قانون « المتوسطات » • وهو ليس قانونا أعمى ، بل انه قانون حى وعاقل شأن كل شىء آخر فى الكون •

والانسان هو الذى يصنع « كارماه » لأنها نتاج أفكاره • و « كل ما نحن عليه الآن هو نتاج ما فكرنا فيه من قبل » كما ورد فى الدهامابادا Dhammapada • فهو مؤسس على كل أفكارنا ومصنوع منها ، فاذا كان الانسان يفكر بأفكار شريرة أو يتصرف بها فان الألم يتبعه ، ولكن اذا كان الانسان يتحدث بأفكار نقية أو يتصرف بها فان السعادة تتبعه كالظل الذى لا يريد أن يغادره أبدا •

وبين ارادة العمل والعمل يوجد التفكير ، أى الفكرة التى يكون العمـل هو التعبير الظاهر عنها • وبالتـالى فان السيطرة على التفكير والانفعال مقدمة ضرورية لامكان السيطرة على العمـل ، فمآل الانسان اذا يتوقف على تفكيره ••• وليس للانسان أن يشكو من القدر الذى قيد حريته ، أو أصابه بضربة ظالمة •• وهكذا فان قانون الكارما قانون موضوعى بمعنى الكلمة ، وهو دواما فى خدمة الانسان ، وليس ومضة

خاطفة من اله بار أو منتقم . ولذا فمن غير المجـدى أن يحاول الانسان أن يساومه . أو أن يستجديه ، أو أن يجادله ، أو أن يتحداه لأنه « كما يفكر الانسان كذلك يصير » .

* * *

ان الانسان يعاقب بخطاياه لا من أجل خطاياه ، لأن الكارما لا تثيب ولا تعاقب ، بل هى فحسب تعيد التناسق الضائع . ومن يتألم يستحق لا توجد « كارما » شخصية ، بل تصرفات الفرد هى تصرفات الجميع ، انسان يستحق آلامه ، بمعنى أنه قد تسبب فيها فانه لا يوجد ى مبرر لعدم الاكتراث لآلامه من جانب من هم أوفر منه حظا . فعلى الأمد البعيد لا توجد « كارما » شخصية ، بل تصرفات الفرد هى تصرفات الجميع ، وتصرفات الجميع تؤثر فى الفرد .

وهذه « الكارمات » ، التى لا حصر لها فى اتساعها المترامى ، هى الأساس وحجر الزاوية للأخوة الانسانية بوصفها حقيقة كونية . فجميع الأشياء حسنة فى جوهرها ، والألم يعمل فى خدمة ما هو حسن . وهكذا فاننا نتعلم ، ونتحرك عن طريق آلامنا المشتركة ، بخطوات بطيئة جـدا متجهين نحو تلك الحقيقة المقدسـة النـائية التى تتحرك نحوها الخليقة برمتهـا .

ومع ذلك فرغم أن كل البشر واحـد فى جوهرهم ، الا أنهم — فى نأيهم الحالى عن المعرفة — كائنات متفرقة . ورغم أن « الكارما » تعكس فى كل واحد تصرفات الآخرين الا أن الانسان المتوسط يمثل « وحـدة كارمية » ، فيعانى الخير والشر الناجمين عن تصرفاته الخاصة . وهـذه الحقيقة تقع فى الأساس من قانون الاستحقاق ، فجميع الأفعـال الطيبة تستوجب الثواب لفاعلها فى تاريخ لاحق فى هذه الحياة أو فى حياة لاحقة، والسبب يحمل نتيجته المحتومة .

ولكن الثواب والعقاب هما أحط صـور التربية كما يقول حكيم

صينى ، والعلة هى أن الدافع سيكون هو الخوف أو رغبـة المتعة التى تحققها الأفعال الطيبة • وتحديد الفكر على هذا النحو قد يخدم صاحبه كقانون أخلاقى بسيط ، لكنـه لا يجلب الاستثارة المطلوبة ، التى تدفع الى تحقيق الخير لأجل الخير ولأجل التضامن الانسانى لا لأجل الثواب أو المتعـة(١) •

* * *

ثم يقول همفريز لقد قال شوبنهور Schopenhauer ـ الفيلسوف الألمـانى ـ لو أن شخصا أسيويا سأله عن تعريف لأوروبا لأجابه أنهـا ذلك الجانب من العالم الذى يقطنه خداع لا يصدق بأن الحياة الحاضرة للانسان تمثل دخوله الأول الى الحياة !

واذا نظرنا الى العالم ككل ، فانه ينبغى أن نقلب التساؤل قائلين : من ذا الذى لا يتقبـل قانون « الكارما ـ العـودة للميلاد » وعلى أى أساس يمكن رفضه ؟ وعلى أية حال ان من نافلة القول أن نختبر الموقف الأوروبى نحو هذا الموضوع ، مع أن غالبية المؤلفات عنه تقـدم بينات عديدة مع ثراء فى التفصيلات والاحالات ، مما يبين الى أى مدى قـد انتشر الآن هـذا الاعتقـاد •

ومن جانب آخر لاحظ أوين روتر Owen Rutter أنه لا يوجـد انسان ـ فيما يبدو ـ يريد أن يتقبل فلسـفة لا تنتمى اليه ، ولا يريد بالضرورة أن يقتنع بأسانيد الحقيقة لمجرد أن الرجال الأذكياء قد اقتنعوا بها خلال عصور التاريخ • ومع ذلك اذا كانت الأسانيد لا تقنع سـوى القليل من الأشخاص فان العـديد منهم على اسـتعداد للاصـغاء الى التفسيرات ، خصوصا عندما تتصل هذه التفسيرات بالمفارقات والآلام ، التى يقدم لها هذا القانون وحده تفسيرا ملتئما مع العقل ومع الاختبار •

---

(١) تلخيص عن كتاب « الكارما والعودة للميلاد » ص ١٣ ـ ٢٩ .
Karma and Rebirth.

وفى مقـدمة كتابه عن « العودة للتجسـد » يقول أ. د. والكر E. D. Walker انه اذا اعتنق كل العالم المتحضر عقيدة العودة للتجسد فانه سيجد فيهـا اجابة شافية عن لغز سقوط الانسان ومصيره ، ولكن العالم الغربى لايزال مشغولا بالغزو المـادى للعالم ، مكتويا بنار الفلسفة المـادية ، ففقد ايمانه القـديم وانزلق الى اقليم مظلم التهبت فيه لهفته على الأشياء « العملية » .

عن « الكارما » وبنـاء الطبع

كما يعالج همفريز موضوع بناء الطبع فيقول انه فى ظل هذا القانون يمكن للانسان أن يخطط لبناء طبعه فى المسـتقبل بغير نظر الى الوقت الذى يلزمه متبعا الشعار الآتى : « ازرع فكرا احصد عملا ، وازرع عملا احصد عادة ، وازرع عادة احصد طبعا ، وازرع طبعا احصد مصيرا » ، وهكذا تجرى القاعدة القديمة التى تبدو الآن صحيحة .

فهل أنت مجهد من طبع يميل الى الكآبة ؟ ابحث عن سببه وابعـد هذا السبب . وهل أنت تبحث عن قدرة أعظم مما تملك لتركيز العقل ؟ لا يوجد انسان بمقدوره أن يحرمك منها اذا صحت عزيمتك على أن تضع خطة لتقدم الذات ، مع تنفيذ هذه الخطة . وعندما يتقبل انسان عمـل الكارما ويتفهمه جزئيا فان بمقدوره أن يبدأ فورا فى بناء طبعه ، واضعا كل حجر بحذر مدروس ، عالمـا أنه يبنى نفسه للأبدية .

ولا يوجد هنا جرى مندفع الى فوق والى تحت ، وتخبط بين خطة معينة لليوم ، وأخرى للغد ، وانتفاء كل خطة لمـا بعد الغـد . بل يوجد تخطيط مدروس بعناية لبناء الطبع ، كما يريده صاحبه ، وعندئذ تصبح الروح مهندسا ، وبنـّاء ، ولا تضيع بعد الآن لحظة واحـدة فى اتخـاذ بداءات فاشـلة .

وكل ذلك يحتـاج الى وقت ، ولكن يوجد وقت للصبر ، وكلاهما لتنفيذ العمـل برمته ، ولانتظار اللحظة الصحيحة المناسبة لكل عمـل • وهكذا يمتلىء الاناء ، بوضع المـاء فيـه نقطة بعـد أخرى ، بالخـير أو بالشر • ومن جانب آخر فثمة تناسـق فى تتابع الأحـداث ، تنبغى دراسته والافادة منه •

والأخطاء لابد منهـا ، لكن من يريد أن يتعلم عليه أن يدفع الثمن المطلوب ، وأن يتراجع عن الخطأ ، ثم يسير فى طريق الصواب • وسيتعلم من أخطائه الخاصة كيف يصبح أقل انتقـادا للآخرين ، فأولئك الذين يحتقرهم يقفون الآن فى نفس الموضـع الذى وقف فيه هـو من قبل • وعندما يصل الى القمم التى أمامه سـيرى من هم آكثر منـه تطورا من الرجال •

والأخطاء ستقع ، وسيدفع ثمنها بالقدر المناسب كما هو الشأن فى كل مقـام آخر ، لأن القيم تنتمى الى العقول لا الى الأشياء ، وبقـدر ما يتطور العقل بقدر ما تتطور عنده القيم ، ومقدرته على التقييم الحكيم • والخطيئة والألم أمران ينبغى أن يعاد النظر فى تقييمهما على الدوام ، وهذه رسالة الزمن • لأن الزمن وحده هو الذى يفصل بين أولئك الذين هم أدنى منا فى سلم التطور ، وأولئك الذين هم أعلى منا فى هذا السلم •

وهكذا ينبغى أن يكون الشأن أيضا بالنسبة للموت وللخوف ، من الموت • وعندما نبدأ فى النظر الى الجسد بوصفه رداء للروح ، وننظر الى الروح أو الذات العائدة بوصـفها هى أنفسنا ، فمن أين اذا يجىء الأسى عنـد الحاجة الى النوم ، أو عنـد الحاجة الى الراحة فى غروب النهـار ؟

والدرس الذى يحصّله الانسان جيدا لا يمكن فيما بعد أن يشتريه غاليا • وكثيرون من أولئك الذين خسروا فى غمرة الحرب كل ما يملكون

قد تعلموا من هذا الأستاذ القاسي وهو الحرب تفاهة كل ما يملكه الانسان عندما يدرك أنه لا يملك شيئا الا ما يكون عليه هو نفسه •

وطريق الوصول هو أبدا « الحل الوسط » ، أى طريق الاعتدال وتفادى التطرفات ، لأن كل نقيض يؤدى الى نقيضه ، وهو ما يقتضى القول بأن الفعل ورد الفعل متساويان ومتعارضان ••• والحل الوسط يجتاز بك ــ بين المتناقضات ــ السبيل الآمن فى رفق وفى تعقل الى حد أنه لا يصدر منك أبدا فعل نافع يعقبه رد فعل ضار ، وعندئذ فلا حاجة بالذات لأن تتألم من نتائج أفعالها ، لأن العمل الكامل لا يسبب ألما(١) •

* * *

وتكتب الملهمة القديرة السيدة آنى بيزانت Annie Beasant عن الكارما قائلة ما مفاده أنه بعد تحرر الروح من العناصر السفلى (الجسد الترابى) تذهب الى مستوى فى عالم الغيب تطلق عليه وصف ديفاشان Devachan (وهو مأخوذ من الفلسفة الهندية) حيث تمضى فترة متناسبة مع ثراء صورها العقلية mental images (وهى تتوقف على مستوى تطورها ونضجها) أو فاقة تلك الصور •

وهناك تجد الروح أثر كل جهد قامت به فى حياتها مهما قصرت مدته ، ومهما كان تافها ، وتستمد من تلك الخامات الطاقة التى تلزمها فى حيواتها المستقبلة • ففى فترة الاقامة هناك تهضم الروح نتائج الاختبارات التى جمعتها على الأرض حتى تصبح تلك الاختبارات داخلة فى نسيجها الخاص • وعن ذلك الطريق تنمو الروح ، ونموها يتوقف على عدد من الصور العقلية التى كونتها خلال حياتها على الأرض ، التى تحولها الى نماذجها الخاصة بها ، والأكثر دواما مما كانت فيما مضى •

وعن طريق هذا التحول لا تعد تلك الصور مجرد صور عقلية ، بل تصبح طاقات للروح ، وجزءا من طبيعتها الخاصة وعندئذ اذا أراد أحد

---

(١) عن المرجع السابق ص ٦٢ ــ ٧٢ •

الأشخاص أن يحوز ملكات عقلية أسمى من تلك التى يحوزها حاليا ، فبمقدوره تنميتها عن طريق تصميم الارادة على ذلك ، واضعا نصب عينيه على الدوام حيازة هذه الملكات ، لأن ما يعد مجرد رغبة أو محض تطلع فى حياة ، قد تصبح ملكة حقيقية فى حياة أخرى ، والرغبة فى الانجاز تصبح هى القدرة على التحقيق •

ولكن ينبغى أن يتذكر الانسان أن الملكة التى حصل عليها تكون مقيدة تماما بالمادة الخام التى أعدها لها ، لأنه لا يمكن بناء شىء من لاشىء • واذا فشلت الروح على الأرض فى استخدام طاقاتها فى زرع حبوب الرغبة والتطلع ، فانها فى عالمها الآخر لن تكون فى مركز عال •

والصور العقلية التى تتردد على الدوام فى ذهن صاحبها تنتمى الى الطاقات الضعيفة التى تسمح بها الروح أكثر مما تنتمى الى تطلعات طبعها ، أو رغباتها التى ترغب فى تحقيقها • ومن هنا تبرز أهمية عدم ترك العقل هائما بلا هدف فى وسط الأشياء التافهة ، التى نصنع صورا عقلية خاملة ومضللة ، وتسمح لها بالاقامة فى العقل • فان تلك الصور ستظل لصيقة بالعقل ، صانعة قنوات لطاقات عقلية رديئة ستحوم فى المستويات المنحطة ، وفى كهوفها المألوفة •

والارادة أو الرغبة فى انجاز عمل معين عندما تثمر عن طريق الرغبة فى الفرصة لا الرغبة فى القدرة ، أو عن طريق تذليل العقبات التى تحول دون التحقيق ، ستسبب صورا عقلية ستكون نشطة فى حياة ما بعد الموت اذا ما كانت متصلة بنشاط من طبيعة سامية ونقية ، وستتحول الى أعمال عند العودة الى الأرض •

فاذا كانت الصور العقلية مشيدة على رغبة انجاز أعمال نافعة ، فانها ستكون سببا فى يقظة الانجاز العقلى لتلك الأعمال فى حياة ما بعد الموت • وهذا الانجاز ــ الذى هو انعكاس للصورة ذاتها ــ سيترك فى الذات أثره بوصفه صورة عقلية لنشاط سيسقط جانبا على المستوى

الفيزيقى (الأرضى) بوصفه نشاطا فيزيقيا الى أن تحين اللحظة المناسبة لبلورة هذا الفكر فى صورة عمل • والنشاط الفيزيقى لا مفر منه عندما تكون الصورة العقلية قد تم تحقيقها بوصفها عملا على مستوى الديفاشان (ما وراء المــادى) •

ونفس القانون ينطبق على الصور العقلية عنــدما تكون قائمة على رغبات منحطة • وصور كتلك الصور ــ رغم أنها لا تمر أبدا الى مستوى « الديفاشان » ــ لكنها عرضة لنفس الموكب الذى سبق بيــانه ، ولأن تستعاد من جديد فى طريق العودة الى الأرض •

فالكارما السببية Causative Karma قانون كامل ، والنشــاط الفيزيقى يصبح نتيجته التى لا مفر منها ، عندما يصل الى المستوى الذى يسمح بتكرار جــديد للصور التى تعنى الانتقال الى مرحلة التنفيذ • ولا ينبغى أن ننسى أن تكرار عمل معين من شــأنه أن يجعل هذا العمل آليا ، وهذا القانون يعمل على المستويات الأخرى غير المستوى الفيزيقى • ومن ثم فان التكرار المنتظم لعمل ما على المستوى الروحى سيجعل هذا العمل آليا ، وعندما تحين الفرصــة على المستوى الفيزيقى فان صاحبه سيعيد تكراره آليا على هذا المستوى •

وكم يقال عادة بعد ارتكاب جريمة معينة « لقد وقعت قبل أن أفكر فيها » ، أو « لو كنت قد فكرت فيها لمــا ارتكبتها أبدا » ؟ والقائل على حق تماما فى زعمه بأنه لم يكن عندئذ مدفوعا بفكرة مدروسة • وبطبيعة الحال هو يجهــل الأفكار الســابقة ، وتسلسل الأسباب التى أدت الى النتيجة المحتومة •

فالصور العقلية المخزونة فى الذاكرة ، شأنها شأن الاختبارات التى مرت بها الروح فى حياتها الأرضية ، وشأن التسجيل الدقيق للعمل الذى بنى عليها فى العالم الخارجى ، ينبغى أن تؤثر فى نشاط الروح • وبدراسة ذلك ، وبالتأمل فيه تتعلم الروح كيف تنظر الى الروابط القائمة ، والى

قيمتها بالنسبة لأعمال العقل الكونى العام الذى تكشف فى الطبيعة • وفى الجملة فان الروح تستخرج منها ـــ بالتفكير المثابر فيها ـــ جميع الدروس التى عليها أن تتعلمها •

ومنها دروس اللذة والألم ، أو اللذة التى تغذى الألم ، والألم الذى يغـــذى اللذة • ودروس وجود نواميس لا تخرق ينبغى على الروح أن تتعلم كيف تتكيف معها • ودروس النجاح والفشل ، والانجاز والخيبة ، والمخاوف التى يبين أنها على غير أساس ، والآمال التى يعوزها التحقيق• ودروس القوة عندما تنهار أمام الاختبار ، والمعرفة الموهومة التى تؤذى نفسها كالجهالة ســـواء بســـواء • ودروس التحمل الصبور عندما يحمى النصر من الهزيمة الوهمية ، والصبر عندما يهزم النصر الموهوم •

والروح تمر بكل ذلك ، وبقدراتها السحرية تحول كل هذا النسيج من الخبرات الى درة من الحكمة ، فتعود بذلك الى الأرض كروح أحكم مما كانت ، وأقـــدر على تحمل أحداث حياتها الجـــديدة بثقل اختبارات حياتها القديمة ، وهنا أيضا تكون الصور العقلية قد تحولت ، ولا تكون بعد مجرد صور عقلية ، وان كان يمكن فحسب استخراجها فى شـــكلها القديم من سجلاتها الكارمية •

ومن الصور العقلية للاختبارات ، وبوجه خاص من تلك التى عانى منها الانسان بسبب جهله « بالقانون » يولد الضـــمير وينمو • فالروح خلال حيواتها الأرضية المتتابعة ، تقودها الرغبة نحو شىء جذاب ، وفى متابعتها له تصـــطدم « بالقانون » فتســـقط متألمة دامية • واختبـــارات متعددة كهذه تعلمها أن اشـــباع الرغبات ضـــد « القانون » يزرع بذور الألم • وعندما تحاول الروح فى حياة جديدة اشـــباع نفس الرغبات عن طريق جسد الرغبة ، فان ذاكرة الاختبارات الســـابقة تتحرك بوصـــفها ضميرا ، وتصرخ عاليا بأن ذلك محظور •

والروح تقف على عتبة ما وراء المـادة فى المستوى الذى أطلقت عليه « مستوى العودة للتجسد » حاملة معها نتيجة عملهـا سواء أكان هـذا العمل صـغيرا أم كبيرا . وعلى ذلك كله تتوقف سرعة تطورها ونمـو ملكاتها ، وشكل جسدها الأثيرى والهالة التى تنتمى اليها بوصفها فردا ، والتى تتفاوت فى مدى مجدها ، وسطوع أضوائها ، واتساعها ، بحسب مرحلة التطور الذى وصلت اليه الروح(١) .

* * *

ولذا يقول المقتنعون بصحة عقيدة العودة للتجسد أن فى الاحساس بقانون الكارما هذا ـــ اذا ما رسخ فى النفس رسوخا كافيا ـــ ما قد يحقق وظيفة الردع العام التى يسمى رجال القانون واللاهوت الى تحقيقها عن طريق العقاب ، كما أن فى صرامة هـذا الناموس الطبيعى ما قد يحقق بصورة فعالة هادفة وظيفـة الردع الخاص ، أى تقويم اعوجاج النفس أيضـا .

ويقولون ان هـذا الاحساس اذا ما رسخ فى النفس رسـوخا تاما قد يكون أعمق أثرا فى تحقيق الوظيفتين معا من مجرد التلويح للنـاس بنار أبدية يصعب اقناعهم من الناحية العاطفية والمنطقية بوجودها الحقيقى مع احساسهم بأن من يعرف ظروف الناس يغفر الكثير من زلاتهم.وبأن الله رحيم وعادل ، ولا يتصـور أن يستخدم مع خليقتـه أسـلوب التعذيب الأزلى ، أو الانتقام الرهيب بالنيران الذى قـد يتجاوز بمراحل كثيرة ما يسمح به قلب الأب البار الرحيم نحو أبنـائه مهما كان مدى عقوقهم للنواميس الأخلاقية .

وأية كانت خطيئة الابن فى مدى جسامتها ، فان قلب الأب فى النهاية هيهات أن يتحجر ، أو أن يقسو الى حد النيران الأبدية الحقيقية المـادية التى لا تطفأ . والتى هى ـــ فى نظر بعض الروحيين ـــ مجرد كناية عن

(١) عن مؤلف لها عنوانه « كارما » Karma ص ٣٥ ـــ ٤٣ .

عذاب الضـمير ، والتطهير الأبدى عن طريق الآلام المتجددة فى ظروف متجددة قد يكون فيها من القسوة ما يكفى للردع وللتقويم ، مثل الولادة على الأرض فى فاقة كاملة ، أو فى تشويه خلقى ، أو فى داء عياء كالشلل ، أو العمى ، أو الجـذام ... وذلك حتى تسدد الروح ديونهـا بالألم ، وتستحق عن طريق تطورها العقـلى والخلقى البطىء ـ وهما متلازمان ولو الى حد ما ـ مكانا أسمى فى عالم المـادة والروح .

وهكذا يرى أصـحاب هـذا النظر أن العقوبة المحققـة التوقيع ـ ولو كانت خفيفة فى نظر البعض ـ أجدى فى تحقيق وظيفة الردع العام وفى تقويم الاعوجاج من التلويح بالعقوبة الشـديدة اذا لم تكن محققة التوقيع ، وهو المبدأ الذى فطن اليه عدد من أبرز الفلاسفة مثل منتسكيو، وروسـو ، وبكاريا ، وغيرهم ، وعليه تقوم سياسـة الشرائع العقـابية المتحضرة كلها ، ناهيك بجميع المدارس المعاصرة .

كما يرى أصحاب هذا الاعتقاد أن الجنـة بمفهوم السعادة الأبدية لا يستحقها أشـد الناس على الأرض طهارة ، لأنه لا توجد نفس بشرية عادية عاشت على الأرض ـ مهما كان سموها ـ لم تتلوث بأوزار الخطيئة على نحو أو آخر ، والى مدى أو آخر . كما أن النار بمفهوم الاحتراق الأبدى لا يستحقها أشـد الناس على الأرض اثما وفسادا ، لأنه لا توجد نفس عاشت على الأرض ـ مهما كان انحطاطها وتدهورها ـ خلت تماما من جانب أوآخر منجوانب البر والخير ، ولوبالأقربين ، ولو بدافع ماحتى ولو كان هذا الدافع أنانيا فى النهاية .

ثم ان من بديهيات الفلسـفة أيضا أن عقاب الخطيئة لا يصح أن يستمر الا بمقدار استمرار الخطيئة ، لأن العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما ، فلماذا يسـتمر العقاب الى الأبد اذا كانت الخطيئة قد انمحت بفعل التوبة ، أو الصلاح الحقيقى ، أو الألم ، أو الغفران ، أو بفعل ذلك كله مجتمعا معا ؟ !

واذا قيل — جدلا — ان التعذيب يصح أن يحيق بالانسان اذا اتخذ موقفا خاطئا من الايمان ، فهو لا يصـح منطقيا اذا تغير هـذا الموقف الخاطئ بالتحول مثلا من الالحاد الى الايمان ، أو من الشك إلى اليقين أو من الجهالة الى المعرفة ، أو من المكابرة الى الاقتناع .

ولذا فان عددا كبيرا من الفلاسفة والمفكرين يرى فى العودة للتجسد اجابات شافية عن تساؤلات هامة كثيرة من الطبيعى أن يثيرها كل عقل ناضج يبحث عن مصـادر الاقتناع المترابط المنطقى حيثما وجدت . أو بعبارة أخرى يرى هـذا النفر فيها اجابات منطقية — بعيدة عن الغلو أو التطرف — عن تساؤلات مشروعة من حق كل عقل مفكر أن يثيرها ، أو بالأدق من واجبه أن يثيرها اذا اختار لنفسه عن طريق البحث عن المعرفة المنطقية المترابطة .

كما يرى فيها هذا النفر ناموسا طبيعيا للأخلاق ، ولمبدأ « الجزاء من جنس العمـل » وهـو من أقـوى النواميس تأثيرا فى الروح ، اذا ما رسخ لديها اليقين بأن ناموس الحياة — كما بدعه الاله — لا يترك لنا « شاردة ولا واردة الا أحصاها » . وهذه كلها مبادئ حكيمة تلتئم تماما مع قانون « الكارما » أى سداد ديون المـاضى السحيق على نحو أو آخر مهما طال الأمد على هـذه الديون ، ناهيك بنـاموس التطور والارتقاء الروحى (١) .

« الكارما » والنضج الروحى

والعودة للتجسد على هذا الوضع تكون لازمة للتخلص تدريجيا من الرذائل وللتحلى تدريجيـا بالفضائل ، ولا يكون ذلك بالمعرفة النظرية لمـاهية الرذيلة وماهية الفضـيلة لأن المعرفة النظرية لا تغنى فتيـلا ، بل يكون عن طريق الممارسة العملية الطويلة المتكررة . وشأن ممارسة الرذيلة والفضيلة فى ذلك شأن ممارسة أى عمل أو فن .

---

(١) راجع أيضا ما سبق عن هذا الموضوع فى صفحة ٩٢٦ — ٩٣٩ .

فالانســان لا يصبح جراحا مثلا من قراءة كتاب أو مائة كتاب فى الجراحة ، بل لابد له من أن يقوم بالاختبار بنفسه مرارا وتكرارا حتى يصح أن تصفه « بالجراح » • ومن المحتمل جدا أن يخطىء وأن ينجح ، وأن يكون سببا فى اصابة غيره أو فى خدمتهم ، ولكن الممارســة العملية أمر لا مفر منه فى النهاية •

وهنا فى نطاق أمور الرذيلة والفضيلة لا بد أن تتعدد صور الممارسة ومراجلها بتعدد الرذائل والفضائل تعددا لا حدود له ، ناهيك بتعــدد المواهب والملكات ، واتجاه هذا كله ـ بحسب قانون الســببية ـ الى الاتجاه الصحيح أو الخاطىء • ناهيك باحتمال تحول الميول من نطــاق الى آخر ، وتنوعها ، وتعددها ، واتصالها العميق بأوثق رغبات الانسان ، وعواطفه ، وغرائزه ، ومثله العليا الصادقة والزائفة •

فمثلا بحسب النواميس الروحية التى أمكن التثبت منهــا يعد حب التسلط رذيلة كبرى ، أما حب الخدمة فهو فضــيلة كبرى ، بل هو أب الفضائل كلهــا لأنه لا ينبع الا عن نفس عطوفة وديعة قد امتلأت حبــا للآخرين • فاذا فرضــنا أن شخصا مثــل نابليون بونابرت يحوز عبقرية لا ريب فيهــا فى ميدان القتال واستعباد الشــعوب ، فانه ينبغى بحسب ناموس التطور الروحى ، وهو ملازم للتطور العضوى ، أن تتحول هذه العبقرية تدريجيا من حب التسلط الى حب الخدمة ، لمصلحة صاحبها ، ولمصلحة الانسانية بأسرها •

وهــذا التحول لا يجىء بغتــة ، أو نتيجة لمجرد الاقتنــاع النظرى بضرورة التحول وذلك لتحقيق التطور نحو الأرقى والأحسن ، وهو الهدف الأسمى من الحيــاة • بل يجىء التحول بطيئا نتيجة ممارسات عمليــة مضنية فى تجسدات متنوعة قد يكون أغلبها متواضعا ، ومصحوبا بآلام متلاحقة من المهد الى الحد حتى تكتسب الذات الخــالدة قدرة التفكير للآخرين بعد الاغراق فى التفكير فى الذات وللذات•وحتى تمارس بنفسها

الاحساس بالألم والحرمان من الحرية وهما من مستلزمات القتال ، والتسلط ، ومحاولة استعباد الآخرين التى يكابد منها الضحايا ويجنى ثمرتها البغاة الطغاة من أمثال نابليون ، وغليوم ، وهتلر ، وستالين ...

وهكذا يظهر تماما كيف أن الانسان الذى يمضى أيامه فى حياة بسيطة متواضعة فى خدمة تطوره الروحى نحو المحبة والوداعة أفضل بكثير فى نواميس الحياة الراقية - من ذلك الذى قد يقيم « مجدا » زائفا - ويقال عنه أحيانا مجدا خالدا - روته دماء الضحايا وأشلاؤهم . وكم من جندى أفضل من قائده ، وكم من تابع أنبل من متبوعه ، وكم من فقير أفضل من سيد زمانه ، رغم عريه وجوعه ، ودموعه وحرمانه .

وهكذا تتحول مثل هذه الذات على الأمد البعيد من لهفة القتال الى اللهفة الى الأدب ، أو الفن ، أو العلم ، أو الطب ، أو النضال السلمى لأجل مبدأ رفيع ، أو غاية نبيلة بدافع من حب الخدمة وحده ، وهذا هو المجد الحقيقى الوحيد الذى يعرفه ناموس التطور الروحى . وهكذا تشترى مثل هذه الذات ماضيها ، وتتحول من الاتجاه الخاطىء فى التطور الى الايحاء الصائب فيه . ومن اعتناق مفاهيم خاطئة عن المجد ، وعن الوطنية ، وعن الكرامة ، الى اعتناق مفاهيم صائبة عن المجد ، وعن الوطنية ، وعن الكرامة . مفاهيم جديدة لحمتها المحبة وسداها التواضع ، بعد مفاهيم مضللة لحمتها الأنانية وسداها الغرور .

وقل مثل ذلك عن موقف الذات من سائر مفاهيم الحياة ، بما فيها مفاهيم الايمان ، والأخلاق ، والاجتماع ، والفلسفة ... فموقف الذات من هذه المفاهيم كلها عرضة للتطور البطىء . أو بالأدق هو ينبغى أن يتطور دواما فى الاتجاه الصحيح ما دام هناك خلود للذات . وما دام هناك تطور نحو الأرقى والأحسن ، أى نحو الأصلح روحيا ناهيك بما هو أصلح عضويا وجثمانيا .

وهذه الصلاحية ليست سوى صدى لنشاط نواميس طبيعية تعمل بلا توقف من خارج الذات ومن داخلها ، ومن واجب الذات الاتساق ، أو بالأدق محاولة الاتساق معها على قدر طاقتها وبحسب درجة تطورها . وهى نواميس تعمل جنبا الى جنب مع نواميس المادة والطاقة ، مثل نواميس الحرارة ، والجاذبية ، والنمو، والتحول، والحركة ، والاهتزاز.. وكلها لازمة لوجود الحياة ، ولنموها ، ولتطورها نحو الأرقى والأحسن.

وكما عرفت حركة التطور — على المدى البعيد جدا — كيف تصقل فى الذات الانسانية انفعالات غرائز الجنس ، والاجتماع ، والاقتناء ، والسيطرة ، وحب البقاء ... فى وسط نضال مر ، عنيف ، طويل ، سببه جهل الانسان بنفسه وبحقيقة أهدافه فى الحياة ، أو بالأدق بحقيقة أهداف الحياة فيه ، فانها ستعرف مع الوقت كيف تصقل أيضا انفعالات غريزة الاحساس بالمجهول ، ولعلها آصعبها كلها صقلا ، لأنها تبدو دائما معصومة ليست بحاجة للصقل . ولأنها — فيما يبدو — أكثرها ضراوة ، وأوثقها اتصالا بأعمق خلجات النفس(١) .

وعندما يتم صقل جميع الانفعالات عن طريق المرور بأكبر قدر ممكن من الاختبارات المثمرة المفيدة فسيعرف الانسان نفسه ، وسيكون قد وضع قدميه فى طريق الحكمة التى هى أثمن شىء فى الوجود . والحكمة لا تعرف حدودا بل هى فى نمو مطرد متزايد ، وعندما يبلغ لدى صاحبها مستوى رفيعا فهو يصبح كائنا رفيعا ، وقد يصل برفعته الى حد التحرر النهائى من قيود الزمان والمكان ، واختباراتها المريرة . وعند هذا الحد لا تعود به حاجة للعودة للتجسد الأرضى ، لأن هذا التجسد هو عبارة عن ارتداء هذه القيود بعينها ، والاكتواء بنارها .

وبعبارة أخرى لا يصبح هذا الانسان فيما بعد نابوليون ، أو هو غليوم ، أو هتلر ، أو ستالين ، أو اضرابهم ... بل يصبح محض كائن

---

(١) راجع ما سبق عن الاحساس بالمجهول فى الجزء الاول صفحة ٤٦٩ — ٤٨٦ .

حكيم له رسالة أرفع بمراحل كثيرة من رسالات كل هؤلاء الطغاة الغاة . وهى رسالة مجيدة بالمعنى الروحى الصحيح لا بالمعنى الأرضى الزائف، لأنها هى بعينها رسالة الخدمة فى محبة ، وفى تواضع ، وقبل كل شىء فى حكمة.

ومن يحصل على الحكمة يحصل فى نفس الوقت على السعادة ، لأن الحكمة — كما قال أرسطو — هى طريق السعادة ، وهى أسمى الفضائل كلها لأنها عبارة عن رد فعل أمين يقوم به العقل عن عمل لا يستهدف تحقيق أية مصلحة عملية أو مادية . ولذا « فان اللذة زائلة . والأمجاد عابرة ، والثروة عرضة للضياع ، والسمعة تتوقف على حكم الآخرين ، لكن الحكمة هى وحدها الفضيلة الباقية الكاملة التى ترقى بالوجود الانسانى » . ولعله لنفس هذه الاعتبارات قال برجسون أن الكون المادى آلة لصنع آلهة ، أى لصنع كائنات عاقلة حكيمة جديرة بمجد الخلود ، متحررة من آلام الرذيلة وأهوالها التى تصيب صاحبها كما تصيب الآخرين أيضا بحكم ناموس مسلم بصحته من التضامن الاجتماعى .

ولذا فان لعقيدة العودة للتجسد غير ما تقدم مزية ضخمة ، وهى تخفيف حدة الفواصل الصناعية التى قد تفصل بين شتى الأجناس والأديان والألوان . فبحسب هذه النظرية قد يتعاقب الشخص الواحد على التجسد فى أجناس مختلفة ، وفى أديان متنوعة ، وفى ذلك وحدة ما يدعوه حتما الى أن ينظر بعين الوداعة والتسامح الى باقى الأجناس والأديان الأخرى ، اذ من الجائز أنه كان بين أتباعها يوما ما ، أو أنه سيكون يوما ما من هؤلاء الأتباع ، فى تجسد لاحق عندما تشاء ذلك مشيئة الله . فعوم هذا الاعتداد المفرط بالانتماء الى جنس دون آخر ، أو الى دين دون غيره فى مرحلة التجسد الحالى ؟ ! ! .....

وفى كل تجسد جديد من المفروض أن يكتسب الانسان خبرة جديدة وخلقا متزايدا ، ولعل ذلك يعطى تفسيرا مقبولا لحكمة بارىء هذا الكون التى سمحت بتعدد الأجناس ، والألوان ، والأكوان ، والأديان .

على النحو المعروف وذلك لزيادة فرص التعلم والاختبار ، ولتحقيق رسالة التطور ، ومعها رسالة الحب والتعاطف .

بل انه قد يكون من آثار الاعتقاد بالعودة للتجسد تخفيف حدة التعصب حتى بين الذكور والاناث : فهى بما قد تسمح به من احتمال التجسد مرة فى الذكورة وأخرى فى الأنوثة ، تحمل الانسان خصوصا الرجل على ألا يحتقر الجنس الضعيف لمجرد ضعفه ! .. ان الفروق بين الجنسين — اذا ما استبعدنا ما يسند منها الى طبيعة الجنس Sexe الذى ينتمى اليه الانسان — ليست قوية ، بل ضئيلة عند من تعودوا أن يتعمقوا فى بحث انفعالات الروح ، ودوافعها ، وغرائزها بعيدا عن الارتباط بجسد من نوع معين .

فبين الشقيق وشقيقته ، أو الأم وابنها ، نجد أحيانا من وجوه التشابه فى الشكل وفى الوعى ما قد يسترعى الأنظار ويحير الألباب ، وما قد لا تجده بين شقيقين كليهما من الذكور ! ثم ان الجنسين معا ميلا للتقارب أشار اليه فيكتور هيجو عندما لاحظ أن أول أعراض الحب الصادق فى الرجل هو الخجل ، وفى الفتاة الجرأة .. فللجنسين ميل غريزى للتقارب ، وكل منهما قد يتخذ صفات الآخر(١) .

ولا ريب أن لهذا كله اتصال وثيق بحيازة الانسان قدرا من حرية الارادة يلزم أن يستخدمه — مهما كان هذا القدر ضئيلا — فى الاتجاه الصحيح . وفى هذا الشأن يلاحظ الفيلسوف الروحى آلان كاردك أن الانسان يتمتع على الأرض بملكة حرية الاختيار ، ولا يمكن على الاطلاق أن يكون خاضعا للقدرية المطلقة ، والا فلا يمكن أن يتحمل أية مسئولية خلقية . وبالتالى فان التجسدات المتتابعة من أهدافها أن تسمح للأرواح أن تتكامل من الناحية الخلقية .

فالروح خلقها الله بسيطة وجاهلة ، أى ليست طيبة ولا شريرة لكنها قادرة بفضل حريتها فى الاختيار على أن تسلك طريق الخير أو طريق

(١) راجع ما سبق عن هذا الموضوع فى صفحة ١١٣٧ — ١١٤٥ .

الشر • وبعبارة أخرى قادرة على أن تطيع النواميس الالهية أو أن تعصاها • ومن ثم فالانسان يولد خيرا أو شريرا حسبما هو تجسد لروح متقدمة أو لروح متخلفة •••

والأرض يمكن اعتبارها عالما للتربية بالنسبة للأرواح المتقدمة قليلا ، وعالما للتكفير بالنسبة للأرواح الآثمة • وبالتالى فان التحديد القاطع الذى لا ينقض لمصير الانسان بعد الموت يصبح بمثابة نفى قاطع لعدل الله ولرحمته ، اذ يوجد كثيرون من البشر لم يتمكنوا من الاستنارة الكافية • ناهيك بأرباب الغفلة ، والعته ، والمتوحشين ، والأطفال الذين لا يحصون ، والذين يموتون بمجرد الولادة •

وحتى بين الأشخاص المستنيرين يوجد كثيرون يعتقدون بأنهم كاملون لمجرد أنهم يريدون الافلات من التقدم • ولذا فان العودة للتجسد ينبغى أن تعد دليلا واضحا على أن الله بطبيعته يمنح للانسان أن يستكمل فى غده مالم يستكمله فى أمسه •

واذا كان مصير الانسان محددا بطريقة قاطعة بعد الموت فلماذا يموت الناس فى أعمار متفاوتة الى هذا المدى ؟ ولماذا لا يترك الله للجميع فرصا أطول لفعل كل الخير الممكن ، أو لاصلاح كل الشر الذى فعلوه ؟

ومن يدرى ما اذا كان المجرم الذى يموت فى الثلاثين من عمره ، لا يندم ويتحول الى انسان طيب اذا امتد به الأجل الى الستين من عمره ؟ ولماذا يسلبه الله وسيلة الندم (وهى العمر الطويل) اذا كان يمنحها للآخرين ؟ ان مجرد تفاوت طول الأعمار ، مع تفاوت المستوى الأدبى للأغلبية الساحقة للناس يثبت استحالة تحديد مصير الانسان مقدما وبطريقة قاطعة بعد الموت ، لو كان الانسان يؤمن حقا بالله عادل وحكيم •

وقد تعرضت لذلك تفصيلا فى البابين السابقين عندما عالجت موضوع العودة للتجسد هذا من زواياه العقيدية والعلمية • ولا ريب أن القارىء

قد لمس قوة أسانيد هذه العقيدة التي أسيء فهمها في الماضي عندما كانت تنتمي الى مجرد الفلسفة ، أو الى محض الارتجال أو التصور . وعندما أخذت أساليب العلم الوضعي تصوب أضواءها اليها بدأت هذه العقيدة تتخلص تدريجيا من جوانبها الأسطورية ، وتصمد — من ناحية المبدأ — أمام الاعتراضات المتعجلة أو المرتجلة التي كانت تثار في وجهها.

وهكذا أخذت عقيدة العودة للتجسد في عصرنا الحاضر تسترد اعتبارها في البيئات المعنية بدراسة الانسان ، دراسة معملية متحررة من شأنها أن تساعد على كشف بعض ألغاز هذا الانسان ، وتفهم بعض أسراره . وهي لا تترك أي مجال لتلك المناقشات النظرية العقيمة مادام الاحتكام في النهاية هو لأسلوب التحقيقات المعملية ، مع توسيع رقعة البحث ، ثم تحليل ما قد تتكشف عنه من نتائج في نهج موضوعي ، طابعه النقد ، والحذر ، والحياد .

وتنبغي الاشارة هنا الى أن بحوث آلان كاردك وتحقيقاته في الاتصالات الروحية جاءت بالعديد من البينات المترابطة عن موضوع العودة للتجسد هذا.وهي بينات لها وزنها أيضا من ناحية مكانة الأشخاص الذين قاموا بجمعها ، والأسلوب الموضوعي الذي اتبعوه . وهم قبل كل اعتبار آخر لم يكونوا ذوي ارتباط مسبق بها ، بل بالعكس لقد كانوا رافضين لها من قبل،بما فيهم آلان كاردك الذي أشرف على تجميعها ، ثم طولب بنشرها ففعل ذلك (١) .

وهذه البينات التي تكشفت عنها تحقيقات آلان كاردك الروحية ينبغي أن تضاف الى باقي الأدلة والشواهد التي جاءت عن طريق أساليب التحقيق الأخرى ، والتي قدمنا جانبا منها لا يستهان به في هذه الأبواب الثلاثة الأخيرة ، وذلك للقربى الواضحة معها ، وللترابط الملموس بين هذه وتلك في الأساليب ، وفي النتائج ، من الزاويتين العلمية والفلسفية .

(١) راجع عدة نماذج منها في « مفصل الانسان روح لا جسد » جـ ٣ صفحة ٩٥٠ — ٩٧٢ .

وتلزم الاشارة هنا الى أن مبادىء الثواب والعقاب التى أشار اليها كل علماء الروح هى نتائج محتومة لمقدمات طبيعية ، تحدث طبقا لرابطة العلة بالمعلول ، وهى الرابطة الفلسفية التى تربط كل نتيجة بأسبابها فى نطاق أى علم من العلوم ، وذلك من تلقاء نفسها وبغير ما حاجة الى ارادة انسان معين كيما يتولى تطبيقها بأساليب مادية .

فدراسة مبادىء ثواب الروح وعقابها تكون على هذا الوضع جزءا لا يتجزأ من دراسة قوانين الطبيعة ، وهى بحث طبيعى بحسب أصله . ولو أن هذه الدراسة تكون قد انتقلت بنا الى ما وراء الطبيعة Métaphysique مع فارق هام ، وهو أنها فى نطاق البحث فى الروح دراسة مستمدة من بحوث معملية لا من نظريات لاهوتية على طريقة أرسطو ، وهو مؤسس علم ما وراء الطبيعة على أسس فلسفية جعلت منه نوعا من اللاهوت . وهذا هو الاعتبار الذى دفع العالم الألزاسى شارل هنرى Ch. Henry الى أن يقرر منذ أكثر من نصف قرن أنه اذا كانت دراسة الروح قد اعتبرت فيما مضى جزءا مما وراء الطبيعة فانها ستعتبر فى المستقبل جزءا من علم الأحياء .

وأساس الناموس الخلقى عند آلان كاردك هو أن جميع الأرواح خلقت فى البدء متساوية ، وعلى درجة واحدة من الجهل والبساطة كما قلت ، وأنها أعطيت حرية الاختيار ، كما فرض عليها منذ البدء أن تتطور كلها طبقا لقانون التطور والارتقاء ، خلال حيوات عدة متصلة ومتعاقبة هنا وهناك ، حتى تستكمل سعادتها باستكمال أسباب رقيها العقلى والخلقى . وبقدر نموها فى المعرفة وفى الفضيلة بقدر ما تنمو ارادتها وبالتالى حريتها فى الاختيار ، وهو ما عنى أيضا بشرحه فى مؤلفه الآخر وهو « كتاب الأرواح » فى ضوء ما تلقاه من بيانات فى هذا المعنى من أرواح راقية كثيرة .

((الكارما)) والمحبة

والفضائل التى تتطلبها الفلسفة الروحية فى الانسان ، حتى يستكمل أسباب سعادته ، تكاد تنحصر اجمالا فى فضيلة المحبة وشقيقها التواضع ، حين تنبع الرذائل عن الأنانية وشقيقها الغرور ، لذا فانهما يمثلان مجتمعين العدو الأول للانسان والمسئول الأوحد عن تعاسته حيثما وجد .

وقد اتفق الباحثون فى الأرواح على أن المحبة ليست مجرد عاطفة موقوتة بظروفها ، بل هى طاقة حقيقية من شـأنها أن تؤثر فى اهتزاز الجسد الأثيرى فترفع منه وتحافظ على تناسقه ، وتعطى الاشعاعات التى تنبعث منه جمالا خاصا ، وتجعله بالتالى جديرا بعوالم أرقى طبقا لقانون التوافق ، وهو القانون الطبيعى الذى يحدد للجسد الأثيرى مكانه بعد تخلصه من مقابله المـادى(١) . وهذا الرأى أصبح شائعـا ، بل مجمعا عليه فى الفقه الروحى .. أليس الله محبة ؟

* * *

ويتعين على الانسان حتى يحصل على قدر من المحبة ولو ضئيل أن يحاول — بحسب أقوال ب. ماندوس **B. Mandus** — أن يرى نفسـه كما يراه الآخرون ((فأنت بمقدورك أن تتيقن تماما أن الأشخاص الذين تعيش معهم ، وتعمل معهم ، وتصادقهم ، وتقابلهم عندهم صورة عكسية تماما لمـا تعتقـده عن شخصيتك . فانهم يلمسون مزاياك كما يلمسون مساوءك ، كما تلمس أنت نفس الخصائص عند الآخرين .

وبذلك تحصل على يقظة سريعة لخصالك ، وعلى فكرة أوضـح من غيرها عن عيوبك ومزاياك ، وتكون بالتالى أقدر على الاستزادة من التعبير عن قدراتك الايجابية ، مع بدء التغلب على ضعفاتك .

---

(١) راجـع ما سبق بهـذا الشأن فى الجزء الاول من هـذا الكتاب صفحة ٢٣٧ — ٣٣٦ .

ولدى كل انسان يوجد دافع غريزى يدفعه الى التطلع الى طريقة سعيدة ، وايجابية ، وخلاقة فى الحياة • ويفشل الملايين منا فى الوصول الى هذا الهدف لأننا لا تتفهم مغزى الحياة الأعمق من غيره ، والوظائف الحقيقية الهـادفة لعقولنا ، ولا الحاجة لأن نطيع النواميس الروحية — العقلية ، وهى أساسية لتحقيق خيرنا الأسمى الخلاق ••••

فليس بمقدورنا أن نحيا بالخبز وحده ، لأنه مالم يتلق العقل أيضا غذاءه ، ودوافعه عن طريق الرؤية الروحية ، فاننا نضـع بداخلنا طاقات مدمرة ، وثورات تنفجر عن المرض ، والفشل ، والشقاء •

وثمة حقيقة هامة لهـا مغزاها ، هى أن المشكلات الأساسية للفرد وللعالم ، فى أساسهـا مشكلات روحية • حتى كوارث الحروب الدامية انما هى تعبير عن الكراهيـة ، أى عن خرق قانون الحب • فالحرب قبل أن تكون مشـكلة سياسية أو حربية هى فى جـذرها مشـكلة محض روحيـة •

والحب هو أعظم قانون للحياة • وهو يحتوى على سر كل وجه من أوجه الشخصية • وعلى الانجاز التام لكل شىء تحاول أبدا أن تصنعه فى منزلك ، أو فى جدك أو فى لهـوك ، أو فى تخطيطك للمستقبل • وهو الطاقة المركزية الأعظم من غيرها بداخل الوعى ، والطاقة الحقيقية للتفكير عندما تكون ديناميكية ، وايجابية ، وخلاقة •

ولكن كيف بالمقدور تعريف طاقة الحب ؟ لقـد حاول الفلاسـفة والقادة الروحيون ، والشعراء ، والمفكرون الآخرون أن يعبروا عن فضائلها ذات المغزى وأن يتفهموها • لكنها غير محـدودة فى وجودها ، وتعصى تماما على التعريف ، لأنها رغم أنها غير مادية الا أنها قادرة على كل شىء ، وغامضـة وغلابة • وعندما تتدفق تماما لا يقـدر على الوصـول اليها أى عقل ولا ذكاء •

ورغم أنه ليس بمقدورنا وصـــفها الا أن بمقدورنا ان نقــدر مدى نشاطها . لأنها صفة الوجود التى يحوزها كل انسان ، والتى اختبر كل واحد منا شيئا من فاعليتها ....

وبتحليل بسيط بمقدورنا أن نقول باطراد انه ليس بطاقتنا الاصرار على كراهية أى شىء أو أى شخص . لأن عدم الاكتراث أو الكراهية ، أو النفور ، أو الغضب ، أو الغبــاء ، أو الخوف ، أو الخيبة ، أو عدم التسامح ، أو نقص المغفرة ، أو جميع المواقف السلبية للعاطفة تؤدى الى الشقاء ، والفشل ، وانتفاء التناسق العام لطبيعتنا الداخلية جدا . ونحن نعلم الآن أن هناك أمراضا عضوية عديدة تجىء من الاضطرابات الروحية العقلية »(١) .

* * *

ثم ان الحب يؤدى بطبيعته الى التواضــع « فليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه » (٢) . ويقول فانيه Phaneg — وهو مفكر روحى فرنسى فى أحد كتبه — ان الانسان الذى يتبع طريق القلب ، ويتعلم كيف يخفض نفسه انما يعرف كيف يضع نفسه فى موضعه الصحيح من هذا الكون .

وبقدر ما يعترف الانسان مخلصا بضعفه ، بقدر ما يحيط به العالم العظيم غير المنظور ، ويقود خطاه عن قرب . فهو عندئذ يشــعر بالطاقات الحية التى يعيش فيهــا الانســان دون أن يدرك وجودها ، ويعرف أن بمقدوره أن يؤمل منها كل شىء .

والمعرفة التامة التى يحوزها عن ذاته تتيح له أن يحوز الاحســاس الواضح بأن أعضــاءه المــادية ، وأن قلبه المتألم ، وعقله الذى يعمــل

---

(١) تلخيص عن : B. Mandus : Power Thinking. London, 1966. P.P. 46 — 58.

(٢) انجيل يوحنا ١٥ : ١٣ .

ويشك ، كل هذه الأشياء ليست هي ذاته • وبالتالى يكون بمقدوره أن يتحمل محن الحياة أفضل مما كان • وهو يعلم أيضا أنه يتعين عليه أن يبحث عن اتزان نفسه ••• وفى نفس الوقت يعرف كيف لا يشغل نفسه بظروف الزمان والمكان (١) •

وينبغى على الانسان أن يحب الآخرين ، وأن يضع نفسه فى خدمتهم بدافع من احساسه الخاص ، بأن سعادته الحقه لا يمكن أن تتحقق الا بالحب والتواضع • وأنه فى نفس الوقت حر تمام الحرية فى الحب والخدمة ، فلا يوجد عليه أى الزام قانونى أو أدبى ، الا الزام نداء الضمير وسعادة الوجدان • أما من يؤدى الجب أو يبذل الخدمة بدافع الاحساس بالواجب فمن الأفضل له ألا يفعل شيئا • ومن يفعل هذا أو ذاك آملا فى ثمن أو مقابل — غير سعادة الوجدان — فمن الأفضل له أيضا ألا يفعل شيئا •

فمن الخطأ الخلط بين الحب والواجب ، أو أن نتصور أن حب الآخرين ينبغى أن نعتبره واجبا علينا • وفى التمييز بينهما يقول الحكيم الهندى سوامى ابهدانااندا Swami Abhedananda (١٨٦٦ — ١٩٣٩) فى كتابه عن «فقه الكارما»(٢) اننا عندما نكون مقيدين بأغلال الواجب نكون عبيدا له • لكننا اذا كنا ونحن فى هذه الحالة من العبودية ندع الشعور المتدفق بالحب يحملنا بعيدا ، فان كل الاحساس بالواجب نحو الأسرة أو المجتمع، الذى كان بقيد وثاقنا يذوب فنصبح أحرارا •

ومن ثم فانه حيثما يوجد الحب الحقيقى ، توجد الحرية ، ولا يتبقى أى أثر من أغلال الاحساس بالواجب • فليس على الله واجب ما نحو أى كائن حى ، لكنه يملك الحب نحو الجميع • ولذا يتعين علينا أن نحاول التمييز بين الحب والواجب • فحين يربطنا الشعور بالواجب بالأغلال

(١) عن Ed. Bertholet : La Reincarnation 1969. P. 50.
(٢) Doctrine of Karma.

ويجعلنا عبيــدا للواجب ، فان الحب يمنح للنفس الحرية والنجاة من الأغلال •

وعندما يملأ جوانح الانسان الشعور بالحب نحو كل الخليقة ، فانه يحرره من كل الأغلال ، ومن الارتباط بطبيعته العضوية • ولا يعود يبحث عن متع الحواس ، ولايعود حريصا على الاحتفاظ بذاته الدنيا ، ولا على حماية جسده ، لأنه يتحقق أنه ليس هو هذا الجسد ، بل هو الروح •

وحتى اذا ما تمزق الجسد الى أجزاء ، فان هذا لا يؤثر فيه ، مادام لايزال يحوز الوعى عن طبيعته الروحية ، عن « الأتمان Atman » أى تلك الذات القدسية التى لا يمكن أن تتمزق الى أجزاء ، وهيهات أن تحرقها نار ، أو يبللها ماء ، أو يجففها هواء (١) •

وعندما يتحقق ذلك فان الانســان يعمل بدون تفــكير فى العودة الى الأرض • وحتى أولئك الذين يؤدون واجباتهم بأمل العودة يتوقفون عن ترقب النتائج عندما يكون الحب هو دافعهم فى نشاطهم • وكل نشاط يتم خلال هذا الدافع الأسمى وهو الحب يكون بمثابة نشاط عبادة للروح العظمى •

ولذا فانه بدون الحب يكون أداء الواجب مرا وقاسيا بما فى ذلك واجب كل من الزوجين نحو الآخر • أما اذا وجد الحب الحقيقى فان كل واحد يعمل بدافع الحب وحده وعندئذ يختفى الاحساس بالواجب • وكل انسان يتفهم ذلك يعرف فلسفة العمل ، ويصبح فى كل تصرفاته مدفوعا بالحب وحده • وهكذا يتحول الى انسان مبارك ، وعامل مقدس •

فالهدف النهــائى للواجب هو الحرية والحب القدسى ، وعنــدما يستيقظ هــذا الحب تجىء المعرفة ، لأن الحب القــدسى والحكمــة

---

(١) يحيل المؤلف القــارىء الى مبدأ من مبــادىء البهاجافاد جيتــا Bhagavad Gita وارد فى فصل ٢ عدد ٢٣ — ٢٤ .

القدسية يمثلان شيئا واحدا ، فهما يطويان مجتمعين معا الذات الداخلية ، ويقودان الانسان الى عتبة الوعى الالهى •

ففى تلك اللحظة التى يحب فيهـا الانسان كل الخليقة كما يحب نفســه ، يكون قد عرف ذات كل شيء ، وارتقع الى مملكـــة الوعى الالهى ، ولا بعود يحيا بعد على مستوى البشر ، لأن الحب القدسى يعنى أيضا التعبير عن الاحساس الراقى بالذات •••

وكيف يتأتى أن يوجد أى أسى أو أنين أو يؤس أو ألم عندما لايوجد شيء آخر غير القداسة ؟ ! •• وعندما يجيء الاحساس بالوحدة الروحية مع الله يتوقف كل أسى ، وكل ألم • واذا لم يحـدث ذلك فقد تؤدى كل واجباتنا بدون أن نعثر على السلام والسعادة (١) •

صلة « الكارما » بالتكوين الروحى العضوى

وقانون الكارما هذا له صلة لا تنفصم بكل ما قد يصادفه الانسان من أسباب النجاح أو الفشـل ، والسكينة أو القلق ، واللذة أو الألم ، والمجد أو العـار ، وفى الجملة له صلة بكل ما قـد يمر به من ظروف السعادة أو التعاسة التى قد ننسبها الى الصدف السعيدة أو الشـقية ، مع أن الصدف هنا محض خداع حواس • أو بالأدق هى تمثل النتائج لا المقدمات ، لأن هذه الصدف ليست عشوائية ولم تحدث عبثا ، أو نتيجة نفوضى أصـيلة تحكم أحداث هـذا الكون العجيب ، بل حدثت نتيجة لقانون الكارما هذا •

وبعبارة أخرى أن كل ما قد يظهر بوصـفه أسبابا قريبة لتحقق أى حدث من الأحداث السعيدة أو الشقية ، انما هو نتاج أسباب أبعد منه تتسلسل منذ الأزل والى الأبد • تستوى فى ذلك الأسباب التى حدثت فى حياتنا الراهنة مع تلك التى حدثت فى حيـاة أخرى سابقة تنتمى الى

---

(١) تلخيص عن « فقـه الكارما » المرجع السابق صفحة ١١٨ — ١٢٤ •

ماضينا التائه فى رحبات الأزل.هذا وان كان المفهوم السائد قد جرى على اطلاق وصف « أسباب كارمية » على تلك الأسباب التى تنتمى الى حياة أسبق من حياتنا الراهنة .

ولذا فان التكوين العضوى الصرف للانسان له أسباب كارمية من ناحية القوة والضعف ، والجمال أو القبح ، والطول أو القصر ، والنحول أو البدانة ... وهـذا التكوين يعنى به الآن « علم الطب التكوينى » Médecine Constitutionalistique . وبطبيعة الحال يلزم دائما أن يوضع فى الاعتبار دور الجسد الأثيرى أو العقلى .... وكيف أنه يفرز جسده العضـوى كما تفرز القوقعة صدفتها . ونوع الصدفة وحجمها وشكلها وألوانها وكل خصائصها ... أمور تتوقف على نوع القوقعـة وحجمهـا وشكلها وكل خصائصها ....

فالتكوين العضوى مترابط مع التكوين العقلى ـ النفسى ، وهذا أيضا يعنى به الآن « علم النفس التكوينى » ، الذى يربط بين اتجاهات السلوك الانسانى وبين الملامح الخارجية لصاحبها . لذا يطلق عليه أيضا « علم النفس المتصل بالنموذج أو بالطبع » Psychologie Typologique ou Caractèrologique ، وهو يجد تأييدا من عدد وافر من العلماء بوصفه قد فتح آفاقا جديدة للبحث فى السلوك النفسى بوجه عام ، والاجرامى بوجه خاص (١) .

والترابط بين التكوين العضوى من جانب ، والتكوين الروحى أى العقـلى ـ النفسى من جانب من شـأنه أن يفسر حدوث بعض أمراض عضوية بسبب عصبى أو عقلى ـ نفسى ، وهى تلك الأمراض العصبية ـ العضوية ـ Psycho- Somatic التى يسلم بها تماما الطب العضـوى ،

---

(١) للمزيد راجع ما ورد بهذا الشأن فى مؤلفنا عن « أصـول علمى الاجرام والعقاب » طبعة خامسة ١٩٨١ صفحة ٣٤٦ ـ ٣٦٠ .

كما يسلم بها الطب النفسى المعاصر ، ولذا تتطلب تضافر الطبين معا فى التشخيص وفى العلاج .

وبالتالى يصبح من ضمن تطبيقات قانون الكارما هذا كل ما قد يعترض حياتنا من ظروف الصحة والمرض أيا كان مصدره . وهذا الاعتبار من شأنه بداهة أن يثير التساؤل الشائع عن صلة المرض بالخطيئة ... فهل المرض يمثل فى نهاية المطاف عقابا عن خطيئة صدرت منا ؟ ! أم هو نتاج محض صدف للوراثة أو للاختلاط بالآخرين ؟ ! ...

وفى الاجابة عن هذا السؤال يقول كاتب ووسيط معالج معاصر يدعى م. هـ. تستر M. H. Tester ان الاجابة تتوقف على المعنى الذى تعطيه لكلمة العقاب . وان ٩٥٪ من حالات الأمراض العضوية هى فى الواقع ناجمة عن مصادر عقلية أو عصبية ، بما فى ذلك مثلا قرحة المعدة .

ونتيجة لذلك فان هذه الأمراض تتوقف على مواقف وانفعالات معينة صدرت من المريض . فالانسان الذى يسمح لنفسه بانفعالات زائدة انما يسبب اضطرابا للتوازن الكيميائى الدقيق الذى يتحكم فى وظائف الجسم .

حتى تلك الأمراض الناجمة عن العدوى من الآخرين ، قد يكون سببها البعيد هو الحالة الروحية ــ النفسية لصاحبها . بدليل أن العدوى التى تجىء من خارج الجسم قد تصيب انسانا معينا بمرض ، ولا تصيب انسانا آخر مرت به نفس ظروف هذه العدوى (وهذا ما يعبر عنه فى لغة الطب بالاستعداد السابق للمرض) .

فكأن الحصانة الحقيقية ضد المرض تتوقف على الموقف النفسى للانسان ازاء ظروفه المختلفة . فضبط النفس (عن الافراط فى الطعام ــ أو الشراب مثلا) ، والارادة الطيبة ، والمرح ، والحب ، أمور تمنح

صاحبها حصانة رائعة وعظمى ضد المرض لأنها تسبغ على جسده التناسق المرجو ، وتمنحه العناصر اللازمة للصحة ، بالنسب الدقيقة المطلوبة للصحة.

وبالتالى فان هذا التناسق من شأنه أن يحول دون خلق البيئة المناسبة لازدهار الفيروسات المتنوعة فى جسم الانسان ، وهذه يتعذر عليها أن تعيش سعيدة فيه . وفى نفس الوقت تكون البكتريا النافعة لجسم الانسان خاضعة لرقابة العقل (اللاشعورى) .

وأول انسان كتب عن الخطايا السبع القاتلة كان خبيرا فى علم النفس، لأن هذه الخطايا ليست موجهة ضد الله ، بل هى خطايا ضد الذوق السليم ، وضد صاحبها نفسه . وعندما تقترف احداها فأنت تتلقى عقابك بأن تصبح مريضا . وأنا واثق أنك تعرف انسانا من هذا النوع الذى لا يتوقع فحسب ما هو أسوأ ، بل انه واثق من حدوث ما هو أسوأ مستقبلا . وعندئذ فاذكر أن الله قد يغفر لك خطاياك لكن جهازك العصبى لن يغفرها .

ولا توجد محكمة يرأسها قاض جليل يرتدى زيا وقورا سوف يحاكمك ، ولاتوجد دينونة أبدية لكن سوف يكون عليك أن تبرر بنفسك حياتك على الأرض عندما تنقضى أيامها .

فعندما تنتقل الى مستوى جديد مغاير للحياة ، بعد حدوث ذلك التغير الذى تطلق عليه وصف الموت ، سيجىء وقت يكون عليك فيه أن تراجع نفسك عن أيامك التى مضت . ولن يدينك انسان ، بل ستدين نفسك بنفسك ، ولهذا السبب فانه لن يخفى عليك أى شىء .

فلن يمكنك أن تخفى نفسك عن نفسك ، وحياتك ستراها ماثلة أمام بصرك كأنها مسجلة على شاشة التليفزيون (١) ، وسوف تشاهد كل

---

(١) لاحظ أن التعبير هنا مجازى صرف والاشارة الى ما يصح أن يطلق عليه وصف شاشة الضمير ، أو النفس ، أو الجسد الهيولى حامل العقل ، وهو المركبة الحقيقية للخلود ، والعقل هنا يشمل عنصريه الشعورى واللاشعورى مجتمعين معا .

ما صدر عنك من أخطاء ، ومن زلات ، ومن حماقات • وسوف ترى أيضا كل ما فعلته من خير ، وما نشرته من سعادته ، وما ألقيته من ضوء •

واذا كانت نسبة ٩٥٪ من أمراضنا مصـــدرها العقل والأعصاب ، فما هو مصدر النسبة المتبقية ؟ ان حياتك هنا للتعلم ، وعليك أن تحصّل فيها مقررا معينا متروكا لارادتك الحرة ، وكل تحصيل يجب أن يخضع للاختبـــارات • فبعض الأمراض التى تعطاها تعطاها لاختبـــار مـــدى ما حصلته ، فماذا يكون موقفك من هذا الاختبار ؟ هل كان المرض سببا لتعليمك كيف تكون أكثر عطفا على الآخرين ؟ وهل تعلمت فعلا الحنان عليهـــم من درس المرض ؟ وهل أصبحت الآن أكثر تســـامحا معهم عن ذى قبل ؟

لقد سبق لك أن اخترت الحياة التى تحياها الآن • وعندما استمعت وشاهدت شريط حياتك الأخيرة قررت أنه يلزمك أن تحصل مقررا آخر فى مدرسة الحياة الدنيا ، وأنت الآن بصدد تحصيله •

ولعل الأمراض ، والمتاعب ، وصور العجز والتشويه التى تعانى منها الآن ، هى بعينها تلك التى اخترتهـــا لنفسك من قبل • ولعل طفلا يولد هنا لكى يمضى عمرا قصيرا مع والديه حتى يتلقى والداه درسا فى العطف والفهم ••• من يدرى ؟

لكن هناك بعض استثناءات،وهى صور العجز والأمراض التى يمكن اسنادها الى الكارما ، أو مبدأ النتائج الحتمية لأفعال المـــاضى البعيد • وفى النهاية فان صحتك الآن تمثل مسئوليتك أنت وحدك • وبمقـــدور الطبيب أن يساعدك وينصـــحك فقط • ومنـــذ مدة طويلة قال أفلاطون « ان أعظم غلطة يقع فيهـــا الأطباء هى أنهم يحاولون أن يعالجوا الجسم بدون العقـــل » •

واذا كان بمقدوري أن أقدم نصيحة لأى انسان فهى نتاج فلسفتى الخاصة ، وهى أن تثق فى الله ، وأن تحيا يوما واحدا فى وقت واحد ، وبمقدورك أن تفعل ذلك . وبمقدورك أن تغير مواقفك ، وأن تضع قدميك على طريق الصحة منذ الآن . وأدعك أمام هذه الأبيات من تأليف كاليداسا Kalidasa وهى : الأمس ليس سوى حلم ،

والغد ليس سوى رؤية Vision
ولكنى اذا أحسنت حياة اليوم فان أمسى سيصبح حلما للسعادة ،
وكل غد سيصبح رؤيا للأمل ،
لذلك فانظر جيدا الى يومك الراهن[١] .

* * *

وهذا النظر الذى انتهى اليه هذا المعالج والمفكر الروحى م.هـ.تستر يلتئم الى — حد كبير — مع المدرسة البيولوجية فى علم النفس الحديث وهى تلك التى تنادى بأن معظم الأمراض النفسية — وبالتالى العصبية العضوية — سببها استعداد وراثى يولد به الانسان ، مع حدوث تغيرات بيوكيميائية وهرمونية فى المخ قد تكون هى المسئولة عن اضطراب هذا الانسان فى سلوكه العاطفى أو العقلى .

وهذه المدرسة تعطى قيمة خاصة لدراسة الهرمونات العصبية فى المخ ، ولبعض العقاقير الحديثة التى من شأنها أن تعيد التوازن فى هذه الهرمونات عند ما يختل ، ويكون اختلاله سببا لبعض صور القلق أو الاكتئاب .

كما تعطى أيضا قيمة خاصة لاجراء بعض جراحات خاصة فى المخ لاستئصال بعض خلاياه ، أو بعض أجزاء منه اذا ما تبين أن هذه أو تلك قد تكون مسئولة — ولو على نحو ما — عن ميل بعض الأشخاص ميلا

---

(١) تلخيص عن : مجلة « العالمين » Two Worlds عدد مارس ١٩٨١ صفحة ٦٩ — ٧٠ .

فطريا الى بعض أفعال العنف . وقد أدى هذا الاستئصال فى بعض الحالات الى تراجع هذا الميل الفطرى تراجعا واضحا .

وهذا النظر يكون مفهوما اذا ما أدخلنا فى الاعتبار ثلاث حقائق رئيسية وصلت اليها أبحاث الباراسيكولوجى وهى : —

أولا : تبادل التأثير المتواصل بين العقل والمادة ، أو بين الروح والمادة ، والذى يتخذ هنا صورة تبادل التأثير بين العقل أو الروح من جانب وبين المخ والجهاز العصبى من جانب آخر . ووراء الجهاز العصبى يوجد بطبيعة الحال نشاط الجهاز العضوى كله . ومن هنا يجىء التعليل الصحيح لكيفية حدوث بعض الأمراض العصبية العضوية التى أشرنا اليها آنفا .

ثانيا : أن احتمال وراثة هذا الاستعداد للاصابة ببعض الأمراض النفسية — وبالتالى العصبية العضوية — ليس مقصورا على وراثة الذات من أسلافها ، بل يدخل فيه أيضا احتمال وراثة الذات من نفسها . أى من ماضيها القريب أو البعيد . وربما يكون هذا الاحتمال الأخير هو صاحب الدور الأقوى فيما يطلق عليه الآن وصف « العوامل الوراثية » سواء فى دوائر البيولوجيا ، أم الفسيولوجيا ، أم الطب التكوينى ، أم الطب العلاجى ، أم الطب النفسى ، أم غيرها ....

ثالثا : أن تأثير العقل فى الجسد العضوى وكيفية أدائه لوظائفه من جانب أول ، ووراثة الذات من اختبارات ماضيها القريب أو البعيد من جانب آخر ، أمران لا يتصور حدوثهما بدون الاقرار بوجود جسد آخر لا عضوى للانسان هو ذلك الذى يصل بين العقل والجسد العضوى من جانب أول ، ويصل بين الذات وماضيها القريب أو البعيد من جانب ثان .

فهذا الجسد اللاعضوى لا ينتمى الى العالم الفيزيقى بل ينتمى بحسب مصدره ومآله الى عالم الدالة أو البعد الرابع . وبالتالى فهو عالم مستقل عن اعتبارات المكان والزمان(١) .

---

(١) راجع ما ورد عنه فى الجزء الأول صفحة ١٦٠ — ١٦٤ .

وفى النهاية فان العقل والمـادة ليسا ضربين من الموجودات مختلفين اختلافا جوهريا أحدهما عن الآخر ، بل ان العقل والمـادة كلاهما مشتق من هيولى محايدة ، لا هى عقل ولا هى مادة • وهـذا هو النظر الذى انتهى اليه وليام جيمس وبرتراند راسل ، ولفيف آخر من أبرز فلاسـفة هذا القرن ، ومن أبرز علماء الفيزياء • وقد عالجت هـذا الموضوع فى الجزء الأول ، بما يغنى عن العودة اليه من جديد هنا(١) •

وهكذا ترى أن العلوم المـادية آخذة فى الاقتراب التدريجى من فكرة الوجود السبقى للذات ، ومن قانون الكارما ، وآخذة فى استظهار العديد من الصلات بينهما وبين هذين المبدأين الأخيرين ، ومن القاء أضواء عديدة على مناطق من هذه العلوم كانت وماتزال تحف بها الظلمات من كل جانب ويكتنفها الغموض حتى فى أسسها الأولى •

المبحث الثانى

صـلة « الكارما »

بالعدالة المطلقة

عن مفهـوم العـدالة المطلقة

بطبيعة الحال يعد قانون الكارما تطبيقا تلقائيا لمبدأ العدالة المطلقة ، هذه العدالة السائدة على الجميع « أية كانت آراؤنا السياسية ، ووجهات نظرنا الاجتماعية • والتى يجب ــ بحسب قول ليون دينيز Léon Denis المفكر والرائد الروحى المعروف ــ أن نقر تماما بوجودها لأنها لا تنتمى الى عالمنا هذا ، ولا تتضمنها الأنظمة البشرية •

وحتى عندما نتوصل الى اصلاح هذه الأنظمة ، وتحسينها ، وبالتالى الى تخفيف العديد من الشرور وانقاص جملة المظالم وصـور التعاسـة البشرية،فانه توجد فيها دائما جملة مصادر للألم•كما توجد عاهات قاسية وموروثة سنظل دواما عاجزين ازاءها : مثل فقد الصـحة ، أو البصر ،

---

(١) راجع ما ورد فيه فى صفحة ٢٨٦ ـ ٣١٤ ، ٣١٩ ــ ٣٣١ •

أو العقل ، أو الانفصال عن كائنات عزيزة علينا ، وفى الجملة كل ذلك الموكب الضخم للآلام النفسية التى تصبح أشد وطأة كلما كان الانسان أرق شعورا ، وكلما كانت المدنية أكثر تطورا •

ورغم كل الجهود الاجتماعية المبذولة فى التحسين فلن نصل أبدا الى القول بأن الخير والشر قد حازا جزاءهما هنا فى هذا العالم • فاذا كانت ثمة عدالة مطلقة وتامة فلا يمكن الا أن توجد فى العالم الآخر • لكن ماذا يثبت لنا أن هذا العالم الآخر ليس محض أسطورة ، أو خداع ، أو وهم ؟

لقد ألقت الأديان والفلسفات على النفس الانسانية غطاء فاخرا من مفاهيمها الخاصة ومن تطلعاتها ، وظل الشك مع ذلك قابعا فى أعماق النفس البشرية • وجاء النقد الدقيق المستنير لكى يهاجم كل نظريات الماضى ، حتى لم يتبق من هذا المجموع الجليل سوى — بعض أنقاض •

لكن الآن ، وفى كل أرجاء المعمورة أخذت الظواهر الروحية تجرى • وهى متنوعة ، ومستمرة ، ولا تحصى ، وجاءت بالدليل على وجود عالم روحى ، غير منظور ، تحكمه مبادىء صارمة ، معصومة بقدر عصمة المبادىء التى تحكم المادة • عالم يخفى فى أعماقه سر أصولنا ومصائرنا • وهكذا ولد علم جديد قائم على الاختبارات والتحقيقات ، وشهادات صفوة العلماء •

وعن طريق هذا العلم قام تراسل مع هذا العالم غير المنظور الذى يحيط بنا ، وتدفق على بنى البشر كشف قدير ، كأنه موجة نقية من المعرفة ، ومن تجديد الخصائص الأصلية للانسان regeneration .

وحقل البحث فتح واسعا ، وسوف يسير العلم من ظفر الى ظفر فى طريق ثرى بالمفاجآت • وقد ظهر العالم غير المنظور بوصفه أساسا للعالم

المادى ، ومصدرا أزليا للطاقات الفيزيقية والحيوية التى تغذى الأكوان ...

واتضح أن كل الأكوان مترابطة ومتسلسلة فى هذا الوجود . وتحكمها كلها قوانين للعدد ، وللقياس ، وللتناسق . وأصبحت أسمى ظواهر الطاقة مختلطة بالذكاء . وأضحت القوة جاذبية ، والجاذبية أضحت حبا . وأضحى كل شىء يتلخص فى وجود قدرة وحيدة وعظمى ذات طاقة أزلية وشاملة ، أعطوها أسماء مختلفة ، لكنها ليس سوى العقل الالهى وارادته .

واهتزازات هذا العقل تغذى غير المحدود . وكل العوالم تسبح فى محيط من الاشعاعات النابعة من هذا المصدر الذى لا يفنى .... ورغم عجزنا العقلى ، فان القليل من القوانين الكونية الذى نلمسه كفيل بأن يبهجنا ، لأننا نستشعر وجود الله فى الطاقة المنتظمة لهذه القوانين وتلك العوالم . وبذا نحصل على اليقين بأن ما يسود فوق الجميع هو الخير ، وهو الجمال ، وهو التناسق الكامل(١) .

* * *

ثم يقول ليون دينيز ان هذا هو ما يجرى أيضا فى النطاق الأدبى . فان حيواتنا تتعاقب وتجرى عبر القرون . وتتتابع الأحداث بغير أن نرى تلك الروابط التى تربطها فيما بينها ، لكن العدالة الكامنة فيها تسود على جميع الأشياء .

وهذه تحدد مصائرنا بحسب قانون ، وبحسب مبدأ معصوم . فالأفكار ، والأقوال ، والأفعال كلها تتسلسل فيما بينها . وتربطها كلها مجموعة من الأسباب والنتائج التى هى بمثابة نسيج أقدارنا .

---

(١) تلخيص عن : Léon Denis : La Grande Enigme.
Dieu & L'Univers 1911 P. 3 — 4, 31, 35 — 36.

ولنقف هنا عند هذه النقطة وهى أنه بفضل كشف الأرواح ظهر لنا قانون العدالة بكل صفته الصارمة ، وأنه يسود الكون ويحكمه عن طريق نتائجه البعيدة المدى ، وترابط أحكامه ...

ولقد تعلمنا منها أنه لا يضيع فى الوجود شىء لا الخير ولا الشر ، بل كل شىء مدون ، ويمكن اصلاحه ، ويرد الاعتبار عنـه عن طريق وجودات أرضية لاحقة صعبة وأليمة .

وتعلمنا منها أيضا أنه لا يضيع أى جهد . ولا يحدث أى ألم عبثا . وأن الواجب ليس كلمة جوفاء ، وأن الخير يسود بلا منافس فوق كل شىء آخر . وأن كل واحد منا يشيد ـ بغير أن يشعر عادة ـ مستقبله الخاص . فالمصير الذى تتحمله فى حياتنا الراهنة أعددناه بأفعالنا السابقة ، بقـدر ما نعد فى الحاضر ظروف وجودنا المستقبل ...

ان مبدأ العدل الالهى لا يمثل شيئا آخر سوى الوسيلة الرائعة التى بها يعيد المصدر الأسمى كل انسان الى النظام والى التناسق والعدل . وهو لا ينتمى فقط الى مصدر اجتماعى ، كما حاولت ثورة سنة ١٧٨٩ أن تقيمه ، بل هو يجىء من مصدر أعلى لأنه من مصـدر الهى . واذا كان الناس متساوون أمام القانون الوضعى فذلك لانهم متسـاوون أمام القانون الأزلى .

وأيضا لأننا كلنا نابعون من مصدر مشـترك للذكاء وللوجدان ، فاننا كلنا أخوة ، ومتضامنون بعضنا ازاء البعض الآخر ، ومتحدون فى موقفنا من الخلود . لأن التضامن والاخاء بين الكائنات لا يكونان ممكنين الا اذا شعرت الكائنات بأنه يجمعها محور مشترك ... (١) .

لمـاذا الشر والألم اذن ؟ !

ثم يرد ليون دينيز على أولئك الذين ينكرون الله ، ولا يعترفون بأنه

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق صفحة ٨٣ ـ ٨٧ .

يمثل الطيبة ، والعدل ، والحب ، لوجود الشر والألم من حولنا فى العالم قائلا : أن الألم وسيلة قوية لتربية النفوس • فالألم ينمى الحساسية التى تؤدى بذاتها الى نمو الحياة • وهو أيضا من صيغ تحقيق العدل لأنه يقوّم أفعالنا السابقة أو البعيدة •

ان الشر ليس سوى نتاج نقص الانسان ، ولو أن الله كان قد صنع الكائنات كاملة لما وجد الشر • لكن الكون كان سيصبح عندئذ متبلدا جامدا فى كماله الممل • ولاختفت بغتة هذه القدرة الرائعة على صعود النفوس الى أعلى خلال مراتب الكون غير المحدود • ولما وجد شيء من الكمال يغزوه الانسان ، ولا حاجة يسعى الى تحقيقها !

ثم ماذا كان سيعنى كمال بلا مزايا لاستحقاقه ، وبلا جهد للحصول عليه ؟ ! هل كان الكمال سيصبح ثمنا لشيء ما أمام أعيننا ؟ ! فالشر اذا لا يعنى شيئا آخر سوى تطور الناقص نحو الزائد ، والأدنى نحو الأسمى ، والروح نحو بارئها •

لقد خلقنا الله أحرارا : ولذا فان الشر أصبح وجها انتقاليا فى صعودنا نحو الكمال • والحرية شرط ضرورى للتنوع فى الوحدة الشاملة ، وبدونها كان الملل كفيلا بصنع كون لا يطاق •

ولقد منحنا الله الحرية ومعها هذا الدافع فى الحياة الأولى الذى يدعو الكائن الى التطور بمحض جهده الخاص خلال الفضاءات والعصور التى لا حدود لها ، وذلك على درج من الحيوات المتتابعة ، وعلى سطح من العوالم التى تعمر الكون •

لقد انبعثنا من الله كما تنبعث أفكارنا من أرواحنا ، بدون أن تحطمها ، ولا أن تنتقص منها • وبفضل ما نحوزه من حرية ومن مسئولية نصبح سادة وصناعا لمصائرنا • لكن لتنمية البذور والطاقات التى فينا ، لابد من الكفاح ، الكفاح ضد المادة ، وضد الشهوات ، وضد كل

ما نطلق عليه وصف الشر . وهذا الكفاح أليم ، وأوجه الفشل فيه عديدة ، لكن التجربة نجتازها بالتدريج . وبدرب الارادة ، وننقذ الخير من بين براثن الشر .

وتجيء ساعة تنتصر فيها النفس على التأثيرات الدنيا وتسترد اعتبارها ، وتسمو الى الحياة السعيدة تماما عن طريق التكفير والتطهير . وعند ذلك تعجب النفس من حكمة الله وبصيرته ، لأنه جعل منها حكما مختارا لمصائرنا الخاصة ، ولأنه خلق جميع الأشياء بحيث نستخلص منها أعظم قدر من الغبطة النهائية لكل منا .

لهذه الاعتبارات كلها نقول للجميع : فلنرتفع جميعنا فوق الصراعات المذهبية ، فوق المناقشات والمجادلات الجوفاء ، لنرتفع عاليا حتى نفهم أننا نمثل شيئا آخر مختلفا عن تروس صماء تعمل فى آلة عمياء هى العالم، وهو أننا أبناء الله . وبوصفنا كذلك نحن مرتبطون به وبقدرته برباط وثيق ، ومخصصون لهدف عظيم ، يتضاءل الى جانبه كل هدف آخر . وهذا الهدف هو الدخول الى التناسق المقدس للكائنات وللأشياء ، هذا التناسق الذى لا يتحقق الا فى الله وبالله .

واذا ما ارتفعنا الى ذلك المستوى فاننا سوف نشعر بالقوة الكائنة فينا ، وسوف نتفهم الدور الذى يستدعينا لأن نلعبه فى نشاط التطور الأبدى . ولنتذكر أننا أرواح خالدة ، وأن أشياء الأرض ليست بالنسبة لنا سوى لعب أطفال ، ووسائل للتعليم وللتحول .

ومن الجائز أن نفقدنا كل أموالنا ، ولكن ما قيمة هذا الفقد ؟ ان ما ينبغى عمله قبل كل شيء آخر هو أن ننمو ، وأن ننهض بروحنا المقدسة من هذا المعبر الفج (كناية عن الأرض) ، لأن الروح فى الانسان هى مصدر سموه ، ومصدر سعادته المقبلة : هذا هو الهدف الأسمى للحياة .

ولنختتم ذلك بالقول بأن الله هو الروح العظمى للكون ، وهـو المســتودع الذى منه تنبثق كل حيـاة ، وكل اشراق معنوى . وليس بمقدورك أن تستغنى عن الله كما أن الأرض وجميع الكائنات التى تحيا على سطحها ليس بمقدورها أن تستغنى عن مستودعها الشمسى .

فاذا انطفأت الشمس بغتـة ماذا يحدث ؟ سـوف تدور مجموعتنا الشمسية فى فراغ الفضاء حاملة فى مسيرتها الانسانية برمتها بعد أن رقدت فى قبر من الثلج . وسيكون كل شىء ميتا ، والكرة الأرضية مدفنا ضخما لجميع المدن العظمى وهى ترقد رقدتها الأخيرة .

فالله هو شمس الأرواح ، واذا ما أطفأت فى النفوس الاحساس بالله فان ليلا حالكا سوف يسـود العالم . وبالذات لأن فكرة الاله زيفهـا البعض ، وشوهها البعض الآخر ، ورفضها وأنكرها البعض الثالث ، فان الانسانية المعاصرة تاهت فى وسط العواصف ، كما تتوه سفينة بلا ملاح ، وبلا بوصلة ، وبلا مرشد . وتصبح نهبا للفوضى وللضياع .

اذن تساموا بفكرة الله ، وعظموها ، ونقوها من الترهات التى غلفتها بها المذاهب والأنظمة ... هذه هى رسالة الروحية الحديثة . واذا كان يوجد عديد من الأشخاص الذين ما زالوا عاجزين عن أن يروا التناسق العظيم بين القوانين وبين الكائنات والأشياء ويتفهموه فذلك لأن نفوسهم لم تدخل عن طريق أعمق مشاعرها فى اتصال مع قدرة الله . أى مع أفكاره الالهية التى تضىء الكون ، وتمثل للعالم الضوء الذى لا يفنى .

ولنتساءل عما اذا كنا قد نجحنا فى اعطاء نظرة عامة عن فكرة الله ؟ ان التعبير البشرى ضـعيف تماما ، وجاف وفاتر فلا يمكنه أن يعـالج موضوعا كهذا . ولكن التناسق وحده ، والسمفونية العظمى للأجواء ، وصوت الكون اللامتناهى ، أمور بمقدورها أن تقـدم قوانين الكون وأن تعبّر عنهـا .

وهذه أشياء عميقة الى حد العجز عن وصفها ، وان كان الاحساس يشعر بها . والله وحده فى حبه غير المحدود بمقدوره أن يكشف لنا عن تلك المعانى المغطاة . وهذا ما يمكن أن يحدث اذا ما اتجهنا اليه من أعماق قلوبنا ، وتطلعنا الى الحقيقة . واذا ما عرفنا كيف نقدم الى ذلك الذى يعلم أعمق جوانب وجداننا روحا بمقدورها أن تفهم ، وقلبا جديرا بأن يحب (١) .

* * *

وهذه الأقوال الجميلة فى العدل الالهى ، وفى الألوهية بوجه عام ، تستمد قيمتها من أنها مؤسسة على تجارب وضعية جرت بمعرفة أحد الرواد المعروفين للحركة الروحية الفرنسية . وهو ليون دينيز (١٨٤٧ — ١٩٢٧) الذى كان وسيطا وفيلسوفا ، وصاحب حوالى ثمانية عشر كتابا فى تجاربه الخاصة فى الظواهر الروحية ، ناهيك بفلسفته الوضعية التى استمد جميع معطياتها من هذه الظواهر نفسها .

ومن مؤلفاته « بعد الموت » (٢) ، و « مشكلة الكائن والمصير »(٣) و « عبقرية الصلت والعالم غير المنظور » (٤) ، و « الروحية والوساطة»(٥) و « الحقيقة حول جان دارك » (٦) ، و « العالم غير المنظور والحرب»(٧).

وكان ليون دينيز يشعر دائما أنه ازاء هدف خلقى وانسانى عظيم،عليه أن يناضل لأجله بكل الوسائل القلمية والخطابية التى كان موهوبا فيها ، وهو تعزيز الايمان بالله وبالخلود ، وتنقيته من الأوهام والترهات التى طالما جنت عليه وما تزال تجنى . وقد انتخب رئيسا فخريا « للمؤتمر

---

(١) تلخيص عن المرجع السابق صفحة ١٢٨ — ١٣٨ .
(٢) Après la Mort.
(٣) Le Problème de l'Etre et la Destinée.
(٤) Le Genie Celtique et le Monde Invisible.
(٥) Dans L'Invisible : Spiritisme et Mediumni
(٦) La Verité sur Jeanne D'Arc.
(٧) Le Monde Invisible et la Guerre.

الروحى الدولى » الذى عقد بباريس فى سنة ١٩٠٠ ، ولمؤتمر لاحق عقد بها فى سنة ١٩٢٥ ، وانتقل الى عالم الروح فى سنة ١٩٢٧(١) •

ماذا عن الحظ والصدفة ؟ !

وفى شأن هذا القانون — وهو قانون الكارما — يقول الحكيم الهندى سوامى أبهداندا Swami Abhedanda انه تحت هذا القانون السائد لا يوجد أى متسع للحظ أو للصدفة ، فان ما نطلق عليه وصف الحدوث بالحظ أو بالصدفة هو فى الواقع نتاج أسباب محددة قد لا نعرفها ، وقد لا يمكننا الوصول اليها نظرا لمعرفتنا المحدودة •

وقد يكون لهذا الحدوث مصدره على المستويات المعنوية أو الروحية ، على حين أننا لا نعرف الا بعض ما يحدث على المستوى المادى ••••• فكل الأحداث لها أسبابها الطبيعية سواء أعرفناها أم جهلناها • بل ان ما قد يظهر مسندا الى ما فوق الطبيعى بحسب عقل غير علمى ، قد يكون طبيعيا بحسب العقل العلمى أو الفلسفى الذى حاز نظرة أوسع من غيره عن الطبيعة وأشمل •

وبالتالى فان قانون السببية أو الكارما يتضمن القانون القائل بأن تماثل الأسباب يؤدى الى تماثل النتائج • وما يجرى على المستوى الفيزيقى للحياة يجرى أيضا على المستوى العقلى الأرق منه ، حيث أن جميع صور النشاط العقلية المتماثلة تنتج ردود فعل متماثلة • فالدوافع ، والرغبات ، والأفكار وغيرها من الوظائف العقلية خاضعة لنفس القانون ، ولذا فقد تنتج نتائج طيبة أو سيئة أو مختلطة بحسب صور تلك المناشط العقلية •

وطبيعة أى فرد خاضعة بدورها لقانون الكارما لأنها حصيلة عدد ضخم من صور النشاط الذهنى لجوهر العقل ، وهى تلك الصور التى

---

(١) للمزيد عن ليون دنيز راجع « المفصل » جـ١ ص ٤٦٩ — ٤٧٢ .

نسبغ عليها أوصافا مختلفة مثل الحاجيات ، والميول، والأفكار ، والاراء ، والانطباعات • وكل صورة منها محكومة بقانون الفعل ورد الفعل •

فكل طبيعة أو شخصية تمثل النــاتج الكلى لجميع صــور النشاط الذهنى السابقة ، وهى فى نفس الوقت السبب لجميع التغيرات المستقبلة فى الطبع •

وفى سلسلة السبب والنتيجة يمكن القول بأن كل نتيجة خامدة فى السبب ، وكل سبب خامد فى النتيجة • وبتطبيق نفس القانون يمكننــا أن نفهم أن كل صيغة فى طبع الانســان هى بذاتها سبب بقــدر ما هى نتيجة •

ولذا ففى مواجهة هذا القانون وهو قانون الكارما لا نجــد متسعا لافتراض القدر المحتوم أو النعمة المقــدرة مقدما للانسان قبل ولادته • أو للقول بأن ارادة الله هى التى تصنع الخاطىء والفاضل منذ ولادتهما ، هذا الافتراض الكفيل بتدمير مسئوليتنا الأدبية ، وحريتنا الشخصية فى الاختيار ، كما هو كفيل بأن يصور الله لنا بوصفه متحيزا وغير عادل ••• فلماذا يجعل هو مخلوقا بريئــا موهوبا للألم ، ويجعل من آخر موهوبا للنعيم ؟ !

فأمثال هــذه التساؤلات لا تثار فى اطار فقه الكارما • لأننــا اذا استطعنا أن نفهم مرة أن كل انسان يحصد نتائج أفعاله السابقة فلا يكون بوسعنا أن نتقبل بعــد ذلك نظرية النصيب المحتوم ولا النعمة المقــدرة مقدما ، لأن كل نتيجة تتوقف ــ حتى بحسب حجمها ــ على سببها •

فالانسان المقتنع بقانون الكارما يشعر أنه حكم مختار ، وأنه مسئول عن كل نتائج أفعاله الخاصة سواء أكانت خيِّرة أم شريرة • وهو يعلم أنه يصنع مصيره الخاص ، ويصوغ طباعه بأفكاره وأفعاله • ولا يلوم أى انسان آخر عما قد يعانيه من ألم أو تعاسة •

وهو يعلم بالاختبار المصادر الحقيقية للأحداث ، كما يعلم كيف ينجو من الشر والخطيئة ، ولذا يقدم على تنفيذ تلك الأفعال التى تجلب الخير للآخرين ولنفسه أيضا ... فما نطلق عليه وصف الثواب أو العقاب ليس سوى ردود فعل لصور نشاطنا الخاصة : العقلية والمادية[١] .

* * *

وهذا القانون — عن العلية أو السببية الطبيعية — مسلم به تماما فى اطار جميع الظواهر الطبيعية . وكل قوى الطبيعة الفيزيقية والعقلية تخضع له ، وليس بمقدورها أن تخرقه ، من اهتزازات الالكترونات ، الى دوران الأرض حول الشمس . ومن سقوط تفاحة على الأرض الى رفع انسان ذراعه الى أعلى بحكم ما يحوزه من ارادة حرة . وذلك « لأن كل حادثة تمثل نتيجة طاقة غير منظورة تعمل فى تناسق مع قانون السببية » ، كما يقول هذا الحكيم الهندى .

ولكن ثمة سؤالا ينبغى أن يثار : وهو أن الانسان يخطىء دائما فى آرائه وتقديراته ، أفلا يوجد أى مجال للغفران ولو بشرط التوبة المخلصة مع التعويض الأمين ؟ ! قد يقول قائل : ولكن هذا الافتراض يتعارض حتما مع قانون السببية .... الا أن هذا الاعتراض فى غير محله اذا ما وضعنا فى الاعتبار أن الغفران لا يمكن أن يجىء جزافا ، وانما هو ناموس طبيعى قد يعمل — مثل سائر نواميس الطبيعة — فى اطار قانون السببية أو الكارما شأنه شأن قوانين التعويض ، والمقاصة ، ورد الفعل .

وبعبارة أخرى أن التوبة المخلصة — مع التعويض العادل — تكون عبارة عن نشاط عقلى — وجدانى طيب يمكن أن يحدث آثارا طيبة على الأمد القريب أو البعيد . وبالتالى فلا يوجد أى تعارض بين القول بوجود قوانين للرحمة وللغفران وبوجود قانون طبيعى كلى للعلية الروحية هو قانون الكارما .

---

(١) تلخيص عن مؤلفه فى فقه الكارما Doctrine of Karma طبعة رابعة . كلكتا ١٩٧١ ص ٨ — ٢٠ .

فرحمة الاله تعالى لا تتعارض البتة مع قانون الكارما ، ولا تعتبر تحديا له ، لأنها تعمل بدورها فى اطار العلية أو السببية الروحية ، التى تصبح أقسى على الانسان من نفسه لو جردناها من دور رحمة الله ، وغفرانه ، وعدله ، وحكمته .... هذا الدور الذى يعمل فى نشاط دائب لانجاح الحياة عقليا ووجدانيا ، والسير بها قدما فى طريق التطور والارتقاء ، والوفرة والرخاء .

ونفس هذا النظر يصدق على دور الصلاة المخلصة فى مساعدة الانسان على تحقيق ذاته ، ومواجهة العديد من آلامه وصعوباته . وعلى دور الكائنات غير المتجسدة فى مديد العون والاغاثة الى من قد يطلبها فى ظروف عديدة . فكل هذه الاعتبارات الأخيرة تؤدى دورها فى اطار نفس قانون العلية الروحية لا خارجا عنه ، لأنه لا يوجد دليل واحد حتى الآن على امكان خرق هذا القانون .

لكن لاحظنا على أقوال بعض حكماء الهند أنهم ـ فى حماسهم الشديد لقانون الكارما ـ يغالون فى القسوة على أنفسهم وعلى غيرهم ، عندما يتجاهلون فى أحاديثهم عن الكارما الاشارة الى وجود قوانين للرحمة والمغفرة ، لئلا يتصور بعض الناس أنهم سوف يجدون فيها منفذا للافلات من عواقب أفعالهم السيئة . أو أنها تتعارض مع مفهوم العدالة المطلقة كما رسخ فى أذهانهم ، وكما نادت به الفيدنتا ، أو كما أعلنه بوذا معلمهم العظيم .

حين يرى أتباع العديد من الأديان الأخرى أن للرحمة والمغفرة دورهما فى النشاط الروحى للحياة . ولكن منهم فعلا من يغالى فى هذا الشأن ، فيتصور أن الرحمة والمغفرة غير مشروطتين بأى شرط ، الا بأن يعلن الانسان ندمه وتوبته ولو داخليا بين خلجات ذاته الحقيقية . أو بأن يرتبط علنا ـ أو وجدانيا ـ باعتقاد ما أو بمذهب معين ، أو بأداء طقس معين .

وهكذا نجد أن المغالاة فى الفهم والتقدير ما تزال صفة مميزة للعديد من أحكام أرباب الحرف فى كل زمان ومكان • ولكن مع الاعتدال ، ومحاولة اخضاع هذه التفسيرات وتلك لشتى حقائق الوجود الطبيعى والروحى للانسان يمكن أن يذوب العديد من الحواجز العاتية الوهمية التى مازالت قائمة بين بعض هذه الأحكام وبين بعضها الآخر • ناهيك بالحواجز التى ماتزال قائمة بين العديد من أمور الاعتقاد وأمور العلم •

وهذا القول أيضا يمكن أن يقال بالنسبة لكل محاولة تبذل فى تفهم العديد من أحكام كل اعتقاد بوجه عام • فمايزال الغموض يكتنف بعض جوانب هذه الأحكام ، ناهيك بالعديد من صور التضارب فى الرأى ، وذلك الى المدى الذى يمثل حاجزا وهميا قائما بين أمور الاعتقاد وأمور العلم •

لكنه حاجز يبدو أنه فى طريقه الى التراجع التدريجى مع تطور العلم والعرفان وازدياد المحاولات المخلصة للتوفيق بين نطاقى العلم والاعتقاد • وهما نطاقان يتعذر الفصل بينهما ، ويتعين أن يتعاونا معا فى سبيل تحقيق سعادة الانسان ، وتذليل بعض صعوباته ، وآلامه ، ودفع العديد من أوهامه النابعة من أنانيته الخاصة ، والويل للانسان من أنانيته فى نهاية المطاف •

« الكارما » وحساب المصير

واجمال هذا كله أن حساب المصير لا يجىء اعتباطا بل هو حصيلة قانون طبيعى عادل وحكم اسمه قانون الكارما • وفيه يقول شميدت « ان الكتاب العظيم للقدر الذى بمقدوره أن يفيدنا فى كل لحظة عن حالة حسابنا مع القدر ، وهل هو دائن أم مدين أكثر تعقيدا بكثير من حسابات احدى المؤسسات الدولية الكبرى •

فالعقل المدرب تماما عاجز عن الاحاطة بالعمليات العديدة الخاصة بحساب المصير ، وحالة الخصم التى يجب أن تجرى على كل حساب جديد

للحياة • ولعل الاحساس بالمصير النائم بداخل كل واحد منا هو ذلك الذى بمقدوره أن ينبهنا — فى التأمل والخلوة التعبدية — الى الروابط القائمة بين الأحداث وبين تكويننا الخاص •

فرقيب القدر كائن بداخلنا اذن ، ولكن ليس بمقدورنا أن نتعرف على التحذيرات التى يوجهها الينا الا اذا تعلمنا أن نتدبر الحياة من الداخل لا من الخارج • فعند ذاك فقط يكون عندنا الاحساس بالفارق بين رصيد مدين ورصيد دائن لحسابنا عند القدر •

واذا ما تفحصنا الآن عمليات حساب القدر هذا لتبين لنا أن علينا أن نواجه حسابا مزدوجا :

أولا : لأن كل واقعة فى حياتنا الماضية محفوظة بوصفها صورة داخلية فى الذاكرة الروحية للذات ، والتى لم ينل منها الموت منالا ، وهذا ما يظهر عند استعادة ذكريات الحيوات الماضية •

وثانيا : لأن كل واقعة مسجلة فى نفس الوقت فى حسابنا مع القدر، بوصفها رصيدا دائنا أو مدينا • وهذا الرصيد اما قد تمت تصفيته فى حياتنا الجسدية ، فى ظروفنا ، فى ملكاتنا ، فى صور قوتنا وضعفنا ، واما تنتظر الوقت الذى تحدث فيه آثارها •

والحساب الذى لم تتم تسويته عن طريق المقاصة ، أو التصفية يرحّل تلقائيا الى حسابنا فى حياة مستقبلة طبقا للمبدأ القائل بأن كل دين على الأرض يلزم تسويته • والقاعدة التى تقضى بأن « ما يزرعه الانسان اياه يحصد أيضا » صحيحة كذلك بالمعنى العكسى ، أى أن ما حصده الانسان هو نفس ما سبق أن زرعه • ولكن كما يوجد زرع طيب وآخر خبيث كذلك يوجد ما هو موجب منه وما هو سالب ، وبالتالى يتعين علينا أن نميز بين حصة فى القدر موجبة ، وحصة أخرى سالبة قائلين :

ان حصتنا الموجبة هى مجموع الآثار الناجمة عن الأفكار والأفعال التى ألهمتنا اياها المعرفة والمحبة . أما حصتنا السالبة فهى مجموع الآثار الناجمة عن الأفكار والأفعال التى ألهمتنا اياها الجهالة والأنانيه .

لكن ثمة وجها لأن نضيف بأنه يتوقف على الحصتين معا خدمة سلامنا ، وشفائنا ، وتبريرنا ، أى خدمة ارتقائنا وتطورنا ، وتقدمنا الداخلى ، وأيضا صعودنا الكونى . ويبدو هذا أكثر وضوحا كلما اعترفنا بهذه الحقيقة ، وأدخلناها فى اعتبارنا . وبالتالى فلا ينبغى هنا أن ننظر الى الأمور بوصفها محض « عقوبات » أو « مكافآت » بل أيضا بوصفها عللا ومعلولات .

وهذا هو ما أرشدنا اليه معلم الهند بوذا عندما صور لنا الطريق الحقيقى للتعرف على مصائرنا قائلا « اذا كنت تريد أن تعرف علل حياتك الحاضرة ، فانظر الى حالتك الراهنة ، فهى نتاج حياتك الماضية . وان كنت تريد أن تعرف ماذا ستجنى من ثمار فى حياتك المقبلة ، فنقب فى أفكارك وفى أفعالك الراهنة ، ففيها يكمن المصدر » .

ثم يقول شميدت « وللحصول على معرفة عن هذه الشبكة المعقدة بلا حدود عن العلل والمعلولات الموجبة والسالبة ، ولاستخلاص أكبر قدر من النفع من هذه المعرفة فانه يلزم التعرف على النواميس التى تسودها ، وهذا أمر ليس باليسير .

ولقد شعرت بصحة العودة للتجسد منذ كنت صغيرا وارتبطت على مدى عدة سنين طويلة بالانكباب على دراسة القوى التى تتحكم فى المصير ومدى تأثيرها ؛ وحصلت على عدة معارف عن الصلات الوثيقة بين علل المصير ومعلولاته ، ومع ذلك فان لدى الاحساس بأننى ما زلت كطفل صغير يلهو على الشاطىء محاولا أن يفرغ المحيط بدلوه الصغير ! !

وأول ما يلزمنا هو ألا يغيب عن أذهاننا أن نواميس المصير تعمل

مستقلة عن الزمان والمكان . فقد يحدث أحيانا أن تمضى بين العلة والمعلول لحظة قصيرة ، أو عدة سنين ، أو بضعة قرون . كما قد تفصل بينهما قارات وبحور ، وربما الفضاء اللامتناهى .

وهذا لا يغيِّر شيئا ، فان رد فعل أى عمل لا ينتقص شيئا بسبب بعد الزمان أو المكان . وفى كل حالة فان العلة تلتقى بالمعلول ، وفى حالات عديدة يخضع الالتقاء للقاعدة التى تقول : انك ستعاقب من حيثما أخطأت ، أو من حيثما زللت ، فهناك ستعانى من صدمة رد الفعل المحتوم » (١) .

* * *

ثم يقول شميدت ان كل قول وكل فعل صدر منا يحمل — من الناحية الداخلية — نواة لحياتنا المستقبلة من أربعة جوانب مختلفة :

١ — أن أيهما يؤثر فى العالم المنظور اما تأثيرا ضارا واما تأثيرا حسنا بالشخص الذى صدر عنه .

٢ — أن أيهما يحدث تأثيرا مقابلا فى نفس صاحبه ، وقد يكون ايجابيا أو سلبيا .

٣ — أن أيهما يؤدى الى تعديل فى أخلاق صاحبه ، وهذا التعديل سيؤثر بدوره فى مصيره ، تأثيرا يكون غير محسوس فى مبدئه لكنه يصبح فيما بعد تأثيرا محسوسا .

٤ — ومن وجهة نظر الحياة المستقبلة ، فان أيهما سوف يسهم فى صنع المناخ اللازم للوسط وللظروف المتعلقة بذلك الوجود المستقبل .

ولنضع فى أذهاننا هذه الحقيقة ، وهى أننا عندما نتحدث فنحن لا ننطق بكلمات فحسب ، بل ننطق « بمصائر » ! ، وأن الانسان يصنع لنفسه بنفسه سعادته المستقبلة أو شقاءه . والآية التى تقول « الكلمة تجسدت لحما » لها قيمة عامة ، فان كل كلمة تصدر منا ستتجسد ان عاجلا

---

(١) عن شميدت . المرجع السابق ص ١٨٧ — ١٨٩ .

أو آجلا ، وستولد فى حياتها الخاصة لكى تصبح مصدرا حيا لمصيرنا .
وكذلك الشأن أيضا بالنسبة لأفعالنا .

وقد وردت فى مخطوطات بالى Pali بهذا المعنى العبارات الآتية :
« كما يتمنى الأهل والأحباب القدوم السعيد للشخص العزيز عليهم القادم من بلاد أجنبية ، فان ثمار أفعال الشخص — اذا كانت طيبـة ونبيلة — تنتظر قدومه فى حياة جديدة ، وتستقبله كصديق لها » .

* * *

ثم يقول أيضا ان كل هذا يقودنا الى تتبع تحقيقاتنا فى اطار المصير ، والى أن نلاحظ مبدئيا ، أن الأفكار ، والرغبات ، والأقوال ، والأفعال التى جرت فى حياة سابقة ، لها تأثيرات مزدوجة فى الوجود الراهن :

١ — فهى تؤثر فى المعطيات البيولوجية ، أى فى تلك الأوضـاع النفسية — الفيزيقية ، وبالتالى فى الأداء الجيد أو الردىء للأعضـاء ، بما فيها عناصر الوراثة ، والبيئة المحيطة ، والأمة والوطن ، وكل مايصاحب قدومنا الى هذا العالم من ظروف .

٢ — وهى تؤثر فى المعطيات الروحية ، أى فى ملكاتنا الذهنية ، وفى سلوكنا ازاء الحياة ، وفى أسلوب ردود فعلنا لتأثيرات العالم المحيط بنا ، وفى حياتنا الداخلية ، وفى ميولنا ، وفى طريقة تكويننا ، وفى الجملة فى كل ما يشكل شخصيتنا الروحية .

فمجموع ماضينا مايزال حيـا بداخلنا . وكل رابطة تربط مصـير ذواتنـا ، بمصـير أشخاص آخرين ، مثل رابطة الأسرة ، والأقارب ، والمعارف ، والأصدقاء أو الأعداء تشير الى نقطة التقاء سابقة : فى صورة حادثة ما عشناها معا ، أو نشاط مشترك قمنا به معا ... ولكن يلزم عادة الرجوع بعيدا جدا فى تقاطع شبكة العلل والمعلولات ، لكى نعرف ، كيف نفسر تفسيرا صحيحا كل تقاطعات قد تجرى فى خيوط الأحداث ، ونتفهم

كيف ولماذا يتقابل شخصان من الأشخاص فى الحياة الراهنة ، لحساب سعادة الاثنين أو شقائهما ، ولحساب تعاونهما المتبادل أو صراعهما ..(١).

* * *

ثم يقول شميدت اننا لسنا بحاجة لأن تنتظر الموت أو ننتظر القدوم الى تجسد آخر لكى نصبح أفضل مما كنا ، ونعمل أحسن مما عملنا . ففى هذه اللحظة ذاتها ، يمكن أن يبدأ تحول منظور فى حياتنا ، لأننا اذا كنا بمعرفتنا لنواميس المصير نصمم منذ الآن على أن نستخدم — أحسن استخدام ممكن — كل ما أعطى لنا من وسائل ، وأن نترقب دائما مجىء ما هو أفضل لنا ، وأن نحتفظ للآخرين بأجمل ما فى أفكارنا وأعمالنا ، وأن نعطى فى جميع الحالات أحسن ما فينا ، فاننا — منذ اليوم — ندخل الى طريق جميل لا نهاية له ، وليس بوسع أحد أن يقول لنا الى أى مرتفعات يقودنا هذا الطريق الجميل .

فكل فكرة جميلة تستولى على أذهاننا ، تصنع منا كائنات أفضل مما كنا ، وكل فكرة جديدة ، وكل عمل جديد يعدل نوعا ما من اتجاه مصائرنا . واذا كانت قوة هذا التأثير تزداد تدريجيا ، فانه سيكون بمقدورها أن تهز العالم ، وتغير تغييرا جذريا جوهر مصائرنا .

وفى الواقع أننا لسنا بالمرة عبيدا لمصائرنا ، بالعكس فنحن بمقدورنا أن نغير تدريجيا أنفسنا . وكمبدأ : فان بمقدورنا أن نؤثر فى أحداثنا المستقبلة بأن نؤثر فى عناصر مصيرنا التى لم ننفذها بعد ، وذلك عن طريق حسن استخدام أفكارنا الراهنة والمستقبلة ، وارادتنا ، وأفعالنا ...

وبتأمل عالمنا الداخلى — عندما يختفى العالم الخارجى من أمام أعيننا — فان جوهر طبيعة مصيرنا يتكشف شيئا فشيئا ، ويتحدد موضعه فى الضمير . فيتكشف بداخلنا نشاط عناصر مصيرنا ، أى أن القاعدة الخلفية لوجودنا تتكشف تحت ضوء هذا التأمل الهادى ، وترتدى

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٣ — ١٩٦ .

الأشياء وروابطها وجها آخر ، ونستشعر الميول التى تعمل بنشاط فى أعماق نفوسنا ، ونختبر كل ما فى حيواتنا من أحداث عرضية أو خيالية مرت بها، فنرى لزوم تقدير ما لا تتوقعه من أحداث فى مستقبل وجودنا .

وكما نتابع بشوق أحداث فيلم ، فاننا فى السكون ، سنخمن بوضوح متزايد ماذا سيكون اتجاه الأحداث نحونا فى قصة مصيرنا ؟ وهى قد تتكشف ببعض ارهاصات . لكننا كما نحاول أن نتوقع تسلسل الأحداث فى فيلم أو فى رواية ، لأننا نستنتج ذلك من أفكار مؤلفها ، كذلك سنتعلم — فى السكينة — كيف نتوقع تسلسل رواية حياتنا ، خصوصا اذا كنا على وفاق مع روح مؤلف هذه الرواية (أى ضميرنا) ، وهو المرشد لمصيرنا الكامن فينا متى أعرناه أسماعنا ..

وثمة شىء آخر سيتكشف تدريجيا للضمير فى هذه الرؤية للذات وعاجلا بكل ما فيه من ثراء ، ومن ظلال ، ومن أضواء ، ومن معارف ، فانه سيظهر لنا بوصفه مرحلة خاصة ، لكن لا غنى عنها من بين سلسلة لا تنتهى من حيوات تغوص فى هوة سحيقة من ماضى الذات ، وترتفع نحو مستقبل لا ينتهى ، ويبدو بدوره أكثر اتساعا من نطاق الماضى...(١).

ارتباط المصير بالضمير

ويقول الفيلسوف المعروف والمتصوف السويسرى رودلف شتاينر Rudolf Steiner ان الأفكار والمشاعر التى تجيش بالنفس فى وجود سابق تؤدى دورها فى وجود لاحق حتى فى التكوين الجثمانى(٢) : فالنفس التى تشع حبا فى التجسد السابق تبنى جسما سوف يحتفظ حتى بعد تقدم العمر فى تجسد لاحق بمظهر شاب وقوى ... أما الحياة المملوءة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣ — ٢٠٦ .

(٢) بدون انكار دور العوامل الوراثية غير المتنازع فيها . لكن دور وراثة الروح من نفسها ، وتأثيرها فى جسدها يبدو عنده أقوى من دور وراثتها من آبائها .

بالحقد ، وبالكراهية ، وبرغبة ادانة الآخرين فانها سوف تعطينا فى حيـاة لاحقة — وفى وقت مبكر — جسما سوف يشيخ مبكرا .

والأمراض التى يتحملها الانسان بشجاعة سوف تضفى على الجسم فى تجسد لاحق رونقا ، وجمالا من نوع خاص . والأنانية فى تقديره تجر الى ضعف الجسد ، والكذب يجر الى افتقاد الاتزان العضوى فى تجسد لاحق .

وفى تلخيص هذا كله تقول ألكسـندرا دافيدنيل Alexandra David Neel (١) ان « الكائنات تحمل ماضيها محفورا عليها وبداخلها ، ولا يلزمها الا أن نعرف كيف تقرؤه » .

ولا يوجد فى ذلك أى قانون أدبى للعقاب أو للثواب ، بل هو ثمرة قانون طبيعى للتطور . فللطبيعة أسـلوب مذهل عن « العودة للتوازن » Retour é I'équilibre . فأى مرض يجىء نتيجة تطرف سابق هو فى نفس الوقت وسيلة تطهير تنقذنا من الميول التى توشك أن تسـقطنا من جديد بين براثنه . فلكل أمراضنا الخطيرة سبب فى حيواتنا السابقة ، وكل مرض منها له مغزى فى تحقيق تطورنا فى نطـاق معين . وكل روح تقبلت قبل أن تتجسد أن تتحمل هذه الآلام لكى تحوز خصالا جديدة ...

واذا كنا نسند الى الصدف غالبية أحداث وجودنا ، فان السـبب الوحيد لذلك هو تعدد العوامل الكامنة وراءها ، وتقاطعها ، والمسافات الشاسعة التى قد تفصل الأسباب عن نتائجها الراهنة . وهذه الاعتبارات كلها من شأنها أن تجعل من العسـير علينا أن نميز عمـل قانون الكارما فى حيـاتنا .

وثمة مثال تقليدى هو مثال القاء حجر فى بحيرة ماء . فمن السهولة بمكان أن نسند التموجات المباشرة التى تحدث الى سقوط هذا الحجر ،

(١) راجع ما سبق عنها فى صفحة ١٣٢٨ — ١٣٢٩ .

أما بالنسبة للأمواج الثانوية وغير المباشرة فانه يتعذر اسنادها الى سقوطه، ولو كان لها صـلة به •

وفى هـذا الشأن تقول ألكسندرا دافيد نيل ان « آثار الأحـداث المـاضية تظهـر أحيانا كما لو كانت زوابع مباغتة تلقى بنـا الى خارج الطريق الذى نحسبه طريقنا ، ، متجهة بنا الى مصير غير متوقع » •

ومع ذلك فلا يمكن تعليل جميع الأحـداث بكارما شخصية لكل واحد منا « لأن التيارات الكارمية للفرد وللانسانية ــ كما يقول رودلف شتاينر تتجمع معا ••• فمن المحال أن يظن أن حادثة كبرى تتعلق بشعب بأكمله ، أو بشطر كبير من الانسانية لا تكون الا نتاجا للكارما الفردية الخاصة بكل فرد على حدة » •

وبالتالى فبالاضافة الى تأثير الكارما الفردية الخاصة بكل واحد منا يتعين علينا أن نجتاز الكارما الجماعية للبلاد والأجناس ، والأديان المتنوعة التى قد تتجسد فيها تباعا لتحقيق التطور • وبالتـالى يجب الاقرار بأن الكارما الجماعيـة لسويسرا مثـلا أو لأمريكا تختلف بعمق عن الكارما لبولندا أو لفيتنام •••

ولذا يعتقدون فى الشرق الأقصى بوجود صـلة ما بين الفلك وبين العودة للتجسد • حيث تبدو العوامل الفعالة وقد تفاعلت فيما بينهـا • اذ يقال عندئذ ان انسانا معينا ــ لأنه قد حاز طباعا معينة وبالتالى قدرا معينا ــ قد ولد فى يوم معين ، وفى لحظة معينة ، وفى مكان معين • ويمكن بلا ريب تقبـل مبدأ العودة للتجسـد بدون الاعتقاد فى طوالع الفلك ، أو بالعكس ، ولكن بلا ريب أيضا يمكن القول بأن هنـاك تكاملا بين الاعتقادين (١) •

---

(١) تلخيص عن :
Jean — Francis Crolard : Renaitre Apres la Mort.
ص ١٠٩ ــ ١١٤ •

بعض المراجع عن « العودة للتجسد »

لمن يريد المزيد فى « العودة للتجسد » أن يرجع الى بعض المراجع النافعة ، وهى وفيرة ، وأوفر مما قد يخطر على بال أى قارىء . وقد اخترنا منها ما يلى : —

أولا : باللغة الانكليزية

— وليام ولكر أتكنسون W. Walker Atkinson وله مؤلف عنوانه « العودة للتجسد وقانون الكارما » (١٩٠٨)(١) .

— ليزلى ويذرهيد Leslie Weatherhead وله مؤلف عن « قضية العودة للتجسد »(٢) .

— ا . د . والكر E. D. Walker وله مؤلف عن « العودة للتجسد . دراسة لحقيقة منسية » (١٩١٩)(٣) .

— وللسيدة هيلين بتروفا بلافاتسكى H. P. Blavatsky مؤسسة « المدرسة الثيوصوفية » عدة بحوث فى هذا الشأن فى مؤلفها « ايزيس بلا نقاب » (١٨٧٧)(٤) و « الفقه الخفى » (١٨٨٧)(٥) .

— وللسيدة آنى بيزانت Annie Beasant وهى من أعلام هذه المدرسة عدة كتب فى هذا الشأن منها « العودة للتجسد »(٦) . كما تعرضت له فى بعض مؤلفاتها الأخرى مثل « الحكمة القديمة »(٧)

---

(١) Reincarnation And The Law Of Karma.

(٢) The Case For Reincarnation.

(٣) Reincarnation : A Study Of Forgotten Truth.

وفى نهايته يجد القارىء بيانا بالمئات من المراجع باللغات اللاتينية ، والألمانية ، والفرنسية ، والانكليزية ، وفى المجلات العلمية والفلسفية المتنوعة ، وذلك لمن يريد الاستزادة فيه .

(٤) Isis Unveiled.

وله ترجمة فرنسية عنوانها Isis Devoileé.

(٥) The Secret Doctrine.

وله ترجمة فرنسية عنوانها La Doctrine Secrète.

(٦) Reincarnation.

(٧) The Ancient Wisdom.

(١٨٩٧) ، و « الحياة الروحية » (١٩١٢) (١) ، و « حياة الانسان في هذا العالم ، وفي العوالم الأخرى » (١٩١٣) (٢) •

— ولنفس المؤلفة بالاشتراك مع الأسقف ك• و• ليدبيتر C. W. Leadbeater — كتاب قيم في جزئين بعنوان « حيوات السيون » (١٩٢٤) (٣) •

— وللبحاثة ف• بلاى بوند F. Bligh Bond مؤلفان في هذا الشأن أولهما بعنوان « بوابة الذكرى »(٤) وثانيهما بعنوان « حملة أفالون »(٥) (١٩٢٤) •

— وللبحاثة الارلندى المعروف شو دزموند Shaw Desmond كتاب عنوانه « العودة للتجسد لكل انسان »(٦) •

— وشيرلى رالف Shirley Ralph وله كتاب عن « مشكلة الميلاد الثانى »(٧) (١٩٢٤) •

— ل• ستانلى جاست L. Stanley Jast وله مؤلف عنوانه « ماذا يعنى كل هذا » (١٩٤١)(٨) •

— ت• كريستماس همفريز T. Christmas Humphreys وله مؤلف عنوانه « الكارما والعودة للميلاد » (١٩٤٣)(٩) •

— روبرت جيمس ليز Robert James Lees وله مؤلف عنوانه « دراسة في العودة للتجسد »(١٠) •

(١) The Spiritual Life.
(٢) Man's Life In This And Other Worlds.
(٣) The Lives Of Alcyone.
(٤) Gate Of Remembrance.
(٥) The Company Of Avalon.
وراجع ما ورد عن المؤلف في « المفصل » الجزء الأول ص ٤٠٣ .
(٦) Reincarnation For Everyman.
(٧) The Problem Of Rebirth.
(٨) What It All Means.
(٩) Karma And Rebirth.
(١٠) An Astral Bridgegroom : A Reincarnation Study.

ـ وقد أملى عالم النفس المعروف فردريك مايرز (١) بيانا من هناك عن صـحة العودة للجسـد تجده فى كتاب للوسيطة جيرالدين كامينز Geraldine Cummins عنوانه « الطريق الى الخلود » (٢) (١٩٣٢) .

ـ ولآرثر هيل Arthur Hill بحث فى هذا الشأن فى « مضابط جمعية البحث الروحى » بلندن . المجلد الثامن والثلاثون بعنوان « بعض مخطوطات تلقائية عن العودة للتجسد »(٣) .

ـ لويس كريسـتوفـورو بوسـتيلونو Louis Cristoforo Postiglono وله مؤلف عنوانه « أسس الفلسـفة العلمية عن دوام الحياة بعد الموت والعودة للتجسد » (١٩٥٦) (٤) .

ـ جيوفرى هودسـون Geoffrey Hodson وله مؤلف عنوانه : « العودة الى التجسد ، وهل هى حقيقة أم خيال ؟ »(٥) .

ـ فرانسيس سـتورى Francis Story وله كتاب عنوانه « قضية الميلاد الثانى » (٦) (١٩٥٩) .

ـ دكتور سوشيل تشاندرا بوز Sushil Bose وله مؤلف عنوانه « حياتك الأخيرة والمقبلة » (٧) (١٩٥٩) .

ـ لورانس تمبل Lawrence Temple وله كتاب عنـوانه « الأخ المشرق » (١٩٤٠) (٨) .

---

(١) راجع ما ورد عنه فى « المفصل » الجزء الأول ص ٣٨٢ ـ ٣٨٥ .

(٢) Road To Immortality.

(٣) Some reincarnationist Automatic Scripts.

(٤) Fundamenlal Scientific Philosophy About Survival And Reincarnation.

(٥) Reincarnation Fact Or Fallacy ?.

(٦) The Case For Rebirth.

(٧) Your Last Life And Your Next.

(٨) The Shining Brother.

ــ جــورج ب• براونيــــل G. Brownell وله كتــاب عن « العودة للتجسد » (١٩٤٦)(١) •

ــ وجيمس سكادى بركنز James Scuddy Perkins وله مؤلف عنوانه « من الموت الى العودة للتجسد »(٢) (١٩٦١) •

ــ و ك• جـ ديكاس C. J. Ducasse الأستاذ بجامعة براون وله مؤلف تناول فيه هذا الموضوع عنوانه « الاعتقاد فى حياة بعد الموت » (١٩٦١)(٣) •

ــ ودولسى بلوكسهام Dulcie Bloxham ولها مؤلف عنوانه « من كانت آن أو كندن » ؟ (١٩٥٨)(٤) •

ــ وآرثر جيردهام A. Guirdham وله كتابان أولهمــا عنوانه « كل واحد منا هوالآخر»(٥) ، وثانيهما عنوانه « قدم فى كلا العالمين»(٦)•

ــ ورااينور جونســون R. Johnson وله كتاب عنوانه « الضوء والبوابة »(٧) • ١٩٦٥ ، وآخر عنوانه « الطريق الروحى »(٨) (١٩٧١) •

ــ و ن • ســمارت N. Smart وله كتاب عنــوانه « الفقـــه وأسانيده فى الفلسفة الهندية » (١٩٦٤)(٩) •

---

(١) Reincarnation.

(٢) Through Death To Rebirth. .

(٣) The Belief In A Life After Death.

(٤) Who Was Ann Ockendon ?

والمؤلفة هى قرينة د. آرنول بلوكسهام الذى سبق الحديث عنه فى ص ١٣١٢ — ١٣١٥ .

(٥) We Are One Another.

(٦) A Foot in Both Worlds.

(٧) The Light And the Gate

(٨) The Spiritual Path.

(٩) Doctrine And Argument In Indian Philosophy.

ـ وجوزيف هيـد Joseph Head بالاشتراك مع س • ل• كرانستون S. L. Cranston ولهما معا كتاب عنـوانه « العـودة للتجسد : أصولها فى الشرق والغرب »(١) •

ـ وجينا كيرمينارا Gina Cerminara ولها كتاب تنـاولت فيه هذا الموضوع عنوانه « منازل كثيرة »(٢) وآخر عنوانه « العـالم الذى بالداخل »(٣) •

ـ ج • هـ • برينـان J. H. Brennan وله كتاب عنـوانه « خمسة مفاتيح للحيوات السابقة »(٤) •

ـ سير فرانسيس ستورى Francis Story وله كتاب عنوانه « قضية العودة للميلاد» (٥) (١٩٥٩) •

ـ كريستين هارتلى Christine Hartley ولهـا كتاب عنـوانه « حالة عودة للتجسد » (٦) •

ـ و أ• و• ريال E. W. Ryall وله كتـاب عنـوانه « دورة للمرة الثانية (٧) •

ـ ايان ستفنسون Ian Stevenson أسـتاذ التحليل النفسى بجامعة فرجينيا بالولايات المتحـدة الأمريكية وله كتاب « عشرون حالة ترشح للعودة للتجسد » (٨) •

---

(١) Raincarnation : An East - West Anthology.
(٢) Many Mansions.
(٣) The World Within.
(٤) Five Keys To Past Lives.
(٥) The Case for Rebirth.
(٦) A Case For Reincarnation.
(٧) Second Time Round.
(٨) Twenty Cases Suggestive of Reincarnation.

ـ ونوفل لانجلى Novel Langely وله مؤلف عن « موقف ادجار كايس من العودة للتجسد » (١٩٦٧)(١) •

ـ هانز هولزر Hans Holzer وله كتاب عنوانه « ولد ثانية : الحقيقة حول العودة للتجسد »(٢) • (١٩٧٠) •

ـ جيفرى ايفرسون Jeffrey Iverson وله كتاب عنوانه « أكثر من حياة واحدة » (٣) (١٩٧٠) •

ـ كارل موللر Karl Müller وله كتاب عنوانه « العودة للتجسد مؤسسة على وقائع »(٤) (١٩٧٠) •

ـ روبرت أ• سميث Robert E. Smith وله كتاب عنوانه « نحن نحيا حيوات متعددة »(٥) (١٩٧١) •

ـ كلاريس توين Clarice Toyne ولها كتاب عنوانه « الورثة الشرعيون للخلود »(٦) (١٩٧٦) •

ـ وسوامى ابهد داناندا Swami Abhedananda وله كتاب عنوانه « العودة للتجسد »(٧) (طبعة تاسعة ١٩٦٨) وآخر عن « فقه الكارما »(٨)•

ـ وبول بيرد Paul Beard وله كتاب عنوانه « دوام الحياة • دراسة لتحول الوعى بعد الموت » (٩) •

---

(١) Edgar Cayce : On Reincarnation.

(٢) Born Again : The Truth About Reincarnation

(٣) More Lives than One.

(٤) Reincarnation Based on Facts.

(٥) We Live Many Lives.

(٦) Heirs to Eternity.

(٧) Reincarnation.

(٨) Doctine of Karma.

(٩) Living On : A Study of Altering Consciousness After Death.

ثانيا باللغة الفرنسية

— آلان كاردك Allan Kardec وهو أب هذا الفقه فى البلاد ذات الحضارة اللاتينية وقد عرضه فى عدة مؤلفات أهمها « كتاب الأرواح »(١) (١٩٥٦). بالاضافة الى كتاب آخر وهو « الجنة والنار »(٢) (١٩٨٥).

— ليون دينيز Léon Denis وله فى هذا الشأن « مشكلة الكائن والمصير »(٣) .

— أوجين ألبير دى روشا Eugene Albert de Rochas وله كتاب « الحيوات المتتابعة »(٤) (١٩١١) .

— الدكتور جوستاف جيلى G. Geley وقد تناول هذا الموضوع فى مؤلف من أجمل مؤلفاته وهو من « اللاشعور الى الشعور » (١٩٢١)(٥) .

— ا. كالدرون E. Calderone وله مؤلف عن « العودة للتجسد بحسب الدكتور جيلى »(٦) .

— الدكتور جيرار أنكوس (بابيس) Gérard Encausse (Papus) وله مؤلف بعنوان « العودة للتجسد »(٧) .

— جابريل ديلان Gabriel Délanne وله كتاب عنوانه « دراسة للحيوات المتعاقبة »(٨) ، وآخر عنوانه « وثائق تنفع فى دراسة العودة للتجسد »(٩) .

---

(١) Le Livre des Esprits.
(٢) Le Ciel et L'enfer.
(٣) Le Problème de L'Etre et de la Destinée.
(٤) Les Vies Successives.
(٥) De L'inconscient au Conscient.
(٦) La Reincarnation d'Après Dr.Geley.
(٧) La Reincarnation.
(٨) Etudes des Vies Successives.
(٩) Documents Pour Servir A L'etude De La Reincarnation
وراجع ما ورد عن المؤلف فى « المفصل » الجزء الأول ص٤٧٠ — ٤٧٣ .

ـ شارل لانسلان Ch. Lancelin وله كتاب عنوانه « العودة للتجسد »(١) ، وآخر عنوانه « كيف يموت الانسان وكيف يولد »(٢) ـ و « حيواتى الخمس السابقة »(٣) (١٩٦٢) .

ـ الدكتور اه برنارد A. Bernard وله كتاب عن « الحيوات المتعاقبة »(٤) .

ـ الأب ألطا Abbé Alta وله مؤلف عن « وحدة وجود الروح وتعدده »(٥) .

ـ جورج باربارن George Barbarin وله مؤلف عنوانه « عشت مائة مرة »(٦) .

ـ الكسندرا دافيد نيل Alexandra David Neel ولها مؤلف عنوانه « الخلود والعودة للتجسد »(٧) .

ـ وهنرييت جوتيل جاى Henriette Joutel Gay ولها كتاب عنوانه « تلك الأخرى التى كانت أنا »(٨) .

ـ سيمون سان كلير Simone St. Claire ولها مؤلف عنوانه « حيواتنا السابقة »(٩) .

ـ الدكتور ادوار برتوليه Ed. Bertholet وله مؤلف عنوانه « العودة للتجسد قانون واضح »(١٠) (١٩٤٩) وآخر عنوانه « العودة

---

(١) La Reincarnation.
(٢) Comment On Meurt, Comment On Nait.
(٣) Mes Cing dernieres vies anterieures.
(٤) Les Vies Successives.
(٥) Unité et Pluralité Des Existences De L'Ame.
(٦) J'ai Vecu Cent Fois.
(٧) Immortalité et Reincarnation.
(٨) Cet Autre qui Fut Moi.
(٩) Nos Vies Antérieures.
(١٠) La Réincarnation est une Loi Evidente.

للتجسد بحسب السيد فيليب »[١] (١٩٦٩) ٠

ـ بيير نوفيـل Pierre Neuville وله مؤلف عنـوانه « تلك الحيوات الأخرى التى عشتها مع ذلك » (١٩٧٠)[٢] ٠

ـ ك٠ ا شميدت K. O. Schmidt. وله مؤلف عنـوانه « نحن نحيا أكثر من مرة »[٣] (١٩٧٤) (مترجم عن الألمـانية) ٠

ـ ايزولا بيزانى Isola Pisani ولها مؤلف عنـوانه « الموت ليس موتا »[٤] ١٩٧٨ (مترجم عن الانكليزية) ٠

ـ جان فرانسيس كرولار Jean - Francis Crolard. وله مؤلف عنوانه « العودة للميلاد بعد الموت »[٥] (١٩٧٩) ٠

ثالثـا : باللغة العربيـة

ـ ج٠ دى بور : ترجمة الأستاذ محمد عبد الهـادى أبو ريدة فى كتاب « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ٠

ـ جوفرى هدسن : ترجمة الأستاذ زكى عوض المحامى فى كتـاب « العودة الى الحياة ، وهل هى حقيقة أم خيال ؟ » (١٩٥٧) ٠

ـ د٠ عبد الرزاق نوفل فى كتاب « أسرار وعجب » (١٩٧١) ٠

ـ د٠ عبد العزيز جادو وله كتاب « العودة للتجسـد فى مفهومها العلمى الحديث » (١٩٧٤) ٠

---

(١) La Reincarnation d'après le Maitre Philippe.

(٢) Ces Autres Vies que Vous Avez Pourtant Vécues.

(٣) Nous Vivons Plus d'une fois.

(٤) Mourir n'est pas Mourir.

(٥) Renaitre Après La Mort.

— عبد القادر حمزة باشا فى كتاب « على هامش التاريخ المصرى القديم » (١٩٤١) .

— د. محمد على أبو ريان فى كتاب « أصول الفلسفة الاشراقية عند شهاب الدين السهروردى » (١٩٦٩) .

— د. محمد غلاب فى كتاب « التصوف المقارن » .

— مرجريت مرى : ترجمة الأستاذ محرم كمال فى كتاب « مصر ومجدها الغابر » (١٩٥٧) .

خاتمة الكتاب

لمسات أخيرة لبعض المقدمات والنتائج

- الروح علم وفلسفة .
- هل من علم نقيض أو فلسفة مضادة ؟ !
- بعض الأعـلام .
- بعض معـالم على الطريق .
- ماذا عن دور المبادىء والأخلاق ؟
- أما آن لنـا أن نصـحو ؟ !
- عن الصـحو والازدهار ....

الروح عـلم وفلسفة

لقد استطالت صفحات هذا الكتاب الى أكثر بكثير مما توقعت فى مبدأ الأمر ، لكننى كنت مع ذلك أتوقع ألا تكون مشـكلة « التكوين الروحى للانسان وأسرار سلوكه » هينة بالمرة عند محاولة عمل دراسـة شاملة فيها ، خصوصا وقد وضعت نصب عينى أن أواجهها من جوانبها النفسية ، بقدر اتصالها بجوانبها البيولوجية . وذلك بالقدر اللازم لمتابعة التطور الضخم الذى لحق العلوم الطبيعية ، خصوصا فى هذا النصـف الثانى من القرن العشرين ، بعد تلك القفزات الضخمة التى قفزتها أبحاث الباراسيكولوجى ، التى أخذت تجرى على نطاق واسع ، فى جميع البيئات العلمية المعنية بها .

ولم يكن هدفى الأساسى فى هذا الكتاب هو تقديم أدلة على صحة الظواهر التى يعنى ببحثها علماء الباراسيكولوجى ، لأن هـذا موضوع قائم بذاته ، ولا تكفى المئات من المؤلفات لتغطيته على النحو الذى يتفق مع المنهج العلمى الصحيح من جانب ، ومع رغبة القـارىء المشروعة فى الاطلاع والاقتناع ، أو عدم الاقتناع — من جانب آخر .

بل لقد كان هدفى الأساسى هو الاتجاه المباشر الى محاولة التعرف على النتائج التى وصل اليها أبرز العلماء الباحثين فى تلك الظواهر الروحية ، من زاوية اتصالها بالمعطيات السائدة فى العلوم التى اخترتها موضوعا لهذا الكتاب بجزئيه ، تستوى فى ذلك العلوم الطبيعية مع العلوم الانسانية . وهذا ما اقتضى منى الوقوف أحيانا عند العديد من المشكلات الفلسفية الهامة التى تربطها أواصر لا تنفصم بهذه الموضوعات ، بغير أن يكون سرد الأدلة هدفا مقصودا لذاته أو من وسائلى الأساسية فيه .

ولكن من حقى أن ألاحظ ترابط الأدلة التى قدمها المحققون العلميون مع العديد من المشكلات الفلسفية التى أعيت ولاتزال تعيى محبى الفلسفة فى كل مكان : وهى مشكلات العدل الالهى ، والشر ، والألم ، والضمير ، والمصير الانسانى ، والثواب والعقاب .. وكيف أن هذه البينات تلقى أضواء ساطعة من المحال أن يجد لها الانسان نظيرا فى أى مقام آخر من مقامات البحث فى القضايا الكلية وهى موضوع الفلسفة ، أو فى القضايا الجزئية وهى موضوع العلم الوضعى .

ومن حقى أيضا أن أتحدث عن ترابط الأدلة التى قدمها أولئك المحققون المثابرون مع تلك الحقائق الثابتة التى وصل اليها العلم الوضعى عن المادة والاهتزاز ، والاشعاع والطاقة ، والهيولى المحايدة ، والادراك خارج الحواس ، والذاكرة ، وعن التطور ، وعن دور اللاشعور ، وعن الوراثة ، وتجدد الأنسجة والخلايا ، وخلود النفس الانسانية أيضا .. حتى وان كنت أسلم تماما بأن المعارف الانسانية فى هذه الأمور لاتزال تحبو فى مهدها ولاتزال قاصرة كأشد ما يكون القصور .

* * *

ولكن مما يسترعى الانتباه حقا أن القدر المحدود الذى وصلت اليه معارف الانسان فى شأن هذه الأمور كلها ــ وما أفدحها من أمور ــ يلتئم التئاما فريدا ، يتوافق توافقا مثيرا مع تلك النتائج التى سجلها المحققون المثابرون فى الظواهر غير المألوفة مهما بعدت المسافات بينهم فى الزمان أو فى المكان ، ومهما تنوعت أساليب التحقيق تنوعا كبيرا .

كأنى بالظواهر الروحية ، خصوصا منها تلك المتصــلة بموضــوع دوام الحياة بعد موت الجسد المــادى ــ تريد أن تتحدى العلماء وتثبت تفاهة مداركهم ، وضآلة معارفهم عن أنفسهم • فما من ظاهرة منها أخضعت للتحقيق العلمى ــ فى جو من الاستخفاف التام بالظاهرة وبمصــدقيها ــ الا واذا بها مع الوقت الطويل تثبت تدريجيا ثبوتا تاما ، واذا بالظاهرة ترفع رأســها عاليا لكى ترغم المكابرين والمعاندين على احناء رؤوسهم اجلالا أمام عظمة الانســان فى عمق تكوينه واتساع ملكاته ، ومواهبه الظاهرة والدفينة ، وتفاهة عقله فى تفهم ألغاز هــذه الملكات والمواهب نفسها •

وهذا القول يصدق أيضا على كل ظواهر التلباثى أو انتقال الأفكار، والادراك خارج الحواس E. S. P. وتأثير العقل فى المــادة ، والهالة والجســد الأثيرى ، وظهور الأطياف والتجســدات التــامة والجزئية ، والخروج من الجســد المــادى وبالجسد المــادى ، والرؤى والأحلام والتنبؤات الصادقة ، والعلاج الروحى ، والمنــازل المســكونة ، والمس الروحى والاستحواذ ، والمجلوبات والمأخوذات الروحية ، والصور العقلية التى تظهر على الألواح الحساسة ، والالهام والأدب الروحى •• وغيرذلك مما تناولته فى الجزئين الأول والثانى من « مفصل الانسان روح لاجسد » فى طبعته الرابعة بالدراسة التفصيلية والتحليل العلمى •

فكل هذه الظواهر لاقت فى مبدأ تحقيقها نفس المقــاومة ، ونفس الزراية والاستخفاف بالظاهرة وبمصدقيها ، وذلك الى أن ثبتت ــ كلها ــ تدريجيا كأشد ما يكون الثبوت ، والى أن رفعت الظاهرة رأسها عاليا لكى ترغم المحققين والمثابرين على أن يحنوا رؤوســهم ، ويراجعوا آراءهم المسبقة عن أنفسهم وعن علاقتهم بالكون الذى فيه يعيشون ، أو بالأدق فيه يلهون ويعبثون• وكأن أى واحد منهم طفل صغير يعبث فى عدم اكتراث بشعر رأسه وهو لا يعلم أن كل شعرة منها تخفى أسرارا هائلة ، لايمكن

أن يدور بخلده وجودها ، ولا يمكن أن يصـل اليها ادراكه الحدود ، حتى وان لم يعجز عن حمل كل هذه الأسرار على رأسه الخاوى الصغير .

واذا كانت كل هذه التحقيقات المترابطة فيما بينها ، وفيما بين سائر معطيات الفلسفة والعلوم الوضعية غير صحيحة ولا تنبيء عن صحة دوام الحياة بعد الموت ، اذا فلنتفلسف ونكتشف عدم صحة هذا الاعتقاد ! ولنقدم على بطلانه بيانات ايجابية تعادل فى وفرتها وقوتها تلك التى تقف الى جانبه ، أو تفوقها ، أو لعلها تمحوها من الوجود محوا . وعنـدئذ فلنحنى رؤوسنا من جديد اجلالا أمام عظمة الكون وخجلا من تفـاهة عقولنـا ومداركنا عن أنفسنا وعن هذا الكون نفسه .

ولكن الى أن تقدم الينا البينات المضـادة الجديدة التى تهـدر أو يحتمل أن تهدر تلك التى جمعها كد العلماء ونضالهم خلال قرن وثلث من الزمان — فمن حقنا أن نقول ان كل قضـايا الروح مفرطة فى أهميتها ، وفى عمق آثارها التى لا تنتهى عند حد فى تفسير الكثير من ألغاز الكون، ومعميات الانسـان . ومن حقنـا أن نقـول أنه ينبغى متابعة دراسـتها وتمحيصها بلا توقف مع الاحتفاظ بها كمبدأ أولى عام الى أن نعثر على تأصيل علمى أفضل منها لكل هـذه النتائج المتدفقة فى بحوث العلمـاء المثابرين ، اذا قدر هذا العثور بعد زمان طويل أو قصير ، وبعد عنـاء كثير أو يسير .

* * *

ثم فلنتساءل سؤالا طبيعيا جدا — فى هذا المقـام بالذات — وهـو هل نجح العلم المـادى فى تعليل الوراثة ، والتكوين الفطرى للانسان ؟ هل حقيقة يمكن الجزم بأنه فى اللحظة التى تدخـل فيهـا خلية الأب فى بويضة الأم يتحدد كل شىء فى جنين المسـتقبل : جنسـه ، وملامحه ، ولونه ، وصفائه ، وأمراضه ، وأخلاقه ، وميوله ... هل حقا كل ذلك تحدده خلية الأب التى يبلغ وزنهـا ٦ من مليون من الجرام والتى يحوز منها بلايين لا تحصى فى القذيفة الواحدة ... ويقال انهـا — أو انهـا باتحادها ببويضة الأم — تحوز كل هذه الخصائص مجتمعة ؟

أخشى أن يكون هذا تدليسا باسم العلم لا علما صحيحا ! وأخشى أن تكون هذه مضاربة جوفاء كالعديد الذى لا يحصى من مضاربات العلم الجوفاء التى ألقيت على عواهنها فى عصر أغبر كان العلم قد ارتبط فيه تماما بالفلسفة المادية للوجود . لقد قرأت فى التكوين الفطرى أكثر مما قد يتصور القارىء محاولا أن أجد تعليلا واحدا مقنعا للوراثة من الناحية البيولوجية فلم أجد . وعندما نقبت فى البحوث الروحية وجدت أن بحاث الروح يقدمون هذا التعليل ، بأسانيد واضحة مترابطة يتعذر رفضها الا لمن أعد ذهنه مقدما للرفض وللمكابرة .

ثم من قال ان خلية الأب أو بويضة الأم لها تكوين عاطفى ، ولها ذاكرة شعورية أو لاشعورية ، ولها خصائص الانسان ؟ قد يكون لها حياة أو قدرة على الحياة كالنملة أو كالذبابة ، أما ما عدا ذلك فهى محرومة منه بتاتا ، ولم ينازع أى انسان فى ذلك .

وأخشى أن تكون البيولوجيا قد حاولت فحسب تعليل وراثة الجسد ، أما الروح فلم تحاول تعليلها لأن الروح لا تورث ! ولأن شخصية صاحبها تمثل نتاج تطور موغل فى القدم . وعندما أنكرت البيولوجيا — وهى علم الحياة — الروح أصبحت هى نفسها علم حياة بلا حياة ، أى بيولوجيا ميتة على ما لاحظه برجسون الفيلسوف العظيم .

فالانسان يرث الجسد من اجتماع جسدى أبويه ، وهذا الارث يعلل تماما أوجه الشبه العديدة التى كثيرا ما تتوافر الى حد ملفت للنظر بين الانسان وأحد أبويه أو أحد أجداده (عملا بقانون مندل للوراثة). أما روحه فهو يرثها من نفسه . أو بالأدق من ماضيه العريق ، واختباراته التى لا تحصى خلال هذا الماضى العريق . ولذا كثيرا ما نجد أن المولود العبقرى ينحدر من صلب أب غبى والمولود الغبى من صلب أب عبقرى ، والمولود الصالح من صلب أب طالح وبالعكس .

ولما كان التكوين العضوى يمكن أن يحدث تأثيره فى التكوين الروحى لصاحبه وبالعكس ، لأن العقل والمادة يتفاعلان على الدوام ، فانه من المتصور أن نجد بعض التوافق بين عقل الانسان ومظهره ، لا كل التوافق . لأن قوانين الوراثة بوجه خاص ، والبيولوجيا بوجه عام ، تلعب دائما دورها فى تحقيق هذا التوافق ولو الى حد ما ، ولو على نحو ما ، والا اذا تداخلت عوامل جديدة يمكن أن تسند الى قوانين روحية أخرى .

فكل هذه الحقائق الروحية تلقى أضواء لا غنى عنها فى تفسير بعض ظواهر الوراثة ، ويفتقدها تماما ، لو أننا صممنا على القول بأن كل خصائص الانسان كامنة فى خلية الأب وبويضة الأم ... هذا القول الذى قد يعلل تكوين الرداء الخارجى ، لا الانسان صاحب هذا الرداء ، والمندمج فيه اندماجا تاما أو شبه تام ولو الى حين .

ولعل هذا الاندماج ما كان ليحدث بدوره لولا وجود روابط عريقة وربما أعرق مما نتصور بين أفراد الأسرة الواحدة ، والمجتمع الواحد ، والوطن الواحد ، والقارة الواحدة ، بل والكوكب الواحد أيضا . ولولا وجود أهداف خطيرة ، وأخطر بكثير مما تقدر ، كائنة وراء هذا التخطيط الذى جادت به قدرة جليلة من عند عزيز حكيم ، والذى يسمو على مستوى مداركنا بما يتجاوز كل قياس .

هل من علم نقيض أو من فلسفة مضادة ؟ !

ثم فلنتساءل سؤالا آخر طبيعيا — فى هذا المقام بالذات — وهو هل نجحت الفلسفة — حتى الفلسفة النظرية فى الروح وفى الوجود — فى تعليل مفارقات الدهر التى لا تحصى ، ومظالمه التى لا تنتهى ؟ هل حلت الفلسفة النظرية حلا مقنعا مشكلات العدل الالهى ، والألم ، والشر ، والتخيير ، والمصير ؟ .. أو هل قدمت للعقل حلولا — أو أشباه حلول — فى هذه الأمور يطمئن اليها حقا العقل الباحث عن الاقتناع ، والوجدان الباحث عن الاطمئنان ؟

اننى أيضا أخشى أن تكون حلول الفلسفة النظرية فى هذه الأمور هى بدورها تدليسا باسم الفلسفة ، لا فلسفة صحيحة • وأخشى أن يكون دور الفلسفة النظرية هنا هو ابعادنا عن الحقائق لا مساعدتنا فى الوصول اليها • فالفلسفة هنا لم تتواضع وتبحث الأمور فى هدوء وفى روية ، كما فعل المنقبون الجادون عن حقائق الروح والوجود فى هدوء وفى روية ، ولمدى عشرات من سنى البحث الحذر ، المثابر ، الناقد ، الموضوعى •

وأسلوب الفيلسوف النظرى يعتمـد أصلا على محض استدلالات مرتجلة لحل القضايا الكلية قد تصيب وقد تخطىء ، بل تخطىء غالبـا أكثر مما تصيب • وهو لا يشعر أنه مطالب بتقديم الدليل على صـحة ما يقول ، واذا قدمه فهو فى كثير من الأحيان من ضروب المصادرة على المطلوب • أما أسلوب الفيلسوف أو المفكر الوضعى فهو يعتمد فى كل لبنة من لبناته على محض وقائع جمعها فى مثابرة وتأن على أوسـع نطاق ممكن ، وأخضعها لأسـلوب التمحيص الناقد والتحليل الدقيق • ولذا فهو فى المعتاد أكثر اعتدالا فى استدلالاته ، وأكثر تدقيقا فيها وأكثر قدرة على اتباعها والدفاع عنها • وبالتالى فهو أقرب الى الوصول الى قلب الأمور من الأسلوب الأول •

واذا كان هـذا هو شأن الفلسفة الوضعية فى الكشف عن مجاهل الوجود المـادى ، فهو شأنها أيضا ــ ومن باب أولى ــ فى الكشف عن مجاهل وجودنا الروحى التى هى أعصى من غيرها على الارتياد الآمن • ولذا كان الفيلسوف هنرى برجسون على حق تماما عنـدما لاحظ منذ أكثر من سـتين عاما أنه : « لو انصرف العـلم الى شئون الروح أول ما انصرف ، لظل غير يقينى ولا دقيق مهما تقـدم • ولعله ما كان يميز عندئذ بين ما هو ممكن فحسب ، وبين ما ينبغى أن يقبل قبولا نهائيا •

أما اليوم ــ وقد أصبحنا بفضـل دراستنا نحسن هـذا التمييز ، وتتمتع بالمزايا التى تقتضيها ــ فاننا نستطيع أن نغامر بدون ما خوف فى هذا الربع الذى لم يكد يستكشف بعد ، ربع الوقائع الروحية • فلنتقدم

فى جرأة عاقلة ، ولنلق عن أكتافنـــا تلك الميتافيزياء (ما وراء الطبيعة) السيئة التى تعرقل حركاتنا • ويقينى أن علم الروح سيؤدى الى نتـــائج تفوق كل ما نرجوه من آمال »(١) •

* * *

ولقد أدى علم الروح فعلا الى نتائج تتجــاوز بكثير كل ما توقعه برجســـون من آمال ، ومايزال كل يوم يتكشف عن الجديد المذهل من التكوين الروحى للانسان وللكون ، ومن أسرار سلوك علاقتهما معا • هذه العلاقة التى هى أساس علم المنطق • وبدون تحديدها تحديدا صحيحا هيهات أن يستقيم منطق صحيح فى اطار أى علم أو أى اعتقاد •

ومع ذلك فقد سألنى أحد الأصدقاء قائلا لى يوما : لكن فى خصوص العودة للتجسد بالذات — هل أنت راض عن هذه العودة الى مستوى هذه الحياة المليئة بصنوف الآلام والأسقام ، والمخــاوف والأهوال ؟ ! وكان يتصـــور أنه قد حسم هـــذه القضية الكبرى بســؤاله الذى قد لا يختلف فى الاجابة عنه اثنان من البشر •

وجوابى هو الآتى : أننى عنـــدما بنيت اقتناعا هادئا مدروسا عن طريق دراسة الظواهر الروحية بدوام الحياة بعد موت الجســد شعرت بسكينة بالغة ، واطمئنان فى البال لم يخطر لى من قبل على بال • وذلك لأن الموت بمعنى الفناء أو الرقاد فى مكان ســحيق من شأنه أن يؤرق كل انسان ويقض مضجعه ، حتى لو لم يكن واعيا للأرق ، بل غافلا عن الموت بمقدار غفلته عن الحياة •

أما عندما درست فى شك بالغ وفى حذر شديد — قضــية العودة للتجسد ، وتصفحت جانبا ليس بالقليل من وثائقهــا وأسانيدها العلميــة والفلسفية وكنت من قبل غافلا عنها بل جاهلا بها ، والناس دوما أعداء

---

(١) للمزيد عن آراء برجسون فى الروح والبحث الروحى والتطور ، راجع ما ورد فى « المفصل » الجزء الأول ص ٣٧٢ — ٣٧٥ والجزء الثانى ص ٣١ — ٣٧ •

لمــا جهلوا ــ فقد أصبحت فجيعتى فى نفسى لا توصف ، وألمى لا يطاق لأننى كنت أتمنى أن يكون دوام الوجود بعيدا عن دنيا الآلام والأهوال من المهد الى اللحد هذه .

لكننى ما لبثت أن أدركت أننا نعود للتجســد من جديد ، لأننــا بحاجة الى المزيد من النضج والتطور . أى أن نواحى العجز والقصور التى فينا تعود بنا من جديد الى مدرسة الحياة الأليمة هــذه . وبذلك يمنحنا القدر الرحيم بنا أكثر من فرصة حتى ننجح فيما فشــلنا فيه من قبل ، وحتى نعرف كيف نتغلب تدريجيا على كل ما فينا من أوجه لاتحصى للعجز وللقصور . ويكون ذلك أفضل ــ بلا ريب ــ من الخلود فى عالم آخر قد يكون حافلا بآلام وأهوال قد لا تعد أهوال الأرض بجانبهــا شيئا ، لأنه عالم لا حدود له فى الزمان ولا فى المكان ، ولا فى الوجدان أيضا ، والوجدان هناك أكثر حساسية بكثير من الوجدان هنا .

* * *

ونواميس الطبيعة ــ فى نهاية المطاف ــ تعمل تلقائيا . ولا تأخــذ مقدما رأيى ــ أو رأيك أيها الصديق الفاضل ــ فيما ينبغى أن تعمله . ولا يعنيها كثيرا أن نرضى منها أم نغضب ، وأن نسكت لهــا أم نثور . لكنها تريد بنا الخير الصحيح فى النهاية ، وتحقق فينا هدفا معينا علينا أن نتقبله ونعيه باليسر أو بالعسر . وهو هدف التطور والارتقاء الذى لا يعادله هدف آخر لامكان نجاحنا فى الحياة ونجاح الحياة فينا .

وناموس التطور والارتقاء لا يعــادله فى خطورة دوره أى ناموس آخر من النواميس الكبرى للطبيعة . بل يكاد يكون هو الســيد الآمر على تسلسل الأمور وتعاقب الأحداث . وقد اعتدنا أن نتحداه دائمــا ونقــاومه : ثم نصرخ فى ســذاجة متسائلين لمــاذا الفشل ؟ ! ولمــاذا العجز ؟ ! متجاهلين تماما أن هناك ناموسا اسمه التطور والارتقاء ، بكل ما يتطلبه من تكيف متواصل مع منطق العصر ، والبيئة ، وحقائق الوجود

التى يتبارى العلماء فى سرعة الكشف عنها ، أما نحن فنتبارى فى اغلاق النوافذ ، حتى يتسنى لنا طول الرقاد،والرقاد لايحلو عادة الا بعد احكام الصمت والظلام. لذا عنيت بالتركيز على هذا الناموس فى مناسبات شتى من هذا الكتاب — ومن غيره — سائلا المولى ألا يضيع صوتى صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد . ومازلت أعتقد أننا ما لم تتنبه الى هذا الناموس الأزلى فان طريقنا سوف يظل محفوفا بالمصاعب والمتاعب . وبمقدورنا أن ننجو منها أو من بعضها ، لو أحسنا فهم الأمور ، ولو واجهنا مشكلاتنا — المتطورة دواما ولماما — ببعض التطور فى عقولنا ووجداننا ، وببعض الفطنة فى تقديراتنا وأحكامنا .

بعض الأعلام

والفطنة فى أبسط صورها ترفض الجمود فى كل صوره . وفى الفطنة وحدها تكمن كل قضايا الروح والخلود ، وكل مشكلات الأخلاق والتربية ، وفلسفة الحياة والوجود ، التى تشد انتباه صفوة الفلاسفة والمفكرين فى العالم ، خصوصا منهم أولئك الأعلام الذين اتصلوا بالبحث الروحى — عن قرب ولمدى عشرات السنين — بحثا عن الحقيقة وحدها .

ولذا نجد أن من بين الأسماء التى ترددت كثيرا فى صفحات هذا الكتاب بجزئيه عشرات من أعلام الفلسفة ، والفكر ، والبحث العلمى العميق ، ومن أرفعهم مستوى ، وأدعاهم الى الثقة فى صحة النتائج التى وصلوا اليها . ويكفى أن يكون منهم : —

— وليام جيمس وهو أبرز اسم فى الفلسفة الأمريكية حتى الآن .

— هنرى برجسون وهو أبرز اسم بين فلاسفة هذا القرن فى العالم أجمع .

— رودلف شتاينر وهو أبرز فيلسوف وملهم سويسرى فى هذا القرن .

ـ فردريك مايرز ، أستاذ النفس بكامبريدج ، وهو واضع حجر الأساس فى دراسة الظواهر الروحية .

ـ كامى فلاماريون ، وهو من أبرز الأسماء فى العلوم الروحية وفى الفلك ، ومؤسس « الجمعية الفلكية الفرنسية » .

ـ كارل يونج وهو أبرز اسم فى علم النفس المعاصر .

ـ طائفة من علماء النفس ذوى السمعة العالمية : وعلى رأسهم سيجموند فرويد ، وألفرد آدلر ، ووليام مكدوجال ، و ج.آ. هادفيلد...

ـ تشارلى دانبار بروض الأستاذ بكامبريدج وهو أبرز اسم فى فلسفة النفس والروح من البريطانيين فى القرن الحالى .

ـ آلان كاردك وهو أبرز اسم فى الفلسفة الروحية منذ ظهور فلسفة علم الروح الحديث حتى الآن .

ـ أوليفر لودج وهو علم لا يبارى فى الفيزياء ـ وبوجه خاص فى الأثير ـ وفى الروح .

ـ ألفرد راسل والاس وهو من أبرز الأسماء فى البيولوجيا ، وبالذات بسبب اعلانه نظرية التطور منذ سنة ١٨٥٨ .

ـ شارل ريشيه وهو من أبرز الأسماء فى الفسيولوجيا وحائز على جائزة نوبل فيها .

ـ ألكسيس كاريل وهو بدوره من أبرز الأسماء فى الفسيولوجيا وحائز على جائزة نوبل فيها .

ـ طائفة من صفوة علماء الفيزياء ، وكلهم من الحائزين على جائزة نوبل فيها ، وهم بولى ، وديراك ، وفاينمان .

ـ لفيف كبير من أعلام وأساتذة الباراسيكولوجى بالجامعات والمعاهد ذات المكانة الدولية : وعلى رأسهم كارل ويكلاند ، وتيتوس بول ، وناندور فودور ، وجيمس هايسلوب ، وهيروارد كارنجتون ،

وجوستاف جيلى ، وأوجين أوستى ، وجان بريير ، ودرايتون توماس ، وبول بيرد ، وجوزيف راين ، وأيان ستفنسون ، وجورج آوين ، و و. هـ. تنهايف ، وروبرت كروكول ، وارنستو بوزانو ، وأتريكو ايمودا ، وجلين هاملتون ، وأوتو فرانك ، وايكيهارت ، ودى اكستدس ، و ك. أ. شميدت ... وغيرهم من العلماء الذين أفنوا حياتهم فى تجميع الوقائع وتحليلها ، وأصبحت أسماؤهم أشهر من نار على علم فيهـا .

ـ طائفة من أعلام العلوم المغناطيسية : وعلى رأسهم دي روشا ، وشارل لانسلان ، وجيرار أنكوس ، وآرنول بلوكسهام ، ودنيز كلزى ، وهانز هولزر ، وجون بجورخم ... وغيرهم ممن قاموا بأدوار جليلة فى كشف بعض مجاهل اللاشعور فى الانسان ، وفى تخفيف بعض مصادر آلامه ومتاعبه النفسية ، التى فشلت فى تخفيفها سبل علم النفس التقليدى .

* * *

وضخامة هذه الأسماء ، مع علو مكانة أصحابها فى فروع تخصصهم ، مع اتباعهم كل المتطلبات الصارمة للمنهج العلمى الصحيح ، اعتبارات تضفى على انتاجهم مستوى رفيعاً من العمق والترابط . وذلك من شأنه أن يبعث على الثقة فى قيمة هذا الانتاج ، كما يتطلب منا الأناة المفرطة فى محاولة استيعابه ، والالمام به الماما صحيحا للافادة الفعلية منه .

وهذه الأناة تتطلب من الدارس الجاد أن يطالع ما يقرؤه بإمعان كاف ، وبهدوء تام . وأن يعيد المطالعة أكثر من مرة حتى يتمكن من الاستيعاب الصحيح ، ومن الاحاطة الكافية بكل عناصر الموضوع الذى تشعبت عناصره وتغلغلت الى العديد من جوانب العلوم الطبيعية والانسانية ، فى آخر مراحل تطورها .

وينبغى ـ منذ البداية ـ أن تضع فى الاعتبار أنك ما أصبحت من رجال الطب ، أو الكيمياء ، أو النفس ، أو الفلسفة ، أو الدين ، أو الهندسة ، أو القانون ..... الا بعد أن استوعبت استيعابا كافيا العشرات

من المراجع على مدار العشرات من السنين ، حتى أصبحت متوافرة لديك حصيلة آمنة مستقرة من المعطيات العلمية الثابتة فى فرع تخصصك .

وهذا هو بالضبط ما يلزمك الآن اذا ما أردت أن تكون لنفسك حصيلة آمنة مستقرة من المعطيات العلمية الثابتة فى اطار النفس والروح. أو بالأدق فى علم النفس الروحى ، حسبما تكشفت عن معطياته جهود صفوة علماء وفلاسفة القرن الذى فيه نعيش .

وهذه الصفوة من العلماء والفلاسفة ليس من شيمتها التسرع أو الارتجال ، وليس من أهدافها الغلو أو المغالطة ، وليس من أساليبها الجمود أو التعالى ... بل ان هدفهم الوحيد هو الوصول الى حقائق الأمور فى صبر ومثابرة ، مدركين تماما أنهم يخوضون فى أخطر قضايا طرحت على محكمة العقل والضمير منذ عرف الانسان طريقه الى تحكيم العقل والضمير .

وهذه القضايا حسمت نهائيا الآن الحسم الذى تعاد فى ضوئه صياغة العديد من جوانب العلوم الطبيعية كالبيولوجيا والفيزياء . والعلوم الانسانية كالنفس ، والأخلاق ، والتربية ... فكلها علوم خاضعة لقانون التطور بمقدار خضوع تكويننا الروحى وأساليب سلوكنا لهذا التطور ، اذا ما آثرنا التقدم على الجمود ، والارتقاء على النكوص للوراء .

بعض معالم على الطريق

واذا ما آثرنا التقدم على الجمود وجدنا فى كل خطوة من الخطوات الهامة التى قطعها الباراسيكولوجى ما يدعو الى تطوير معلوماتنا عن الحياة ، وتغيير مفاهيمنا التى رسخت فى الأذهان الى مفاهيم أخرى أصح من سابقتها و أضبط .

فالوقائع التى سجلتها أبحاث الباراسيكولوجى أكثر من أن تكون مجرد وقائع طريفة وجديدة بل هى وقائع مفرطة فى خطورتها ودلالتها . ومن حقها أن تشد انتباهنا الى تلك المفاهيم الروحية المتطورة ، شدا معززا بالأسانيد العلمية ، مدعما بما وصل اليه البحث العلمى المثابر من

حقائق الوجود ، التى أضحت بمثابة معالم على طريق التطور الروحى للانسان .

والمعالم الواردة فى هذا الكتاب عديدة ، وكل معلم منها أخطر من سابقه ، ولتذكرة القارىء ببعضها أشير هنا الى طائفة ليست باليسيرة من أهمها :

— ما ورد فى الباب الأول (جـ ١) من أن سيجموند فرويد قد غير اتجاهه تغييرا جذريا فى انتاجه الأخير ، خصوصا فى كتابه « ما فوق مبدأ اللذة » ، وأخذ ينادى بأن الموت لم يعد فناء للنفس ، وأنه سلم بوجود غريزة موت تدفع الكائن الحى الى الرجوع الى الحالة غير العضوية السابقة للحياة (١) . وبالتالى فان الموت أصبح عنده « مجرد عودة للكائن الحى من الحالة العضوية الى الحالة اللاعضوية التى جاء منها » (٢) .

— وما ورد فيه أيضا من أن خليفته كارل يونج اقتنع بصحة الظواهر الروحية ووضع فيها رسالته للحصول على الدكتوراه فى علم النفس منذ سنة ١٨٩٩ ، بما فى ذلك الاتصال ببعض أرواح ذويه عن طريق وسيطة من ذوى قرباه (٣) .

— ومنها ما ورد فى الباب الثانى عن ظهور الباراسيكولوجى وتطوره ومستوى العلماء والهيئات التى دفعت بهذا التطور قدما الى الأمام ، حتى أصبح يطلق عليه الآن وصف « علم العلوم »(٤) .

— وما ورد فى نفس الباب عن مدى الاهتمام المعاصر بأبحاث الباراسيكولوجى ، وعن صلتها بالسيكوترونات ، وعن تحولها الى موضوعات لتخصصات متنوعة عديدة (٥) .

---

(١) جـ ١ صفحة ٣٤ .
(٢) جـ ١ صفحة ٧٠ .
(٣) جـ ١ صفحة ٧٨ — ٨٠ .
(٤) جـ ١ صفحة ٩١ وما بعدها .
(٥) جـ ١ صفحة ١٦٨ وما بعدها .

ـ وما ورد فى الباب الرابع عن صلة نشاط الروح بنشاط الجسد ، وبالتالى عن تأثير الروح فى نشاط ذرات الجسد ، وبالتالى فى تجدد خلاياه ، وفى صحته بوجه عام(١) .

ـ وما ورد فى نفس الباب عن تصوير الحقل البيولوجى لجميع الكائنات الحية ، وما تكشف عنه هذا التصوير من ثبوت وجود طاقات معالجة عند بعض الأشخاص ، وذلك بأدلة مادية لا صلة لها بموضوع الايحاء أو التأثير النفسى فى المفهوم التقليدى(٢) .

ـ وما ورد فى نفس الباب من ثبوت ظاهرة التجسد الروحى بصور فوتوغرافية مأخوذة تحت أدق سبل الرقابة العلمية فى عدة بلاد ، وهى صور قد نفت ـ نهائيا ـ الدفع بوجود ايحاء ما ، أو أى تأثير نفسى على بعض المراقبين والمختبرين(٣) .

ـ وما ثبت من صحة ظاهرة الطرح الروحى ، مع خطورة دلالتها فى الانباء عن امكان استقلال الروح عن الجسد فى المكان وفى الزمان أيضا(٤) .

ـ وما تبين من ظهور مفاهيم علمية جديدة للفطرة ، وللتطور ، وللغرائز ، وللاحساس بالمجهول ، وللعبادة ، وللتأمل ، وللحب ، وللأحلام ، وللالهام ... تغاير تماما مفاهيم الماضى القريب وأدت الى اعادة النظر فى كل معطيات علم النفس التقليدى (٥) .

ـ وما تبين من وجود صلة مباشرة بين العقل والمادة الصلبة ، تتجلى واضحة فى تأثير العقل فيها تأثيرا مباشرا ، وهو الأمر الذى يعطى أبعادا جديدة لقدرات العقل ، ويسبغ على العقل البشرى قيمة قصوى

---

(١) جـ ١ صفحة ٢٤٧ وما بعدها .
(٢) جـ ١ صفحة ٢٧٨ وما بعدها .
(٣) جـ ١ صفحة ٣٢١ وما بعدها .
(٤) جـ ١ صفحة ٣٧٦ وما بعدها .
(٥) جـ ١ صفحة ٤٢١ وما بعدها .

فى تسلسل الأحداث . ومع العقل أيضا كل ما يرتبط به من مشاعر وانفعالات ، بحيث لا يستطيع آى انسان أن يفلت من تأثير هذه القدرات الفعالة التى يملكها العقل والشعور ، وهذا ما عجز عن اكتشافه علم النفس التقليدى (١) .

— وما تبين من ظهور مفاهيم جديدة لقدرات الارادة الانسانية ، ولصلة هذه القدرات بموضوعات الاحساس بالزمن . خصوصا منها قدرة بعض الأشخاص على استشعار الأمور المستقبلة استشعارا صحيحا ، سواء أكانوا موجودين على مستوى المادة ، أم على مستوى ما بعد المادة . مما يلقى أضواء بالغة الأهمية على مفهوم الزمن ، وصلة العقل بالزمن ، ومبدأ حرية الاختيار ، وترابط الاحساس بالزمان وبالمكان ، وغير ذلك من مشكلات عويصة لم يحلها علم النفس التقليدى(٢) .

— وما تبين من ثبوت ظاهرة المس الروحى وصلتها الوثيقة بالعديد من الاضطرابات النفسية والعصبية بأدلة معملية حاسمة . وقد أدى ذلك الى ظهور سبل جديدة لمواجهة هذه الاضطرابات تغاير تماما تلك السبل البالية التى يشير بها علم النفس التقليدى(٣) .

— وما تبين من ثبوت قضية العودة للتجسد أو الوجود السبقى للروح على المادة بأدلة معملية عديدة أقنعت « لجنة الخبراء الدوليين » بالولايات المتحدة الأمريكية منذ سنة ١٩٧٩ بهذا الثبوت ، ناهيك بالعديد من قمة العلماء والدارسين(٤) .

— وما تبين من أن طائفة ضخمة من مشكلات التطور التى كانت لا تلقى حلا لها فى علم النفس التقليدى وجدت حلها المناسب فى اطار ثبوت هذه العودة للتجسد(٥) .

(١) جـ ١ صفحة ٥٧٤ وما بعدها .
(٢) جـ ٢ صفحة ٦٠٧ وما بعدها .
(٣) جـ ٢ صفحة ٧٤٧ وما بعدها .
(٤) جـ ٢ صفحة ٩٤٣ وما بعدها .
(٥) جـ ٢ صفحة ١٠٩٣ وما بعدها .

ـ ومثل ذلك أيضا يصدق على طائفة ضخمة من مشكلات اللاشعور التى كانت لا تلقى حلا لها عند القول بأن اللاشعور يرجع الى تاريخ ولادة الانسان ، ثم وجدت حلها المناسب عند ارجاع هذا اللاشعور الى ما قبل الولادة بقليل أو بكثير(١) •

ـ وهذا المفهوم الموسّع للاشعور دفع كارل يونج ـ مؤسس مدرسة علم النفس التحليلى ـ الى النظر للانسان بوصفه كائنا روحيا ـ فيزيقيا يعبّر عن حقيقة روحية ، أو هو يمثل شطرا من حقيقة روحية • وعندما يتحدث يونج عن أمر روحى فهو يتحدث فى نفس الوقت عن أمر حقيقى ، رفيع ، موجود من قبل • أو بالأدق رفيع من قبل أن يوجد بحسب تعبيره(٢) •

ـ وما تبين أيضا من حدوث ظواهر للاستشفاف السمعى وللكتابة التلقائية لها اتصال وثيق بنشاط اللاشعور وعن طريقها أمكن ـ لوسطاء معدومى أو محدودى الثقافة والاطلاع ـ تلقى المئات ، بل الآلاف ، من الكتب والمخطوطات الفلسفية والعلمية والأدبية القيّمة الصادرة عن أشخاص منتقلين معروفين بالذات • وهى تحوى كل خصائص أسلوبهم • وأحيانا أمكن عمل مضاهاة ايجابية للخطوط ، ناهيك بمقدرة بعض الوسطاء على الحديث أو الكتابة بلغات لا يعرفون منها حرفا واحدا عندما يكونون فى تمام شعورهم(٣) •

ـ وما تبين من وجود صلة وثيقة بين بعض ظواهر الاختبار الصوفى الراقى ، وبين نشاط اللاشعور فى جانب بالأقل من جوانبه التى يطلق عليها « العقل الأسمى » • وهذا الاختبار له بالتالى صلة ـ ثبتت علميا الآن ـ بالتراث الأدبى الرفيع الذى تركه للتاريخ عدد من صفوة المتصوفين فى الشرق والغرب(٤) •

---

(١) جـ ٢ صفحة ١١٤٨ وما بعدها .
(٢) جـ ٢ صفحة ١١٦٠ وما بعدها .
(٣) جـ ٢ صفحة ١١٨٩ وما بعدها .
(٤) جـ ٢ صفحة ١١٩٦ وما بعدها .

ـ وما تبين من وجود صلة وثيقة بين بعض ظواهر رؤى المحتضرين، ونشاط اللاشعور فى الانسان عند وقوع البعض فى غيبوبة الاحتضار الصحيح أو الخاطىء . وهذه الظواهر ـ التى تنتمى الى نشاط اللاشعور ـ يجرى تحقيقها الآن على نطاق واسع فى اطار الباراسيكولوجى، وهى مجهولة تماما من علم النفس التقليدى ، وقد تكشفت عن حقائق هامة جديدة بشأن التكوين الروحى للانسان وبعض أسرار سلوكه (١) .

ـ وما تبين أيضا من أن هنالك تطورا يجرى بداخل كل ذات انسانية من اللاشعور الى الشعور ، وأن لهذا التطور أثره فى تفسير العديد من ألغاز النشاط الفسيولوجى والسيكولوجى ، ودورات النمو فى مجرى الحياة ، وفى النهاية له أثره فى تخطيط مستقبل الانسان ، وفى تطور وعيه ، وكل هذا ميدان جديد تماما على علم النفس (٢) .

ـ وما تبين من أن العقل الانسانى يطوى بين جوانبه عدة مراحل ، كل مرحلة منها متميزة عن زميلتها ، لكنها ملاصقة لها مثل تلاصق وريقات برعم الزهرة أو فصوص البرتقالة . وبالتالى فان لكل مرحلة منها تأثيرها المتميز فى سلوك صاحبها عن تأثير سائر المراحل الأخرى ، وهذه هى « النظرية المركبة للعقل » التى تلقى أضواء جديدة على سلوك الانسان لا مقابل لها فى علم النفس التقليدى(٣) .

ـ وما يتبين من أن اختبارات « ارجاع الذاكرة الى الوراء » فى غيبوبة التنويم المغناطيسى لها استخدامات مفيدة فى شفاء العديد من الاضطرابات النفسية والعصبية التى ما يزال علم النفس التقليدى يقفه عاجزا ازاءها(٤) .

---

(١) جـ ٢ صفحة ١٢١٢ وما بعدها .
(٢) جـ ٢ صفحة ١٢١٩ وما بعدها .
(٣) جـ ٢ صفحة ١٢٥٥ وما بعدها .
(٤) جـ ٢ صفحة ١٢٧٢ وما بعدها .

— وما تبين من أن الباراسيكولوجى أمكنه الوصول الى مراحل متطورة تماما فى الكشف عن بعض أسرار التكوين الروحى للذات الانسانية فى عالم الأثير ، أى فى ذلك العالم الوراء المادى الذى يقطنه الانسان بعد تخليه عن جسده العضوى البالى(١) •

— وما تبين من وجود نواميس طبيعية لها وثيق اتصال بالتكوين الروحى ، والروحى — العضوى للانسان ، تتمثل فى نهاية المطاف فى ناموس واحد وهو ناموس «الكارما» المرتبط وثيق ارتباط بمفهوم العدالة المطلقة ، كما نادت به أعرق الفلسفات منذ فجر التاريخ الى الآن(٢) •

* * *

وهذه المعالم المتنوعة ليست مشتتة فيما بينها ، ولا هى معزولة عن المعالم القائمة على المسالك المتعددة للعلوم الطبيعية بوجه خاص ، بل نجمعها فيما بينها روابط وثيقة تعادل فى قوتها تلك الروابط التى تربطها بمسالك العلوم الأخرى •

ومن هنا تجىء قيمتها التى نبهت العلماء الى ضرورة دراستها وتحليلها الى الآلاف — بل الملايين — من القضايا الجزئية الجديرة بالتحليل الدقيق ، وهذه هى مهمة العلم فى مفهومه الصحيح • كما نبهتهم الى ضرورة تأصيلها فى القضايا الكلية التى يهم العقل البشرى الوصول الى حلول صحيحة لها ، وهذه هى مهمة الفلسفة فى مفهومها السليم •

وكم من أمور — مثل أمور الروح والخلود — بدأت محض قضايا فلسفية خاضعة لمضاربات الارتجال والاستنتاج المتسرع • وبالتالى كانت موضوعا لأخطاء لا تحصى ، لكنها تحولت مع الوقت الى قضايا علمية بسبب تغلغل العلم فى دراسة ظواهر قديمة لكن بأساليب ومفاهيم متطورة ، ومغايرة تماما لأساليب الماضى البعيد أو القريب •

---

(١) جـ ٢ صفحة ١٣٤٢ وما بعدها .
(٢) جـ ٢ صفحة ١٣٩٦ وما بعدها .

ومن هنا ابتدأت الحقائق تتكشف تدريجيا ، ووصل العقل العلمى اليها ببطء بالغ وفى عناء شديد • وما كان ليصل اليها لو أنه أصر على أن يعتبرها محض أمور فلسفية ، وأن يواجهها بمحض أسلوب المضاربة والارتجال كما كانت الحال الى منتصف القرن التاسع عشر بالنسبة لكل قضايا الروح والخلود •

ومن هنا أيضا ابتدأ يظهر الترابط بين هذه القضايا ، وقضايا العلوم الطبيعية كلها : ومنها بوجه خاص علم الحياة أو البيولوجيا ، وعلم وظائف الأعضاء أو الفسيولوجيا ، وعلم الطبيعيات أو الفيزياء ، وعلم النفس أو السيكولوجيا ، وما وراء النفس أو الباراسيكولوجيا وهو آخر أطوار علم النفس •

ومن هنا ظهرت تدريجيا الحاجة الى دراسات موسعة وشاملة لنواحى هذه العلوم كلها • وذلك بغية الوصول الى الأغوار الصحيحة للتكوين الانسانى وبعض أسرار سلوكه • ولاشباع هذه الحاجة ظهرت معاهد عديدة متخصصة فى دراسات الانسان •

وكان لذلك صداه بطبيعة الحال فى هذا المؤلف الذى قصدت ألا أقصره على محض النواحى النفسية أو الروحية فى تكوين الانسان ، بل دفعنى تحقيق الترابط العلمى فى بعض مواضع منه الى الحديث فى البيولوجيا والفيزياء أيضا من بعض جوانبهما العامة ، وذلك بالقدر اللازم لهذه النواحى بالذات •

ماذا عن دور المبادىء والأخلاق ؟

وهذه المعالم على الطريق — التى بينت بعضها آنفا — تشير مجتمعة الى وجود حركة تطور ضخمة تجرى الآن فى العالم تشبه حركات التطور التى لازمت تسلسل الأحداث الهامة منذ فجر التاريخ ، ومنها قيام الحضارات وذبولها •

والحضارات لا تقيمها هتافات الطرقات ولا مزايدات الكتاب والمؤلفين ، بل يقيمها ظهور اتجاهات روحية معينة تفرض نفسها على الحياة بأساليب تعلو فى كثير من الأحيان على التفسير التاريخى ، بل على التسلسل الذى قد يظهر طبيعيا ومألوفا للأحداث •

وهى مستقلة أيضا عن أساليب الغزو أو الاستعمار الأجنبى البغيض التى عرفها التاريخ ، لكنها ليست مستقلة تماما عن غزو المبادىء والأفكار الذى قد يجىء من عالم الغيب فى صورة ومضات أو « دفعات حية » بحسب تعبير برجسون • وهذه الدفعات الحية قد تحدث تأثيرات قوية فى اتجاهات الشعوب وقيمها الأخلاقية السائدة •

وهذه الدفعات الحية من المحال أن تكون كلها صوابا ، أو أن تعتمد على المنطق المترابط • وذلك لأنها وثيقة الصلة بخصائص الجماهير ، وبما يمكن لهذه الجماهير أن تتقبله أو أن ترفضه من أمور • والقبول والرفض يخضعان فى النهاية لمستوى هذه الجماهير من النضج والتعقل ، ومن تاريخها ، ومن أمانيها وتطلعاتها ، ومن مخاوفها ومتاعبها ، وظروفها الطبيعية والجغرافية ••••

وهذه الاعتبارات مجتمعة لا تترك للجماهير دورا يذكر فى الوصول الى الحقائق ، ولا فى الارتباط بالمبادىء والأخلاقيات الصحيحة • وقلما يكون سادة الجماهير من ذوى الأخلاق الرفيعة • بل ان وسائلهم فى تحقيق أهدافهم ــ وكانت وما تزال ــ هى شر الوسائل : وهى السياسة وكلها كذب وخداع ، والحرب وكلها تدمير وأوجاع •••

ولو عرف الانسان الطريق الحق للتطور الأخلاقى لأمكنه أن يجنب نفسه الكثير من الأهوال التى جاءته عبر تاريخه الطويل عن طريق هذه الشرور ، بكل ما أودعته فى نفوس الجماهير من عقد ومركبات ، وما غرسته فيها من أوهام وترهات •

فلا يتسنى لنا اذا فهم التطور الانسانى فهما صحيحا الا عندما نضع فى الاعتبار آن للأوهام دورا فى تسلسل الأحداث يفوق دور الحقائق بكثير • لكن هناك فارقا ضخما بين أوهام تصنع سعادة الشعوب وأخرى تصنع تعاستها وشقاءها ، أو بين أوهام توجد الأمل ، وأخرى تغرس اليأس ! !

* * *

وفى هذا الشأن يقول الفيلسوف الاجتماعى جوستاف لوبون Custave Lebon — الذى اشترك فى تحقيق العديد من الظواهر الروحية وكان لتحقيقاته صداها فى مؤلفاته التى ابتدأت تظهر منذ أواخر القرن الماضى — ما يلى « للأوهام تأثير دائم يبلغ من الشدة ما يتحول به كل مزاج نفسى تحولا عميقا • ولا مراء فى أن الانسان هو الذى يخلق آلهته (١) ، ولكنه اذا ما خلقها استعبدته من فوره • وليست الآلهة وليدة الخوف كما يزعم لوكريس ، بل هى وليدة الأمل ، ولذلك تبقى ذات نفوذ أبدى ••••

والذى أنعمت الآلهة به على الانسان حتى الآن ، والآلهة وحدها هى التى استطاعت أن تنعم به ، هى الحال النفسية التى تنطوى على السعادة ، ولا تجد فلسفة استطاعت آن تحقق مثل هذا العمل •

والنتيجة ، ان لم تكن الغاية لكل حضارة ، ولكل فلسفة ، ولكل ديانة ، هى احداث بعض الأحوال النفسية • ومن هذه الأحوال مايتضمن السعادة ، ومنها ما لا يتضمنها • وتتوقف سعادتنا على أحوال خارجية لا ريب ، ولكنها ترجع الى حالتنا الروحية على الخصوص •••

وأول ما يجب آن يبحث عنه المجتمع هو ايجاد حال نفسية تجعل الانسان سعيداً ، وان لم يفعل المجتمع ذلك لا يكتب له طول بقاء • وقد

---

(١) بمعنى أن مفهوم الالوهية يتباين من انسان الى آخر ، ويتشكل دواما بحسب طبع كل انسان ، واخلاقه واختباراته ، وذكائه ، وثقافته ، وتكوينه الروحى ••••

استندت جميع المجتمعات التى قامت حتى الآن الى مثل عال قادر على اخضاع النفوس ، وهذه المجتمعات قد اضمحلت بعد أن عاد ذلك المثل لا يخضعها .

ومن أكبر أغاليط العصر الحاضر أن يعتقد وجود السعادة فى الأمور الخارجية وحدها . فالسعادة تقيم بداخلنا ، وهى مما نوجده ، وهى لا تكون خارجة عنا تقريبا . ونحن بعدأن حطمنا المثل العليا للأجيال القديمة نبصر اليوم صعوبة العيش بدونها ، ويجب أن نجد سر استبدال غيرها بها خشية الزوال » (١) .

كما يقول لوبون هذه العبارات — التى تمثل خلاصة اقتناعه بالخلود — « ان المزاج النفسى للعرق (بمفهوم السلالة) لا يمثل خلاصة أفراده الأحياء وحدهم ، بل يمثل على الخصوص المزاج النفسى للأجداد الكثيرين الذين أعانوا على تكوينه . والأموات لا الأحياء هم الذين يمثلون أهم دور فى كيان الأمة . والأموات هم موجدو أدب الأمة ، والعوامل اللاشعورية تسيرها (٢) » .

ثم يقول « ان حياة الأمة وجميع مظاهر حضارتها صدى لروحها ، وهما دلائل منظورة لأمر حقيقى غير منظور ، وما الحوادث الخارجية الا صورة ظاهرة للوقائع الخفية التى تعينها . وأن أخلاق الأمة على الخصوص ، لا المصادفة ، ولا الأحوال الخارجية ، ولا النظم السياسية ، هى التى تمثل الدور الأساسى فى تاريخها » .

---

(١) « السنن النفسية لتطور الأمم » ١٨٩٤ . ترجمة عادل زعيتر . طبعة ٢ سنة ١٩٥٧ صفحة ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) يلتئم هذا النظر مع نظرية العلامة كارل يونج عن « اللاشعور الجماعى » راجع ما سبق عنه فى صفحة ١١٧٠ — ١١٧٦ ،مقارنا بجوستاف لوبون . المرجع السابق صفحة ٣٣ — ٣٤ . كما يلتئم مع رأى ألفرد راسل والاس فى تعليل التطور . راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ٤٤٧ — ٤٥١ .

ويقول أيضا « ان حيازة الأمة لروح جامعة متينة التركيب تكون آية بلوغ هـذه الأمة أوج عظمتها . ويكون انحلال هـذه الروح نذير انحطاطها . ويكون دخول عنـاصر أجنبية فى الأمة من أصـح الوسائل لبلوغ مثل هذا الانحلال » .

ثم يقول « ان المبادىء يجب أن توضع بجانب الأخلاق كعامل رئيسى فى تطور الحضارة . ولا تؤثر هذه المبادىء الا بعد أن تتحول بتطور بطىء الى مشاعر فتصبح جزءا من الأخلاق ، فهنالك تتفلت من تأثير الجـدل ولا تزول الا بعد زمن طويل . وتشـتق كل حضـارة من عدد قليل من المبادىء الأساسية التى يجمع الناس عليها »(١) .

* * *

وهذه المبادىء لا تصبح مشـاعر للجماعات ، وبالتـالى جزءا من أخلاقها ، فى يسر ولا فى سهولة . بل هى دائما بحاجة لمن يدافع عنها ضد أعدائها من الغزاة البغاة . وأخطر أعداء المبادىء مبادىء أخرى نقيضة لها تماما ، لكنها تعتمد على المراوغة والمداهنة فى اخفاء وجههـا الحقيقى ، فتبدو مبادىء صديقة وأليفة ، وهى ليست من الصـداقة ولا من الألفة فى شىء .

ومن هنا يمكن بسهولة أن تخدع الجماهير وتتسـلل الى أخلاقها ومشاعرها ، لأنها — على نحو أو آخر — تتملق رغباتها وغرائزها ، فتصبح مع الأمد الطويل جزءا من أخلاقها ، وستارا لمـا هو خاطىء من قيمهـا وأحكامها . وبالتـالى مصـدرا للتدمير لا للبنـاء ، ودافعا للانحلال والتدهور بدلا من التطور والارتقاء .

ولا يحول دون الانحلال والتدهور الاحتكام الى انفعالات غريزة الاحساس بالمجهول ، فان هذا الاحتكام قد يكون بدوره ستارا لكل ما هو خاطىء بل مدمر فى قيم الشعوب وأحكامها . ويدلنا على صـحة ذلك

(١) عن جوستاف لوبون . المرجع السابق صفحة ١٨٣ — ١٨٦ .

منطق التــاريخ ، ان كان للتاريخ منطق نعيه • فما أكثر المــآسى التى وقعت باسم انفعالات هذه الغريزة ، وما أكثر ما اضطهد الأبرياء فى الغرب والشرق وسفكت الدماء النقية باسم الدفاع عن المبادىء والأخلاق طورا ، وباسم الدفاع عن حرمات الاعتقاد أطوارا ! !

ولذا كانت المبادىء الأمينة بحاجة الى جنود شــجعان أوفياء لكى يذودوا عنها دواما فى نبل واباء • ولكى يضــعوا الأمور فى نصــابها ، ويوجهوا النفوس الى لبابها ، غير ملقين بالا الى وعد أو وعيد •

وهؤلاء الجنود يعملون بايحاء من لاشعورهم الأسمى ، وبالهـام من عالمهــم الأســمى • وهم لا يخشــون عقــابا ولا ينتظرون ثوابا ، بل تدفعهم أنبل دوافع الانســان وأرقى خلجاته التى ترفض كل مجــد دنيوى باطل ، وتنأى تماما عن كل مصدر للقوة الزائفة والسلطان الزائل• ولا يعترفون بوجود حواجز بين الانسان وأخيــه الانسان ، ولا بوجود وسيلة للتفاهم بينهما غير صدق البيان وأمانة الوجدان • ولا طاقة أخرى غير طاقة الحب الذى قال فيه شكسبير بحق « ان الابتسامة خطيئة اذا لم تختلج بالحب » • والحب خطيئة أيضــا اذا لم يختلج بالتضحية وانكار الذات •••

* * *

نعم ان المبادىء النقية يجب أن توضع بجانب الأخلاق بوصــفها عاملا رئيسيا فى تطور الحضارات • ولقد عرضت فى عدة مناسبات لأهم ما تنادى به الفلسفة الروحية من مبادىء ومن أخلاقيات مجمع عليها عند كل الباحثين فى موضوعات الظواهر الروحية •

وهى مبادىء وأخلاقيــات تمثل وحدها الطريق السوى لمســيرة الركب الانسانى نحو حياة أفضل مما عهدنا وأنبل • وهى صخرة النجاة الوحيدة لانقاذ البشرية مما يتهددها من عواصف الغرور ، والتعصب ، والأنانية التى تحاصرها من كل جانب والتى طالمــا ضللت خطى الكثيرين وحطمت حياتهم •

والبديل للمبادىء الروحية هو اعتناق الفلسفة المــادية للوجود ٠ وليست كل فلسفة مادية للوجود تنكر بالضرورة وجود الخالق ، ولا كل فلسفة تعترف بوجود الخالق يصح أن يقال فيها انها فلسفة روحية ٠

فالاعتراف بوجود الخالق أو انكار وجوده موضوع قائم بذاته ٠ وهو لا يمثل الهدف الأقصى للفلسفة الروحية التى يهمها ــ قبل كل اعتبار آخر ــ نوع المبادىء والأخلاقيات التى يلزم أن يتحلى بها الناس فى تنظيم روابطهم وعلاقاتهم ، وفى تخطيط آمالهم وتطلعاتهم ٠ كما يهمها ــ فى المقام الأول ــ مدى الالتزام بالتطبيق الأمين لهذه المبادىء وتلك الأخلاقيات ٠

ففى التطبيق وحــده تعرف الروح كيف تشق طريقهــا الى معرفة بارئها ، ناهيك الى معرفة ذاتها ٠ وبالتطبيق وحده تذوب تلك الحواجز النفسية الشامخة التى أقامها التعصب الأعمى بين الشــعوب والأفراد ٠ وفى هذا الشأن تقع الفلسفة الروحية على النقيض تماما من الفلســفة المــادية ٠

« وهذه الفلسفة المــادية كفيلة بهــدم كل اتزان فى حياة الانسان التى تقع من خارجه ، أى تلك الحياة التى تعبر عنها علاقاته مع نظرائه ٠ فباسم العقل هدم الانسان المنطق ٠ وباســمه قالوا لبنى البشر ان لهم حقوقا ، لكنهم لم ينطقوا كلمة واحدة عن واجباتهم ٠ وآكدوا لهم أنهم أحرار لكنهم كبّلوهم بالأغلال ، وأعلنوهم ســادة مع أنهم جعلوا منهم عبيدا لشهواتهم الخاصة ٠

ألا ترون أنهم لو نبّهوا بنى البشر الى واجباتهم ، بدلا من تنبيههم الى حقوقهم كانت النتيجة ستكون أفضل لهم ؟ لأن الانسان الذى يطــالب بحقوقه فقط يتحول الى انسان أنانى لا يفكر الا فى نفسه ٠

أما عند انجاز الواجبات نحو الآخرين فان الأرض ســوف تمتلىء خيرا وبرا : فافعلوا كل الخير الذى بمقدوركم أن تفعلوه على أحســن

وجه ، ولا تدخروا وقتا ولا جهدا • ولن يعوزكم العمل أبدا اذا كنتم تنجزون واجباتكم من كل قلوبكم •

لا تؤملوا فى اقرار يصدر من أحد الناس بفضلكم ، ولا فى الحصول على ثواب تنالونه ، لأن الاقرار بالفضل نادر فى هذا العالم • بل افعلوا ما تفعلونه لمجد الله وحده ، لا للبحث عن اشباع رغباتكم •

ويلزمنا أن نزيل كل حاجز نحو اخوتنا الذين ينتمون الى أديان أخرى ، أو مذاهب تغاير مذهبنا ، أو حتى اذا كانوا لا يؤمنون بالله ، لأنهم اخوة لنا ، وعلينا يقع واجب حبهم آسوة بالآخرين » (١) •

* * *

وهذا التطبيق الأمين لمبدأ حب الآخرين يتعثر دواما بما فى نفوسنا من أنانية ومن غرور • وليس له مفتاح آخر الا أن تؤثر الخير على الشر ، والمعرفة على الجهالة ، والتقدم على الجمود مهما كبدنا التقدم من مشقة وعناء •

ولا توجد قوة بمقدورها أن تزودنا بالطاقة اللازمة لمواجهة هذه المشقة وذلك العناء الا قوة الاقتناع بالروح كحقيقة وضعية وبخلودها كحقيقة كونية ، وبمبادىء الروح وقيمها الأمينة كحقائق طبيعية ، ليس بمقدورأحد أن يمنعها من أن تسود على كل ظواهر الوجود رغم كل الحواجز والسدود •

وقبل كل شىء توجد قوة الايمان بالله ، وهى تلك القوة التى تصنع المعجزات من داخل الانسان ومن خارجه لو أحسن الارتباط الصحيح بها • ولا يوجد ارتباط صحيح بها خارج نطاق الأخلاق الفاضلة والمعاملة الطيبة للآخرين ، وعلى قدم المساواة فيما بينهم ، مع احساس القلب بالحب الأمين نحو بنى البشر أجمعين •

---

(١) تلخيص عن Ed. Bertholet : La Réincarnation d'après le Maitre Philippe. Paris 1969 P. 65.

أما أن تتصور أن الله واحد عظيم ، لكنه يستجيب لميولنا ورغباتنا ، ويرضى تماما عن شرورنا وغرورنا ، لأننا ــ دون سائر بنى البشر ــ أحباؤه ، وعباده ، فهذا هو التجديف الصريح فى حقه تعالى • وأيضا أن تتصور أنه حتما يمالئنا ويحابينا رغم أحقادنا وآثامنا ، فهذا أيضا من صور التجديف التى طالما ضللت خطى شعوب عديدة ، وسلالات متعاقبة من البشر فى كل زمان ومكان •

وهو أيضا من صور التجديف التى أذكت الأحقاد والرذائل وقادت الحروب والصراعات حتى بين أبناء الاعتقاد الواحد والمذهب المشترك • والتى أعمت المتحاربين عن التطلع الى حقائق الوجود ، وعن بذل الجهد المطلوب فى استكناه أسرار الطبيعة ، ومواجهة أهوالها ومخاطرها لتخفيف آلام البشرية ومتاعبها • ويالها من أهوال وآلام تركت بصماتها واضحة فى أعماق التكوين الروحى لكل انسان •

ومالم يرتفع الانسان الى مستوى الحب المطلوب ويقطع صلته بماضيه السحيق المظلم ، فهيهات أن يسعد بعلم أو بعرفان ، وهيهات أن يعرف طريقه الى وجدان نقى أو ايمان آمين • وكما نجح القلائل من كل شعب وجيل فى أن يصبحوا ناضجين على مستوى حياة المادة ، فان القلائل فقط نجحوا فى أن يصبحوا ناضجين على مستوى الروح ، وأن يسعدوا حقا بالعلم والعرفان وبالحب والايمان •

وهذا البعض من بنى البشر ليس من حقه مع ذلك أن ينام ويستريح ، لأنه مايزال مطالبا بأن يسهر ويناضل ليسعد الآخرين ، ولكى يطورهم الى أشخاص ناضجين جديرين بأن يسايروا هذا الموكب الأزلى الذى لا يعرف توقفا فى موت ولا فى حياة ، فى أرض ولا فى سماء ، وهو موكب التطور والارتقاء • ولذا فان السماء لا تعرف الكسل ولا الكسالى ، وان كانت تعرف صورا لا تحصى من البهجة والاشراق ، والوفرة والثراء فى الحب والنضال لأجل حقيقة نافعة أو فى سبيل مبدأ نبيل •

أما آن لنـا أن نصـحو ؟ !

وهذه المفاهيم الجديدة مفرطة فى أهميتها، ومن الالتزام بها يتقدم العقل والعرفان تقدما آمنا وملموسا . لكن اختيار التقدم والارتقاء ليس اختيارا سهلا ، بل تحف به دائما كل أسباب المقاومة والصراع ، فمن سنن الشعوب أنها تقاوم أى وضع جديد لأن الحفاظ على القديم يريح أعصابها ويعفيها من كل جهد مطلوب للتفكير أو للتقـدير . وهو نفس الاحساس الذى يعبر عنه علم النفس بالنسبة للأفراد باحساس تشبث الانسان بما هو عليه من شعور ، وعدم رغبته فى استبداله بأى شعور آخر جديد misonéisme

وبما أن الشعور بالقديم سائد جـدا ، بل طاغ على العـديد من النفوس ــ فليس لنا أن نستغرب ما تلقاه كل أوجه التطور الروحى ــ بل المـادى أيضا ــ من مقاومة مستمرة . وهذه المقاومة المستمرة طالمـا جنت على بنى البشر جناية بالغة ومازال تجنى على سلوك العـديد من منهم ، وعلى حسن تقديرهم للأمور حتى فى حياتهم اليومية .

وفى اطار علم الروح بالذات ارتدت هذه المقاومة للتطور صـورا شتى فى بلادنا : منها غياب كل صحافة روحية فيه ، ناهيك بموقف المقاومة الذى تقفه منـه أحيانا حتى وسائل الاعلام العـادية ، النشطة تماما فى الحماس لكل ما يؤدى الى جمود العقل واغلاق الوجدان ! !

ومنها ضعف دور الجمعيات الروحية ذات الامكانيات الحقيقية التى يمكنها أن تقوم بخدمات صادقة فى نشر الثقـافة الروحية الراقيـة بكل ما تنطوى عليه من مفاهيم نبيلة عن الحب والسلام ، والاخاء الانسـانى العام ، وانكار الذات ، والتواضع والوداعة .... وما يتطلبه التطبيق الأمين من تدريب شاق وتضحيات جسام .

ومنها أننا لا نجد ــ فى الشرق الأوسط كله ــ معهدا علميا واحدا للدراسـة والتحقيق . وكأننا بشر من نوع فريد ، نعيش بلا أرواح ، بل أيضا بلاحاضر نبحث عن ماهيته ، وبلا مستقبل يتعين أن نعد أنفسنا له

منذ الآن اعدادا مدروسا وملموسا عن طريق مقاومة الشهوات ، والعمل الأمين فى خدمة الآخرين .

ومنها أن كل جامعات هذا الركن من العالم لم تسمع - بعد - عن شيء اسمه البحث الروحى ، أو الباراسيكولوجى ، أو السيكوترونات ، ولا تريد أن تسمع عنه ، لأن البحث العلمى ليس من رسالتها الصحيحة . بقدر ما يدخل فى هذه الرسالة - فى أحيان عديدة ترديد الترهات والأكاذيب التى لا تحصى عن مادية الكون والانسان ، وتعليم تلك النظريات البالية المؤسسة على مبدأ فناء الحياة باختفاء العقل وفناء الجثمان .

ماذا يتبقى من رسالة الجامعة اذا ما اختلطت عندها القيم الصحيحة بالفاسدة ؟ ! وماذا يتبقى من رسالتها ان لم تشعر بأن من واجبها أن تدرأ هذا الاختلاط وأن ترتبط بالحقائق المتطورة وحدها ؟ ! والارتباط بالحقائق هيهات أن يتحقق ما لم تحم الجامعة الصواب من الخطأ ، والزهر من الشوك ، والتطور العلمى الصحيح من عوامل الركود والجمود .

ان الجامعات الراقية العريقة لا تشعر أن رسالتها هى محض تخريج الأفواج المتتابعة من حملة المؤهلات . بل تشعر أن رسالتها الأصيلة هى تحقيق الوقائع ، وتحليلها ، واستخلاص نتائجها الصحيحة . وهى تنفق من جهد ومال فى أداء رسالة البحث العلمى الأمين أضعاف ما تنفق فى القاء الدروس أو منح الدرجات .

وما لم تؤد الجامعة هذه الرسالة الأصيلة فهى تصبح محض بوق للجهالة ، وأداة طيعة فى يد الجمود للحفاظ على ما رسخ فى المفاهيم العلمية من أوهام وترهات لها صلة وثيقة بكل ما قد تعانيه الجماهير من صعوبات ومشكلات . بل لها صلة أيضا بكل ما تعانيه من متاعب نفسية وعصبية تحتاج فى مواجهتها الى الكثير من النضج العلمى ، مع الفهم الصحيح لمصادر هذه المتاعب ، ولأسلوب مواجهتها .

* * *

وهذه المتاعب قد تجتاح أى مجتمع مثلما تجتاحه الأوبئة والأمراض المعدية . ولم تعد تنجح فى مواجهتها تلك الأساليب البالية التى بدأ بها علم النفس التقليدى وانتهى بهـا أيضـا ! ! ومن مصادرها فقدان الثقة بالنفس . وهـذا الفقدان قد يدفع المجتمع ــ مثلما يدفع الفرد ــ نحو المزيد من التصرفات الأنانية التى تتنافر تماما مع الأخلاق الفاضلة .

وعنـدئذ قد يتفشى داء التكالب على المـال ، والجاه الكاذب ، والسـلطة الجوفاء ، واغلاق الفكر ..... وفى الجمـلة قد يتفشى كل ما يتعارض مع تلك القيم الروحية الرفيعة التى عرضت ماهيتها فى عـدة مواضع من هذا الكتاب . والتى بدونها من المحال أن يحقق المجتمع نهضة حقيقية ، أو أن يخطو أية خطوة صحيحة فى طريق الارتقاء .

والسبب فى ذلك واضـح بسيط ، وهو أن هـذه القيم عن الحب والاخاء الانسانى العام ، وعن السيطرة على الذات والشـهوات ، وعن الغيرية وخدمة الآخرين ، وعن الوداعة والاتضاع ، وعن الصبر والعزاء ، والقناعة والاكتفاء ، وعن البساطة والنقاء .... ليست من صنع انسان ، ولا من تقنين بشر .

بل هى محض قواعد كونية آمرة على تسلسل الأحـداث وتطور الحيـاة . وكل قاعـدة كونية لا تتقبل منا أية مراوغة ، ولا مساومة ، ولا مبادلة ، ولا أنصاف حلول ، بل ترتب نتائجها تلقائيا . وقد لا يحدث ذلك فورا بسبب ما نملكه من حرية اختيار مقيدة . لكن ما لا يتحقق من نتائج اليوم سوف يتحقق غدا ، ومالا يقع فى الجيل الراهن سوف يقع حتما فى قابل الأجيال .

وذلك لأن تعـاقب الأحداث لا يتخـذ فى مساره خطا مستقيما ، بل سلوكا دائريا مماثلا لسلوك الجسيمات والذرات ، ناهيك بسـلوك الكواكب والأفلاك فى رحبات الفضاء . فنتائج الأحداث تعود من حيث

بدأت ، وتتعـاقب من حيث انطلقت : ان خـيرا فخيرا وان شرا فشرا ، وبالتالي تصيب كل مجتمع وفرد بما غرسه من شوك وورد .

وليست الجامعات وحدها مسئولة عن قيـادة ركب التطور العلمى والحضارى ، بل يلزم أن يقوم بنفس الدور كل مفكر ناضج العقل يقظ الوجدان . وكل وسائل الاعلام الثقافى التى يلزم أن تعمل فى حرية تامة ، وفى احساس صادق بضرورة تفاعل دور الشعور ، مع العلم ، مع الحرية ، مع الوطنية ، مع انكار الذات فى تطوير الحياة نحو ما هو أسمى وأكمل فى كل جوانب العقل والوجدان ... فأين نحن من ذلك كله الآن ؟ !

لكن المسئولية الأولى تقع على عاتق الجامعات ، لأنه من المفروض أنها تملك من وسائل البحث عن الحقائق مالا تملك الجهـات الأخرى . وتملك من أساليب التحليل المنطقى والرياضى مالا يمكن أن يتاح للأفراد مهمـا كانوا مثقفين ، ومهمـا كانوا صـادقى الرغبة فى خـدمة قارئيهم ومواطنيهم .

* * *

والجـامعات تعلم أيضا أن الجمـاهير بوجه عام يعوزها الادراك الصحيح للأمور ، وتسود عنـدها العاطفة على التعقل ، والاندفاع على الاعتدال ، والجمود على التطور ، وحب التسلط على التواضع والوداعة . ولذا فهى بحاجة متواصلة الى مرشدين صادقين يقودون خطاها فى خضم الحياة . وكأن الجماهير سفينة ضـخمة تعبر مضيقا محفوفا بالصخور الشاهقة ، هيهات أن تعبره فى سـلام بدون ربان ماهر ، بل ربابنة أكفاء عديدين يحسـنون القيـادة والتوجيه ، حتى تصـل فى اطمئنـان الى بر الأمان .

والحياة بطبيعتها مباراة عنيفة بين سفن عديدة . وهى لا ترحم أى جاهل ، أو متواكل ، بين مرشدى هذه السفن والمسئولين عن سـلامة راكبيها . وفى هذا العصر الذى نعيش فيه ما أكثر العواصف والدوامات العنيفة فى بحر الحياة ، وما أكثر احتمالات الجنوح والغرق ، وما أقل

فرص النجاة • وفى هذا العصر بالذات ما أشد الحاجة الى العلم والفن لانقاذ السفن وشاغليها ، وما أشد الحاجة الى اليقظة والانتباه عنـد قادة السفن ومرشـديها •

وليس المطلوب فحسب من كل سفينة أن تصل آمنة الى مرفئهـا ، وأن تنجو من الأخطار العديدة التى تتهددها ، بل مطلوب منهـا أمر آخر أشق وأصعب ، وهو أن تصل قبل غيرها فى مباراة الحياة التى لا تعترف الا بقدرة أصحاب الفطنة والحكمة ، والعلم والالمـام ، على أن يكونوا دائما فى المقدمة • فلهؤلاء دائما فضل التفوق والسبق ، ومزية السيادة والنصر •

ومن المحال تحقيق أى سبق أو نصر بدون تقـدم متواصل وتطور دائب فى كل ظواهر الحياة الروحية والمـادية : فالتطور مطلوب فى ذكاء العقول التى تقود السفن ، وأخلاق راكبيها ، أكثر مما هو مطلوب فى بناء السفن نفسها ، وتزويدها بكل جديد ومستحدث من الأجهزة اللازمة لكى تجتاز بنجاح هذا السباق المتواصل الشاق ، فى خضم الحياة القـاسى أحيانا قسوة لا تطاق • وأقسى ما فيـه هو حرية الاختيار التى يلزم أن نحسن استخدامها تماما فى كل مقام ونطاق •

وفى أماكن شتى من العالم ـ خصوصا فى بعض أرجاء من آسـيا وأفريقيا ـ توجـد سفن عـديدة جانحة منذ أزمان بعيـدة تبحث عمن يعومها ، ويعيد للحياة فيها كل رونقها وبنائها • ولا أحد من بنيها يريد أن يربط بين جنوح هذه السفن وبين داء التوقف عن التطور والارتقاء ، بل الكل يتجاهل هذه الرابطة ويتعامى عنها رغم وضوحها كالشمس فى كبد السـماء •

وهنـاك كثيرون من أصحاب النوايا الطيبـة يرغبـون فى التعويم والانقاذ ، لكنهم لا يجدون أفضل من التطلع الدائب الى الوراء فى تصميم واصرار ، متصورين أن فى مداومة هذا التطلع سرا لا يضاهيه سر آخر •

وهم - بسبب مداومة التطلع الى الوراء - يجهلون أو يتجاهلون أنهم يزيدون الداء بلاء ، وأن الحديد أو المعادن فى بناء السفن أقوى من الخشب أو الأغصان ، وأن الكهرباء أو البخار أفضل من المجداف أو الشراع . وأن ثمة أجهزة لا تحصى أضحت لازمة كل اللزوم لأمن السفينة لم تكن معروفة من قبل . وأن ثمة فنونا ، وعلوما ، ومبادىء ، وأسسا ، جديدة لا غنى عنها لبناء سفن جديدة تضارع سفن الآخرين ، ويصح أن تدخل فى مباراة متكافئة معها .

وهم يجهلون أو يتجاهلون أيضا أن من المحال أن يلغوا بجرة قلم فتوحات شتى العلوم فى نضال عشرات من القرون ، وتطور العقول والنفوس خلال هذه القرون نفسها . بل يتصورون أنهم قد ملكوا زمام السبق والتفوق ملكا تاما .

وهم واثقون كل الثقة من سلامة موقفهم ، آمنون كل الأمن من الفشل ، ولذا فلن يسمحوا لأى مفكر أن يخطو خطوة واحدة نحو الأمام ، ولو كانت غايته واضحة وهى التعويم والانقاذ ، ووسيلته مشروعة تماما ، وهى مجاراة الزمن الذى لا يعرف التوقف كما لا يعرف الرجوع للوراء .

عن الصحو والازدهار ....

واذا كان اتباع الأساليب المتطورة لازما لبناء السفن الحديثة ، فان اتباع القيم والمفاهيم المتطورة فى بناء المجتمعات الحديثة أحق وأوجب ، بما فى ذلك تنظيم أوضاعها ، وضبط روابطها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ... وكل منطق يعارض ذلك انما يعارض ناموسا الهيا للتطور لا نملك له دفعا ، ولا منه فكاكا .

وهذا الناموس يحكم تسلسل الأحداث فى الزمان مثلما يحكمها ناموس الجاذبية فى المكان . وبين الناموسين نفس الترابط التام بين مفهومى الزمان والمكان ، وهما مفهومان غير منفصلين الآن . وبعبارة

أخرى فكما أن ناموس الجاذبية يحقق الترابط بين الكون فى كل أجزائه ، فان ناموس التطور يحقق الترابط بين الكون فى كل أزمانه ، ويجعل من الخمول أو الرقاد خرقا لهـذا الترابط عاقبته وخيمـة على الخاملين والراقدين ٠

ولذا فان مناهضة حركة التطور العلمى لا تقيم آية حضـارة أو ارتقاء ، بل بالعكس تقيم سدودا نفسية شماء فى وجه كل ازدهار وارتقاء ، وتشعل صراعا غير متكافىء بالمرة بين الازدهار والذبول ، وذلك فى وقت ضعفت فيه أو تلاشت الحواجز الطبيعية بين كل الشعوب والثقافات بسبب نمو حركة التعامل المستمر فيما بينها ، ناهيك بتطور وسائل الاتصال السريع والاعلام النشيط فى كل صوره ٠

والقيم والمفاهيم الصادقة تقيم الحضارات الصحيحة ، أما القيم والمفاهيم الباطلة فهى تقيم الحواجز والسدود ، ناهيك بالأحقاد والحروب بين أبناء المذهب المشترك ، والوطن الواحد ، بل حتى بين آبناء الأسرة الواحدة فى كثير من الأحيان ٠

واختيار القيم الأمينة والمفاهيم العلمية الصحيحة هو التزامنا وقدرنا اذا ما أردنا الوصول الى حياة مزدهرة خلقيا واجتماعيا ٠ والا فان موقفنا يصبح أشبه ما يكون بموقف غلام ساذج يقطن قرية عزلتها ظروفها القاسية فى قلب غابة كثيفة من غابات الهند أو الأمازون ، ولم تتح له ظروفه أن يرى شيئا من انجازات العصر الحاضر ، ولما روى له أحد معارفه أنه توجد على بعد فراسخ قليلة من القرية مدينة بها هذه الانجازات كلها ثار صاحبنا وانفعل ٠

وراح الغلام الساذج يدحض كل هذه الانجازات قائلا انها محض خيالات وأوهام ، وأكاذيب وأحلام : بما فى ذلك الكهرباء ، والسيارة ، والطائرة ، والقطار ، والباخرة ، والارسال السلكى واللاسلكى ٠٠ بل أيضا علوم الفلك والفيزياء والطب والكيمياء ٠٠٠

فهل نصدق هذا الغلام ونجاريه فى ثورته وانفعاله ؟ ! أم نصـدق الواقع الصحيح ، والذى سوف يظل واقعا صحيحا سـواء أعلمنـا به أم جهلناه ، وأحببناه أم كرهناه ، وتقبلناه أم رفضناه ؟ !

* * *

واذا ما أردت الحديث بلغة القانون فان بمقدورى أن أقرر — وأنا مطمئن تماما — أن قضـية علم الروح الحديث بكل وقائعهـا المترامية الأطراف ليست الآن فى مرحلة التحقيق أوالاحالة ، كما قد يتصور البعض خطأ . وهي أيضا ليست فى مرحلة المرافعة ، أو انتظار الحكم ، بل لقد فصلت فيها فعلا محكمة العلم الوضعى منذ عشرات من السـنين بحكم نهائى استنفد كل طرق الطعن ، ولا يتصور أحد اعادة النظر فيه .

وانتقل العلم الآن الى مرحلة ترتيب نتائج هذا الحكم الخطير فى كل فقرة من فقرات منطوقه المتداخلة فى كل القضايا الكبرى للوجود . والعلم الوضعى فى هذا الترتيب غير متقيد « بقوة الشيء المحكوم فيه » بل هو متقيد بما هو أهم منها وأدعى للثقة والاحترام ، وهو جلال الحقيقة فى حد ذاتها .

والحقيقة ليست بحاجة لمن يدافع عنها على الدوام ، لأنها لا يصح أن توضع فى قفص الاتهام بجانب الأوزار والآثام . بل ان الحقائق أشياء لحوحة كما يقال ، لأن لهـا قوة ذاتية تفرض نفسها بنفسها على العقـل والوجدان ، مهما كابر فيها اللسان ، ولو بأبلغ البيان .

والحقائق أشياء لحوحة لأنها فى نشاطها الأزلى لا تتوقف على علمنا بها أو تفسيرنا لها . فهى ليست كتلك النصوص والسوابق القضائية التى يستخدمها كل متقاض على هواه : فيظهر منها ما يشاء ويخفى ما يشاء ، ويفسرها كل طرف بحسب مصلحته ومبتغاه . وهو ما يحدث أيضا كل يوم فى العديد من قضايا الرأى والاعتقاد ، فنجد لكل قضـيه منها مائة مذهب واتجاه . أما الحقائق الطبيعية فليس لها الا اتجاه واحد ومفهوم محدد ، والعبرة هى بالوصول الصحيح الى هذا الاتجاه وذلك المفهوم .

والحقائق أشياء لحوحة لأنها وحدها صاحبة النفوذ على كل الظواهر الطبيعية : من تحرك جسيمات الذرّة بداخل جسم الانسان الى تحرك المدن النجومية فى ذلك الفضاء البعيد • وهى صاحبة السلطان عليها منذ ظهور البكتريا الى ظهور كل صور الحياة ، وتحولها ، وتطورها وتجددها من جديد •

فالحقائق أشياء لحوحة لا لأننا نعرفها ، بل لأنها تتحكم تلقائيا فى مسيرة موكب الحياة • ولأنها تتخفى وراء ذلك الناموس الطبيعى الالهى الذى طالما فرض نفسه على العلم والعلماء ، وهو ناموس التطور والارتقاء • الذى قد نتركه جانبا فيتركنا هو أيضا فى زوايا النسيان ••• والويل لنا من أنفسنا عند ذاك ، ومن حركة التطور الطبيعى التى لا ترحم الخاملين والراقدين من بنى الانسان !

ولهذا الحكم الخطير حيثيات ضخمة تنوء بها الآلاف من المؤلفات العلمية الجادة تماما ، وقد عرضت جانبا ليس باليسير من الحيثيات فى هذا الكتاب بجزئيه ، بالاضافة الى ما سبق عرضه فى مؤلفات السادة الأفاضل من الرواد الأوائل •

وأعتقد أن فى هذه الحيثيات ما يكفى لاقتناع القارىء العادل الذى يرغب فى دراسة هذه القضية الكبرى بوحى من عقله وضميره ، لا بوحى من احساسه أو أحكامه المسبقة على الأشياء ، لأن الأحكام المسبقة لا وزن لها • وهى دائما تصدر من قاض غبى ، متحيز ، متسرع ، مرتش ، اسمه خداع الذات •

وخداع الذات مقتضاه أن تستسلم النفس لتخدير مريح من مفاهيمها الخاصة التى تزهو بها وتدين بها « أخطاء » الآخرين • وكلما ازداد الانسان زهوا بنفسه كلما كان أيسر وقوعا بين براثن خداع الذات والرأى المسبَّق • وعندما يخسر هذا الانسان أية قضية من قضايا الحياة فهو يلقى المسئولية على القاضى والمحامى وسائر المتقاضين ، أما عندما

يكسبها فهو وحده صاحب الفضل الأول والأخير والسيد السند على الكبير والصغير !! ..

* * *

وخداع الذات هو أوسع أدواء النفس انتشارا فى العالم أجمع ، منذ ظهور الانسان على مسرح الحياة . وهو كفيل بضلال الوجدان ، بمقدار كفالة الرأى المسبق بضلال العقل . والوجدان والعقل هما دعامتا التكوين الروحى للانسان ، لأنهما حصيلة التطور التى وصل اليها هذا التكوين عبر تاريخه الطويل التائه فى رحبات الأزل الفسيح .

وفى قضايا الروح بالذات لا يوجد مدع ولا مدعى عليه غير العقل والوجدان ، ولا قاض يفصل فيها غيرهما ، ولا حكم يصدر فيها الا أن يكون نابعا من أعماق اللاشعور عندما يقوده الالهام الصادق الى التمييز بين قضاء الضمير ، وآخر للتغرير بالذات أو بالآخرين .

وهذا اللاشعور هو الذى يصوغ حياة الانسان بحسب تعبير كارل جوستاف يونج . الذى يقرر أيضا أنه حتى بعد الوفاة فان بمقدوره أن يواصل هذه المهمة الكبرى — الغامضة المعقدة البسيطة — وهى صياغة الحياة . لأنه ليس مجرد ركيزة أو قاعدة للشعور — كما ذهب فرويد — بل هو المصدر الأساسى الذى منه يستمد الشعور طاقته اللازمة لمواصلة الحياة . وهو المصدر الأساسى الذى به يواجه الانسان طاقات تتجاوز حدود شخصيته . وفى هذا الطريق تتجه الروح تدريجيا نحو « التفريد » بمفهوم اتحاد الشعور باللاشعور ، وبالتالى اتخاذ الذات موقعها الشخصى فى الكل العظيم .

فيكون الهدف الأسمى فى النهاية — بحسب يونج — هو اتحاد الشعور باللاشعور ، وهو أسمى حالة روحية يمكن أن يرقى اليها الانسان ، لأنه يعنى ذوبان أحدهما فى الآخر ، وهو ما يؤدى الى الاتزان الروحى المطلوب ، والى توسيع دائرة الوعى الانسانى . ومن هذا التوسيع يمكن أن تسير الذات قدما الى درء خداع الذات ، وضلالات الرأى المسبق أيا كان مصدره وموضوعه .

والانسان بوجه عام اعتاد دواما أن يعتقد أن ايمانه بصحة أمر ما دليل على صحة هذا الأمر • ولذا فهو يحيا فى عزلة — من صنع مداركه الخاصة وحواسه — عن العديد من الحقائق النقية للوجود ، بل عنها كلها ، لأنها كلها أوسع بكثير مما يعتقده ، ومما يجزم بصحته من أمور •

كما أنه اعتاد أن يتعلق بالأحكام المطلقة السطحية لأنها — بسبب بريقها الشديد — تخدعه عن زيف جوهرها ، وتعفيه من مشقة الاستدلال، والتفكير ، والتأمل الأمين فى القضايا المعقدة للوجود لايجاد حل صحيح لها • وهذه الحلول نسبية دائما فلا تمت الى الاطلاق بأية صلة أو نسب ثابت اللهم الا نسب خداع الذات ، والتعلق المألوف بالأوهام والترهات •

وقضايا الحياة ليست دائما واضحة ولا بسيطة • بل انها تتطلب صبرا طويلا ، وعقلا ناقدا ، وبصيرة نفاذة ، قبل الفصل فيها بحكم صائب يصح أن يرقى الى مستوى الحقائق الثابتة • ويصدق ذلك حتى على القضايا الجزئية ••• فما بالك اذا كان الفصل مطلوبا فى قضية كلية هى أم القضايا الكبرى للوجود بلا ريب ولا شبهة ؟ ! •

ودرء احتمالات خداع الذات ، وضلالات الرأى المسبّق كان — وما يزال — هو رائد الباحثين الجادين فى هذا الميدان ونبراسهم الأمين• كما هو أيضا — فيما أتصور — رائد الدارسين الجادين لما لحق العلوم الطبيعية والانسانية من طفرات ضخمة فى هذا القرن العشرين • وهى طفرات لا تقاس شيئا بما هو متوقع منها فى مستقبل السنين ••• فهل نصر رغم ذلك على اغلاق النوافذ والأبواب واهدار الأحكام والأسباب ؟ !

وأكتفى بهذا القدر الآن ، لكى أقدم عددا محدودا من المراجع القيمة الحديثة فى موضوعات الباراسيكولوجى بوجه عام•وبعدها مؤلفات أبرز اسم فى علم النفس المعاصر ، وهو كارل جوستاف يونج مؤسس مدرسة « علم النفس التحليلى » الذى تردد اسمه كثيرا فى مواضع عديدة متفرقة من هذا الكتاب •   والحمد لله أولا وأخيرا ••••

بعض مراجع هامة بالانكليزية فى الباراسيكولوجى بوجه عام : ـ

لمن يريد الاستزادة فى موضوعات الباراسيكولوجى بوجه عام نقدم هذه القائمة الصغيرة من المراجع الهامة الحديثة :

J. B. Rhine : The Reach of the Mind (1960).
— Frontier Science of the Mind (1960).
— Extrasensory Perception (1964).
— Progress in Parapsychology (1971).

Louisa Rhine : Hidden Channels of the Mind (1961).
— Introductory Experiments in Parapsychology (1966).
— E. S. P. in Life and Laboratory (1964).
— Mind Over Matter (1970).

J. B. Rhine and Pratt : Extrasensory Perception after Sixty. years (1940).

Fabian Gudas : Extrasensory Perception (1961).

Upton Sinclair : Mental Radio (1962).

S. G. Soal and F. Bateman : Modern Experiments in Telepathy (1954).

Milan Ryzl : Parapsychology : A Scientific Approach (1970).

Susy Smith : Understanding E. S. P. (1965).

D. C. Knight : The Extrasensory Perception (1969).

H. W. Pierce : Science Looks at E. S. P. (1970).

Simeon Edmunds : Miracles of the Mind : an Introduction to Parapsychology (1965).

Whatley Carrington : Telepathy (1945).

C. E. M. Hanzel : E. S. P. A scientific Evaluation (1966).

Renée Haynes : The Hidden Springs : An Enquiry into E. S. P. (1961).

Arthur Koestler : The Roots of Coincidence (1972).

Gertrude Schmeidler : E. S. P. (1969).

J. R. Smythies : Science and E. S. P. (1967).

L. L. Vasilieu : Experiments in Mental Suggestion (1963).
Mysterions Phenomena of the Human Psyche (1965).

Réné Warcollier : Experimental Telepathy (1938).
— Mind to Mind (1963).

Laurence Le Shan : Toward a General Theory of the Paranormal. A Report of Work in Progress (1969).

Hans Gerloff : The Crisis in Parapsychology : Stagnation or Progress ? (1965).

J. H. Rush : New Directions in Parapsychological Research (1964).

J. G. Pratt : An Insider's View of E. S. P. (1966).
— On the Evaluation of Verbal Material in Parapsychology (1969).

Charles Mc Creery : Science, Philosophy and E. S. P. (1964).

Haakon Farwald : Mind, Matter, and Gravitation (1970).

John Randall : Parapsychology and the Nature of Life.

Alfred Douglas : Extra Sensory Powers : A. Century of Psychical Research (1975).

Erunstein, Karl : Beyond The Four Dimensions (1979).

Nash, Carroll B. : The Science of Psi (1978).

Nester, Marian and O'Keefs Arthur : Selected Bibliography in Parapsychology (1979).

Shapin, Betty and Coly, Lisette :
Communications and Parapsychology (1980).

Taylor, John : Science and the Supernatural (1980).

وهذا بالاضافة الى المئات من المراجع المشار اليها فى هوامش هذا الكتاب بجزئيه .

مجمـوعة أعمـال كارل يونج
التى ترجمت الى الانكليزية

Volume 1	PSYCHIATRIC STUDIES
Volume 2	EXPERIMENTAL RESEARCHES
Volume 3	PSYCHOGENESIS OF MENTAL DISEASE
Volume 4	FREUD AND PSYCHOANALYSIS
Volume 5	SYMBOLS OF TRANSFORMATION
Volume 6	PSYCHOLOGICAL TYPES
Volume 7	TWO ESSAYS ON ANALYTICAL PSYCHOLOGY
Volume 8	THE STRUCTURE AND DYNAMICS OF THE PSYCHE
Volume 9	bound in two parts 1. THE ARCHETYPES AND THE COLLECTIVE UNCONSCIOUS. II. AION
Volume 10	CIVILIZATION IN TRANSITION
Volume 11	PSYCHOLOGY AND RELIGION : WEST AND EAST
Volume 12	PSYCHOLOGY AND ALCHEMY
Volume 13	ALCHEMICAL STUDIES
Volume 14	MYSTERIUM CONIUNCTIONIS
Volume 15	THE SPIRIT IN MAN, ART, AND LITERATURE
Volume 16	THE PRACTICE OF PSYCHOTHERAPY
Volume 17	THE DEVELOPMENT OF PERSONALITY
Final Volumes	MISCELLANEOUS WORKS, BIBLIOGRAPHY, AND GENERAL INDEX

* * *

Memories, Adventures, and Reflections (1963).

Modern Man in Search of a Soul (1966).

مجموعة أعمال كارل يونج
التي ترجمت الى الفرنسية

La théorie psychanalytique. Traduction de M Schmid-Guisan. Éditions Montaigne, Paris, 1932. Épuisé.
L'homme à la découverte de son âme. Préface et adaptation du Dr Roland Cahen, 1943, 7e édition, 1973. Éditions du Mont-Blanc, Genève, Buchet/Chastel, 8e édition, petite biblio. Payot, 1966, Paris.
Aspects du drame contemporain. Préface et traduction du Dr Roland Cahen, Librairie de l'Université, Genève, et Buchet/Chastel, Paris, 1948, 2e édition 1970.
Types psychologiques. Préface et traduction d'Yves Le Lay. Librairie de l'Université, Genève, et Buchet/Chastel, Paris, 1950, 2e édition 1958, 3e édition 1967.
Psychologie de l'inconscient. Préface et traduction du Dr Roland Cahen, Librairie de l'Université, Genève, et Buchet/Chastel, Paris, 1953, 2e édition 1963.
La guérison psychologique. Préface et adaptation du Dr Roland Cahen, Librairie de l'Université, Genève, et Buchet/Chastel, Paris, 1953, 2e édition 1970.
Métamorphoses de l'âme et ses symboles. Préface et traduction d'Yves Le Lay, Librairie de L'Université, Genève, et Buchet/Chastel, Paris, 1953, 2e édition 1967.
Introduction à l'essence de la mythologie (avec Ch. Kerenyi). Traduction d'Henri Del Medico, Payot, Paris, 1953.
L'énergétique psychique. Préface et traduction d'Yves Le Lay. Librairie de l'Université, Genève, et Buchet/Chastel, Paris, 1956.
Le fripon divin (avec Ch. Kerenyi et P. Radin). Collection : Analyse et Synthèse. Trad. S. Arthur Reiss. Librairie de l'Université, Genève, et Buchet/Chastel, Paris, 1958.
Psychologie et religion. Traduction de M Bernson et G Cahen Éditions Buchet/Chastel, Paris, 1960, 2e édition 1974.
Un mythe moderne. Préface et adaptation du Dr Roland Cahen, Éditions Gallimard, Paris, 1960, 2e édition, 1963.
Problèmes de l'âme moderne. Traduction d'Yves Le Lay. Éditions Buchet /Chastel, Paris, 1961, 2e édition, 1961
Présent et Avenir. Préface, traduction et annotations du Dr Roland Cahen avec la coll. de René et Françoise Baumann, Éditions Buchet/Chastel, Paris, 2e édition 1962, et Denoël, Paris, 1970.
Psychologie et éducation. Traduction d'Yves Le Lay. Éditions Buchet/Chastel, Paris, 1963.
Réponse à Job. Traduction du Dr Roland Cahen, avec une postface d'Henry Corbin, Éditions Buchet/Chastel, Paris, 1964.
La dialectique du moi et de l'inconscient. Traduction et annotations du Dr Roland Cahen, Éditions Gallimard, Paris, 1964, 2e édition 1967
L'âme et la vie. Textes essentiels de C. G. Jung présentés par Jolande Jacobi. Traduit par le Dr Roland Cahen et Yves Le Lay, 1965. Buchet/Chastel, Paris, 2e édition 1969
Ma vie. Souvenirs, rêves et pensées, recueillis par Aniela Jaffé Trad. Dr Roland Cahen et Yves Le Lay, Gallimard, 1966, 2e édition 1967
Psychologie et alchimie. Traduction Henry Pernet et Dr Roland Cahen, Buchet/Chastel, Paris, 1970, 2e édition 1975.
Les racines de la conscience. Étude sur l'archétype. Trad. Yves Le Lay Éditions Buchet/Chastel, Paris, 1971, 2e édition 1975.

en préparation

Le secret de la Fleur d'or.
Mysterium conjunctionis.
La psychologie du transfert.

تصويب الخطأ

رقم الصفحة	رقم السطر	خطأ	صواب
٥٦٩	٥	فى اصحابها	عند أصحابها
٦٠٨	٧	سبت	سبب
٦٢٧	٢١	يبارك	ان يبارك
٦٩٣	٦	فى السويد	توضع بعد كينبرج
٧٨٠	٧	ومقياسه	وبقياسه
٧٩٢	١٨	١٦١	١٩٠٦
٩١١	١٠	Eao	Ego
٩٢٨	٨	كتير	كثيرا
٩٣٨	٦	من	عن
١٠٥٨	١٢	كاربو	كابو
١١١٩	١١	وبرغم	ويرغم
١١٨٠	٦	بزمامها	بزمام
١١٨٥	١	تنبؤ	تنبؤا
١١٨٩	١٥	وهو	وهى
١١٩٧	١	سيوا	سويا
١١٩٧	٢٠	كما	كلما
١٢١٤	١٧	طريق الموت	طريق النوم
١٣٠٧	١٤	Isala	Isola
١٣١٢	٢	Bloxhom	Bloxham
١٣٢٨	١٩	تحصل الذى	تحصل الذات
١٣٣٦	١٢	نفسح	تصبح
١٣٤٠	١٥	الحقيقة	الحقيقية
١٣٤١	١٦	يعطيه	يعطيها
١٣٤٩	٢	ويدرب	وندرب
١٤١١	١٠	يسمى	يسعى
١٤١٧	٢٢	فعوم	فعلام

التكوين الروحي وأسرار السلوك

(بعد التحول من السيكولوجي إلى الباراسيكولوجي)

* * *

أولا : فهرس تحليلي للجزءين معاً

الموضــــوع — صفحة

الباب الثانى

فى ظهور البـاراسيكولوجى وتطـوره

صفحة	الموضـــوع

الباب الثالث

الباراسيكولوجى فى طوره الراهن

الموضـــوع صفحة

الباب الرابع

فى التكوين الروحى
بين السيكولوجى والباراسيكولوجى

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع صفحة

الباب الخامس

فى العقل والفطرة والأحلام بين السيكولوجى والباراسيكولوجى

الموضـــــوع	صفحة

الجزء الثاني

مقدمة

الباب السادس

فى الارادة الانسانية
بين السيكولوجى والباراسيكولوجى

الباب السابع

فى سـلوك الشـواذ
بين السيكولوجى والباراسيكولوجى

الباب الثامن

الباراسيكولوجى يقتحم مشكلة «العودة للتجسد»

الموضـــوع	صفحة

الموضــــوع	صفحة

الباب التاسع

بعض مشكلات التطور واللاشعور
فى ضوء « العودة للتجسد »

الموضـــوع	صفحة

الباب العاشر

تساؤلات هامة اخرى تثيرها
« العودة للتجسـد »

الموضـــوع | صفحة

* * *

التكوين الروحي وأسرار السلوك

(بعد التحول من السيكولوجي الى الباراسيكولوجي)

ثانيا : فهرس ابجدى للجزءين معا

الجزء الأول : من صفحة ١ الى صفحة ٥٥٠ .

الجزء الثانى : من صفحة ٥٥١ الى نهاية الكتاب .

ـ أ ـ

- ب -

— ت —

— ث —

— ج —

— ز —

— س —

ـ ص ـ

ـ ض ـ

ـ ط ـ

— ق —

— ك —

— ل —

— م —

— و —

— ى —

ثالثا : فهرس الصور واللوحات

المؤلف

(الطبعات الاخيرة)
فى التشريع العقابى

- « **مبادىء القسم العام من التشريع العقابى** » . ظهرت طبعته الرابعة فى سنة ١٩٧٩ .
- « **السببية فى القانون الجنائى دراسة تحليلية مقارنة** » . **ظهرت طبعته الثالثة فى سنة ١٩٧٤ .**
- « **جرائم التزييف والتزوير** » . ظهرت طبعته الثالثة فى سنة ١٩٧٨ .
- « **جرائم الاعتداء على الاشخاص والأموال** » . ظهرت طبعته السابعة **فى سنة ١٩٧٨ .**
- « **شرح قانون العقوبات التكميلى** » . فى جرائم **المخدرات . الأسلحة والذخائر** . التشرد . **الاشتباه** . التدليس والغش . **تهريب النقد** . ظهرت طبعته الخامسة فى سنة ١٩٧٩ .

فى علمى الاجرام والعقاب

- « **اصول علمى الاجرام والعقاب** » . ظهرت طبعته الخامسة فى سنة ١٩٨١ .

فى الاجراءات الجنائيـة

- « **مبادىء الاجراءات الجنائيـة فى القـانون المصرى** » . **ظهرت طبعته** الرابعة عشرة فى سنة ١٩٨٢ .
- « **المشكلات العملية الهـامة فى الاجراءات الجنائيـة** » . **ظهرت** طبعته الثالثة فى سنة ١٩٨٠ فى جزئين .

الجزء الأول : دراسات موسعة فى القبض والتفتيش . تكييف الواقعة . **تنازع الاختصاص** الجنائى . الرقابة على **الدستورية** والشرعية . حق الدفاع . العذر القهرى . استظهار قصد القتل . دعوى البلاغ الكاذب . الدعوى المدنية .

الجزء الثانى : دراسات موسعة فى نظرية المصلحة فى الطعن الجنائى . الطعن فى الحكم باعتبار المعارضة كأن لم تكن . **الصلة بين جواز الاستئناف** وجواز النقض . **الطعن فى أوامر الاحالة** والاوامر بألا وجه لاقامة الدعوى .

- « **ضوابط تسبيب الاحكام الجنائيـة واوامر التصرف فى التحقيق** » **ظهرت طبعته الثانية فى سنة ١٩٧٧ .**

فى فلسفة التشريع

- « **فى التسيير والتخيير : بين الفلسفة العامة وفلسفة القانون** » ظهـرت طبعته الثانية فى سنة ١٩٧٦ .

فى علم الروح الحديث

- « **مفصـل الانسان روح لا جسد** » ظهرت طبعته الرابعة فى ثلاثة اجزاء فى سنة ١٩٧٥/١٩٧٦ .
- « **التكوين الروحى وأسرار السلوك** » ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٨٢ فى جزئين .
- « **عروس فرعون وشوقيات جديدة من عالم الغيب** » . دراسـة تحليلية من الالهام ، وعن الصلة بين عالمى الروح والمـادة . ظهر فى سنة ١٩٧١ .
- « **قصتى العظمى** » . تعـريب لتحقيق روحى استمر عشرين عاما قام به الأديب المعروف هانن سوافر نقيب الصـحافة البريطانية . ظهر فى سنة ١٩٧٢ .
- « **ظواهر الخروج من الجسد : ادلتها، دلالاتها** ». مدخل الى علم جديد. ظهر فى سنة ١٩٧٥ .
- « **فى العودة للتجسد : بين الاعتقاد والفلسفة والعلم** » . دراسة فى تاريخ الانسان الذى يتجاوز حياته الراهنة . ظهر فى سنة ١٩٧٦ .
- « **الاتصـال بين عالمين** » : وقائع حديثـة ثبتت علميا فى ارقى المعـاهد المتخصصة تبين حقيقة الاتصـال بين عالمى الغيب والشـهادة . ظهـر فى سنة ١٩٨١ .

بالفرنسية :

— Essai Sur La Justice Pénale De L'Egypte Pharaonique Paris 1941.

— La Science Pénitentiaire et le Problème Des Jeunes Délinquants En Egypte, Paris, 1941.

— Des Ministres Comme Ordonnateurs Des Dépenses De L'Etat en Egypte Etude de droit Comparé, Paris 1942.

— Le Rôle des Organes de Poursuite dans le Procès Pénal en Egypte. Rapport Présenté au IXe Congrès International De Droit Pénal à La Haye (du 23 au 28 Aout 1964) Revue Internationale De Droit Pénal 35 année. Nos. 3 et 4 p. 41 et ss.

للمـــؤلف :

فى التسيير والتخيير

بين الفلسفة العامة وفلسفة القانون

طبعة ثانية مزيدة ومنقحة : ١٩٧٦

ـ عدل هى الحياة أم قدر ؟

ـ وهل هى صدف عشواء تمليها النزوات والأهواء ؟

ـ وهل من توفيق بين التشريع الأعظم والتشريع الوضعى ؟ .

* * *

بحث يتناول أخطر مشـــكلة عرضت لعقـل الانســـان من قـــديم ، ولكن فى ضوء معطيات الفلسفة العامة والجنائية ، وحقائق العلم الوضعى المعاصر .

عروس فرعون

وشوقيات جديدة من عالم الغيب

ستقرا فيه :

ـ دراسة تحليلية عن الالهام ، وعن الصلة بين عالمى الروح والمـادة .

ـ دراسة عن شاعرية شوقى شاعر التاريخ .

ـ رواية شعرية كاملة من طراز « مصرع كليوباترة » وخمس عشرة قصيدة تتناول مشاعر الانتقال ، ووصف عالم الروح ، والأحداث الجارية فى بلاغة ماثورة .

ـ نثرا فنيا غنيا بالأخلاقيات والحكم المـأثورة .

ـ تقارير سبعة عشر عالمـا من اعلام الشعر والنقد والأدب فى كل هذا الانتاج الضخم الرائع ، مؤيدة باسانيدها التفصيلية الحاسمة .

فقــرات من تعليقات أعلام الفكر والقــلم
على كتــاب « الانسان روح لا جســـد »
(بتسلسل تاريخى)

ــ « وتزول دهشتنا من أن أســتاذا جامعيا يكتب فى موضـــوع الأرواح اذا علمنا أن علم الروح قد أصبح علما جامعيا يجرى الآن على أقوى صورة فأنشئت له معاهد متخصصة ...

وانى اذ أحب أن أهنىء المؤلف بشجاعته فى اصدار هذا الكتاب القيم ، وأهنئه بما بذل من الصبر الجميل والعكوف على درس كل ما كتب أو نشر فى عدة لغــات فى شئون الروح متتبعا حتى آخر لحظة فى يومنا هذا ما يصدر فى شرق أو غرب عن الروح . أقول انى اذ اهنئه أعده بأننى سأعود الى كتابه الضخم الفخم الذى لم يدع فيه شاردة ولا واردة الا وسجلها » ...

أحمد الصاوى محمد ، رئيس تحرير جريدة « الأخبار » ٦ سبتمبر ســنة ١٩٦٤ .

* * *

ــ « وكان طبيعيا أن يحرص المؤلف على خصيصتين فى البحث هما : البساطة فى المعــالجة والرصانة فى المنهج ، فلا يستعصى على القــارىء شىء من مباحث هذا الكتاب ، ولا يسعه الا أن ينحنى لجــلال العــلم ، ونصاعة الديباجة ، وقوة الاقناع ، وســلامة المنطق ، ومشقة التــأليف والتصنيف .

ولقد خرجنا من تلاوة هذا الكتاب الجليل القــدر النفيس المــادة بشعور عام بطمأنينة النفس ، مرجعــه الى أن العلم الروحى الحديث قد استطاع أن يقهر حقيقة الموت والفناء ، وأن يؤكد حقيقة الخلود والبقاء ، فازداد المرء اطمئنانا الى قدره ومصيره ، وعزاء عن آلام حاضره وماضيه ، وسلوى عن فراق أحبابه وذويه » ....

وديع فلسطين فى مجلة « الطالبة » أكتوبر ١٩٦٤ .

* * *

ــ « ولقد تعرض الكتاب لأن فكرة الاتصال بالأرواح حديثة نسبيا بدأت فى نهــاية القرن التاســع عشر ، وهى تستكمل نضوجها فى القـــرن العشرين . وهذه الفكرة بدأها كثير من العلمــاء والمفــكرين ذوى الخبرات المتعــددة ممن واصلوا بحوثهم فى هــذا الشأن لعشرات من الســنين ... وانتهى هؤلاء العلمــاء وغيرهم فى بحوثهم الى نتائج حاسمة ونهائية بشــأن امكان الاتصال بالأرواح وخلود الانسان ...

ولا شك أن المؤلف قد بذل جهـدا كبيرا فى عرضه لهـذه الحقـائق والبيانات فى كتاب كبير كهذا » ...

د. محمد الحسينى مصيلحى فى مجلة « الأطباء » (التى تصـدرها نقـابة الأطبـاء) ديسمبر ١٩٦٤ .

***

— « كل ذلك يفيض به المؤلف الذى عاش فى كتابه حقبة طويلة من الزمن قرأ فيها ودرس مئات من المؤلفـات فى علم الروح . وهو حين يطالعك فى بحثه فبنفس القوة والمنطق الذى تعـودته فى مراجعه القانونية ، بل ويتجاوزه لأنه يعالج هذا النوع من البحث العلمى فى منطق رجل القـانون ودقـة استنتاجاته فى حديث طلى ، وعرض شهى ، يجتذبك لتدخل معـه فى دنيـاه الجديدة وعالمـه الروحى لينقلك من عالم القانون الى عالم الروح فتعود بعد ذلك وأنت تحلق فى جو يفيض سحرا ... واذا كان علمـاء الذرة فى الخارج قد غزوا الفضاء فان المؤلف قد غزا عالم الروح حتى وصـل الى الأعمـاق » ...

محمود عاصم صاحب ورئيس تحرير مجلة « دنيا القانون » فى ملحق خاص لسنة ١٩٦٤ .

***

— « هل سنلتقى يوما بالأحبـاب الذين فقدناهم ؟ .. أثار هـذا السؤال عندى الكتاب الضخم الذى قـرأته عن « الانسان روح لا جسد » لمؤلف كان آخر ما أتصـوره عنه أن يخـرج كتابا روحانيا ضخما ... لكن عين شمس لهـا ايحاؤها الروحى ... ففى معاهد عين شمس قبل الميلاد بقرون تخرج فلاسفة الاغريق أول من نقـل التفـكير فى الروح من الشرق للغرب ، ولا يزال هـذا التفكير قائما عبر آلاف من السنين وليس عنـدنا وحدنا ، بل فى بلاد الغرب ...

— أجمل ما فى الروح سرها المجهول .

— لو عرفنا سر الروح لمحونا الأحزان من قاموس الحياة .

— ليس أقوى من الحب دليـلا على وجود الروح .

— ليس كالروح شىء اتفق الناس واختلفوا عليه » .

حافظ محمـود (نقيب الصحفيين) فى جـريدة « الجمهـورية » ٢٥ نوفمبر ١٩٦٦ .

***

ــ « ان الكتاب سـفر ضـخم ، وقد ناءت همتى عن استقصائه واستكمال الحكم على أجزائه ، ولكنـه مجهـود علمى كبير يتسـع نطاقه لارضاء نزعة الباحث عن أمور الروح ، وينتقل به خطـوة نحو غد مأمول نستطيع فيه أن نقرر حقائق علمية ثابتة عن هـذا الجانب الروحى الذى مازال الكثير من مسائله بعيدا عن الأنظار ، أو محيرا للأفكار . والمهم هو أن ألا نضيق بالبحث ولا نتعجل الحكم بالاثبـات المطلق ، أو الانكار الجازم ، وان مع اليوم غدا ، فصبر جميل » .

أحمد الشرباصي فى مجلة ((الكتاب العربى)) ١٠ ديسمبر ١٩٦٦ .

* * *

ــ « ولقد بذل المؤلف بالحق فى هذا العمل الضخم جهـدا كبيرا فى سبيل خدمة أخطر حقيقة وصلت اليها جهود العلمـاء وأكثرها ارتباطا بالانسان فى حاضره وفى مستقبله على السواء . وكيما يحقق غايته المرجوة فى تعريف القارىء أو الدارس تعريفا صحيحا بأهم الجوانب العامة فى علم الروح الحديث .

وهو اذ يعرض للموضـوع انما يعرضه من جميـع زواياه العلميـة والفلسفية والاجتماعية ، ومن جميع نواحيـه ، عرض عالم خبـير قوى الحجة ، قوى البيان ، قوى الايمـان ، واضح الجـادة ، غزير المـادة ، طويل البـاع ، واسع الاطلاع ...

ولست أدرى بالضبط ماذا حدث من ترتيبات ومقدمات أتاحت لى الفرصة لوقوع هـذا الكتاب بين يدى لأقبل على قراءته بنهم شـديد ، ولذة لم أعهدها من قبل ، تحيطنى روحانيـة احسست بها وكأننى سابح فى فضاء وسيع ، أو فى ملكوت لا عهد لى به » ...

د. عبدالعزيز جادو صاحب ورئيس تحرير مجلة ((الشاطىء)) فى مجلة ((صوت الشرق)) أغسطس ١٩٦٧ و ((الأديب)) اللبنانية أكتوبر ١٩٦٧ .

* * *

ــ « ولأن علم الروح أصبحت له أبحـاث كثـيرة أنشئت له معاهد متخصصة ... كما دخـل كفرع من فروع العـلوم المعترف بها فى عدة جامعات ... ثم تقص لنـا صفحات كثيرة من الكتاب قصة أعظم علماء فى العـالم فى هـذا الفرع من فروع العلم .. وبقـدم عن كل منهم نبـذة له ولمؤلفاته ... وأغلبهم أعضاء فى أكاديميات العلوم المختلفة فى انحاء العالم ..

وربما كانت هناك صعوبة شديدة فى تلخيص هـذا الكتاب ، ولكنها ومضات سريعة فى هـذا العـالم العجيب والجديد .. وهو فى النهـاية ملىء بالحقائق العلميـة المذهلة التى تربط ربطا كاملا بين واقع العـالم

المادى الملموس وبين عالم الروح ... أشياء تهز العقل بعنف ، وتجعله يفكر فى طريقة جديدة وأسلوب جديد للحياة » ...

سالم عزام فى مجلة « آخر ساعة » ٣ يناير ١٩٦٨ .

* * *

ـ « ان السعادة هى هدف الانسان والتخفيف من متاعب الحياة والقدرة على تحملها ، ومواجهة مأساة الحياة والموت هى غايته التى لا غاية بعدها ، ولابد لكمال بلوغها أن تكون المادة والروح بحثا مشتركا ...

والعصر عصر العلم ما فى هذا ريب فلتصبح الروح أيضا مادة للبحث العلمى لها معاهدها ومدارسها وكلياتها ...

واعتقد أن ما عالجه المؤلف يستحق الاهتمام من كل المعنيين بالأبحاث العلمية ، والمعنيين بسلامة الانسان عقلا وروحا ... فنحن أولى من غيرنا أن نكون سباقين الى هذه الأبحاث المتعلقة بالروح ، أو على الأقل مشاركين فيها خاصة ونحن نعلى فى وجداننا وحياتنا السياسية والاجتماعية القيم الروحية ، ونجعلها بعض الأسس التى تقوم عليها مجتمعاتنا العربية » ...

محمد زكى عبد القادر رئيس تحرير جريدة « الأخبار » ٣ مايو ١٩٦٨ .

* * *

« منذ أزمنة سحيقة والانسان يحاول ان يعرف كيف جاء ؟ ولماذا أتى والى أين المصير ؟ ثم الحت على خاطره أسئلة حائرة حول العالم الآخر .. وهل سيذوب فى صمت العدم أم أن هناك امتدادا آخر لحياته ؟

أما الأديان فقد قطعت الشك باليقين بأن العالم الآخر حقيقة لا تقبل الشك عند المؤمنين ، وأن الروح خالدة بعد فناء الجسد . وفى العصر الحديث الذى أصبحت فيه التجربة العلمية هى مقياس المعرفة اليقينية كان لزاما أن تدخل ابحاث الروح ضمن الاطار العلمى وتخضع هى الأخرى للمقاييس العلمية ...

وقد اذهلنى بالفعل الدكتور رءوف عبيد فى كتابه « الانسان روح لا جسد » وهو يستعرض المناهج العلمية فى هذه الدراسة ، ثم يسوق التجارب المختلفة التى اجريت فى هذا الميدان ، وكيف تم تصوير الأرواح المتجسدة عن طريق مادة الاكتوبلازم .

وهو يحدثنا عن الالهام الفنى ، وكيف أن عديدا من العباقرة ترجع عبقريتهم الى مصدر خارجي ... أما الأغرب من كل ذلك فهو تلك القصائد المطولة التى يرسلها أمير الشعراء احمد شوقى من العالم الآخر ... » .

مأمون غريب بمجلة « آخر ساعة » ٢٤ فبراير ١٩٧١ .

❋ ❋ ❋

ــ « تصفحت بيد الاعجاب هـذا الأثر الجليـل ، والعمـل العلمى العظيم الذى كلف من عناء البحث والمراجعة ما تحتشر به المراجع والمصادر التى يمتلىء بهـا الكتاب الضـخم ، والتى تؤكد بالنظـرة العـابرة ، بل الفاحصة ، أنه لم يدع للبحث مصدرا الا استأنس به وأفاد منه فى معالجة القضية التى هى موضوع الكتاب ، والتى جلاها فى بيـان مشرق ، ومنطق سليم ، وايمـان ثابت غير مزعزع » ...

محمد عبد الغنى حسن فى مجلة « الأديب » اللبنانية مارس ١٩٧١ .

❋ ❋ ❋

ــ « والمؤلف من أكثر النـاس اهتماما بعلم الروح ، وقد صـدر له كتاب ضخم عنوانه الانسان روح لا جسد وهو من الموسوعات الروحية... وهو واحد من مئات العلمـاء فى العالم الذين يؤمنون بهـذا العالم العجيب الغريب الأكيـد : عالم الروح » ...

أنيس منصور رئيس تحرير مجلة « أكتوبر » فى جريدة « الأخبار » ٢٣ أبريل ١٩٧١ .

❋ ❋ ❋

ــ « بذل المؤلف جهـدا كبيرا فى كتابه « الانسان روح لا جسـد » لينقل القـارىء فى رحلة ممتعة الى عالم المجهـول ... عالم الخلود حيث تنطلق الروح وقد تخلصت من ردائها الجسدى بالموت . تنطلق الى الأثير الرحب تتحرك بقوة الفكر بلا حدود ...

وهذه حقائق تم اثباتها بكل صرامة العلم الحديث ، وعلى أيدى طائفة من أساتذة العلم والأدب الذين لا يرقى الشك الى تجاربهم وأعمالهم » ...

محمد حسن فى مجلة « الهلال » . نوفمبر ١٩٧١ .

❋ ❋ ❋

ــ « هـذا الكتـاب حجـة عما يملكه الانسـان من قوى خفيـة للاستشفاف بالسمع والبصر . ومرجع ثابت فى هذه الشئون التى ما أن فهمتها حتى استبان لى كل ما كان يغمض على من ظواهر خارقة ...

وتبرز خطـورة دور العلم الروحى الحـديث فى الكشف عن مجاهل الانسان . فى أنه علم يقوم بتقديم أجل الخدمات للحقائق العلميـة وللمجتمع المتحضر وللعصر الذى نحياه . فهو علم لا يقل فى خطورة دوره عن أى علم من العـلوم التى تتبوأ مقاما سامقا فى دور العلم والجامعات . بل لعـله يعد اخطرها شأنا لفرط اتصاله بالتنقيب فى أعمـاق الانسان ، بل فى أعمـاق الظواهر الحيوية بوجه عام » ...

احمد عبد المجيد (السـفير السابق والمندوب الدائم بجامعة الدول العربية) فى سلسلة « اقـرأ » . ديسمبر ١٩٧٣ .

* * *

— « انه يمثـل اكبر موسوعة روحيـة فى الشرق العـربى ، وأكبر مرجع للبحوث الروحية والعلم الروحى الحديث فيه .

انه دراسة دقيقة ، واسعة النطاق مترامية الأبعاد والآفاق ، عميقة الأغوار ، ولا يغـوص فيها الراغبون الا عادوا وملء أكفهم واكمامهم ذخائر من العلم المحص والمعرفة المحضة التى تخلد اسـمه وتعطر ذكره ...

كل ذلك فى اطار من السهل الممتنع يجتاز طريقه الى العقل لينا ناعما لا يصطدم به ولا يريبه ، ولا يفتح له منافذ فى الظلمات والمتاهات ...

وبفضل الباحثين فى علم الروح الحديث عرف هذا العلم فى الشرق العربى وامتد رواقه ولايزال يمتد ... وعندئذ يفرح المؤمنون به فينهلون منه كما يشاءون ، وما ينهلون سـوى العـلم والرقى فى مدارج المعـرفة ويستكملون به شخصياتهم ، ويرفعـون به مناراتهم ، ويضيئون بهـا مشاعلهم » ...

محمد شاهين حمزة صاحب ورئيس تحرير مجلة «الرابطة الاسلامية» اكتوبر ١٩٧٤ .

* * *

— « وليس حجم الكتـاب الضـخم هو كل شىء ، بل ان قيمـة الكتاب تتجلى حقيقة فى بحوثه وفصوله ومعلوماته المستقاة من اكبر واوثق المصادر العلمية ، مدعمة بالأدلة وصحة التحليل والتدليل والنظرة العلمية البحتة من أجل التوصل الى الحقيقة والحقيقة وحدها ...

ويؤسفنى أن هذه العجالة لا تمكننى من أن أشير الى مضامين هذه الموسوعة وابوابها وفصولها لكثرتها وغزارتها ... ويكفى أن اقول ان اعلام المتخصصين قد أغنونى عن مثل هذا العرض والتقييم بآرائهم المفصلة ، وشهاداتهم النزيهة عن كل ما جاء فى هـذه الموسوعة ، بما يزيد فى ثقـة

القــارىء وهو يقــرأ ، ويعــرف ، ويستفيد ، ويستمتع ، بكل فصــل وبكل معلومة .

وربما كنت على صواب وانا أتصور أن المكتبة العربية لم تضم كتابا أكبر حجما او أوفى بحثا فى موضوعه وجهدا فى تأليفه » .

خليـــل جرجس رئيس تحـــرير مجـلة « صـــوت الشرق » . يوليه/أغسطس ١٩٧٦ .

* * *

ـ « وقد ازداد اهتمامى بالموضـــوع منــذ قرأت كتــاب الانسان روح لا جسد الذى يقع فى آلاف من الصفحات المدعمــة بالصور الغريبــة والحقائق الملفتة لنظر الباحث . ولصاحبه أكثر من مؤلف فى علم الروح ، وأكثر من مترجم .. بل انه يمتلك أكبر مكتبة فى علوم الروح فى العـــالم العربى بالانجليزية والفرنسية والعربية ...

وهذه الحقائق أضحت موضــع دراسة علميــة منهجية فى الولايات المتحــدة وفى أوربا وفى الاتحـــاد السوفيتى . وهى تدخل فى نطــاق الباراسيكولوجيا التى بدأت تدرس فى المعاهد المتخصصة كأى علم آخر ... ونفس الشىء بالنسبة لعلوم الروح ومعاهدها ودراستها ، ودراسة الظواهر التى تحتاج الى تفسير . لقد برز ذلك الى حيز الوجود فى أروقة المعــاهد والجامعات . وأصبح الشــغل الشاغل لكثــير من العلمــاء الذين تفرغوا تفرغا كاملا لدراسة تلك الظواهر ... » .

محمد سعد العوضى بمجلة « العرب » (الدوحة . قطر) ٣ أكتوبر ١٩٧٧ .

* * *

ـ « ماذا يحدث للانسان بعد موته ؟ ما هى أهمية الجسد بالنسبة الى الروح ؟ أين يذهب الانسان منذ أن يموت الى أن يوقظه الله بالبعث ؟ هل يتعذب الانسان عند الموت ؟ هل هناك حياة بعد الموت ؟ هل يتقابل الأصدقاء وأصحاب الأرواح المتشابهة بعد موتهم ؟ ما هو عالم الموت ولمــاذا يبــدو كئيبا ومقبضا ، وهل هــو كذلك فى الحقيقة ؟ أكثر من سؤال عن هــذا وجه الى فى محاضرة ...

انصرفت وفى ذهنى أن أقرأ فى هذا الموضوع ، وعقدت النية ان أبحث الموضوع واتوسع قليلا فى قراءته ... واهدى الى بمحض الصدفة ـ او

بتعبير أدق — أهدى الى بتدبير من القدر الأعلى كتاب عن الروح ، وهو كتاب يقع فى ثلاثة آلاف صفحة ... وادهشنى أن الكتاب يجيب على اسئلة كثيرة من التى وجهت الى فى المحاضرة ورفضت الاهتمام بها وقتئذ .

وبدأت أقرأ فى الكتاب ، وانفتح أمامى عالم غريب ومثير . ورغم أن لى عقلا يميل الى التشكك الا اننى اعترف أننى واجهت كثيرا من التصورات التى لا يستبعد الذهن امكان حصولها ، وعندما أنتهى من قراءة الكتاب سوف أعرض أهم أفكاره على القراء » .

أحمد بهجت رئيس تحرير مجلة « الاذاعة والتليفزيون » فى جريدة الأهرام ١٤ مارس ١٩٧٨ .

* * *

« أعيش هذا الأسبوع مع كتاب « الانسان روح لا جسد » . والكتاب من ثلاثة أجزاء فى ثلاثة آلاف صفحة . وهذا الحجم والكم هو ما حال بينى من قبل وبين الاقدام على قراءته ترقبا لفسحة من الوقت تتيح لى أن أخلو الى هذا العمل الجاد الفريد .

ولكننى وجدت فجأة هذا المؤلف وقد اقتحم على مشاغلى واستأثر باهتمامى . ولعل مرد ذلك ما عرض لى من ظروف دعتنى الى التفكير فيما وراء عالمنا المنظور ...

الى أين ؟ سؤال الح على ، هل هناك حياة ثانية ... وكيف تكون ... ومتى تبدأ ... وهل من لقاء بالأصحاب الذين سبقونا ، وبالآخرين الذين ضقنا بالحياة بسببهم . واننى الآن غارق فى ثلاثة آلاف صفحة ، بحثا عن جواب ، وقد حشد فيها الدكتور رءوف عبيد آراء العديد من العلماء والفلاسفة الذين آمنوا بامكان الاتصال بعالم الأرواح ، كما حشد صور الأرواح التى ظهرت فى جلسات حضرها قوم جادون لا شبهة فى قدراتهم العلمية » ...

يوسف جوهر فى جريدة « الأهرام » ١٠ مارس ١٩٨٠ .

* * *

طائفة من حوالى ثمانين تعليقا لأعلام الفكر والقلم عن كتاب « الانسان روح لا جسد » منذ صدور طبعته الأولى فى سنة ١٩٦٤ حتى صدور طبعته الرابعة فى سنة ١٩٧٦ .

* * *

رقم الايداع ١٩٨١/٣٤٥٠٧

مفصّل

الإنسان روح لا جسد

طبعة رابعة في ثلاثة أجزاء ضخمة كالآتي :

الجزء الأول : الخلود حقيقة دينية (١٩٧٥) في ١٠٧٠ صفحة

الجزء الثاني : الخلود والقضايا العلمية (١٩٧٦) في ٧٧١ صفحة

الجزء الثالث : الخلود والقضايا الفلسفية (١٩٧٦) في ١١٦٤ صفحة

نقاش موضوعي هادىء لعلاقتك بالكون وبنفسك في ضوء
احدث كشوف العلم وارفع مستويات الفكر المعاصر .

❊ ❊ ❊

لا غنى عنه للاطمئنان الى قدرك ومصيرك

❊ ❊ ❊

جميع كتب المؤلف تطلب من
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني . عابدين . مصر
ص.ب : ١٣٠



صورة تجسد روح بدائرة الدكتور ايمودا Imoda من علماء تورينو بإيطاليا
وهى تبدو كما لو كانت لوحة من صنع فنان عظيم .
(انظر عدة نماذج أخرى مع الإيضاح فى صفحة ٣٢١ - ٣٢٩) .

